

أندرو إدجار وبيتر سيدجويك

موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم و المصطلحات الأساسية

مراجعة وتقديم وتعليق

محمد الجوهري

ترجمة

هنا الجوهري

الطبعة الثانية

1357/2

هذا الكتاب ترجمة للطبعة الثانية المعدلة (2008) لجهد سابق للفريق نفسه تقريباً، وتحت العنوان نفسه. ويقدم لقارئه تعريفاً شاملاً وعصرياً بنحو 340 مفهوماً، ومصطلحات هي الأهم والأكثر تداولاً في إطار النظرية الثقافية.

ولقد تناولت أهم التخصصات الاجتماعية والإنسانية (مثل: علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، ونظرية الأدب، وعلوم اللغة، ودراسات الاتصال، والتحليل النفسى، بل علم الاقتصاد أيضاً) تناولت كثيراً من الموضوعات التي تتصدى لدراسات النظرية الثقافية . ولكن ما يميز النظرية الثقافية هو تبني التوجه البحثى القائم على تعدد التخصصات. ولهذا تسعى إلى تجاوز الحدود الفاصلة بين أنواع الخطاب المذكورة، وتجاوز المادة العلمية المرتبطة بكل منها. وهى لا تقتصر مهمتها على مجرد دراسة الثقافة أو رصد عناصرها وشواهداها، وإنما تقوم كذلك بصياغة النظريات فى تفسيرها. وذلك فى ظل التزام قوى بالتوجه النقدي.

موسوعة النظرية الثقافية

المفاهيم والمصطلحات الأساسية

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيب

- العدد: 1357/2
- موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية
- أندرو إدجار، وبيتر سيدجويك
- هناء الجوهري
- محمد الجوهري
- الطبعة الثانية 2014

هذه ترجمة كتاب:

Cultural Theory: The Key Concepts 2nd edition

By: Andrew Edgar and Peter Sedgwick

Copyright © 2008 Andrew Edgar and Peter Sedgwick

"All Rights Reserved"

"Authorised translation from the English Language edition published
by Routledge, a member of the Taylor & Francis Group"

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة.

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554

أندرو إدجار وبيتر سيدجويك

موسوعة النظرية الثقافية

المفاهيم والمصطلحات الأساسية

ترجمة : هناء الجوهري

مراجعة وتقديم وتعليق : محمد الجوهري



٢٠١٤

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

إدجار : أندرو وسيدجويك : بيتر
موسوعة النظرية الثقافية : المفاهيم والمصطلحات الأساسية /
تأليف : أندرو إدجار : بيتر سيدجويك : ترجمة: هنا . الجوهري :
مراجعة وتقديم وتعليق : محمد الجوهري
ط ٢ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٤
٨٠٤ ص : ٢٤ سم .
١ - الثقافة - موسوعات .
(أ) سيدجويك ، بيتر (مؤلف مشارك)
(ب) الجوهري ، هنا . (مترجم) .
(ج) الجوهري ، محمد (مراجع ومعلق) .
٣٠١ ، ٢٠٣ (د) العنوان

رقم الإيداع : ١٥٣٢ - ٢٠٠٩ /

الترقيم الدولى 978-977-479-503-9

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

تقديم الترجمة العربية

الدرس الثقافى المعاصر سبيل لنقد الواقع القائم وكسر المألوف

تمهيد

عندما يستخدم العلماء الاجتماعيون مصطلح ثقافة، فإنهم يتحدثون عن مفهوم أقل تحديداً مما يشيع فى الحديث اليومي. ففي العلوم الاجتماعية، تعنى الثقافة كل ما هو موجود فى المجتمع الإنسانى، ويتم توارثه اجتماعياً وليس بيولوجياً، بينما يميل الاستخدام الشائع للثقافة إلى الإشارة إلى الفنون والآداب فقط. فالثقافة - إذن - مصطلح عام يدل على الجوانب الرمزية والمكتسبة فى المجتمع الإنسانى.

وتعتمد أفكار الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن الثقافة اعتماداً كبيراً على التعريف الذى قدمه إدوارد تايلور عام ١٨٧١، الذى يشير فيه إلى الكيان المركب والذى ينتقل اجتماعياً ويتكون من المعرفة، والمعتقدات، والفنون، والأخلاق، والقانون، والعادات. ويعنى هذا التعريف ضمناً أن الثقافة والحضارة شىء واحد. ولكن هذه المماثلة - وإن كانت ممكنة فى الاستخدام اللغوى الإنجليزى والفرنسى - فإنها تخالف تمييز اللغة الألمانية بين الثقافة Kultur والحضارة Zivilisation، حيث يشير مصطلح ثقافة إلى الرموز والقيم، بينما ينصب مصطلح الحضارة على تنظيم المجتمع. ونلاحظ على استخدام علماء الآثار للمصطلح، أنهم وإن كانوا يسلمون بوحدة كيان المجتمعات

الإنسانية، لكنهم يميزون بين الثقافة المادية (التي تشير إلى الأشياء المصنوعة كالمباني والسلع الاستهلاكية وما إلى ذلك)، والثقافة التكيفية (التي تشير إلى الأفكار، والمعتقدات، والقيم، والعادات... إلخ) التي تنتقل من خلال التعلم والتراث. ويقتصر اهتمام علماء الآثار على الثقافة المادية أو التراث المادي فقط، بينما تمثل الثقافة التكيفية موضوع كل من علوم التاريخ، والاجتماع، والأنثروبولوجيا، وأصبحت تسمى في دوائر اليونسكو "التراث غير المادي".

وكان علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، من أمثال تايلور، ولويس هنري مورجان، يرون أن الثقافة خلق واع من إبداع العقل الإنساني. من هنا تتسم الثقافة والحضارة - في ضوء هذا التصور - بنزعة تقدمية في اتجاه بلوغ قيم أخلاقية كان المجتمع يعدها أعلى مستوى. وقد قادت هذه الرؤية العقل الفيكتوري إلى تشييد بناء هرمي للثقافات أو الحضارات، كان بمثابة مبرر للأنشطة الاستعمارية التي مارستها الحضارات الغربية ذات المستوى العالي من التنظيم.

بعد أن بدأت تظهر أفكار حديثة عن الثقافة في البحوث الأنثروبولوجية الميدانية - مثل بحوث فرانز بواس - مع نهاية القرن التاسع عشر، وفيها أيضاً ظهر الاتجاه نحو النسبية، كان الهدف وصف ومقارنة الثقافات المتعارضة والمقابلة بينها، وليس ترتيبها في تسلسل متدرج، على الرغم من أن بواس وبعض علماء الأنثروبولوجيا المحدثين في أمريكا الشمالية قد اهتموا كذلك بالعمليات التي يتم من خلالها استعارة السمات الثقافية أو تناقلها بين المجتمعات المختلفة. وقد أفضى ذلك إلى تطور فكرة المناطق الثقافية، ونمو الإثنوجرافيا المقارنة في أمريكا الشمالية، وكان كلاهما غائباً بشكل ملحوظ في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية. وكانت الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية تذهب إلى أن الثقافة تعنى بصفة عامة وسيلة لتجميع الأفكار والرموز التي تختلف عموماً - داخل إطار هذا العلم - عن البناء الاجتماعي. ويعد هذا التمييز أساسياً كذلك في استخدام المصطلح بين علماء الاجتماع الأوروبيين والأمريكيين.

وفى أمريكا، يعتقد أحياناً أن مفهوم الثقافة يمكن أن يزودنا بطرق لتفسير وفهم السلوك الإنسانى، وأنساق المعتقد، والقيم، والإيديولوجيات، وبيعض أنماط الشخصية المميزة لثقافات بعينها. وتعد روث بندكت نموذجاً لأصحاب هذه النظرية الأخيرة (انظر على سبيل المثال: زهرة الأقحوان والسيف، ١٩٤٤).

وفى الأنثروبولوجيا الثقافية يتم تحليل الثقافة على ثلاثة مستويات: أنماط السلوك المكتسبة، والعناصر الثقافية التى تمارس وظيفتها تحت مستوى الوعى (مثل المستوى العميق لقواعد النحو والصرف، وبناء الجملة فى اللغة، التى نادراً ما يعيها المتحدث بلغته الوطنية)، وأنماط التفكير والإدراك التى تتشكل ثقافياً.

١- النظرية الثقافية

وتطورت دراسة الثقافة على أيدي علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وزملائهم فى فروع علمية أخرى، فاثمرت مجالات جديدة وفروعاً علمية ذات كيانات متميزة، يقف فى مقدمتها: النظرية الثقافية، والدراسات الثقافية...إلخ. والنظرية الثقافية مصطلح يطلق على محاولات عديدة لتصوير وفهم ديناميات الثقافة. ومن الناحية التاريخية فإن هذا يتضمن أيضاً الجدل حول العلاقة بين الثقافة والطبيعة، وبين الثقافة والمجتمع (بما فى ذلك العمليات الاجتماعية المادية)، وكذلك الفارق بين الثقافة العليا والثقافة الدنيا، والتداخل بين التراث الثقافى من ناحية والاختلاف والتنوع الثقافى من ناحية أخرى. وقد عُرِفَت النظرية الثقافية أيضاً بارتباطها بمفاهيم وتصورات غالباً ما تغطى جوانب ذات صلة بفكرة الثقافة نفسها. ومن هذه المفاهيم مفهوم الإيديولوجيا ومفهوم الوعى (خاصة الصورة الجمعية لكل منهما)(*) .

(*) انظر فى ذلك: جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، (٣ مجلدات)، ترجمة محمد الجومرى وزملاؤه، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص ص ١٤٩٤-١٤٩٧ .

وقد كانت أعمال كل من ريموند وليمز وتومسون ذات تأثير خاص فى تطور النظرية الثقافية البريطانية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. فقد تركّز جهد وليمز على النظر إلى الثقافة باعتبارها الطريقة الكلية للحياة، وركز تومسون على الثقافة باعتبارها الطريقة التى من خلالها تتعامل الجماعات مع المادة الخام للوجود المادى والاجتماعى. وأفضت تلك الجهود إلى فتح الباب أمام طرق جديدة فى التفكير فى الثقافة، وخاصة انتزاع المفهوم نفسه من الإطار الأدبى والجمالى الضيق الذى كان محصوراً فيه من قبل. وقد درس كل من وليمز وتومسون البعد الحى المعاش فى الثقافة، وكذلك العملية الجمعية والنشطة لصياغة طريقة ذات معنى فى الحياة. ولكن هذا الجانب الثقافى فى النظر إلى مفهوم "ثقافة"، الذى طوره وليمز وتومسون واجه فيما بعد تحدياً من جانب بعض التفسيرات البنيوية الأكثر وضوحاً.

وقد ركزت التفسيرات البنائية على الأبنية الرمزية الخارجية للثقافة، كما تتجسد فى اللغات والرموز الثقافية، وليس على أشكالها الحية أو المعاشة. وفى هذه الصياغة يمكن أن يُنظر إلى الثقافة كنظام دلالى Signifying System يتم من خلاله تصور العالم الاجتماعى. وقد تأثر هذا الجانب البنىوى للنظرية الثقافية تأثراً قوياً بالرؤية الماركسية الجديدة التى قدمها لوى ألتوسير.

إذ قدم ألتوسير رؤية جديدة للنظريات الماركسية عن الإيديولوجيا وسّعت كثيراً من مجالات تأثير النطاق الإيديولوجى. وقد ركز ألتوسير - بشكل خاص - على الاستقلال النسبى للمجال الإيديولوجى أو الثقافى، فى الوقت الذى ظل فيه متمسكاً بمبدأ التأثير المطلق للعمليات والعلاقات الاقتصادية.

ثم زاد الاهتمام بالكشف عن فاعلية الممارسات الثقافية - كما وردت فى كتابات ألتوسير - داخل إطار النظرية الثقافية من خلال تبنى أفكار أنطونيو جرامشى. فقد فتحت أعمال جرامشى سبلاً جديدة لفهم صياغة دور الثقافة والممارسات الثقافية. فى مختلف أشكال التكوينات الطبقية والتحالفات الطبقية، كما أعطى جرامشى وزناً خاصاً لدور الثقافة فى تحقيق وتأمين بعض أشكال السلطة والقيادة فى المجالات

السياسية والأخلاقية. وقد كان تأثير أفكار جرامشى مهماً بصفة خاصة فى مساعدة النظرية الثقافية على تجاوز الطريق المسدود الذى خلقه التوتر بين المنظور الثقافى والمنظور البنوي كمنظورين متنافسين للثقافة خلال حقبة السبعينيات.

ومع تدنى أهمية جرامشى داخل إطار النظرية الثقافية ازدادت أهمية ميشيل فوكو. وتمثل التأثير الرئيسى لميشيل فوكو فى صياغة فهم منطقى للغات الثقافية، ولعلاقات التداخل بين القوة والتصورات الفكرية. كما كان تأثير فوكو واضحاً كذلك فيما يتعلق بالجدل حول الخصوصية التاريخية للثقافة وما يطرأ عليها من تطورات باعتبارها موضوعاً للحكم ووسيلة فى نفس الوقت.

كما برز موضوع التفاعل والتأثير المتبادل بين السلالة، والإثنية، والثقافة باعتباره موضوعاً محورياً من موضوعات النظرية الثقافية المعاصرة. وقد ركز هذا الاتجاه أيضاً على تحدى الطابع القومى المبدئى للتصورات الثقافية التى تربط بين الثقافة وبين حدود قومية أو وطنية معينة. وبدلاً من ذلك نجد دارساً مثل جيلروى يؤكد حركة الثقافات العابرة للقوميات والرامية إلى اختلاط الثقافات وامتزاجها. وبهذا المعنى تتطابق رؤية جيلروى فى كثير من جوانبها مع ما طرحه إدوارد سعيد عن "الاستشراق"، الذى لا يقتصر فيه على طرح الديناميات الداخلية، وإنما يولى اهتمامه - إلى جانب ذلك - للمحددات الخارجية للثقافات. ويصف إدوارد سعيد فى كتابه الاستشراق (١٩٧٨) التصورات الغربية لكل من الثقافة والحضارة كما لو أنها صيغت ضد ما هو شرقى، ولإخضاع ذلك الشرقى رمزياً ووضع فى الموضع الأدنى.

كذلك تركت مناقشات أصحاب الحركة النسوية تأثيراً مهماً على النظرية الثقافية المعاصرة. ويبدو هنا التداخل واضحاً بين الحركة النسوية واتجاه التحليل النفسى. الأمر الذى أثار كثيراً من المناقشات حول الطرق التى تصاغ بها الهويات النوعية (لكل من الذكور والإناث) فى إطار الخطاب الثقافى ومن خلال الممارسات الثقافية. وهناك بعض الأعمال الحديثة التى جاءت ثرية بالعديد من الأفكار والآراء عن موضوعات الذاكرة، والخيال، والأداء النوعى للرجال والإناث...إلخ.

٢- النظرية الثقافية ليست هى الدراسات الثقافية

ومن الأمور التى يتعين أن نراعيها هنا عدم الخلط بين النظرية الثقافية والدراسات الثقافية، فالأولى فرع علمى بلغ مستوى رفيعاً من التميز والاكتمال، بينما الآخر ميدان جديد سريع النمو من ميادين البحث الأكاديمى، يدرس فى بعض الأحيان تخصص مستقر فى بعض الجامعات والمعاهد العليا. وهو يقع على تخوم عدد من العلوم الاجتماعية (خاصة علم الاجتماع) والإنسانية (خاصة الأدب وعلومه بشكل ظاهر). ويهتم ميدان الدراسات الثقافية أساساً بدراسة طبيعة الثقافة الجماهيرية ومنتجات الصناعات الثقافية. من هنا يندرج تحت هذا الميدان عدد من المجالات والموضوعات، نذكر منها على سبيل المثال: الثقافة الجماهيرية، ودراسة الاتصال، والمجتمع الاستهلاكي، ووسائل الاتصال الجماهيرى، ووقت الفراغ، وما بعد الحداثة، وبعض جوانب نظرية الأدب ونظرية علم الاجتماع التى تتصل بتكوين الهوية وبالإيديولوجيا. ومن المفكرين الذين يمكن أن تعد كتاباتهم الأكثر تمثيلاً وأهمية لهذا الاتجاه (وإن كانوا هم أنفسهم قد يرفضون إطلاق هذا الاسم على بحوثهم وكتاباتهم) نذكر: يورجن هابرماس، وستيوارت هال، وبير بورديو، وجان بودريار، وجان فرانسوا ليوتار.

وإذا نظرنا إلى الدراسات الثقافية كميدان بحثى فيؤكد مارشال فى "موسوعة علم الاجتماع" (ص ص ٦٨٠-٦٨٢) أن البعض قد يجد أنها تفتقر إلى نواة وبؤرة تتسم بالتميز والتماسك، والتى تبرر جعلها علماً مستقلاً. فقد استعار هذا الميدان على مر الأعوام كثيراً من موضوعات اهتمامه والعديد من توجهاته النظرية - بحرية ويكثره - من علوم وميادين بحثية أخرى. وقد ذهب بعض النقاد مؤخراً إلى القول بأن ميدان الدراسات الثقافية بات يمارس تأثيراً ضاراً على التدريس والبحث فى كل من علم الاجتماع، وعلم السياسة، والتاريخ الاجتماعى، حيث إنه أخذ يشجع المشتغلين بهذه العلوم على تجاهل إجراء بحوث إمبريقية منظمة، وفضلوا على ذلك نوعاً من الكتابة الاجتماعية الخالية من البيانات إلى حد كبير (على الأقل فى بعض الحالات المتطرفة)

حيث تفتقر الحجج والأراء إلى الدعم المستمد من بيانات إمبريقية، وتنهض بالأساس على التأمل النظرى، وإذا لجأت بشكل متقطع إلى عرض بيانات، فإنها تكون مستمدة من الملاحظات الإمبريقية العارضة. وبذلك تقلل تلك الدراسات من أهمية ملاحظة البناء الاجتماعى فى الحياة اليومية.

فى مقابل ذلك يذهب المدافعون عن الدراسات الثقافية إلى أنها قد زودت علم الاجتماع بدفقة حياة جديدة، أولاً من خلال أنها كشفت مدى شغف علم الاجتماع - قبل ذلك - بالمفاهيم الميتة (المحتضرة) المتصلة بعالم الإنتاج، والمشتقة من التراث السوسيولوجى للقرن التاسع عشر. كما أحيته من خلال توجيه الباحثين إلى الانشغال بالاهتمامات الحقيقية للناس العاديين فى المجتمعات المتقدمة فى أواخر القرن العشرين.

٣- هذه الموسوعة دعم وتأسيس للنظرية الثقافية

يسعى هذا الكتاب - كما أكد المحرران فى مقدمة الطبعة الأولى - إلى أن يقدم عرضاً للنظرية الثقافية يكون شاملاً فى اتجاهه بقدر الإمكان، لا ينحاز لتوجه على حساب آخر، وأن يتناول الأفكار التى لها صلة واضحة بدراسة الثقافة، من خلال رؤية عامة، ومن وجهة نظر متعددة التخصصات. فنجد محررى هذه الموسوعة لم يقتصروا على الأفكار والمفاهيم الرئيسية التى اشتهرت فى مجال النظرية الثقافية وحدها. بل سعيًا - بجانب ذلك - إلى توسيع المجال الذى تغطيه الموسوعة ليشمل الأدوات المفاهيمية والثقافية التى توفر لهذه الأفكار أسساً راسخة ودقة فكرية.

وتتخذ النظرية الثقافية من دراسة كافة جوانب الثقافة مجالاً للبحث والدراسة، إن لم يكن فى واقع الأمر، فمن حيث المبدأ على أقل تقدير. ومن هنا يجرى وصف مجال البحث المذكور بأشد الطرق جلاءً وغموضاً فى نفس الوقت. ولأن "الثقافة" ملازمة للخبرة الإنسانية، كان من العسير تعريف هذا المصطلح تعريفاً أحادى المعنى. ولا يزال

علماء النظريات الثقافية يرون، بوجه عام، أن كلمة "الثقافة" ذات معنى حمال أوجه، أي أنها متعددة المعاني، وهى النظرة التى انطلقت، فى السنوات الأخيرة، مراراً وتكراراً من بعض الأسس أو المبادئ الرئيسية المرتبطة بما بعد الحداثة. ومن ثم أصبح التعدد فى المعانى يعد - فى الغالب - السمة المميزة للنظرية الثقافية.

ويذهب أصحاب النظرية الثقافية إلى أن الأفكار والتصورات الثقافية هى فى واقع الأمر تصورات اجتماعية من الممكن الأخذ والرد فيها، وذلك بعد شيوع المعرفة بتعددية الأشكال الاجتماعية. وفى هذا السياق، تصبح "الثقافة" مجالاً وموضوعاً للمناقشات التى تدور حول كل من المسائل التى تركز على القضايا المتصلة بمكونات الذاتية، والمسائل المتصلة بموضوعات القوة، والتصور، والخطاب، وليس التعبير عن موضوع سبق الحكم فيه من قبل، باستعمال معنى راسخ ومستقر.

ولهذا السبب، يصبح السؤال الذى تطرحه "النظرية" ذا أهمية مساوية لأهمية النظرية نفسها، ذلك لأن صياغة نظرية ما هى مسألة تتصل اتصالاً وثيقاً بالمكونات التى تعد موضوعاً لهذه النظرية. ومع أن هذا الأمر قد يبدو واضحاً، فإنه جدير بالذكر أن النظرية الثقافية لا يقتصر عملها على مجرد دراسة الثقافة أو وضع قائمة بعناصرها وشواهداها، بل هى - إلى جانب ذلك - "تتظّرها"، أى: تصوغ النظريات فى تفسيرها. فإى نظرية تعد مخططاً عاماً للشرح والتفسير بمقتضاه يكتسب عدد من الظواهر المختلفة معنى ودلالة. لذلك يتضمن التطبيق العملى للنظرية الثقافية إيضاح وتفسير الأشكال الثقافية وفقاً لمعايير يزودنا بها هذا المخطط الثقافى أو ذاك.

وقد تناولت طائفة عريضة من التخصصات الاجتماعية والإنسانية كثيراً من الموضوعات التى تنصدى لدراساتها النظرية الثقافية، مثل علم الاجتماع (خاصة علم الاجتماع الثقافى وعلم الاجتماع المعرفى، وسوسيولوجيا الحياة اليومية، وعلم اجتماع العلم...إلخ)، والأنثروبولوجيا (خاصة الأنثروبولوجيا الثقافية)، ونظرية الأدب، وعلوم اللغة، والتحليل النفسى، بل وعلم الاقتصاد أيضاً. لذلك تعد هذه العلوم جميعاً وثيقة الصلة بموضوع النظرية الثقافية. وتستطيع هذه العلوم، كما تستطيع الفلسفة، أن

تقدم نماذج متميزة للشرح والتفسير فيما يتصل بالمسائل التي يشغل المنظرون الثقافيون بدراستها. ولهذا فليس من الغرابة، كذلك، أن تكون للنظرية الثقافية صلات مع هذه العلوم السابق ذكرها، ليس فقط فيما يتعلق بالاهتمامات الرئيسية للنظرية الثقافية، ولكن فيما يتصل - أيضاً - بمناهج البحث فيها.

وبالرجوع إلى النقطة التي بدأ منها حديثنا في هذه المقدمة، نتبين أن ما يميز النظرية الثقافية عن مثل تلك العلوم، إنما يتمثل في تبني النظرية الثقافية التوجه البحثي القائم على تعدد التخصصات Multidisciplinary Approach، ويسعى هذا الاتجاه البحثي إلى تجاوز الحدود الفاصلة بين أنواع الخطاب المذكورة، والتي تكونت بصورة تقليدية، وإلى تجاوز المادة العلمية المرتبطة بكل منها. ومن ثم، فإن نطاق الاهتمامات التي يشغل بها المنظرون الثقافيون يتلاءم مع وجهة النظر التي تتساعل عن مدى القبول بأمثال هذه الحدود الفاصلة. وكمثال على ذلك: نجد أنه في بعض صور الماركسية، والتي كانت تهدف إلى بحث بناء المجتمع من خلال تحليل العلاقات الجدلية بين عناصره الاقتصادية والإيديولوجية، كان يُنظر إلى "الثقافة" بوصفها موضوعاً هامشياً، أو باعتبارها أمراً يمكن رده إلى الأسبقية التي تحظى بها العلاقات الاقتصادية. من هنا تتمسك النظرية الثقافية بوجهة النظر التي ترى أن مفهوم كلمة "الثقافة" يتعرض للخطر عندما ينفرد بتحديد أي من هذه العلوم المتخصصة في دراسة المجتمع الإنساني.

كذلك نجد في ميدان النقد الأدبي، أن النظرية الثقافية والنظرية النقدية تعملان على قلب التعريفات المتفق عليها "للأدب" رأساً على عقب، وبذلك تقومان بإعادة تعريف قراءة النصوص الأدبية في ضوء العوامل الاجتماعية والتاريخية (وهو اتجاه مرتبط بالنزعة التاريخية) أو من خلال تأييدهما لبعض التصورات والمفاهيم المتعلقة باللغة والمعنى (وكمثال على هذه النقطة تأييد وجهة النظر المتعلقة باللغة والمستمدة من كتابات ديريدا (Derrida)).

ويترتب على ذلك أن يصبح البحث في النظرية الثقافية متمسكاً بدرجة عالية من

التوجه النقدي، بمعنى أنها تعي وعياً دقيقاً الدور الذي يمكن أن يؤديه منهج البحث أو التخصص العلمي الأكاديمي في تكوين مادتها العلمية. وعلى ذلك فإن نفس عملية الانتقاء الموجودة في العلوم النقدية، والتي تفضي إلى صياغة المبدأ الأساسي للأعمال الأدبية والفكرية الكبيرة، تصبح في ذاتها موضوعاً مشروعاً - بل ورئيسياً - للبحث والدراسة. كذلك لا يتصور أحد أن الأعمال الفنية الكبيرة يمكن أن تبقى متروكة هكذا تنتظر الاعتراف بها وتحليلها. بل الأحرى أن تحظى بالقبول بصورة ظاهرة وبالإعتراف بعظمتها، كما أن القيم المنسوبة إلى هذه الأعمال، أو التي يعتقد بإمكان إظهارها والإفصاح عنها في ثنايا تحليلها والاحتفاء بها، تعد مشحونة بالمعاني والدلالات التي تضيف الشرعية على أبنية القوة في المجتمع بأسره. لذلك إذا أردنا استكمال هذا الاهتمام النقدي الذي تحظى به الأعمال الفنية "الراقية"، فإنه يمكننا بذل الاهتمام الأكاديمي الجاد بمجالات البحث الأخرى التي تفتقد الوجهة والمشروعية في ظاهرها، كالكتب الهزلية، أو الموسيقى الشعبية أو غير ذلك من الأنواع (الأدبية أو الفنية) الشعبية التي تحظى بدرجة عالية من الرواج.

وبناءً على ما تقدم، فإن الاشتغال بالعمل في مجال النظرية الثقافية، لا يمكن أن يبدأ من التسليم بسيادة منهج بحث محدد أو موضوع معرفياً تعريفاً بسيطاً محدوداً، وهو التسليم الذي على أساسه يمكن للمرء أن يشرع في الاشتغال بالتحليل وفقاً لمجموعة معينة من القواعد. وحيث إن الثقافة موجودة في عالم الخبرة اليومية، فإنه يتعين أن تكون موضوعاتها ومناهجها قادرة على الكشف عن التنوع والتباين الكامن في هذه الخبرة، ومن ثم تكون قادرة على تأكيد حاجتها إلى التناول النقدي. ومع ذلك، فرغم أن مثل هذا النقد عمل طيب محمود، فقد يساعد على أن يجعل تحديد موضع النظرية الثقافية بين الأدب، والفلسفة وعلم الاجتماع - مثلاً - عملاً مزعجاً. والواقع أن عدداً من خصائص النظرية الثقافية تفضي بالمرء إلى الشك فيما إذا كانت هذه النظرية قد تقوم، ولو من غير قصد، بتعيين حدودها العلمية الخاصة بها، وذلك عن طريق تعريفها لنفسها بمفهوم المخالفة (أي أنها ليست كذا وكيت). وهي إن فعلت ذلك

إنما ستنتهى إلى تقديم فهم سطحي للعلوم الأخرى، وبالتالي تقديم فهم سطحي لمنهجها النقدي الخاص بها. وتقودنا هذه الفكرة إلى التساؤل عما يميز النظرية الثقافية عن غيرها تمييزاً دقيقاً. لهذا فقد نتساءل عما إذا كان مجرد تأكيد صفة التعددية لدى النظرية الثقافية يعد مبرراً كافياً لتأكيد تمييزها هذا. وبصورة أدق، قد نتساءل عما إذا كان الفهم الصحيح للنظرية الثقافية يمكن أن يتحقق في ضوء المكونات الأساسية للأنثروبولوجيا الثقافية وعلم اجتماع الثقافة من جهة، والنقد الفني والنقد الأدبي، وعلم الموسيقى والفلسفة من جهة أخرى. ولعل هذه النقطة تتضح من خلال عدد من الملاحظات.

وأولى هذه الملاحظات، أن ثمة شيئاً من الخطورة في القول بأن النظرية الثقافية إذا رفضت الأخذ بالحدود الأكاديمية التقليدية الفاصلة بين العلوم، فإنها بذلك تتبنى نوعاً من الراديكالية المنهجية والسياسية في الآن معاً. ورغم ذلك، فإن هذا الموقف النقدي من الحدود بين العلوم لا ينبئ في ذاته بحدوث قطيعة منهجية راديكالية بين النظرية الثقافية وأشكال الفكر التقليدية. يشهد لهذا المعنى ما حدث لمعالجة موضوع الذاتية داخل الجزء الأكبر من بحوث النظرية الثقافية المعاصرة.

وفي نفس السياق يؤكد إيجار وسيدجويك محررا هذه الموسوعة أن القول بأن النظرية الثقافية تناوى الانضواء تحت لواء فرع علمي بعينه لافتقادها لنموذج نظري جامع ومهيمن، إنما هو زعم تعوزه الدقة ويجانبه الصواب. فعن طريق المقارنة بين النظرية الثقافية والعلم يجدر بنا - هنا - أن نتذكر أن توماس كون T. Kuhn، في أثناء محاولته المبدعة إيضاح مفهوم النموذج العلمي النظري، ذهب إلى أن علم الاجتماع ليس علماً. وعزا ذلك الوصف إلى أن علم الاجتماع ليس لديه - تحديداً - نموذج نظري واحد مسيطر. وبينما يمكن للمرء أن يختلف مع كون في تعريفه لما هو "علم"، فإن تصويره للسلمات التي تميز علم الاجتماع وفقاً لمجموعة مركبة من كل من الاتجاهات والمداخل التي تتوافق مع مادة بحثه وتلك التي تتعارض مع مادة بحثه، لهُو أمر لا يمكن منازعته فيه. ففي نطاق علم الاجتماع نجد الاتجاهات أو المداخل

المستمدة من النزعة الوضعية، والمعنية بالبيانات القابلة للقياس كمياً، معتمدة ومعمولاً بها جنباً إلى جنب الاتجاهات الأخرى المستمدة من ميادين: التأويل، والفلسفة الظاهرية "أو الفينومينولوجيا"، وتحليل المحادثة، والماركسية، والحركة النسوية وما إلى ذلك من مداخل واتجاهات. ولأن مثل هذه الكثرة في المداخل والاتجاهات تجعلها في حالة تزاحم وتدافع، فإنه يتعين على علماء الاجتماع أيضاً أن يقبوا الموقف النقدي في التحليل السوسيولوجي بكل قوة وأن يدركوا بوضوح وضع علم الاجتماع باعتباره في حد ذاته ممارسة اجتماعية مميزة ذات صلات متشابكة مع المجال السياسي. كذلك فإنه يُسَى إلى الفلسفة - كفرع من فروع المعرفة والبحث - أن تعتقد أنها تقوم بعملها وفقاً لنموذج نظري واحد وجامع. لهذا فقد نرى أن النظرية الثقافية لا تستطيع أن تدعى احتكارها للموقف النقدي، وذلك على حساب التقليل من أهمية الطبيعة المركبة والدينامية التي تتصف بها العلوم الموجودة. وهي إن فعلت، فإنها تجازف كل المجازفة بمصادقية الإسهامات التي تستعيرها - من تلك العلوم - في إطار أساليبها المتعدد التخصصات، والتي تجد نفسها مضطرة إلى الاعتماد عليها.

وثمة نقطة إضافية يمكن ذكرها على سبيل الإجمال هنا في معرض الدفاع عن هذه الشكوك. فحتى إذا كان المنظرون الثقافيون قد دأبوا على الاشتغال بنقد النزعة الوضعية، ونقد نموذج التحقيق العلمي المستمد منها، وذلك لقصورهما عن الوصول بنا إلى فهم القضايا والمسائل المهمة، فلا يترتب على هذا بالضرورة أن يعد النقد الشامل لمفهوم تقسيم العمل داخل الفلسفة الوضعية العلمية أمراً تتفرد به النظرية الثقافية وحدها. ذلك أن الماركسيين - وبخاصة الماركسيين الهيجليين من مدرسة فرانكفورت - سبق لهم أن قدموا، مستلهمين عدداً كبيراً من المصادر والأصول المؤثرة (ابتداءً بماركس، والفلسفة المثالية الألمانية، والتحليل النفسي) سبق أن قدموا أعمالاً نقدية شاملة ودقيقة من الناحية السياسية، انتقدوا فيها فكرة التخصص العلمي، وذلك منذ ثلاثينيات القرن العشرين. والحقيقة أن ما قدمه ماكس هوركهايمر Max Horkheimer في هذه الفترة من صياغة للنظرية النقدية - في مواجهة "النظرية التقليدية" - قد

أرسى كثيراً من الأسس التي تعد في أيامنا هذه من المقومات الراسخة للنظرية الثقافية المعاصرة. فالانتباه للمخاطر الناجمة عن الإخفاق في الاشتغال المدقق بكل تلك التطورات، لا يعد جهداً ضائعاً كذلك المبذول في إعادة اختراع العجلة. لأننا إن تجاهلنا تلك المنجزات لأصبح معنى ذلك الإقرار بأن المبرر الوحيد للنظرية الثقافية بوصفها تبريراً فلسفياً محكماً لموقف هذا المفكر أو ذاك، قد انحدر - في الواقع - إلى مجرد تعبير غير دقيق عن التذمر من الطريقة التي تدار بها الأمور في العلوم التقليدية. وبدون هذا الإقرار فإننا نجازف بتحويل الدفاع عن التعددية العلمية إلى عمل شكلي، لا يقدم شيئاً جديداً ولا يؤدي جهداً أصيلاً ولا يدفع العلم إلى الأمام.

وليس المراد من هذه الملحوظة بآى حال رفض الإنجازات التي حققتها النظرية الثقافية حتى الآن. بل إن الهدف - على العكس من ذلك - هو محاولة إثبات أهمية تحديد موقع النظرية الثقافية على نحو أكثر عمقاً ورسوخاً داخل سياقها التاريخي والفكري الخاص بها. وإذا قمنا بذلك، فلعله يصبح بإمكاننا المساعدة في ظهور شكل كامل من التناول النقدي للثقافة، ومن المعارضة للاتجاهات التقليدية (المستقرة) والوضعية للدراسة الأكاديمية. ولعل عملنا هذا يكون بمثابة إعادة طرح للسؤال الذي يبحث - على وجه الدقة - عن نوع الفرع العلمي الذي تمثله النظرية الثقافية، وبمناخة الإشارة إلى أن النظرية الثقافية قد تؤثر للدينامية الراهنة التي يتصف بها عدد من العلوم المختلفة (كعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والفلسفة، وعلم الموسيقى، والنقد الأدبي) وليست فرعاً معرفياً "مضاداً" قائماً برأسه. وفي هذه الحالة، قد يكون أقرب إلى الصحة إذا فهمت النظرية الثقافية باعتبارها كاشفة لتراكم الشكوك والانتقادات التي طرحت - على امتداد القرن العشرين - رداً على الاتجاهات التقليدية المستقرة للدراسة الأكاديمية. وقد بلغت هذه الشكوك أوجها في الانتقادات التي طرحها مشروع الحداثة وطرحها مشروع التنوير، كما أن هذه الشكوك تلُزمن بالاعتراف بأن أمثال تلك التغيرات الفكرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بغيرها من العمليات الاجتماعية، والاقتصادية،

والسياسية، والتي منها التحول إلى التعليم العام وتنامى الإحساس بالتعددية السياسية والميل إليها بشدة منذ الحرب العالمية الثانية.

٤- ملاحظات على الطبعة الأولى لهذه الموسوعة

وهذا الكتاب الذى أتشرف بتقديمه إلى القارئ العربى الكريم يمثل الطبعة الثانية المعدلة لجهد سابق لنفس الفريق تقريباً وتحت نفس العنوان تقريباً على نحو ما سنرى تفصيلاً فيما بعد.

ويقدم هذا المجلد لقارنه تعريفاً شاملاً وعصرياً بنحو ٣٤٠ مفهوماً ومصطلحاً هى الأهم والأكثر تداولاً فى إطار النظرية الثقافية المعاصرة. وقد صدرت هذه الطبعة العام (٢٠٠٨) عن دار روتليدج، بجهد ثلاثة عشر مؤلفاً، بمن فيهم محرراها أندرو إدجار وبيتر سيدجويك.

وكانت الطبعة الأولى تحتوى على شروح لعدد حوالى ٢٥٠ مفهوماً، كتبت بأقلام خمسة عشر مؤلفاً، بمن فيهم المحررون أنفسهم. وكانت تزيد قليلاً فى عدد الصفحات عن الطبعة الثانية. وقد استبعد منها فى الطبعة الثانية عدد ٣٩ مدخلاً رأيت أن أعرف القارئ بها على عجل. القسم الأكبر من المداخل المستبعدة فى الطبعة الثانية ينتمى إلى ميدان الفن. فمن تلك المفاهيم: التعبيرية، والتعبيرية المجردة، والأدنى (وهى حركات فنية بدأت فى خمسينيات القرن الماضى فى الفنون البصرية، وفى الستينيات فى الموسيقى). وهى ذات توجهات متباينة ومتنوعة، والدادية (وهى حركة فنية حديثة ظهرت فى زيورخ ونيويورك فى نفس الوقت تقريباً عام ١٩١٦، كرد فعل فوضوى على أحداث الحرب العالمية الأولى)، ومسرح العيب، والسريالية، والفنون الذهنية، والفن الجماهيرى، وأسلوب التتابع (فى الموسيقى). وللعجب استبعدت الطبعة الثانية مادة "الجمال" أيضاً.

ثم هناك بعض المداخل ذات الطبيعة الفلسفية: كالاستقراء، والرشد، وفلسفة العلوم، وفلسفة اللغة، والمماثلة العضوية، والمنهج الاستنباطى الفرضى، والنزعة الداخلية والخارجية فى المعرفة، والتجربة، والنموذج الأول (أو المثال الأسمى)... إلخ.

واستبعدت من هذه الطبعة أيضاً بعض المفاهيم النفسية: كالاتجاه، والتحويل، والإيديولوجيا السلوكية، والدافع (أو الشهوة)، والشخصية التسلطية، والعرض، والتكرار (عند لاكان)، وكذلك بعض المفاهيم اللغوية: كالتسمية والضرورة، وشفرات المعنى العامة والخاصة... إلخ. وهناك أخيراً بعض المفاهيم الثقافية العامة التي تم استبعادها من الطبعة الثانية (وهي بطبيعتها تتقاطع مع أكثر من ميدان معرفي)، كالباروك، وثقافة البانك Punk، والتايلورية، والدعاية (البروباجندا)، والفوردية، وما بعد الفوردية، والاستخدامات والإشباع (في ميدان الميديا).

والأسباب وراء استبعاد هذه المادة أو تلك عديدة وقريبة إلى الفهم: فبعضها خرج عن "الموضة" الفكرية (كالبانك، أو الباوهاوس مثلاً)، وبعضها يمكن تصور انضوائه - بدرجة أكبر - تحت مظلة فروع معرفية أخرى متخصصة، كالمصطلحات النفسية أو الفلسفية (كالتجربة، أو الاستقراء، أو الاتجاه، أو الرشد... إلخ)، وبعضها لم يعد يستأهل التوقف عنده كثيراً (كالتايلورية، أو الفوردية، أو الماثلة العضوية... إلخ) لأنها أصبحت من التراث المستقر للثقافة الإنسانية المعاصرة، ولم تعد جزءاً من الزاد اليومي للمشتغلين بالثقافة.

ويمكنني أن أفهم استبعاد بعض مواد علوم اللغة (كشفرات المعنى) وبعض مفاهيم ومصطلحات علوم الاتصال لأن تلك التخصصات العلمية قد نمت واتسعت وبلغت حدّاً فائقاً من التطور والانتشار، إلى الحد الذي يسمح باستبعادها من هذا العمل وإحلال مفاهيم أحدث ظهوراً وأكثر إثارة للجدل، وبالتالي أكثر حاجة إلى التعريف بها ومناقشتها. ولكن الأمر الذي يصعب على فهمه هو كم المفاهيم والمصطلحات الفنية والجمالية التي تم استبعادها من هذه الطبعة، ولم تحل محلها أخرى جديدة من نفس المجال. وأنا أؤكد - خصوصاً - حاجة المثقف العربي إلى التعرف على مذاهب كالتعبيرية، والادوية، والدادية، ومسرح العبث، والسريالية، والفن الجماهيري... إلخ.

وأراني لا أجافى الحقيقة إذا ادعيت أن جميع المواد التي ظهرت في الطبعة الأولى من هذه الموسوعة واستبعدت في هذه الطبعة الثانية - التي نقدم ترجمتها هنا

- جديرة بالنشر على جمهور قراء العربية، وهو أمر ألزم نفسى بالاضطلاع به فى القريب بإذن الله فى مجلد مستقل.

٥- المواد الجديدة على هذه الطبعة

أما المواد التى استحدثت فى هذه الطبعة فبلغ عددها ٢٦ مدخلاً يمكن فهم مبررات إضافتها فى ضوء رغبة مؤلفى ومحررى هذه الموسوعة فى ملاحقة التطورات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية على الصعيد العالمى. ويلاحظ القارئ أن غالبية تلك المداخل المستحدثة هى من ثمار العولة، أو اكتست أهميتها بسبب مستجدات العولة، أو لأنها قد تكون - كذلك - مصادر تهديد للعولة وعملياتها التى تسعى إلى تشكيل الحياة المعاصرة فكراً واقتصاداً وسياسة... إلخ. وقليل منها ثمرة تطورات علمية حديثة ذات آثار مدوية.

ونستطيع أن نفهم ذلك بجلاء إذا أوردنا جانباً من قائمة المواد المستحدثة فى هذه الطبعة: فنجد من بينها: الإرهاب، والأصولية، والحادى عشر من سبتمبر، والاستعمار، والمحركة، والمحافظين الجدد، والاستشراق، والمخاطرة. وسيزداد هذا المنطق اتضاحاً للقارئ عندما يطالع بالطبع تلك المواد بالتفصيل، فهذه جميعاً - تقريباً - مما استجد عقب صدور الطبعة الأولى (١٩٩٩)، أو اكتسى أهمية خاصة بفعل متغيرات تلك السنوات (كالاستعمار، والاستشراق، والمخاطرة مثلاً).

وبعض تلك المواد هى مما أصبح محل اعتراف الجميع وإدراكهم أنه من الأعمدة التى تنهض عليها الحياة العصرية المتعولة، وفى مقدمتها: التعليم، والحفاظ على البيئة (مادة: الإيكولوجيا)، والثقافة الإلكترونية، والرياضة (خاصة الجانب الاقتصادى العولى فيها).

والفئة الأخرى لا تختلف عن السابقة كثيراً فى كونها من متطلبات الحياة العصرية، وتمثل حاجساً للكثيرين، سواء من حيث إساءة استخدامها، أو المغالاة فى

ذلك الاستخدام، أو - على العكس - إهمالها وتجاهلها، وما يترتب على ذلك من مخاطر. ومن تلك النوعية مواد: الدراسات البصرية، والإحصاء، وعلم الآثار، ووقت الفراغ...إلخ. ومنها خصوصاً: الصحة، سواء كشأن فردي أو مجتمعي أو عالمي، أو في تحقيقها عن طريق "علم الوراثة"، أو "علم تحسين النسل"، أو "الرياضة"، وجميعها من المواد المستحدثة في هذه الطبعة. والمواد المتصلة بفروع التكنولوجيا الحيوية تستمد أهميتها - كما يؤكد المحرران في مقدمتها - من التقدم المذهل الذي أحرزه هذا الفرع العلمي مؤخراً، واتساع تطبيقاته في مختلف مجالات حياتنا المعاصرة. ويجد القارئ في مقدمة المحررين دفاعاً أقوى وأفصح عن مبررات إضافة مواد جديدة إلى هذه الطبعة.

٦ - منطق المراجعة والتجديد

عرضنا فيما سبق بإيجاز لنماذج من المواد التي استبعدت من الطبعة الأولى، والمواد التي استحدثت في هذه الطبعة ليس بهدف الحصر أو التعداد، وإنما لكي نضع أيدينا على حقيقة من حقائق العلم الاجتماعي المعاصر، وهي ضرورة المراجعة الدائمة لنسق المفاهيم، والتطوير المستمر لأطر البحث والتفكير في أمور واقعنا الاجتماعي والثقافي. لا يوجد نسق فكري ثابت أو جامد لا يتغير، وإلا تحول إلى "عقيدة" أو "دوجما" وفقد صفة العلم. والمؤسف أن الواقع الثقافي في عالمنا العربي المعاصر يعرف تيارات سلفية - في العلم كما في الدين - تتشبث بالقديم، وتردد أحكام القدماء دون وعي بمتغيرات العصر.

وأنا أؤكد للقارئ الكريم - ولنفسى أيضاً - أن منطق المراجعة والتطوير هو سيد هذا العمل الذي بين أيدينا والمتحكم في اختياراته. ولا ينفي ذلك أن يتسم هذا التطوير أو تلك المراجعة بتحيزات أو أخطاء، ولكن المثابرة في هذا الاتجاه كفيلة بالتصحيح الدائم وضمان الاقتراب من الفهم السليم لما يجري على الساحة الثقافية. وأسوق المثال التالي:

شهدت ثمانينات القرن العشرين صعود تيار الليبرالية الجديدة الذى يؤكد مجدداً - وبقوة كبيرة - مبادئ الليبرالية الكلاسيكية. وأبرز الليبراليين الجدد شهرة هم أنصار مذهب الحرية والتمشيعين المتحمسين لحقوق الفرد فى مواجهة حقوق الدولة القاهرة. نذكر منهم على سبيل المثال: ميلتون فريدمان وفريدريك هايك، وروبرت نوزيك.

وتحولت الليبرالية الجديدة من حركة فكرية إلى رؤية اجتماعية عامة لها توجهاتها الاجتماعية السياسية والثقافية، وفى المقام الأول منها جميعاً: التوجهات الاقتصادية^(*). وتجلت أقوى نماذجها فى التاشيرية والريجانية.

ورافق صعود الليبرالية الجديدة تراجع دور الاتحاد السوفيتى، ثم تفككه، وأخيراً انتهاءه رسمياً. وهو أمر ترتبت عليه جملة من العواقب أبرزها: تراجع مكانة الفكر الاشتراكى، وتهميش أى رأى ينادى بدور رقابى للدولة، أو أصوات تدعو إلى حماية الفئات الاجتماعية الضعيفة ورعايتها. ومن ذلك أيضاً تحول نظام السوق الحر - ليس فى البلاد الرأسمالية التقليدية فقط - وإنما فى العالم كله إلى إيديولوجية وإلى عقيدة جديدة (هل أقول أصبحت لدى البعض بمثابة الدين الجديد!!). وهكذا بات كل من يشير - ولو من بعيد - إلى تدخل الدولة هنا أو هناك - بما فى ذلك عندنا هنا فى مصر - بات يعد متخلفاً وسائراً ضد التاريخ، بل يعد كلامه أقرب إلى الهذيان.

ويعلمنا التاريخ وكذلك خبرات الشعوب والمجتمعات أن السلطة المطلقة - حتى لمذهب فكرى - مفسدة مطلقة، فالسيطرة المطلقة للسوق هى التى قادت إلى النمو غير المحدود وغير السليم (كما اتضح للجميع أخيراً) للرأسمالية المالية التى شهدت حالة من التوحش فى معقلها أمريكا أولاً، ثم فى كبريات الدول الرأسمالية المتشابكة بفعل مؤسسات العولة، وأخيراً امتدت آثارها وعواقبها إلى كل دول العالم. هنا يتجلى منطق

(*) فى المسئولة بالدرجة الأولى عما آلت إليه الرأسمالية المعاصرة، خاصة ظاهرة تضخم الرأسمالية المالية على حساب نمو الاقتصاد العيى (الصناعة والخدمات) وما تلا ذلك من توحشها، وأخيراً انهيارها على النحو المروع الذى عرفه العالم كله فى شهر سبتمبر ٢٠٠٨ .

مراجعة الذات وتجديد الفكر والسلوك، هنا يكشف منطق التقدم عن نفسه. فبداننا نسمع دعوات كثيرة إلى مراجعة نمط الفكر الرأسمالي الذي سار عليه العالم لمدة عقود. ومن أمريكا صدرت أول وأقوى مبادرة لتدخل الدولة لمساندة الرأسمالية المالية المتداعية بأموال دافعى الضرائب. واتسع - وسوف يتسع أكثر فاكثراً - الحديث عن ضوابط وعن رقابة الدولة وأجهزة من شتى الأنواع، وسوف تتصاعد الدعوة إلى المزيد والمزيد من شفافية المعاملات الرأسمالية المالية... إلخ. وتلك جميعاً لا أسميها - ولا يحق لغيري أن يسميها - انهيار الرأسمالية، أو نهاية الرأسمالية، أو هزيمتها، تلك لغة الصغار فى لعبهم، وليست لغة العلماء فى حديثهم. إنما نحن نقول ببساطة إن النمط الذى ظل حتى أمس سائداً من الرأسمالية فى حاجة إلى مراجعة وفى حاجة إلى تجديد وتطوير.

ذلك ما يجرى فى العالم وذلك ما جرى على الطبعة الأولى من الأصل الإنجليزى لتلك الموسوعة، مراجعة وتعديل من أجل التجديد والتطوير لمواكبة مستجدات الحياة الثقافية.

٧- عن الترجمة

بقيت كلمات عن هذه الترجمة:

• يعلم القارئ بداهة أن مداخل (أو مواد) هذه الموسوعة كانت مرتبة فى لغتها الأصلية ترتيباً هجائياً أفرنجياً. وكان من الطبيعى بعد أن ترجم العمل إلى العربية أن ترتب المداخل (أو المواد) ترتيباً هجائياً عربياً. ويقوم ذلك على افتراض أن مستخدم الموسوعة يلتصق مدخلاً يعرفه بالعربية، كالعولة أو الخطاب مثلاً، فما عليه فى هذه الحالة إلا أن يفتح الموسوعة، ويفتش عن الكلمة فى ترتيبها الهجائى فى حرف العين أو فى حرف الخاء.

ولكننا فكرنا فى قارئ لهذه الموسوعة يعرف المادة فى لغتها الأصلية، ككلمة Holocaust، ولا يعرف مقابلها العربى، أو الترجمة العربية التى اخترناها لهذا المصطلح. فى هذه

الحالة يتعين على هذا القارئ أن يرجع إلى قائمة (أو مسرد) لمواد الموسوعة في أصلها الإنجليزي مرتبة هجائياً وفقاً للأبجدية الأجنبية، وأمام كل مدخل (أو مادة) ترجمته العربية المستخدمة في هذا العمل. ويجد القارئ هذه القائمة في ذيل الموسوعة، عقب المراجع والمصادر الأجنبية.

● حرصنا في كل الأعمال التي سبق لنا المشاركة في ترجمتها على تزويدها بعدد من الحواشي والشروح والتعليقات، التي تعد مكملة للنص الأصلي أو موضحة له، أو عارضة لتطورات مناظرة أو معاكسة في مجتمعنا العربي. ونرجو أن يجد فيها القارئ بعض الفائدة.

● من الطبيعي في عمل موسوعي كهذا أن تتردد في كل مادة من مواده الثلاثمائة والأربعين أسماء أعلام مهمين من المفكرين والفلاسفة والعلماء وغيرهم ممن لا تترد أسماؤهم كثيراً في الكتابات العربية الثقافية العامة، وإن كانوا معروفين تماماً بالنسبة للدوائر المتخصصة. وخدمة لهدف الموسوعة في التعريف بإسهام أولئك الأعلام رأينا التعريف بالواحد منهم في الهامش في سطور قليلة. ونرجو أن يجد القارئ في ذلك شيئاً من الفائدة، والمأمول أن تساعد تلك التعريفات السريعة القارئ المتخصص على متابعة البحث في نقطة بعينها أو موقف فكري بالذات بالاقتراب من أهم من أسهموا فيه. وقد تم التعريف في هوامش الترجمة بحوالى مائة وعشرين شخصية.

● واستكمالاً لمهمة الباحث عن الاستزادة يرجى الانتباه إلى أن كثيراً من المراجع التي ورد ذكرها لكبار المفكرين الأعلام وذكر أمامها تاريخ صدورهما بين قوسين؛ هذا التاريخ لا يشير في الغالب إلى سنة صدور المؤلف الأصلي، وإنما إلى تاريخ صدور الترجمة الإنجليزية، بل إنه يشير أحياناً إلى تاريخ صدور أحدث ترجمة لذلك العمل. والمقصود بذلك طبعاً بعض مؤلفات المفكرين غير الإنجليز، خاصة الألمان والفرنسيين والإيطاليين وغيرهم، مثل دوركايم، وهابيدجر، وفيير، وجرامشي، وألتوسير، ودي سوسير... إلخ.

• وأخيراً فقد اضطلعت بالترجمة الأستاذة الدكتورة هناء الجوهري أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة والخبيرة الدولية فى التنمية الاجتماعية. التى يجد القارئ تعريفاً موجزاً بها فى نهاية الكتاب.

وبعد

فإنى أرجو أن يسهم هذا العمل فى دفع العمل الفكرى وإثراء النقاش العام حول موضوعات النظرية الثقافية، التى نأمل من ورائها ترشيد مشاركة المثقفين والعلماء العرب فى نهوض ثقافتى نحن أشد ما نكون حاجة إليه.

محمد الجوهري

المشاركون فى تأليف هذه الموسوعة

- | | |
|-----------------------------------|--------------------------|
| 1 - Gideon Calder (GC) | ١- جديون كالدز |
| 2 - Richard Cochrane (RC) | ٢- ريتشارد كوشرين |
| 3 - Stephen Horton (SH) | ٣- ستيفن هورتون |
| 4 - Gordon Hughes (GH) | ٤- جوردون هبوز |
| 5 - Christa Knellwolf (CK) | ٥- كريستا نيلولف |
| 6 - Kevin Mills (KM) | ٦- كيفين ميلز |
| 7 - Christopher Norris (CN) | ٧- كريستوفر نوريس |
| 8 - Jessica Osborne (JO) | ٨- جيسكا أوسبورن |
| 9 - Shiva Kumar Srinivassan (SKS) | ٩- شيفا كومار شرينيفاسان |
| 10 - Robin Wackerbarth (RW) | ١٠- روبن واكربارث |
| 11 - Christopher Wraight (CW) | ١١- كريستوفر ريت |

مقدمة المحررين

تغير العالم كثيراً منذ أصدرنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب: "النظرية الثقافية: المفاهيم الأساسية" فى عام ١٩٩٩، ولعل أوضح تلك التغيرات وأجلاها ما وقع على صعيد السياسة العالمية، فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر، وبدء "الحرب على الإرهاب". على أن العالم شهد - إلى جانب ذلك - تغيرات ثقافية أخرى ربما كانت أكثر بطناً ولكنها كانت أعمق تأثيراً، وهى تغيرات لم يكن مفر من حدوثها مع مطلع القرن الجديد. من تلك التغيرات التأثير المتزايد الذى أحدثته التكنولوجيات الجديدة فى حياتنا. فالتكنولوجيا الحيوية - وخاصة علم تحسين النسل - تتيح لنا فرصاً لأن نغير بشكل حاسم فهمنا لما هو إنسانى. كما أن اتساع دور شبكة الانترنت واندماج حياتنا مع العوالم الافتراضية المتنوعة التى تشكل الثقافة الإلكترونية من شأنه أن يؤدى كذلك إلى إحداث تغييرات هائلة على هويتنا الذاتية وعلى تفاعلاتنا مع غيرنا من الناس. بل إن المشتغلين بالنظرية الثقافية لا يستطيعون تجاهل المشكلات البيئية المتعلقة بالاحتباس الحرارى والتلوث...إلخ. ذلك أن تغير البيئة على هذا النحو من شأنه أن يؤثر على ثقافتنا، كما أن ثقافتنا سوف تعزز المواد التى سنعتمد عليها فى التصدى للتهور البيئى ووقفه. لهذا يتعين على النظرية الثقافية أن تشغل نفسها بكل تلك الظواهر. ومن هنا تحاول هذه الطبعة الجديدة من "موسوعة النظرية الثقافية" أن تأخذ فى اعتبارها بعض التطورات الأكثر إلحاحاً فى مجال النظرية وفى ميدان الثقافة.

كما اغتنمنا فرصة إصدار طبعة جديدة من كتابنا هذا بإدخال شيء من التعديل على محور اهتمامه الأساسى. فبعض المفاهيم التى كان يتعين تضمينها الطبعة الأولى - كالتعليم والرياضة ووقت الفراغ - يجدها القارئ الآن مدرجة فى هذه الطبعة. كذلك

عملنا على توسيع مجال تغطيتنا لموضوعات النظرية الثقافية التى تزودنا بها مختلف فروع العلوم الإنسانية، وهكذا خصصنا مداخل فى هذه الطبعة جديدة لعلم الآثار والتاريخ - على سبيل المثال - كما نسلم بظهور الدراسات البصرية كفرع مستقل بذاته. وقد جاءت هذه الإضافات الجديدة على حساب بعض مواد الطبعة الأولى الخاصة ببعض الحركات والاتجاهات الفنية، وبعض أنواع الموسيقى، وإن كنا أبقينا على مدخلى علم الجمال والعمارة.

والأمر المهم أنه فى مثل هذا العالم السريع التغير ثقافياً وسياسياً، يكون من الأمور الحاسمة إبداع المشتغلين بالنظرية الثقافية فى التفكير فى أمور هذا العالم، وفى تخيل البدائل المحتملة للمستقبل، والبدء ببلورة المبادئ والرؤى الأخلاقية والسياسية والجمالية التى سوف تسهم فى تشكيل هذا المستقبل. ويحدونا الأمل فى أن تكون هذه الطبعة الجديدة زاداً يمكن أن تنتفع به الثقافات الجديدة التى تتفتح وتنمو فى القرن الحادى والعشرين.

أندرو إدجار

مارس ٢٠٠٧

بيتر سيدجويك

Communication

الاتصال

يعتبر الاتصال، بوصفه تبادلًا للمعلومات بين طرفين أو أكثر، يعتبر من وجوه عديدة، أهم قضية تشغل الدراسات الثقافية. ويمكننا تمييز عدد من الاتجاهات المختلفة في تحليل عملية الاتصال.

ففى البنيوية وفى السيميوطيقا (علم العلامات)، يتم تحليل الاتصال وفقًا للشفرات والقواعد المعمول بها فى اعتبار أى رسالة بأنها رسالة ذات معنى، وذلك على أساس اختيار وتجميع عدد من العناصر (أو العلامات) ذات المعنى. ويؤدى هذا الاتجاه - بدوره - إلى الاهتمام بالنصوص (انظر مادة: النص) (سواء أكانت هذه النصوص مكتوبة أو منطوقة، أو غيرها من وسائل نقل المعانى والدلالات، كالملابس والأفعال أو التصرفات الاجتماعية) وإلى الاهتمام كذلك بعملية إنتاج وقراءة هذه النصوص، وذلك بالإضافة إلى الاهتمام بالمشكلات المتصلة ببيان كيف يمكن للعلامة أن تشير إلى عالم خارج النص (إذا كان ذلك ممكنًا أصلاً). وفى ميدان التأويل، تعالج عمليات قراءة النصوص وتفسيرها على نحو أقل فى منهجيته (مما يحدث فى علم العلامات). إذ يركز الاهتمام فى ميدان التأويل على ما لدى الأفراد العاديين أو القراء العاديين من قدرة على تطوير تفسيرات للنصوص عن طريق استعمالهم للعلاقة القائمة بين الوحدة المعينة ذات المعنى والمائلة أمامهم وبين المجموع أو الكل الأكبر (أو الأفق الأوسع والأشمل) الذى ينتمى إليه هذا النص الذى يضافى على هذه الوحدة معناها ودلالاتها. وبالأخص عندما يؤدى معنى الوحدة إلى التأثير - تبادلًا - فى معنى السياق.

وفى علم الاجتماع احتلت دراسة الاتصال مكانة بارزة مع ظهور تلك المدارس البحثية السوسيولوجية التى تؤكد أهمية ما يمتلكه أفراد المجتمع من مهارات اجتماعية وقدرات على الاتصال فيما بينهم. ولهذا، يبدى كل من أصحاب النزعة التفاعلية

الرمزية وأصحاب النزعة الإثنوميثولوجية (أى منهجية الجماعة) يبدون اهتماماً بالكيفية التى بها يتم خلق واقع اجتماعى ثابت وله معناه، ويتم بها الحفاظ عليه من خلال التفاعل المنظم، أى من خلال ممارسة القدرات الاتصالية المختلفة.

إن الدلالات الأشمل لدراسة الاتصال فى إطار علم الاجتماع إنما تتجلى من خلال الرابطة الاشتقاقية اللغوية بين الاتصال Communication والمجتمع Community فكل من هاتين الكلمتين مشتقة من جذر واحد. يشهد لذلك أن أرسطو يرى أن الدولة إنما هى مجتمع يحتفظ بكيانه عن طريق التواصل بين الرؤى المختلفة الموجودة فيه. إذن فالاتصال هو الذى يحافظ على كيان المجتمع ويسهم فى تحقيق وحدته. لذلك يصبح فى الإمكان أن نحلل الأهمية السياسية والمعنوية للمجتمع فى ضوء عمليات الاتصال التى يمكن أن تتم داخل هذا المجتمع. وهكذا طرح الفيلسوف العلمى شارلز سوندرز بيرس تصوراً لمجتمع علمى مثالى يمكن أن يتم فيه الاتصال الحر والعلنى بين جميع الفرقاء المشاركين فيه. لهذا فإن الاتصال العلنى المفتوح (أو قل المشاركة الديمقراطية) يعد شرطاً مسبقاً للعلم الصحيح.

وقد طور يورجين هابرماس Habermas هذه الفكرة فى مفهومه الخاص "بالموقف المثالى للتخاطب" (ماكارثى 1978: 306-310). ولكن هذا المفهوم يعد - هو الآخر - مجرد تصور للاتصال المثالى أو الكامل، والذى يكون جميع المشاركين فيه قادرين على مساواة الآخرين ومناقشتهم فيما يقولون: من حيث ما فى كلامهم من إخلاص، ودقة واقعية، ومعنى مفهوم، وكذلك من حيث أهليتهم الخلقية للتحدث بهذا الكلام. أما الاتصال الفعلى (وليس المثالى) فإنه يقصر عن بلوغ هذا المستوى المثالى أو الكامل من الاتصال، بينما تقوم النظم السياسية والإيديولوجية (انظر: الإيديولوجيا) بتحريفه وتشويهه، مانعة بذلك جماعة معينة وأفراداً معينين من المشاركة وفهم الحقائق. لذلك فإن المدى الذى يبلغه الاتصال الفعلى قبل الوصول إلى درجة

----- (أ) -----

الاتصال المثالي، هو مقياس للعدالة فى أى مجتمع (AE). للمزيد انظر: Habermas (١٩٧٠، ١٩٧٠ب) وWilliams (١٩٦٢).

Ethnography

الإثنوجرافيا

الإثنوجرافيا هى ذلك الاتجاه البحثى الأوثق اتصالاً بالأنثروبولوجيا الثقافية، وذلك بالرغم من أنها لعبت دوراً رئيسياً فى تطوير الدراسات الثقافية. تشهد بذلك أعمال ريتشارد هوجارت Richard Hoggart (١٩٥٧)، وفيل كوهن Phil Cohen (١٩٨٠)، ويول ويليس Paul Willis (١٩٧٧، ١٩٧٨) وأنجيلا ماك روبي Angela AcRobble (١٩٩١). وتتضمن الإثنوجرافيا القيام بالملاحظة والرصد الدقيق والمستمر لأحوال مجموعة اجتماعية معينة. وليس من مهمم الباحث الإثنوجرافى أن يصف سلوك أفراد هذه المجموعة، وإنما يسعى إلى فهم ثقافة هذه المجموعة من الداخل. ويصف عالم الأنثروبولوجيا كليفورد جيرتز(*) مهمة الباحث الإثنوجرافى بأنها تتمثل فى الإدراك

(*) جيرتز، كليفورد Geertz, Clifford (من مواليد ١٩٢٦) أشهر علماء الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكين المعاصرين وأكثرهم تأثيراً. مؤسس ورئيس مدرسة العلوم الاجتماعية المتميزة بجامعة برنستون التابعة لمعهد برنستون للدراسات المتقدمة. امتد الإعجاب به وتأثيره إلى عديد من دارسى العلوم الأخرى كالتاريخ، ونظرية الأدب، والفلسفة هذا فضلاً عما أثارت كتاباته العميقة الثرية فى حقل تخصصه. التحق فى أول حياته بجامعة هارفارد، حيث تعمق فى كتابات تالكوت بارسونز، الذى حاول التآليف بين كتابات إميل دوركايم وماكس فيبر فى إطار نظرى واحد لعلم الاجتماع الأمريكى. لم يستطع جيرتز أن يعجب بدوركايم، ولكنه فتن بماكس فيبر، خاصة فكرته عن 'الفهم' أى فهم فكرة المؤلف. من هنا رفض جيرتز الوظيفية وناوها بشدة، رغم سيطرتها على علم الاجتماع الأمريكى خلال حقبة الخمسينيات. وقال إن مهمة الأنثروبولوجيا ليست هى اكتشاف القوانين والأنماط والمعايير، وإنما واجبها الأول محاولة تفسير ما أسماه 'شبكات الدلالة' التى يصنعها الناس ثم يقعون فى شباكها. واعتبر جيرتز أن تلك الشبكات تمثل جوهر الحياة الإنسانية. فهى التى تضيف المشروعية على أبنية القوة فى المجتمع، وهى التى توجه الرغبات الإنسانية الجائعة وتهذبها، بما توفره للمؤمنين بها من إحساس بالهدف والفاعلية، بحيث يبدو العالم =

الدقيق للفرق بين رفة العين وغمرتها. فرفة العين وغمرتها كلامهما تبدو حركة جسمانية فى الظاهر، بحيث لا تستطيع الكاميرا تبين الفرق بينهما. على حين نجد أن غمرة العين فعل يحكمه العرف الاجتماعى، ومن ثم يكتسب معناه ودلالته فى ضوء ذلك. (رغم أن هذا لا يمنع أن يخطئ الباحث - بسبب ارتبাকে - فيحسب رفات العينون غمرات، أو يحسب غمرات العينون رفات). وكما يقول جيرتز: "هذا كل ما يهم الباحث الإثنوجرافى: كلمة عن السلوك، وإشارة خاطفة عن الثقافة، ثم: انظر إلى تلك الإيماءة" (١٩٧٣: ٦). ومن الواضح أن الباحث الإثنوجرافى ليس معنياً - فقط - بالإيماءات المتفرقة، وذلك بالرغم من أن جزءاً أساسياً من عمل الباحث الإثنوجرافى هو أن يسجل بالتفصيل دقائق الأحداث والأفعال التى يستخلصها من الحياة اليومية للجماعة. ومن واقع هذه المادة العلمية الميدانية، يهتم الباحث الإثنوجرافى - بصورة أساسية - بشرح جميع أنواع المعايير والقيم، والقواعد أو القوانين التى تحكم سلوك الناس داخل الجماعة وتجعل له معنى. لذلك فإن المشكلة الرئيسية التى تواجه الباحث الإثنوجرافى تتمثل فى التغلب على الحواجز التى تحول بينه وبين الفهم والتفسير. وسوف ترتبط هذه الأمور بصعوبة فهم الباحث للقيم والمعانى المحلية، التى قد تختلف اختلافاً جديراً عما يحمله الباحث من قيم ومعان. وترتبط كذلك بصعوبة تنبه الباحث إلى خطورة فرضه لقيمه الخاصة على هذه الثقافة التى يدرسها. (مثال ذلك، ما وجهه ماك روبى McRobbie

= لهم منتظماً وذا معنى. وقرر جيرتز أن ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الأداة الشهيرة التى أسماها "الوصف المكثف" أو المتعمق للثقافة، أى عن طريق تقديم إثنوجرافى غزير (مكثف) ومقنع لتلك الثقافة. ولإثبات وتدعيم أرائه تلك أجرى جيرتز عدداً كبيراً من البحوث الميدانية. ومن أشهر دراساته دراستان عن جاوه كانتا بعيدتي التأثير ليس فى الأنثروبولوجيا فقط، ولكن كذلك بين علماء الاقتصاد ودارسى التنمية. ولكن توجهات جيرتز إلى الإثنوجرافيا سرعان ما تغيرت عندما تعمق فى قراءة ميردر، وهمبولدت، وديلتاي، أثناء فترة اشتغاله أستاذاً بقسم الأنثروبولوجيا بجامعة شيكاغو. وقد حذا حذو روث بندكت فى استلهاهم الرومانسيين الألمان، مما جعله أقدر على تذوق الثقافات الأخرى تنوعاً جالياً واضحاً. وهنا غلبه حبه للأول للكتابة الأدبية، فأنجز دراسات مكتوبة بلغة أدبية راقية حاول فيها أن يتعمق الثقافات التى كتب عنها وينفذ إلى عوالمها الرمزية الخبيئة. (المراجع)

----- (أ) -----

(1981)، من انتقاد إلى ظاهرة استبعاد ذكر النساء في أغلب الدراسات الوصفية الإثنوجرافية للثقافات الفرعية للشباب، وهي الدراسات التي أجرى معظمها الرجال).
(انظر كذلك مادتي: العمل الميداني، والملاحظة المشاركة) (AE). للمزيد انظر: Stanley and Ronald (١٩٨٨).

الإثنوميثودولوجيا / منهجية الجماعة Ethnomethodology

صك هذا المصطلح هارولد جارفينكل^(*)، ذاهباً إلى أنه يعنى "مناهج الناس في البحث والنظر" People's Methods. وهو يشير إلى أحد مداخل علم اجتماع الحياة اليومية الذى حظى بشهرة واسعة في ستينيات القرن العشرين. وتهتم الإثنوميثودولوجيا بالطريقة التى يخلق بها أعضاء المجتمع عالمهم الاجتماعى المنظم الذى يعيشون فيه. وبهذا الاعتبار، فإن منهجية الجماعة تعارض تلك الاتجاهات الموجودة فى علم الاجتماع (مثل النزعة الوظيفية، والماركسية) التى تفترض - مسبقاً - وجود حقيقة اجتماعية أو واقع اجتماعى مستقل عن الفاعل الاجتماعى (أى: عن الفرد) وله تأثير عليه يشبه التأثير العلى، أو تأثير السبب على النتيجة. وتذهب منهجية

(*) هارولد جارفينكل (Harold, Garfinkel من مواليد ٢٩ أكتوبر ١٩١٧) فى نيويورك، نيويورك. ويعد جارفينكل الأب الشرعى للإثنوميثودولوجيا. وكان الفتح الكبير الذى حققه جارفينكل فى علم الاجتماع يتمثل فى أسلوبه الجديد فى دراسة الممارسات الاجتماعية، فكان له فضل السبق طوال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين فى التقاط فكرة دوركايم القائلة بأن مفتاح النظام الاجتماعى فى العصر الحديث هو دراسة الممارسات الاجتماعية. وكان فى توجيهه الجديد أول من شق عصا الطاعة على تالكويت بارسونز وأواخر الأربعينيات. من أهم أعماله: "مقايير اللون"، ١٩٣٩، "وشروط حفلات التحقير الناجح" (يراعى استخدامه كلمة Degradation بدلاً من Graduation فى ممارساتنا العادية)، المنشور فى المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع، ١٩٥٦. ودراسات فى الإثنوميثودولوجيا، ١٩٦٧، وبرنامج عمل للإثنوميثودولوجيا .. تطوير لقول دوركايم الماثور، ٢٠٠٢. (المراجع)

الجماعة إلى أن أعضاء المجتمع في واقع الأمر لديهم قدر كبير من المهارة (أو قل الكفاءة) التي تمكنهم من أن يدركوا بدقة الأحداث الاجتماعية الهامة والمنظمة وأن يقوموا بإنتاجها باستمرار، وذلك من خلال التعاون مع بعضهم البعض. لذلك فإن الباحث الذي يتبنى منهجية الجماعة يرفض أن يأخذ أى نظام اجتماعي كأمر مسلم به، فهذا النظام ليس مجرد وضع قائم فحسب، إنما هو نظام يقوم المشاركون فيه بإيجاده والحفاظ عليه بصفة مستمرة وعلى الدوام.

وترتكز الكفاءة التي يتمتع بها هؤلاء الأفراد العاديون من أعضاء المجتمع على إدراكهم لما تتصف به جميع الأفعال والأقوال من نسبية في المعنى أى ما تتصف به من إشارية. الأمر الذي يعنى أن التصرفات الاجتماعية (أى الأفعال والأقوال) إنما تحمل معنى بعينه في كل بيئة اجتماعية بعينها. وتكمن كفاءة الفرد العادى من أعضاء المجتمع في كونه قادراً على استلهاهم هذه المعانى والدلالات التي يشترك فيها أعضاء المجتمع غالباً، ومن ثم تكون شائعة بينهم، وذلك من أجل أن يتمكن هذا الفرد من خلق هذه المعانى المتفردة ومن استلهاهم السمات الخاصة لهذا الحدث الاجتماعى. لذلك فإن عالم الاجتماع الحقيقى في هذه الحالة ليس هو الخبير العلمى الذى يزودنا بتفسير للنشاط الاجتماعى والبناء الاجتماعى بلغة تكون - غالباً - غريبة عن اللغة التي ينطق بها سائر أفراد المجتمع ويفهمونها. إنما عالم الاجتماع الحقيقى، أى ذلك الشخص الخبير بكيفية سير الأمور في هذا المجتمع، هو ذلك الفرد العادى نفسه، فمنهجية الجماعة إنما تسعى لتنبيهنا إلى ما لدينا فعلاً من كفاءة، ولكننا نأخذها كأمر مسلم به.

ويتمثل الاتجاهان الرئيسيان اللذان يستعملهما العلماء الباحثون في مجال منهجية الجماعة عند دراستهم للمجتمع، يتمثلان في: اتجاه تجربة "الإخلال بالواجب" أو "الخروج عن المألوف" Breaching Experiment، واتجاه تحليل المصادفة. وفى تجربة الإخلال بالواجب يعتمد القائم بالتجربة مخالفة أحد الأعراف التي يسلم بها أعضاء

المجتمع تسليمًا تامًا. وفي إحدى التجارب الرائدة، وجه جارفينكل تلاميذ أحد الفصول إلى أن يعودوا إلى بيوت آبائهم وأن يتصرفوا كما لو كانوا نزلًا (يستأجرون غرفة مفروشة فيه). فكان الآباء ينظرون إلى سلوك أبنائهم هذا على أنه سلوك ناب ومزعج، وذلك بسبب الخروج على الأعراف المسلم بها (والتي لا يفتن إليها أحد) والخاصة بأسلوب تصرف الأبناء في بيوتهم (ومن ثم الأعراف الخاصة بأسلوب سلوك الآباء مع أبنائهم).

أما تحليل المحادثة فيسعى إلى تسجيل الطريقة التي بها يتم الحفاظ على النماذج السلوكية الخاصة للتفاعل الاجتماعي. وقد سعت الدراسات الرائدة في هذا المجال إلى إظهار القواعد المسلم بها والتي تحدد أسلوب تنظيم المحادثة التليفونية، ليس فقط من حيث قيام كل طرف بالكلام في دوره المحدد (حيث يتعين على الشخص الذي يرد على التليفون أن يبدأ بالكلام أولاً، وإنما يحاول أن يرد على المكالمات، بأن يعمد إلى ألا يقول شيئاً، ثم ينظر ماذا يحدث). كما تسعى هذه الدراسات إلى معرفة وتحديد الشخص الذي يسيطر على الموضوعات التي تثار أثناء المحادثة التليفونية، ومعرفة الوقت الذي يكون عنده إنهاء المحادثة التليفونية أمراً مقبولاً.

وقد وجهت لمنهجية الجماعة انتقادات انصبت أساساً على تجاهلها لكثير من القضايا التقليدية في علم الاجتماع، وفي مقدمتها مشكلات القوة (في الحياة الاجتماعية). ومع ذلك فقد وجد علماء الاجتماع من صفوف الحركة النسوية في الأساليب المعمول بها في منهجية الجماعة بديلاً جذاباً يغني عن الأخذ بالمداخل البحثية التي تعتمد على الإحصائيات باضطراد واضح، وعن المداخل البحثية السوسيولوجية الوضعية. وبذلك يمكن البدء بإدراج القضايا المتعلقة بموضوع القوة ضمن القضايا التي تبحثها منهجية الجماعة، كائن تدرج - مثلاً - في مجال تحليل المحادثة، وذلك عن طريق الاعتراف - ببساطة - بأن الرجال لديهم من القوة ما يكفل لهم التحكم في

المحادثة بدرجة أكبر مما هو متاح للنساء. (AE). للمزيد انظر: Garfinkel (١٩٦٧) وTurner (١٩٧٤) وHeritage (١٩٨٤) وHilbert and Collins (١٩٩٢).

Ethnic/ Ethnicity

إثني/ الإثنية

هى كلمة تستعمل - على وجه العموم - للإشارة إلى الجماعات العرقية أو القومية المختلفة، التي تتحدد وفقاً لما يشترك فيه أفراد كل جماعة من ممارسات، ومعايير، وأنساق من المعتقدات. وعندما توصف جماعات ما بأنها جماعات "إثنية"، فإن هذا يعنى ضمناً - فى العادة - وصف هذه الجماعات باعتبارها من الأقليات (انظر: **الأقلية**)، وأن لديها طائفة مختلفة أو مجاًلاً مختلفاً من **الاتجاهات** أو عناصر التراث التي تختلف عما تؤمن وتتمسك به غالبية أعضاء المجتمع. ويشير مصطلح الإثنية - بدوره - إلى ما لدى جماعة معينة من وعى ذاتى بما يخصها وحدها من مظاهر التميز الثقافية. ومن الأمور الجلية، أن تأكيد جماعة ما هويتها الإثنية يمكن أن يكون عاملاً من عوامل توحيدها، كما يمكن أن يكون من عوامل تقسيمها على حد سواء - وكثيراً ما يتوقف ذلك على من هى تلك الجماعة التي تعمل على تأكيد هويتها، وفى مقابل من الجماعات البشرية تبرز تلك الهوية، وفى أى سياق أو بيئة اجتماعية تمارس تأكيد هويتها. وفى بعض المواقف، قد يكون تمتع الجماعة بوعى ذاتى بهويتها الإثنية عاملاً على توحيدها (وذلك بأن يكون هذا الوعى - مثلاً - نقطة التقاء تجتمع عليها جماعة بشرية معينة). وفى بعض الأحوال الأخرى، قد ينظر إلى وصف جماعة ما بأنها إثنية باعتباره شكلاً مستفزاً ومهيناً من أشكال التمييز الثابت (انظر مادة: **صورة نمطية**) التي تنطوى على النعرة العنصرية. (انظر مادة: **عرق**). لذلك، فإن القضية تتحول للبحث عن يقوم بدور فعال فى وصف مجموعة اجتماعية معينة بأنها "مجموعة إثنية": ذلك لأن تعريف جماعة ما أو وصفها بأنها "إثنية"، وتأكيد هذه الجماعة "إثنتيتها"

الخاصة، أمران مختلفان أشد الاختلاف. وفي كلتا الحالتين، فإن الأمر الحاسم في كل حالة هو مسألة قوة. وذلك على أساس أن تأكيد جماعة ما هويتها العرقية قد يفهم على أنه عمل تقوم به هذه الجماعة في مواجهة أو معارضة الحالة الاجتماعية الراهنة المحيطة بها في لحظة معينة. بينما قد يكون وصفها بهذه الصفة من قبل الآخرين الذين يشكلون "رأى الأغلبية" شكلاً قمعياً من أشكال الاستعلاء بالقوة التي تملكها القوى والمصالح المسيطرة داخل المجتمع (PS). للمزيد انظر: Foster (١٩٦٠).

الإجماع الذاتي (إجماع الذات) Intersubjectivity

تكون الخاصية خاصة ذاتية إذا لم يتيسر إدراكها إلا من قبل إنسان فرد بعينه (وعلى ذلك فإن تعرض المرء للألم أو حساسيته له تعد أمراً ذاتياً، وكذلك تكون متعة المرء التي يستمدّها من تناول قطعة من الشيكولاتة أمراً ذاتياً). وتكون الخاصية خاصة موضوعية إذا كانت تنتمي فعلاً إلى الموضوع نفسه، وكانت توجد مستقلة عن أى راصد أو ملاحظ لها. ولهذا يمكن لأى إنسان أن يدركها إذا كان يتمتع بالحواس الملائمة لذلك. (فليس لازماً أن يستمتع كل إنسان بطعم الشيكولاتة، لكن كل إنسان يستطيع من غير أن يتذوق الشيكولاتة أن يدرك حسياً بعض خواصها كاللون والوزن). ويتيح مفهوم الإجماع الذاتي الفرصة لتبلور أساس فكري مهم يقع بين هذين الطرفين المتناقضين. وتكون الخاصية من نوع خاصيات الإجماع الذاتي إذا كان البشر متفقين على الإقرار بوجودها، ومن ثم فإنهم يرونها كما لو كانت موجودة في العالم الخارجى والموضوعى. وعلى ذلك، فإن الدلالة الثقافية (انظر مادة: ثقافة) قد تفهم على أنها دلالة من دلالات الإجماع الذاتى. فالمعنى الذى يعنيه صوت معين فى لغة معينة ليس جزءاً لا يتجزأ من هذا الصوت، لذلك فإن هذا الصوت ليس أمراً موضوعياً. ومع ذلك فإنه ليس ذاتياً، وذلك لأن الكلمات لا يمكنها أن تعنى أى معنى أريدها أن تعنيه. (بخلاف كلمات

أغاني الأطفال وما فيها من أصوات خاضعة - فى معناها - لما تريده حاضنة الطفل وهى تغنى له). وإنما تتوقف معانى الأصوات المنطوقة على انتماء السامع لها لمجتمع لغوى معين، أو القادر على فهم هذه اللغة على الأقل. لذلك قد يذهب البعض إلى أن ما تحمله كافة الأحداث الاجتماعية من معنى ودلالة إنما هو أمر من أمور الإجماع الذاتى (أو إجماع الذوات) (AE).

Ideological State Apparatus

أجهزة الدولة الإيديولوجية

مفهوم طوره لوى ألتوسير^(*) المفكر الماركسى البنىوى الفرنسى. وقد طور ألتوسير فكرة أجهزة الدولة الإيديولوجية فى محاولة للتوسع فى تطبيق مصطلح الإيديولوجيا وإيضاح معناه كما ورد فى أفكار كارل ماركس وفريدريك إنجلز، وذلك بالتوافق مع مراجعته للنظرية الماركسية التقليدية. وقد ذهب ألتوسير إلى أن المفهوم الماركسى التقليدى عن الإيديولوجيا، رغم أنه صحيح فى جوهره، فإنه مفرط فى حصره وتقييده لنطاق الإيديولوجيا، كما تنقصه الدقة باعتباره أداة لإيضاح البنى التى يرتكز عليها التحليل الماركسى للمجتمع. ذلك أن مصطلح "الإيديولوجيا" يستعمل عادة، فى صورته التقليدية، للإشارة إلى عدد من صيغ الفكر المجردة والمتخيلة التى تصفى على النظام الاجتماعى المهيمن للرأسمالية صفة النظام الطبقي، فتجعل منه نظاماً

(*) لوى ألتوسير Louis Althusser (١٩١٨ - ١٩٨٠) (واحد من أكثر الفلاسفة الاجتماعيين الماركسيين فى القرن العشرين أصالة وتأثيراً). وقد نشر أهم أعماله، وبلغ ذروة التأثير خلال عقدى الستينيات والسبعينيات، ومن الناحية السياسية استهدف مشروعه تطوير تحليل ونقد للنموذج الستالينى للماركسية وقد أفضى سعى ألتوسير لفهم التاريخ فهماً علمياً، أفضى به إلى اتجاهين، أولاً: إعادة قراءة النصوص الكلاسيكية للتراث الماركسى، وثانياً: إلى التفكير الفلسفى فى طبيعة العلم وكيف يمكن تمييزه عن الأشكال الأخرى من المعرفة أو الحوار. انظر المزيد فى: مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجهرى وزملاؤه، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠-٢٠٠١. (المراجع)

مشروعاً. لهذا فإن نسق الأفكار التي تقوم بمهمة المعايير المتبعة داخل المجتمع الرأسمالي تكون بمثابة تعبير صريح عن مصالح الطبقة الحاكمة، وهكذا ينعكس البناء التحتي للعلاقات المادية للإنتاج انعكاساً مباشراً في البناء الفوقي الإيديولوجي للأفكار التي تقوم بإضفاء الشرعية على القوة الرأسمالية. وقد ذهب ألتوسير إلى أن هذا التصور ينقصه جانب مهم: فبالرغم من أن فكرة الإيديولوجيا تزودنا بتصوير لبناء الأفكار يقوم بإضفاء صفة الحكم الطبيعي على حكم الطبقة المسيطرة، فإنها تقصر في إعطاء الاهتمام الكافي بالطريقة التي يتوجب على الرأسمالية اتباعها في نفس الوقت للوصول إلى إعادة إنتاج ظروف الإنتاج اللازمة لضمان استمرار بقائها. وتتم هذه المهمة، كما يرى ألتوسير، من خلال أجهزة الدولة الإيديولوجية.

وعلى ذلك، فإن الدولة، التي تنتظر إليها الماركسية باعتبارها مكونة من عدد من أجهزة القمع (مثل قوات الشرطة، والقوات المسلحة، والسجون... إلخ) تملك بجانب هذه الأجهزة أجهزة إيديولوجية تقوم بوظيفة إعادة إنتاج ظروف الإنتاج. وتضم هذه الأجهزة: المؤسسات الدينية، والنظام التعليمي، ومنظومة القانون، والأحزاب السياسية، وأجهزة الإعلام، والعائلة. ومن خلال هذه الأجهزة تقوم الإيديولوجيا بتشكيل الذاتية الخاصة بالأفراد، وهي بادئها لهذه المهمة إنما تحدد لهم أدواراً معينة داخل منظومة الإنتاج الرأسمالية. وكشاهد على ذلك، يقوم النظام التعليمي - في رأي ألتوسير - بوظيفته لإشباع الطلب الرأسمالي على شغل تشكيلة من الوظائف بإسنادها إلى عدد من الأفراد داخل المجتمع. ويترك أغلب التلاميذ مدارسهم في سن مبكرة بعد أن يكونوا قد تزودوا بالمهارات الأساسية المطلوبة ليشغلوا فيما بعد عمالاً في المصانع؛ ويبقى عدد أقل منهم على مقاعد الدراسة داخل النظام التعليمي لفترة أطول، يتم أثناء ذلك تزويدهم بمزيد من المهارات التي تجعلهم مناسبين لشغل الوظائف اللازمة لتحقيق الإدارة الناجحة للعمال. ثم يستمر عدد أقل - من الفئة السابقة - إلى أن يتخرج فيما بعد من نظام التعليم ليحتلوا مواقعهم كموظفين كبار في الجهاز الإداري للدولة (كما

أن بعض هؤلاء، كالمدرسين وأساتذة الجامعات، لا يقدر لهم أبداً أن يفارقوا هذا النظام، لكي يضطلعوا بمهمة تعليم الجيل القادم). وبالمثل يعد نظام الأسرة واحداً من أجهزة الدولة الإيديولوجية، حيث يزود الدولة بالخام البشري (أى: المواليد) الذين تحتاج إليهم ليتسنى إلحاقهم بالنظام التعليمى ليقوم بمهمته فى التأثير عليهم (PS). للمزيد انظر: Althusser (١٩٧١).

الإحصاء

Statistics

هو ذلك الفرع من الرياضيات الذى يقوم بجمع البيانات الرقمية، وتصنيفها، وتفسيرها تفسيراً كمياً. ويهدف التحليل الإحصائى إلى توضيح العلاقات بين اثنين أو أكثر من المتغيرات، بمعنى كيف أن تغير سمة أو خاصية يؤدى إلى تغير الأخرى. ومن هنا يستطيع التحليل الإحصائى - مثلاً- أن يوضح لنا كيف أن الناس فى الجماعات ذات الدخل المنخفض يعانون من سوء الصحة. ولعل أشهر استخدام للتحليل الإحصائى فى العلوم الاجتماعية هو ذلك الذى قدمه عالم الاجتماع الفرنسى إميل دوركايم لإحصائيات الانتحار. فبعد أن درس تلك الإحصائيات التى جمعتها بعض الحكومات الأوروبية عن حوادث الانتحار، استطاع دوركايم القول إن معدلات الانتحار (أى عدد المنتحرين منسوبا إلى عدد السكان) تتفاوت -على نحو يمكن التنبؤ به تماماً- تبعاً لما يطرأ من تغيرات على العوامل الاجتماعية (وبخاصة درجة التضامن التى يشعر بها أفراد ذلك المجتمع) Durkheim (١٩٥٢). وهكذا استخدم دوركايم الإحصائيات ليثبت تأثير المجتمع على الفرد. إذ اتضح أن قرار الفرد الإقدام على الانتحار - وهو يبدو فى الظاهر فعلاً شديداً الخصوصية - يخضع كما هو واضح لقوانين إحصائية ويمثل استجابة للعوامل الاجتماعية.

وثمة فرعان رئيسيان للإحصاء هما: الإحصاء الوصفي والإحصاء الاستدلالي. ويختص الإحصاء الوصفي بوصف خصائص مجموع السكان، أو الجماعات السكانية الفرعية الأساسية. وينتمي الإحصاء الاجتماعي إلى هذا الفرع من الإحصاء الذي يقوم على تجميع بيانات عن البناء العمري للسكان، والأبنية المهنية وغيرها من أشكال التدرج الاجتماعي، ومعدلات الوفيات، (أو الأجل المتوقع)، ومعدلات المواليد، والصحة، وأنماط الزواج، والمعتقدات الدينية، وأنماط الاستهلاك والحراك الاجتماعي، والحراك الجغرافي والهجرة، وهكذا. وتلعب مثل هذه الإحصائيات دوراً مهماً في فهم المجتمعات المعاصرة المعقدة وفي إدارتها، وإن كان اضطلاع الحكومات بمهمة جمع البيانات الإحصائية كان معروفاً في الحضارات قبل الصناعية^(*)، كما هو معروف الآن في المجتمعات الرأسمالية الحديثة.

وإذا كان الإحصاء الوصفي يستخدم المادة المتاحة، فإن الإحصاء الاستدلالي يستخلص خصائص السكان ككل من واقع البيانات الخاصة بعينة صغيرة (ولكنها ممثلة) لذلك المجتمع. وتمثل تحليلات الإحصاء الاستدلالي لب المنهج في العلوم الاجتماعية. فاستطلاعات الرأي تمثل واحداً من أشهر أنواع الإحصائيات الاستدلالية وأكثرها ألفة لنا، إذ تمثل استجابات عينة صغيرة من السكان ولكنها مختارة بعناية. وقد تتعلق تلك الاستجابات -مثلاً- بنوايا أفراد العينة في الانتخابات، أو اختياراتهم الاستهلاكية، وغيرها من الأمور التي يمكن أن تعد ممثلة للاستجابات التي كان يمكن جمعها من السكان ككل.

وتقوم أهمية التحليل الإحصائي على التسليم بأن المعرفة في العمليات الاجتماعية (بل وكذلك في كثير من العمليات الطبيعية) لا يمكن تصورها إلا بوصفها محتملة

(*) وقد عرفت مصر الإحصاءات العامة والتعداد منذ أوائل القرن العشرين، فكانت لها تجارب مبكرة في إجراء التعدادات المنتظمة. انظر المزيد عن الوضع الإحصائي في مصر في: محمد الجوهري، البحث الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، طبعات متعددة، خاصة ص ص ٨٦-١٠٤. (المراجع)

الصدق (ومن ثم لا تقوم على اليقين التام). من ذلك - مثلاً - أن الإحصائيات التي تربط سرطان الرئة بالتدخين لا يمكن أن تؤكد لنا أن شخصاً معيناً سوف يعاني من سرطان الرئة إذا أدمن التدخين. وإنما توضح أن احتمال إصابة مثل هؤلاء الأفراد بسرطان الرئة تزداد (وأنها تزداد بدرجة كمية محددة رقمياً بدقة) إذا أدمنوا التدخين. ولعل الفهم العامي الشائع لأهمية البيانات والنتائج الإحصائية محدود في الأغلب، بسبب التعليم الهزيل للرياضيات في المدارس. وهكذا نجد - مثلاً - من العامة من يحض الربط الإحصائي بين التدخين والإصابة بسرطان الرئة بالإشارة إلى جده الذي كان يدخن عشرين سيجارة في اليوم ولم يمرض يوماً واحداً في حياته. وحقيقة الأمر أنه إذا كان ٨٠٪ من المدخنين يصابون بسرطان الرئة، فإن العشرين بالمائة الباقون لن يصابوا به، وأن جد ذلك الشخص كان محظوظاً أن كان من بين أولئك العشرين بالمائة. لذلك لو فهمنا الإحصاء حق فهمه، فإنه سوف يمكننا من اتخاذ قرارات أكثر فاعلية في ظل ظروف عدم اليقين التي أوضحناها، خاصة تقدير المخاطر بكل دقة.

ومع أن التحليل الإحصائي قد لا يكون أداة منهجية مهمة للمشتغلين بالنظرية الثقافية، وذلك لأن أولئك المتخصصين في التنظير يكونون في العادة أكثر اهتماماً بالتحليلات الكيفية للبيانات وللظواهر الاجتماعية (ومن ثم بقضايا المعنى)، ولكننا نلاحظ - كما أوضحنا من قبل - أن الإحصائيات ذات أهمية فائقة في العلوم الاجتماعية الأخرى (كعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلم النفس مثلاً). كما أنها تمثل ظاهرة اجتماعية مهمة، ومن ثم جزءاً ذا أهمية حاسمة من ثقافة كافة المجتمعات المعقدة. ومن هنا يمكن أن تكون موضوعاً لبعض دراسات النظرية الثقافية (انظر مثلاً كتابات فوكو عن التاريخ وأهمية الإحصائيات الطبية (Foucault 1980: 166-82)).

وثمة فكرة أخيرة تستحق الذكر هنا وردت في قول ماثور لستالين: "واقعة موت واحدة مأساة، ولكن مليون واقعة موت إحصائية" (A E).

Difference/ Différance

الاختلاف

يمثل الاختلاف - وفقاً لمفاهيم البنيوية التي يؤيدها عالم اللغة فردينان دي سوسير - يمثل الأساس الذي بناءً عليه يكون للعلامات معنى. والاختلاف - بهذا المفهوم - يشير إلى ما بين عناصر اللغة من فروق لفظية مترابطة بنيوياً حال وجودها في مواقعها التي تشغلها داخل نظام العلامات التي تتكون منها "اللغة" (Langue). أى أن اللغة هي البناء الأساسي للمعاني التي يتعين استدعاؤها في الوقت المناسب لكي يكون المتكلم قادراً على التكلم). لهذا، يُنظر إلى المعنى داخل هذا النموذج الفكري باعتبار أنه نظام للاختلافات.

أما مصطلح Différance في أعمال الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا، فهو - بالمثل - يشكل الشروط اللازمة لإمكانية وجود المعنى في اللغة. ومع هذا فإن ديريدا، نظراً لمعارضته لسوسير في تصويره الثابت عن المعنى باعتباره بناءً أو نظاماً للاختلاف، يقصد من استعماله لهذه اللفظة المحدثّة الإمساك بالحركة التي لا تتوقف للمعنى، والتي هي شرط لإنتاجه أو توليده، أى أن المعنى يتصف بصفتين في نفس الوقت وهما كونه مختلفاً، ومؤجلاً.

وعندما ننطق بكلمة "الاختلاف" في صورتها الفرنسية "Différance"، المتميزة عن نطقها باللغة الإنجليزية "Difference" فإنها تشكل تتمة واستكمالاً لفهم سوسير عن الاختلاف، وذلك من خلال إشارتها إلى وجود شكل من أشكال انزياح المعنى (والذي يتضح هنا في كتابة حروف الكلمة الفرنسية بصورة مختلفة عن مرادفتها الإنجليزية، أكثر من اتضاحه أثناء النطق بالكلمتين). وهذا الانزياح في المعنى يعمل على الحيلولة بين المعنى وبين أن يحقق لنفسه حالة من الحضور الذاتي. بعبارة أخرى، فإن المعنى - وفقاً لهذه الرؤية - لا يتحقق له أبداً الحضور التام ضمن اللغة في لحظة معينة، إنما يمكن تصويره كسلسلة من المعاني

الترابطة التي تظل مع ذلك غير مكتملة، وبهذا الاعتبار، ينظر ديريدا إلى الاختلاف - في صورة اللفظ الفرنسي - باعتبار أنه لا يدل على كلمة ما ولا على معنى ما، وإنما باعتبار أنه شرط لقيام الكلمات والأفكار بعملها. وقد تم توسيع نطاق هذه الفكرة على يد أنصار النظرية النقدية الأدبية. ومع ذلك، فإن ما أسهم به ديريدا من تحديد لهذا المصطلح، إنما يقع ضمن المجال الخاص بالتحليل المتواصل للتراث الميتافيزيقي في الغرب. أما المحاولات التي تبذل لاستعمال هذا المصطلح كوسيلة لفك رموز تنظيم المعاني الموجودة داخل تشكيلة كاملة من النصوص (أى استعماله كنوع من أنواع تجاوز المعاني أو الوصول إلى ما وراء المعنى) هذه المحاولات تمضى فى اتجاه مضاد للاتجاه الفكرى لديريدا (PS). للمزيد انظر: Derrida (١٩٧٣)، (١٩٨٧).

Other

الآخر

مفهوم يمكن تقصى أصوله الأولى فى أعمال هيجل، ويوجد فى مختلف الاتجاهات الفكرية التى تعالج نظرية المعرفة، وفى مسائل الهوية الثقافية وفى التحليل النفسى. ومن بين الكتابات التى عالجت هذا المفهوم ما كتبه لاكان، وما كتبه سارتر^(*) فى الوجودية، وما كتبه ديريدا فى التفكيكية، وما كتبه إدوارد سعيد^(**) من تحليل لما

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: النزعة الإنسانية. (المراجع)

(**) سعيد، إدوارد Said, Edward W. (١٩٢٦-٢٠٠٢) عالم فلسطيني المولد أمريكي الجنسية، ولد فى القدس ودرس حتى نهاية تعليمه الثانوى بالقاهرة. حصل على درجته الجامعية الأولى من جامعة برنستون، وعلى الدكتوراه من جامعة هارفارد. بدأ يعمل بالتدريس بجامعة برنستون منذ عام ١٩٦٣ أستاذاً للأدب الإنجليزي والأدب المقارن. وضع ١٦ كتاباً، ترجمت إلى ٢٦ لغة عالمية. من بينها: القضية الفلسطينية (١٩٧٩)، ودراسة الإسلام (١٩٨٠)، العالم والنص والناقد (١٩٨٣)، بعد السماء السابقة (١٩٨٦)، تأملات موسيقية (١٩٩١)، الثقافة والإمبريالية (١٩٩٣)، تصورات المثقف: محاضرة برنامج رأيت (١٩٩٤)، السلام ومنقصاته: مقالات عن فلسطين فى عملية الشرق الأوسط (١٩٩٦)، وبالفرنسية: =

قامت به أوروبا الاستعمارية من دراسة للثقافات الشرقية، وهو التحليل المنشور في كتابه بعنوان "الاستشراق" (والمستلهم جزئياً من فكر ميشيل فوكو). وليس من المدهش أن يكون هذا المصطلح على قدر كبير من الغموض. وفي سياق النظريات التي تتحدث عن الثقافة، قد يكون أشهر استعمال معاصر لهذا المفهوم، هو الاستعمال الذي جرى على يد إدوارد سعيد. وفي ضوء ذلك، يمكن وصف مصطلح "الآخر" بأنه يمثل شكلاً من أشكال التصور الثقافي للأفكار والمفاهيم. إذ يمثل هذا التصور أساس بلورة هويات النوات الثقافية من خلال إحدى علاقات القوة السياسية التي يكون فيها "الآخر" هو الطرف الخاضع. وإن ما قام به الاستشراق في ادعائه معرفة "الشرقيين" Orientalists، هو أنه صورهم بوصفهم "الآخر" بالنسبة للأوروبيين. ورغم ما قام به الاستشراق من تصوير لما يُفهم منه ظاهرياً بأنه السمات الشخصية للشرقيين (وهو أنهم لاعقلانيون، وغير متحضرين، إلى آخر هذه الصفات)، فإنه لم يزودنا بتعريف للهوية "الشرقية" الفعلية، إنما قدم لنا الهوية الأوروبية على أساس تعارضها مع ذلك التصور للهوية الشرقية. ولهذا، فإن الآخر "اللاعقلاني" يستلزم ضمناً الوجود المسبق للآخر "العقلاني"، (كما أن هذا الآخر "اللاعقلاني" ناجم بالضرورة عن "الأنا" العقلاني). إذن، فصورة الآخر في الخطاب الاستشراقي مسألة تتصل بتأكيد الهوية الذاتية، وبذلك فإن قضية التصور الأوروبي "للآخر الشرقي" تتحول إلى ترجمة لإحدى قضايا القوة. (PS) للمزيد انظر: Said (١٩٧٨).

= بين الحرب والسلام (١٩٩٧). كتب كتابه شبه منتظمة في عدد من المجلات والصحف الكبرى العالمية والعربية في: القاهرة، وبيروت، وفرنسا، وإيطاليا، والسويد، وبريطانيا، وأستراليا، وباكستان، والهند، واليابان. وكان يعمل محرر النقد الموسيقي لـ The Nation. كما ألقى محاضرات في أكثر من ٢٠٠ جامعة عالمية في أمريكا الشمالية، وأوروبا، وأفريقيا، وآسيا. (المراجع)

Indexicality

الإرشادية (نسبية المعنى)

يشير هذا المصطلح إلى إحدى الخواص التي تتصف بها الأفعال والأقوال الاجتماعية: وهى أن معنى هذه الأفعال والأقوال يتوقف على السياق الخاص الذى تحدث فيه. ولهذه الخاصية أهمية محورية عند أصحاب اتجاه الإثنوميثولوجيا فى موقفهم الفكرى من تحليل "عملية" التفاعل الاجتماعى. فالقول مثلاً بأن $2 \times 2 = 4$ ليس قولاً يفهم بدهاة أو له معنى واضحاً وضوحاً ذاتياً. ولكنه إذا قيل فى حصة من حصص الرياضيات فى المرحلة الابتدائية، يكون له معنى. أما إذا قيل هذا القول رداً على من يسأل قائلًا: "كيف حال الجو بالخارج؟" فإنه يكون رداً مثيراً للحيرة إلى أقصى حد. ويتمتع أعضاء المجتمع الأكفاء بالقدرة على تمييز ما فى النص من خواص وثيقة الصلة به تضيف المعنى على هذا القول أو هذا العمل (ويقال عنها لهذا السبب إنها "تضبط المعنى النسبى"). وعلى ذلك، فإننا نستطيع - بصورة عامة - أن نعرف متى نكون فى حصة من حصص الرياضيات ومتى لا نكون. ومع ذلك، فسيكون عملاً لا نهاية له إذا قمنا بشرح الكيفية التى ندرك وفقاً لها هذه الحالة الخاصة باعتبارها حصة من حصص الرياضيات.

ولإعطاء مثل بسيط على ذلك، طلب جارفينكل (مؤسس منهجية الجماعة) من الطلبة أن يشرحوا جملة ما. وبعد أن تسلم جارفينكل - من أحد الطلبة - ما بدا أنه شرح مناسب (أو تفسير) أشار إلى أن هذا الطالب لم يشرح الكلمات التى استعملها فى شرحه للجملة المذكورة. وسرعان ما أدرك الطلبة الأذكاء - وبصورة لاشك فيها - أن هذا الضبط للمعنى النسبى (أى: إعطاء تفسير شامل شمولاً تاماً لمعنى حادثة اجتماعية معينة قولاً كانت أو فعلاً) إنما هو مهمة لا نهاية لها. والأمر الجدير بالملاحظة فى هذا المثال أن أعضاء المجتمع الأكفاء يستطيعون - فى أغلب الأحوال - أن يدبروا أمورهم على خير الوجوه وأكملها، من غير أن يكونوا قادرين على التعبير تعبيراً دقيقاً

تأماً عما يعملونه أو عما يعنيه هذا العمل. ومن ناحية ثانية، يمكن أن تحدث مظاهر الخلط "وسوء الفهم" عندما تتعارض المسلمات الاجتماعية لشخص ما تعارضاً ملحوظاً مع ما لدى شخص آخر من المسلمات الاجتماعية، مما يترتب عليه أن يختلفا في ضبط المعنى النسبي لنفس القول أو الفعل (ولعلكم أخطأتم سماع معنى سؤالى لكم عن حالة الجو فاعتبرته دعوة لكم لتبدأوا استعادة جدول الضرب الذى تحفظونه). (AE) للمزيد انظر: Weider (١٩٧٤).

Terrorism

الإرهاب

الإرهاب هو ارتكاب أفعال عنيفة ضد المدنيين بهدف خلق إحساس بالذعر بين عموم الناس (أو وسط جماعة قومية أو إثنية معينة) وذلك من أجل بلوغ أهداف سياسية أو إيديولوجية أو اقتصادية أو دينية معينة. ويختلف الإرهاب - عادة - عن الحرب، على اعتبار أن الحرب تسمح بممارسة سلوك عنيف بين الفريقين المتحاربين، وذلك وفق قواعد قتال متفق عليها بينهما. ويعرف الكافة أن العمل الإرهابى ينطوى - فى أكثر مستوياته تطرفاً - على قتل بعض الناس. ولكنه يمكن كذلك أن يُوجه ضد الممتلكات أو الموارد الطبيعية، التى يؤدى إتلافها أو تدميرها إلى إلحاق ضرر مباشر. ويتسم الفعل الإرهابى ببعض الملامح الجوهرية، فالإرهاب قد يكون ذا طبيعة قومية أو عالمية، كما قد ترتكبه جماعات إرهابية مناوئة لدول معينة، وقد ترتكبه الدول نفسها^(*). ويتعين وجود فاعل (أو مجموعة فاعلين) يمكن إسناد العمل الإرهابى إليهم. ولا بد أن يكون واضحاً - بالضرورة - أن هذا الفاعل يستهدف تحقيق غرض؛ بدون لا يكون للعمل الإرهابى أى معنى. وعلى هذا يكون اقتراف الفعل المحتمل (الإرهابى) وإلحاق

(*) إرهاب الدولة. (المترجم)

الأذى أمراً مبرراً في عقل الفاعل في ضوء تحقيق هذا الهدف. وهذا الهدف هو الذى يسبغ على الفعل الإرهابى صفة الوضوح والجلالة من هنا يمكن القول - ترتيباً على ذلك- إنه لا يمكن فى الحقيقة أن يوجد عنف إرهابى "بلا غاية ولا هدف". فكافة ألوان العنف الإرهابى هى - فى حقيقتها- مفهومة. على أن هذا لا يعنى أن المعتقدات التى تحرك مثل هذا العنف لا يمكن أن تكون ضحية لخداع أو تضليل، وحينئذ يكمن عبث مثل هذه الأفعال فى الحقيقة . ولابد أن يستهدف الفعل الإرهابى إصابة بعض الضحايا المحددين، ولكنه لا يمكن أن يستهدف ضحية وحيدة أو معزولة. فعلى حين يمكن أن نتصور - من حيث المبدأ- أن فعل القتل يمكن أن يلحق بضحية وحيدة منفرد (بافتراض أن القتل ليس له أقارب أحياء أو أصدقاء أو أبناء يعولهم ويمكن أن يتضرروا لما حدث له) على خلاف ذلك تستهدف الأعمال الإرهابية إحداث تأثير واسع الانتشار. والآخر المستهدف هو - ببساطة - تأثير عاطفى مطلوب إحداثه فى شهود الواقعة الإرهابية، أى: خلق حالة من مشاعر الخوف اللا محدود (الإفراط فى العنف المضاد للمجتمع) من ناحية، والعجز (الراجع إلى التهديد الدائم بتكرار مثل هذا العنف) من ناحية أخرى. وهكذا تكون غاية مثل هذا التأثير تحويل شهود العمل الإرهابى إلى طرف مشارك فى الحدث الذى رأوه بأعينهم أو سمعوا قصصاً عنه. وعن هذا الطريق تُحدث الأعمال الإرهابية الأثر المنشود بأن تزرع فى نفوس شهود العمل الإرهابى - على غير إرادة منهم - سياقاً تفسيرياً لهذا الخوف لا مناص منه. وبذلك يكون العمل الإرهابى قد وصل إلى هدفه الرئيسى المنشود. معنى ذلك أن ضحايا الإرهاب ليسوا فقط أولئك الضحايا الذين قد يفقدون حياتهم أو يلحق بهم أذى مادى أو معنوى نتيجة تلك الأعمال الإرهابية، وإنما كذلك "أولئك" الذين يتعين عليهم (من وجهة نظر الإرهابى) أن ينتبهوا إن شاعوا تحقيق أهدافهم. فالإرهاب من هذه الناحية يمثل دائماً شكلاً من أشكال الذرائعية: أى أن الغاية تبرر الوسيلة. ولا يمكن - من نواح عدة - تصور الإرهاب الدولى الحديث دون الإشارة إلى نظم الاتصال والإعلام.

فكلما كانت شبكة الاتصال أكثر كفاءة وأقدر تعبيراً (خاصة من الناحية البصرية) كلما ازداد احتمال تنامي قوة التأثير الذي يمكن أن يحدثه العنف الإرهابي، وذلك على اعتبار أنه كلما كان تدفق المعلومات والصور أسرع اندفاعاً، كلما زاد عدد الضحايا المحتملين (أي شهود الفعل الإرهابي).

ويمكن أن نسترجع العديد من مسارح العمليات الإرهابية منذ بدايات القرن العشرين، التي كان لكل منها ديناميات تختلف عن غيرها في بعض التفاصيل. وعلى الرغم من مساعي السياسيين الإنجليز تخفيف حدة حالات التوتر في عشرينيات القرن العشرين، فإن تصرفات المملكة المتحدة في إيرلندا (ثاني أقدم مستعمراتها، بعد ويلز) أشعلت سلسلة من أحداث العنف التي أدت - منذ أواخر الستينيات - إلى أربعة عقود من الأعمال الإرهابية في إقليم أيرلندا الشمالية. كذلك واكبت الصراعات الإرهابية في لبنان تدمير الدولة اللبنانية^(*). على حين أدى الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين إلى انفجار العنف الإرهابي^(**) داخل إسرائيل. كما طبعت الفورات الإرهابية تاريخ ما بعد الحرب في كل من إيطاليا، وألمانيا، وأسبانيا، وروسيا. ومن المعروف أن هجوم تنظيم القاعدة على الولايات المتحدة في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ يجسد حالة الإفراط في العنف التي تعد سمة مميزة للإرهاب الدولي. ويعتقد أن الإرهاب - في كثير من الحالات السابقة - يؤثر بشكل حاسم على النظم السياسية التي يستهدفها بأعماله. فمن بين نتائج ذلك - خاصة في نظم الحكم الديمقراطية الليبرالية - تضيق نطاق (أو خنق) مجالات تطبيق القانون، خاصة تلك التي ترتبط بحقوق الفرد وتوفير الأمن. عندئذ يتراجع استقلال النظام القضائي إلى حد يهدد حرية الأفراد أمام القانون التي تحظى بمكانة عليا في الديمقراطيات الليبرالية. وينجم عن ذلك في العادة اشتعال

(*) الإشارة إلى الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ - ١٩٩٠. (المراجع)

(**) الذي يعبه العرب وكثير من النصفين "مقاومة مشروعة". (المراجع)

التوتر بين السلطتين القضائية والتنفيذية فى كثير من الحالات. وفى الأحوال التى يصور فيها الإرهابيون القوى الغربية بأنها قوى استعمارية تسعى إلى احتلالها (كما هو الحال فى خطاب تنظيم القاعدة، انظر Bin Laden ١٩٨٩)، نجد أن التشريعات التى تمنح السلطة التنفيذية مزيداً من القوة يمكن أن تقلل من الكلام الجميل عن الحرية. ومن النتائج الأخرى التى ترتبت على هجوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ازدياد التعاون الدولى بين الأجهزة الحكومية للدول المختلفة. وأشد ما يلفت الانتباه هنا استجابة رئيس الولايات المتحدة جورج بوش بإعلان "الحرب على الإرهاب" (Bush 2001 a). وقد ترتبت على هذا الإعلان جملة من النتائج التى يتعذر تلخيصها هنا لضيق المقام. ولكن ربما يكون من أبرز تلك النتائج العمل العسكرى ضد أفغانستان الذى حدث بسبب وجود تنظيم القاعدة هناك، وقيام الأمريكين بسجن مئات المسلمين - بدون محاكمة - فى خليج جواتانامو (فى كوبا) بزعم أن أولئك الناس سجناء حرب. ويمكن القول إن غزو العراق فى مارس ٢٠٠٣، وما أعقبه من الإطاحة بالزعيم العراقى صدام حسين ثم إعدامه فيما بعد؛ يمكن القول إن ذلك يرتبط مباشرة بخطاب "الحرب على الإرهاب". وقد استخدمت المزاعم (الكاذبة)^(*) عن دور العراق فى هجوم الحادى عشر من سبتمبر لتبرير الغزو. وإذا تأملنا - على المستوى النظرى - مفهوم الحرب على الإرهاب وأخذناه على محمل الجد، سوف نتبين أنه تعبير مثير للخلط فيما يتعلق بمفهوم الحرب، الذى يقتصر - منذ أيام القديس توماس الأكوينى^(**) - على العلاقات بين الدول القومية. أما

(*) التوضيح بين القوسين من المؤلف. (المراجع)

(**) عاش من ١٢٢٥ حتى ١٢٧٤، فيلسوف ولاهوتى إيطالى، من أشهر وأهم ممثلى الفكر الكاثوليكي. درّس علاوة على إيطاليا فى فرنسا وألمانيا. وقد ميز توماس الأكوينى بين ثلاثة أنواع من القوانين: القانون الأزلّى وهو مشيئة الله، ويكشف عن طريق الوحي. والقانون الطبيعى الذى يكشف عنه الناس بعقولهم، وهو ذلك القدر من القانون الأزلّى الذى استطاع أن يصل إليه الإنسان بعقله. والقانون البشرى، وهو من صنع الإنسان، وينبغى أن يكون مستمداً من القانون الطبيعى. وتنظيم الاقتتال والحروب وقواعدهما تندرج ضمن هذا القانون البشرى. للمزيد انظر، فؤاد كامل وآخرين، الموسوعة الفلسفية المختصرة، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٢ (مادة: الأكوينى). (المراجع)

مفهوم "الحرب" المستخدم لمقاومة الإرهاب فيختلف اختلافاً نوعياً عن التصور المعتمد نظرياً للحرب. من تلك الاختلافات: أن الأطراف المتحاربة لا تلتقى فى ساحة محددة للمعركة، ولا هى تتصرف كما تفعل أثناء الحرب (كقاعدة عامة على الأقل) أى وفقاً لمواثيق محددة سلفاً للسلوك العسكرى والزى العسكرى وغير ذلك. وطبيعى أن قواعد السلوك العسكرى تلك تستند بالضرورة إلى مواثيق وقواعد أخلاقية. من هنا فإن الخلط بين تلك القواعد والمواثيق (العسكرية) يفتح الباب للخلط بين المواثيق والقواعد الأخلاقية. (P.S) للمزيد انظر:

Borradori 2003; Dror 1983; Elstain 2003; Primoraz 2004; Sterba 2003; Walzer 2004.

Orientalism

الاستشراق

اكتسب هذا المصطلح شهرة خاصة بفضل كتابات المفكر الراحل إدوارد سعيد^(*) (Said 1978a). وهو يفهم "الاستشراق" بوصفه الدراسة الفكرية للشرق التى يضطلع بها الدارسون الغربيون الاستعماريون. وقد التمس سعيد دعماً نظرياً من كتابات ميشيل فوكو وجاك ديريدا (انظر مواد: التفكير، ما بعد البنيوية، ما بعد الحداثة): وذلك لى يوضح أن تلك الدراسة لم تكن فى الحقيقة سوى امتداد لمنطق الإمبريالية. ويؤكد سعيد أن المستشرق - رغم التزامه المهني بتقديم تحليل وصفي موضوعي للثقافة الآسيوية - فإنه يصور الشرق فى الواقع فى ضوء عدد من السمات الخاصة السلبية عادة (كالافتقار إلى المنطق، والحكم الاستبدادي، والسلوك الجنسي الذى لا يعرف حدوداً أو قيوداً)، وهى صورة تلبورت من خلال الحاجة إلى توصيف هوية أوروبية^(**). ويمكن القول - باختصار - إن ما وصف بأنه "الآخر" الشرقى، لم

(*) انظر تعريفاً موجزاً بحياته فى هامش مادة: الآخر. (المراجع)

(**) تتصف بعكس تلك الصفات - (المترجم)

يكن في الحقيقة سوى إسقاط لصور القلق الغربية. وهكذا يتبين أن تصورات الدارسين الغربيين للشرق لا تعدو - في الحقيقة - أن تكون تصورات إيديولوجية متجذرة في مزيج من السيادة الاستعمارية ونوع من التحويل^(*) الثقافي. وتأسيساً على تحليل فوكو لخطاب المعرفة وخطاب القوة (انظر مادة: الشكل المعرفي) فإن تأسيس خطاب الذاتية الشرقية قد اكتسب بذلك شكلاً من السيطرة التي تسعى إلى التحكم في موضوعها من خلال التعريف الذي تقدمه له. ومن الآثار الإيجابية لمثل هذا الرأي تزايد الوعي بالإحساس بالتفوق الثقافي والعرقى الذي نلمسه في كتابات أعلام المفكرين الغربيين مثل هوبز، وجون لوك، وجون ستيوارت ميل، وهيجل. ويؤكد تحليل إدوارد سعيد بكل قوة الحاجة إلى أن نأخذ في الاعتبار مسائل الاستعباد الاستعماري في الاعتبار كلما واجهنا ذلك التعارض الواضح بين الثقافات الغربية وغير الغربية.

على أن هناك - من ناحية أخرى - ثمة اعتراضات على قوة الإقناع البادية في القول بأن الاستشراق ليس سوى خطاب موحد متجانس يخضع لخدمة أغراض السيطرة الإمبريالية وحسب (راجع دراسة روشه Rocher المنشورة في كتاب Breck enridge and Van de Veer، ١٩٩٣). فعلى الرغم من أن سعيد قد يكون لديه من المبررات ما يكفي للاعتراض على صورة الشرقي الموحدة التي رسمها المفكرون الغربيون في بعض الأحيان، فطبيعي أنه سوف يترتب على ذلك وبنفس المنطق إمكان توجيه نفس الاتهام إليه. كذلك قيل بشكل مقنع كل الإقناع أن كثيراً من جوانب الفكر الآسيوي قد أثرت على الغرب تأثيراً حاسماً لا يمكن فهمه أو تقديره حق قدره من خلال الفهم الإيديولوجي الذي يطرحه إدوارد سعيد. وفي هذا يقول كلارك: "يمكن

(*) التحويل Revulsion مصطلح طبي في الأصل - مستخدم هنا من قبيل المجاز - ويعني تحويل الداء أو الدم من جزء من أجزاء الجسم إلى جزء آخر. (المراجع)

القول بأن الاستشراق في السياق الغربي [...] يمثل حركة مناوئة، ولكنها ليست موحدة أو منظمة عن وعي، تستهدف هدم وتفنييد المبادئ والأسس التي تركز عليها ألوان خطاب القوة الاستعمارية لا أن تؤكد لها أو تدعّمها. (كلارك، ١٩٩٧: ص ٩) PS. للمزيد انظر: Breckenridge and Van de Veer (١٩٩٢)، و Clark (١٩٩٧)، و Said (١٩٧٨).

الاستعارة Metaphor

تعد الاستعارة بصورة عامة نوعاً من المجاز يشار فيه إلى شيء ما باستعمال لفظ أو مصطلح يصف - حرفياً - شيئاً آخر. وهذا المصطلح مشتق من الكلمة الإغريقية "ميتافورا Metaphora"، والتي تعني "ينقل" أو "يحول". لذلك فإن كلمة الاستعارة التي وردت في كتاب أرسطو "علم البلاغة" Rhetoric، تطرح بوصفها كلمة تستعمل بمعنى متغير وكاشف: "الكلمات العادية لا تنقل من المعاني إلا ما نعرفه فعلاً؛ أما الاستعارة فهي وحدها التي تمكننا من الوصول إلى فهم أفضل لشيء جديد".

وفي عهد أحدث أدت المكانة التي حظيت بها الاستعارة بسبب إسهامها في نمو اللغة وتطورها، إلى اجتذاب الفلاسفة والباحثين في مجال النظريات الأدبية فأولوها اهتماماً خاصاً. فطرح - بأسلوب فني إلى حد ما - تصورات عديدة عن حقيقة أنواع الاستعارة، وكيف تؤدي هذه الاستعارات وظائفها، وما هي إسهاماتها - إن وجدت - على المستوى الدلالي أو المستوى المعرفي. ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه ماكس بلاك^(*) في تحليله المهم لهذا الموضوع، إلى أن التعبير أو الكلام الاستعاري يحتوي

(*) بلاك، ماكس (1909-1991) Black, Max ولد في روسيا. ولكنه تلقى تعليمه النظامي في إنجلترا واشتغل بتدريس الفلسفة في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٠. على أن الإسهامات الرئيسية لبلاك باعتباره أستاذاً للفلسفة منصبة على أسس المنطق والرياضة، وعلى نظرية المعرفة وفلسفتي اللغة والعلوم؛ ويميل فكره بحكم مزاجه إلى النزعة التجريبية والنزعة التحليلية، وهو ما انعكس مناصراً غيوراً لكل من =

على "موضوعين" - موضوع رئيسى وموضع ثانوى - وأنه يحدث تأثيره عن طريق "ما يُسقطه" على الموضوع الرئيسى (العَمَّ فلان مثلاً) من معانٍ مترابطة (كأن يقول عنه - مثلاً - إنه كلب حقير) حيث تعمل هذه المعانى عمل المرشع الذى يتم من خلاله النظر إلى الموضوع الرئيسى من زاوية جديدة، كما يتم فهمه فهماً جديداً، وإذا حللنا الاستعارة بهذا الشكل، نجد أنها أكثر من مجرد حلية أو زخرفة. إذ إن لها دوراً خاصاً تمتاز به فى مجال انطباق الكلمات على ما أطلقت عليه فى الواقع، كما أن لها دوراً مماثلاً - على وجه الخصوص - فى الفهم الذى يتحقق عن طريق المقارنة.

إن التأثير المدوى لما طرحه نيتشه من وصف للحقيقة، وهو وصف يكثر الاستشهاد به، وذلك باعتبارها "جيشاً متحركاً من الاستعارات"، لبوحى بأن "الاستعارية" قد تكون ذات أعماق أبعد من ذلك. إذ إنه - وفقاً لما يذهب إليه نيتشه - إذا كانت الحقائق الواقعية مجرد "استعارات مبتذلة ليس لها تأثير حسى، وقطع من العملات المعدنية التى انمحت الصور المنقوشة عليها ولا ينظر إليها إلا على أنها قطع من المعدن فحسب، وليس لها صلة بالعملات النقدية المعدنية؛ إذا كانت الحقائق الواقعية على هذا الوضع فإن التعبيرات الاستعارية لا تصبح نمطاً معزولاً من أنماط التعبير اللغوى، وإنما تصبح أساس هذا التعبير اللغوى نفسه. وفى نفس الوقت، يصبح التمييز بين الواقعى والاستعارى مسألة عارضة، وليست مسألة تتصل بدلالة

= الإدراك الفطرى السليم والمعرفة العلمية ضد شتى أشكال النقد المعادى لهما. وعلى الرغم من أنه قد تأثر فى نظره برسل ومور وبالمضعيين المناطقة، فإنه ما انفك ناقداً نافذاً لكثير من المبادئ التى يناصرها هؤلاء المفكرون. يضاف إلى ذلك أنه وإن كان ملحوظ المكانة فى نشره المنهج اللغوى فى التحليل الفلسفى المرتبط بفتحشتين، لكنه لم يكن تابعاً متمسكاً تمام التمسك بسنن هذه الطريقة سواء فى استخدامه منهج التحليل اللغوى أو فى اختياره للمشكلات التى طبق عليها هذا المنهج؛ بل لقد كان بلاك - على العكس من ذلك - غير ملتزم باتجاه معين فى فلسفته، وقد استخدم مجموعة متباينة من الطرق الفنية العقلية استخداماً سليماً فى مناقشاته لمشكلات معينة تفاوتت أنواعها تفاوتاً بعيداً. (المراجع)

----- (أ) -----

الألفاظ ومعانيها بصورة مجردة. ذلك لأن التعبير الواقعي يصبح معادلاً للاستعمال اللغوي المألوف أو السوى، ويصبح التعبير الاستعاري معادلاً للاستعمال اللغوي الغريب أو الشاذ.

وقد أدت التطورات اللاحقة إلى دفع قضية الاستعارة إلى موقع متقدم في الأجندة الفكرية. فهايدجر في تفسيره لمعنى الكلمة التي تعبر في اللغة الإغريقية عن الحقيقة وهي كلمة Aletheia، التي تعنى "الكشف" أو "الإظهار" وليس "تمثيل الواقع" بصورة صارمة دقيقة، إنما يدين بالكثير لتلك الفكرة التي ترى أن الإبداع الذي تتصف به العملية الاستعارية أمر لا يستغنى عنه بالنسبة للحقيقة، وليس مجرد تسلية أو حلية ظاهرية. وفي علم الألسنية البنوية الذي وضعه ياكوبسون تعتبر الاستعارة، ومعها الكناية، إحدى الركيزتين اللتين تقوم عليهما اللغة في أدائها لوظيفتها. والاستعارة عند جاك لاكان، بوصفها إحلال كلمة مكان أخرى، أمر جوهري فيما قام به من معالجة لغوية (أو ألسنية) لتصوير فرويد عن عملية التكثيف^(*). كما أسهمت بحوث ماري هيسي Mary Hesse، وهايدن وايت Hayden White وريتشارد رورتي، في إلقاء الضوء على أهمية الاستعارة في تحقيق التقدم الفكري والثقافي، ووسعت نطاق ما تتمتع به الاستعارة من مكانة محورية بحيث تشمل - على التوالي - مجال الفروض العلمية، والتأريخ، وجميع أنواع الكتابة الوصفية. وعلى ذلك، ووفقاً لما يذهب إليه رورتي، فإن كوبرنيكوس عندما صرح بدعواه التي قال فيها إن الأرض تدور حول الشمس إنما كان يجرب - ببساطة - استعمال أسلوب جديد وغير معتاد من أساليب التعبير، أعنى به أسلوب الاستعارة ذاك. وما حدث بعد ذلك أن ظل هذا التعبير -

(*) التكثيف: عملية دمج فكرتين أو أكثر ليكوناً معاً صورة مركبة تكتسب معناها وطاقاتها من الفكرتين معاً. والتكثيف من العمليات الأولية للاشعور، ويتمثل في الأحلام، وفي أعراض بعض الأمراض النفسية. (انظر موسوعة علم النفس والتحليل النفسي - د. عبد النعم الحفني). (المراجع)

لأسباب ثقافية وسياسية - وليست واقعية تماماً، ظل ثابتاً حتى الآن كتصور مألوف أو معتاد يدركه جميع الناس إدراكاً بديهياً.

ويرى البعض أن التفضيل الفكرى للاستعارة يبلغ أوجه عند جاك ديريدا، إذ يرفض رفضاً واضحاً جلياً أى تمييز بين المعنى الواقعى والمعنى الاستعارى على الإطلاق، كما يرفض الجهود التى يبذلها التفكيكيون المشاغبون لفضح مظاهر الخداع التى يرمون بها كافة الآراء التى تدعو للالتزام بالموضوعية. ورغم ذلك، فإن بعض المفكرين يرون أن ديريدا يسلط الضوء على ضرورة التحديد الدقيق لنوع التصور الفلسفى للاستعارة الذى يمكن أن تقتضيه السمة الاستعارية *Metaphoricity* الواضحة الموجودة فى أشد اللغات بساطة وشيوعاً.

وعلى أية حال، فمن المفكرين المقتنعين بفكرة إن أفضل نظرة للحقيقة هى النظرة التى تراها بوصفها بناءً أو تركيباً لغوياً أو منطقياً، من يبغي توسيع الاتجاه الفكرى لنيته إلى المدى الذى يمكن عنده قراءة كافة الآراء والقضايا، وكافة أشكال الحوار الثقافى باعتبارها أموراً استعارية؛ وذلك لأن الاستعارة، بعبارة أخرى، تحظى بالقبول التام عندهم. وقد ترتبت على هذه المواقف الفكرية نتائج وفيرة العدد وعميقة المعنى، وهى لا تقتصر فقط على ذلك الغموض أو الضبابية التى تغشى أشكال التمييز بين الحقيقة والإيديولوجيا، أو بين العلم والخرافة، أو بين الصورة الزائفة للحياة والحياة (المفترض أنها) حقيقية. وأياً ما كان الأمر، فإن هذا الوضع قد يؤدى إلى إنكار الجانب الخاص من أهمية الاستعارة بالنسبة للتعبير الوصفى. ومن المؤكد أن الأسئلة عما ينبغى أن يكون عليه التعريف الملائم للاستعارة، وعما إذا كان ينبغى التمييز بينها وبين المعنى الواقعى وكيف يتم ذلك، وعما إذا كانت الاستعارة تخلق المعنى أم أنها تكتفى بأن تعيد سرده من جديد؛ هذه الأسئلة لا تزال محل جدال (انظر دافيدسون 19٩٨). وأياً ما كان المجال الذى تغطيه الأجوبة النهائية على هذه الأسئلة

فإن قلة من المفكرين تود التشكيك في الدور الكامل الذي تقوم به الاستعمارية في تمكين الخطاب من أدائه لوظيفته على وجه الإجمال. (GC) للمزيد انظر: Black (١٩٧٩) و Derrida (١٩٨٢) و Davidson (١٩٨٤) و Gooper (١٩٨٦) و Nietzsche (١٩٩٥).

Colonialism

الاستعمار

على الرغم مما ارتبط بتلك الكلمة ذات مرة من دلالات النزعة الإقليمية الضيقة وانعدام الذوق، فإن كلمة "الاستعمار" أصبحت تعنى في القرن العشرين تحديداً الغزو عنوة والاحتلال وإدارة الثقافات والشعوب غير الغربية بواسطة القوى الأوروبية والأمريكية الشمالية. وبهذا المعنى يتضح بكل جلاء أن الاستعمار ظاهرة ترتبط بالقرنين التاسع عشر والعشرين. غير أنه يمكن تعقب جذور هذه الظاهرة بصفة خاصة إلى مرحلة الازدهار الكبير للرأسمالية التجارية وما رافقها من ظهور إيديولوجيا النزعة الفردية الليبرالية في أوروبا إبان القرن الثامن عشر. من هنا نلاحظ أن النزعات الاستعمارية والنزعة الفردية الساعية إلى التملك يسيران معاً جنباً إلى جنب كما يدلنا على ذلك تبرير الفيلسوف جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) لعمليات الاستيلاء على الأرض في الأمريكتين، وذلك في كتابه: "دراستان عن الحكومة" (الذي نشر لأول مرة العام ١٦٩٠)، وتتمثل الاهتمامات الأساسية للدراسة الثانية في تأكيد حقوق الفرد الطبيعية في "حالة الطبيعة"، حيث يتم تأسيس وتبرير وجود الحكومة المدنية وامتلاك الثروة وحمايتها بالعمل الفردي، واستخدام كل ذلك ليضفى في النهاية مشروعية - ليس فقط على "تملك الأرض على نحو غير متناسب وغير متكافئ" - (الفقرة ٥٠)، وإنما كذلك على تملك الأوروبيين للغابات البرية والأراضي الشاسعة غير المزروعة في أمريكا" (الفقرة ٢٧). فجون لوك ينظر إلى أمريكا كمساحة هائلة من الأراضي غير المستغلة (لأنها غير مزروعة) قريبة في طبيعتها للأرض المشاع التي

تخضع - تلتطفأ - للقانون العام البريطاني. ويُصور السكان المحليون - بدورهم - بأنهم يفتقرون إلى الكفاءة التي تؤهلهم لاستغلال تلك الأراضي على النحو الذي تستحقه. فالفارق بين فدان من الأرض في أوروبا ونظيره في أمريكا من الوضوح بحيث يدلنا على ما يلي: حيث يحقق الفدان الأوروبي خمسة شلنات "ربحاً" سنوياً، فإن الفدان الأمريكي ربما لا يساوي بنسب واحد، إذا قدرنا قيمة الربح الذي يعود منه على "الهندي الأحمر" الذي يملكه لو بيع هنا، وأكد أقول إنه لا يساوي حتى واحد على ألف (الفقرة ٤٣). وطالما أن الهنود الأمريكيين الأصليين لم يشاركوا بقية البشرية في تبني أسس التبادل على أساس استخدام النقد، فإن الأراضي التي يعيشون عليها إنما تكون "أرضاً خراباً" (الفقرة ٤٥)، وبذلك تصبح صالحة لتملكها على نحو مشروع من خلال استثمار العمل، الذي يمنح وحده "حق التملك". وواضح أن رؤية جون لوك لمنط أمريكا البدائية على أنه يطابق مفهوم "العصور الأولى" عن الحياة في قارتي آسيا وأوروبا (الفقرة ١٠٨)؛ إنما تعبر عن شعور الثقافة الغربية بالاستعلاء على نظائرها من الثقافات غير الغربية. واقتزن هذا الشعور بالاستعلاء - خلال القرنين التاليين - بتسارع النمو الصناعي وما أتاحه ذلك من قوة مادية ملموسة. وترتب على سيطرة الغرب أنه بات من المفروض على الثقافات غير الغربية أن تعيش وفقاً لأجندة تحددها مصالح العالم الغربي الأكثر قوة. ويلاحظ أن إرساء دعائم السيادة الإمبريالية، التي يؤشر لها نمو النزعة العسكرية التي أصبحت تميز أوروبا والغرب باضطراد منذ أسس بسمارك الرايخ الألماني الثاني في عام ١٨٧١ وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤؛ كل ذلك كان إيذاناً ببداية عصر التنافس الإمبريالي بين الدول الأوروبية الكبرى لإقامة نوع من السيطرة الاقتصادية الكاملة أو السيادة المباشرة لأراضي دول أجنبية، خاصة في قارة أفريقيا التي كانت قد اكتشفت مؤخراً. ولاشك أنه كان من أسباب هذا التوسع الإمبريالي الرغبة التي فجرتها قوى السوق الحر لتأمين الحصول على الموارد الطبيعية المهمة، وهي رغبة مقترنة بالتطلع إلى

----- (أ) -----

الأرباح المالية التي كان يعتقد أن النمو الاقتصادي الإمبريالي يمكن أن يحققها. ويلاحظ أن ذلك الاستغلال وتلك المعاناة التي ينطوي عليها مثل هذا النوع من الممارسات الاستعمارية قد صورها باقتدار جون كونراد في روايته التي صدرت عام ١٩٠٢ بعنوان "قلب الظلام"، وكذلك صورت الدمار الثقافي الذي تسبب فيه أولئك المستعمرون Conrad (٢٠٠٠).

ويمكن إرجاع البدايات الأولى لزال القوة الاستعمارية الأوروبية إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وما أدت إليه من اندحار الإمبراطوريتين الألمانية والنمساوية. وفي نفس الوقت أدى ظهور الاتحاد السوفيتي الشيوعي في روسيا عام ١٩١٧ إلى مزيد من تقوية النموذج الصناعي الغربي وتدعيم قدرته على الهيمنة الثقافية. وكما سبق وأوضح هوبسباوم، فإن النظام الشيوعي - رغم طابعه غير الليبرالي ومناوئته للثروة الفردية - لم يكن أقل من الغرب استيعاباً للنموذج الصناعي الاجتماعي والاقتصادي. ولهذا كان صراع السبعين عاماً (منذ تأسيس الاتحاد السوفيتي) بين الليبرالية الغربية والشيوعية الشرقية، صراعاً بين المعسكرين على السيطرة من أرضية مشتركة انتهت إلى توسيع وتدعيم السيطرة الاقتصادية والثقافية للغرب. والأمر اللافت للنظر في ذلك أن تاريخ العالم غير الغربي - أو بدقة أكبر العالم غير الشمالي الغربي - في القرن العشرين، قد تحدد في حقيقته تبعاً لعلاقاته بالدول التي كرس وجودها خلال القرن التاسع عشر كسادة البشرية الكبار (Hobsbawm، ١٩٩٥: ٢٠٠).

وغداة الحرب العالمية الثانية بدأت الإمبراطوريات العظمى للدول الأوروبية الغربية تنحسر بشكل حاسم وملمس، رغم اتجاه الحكومتين الفرنسية والهولندية الرفض لذلك. وبدأت بريطانيا - بعد أن انتهت الحرب ويسبب ما كانت تواجهه من ضعف وضعها الاقتصادي - تتخلى عن سيطرتها على تلك الأجزاء من القارتين الهندية

والأفريقية التي كانت تستعبدتها في السابق. وأجبر الفرنسيون في نهاية الأمر على الجلاء عن الجزائر وعن بعض مستعمراتهم الأخرى. ومع ذلك فإن زوال هذا الشكل من الاستعمار لا يعنى نهاية قصة الاستعمار. وربما كانت الولايات المتحدة قد شجعت صراحة على تفكيك الإمبراطوريات الأوروبية، ولكنها إنما فعلت ذلك لأن زوال تلك الإمبراطوريات كان يعنى لها فرصة لتوسيع نفوذها في عالم ما بعد الحرب العالمية الذى اقترن بتصاعد صراعها مع الاتحاد السوفيتى. وكانت محصلة ذلك الصراع انهيار الإمبراطورية السوفيتية في عام ١٩٨٩ وإيداناً ببداية عصر السيطرة الأمريكية على العالم. واقتترنت تلك السيطرة بتقديم قروض ضخمة إلى ما يعرف بدول العالم الثالث، التى حاولت جماعات الصفوة فيها محاكاة النموذج الغربى. وأدى ذلك إلى تكون مديونيات تعجز المقترضين، والتى - رغم محاولات براجماتية مؤخراً من جانب الحكومات الغربية لتخفيف وطأة الأمر - لم تؤد سوى إلى توسيع الهوة بين الشمال والجنوب. كذلك أدى نمو الممارسات الاقتصادية العولمية - التى اقترنت بالشركات العابرة للقوميات - إلى ازدهار الهيمنة الاقتصادية والثقافية لأمريكا. وهكذا أخيراً أفسح الاستعمار الأوروبى الطريق للاستعمار الأمريكى. ومما يدل على أن الممارسات الاستعمارية للقوى الغربية ظلت محتفظة بطابعها الذى كانت تتسم به فى القرن التاسع عشر : حرب الخليج الثانية التى جرت مؤخراً، وغزو العراق بقيادة أمريكية ومساندة بريطانية للقضاء على دكتاتور العراق صدام حسين. ولاشك أن تلك الأحداث ترتبط بالخواف (وربما كذلك غضب الساسة الغربيين) التى تبلورت فى أعقاب الهجمات الإرهابية يوم الحادى عشر من سبتمبر فى نيويورك. ومع ذلك فإن ادعاءات الإدارة الأمريكية - التى تم تنفيذها فيما بعد - بأن العراق كان على صلة بتلك الهجمات الإرهابية، وكذلك تأكيدات الحكومة البريطانية (التي ثبت زيفها) بأن الأسلحة الكيماوية العراقية تمثل تهديداً وشيكاً لأمن المواطنين، إن هذه الادعاءات جميعاً قد أكدت الشكوك التى ذهبت إلى أن حرب العراق إنما كانت تعبيراً عن النزعة

----- (أ) -----

العسكرية والنزعة الاستعمارية.. بكل دقة ويمنتهى البساطة. ثم جاءت تأكيدات قادة الدولتين فيما بعد بأن المبرر الرئيسي للغزو هو إدخال الديمقراطية الليبرالية إلى العراق - حتى ولو تم ذلك على حساب حياة بضعة آلاف من العسكريين الغربيين ومئات الآلاف من المواطنين العراقيين - جاءت تلك التأكيدات لتغذى الشكوك التي ذهبت إلى أن الاستعمار الثقافي ليس أقل شغفًا بالغزو وسعيًا إلى السيطرة من نظائره الإمبريالية في القرن التاسع عشر. (PS) للمزيد انظر: Hobsbawm (١٩٨٧، ١٩٩٥) و Pommeroy (١٩٧٠، ١٩٧٤).

Relative Autonomy

الاستقلال النسبي

هو ذلك المفهوم الدال على أن الأشكال أو البنى الاجتماعية التي تقوم بمهامها في نطاق ثقافة ما لا تكون محكومة تمامًا بالاعتبارات التي تمليها هذه الثقافة، كما أنها لا تكون مستقلة تمامًا عن التأثير بها (وهو مفهوم تم توضيحه جيدًا على يد لوى ألتوسير في فكرته عن أجهزة الدولة الإيديولوجية) (PS).

Consumption

الاستهلاك

ظهرت الفكرة التي تقول إن الرأسمالية أصبحت "مجتمعًا استهلاكيًا"، ظهرت - على أقل تقدير - في أوروبا الغربية، في خمسينيات القرن العشرين، وذلك كرد فعل للرفاهية المتزايدة والتغيرات التي حدثت في البناء الاقتصادي والصناعي (حيث انتقل نقلة كبيرة من الصناعة الثقيلة التقليدية في اتجاه التكنولوجيات الحديثة وتوفير الخدمات) في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. وقد أدى هذا الوعي تدريجيًا إلى تزايد الاهتمام بالاستهلاك كنشاط له دلالة ثقافية. ومع ذلك، في إمكان أن نعثر على النظريات الهامة للاستهلاك منذ أواخر القرن التاسع عشر فصاعدًا.

وكان المنظرون الاجتماعيون أمثال ثورشتاين فيبلن وجورج زيمل من بين أوائل المفكرين الذين بدأوا يبلورون بوضوح ماذا يعنى الاستهلاك بالنسبة للحياة فى الحضر. ويذهب فيبلن^(١) (١٩٥٣) فى تفسيره للاستهلاك المظهرى الذى يميز الطبقة البورجوازية المترفة، إلى أن الهوية الطبقيّة لا ترتكز على العمل أو المهنة، إنما ترتكز على أنماط الاستهلاك، وهو الأمر الذى يساعد على إنشاء أساليب معيشية متميزة، وعلى التعبير عن المكانة. وبالمثل، فإن مقالات زيمل^(٢)، بما فيها تلك التى كتبها عن "المدينة الكبيرة والحياة العقلية" (١٩٥٠/ب) وعن "الأزياء" (١٩٥٧)، تحلل الطريقة التى بها يستخدم الاستهلاك لتطوير ما يعد عند زيمل نزعة فردية مزيفة. ذلك أن هذا الاستهلاك المفرط والمبالغ فيه ينتج للمستهلك أن يميز نفسه عن الآخرين. وبهذا الشكل ينظر إلى الأزياء على أنها تعمل من خلال تفاعل غريب الشأن بين التوافق مع الآخرين والانشقاق عنهم، وبين الألفة والاعتیاد من جهة والغربة والشذوذ من جهة أخرى، وذلك بمقدار ما يقوم به المستهلكون ذوو الوعى بالأزياء الجديدة من تدعيم انتسابهم للتيار

(*) ثورشتاين يونده فيبلن T. B. Veblen (١٨٥٧ - ١٩٢٩) واحد من أبرز نقاد نمط الحياة الصناعية الأمريكى من الوجهة الاجتماعية. ويرجع إلى كتاباته الفضل فى إثراء علم الاقتصاد المؤسسى، والتأثير على مفكرين بارزين مثل جون جالبرايت وتشارلز رايت ميلز. أخذ فيبلن الإيديولوجيات الأساسية لرأسمالية المشروعات التى كانت شائعة فى أواخر القرن التاسع عشر، وخاصة النزعة التطورية ونظرية السعر، وطبقها على المجتمع نفسه - لا على المشروع الرأسمالى - وبالذات المجتمع الذى ازدهرت فيه تلك الإيديولوجيات. من أشهر أعماله كتاب "الطبقة المترفة" (١٨٩٩) وفيه قارن بين الاستهلاك المظهرى ووقت الفراغ المظهرى لدى الطبقات المترفة. انظر المزيد فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق. (المراجع)

(**) جورج زيمل George Simmel (١٨٥٨-١٩١٨) من أعظم علماء الاجتماع الذين ظل لهم التاريخ. نشر حوالى خمسة وعشرين كتاباً وأكثر من ثلاثمائة مقال خلال حياته. ويرجع تأخر اشتباهه إلى طبيعته المستقلة المغايرة، كما يرجع إلى طبيعة كتاباته التجزئية والتفقيّة. را- مجالات بحث واسعة متنوعة ما بين كتب عن كانط وجوته، مروراً بدراسات فى الفن والثقافة، وحتى تحليلاته الرئيسية للدين، والنقد، والرأسمالية، ومسألة النوع الاجتماعى (الجنس)، والجماعات الاجتماعية، والحياة الحضرية، والأخلاق. حتى الحب كان واحداً من بين موضوعاته العديدة التى كتب فيها. انظر المزيد فى موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجومرى وزملاؤه، مرجع سابق، المجلد الثانى، ٢٠٠٠. (المراجع)

المشايع للموضات الجديدة، فى نفس الوقت الذى يميزون فيه أنفسهم بهذا التصرف عن الجماهير التى لا ترتدى هذه الأزياء. وتمثل الأزياء عند زيمل جاذبية نحو ما هو نادر وغريب وجديد، وتمثل رغم ذلك ونتيجة لتغيرها التاريخى المستمر، فرصة للسخرية من موضات الأزياء القديمة (الأمر الذى يترتب عليه، وبصورة متناقضة، سخرية المرء من نفسه حين كان يلبس تلك الأزياء القديمة).

ويبدى الماركسيون - بحكم موقفهم - قدراً مماثلاً من التشكك فى قيمة الاستهلاك، بل قد يكون أشد وأقوى من المواقف المذكورة. وذلك تأسيساً على موقف النظرية الاجتماعية الماركسية التى تنظر إلى البشر على أنهم - أساساً - كائنات منتجة (انظر مادة: الإنتاج) وليست مستهلكة. فالتركيز على أن البشر كائنات مستهلكة قد يوحى بنوع من التضليل الإيديولوجى (انظر: الإيديولوجيا) يؤدى إلى تحويل النظر عن جوهر النضال الاقتصادى والسياسى، أو إعلان عن أن الإنتاج داخل النظام الرأسمالى لم يف بما هو مطلوب منه أو أصبح مغترباً (انظر: اغتراب) عن عالمه.

ويمكن القول بأن أقوى المعالجات الماركسية للاستهلاك قدمتها مدرسة فرانكفورت. ذلك أن الفكرة الخاصة بصناعة الثقافة التى طرحها هوركهايمر وأدورنو (١٩٧٢) تذهب إلى أن رأسمالية القرن العشرين تمثل نمطاً متميزاً من أنماط الإنتاج، (انظر: نمط الإنتاج)، وذلك أقل ما توصف به مقارنةً بالرأسمالية القديمة التى كانت موجودة عندما كتب ماركس (انظر: كتاباته الماركسية). أما عند ماركس، فإن المستهلكين على أيامه (فى القرن التاسع عشر) كانوا قادرين على الاختيار الحر بين السلع على أساس منفعتها لهم (أو قل على أساس قيمتها الاستعمالية) التى سوف يستمدونها منها. وعلى ذلك فإن السلعة التى لا نفع لهم فيها سوف تُرفض، وبهذا الشكل يحتفظ المستهلك بقدر يسير من القوة فى تعامله مع هذه الرأسمالية القديمة.

ويذهب هوركهايمر وأدورنو إلى أن القيمة الاستعمالية للسلع فى ظل النظام الرأسمالى المعاصر، قد أخضعت لسيطرة المنتج الرأسمالى، وذلك بفضل القوة التى يتمتع بها الإعلان ووسائل الاتصال الجماهيرى. فيمكن القول - على سبيل التبسيط - إن المستهلكين يشترون ما يريد الرأسمالى منهم أن يشتروه. ومع هذا، فإن ذلك النمط من صناعة الثقافة أكثر دقة ودهاءً من ذلك. فالمستهلكون فى نظر هوركهايمر وأدورنو ليسوا مجرد نسخ سلبية للنظام الرأسمالى. بل الأقرب للواقع، إن أكفأ الطرق للبقاء على قيد الحياة والفوز ببعض المتعة فى ظل القيود التى يفرضها المجتمع الذى يدار بأسلوب مفرط فى بيروقراطيته وفى نفعيته؛ تكون أكفأ طرق العيش أن يتقبل المستهلكون السلع المعروضة، وأن يتقبلوا فكرة أن الاستهلاك قد يساعدهم على التعبير عن وعيهم العميق بمدى الضرر الذى تلحقه الرأسمالية بهم. لهذا يتصور أدورنو أن الفتاة التى تعمل بائعة فى أحد المحلات التجارية، يتصور أنها عندما تدخل السينما، فليس ذلك لأنها تعتقد أن الأحداث الخيالية السعيدة التى تراها فى العرض السينمائى قد تحدث لها، ولكن لأنها - وهى فى داخل السينما فقط - يمكنها أن تسلم بأن هذه الأحداث لن تقع لها (أدورنو ١٩٩٢/ب: ٤٩-٥٠). وتعتبر هذه اللحظة الموجزة عن جانب من نظرية مدرسة فرانكفورت غالباً ما يغفل عن إدراكه من قرائها من لا يتمتعون بقدر كبير من دقة الفهم.

وتعترف الاتجاهات الأحدث فى تناول موضوع الاستهلاك بوجود العنصر البيوتوبى أو الخيالى (انظر: يوتوبيا) كامناً فى نشاط التسوق. فبوسعنا تحليل إيديولوجيا التسوق، حيث ينظر إلى التسوق أو الاستهلاك كحلول لمتابعب الحياة وأكدارها لدى الفرد. وباستعمال تعبيرات لاكان، يعدنا التسوق بأن يعيدنا أسوياء من جديد. ومع ذلك، وكما هو الحال مع تحليل فرويد للأحلام، فإن الانهماك الشديد فى الاستهلاك قد يفسر بوصفه حلاً وهمياً للمشكلات الحقيقية فى الحياة الاجتماعية. والواقع إن هذا التصور يعيد هذا التحليل - مرة ثانية - إلى الموقف الفكرى لمدرسة

فرانكفورت. إذ تعتبر هذه الدورة المستمرة للنزعة الاستهلاكية أمراً مرفوضاً كحل عاجل ونهائي لمشكلات المرء. فالمتوقع من النظرية أن تلقى الضوء على المشكلات الحقيقية (الاجتماعية والسيكولوجية) التي تتسبب في إحداث هذه المتاعب والأكدار. وقد أدان جاك أتالي (Jacques Attali) (١٩٥٨) هذه الفكرة، ذاهباً إلى القول بأننا عندما نشترى الموسيقى (في صورة أشرطة التسجيل الموسيقية)، فإن ما نفعله هو أننا نقدم عملنا (ومن ثم نقدم انغماسنا في ضغوط العمل وضروراته) في مقابل الحصول على سلعة ما. ولكن، وعلى خلاف أغلب السلع الأخرى، فإننا لا نقوم بعملية التبادل هذه إلا في ظل توقعاتنا الخيالية (اليوتوبية) ببلوغ يوم ما يكون لدينا فيه وقت الفراغ الذي يسمح لنا بالتمتع بهذه السلعة (أي: بالاستماع إلى هذه الموسيقى)، فنحن في واقع الأمر نعمل على أمل بلوغ مستقبل نتحرر فيه من العمل. ولاشك أن هذا الوقت لن يأتي أبداً، وسوف تظل القيمة الاستعمالية أو النفعية لهذه الموسيقى أملاً لا يرى النور أبداً.

وقد ظهرت تفسيرات أكثر إيجابية للاستهلاك، تذهب إلى أن الطاقة الكامنة في نشاط الاستهلاك تمثل شكلاً من أشكال المقاومة السياسية. وقد ظهرت أول الأمر مرتبطة بنظرية الثقافة الفرعية. فالثقافات الفرعية للشباب، ابتداءً من خمسينيات القرن العشرين فصاعداً، كانت تعد مستهلكة لمنتجات الرأسمالية، ولكن بطريقة لا تتوافق مع توقعات المنتجين الرأسماليين. ومن هنا بدأ إدراك أن المستهلك القدرة على أن يخلق لنفسه القيمة الاستعمالية للسلعة. وعلى هذا الأساس يصف ميشيل سرتوه Michel Certeau (١٩٨٤) الاستهلاك باعتباره عملية "إنتاج ثانوي". فبينما يكون بوسع الرأسمالية فرض منتجاتها على الناس، فإنه ليس بإمكانها أن تفرض عليهم طرق استعمالها. وقد أصبح المركز التجاري نفسه (وكذلك الحال مع عدد من السلع المعاصرة الرئيسية مثل "الوكمان"*) (دو جاي وآخرون Du Gay et al, ١٩٩٧) (١٩٩٧)

(*) وهو جهاز مكون من راديو ترانزستور وساعات، يشيع استعماله عند الشباب حيث يضعون الراديو في جيبهم ويضعون الساعات على أذانهم ليستمعوا إلى ما يريدون الاستماع إليه من البرامج الإذاعية أو الموسيقى. (المترجم)

وعرائس "باربي" Barbie (راند Rand ١٩٩٥) أصبحت في بؤرة اهتمام أغلب التحليلات التي زدتنا بها الدراسات الثقافية. ويعترف بالتسوق كنشاط واسع الانتشار بين الناس يملأون به وقت فراغهم، (وليس مجرد وسيلة لتحقيق أنشطة أخرى في أوقات الفراغ). وأصبح المركز التجارى بؤرة هذا النشاط، مع مراعاة أن المركز التجارى قد يوفر لرواده مصادر جذب أخرى غير التسوق (كالمطاعم، ودور السينما وغيرها من المرافق الترفيهية). ومع ذلك نلاحظ مرة أخرى أن الجماعات المختلفة التي تترادد المركز التجارى سوف تستهلك المركز نفسه (أى تستخدمه) بطرق مختلفة. فالشباب، والعاطلون، وكبار السن، ومن لا مأوى لهم، رغم أنهم مستبعدون بصورة ظاهرة من مجال الاستهلاك نظراً لافتقارهم إلى الموارد الاقتصادية، فإنهم - مع ذلك - سوف يجدون دائماً منفعة داخل هذا المركز (فقد يتخذونه - مثلاً - كملاذ يأتون إليه، أو مكاناً لالتماس الدفء، أو وسيلة للتسلية، أو كمكان يلتقون فيه) (موريس، ١٩٩٣).

وربما تدور القضايا الفكرية المرتبطة بتحليل الدلالة السياسية والاجتماعية للاستهلاك، حول تصور وفهم قضية استقلال الإنسان والفردية. إن الشواهد الواقعية التي تدلنا مثلاً على أن ٨٠٪ من المنتجات الحديثة قد رفض المستهلكون شراؤها؛ هذه الشواهد لا تفيد كثيراً فى التأكيد مما إذا كان المستهلكون قد مارسوا اختياراً فعالاً ومستقلاً أم أنهم لم يفعلوا. وربما يوجد ثمة توافق بين أمثال هذه الإحصائيات وبين النزعة الفردية الزائفة عند زيمل، وكذلك بينها وبين أفكار هوركهايمر وأدورنو عن صناعة الثقافة. ومع ذلك، فإن الاهتمام بقضية الاستهلاك يعلمنا الكثير عن الكيفية التي يخلق بها البشر لأنفسهم متسعاً أو مجالاً يتيح لهم التعبير عن ذاتهم فى ظل القيود الشديدة فى حياتهم اليومية (بصرف النظر عما إذا كان حكمنا على هذا التعبير - فى نهاية الأمر - بالتمجيد أو بالإدانة). (AE) للمزيد انظر: Bocock (١٩٩٣) و Miller (١٩٩٥) و Gorriگان (١٩٩٧) و Falk and Campell (١٩٩٧).

Myth

الأسطورة/ الخرافة

مصطلح له عدد من المعانى المترابطة والمتقاربة فى الحقيقة. والأسطورة، فى لبها وجوهرها، قصة أو سرود (مجبولة المؤلف عادة) عن الكائنات فوق الطبيعية. وتكمن أهمية الأسطورة فى طريقة احتوائها وتعبيرها عن المعتقدات والقيم التى تؤمن بها جماعة ثقافية معينة (انظر: ثقافة). وعلى ذلك فإن الأسطورة قد تفسر أصل هذه الجماعة (أو أصل العالم بوجه عالم)، وموضع تلك الجماعة من العالم، كما تبين علاقاتها بغيرها من الجماعات، وكذلك توضح الأسطورة أو تجسد القيم الأخلاقية التى تجلها هذه الجماعة. وقد كان علم الأساطير مجالاً لمختلف الاتجاهات الفكرية.

فى التحليل النفسى تعالج الموضوعات الأسطورية - عادة - بوصفها تعبيراً عن الصراعات النفسية العامة (وأشهر تلك الصراعات: عقدة أوديب). ونلاحظ أن يونج(*) استطاع من خلال دراسته الشاملة التى لم تقتصر على الأساطير وحدها، بل تناولت كذلك الأحلام والدين والفن، تطوير تصوره عن النماذج الأولية أو الأمثلة الأصلية "للأساطير" بوصفها العمليات الأساسية والعامة التى يتأسس عليها بناء الأساطير. أما الاتجاهات الوظيفية فى مجال الأنثروبولوجيا الثقافية فقد فسرت الأساطير فى ضوء الحاجات التى تشبعها فى مجال إعادة إنتاج المجتمع والحفاظ على استقراره. وعلى ذلك فإن الأسطورة تساعد - عن طريق تحويل معايير الجماعة إلى رموز - على تعزيز تماسك المجتمع وسلامته. وينظر علم الاجتماع الدوركايى إلى الأساطير باعتبارها

(*) يونج، كارل جوستاف Jung, Carl Gustav (١٨٧٥-١٩٦١) عالم نفس وتحليل نفسى سويسرى، أصبح لفترة من الوقت الوريث الشرعى لسيجموند فرويد، على الرغم من أنه كان قد انفصل نهائياً عن فرويد فى عام ١٩١٣ بسبب عدم قبوله للأهمية الفائقة التى عزاها فرويد للجنس. وتعد أعماله ذات طابع أكثر روحانية من أعمال فرويد، قدم فيها تحليلات لدورة الحياة والرمزية، ولكنه - بالقياس إلى فرويد - ظل محل تجاهل علماء الاجتماع على نحو غير مفهوم. ويقدم أنتونى ستور فى كتابه يونج، الصادر عام ١٩٨٦ مدخلاً جيداً لفهم أعمال يونج. (المراجع)

تعبيراً عن الوعي الجمعي، وهو ما يعنى المعايير والمعتقدات التى يتم تنشئة الأفراد عليها، والتى تقوم بدور المادة اللاصقة التى تحافظ على تماسك كل من المجتمعات قبل الصناعية والصناعية.

ويمكن أن نعثر على شيء قريب من هذا الفهم للأسطورة - باعتبار أنها ما يربط الجماعة ويحركها - فى كتاب الفكر الماركسى الفرنسى جورج سوريل بعنوان "تأملات فى العنف" (والذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٧)، ويعالج سوريل أسباب الأحداث السياسية والاجتماعية المعاصرة بوصفها أساطير كامنة أو محتملة (وأجدر هذه الأحداث بالذكر حالة الإضراب العام عن العمل). فتكون مثل هذه الأساطير ضرورية لإثارة المشاعر التى تستطيع القيام بتحفيز العمل السياسى الجماهيرى، وهذا التصور إنما هو صدى أو تكرار، ولكنه ذو نهج ثورى، للتصور المحافظ الذى سبق أن طرحه أفلاطون عن الأكاذيب الذهبية أو الأكاذيب النبيلة. ففى جمهوريته اليوتوبية (انظر: يوتوبيا) يلزم الأفراد مواقعهم فى المجتمع، وذلك بفعل إحدى الأساطير التى تتحدث عن المعادن الموجودة فى النفس. فولة الأمر المسيطرون على مقاليد الحكم قلوبهم من ذهب، بينما طبقة المحاربين لها قلوب من فضة، والحرفيون قلوبهم من حديد. وبهذا الشكل يتم التعبير عن العلاقات الاجتماعية والسياسية التى تربط هذه الجماعات فى صورة متخيلة مستلهمة من الفروق الطبيعية بين المعادن الموجودة فى الواقع.

وفى الأنثروبولوجيا البنوية عند ليفى شتراوس^(*)، والمستلهمة من أفكار سوسير عن علم العلامات، تعالج الأساطير بوصفها "منظومات من العلامات". ومع أن

(*) كلود ليفى شتراوس Claude Levi-Strauss أنثروبولوجى ومفكر فرنسى بارز، ساد تأثيره كواحد من أعلام منظرى البنوية، ليس فقط فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ولكن أيضاً فى كل العلوم الاجتماعية والإنسانية. انظر المزيد عنه فى: شارلوت سيمور-سميث، موسوعة علم الإنسان، مرجع سابق. (المراجع)

الأسطورة لا تزال تعد أمراً هاماً بوصفها الوسيلة التى من خلالها تقوم الثقافات بالمعالجة الفكرية للتوترات التى تعترى الوجود الاجتماعى، فإن ليفى شتراوس يرى أن الطريقة المناسبة لتحليل هذه التوترات هو اعتبارها تعبيراً ظاهرياً أو سطحيّاً عن البناء العميق الأساسى (وهو رأى قريب الشبه من رأى سوسير فى اللغة). فمن ناحية، فإن مؤلف ليفى شتراوس - المكون من أربعة أجزاء - الذى يحمل عنوان "الأساطير" - يروى بصورة تفصيلية دقيقة عدداً هائلاً من الأساطير المستمدة من الكتابات الأنثروبولوجية. ومن ناحية أخرى، تحاول دراسته أن تحدد القواعد التى تحكم عملية التحول من أسطورة لأسطورة أخرى.

أما الاتجاه الفكرى الذى يدرس الأساطير من منظور علم العلامات فقد التزم به رولان بارت (١٩٧٣)، خصوصاً باعتباره أداة لتحليل طائفة واسعة من الصور والأنشطة الفكرية فى الثقافة المعاصرة. ويقوم التحليل الذى يطرحه بارت على التصورات التالية، فالعلامة تفهم على مستويين: المستوى الكاشف الصريح والمستوى الإشارى أو الضمنى. فهى تفهم بالإشارة إلى شىء موجود فى الواقع. وهكذا فإن صورة فوتوغرافية لإحدى الأسر تضم اثنين من البالغين (هما الأب والأم) ومعهما - مثلاً - طفلان صغيران، هذه العلامة (وهى هنا هذه الصورة الفوتوغرافية) تفصح عن أو تشير إلى عدد معين من القيم ذات الخصوصية الثقافية. وتعتمد القيم المحددة المتضمنة فى هذه الصورة الفوتوغرافية على كل من الثقافة التى فى نطاقها يتم إنتاج هذه العلامة وتفسيرها، وكذلك على الطريقة التى يتم بها تقديم هذه العلامة. وعلى ذلك، فإن الصورة الفوتوغرافية لهذه العائلة يمكن أن تكون باهرة الإضاءة، فتظهر الألوان المبهجة والجو المشرق. وفى هذه الحالة يمكن لهذه الصورة الفوتوغرافية أن تشير ضمناً إلى حالة الرضا والأمان المرتبطة بالحياة العائلية. وعلى العكس من ذلك، فإن الصورة الفوتوغرافية الكثيبة ذات اللون الأبيض والأسود فقط قد تعبر عن الضغوط التى تعاني منها الحياة العائلية والتوترات الناشئة بين الأجيال. ويعتمد علم الأساطير

على هذا البناء الخاص بالتصريح والتلميح (أو الإفصاح والتضمن). وباعتبار العلامة أسطورة فإنها تعبر عن الأفكار المجردة تعبيراً محسوساً ومحدداً نستطيع بفضلها أن نفهم خبرة اجتماعية معينة. لهذا فإننا عندما ننظر إلى صورة فوتوغرافية، فإنها لا تستدعي فينا القيم التي ندركها عن وعى وانتباه فحسب، بل تستدعي فينا كذلك القيم والأفكار التي بلغ من تسليمنا بها أننا نظل غير واعين بانتباهنا إليها. وهنا فإن ما لدينا من صور فوتوغرافية عن عائلتنا إنما تستدعي الأساطير الخاصة بالحياة العائلية. وقد تدور هذه الأساطير عن العائلة الطبيعية (المكونة من زوج وزوجة) التي يسودها التناغم والانسجام، وعن منافع الزواج للنظام الاجتماعي والأخلاقي (وذلك بالنسبة للصورة الفوتوغرافية الملونة). وقد تكون هذه الأساطير - من ناحية أخرى - أساطير عن تراجع الحياة العائلية وانهارها في الصورة الأخرى. وتقوم الصور الفوتوغرافية بعملها كأسطورة - على وجه الدقة - بمقدار ما توليه من دعم مباشر للمعتقدات المسلم بها، والتي بولغ في تبسيطها. ويوجه الاعتقاد إلى فهم معين للصورة الفوتوغرافية، كما أن الصورة الفوتوغرافية تعزز من صحة هذا الاعتقاد. وتقوم المعتقدات الأسطورية بتحويل العمليات الثقافية المعقدة إلى معتقدات تبدو طبيعية وغير قابلة للتغيير وبديهية لا تحتاج إلى إثبات. (ومن الجدير بالاهتمام هنا، ملاحظة ذلك الارتباط بين أفكار بارت وأفكار أفلاطون عن الأكاذيب النبيلة، حيث يصبح ما هو ثقافي أمراً طبيعياً) (AE).

Style

الأسلوب

لمصطلح "الأسلوب" معانٍ متعددة، أو ظلال متعددة من المعاني. خذ مثلاً ذلك الارتباط بين الأسلوب والأزياء، أو ارتباط الأسلوب بالملابس الرسمية (أى الطراز أو الموديل سواء كان طرازها مطابقاً للموضة أم لا)؛ أو الأسلوب المتبع في عزف

الموسيقى، بحيث يؤدي أحد العازفين عزفه الموسيقى بأسلوب متميز وفريد أو بأسلوب يمكن تمييزه عن غيره من أساليب العزف. وتوحى هذه الأمثلة بأن استعمال مصطلح "الأسلوب" استعمال حافل بالأحكام القيمية، إذ يشير إلى إحدى القيم الجمالية المفضلة، أو أنه يستخدم بمعنى أكثر حيادية، حيث يوحى بوجود ارتباط مقصود بين عدد من العناصر (ولتكن هذه العناصر هي مكونات اللبس، أو مكونات العزف الموسيقى، أو مكونات الكتابة الأدبية، أو ما إلى ذلك). وفيما يتصل بهذا الاستخدام الحيادي لمصطلح الأسلوب، يكون اختيار العناصر والقواعد التي بمقتضاها يتم ربط هذه العناصر ببعضها مما يمكن تحليله بوصفه شفرات سيميوطيقية. وبناءً على ذلك، يمكن النظر إلى الأساليب بوصفها معبرة عن قيم الفئات الاجتماعية وهويتها. (انظر مادتي: الثقافة الفرعية والهوية) (AE).

الإشارة/ أو الإسناد Reference

يستعمل مصطلح الإشارة أو الإسناد بصورة عامة للدلالة على العلاقة بين المصطلحات اللغوية والواقع الموجود خارج نطاق اللغة. ويدل هذا المصطلح في أشد معانيه تقليدية ومباشرة على العلاقة بين الاسم وموضوعه أو مدلوله. ومن ثم، وبناءً على هذا التصور، ينوب الاسم عن الموضوع الذي يشير إليه في لغة ما (انظر النقاش حول "التسمية الاصطلاحية" Nomenclaturism في مادة المعنى في هذه الموسوعة). والإشارة أو الإسناد من الموضوعات الأساسية التي تهتم المشتغلين بقضايا الفلسفة التحليلية.

وتتجلى هذه النظرة في أحدث مظاهرها - في "النظرية السببية للإشارة أو الإسناد"، والتي قدمها أساساً المفكر سول كريبيكي Saul Kripke (١٩٨٠). وبناءً

على هذه النظرية، فإنه بمجرد أن يطلق "اسم العلم" أو "اسم الجنس" على موضوع معين فى لغة ما، حتى يحتفظ بقوته الإشارية (إلى هذا الموضوع) بصرف النظر عن سلامة أو إساءة استخدامه من قبل الأفراد المتكلمين بهذه اللغة. وبفضل هذا الثبات الإشارى المفترض يأمل أنصار هذه النظرية تفادى المضامين الأكثر تطرفاً ذات الصلة بالعلوم الطبيعية والاجتماعية التى تستخدمها **الفزعة الكلية الدلالية** (وانظر كذلك مادة: المعنى). وأياً ما كان الأمر، فليس من المؤكد أن مثل هذا الثبات - فى دلالة الاسم على موضوعه - يمكن ضمانه وفق هذه النظرية لمجرد التسليم بأن الاستعمال الإشارى لأسماء الجنس وأسماء العلم يبدو فى ظاهره وكأنه يعتمد اعتماداً حتمياً على ما لدى الأفراد الذين يستعملون اللغة من قدرات على التفكير والاختيار المقصود. (Evans ١٩٧٣).

والنظرة البديلة فى الإشارة هى "النظرية الوصفية للإشارة أو الإسناد". وتستمد هذه النظرية أصولها من أعمال فريجه (*) Frege (١٩٨٢) ومن فرضيته الأساسية التى تقول إن "المعنى يحدد الإشارة أو الإسناد". وبناءً على هذه النظرية يعد اسم العلم أو اسم الجنس مصطلحاً مختصراً لواحد أو أكثر من الصفات المحددة التى أصبحت مرتبطة به. ووفقاً لهذا التصور، لا يمكننا أن نشير إلى موضوع معين إلا إذا كنا نستطيع، أولاً، أن نصفه على نحو ما. فإذا قبلنا هذه النظرية، فإننا نبدو وكأننا نقوم بتعريف خواص جانب واحد من جوانب اللغة - هو ما يتصل بأسماء العلم وأسماء الجنس - وذلك باستعمال مصطلحات جانب آخر من جوانب اللغة هو الصفات التعريفية. فنكون بذلك كمن يدق إسفيناً لغوياً يفصل بين اللغة والعالم. وكان برتراند راسل فى بادئ الأمر يقبل هذه النظرية قبولاً مشروطاً، وذلك بالرغم من أنه خلص، فى نهاية المطاف، إلى أنها بحاجة إلى الدعم من خلال شكل من أشكال "الذرية المنطقية"

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: الفلسفة التحليلية. (المراجع)

----- (أ) -----

Logical Atomism. وقد ذهب بيتر ستراوسون P.Strawson (١٩٦٦) إلى تبني صيغة أخرى لهذه النظرية تتسم بمزيد من القوة.

وإذا وافقنا على مضمون النظرية الوصفية هذه - وهو أننا لا نستطيع أن نشير إلى موضوع ما إلا عبر وصف محدد له أو عبر غيره من أنواع الوصف - فإننا نقر في الواقع أننا لا نستطيع أن نتناول العالم إلا من خلال اللغة. الأمر الذي يعنى مجدداً أننا إذا أقررنا بأننا نحتاج إلى الأوصاف من أجل أن نفكر في العالم أو نتحدث عنه، فيبدو - حينئذ - أن الطريقة التي نفكر بها في العالم أو نتحدث بها عنه والتي نفكر بها في "الموضوعات أو الأشياء" التي يتألف منها العالم أو نتحدث بها عنه إنما تتوقف على المعاني المتاحة لنا في نطاق لغة معينة. والأمر الذي يخوف منه نقاد هذه النظرية، هو أن الإقرار بها يفرض إلى الاقتراب الشديد من الإقرار بالنزعة الكلية الدلالية الكاملة. (SH) للمزيد انظر: Devitt and Sterelny (١٩٨٧).

الاشتراكية Socialism

عقيدة سياسية جرت العادة على رد أصولها إلى منتصف القرن التاسع عشر. وثمة أنواع كثيرة من الاشتراكيين (كالاشتراكيين اليوتوبيين، والاشتراكيين الغاييين^(*)).

(*) الاشتراكية الغائية Fabianism جمعية اشتراكية بريطانية تأسست عام ١٨٨٤، تؤمن بالاشتراكية التدريجية أي عن طريق الإقناع والانتخابات البرلمانية. وليست الغائية حزباً سياسياً ولا هي حزب عمالي بالمعنى المحدود، ولكنها جماعة ضمت عدداً من المثقفين الذين يتسمون عموماً بالتواضع والهدوء والحنو والاعتدال. من أشهرهم: سيدني ويب، وبياتريس ويب، وف. ج. ويلز، وجورج برنارد شو، وكير هاردى. والغائية تأثيرات على بعض المفكرين العرب منهم مثلاً سلامة موسى، الذي كان عضواً في الجمعية الغائية في العشرينيات. كم اهتم برنارد شو بحركة المستعمرات، خاصة في مصر والهند. وانهضت صلات بين كير هاردى ومحمد فريد أحد زعماء الحزب الوطنى المصرى. (المراجع)

والاشتراكيين النقيبين)، لكن يجمعهم الالتزام بمبادئ معينة تتصل بالأسلوب الذي ينبغي اتباعه لتنظيم المجتمع. وعلى النقيض من المذهب الليبرالي، الذي يدافع عن حرية الفرد وحقوقه ويقدمها على كل اعتبار، دأب الاشتراكيون على الاهتمام البالغ بالمساواة كمبدأ سياسى. ويتجلى هذا الموقف بدوره فى صورة الاهتمام بالعلاقات الاقتصادية داخل المجتمع. ويعترض الاشتراكيون - بصفة خاصة - على النزعة الفردية التى يتصف بها المجتمع الرأسمالى الليبرالى، ذلك أنهم يؤمنون بأن تحقيق صيغة أفضل للتنظيم الاجتماعى (وهى الصيغة التى تقوم على أساس من التبادلية، والتعاون، والملكية العامة المشتركة لوسائل الإنتاج) سوف يستحيل طالما كانت العلاقات الإنسانية خاضعة للمبادئ الأنانية والمثيرة للعداء التى يقوم عليها المجتمع المدنى. وقد ترتب على ذلك أن الاشتراكيين، وعلى خلاف الليبراليين، ينظرون إلى العدل باعتباره قضية تتصل بالأسلوب الذى به يتم تنظيم المجتمع فى مجال توزيع السلع بين أعضائه، ولا ينظرون إليه فى ضوء مبدأ حماية الحريات الفردية، التى تمكن الأفراد من السعى فى تحقيق أغراضهم الخاصة. لذلك فإن بين الاشتراكية والشيوعية قدراً كبيراً من التشابه فيما يتصل بايمانهم بأن أفضل صيغ التنظيم الاجتماعى هى تلك التى تجسد مبادئ المساواة. ومع ذلك، فإنه بينما يتمسك أنصار الشيوعية عادة بالمنظور الفكرى المستمد من دعوى ماركس بأن تحليله لتطور المجتمعات الرأسمالية يحظى بمنزلة علمية رفيعة، وهى الدعوى التى تذهب إلى أن الثورة البروليتارية نتيجة حتمية لمظاهر العداء والخصومة الناشبة بين الطبقات، فإن الاشتراكية تميل إلى الأخذ باتجاه فكرى أكثر واقعية وأكثر علمية وأقل تصادمية. يشهد ذلك أن الاشتراكيين يؤكدون أهمية الأخذ بالأساليب الديمقراطية فى العملية السياسية.

ويمكن تعريف الاشتراكية، شأنها شأن الشيوعية، باعتبارها ذات نزعة دولية. ويمكن رد أصول هذه النزعة إلى ما قام به ماركس من إنشاء للدولية الاشتراكية(*)

(*) الدولية الاشتراكية هى التنظيمات العالمية التى تضم القوى الاشتراكية - على اختلاف اتجاهاتها - بغية توحيد هذه القوى، أو التنسيق بينها، أو تبادل الخبرات والمعلومات. وهناك الدولية الأولى ١٨٦٤-١٨٧٢، =

----- (أ) -----

الأولى فى لندن سنة ١٨٦٤، وذلك رغم أن روح الوحدة المتجسدة فى هذا الحدث قد تحولت إلى تشرذم هذه الوحدة إلى جماعات متعارضة (من الاشتراكيين، والشيوعيين، والفوضويين) إبان انعقاد الدولية الثانية، وذلك بعد ربع قرن من الدولية الأولى تقريباً. ويمكن رؤية الجانب الدولى فى الاشتراكية فى التزامها بالقيم المرتبطة بالمشهد الإنسانى، ومنها، مثلاً، الفكرة القائلة بوجود مفهوم عالمى لقيمة بعض المسائل التى منها مسألة إرساء قواعد التبادلية التى تعلق على الكيانات القومية، وإرساء قواعد المعايير المشتركة للعدالة وحقوق الإنسان بين مختلف الأمم. (PS) للمزيد انظر: Berki (١٩٧٥) و Forman (١٩٧٢) و Crozier (١٩٨٧).

أصل (جينياولوجيا) الخطاب Genealogy

منهج فى تحليل أشكال الخطاب الخلقى (عند نيتشه) أو الخطاب المعرفى (الإبستمولوجى) عند فوكو. وكان نيتشه^(*) فى كتابه بعنوان "عن أصل الأخلاق" (١٨٨٧)، هو أول من وضع الخطوط العامة لهذا الاتجاه، ويدين فوكو له بالكثير فيما كتبه من أعمال. ويذهب نيتشه فى كتابه المذكور إلى أن أساس النظم الخلقية ومعانى الصفات القيمية مثل "طيب" و"شرير" و"ردى" ليس مشتقاً - كما يذهب إليه الناس كثيراً - من أى أنماط تقييمية إثارية أو نفعية (وقد يضاف إلى أن أساس النظم

= والدولية الثانية ١٨٨١-١٩١٤، والدولية الثالثة ١٩١٩-١٩٤٣، والدولية الرابعة التى تزعمها تروتسكى وبدأت منذ ١٩٢٢. انظر المزيد من التفاصيل فى إبراهيم عامر وآخرون (محررون)، موسوعة الهلال الاشتراكية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ص ٢١٩-٢٢٢. (المراجع)

(*) فريدريش فيلهلم نيتشه F. W. Nietzsche (١٨44-١٩٠٠) فيلسوف ألماني، دعا إلى تسامى الإنسان وارتفاعه بذاته حتى يبلغ مرتبة "إنسان الأسمى" أو السوبرمان. تأثرت النازية بأرائه تأثراً كبيراً. أشهر أعماله: هكذا تكلم زرادشت (١٨٨٣-١٨٩٢). (المراجع)

الخلقية ومعانى الصفات القيمة ليس مستمدًا من أى وازع دينى) بل إن النظم الخلقية لا يمكن فهمها إلا فى ضوء أصلها وتسلسلها التاريخى، أى بوصفها نتيجة لعمليات اجتماعية وتاريخية. والأهم من ذلك، أن النظم الخلقية، عند نيتشه لا تمثل تصوراً محايداً لما يتكون منه هذا "الخير"، بل هى تعبير عن مصالح جماعات اجتماعية بعينها. وهكذا نرى أن مفهوم "الخير" - عند نيتشه - له نمطان من أنماط الاشتقاق يشيران إلى منظورين اجتماعيين مختلفين غاية الاختلاف، ومن ثم فإنهما يشيران إلى نظامين تقيمين مختلفين بنفس الدرجة.

أولاً، كان "الخير" - فى معناه الأسمى - يعبر عن وجهة نظر الطبقات النبيلة أو السادة التى عاشت فى العالم القديم. "فالخير"، بهذا المعنى، كان يعنى "المحبوب من الله"، وكان تعبيراً عن تأكيد هؤلاء النبلاء أو السادة لهويتهم الخاصة بهم. "والشر" - بدوره - كان يعبر عن ظاهرة ثانوية، هى رد فعل النبلاء أو السادة تجاه أولئك الذين هم أدنى منهم اجتماعياً (أى "الشعب" أو العامة). وبهذا الشكل، كانت النظم الخلقية للنبلاء أو السادة مبنية أساساً على ما يقومون به من تأكيد هويتهم باعتبارهم مانحين للقيم.

من ناحية أخرى كان "الخير" بالمعنى الثانى الذى ذكره نيتشه نمطاً ثانوياً من أنماط التقييم مشتقاً من كلمة "الشر" التى كان يطلقها العبيد حين يصفون بها ظالمهم (أى النبلاء). لذلك كانت النظم الخلقية للعبيد - كما يصفها نيتشه - تشتق فكرتها عن "الخير" بوصفها نتيجة ثانوية لتقييمها السلبي "للشر". وبهذه الطريقة يكون السلب أى النفي هو "العمل الخلاق" للعبيد. ويوضح نيتشه أن النظم الخلقية للعبيد هى النظم الخلقية الموجودة فى كل من التراث العبرى والتراث المسيحى، وهى نظم خلقية تتسم "بالسخط والاستياء"، بمعنى أن أصلها (أى جينياالوجيتها) يرجع إلى استياء العبيد من قوة النبلاء أو السادة التى تهيمن عليهم. وهى، وفقاً لتعبير جيلز

ديليوز(*)، نظم خلقية قائمة على "رد الفعل"، أكثر من كونها نظاماً خلقية فعالة وإيجابية.

إن منهج نيتشه في تتبع أصول (جينياالوجيا) النظم الخلقية، هو في حقيقة الأمر شكل آخر من أشكال المعالجة مبنى على مشروعه الذى وضع خطوطه الرئيسية فى واحد من مؤلفاته الأولى، وهو كتابه بعنوان: "الإنسانى والإنسانى جداً" (١٨٧٨-٨٠)، وفى الفقرات الافتتاحية لهذا الكتاب يحاول البرهنة على وجود تركيبة لشكل من أشكال "الكيمياء" التى تدل على حدوث تفاعل حقيقى بين المشاعر والقيم الدينية والخلقية. وبعبارة أخرى، يتبنى نيتشه الرأى القائل بأن القيم (وكذلك فى الحقيقة الإحساسات أو المشاعر أيضاً) يمكن فهمها على نحو ظاهر بتأسيس تفسير على أو سببى وتاريخى لها يسعى لاكتشاف أصولها. وحتى هذا المدى، فإن الاتجاه الفائم على تقصى أصل (أو جينياالوجيا) النظم الخلقية، يتوافق مع الكثير مما فى التفكير الفلسفى لنيتشه، والنزى كثيراً ما يصرح بوجهة النظر التى ترى أن ما كان يعتبر حتى آنذاك أمراً ذا قيمة (أو حتى أمراً مقدساً) يمكن تفسيره بكفاءة ضمن منهج بحث مادى.

وبالمثل، فإن منهج فوكو(**) - فى استقصاء أصل (جينياالوجيا) - ينطلق من الظروف التاريخية التى تتكون منها أشكال خطاب المعرفة. مثال ذلك، أن تحليله للتعريفات والعلاجات الإكلينيكية للجنون منذ القرن السابع عشر، يؤكد أهمية العلاقات

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: **القلية**. (المراجع)

(*) ميشيل فوكو Michel Foucault (١٩٢٦-١٩٨٤) فيلسوف فرنسى مثير للجدل ينتمى إلى تيار ما بعد البنوية، وهو أستاذ لتاريخ المذاهب الفكرية، كان له تأثير عميق على أغلب العلوم الاجتماعية منذ سبعينيات القرن العشرين. وتستعصى أعمال فوكو على الوصف والتشخيص السهل. ولعل أقرب الطرق إلى ذلك قراءة دراسات الحالة التى أجراها على الجنون والطب والسجون والسلوك الجنسى. انظر المزيد عنه فى موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وزملاؤه، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (٣ مجلدات)، ٢٠٠٠-٢٠٠١، خاصة المجلد الثانى، ص ١٠٩٦ وما بعدها. (المراجع)

الاجتماعية (وخاصة علاقات القوة) في تكوين المعرفة، ويسعى إلى أن يكتشف من خلال التحليل التاريخي الجاد الدقيق عن التأثيرات والمصالح التي تقوم عليها وتتخفى فيها أشكال الخطاب التي تدعى أنها تعبر عن المعرفة الموضوعية. ومن المشكلات الرئيسية في هذا الصدد، والتي تظهر على الأقل عند تطبيق منهج فوكو في تقصى أصول (جينالوجيا) النظم الخلقية، أنه بتطبيقه لهذا المنهج على أشكال المعرفة، يعرض نفسه للنقد الذي يأخذ عليه أن خطابه هذا يعد في حد ذاته نتيجة لعوامل تاريخية ومعبراً عن مصالح معينة (انظر أوجه النقد التي طرحها بيتر ديوز P. Dews والمذكورة في القراءات المكتوبة أدناه، والتي تقدم لنا شكلاً من أشكال النقد النيتشوي لمنهج البحث عند فوكو). (PS) للمزيد انظر: Dews (١٩٨٨) و Foucault (١٩٧٧ب) و Minson (١٩٨٥) و Nietzsche (١٩٦٨ و ١٩٨٦).

Fundamentalism

الأصولية

هى موقف شديد المحافظة من المعتقد الدينى، يتسم بالعودة إلى ما يعتقد أنه الأصول الأولى للدين، ويرفض النظريات الحديثة في تفسير النصوص الدينية المقدسة.

وقد أطلق الاسم فى الأصل على فريق من البروتستانت المحافظين فى أمريكا الشمالية إبان عشرينيات القرن العشرين. وفى الفترة من ١٩١٠ و ١٩١٥ مول اثنان من مليونيرات النفط الأمريكيين فى كاليفورنيا نشر وتوزيع كتاب ضخ من اثني عشر مجلداً بعنوان "الأصول الأولى"، كان الهدف منه إعادة توضيح وتأكيد المعتقدات "الأصلية" للدين المسيحى. وفى القلب من تلك الصياغة الجديدة جاءت "الأصول الخمسة" التي تبناها المحفل العام للكنيسة المشيخية (الشمالية) فى العام ١٩١٠ وهى: الحقيقة الحرفية المطلقة للكتاب المقدس كعمل موحى به من الله؛ ميلاد المسيح من بتول؛ تكفير المسيح - الخارق للعادة - عن خطايا البشر (من خلال آلامه وموته)؛ قيامته

بالجسد مرة أخرى؛ وأخيراً صحة المعجزات الواردة فى الإنجيل. وهذه العودة إلى الأصول يمكن ببساطة فهمها بوصفها رد فعل تجاه الرؤى اللاهوتية المتحررة والاتجاهات المتحررة فى تفسير النصوص المقدسة، خاصة تجاه تلك التفسيرات التى ترفض أى إمكانية لفكرة التفسير "الحرفى" (انظر مادة : التؤول).

وعلاوة على كون الأصولية المسيحية اتجاهاً معيناً فى تفسير النصوص المقدسة، كانت لها عواقب بالنسبة للممارسات الاجتماعية والثقافية لجماهير المؤمنين. وتحديدًا لأن الشخص الأصولى يؤمن بأن رأيه هو الحقيقة المطلقة - كما لو كان موحى إليه به - نجد قيمه الأخلاقية والسياسية تتسم بمناوئة كافة القيم التحررية للتعددية، والفردية، وحرية التعبير، وكذلك قيمة مساواة المرأة للرجل. وربما يعتقد أن مثل هذه التوجهات تعكس حيناً إلى عصر الإيمان الدينى الكامل والممارسة الدينية الصحيحة التى يفترض أنها كانت قائمة فى الماضى، من قبيل أيام الكنيسة المسيحية الأولى فى أركاديا^(*)، وكذلك الإيمان القوى برؤية ألفية^(**) تتوقع نهاية وشيكة لهذا العالم وليوم الحساب.

وقد ينطوى التصدىق لأنساق الاعتقاد الدينية والعلمانية الأخرى على اللجوء إلى ممارسة العنف ضد أصحابها، رغبة فى محاربة شرور الكفر أو الهرطقة. ولعل نماذج

(*) أركاديا منطقة جبلية فى بلاد اليونان اشتهرت بأنها موئل الرعاة البسطاء القانعين بما قسم لهم. ومن هنا تلك النظرة الطوباوية إلى الكنيسة المسيحية الأولى التى تأسست فيها. (المراجع)

(**) الحركات أو الرؤى الألفية Millenarianism واحدة من الحركات الدينية الإيحائية التى تنتبأ بحلول الألفية والنهاية العنيفة المفاجئة للعالم كما نعرفه، أو بتعبير ذى صبغة رسمية تتوقع خلاصاً جماعياً كلياً وشاملاً وشيك الحدوث لهذا العالم. وتوجد هذه الحركات الإيحائية فى كافة الأديان، ولكنها يمكن أن تنشأ أيضاً خارج نطاق الديانات المنظمة. ورغم تعدد أشكالها فإنها تنطوى عادة على ثورات غاضبة ورفض للوضع القائم، والافتراض بأن الألفية القادمة سوف تشهد تأسيس نظام اجتماعى جديد. للمزيد انظر، جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠ (٣ مجلدات)، ص ص ٦٣٦ وما بعدها. (المراجع)

ممارسة الأصوليين المسيحيين للعنف أمر نادر نسبياً. وربما يرجع ذلك إلى أن القيم المسيحية تنتمي عادة إلى المجتمع الغربي بمعناه الواسع الذي ينتمي إليه أولئك الأصوليون. وإذا لم يقرر الأصولي الانسحاب من دنيا العلمانيين، فإنه يكون قادراً على أن يستثمر بشكل فعال الأطر الديمقراطية القائمة لكي يمارس الضغط على صانعي السياسة في ذلك المجتمع. ومن نماذج مثل هذا السلوك تعبئة الحزب الجمهوري الأمريكي للمسيحيين المحافظين قبيل انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٠ و ١٩٨٤، وكذلك الدور الذي لعبته جماعة "الأغلبية الأخلاقية" بزعامة جيرى فولويل J. Falwell، كجماعة ضغط. ولكننا لا ننسى مع ذلك أن معارضة الأصوليين للإجهاض قد ارتبطت بممارسة العنف.

ويقدر إيمان الأصوليين بأن الحقيقة الدينية غير قابلة لأي تغييرات تطرأ على التراث، أو العادات، أو في ميدان التقدم العلمي في شتى أنحاء العالم، بقدر إيمانهم هذا نجدهم يتدخلون بقوة - قد تبلغ حد ممارسة العنف أحياناً - في مجال التعليم، وفي غيرها من المؤسسات الثقافية. ولعل أشهر نموذج لمثل هذا التدخل قضية Scopes Monkey Trial. وأولئك الذين يتبنون تفسيراً حرفياً للكتاب المقدس، خاصة للفصول الأولى من سفر التكوين التي تصف عملية الخلق، يتخذون من نظريات داروين في التطور هدفاً يصوبون عليه جام غضبهم. وفي عام ١٩٢٥ حاول ويليام جينجز بريان - من عموم أتباع الكنيسة المشيخية - وقف تدريس نظرية التطور في المدارس الحكومية في ولاية تينيسي. وفي حالات أخرى أحدث من ذلك نجاح بعض الأصوليين في فرض تدريس عقيدة الخلق إلى جانب نظرية داروين في مدارس ولاية كانساس. واليوم يشتعل الجدل في كل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة حول المكانة العلمية لفكرة التدبير (التصميم الإلهي) البار، ومن ثم أحقيته في أن يكون بديلاً يتم تدريسه عوضاً عن نظرية داروين.

----- (أ) -----

وتنشأ الأصولية - عادة- من وجهة نظر علم الاجتماع بين الجماعات المهمشة أو ذات الهوية الاجتماعية المتبسة. وبناء على هذا الفهم لا يشترط أن يأتى الأصوليون من شرائح اجتماعية مقهورة أو ضعيفة فى العادة. والأرجح أن يأتى الفرد الأصولى من جماعة عانت من تقلب حظها فى الحياة، أو أحبطت طموحات أفرادها فى تحقيق حراك اجتماعى (ومن ثم آمالها فى أن تنعم بمزايا ومكتسبات التحديث). ونعلم أن الأصوليين البروتستانت الأوائل كانوا ينتمون إلى جماعات تم حينها تجريدها من قوتها بفعل الأزمة الاقتصادية. وحينما نطلق مصطلح "الأصولى" على اتباع ديانات أخرى غير مسيحية (خاصة المسلمين) سوف نجد أن الأمر قد ينطوى على بعض الإشكاليات. ويرجع ذلك على وجه الخصوص إلى أن الإيمان الحرفى بحقيقة القرآن وبأنه موحى به من الله يمثل السمة الأساسية لعقيدة كافة المسلمين على اختلافهم. كذلك نتبين أن قبول فصل الجانب الدينى عن الحياة العلمانية أقل وضوحاً فى الإسلام، إذ نجد أن تأسيس السياسات التربوية والاجتماعية عموماً على هدى المعتقدات الدينية يمثل السمة المعتادة لكل من العقيدة والممارسة الإسلامية. من هنا نجد أن المصطلحات البديلة لمصطلح "الأصولية" لا تشمل سوى جانب محدود مما قصدناه هنا "بالأصولية" (داخل الديانة المسيحية وخارجها) ومن أسلوب فهم أصحابها لها. ومن تلك المصطلحات البديلة: الإحيائى، الراديكالى، النضالى، المتطرف (Bruce ٢٠٠٠: ١٢).

ويمكن أن نضع أيدينا على ظاهرة شبيهة بالأصولية فى بعض الديانات الأخرى - كالهندوسية، واليهودية، والبوذية - حيث يمارس العنف ضد أتباع الديانات الأخرى (على نحو ما حدث عندما اعتدى الهندوس على المسلمين فى الهند، أو فى الصراع الدائر بين البوذيين السنهاليين الأصوليين والتاميل فى سريلانكا)، أو تتم المطالبة بإحلال القانون الدينى محل القانونى الوضعى (ومن ذلك مثلاً مطالبة الأصوليين اليهود - فى إسرائيل - بتعطيل كافة وسائل النقل العام أيام السبت).

وفى العالم الإسلامى يفضل استخدام مصطلح "تقليدى"، أو تحديداً "إسلامى" على مصطلح "أصولى". وكانت الحركة الإسلامية(*) قد انطلقت إبان القرن التاسع عشر واستمرت خلال القرن العشرين (على يد جمال الدين الأفغانى (١٨٢٧ - ١٨٩٧) والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥)، والشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥)). وكانت تلك الحركة محاولة لإصلاح المجتمع الإسلامى عن طريق الجمع بين العلم والتكنولوجيا الغربية مع العودة إلى الممارسات والنظم الإسلامية الأولى (وبمقتضى ذلك ترفض هذه الحركة كل ما استحدث بعد "السلف" أى بعد الفترة من ٦١٠ إلى ٨٥٥ ميلادية). وفى القرن العشرين ظهرت جماعة الإخوان المسلمين (التي تأسست فى مصر عام ١٩٢٧) متطلعة إلى المجتمع الإسلامى الأول، رافضة اتجاه رواد الحركة الإسلامية الذى كان يؤيد دمج الأعراق والشعوب، وذلك فى سبيل مناهة الاستعمار الغربى وتهديد العلمانية للمجتمع الإسلامى. وقد عمل الإخوان المسلمون على تحقيق أهدافهم بالاعتماد - جزئياً - على ممارسة العنف ضد الممتلكات والأفراد (من بين تلك الممارسات اغتيال اثنين من رؤساء الوزارات المصرية). ويعتقد أن تصاعد التوتر فى الشرق الأوسط خلال ستينيات القرن الماضى (بما فى ذلك هزيمة إسرائيل للجيش العربية فى "حرب الأيام الستة" عام ١٩٦٧) قد حولت الاهتمامات السياسية لحركة الإسلام الراديكالى بحيث أخذ يبتعد عن أفكار القومية العربية، ويتبنى توجهاً إسلامياً أكثر راديكالية. وبدا أن خلع شاه إيران عن عرشه فى عام ١٩٧٩ كان بمثابة علامة فارقة فى عالم السياسة الإسلامية حيث أخذت تنأى بنفسها عن النماذج العلمانية الغربية المستندة إلى الفكر القومى، وتتجه نحو تبنى نظام ثيوقراطى (حكم رجال الدين) "أصولى". وشهدت العقود التى تلت ذلك ازدهار حركة إسلامية ذات توجه نضالى عسكري، تمثلت فى بعض الحركات السياسية (كحركة "طالبان" التى نجحت

(*) الإشارة إلى حركة الإحياء الإسلامى. (المراجع)

فى السيطرة على الحكم فى أفغانستان) والعمليات الإرهابية التى ارتبطت بتنظيم "القاعدة"، وكذلك فى مظاهرات الاحتجاج على نشر رواية "آيات شيطانية" لسلطان رشدى عام ١٩٨٨ (وما أعقبها من صدور "فتوى" الزعيم الروحى لإيران آية الله خمينى). ويتعين أن ننظر إلى الأحداث التى أدت إلى الحادى عشر من سبتمبر وأعقبها فى ضوء صراع يفترض أنه نشب بين الأصولية الإسلامية والعالم المسيحى أو العلمانى. ومع ذلك يجب أن نلاحظ أن التسليم بهذه المواجهة يمثل هذه البساطة إنما يتجاهل الدعم الذى سبق أن قدمته الدول الغربية لتلك الحركات الإسلامية الأصولية عندما كان يعتقد أن ذلك يخدم مصالح الغرب^(١).

ولعل فهم الأصولية بوصفها نوعاً من رد الفعل إزاء التحديث، من شأنه أن يثير بعض الإشكاليات وربما يمكن أن نقول إن رفض الأصولى للحدث نادر ما يكون رفضاً تاماً وشاملاً، لأنه يشغل فى العادة وضعاً ملتبساً من النواحي الاجتماعية والسياسية (فهو ليس عديم الحول والطول). وفى الوقت الذى قد تتعرض فيه الممارسات الثقافية والأخلاقية المرتبطة بالحدث لنقد لاذع من قبل الأصوليين، خاصة تصوير الثقافة الغربية بوصفها بيئة للاغتصاب، والنزعة الفردية الأنانية، والسعى إلى الملذات، وممارستها للإمبريالية؛ بالرغم من كل ذلك ظل الأصوليون يتبنون بعض الأشكال الأساسية للتكنولوجيا الغربية، كما نجد فى ممارسات الإسلاميين. ونلمس لدى أصولىي أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين تعاملًا مبدعاً وقوياً مع تكنولوجيا الاتصالات الحديثة على وجه الخصوص. وسرعان ما نجح

(*) الإشارة هنا إلى تشجيع الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، "للمجاهدين" الإسلاميين فى مختلف بلاد العالم الإسلامى، وتزويدهم بالسلاح والخدمات اللوجستية لمقاتلة السوفييت أثناء احتلالهم لأفغانستان. فكانت تلك الظروف هى البيئة الحاضنة لتلك التنظيمات العسكرية المتطرفة، التى غيرت اتجاهها -فى مرحلة لاحقة- وأخذت توجه عنفها إلى الغرب نفسه. (المراجع)

الأصوليون المسيحيون في أمريكا وغيرها في ابتكار سبل استغلال التلفزيون والإنترنت. وفي خارج الغرب استخدمت الجماعات الإسلامية الكاسيت، ثم الأسطوانات المضغوطة CDs وأسطوانات الفيديو الرقمية: "الدى فى دى" DVDs لنشر رسالتهم وتجنب وسائل الاتصال الجماهيرى التى تتعرض للرقابة الشديدة. (AE) للمزيد انظر: Ruthven (٢٠٠٤) و Bruce (٢٠٠٠) و Brasher (٢٠٠١) و Antoun (٢٠٠١).

Legitimation

إضفاء الشرعية

مصطلح من مصطلحات علم الاجتماع السياسى عند عالم الاجتماع ماكس فيبر، ويعنى الاعتراف الصادر من جانب أفراد المجتمع (حرفياً: ذوات المجتمع)^(*) بحق حكامهم فى أن يحكموهم. وقد حدث فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية أن أصبحت قضية إضفاء الشرعية قضية محورية فى المناقشات والدراسات الاجتماعية والسياسية والثقافية. شاهد ذلك، أن جان فرانسوا ليوتار يرى أن قضية إضفاء الشرعية يتم تعطيلها على الدوام داخل سياق نظرى مزدوج. ووفقاً لهذا الرأى، فإن الأسئلة المتعلقة بإضفاء الشرعية، تكون فى الواقع أسئلة متعلقة بالحياة اليومية التى تهتم بالوسائل الملائمة لتحقيق أهداف معينة (انظر: الخطاب). كما أن هذه الأسئلة لا يمكن فصلها عن أبعادها الاجتماعية والثقافية. ويذهب ليوتار إلى أنه لا يوجد معيار عام تقاس به عملية إضفاء الشرعية، وعليه فإن الساحة السياسية فى أى مجتمع إنما تمثل مجالاً من مجالات الخصومة والعداء الثقافى بين أصحاب الأغراض المتعارضة

(*) يلاحظ أن كلمة Subject فى اللغة الإنجليزية، ومرادفها كلمة Subjekt فى اللغة الألمانية (لغة فيبر) ترجعان إلى الأصل اللاتينى Subjectus الذى يعنى فى المقام الأول "الشخص الخاضع لسلطة غيره". (المترجم)

أكثر من كونه خلافاً على الأهداف والغايات. ومع هذا، فإن ليوتار يحتفظ فعلاً بفضاء نقدي يخصصه لدراسة اللغة: بما يتيح هذا الفضاء النقدي من تحليل فلسفي حر للقواعد والقوانين. ويصبح علم السياسة، وفقاً لنموذج ليوتار علماً يعالج الدعاوى المتنافسة لأصحاب المصالح السياسية المتعارضة حال اقتتالها في ساحة الحياة الثقافية، دون اعتبار للأوضاع المنشودة التي يسعى المجتمع إلى تحقيقها لجميع أعضائه. وعلى النقيض من ذلك، حاول يورجن هابرماس أن يثبت رأياً مخالفاً لوجهة نظر ليوتار (التي تقر بوجود السياسة القائمة على الصراع أو الشقاق) وذلك عن طريق قيامه بقراءة إجماعية (أي قائمة على التوافق) للغة الاجتماعية لفعل الاتصال^٦. (PS) للمزيد انظر: Weber (١٩٥٨) و Habermass (١٩٧٦ ب، ١٩٨٤، ١٩٨٧) و Lyotard (١٩٨٨).

Cultural Reproduction

إعادة الإنتاج الثقافي

صك بيير بورديو P.Bourdieu (١٩٧٢) مصطلح "إعادة الإنتاج الثقافي"، للإشارة إلى العملية التي بواسطتها يتم الحفاظ على ثقافة الطبقة المسيطرة، ومن ثم يتم الحفاظ على قوتها السياسية، واستمرارها من جيل إلى الجيل إلى يليه، وذلك من خلال النظام التعليمي. وبصورة أعم، يمكن النظر إلى هذا المصطلح على أنه يسلط الضوء على مشكلة كيف تستمر المجتمعات في البقاء وتظل مستقرة نسبياً على امتداد فترات طويلة من الزمان. إذ إن هذا البقاء المستمر يتطلب ما هو أكثر من مجرد إعادة الإنتاج المادي (بمعنى الإكثار من أفراد جدد يحلون محل هؤلاء الذين ماتوا أو رحلوا عن المجتمع). ف بجانب هذا يتعين نقل ثقافة هذا المجتمع إلى الجيل الجديد. وهكذا ترتبط إعادة الإنتاج الثقافي ارتباطاً وثيقاً بالدور الذي تقوم به عملية التنشئة الاجتماعية في تحقيق الاستقرار المذكور، وهي العملية التي من خلالها يتشرب الأفراد ثقافة مجتمعهم. وكما يوضح بورديو، فإن جزءاً من مشكلة انتقال الثقافة هذه لا يتمثل فقط

فى استقرار النهج الذى يقوم عليه نظام المجتمع، ولا فى استقرار القيم والمعتقدات الرئيسة لهذه الثقافة فحسب، وإنما يتمثل بالأصح فى استقرار النظم السياسية ونظم السيطرة والاستغلال داخل هذا المجتمع. وإذا كان الأمر كذلك، فقد ينظر إلى عملية التنشئة الاجتماعية باعتبارها عملية يتم بواسطتها منح النظم السياسية شرعيتها وسلطتها.

وفى الموروث الفكرى الماركسى، تشير عملية إعادة الإنتاج الاجتماعى إلى الشروط اللازمة لتجديد العمل. وهنا أيضاً لا يقتصر تجديد العمل على الإحلال البدنى لعمال جدد مكان عمال قدامى، إنما يتضمن، وبصورة أشد أهمية، الموقع الذى تحتله المؤسسات والأنظمة الاجتماعية والثقافية، كنظام الإسكان، والتعليم، والرعاية الصحية، داخل عملية إعادة الإنتاج الاجتماعى. (AE) للمزيد انظر: Jenks (١٩٩٢ ب).

الأعمال (الفنية) الهزلية Comics

ربما كانت الرسوم الهزلية (الكاريكاتيرية)، والمسلسلات الفكاهية المصورة Com-ic Strips، والكتب الهزلية من المجالات التى أهملت نسبياً، ليس فقط من قبل علم الجمال والنقد التقليديين، كما قد يتوقع البعض، وإنما أهملت أيضاً من قبل الدراسات الثقافية (خاصة إذا قارنا هذا الإهمال بذلك القدر من الاهتمام الذى حظيت به الجوانب الأخرى من الثقافة الشعبية، كالتلفزيون، والموسيقى الشعبية. ويصرف النظر عن الاهتمام بالعمل الفنى الهزلى وقريبه الوثيق الصلة به؛ الرسم الهزلى الكاريكاتير) باعتباره نصاً معقداً، يطور لنفسه فن السرد الخاص به، من خلال التفاعل بين الصور المرئية والنص المكتوب. ويصرف النظر عن هذا الإهمال، فقد لعب العمل الفنى الهزلى والرسوم الهزلية دوراً مهماً فى ثقافة الشباب، وفى الثقافات الفرعية، وفى المقاومة السياسية على امتداد القرن العشرين.

وقد يتصور البعض أن العمل الفني الهزلى له سلف هام يتمثل فى الرسوم الهزلية السياسية. إذ لم يُنقل مصطلح "كارتون" Cartoon (والمترجم إلى: الرسوم المتحركة) لم يُنقل من مجال الفنون الراقية (حيث يشير - فى ذلك المجال - إلى الرسم التمهيدى) إلا فى القرن التاسع عشر (عندما كانت المجلة الفكاهية "بنش" Punch تقوم بمحاكاة التصميمات المقدمة للوحات الجصية الجدارية لمجلس العموم محاكاة تهكمية ساخرة - وهو أمر لا يعرفه كثير من الناس). ومع ذلك، فإن المعروف بالرسوم الهزلية السياسية إنما ظهر فى إنجلترا أواخر القرن الثامن عشر، وبصورة بارزة فى أعمال جيراي Gillray وروландسون Rowlandson. فقد كانت رسوماتهما الهزلية تعلق بشكل ساخر على الشخصيات العامة (ومنهم أفراد العائلة المالكة، وبعض القادة العسكريين، بل وإلدى هاميلتون نفسها). وكان الفنان الفرنسى هونوريه دوميه قد سُجن سنة ١٨٢٢، بسبب رسومه الكاريكاتيرية التى كان يهاجم بها لوى فيليب ملك فرنسا فى ذلك الوقت. وبينما يبقى الرسم الهزلى أو الكاريكاتير السياسى ملمحاً شعبياً وهاماً فى صحافة العالم كله (ويبقى من ثم مصدراً هاماً من مصادر التعليقات السياسية، والنقد، والإيديولوجيا داخل الدول الديمقراطية)، فإن الستينيات من القرن العشرين هى التى شهدت ظهور العمل الفني الهزلى "السرى" كسلاح من أسلحة المقاومة السياسية. شاهد ذلك أن مجلة "زاب" Zap التى كان يصدرها روبرت كرمب Robert Crump كانت تربط العمل الفني الهزلى بالقيم الخاصة بالثقافة المضادة، وهى تتكلم بطريقة مكشوفة عن القضايا المتصلة بتعاطى المخدرات وبصور التعبير عن الجنس.

أما القصص المسلسلة الفكاهية المصورة - كعمل يوظف للتسلية عموماً وليس له توجه سياسى معين - فقد ترسخت فى أمريكا فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وذلك بعد نشر المسلسل الفكاهى المصور الذى قدمه ريتشارد أوتكولت Richard

F. Outcault بعنوان "زقاق هوجان" Hogaés Alley (وحقق نجاحاً تجارياً كبيراً) في صحيفة "نيويورك ورلد". وقد ظهر المسلسل الهزلي المصور كمحاولة لاستثمار تقنيات الطباعة بالألوان التي ظهرت حديثاً في ذلك الوقت، وذلك مع ظهور الشخصية الكاريكاتيرية الرئيسية عند أوتكولت ("الطفل الأصفر" The Yellow Kid) حيث قُدمت هذه الشخصية في ثياب النوم ذات اللون الأصفر الفاقع. وفي سنة ١٨٩٢، جُمعت مسلسلات أوتكولت الهزلية في كتاب واحد معاً، نشره ويليام راندولف هيرست W.R. Hearst كملحق لجريدة "نيويورك جورنال". وبدأ ظهور الكتب الأولى التي خصصت كلية للمسلسلات الهزلية في ثلاثينيات القرن العشرين. وبعد فترة قصيرة من ظهورها حدثت - في الولايات المتحدة - نقلة من الأعمال الفنية الهزلية المقتصرة على هدف السخرية والإضحاك فقط، إلى الأعمال الفنية الهزلية القائمة على عنصرى المغامرات والخيال. وكان أشهر هذه الأعمال كتاب "سوبرمان" Superman الذي صنفه جيرى سيجل J.Siegel وجو شوستر J.Shuster (ونشرته دار نشر دي سى كوميكس DC Comics). ثم سرعان ما تبعته كتب: "الرجل الوطواط" Batman وكابتن أمريكا Captain America، وكابتن مارفل Captain Marvel. وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تنوعت المادة التي تناولتها الكتب الهزلية فأصبحت تضم موضوعات عن: رعاة البقر والغرب الأمريكي، والقصص الغرامية، وقصص الخيال العلمي. وفي ستينيات القرن العشرين أصبحت صورة الكتاب الهزلي (بما في ذلك طريقة طباعتها بأسلوب "نقاط بن داي")^(*) أصبحت الصور التي تنشر بالكتب الهزلية عنصراً أساسياً في الفن الجماهيري الذي كان يقدمه روى ليشتنشتاين Roy Lichtenstein.

(*) وهى طريقة في الطباعة منسوبة إلى مبتكرها الناشر الأمريكى بن داي Ben Day (١٩٣٩-١٩٦٦) ويتم فيها إضافة درجات الألوان أو الظلال على الأشكال المرسومة باستعمال أنماط محددة من النقاط والمساحات القصيرة ونحو ذلك من الأشكال الطباعية. (انظر: قاموس ويسترن نيورلد Webster New-World Dictionary) (المراجع)

وفى إنجلترا كان تطور العمل الفنى الهزلى متميزاً تماماً عن مثيله فى أمريكا وسابقاً عليه فى الظهور. فبينما كانت المسلسلات القصصية الهزلية فى أمريكا مرتبطة بالصحف، ظهر العمل الفنى الهزلى فى بريطانيا كمطبوعة مستقلة تصدر خصيصاً للأطفال. ومن هذه المسلسلات مسلسل: "أليز سلوبرز" Ally's Sloper,s، ومسلسل "هاف هوليداي" Half Holiday. وهما مسلسلان فكاهيان بالمعنى الحديث، وكان لهما شخصياتهما الثابتة والمنتظمة فى الظهور، وقد نشرا لأول مرة سنة ١٨٨٤. ثم تبعهما مسلسل "اللقطات الهزلية" Comic Cuts، ومسلسل "رقائق البطاطس المقلية" Chips اللذان نشرا فى سنة ١٨٩٠. وإذا كانت الأعمال الفنية الهزلية فى أمريكا قد حركتها التكنولوجيا الحديثة فى الطباعة والألوان، فإن الذى حرك الأعمال الفنية الهزلية فى بريطانيا كان ازدياد أعداد الجماهير المتعلمة وذلك كنتيجة لتطبيق "قانون التعليم" الصادر سنة ١٨٧٠. وربما شهدت السنوات الأخيرة من ثلاثينيات القرن العشرين أشد التطورات تميزاً فى تاريخ العمل الفنى الهزلى فى بريطانيا، بإصدار مسلسل "بيانو" Beano ومسلسل "داندى" Dandy. وقد كانت السخرية التى وردت فى هذين العملين، وفى كثير من الأعمال الفنية الهزلية فيما بعد، مغالية فى نزعتها الفوضوية وأقل احتراماً للسلطة مما كانت عليه المسلسلات السابقة عليها. وكانت الشخصيات صاحبة السلطة، رغم تمكنها من الانتصار أحياناً على الكُتّاب والرسامين الشباب الذين ينتقدون الحكومة بقسوة، فإنها كانت تعبر عن سلطتها بالمعاملة الشرسة غير اللائقة مع أولئك الكُتّاب والرسامين.

وكان الفهم البريطانى للمسلسل أو العمل الفنى الهزلى باعتباره مجلة يتم تسويقها للأطفال، كان يساعد على توسيع نطاق هذا المصطلح ليشمل - إلى جانب ذلك - طائفة من المجالات التى يتم تسويقها للأطفال والمراهقين (سواء أكان المسلسل الهزلى هو المكون الرئيسى لهذه المجالات أم لم يكن كذلك). وكانت هذه المجالات، ومنها

على سبيل المثال مجلة "جاكي" Jackie (والتي احتفظت لنفسها بشكل مختلف في مجال المسلسلات الهزلية، وذلك بنشرها للقصص المكونة من صور فوتوغرافية وليس الصور المرسومة باليد)؛ كانت هذه المجلات من بين أوائل المنتجات الثقافية التي حظيت باهتمام متصل داخل الدراسات الثقافية (ماك روبي Mc Robbie ١٩٨٩، ١٩٩١)، خاصة من ناحية الاهتمام بدورها في مجال تفصيل النوع الاجتماعي^(*)، ومجال السلوك الجنسي في إطار الإيديولوجيا المعاصرة.

وقد شهد الكتاب الهزلي حركة إحياء مهمة إبان ثمانينيات القرن العشرين، مع ظهور "الرواية المنفذة على الكمبيوتر". وكما هو معروف، قامت هذه الروايات بتبني الأفكار الخاصة بالبطل الخارق والواردة في الأعمال الفنية الهزلية ولكن بمعالجة ذات توجه واقعي وساخر ومتعمق بمفهوم جديد. فكانت رواية فرانك ميلر Miller الرجل الوطواط: عودة الفارس القديم (١٩٨٦) تعالج فكرة ماذا يمكن أن يحدث لو أن بروس وأين البطل الكهل أنهى تقاعده وعاد إلى عالمنا هذا. وقدم آلان مور A. Moore وديف جيبونز D. Gibbons روايتهما "الحُرَّاس" (١٩٨٧) من خلال الإشارة إلى النتائج التي يمكن حدوثها في حالة ما لو أصبح الأبطال الخارقون أناساً حقيقيين، فيتعرضون - رجالاً ونساءً - للوقوع في الأخطاء وهم يعيشون في هذا العالم الواقعي. أما رواية "Maus: A Survivor's Tale" للكاتب آرت سبيجلمان Art Spiegelman (١٩٨٧) وروايته الثانية "And Here My Troubles Began" فقد استعملتا الأساليب التقليدية المتبعة في المسلسلات الهزلية، حيث قامت الحيوانات التي تشبه الإنسان في شكلها بحكاية قصة أحد الناجين من معسكر أوشفيتز^(**) (AE). للمزيد انظر: Barkar (١٩٨٩) وGravett (٢٠٠٦) وPearson and Uricchio (١٩٩١) وSabin (١٩٩٣)، وMc Cloud (١٩٩٣).

(*) أي المتغيرات المتداخلة مع والمؤثرة فيه (المراجع)

(**) الذي كان يوضع فيه أعداء النظام النازي أيام حكم هتلر لألمانيا من سنة ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥. للمزيد انظر مادة: المحرقة في هذه الموسوعة. (المراجع)

الاغتراب

Alienation

نظرية توسع ماركس في شرحها في كتاباته الأولى، وهي تحاول أن تصور وتفسر غربة البشر عن مجتمعاتهم، بجانب محاولة تفسير طبيعة هذه الغربة وأفاقها المحتملة. وفي كتابه المعنون: المخطوطات الاقتصادية والفلسفية الصادر سنة ١٨٤٤ (١٩٧٥)، يعزو ماركس الاغتراب (وهو مصطلح كان شائع الاستعمال قبل هذا الوقت في الكتابات الفلسفية واللاهوتية، وعلى نحو أكثر دلالة عند هيجل) يعزوه إلى ظاهرة **تقسيم العمل** التي تظهر في كنف الرأسمالية. وفي رأى ماركس أن البشر يتميزون عن غيرهم من أنواع الكائنات الحية بأنهم قادرون، ليس على تغيير بيئتهم فحسب، بل هم قادرون على تغييرها بوعي وإرادة. وإن ما ينجم عن ذلك النشاط من معاودة الاهتمام - بصورة واعية - مع بيئة لم تعد بعد مجرد بيئة طبيعية على صورتها الفطرية، ولكنها محصلة عمل الأجيال السابقة من بنى الإنسان. من هنا القول بتميز البشر - دون غيرهم - بالقدرة على تشكيل بيئتهم، وتشكيل أنفسهم كذلك. والإنتاج، في عبارة موجزة، هو عملية تشيئ (أي تشكيل مادی Objectification)، من قبيل ذلك تشيئ الإبداع الإنسانى الذاتى أى تحويله إلى منتج. وهذه العملية من شأنها أن تمنح الفرد المنفذ لها وعياً جديداً بذاته. والاغتراب يمثل فى هذه الحالة تحريفاً أو إفساداً لهذا التشيئ، وتعويقاً للبشر عن معرفة ذواتهم.

إن التقسيم الرأسمالى للعمل لا يقتصر على مجرد التخصيص المفروض على العمال أثناء قيامهم بعمليات التصنيع، وذلك حتى لا ينفرد عامل واحد بتقديم المنتج بأكمله، بل يقتصر على العمل على جزء منفصل منه، ولكن تقسيم العمل يحدث - فوق ذلك - أنواعاً وأشكالاً أخرى من التقسيم بين التصنيع والتوزيع، وبين العمل اليدوى والعمل العقلى، وتقسيماً بين العامل والرأسمالى. وتؤدى هذه الملامح البنائية إلى حدوث أربعة مظاهر للاغتراب (Lukes، ١٩٦٩).

وأول هذه المظاهر أن العامل يغترب (أو يُعزل) عن الشيء المنتج، إلى حد فقدانه السيطرة على المصير الذى ينتهى إليه هذا المنتج.

وثانى هذه المظاهر أن العامل يغترب عن فعل الإنتاج، الأمر الذى يحرمه من الشعور بالراحة النفسية الحقيقية، وهنا تصبح القدرة على العمل ذاتها مجرد سلعة إضافية، ليس لها قيمة إلا بمقدار ما يمكن استبدالها بأى شىء آخر.

وثالث هذه المظاهر أن العامل يغترب عن غيره من العمال وعن المجتمع جملة. فالعامل يعامل باعتباره فرداً منعزلاً، ويحكم عليه وفقاً لقدرته على إنجاز مهمة ما أو أداء وظيفة ما محددة سلفاً ضمن العملية الإنتاجية. وبذلك لم يعد الإنتاج يمثل - فى الحقيقة - عملية تعاونية أو مشتركة.

وأخر هذه المظاهر أن العامل يغترب عن "الوجود النوعى" للبشرية. ومصطلح "الوجود النوعى" هذا سبق أن طوره الفيلسوف لودفيج فويرباخ، ثم طوره ماركس بعد ذلك للإشارة إلى ما لدى البشر من طاقة كامنة يقدرّون بها على تقرير مصيرهم بصورة جماعية وبحرية.

وفى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى أصبح مصطلح الاغتراب يستعمل - حديثاً جداً - للدلالة على الخبرة الذاتية أو الشخصية للحياة العصرية (وبصفة خاصة فى البيئة الحضرية وفى مجال العمل). وهكذا، حدد روبرت بلونر (Blawner) (١٩٦٤) أربعة أشكال قابلة للقياس إمبيريقياً من أشكال الاغتراب كخبرة ذاتية:

- أولها العجز (وهى الخبرة الخاصة بكون العامل عاجزاً عن السيطرة على بيئته).
- وثانيها افتقار الجدوى (والنابع من عجز العامل عن تمييز إسهامه الذى يشارك به فى الإنتاج).
- وثالثها العزلة (أى فقدان العامل لأى إحساس بالانتماء إلى منظمة العمل).

----- (أ) -----

● ورابعها الغربة الذاتية (أى فقدان العامل لأى فائدة نفسية مستمدة من العمل).
ويختلف هذا التناول - إذا شئنا الدقة - عن تحليل ماركس من حيث إن وصف ماركس للاغتراب كان تحليلاً لبناء الرأسمالية ولموضع العامل داخل هذا البناء، وذلك دون الاعتماد على أى إحساس ذاتى بالاغتراب.
وثمة استعمال لمصطلح "الاغتراب" أقل دقة، وإن يكن قد انتفع انتفاعاً كاملاً من الترابط المجازى بين كون العامل يشعر بأنه شخص أجنبى أو دخيل أو غريب وهو فى بلده، وهو استعمال يتردد فى كثير من الكتابات الفلسفية والثقافية التى تصدرت للتعليق على ظروف المجتمع الحديث. وقد يكون من اليسير أن نربط بين الاغتراب وبين خبرة النفى باعتبارها تمثل إلى حد ما نموذجاً لخبرة القرن العشرين. وهكذا ربما تغرينا الفلسفة الوجودية بالتقاط أوجه الشبه بين الاغتراب- من ناحية- وبين بعض الأفكار المتعلقة بالقلق وانعدام الثقة من ناحية أخرى. وبالمثل، قد يتم الربط بين الاغتراب ومفهوم دوركايم عن اللامعيارية، أو ربطه بآراء فيبر عن مواجهة الفرد فى العصر الحديث للقفس الحديدى للبيروقراطية. (AE) للمزيد انظر: Mészáros (١٩٨٦) وRotenstreich (١٩٨٩).

Political Economy

الاقتصاد السياسى

هو التحليل الاقتصادى لنظام الحكم. ومن الأمثلة الجيدة لهذا الشكل من أشكال الدراسة كتاب آدم سميث^(٥) بعنوان "ثروة الأمم"، وهو عمل لقى الترحيب بوجه عام

(٥) آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣-١٧٩٠) فيلسوف اجتماعى وعالم اقتصاد أسكتلندى، وهو مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكى. دعا إلى تعزيز المبادرة الفردية والمنافسة وحرية التجارة بوصفها الوسيلة الفضلى لتحقيق أكبر قدر من الثروة والسعادة. أهم آثاره كتاب "بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها" (١٧٧٦). (المراجع)

بوصفه العمل الأول من نوعه. فقد طرح سميث في هذا الكتاب تصوراً عن المجتمع في ضوء ما فيه من القوى الاجتماعية -الاقتصادية، كما قام بتحليل العلاقات الاقتصادية القائمة بين الأفراد (انظر مادة: الفرد/الفردية) وفقاً لما تعنيه من دلالات تتصل بدور الحكومة في إدارة المجتمع. كما يقدم تحليل سميث نفسه بوصفه دراسة للاتجاهات العامة للتطور الاجتماعى الذى ميز التاريخ ورسم خطوطه. لذلك فهو يدقق النظر فى أصول المجتمع المدنى الحديث فى ضوء تطوره عبر عدد من المراحل المتعاقبة، كما يفسر هذا التطور وفقاً لمقوماته الاقتصادية، وملامحه السيكولوجية، وخصائص القوة السياسية فيه. وكان سميث يؤكد أن ما يقوم به فرد معين من أفعال مدفوعاً إليها بدافع الطمع (أى: بدافع السعى لتحقيق الثروة الشخصية من خلال العمل فى السوق) يكون له نتائج أو آثار اجتماعية فعلية أخرى (بجانب تحقيقه لهدفه الشخصى) تتمثل فى إنتاج مستوى أعلى وأكثر شمولاً من الثروة للمجتمع كله. وهذا ما يسميه سميث بعمل "اليد الخفية"، وهى اليد التى تقوم بعملها على المستويات السيكولوجية والمستويات الاقتصادية بقصد تعزيز أوضاع الثروة فى المجتمع ككل. وقد طرح سميث وصفاً لآليات التنافس وللظروف التى تحدد قيمة السلع. وقد دافع عن رأى فى نظام الحكم يقتصر على نطاق محدود من الأدوار الاجتماعية (وهى توفير القانون وتطبيقه، وتوفير الدفاع، وتحمل المسؤولية عن إقامة المرافق العامة الأساسية)، وذلك نظراً لأن هدف الحكم هو تسهيل عمل آليات السوق الحرة.

ويتضح مما كتبه سميث أن من الممكن أن يُنظر إلى الاقتصاد السياسى على أنه يهدف إلى تقديم تحليل وصفى للقوى الاجتماعية. وقد كان مصطلح الاقتصاد السياسى (ليس فقط فيما جاء عنه فى كتاب سميث المذكور، بل فيما جاء عنه فى أعمال أخرى لمفكرين آخرين، كريكاردو Ricardo مثلاً) كان محل عناية كارل ماركس، حيث استعمله فى تطوير نظرياته. وفى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين تعرضت كثير من المفاهيم الأساسية للاقتصاد السياسى (كمفهوم الذاتية المسلم به فى نطاق

الاقتصاد السياسى، ووضع الاقتصاد السياسى كعلم إمبرييقى) تعرضت للنقد من قبل بعض المفكرين أمثال لوى ألتوسير. (PS) انظر المزيد: Smith (١٩٨٦) و Mclellan (١٩٧٥).

Feudalism

الإقطاع (النظام الإقطاعى)

الإقطاع، فى النظرية الماركسية، هو نمط الإنتاج (أو الحقبة التاريخية) التى تسبق الرأسمالية فى أوروبا الغربية. وقد يكون من خصائص الإقطاع أن نظام السلطة فيه يكون لا مركزياً، وأن له نمطاً خاصاً فى ملكية الأرض. وكان السيد (أو المالك) الإقطاعى على صلة بشخص تابع له سياسياً هو المُنْقَطَع (*) Vassal الذى كان يقسم يمين الولاء والإخلاص له. وكان المُنْقَطَع يعبر عن هذا الولاء - عادة - من خلال استعداده لتوفير الخدمات العسكرية للسيد الإقطاعى. حيث يرصد المبالغ اللازمة لتمويل القوات من عائد إيجارات الأراضى الضخمة التى يوزعها بين أتباعه. (وتظهر هذه العلاقة القائمة بين السيد والتابع "المُنْقَطَع" خلال عدة مستويات من النظام التراتبى الأرستقراطى، بدءاً بالفرسان فى القاعدة، وذلك فى عملية تسمى "عملية التفريع الإقطاعى" (sub-infudation).

وعلى مستوى قاعدة الاقتصاد الإقطاعى، كان الأَقْنَان (**) ملزمين قانوناً بالعمل فى الأرض التى يملكها ساداتهم من الإقطاعيين. بيد أن القن (أو الفلاح) كان يتمتع فعلاً بشيء من السيطرة على وسائل الإنتاج، وذلك بالرغم من عدم تمتعه بأى حق قانونى بملكيتها (على عكس الحال مع طبقة البروليتاريا فى النظام الرأسمالى). وكان

(*) للمزيد عن الموضوع من وجهة نظر علم الاجتماع راجع مادة: الإقطاع فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٩٨-٢٠١. (المراجع)

(**) جمع "قن" وهو رقيق الأرض. وهم الفلاحون المملوكون للإقطاعى صاحب الأرض. (المراجع)

الاستغلال داخل النظام الإقطاعي يحدث من خلال ما يدفعه الفلاحون من إيجارات لملك الأراضي في مقابل السماح لهم بالانتفاع بها. فقد كان الأقتان ملزمين قانوناً بتحويل جزء من غلاتهم التي ينتجونها إلى السيد الإقطاعي، سواء أكان ذلك الجزء في صورة عينية، أو نقداً، أو من خلال عملهم في أرض السيد الإقطاعي بدون أجر. (ويلاحظ أن النموذج الماركسي للنظام الإقطاعي يقوم - حتماً - بالتبسيط المبالغ فيه للبنية الحقيقية لهذا النظام، وذلك بتركيزه - كما رأينا - على أهم طبقتين فيه، وهما الطبقة الأرستقراطية وطبقة الأقتان أو الفلاحين. وفي واقع الأمر استطاعت أعداد كبيرة من الأقتان، ابتداءً من القرن الثاني عشر فصاعداً، شراء حريتها والانتقال إلى المدن التي كانت أخذة في النمو آنذاك. لهذا أخذ نطاق السلطة الإقطاعية في التقلص والانحسار بصورة متزايدة على مر الزمان).

وكانت الثقافة السائدة في النظام الإقطاعي، خاصة إذا اعتبرنا أن الثقافة بمثابة إيديولوجيا تضيف الشرعية على النظام السياسي القائم، تركز على الدور الذي تقوم به الكنيسة، من حيث تأكيدها خلق الطاعة للسادة الإقطاعيين وتقبل المرء لمكانه أو موقعه من النظام الاجتماعي. (AE) للمزيد انظر: Hindess and Hirst (١٩٧٥) و Bloch (١٩١٦).

Minority

الأقلية

عادة ما تكون الأقلية عبارة عن جماعة اجتماعية ذات وضع عددي أدنى من غيرها من الجماعات الأخرى الموجودة داخل مجتمع ما، ومن ثم تكون عرضة للمعاناة (أو الاضطهاد) من قبل الرأي العام الذي تعنقه الأغلبية. لذلك، فإن مصطلح "الأقلية" يمكن أن يعني في أحيان كثيرة وضعاً اجتماعياً متدنياً أو تهميشاً للمصالح بسبب افتقار هذه الأقلية للقوة السياسية في الظروف التي تعبر فيها عن وجهات نظرها أو عن مصالحها. وبالمثل، فإن كون المرء من الأقلية (خاصة إذا كان من أقلية عرقية

أو إثنية) يمكن أن يؤدي إلى معاناته من حالات الظلم وسوء التمثيل في المجالس النيابية (انظر: صورة نمطية أو نمط ثابت). ومع ذلك، فإن من الجدير بالملاحظة أن نظام حكم الأقلية، مثلاً، يُعد نظام أقلية من حيث المعنى العددي للكلمة، وبالرغم من ذلك فإنها تسيطر بقوتها السياسية على سائر الجماعات في المجتمع.

وقد قام الفيلسوف جون ستيوارت ميل (وهو من أشهر أنصار الليبرالية) بتشخيص حال المجتمعات الديمقراطية الجماهيرية الحديثة باعتبار أنها أقدر المجتمعات على انتهاك حقوق الأقليات بها، وذلك باسم الرأي العام ورأى الأغلبية (ويستعمل ميل للتعبير عن هذا الوضع مصطلح "طغيان الأغلبية"). ويرى أن مصالح الأقلية (وأولها مبدئياً حق الأقلية في إبداء الرأي، وهو الحق الذي يتمثل في استقلالها الفكري الذي يعتبر الدرع الواقى للفرد) يجب أن تحترم وتضامن إن أراد المجتمع أن يبلغ أقصى درجات الاستفادة من إمكانياته وقدراته، وتعد المصلحة الثقافية العظمى للمجتمع، وفقاً لرأى ميل، مرادفةً لتعظيم فرص تعددية الآراء وتعددية أساليب المعيشة داخل هذا المجتمع، وما يصاحب ذلك من حفاظ على حق الأقلية في التعبير عن رأيها.

وقد ذهب جيل ديليوز(*) وفليكس جواتاري F. Guattari إلى ضرورة التفرقة بين نظم التمثيل المعتمدة على سيطرة الأغلبية ونظم سيطرة جماعة أقلية، وبين الآثار

(*) ديليوز، جيل Deleuze, Gilles (١٩٢٥-١٩٩٥) فيلسوف فرنسي قضى السنوات الأولى من حياته يؤلف دراسات عن الفلاسفة الذين يرى أنهم تحدوا الأفكار السائدة في عصره. وهو مثل سائر مفكرى عصره الفرنسيين تأثر بالماركسية، والتحليل النفسي، والفيزيولوجيا، والوجودية. ولكنه تحدى كل تلك الاتجاهات الفكرية مستعيناً بأراء مفكره القريبين من عقله مثل: برجسون، وسبينوزا، وليبنتز، وهيوم، ونيتشة. وكان الشطر الثاني من حياة ديليوز أقل ميلاً إلى المحافظة وإلى التفسير والشرح، فكان فيه مبدعاً ناصعاً في إبداعه. كان يرى أن الفلسفة تتغذى وتنتعش باستمرار من خلال مواجهتها للأفكار المضادة لها والمناوئة لورها. كتب عن السينما، والأدب، والفنون الجميلة. انظر المزيد عند A.Elliott and L.Ray, Key Cont. Social Theorists, 2003 (المراجع)

أو النتائج الاجتماعية المترتبة على كل نوع منها. وهما يذهبان إلى أن اتصاف نظام بصفة سيطرة جماعة أقلية يعنى وجود مصالح مهمشة داخل النظام الاجتماعى؛ وعلى ذلك فإن وجود المرء فى نظام تسيطر عليه جماعة أقلية ليس مرادفًا - بالضرورة - لكونه أحد أفراد أقلية ما. وشاهد ذلك أن النساء قد يشكلن أغلبية بلغة الأرقام المجردة، ولكنهن يعتبرن أقلية مضطهدة إذا كانت مصالحهن يتم تهيمشها على يد ما يسود فى مجتمع ما أو ثقافة ما من نظم القوة السياسية وغيرها من النظم المؤثرة، على الوجه الذى يجعل هؤلاء النساء فى مرتبة اجتماعية دنيا. (PS) للمزيد انظر: Mill (١٩٨٤) و Deleuze and Guattari (١٩٨٧).

Production

الإنتاج

إن الاستعمال الأساسى، والمعنى الأساسى، لمصطلح الإنتاج إنما يوجدان فى مجال علم الاقتصاد، حيث يشير هذا المصطلح إلى تحويل فى شكل عناصر المواد الطبيعية أو الوحدات المصنعة فعلاً، وذلك من خلال الجمع بينها وبين العمل ورأس المال. لذلك فإن الإنتاج يعنى دائماً تحويل شكل شئ موجود فعلاً. وقد طبق مفهوم الإنتاج بصورة مثمرة على الثقافة - خاصة على يد الماركسيين - من أجل إظهار الصلة بين إنتاج الإبداعات الثقافية أو الإنجازات الثقافية والإنتاج الاقتصادى: سواء أكانت هذه الصلة تتمثل فى أن الإنتاج الثقافى يرتكز على الإنتاج الاقتصادى ويخضع لاعتبارات، أم تتمثل فى أن الإنتاج الثقافى يحاكي الإنتاج الاقتصادى فى بعض الجوانب. وي طرح مثل هذا الاتجاه الفكرى تحدياً حقيقياً لعلم الجمال التقليدى، حيث يميل هذا العلم إلى عزل العمل الفنى عن الظروف والملابسات الاجتماعية والاقتصادية التى أبدع فى ظلها. ويوضح بنيامين فى مقالته التى كتبها عن برخت Brecht بعنوان "المؤلف بوصفه منتجاً" (١٩٣٧) هذا التحدى بصورة محكمة دقيقة. (AE) للمزيد انظر: Wolff (١٩٨١) و Macherey (١٩٧٨).

Cultural Anthropology

الأنثروبولوجيا الثقافية

تعنى الأنثروبولوجيا - حرفياً - دراسة الإنسان أو الجنس البشري، وتنقسم إلى شعبتين: الأنثروبولوجيا الفيزيائية (أو البيولوجية) والأنثروبولوجيا الثقافية. وتُعنى الأنثروبولوجيا الفيزيائية بالاختلافات الجسمانية في شكل البشر. وأثناء القرن التاسع عشر، كان هذا الاختلاف يُفهم في ضوء تصورات تطورية فجأة، وكثيراً ما استعمل هذا الاختلاف لتبرير تفوق الأوروبيين البيض على الأشكال الأخرى من البشر، والتي كان الأوروبيون يفترضون أنها أكثر بدائية من غيرها. أما في وقتنا الحاضر فإن الأنثروبولوجيا الفيزيائية تركز فقط على التنوع أو الاختلاف في شكل البشر (باعتباره تكيفاً مع البيئات الطبيعية المختلفة)، ولا تزيد عن ذلك.

وقد حدثت نقلة مشابهة في الأنثروبولوجيا الثقافية، حيث اكتمل نضجها وصارت علماً اجتماعياً محترماً (وجوهرياً في واقع الأمر) منذ بداية القرن العشرين. وهكذا حل محل اهتمامها السابق بتقدم المجتمع الإنساني والثقافة الإنسانية (والذي لا يزال يتجلى في استعمال مصطلح المجتمع البدائي أحياناً) حل اعتراف بتنوع الثقافات الإنسانية، واعتراف بما تقوم عليه هذه الثقافات من طرائق للتفكير وأبنية فكرية دقيقة ومركبة تتسم بكونها مختلفة، ولكنها مع ذلك متساوية.

وربما كان من أوائل أعلام الأنثروبولوجيا - على الأقل في الطور الحديث لموضوعها - الذين يجدر ذكرهم: مارسل موس (في فرنسا) وفرانز بواس (*) (في

(*) بواس، فرانز Boas, Franz (١٨٥٨-١٩٤٢) أنثروبولوجي ألماني المولد. أسس الأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة في الولايات المتحدة. وقد هيمن بواس وتلاميذه على الأنثروبولوجيا الأمريكية طوال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. وأحدث بواس ثورة في منهجية العمل الميداني، بتأسيسه على تحليل النصوص المحلية، واللغويات، وتدريب ممثلين من أبناء الثقافة المحلية، ليقوموا بتسجيل ثقافتهم بأنفسهم. وقد أثر كتابه الفن البدائي، الصادر عام ١٩٢٧ تأثيراً عظيماً في الاتجاهات اللاحقة التي اهتمت بدراسة الثقافة المادية للشعوب، وباستخدام هذه الأساليب المنهجية، استطاع بواس أن يوفر مادة إثنوجرافية هائلة عن =

الولايات المتحدة). وقد قام موس، وهو ابن أخت إميل دوركايم وتلميذه، بتطوير اتجاه بحثى مقارن للأنثروبولوجيا. وباستخدامه للبيانات الإثنوجرافية (يمكن وصفها بأنها بيانات وصفية)، والتي سبق أن قام غيره من الباحثين بتجميعها من طائفة كبيرة من المجتمعات الصغيرة التي تعيش مرحلة ما قبل الصناعة، سعى موس إلى استنباط الأنماط المشتركة المتبعة في تنظيم الحياة الاجتماعية والثقافية. وفي كتابه بعنوان "الهبه" (١٩٦٦) قام بتحليل ظاهرة تبادل الهدايا. وقد أدرك موس أن الهدية تحمل معها التزاماً أخلاقياً متبادلاً. ذلك أنه يتوجب ردها، بشكل ما، وفي وقت لاحق. لهذا يمكننا تفسير ظاهرة تبادل الهدايا باعتباره "ظاهرة اجتماعية كلية أو شاملة". وذلك بمعنى أنه يمثل نشاطاً له معانيه المتضمنة السارية في كافة مجالات المجتمع، أى في المجالات الاقتصادية، والقانونية، والسياسية، والدينية. (لهذا، فإن بالإمكان تأمين القوة السياسية لنظام حكم ما من خلال ما يتمتع به القائد من قدرة على تقديم الهدايا، وبفضلها يربط من تلقوا هذه الهدايا به، وذلك لأنهم مستعدون لرد هذه الهدية في صورة ولاء سياسى له). وإذا كان موس قد طور جانباً نظرياً فى الأنثروبولوجيا، خاصة أنه ميز بدقة ما للثقافات الأخرى من تشابك ورقى، وميز كذلك ما للثقافة من جوانب معرفية (من حيث إن ثقافة المرء تزوده بالوسائل التى يمكنه بها فهم وتصنيف المجالات الطبيعية والاجتماعية، والتميز بينها (دوركايم وموس (١٩٦٣))؛ إذا كان موس قد فعل ذلك، فإن فرانز بواس قد عزز الجانب الإمبريقي (الميدانى أو الواقعى)

= الثقافات الأمريكية المحلية السائدة فى الشمال الغربى المطل على المحيط الهادئ. وقد فضل البحوث الإثنوجرافية الإمبريكية على أى سعى للتوصل إلى قوانين عليّة فى ميدان الثقافة. وكان بواس يؤمن بالنسبية الثقافية، ويرى أن الثقافة ينبغى أن تفهم فى ضوء إطارها المرجعى للمعنى، بدلاً من أن يتم الحكم عليها فى ضوء القيم الثقافية للباحث الخارجى. وقد هاجم وفصح ادعاءات النظريات التطورية الكبرى كما عرفت عند كل من إيبوارد تايلور وجيمس فريزر. وأكد بواس فى مقابل ذلك على دراسة الثقافات ككيانات كلية بوصفها أنساقاً مكونة من العديد من الأجزاء المترابطة. وقد مهد اهتمامه فيما بعد بعلم النفس لاتجاه الثقافة والشخصية. (المراجع)

للأنثروبولوجيا. فبعد معيشته بين أقوام الإنويت Inuit (أثناء عمله فى إحدى البعثات العلمية المشغلة بالأرصاد الجوية) صار بواس يؤكد أهمية الوصف المستفيض لأدق تفصيلات الحياة اليومية فى كل ثقافة تتصدى لدراستها. ومن ثم يؤكد أهمية العمل الميدانى والتقنيات أو الأساليب الإثنوجرافية.

وظلت الدراسة التى أجراها برونيسلاف مالينوفسكى(*) عن سكان جزر التروبريان فى غينيا الجديدة (١٩٢٢) تمثل نموذجاً للبحث الأنثروبولوجى الدقيق على امتداد سنوات عديدة. إذ تجمع هذه الدراسة بين الوصف الإثنوجرافى المستفيض الذى يأتى على أدق التفاصيل فى حياة المجتمع، وبين الإطار التفسيرى الوظيفى. وفى واقع الأمر، كان مالينوفسكى يسعى إلى تفسير ما للمجتمع من ملامح ونظم فى ضوء ما تقوم به من وظائف، أى فى ضوء ما تشبعه من حاجات، من أجل الحفاظ على الثقافة ومن أجل إعادة إنتاجها. فقد كان الاتجاه الوظيفى مهيمناً على مجال الأنثروبولوجيا فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية، عندما كان العالمان

(*) مالينوفسكى، برونيسلاو كاسبر Malinowski, Bronislaw Kasper (١٨٨٤-١٩٤٢) أنثروبولوجى بولندى أعد أطروحته فى لندن عن سكان أستراليا الأصليين. وفيما بين عام ١٩١٥-١٩١٨ أجرى بحثاً ميدانياً لفترة تقرب من سنتين فى جزر التروبريان بغيينيا الجديدة. وهناك طور ما أصبح الآن منهجاً كلاسيكياً فى العمل الميدانى المكثف، حيث كان ينصب خيمته فى القرى ويعيش هناك. وقد أكد أهمية تعلم لغة المواطنين واستيعاب وجهة نظر السكان المحليين. وفى عام ١٩٢٧، عين أستاذاً لأول كرسي للأنثروبولوجيا الاجتماعية فى كلية لندن للاقتصاد، حيث اجتذبت محاضراته العديد ممن يعدون الآن من مشاهير الأنثروبولوجيين الذين تلمذوا على يديه. وقد ارتبط اسم مالينوفسكى بالنظرية الوظيفية. فكافة الثقافات الإنسانية يمكن فى الواقع أن تختزل إلى إشباع الحاجات الأساسية. فالشعائر، وأنماط القرابة، وعمليات التبادل الاقتصادية (بما فيها واقعة حلقة الكولا الشهيرة)، لا ينبغي أن تفسر فى ضوء أصولها التاريخية، بل فى ضوء استخداماتها الحالية. فالنظريات السابقة التى حاولت أن تفسر كافة العادات والممارسات بوصفها "رواسب" من الأزمان الغابرة يجب أن ترفض. وقد قصد مالينوفسكى بتأكيد هذه الأهمية الأتية فقط للنظم، إهمال أى إطار تاريخى لها. وأضفى طابعاً مثاليًا على التوازن المتناغم لآى مجتمع. (المراجع)

الأنثروبولوجيان البريطانيان إيفانز بريتشارد وراڊ كليڤ براون يشغلان مكان الصدارة بين علماء الأنثروبولوجيا .

ومع هذا، فقد كان يجرى حينئذ إنجاز أعمال أنثروبولوجية مهمة- في الولايات المتحدة- على أيدي عدد من العلماء، نذكر منهم: روث بندكت(*) ومارجريت ميد(**) (١٩٢٨). وتقدم بندكت في كتابها (١٩٣٥) تفسيرات ممتازة للثقافات جديدة بالملاحظة، وذلك فيما يتصل بما تقوم به هذه الثقافات من تعبير وإفصاح عن "الموضوع الأساسي" (أو تعبر، في حالة الثقافة اليابانية، عن الصدام بين موضوعين أساسيين، وهما السمة العسكرية (ورمزها السيف) والسمة الجمالية (ورمزها زهرة الأقحوان) (بندكت ١٩٨٩)). وقد قامت بندكت وميد في عملهما، كما فعل بواس معلم ميد من قبل، قامتا بالتركيز المحدد على الدور الذي تقوم به الثقافة في تشكيل

(*) بندكت، روث فولتون Benedict, Ruth Fulton (١٨٨٧-١٩٤٢) درست على فرانز بواس في جامعة كولومبيا، وأجرت بحثها الميداني الأول في عشرينيات هذا القرن، حيث طورت اهتماماً بالغاً بالدراسات المقارنة. وقد تأثرت فيما بعد بنظريات علم النفس، وارتبط اسمها ارتباطاً لصيقاً بما سمي بمدرسة الثقافة والشخصية في الأنثروبولوجيا الأمريكية. وربما كان أكثر مؤلفاتها شهرة "أنماط الثقافة"، الصادر عام ١٩٣٤، و زهرة الأقحوان والسيف، الصادر عام ١٩٤٦. (المراجع)

(**) ميد، مارجريت Mead, Margaret (١٩٠١-١٩٧٨) أمريكية متخصصة في الأنثروبولوجيا الثقافية وتلميذة روث بندكت. كانت ترى أن أنماط الشخصية تتحد ثقافياً وليس بيولوجياً. وقد هوجم كتابها الشهير بعنوان البلوغ في ساموا (الصادر عام ١٩٢٨) من قبل المتشيعين للبيولوجيا الاجتماعية. فقد نهض الكتاب على عمل ميداني مبسّس، على أنه من الممكن إعادة تقويمه دون أن ينتقص ذلك من إسهامها. ولقد رادت مجال الدراسة النقدية للنوع بدراستها الهامة المعنونة: الجنس والمزاج في ثلاثة مجتمعات بدائية (الصادر عام ١٩٣٥). واشتملت رحلاتها الميدانية المتعددة على زيارات لجزر جنوب المحيط الهادئ، غينيا الجديدة، وبالي. وقد جعلت من الأنثروبولوجيا الاجتماعية علماً في متناول الناس جزئياً من خلال تحديثها للزعة المركزية السالاية في الإيديولوجيا المسيطرة في الولايات المتحدة. وقد تم تهميشها نظراً لنقد لها لهيمنة الرجال على العالم الأكاديمي، وظلت تعمل في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي بمدينة نيويورك، إلى أن رقيت من منصب مساعد إلى منصب أمين المتحف. (المراجع)

الشخصية الإنسانية. وفي المناقشات الدائرة حول موضوع "الطبيعة- والتنشئة"- وأعنى الجدل حول تأثير كل من الاكتساب الثقافي والوراثة الجينية على تشكيل الشخصية الإنسانية وغيرها من الخصائص النفسية- ففي هذه المناقشات يقوم علماء الأنثروبولوجيا الثقافية، كما هو معهود منهم، بتأكيد أثر "التنشئة" في هذا الجدل. ونجد أشد صور هذا الموقف غلوًا في أعمال بندكت، حيث تذهب إلى أن الطفل المولود حديثًا- من بنى الإنسان- قد يكون أشبه بالصفحة البيضاء^(*)، التي تستطيع الثقافة أن تكتب عليها ما تشاء من خصائص أيًا كانت (ومن ثم فإن هذا الموقف يولى قدرًا عظيمًا من تأكيد أهمية التنشئة الاجتماعية). وقد يثير هذا الاتجاه- في الواقع- عدداً من المشكلات عند تفسير سلوك أولئك الذين لا يتوافقون مع المجتمع (أي: المنحرفين).
(انظر مادة: الانحراف)

وقد كان لمؤلفات موس وراذكليف براون أبلغ التأثير على كلود ليفي- شتراوس، وعلى تطور الأنثروبولوجيا البنيوية في أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة. فقد عالج كتابه بعنوان "البنية الأساسية للقرابة" (١٩٦٩) قواعد الزواج بصورة مجملة مطبقاً أسلوب موس الفكري الخاص بالظاهرة الاجتماعية الكلية. وهذه القواعد هي التي تحكم الزواج (ومنها على سبيل المثال تلك العادة الاجتماعية الشائعة التي تؤثر الزواج من أبناء العمومة أو الخؤولة المباشرين وتفضلهم على غيرهم) وكان يُنظر إليها على

(*) الصفحة البيضاء Tabula Fasa تعرف أيضاً باسم نظرية اللوح الخالي أو الفارغ من أي شيء- أو الورقة البيضاء، وجميعها تسميات تعبر عن نظرية إمبريقية متطرفة إلى العقل والمعرفة، والتي تمثل مصدر إلهام نزعة التداعي (أو المذهب الترابطي) في علم النفس. وكان جون لوك يرى أن مضامين أي عقل إنساني تكتب عليه كما لو كان العقل صفحة بيضاء بواسطة الخبرات التي يعيشها، وهي وجهة نظر تقابل اليوم النظريات السلوكية الحديثة التي تحاول أن تفسر العمليات العقلية كثمرة أو محصلة لبعض المنبهات الخارجية والاستجابات السلوكية. (المراجع)

أنها تشكل الأساس الذى تقوم عليه عمليات التبادل الهادفة بين العشائر التى يسيطر الذكور على أمورها. فالنساء من "الرسائل" messages التى يتم نقلها فيما بين العشائر، حيث ترسل بعض العشائر بناتها (كزوجات) إلى العشائر الأخرى وتتلقى من تلك العشائر زوجات لشبابها.

وقد كان تأثير علم العلامات لسوسير على ليفى - شتراوس مرتبطاً بعمل آخر كان قد أنجزه رادكليف براون آنذاك بدراسته للأبنية الموجودة داخل الأساطير، وخاصة فيما يتصل باستعمال التعارضات الثنائية (كالتعارض القائم بين الأسود-والأبيض) فى التعبير والإفصاح عن معانى وأهداف هذه الأساطير. ففى أروع ما كتبه ليفى - شتراوس من أعمال، وهو كتابه ذو الأربعة أجزاء بعنوان "الأساطير" (١٩٧٠، ١٩٧٣، ١٩٧٧، ١٩٨١)، بالإضافة إلى كتابه بعنوان "العقل الهمجى" (١٩٦٦)؛ فى هذه الأعمال لا يقتصر المؤلف على استكشاف الطرق التى تتبعها الثقافات الإنسانية فى تنظيم أنساق التصنيف (ومن ثم تحدث التكامل بين فهمها للعالم الطبيعى وتفسيرها للعالم الاجتماعى)، وإنما يقدم هذه الأبنية بما تحتوى عليه من حكايات أسطورية وأنساق تصنيف، باعتبارها تجليات لبناء عميق قائم على عمل العقل الإنسانى بصفته عقلاً. وينظر إلى التنوع الذى تتسم به بعض الأساطير والمعتقدات الخاصة، على أنه يقتصر على استخدام مجموعة محدودة- نسبياً- من الوحدات ذات المعنى (أو من الرموز). ويتحدد الربط بين هذه العناصر وفقاً لقواعد تشبه قواعد التحويل النحوية (فى الواقع هناك أساطير معينة تشبه الكلام عند سوسير، على حين ينهض بناؤها على اللغة).

وإذا كانت أعمال رادكليف براون قد أثرت على النزعة البنيوية، فإن أعمال إيفانز بريتشارد قامت بدور فعال فى إثارة الجدل حول النسبية الثقافية. ذلك أن الفيلسوف

البريطاني بيتر وينش والمتأثر بأفكار فيتجنشتين قد تبنى ما قدمه إيفانز بريتشارد^(*) من تفسير للممارسات السحرية التي تزاوّل لدى شعب الأزاندي The Azande، وذلك لكى يتأمل مدى صعوبة المقارنة بين الثقافات المختلفة وبين بعضها (ونش ١٩٥٨). وهذا يعنى أن ونش استطاع أن يطور موقفاً يلتزم بمبدأ النسبية، ويرى أن جميع القيم وجميع المعارف التى يدعى الناس إحاطتهم بها لا تكون صحيحة وذات معنى مفهوم إلا بالنسبة لتلك الثقافة الخاصة (أو باستعمال مصطلحات فيتجنشتين: بالنسبة "لشكل الحياة" الذى توجد فيه). وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يترتب عليه بالضرورة أن المرء لا يمكنه فهم هذه القيم والمعتقدات إلا فى ضوء مصطلحاتها الخاصة بها. لهذا فإن عالم الأنثروبولوجيا مطالب بالضرورة بأن ينغمس كلياً فى الثقافة التى يدرسها، وألا يحاول ترجمة ما يتحصل عليه من حقائق ومكتشفات إلى القيم والمعتقدات الخاصة بثقافته الأوروبية الغربية.

ويتعارض هذا الاتجاه الذى يأخذ به ونش مع أسلوب البحث المقارن والتفسيرى الذى اتبعه موس أو ليفى شتراوس، وذلك لأن البعض قد يرى أن هذا الأسلوب المقارن قد ينتهك ما لكل ثقافة من تميز وتفرد، كما يسىء إلى حق كل ثقافة فى أن تُفهم وتُفسر بلغتها الخاصة بها (وليس بلغة ثقافة علمية أجنبية عنها، كالثقافة التى أنتجت الوظيفية، والبنوية مثلاً). وعند موقع أقل غلواً مما سبق ذكره تظل الأنثروبولوجيا الثقافية مهتمة بتنوع الثقافات الأخرى ورسوخها كإنساق معرفية، مفضية بهذا

(*) إيفانز بريتشارد Evans Pritchard (١٩٠٢-١٩٩٠) عالم أنثروبولوجيا إنجليزى شهير، تتلمذ على يد كل من مالىنوفسكى وسليمان. اشتغل بتدريس علم الاجتماع بالجامعة المصرية - جامعة القاهرة حالياً - (١٩٣١-١٩٣٤). وشغل وظيفة أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة أوكسفورد من عام ١٩٤٦ حتى ١٩٦٨. من مؤلفاته: ١- السنوسيين فى برقة ١٩٤٩، ٢- الشعوذة والعرافة والسحر عند الأزاندي ١٩٢٧، ٣- النوير ١٩٤٠، ٤- القرابة والزواج عند النوير ١٩٥١، ويمثل الكتابان الأخيران نتائج دراسته الواسعة عن النوير. (المراجع)

الاهتمام إلى ظهور سلسلة من مجالات البحث الفرعية داخل ميدان الأنثروبولوجيا الثقافية، التي تتناول الطرق التي تتبعها الثقافات المختلفة في تنظيم معارفها عن مختلف الظواهر. وهكذا يدرس فرع "الطب السلالي" (*) الطريقة التي تعبر بها الثقافات غير الغربية عن معارفها الطبية، أو يعنى "علم النبات السلالي" بمعرفة النباتات وتصنيفها عند الثقافات غير الغربية. (AE) للمزيد انظر: Strathern (١٩٩٥) و Leach (١٩٨٢) و James et al (١٩٩٧) و Ingold (١٩٩٦).

Deviance

الانحراف

يمكن القول إن مفهوم "الانحراف" قد ظهر داخل ميدان علم الاجتماع، كرد فعل لعلم الإجرام التقليدي. فعلى حين يقوم علم الإجرام بدراسة الجريمة، ومن ثم يدرس انتهاك القانون، يهتم علم اجتماع الانحراف بدراسة مجال من النشاط أوسع نطاقاً مما يفعل علم الإجرام. فسلوك المنحرف إنما ينحرف عن معيار من معايير السلوك يحظى بالقبول العام وبإجماع الناس عليه. فمدمن الخمر (فى الغرب مثلاً) لا ينتهك قانوناً بإدمانه الخمر، ولكن سلوكه هذا ينحرف عن الحدود التي ارتضاها المجتمع كمعايير لضبط القدر المعقول من شرب الخمر.

(*) الطب السلالي Ethnomedicine هو دراسة الممارسات العلاجية الشعبية، وكذلك دراسة المعتقدات والاتجاهات والاستراتيجيات الخاصة بالصحة والمرض. ويستخدم هذا المصطلح أحياناً كبديل للأنثروبولوجيا الطبية. ولكن بعض المؤلفين يفضلون استخدام مصطلح الطب السلالي حيث إنه يشير إلى أهمية المفاهيم والتفسيرات الشعبية (المحلية) فى دراسة الصحة والمرض. انظر شارلوت سيمور-سميث، موسوعة علم الإنسان، ترجمة محمد الجومرى وزملاؤه، المركز القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٨. (المراجع)

على أن هذا التعريف المبسط للانحراف يؤثر بعض المشكلات (النظرية) من جهتين على الأقل. فهو أولاً، يفترض وجود إجماع من المجتمع سابق على وجود الفرد حول ما هو متفق مع المعايير. ورداً على ذلك، قد يشار إلى أن هذا الإجماع إنما يتولد، في معظمه، من خلال تعقب الانحراف ومحاولة تعريفه. ويوضح هذا المعنى التحليل الذي قدمه كوهن (Cohen ١٩٨٠) لحالات "الذعر الأخلاقي". ففي إحدى حالات هذا الذعر الأخلاقي، قد يحدث تصوير جماعة أو فرد، وبالذات من خلال تركيز وسائل الاتصال الجماهيرى على أخبارها أو أخباره باعتباره يشكل تهديداً لقيم المجتمع ومصالحه. لذلك يصبح الجمهور شديد الحساسية، ليس فقط لهذا التهديد الظاهر، وإنما تجاه تلك القيم المهددة بسببهم.

أما الأسلوب الثانى المفرق فى تبسيط ظاهرة الانحراف - المتمثل فى التسليم بأن الانحراف لا يحدث إلا بانتهاك معيار ما. وهنا تثار مشكلتان: أولاً: تعدد القواعد والمعايير أموراً معقدة، ويعتمد التطبيق المضبوط لها - غالباً - على التفسير الدقيق الذى يأخذ فى حسبانها السياق الاجتماعى للانحراف. وفى ظروف معينة، يصبح فى الإمكان انتهاك كافة القواعد بصورة مشروعة. ويستتبع هذا الوضع دائماً وجود مجال للتفاوض والنقاش، وذلك فيما يتصل بما إذا كان فعل ما منحرفاً من عدمه. وتصدق هذه الملاحظة - مثلاً - على عصيان التلاميذ لقواعد السلوك فى المدرسة.

والنقطة الثانية هنا، والتى قد تنبثق من باطن المشكلة الأولى لبعض الاعتبارات، تتمثل فى أن الشخص - فى هذه الحالة - لا يصبح منحرفاً إلا من خلال مشاركته فى عملية اجتماعية ما، وهى العملية التى لا تتم إلا بعد وقوع الانتهاك الأول للمعيار. فكثير من أعضاء المجتمع ينتهكون المعايير، ويتكرر منهم ذلك كثيراً. ولكن بعض هؤلاء فقط هم الذين يعتبرهم الآخرون، ويعتبرون أنفسهم، منحرفين. وتوصف هذه العملية عادة بأنها وصم للمنحرف. والانحراف يقتضى أن شخصاً ما أصبح يوصف تبعاً لمصطلح محمل بدلالة قيمية، (حتى إنه، مثلاً، قد يصبح عن يشرب الخمر سكيراً مدمناً، وقد يصبح النواقة - أى الخبير فى اختيار ألوان الطعام والحكم عليها -

إنساناً شراً). وقد يكون لدى أعضاء جماعات معينة (كالطبقات البائدة الشراء والطبقات المتعلمة) قد يكون لديهم القوة وموارد الثروة الكافية ليقوموا هذه الوصمات (وهو الأمر الذى قد يفسر - بصورة جزئية - ارتفاع معدلات الجريمة والانحراف المسجلة بين أعضاء الطبقات الدنيا والجماعات الإثنية. ويساعد إقرار الجمهور لوصمات معينة واستعماله لها (مثل قولهم هذا: سفاح، أو لص، أو مدمن مخدرات، أو مسيء إلى الأطفال) يساعد على عزل الفرد المنحرف عن المجتمع السوى. وعندها قد يلجأ هذا الفرد للاحتماء بثقافة فرعية منحرفة، من أجل أن يصبح فعله الذى خرق به القواعد - والذى قد يكون شاذاً أو غير مسبوق - سلوكاً معهوداً منه. لهذا، قد يرى البعض أنه يتم "تضخيم" الانحراف وتوسيع مفهومه بمعرفة نفس المؤسسات الاجتماعية التى وجدت أصلاً لضبط الانحراف والتحكم فيه (كالشرطة والمحاكم). (انظر مادة: الثقافة الفرعية) (AE) للمزيد انظر: Downes and Rock (١٩٨٢) و Aggleton (١٩٨٧).

Grand Narrative

أنساق التفسير الكبرى

مصطلح يرتبط بتفسير جان فرانسوا ليوتار لما بعد الحداثة. والنسق التفسيري الكبير (أو النسق التفسيري الشامل Meta-Narrative) هو شكل من أشكال السرد يسعى لتقديم تفسير محدد للواقع (مثال ذلك: تحليل التاريخ باعتباره تتابعاً لتطورات الأحداث التى تبلغ أوجها فى صورة ثورة عمالية، وهو التحليل الذى تطرحه الماركسية التقليدية). ووفقاً لما جاء فى آخر أعمال ليوتار، فإن أنساق التفسير الشاملة (أو الأنواع الشاملة للخطاب) تقوم على الربط المنطقى أو المزدوج للصنف (أو الفئة) طبقاً للطريقة التى عالج بها هذا الموضوع الفيلسوف التحليلى (انظر: الفلسفة التحليلية) برتراند رسل حيث قال: "إما أن يكون هذا النوع جزءاً من هذه الفئة من الأنواع، وأن النقطة التى هى محل خلاف فى هذا النوع لا تعدو أن تكون واحدة بين غيرها من النقاط الخلافية، ومن ثم فإن ما يقدمه هذا النوع من إجابة لا تكون هى

الإجابة المثلى. وإلا، فإن هذا النوع لا يكون جزءاً من هذه الفئة من الأنواع، وهو - لهذا السبب - يشمل كل ما هو محل خلاف، وذلك لأنه يستثنى ما هو محل خلاف فيحصره في نفسه فقط" (عن كتاب "المختلف: العبارات محل الخلاف": فقرة رقم ١٨٩). (PS) للمزيد انظر: Lyotard (١٩٨٨ و ١٩٨٩).

الأنطولوجيا/ أو مبحث الوجود

(١) مبحث من مباحث الميتافيزيقا (أو ما وراء الطبيعة) يهتم بدراسة طبيعة الوجود على وجه الإجمال، ولا يهتم بدراسة وجود الكائنات في تفصيلاتها. وعلى ذلك، فإن تساؤلاً أنطولوجياً، كذلك التساؤل الذي انشغل به مارتين هايدجر في كتابه "الوجود والزمان"، يهتم "بسؤال الوجود"، الذي يقصد منه السؤال عن الظروف التي تجعل وجود أى جماعة من الموجودات ممكناً.

(٢) أى مجموعة من الفروض أو المسلمات الخاصة بالطبيعة الجوهرية للوجود، والتي يتم التسليم بها في أى نظرية. مثال ذلك ما يذهب إليه البعض من أن الليبرالية الكلاسيكية تحتوي على تصور خاص للذاتية الفردية يراها بوصفها مكونة من مجموعة معينة من الصفات المميزة التي تجعل هذه الذاتية الفردية على ما هي عليه (فهذا التصور الخاص قد يطلق عليه أحياناً أنطولوجيا الذات). (PS) للمزيد انظر: Sprigge (١٩٨٤) و Sadler (١٩٩٦) و McCulloch (١٩٩٥) و Grossman (١٩٩٢).

الانعكاسية

الانعكاسية هي خاصية تأمل الذات والنظر فيها. ومن ثم، فإن أى نظرية ثقافية انعكاسية هي تلك التي تتأمل اتجاهها الفكرى الخاص بها وتركيبتها الخاصة بها بوصفها إبداعاً ثقافياً. (AE) للمزيد انظر: Elders (١٩٧٤).

Oligarchy

الأوليغاركية / أو حكم الأقلية

الأوليغاركية هي حكم الأقلية. ويمكن رد الأصول الأولى لهذا المصطلح إلى أرسطو، حيث قام بتصنيف نظم الحكم إلى ثلاثة أنماط: الحكم الملكي، أو حكم الفرد "الواحد"، والحكم الأرستقراطي، أو حكم الأقلية، والحكم الديمقراطي، أو حكم الأكثرية. وقد نادى المفكرون المرتبطون بالتراث الأرسطي (مثل نيقولا ماكيافيلي Machiavelli (١٤٦٩-١٥٢٢) وجيمس هارينجتون J. Harrington (١٦١١-١٦٧٧)) نادوا بالأخذ بشكل من أشكال الحكم يكون مزيجاً من هذه الأشكال، بمعنى أن يتم الربط بين هذه الأنماط في منظومة من الضوابط والتوازنات من أجل الحيلولة دون انحلال أنماط الحكم المذكورة وتحولها إلى: الطغيان، أو الأوليغاركية، أو الفوضوية. وبهذا الشكل فإن الأوليغاركية تشير إلى شكل فاسد من أشكال الحكم، تنقاد فيه الأقلية الحاكمة للفساد والانحراف وتكف عن خدمة الصالح العام للمجتمع، ولا تلتفت إلا لمصالحها الشخصية الخاصة بها (PS).

Ideology

الإيديولوجيا

لعله من المقبول أن نتصور أن أي علم اجتماعي نقدي أو أي علم ثقافي يلزمه أن تكون له نظرية إيديولوجية. وأياً كان الأمر، فإنه كثيراً ما يكون المعنى الدقيق لهذا المصطلح معنى مراوغة أو مشوشاً. ولعل أكثر استعمالاته شيوعاً ذلك الذي يشير ببساطة إلى مجموعة من المعتقدات على قدر من التماسك (كالإيديولوجيا السياسية، التي تعني المعتقدات والقيم والمبادئ الأساسية لحزب سياسي أو جناح سياسي). ويستعمل مصطلح "الإيديولوجيا" بهذا المعنى في بعض فروع علم السياسة. ومع ذلك، فقد اتخذ في الماركسية وفي علم الاجتماع المعرفي معاني أكثر دقة مما أوردناه، وذلك

من أجل تحليل الأسلوب الذى تتبعه المجتمعات فى تقرير المعرفة والمعتقدات التى تظهر فيها ويشيع فيها الأخذ بها واعتناق مبادئها.

وقد تم صك هذا المصطلح فى نهاية القرن الثامن عشر، على يد الفيلسوف الفرنسى دستوت دى تراسى Destutt de Tracy، وذلك للإشارة إلى علم أو دراسة الأفكار^(*). ومن شأن هذا العلم أنه يقوم على تحليل الإدراك الإنسانى، معتبراً نفسه أحد المباحث الفرعية لعلم الأحياء، ويقوم كذلك على علوم الأفكار Ideologues التى تدرس دراسة عميقة من أجل إصلاح الممارسات التعليمية إصلاحاً يقوم على هدى من هذا العلم. (ويعد هذا الأصل اللغوى للمصطلح أهم بكثير مما قد يبدو للوهلة الأولى، وذلك لأنه يطرح الفكرة التى تقول إن الأفكار تعتمد على أساس ما غير فكرى. وهذا الأساس - عند دى تراسى - هو علم الأحياء؛ أما العلم الاجتماعى فيرى أن هذا الأساس هو ما فى المجتمع من ممارسات ونظم مادية، واقتصادية، وسياسية). وقد أدت سخرية نابليون من كلمة Ideologues (بمعنى: علوم الأفكار) إلى أن يصبح مصطلح Ideology كلمة تستعمل للازدراء والتحقير.

ولم يصبح مصطلح الإيديولوجيا معبراً عن مفهوم خطير ومهم إلا على يد ماركس. ولعل بالإمكان تقديم موقف ماركس من الإيديولوجيا من خلال ملاحظته المشهورة التى ذكر فيها أن أفكار الطبقة الحاكمة فى أى مجتمع هى الأفكار المهيمنة على هذا المجتمع. وهذا ما يوحي بأن فهمنا للعالم ومعرفتنا به (وبصفة خاصة، إن لم يكن على وجه الحصر، فهمنا للعالم الاجتماعى ومعرفتنا به) إنما تقرره المصالح السياسية. إذ توجد معتقدات معينة، وطرق معينة لرؤية العالم، من شأنها أن تخدم

(*) حيث تتريكب كلمة الإيديولوجيا فى اللغات الأوروبية من مقطعين: الأول هو idea بمعنى الأفكار والثانى هو Logos بمعنى علم أو دراسة (المترجم)

مصالح الطبقة المسيطرة (ولا تخدم مصالح الطبقات الخاضعة). من ذلك مثلاً أنه كان من مصلحة الطبقة المسيطرة في النظام الإقطاعي الإيمان بالحق الإلهي للملوك. فسلطة الملك والطبقة الأرستقراطية إنما هي هبة من الله، ومن ثم فهي فوق أى مساءلة وهي أمر مسلم به. وكذلك من مصلحة الطبقة البورجوازية (والتي تشمل ملاك المصانع ومديريها) في النظام الرأسمالي أن تنظر إلى العالم الاجتماعي باعتبار أنه يتصف بالنزعة الفردية والتنافس إلى حد بعيد. وبهذه الطريقة فإن ما يشكل الطبيعة الاجتماعية والتعاونية الحقيقية للحياة الإنسانية (والذى يظهر على وجه الخصوص في صورة العضوية في طبقة معينة) يتم حجبهِ وإخفاؤه، كما أن احتمالات قيام طبقة البروليتاريا بالمقاومة الفعالة للرأسمالية يتم تخفيضها إلى الحد الأدنى. فالطبقة المسيطرة قادرة على بث أفكارها في كافة أنحاء المجتمع نظراً لتحكمها في مختلف أشكال الاتصال والتعليم (والتي منها وسائل الاتصال الجماهيري، والمؤسسة الدينية، والمدارس).

وعلى حين تعد الإيديولوجيا، بمعناها في الماركسية، أسلوباً مشوهاً لرؤية العالم، فإنها ليست زائفة تماماً (كما أن الإيديولوجيا ليست مجرد مرادف للوعى الزائف). ويعبر عن هذه الفكرة البالغة التعقيد تلك الملاحظة التي قال فيها ماركس إن الدين أفيون الشعوب (١٩٧٥: ٢٤٤)، فمن ناحية يقوم الدين - في رأيه - بتشويه ما لدى الطبقات الخاضعة من فهم للعالم الاجتماعي، خاصة وعده لها بالثواب والأجر في الجنة، تعويضاً لها عما عانت في هذا العالم من المظالم. أضف إلى ذلك أن الإشارة المجازية إلى الأفيون إشارة هامة، وليست أهميتها براجعة - فحسب - إلى أن الأفيون يضعف من إحساسنا بالآلم، ولكنها ترجع أيضاً إلى أن الأفيون يتسبب في استئثار الأحلام. وعلى ذلك فإن الجنة فكرة يجب النظر إليها بصورة جدية (ولكن ليست حرفية)، لأنها تحتوي على مثال للعدالة - لكنها عدالة كان ينبغي أن تتحقق في هذا العالم، وليس في الآخرة. وبهذا المعنى، تمثل الإيديولوجيا حلاً وهمياً لمشكلة حقيقية

(لاران ١٩٧٩). ولذلك فإن مهمة الناقد الذى يدرس الإيديولوجيا هى أن يدرك الطريقة التى تقلب بها الإيديولوجيا فهمنا للمشكلات الحقيقية رأساً على عقب، ومن ثم يتعرف على المشكلات الحقيقية ويستطيع أن يتعامل معها.

وتسلم النظرية الماركسية فى الإيديولوجيا بأن الإيديولوجيا إنما هى نوع من أنواع التشويه للحقائق. لذلك ربما يتعين وضعها فى مقابل المعرفة الصحيحة. أما فى علم الاجتماع المعرفى، خاصة فى مرحلة تطوره على يد عالم الاجتماع الألماني كارل مانهايم^(*) (١٩٦٠) نجد الإيديولوجيا تفقد صلتها بالطبقة وصلتها بالسيطرة السياسية، ومن ثم يرفض الفكرة المتعلقة بالمعرفة الصحيحة. إذ يحتفظ مانهايم بالصلة التى أرساها ماركس بين الأفكار والأساس المادى للمجتمع، ولكنه يفعل ذلك لكى يثبت أن الأفراد من مختلف قطاعات المجتمع يفهمون العالم بأساليب مختلفة. وعلى ذلك فإن الفارق بين فهم الطبقة البورجوازية للعالم وفهم طبقة البروليتاريا له ليس هو الفارق بين وجهات نظر الطبقة المسيطرة الرجعية ووجهات نظر الطبقة الخاضعة التقدمية، إنما هو مجرد الفارق بين رؤيتين للعالم (انظر: رؤية العالم) تتمتعان بنفس الدرجة من الصحة. ومن هنا يرى مانهايم أنه لا توجد حقيقة واحدة يمكن الاستناد إليها فى الحكم على سائر الإيديولوجيات. إذ إن كل إيديولوجيا لها ما يخصصها من معايير الصحة والدقة، التى تعتمد على الظروف الاجتماعية التى يتم إنتاج هذه الإيديولوجيا فيها.

ومن الممكن القول بأن التصور الماركسى للإيديولوجيا قد خضع لعمليتين هامتين من عمليات المراجعة فى القرن العشرين. أولاهما ما قام به المفكر الإيطالى جرامشى من تطويره لنظريته عن الهيمنة التى عالجت مشكلة ظهور نظرية الإيديولوجيا على

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: علم الاجتماع المعرفى. (المراجع)

النحو الذى يوحى بأن الأفكار يمكن أن تُفرض على الطبقات الخاضعة بفعل قوة خارجية عنهم. حيث تذهب نظرية الهيمنة إلى أن الأقرب للواقع أن الإيديولوجيات لا تُفرض من الخارج وإنما يتم التفاوض بشأنها فعلاً بتعريضها للبرهان المناقض لها وللخبرات المستفادة من الحياة.

أما المراجعة الثانية للتصور الماركسى للإيديولوجيا فمصدرها أعمال المفكر البنىوى الفرنسى لوى ألتوسير. فقد قام ألتوسير بإسقاط ما فى نظرية الإيديولوجيا من تأكيد أهمية الأفكار. فليس من الضروري أن تكون الإيديولوجيا أمراً يتعلق بما يفكر فيه الناس، بل يمكن أن تتعلق بالكيفية التى يتصرفون وفقاً لها - أى يتعلق بالعلاقات التى يعيشونها الناس. أما الممارسات الإيديولوجية، والتى تؤخذ مأخذ التسليم، فتشكل عناصر الذات الإنسانية وعناصر هويتها داخل النظام الرأسمالى، مما يتيح لهذه الذات الإنسانية أن تؤدى وظيفتها. (AE) للمزيد انظر: Althusser (١٩١٧) وAbercrombie et al (١٩٨٠) وHall (١٩٨٢) وEagleton (١٩٩١) وBarrett (١٩٩١).

الإيكولوجيا، علم البيئة

Ecology

الإيكولوجيا أو علم البيئة هو العلم الذى يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها. وهذا هو التعريف الذى قدمه للإيكولوجيا واحد من أوائل دعايتها، وأعنى العالم الألمانى إرنست هيكل^(*) E. Haeckel فى العام ١٨٦٦. هذا مع العلم بأن المعنى

(*) هيكل، إرنست هينريش Hackel, Ernst (١٨٣٤-١٩١٩) عالم أحياء وفيلسوف ألمانى، اشتهر بأنه أول ألمانى دافع عن فكرة التطور العضوى. كما أنه هو الذى أدخل مصطلح (إيكولوجيا) Ecology فى عام ١٨٦٩. (المراجع)

الاشتقاقى للمصطلح راجع إلى الكلمة اليونانية "oikos" التى تعنى البيت (أو وحدة المعيشة)، وتشير ضمناً إلى رعاية الإنسان للطبيعة داخل بيت الأسرة. وهكذا يمكن القول بأن الاستخدام الحديث للمصطلح له معان علمية خالصة وأخرى معيارية عميقة الغور.

وقد تطورت الإيكولوجيا - كعلم طبيعى - فى أواسط القرن التاسع عشر، وخاصة بتأثير نظرية داروين فى التطور. فالنظرية التطورية تذهب إلى أن الأنواع الحية تتطور عن طريق التكيف مع بيئتها وذلك من خلال حدوث بعض التغيرات العشوائية. ومن شأن التغيرات التى تطرأ على البيئة أن تقتلع الأفراد الأقل قدرة ولياقة للتكيف مع هذه العملية، ومن يكتب لهم البقاء يقومون بنقل سماتهم الناجحة تلك إلى ذريتهم. فالعلاقة الحاسمة بين الكائن الحى وبيئته الطبيعية، وبينه وبين الكائنات الحية الأخرى التى تعيش معه فى نفس البيئة؛ هى علاقة محورية فى الدراسة الإيكولوجية، التى بدأت تنمو وتتحوّل إلى فرع مستقل من فروع العلم أواخر القرن التاسع عشر، وذلك بفضل أعمال ورمينج E. Warming وشيمر A. Schimper وغيرهما التى انصبّت على دراسة تطور وتعاقب بعض العائلات النباتية. وبفضل تطور الفكر الإيكولوجى وتقدمه تغير تصور تلك العلاقات من مجرد كونها علاقة منافسة بسيطة من أجل الظفر بالموارد النادرة، وتحوّل إلى الاعتراف بالاعتماد المتبادل بين الكائنات الحية التى تعيش داخل "تسيج حياة معينة". وفى عام ١٩١٦ طرح فريدريك كليمنتس F.E. Clements فكرة العائلة النباتية بوصفها كياناً فوق طبيعى. ومع كونها فكرة تتسم بالشمول فإنها، أثارت حولها جدلاً شديداً. ومع أنه سرعان ما تم دحض تلك الفكرة، فإن الأساليب الكلية الشاملة فى التفكير ظلت قائمة ومستمرة، متأثرة بنظرية النظم. ويمكن القول إن الإيكولوجيا الحديثة تركز فى المقام الأول على المغذيات (المواد المغذية) الدوارة فى شتى الأنساق البيئية.

وقد تبنت مدرسة شيكاغو^(*) فى علم الاجتماع هذا النموذج من التفسير والتحليل فى عشرينيات القرن العشرين. فاستناداً إلى بحوث ورمينج وكليمنتس عن إيكولوجيا النبات سعى روبرت بارك^(**)، وإرنست بيرجس^(***) وغيرهما (من أعلام مدرسة شيكاغو) إلى تفسير وتوضيح كيف أدى اشتعال ذلك التنافس بين الأفراد والجماعات للحصول على الموارد النادرة فى البيئة الحضرية إلى توليد قوى وبنى (جمع بنية) اجتماعية لم تكن فى نية أولئك الفاعلين فى الأصل. فقد أدى هذا التنافس إلى توليد ضغط انتقائى عمل بدوره على إثارة بعض الاستجابات وردود الأفعال الخاصة تجاه البيئة. واستخدم علماء تلك المدرسة مفاهيم "الغزو"، و"السيطرة"، و"التتابع" - المستعارة من إيكولوجيا النبات - لتفسير تتابع الجماعات الإثنية والثقافات الفرعية متنقلة بين مناطق المدينة المختلفة. وربما تأثرا بتطور دراسات الإيكولوجيا فى ميدان العلوم الطبيعية، اتجه علماء الإيكولوجيا مؤخراً إلى توجيه النقد للتأكيد القوى من جانب علماء مدرسة شيكاغو الأوائل على عملية التنافس، خاصة وأن التنافس المطلق

(*) للوقوف على إنجازات مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع والتعرف على بحوثها تفصيلاً، انظر جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ١٣١٥ - ص ١٣١٧، (المراجع)

(**) بارك، روبرت عزرا Park, Robert Ezra (١٨٦٤ - ١٩٤٤) عضو بارز فى مدرسة شيكاغو فى علم الاجتماع، يرجع إليه الفضل فى التعريف بمؤلفات وأراء جورج زيمل لجيل كامل من علماء الاجتماع الأمريكين. كان بارك وبيرجس من أبرز الممارسين لتوجه الإيكولوجيا البشرية (وهما اللذان قاما بصك المصطلح نفسه). وقد ذهب بارك إلى أن المنافسة هى العملية الأساسية وراء العلاقات الاجتماعية، وإن كان الاعتماد المتبادل بين البشر والراجع إلى ظاهرة تقسيم العمل، جعل تلك المنافسة تنطوى دوماً على عناصر من التعاون غير المخطط (وهو الأمر الذى أدى فى النهاية إلى وجود ظاهرة: التعاون التنافسى). (المراجع)

(***) بيرجس، إرنست Burgess, Ernest W. (١٨٨٦ - ١٩٦٦) كان لبيرجس تأثير بعيد المدى فى تطور مدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع، من خلال تأكيد أهمية البحث الإمبريقي، كما لعب دوراً رائداً فى دراسة المدينة (بالاشتراك مع روبرت بارك)، ودراسة الانحراف (بالاشتراك مع كليفورد شو)، وأخيراً دراسة الحياة الأسرية. (المراجع)

لن يؤدي إلا إلى تفكك المدينة كوحدة اجتماعية وانهارها. من هنا اتجهت الدراسات اللاحقة إلى إبراز دور التعاون، والاعتماد المتبادل والتباين الوظيفي للجماعات الاجتماعية، إلى جانب المنافسة طبعاً؛ إبراز دور كل ذلك في تكيف الجماعات مع بيئاتها، وفي العمل على تحقيق نوع من التكامل في المدينة بفضل بعض أشكال الاتصال المشتركة، كالثقافة، ووسائل الاتصال الجماهيري، والسياسات الحضرية.

وقد بدأت المضامين السياسية لعلم الإيكولوجيا تتبلور وتتحدد في أواسط القرن التاسع عشر، مع أن الأبعاد المعيارية للفكر الإيكولوجي تضرب بجذورها في القرن الثامن عشر، من قبيل الاحتفاء الجديد بالطبيعة، وبالحدائق بصفة خاصة (انظر مادة: **فلاحة البساتين**)، وهي الأفكار التي طورتها البورجوازية الأوروبية. ويمكن القول على وجه التحديد إنه بمقدار تشجيع الإيكولوجيا تأمل العلاقة بين الكائن الحي وبيئته، بمقدار نجاحها في تقديم نماذج للعلاقة الأكثر ملاءمة- سواء من النواحي الأخلاقية أو السياسية - بين البشرية والعالم الطبيعي. فمنذ ستينيات القرن التاسع عشر استجاب جورج بيركنز مارش G.P. Marsh للتلوث الناجم عن التحضر والتصنيع في أمريكا (وذلك في كتابه: "الإنسان والطبيعة") ودعا إلى التنظيم الحكومي للموارد الطبيعية. وفي العام ١٨٧٢ تأسس نظام الحدائق الأهلية الأمريكية. واعتمد جون موير J. Muir على تراث رالف والدو إيمرسون R.W.Emerson (١٨٠٣-١٨٨٢) وهنري دافيد ثورو H.D.Thoreau (١٨١٧-١٨٦٢) في الدفاع عن الحدائق (وذلك في كتابه: "عن الحدائق الأهلية")، حيث أبرز مجدداً التهديد الذي يمثله التصنيع والأساليب الراهنة في الزراعة للطبيعة وللجمال الطبيعي . وعمل بعض المفكرين السياسيين، مثل المفكر الفوضوي بيتر كروبوتكين Kropotkin (في كتابه: "المزارع، والمصانع ومصانع الغد") والمفكر الاشتراكي ويليام موريس W.Morris (في كتابه: أخبار من لا مكان" News from Nowhere، الصادر عام ١٨٩٠)؛ عمل هؤلاء وغيرهم على ربط موضوعات الإصلاح الاجتماعي بعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعُنى موريس عنايةً خاصة بتذوق جمال الطبيعة.

وعاود الفكر الإيكولوجى ذو التوجه السياسى؛ عاود الظهور فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وقد لفت الانتباه لذلك سلسلة طويلة من الأحداث البيئية البارزة، من بينها: غرق ناقلة البترول "تورى كانيون" قبالة الساحل الجنوبى لبريطانيا فى العام ١٩٦٧، والتسرب الكيماوى فى مصنع الاتحاد لإنتاج الكاربيد^(٥) فى بوبال بالهند عام ١٩٨٤، وانصهار المقاعلين النوويين فى "ثرى مايل أيلاند" فى بنسلفانيا (عام ١٩٧٩)، وفى تشيرنوبل (١٩٨٦)، فضلاً عن الاهتمام الواسع والقلق من ظاهرة الأمطار الحمضية، وتآكل طبقة الأوزون، واليوم برزت ظاهرة الاحتباس الحرارى على مستوى العالم كله. وكثيراً ما يشار إلى كتاب راتشيل كارسون R.Carson "الربيع الصامت" (١٩٦٢) بوصفه الكتاب الأساس فى إثارة الوعى العام بهذه القضايا، على الرغم من الاعتراف بأهمية كل من فيرفيلد أوزبورن F. Osborn (بكتابه: "كوكبنا الذى نبده"، ١٩٤٨) وألدو ليوبولد (بكتابه: "تقويم المقاطعة الرملية"، ١٩٤٩)؛ أهميتهما كرواد مهمين لها فى هذا الاتجاه. ومع ذلك كله شهدت ستينيات القرن العشرين توسعاً لافتاً للفكر الإيكولوجى وللعمل العام النشط من أجل البيئة. فقد حذر كتاب مثل بول إيرليش P. Ehrlich من أخطار التزايد السكانى بين البشر (فى كتابه: "القنبلة السكانية"، ١٩٦٨)، كما أصبحت القضايا البيئية أحد موضوعات حركات البيبيز وفى فكر ثقافة المقاومة (على نحو ما نجدها - مثلاً- فى كتابات تيودور روزاك T.Roszak).

وفى عام ١٩٧٨ صدر عن "نادى روما" تقرير "حدود النمو"، الذى ألقى الضوء على التهديد الواقع على البيئة بفعل النمو الصناعى. وكان هذا التقرير بمثابة بداية نقلة أساسية فى التفكير فى الأمور الاقتصادية عموماً. فقد بدأ الاعتراف بتأثير النمو الاقتصادى - الذى لا يقيد أى قيد - على البيئة، سواء من ناحية التلوث، أو من حيث

(٥) Carbide مركب من الكربون وأحد المعادن. (المترجم)

----- (أ) -----

الاستخدام (الذى يصل إلى حد الإفراط) للموارد غير المتجددة كأنواع الوقود الأحفوري. ودعا التقرير إلى ضبط النمو السكاني، والاقتصاد في استهلاك الموارد الطبيعية، وإعادة النظر في نزعة الاستهلاك. وفى العام ١٩٨٧ صدر تقرير "مستقبلنا المشترك" الذى أعدته اللجنة الدولية الخاصة للبيئة والتنمية (والذى اشتهر باسم رئيسه: "تقرير برونتلاند")، فعمل على تطوير الفكر فى هذا الاتجاه من خلال بلورة مفهوم "التنمية المستدامة" والدفاع عنها بوصفها: "تمط التنمية الذى يلبي احتياجات الحاضر دون أن يفتن على قدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها هى الأخرى".

ولكن الاتجاه الأكثر راديكالية فى تناول قضايا البيئة جاء على يد حركة "الإيكولوجيا العميقة". ويذهب الفيلسوف أرنى نيس A. Naess فى تعريف الإيكولوجيا العميقة إلى القول بأن كافة الاتجاهات الأخرى فى تناول البيئة تتسم بتمركزها حول الإنسان فقط، حيث نجدها تميل - ضمناً أو صراحة - إلى وضع البشر فى مرتبة أعلى من سائر المخلوقات على الأرض. ولهذا تسعى حركة "الإيكولوجيا العميقة" إلى وضع مصالح الكائنات غير البشرية (وكذلك النباتية) وقيمتها الفعلية فى مستوى له نفس أهمية الإنسان وقيمه البشرية، بحيث نكف عن النظر إلى البيئة الطبيعية كمجرد مورد يتعين استغلاله لتحقيق غايات البشر وحدهم.

وفى عام ١٩٧١ تأسست جماعة السلام الأخضر. وبدأت القضايا البيئية تكتسب - تدريجياً - مكانة أكبر، بفضل النشاط الإيجابى لبعض الجماعات، مثل جماعة السلام الأخضر، كما انتقلت إلى ساحة العمل السياسى العام من خلال تأسيس "حزب الخضر" فى ألمانيا الغربية (آنذاك) عام ١٩٨٠، الذى استقطب أصحاب الفكر النسوى (ممثلاً على وجه الخصوص فى بيترا كيلي P. Kelly) والماركسى (ممثلاً فى رودلف بارو R. Bahro). وفى تلك الفترة نفسها قدم بعض مفكرى ألمانيا الشرقية (آنذاك)، مثل روبرت هافامان وفولفجانج هاريش نماذج لرؤية اشتراكية إيكولوجية،

بوصفها تمثل - على وجه الخصوص- تحدياً لتوجه تقرير "نادى روما" الرأسمالى. وبالتدريج أصبحت قضايا البيئة تمثل جزءاً مشرعاً ومعترفاً به من اهتمامات الحكومات الوطنية، وموضوعاً للاتفاقيات الدولية ولبعض مواد القانون الدولى. وقد شهد العام ١٩٩٢ أول قمة عالمية "قمة الأرض" التى عقدت فى ريو دى جانيرو. وعلى الرغم من أنها لم تسفر عن إبرام اتفاقيات دولية محددة، فإنها كانت إيذاناً بعقد سلسلة من القمم والاتفاقيات فيما بعد، هذا على الرغم من قصور دورها فى التقليل من الآثار البيئية للتصنيع. والأمر الحاسم أن السياسات الإيكولوجية الحديثة أصبحت تمثل تحدياً رئيسياً لدول العالم الصناعى المتقدم، خاصة فيما يتعلق بكيفية استدامة النمو الصناعى فى مواجهة الانبعاثات المتزايدة لغاز ثانى أوكسيد الكربون، وإزاء استنفاد الموارد الطبيعية غير المتجددة. كما باتت تلك السياسات تمثل نفس التحدى لعلاقات دول العالم الصناعى المتقدم بالبلاد النامية، ومن ثم بقضايا العدالة على الصعيد العالمى. (AE) للمزيد انظر: Oeslschlager (١٩٩٥) وNaess (١٩٨٩) وGorz (١٩٨٠) وBookchin (١٩٨٠) وBahro (١٩٨٤).

Pragmatism

البراجماتية

حركة فلسفية مارست تأثيراً عميقاً على الفكر الأمريكي خلال الجزء الأول من القرن العشرين. ومن المفكرين الرئيسيين الذين ارتبطوا بالبراجماتية تشارلز بيرس^(*)، ووليام جيمس^(**)، وجون ديوى (١٨٥٩-١٩٥٢)، وجورج هربرت ميد (١٨٦٢-١٩٣١)، وكارلنس إيرفنج لويس (١٨٨٣-١٩٦٤). ومع ذلك فإن هؤلاء المفكرين لا يشتركون في معتقد أساسي واحد يمكن - بناءً عليه - تصنيفهم جميعاً وعلى وجه الدقة باعتبارهم براجماتيين. بل الأصح أن يقال إن اشتراكهم في اتجاه فكري واحد عند تناول المشكلات الفلسفية هو الذى يجعل مصطلح "البراجماتية" ينطبق على كل واحد منهم إلى أبعد حد. وبالرغم من أن البراجماتية حركة فكرية أمريكية صرفة، فلا عجب (إذا أدخلنا في الاعتبار أن المفكرين البراجماتيين سبق لهم أن تتلمذوا على الفلسفة الأوروبية والأدب الأوروبي) لا عجب أن تدين هذه الحركة بالشئ الكثير للفلسفة البريطانية والفلسفة الأوروبية. يشهد لذلك أن بعض المفكرين البراجماتيين، كبيرس مثلاً، وجهوا كل اهتمامهم لتناول المشكلات المطروحة في مجال نظرية المعرفة، التي صادفوها في أعمال ديكارت أو كانط. ولعله من الأفضل أن نرجع إلى ما قدمه بيرس من تعريف للبراجماتية طرحه في مقالته بعنوان "ما هي البراجماتية؟"، لما فيه من شرح موجز لرأيه:

"هي مفهوم عام، وأقصد بالمفهوم العام المعنى العقلى لكلمة ما أو لغيرها من أشكال التعبير، والذي يكمن حصراً فيما يمكن أن يمارسه من تأثير على ممارسة

(*) انظر تعريفاً موجزاً به في هامش مادة: السيميوطيقا. (المراجع)

(**) وليام جيمس (1842-1910) W. James فيلسوف البراجماتية الأبرز، اشتهر على وجه الخصوص بفضل إسهاماته غير العادية في التأثير تأثيراً فعالاً على تطور الوضعية الجديدة، والتفاعلية الرمزية من خلال رؤيته المرتبطة بأن النتائج الإمبيريقية لأي فكرة هي التي تصنع معناها. (المراجع)

شئون الحياة العملية [...] وإذا استطاع المرء أن يقوم بالتعريف الدقيق لجميع الظواهر التجريبية الممكنة التي يمكن أن يدل عليها الإقرار بفكرة ما أو إنكارها، فسوف يجد في هذا التحديد تعريفاً كاملاً لهذه الفكرة، ولا يوجد مطلقاً شيء أكثر من هذا.

(بيرس، ١٩٩٨ : ٣٣٢)

وبعبارة أخرى، فإنه وفقاً لتصوير بيرس، تعنى البراجماتية ضمناً، تأكيد النتائج الملموسة لأفكارنا وتصوراتنا باعتبار هذه النتائج وسيلة لتحديد قيمة تلك الأفكار والتصورات كتعبيرات عن المعرفة. وعلى ذلك، ووفقاً لما جاء في مقالة بيرس بعنوان "التعريف بالبراجماتية ووصفها": توجد "رابطة وثيقة لا انفصام لها بين المعرفة أو الإدراك العقلي والغاية العقلية". ومن ثم يوجز بيرس معنى البراجماتية بوصفها "المذهب الذي يرى أن المعنى الكلي لفكرة ما يعبر عن نفسه في صورة نتائج عملية، وهي نتائج تتمثل في شكل سلوك يوصى بالالتزام به، أو في شكل خبرات يمكن توقعها، إذا ما كانت هذه الفكرة صحيحة". وبناءً على ذلك، يذهب بيرس إلى النظر إلى عملية البحث (عن الحقيقة) بوصفها عملية تبدأ من حالة الشك، وتأخذ في التطور إلى أن يجد هذا التساؤل والبحث حله في صورة معتقد راسخ. وإن أفضل الطرق، عند بيرس، لإثبات صحة أي معتقد إنما تكون وفقاً لما يمليه منهج البحث العلمي من أحكام.

ولعل ويليام جيمس هو أشهر مفكر يرتبط اسمه بالبراجماتية. وكان جيمس صديقاً لبيرس، ولذلك صاغ جيمس أفكاره على نحو اقترن بتطوير بيرس لفكره، والذي يجعل من العسير الفصل بين التطور الفكري لكل من الرجلين. أضف إلى ذلك أن تصور جيمس للبراجماتية يختلف عن التصور الذي يطرحه بيرس، على اعتبار أن بيرس (وهو ذلك المفكر الواقعي الذي صاغ الفلسفة البراجماتية أساساً بوصفها

نظرية عن المعنى) سعى لوضع أساس منطقي للمعنى فى مجال الفعل الإنسانى العملى والملموس، بينما اتجه جيمس وجهة أخرى. فعلى النقيض من بيرس، يركز جيمس الانتباه على تفسير الدور الذى تقوم به التصورات والأفكار فى الخبرة الإنسانية. فهو يذهب إلى أن معتقداتنا تؤثر على أفعالنا فى هذه الحياة، لذلك تركز برجماتيته على الأساليب والطرق التى وفقاً لها ترتبط الأفكار والمعتقدات بما لنا من خبرات. ومن ثم فإن جيمس لا يلتزم بالواقعية التى يؤمن بها بيرس، بل يعتنق نوعاً من النزعة الإسمية^(*). ومن الأمور الأبعد دلالة عند جيمس أن البرجماتية تستوعب فى نطاقها تفسيراً أكثر عمومية للفكر والفعل الإنسانين (يضم علم النفس فى نطاقه)، لا تشكل النظرية البرجماتية عن المعنى عند بيرس سوى جزء منه فحسب.

ويمثل ديوى شكلاً آخر مختلفاً للفكرة الرئيسية للبرجماتية. وكما فعل جيمس، يستهل ديوى نظريته بتطوير أحد الاتجاهات السيكلوجية. كما أنه تحول فيما بعد إلى الأخذ بتفسير للفعل الإنسانى يتسم بأنه أكثر ميلاً للنزعة السلوكية وأكثر التفاتاً للاعتبارات الاجتماعية الدقيقة. وبمرور الزمن، آل الأمر بديوى إلى أن أطلق على برجماتيته التى اختارها لنفسه مصطلح "الذرائعية"^(**). وكان التعليم أحد اهتماماته الفلسفية الرئيسية، حيث صار ديوى ينظر إليه باعتبار أن له أهمية فائقة بوصفه الوسيلة الأساسية لنقل المعارف والأفكار داخل المجتمع. ويؤول الأمر بديوى بعد اكتمال نظريته فى أخريات حياته إلى النظر إلى المجتمع بوصفه نوعاً من المؤسسات التعليمية، كما كان يعده الوسيلة التعليمية المستمرة حتى نهاية العمر، وذلك نظراً لأنه

(*) النزعة الاسمية Nominalism تذهب إلى أن المفاهيم المجردة، أو الكليات، مجرد أسماء. وليس لها وجود حقيقى. (المترجم)

(**) الذرائعية Instrumentalism وتعنى أن الأفكار وسائل للعمل، وأن فائدتها هى التى تقرر قيمتها. (المترجم)

المجال الذى يعيش فيه المرء حياته فعلاً. وقد طور ديوى رؤية تؤكد الروابط التى تصل بين الفعل الإنسانى والعالم الاجتماعى: فالفعل الإنسانى لا يقع "فى" فضاء اجتماعى، إذ إن الاجتماعى يعد فى ذاته جانباً أساسياً من جوانب السلوك الإنسانى. وإن انتقاد ديوى لتصورات ديكارت عن الذاتية (أى عن ثنائية العقل - والجسد) ليوضح بجلاء رؤيته للعالم الاجتماعى: حيث تسمح لنا التفرقة الفلسفية بين العقل والجسد بأن نتجاهل حقيقة كون الفرد المفكر نفسه جزءاً من البناء الاجتماعى الذى تجرى فيه عملية التفكير. وقد تصور ديوى هذه العلاقة فى صورة "دائرة" (انظر مقالته بعنوان "وحدة السلوك: مفهوم المنحنى الانعكاسى فى علم النفس" المنشورة سنة ١٨٩٦). كما كان ديوى مشغولاً بنفس القدر بتطوير تفسير للعلاقة بين المعرفة والقيمة، ذاهباً إلى أن البحث العلمى الذى يتأمل نفسه، يعد نموذجاً ممتازاً للفعل الأخلاقى، بوصفه عملية اختيار إيجابية فعالة ومن ثم يزن قيمة ما يفحصه وزناً دقيقاً.

وإذا أخذنا فى الاعتبار "براجماتية" بيرس وجيمس بجانب "ذرائعية" ديوى، يتضح لنا أن السؤال الأسمى الذى يطرحه البراجماتيون بخصوص المعرفة هو "هل للمعرفة نتيجة فعالة؟" ومن ثم يكون تصور ديوى مناسباً: فالبراجماتيون هم فى حقيقتهم ذرائعيون إذا كان الأمر يتصل بقضية ما يعد معرفة يوثق بها.

ومن بين المفكرين المعاصرين قام ريتشارد رورتى Richard Rorty (من مواليد عام ١٩٣١) بتبنى شكل للبراجماتية يؤيد نوعاً من النزعة اللاماهيوية أو المضادة للماهيوية فيما يتصل بقضايا الرشد، والهوية الثقافية وعلم السياسة. ويقترن ذلك الموقف الفكرى لرورتى بتمجيده للمذهب الليبرالى البورجوازي. ولعل رورتى فى هذا الموقف الفكرى أميل لجيمس منه لبيرس. يشهد لذلك أنه دأب على نقد الواقعية، وهى التى تمثل مكوناً أساسياً من مكونات البراجماتية عند بيرس. من ذلك ما تذهب إليه إحدى أفكار رورتى: حيث أننا لا نستطيع أن نقلت من اللغة فإن تفكيرنا يجب،

بالضرورة، أن يرتبط باللغة وحدها. أى أنه لا وجود "لواقع" مستقل عن اللغة نشير إليه عندما نتكلم (وبتعبير فلسفى، لا وجود "للوقائع البديهية أو المؤكدة"). وقد نظر رورتى إلى هؤلاء الذين يؤمنون بأنه ثمة شىء يوجد "خارج" اللغة باعتبارهم من "اتباع النزعة التصويرية" Representationalists، وفى دفاعه عن موقفه "المضاد للنزعة التصويرية" Antirepresentationalism يبدى اعتراضه على ذلك الاتجاه عندما يقول:

"بإسقاطنا -- نحن البراجماتيين - للتفسير التصورى (الذهنى) للمعرفة، فإننا نُسقط التمييز بين الظاهر والواقع مؤثرين عليه التمييز بين المعتقدات التى تفى بأغراض معينة والمعتقدات التى تفى بأغراض أخرى [...] إننا نُسقط الفكرة التى تقول إن المعتقدات تكتسب صحتها من الواقع [...] (رورتى ١٩٩٨: ٢٠٦)

ولهذا السبب يرى رورتى، أنه نظراً لأن اللغة التى نتكلم بها لا يمكن تعيين حقيقتها باستعمال تعبيرات تنتمى لمجال مستقل عن العقل، فمن الضروري تعيين موقعها وفقاً للاعتبارات الثقافية، كما أن معرفتنا بالعالم تعتمد على المعايير الثقافية المتاحة لنا وعلى أهدافنا التى نسعى إليها. وباختصار يرى رورتى نفسه "براجماتياً" بقدر تأييده نوعاً من أنواع النزعة الذرائعية. كما يؤيد رورتى بنفس الطريقة صورة من صور نزعة النسبية الثقافية.

وقد تعرضت بعض جوانب أفكار رورتى للنقد على يد مفكرين من المنتمين إلى تراث البراجماتية، نذكر منهم هيلارى بوتنام Hilary Putnam (من مواليد عام ١٩٢٦) التى زعمت أن حجة رورتى التى اعتمد عليها فى تأييد تصويره عن اللغة حجة "رهيبة". وتستطرد بوتنام قائلة: ماذا يحدث لو أنه كان من النافع لنا ذرائعياً أن نؤمن بأمور مثل "الوقائع البديهية المؤكدة"؟ ولو صح ذلك لتعذر على وجهة نظر رورتى هذه أن تحقق نجاحاً يذكر فى توجيه اعتراض جاد على مثل هذه الأفكار. وبالرغم من أن

(ب) -

بوتنام لا تلتزم بالخط الفكرى لرورتى، فإنها سعت هى الأخرى إلى تطوير بعض الأفكار التى سبق أن وضع خطوطها العامة رواد البراجماتية السابقون على رورتى. (حيث قامت، مثلاً، بالتركيز على أهمية تعليم أنماط الحياة الديمقراطية مقتفية بذلك أثر كتابات ديوى فى هذا الصدد). (PS) للمزيد انظر: Gallie (١٩٧٥) و Rorty (١٩٨٢) و ١٩٩١ و ١٩٩٨ و Putnam (١٩٩٥) و Mounce (١٩٩٧) و Thayer (١٩٨٢).

البروليتاريا

Proletariat

اكتسب مصطلح "البروليتاريا" انتشاراً واسعاً من خلال استعماله فى النظرية الماركسية، حيث يشير إلى الطبقة الخاضعة داخل النظام الرأسمالى. وتتكون طبقة البروليتاريا من ذلك الجزء من سكان الحضر الذين لا يملكون إلا قدرتهم على العمل. لذلك فإنهم مجبرون على أن يبيعوا قوة عملهم من أجل أن يتمكنوا من شراء جميع السلع الأخرى التى يحتاجون إليها للبقاء على قيد الحياة. ويستعمل هذا المصطلح عادة - وعلى نحو أقل دقة - كمرادف للطبقة العاملة. وإذا شئنا الدقة، فإن الطبقة العاملة التى تتكون من العاملين المشتغلين بأى شكل من أشكال العمل اليدوى، لا تشكل إلا جزءاً من البروليتاريا، لأن قلة فقط من أفراد الطبقة المتوسطة، وقد لا يوجد واحد منهم، لديه قدر من الملكية الإنتاجية أو رأس المال الذى يكفى لتوفير دخل يكفى ليفنيهم عن الحاجة إلى العمل من أجل أن يبقى حياً. (AE) للمزيد انظر: McCarthy (١٩٧٨) و Perkins (١٩٩٣).

البلاغة

Rhetoric

هى فن الإقناع. وهى توظيف اللغة من أجل التأثير على الآخرين، سواء فيما يتصل بأفعالهم المقبلة أو فيما يتصل بمعتقداتهم. وكان مصطلح "البلاغة" فيما مضى

يدل على الدراسة الرسمية للإقناع. ففي مرحلة العصور الوسطى كانت البلاغة فرعاً من فروع التعليم الجامعي، له مكانة شبيهة بمكانة علم النحو والصرف، أو الرياضيات، أو المنطق. وفي عصر النهضة، اعتبرت البلاغة ميداناً عملياً يدرسه المعنيون بعلم السياسة والقانون. وقد احتوى الكتاب الذي وضعه العالم الهولندي إيرازموس^(٥) - والمكتوب سنة ١٥٢١ - بعنوان "دئ كوبيّا" De Copia (أي النموذج المتبع) احتوى على عدة كتيبات دراسية عن البلاغة. وفي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية شهدت البلاغة اهتماماً جديداً على أيدي عدد من الأعلام المرتبطين بنزعة ما بعد البنيوية، أمثال بول دومان Paul de Man (عاش من ١٩١٩-١٩٨٣). إذ قام دومان - الذي طور شكلاً من أشكال التفكيرية - بتحليل المجازيات اللغوية وما تقوم به من وظائف، بإذلاً اهتماماً خاصاً باللغة البلاغية في النصوص النقدية والفلسفية. (PS) للمزيد انظر: De Man (١٩٧٩، ١٩٨٩).

Social Structure

البناء الاجتماعي

بالرغم من أن مفهوم البناء الاجتماعي يعد واحداً من أكثر المفاهيم شيوعاً في علم الاجتماع وفي النظرية الاجتماعية، ورغم أنه يدل على شكل ما من أشكال التتميط المنتظم والدائم للفعل الاجتماعي والمؤسسات الاجتماعية، فليس من السهولة تحديد معناه الدقيق. ورغم أنه من الممكن تعريف مصطلح "البناء" نفسه بأنه العلاقات التنظيمية القائمة بين الأجزاء التي يتكون منها كيان كلي تام، وأن هذا الكيان الكلي التام في حالة البناء الاجتماعي هو المجتمع (وإن يكن مصطلح "المجتمع" مصطلحاً غير متفق عليه هو نفسه)، فإن أجزاء أو عناصر هذا الكيان قد تفهم على أنحاء شتى.

(٥) إيرازموس Erasmus عاش من ١٤٦٦ حتى ١٥٣٦. (المراجع)

----- (ب) -----

فطبقاً لنزعة الماثلة العضوية، والتي يشبه فيها المجتمع بالكائن العضوى، تتمثل هذه العناصر فى المؤسسات الاجتماعية التى تقوم بالوظائف الضرورية لبقاء واستقرار هذا الكل التام. وهكذا نجد أن البناء الاجتماعى، طبقاً للنزعة الوظيفية، يمكن أن يعنى مجموعة من العلاقات بين المؤسسات الاجتماعية. وخلافاً لتلك الرؤية الوظيفية يمكن أن تعنى هذه العناصر الأدوار التى تمارس داخل المجتمع، أو على أنها الجماعات الموجودة داخل المجتمع والتي يختلف الناس فى تعريفها (أو تختلف تعريفاتها هى لنفسها).

ومع ذلك فقد تكون سلامة مفهوم البناء الاجتماعى نفسه محل شك لدى البعض. فبينما يميل المفكرون النقديون، كأعضاء الجيل الأول من مدرسة فرانكفورت، إلى تبني هذا المفهوم بالمعنى الذى يستعمل وفقاً له فى النزعة الوظيفية، فإنهم لا يعالجونه باعتباره وصفاً ذا مدلول حيادى للمجتمع. فالمجتمع عندهم له بناؤه، ومفردات هذا البناء تستطيع مجابهة الفرد كقوى طبيعية، تحد من نشاطه وتتحكم فيه، وهم يعتبرون ذلك "الوضع" دليلاً على مجتمع ينظر فيه إلى المجرى بوصفه شيئاً مادياً (انظر مادة: التجسيد) ومن ثم يكون مجتمعاً مزيفاً. وخلافاً لهذا الموقف، نجد بعض النظريات التى تدرس المجتمع على مستوى الوحدات الصغرى (الميكرو) تنكر كلية مفهوم البناء الاجتماعى كنظرية الإثنوميثولوجيا أى منهجية الجماعة. إذ ترفض هذه النزعة الفكرة القائلة بوجود أى كيان اجتماعى له وجود مستقل عن الفرد، أو سابق على ما يتصف به الأفراد من قدرة واضحة على إيجاد هذا الكيان (من خلال ما يتبادلونه من اعتراف مشترك بينهم بمهاراتهم وخبراتهم) عن طريق التفاعل الاجتماعى. وعلى ذلك، قد تتصف بعض التفاعلات الاجتماعية بالطابع البنائى، بمعنى كونها أحدًا من منظمة وهادفة، لكن هذا النظام إنما يصنعه الأفراد المشاركون بصورة تلقائية وتعاونية،

(ب)

ولا تفرضه عليهم آلية خارجية مستقلة عنهم. (AE) للمزيد انظر: Merton (١٩٨٦) و Crothers (١٩٩٦).

Base and Superstructure

البناء التحتي والبناء الفوقي

مصطلح مجازي (مستعار من مصطلحات فن العمارة) يستعمل في الماركسية للدلالة على العلاقة بين الاقتصاد وبين سائر قطاعات المجتمع. وكما أن حجم وشكل البناء الفوقي لأى مبنى يعتمد على ما لقواعد هذا المبنى من امتداد وعمق، فكذلك الحال مع خصائص المجالات غير الاقتصادية للحياة الاجتماعية الإنسانية فهي الأخرى تعتمد على طبيعة النشاط الاقتصادي. وفي الماركسية، يتكون البناء التحتي الاقتصادي من قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج (أو بأسلوب مبسط: يتكون هذا البناء من تطبيق التكنولوجيا، ومن العلاقات الراسخة التى تربط هؤلاء الذين ينفذون العمل الإنتاجي بأولئك الذين يسيطرون على عملية الإنتاج). لذلك فإن القاعدة الاقتصادية الرأسمالية تشتمل على مكونات منها: تقنيات الإنتاج الصناعي وأسواق العمل والسلع. بينما تشتمل القاعدة الاقتصادية الإقطاعية على الإنتاج قبل الصناعي، ونظام عبيد الأرض (أو الأقنان)^(*). ويذهب أبسط تعريفات البناء الفوقي إلى أنه يشمل كافة القطاعات أو المجالات غير الاقتصادية فى المجتمع، وفى مقدمتها: الدولة، والقانون، والأسرة، والمجالات الثقافية أو الإيديولوجية مثل الدين، والفنون، ووسائل الاتصال الجماهيرى.

هذا النموذج الذى قدمناه للبناء التحتي والبناء الفوقي يفسح المجال لطرح سؤالي، تتوقف الإجابة عليهما على مدى دقة الأسلوب المتبع فى شرح وتفسير النظرية

(*) وعم الفلاحون الأرقاء الذين كان يملكهم الإقطاعى كما يملك الأرض الزراعية - (المترجم).

----- (ب) -----

الاجتماعية الماركسية. ويركز أولهما وأكثرهما إلحاحاً، على طبيعة الحتمية التي يتضمنها هذا النموذج. وألية التفسير المستخدمة هنا والتي تربط البناء التحتى بالبناء الفوقى نجدنا تركز على إظهار الصراع الطبقي (انظر مادة: الطبقة) والقوة. حيث يرى أصحاب هذا الأسلوب أن تطوير واستغلال مجموعة معينة من قوى الإنتاج يكون دائماً فى صالح طبقة واحدة من طبقات المجتمع (كما نجد مثلاً فى حالة الإنتاج الصناعى المبكر الذى كان يصب فى صالح البورجوازية). كما أن القوة الاقتصادية التي تتمتع بها الطبقة المسيطرة (والتي تظهر بوصفها القوة السياسية فى الدولة) تتيح لها التأثير فى تطوير وتشكيل مؤسسات البناء الفوقى للمجتمع، على النحو الذى يمكنها من توفير أفضل الظروف لاستغلال قوى الإنتاج. ولهذا السبب، فإن النظم القانونية تيسر إصلاح علاقات الإنتاج وضبطها (من خلال توفير قوى العمل الحرة لخدمة الرأسمالية مثلاً)، وذلك فى الوقت الذى تميل فيه المؤسسات الأخرى للبناء الفوقى للمجتمع إلى إضفاء الشرعية على النظام الاقتصادى والسياسى القائم (بأن تصفه بأنه نظام طبيعى، أو نظام من عند الله تعالى، أو نظام عادل) بينما تقوم مؤسسات البناء الفوقى بتنفيذ عملية التنشئة الاجتماعية للأفراد الجدد فى المجتمع.

وهكذا، فإن النموذج الحتمى الصارم فى الإجابة على السؤال الأول لن يقر باستقلال البناء الفوقى للمجتمع عن البناء التحتى، إلا قليلاً. ومن ثم فإن هذا النموذج بوضعه هذا يتيح - من حيث المبدأ - للعلم الاجتماعى الماركسى أن يصوغ عدداً من القوانين الصارمة والحتمية التي تسهل عملية التنبؤ بشكل المجتمع وتطوره التاريخي من واقع معرفة نظامه الاقتصادى. أما النماذج الفكرية الأكثر مرونة من هذا النموذج الحتمى فتذهب إلى أن مؤسسات البناء الفوقى للمجتمع تحتفظ لنفسها بدرجة - كبرت أو صغرت - من درجات الاستقلال عن البناء التحتى للمجتمع، ومن ثم فإنها تكون قادرة على التطور مستقلة عن المصالح المباشرة أو الظاهرة للطبقة المسيطرة. وفى

هذه الحالة، لن تكون علاقة السببية ذات اتجاه واحد، وذلك لأنها تفسح المجال لأن تقوم التطورات التي تطرأ على البناء الفوقى للمجتمع بالتأثير فى التطور الاقتصادى. وفى هذه الحالة قد يؤول الأمر بالبناء الاقتصادى التحتى للمجتمع إلى أن يكون مجرد عامل من عوامل تشكيل البناء الفوقى للمجتمع، أو أن يضع للبناء الفوقى حدوداً فسيحة يتحرك فى نطاقها متطوراً إلى أقصى ما يستطيع.

ويبحث السؤال الثانى عن التحديد الدقيق لذك الخط الفاصل بين البناء التحتى والبناء الفوقى للمجتمع. وليس من السهل الحصول على إجابة لهذا السؤال، نظراً لأن الوضع الاجتماعى للنظام القانونى يشوبه قدر كبير من الإبهام والغموض. فإذا أخذنا بظاهر الأمور، قلنا إن النظام القانونى يقتصر على النظام الفوقى للمجتمع، مع أن قانون العمل، أو أى شكل من أشكال القانون التجارى يسهم بقدر كبير فى تحديد علاقات الإنتاج. فهو فى هذه الحالة يمثل جزءاً من النظام الاقتصادى التحتى للمجتمع. وليس واضحاً ما إذا كان تحديد علاقات الإنتاج باستعمال مصطلحات غير قانونية أمراً ممكناً أم غير ممكن. ومع ذلك، فإن هذا الإبهام والغموض الذى يشوب الوضع الاجتماعى للنظام القانونى يسهم فى التنبيه إلى المخاطر الناجمة عن إعطاء أهمية نظرية مبالغ فيها لمصطلح مجازى غير دقيق. إن نموذج العلاقة بين البناء التحتى والبناء الفوقى يعد صورة ذهنية نافعة، لكنه لا يستطيع أن يقوم بدور البديل الذى يغنيا عن التنظير الدقيق لطبيعة العلاقة بين الاقتصاد وسائر قطاعات المجتمع. (AE)

بناء الجملة

Syntax

هو المبحث الخاص بالقواعد التى تحدد أساليب تنظيم أو ترتيب الكلمات داخل الجمل والقضايا فى لغة ما. والحق أن مبحث أنماط بناء الجملة يقرر الطريقة التى بمقتضاها تترابط الكلمات المفردة بعضها ببعض. لذلك فإن اتباع القواعد التركيبية

(ب)

كفيل بتمكيننا من بناء الجمل "الجيدة الصياغة"، مع أنه من الممكن بناء عدد لانهاى فعلاً من مجموعات الكلمات (أو الضمائم) باستخدام القواعد الرئيسية التى تحدد البناء التركيبى للجمل فى أى لغة. والملاحظ أن ما يتمتع به الأطفال من قدرة على بناء جمل جديدة على أساس من تجميع عدد من الضمائم المختلفة للكلمات، قد قاد عالم اللغة ناعوم تشومسكى N. Chomsky إلى القول بأن البشر جميعاً يتمتعون بكفاءة لغوية مشتركة تتجاوز الفروق الاجتماعية والثقافية بينهم. (PS) للمزيد انظر: Chomsky (١٩٥٧).

Structrualism

البنىوية

هى اتجاه منهجى استخدمه الباحثون فى عدد من الميادين (كالعلوم الاجتماعية، والأنثروبولوجيا، والنقد الأدبى). ومن المعتقد عمومًا أنه يمكن إرجاع أصل البنىوية إلى كتاب فردنان دى سوسير بعنوان "محاضرات فى علم اللغة العام" (١٩١٦)، وذلك رغم أن المصطلح نفسه قد صكه المفكر البنىوى الروسى رومان ياكوبسون^(*). وقد حاول سوسير^(**) فى كتابه أن يصوغ تفسيراً علمياً لعملية تكوين العلامة أو الدلالة، والتى أسماها السيميوطيقا: أى علم العلامات. وفى رأى سوسير، يمكن تحليل اللغة بأسرها (والتي يتضمن تعريفها أشكال الاتصال التى تزيد عن مجرد اللغة المنطوقة) يمكن تحليلها بوصفها نظاماً بنىوياً من العلاقات. وكان سوسير يرى أن المعنى إنما تحدده

(*) ياكوبسون، رومان أوسيبوفيتش Jacobson, Roman Osipovic (١٨٩٦-١٩٨٢) عضو من أعضاء دائرة (مدرسة) براغ اللغوية، التى استطاعت أن تطور اللغويات البنائية لدى فردنان دى سوسير. ويؤكد ياكوبسون الأهمية الأساسية لفكرة التعارض الثنائى (انظر مؤلفه: الأعمال المختارة، الصادرة عام ١٩٦٢ وما بعدها). كما كان له تأثير واضح على كلود ليفى شتراوس وعلى البنائية بشكل عام. (المراجع)

(**) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: اللغة. (المراجع)

هذه العلاقات، أكثر مما تحدده الوظيفة الإشارية للعلامات فى اللغة. وهكذا لا يكون للعلامة معنى إلا بسبب علاقاتها بغيرها من الكلمات، وليس لأنها تشير إلى شىء معين أو موضوع بعينه. وترتب على ذلك أن حاول سوسير إثبات صحة ذلك التصور الذى يرى أنه يمكن وصف اللغة وفقاً لفارق أساسى واحد: وهو الفارق بين قوام اللغة *Langue* والكلام *Parole*. فقوام اللغة يشكل العنصر البنائى الأساسى للغة (أى شبكة المعانى التى لابد من وجودها فى مكانها المناسب فى أى لحظة حتى يكون المتكلم قادراً على الكلام)، والكلام هو الاستعمال الفعلى لهذه العناصر حال تحققها متمثلة فى أى لفظ مفرد ينطق به المتكلم.

ومن المفاهيم الهامة فى البنيوية مفهوم التعارض الثنائى، والذى يؤكد فعلاً، وبالمخالفة لما هو شائع، أن المعنى إنما تحدده العلاقة التعارضية الموجودة بصفة طبيعية بين العلامات المختلفة (كالجيد والردئ، والمضى والمعتم، إلى آخره) والتى تؤثر تأثيراً حاسماً فى تكوين المعنى. وقد اعتبر ياكوبسون وغيره مفهوم التعارض الثنائى يشكل البناء الأساسى لأى لغة. وقد أدى هذا المفهوم إلى تطوير عدد من الاتجاهات النقدية، والتى منها مثلاً اتجاه النقد الأدبى البنىوى، والذى حاول استخدام مفهوم التعارض الثنائى كوسيلة علمية لفك شفرة "أى: لتفسير" نظام المعانى التى يمكن أن تحتوى عليها النصوص الأدبية (انظر مادة: النص). وعلى ذلك، فثم التزام صريح بالتصور الذى يرى أنه من الممكن استخدام التفسير الموضوعى العام للمعنى من أجل الكشف عن تلك المعانى الخاصة التى تُخفيها النصوص فى طواياها. وبالمثل تركز بنيوية الأنثروبولوجى كلود ليفى شتراوس على السعى فى إيضاح الأبنية العامة أو الكلية الفعالة فى المجتمع الإنسانى والثقافة الإنسانية، بينما حاولت ماركسية لوى ألتوسير البنيوية إعادة تأكيد أفكار ماركس داخل إطار بنىوى (وهو الأمر الذى ظهر بأوضح ما يكون فى تحليله لطبيعة الإيديولوجيا).

----- (ب) -----

لذلك يمكن وصف البنيوية باعتبارها محاولة لشرح الظروف الموضوعية التي تشكل العلاقات اللغوية والعلاقات الاجتماعية بأسرها. وعلى ذلك تطالب البنيوية بحقها في أن ننظر إليها باعتبارها علماً موضوعياً. وقد دفع هذا التأكيد على أهمية البناء أنصار البنيوية إلى اتخاذ مواقف خاصة من النزعة الإمبريقية والمذهب الإنساني. ويرجع ذلك أساساً إلى ما يُسلم به البنيويون من أن قضية المعنى لا تعدو أن تكون قضية العلاقات السببية داخل بنية معينة. وبناءً على ذلك فإن أمثال تلك الأسئلة الخاصة بقضايا الفاعل الإنساني، والمصالح الفردية والمصالح المشتركة، والمجتمع المحلي، ونحوها من القضايا، إما تعرضت - بصفة عامة - للتجاهل من جانب البنيويين أو فسرت في داخل الحدود الضيقة لإطار التحليل البنيوي السببي.

إن بالإمكان توجيه عدد من الانتقادات إلى ذلك الاتجاه البنيوي. وعلى ذلك، وفي أعقاب ظهور البنيوية نفسها، هوجمت موضوعيتها المزعومة (انظر مادة: الموضوعية) التي تصف بها مناهجها في التحليل. وجاء هذا الهجوم من جانب بعض الكتّاب أمثال الفيلسوف جاك ديريدا (انظر، على سبيل المثال، مقالته بعنوان "القوة والمعنى" الواردة بكتابه بعنوان "الكتابة والاختلاف" (١٩٦٧))، أو من جانب المفكر الأدبي رونالد بارت (وقد آل الأمر كليهما إلى الارتباط بنزعة ما بعد البنيوية). وقد بدأ توجيه هذه الانتقادات عن طريق التشكيك في المفهوم القائل بوجود بناء ثابت وكلي للعلاقات اللغوية أو الاجتماعية.

وبجانب ذلك، يمكن توجيه المزيد من الانتقادات للبنيوية. من ذلك أن العلاقة القائمة بين البناء والفاعل، بصورتها التي تظهر بها في إطار التحليل البنيوي، يمكن اتهامها بأنها تجسد اتجاهاً اختزالياً للقضايا المتعلقة بكيفية تكوين الذاتية. ومن الانتقادات الأخرى أن البنيوية تجد صعوبة في التوافق مع حقيقة التغير: فلو أن المعنى يتحدد وفقاً للأبنية الصارمة، لكان السؤال عن "كيف يكون التاريخ ممكناً" سؤالاً يقع

(ب)

خارج نطاق النموذج البنيوي للتحليل. ذلك أنه إذا كانت هذه الأبنية نفسها خاضعة للتغير إذن، فإما:

- (١) أنه يتعين أن تكون عملية التغير صفة ذاتية يتصف بها أى بناء، الأمر الذى يعنى ضمناً أن نفس مفهوم "البناء" مفهوم مُشكل فى حد ذاته.
- (٢) أن التغير فى حد ذاته أمر خارجى عن البناء، ومن ثم لا يكون البناء أمراً ضرورياً لتكوين العلاقات الاجتماعية أو لتحديد المعانى، إنما يكون هو نفسه خاضعاً لبعض العوامل السببية الأخرى المختلفة عنه فى طبيعتها.

يضاف إلى تلك الانتقادات أن النظرية القائلة بأن المعنى هو الاستعمال، والتي كان يدافع عنها فتحنشتين فى أخريات حياته (والتي لا ينكر أحد أن لها مشكلاتها الخاصة بها) قد تكون متعارضة مع التصور الذى يرى أن المعنى مسألة بنائية، وذلك لأن حقيقة الاستعمال لا يلزم بالضرورة تعريفها بلغة الاستعارة البنيوية. وبالمثل، فإن مفهوم التعارض الثنائى مفهوم إشكالى إلى أبعد حد: فليس من الواضح، مثلاً، أن من المعقول الإصرار على أن معنى جملة تقول "هذا باب مغلق" تمثل نوعاً من التعارض الثنائى لمعنى الجملة التى تقول "هذا باب مفتوح". (PS) للمزيد انظر: Clarke (١٩٨١) وCuller (١٩٧٥) وDerrida (١٩٧٨) وHarland (١٩٨٧) وJameson (١٩٧٢) وKurzweil (١٩٨٠) وLevi-Strauss (١٩٦٨ و١٩٧٧) وPettit (١٩٧٥) وSaussure (١٩٨٢) وSturrock (١٩٧٩).

Bourgeoisie

البورجوازية

مصطلح شائع الاستعمال، وإن كان أسىء فهمه كثيراً، ويشار به إلى الطبقة المهيمنة فى المجتمع الرأسمالى. وفى النظرية الماركسية، يستخدم هذا المصطلح

(ب)

بصورة دائمة في مقابل مصطلح البروليتاريا، حيث يشير إلى ملاك رأس المال المنتج (ومن ثم يشير إلى أصحاب المشروعات التجارية، والصناعية، والمالية). والشئ الذي يميز الطبقة البورجوازية أن أفرادها لا يحتاجون إلى أن يبيعوا قوة عملهم لكي يعيشوا. وبينما نجد أن مثل هذه المقابلة الواضحة - بين البورجوازية والبروليتاريا - قد تكون ذات أثر فعال في تحليل الرأسمالية المبكرة، فإننا نجدها تخفق في إدراك الدور الذي تقوم به، والوضع الاجتماعي الذي تحظى به، الطبقات التي تكونت من كوادرات الإدارة الحكومية ومن الكوادرات الإدارية في الشركات والمؤسسات، وهي الطبقات التي أخذت في الظهور في بدايات الرأسمالية أو في مرحلتها الأخيرة. لذلك كثيراً ما يستعمل مصطلح "البورجوازية" للإشارة إلى "الطبقات الوسطى" في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة. وبينما تظل هذه الطبقات في حاجة إلى أن تبيع قوة عملها (كما تفعل الطبقة العاملة) فإن ما يتحصلون عليه من مكافآت مالية كبيرة، وما ينالونه من مكانة اجتماعية رفيعة، يجعل من استمرار بقاء الرأسمالية أمراً يصب في مصلحة هذه الطبقات بنفس القدر الذي يخدم به مصالح أي طبقة من طبقات الملاك. وقد أدى الدور الذي تقوم به الطبقات الوسطى في تشكيل الثقافة إلى كثرة استعمال صفة "البورجوازي" كاصطلاح يوحى بالازدراء. (AE) للمزيد انظر: Gay (١٩٨٤ و ١٩٨٦) و Habermas (١٩٨٩).

البيروقراطية

Bureaucracy

تشير البيروقراطية - في علم الاجتماع المعاصر - إلى ذلك الشكل من أشكال الإدارة الذي تُخوّل فيه سلطة اتخاذ القرارات لشاغلي المواقع الإدارية، وليس لأفراد بعينهم. ومع أن الأنظمة البيروقراطية كانت موجودة في المجتمعات السابقة على عصر الصناعة (بما في ذلك الصين الإقطاعية)، لكن الدور الأساسي الذي تقوم به

البيروقراطية فى تنظيم رأسمالية القرن العشرين ومراقبتها هو الموضوع الذى حظى بأعظم قدر من الدراسة النظرية والإمبيريقية.

والمصدر الأصيل لنظرية البيروقراطية هو كتاب ماكس فيبر، الذى نشر فى عشرينيات القرن العشرين. وقد ذهب فيبر إلى وجود نموذج سداسى (أو نموذج مثالى) للبيروقراطية، يمكن الاسترشاد به للوقوف على خصائصها المميزة (حتى لو لم تكن هذه الخصائص ماثلة جميعاً فى أى حالة واقعية من حالات البيروقراطية (فيبر ١٩٤٦ب)). وخصائص البيروقراطية عند فيبر هى كما يلي: درجة عالية من التخصص، الذى يتسم بوجود مهام مركبة يتم تقسيمها وإسنادها - بصورة واضحة - إلى مواقع أو مناصب إدارية منفردة عن بعضها؛ ونظام تراتبى أو تسلسل هرمى تكون فيه سلاسل السلطة والمسئولية محددة تحديداً واضحاً؛ ونشاط يحكمه نظام متماسك من القواعد المجردة؛ وموظفون يقومون بأعمالهم بصورة موضوعية لا شخصية، وبدون أى ارتباط عاطفى أو شخصى بزملائهم أو بعمالئهم؛ وفيها يتم تعيين الموظفين وترقيتهم بناء على ما لديهم من المعرفة الفنية، والقدرة، والخبرة؛ وتكون أنشطة الموظف التى يقوم بها بصفته موظفاً رسمياً منفصلة انفصلاً تاماً عن أنشطته الشخصية (وذلك من أجل الحيلولة بين الموظف وبين استغلاله لوظيفته المهنية فى تحقيق منافع شخصية له).

وهذه البنية، عند فيبر تعد الطريقة التى تتمتع بأقصى درجات الكفاءة (ومن ثم تتمتع بأقصى درجات الرشد النفعى) والتى يتم بواسطتها تنظيم الأنشطة المركبة التى تمارس فى المجتمع الصناعى الحديث. والبيروقراطية، بهذا الاعتبار، سمة لا يمكن للمجتمع المتقدم أن يجتنبها، ليس فى مجال الصناعة فحسب؛ بل فى كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية تقريباً. لهذا السبب كتب مومسن Mommsen عن ظاهرة

----- (ب) -----

البقرطة الكاملة للحياة^(٥) (١٩٧٤) بل إن فيبر نفسه تنبأ، ليس فقط بتزايد نفوذ البيروقراطية في البلاد الرأسمالية، بل تنبأ كذلك بحدوث تقارب بين المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الشيوعية السوفيتية، فيما يتصل بالدور المسيطر الذي تقوم به البيروقراطية في هذه المجتمعات جميعاً.

وبينما يرى فيبر أن البيروقراطية تتسم بالكفاءة من الناحية الفنية، فإنه يرى أن لها - أيضاً - عواقب غير مرغوب فيها على الديمقراطية. ويرجع ذلك - على وجه الخصوص - إلى أن جميع الأنشطة الاجتماعية تقريباً لا يمكن أن تأخذ طريقها للإنجاز إلا من خلال مرورها بمراحل سبق للبيروقراطية أن حددتها من قبل، وباعتبار أن تلك البنى (أو الهياكل) البيروقراطية، هي في حد ذاتها بنى غير مرنة، وربما تكون - كذلك - غير مستجيبة للتغير، فإن الأنشطة الابتكارية، أو تلك التي لا تكون معقولة داخل الحدود الضيقة للبيروقراطية، يتم كبحها أو حظرها. يضاف إلى ذلك أن الخبرة الفنية تتركز داخل المواقع الإدارية في النظام البيروقراطي، ولا يمكن محاسبتها وفقاً للمبادئ الديمقراطية. وهكذا يتعذر إبداء الاعتراض على القرارات والإجراءات البيروقراطية. وبهذا الشكل تصير البيروقراطية "قفصاً حديدياً" يحبسنا جميعاً داخله.

ولعل الماركسية لم تسهم في نظرية البيروقراطية إلا بالندر اليسير. فقد كانت الأنظمة البيروقراطية في الوقت الذي كان ماركس وإنجلز يكتبان أعمالهما الأقل انتشاراً (مما صارت عليه بعد ذلك)، وربما لذلك يعتقد أنهما ينفران عموماً من البيروقراطية. أما الكتابات الماركسية الكلاسيكية فقد كانت تقلل - بشكل ملحوظ - من أهمية البنى الإدارية في ظل النظام الرأسمالي. (ومن ثم لم تستفz في الحديث عن أهمية الطبقات الإدارية). أما الماركسيون الذين لديهم الكثير الذي يقولونه عن البيروقراطية فنجدهم ينتمون إلى تلك الفئة الساعية إلى دمج النظريات الماركسية

(٥) أى: إضفاء الصفات البيروقراطية، وتحكم الأجهزة البيروقراطية في كافة الأنشطة. (المترجم)

ونظرية فيبر في كيان واحد. من هؤلاء المفكر الماركسي المجري لوكاتش^(*)، الذي بدأ في كتابه بعنوان "التاريخ والوعي الطبقي" (١٩٧١) يستعمل التحليلات التي قدمها فيبر للبيروقراطية والترشيد، وذلك من أجل توسيع وتطوير فكرة ماركس عن تقديس السلع بحيث تصبح قادرة على تفسير ظاهرة النظر إلى الوحدة الاجتماعية الشاملة بوصفها شيئاً مادياً (وهو الأمر الذي بدوره يسهم في تفسير الأشكال الإيديولوجية المميزة للرأسمالية المعاصرة، وذلك فيما يتصل بنظرة المجتمع الرأسمالي إلى الفرد بوصفه موضوعاً مستقلاً وشبه طبيعي، لا بوصفه حصيلة للفعل والاختيار البشري). وقد أثر هذا الموقف بالتالي على مفكرى مدرسة فرانكفورت - وبخاصة أدورنو - فيما قدموه من تشخيص للرأسمالية الحديثة كمجتمع يتم تسييره كلية بواسطة النظم الإدارية. (AE) للمزيد انظر: Beetham (١٩٩٦).

البيولوجيا الاجتماعية

Sociobiology

مع أن مصطلح البيولوجيا الاجتماعية كان معروفاً في أربعينيات القرن العشرين، لكنه لم يحظ بالاهتمام الجماهيري إلا عندما أصبح عنواناً للدراسة التحليلية التي

(*) جورج لوكاتش Gyorgy Lukacs (١٨٨٥-١٩٧١) فيلسوف ماركسي مجري عمل وزيراً في بلاده خلال الفترة القصيرة التي سيطرت فيها الثورة المجرية عام ١٩١٩. ثم نفى بعدها في روسيا. وقد اعتنق لوكاتش الماركسية عن طريق كانط وهيجل. وكان يرى أن الماركسية استطاعت أن تقدم حلاً لثنائيات الفلسفة الأوروبية الكلاسيكية، خاصة التوفيق بين الذات والموضوع. وأوضح أن تجربة الطبقة العاملة هي في ذاتها تجربة الذات والموضوع التاريخي، وأن الماركسية قادرة على أن تصوغ هذه الخبرة في نظرية للكلية الاجتماعية. وفي رأى لوكاتش أن فكرة "الكلية" هي أهم مفهوم في الماركسية على الإطلاق، لأنها تتبع لنا أن ننفذ .. من خلالها .. إلى ما وراء المظاهر الخارجية للواقع الاجتماعي (الذي يخضع لسيطرة ظواهر تقديس السلع والتجسيد)، كما تمكنا من أن نفهم العلاقات الإنسانية الحقيقية القابعة وراء تلك التجليات الخارجية. وله آراء أصيلة في الأدب والحياة، ولكنه لم يستطع أن ينسجم أبداً مع نزعة الحدأة الأدبية. انظر المزيد في: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق. (المراجع)

قدمها إدوارد ويلسون E. O. Wilson، وتناول فيها - بالتفصيل - المؤلفات الحديثة في مجال بيولوجيا السكان، والإيكولوجيا، ودراسة سلوك الحيوانات اللافقارية والفقرية، وهى الدراسة التى صدرت فى كتاب بعنوان: "البيولوجيا الاجتماعية: التركيب الجديد" (١٩٧٥). وقد تسبب هذا الكتاب (وما فيه من علم جديد مطروح للبحث) فى إحداث ضجة كبرى، لأن ويلسون توسع فى تطبيق مناهج دراسة سلوك الحيوانات، والتى تم تطويرها من قبل فى مجال العلوم البيولوجية، فطبقها على دراسة سلوك البشر. والبيولوجيا الاجتماعية علم مثير للخلاف، خاصة لأنه يطرح اتجاهاً فكرياً لدراسة الثقافة يتناقض جذرياً مع عدد من الافتراضات الأساسية فى بعض العلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية.

والبيولوجيا الاجتماعية أصولها الحقيقية التى وردت فى مقالة كتبها هاميلتون W. D. Hamilton، وطرح فيها تفسيراً تطورياً (نسب إلى نظرية التطور) لما تمارسه بعض الحيوانات من سلوك يتسم بالتضحية بالذات. فقد كانت المشكلة التى تصدت البيولوجيا التطورية لها هى هذه المشكلة: من الواجب على كل واحد من أعضاء كل نوع أن يناضل لكى ينقل جيناته الخاصة به إلى الجيل التالى. ولكى يفعل ذلك، يتوجب عليه أن يتناسل. ومع ذلك توجد حالات كثيرة لأفراد من الحيوانات التى تضحي بأنفسها - قبل التناسل - من أجل أن تسمح لغيرها من أفراد هذا النوع أن يستمروا ويتكاثروا. فلو أن هذه التضحية بالنفس أمر تحدده العوامل الجينية (الوراثية) لكان ينبغى أن يفنى هذا الأمر ويبعد (لأنه - بالذات - لا يتم نقله وتوريثه). وقد فسر هاميلتون سبب استمرار وانتشار الجينات التى تقرر هذا السلوك الإيثارى عن طريق التسليم بأهمية القرابة. فالحيوان الذى يضحي بنفسه لابد أن يكون قريباً من الحيوان الذى يسعى لإنقاذه. فإن كانت بينهما رابطة قرابة وثيقة، فلا بد أنهما يتقاسمان كثيراً من الجينات، بما فيها جينات الإيثار. وعلى ذلك فإن الحيوان الغيرى، رغم كل شيء،

(ب)

يحافظ على جيناته هو، أو على الأقل يحافظ على نوع الجينات التي تجعله ذلك الحيوان الذى يكونه.

وقد أفضت هذه الرؤية إلى ما شاع واشتهر من وصف "اللجين الأناني" على حد تعبير ريتشارد داوكنز R. Dawkins (١٩٧٦)، وما ترتب على ذلك من افتراض أن أفراد الحيوان مجرد حملة لهذه الجينات وأدوات لها. وملاحظة جانبية، يمكن القول بأن هذا التصور يمثل جزءاً مهماً من النزعة المضادة للمذهب الإنسانى - أو قد يعد كذلك إذا طُبّق على الكائنات الإنسانية - ومن ثم فهو لا يختلف كثيراً، على الأقل من ناحية الشكل، عن النزعة المضادة للمذهب الإنسانى التى يتسم بها التحليل النفسى البنيوى عند لاكان - الذى يذهب إلى أن الذات الإنسانية إنما تحكمها أبنية اللغة - أو هو لا يختلف كثيراً عن الماركسية البنيوية عند ألتوسير، التى تذهب إلى أن الأفراد إنما هم حملة للأبنية الإيديولوجية والاقتصادية.

وقد تم التوسع فى تطبيق هذا الاتجاه الفكرى الجديد فى التفسير التطورى فى ميدان علم الأحياء، فطُبّق على مشكلات مثل: الطريقة التى تتبعها الحيوانات فى اختيار أزواجها، أو فى الوصول بفرص التناسل إلى أقصى درجات النجاح، أو فى بلورة إستراتيجيات ناجحة فى البحث عن الطعام. والمشكلة التى تثيرها البيولوجيا الاجتماعية فيما يتصل بالكائنات الإنسانية هى أنها تختزل بعضاً من أنبل وأقيم خصائص الحياة الإنسانية - كالتزام الأخلاقى والإيثار - إلى قضية من قضايا علم الوراثة والبقاء من وجهة النظر التطورية، وذلك على حساب الاختيار الإنسانى الحر وانتقاصاً منه. وفى مثل هذا التحليل تبدو الطبيعة وهى تسيطر سيطرة كاملة على التربية (أو التنشئة الاجتماعية). كما أنه من تداعيات هذه النظرة إنكار أو تجاهل إمكانية إحداث تحول فى الطبيعة البشرية، على امتداد التاريخ، ومن خلال تطور الثقافة وتغيرها. والواقع أنه لا يوجد إلا قلة قليلة من علماء البيولوجيا الاجتماعية -

----- (ب) -----

هذا إن كان هناك أصلاً - من يستطيع فعلاً أن ينكر تأثير الثقافة على الحياة الإنسانية (حتى لو بدا - فى غير مرة - أن بعض التحليلات لا تكتثر بالتفسير الثقافى والتاريخى لبعض المفاهيم مثل: مفهوم النوع الاجتماعى، ومفهوم السلوك الجنسى). وما تفعله البيولوجيا الاجتماعية هو أنها تطرح أسئلة هامة، ومزعجة فى بعض الأحيان، عن الميراث البيولوجى للكائنات الإنسانية، أو عن الروابط بين ما هو بيولوجى (أو جينى موروث) وما هو ثقافى ومصنوع فى الحياة الإنسانية.

ولعل أشد الأمور إزعاجاً فى البيولوجيا الاجتماعية، أو على الأقل فى البيولوجيا الاجتماعية عند أدنى مستوياتها من الدقة وعند أعلى درجاتها من التوسع والشمول، هو افتراضها أن علم الاجتماع (وكذلك الأنثروبولوجيا الثقافية وربما الدراسات الثقافية أيضاً) يمكن اختزاله فى علم البيولوجيا (أو يمكن أن يحل علم البيولوجيا محله). ويبدو أن البيولوجيا الاجتماعية تستمد أفكارها من صورة ساذجة من صور فلسفة العلم تسلم بأن الأسلوب الوحيد لتفسير أى ظاهرة (سواء أكانت ظاهرة طبيعية أو اجتماعية) إنما يتم من خلال استعمال النماذج التفسيرية التى تدخل ضمن نطاق العلوم الطبيعية. أما مناهج البحث البديلة التى تتبعها العلوم الاجتماعية والثقافية - خاصة تلك التى تركز على مشكلات المعنى، وعلى تفسير الإيديولوجيا - فإنها تتعرض للتجاهل أو إساءة الفهم أو السخرية من قبل أصحاب البيولوجيا الاجتماعية. ولو أن هذا الفهم الساذج لطبيعة العلم وطبيعة البحث العلمى تم أخذه مأخذ الجد، فربما اكتشفت الدراسات الثقافية أن دراسة أحوال النمل قد تدفعنا إلى طرح بعض القضايا المهمة بالنسبة للمجتمع الإنسانى. (AE) للمزيد انظر: Wilson (١٩٩٤).

التاريخ

History

نشر المؤرخ "كار" Carr كتاباً لعله أشهر عمل تناول التاريخ بالتحليل والتأمل لباحث يشتغل بكتابة التاريخ هو: ما التاريخ؟^(*)، في العام ١٩٦١. ويرى "كار" أن التاريخ ليس هو ما يظنه أغلب الناس. فهو - مثلاً - ليس كتابة نوع من السرد عن أحداث ماضية لا وجود لها إلا في الحقائق الموثقة. إذ من شأن هذا الرأي أن يثير فكرة زائفة مؤداها أن المؤرخ يبدأ مهمته دائماً بجمع "الحقائق"، وبعد أن يفرغ من ذلك يندفع نحو معمة مهمة التفسير. وهذا الرأي الشائع لدى العامة ينبع - في رأي "كار" - من نوع من الإمبريقية المرفوضة، ويمكن أن يكون محل شك. من ذلك - مثلاً - أن فكرة وجود الحقائق على نحو موحد، مثل الحقيقة التي تقول إن الشخص "س" يعاني من صداع وأنها تعادل في نوعيتها "الحقيقة التاريخية" هو أمر ليس صحيحاً ولا أكيداً على الإطلاق. وعلماً "كار" أنه يتعين بالطبع على المؤرخ أن يستوثق بقدر الإمكان من الحقائق التي يستخدمها. فمما لا غنى عنه - مثلاً - أن يقف على التواريخ الصحيحة للأحداث التي يتناولها. ولكن امتداح المؤرخ لمجرد أدائه العمل الذي يتوجب عليه أن يؤديه كلام لا معنى له. ففي رأي "كار" أن ذلك المديح يشبه في عبثيته امتداح المهندس المعماري لمجرد استخدامه مواد بناء جيدة. فما يجعل الحقيقة أو الواقعة الماضية حقيقة تاريخية هو تفسير المؤرخ لها (دون أن يعنى ذلك أن التفسير هو وحده الذي يجعلها ما هي عليه). فعندما عبر يوليوس قيصر نهر الروبيكون^(**) الصغير، فقد فعل

(*) E.H. Carr, What is History?, 1961.

(**) الروبيكون Rubicon نهر صغير في شمالي إيطاليا كان يشكل جزءاً من الحدود بين الجمهورية الرومانية والولايات التابعة لها. وقد اجتازه يوليوس قيصر - عام ٤٩ قبل الميلاد - مشعلاً بذلك نار الحرب الأهلية التي جعلته سيد روما. (المراجع)

أمراً فله من قبله أعداد لا حصر لها من الناس، ولكن ما يجعل هذا العبور حقيقة تاريخية هو الدلالة التي يتم إضفاؤها على هذا الفعل فى سياق التحليل الذى يقدمه المؤرخ. ويترتب على ذلك أن الواقعة الماضية الموثقة توثيقاً جيداً يتعين إدراجها فى إطار تفسير تاريخى لكى تصبح واقعة تاريخية. وإن شئنا وضع الأمر بصورة حادة قلنا إنه لا توجد وقائع (تاريخية) دون تفسيرات (يقدمها مؤرخ). وفى هذا يتفق "كار" فى الرأى مع أوكشوط (Oakeshott 1983:92)، الذى يؤمن أن "الماضى التاريخى... ليس سوى نتيجة عملية بحث تاريخى". ويذهب "كار" إلى أن مهمة التحليل التاريخى أن يوازن بين الحقائق والتفسيرات، ومن ثم بين الحقائق والقيم (وهو يرفض رفضاً صريحاً التمييز بين الحقيقة والقيمة). ويفعل المؤرخ ذلك كشخص يجسد القيم التقدمية التى تنقب فى التاريخ عن "نوع من الاتجاه" (١٩٦١: ١٣٢) الذى يعكس إسقاط الحاضر على أهداف المستقبل وتطلعاته. ويعنى ذلك أن الإمكانات المستقبلية تميظ لنا اللثام عن الماضى التاريخى، بحيث تصبح الأفعال الماضية التاريخية قوة تضىء لنا المستقبل، الأمر الذى يضيف الموضوعية على الخطاب التاريخى.

ويمثل المؤرخ المحافظ "إلتون" G.R. Elton ما يعده الكثيرون بديلاً لتصوير "كار" عن التاريخ. ويذهب إلتون إلى أن تصور "كار" للتاريخ ليس سوى شئ خطير. ومع أن إلتون يخلص إلى أنه قد لا يكون هناك سبيل وحيد لتعريف التحليل التاريخى، فإنه يتعين أن يكون خطاباً خالصاً نقياً لا يتأثر أو يتلون بميول منهجية أخرى (ميول ذات طبيعة سيكولوجية أو تأويلية مثلاً). وجوهر المؤرخ هو الاستقامة والأمانة، فهو ينتمى إلى مهنة تقوم على تطوير الممارسة وعلى رفض السماح للأفكار المثالية (مثل أفكار "كار" المتوجهة نحو المستقبل) أن تعترض سبيل التحليل السليم. وبذلك يصبح التاريخ نفسه أداة نستطيع أن نحصل بفضلها على خبرة متزايدة ومعرفة متنامية بإمكانيات الحياة البشرية. ومن شأن هذه المعرفة - أولاً وقبل كل شئ - أن تتصدى لإغراء

التطلع إلى "الادعاءات العامة الشاملة" حول من نكون أو من يتعين علينا أن نكون. فمثل هذه الادعاءات ليست سوى أساطير تحاول البحوث التاريخية الحقبة - على الرغم منها - أن تفهم الماضي وفقاً لشروطها هي، وبذلك تأخذ منها الدروس (إلتون، ١٩٩١).

وقد لخص ليوتار بعض الاهتمامات الأحدث لنظرية التاريخ تلخيصاً بارع الذكاء (١٩٨٨) عندما كتب يقول إن قدر المؤرخ أن يصبح على الدوام جزءاً من الموضوع الذي يكتب عنه. فالخطاب التاريخي عن التاريخ يمكن - باختصار - أن نعده ضرباً من الخيال. وقد تصدى لمعالجة هذه الفكرة هايدن وايت H. White في دراستين له (١٩٧٨، ١٩٨٧). ويتأثير من نظريات السرد التي تطورت في ميداني الفلسفة التحليلية والفلسفة الأوروبية ارتباطاً بما بعد الحداثة وبما بعد البنيوية (خاصة كتابات بارت، وفوكو، وديدا)، ذهب وايت - بتأثير تلك النظريات - إلى القول بأنه يتعين فهم الخطاب التاريخي بوصفه خطاباً مجازياً للتوضيح. بمعنى آخر لا يمكن القول إن التاريخ يمتلك مكوناً حرفياً أو واقعياً على أى مستوى. بل إن التاريخ - على ما يذهب وايت - ليس سوى سرد خيالي، ومن هنا لا يمكن اعتباره واحداً من العلوم الإمبريقية التي تهدف إلى عرض الحقائق عرضاً موضوعياً. ووفقاً لهذا التصور لا يمكن أن يعد التاريخ لغة تفسير قادرة على عرض أمر موضوعي ذي وجود مستقل عنها. ويترتب على ذلك أن السرد التاريخي لا يختلف كثيراً عن الاختراعات الخيالية التي تُقدم بوصفها اكتشافات. ومن شأن ذلك أن يقلل من شأن الفكرة التي تتصور السرد التاريخي عرضاً ممتداً بلا ثقب أو ندوب، وتحل مكان ذلك مفاهيم التمزيق، والتجزئ، والانتزاع من السياق.

ومن هذه الناحية يقترب حديث وايت كثيراً من روح التحليلات التاريخية عند فوكو. فاعمال فوكو - شأنها شأن كتابات وايت - تعكس خليطاً متنوعاً من الميول

والتأثيرات. فكتابات نيتشه، وجورج باتاى G. Bataille، وموريس بلانشو، ومارتن هايدجر، وتيودور أدورنو تؤثر على أفكاره تأثيراً مهماً من عدة نواح وفي مختلف مراحل تطوره. ويبدأ فوكو - شأنه شأن وايت - من الإيمان بأن كثيراً من المواقف النظرية وأساليب البحث المستقرة (خاصة تلك التى تلخصها النزعة الإنسانية لكل من الوجودية، والماركسية، والفينومينولوجيا) تعاني من بعض نواحى الضعف والقصور. ويستعيز فوكو عن تلك المواقف والأساليب القاصرة بمفاهيم نيتشه عن أصل (جنياولوجيا) الخطاب، والقدرة على تطوير أسلوب خاص فى تناول التاريخ. والملاحظ أن اهتمامات فوكو تتسم بالاتساع والشمول، الذى نلمسه فى: صياغة مفاهيم للمرض العقلى، تحليل أنساق فرض النظام ونظم العقاب، والعلاقة بين السلوك الجنسى والذاتية، وأخيراً العلاقة بين أشكال المعرفة ومختلف خطابات القوة. وتتسع كتاباته بحيث تستوعب أسلوب التحليل التاريخى الدقيق لتطور مثل تلك المفاهيم والأفكار. ومن شأن مثل هذه التحليلات التاريخية الشديدة التدقيق أن تكشف لنا عن البنية الخفية (المحجوبة) للمصالح والمركزات النظرية التى تستند إليها أشكال المعرفة التى تعالج مثل تلك الموضوعات. ولعل اتساع الاهتمامات التى نلمسها فى أعمال فوكو هو الذى يجعل من الصعب إدراج كتاباته ضمن فرع بعينه من فروع البحث العلمى الأكاديمى. إذ نلمس فى أعماله اهتماماً بالمعرفة يرتبط أوثق الارتباط بالمسائل السياسية والتاريخية. وإن كان من الأصوب أن ندرج كافة أعماله ضمن ميدان علم السياسة. ويمكن تلخيص التطور الفكرى لفوكو تلخيصاً ملائماً بتقسيمه إلى مرحلتين: الأولى تشمل الأعمال التى صدرت أواخر ستينيات القرن الماضى وتتسم بأسلوب تاريخى "أركيولوجى" فى البحث. وقد سعى فوكو فى ثناياها إلى الكشف عن الأصول التى انبثقت عنها: العلوم الإنسانية، والعقل والجنون، والشكل المعرفى الحديث. وشهدت المرحلة الثانية تحول فوكو نحو تبنى منهج فى البحث الجينياولوجى التاريخى المتأثر بنيتشه، والذى يمثل دعماً واستكمالاً للتحليلات التاريخية الصريحة التى قدمها فى

المرحلة الأولى، وذلك من خلال التركيز على علاقات القوة الماثلة في خطابات المعرفة المختلفة. فالوعى المتزايد بأهمية القوة هو أساس إيمان فوكو بأن الوعى "بالخيوط الدقيقة لشبكة القوة" كفيل بأن يكشف لنا عن الطابع الموضوعى الأصيل لصراعات القوة، ومن ثم يمكنه أن يعلق الإيمان بإمكانيات السرد التاريخى الشامل.

ومن بين الآثار التى ترتبت على كتابات فوكو إثارة الاهتمام بالجوانب التى كانت تعد حتى ذلك الوقت هامشية للسرد التاريخى. ومن قبيل ذلك اهتمام إدوارد سعيد بالاستشراق الذى يمثل تطويراً لرأى فوكو القائل بأن أشكال المعرفة إنما هى أشكال لتمفصل مصالح القوة التى يمكن إمالة اللثام عنها من خلال التحليل التاريخى الدؤوب. (PS) للمزيد انظر: White (١٩٧٨، ١٩٨٧) و Oakeshott (١٩٨٢) و Jen-kins (١٩٥٥) و Foucault (١٩٧٠، ١٩٧٧، ١٩٨٠) و Elton (١٩٩١) و Carr (١٩٨٧).

Hermeneutics

التأويل

يشير هذا المصطلح إلى نظرية تفسير وتحليل النصوص. وتعود الأصول الأولى للتأويل إلى الممارسات القديمة فى مجال تفسير الكتاب المقدس وتفسير القوانين. ومع ذلك، يعتقد عموماً أن التأويل الحديث يدين ببداياته إلى أعمال فريدريك شلايرماخر F. Schleiermacher (١٧٦٨-١٨٣٧). ومن بين الأمور التى أكدها شلايرماخر أن:

(١) التأويل فن من فنون التفسير.

(٢) وأن معنى النص لا يهم إلا جمهور القراء الأصليين الذين يوجه لهم هذا النص.

(ت) -----

(٣) وأن التفسير عملية دورية، على اعتبار أن أجزاء النص تعتمد في معناها على مجمل النص، والعكس بالعكس.

(٤) وأن سوء الفهم أو الخطأ في الفهم شرط سابق على فهم النصوص (خلافًا للرؤية المرتبطة في هذا الشأن بحركة التتوير، والتي تُعَلَى من شأن العقل في مجال تفسير النصوص وتقدمه على كل اعتبار، ومن ثم فإنها تؤكد وضوح الفهم وليس سوء الفهم).

أما فيلهلم ديلتاي^(*) فإن الجانب الذي كان له التأثير البالغ من بين أعماله، هو دعواه بوجود فرق بين "الفهم" Understanding و"الشرح" Explanation، وأن هذا الفرق يشكل الأساس الذي يقوم عليه التمييز بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية. وقد تصدى لهذه الفكرة، ولفكرة شلايرماخر عن أن معنى النص هو عين ما يقصده المؤلف مارتن هايدجر في مؤلفه الأخير، كما تصدى لهما هانز جورج جادامر H. G. Gadamer (من مواليد ١٩٠٠).

إن تصور هايدجر^(**) عن "الوجود" Dasein يتشكك - ضمناً - في دور الذات في تفسير النص وتكوين المعنى، كما يرتاب - في حقيقة الأمر - في التصور

(*) ديلتاي، فيلهلم Wilhelm, Dilthey (١٨٢٢-١٩١١) فيلسوف ألماني كان من أعظم رواد التراث التفسيري في علم الاجتماع، حيث تمثل الشغل الشاغل لديلتاي في إرساء أساس راسخ - يتسم بالكفاءة - للمعرفة في العلوم الإنسانية أو التاريخية. وكان يرى أن عالم التاريخ الإنساني والثقافة الإنسانية يتكون من "صور التعبير" عن الخبرة الإنسانية في الحياة (أي الخبرات المعاشة) التي يتعين فهمها وتأويلها بطرق تختلف شام الاختلاف عن مناهج العلوم الطبيعية وطرائقها، وغير قابلة للاختزال إلى تلك المناهج العلمية الطبيعية. وقد تخطى عن رأى كان أبداه في بادئ الأمر يؤمن بأن علم النفس يمكن أن يلعب دور العلم التفسيري للعلوم الإنسانية، وتبنى عوضاً عنه اتجاهًا تأويليًا (هرمنيوطيقيا) (انظر: مادة تفسير، تأويل) في فهم النظم، والديانات، والمنشآت وغير ذلك من ظواهر تتعدد بتعدد الخبرات الإنسانية المعاشة. (المراجع)

(**) هايدجر، مارتن Heidegger, Martin (١٨٨٩-١٩٧٦) فيلسوف وجودي ألماني، تبني منهج إدموند هوسرل الفينومينولوجي ليبحث طبيعة الوجود الإنساني. ومن أهم أعماله كتابه: "الوجود والزمن" (١٩٢٦)، الذي أثر تأثيراً مهماً على نزعة ما بعد الحداثة، وكان مصدراً لأفكار أنتوني جينتز عن الزمان والمكان. (المراجع)

الإنساني(*) التقليدي لهذه الذات. فهذا الوجود هو كائن يمكنه، مثلاً، أن يطرح أسئلة عن وجوده الشخصى. وبدوره يرى هايدجر أن هذا الوجود يشكل بناءً زمنياً للفهم البشرى القادر على التفسير، مما يجعله منهمكاً فى نشاط التفسير بصورة مستمرة. وبناءً على هذا الوضع، فإن المعنى والتفسير أمران جوهريان لهذا الموجود لا يتحقق وجوده بدونهما، ولا يمكن وصفهما وصفاً صحيحاً بافتراض أن لهما موقعاً خارجياً متميزاً (خارج نطاق دائرة التأويل). ووفقاً لهذه الرؤية، فإن كافة أنواع التفسير تتلحق دائماً بما هو "مفهوم" فعلاً. وعلى ذلك، فلا وجود لذات متعالية بالمعنى الكانطى، تقوم بوضع أساس المعنى بناءً على المبادئ العقلية التى تميز بين "شكل" الفهم و"مضمونه" التفسيري. وبناءً على ما ذكرناه هنا، فليس من المقطوع به ما إذا كان هايدجر ذا نزعة مضادة صراحة للواقعية (سواءً أكان ذلك موقفه عند تلك المرحلة من حياته، أى عندما كتب كتابه بعنوان "الوجود والزمان"، أم فيما بعدها)، وهو ما قال به بعض النقاد مثل ريتشارد رورتى.

ولعل جادامر(**) - تلميذ هايدجر - هو أشهر الممثلين المحدثين لنظرية التأويل، وذلك فى صيغتها الخاصة "بالتأويل الفلسفى". ويستعير جادامر من هايدجر زعمه بأن الفهم يتحقق من خلال عملية ممارسة التفسير. والتفسير فى هذا التصور يرتكز على

(*) أى المستمد من فكر الحركة الإنسانية الذى يمثل الثقافة الأوروبية السائدة فى مطلع عصر النهضة من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر. (المترجم)

(**) جادامر، هانز جورج Gadamer, Hans - Georg (من مواليد ١٩٠٠) أحد كبار فلاسفة التأويل الألمان. تتلمذ على يد هايدجر، وعين أستاذاً للفلسفة فى جامعة ماربورج (١٩٣٧-١٩٣٩)، ثم فى جامعة ليبزج (١٩٣٩-١٩٤٧) وبعدها فى جامعة فرانكفورت (١٩٤٧-١٩٤٩) وأخيراً فى جامعة هايدلبرج (١٩٤٩-١٩٦٨) حيث تقاعد بعدها. مؤلفه الرئيسى هو "الحقيقة والمنهج" (١٩٦٠) الذى بلور فيه رؤيته للتأويل كعملية إيجابية خلاقية، وليست عملية سلبية، وأنها كذلك عملية تتم بواسطة ومن خلال التراث الثقافى للقائم بالتأويل. (المراجع)

وجود شروط مسبقة هي: "حيازة مسبقة" Fore-Having، "وبصورة مسبقة" Fore-Sight، "وتصور مسبق" Preconception. ومن دعاوى جادامر الأساسية قوله بأن التفسير لا يسير، كما هو الحال في نمط حركة التنوير، على أساس مبادئ مطلقة وعقلانية، ولكنه يركز في الحقيقة على "التحيز" أو الحكم المسبق (وهو رأى مستمد من أفكار شلايرماخر). ومع ذلك، فإن تصور جادامر يعني - على خلاف شلايرماخر - أن معاني النصوص لا تعتمد على مفهوميها الأصلي أو المقصود لدى كاتبها، وإنما تعتمد على عوامل أخرى: كاللغة، والمعايير، والتقاليد التي تجد الذات (الكاتبة للنص) نفسها جزءاً منها ومكونة من خلالها. ووفقاً لجادامر، فإن هذه العوامل التي تؤثر على الذات وتتخللها، هي التي تزودنا بوجهة النظر التي ينطلق منها التفسير (ومن هنا القول بأننا نبدأ التفسير "منحازين")، ولكنها ليست هي التي تحدده تحديداً كلياً. والسبب في ذلك، وفقاً لهذا الرأى، يرجع إلى أن التفسير يعد عملاً من الأعمال التي تأخذ شكل العلاقة المتبادلة بين القارئ والنص. لهذا، فإنه بالرغم من أن المرء يبدأ قراءته للنص مستعملاً أحكامه المسبقة في عملية التفسير، فإن للنص قدرة على تغيير أفكار القارئ أو تصورات المسبقة، وذلك - مثلاً - بمقاومته لأي قراءة تُفرض على هذا النص فرضاً. وهكذا قد ينتقل المرء - من خلال قيامه بنشاط التفسير - إلى شكل من أشكال الارتباط بالآخر، يكون قادراً على إعادة تشكيل الأفكار المسبقة للقارئ الممارس للتفسير، ومن ثم يعيد بناء الأساس الذي يقوم عليه فهم القارئ للنص. فالتفسير، لهذا السبب، عملية غير محدودة ومفتوحة النهاية دائماً.

وكان يورجن هابرماس من بين من تصدوا لنقد جادامر، حيث سعى لإثبات أن ثمة في الواقع حدوداً يتوقف عندها نطاق التحليل التأويلي. ويشير هابرماس إلى أنه يعد من الإغراق في التنظير أن ننظر إلى التفسير في ضوء لغة الحياة اليومية فقط، وليس في ضوء كافة أشكال الحياة الاجتماعية، إذ إن هذه النظرة غير الواقعية

للتفسير تؤدي إلى نتائج تقتصر كلها على موضوعات لغة الحياة اليومية. مع أن الأصح أن أشكال الحياة الاجتماعية قد تتألف من أوضاع مستقلة عن هذه اللغة المذكورة. (PS) للمزيد انظر: Habermas (١٩٧١) و Gadamer (١٩٧٥) و Llewelyn (١٩٨٥) و Hirsch (١٩٦٧) و Heidegger (١٩٦٢).

التجسيد (اعتبار المجرّد شيئاً مادياً) (*) Reification

يعنى التجسيد حرفياً تحويل شيء أو شأن ذاتي أو إنساني إلى شيء مادي. وبناءً على ذلك يشير المصطلح في مجال النظرية الاجتماعية والثقافية، في الأعم الأغلب، إلى تلك العملية التي بمقتضاها يصل الأمر بالمجتمع الإنساني (الذي هو في النهاية محصلة الأفعال الإنسانية الواعية والمقصودة إلى حد كبير) إلى أن يواجه أعضائه بوصفه قوة خارجية وتبدو في ظاهرها طبيعية ومقيدة. وبمعنى أدق - أو أكثر تخصصاً - يمكن القول إن نظرية التجسيد (أو كما يسمى المصطلح الألماني الأصيل Verdinglichung) جرى تطويرها على يد جورج لوكاتش^(*) (١٩٢٣) انطلاقاً من نظرية ماركس عن تقديس السلع. فقد سبق لماركس أن حلل العملية التي تحدث في النظام الرأسمالي والتي بمقتضاها تتخذ العلاقات بين الكائنات الإنسانية (كتلاقي البشر في عمليات التبادل التجاري في السوق)، تتخذ مظهر العلاقات بين الأشياء (حتى إن العلاقات بين البشر تصبح محكومة بمواصفات كل فرد - أي بالقيم التبادلية - كما هو الحال بالنسبة لمواصفات السلع التي يجري تبادلها). ويرى لوكاتش أن هذا الانقلاب يمكن إدراكه بسهولة في جميع أنواع العلاقات الاجتماعية (وليس في مجال

(*) ويعنى المصطلح الألماني الأصلي - عند ماركس - التشييب. ويعبر عنه في الكتابات النقدية أيضاً بلفظ الشيئية، أو شيئية المعاني، أو شيئية المجرّدات، أي: اعتبارها أشياء مادية محسوسة. (المترجم)

(**) انظر تعريفاً موجزاً به في هامش مادة البيروقراطية. (المراجع)

الاقتصاد فقط)، مثلما يحدث في أى مجتمع تتزايد فيه باستمرار عمليات الترشيد والبيروقراطية، إلى درجة أن تفقد فيه العلاقات الإنسانية طابعها الكيفي والفريد والذاتي، إذ تصبح محكومة بالاهتمامات الكمية الصرفة التي تشغل بال الموظف البيروقراطي أو رجل الإدارة. (انظر كذلك مادة: مدرسة فرانكفورت). (AE) للمزيد انظر: Thomason (١٩٨٢) و Rose (١٩٧٨).

Libertarianism

التحرر، التحررية

انظر: مذهب الحرية.

Value Freedom

التحرر من القيمة

دعوة تنبأها عالم الاجتماع ماكس فيبر، حيث يقرر أنه ينبغي على المشتغلين بالبحث العلمي (كمن يجرى - مثلاً - تحليلات في نطاق علم الاجتماع) أن يتحاشوا إطلاق أحكام قيمية^(*) على الأفراد، أو المجتمعات أو النظم والمؤسسات التي يدرسونها. (انظر كذلك مادة: "الموضوعية"). (PS)

(*) الأحكام القيمية هي الأحكام التي تصف الفرد/ أو السلوك بأنه خير أو شرير، أو تصفه بأنه جميل أو قبيح، أو تصفه بأنه بغض أو محبوب، أو بنى وصف قائم على التقدير الشخصي وليس الرصد الموضوعي للبحث. (المترجم)

Conversation Analysis

تحليل المحادثة

ظهر مصطلح تحليل المحادثة فى علم الاجتماع، وبصفة خاصة فى إطار الإثنوميثولوجيا. وتعتبر المحادثات أحداثاً اجتماعية على مستوى عال من التنظيم، وذلك عندما يكون المشاركون فيها قادرين - تماماً - على أن يميزوا متى يجب عليهم أن يتكلموا أو متى يكونون قادرين على الكلام، ومتى يكون من حقهم أن يقطعوا حديث من يكلمهم، أو متى يتعين عليهم أن يحترموا صمت الطرف الآخر فلا يتكلموا. لذلك، فإن الأطراف المشاركة فى المحادثة يبدون قدرتهم على ممارسة التفاعل الاجتماعى. ويعنى تحليل المحادثة - أساساً - بالشرح التفصيلى للمحادثات. وقد أجريت دراسات شملت قطاعات طبقية مختلفة تناولت تنظيم الحديث خلال الثوانى الخمسة الأولى من المحادثات التليفونية. (AE) للمزيد انظر: Sacks (١٩٩٢) و Moerman (١٩٨٨) و Atkinson et al (١٩٨٤) .

Content Analysis

تحليل المضمون

تحليل المضمون مدخل خاص بتحليل الاتصال. وهو يجاهد ليتجنب التحيز الذاتى ويحصل على نتائج كمية. وتحليل المضمون أنسب شكل لتحليل العينات كبيرة العدد، لا لتحليل النصوص الفردية. ذلك أن عدد مرات الورد الإحصائى للوحدات الرئيسية فى هذه العينات يكون أمراً له دلالة. مثال ذلك، أن تحليل مضمون التقارير التى تذاغ فى نشرات الأخبار التليفزيونية عن الإضرابات العمالية قد يركز على نسبة هذه التقارير (أو نسبة مجموع المدة الزمنية المخصصة لبث أخبار هذه الإضرابات) التى تغطى أخبار صناعة بعينها، ويقارن بين هذه التقارير وبين النسبة الفعلية لمجموع النشاط الصناعى الذى تمثله هذه الصناعة. فإذا كان ٥٠٪ من مجموع التقارير

الخاصة بالإضرابات العمالية تخص صناعة إنتاج السيارات، مع أن ٥٪ فقط من إجمالي حالات الإضراب (أو ٥٪ من عدد الأيام المفقودة بسبب الإضراب) قد وقع في صناعة السيارات، فمعنى ذلك أن هناك شكلاً من أشكال التحيز في التغطية الإخبارية. ويتوقف نجاح تحليل المضمون في تجنب الوقوع في التحيز الذاتي إلى حد كبير على إمكانية استعمال وحدات للتحليل محددة تحديداً واضحاً، وقابلة للتنفيذ على نحو لا غموض فيه ولا التباس. (AE) للمزيد انظر: Weber (١٩٩٠).

تحليل النص (في ضوء علاقته بنصوص أخرى) Intertextuality

صك هذا المصطلح جوليا كريستيفا^(*) للدلالة على أن النص (كالرواية، أو القصيدة، أو الوثيقة التاريخية) ليس كياناً مكتفياً بذاته أو مستقلاً، إنما هو حوصيلة نصوص أخرى. لذلك فإن التفسير الذي يولده القارئ من نص ما، إنما يعتمد على إدراك العلاقة بين هذا النص وغيره من النصوص. وهكذا نجد - مثلاً - أن صورة فوتوغرافية لأحد السياسيين منشورة في إحدى الصحف قد تعطي معنى أكثر، أو مستويات أخرى من المعنى، إذا ما تم شرحها، ليس فقط بوصفها تمثيلاً لصاحب

(*) كريستيفا، جوليا Kristeva, Julia (من مواليد ١٩٤١) من مواليد بلغاريا ولكنها هاجرت في شبابهها المبكر إلى باريس (عام ١٩٦٥) حيث اندمجت في الحياة الثقافية، وصعدت إلى الصفوف الأولى منها. بدأت بالدرس على رولان بارت، واشتركت في تحرير بعض المجلات الطليعية. وهي الآن واحدة من كبار منظري الأدب، والمحللين النفسيين، والمفكرين وكتاب الرواية. من أهم مؤلفاتها: "السيمبوتيقا" (١٩٦٩)، "نص الرواية" (١٩٧٠)، "وعن المرأة الصينية" (١٩٧٤)، "والرغبة في اللغة" (١٩٨٠)، "أقوى الر... (١٩٨٢)، "والثورة في لغة الشعر" (١٩٨٤)، "وقصص الحب" (١٩٨٧)، "والشمس السوداء" (١٩٨٩)، "وغرباء على أنفسهم" (١٩٩١)، "والزمن والإحساس" (١٩٩٦)، "والثورة الحميمة" (١٩٩٧)، "والعبقورية الأثوية: هانا أرندت" (١٩٩٩)، وأخيراً: "الإحساس وعدم الإحساس بالثورة" (٢٠٠٠). انظر المزيد عنها في: A.Elliott et al., Op. Cit., PP. 183-189. (المراجع)

الصورة، وإنما من خلال إطار يتألف من عدة صور فوتوغرافية لنفس الشخص (وقد تمثله هذه الصور في مواقف مختلفة إلى حد بعيد)، ومن الخطب التي ألقاها صاحب هذه الصورة، وكذلك التقارير والتعليقات الصحفية المنشورة عنه، بل ومن الرسوم الكاريكاتورية التي تسخر من هذا السياسى. وبالمثل، نجد أن فهمنا لفيلم "الأمال العظيمة" الذى أخرجه دافيد لين يتأثر بقراءتنا لنص هذه الرواية التي كتبها تشارلز ديكنز، أو قد يحدث العكس فيتشكل فهمنا للرواية وفقاً لرؤيتنا للفيلم. وقد يفهم تحليل النص على أنه الرأى الذى يذهب إلى أن النص لا يوجد خارج نطاق النصوص الأخرى التي تفسره والتي تعيد تفسيره. ويترتب على ذلك أنه لا يمكن أبداً أن توجد قراءة نهائية لأي نص، وذلك لأن كل قراءة له تنتج نصاً جديداً، يصبح - بدوره - جزءاً من الإطار الذى يتم فى نطاقه تفسير النص الأصلي. (AE) للمزيد انظر: Kristeva (١٩٨٦) و Barthes (١٩٧٤).

Psychoanalysis

التحليل النفسى

التحليل النفسى يعد - فى وقت واحد - منهجاً من مناهج البحث العلمى، وعلماً يختص بدراسة دور اللاشعور فى الحياة العقلية للذات. ويرتكز التحليل النفسى أساساً على تفسير التدايعات الحرة للفرد المحلل نفسياً ضمن سياق التحويل الذى يحدث فى الموقف التحليلى. وقد أدخل فرويد^(*) مصطلح "التحليل النفسى" فى مماثلة

(*) فرويد، سيجموند Freud, Sigmund (١٨٥٦-١٩٣٩) مؤسس التحليل النفسى، وصاحب الفضل في تطوير الأفكار الرئيسية التي لا تزال توجه التحليل النفسى فى صوره المختلفة. وكان تأثيره على علم النفس المعاصر كبيراً، وإن كان بشكل غير مباشر فى الغالب. بدأ حياته طبيباً للأعصاب، ثم تزايد اهتمامه بعلم النفس والتنويم المغناطيسى ومعالجة عيوب الكلام. ولم يحقق فرويد القفزة إلى ما يعتبر الآن محور نظرية التحليل النفسى إلا بعد نشر كتابه "تفسير الأحلام" (١٨٩٩-١٩٠٠). ولكنه نشر فى بقية حياته إنتاجاً غزيراً. ومات منقياً فى لندن بعد خمس سنوات من حرق كُتب فى برلين. للمزيد عنه انظر، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وزملاؤه، مرجع سابق، ص ١٠٦٩-١٠٧٢. (المراجع)

لعملية التحليل الكيميائي التي تجرى فى المختبر. والمحل النفسى، شأنه شأن عالم الكيمياء مشغول بتفكيك ما يعانيه المريض (النفسى) من أعراض وردها إلى العناصر المكونة لها:

"إن الأعراض التى تظهر على المريض النفسى... ذات طبيعة تركيبية بالغة... وإننا نقوم بتقصى أسباب هذه الأعراض بردها إلى الدوافع الغريزية التى تحركها... والماتلة فى الأعراض التى تظهر عليه والتى يكون غير متنبه لها حتى ذلك الحين- وذلك يشبه تماماً ما يفعله عالم الكيمياء عندما يعزل المادة الأساسية، أى "العنصر الكيميائى"، بعيداً عن الملح الذى اختلط فيه هذا العنصر مع غيره من العناصر الأخرى فأصبح التعرف عليه أمراً غير ممكن".

(فرويد ٢٠٠١: ١٥٩)

ويدرج التحليل النفسى داخل نطاق بحثه كافة ثمرات اللاشعور كالأحلام، والهفوات Parapraxes ونحو ذلك. ووفقاً لما ذهب إليه فرويد، فإن جميع أشكال اللاشعور تتسم بمجموعة متشابهة من الآليات (وهى التكتيف، والإزاحة، والمسرحة، والمراجعة الثانوية). وعلى ذلك، فإن النتائج التى يتوصل إليها التحليل النفسى ليست مقصورة على من يسميه فرداً "عصائياً" بل تشمل كذلك الفرد "السوى". ونظراً لأن هذه الآليات النفسية يمكن تبسيطها بالسير على دروب الأنماط اللغوية الأساسية، ألا وهى الاستعارة والكناية، فإن جاك لاكان يرى- متأثراً بعالم اللغة رومان ياكوبسون- أن اللاشعور له بنيته التى تشبه بنية اللغة.

إن من العسير أن نحدد التاريخ الدقيق للأصول الأولى للتحليل النفسى، وذلك لأن سيجموند فرويد مؤسس التحليل النفسى، كان شغوفاً باكتشاف ما لا نهاية له من

الأعلام السابقين الذين مهدوا أو بشروا بأصول التحليل النفسي، مبتدئاً بمعاصريه من أعلام القرن التاسع عشر، مثل آرثر شوپنهاور، وفريدريك نيتشه. ويظل في اقتفاء تلك الآثار وصولاً للقدماء أمثال أفلاطون. ومع ذلك، فإن أغلب المؤلفات التي أرخت للتحليل النفسي تبدأ بالأعمال التي كتبها فرويد في مطلع حياته بالاشتراك مع الطبيب النمساوي- من فيينا- جوزيف بروير Josef Breuer. والسبب الذي حدا بفرويد إلى الارتباط ببروير هو الحالة المرضية التي أصيبت بها برتا بابنهايم Berta Pappenheim (والمعروفة على نطاق أوسع تحت الاسم المستعار "أنا/ أو" "Anna O"). وقد نشرت نتائج الفحوص التحليلية النفسية لهذه الحالة ولغيرها من الحالات تحت عنوان "دراسات في الهستيريا" في سنة ١٨٩٥. وقد عرّف هذا العمل الهستيريا بوصفها نتيجة لصدمة نفسية تعرض لها المريض تم كبتها. وتمثل العلاج في جعل المريض يتذكر هذه الصدمة وذلك من أجل إزالة الطاقة النفسية التي كانت مركزة على الحادثة التي تسببت في هذه الصدمة. ولم يدم الارتباط بين فرويد وبروير طويلاً لأنهما اختلفا حول دور النشاط الجنسي في تفسير سبب الهستيريا.

وكان فرويد، خلافاً لبروير، يعتقد أن الصدمة تنزع بقوة لأن تكون ذات طبيعة جنسية. ورغم استمرار محاولات مراجعة تعريف الهستيريا في التاريخ اللاحق للتحليل النفسي، فإنها لا تزال- على الأقل في حدود التفسير الذي قدمه لكان للتحليل النفسي- تمثل الإشكالية الرئيسية لهذا المجال الفرويدى. ومن ناحية أخرى يقل استعمال مصطلح الهستيريا في أوساط الطب النفسي والتحليل النفسي في الولايات المتحدة، حيث تم تقسيمه إلى عدد كبير من الاضطرابات العقلية التي تصاب بها النساء خاصة. وبالرغم من أن إلحاح فرويد على التحليل النفسي للأمراض العصابية (أى بردها إلى أسباب تتعلق بالسلوك الجنسي) هو الذى أدى إلى اتهامه بأنه "دو نزعة جنسية شاملة" Pansexualism، فإن التعارض الجدلى بين الحب

(إيروس)^(*) وغريزة الموت (ثاناتوس) من الأمور التي لا يصح إغفالها. ولعله من الحق أن نقول إن الفضيحة الحقيقية للتحليل النفسي لا تتمثل في تركيزه على السلوك الجنسي بل في تركيزه على الموت، وأن الحب (إيروس) إنما قام بمهمته ك رأس حربة (حرفياً: كحصان طروادة) في الفهم الشائع لدى عامة الناس. فعند لاكان، يجب أن تشكل نهاية التحليل علامة على "موت الموت". إذ يتحتم على الفرد أن يتوصل إلى توافق مع حتمية الخواء الرمزي: حقيقة أن النظم الرمزية تقتلع الذات بعيداً عن الإمكانية التاريخية لتحقيق كمالها هي ثمن يتعين على الذات أن تدفعه لتتأني بنفسها عن الوقوع في فخ الذهان.

ولا يزال يوجد خلاف كبير داخل حركة التحليل النفسي حول ما إذا كان بالإمكان "التأثير في" المرضى الذهانيين عن طريق المنهج التحليلي، مع أخذنا في الاعتبار مقاومتهم لهذا التحول. وبناءً على ذلك، أخذ التحليل النفسي في التركيز بصفة أساسية على العناية بالأمراض العصبية وليس الأمراض الذهانية^(**)، وذلك بالرغم

(*) إيروس أو الحب Eros. ويستخدم اللفظ بمعنى الحب، ولا سيما بمعناه الجنسي، أو العشق أو الشبق، نسبة إلى إله الحب عند الإغريق. أما فرويد فقد جمع الفرائز المختلفة تحت غريزتين: غريزة الإيروس التي تتضمن حب الذات وحب الخير وحب الموضوعات وبقاء النوع والغريزة الجنسية، وكل ما يفيد التجميع والحياة، وطاقة هذه الغريزة هي الليبدو. أما الغريزة الثانية فهي على نقيض الإيروس، وهي غريزة الثاناتوس Thanatos أي غريزة الموت أو الهدم أو التدمير أو العدوان. وهدف هذه الغريزة تفكيك الارتباطات وهدم الأشياء، وإعادة الكائنات الحية إلى حالة غير عضوية، تنجبه إلى الخارج تارة فتحطم الغير، وإلى الداخل تارة أخرى فتحطم النفس. انظر المزيد عند وليم الخولي، الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦. (المراجع)

(**) العُصاب neurosis هو المرض أو الاضطراب النفسي، والنسبة إليه عُصابي، وقد يسمى أيضاً -كمترادف له- في اللغة الإنجليزية psychoneurosis، فكلاهما يشير إلى المرض النفسي سواء تناولت أعراضه وظائف البدن أو النفس.

أما الذهان psychosis فهو المرض العقلي، ولا يدخل تحت هذه الكلمة النقص العقلي أو العصاب، وإنما يقتصر استخدامها على الأمراض العقلية الوظيفية أو العضوية التي قد تظهر فيما بعد في حياة الإنسان. راجع الموضوع حول المفهومين والعلاقة بينهما في وليم الخولي، الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي، مرجع سابق، مواضع عدة، (المراجع)

من وجود محاولات متفرقة لتطوير نظرية عن الأمراض الذهانية. وقد انبثقت أكثر هذه الجهود طموحاً من أعمال المفكرين الفرنسيين المتأثرين بأعلام التحليل النفسي، ومنهم جيل ديلوز وفيلكس جواتاري F. Guattari. وتظهر الخلافات بين النماذج التحليلية النفسية عموماً حول الدور الذى تقوم به عقدة أوديب والسلوك الجنسى فى مرحلة الطفولة فى تكوين الذات. ويميل المحللون النفسيون إلى المبالغة فى تأكيد أهمية المرحلة الأوديبية بينما يهون المعنيون بتحليل مرض الفصام من شأن هذه المرحلة بشدة. لذلك ينبغي أن يظل فى الإمكان كتابة التاريخ الكامل للتحليل النفسى فيما يتصل بالأحوال المتغيرة التى مر بها مصطلح "أوديب". (SKS) للمزيد انظر: Deleuze and Guattari (١٩٧٧، ١٩٨٨) و Goux (١٩٩٣) و Freud (١٩٦٦) و Lebovici and Widlocher (١٩٩٠) و Grunbaum (١٩٨٤) و Henri (١٩٩٣) و Laplanche and Pantalès (١٩٨٨) و Mehlman (١٩٧٢) و Ellenberger (١٩٧٠) و Meltzer (١٩٨٧).

Social Stratification

التدرج الاجتماعى

إن انقسام المجتمع إلى فئات أو تقسيمات منفصلة يتحول إلى تدرج اجتماعى عندما يصير بالإمكان النظر إلى هذه الفئات باعتبارها تشكل تراتباً اجتماعياً. وقد جرت العادة فى علم الاجتماع على التمييز بين ثلاثة أنماط كبرى للطبقات. ففى نظام الطوائف الاجتماعية (أو الطبقات المغلقة) يتم تمييز الطبقات المختلفة وفقاً لاعتبارات النقاء الإثنى، مع انعدام الحركة بين هذه الطوائف (وبذلك يعيش المرء حياته كلها داخل الطائفة التى ولد فيها). وفى نظام الطبقات القائمة على الملكية - كما هو الحال فى المجتمعات الإقطاعية - يتكرر نفس الوضع حيث لا يوجد سوى قدر ضئيل من الحراك أو لا يوجد حراك أصلاً. ويتم تعريف الطبقات فى هذا النظام فى ضوء ملكية الأراضى (من جانب الطبقة الحاكمة) والرق. وفى المجتمعات الصناعية يتم التدرج الاجتماعى

(ت)

وفقاً لمفهوم الطبقة، وذلك فى ظل النظر إلى الطبقات باعتبارها متميزة عن بعضها اقتصادياً. وتسمح أنظمة التراتب الطبقي بالحراك الاجتماعى من الناحية الرسمية (وذلك بالرغم من أن المقدار الفعلى للحراك الاجتماعى، وما يترتب عليه من توافر الفرص الحقيقية لترك المرء لطبقته التى ولد فيها، قد يكون أمراً عسيراً، وذلك بسبب افتقاد العدالة فى فرص الوصول إلى الموارد الاقتصادية والثقافية، كالتعليم مثلاً).

وتستمر الخلافات، والتى تدور فى المقام الأول حول المعايير المناسبة لتعريف معنى الطبقة. ففى التراث الماركسى، هناك طبقتان رئيسيتان تتمايزان عن بعضهما تبعاً للملكية وسائل الإنتاج والسيطرة عليها. (فى الماركسية، يتم إدراج نظام الطبقات القائم على الملكية، ونظام الطوائف الاجتماعية المغلقة ضمن الفكرة العامة والنظرية الخاصة بالطبقة، وذلك باعتبارها أشكالاً مختلفة للطبقة والاستغلال فى مختلف عهود التاريخ). وفى مدارس علم الاجتماع الأخرى، يتيح تعريف الطبقة تبعاً لمفهوم المهنة تقديم تفسير أكثر دقة واستيعاباً للتدرج الاجتماعى. ومع ذلك، فليس واضحاً ما إذا كانت الأشكال الأخرى من التراتب، كشكال التدرج فى القوة، وفى العوائد المادية (كالأجور والمرتبات) وأشكال التدرج فى المكانة، تتطابق - بالضرورة - مع أشكال التراتب الطبقي بأى شكل مباشر. (ويترتب على ذلك، وكما أشار ماكس فيبر، أن الأغنياء الجدد أو محدثي النعمة يتمتعون بنفس الدخل والثروة التى تحظى بها أعلى الطبقات، ومع ذلك لا يتمتعون بنفس المكانة أو الاحترام الذى يقتزن عادةً بالثروة المكتسبة منذ عهد بعيد). علاوة على ذلك، فإن تحليل التدرج الاجتماعى بأسلوب تغلب عليه الاعتبارات الاقتصادية قد يخفق فى تقدير الأهمية الحقيقية لأشكال التراتب الاجتماعى الأخرى، كالتقسيمات القائمة على أساس النوع الاجتماعى، وعلى أساس الإثنية. (AE) للمزيد انظر: Scott (١٩٩٦).

Canon

التراث الفني المعتمد

يستعمل هذا المصطلح في الأصل ليستوعب كل ما هو معترف به- من العموم- من أشهر الأعمال في تراث فنى معين (والأغلب أن يستعمل في مجالى الأدب والموسيقى). وهو مشتق من الاستعمال الأصلي له، الذى يرجع إلى القرن الرابع، ليشير إلى الكتب المعتمدة والمحددة التى تؤلف العهد الجديد (الإنجيل). وينطلق المدافعون عن فكرة وجود تراث فنى معتمد فى دعواهم هذه، من النظرية التى تقول بوجود قيم جمالية كلية (انظر مادة: علم الجمال) وإن كانت هذه القيم قد تتكشف بمرور الزمن، مع تطور هذا التراث. لهذا السبب لا يتم إدراج أعمال معينة ضمن التراث الفنى المعتمد إلا على أساس أنها تعبر عن هذه القيم الكلية على أفضل الوجوه. وعلى ذلك تمثل الأعمال المدرجة فى التراث الفنى المعتمد أرقى مظاهر التعبير عن لغة معينة أو عن شخصية ثقافية ما أو أمة ما.

وقد تعرضت فكرة "التراث المعتمد" لانتقادات متزايدة، خاصة خلال الفترة التى واكبت ظهور حركة النقد الماركسى وحركة النقد النسوى فى ستينيات القرن العشرين، ثم بعد ذلك فى ظل تحليلات تيارات ما بعد البنوية وما بعد الكولونيالية للثقافة. ومع تزايد التأثير بالتعددية الثقافية وتقدير أثر الظروف الاقتصادية والسياسية على الإنتاج الفنى، يبدو التراث الفنى المعتمد فى صورة أكثر تعبيراً عن علاقات القوة منه عن القيم الجمالية الكلية. وقد يُنظر إلى التراث الفنى المعتمد على أنه يستبعد الجماعات المستضعفة أو الخاضعة على عدة مستويات. أولها، أن الأعمال المدرجة ضمن التراث الفنى المعتمد قد تمثل جماعات معينة (كغير البيض، أو الفقراء، أو النساء) وذلك وفقاً للصور النمطية السائدة ثقافياً فى المجتمع. وثانيها أن هذا التراث الفنى المعتمد قد يستبعد الأعمال التى تنتجها مثل هذه الجماعات، أو قد لا يعترف بوسائل الاتصال التى دأبت هذه الجماعات على التعبير- من خلالها- عن أنفسها بصورة تقليدية. وأخيراً أن أسلوب التعبير الذى يحتفى به التراث الفنى المعتمد (بما يتضمنه هذا

التراث من أفكار مسبقة عن طبيعة الذاتية الإنسانية والإبداع الإنسانى) هذا الأسلوب قد يكون غير ملائم للإفصاح عن خبرة هذه الجماعات المستضعفة. (AE) للمزيد انظر: Eagleton (١٩٨٤) و Kermode (١٩٧٥).

Rationalization

الترشيد

الترشيد مصطلح يرتبط على الفور بعالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر. ومع أن الترشيدي يحمل معان متعددة في كتابات فيبر، فإنه يستعمل عنده أساساً لتحليل وصول الرأسمالية إلى السيطرة العالمية. إذ ينفرد المجتمع الرأسمالي بأنه مجتمع رشيد، ليس فقط في تنظيمه الاقتصادي والتقنى، ولكنه مجتمع رشيد كذلك في مجال العلم، والقانون، والدين، والفن، ونظام الحكم. وفي كل حالة من هذه الحالات يتألف الترشيدي من التدقيق الفائق للرشد الذرائعى أو النفعى. وهذا معناه أن كل نظام أو مؤسسة اجتماعية إنما تكون مؤسسة رشيدة إذا كانت منظمة وفقاً للقواعد التى تقرر أكفاً الوسائل لتحقيق أى غرض معين، مع تحريرها تماماً من أى تأثير كايح للحرية يصدر من الممارسات التقليدية المتعارف عليها، أو من الشخصيات البارزة أو من القيم التى يأخذ بها أى من الفاعلين الاجتماعيين داخل المجتمع. ويكشف تحليل فيبر للبيروقراطية باعتبارها أكثر أشكال ممارسة القوة رشداً، يكشف الجانب الأسوأ من الرشد، حيث يرى أن البيروقراطية تتحول إلى "قفص حديدى" يخنق الحرية الفردية ويحد من المسألة الديمقراطية. وهناك كثير من الاعتبارات المشتركة بين تحليل فيبر للرشد وتحليل ماركس للاغتراب، خاصة فيما يتصل بأن الرشد ينتهى إلى أن يواجه الأفراد فى المجتمع كقوة خارجية ضاغطة ومقيدة. وقد عالجت أعمال لوكاتش الماركسى المجرى، وكذلك أعمال مدرسة فرانكفورت العلاقات المتبادلة بين علم الاجتماع الماركسى وعلم اجتماع فيبر فى هذه القضية على وجه الخصوص. (AE) للمزيد انظر: Brubaker (١٩٨٤).

Syntagm

تركيب / مركب لفظي

في السيميوطيقا يعد التركيب أو المركب اللفظي مجموعة مؤتلفة من العلامات، المستمدة من أحد النماذج النظرية، والتي تكون كلاً تاماً له معنى. وتوجد عادة ثمة مجموعة من القواعد أو الشفرات التي تقرر الطريقة الصحيحة - ومن ثم المفهومة - التي بمقتضاها يمكن ربط الوحدات التي يمكن أن يكون لها معنى في مجموعة مؤتلفة، وذلك بغية صياغة تركيب ما أو مركب لفظي ما. ونضرب مثلاً لذلك لافتة الطريق الإرشادية في أوروبا - باعتبارها تركيباً - فسوف نجد أنها عبارة عن تشكيلة محدودة من الأشكال الهندسية الملونة (كالمثلث الأحمر، والدائرة الزرقاء)، بجانب تشكيلة من الصور الظلية (السلويت) أو من الأشكال الأكثر تجريداً (كالسهم، والصورة الظلية للعربة). (AE)

Structuration

التشكل البنائي / الصياغة البنائية

هي مفهوم ونظرية طورهما المفكر الاجتماعي أنتوني جيدنز^(*) A.Giddens، وطرحهما كتفسير للعلاقة بين الفاعل الإنساني الفرد والخصائص الثابتة والنمطية

(*) أنتوني جيدنز A. Giddens أستاذ بارز في علم الاجتماع على المستوى البريطاني يحظى بسمعة علمية عالمية. عمل أستاذاً بجامعة كامبردج ثم عميداً لكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية. من أبرز مؤلفاته "البناء الطبقي للمجتمعات المتقدمة" (١٩٧٢)، "دراسات في النظرية الاجتماعية والسياسية" (١٩٧٨)، "مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية: البناء والتناقض في التحليل السوسيولوجي" (١٩٨١)، "ملاحم النظرية والنقد في علم الاجتماع" (١٩٨٢)، "تأسيس المجتمع" (١٩٨٤)، "الدولة القومية والعنف" (١٩٨٥)، "النظرية الاجتماعية وعلم الاجتماع المعاصر" (١٩٨٧)، "آثار الحدثة" (١٩٩٠)، "الحدثة وهوية الذات" (١٩٩١)، "الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة" (١٩٩٢)، "تحول العلاقات الحميمة: الحب والحياة الجنسية" (١٩٩٢)، "الحدثة الانعكاسية" (١٩٩٣)، "قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع" (١٩٩٣)، وترجمت أربعة من كتبه إلى اللغة العربية بإشراف كاتب هذه السطور. (المراجع)

للمجتمع ككل. فمن ناحية، نجد أن النظريات الاجتماعية التقليدية كالوظيفية والبنوية تميل بالأساس إلى تأكيد الطبيعة المنظمة للمجتمع، للدرجة التي جعلت المجتمع يصور بوصفه موجوداً مستقلاً عن الأفراد الذين يتكون منهم (ويصور في الواقع كقوة تقيد تصرفاتهم وتقررها، كما تفعل بهم القوى الطبيعية إلى حد بعيد). من ناحية أخرى يؤكد اتجاه آخر من اتجاهات النظرية الاجتماعية (يشمل النزعة التفاعلية الرمزية ونزعة التأويل) على أهمية مهارات الأفراد في خلق وإدارة العالم الاجتماعى الذى يعيشون فيه. ويعترف جيدنز بوجود جزء من الحقيقة في كلا هذين الاتجاهين المتطرفين، ذلك لأن المجتمع منظم نمطياً بحيث يظهر كل ما يقوم به أعضاؤه من أعمال وتصرفات منعزلة عن بعضها وقائمة على المصلحة الشخصية لكل فرد؛ تظهر وكأنها مخططة ومتناسقة مع بعضها البعض. يشهد لذلك أن الإحصائيات الاجتماعية السنوية تظهر درجة ملحوظة من الثبات في معدل وقوع كثير من الأحداث والأعمال اليومية. يضاف إلى ذلك أنه تحديداً لأن هذا الثبات والانتظام أمر خارج نطاق سيطرة الأفراد، فإن المجتمع يبدو بالفعل وكأنه يمارس تقييداً لهم وسيطرة عليهم. ومع ذلك، فإن الفاعلين الأفراد يتمتعون بقدرات عالية، فضلاً عما لديهم من رصيد ضخ من المعارف ومدى واسع من المهارات التي تتيح لهم فهم المواقف المعقدة والمتفردة في كثير من الأحيان، كما تتيح لهم أن ينظموا علاقاتهم ببعضهم البعض.

لذلك فإن جيدنز يتكلم عن "ازدواجية البناء". فالبناء الاجتماعى، أى الصفة المنظمة والثابتة للحياة الاجتماعية يتسم بطابع مزدوج من حيث إنه يكون - فى وقت واحد - موجوداً خارج أعضاء المجتمع، وموجوداً داخلهم أيضاً (فيشكل بذلك قوام الفرد الفاعل بوصفه عضواً قادراً من أعضاء المجتمع). ويصوغ جيدنز هذا التصور فى عبارة لا تخلو من الإبهام والغموض فيقول: "تجمع الخواص البنائية للأنساق الاجتماعية بين كونها وسيلة لأداء الممارسات التى تقوم هذه الأنساق بتنظيمها بصورة

متصلة، ومحصلة لهذه الممارسات^{٢٥} (١٩٨٤: ٢٥). ويتمثل البناء الاجتماعي أساساً في قدرة أعضاء المجتمع على تنظيم حياتهم الاجتماعية الخاصة بهم. وبهذا يكون البناء الاجتماعي عبارة عن مجموعة متكاملة من القواعد والوسائل المتاحة للفاعل الفرد القادر. وهو موجود في ذاكرة الفاعلين الأفراد. ومع ذلك، فإن القضية الحاسمة التي يطرحها جيندز هي أن الفاعلين الأفراد لا يتعين عليهم أن يكونوا واعين بهذه الحقيقة. ذلك أن قدرأ كبيراً من قدراتهم لا تعتمد على المنطق وإعمال العقل، الأمر الذي يعني أنه ليس بوسع الأفراد أن يقدموا وصفاً لفظياً لما يعرفونه. ومع ذلك فهم يعرفون كيف "يتصرفون" في موقف معين. سبب ذلك أن لديهم وعياً عملياً، والواقع أن البناء الاجتماعي يتحقق في ذلك الوقت كشىء خارجى عن الفاعلين الأفراد. كما أن من المرجح أن تتجاوز الآثار المترتبة على تصرفات الفاعلين في موقف معين أى شىء يقصده بعبارة من وراء هذه التصرفات. ويعتمد جيندز على الجغرافيا كما يعتمد على علم الاجتماع بغية تحليل الثبات الخارجى للأبنية الاجتماعية باعتبارها علاقات مؤسسية تتصف بالترابط المنتظم عبر الزمان والمكان. وإن من الأمور المهمة بالنسبة للفاعل الفرد أن البناء الاجتماعي يواجهه كما لو كان شيئاً خارجياً. ويؤكد مفهوم جيندز عن "الأمن الوجودى" (أو الأنطولوجى) هذا المعنى. فالفاعلون الاجتماعيون القادرون واثقون من أن العالم الاجتماعي والعالم الطبيعى (وكذلك هويتهم الذاتية في علاقتها بهذين العالمين في الواقع) أمور تتسم بالثبات والأمان. فهم يعدون العالم مسألة روتينية. وأى شىء يخل بهذا الروتين المتوقع يكون مزعجاً أشد الإزعاج (ويمثل واحدة من السمات التي استخدمها جوفمان في تحليله لظاهرة الارتباط والحرج، كما استخدمها الإنثوميثودولوجيون فيما قاموا به من "تجارب خرق القواعد المتبعة").

وموجز القول إن جيندز يصور الحياة الاجتماعية (ويصور عملية إعادة إنتاج المجتمع أساساً) على أنها تمثل دائرة. فالأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض. وتتيح

(ت) -----

لهم قدراتهم الاجتماعية التي يفترض اتصافهم بها أن يفهموا حقيقة هذا الوضع، وأن يواصلوا نشاطهم في نطاقه، وذلك وفقاً للأعراف أو الممارسات الروتينية المعتادة. وعلى ذلك، فإن الفاعلين الأفراد يتولون خلق (وتدعيم وتأكيد) نفس الظروف والأحوال التي تجعل تصرفاتهم الاجتماعية أمراً ممكناً. وبهذا الشكل، فإن معرفتهم بالمجتمع وبقدراتهم الاجتماعية تتجدد بشكل مستمر (جنباً إلى جنب تجدد المجتمع) من خلال نجاحهم في إدارة ذلك التفاعل، أو نجاحهم في معالجتهم للصعوبات التي تواجههم وهم يعيشون داخل هذا المجتمع. (انظر كذلك مادة الفاعل/ والبناء). (AE) للمزيد انظر: Cohen (١٩٨٩) و Giddens (١٩٨٤) و Held and Thompson (١٩٩٠).

Mediation

التشكيل

انظر: الوساطة.

Representation

التصور/ أو التمثيل

١ - في بعض النظريات يعد التصور أحد وظائف اللغة (بمعنى أنه ينظر إلى التصور باعتباره (أ) تصوراً للأفكار عن طريق اللغة (ب) التصوير اللغوي لعالم التجربة أو الخبرة الإمبريقية).

٢ - وفي مجال المصطلحات الاجتماعية يعنى التصور: (أ) معنى سياسياً: بمعنى تمثيل المصالح السياسية للأفراد والجماعات، وذلك من خلال الهيئات المؤسسية (كالبرلمانات والمجالس الشعبية) أو من خلال جماعات الضغط - وهذا المعنى يمثل مفهوماً شديد الارتباط بالأفكار الليبرالية الحديثة عن العملية الديمقراطية. (ب) معنى

أكثر دقة، هو ذلك المرتبط بأعراف ومعايير التصور التي قد تستعمل، مثلاً، فى وسائل الاتصال الجماهيرى، بغية تقديم صور لجماعات اجتماعية معينة.

والتصور فى معناه ٢- ب، لا يعنى بالضرورة الدلالة على مصالح الجماعة أو الفرد الذى يتم تمثيله. ذلك أن الجماعة قد يتم تصويرها عن طريق تقديم صورة تمطية لها. ومن ثم، فإن التصور الذى يتم فى هذا السياق قد يوصف بأنه "إساءة تصوير": أى "تقديم" أو صنع هوية معينة. وقد تكون أمثال هذا النوع من التصور مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسائل الإيديولوجيا، والقوة وبأشكال الخطاب الداخلة ضمن الأساليب والطرق المتبعة فى توليد أو إنتاج هذه الصور. وعلى ذلك، فإن صياغة الأفكار المتصلة بقضايا النوع الاجتماعى، أو العرق، أو السلوك الجنسى يعد من القضايا المتصلة بالتصور. ويصبح المعنى ٢- ب، من عدة نواح، متصلاً بالمعنيين ١-٢ و ١-١ ب.

وفيما يتصل بالمعنى ٢- أ قد يكون لطرق تمثيل النوات السياسية دور هام فى نطاق العملية السياسية، ويتحدد تبعاً لإمكانية النظر إلى القضايا المعنية بصياغة أنواع الخطاب - الدائرة حول موضوع العرق أو الإثنية وأمثالها - باعتبارها قضايا سياسية. وعلى غرار ذلك المعنى، فإن وجهة النظر التى ترى أن اللغة قد يكون لها دور فى بناء صورة ذهنية عن "الواقع"، وليس الاكتفاء بتصويره فقط (١- ب)، هى فعلاً من وجهات النظر الهامة فى هذا الصدد. فلو فرضنا أننا اقتنعنا بأن اللغة ليست مجرد "مرآة" تعكس عالم الخبرة، وإنما تخلق صورة له كذلك، فإن نفس هذا المعنى يتوجب انطباقه على دور اللغة فى عالم الخبرة الاجتماعية. كما يمكن طرح قضية دور التصور أو التمثيل فى سياق أشكال خطاب المعرفة (قارن ذلك بتصوير إدوارد سعيد عن "الاستشراق"). (PS) للمزيد انظر: Haldane and Wright (١٩٩٣).

إن الاعتقاد بأن الكاميرا لا تكذب أبداً، قد يكون واحداً من أفصح الأكاذيب التي يمكن أن تصنفها الإيديولوجيا والتي يمكن أن تخطر على بال أحد. وهذا الاعتقاد يفترض أنه إذا كانت الصورة التي سجلتها الكاميرا تعتمد على خطوات أو إجراءات طبيعية وبصرية، إذن فإن ما تمثله هذه الصورة الفوتوغرافية سيكون ما هو موجود فعلاً في الواقع. وتعد الصورة الفوتوغرافية موضوعاً مهماً من موضوعات الدراسات الثقافية، خاصة لأن الدراسات الثقافية تحاول الكشف عن وجوه الخلط والاضطراب بين ما هو طبيعي وما هو مصطنع.

ويعد العمل الذي كتبه رولان بارت(*) عن التصوير لب هذا الاتجاه المذكور من عدة نواح (١٩٧٣، ١٩٨١). ويعرف بارت ما يسميه "المفارقة الفوتوغرافية" بأنها تعايش رسالتين اثنتين داخل صورة فوتوغرافية واحدة. وتتعلق الرسالة الأولى بما تشير إليه هذه الصورة الفوتوغرافية. وهذا هو المؤشر المحايد لهذه الصورة الفوتوغرافية، أو الموضوع أو الشخص الذي التقطت له. أما الرسالة الثانية فهي تلك الأسطورة أو الخرافة التي تخفيها هذه الصورة. وهذه الأسطورة هي الطريقة التي يتم بها تمثيل الموضوع، والتي تؤثر فيمن يشاهدها بأن تستثير في داخله، وعن غير وعي

(*) بارت، رولان، جيار Barthes, Roland (١٩٨٠-١٩٩٥) كاتب وناقد فرنسي. بعد أن أكمل دراسته في السوربون، شغل بارت عدداً من الوظائف في المجر قبل أن يعود إلى فرنسا ليشغل وظيفة أستاذ علم اجتماع العلامات والرموز والتصوير الجمعية ومديراً للبحوث في المدرسة العليا للدراسات العلمية بباريس (١٩٦٢-١٩٧٦)، ثم انتقل إلى الكوليج دي فرانس بعد ذلك حيث عين أستاذاً لعلم اجتماع الأدب. ويرجع إلى بارت الفضل في تأسيس مجلة "المسرح الشعبي" Theatre Populaire في عام ١٩٥٢ وهو نفس العام الذي صدر له فيه كتاب "الكتابة في درجة الصفر"، ثم نشر له بعد ذلك كتاب "الأساطير" (١٩٥٧)، فترسخت مكانته كأكبر مفكر نظري بعد دي سوسير. ومن أعماله الأخرى: "متعة النص" (١٩٧٣)، وسيرته الذاتية "رولان بارت بقلم رولان بارت" (١٩٧٥). للمزيد انظر: A.Elliott et al., Key Contem. Social Thinkers, 2003 (المراجع)

منه غالباً، عدداً من الافتراضات المسلم بها عن الحياة الاجتماعية والسياسية. ولأن هذه الاستثارة تتم من غير أن يلحظها المشاهد تماماً، فإن هذه الصورة الفوتوغرافية إنما تساعد - بذلك - على تعزيز أشكال التحيز أو الأحكام المسبقة.

وإن أشهر مثال يقدمه بارت لهذا المعنى، غلاف لأحد أعداد مجلة بارى ماتش Paris-Match. فعلى هذا الغلاف صورة لشاب من السود يرتدى زياً فرنسياً ويؤدي التحية العسكرية، وعيناه تتطلعان إلى أعلى، ولعلهما مصوبتان إلى إحدى طيات العلم الفرنسي ذي الألوان الثلاثة المعروفة. وبذلك يكون مؤدى الأسطورة التي تنقلها هذه الصورة لمن يشاهدها هي: "أن فرنسا إمبراطورية عظيمة، وأن جميع أبنائها يؤدون الخدمة العسكرية تحت رايتها، بدون تمييز حسب اللون. وأنه لا يوجد رد على هؤلاء الذين يدينون النزعة الاستعمارية المزعومة أفضل من تلك الحماسة البادية على وجه هذا الشاب الأسود الذى يخدم فى جيش ظالميه المزعومين" (بارت ١٩٧٣: ١٢٥-١٢٦).

وثمة رؤية أكثر إيجابية للصورة الفوتوغرافية قدمها ولتر بنيامين W.Benjamin، وذلك فى ثنايا تحليله لأثر الفن فى عصر النسخ الميكانيكى (١٩٧٠/ب). فالفن المستنسخ بطريقة ميكانيكية، بما فى ذلك الصورة الفوتوغرافية والسينما، يتحدى الأفكار المستقاة من علم الجمال التقليدى التى كان يمكن للفاشية أن تستغلها لمصلحتها (كفكرة الإبداع، وفكرة العبقرية، وفكرة الأصالة). فالصورة الفوتوغرافية لا تحمل معها أى "هالة" توحى بأنها عمل فنى مبدع أو أصيل. لذلك فإن من يشاهدها يقترب منها أكثر، كما يكون أكثر اندماجاً من الناحية السياسية، بدلاً من إقصائه بسبب الشعائر التى تحيط بمشاهدة الأعمال الفنية التى أبدعت يدوياً (ولم تنتجها الآلات). ومع ذلك، فإن النسخ الميكانيكى يغير - بالفعل - من طبيعة العمل الفنى، كما نتبين من مجموعة التعليقات المثيرة والمتعمقة التى قدمها بنيامين على أعمال مجموعة من المصورين الفوتوغرافيين. ومن ثم فإن الصور الفوتوغرافية التى قدمتها - فى أوائل القرن

العشرين - الصورة الفوتوغرافية الفرنسية يوجين أتجيه Eugène Atget تعدّ "شبيهة بمسرح الجريمة... فهي تلتقط بفرض إثبات الدليل على جريمة ما" (بنيامين ١٩٧٠/ ب: ٢٢٨).

وهكذا تستلقت الصورة الفوتوغرافية انتباهنا لما في الحياة اليومية العادية من تفاصيل تعد من المسلمات، الأمر الذي يشبهه - تماماً - تحليل فرويد للهئات السلوكية^(*) (أو ما يسمى "الفلتات الفرويدية") حيث يستلقت انتباهنا للأحداث العارضة ثم يضاف عليها - فجأة - دلالة كبيرة. وبهذا الشكل، يشبه بنيامين رسام اللوحات الزيتية بالساحر أو بالكاهن الشاماني، الذي يعالج المرضى من خلال الطقوس التي يضع يده عليهم أثناءها. أما المصور الفوتوغرافي أو المصور السينمائي، فهو بمثابة جراح، يجري عملياته الجراحية داخل جسم المريض. (١٩٧٠/ ب: ٢٢٥). (AE) للمزيد انظر: Sontag (١٩٧٢)، وNewhall (١٩٨٢) وBolton (١٩٨٩).

Mechanical Solidarity

التضامن الآلي

مصطلح من مصطلحات علم الاجتماع الدوركايمي^(**)، يصف به التماسك الذي يميز المجتمعات قبل الصناعية. ونظراً لأنه لا يمكن ترسيخ التماسك عن طريق التقسيم المعقد للعمل (انظر التضامن العضوي)، فإن القانون القمعي في هذه المجتمعات قبل

(*) الهئات السلوكية Parapraxis اصطلاح عام في علم النفس يشمل فلتات اللسان، وعثرات القلم، وأخطاء، النسيان للأمور الواضحة، وفغوات السلوك الطفيفة، وما أشبه من الأمور التي تبدو الوهلة الأولى غير مقصودة، أو لا دلالة لها، بينما ترجع - في أسبابها النفسية - إلى تدخل رغبات لاشعورية، أو صراع نفسي، أو سلسلة من الأفكار المختلفة. راجع المزيد في عبد المنعم الحفني، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، مكتبة مدبولي، ١٩٧٨. (المترجم)

(**) دوركايم، إميل Durkheim, Emile (١٨٥٨-١٩١٧) عالم الاجتماع الفرنسي الأشهر، سافر بعد تخرجه من المدرسة العليا بباريس إلى ألمانيا حيث درس الاقتصاد، والفلكلور، والأنثروبولوجيا الثقافية. وقد اعترف باستاذية كونت له. وقد أخذ عنه كلاً من التأكيد الوضعي على الإمبريقية والتأكيد على =

الصناعية هو الذى يجسد القيم المشتركة السائدة (أو الوعي الجمعى)، - والذى يتم إضفاء صفة القداسة عليه عادة - هو الذى ينزل العقاب القاسى على أى انحراف فردى عن المعايير الاجتماعية. (AE)

Organic Solidarity

التضامن العضوى

مصطلح من مصطلحات علم الاجتماع الدوركايمى، يرد فى سياق تفسير تماسك المجتمعات الصناعية الحديثة. فالتقسيم المعقد للعمل يترتب عليه بالضرورة أن يكون كل فرد من أفراد المجتمع متخصصاً فى مجال محدود، وعاجراً أن يوفر لنفسه ما يحتاج إليه بدون التعاون والتبادل مع الآخرين. لذلك فإن المجتمع يتماسك لأن الأفراد لا يملكون الموارد والإمكانات التى تمكنهم من الانسحاب منه. (AE)

Praxis

التطبيق العملى، أو الممارسة، أو العمل

إن المرادف الدقيق لمصطلح Praxis فى اللغة الألمانية هو Practice الذى ترجمناه بالتطبيق العملى/ أو الممارسة/ أو العمل (وهو لفظ مشتق من اللغة

= أهمية الجماعة فى تحديد السلوك البشرى. ويوصف جوهر اتجاه دوركايم فى بعض الأحيان بالواقعية الاجتماعية، بمعنى أنه كان يعزو الواقع الاجتماعى إلى الجماعة لا إلى الفرد. وهو يتعارض فى هذا تماماً مع اتجاه سبنسر. وكان يصمر على أنه لا يمكن تخفيض الظواهر الاجتماعية إلى مستوى الظواهر الفردية. قام بدراسة التنظيم الاجتماعى وانصبت اهتماماته طيلة حياته على دراسة القوى التى تبقى على المجتمع مترابطاً أو تفكك هذا الترابط. ودرس فى كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية" دور الدين فى التماسك الاجتماعى، وقام فى كتابه "تقسيم العمل الاجتماعى" بتحليل نوعين أساسيين من التماسك الاجتماعى، وخصص أحد كتبه لدراسة "الانتحار" وهو يعد واحداً من الأمثلة الحديثة لتطبيق المنهج الإحصائى الحديث فى الدراسات الاجتماعية. (المراجع)

الإغريقية^(١٠). وعلى ذلك فإن استعماله الشائع في اللغة الإنجليزية يمكن أن يبيط إلى نوع من الادعاء. وعندما يستعمل استعمالاً فلسفياً دقيقاً، فإنه يشير إلى المعاني التي يعزوها ماركس في كتاباته المبكرة لمصطلح "Practice" أى: التطبيق العملي، أو الممارسة، أو العمل. ولهذا المصطلح معنيان أساسيان يمكننا تحديدهما على نحو مفيد لنا. فهو في أبسط معانيه وأشدّها إثارة، يوحى بالعمل الثورى. وهو بهذا الاعتبار بمثابة اندماج الفكر مع التطبيق (أو النظرية مع الممارسة العامة)، ومن ثم فهو النقطة الأساسية التي توقف عندها الفلاسفة الماركسيون عن تفسير المجتمع البشرى (ماركس ١٩٧٥، ص ٤٢٢)، وعملوا على تطوير تفسير مادي لهذا المجتمع البشرى يسمح لطبقة البروليتاريا أن تدرك موقعها فيه، ومن ثم تعمل على تغييره.

أما المعنى الثانى الأكثر تعقيداً لهذا المصطلح فيشير إلى ما طرحه ماركس في كتاباته المبكرة من تصور للطبيعة الإنسانية والتاريخ الإنسانى. ففي هذا التصور يندر لب الطبيعة الإنسانية فى صورة القدرة على التغيير الواعى المقصود للبيئة. وبناءً على ذلك، فإن البشر يعيشون فى عالم قاموا هم ببنائه، ويواصلون إعادة بنائه وتغييره باستمرار. ومن خلال هذا الاشتباك العملى مع هذا العالم (أى من خلال هذا البراكسيس Praxis) تستطيع البشرية أن تصل إلى فهم نفسها. ومع ذلك فإن البشرية، فى حالة المجتمع الطبقي، يتم تغريبها عما تنتجه، فتصبح عاجزة عن فهم طبيعتها الجوهرية. ويصير العمل عبئاً ثقيلاً، بدلاً من أن يكون تحقيقاً للذات. (AE)

(١٠) قدم الدكتور محمد عنانى مناقشة إضافية ممتازة للمشكلات المرتبطة بترجمة مصطلح Practice من العربية إلى الإنجليزية، والمعاني المتفاوتة التي يمكن أن يشير إليها فى السياقات المختلفة. وذكر من تلك المعاني: الواقع الفعلي أو العملي (فى مقابل الفكر المجرد أو النظرى)، والممارسة، الفعل، العمل، الأداء، الدربة (أى تكرار الأداء)، التدريب، العادة أو الاعتقاد، المعتاد أو ما جرى عليه العرف... إلخ. انظر: محمد عنانى، مرشد المترجم إلى أصعب الكلمات الشائعة فى الإنجليزية، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، القاهرة، ٢٠٠٠، الباب التاسع عشر، ص ص ١٦٨-١٧٦. (المراجع)

Evolution

التطور

هو العملية الطويلة التي يتعرض خلالها أحد الأنواع البشرية، أو إحدى الجماعات الاجتماعية، أو أحد الأشكال الاجتماعية لبعض التغيرات. ومن أبرز المفكرين التطوريين الأوائل خلال القرن الثامن عشر نصادف شخصيات مثل: شيفالييه دى لامارك C. de Lamarck وإرازموسداروين E. Darwin. ويذهب لامارك فى مفهومه للتطور إلى أن تطور الكائنات البشرية يحدث وفقاً لمبدأ الاستعمال وعدم الاستعمال. وهذا المبدأ هو الذى يتيح -بدوره- غرس سمات وخصائص معينة يمكن أن ينقلها الفرد إلى ذريته فيما بعد. وكان مبدأ الاستعمال/ عدم الاستعمال عند لامارك مباشراً وواضحاً: فكلما زاد الفرد من استعمال سمة تشريحية معينة، كلما زاد تطور تلك السمة. بمعنى -مثلاً- أنه إذا كان أحد الحيوانات مضطراً للركض مسافات طويلة ليؤمن نفسه من الحيوانات المفترسة، فإذا نجح فى تجنب افتراس تلك الضواري له، فربما تتكون له قدمان طويلتان كثيرتى العضلات. وتولد ذرية ذلك الحيوان -بدورها- مزودة باستعداد كبير لى تتميز بهاتين الساقين القويتين. وبمرور الوقت تستطيع ذرية ذلك الحيوان السريع العدو أن تنقل ببطء ذلك الاستعداد بقدر أكبر، إلى أن يأتى يوم تولد فيه الذرية الجديدة بساقين قويتين كثيرتى العضلات. ولعلنا نستطيع الآن أن نفهم لماذا أصبحت نظرية لامارك مغربة لأولئك الذين يؤمنون أن الكمال البشرى أمر ممكن بفضل الأفعال الإرادية والنظام.

ولكن الفكرة الحديثة للتطور هى تلك التى صاغها تشارلز داروين (١٨٠٩ حتى ١٨٨٢ - وهو حفيد إرازموس داروين الذى أشرنا إليه)، وقدمها فى كتابه "أصل الأنواع" (١٨٥٩). والأمر الذى يستوقفنا فى تحليل داروين للتطور هو فكرة "الانتخاب الطبيعى". ولقد تأثرت هذه الفكرة تأثراً قوياً بكتاب توماس مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٢٤) المعنون: "مقال فى أسس السكان" (١٧٩٧) والذى ذهب فيه إلى أن معدل زيادة

السكان فى المدن يفوق معدل الزيادة الممكنة فى إنتاج الطعام. وتمثل الأوبئة والمجاعات والحروب وسائل لضبط الزيادة السكانية، بحيث لا يزيد السكان أبداً عن الحدود الطبيعية لمدة طويلة. وقد قام داروين بتطبيق هذه الفكرة على بقاء الأنواع فى الطبيعة. وهكذا يذهب إلى القول بأن الوضع المسيطر على العالم الطبيعى هو "الصراع على البقاء"، حيث تتنافس الأنواع مع بعضها البعض من أجل الحصول على الموارد المحدودة. وهناك بعض القوى الموجودة فى البيئة هى التى تستثير التغير التطورى فى الكائنات الحية وتحفره. وقد تشمل تلك القوى البيئية كلاً من الظروف الطبيعية وتأثير أشكال الحياة الأخرى. وهكذا يتفاعل الكائن الحى مع بيئته، ويحاول أن يتكيف مع بيئته فى صراعه من أجل البقاء لكى يعيد إنتاج ذاته (يتكاثر). وتنطوى عملية تكاثر كافة الكائنات الحية على ظهور بعض صور التباين العشوائية. وفكرة العشوائية هذه ذات أهمية حاسمة بالنسبة لنظرية داروين، كما أنها ذات معنى دقيق معين. ويقول داروين إنه عندما نتأمل تلك "العشوائية" فى دنيا الكائنات الحية نجدها موجهة بمعنى محدود أشد التحديد: فهى لا تعنى إمكانية حدوث أى تغير يخطر على بالنا للكائن الحى نفسه. فلا يمكن لأى درجة من العشوائية أن تؤدى بأحد أنواع الطيور أن يطرأ عليه فجأة تغير وراثى يخلق لديه خياشيم، أو أن يكتسب البشر فجأة استعداداً لتكوين منقار. ومع ذلك صحيح القول بأن التغير العشوائى "عشوائى" بمعنى أن التغيرات التى تظهر تلقائياً بين أجيال الحيوانات المختلفة لا يمكن التنبؤ بها قبل حدوثها، لأنه لا يوجد استعداد داخلى للتغير فى اتجاه معين دون آخر من بين الاتجاهات الممكنة. وعلى ذلك لا يمكن أن نعتبر التغير مجرد "استجابة" للظروف البيئية أكثر من كونها تمثل ميلاً داخلياً معيناً للتغير فى اتجاه دون اتجاه آخر. ويفعل الانتخاب الطبيعى فعله عندما تحدث التغيرات العشوائية (المادية أساساً) فى اتجاه منائى للظروف البيئية. إذ تستطيع تلك الظروف أن تختار واحداً دون سواء من بين من تغيروا عشوائياً لكى يكتب له البقاء، لأن التغيرات التى حدثت لذلك الفرد المختار

تصادف أنها تعظم من قدرته على البقاء فى ظل تلك الظروف بالذات. وإذا تغيرت الظروف بالقدر الكافى على نحو ما قد يحدث بالفعل (كأن تصبح البيئة أكثر دفئاً أو أكثر برودة، وعندها يتطفل أفراد نوع معين على المنطقة التى يعيش فيها أفراد نوع آخر)، فإننا نجد - عندئذ - أن التغير الذى كان مفيداً أصبح مُهلكاً. ويشتعل الصراع من أجل البقاء - على امتداد فترات زمنية طويلة - لأن الكائنات الحية استطاعت أن تتطور إلى حد استغلال واستنفاد كل الفراغ الذى تتيحه البيئة.

ويمكن أن نستخدم هنا تشبيه داروين الذى يقول فيه: يمكن أن نتصور العالم كجذع شجرة طويل دُفَّت فيه عشرة آلاف إسفين فى كل مكان فيه بامتداد طوله. ونتصور أن كل إسفين من تلك الأسافين نوع من الأنواع الحية. فإذا ظهر نوع حى جديد فإنه يتعين عليه - لكى يكتب له البقاء - أن يحشر نفسه فى أى شق (فلق) فى جذع تلك الشجرة بين الأسافين الأخرى، ومن ثم لابد له لكى يفعل ذلك أن يقتلع إسفيناً ما من مكانه. وكل موضع على امتداد جذع الشجرة الطويل (العالم) يمثل بيئة تتوفر فيها العوامل الضرورية لوجود نوع من الأنواع الحية. ويعنى ذلك أن التنوع مضمون ومؤكد داخل آلية الانتخاب الطبيعى ذاتها. وعليه فإن كافة أشكال تنوع الحياة يمكن تفسيرها كمحصلة متنوعة لشكل أصلى كان موجوداً لدى الأجداد. وهكذا يمكن النظر إلى شجرة الحياة بوصفها أشبه ما تكون بشجرة، نمت وتطورت من شكل أساس أصلى بسيط، وتفرعت بعد أن كبرت متخذة فروعا تزداد تنوعا كلما امتدت إلى الخارج بعيداً عن الشجرة. ولكن ثمة شىء واحد ليس متضمناً فى هذا كله، مع أنه شىء ارتبط طويلاً بالفهم الشائع للداروينية: أن التطور لا ينطوى على ضرورة غائية. وتأسيساً على ذلك يمكن القول إن أيّاً من أشكال الحياة القائمة اليوم لم ينشأ نتيجة غاية معينة. بمعنى آخر إن نوع الوعى الذاتى الذى نضعه نحن البشر فى منزلة عالية لا يجب اعتباره بحال من الأحوال سمة متأصلة فى

----- (ت) -----

تطور الأنواع. ربما تكون الظروف المواتية للحياة قد توفرت في مكان ما من الأرض، ولكن ذلك لا يعنى ولا يترتب عليه القول بأن حياة "كحياتنا" قد وجدت هناك أو كان يمكن أن توجد.

وتعنى هذه الفكرة ضمناً أن من أبرز آثار نظرية داروين فى التطور التى تتضح فى أجلى صورة هو أهميتها الثقافية لحركة العلمانية التى كانت سمة مميزة للتغيرات الأوروبية على امتداد القرنين الماضيين. لهذا يتعين ألا نقلل من الجاذبية الاجتماعية والثقافية للنظرية. والدليل على صحة ذلك القول مثال **الداروينية الاجتماعية**. وربما كان الأمر الأهم من ذلك تأثير نظرية داروين فى التطور على المفكرين **البراجماتيين** مثل جون ديوى، وعلى بعض مجالات الفلسفة الحديثة (انظر Dennet ١٩٩٦). وقد سعى آخرون إما إلى استخدام النظرية التطورية أو نقدها. وهكذا عمد المفكر الليبرالى اليميني هايك Hayek إلى بلورة بعض التغيرات الاقتصادية اعتماداً على خطاب العمليات التطورية (Hayek ١٩٧٣) بما يبرر أن يكون التدخل الحكومى فى اقتصاديات السوق فى حده الأدنى. فى مقابل ذلك نجد المفكرين المتدينين الذين يحبذون نظرية الخلق فى تفسير الحياة قد هاجموا فكرة التطور ونادوا بإمكانية وجود علم تطورى بشرط أن يفسح داخله مجالاً للإيمان بالله. ويذهب أفراد هذا الفريق -المتدين- إلى أن الكائنات الحية هى الدليل على وجود خالق (مقدس). ولكن مثل هذا التوجه يفتقر إلى شواهد وأدلة مقنعة كما أنه يخلط - على نحو خطير - الاهتمامات الدينية والغائية بالاهتمامات العلمية (وهو أمر قد يتحفظ عليه تاريخ علم تحسين النسل). (PS) للمزيد انظر: Laszlo (١٩٨٧) و Gould (١٩٨٠) و Dewey (١٩٩٧) و Dennett (١٩٩٦) و Dawkins (١٩٩١) و Darwin (١٩٧٦).

Binary Opposition

التعارض الثنائي

مفهوم من مفاهيم البنيوية يستمد جنوره من علم اللغة عند سوسير، وكذلك عند رادكليف براون^(*) (١٩٧٧) في فكره الخاص بالأنثروبولوجيا الثقافية، وذلك في تفسيرهما لكيفية نشوء معنى لمصطلح أو علامة من خلال الإشارة إلى مصطلح آخر يكون بينهما تعارض متبادل. وقد ينظر إلى هذين المصطلحين - المتعارضين - على أنهما يصفان معاً نظاماً كاملاً، وذلك من خلال الإشارة إلى حالتين أساسيتين يمكن أن توجد فيهما العناصر التي تشكل هذا النظام (مثال ذلك مصطلحات: الثقافة/ الطبيعية، الظلام/ النور، الذكر/ الأنثى، الميلاد/ الوفاة). ولا يمكن لأى من طرفى هذا التعارض الثنائي أن يكون له معنى إلا بارتباطه بالطرف الآخر. وكل جانب يحمل معنى غياب الآخر المضاد أو المعاكس له. لذلك قد يظهر مصطلح ما فى أكثر من شكل من أشكال التعارض الثنائي، حيث يتم تحويل معناه ليتفق مع كل شكل من أشكال هذا التعارض (وعلى ذلك، فإن مصطلح الموت/ أو الوفاة قد يفهم على أنه حادثة تدل على "عدم الميلاد" أو على أنه حالة تشبه حالة "عدم الحياة"). وهكذا تقوم التعارضات الثنائية بتشكيل بنية الوعى بالعالم الطبيعى والعالم الاجتماعى وتفسير كل منهما.

وفى أى نظام للعلامات، قد ينظر إلى بعض التعارضات الثنائية على أن بينها علاقات متبادلة تؤثر بها على بعضها البعض. وقد يكون أحد التعارضات الثنائية

(*) رادكليف براون Radcliffe Brown (١٨٨١-١٩٥٥) أنثروبولوجى إنجليزى شهير، اشتغل بتدريس الأنثروبولوجيا والإشراف على الدراسات الأنثروبولوجية فى عدة جامعات داخل إنجلترا وخارجها، ومن بينها جامعة الإسكندرية. ويعد أحد مؤسسى المدرسة الوظيفية وإن لم تتخذ كتاباته شكل النظرية المدرسة فى هذا الشأن. ومن مؤلفاته: ١- سكان جزر الأندمان وصدرت الطبعة الأولى عام ١٩٢٢. ٢- التنظيم الاجتماعى لبعض القبائل الأسترالية ١٩٣١. ٣- البناء والوظيفة فى المجتمع البدائى. ٤- نظام القرابة والزواج عند النوير. (المراجع)

عرضة للتحويل إلى تعارض ثنائى آخر، مثيراً بذلك المعانى التى تحملها كافة المصطلحات ذات الصلة به. لذلك نجد - فى نطاق الثقافات الغربية على سبيل المثال - أن التعارض بين الميلاد والوفاة قد يتم تحويله إلى تعارض بين الأبيض والأسود (ويظهر ذلك، مثلاً، فى الثياب البيضاء المخصصة للطفل الوليد عند تعميده وما يقابلها من سواد يحيط بحالة الموت). وإذا نُظر إلى هذه التعارضات بصورة مختلفة، فإن ما يمثله اللون الأبيض بالنسبة للون الأسود، هو نفس ما يمثله الميلاد بالنسبة للموت. يضاف إلى ذلك، أن التعارض الثنائى قد يحتوى على نوع من التقييم الضمنى، حيث يتم الربط - مثلاً - بين الميلاد واللون الأبيض وما هو طيب صالح، والربط بين الموت واللون الأسود وما هو شرير فاسد. ويزودنا تحليل أمثال هذه المجموعات من التعارضات برؤية ثاقبة لكيفية تأثير الإيديولوجيا. تأمل - مثلاً - هذه المجموعة التالية من التعارضات: الذكر/ والأنثى؛ العام/ والخاص؛ الثقافة/ والطبيعة؛ العقل/ والعاطفة. فبناءً على هذه التعارضات يمكن للإيديولوجيا أن تؤثر بشكل فعال إلى حد أن تصير أمثال هذه التعارضات الثنائية أموراً مسلمة يتقبلها الناس بلا اعتراض، وذلك لكونها تبدو وكأنها تعكس صورة العالم أكثر من قيامها ببنائه. ويقتضى نقد الإيديولوجيا الشرح التحليلي لمجموعة من التعارضات الثنائية باعتبار أنها تمثل شرحاً، وانتقاءً وتفضيلاً قائماً على أساس الخصوصية الثقافية لمجموعة من العناصر الموجودة فى عالم تلك التعارضات.

إن عملية تنظير التعارضات الثنائية دلالة ضمنية أبعد مما سبق ذكره، حيث تركز اهتمامها على الوضع الخاص بالفئات الغامضة أو ذات المعانى الملتبسة. فإلى مصطلح يحمل كلاً من المعانى الموجودة فى جانبي التعارض الثنائى معاً، يعتبر مصطلحاً مزدوج المعنى، ولا يعد مصطلحاً خلافاً غير متفق عليه. لذلك يذهب الأنثروبولوجيون إلى أن الأهمية التى تحظى بها الأجزاء التى يقصها الناس من

شعورهم وأظافرهم في مجال السحر والقواعد المتبعة لدى الفئات الشعبية، إنما تستند إلى ما لهذه الأجزاء من وضع ملتبس مزدوج المعنى. فهذه الأجزاء المقصودة تعد جزءاً من الجسد، لأنها تنمو منطلقة منه، ولكنها - في نفس الوقت - لا تشعر بأى إحساس، كما أنه من السهل قطعها وفصلها عن الجسد دون إيلاام أو أذى للجسد. وينفس الشكل نجد أن شعائر الانتقال أو العبور تشكل علامة لمراحل ملتبسة في تطور الفرد من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ. لذلك، فإن السحر، والطقوس، والمقدس، هي أمور ينظر إليها على أنها ذات صلة وثيقة بالفئات الغامضة ذات المعانى الملتبسة. (AE)

Pluralism

التعددية

نتيجة لإعلاء شأن التغاير على التجانس، والاختلاف على التماثل، وتوزيع القوة السياسية على تركيزها، أصبحت التعددية تؤثر على النظرية الاجتماعية بأساليب عدة تناسب كل مجال. وقد تتخذ التعددية شكل الدعوى الإمبريقية (الواقعية) أو الميتافيزيقية (التي تذهب إلى أن الواقع، أو الثقافة، أو الحقيقة، أو القيم أو الأعراف هي أمور ذات طبيعة تعددية يستحيل تغييرها) أو قد تتخذ شكل البرنامج المعيارى (الذى يعتبر التنوع، والتحول، والانفتاح الفكرى قيماً يُحتكم إليها) لكن الغالب على دعوات التعددية أن تتخذ شكلاً يتداخل فيه هذان الشكلان المذكوران.

ونلاحظ أن الانشغال بقضية التسامح مع المختلف وتقبله كانت ولا تزال من القوى المحركة للتفكير الليبرالى ابتداءً من ميلتون ولوك، ومروراً بكانط وميل، وانتهاءً ببرلن Berlin ورولز Rawls - وسواء أكان هذا الاهتمام قائماً على أساس الشك فى تفوق أى تصور معين عن الحياة الطيبة على ما سواه من التصورات (مما يترتب عليه الشك فى أحقية الدولة فى فرض أحد هذه التصورات) أم كان قائماً على أساس

افتراض أن الفرد المستقل قادر على اختيار أهدافه الخاصة بنفسه، وعلى تحمل المسؤولية عن أفعاله. وهنا تظهر أشكال متعددة من الشكوك والأسئلة العvisية على الحل، من قبيل: هل من الممكن، أو المرغوب فيه، أو المقدر عليه بالنسبة للدولة أن تلزم الحياد بين ما يتبعه الناس من المثل العليا المتعارضة؟ وهل يجوز أن تمنح الحق فى حرية التعبير لهؤلاء الذين ينكرون هذا الحق على الآخرين؟ وهل تسمح الديمقراطية (النيابية) - حقاً - للمواطنين أن يعبروا عن كل ما لديهم من ميول ونزعات مختلفة وأن يسعوا فى تحقيقها؟ وكيف تفسر النزعة التحررية إمكانية انبثاق المثل الخاصة بمفهوم الخير من بعض الأشكال الخاصة من التنظيمات الاجتماعية (بدلاً من تصور أسبقية هذه المثل فى الوجود على هذه التنظيمات)، أو كيف تعزز النزعة التحررية هذا الرأى؟ أضف إلى ذلك ما يتصل بهذه القضية من الأسئلة. ومن الأمور التى لها دلالتها، أن التفكير التعددى المعاصر يتجلى بقوة فى أعمال هؤلاء المفكرين ذوى النزعة الجماعية الاشتراكية (أمثال تشارلز تايلور C. Taylor ومايكل ولترز M. Waltzer) وفى كتابات يورجن هابرماس عن أخلاقيات الخطاب، حيث يرفض هؤلاء المفكرون ما فى النزعة الليبرالية التقليدية من مفهوم "الفردية الذرية" (*) وذلك لصالح الرأى الذى يقول بأن الفرد يتصف بطبيعة اجتماعية فى جوهره وحقيقته.

ومما يعد فى علم السياسة من صور التوسع فى التعددية، تلك الصيغة التعددية (المشهورة منذ خمسينيات القرن العشرين) ذات الارتباط الكبير بالتراث الأمريكى لنظرية الديمقراطية "المتعددة الأصول" Polyarchic، وأبرز من مثلها: تالكوت بارسونز وروبرت دال R. Dahl. وتربط تلك النظرية الممارسة الديمقراطية فى الغرب بالانتشار

(*) الفردية (أو الفردانية) الذرية : Atomistic Individualism نزعة ليبرالية تُغالى فى إعلاء شأن الفرد على كافة الاعتبارات الأخرى، وترى أن مصالحه مقدمة على مصالح الجماعة، وتعارض أى تدخل من الدولة أو المجتمع يحد من المبادرة الفردية أو ينظمها أو يسيطر عليها. (الترجم)

الواسع للقوة السياسية والسلطة فى طائفة من منابر التعبير والمؤسسات التى تتمتع بقدر من الاستقلال. وتعد هذه الصيغة التعددية واحدة من أساليب مواجهة ما تتصف به الدولة من قدرة على الطغيان: إذ تضمن أن يتاح لجماعات المصالح المتنافسة وغيرها من الجماعات دور واضح فى العملية السياسية يقوم على كبح جماح الدولة وإحداث التوازن. وكما حدث للمذهب الليبرالى التقليدى قبل ذلك، فقد تعرضت هذه الصيغة للرفض من قبل الماركسيين وغيرهم من المعارضين، باعتبارها تمثل دفاعاً عن المظالم التى تمثل جزءاً لا يتجزأ من بنية المجتمعات الرأسمالية الأخذة بالنزعة الليبرالية: فهى أشبه بستار دخانى، يحجب رؤية التركيز النمطى للقوة السياسية فى أيدي عدد من الصفوة الذين لا يخضعون للمساءلة والحساب.

وقد كان فيتجنشتين فى إعادته صياغة الفلسفة فى ضوء استكشاف أشكال الحياة الظاهرة والمعاشة والمتمثلة فى ممارستنا للغة الحياة اليومية، سباقاً لما ظهر بعد ذلك من إلحاح متزايد جداً على أن الطرق اللغوية المختلفة، وأساليب التفكير وأساليب الخطاب غير قابلة للقياس بنفس الوحدات لاختلاف طبائعها. ثم بلغ الأمر ذروته فى الاتجاه الشكى الذى اتخذته نزعة ما بعد البنيوية من جميع المذاهب والنزعات التى تلوذ بالأصول. كما ذهب فيتجنشتين إلى أن السياق الاجتماعى التاريخى وأساطير التفسير الكبرى للتاريخ، والرشد، والحقيقة، إنما هى عناصر متعالية.

ويرفض ليوتار، خاصة، أى محاولة لاختزال التعددية التى تتمتع بها "أساليب التعبير" والأنواع الأدبية" إلى أى وصف بدهى يستمد أصالته من ذاته (سواء كان ذلك فى مجال الكتابة التاريخية، أو فى مجال العلم، أو فى مجال نظريات العدالة السياسية). كما يكشف أن المعرفة الذرائعية المتمثلة فى خطاب التنوير تستخدم - ببراعة - لونا من ألوان النفوذ الاجتماعى "الإرهابى" الإقصائى الذى لا أساس له من الصحة. وتجد التعددية التى ينادى بها ليوتار تعبيرها الأخلاقى فى الدعوة إلى "أداء الشهادة" لصالح تلك الأنشطة ذات الطابع المتغيرة، التى حرمتها الحداثة من حق التعبير عن نفسها.

وبالمثل، فإن التوجه الجديد ما بعد الماركسي للنظرية الاشتراكية، إنما يقوم على أساس دافع تعددي، وهو التوجه الذي يدعو إليه بعض المفكرين، مثل لاكلو Laclau وموف Mouffe، الذين يرغبون في التخلي عما تدعيه النظرية الاشتراكية من جوانب فكرية ذات نزعة ماهيوية أو جوهرية، وضعية، وتلوذ بالأصول الأولى، وذلك من أجل تحقيق لون من الديمقراطية المباشرة المتطرفة المتجذرة في طبيعة أطراف العملية السياسية، وهي طبيعة تتسم بالتقلب، والمرونة، لكنها متماسكة لها قوامها وشكلها. كما أن "سياسة الاختلاف" التي تنشأ في ثنايا الكلام عن الثالوث المقدس لنزعة ما بعد الحداثة، وهو ثالوث: العرق والطبقة والنوع الاجتماعي؛ هذه السياسة إنما تجسد التأكيد الراهن على التعددية الثقافية. فهل يعني ذلك الإقرار بالنسبية الثقافية، وبوجود نوع من التحول من موقف التردد إلى موقف الالتزام بنظرة عالمية وحيدة إلى الاتجاه الفكري الأكثر إشكالاً الذي يسمح بكل شيء ويجيز أي شيء، (وربما اعتبره البعض اتجاهاً يحمل في ذاته شواهد بطلانه)، وهو الاتجاه الذي يعامل جميع وجهات النظر المذكورة على أنها متساوية تماماً؛ وإن من صفات التعددية منذ عصر الليبرالية التقليدية أنها تميل إلى التحول التدريجي من النزعة الشكية الليبرالية أو رفض العصمة من الخطأ إلى الرفض الصريح لإصدار الأحكام على وجهات النظر المختلفة والأعراف المتعددة. (GC) للمزيد انظر: Dahl (١٩٥٦) و Lyotard (١٩٨٨) و Laclau and Mouffe (١٩٨٥) و Young (١٩٩٠) و Walzer (١٩٨٥).

Prejudice

التعصب

(١) اتجاه عدواني وسلبى تجاه فئة اجتماعية معينة، مثلاً. وعلى ذلك، فمن الممكن وصف النزعة العرقية بأنها شكل من أشكال التعصب، وذلك بمقدار ما في هذه النزعة من ميل واستعداد مسبق للحكم على مجموعة عرقية بعينها بأنها في منزلة أدنى من

باقي فئات المجتمع (انظر مادة: صورة نمطية). وقد ينظر إلى بعض الاتجاهات الأخرى على أنها تجسيد للتعصب. ومن أمثلتها الاتجاهات من النساء. وحول ذلك طرحت للنقاش مجموعة من القضايا كذلك المتصلة بكيفية تكوين التعصب وطريقة عمله، والقضية المتصلة بعلاقة التعصب بكل من أنساق التصور أو التمثيل (والتي عن طريقها يتم نشر الأفكار النمطية الثابتة من خلال وسائل الاتصال) ومسائل القوة السياسية.

(٢) مصطلح يُستعمل في مجال التأويل عند جادامر. ففي رأى جادامر أن "التعصب" (*) شرط مسبق لفعل التأويل، وأنه يتكون من الافتراضات المسلم بها التي يحشد لها كل من يقوم بالتأويل ويسخرها في هذا العمل بوصفها شرطاً مسبقاً لا بد منه للوصول إلى فهم النص. (PS) للمزيد انظر: Fanon (١٩٨٩) وBanton (١٩٧٧) Said (١٩٧٨) وMiles (١٩٨٩) وHartman and Husband (١٩٧٤).

التعليم

Education

العمليات التي من خلالها يتعلم الفرد ثقافة مجتمعه والمعرفة المتاحة فيه. ومن هنا يعد التعليم جزءاً من عملية شاملة هي التنشئة الاجتماعية. ويمكن فهم "التعليم" بوصفه عمليات التنشئة الاجتماعية المنظمة على نحو رسمي واضح، وخاصة تلك التي تنظمها الدولة.

ويمكن القول إن المناقشات التي دارت حول التعليم تتمحور حول موضوعين رئيسيين اثنين. الأول: الاهتمام الفلسفي بطبيعة التعليم وأهدافه، وسبل تحسين التعليم

(*) بمعنى الانحياز . (المراجع)

وتطويره. ويمكن أن نلتزم إرهابات المناقشات المعاصرة في كتاب الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (١٩٦٤) في القرن السابع عشر، وفي القرن الثامن عشر في مؤلف "إميل" لجان جاك روسو^(*) (١٩٩١). ولو أن المعالجة الفلسفية للتعليم ترجع - في التراث الغربي - إلى "جمهورية" أفلاطون (١٩٩٨) على الأقل. والملاحظ أن الاتجاهات المختلفة في تناول التعليم تعكس بوضوح اختلاف الفرضيات التي تنطلق منها، ليس فقط فيما يتعلق بالهدف من التعليم، وإنما كذلك - وبقد أكبر من الأهمية - تلك التي تتصل بالطبيعة الإنسانية وبالطفولة. وهكذا نرى مثلاً أن جون لوك يعتقد أن الطفل "صفحة بيضاء"، تكتب عليها الخبرات التي يتعرض لها في حياته.

ولذلك يلعب التعليم الجيد دوراً حاسماً في ضمان تعرض الطفل للخبرات الملائمة، ومن ثم للمعلومات السليمة. كما نجد أن جون لوك يعارض العقوبات البدنية بقوة.

أما روسو فيؤمن بأن طبيعة الطفل خيرة من حيث الأساس والجوهر (متجاهلاً بذلك العقيدة المسيحية حول الخطيئة الأولى). ولكن الثقافة تفسد تلك الطبيعة الخيرة، ومن هنا يأتي دور التعليم في تنمية ذلك الخير وازدهاره على النحو الأمثل، وذلك عن طريق توفير بيئة للطفل تتيح له أن يعلم نفسه بنفسه.

ومع ازدياد تدخل الدولة في التعليم خلال القرن التاسع عشر ونمو دولة الرعاية في القرن العشرين بدأ التفكير في التعليم يرتبط بقوة بقضايا السياسة الاجتماعية. ويمكن أن نضع أيدينا - في هذا الصدد - على قضيتين محوريتين أساسيتين. هناك أولاً تساؤلات عن دور التعليم في تنظيم المجتمع العادل والمنصف. وتركز الجدل في هذه الناحية على دور التعليم في خلق وتدعيم نظام الحكم لأهل الكفاءة (نظام الجدارة). ويتعين على النظام التعليمي أن يتيح للأطفال اكتشاف مواهبهم وتنميتها،

(*) انظر تعريفاً موجزاً به في هامش مادة: الحالة الطبيعية. (المراجع)

بصرف النظر عن خلفياتهم الثقافية أو الاقتصادية. ويمكن النظر إلى العلاقة بين العدالة والتعليم في ضوء الصلات الوثيقة - التي أكدها الفيلسوف البراجماتي الأمريكي جون ديوي^(*) - بين التعليم والديمقراطية (Dewey ١٩٧٤).

القضية الأخرى تدور حول النظر إلى التعليم بوصفه منبع التكامل الاجتماعي ودعمته. ففي بدايات القرن العشرين طرحت مسألة التكامل الاجتماعي بتوسع في ضوء الفروق بين الطبقات، ومن ثم مشكلة إيجاد ثقافة يشترك فيها الجميع، أو خلق أشكال من التعليم تلائم الطبقات المختلفة في المجتمع. ومؤخراً في خلال سبعينيات القرن الماضي استطاع بانتوك G.H. Bantock (١٩٥٧) أن يؤكد التمييز بين تعليم يقوم على الثقافة الرفيعة موجه للصفوة، ومناهج تعليمية شعبية أو جماهيرية موجهة للطبقات العاملة. وتنعكس مثل هذه الاتجاهات في تناول التعليم - في العادة - تمييزاً بين العمل العقلي والعمل البدني، مفترضة سلفاً أن التعليم "الأكاديمي" القائم على الثقافة الرفيعة هو في جوهره تعليم قيم، ومن شأنه أن يخدم طبقة الصفوة الحاكمة والطبقة الوسطى. أما التعليم ذو التوجه العملي أو المهني فيصمم وفقاً لاحتياجات الطبقات العاملة. وقد اكتسبت قضية التكامل الاجتماعي مؤخراً أهمية كبرى - ولكن بشكل مختلف - في مواجهة طبيعة المجتمعات المعاصرة التي تزداد فيها التعددية الثقافية والاجتماعية. من هنا يمكن أن نعد سعي الحكومات إلى وضع بعض "المناهج التعليمية الأساسية" وفرض تدريسها على المدارس بمثابة استجابة لظاهرة التعددية هذه، إلى جانب الرغبة في تعليم مهارات وتوجهات المواطنة المسئولة لأطفال المدارس.

(*) ديوي، جون Dewey, John (١٨٥٩-١٩٥٢) فيلسوف وعالم نفس ومرب أمريكي. يعتبر أبرز ممثلي الحركة التقدمية في علم التربية بالولايات المتحدة الأمريكية. طور الفلسفة البراغماتية، وأنشأ مذهباً فلسفياً جديداً يُعرف بـ "الذرائعية" من مؤلفاته: "الدراسة والمجتمع" (عام ١٨٩٩)، و "الخبرة والطبيعة" (عام ١٩٢٥). (المراجع)

وإذا كان أحد جانبي المناقشات الدائرة حول التعليم يهتم بما ينبغي أن يكون، فإن الجانب الآخر يركز على الوضع الفعلي الراهن للتعليم. ولاشك أن الجانبين يكمل أحدهما الآخر. فأي سياسة اجتماعية لا يمكن أن تحدث تأثيراً فعلياً إلا إذا كانت على بيئة من أحوال التعليم بالفعل، وربما - وهو الأمر الحاسم - لماذا أخفق في تحديد المطلوب منه. ومن هنا توفر تاريخ طويل من الدراسات السوسولوجية عن التعليم، ركز بعضها الجانب الأكبر من اهتمامه على سبب إهمال العملية التعليمية لبعض الجماعات والأفراد. ويمكن أن نضع أيدينا على ثلاثة اتجاهات كبرى في تفسير النجاح أو الإخفاق في التحصيل الدراسي.

هناك في البداية الاتجاه الحتمي الذي يفترض سلفاً أن التحصيل الدراسي للفرد يتوقف على بعض العوامل الخارجية، كظروفه البيولوجية أو خلفيته الاجتماعية. ومع أننا لا نستطيع أن نتجاهل العوامل البيولوجية، وخاصة مستويات الذكاء أو الموهبة، فإن الحتمية المطلقة التي ترى أن التعليم لا يمكن أن يؤثر على التحصيل الدراسي تفتقر إلى أي شواهد إمبريقية تؤيدها، فوق أنها محدودة الأهمية بالنسبة للسياسة الاجتماعية. ولو أمعنا النظر أكثر سوف نتبين أن الحتمية الاجتماعية تثير الشكوك حول فاعلية نظام التعليم الرسمي بالمقارنة بعمليات التنشئة الاجتماعية الأخرى (Halsey et al. ١٩٨٠).

هناك ثانياً كم هائل من الدراسات النقدية التي تتناول دور التعليم كعملية إيديولوجية. إذ يُعتقد أن التعليم يضفي مشروعية زائفة على صور اللامساواة الموجودة في المجتمع الطبقي. ويصف لوى التوسير (١٩٧١) التعليم بأنه جزء من أجهزة الدولة الإيديولوجية، متبنياً بذلك وجهات نظر بعض الماركسيين السابقين، خاصة أنطونيو جرامشي. ومع أن مفهوم الإيديولوجيا في هذا السياق يرتبط ارتباطاً أساسياً بالاتجاهات الماركسية في تناول التعليم، فإن القضية الأشمل يمكن فهمها في ضوء

الاعتراف بوجود فرق بين الكلام البلاغى عن التعليم وبين واقع التعليم، وهو ما يعنى وجود فرق بين ما يتطلع التعليم رسمياً إلى تحقيقه، وما يحققه على أرض الواقع بالفعل. ويمكن أن نجد توصيفاً أكثر بلاغة لهذا الفرق فى فكرة "المنهج الدراسى الكامن" (أو غير المعلن) (انظر: Bowles and Gintis ١٩٧٦)) وعلى حين يمكن تعريف المنهج المدرسى "الظاهر" (أو المعلن) بأنه الموضوع المحدد رسمياً وعلناً الذى يتعين على التلاميذ أن يدرسوه والذى يتوقع منهم أن يجيدوه تماماً، فإن المنهج الدراسى "الكامن" (أو غير المعلن) يشير إلى سلسلة كاملة من المهارات والقيم الاجتماعية والسمات الشخصية التى تستهدف تكامل الطفل مع مجتمعه. والأمر المهم فى هذا أن تلك السمات - التى يستهدف "المنهج الدراسى غير المعلن" غرسها - لا يمكن أن تخلق مجتمعاً عادلاً ومتجانساً، بل إن التلاميذ يتعلمون أن يتقبلوا وضعهم داخل النظام الطبقي القائم، وأن يتشربوا الكفاءات والاتجاهات الاجتماعية اللازمة لأوضاعهم المهنية المستقبلية، كعمال صناعيين مثلاً.

كذلك استخدم هذا الاتجاه فى تناول التعليم فى الدراسة النقدية لدور التعليم فى إعادة إنتاج الفروق الراجعة إلى النوع الاجتماعى (Stanworth ١٩٨٢) وإلى العرق (Anyon ١٩٨٠). وقد قيل منذ زمن مضى أنه يكون للمدرسين - بشكل غير متعمد أحياناً - توقعات لأداء التلاميذ تختلف بين الذكور والإناث، وأنهم يقيمون جهدهم فى الدرس وفقاً لمعايير متباينة (تبنى صوراً نمطية للنوع الاجتماعى). وبالمثل يمكن القول بأن المناهج الدراسية التى تستهدف تحقيق التكامل على مستوى الوطن، إنما تعمل فى الواقع على دعم قيم طبقة أو جماعة عرقية مهيمنة. وهناك شواهد واضحة على ذلك من تدريس التاريخ، ففى الوقت الذى يهْمش فيه تاريخ الجماعات العرقية الأقلية أو حتى يستبعد كلية أحياناً، فإن ذلك يتم - فى المملكة المتحدة على سبيل المثال - لصالح الاهتمام بتدريس التاريخ الذى مازال يحتفى بقيم وإنجازات الماضى الإمبراطورى.

(ت) -----

ويزودنا مفهومها بورديو عن رأس المال البشرى والطابع الاجتماعى الثقافى (الهابيتوس) بأدوات تفسيرية قوية لتحليل تلك الظواهر (Bourdieu ١٩٧٧). إذ يعتقد أن المدارس تدعم وتغذى شكلاً معيناً من أشكال الكفاءة الاجتماعية والسلوك الاجتماعى. فالتلاميذ القادمون من بيئات معينة (تكون عادة أكثر تميزاً من الناحية الاقتصادية) سيكونون أكثر ألفة بتوقعات المدرسة منهم، وذلك لأن هناك نوعاً من التناغم بين التوقعات الثقافية والأسرية من ناحية وتوقعات المدرسة من ناحية أخرى، ومن ثم يكون من السهل عليهم التكيف مع البيئة المدرسية والتقدم فيها. أما التلاميذ الذين يفتقرون إلى رأس المال الثقافى الذى يثمن الاتجاهات الإيجابية إزاء التعليم الأكاديمى، ويفتقرون كذلك إلى تقبل السلطة، وإلى الكفاءة اللغوية والوعى بثقافة الصفوة فمن المؤكد أنهم سيصبحون فى مأزق وسيكون عليهم أن يناضلوا. ومن هنا فإن المنهج الدراسى المشترك الذى يفرض على كافة التلاميذ على أساس المساواة فى الالتحاق بالتعليم، سوف يؤدى إلى إعادة إنتاج اللامساواة القائمة، وذلك لأن التلاميذ الذين لا يملكون رأس المال الثقافى الملائم سوف يعجزون عن الاستفادة من الفرصة التى أتاحت لهم.

ويقرر برنستين (١٩٦٦، ١٩٧٧) وجود نوع مشابه من التوتر بين ثقافة التلاميذ أبناء الطبقة العاملة وثقافة المدرسة ينبج عن الاستخدام اللغوى. ويقول إن هناك طريقتين مختلفتين لاستخدام اللغة الطبيعية. فالقول الذى يقوم على "شفرات المعنى الخاصة" يعتمد على السياق اعتماداً فائقاً. ولذلك يعتمد فهم معنى القول على معرفة إرث بديهى - من القيم والأفكار - متأصل لدى أفراد الجماعة. على عكس ذلك نجد أن القول الذى يقوم على "شفرات المعنى العامة" يجتهد أن يستقل عن أى سياق خاص عند فهم وتحليل المعانى والفروض والقيم التى يقوم عليها. ويقال على وجه الإجمال إن أسر الطبقة العاملة لا تشجع تعلم اللغة إلا على أساس شفرات المعنى الخاصة، بينما

الواضح أن شغرات المعنى العامة هي التي تستخدم في المدارس، ومن هنا يصبح تلاميذ أسر الطبقة العاملة في وضع أقل تميزاً .

ويمكن توجيه النقد إلى اتجاهات تناول التعليم في ضوء الإيديولوجيا على اعتبار أنها تميل إلى النظر إلى التلميذ كمتلق سلبي للتعليم، وليس بوصفه فاعلاً يتعامل تعاملًا إيجابياً مع التعليم، وأن بوسعه أن يرفض أحياناً -إيجابية- بعض القيم والإمكانيات التي يتيحها له. وهكذا يتبلور اتجاه ثالث في تناول التعليم - يقوم على وجود "إرادة طوعية" - يركز على هذا التعامل الإيجابي مع العملية التعليمية. وهكذا يذهب جيرو - (1983) Giroux على سبيل المثال- إلى أن المدارس مؤسسات مستقلة استقلالاً نسبياً. وفيها تفتح أمام كل من المعلمين والتلاميذ آفاق للتعامل النقدي مع المنهج الدراسي، يستطيع كل طرف أن يتعرف على القيم الخفية (غير المعلنة) ويعرف كيف يصمت عن بعض الأوضاع الثقافية أو السياسية. وذهب بول ويليس (١٩٧٧) إلى أن تلاميذ أسر الطبقة العاملة قد يرفضون صراحة بعض قيم الطبقة الوسطى التي يمثلها معلموهم. فالقضية هنا ليست أن بعض التلاميذ يفتقر إلى رأس المال الثقافي الضروري أو المهارات اللغوية اللازمة لكي ينجح في التحصيل المدرسي، وإنما هي مسألة قرار مستقل يتخذه التلميذ بأن يظل داخل ثقافة الطبقة العاملة لأسرته (وما تتيحه من مهن)، وألا يتطلع إلى مهن الطبقة الوسطى التي تعدّه بها مدرسته. (AE) للمزيد انظر: Robbins (٢٠٠٠) Moore (٢٠٠٤) و Illich (١٩٧١).

Interaction

التفاعل

في التفاعل، تصدر أفعال البشر كاستجابة لأفعال الآخرين، كما تصدر تحسباً لهذه الأفعال أو توقعاً لها. والتفاعل أمر له أهميته، لأنه يقال لولا التفاعل ما أمكن

إضفاء المعنى على الأحداث والأوضاع الاجتماعية، وما أمكن تركيب بنية الواقع الاجتماعي نفسه (برجر ولوكمان ١٩٦٦)، وما أمكن تشكيل الهوية الشخصية لكل فرد (ميد ١٩٣٤). (انظر كذلك: المادة التالية). (AE)

Symbolic Interactionism

التفاعلية الرمزية

تمثل التفاعلية الرمزية (انظر مادة: التفاعل) في نطاق علم الاجتماع إطاراً نظرياً يركز على العلاقات القائمة بين الفاعلين أى الأفراد الإنسانيين. معنى هذا أن التفاعلية الرمزية تهتم بدراسة الوحدات الاجتماعية "الصغرى" (الميكرو) أكثر من اهتمامها بتحليل الوحدات الكبرى (الماكرو) داخل البناء الاجتماعي، وهو التحليل الذي تلمسه في الماركسية أو في النزعة الوظيفية. الأمر المهم هنا أن التفاعلية الرمزية معنية بالطريقة التي يتبعها الأفراد الاجتماعيون القادرون في تشكيل عالمهم الاجتماعي الذي يعيشون فيه، و في فهم حقيقته، وتعتمد التفسيرات التي تقدمها بحوث التفاعلية الرمزية عادة على التسجيل التفصيلي للحياة اليومية، الذي يتم عن طريق الملاحظة بالمشاركة أو الملاحظة غير المشاركة. وقد تم تطوير التفاعلية الرمزية في جامعة شيكاغو، في أوائل القرن العشرين، بمشاركة أساسية من الفيلسوف البراجماتي جورج هربرت ميد. أما المصطلح نفسه فقد صاغه هربرت بلومر (*) في سنة ١٩٣٧،

(*) بلومر، هربرت Blumer, Herbert (١٩٠٠-١٩٨٦) درس بلومر في جامعة شيكاغو، وتولى تدريس المواد التي كان يقوم بتدريسها جورج هربرت ميد، بعد وفاة الأخير في أوائل الثلاثينيات. وفي عام ١٩٣٧، وفي معرض كتابته لمقال مسحي حول طبيعة علم النفس الاجتماعي نشر في كتاب "الإنسان والمجتمع" صك بلومر مصطلح التفاعلية الرمزية، ومن هنا اعتبر بمثابة مؤسس هذا الاتجاه في علم الاجتماع. وقد تولى فيما بعد أول كرسي لأستاذية علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا - بركلي، ومن خلاله أثر في أجيال متعاقبة من علماء الاجتماع التفاعليين الرمزيين، في ذات الوقت الذي شجع فيه تعددية الاتجاهات في =

وذلك بالرغم من أن التفاعلية الرمزية لم تصبح اتجاهًا فكريًا معترفًا به على نطاق واسع إلا في أواخر ستينيات وفي سبعينيات القرن العشرين.

فقد ذهب جورج هيربرت ميد (١٩٣٤) إلى أن الذات أو الأنا، أو هويتنا الشخصية ووعينا بأنفسنا، ليس لها وجود مستقل عن علاقاتنا الاجتماعية بالآخرين. فهي تتكون وتتغير باستمرار نتيجة أفعالنا تجاه الآخرين، واستجاباتهم لأفعالنا، وتوقعاتنا لتلك الاستجابات (أى من خلال تفاعلنا الاجتماعى مع الآخرين). ويقارن ميد بين الاتصال بين أفراد البشر والاتصال بين الكائنات غير الإنسانية. ففي الاتصال بين الأحياء غير الإنسانية، يستجيب الحيوان لأنماط السلوك (أو الإيماءات) الصادرة من فرد غيره، عن طريق تحويله لإيماءاته الخاصة به. أما ما يتميز به الاتصال الإنسانى - فى نظر ميد - فيتمثل فى أن الفرد من البشر لا يقتصر على مجرد الاستجابة للإيماء، وإنما يستجيب كذلك للعلاقة القائمة بين هذه الإيماءة وذلك الباعث أو الحادثة التى دفعت الطرف الآخر أو حفزته إلى القيام بتلك الإيماءة. والأهم من كل شئ، أن الفرد من بنى الإنسان يتصرف هذا التصرف من موقع الفاعل الأصلي. فالفرد يحاول - فعلاً - أن يفهم لماذا يتصرف غيره بالشكل الذى يتصرف به. وهكذا تصير الإيماءة ذات طابع

= واحد من أهم أقسام الاجتماع فى أمريكا الشمالية. وقد شغل بلومر عددًا من المناصب الهامة، بما فى ذلك رئاسة الاتحاد الأمريكى لعلم الاجتماع، وجمعية دراسة المشكلات الاجتماعية. وكان اهتمامه الملح هو أن يصبح مجال علم الاجتماع هو الدراسة الواقعية لحياة الجماعات. وشرح موقفه فى مؤلفه الرئيسى المعنون "التفاعلية الرمزية"، الصادر عام ١٩٦٩. وقد رفض بلومر ميل علماء الاجتماع إلى تحليل ظواهر لم يقوموا بملاحظتها ملاحظة مباشرة، وكان يأتف من النظريات الكبرى وبخاصة الجردة، ودعا بدلاً من ذلك إلى منهجية تستكشف وتتفحص الخبرات الاجتماعية الثرية المتنوعة، كما يحياها أصحابها. ذلك أن هذه سوف تقضى إلى نظريات موثقة تستند مباشرة إلى البيانات الإمبريقية، كما أن التحقق من أهمية هذه النظريات ينبغى أن يتم من خلال العودة المستمرة إلى الشواهد. تركز اهتمام بلومر بموضوعات الاتصال الجماهيرى، والموضة، والسلوك الجمعى، والعلاقات الصناعية، والعلاقات العرقية، وبحوث تاريخ الحياة. وقد تم تقييم أعماله فى عدد من مجلة "التفاعل الرمزى"، الذى صدر عام ١٩٨٨، ونشر بعد وفاته بفترة قصيرة. (المراجع)

رمزى، ومن ثم تصبح ذات معنى، وخاصة عندما يكون المرء متعاطفاً مع موقف الطرف الآخر، ومع دوره، وميوله. لذلك يستطيع البشر أن يتخللوا الأثر الذى سوف تحدثه إيماءة ما على الآخرين، وذلك من خلال نوع من الحديث الباطنى الذى يجرى بين "الأنا" بضمير المتكلم "أ" (أو الجانب التلقائى من الذات أو النفس) والثانية الأنا بضمير الملكية "me" (أو الذات أو النفس كما يراها الآخرون، تقريباً). وعلى ذلك فإن النفس الإنسانية إنما تتشكل ويعاد تشكيلها بصورة مستمرة عن طريق تشرب الآخر العام^(*) أى عن طريق تشرب الميول والرؤى التى تتميز بها الجماعة.

وقام بلومر - فى سعيه لتبسيط فلسفة ميد - بتقديم التفاعلية كبرنامج للبحث فى علم الاجتماع، عن طريق التركيز على الطريقة التى يتبعها أفراد المجتمع فى التفاهم حول معنى المواقف الاجتماعية الشخصية التى يشتركون فيها. ويميل أصحاب النزعة الوظيفية، مثلاً، إلى التسليم بأن الأدوار والمعايير الاجتماعية لها وجود سابق على وجود الفرد (ويتصف هذا الوجود بالموضوعية التى تميز كافة الظواهر الاجتماعية التى تقيد السلوك الاجتماعى وتحدده. وليس للفاعل الاجتماعى الفرد القادر إلا تطبيق القواعد المناسبة (أو أن يختار الدور المناسب) فى موقف معين. وعلى النقيض من ذلك، يؤكد التفاعليون الرمزيون أهمية العمل الذى يتوجب على الفاعلين الاجتماعيين القيام به - ليس فى إقرار ما لموقف معين من معنى ودلالة لهما وجود سابق على الفرد - وإنما فى دعم الفهم المشترك لموقف معين، مما يترتب عليه الوصول إلى اتفاق عام على الأدوار والمعايير المختارة. وبناءً على ذلك فالمجتمع ليس له وجود موضوعى مستقل عن

(*) الآخر العام The Generalised Other مفهوم يقصد به جورج هربرت ميد مجموعة الاتجاهات المنظمة الخاصة بالمجتمع ككل - وليس فرداً بعينه - والتى تمكن الناس من تشرب (أو استدماج) الإحساس بقيم المجتمع فى تصورهم أو مفهومهم عن الذات. راجع المزيد فى موسوعة علم الاجتماع. مرجع سابق، ص ٧٥٥-٧٥٦. (المراجع)

الفاعلين الاجتماعيين، وإنما يتم تشكيله والحفاظ عليه من جانب الفاعلين أنفسهم ومن خلال التفاعل بينهم.

وفي ستينيات القرن العشرين، قام إرفنج جوفمان - فيما كتبه من أعمال - بتطوير شكل من أشكال التفاعلية الرمزية يهتم اهتماماً خاصاً بالتفاعل المباشر الذي يتم وجهاً لوجه. وقد استكشف ما تتصف به هذه التفاعلات من هشاشة وسيولة، ويشير التحليل الذي أجرى لبعض الظواهر - كظاهرة الحرج أو الارتباك - إلى اللحظات التي يتعطل فيها التفاعل الاجتماعي (عند اكتشاف أن واحداً أو أكثر من المشاركين في التفاعل غير قادر على أداء دوره). لذلك يمكن تصور أن قدرًا كبيراً من جوانب الحياة الاجتماعية يدور حول تفادي أو رد التهمة بالقصور في أداء الدور (الدرجة أنه - وترديداً لأفكار ميد عن حديث النفس - يكون من الأهمية بمكان عند الفاعلين الاجتماعيين القادرين أن يظهروا عزلتهم باعتبارها لحظات شاذة أو استثنائية من لحظات القصور، وذلك عن طريق قيامهم بسبب أنفسهم مثلاً). ويستطرد جوفمان قائلاً (مستلهماً مرة أخرى أفكار ميد، وإن كان بصورة أكثر تطرفاً) بأن "نواتنا" تتشكل على نحو متفرد ومجرداً في كل حالة من حالات التفاعل الاجتماعي. كذلك تتشكل اتجاهاتنا وأنماط سلوكنا وفقاً للأفراد المحيطين بنا (ومن ثم، وبمقتضى المثال التقليدي الذي طرحه جوفمان (سنة ١٩٥٩)، تختلف اتجاهات الجرسون (عامل المطعم) تجاه العميل اختلافاً أساسياً عن اتجاهاته إزاء زملائه في المطبخ).

وعلى الرغم مما للتفاعلية الرمزية من رؤى ثاقبة هامة في موضوع **التنشئة الاجتماعية، والانحراف (وخاصة نظرية الوصم)**، فقد وجهت إليها الانتقادات بسبب إخفاقها في إدخال علاقات القوة في حساباتها بصورة كاملة. (AE) للمزيد انظر: Becker (١٩٦٣) و Berger and Luckmann (١٩٦٦) و Blumer (١٩٦٩) و Denzin (١٩٩٢) و Goffman (١٩٥٩).

Deconstruction

التفكيك/ أو تحليل البنية

بدل المعنى الظاهر للكلمة أن التفكيك أو تحليل البنية قد تولد كنتيجة للبنوية. صك المصطلح جاك ديريدا^(*) وهو واحد من أشهر ممثلى تلك الحركة الفلسفية والنقدية. وهو يشرح مشروعه عن التفكيك أو تحليل البنية فى كتابه ذى التأثير الهائل: "فى علم النحو" (١٩٧٦) قائلاً إن هدفه هو أن يعرى أبنية المعنى من أجل الكشف عن أصولها أو المقدمات التى تتبنى عليها، وإظهار مفاهيم الموضوعية والاستقلال اللغوى باعتبارها أبنية لها تركيباتها. وكان ديريدا يصر دائماً على أنه لا يمكن معاملة التفكيك كمنهجية ذات تعريف واضح لا خلاف عليه. والسبب الرئيسى لذلك أن التفكيك يرفض فكرة وجود شكل من أشكال الذكاء المهيمن الذى يستطيع أن يدرك ويفسر المبادئ البنوية للغة (وخاصة نسق التعارض الثنائى الذى يقوم بدور بالغ التأثير فى الفلسفة البنوية). وبهذا المعنى، يكون التفكيك بمثابة تطوير للبنوية التى تعترف بأن الأهداف الشديدة الطموح للبنوية لا يمكن تخيلها إلا على أساس من فهم اختزالى للغة، والمجتمع، والتاريخ، والمعرفة.

ولأن التفكيك على وعى باحتمالات فشل أى منهج بحث، فإنه يتبنى نوعاً متشدداً من النقد الذاتى. ويشير هذا الموقف، أولاً وقبل كل شىء، إلى أن توليد المعنى فى لحظة معينة هو أبعد من أن يكون تعبيراً تلقائياً عن الأفكار، إذ إنه - على خلاف ذلك

(*) جاك ديريدا Jacques, Derrida (فيلسوف فرنسى من مواليد ١٩٣٠)، ألف أكثر من ثلاثين كتاباً أثارت قدراً كبيراً من الجدل، ومن الإعجاب والتقدير أيضاً. درس فى كلية الدراسات العليا فى باريس على يد لوى التوسير ثم زامه أستاذاً بنفس المعهد. حفزت أعمال ديريدا الاهتمام بمراجعة مجموعة من الأفكار النظرية الأساسية، خاصة تلك المرتبطة بالأخلاق، والسياسة، مثل مفاهيم: الإنسانى، والعدالة، والمسئولية، والقرار، والنظام. من أهم أعماله: الكلام والظواهر. ومقالات أخرى عن نظرية هوسرل فى العلامات، الترجمة الإنجليزية ١٩٧٣، عن الجراماتولوجيا، الترجمة الإنجليزية، ١٩٧٤، الكتابة والاختلاف، الترجمة الإنجليزية، ١٩٧٨. (المراجع)

- يتضمن أعرافاً مصطلحاً عليها وأفكاراً مسبقة ذات أصول راسخة فى أعماق اللغة. والمعنى بمثابة تعبير أنتجه عقل مستقل، وهذا ما يفسر هجوم ديريدا على فكرة 'الحضور'، وذلك لأنها توحى بالسيطرة على المجال الشامل للمعاني الممكنة لأى قول.

وبعد أن رسخت فلسفة التفكيك دعائمها فى أواخر الستينيات من القرن العشرين، كان اهتمامها الأكبر منصباً على صياغة رؤية نقدية للغة والتصور (أى التمثل الذهني للمعاني). أضف إلى ذلك، أن المزاغم التى نادت بها جماعة من المفكرين المعاصرين، وعلى وجه الخصوص رولان بارت وميشيل فوكو، والمتصلة بفكرة 'موت المؤلف' (وهو تعبير لافت للنظر يحتجون به لإثبات عجز الفرد عن السيطرة على توليد المعنى اللغوى)؛ هذه المزاغم أدت كذلك إلى تقويض وجهة النظر التى ترى أن اللغة شكل 'محايد' من أشكال التعبير عن الأفكار.

واتجهت النسخة الأمريكية المعدلة من فلسفة التفكيك نحو نوع من أنواع التحليل العملى للنصوص الأدبية. وقد ركز أكثر ممثلى هذا الاتجاه - وهو بول دو مان Paul de Man - على البعد البلاغى للغة، وقام هو وجيوفرى هارتمان G. Hartman وهيليز ميلر Hillis Miller بإرساء قواعد التفكيك باعتباره ممارسة نقدية أدبية، عرفت باسم 'مدرسة يل'، وازدهرت فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين.

وقد دل إصرار ديريدا على قلب نظام أسبقية الكلام على الكتابة رأساً على عقب؛ دل على أنه لا يمكن أن يوجد فاعل لغوى تلقائى. وهو يؤكد أن كل ما يقال - أياً كان - متوقف على الإمكانيات البنيوية لما يمكن أن يقال، وهو يستعمل مصطلح 'الانتشار' ليعطى انطباعاً بأن اللغة تمتلك أساساً منطقياً ذا انضباط ذاتى. ولكن حتى فى هذه الحالة، لا يمكن التسوية بين اللغة وبين العقل (اللوجوس)، كما أنه لا يوجد شاهد أو مثل ميتافيزيقى يكفل لنا ضمان استقرار اللغة. بل الأحرى أن اللغة واقعة تحت تأثير قوة مضادة تثير الفوضى فى نظامها. وقيام التفكيك بكشف مظاهر التضارب

المنطقي في التعبير اللغوي، فإنما يشير إلى مظاهر التورط الإيديولوجي ويهدم ما للنص من مزاعم صريحة. وتسعى الإسهامات النقدية التفكيكية لتحديد علاقات القوة، ليس فقط في صورها التي تتمثل فيها داخل النص في حد ذاته، بل كذلك وهي تعمل على تهيئة الأفراد سلفاً لأن يستجيبوا للنص وفقاً لاستجابات معينة. وهذا يعني أن التفكيك يدرس الأعمال الفنية من خلال قيامه بتحليل المنطق البنائي لوسيلة التصوير (وهي هنا اللغة)، وتحليل الأسلوب المتوارث للتفسير والمرتبط بنوع معين من أنواع النصوص، وذلك كوسيلة لمقاومة ما في هذا النص من رؤية إيديولوجية.

ولأن التفكيك يرفض أي تمييز بين النص والسياق يؤدي إلى جعل كل منهما أمراً مختلفاً عن الآخر، فكثيراً ما يُتهم التفكيك بأنه لا سياسي. ومع ذلك، فإن بعض النقاد كبربارا جونسون B. Johnson، التي أدت انخراطها في الحركة النسوية وانتسابها إلى الماركسية إلى جعل الالتزام السياسي عندها أمراً حتمياً لا سبيلاً لاجتنابه؛ أكدت أن على التفكيك أن يعيد النظر في علاقته بقضايا الطبقة، والنوع الاجتماعي، والعرق. وفي السنوات الأخيرة، أصبح بعض مشاهير النقاد يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم تفكيكيين ماركسيين مؤيدين للحركة النسوية، كجياتري سبيفاك مثلاً Gayatri Spivak. ويستهدف أصحاب هذا الخط الفكري الوصول إلى رؤية نقدية للإيديولوجيا، إذ يقدمون على تحليل التعريفات والفروق الثقافية (كتلك الفروق القائمة بين الذكر والأنثى؛ والأسود والأبيض؛ والمركزى والهامشي). ومع أن التلاعب بالمعاني الذي تتصف به اللغة كلها يصدق كذلك على اللغة المستعملة في نقد الإيديولوجيا، فإنه ينبغي ألا يُنظر إلى هذا الوضع باعتباره معوقاً عن القيام بأي نوع من أنواع التدخل، إنما الأخرى أن يُنظر إليه باعتبارها تنبيهاً إلى أن المزاعم المفروضة بأسلوب تسلطي، من المرجح تعريضها - هي بالذات - عن طريق ما في اللغة من قدرة ذاتية على التفكيك. (CK) للمزيد انظر: Derrida (١٩٧٦) De Man (١٩٧٩) Ryan (١٩٨٢) Norris (١٩٨٧) Johnson (١٩٨٠) Holub (١٩٩٢).

Progress

التقدم

مفهوم مختلف فى تعريفه، ويوحى بذلك تعريفه القاموسى الذى يسلم جدلاً بأنه يعنى "الحركة إلى الأمام" أو "التحسن بمرور الزمن". فقد ظلت فكرة التقدم متداولة على امتداد ما يقرب من ألفين وخمسمائة سنة (انظر نيسبت Nisbet، ١٩٨٠)، لكنها اكتسبت قوة الدفع الأعظم أثناء عصر التنوير. وسواء نظر إلى التقدم باعتبار أنه ترشيد كفاءات الأشياء بصورة عامة للوصول بها إلى حالة أفضل، أو تحقيق نفس هذا الغرض مع زيادة التركيز على التوسع فى المعرفة العلمية مثلاً، فقد أصبح التقدم مرتبطاً بالتحريز المستمر للبشر من التبعية التى تورث ضيق النظر، والإيمان الأعمى (الذى لا أساس له من العقل) والانجذاب الشديد للأساطير والنزعات اللاعقلانية. لذلك فقد أعلن كوندرسيه وكانط - بصفة خاصة - أن التقدم يمثل المسار المتنامى للوعى النقدى بالذات، على المستوى الثقافى وعلى المستوى الفردى أيضاً. ومع هذا، فإن ما كتبه كانط فى هذا الموضوع يعطى - فى ظاهر الأمر - إشارة غريبة (بالنسبة لعقلانية كانط) إلى وجود "خطة خفية وضعتها الطبيعة" لتحقيق "تلك الحالة الوحيدة التى يمكن فيها لكافة قدرات البشر الطبيعية أن تنمو وتتطور".

وقد تبين أن هذا التوتر بين معنى التقدم المذكورين يؤثر حاد مزمن. فمن ناحية، ترتب على تناول فكرة التقدم باعتبارها تمثل التطور التاريخى المضطرب بلا انقطاع، أن أصبحت هذه الفكرة شديدة الرسوخ والثبات بعد ما بدأت قدرة الإنسان الفرد على التدخل لتسيير أموره الشخصية تزيج من طريقها - نهائياً - ذلك التسليم القدرى بالتدبير الإلهى لأحوال الإنسان، والذى كان يسم الاتجاه العام للتفكير الاجتماعى. فكيف - إذن - يمكن قياس التقدم بصورة كمية؟ إن العلاقات الوثيقة بين فكرة التقدم والأفكار الأخرى المشبعة بدلالات إيديولوجية كفكرة التنمية، والحضارة، والتقدم التكنولوجى، جعلت فكرة التقدم عصية على الضبط والتحديد بشكل لافت للنظر،

خاصة ما قدمه هيجل من صورة لفكرة التقدم تتسم بالأحكام القاطعة، وهى الصورة التى تصر فيها الفلسفة (بناءً على أن الواقعى معقول والمعقول واقعى) على القيام بمهمة الكشف عن الانتصار التدريجى المستمر للعقل البشرى فى جميع شعب الحياة الاجتماعية والثقافية. بل يضاف إلى هذه الصورة ما فعله ماركس فى هذا الصدد. فقد أدى، بهدمه لما قدمه هيجل من تشخيص تجريدى متفائل لعملية الكشف التدريجى المتسلسل عن العقل الكلى الجامع^(*)، أدى إلى طرح مفهوم مادى للتقدم باعتباره تحريراً للبشر يتحقق عن طريق إطلاق وتفعيل القوى الكامنة فى البشر والتى كانت معطلة حتى ذلك الحين، ومن خلال السيطرة على بيئتنا الطبيعية. ومن أقوال ماركس المشهورة فى هذا الصدد ما ذكره فى كتابه بعنوان "أبحاث عن فويرباخ": "لقد اقتصر عمل الفلاسفة على تفسير العالم بطرق عدة، بينما القضية الهامة هى تغيير هذا العالم". ولكن على الرغم من تأكيد ماركس المشاركة الإيجابية فى صنع التاريخ، والدور التكاملى للانقسام الطبقي والثورة الطبقيّة فإن من الأمور الحاسمة بالنسبة لكلا الخطتين وجود تصور خطى محسوس لمسار الحركة التاريخية نحو التقدم. وهذا هو التصور الغائى للتقدم، أى باعتباره رحلة حيوية - بدرجة أو بأخرى - صوب غاية معينة تنزع نحو التحرير الشامل.

والأمر كذلك، فإن الخلاف الدائر حول فكرة التقدم يعطينا مثلاً رائعاً لما يعده مفكرو ما بعد الحداثة نوعاً من "السرديات الكبرى"، وعن تشككهم فيما يصاحب "عملية" التخلص من جميع أفكار "التقدم" الذى يكتب لفظه بصورة اسم العلم^(**). ويقيم هذا الموقف الفكرى عادة على أساس الاحتكام إلى وقائع التاريخ الحديث التى

(*) الذى ينتقل من القضية إلى نقضها ثم إلى مركب القضية أو التركيبية الجامعة بينهما. (المترجم)

(**) فى اللغات الأوروبية مبتدئاً بحرف استهلاكي كبير، للإشارة إلى أنه كان له تشخيص وجوده الذاتى (المترجم)

تتناقض صراحة - بكل معنى من المعانى - مع الفكرة التى تقول إن التحسين الاجتماعى العام لا يزال مستمراً. ويكفى أن نشير هنا إلى أن ليوتار ويومان قد ربطا ما بين الفظائع وأعمال الشطط والطغيان التى شهدتها القرن العشرون (مثل: معسكر الاعتقال النازى فى أوسشفيتز، وأرخبيل الجولاج Gulag Archipelago، وتزايد الخطر النووى) وبين ذلك الشعور المفرط بالثقة فيما توقعته حركة التنوير من انتصار للعقل والفضيلة يعتق البشرية. وقد قام هذان المفكران، كما فعل ذلك قبلهما كل من أدورنو وهوركهايمر (ولو أنه لم يكن لدى ليوتار ويومان ما كان لدى أدورنو وهوركهايمر من بقايا الميول الماركسية)، قاما بتتبع ما أثمره العقل "الذرائعى" من نتائج تمثلت فى الأعمال الوحشية التى شهدتها القرن العشرون، وأرجعاهما إلى ما اتصفت به الحداثة من الاهتمام المفرط والولع الشديد بالعقل الكلى وإلى ما يقترن بذلك من إقصاء لما هو لاعقلانى، أو وهمى، أو رجمى. وهكذا فإن التقدم العلمى أو التكنولوجى لا يقدر فى حد ذاته أن يصنع مجتمعاً فاضلاً، كما أن الحكم على العلم باعتباره المصدر الأسمى للمعرفة يؤدى على الأرجح إلى إخضاع كل من لا يشارك فى هذه الثقافة العلمية - أو تعويدهم عليها وتطويعهم لها أو إخماد أصواتهم - وهى أمور من العسير اعتبارها "تقدماً" بالمعنى الحديث للتقدم.

أما التساؤل عما إذا كنا بهذا الكلام نغسل أيدينا من موضوع طبيعة التقدم، أم نعيد طرح هذه المسألة من جديد، فذلك موضوع آخر. وهل تؤدى سذاجة الاعتقاد بأن فكرة التقدم مضمونة بنوياً - أو قل: هل تؤدى خطورة هذا الاعتقاد إلى أن يُخفى هو الآخر تلك التصورات البديلة التى تعزو التقدم إلى الفعل الإنسانى فى مجموعته؟ وهل نستطيع - حقاً - أن ننظر إلى تاريخ العلم أو تاريخ الطب ثم ننكر ما حدث فيهما من إنجازات حاسمة إلى الأمام؟ وهل تشكل نهاية الرق مجرد قيمة قررتها الثقافة وحرصت على تنفيذها؟ وهنا يعلق بورجس Borges قائلاً: "لقد توقفنا عن الإيمان

(ت)

بالتقدم، فأى تقدم هذا الذى نتحدث عنه؟! إنه مفهوم حافل ولا يزال بالتناقض. ورغم أن النقاش حول التقدم أصبح (فى نظر خصوم التقدم) حديثاً معاداً، مطاطاً وعتيقاً، فمن الصعوبة أن نتصور كيف يمكن لنظرية اجتماعية معيارية - سواء فى نهاية قرن معين أم لا - أن تنمو وتتطور دون الحديث عن التقدم. كما أن الحصار الذى ضربه بعض المفكرين حول النقاش بشأن التقدم لم يتمكن من القضاء التام على ما للموضوع من أهمية ثقافية ومعنوية. (GC) للمزيد انظر: Adorno and Horkheimer (١٩٧٢) و Bauman (١٩٨٩) و Kant (١٩٧١، ١٩٨٣) و Lyotard (١٩٨٩) و Nisbet (١٩٠٨).

تقديس السلع (فتشية السلع) Commodity Fetishism

يضم مصطلح "تقديس السلع" معظم النقد الذى وجهه ماركس إلى الاقتصاد الرأسمالى (والذى معناه أنه اقتصاد مبنى على أساس حيابة الملكية الخاصة وتبادل السلع من خلال الأسواق). ويذهب ماركس (١٩٧٦: ١٦٣-١٧٧) إلى أنه بتبادل السلع تتخذ العلاقات الاجتماعية بين الكائنات الإنسانية مظهر العلاقات بين الأشياء. ففى الواقع تتخذ تلك العلاقة القائمة بين الأشياء مظهراً خادعاً، كأن تبدو هذه الأشياء التى تواجهنا كما لو كانت هى نفسها حشداً من الأشخاص الغرباء والغامضين. وبترجمة هذه الفكرة بقليل من التحوير، نجد أن الخواص التى تنسب إلى الأشياء من خلال العمليات الثقافية (ومنها خاصية السعر) يؤول أمرها إلى أن تبدو كما لو كانت خواصاً طبيعية أو كامنة فى هذه الأشياء.

ويحدث تقديس السلع لأن المنتجين فى الاقتصاد الرأسمالى، لا يلتقون مع بعضهم البعض إلا من خلال السوق. ومن ثم فإنهم يتصلون ببعضهم، ليس بوصفهم كائنات إنسانية حقيقية وراقية ومتفردة، وإنما بوصفهم منتجين للسلع، وهى سلع قابلة

للمقارنة ببعضها البعض عن طريق المعيار النقدي الموحد وهو السعر (ومن ثم تكون هذه السلع قابلة للمبادلة ببعضها البعض). وهكذا يتم حجب كل ما هو متفرد ومتميز - فى كل من المنتجين والمنتجات - عن طريق تحويله إلى مقدار كمى بحت.

وعلى ذلك ترى نظرية تقديس السلع أن الرأسمالية تعيد إنتاج نفسها عن طريق إخفاء جوهرها تحت مظهر خادع. فبمجرد أن يبدو الكيف وكأنه كم، نجد الأشياء تبدو وكأنها ذوات، وتصير الذوات كأنها أشياء. وهكذا، تتشخصن الأشياء ويتشبه الأشخاص. وفى النهاية، يصبح تبادل السلع فى السوق هو المظهر الذى يتجلى فيه الجوهر الحقيقى للإنتاج، بحيث يتوهم البشر أنهم مستهلكون وليسوا منتجين. وهذا بدوره يخفى عملية الاستغلال الكامنة فى صميم الرأسمالية (عن طريق الاستيلاء على فائض القيمة).

وقد لعبت نظرية تقديس السلع دوراً أساسياً فى تطوير نظرية الإيديولوجيا داخل الماركسية الغربية، وفى تحليل عملية التجسيد (اعتبار المجردات أشياء محسوسة) التى طرحها لوكاتش وعدد من أعضاء مدرسة فرانكفورت. (AE) للمزيد انظر: Dant (١٩٩٦) و Garver (١٩٧٥) و Burke and Moore (١٩٧٩).

تقسيم العمل

Division of Labour

يشير مصطلح "تقسيم العمل" إلى عملية تباين المهام والوظائف داخل المجتمع. ويمكن تعيين ثلاثة أشكال متميزة، أو على أقل تقدير ثلاثة مداخل أو اتجاهات، لتقسيم العمل. ففى علم الاقتصاد، كان من المعروف فى القرن الثامن عشر، أن آدم سميث (١٧٧٦) يعد تقسيم العمل سبب زيادة الإنتاجية فى النظم الاقتصادية الرأسمالية الصناعية. فبينما يحدث فى نظام الاقتصاد القائم على الحرف اليدوية أن العامل الفرد

يمكن أن يقضى يوماً ليصنع فيه مسماراً، أصبح من الممكن - فى المصنع - أن يقسم إنتاج هذا المسمار على اثنتى عشرة مهمة مختلفة، مع تخصيص كل عامل لاداء مهمة واحدة من هذه المهام. أما ماركس (١٩٧٥) فيعد تقسيم العمل أكبر شرور الرأسمالية، وذلك من حيث إفضائه إلى حدوث "الاغتراب" (بمعنى أن تصير خطوات العمل بلا معنى لدى العمال). وفى علم الاجتماع كتب دوركايم (١٩٨٤) فى نهاية القرن التاسع عشر يصف تقسيم العمل بأنه العامل الحاسم فى تفسير الفرق بين مجتمعات ما قبل الصناعة والمجتمعات الصناعية، أما الآن فإن تقسيم العمل يتم تشخيصه فى علم الاجتماع وفقاً للطريقة التى تتماسك بها المجتمعات كوحداث مستقرة. وفى المجتمع الصناعى، ونظراً لوجود تقسيم شامل للعمل، فإن كل فرد - على حدة - يعتمد على كل من سواه من أجل توفير معظم حاجاته. ومن الأمور غير المرغوبة التى تلازم هذا الوضع ظاهرة أو أزمة اللامعيارية، أو فقدان القيمة الخلقية والمعنى الخلقى للحياة الاجتماعية.

ومنذ عهد قريب، انصرفت همة مفكرى الحركة النسوية إلى دراسة مشكلة التقسيم الجنسى للعمل (أو تقسيم العمل على أساس الجنس). ويشير هذا التقسيم الجنسى إلى المهام والوظائف بين الرجال والنساء، سواءً فى المجال الاقتصادى العام، أو فى مجال الاقتصاد المنزلى الخاص بتدبير أحوال أفراد الأسرة. ونلاحظ وجود تقسيم أفقى فى بعض المهام والوظائف فى المجال الاقتصادى العام (وهو تقسيم يعكس صورة الأنشطة المنزلية، مثل أعمال النظافة، ورعاية الأطفال) فتسند مثل هذه المهام والوظائف - غالباً - للنساء، وب نفس القدر يتم استبعاد النساء من وظائف معينة يزعم أنها وظائف رجالية (كالوظائف الهندسية). وبالمثل، يوجد تقسيم رأسى للعمل، تائى فيه وظائف النساء - التى تسند إليهن لكونهن نساء - فى مكانة أدنى من وظائف الرجال عادة، ويتقاضين عنها أجوراً أقل، ولا تتمتع إلا بنفوذ محدود. كما

يتمثل هذا التقسيم الرأسي في تشغيل النساء فقط - على نحو جائر - في المستويات الدنيا من أى مهنة أو وظيفة. (AE) للمزيد انظر: Walby (١٩٨٦) و Gorz (١٩٧٣).

Technology

التكنولوجيا

كلمة "تكنولوجيا" الإنجليزية مشتقة من الكلمة الإغريقية القديمة "تكني" Tekhne، التى تعنى إما Art بمعنى فن أو مهارة، أو Craft بمعنى حرفة أو مهنة تتطلب مهارة. وأياً كان الأمر، فإن معنى كلمة "تكنولوجيا" يميل - فى التعبير الحديث - إلى تأكيد جانب الأداة أو الوسيلة الذى توحى به كلمة Craft بمعنى العمل الذى يتطلب مهارة. لذلك فإن بالإمكان تقسيم استعمال كلمة "تكنولوجيا" إلى مجالين مستقلين وإن كانا مترابطين.

أولهما، تتعلق فيه كلمة "التكنولوجيا" بتلك الشبكة من الممارسات الإنسانية التى يتم فيها معالجة المواد (الخام) بغية إعطائها شكلاً عملياً أو نافعاً. وبهذا المعنى، تكون التكنولوجيا - أساساً - مسألة تقنية (أى: تتصل بالبراعة الفنية الصناعية)، ويقوم استعمالها على أساس التسليم المسبق بوجود فكرة ما عن الغرض أو القصد فى الطريقة التى يتم بها تداول تلك المواد أو استعمالها فيما بعد.

وثانيهما، أن المنتج النهائى لعملية المعالجة المذكورة يسمى أيضاً "تكنولوجيا". وعلى ذلك، فإننا حينما نشير إلى "عمل من أعمال التكنولوجيا"، كأن يكون جهاز كمبيوتر أو طائرة، فإننا لا نشير بذلك إلى تلك المعالجة للمواد التى عملت على إنتاج هذا الجهاز أو تلك الطائرة، وإنما نشير فى كل حالة إلى شئ معين يعد - فى صميم طبيعته - مختلفاً من حيث النوع عن غيره من أنواع الأشياء التى قد تصادفها فى هذا العالم (كالصخور والأحجار، والنباتات، والحيوانات... إلخ). لذلك، فإن مصطلح

"التكنولوجيا" يشير إلى شبكة محددة من الأنشطة الإنسانية، وكذلك إلى المنتجات التي تقدمها هذه الأنشطة.

وفى أواخر العصر الحديث، قد يذهب البعض - ومعهم الحق فى ذلك - إلى أن ظهور أشكال معينة من التكنولوجيا وانتشارها بسرعة كان من أهم عناصر التحولات الاجتماعية والسياسية التي تميز تاريخ عصور الصناعة وما بعد الصناعة. من ذلك، أنه حدثت مع تقدم أشكال الإنتاج الصناعية فى بريطانيا ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر، حدثت تغيرات مصاحبة "لهذا التقدم" فى توزيع السكان ومناطق تركيزهم (حيث زاد تركيزهم فى المراكز الحضرية) وفى تركيز الثروة وأنماط توزيعها (كما حدث فى الطبقة الرأسمالية التي نمت بسرعة). وبالمثل حدثت تطورات مصاحبة فى القوانين السياسية الخاصة بالهيئات النيابية (مثال ذلك، أن فترة نهاية القرن التاسع عشر شهدت توسعاً متزايداً فى الحق الدستورى لانتخاب أعضاء البرلمان). وبدون أن نحاول استكمال الصورة التاريخية، فمن الواضح الجلى أمامنا طبيعة الروابط القائمة بين التطورات التكنولوجية وهذه التطورات الاجتماعية والسياسية:

أولاً: يؤدى تطور التكنولوجيا الصناعية إلى زيادة القدرة على توفير المزيد من السلع الرخيصة السعر، وذلك لأن مثل هذه التكنولوجيا تجلب معها إمكانية الإنتاج الكبير. وبلغت الاقتصاد، يعنى هذا الوضع زيادة إجمالى الحركة (دورة رأس المال) على مستوى كل من الإنتاج والاستهلاك: وإذا تكلمنا بمنطق الرأسمالى التجارى، فإنه كلما استطعت أن تنتج مزيداً من الوحدات بكفاءة (أى بتكلفة رخيصة) كلما استطعت أن تبيعها بسعر أرخص، وكلما استطعت أن تبيع بسعر أرخص كلما زاد مقدار ما تبيعه منها. ويترتب على ذلك أن الإنتاج الكبير الكفوء للسلع يتطلب تجميع القوى العاملة (انظر مادة: العمل) فى مناطق محدودة، ويتحقق هذا من خلال عرض أجور للعمال تكون أكبر من تلك التي يمكن الحصول عليها فى الأماكن التي أصبحت توصف

- فيما بعد - بأنها مناطق ريفية (أى: مناطق غير صناعية). ومن الواضح أن مثل هذه الهجرة من الريف إلى الحضر وهذا التركيز السكاني تكون له بالضرورة نتائج اجتماعية هامة، حيث تتعرض بعض العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة فى المجتمعات الريفية للزوال. ومن ثم، فإن من المحتمل حدوث المزيد من تدفق العمال والمزيد من فرص العمل؛ كما يحتمل أن تتكشف كذلك مظاهر جديدة للعداوات الاجتماعية (بين هؤلاء الذين يملكون نظم الإنتاج وأولئك الذين يعملون عندهم)، وأن يكتسب الأفراد - وفقاً للتحليل الماركسى - وعياً ذاتياً من خلال التقسيمات الطبقة الناجمة عن تقسيم العمل الناجمة عن الأخذ بنظام الإنتاج الكبير. وتستطيع هذه الأوضاع الاجتماعية المستحدثة أن تؤدي إلى نتائج فى غاية الأهمية، إذ من المحتمل أن يؤول الحال بتطور الثروة بين يدى أفراد الطبقة التجارية إلى زيادة رغبتهم فى أن يروا تلك الثروة متجسدة فى صورة محسوسة من القوة السياسية. كما أن المرء قد يتوقع أن تتولد لدى العمال - الذين يعملون عند الرأسماليين - الرغبة فى أن يروا من يعبر عن مصالحهم على الصعيد السياسى.

وبجانب الاتجاه الفكرى الذى يعبر عنه التحليل الماركسى للعلاقات الاجتماعية، مثلاً، نجد أن ما يتضمنه التحليل الماركسى من إدراك خاص لأهمية التكنولوجيا موجود كذلك فى أعمال المفكرين المرتبطين بالتطورات الفكرية الأقرب عهداً والتي كثيراً ما تصنف تحت عنوان ما بعد الحداثة. ومن أمثلة هذه الأعمال كتاب جان فرانسوا ليوتار بعنوان "الوضع ما بعد الحداثى" (١٩٧٩). وفى هذا الكتاب يطرح ليوتار وجهة النظر التى ترى أن للتكنولوجيا تأثيراً حاسماً على أشكال المعرفة. وبعبارة أخرى، يذهب ليوتار إلى أن الآثار الاجتماعية والثقافية للتكنولوجيا ليست محصورة فى نطاق مسألة التطور الاجتماعى - التاريخى للطبقات ذات المصالح الواضحة المحددة، والناجمة عن سيطرة العلاقات الاقتصادية على طرق الأداء التكنولوجية الصناعية. إنما الأحرى فى

رأى ليوتار، أن الطرق التى نتبعها فى التفكير فى خبرتنا وفى تصنيفها وتقييمها تخضع هى الأخرى للتغير الذى تحدثه فيها القوى التكنولوجية. خلاصة القول إن السؤال عن كنه المعرفة (قارن مادة: نظرية المعرفة) يمثل - فى رأى ليوتار - قضية يتحتم تغييرها فى ظل التكنولوجيا الحديثة. ذلك أن التكنولوجيا أصبحت تقوم بدور المعيار الأساسى لتقدير ما يعتبر معرفة فى نطاق الثقافة المعاصرة. والتكنولوجيا، بهذا المعنى، تغير شكل المعرفة إلى درجة:

“أن أى شىء من مكونات المعرفة يتعذر شرحه أو ترجمته بهذه الطريقة يتعين الإعراض عنه [...] ويتعين على الاتجاه الذى يسلكه البحث العلمى الجديد أن يخضع لإمكانية ترجمة نتائجه النهائية إلى لغة الكمبيوتر”. (١٩٧٩: ص ٤)

وهكذا نتضح لنا نظرة ليوتار إلى زمن ما بعد الحداثة أنه شديد الشبه “بهيمنة الكمبيوتر”. وتلك الهيمنة هى وحدها التى تقوم بتحديد ما يعتبر معرفة عن طريق فرضها للمعيار الخاص “بإمكانية الترجمة” إلى لغة الكمبيوتر على تلك القضايا التى تدعى أنها تصف الواقع. ومن الآثار التى تترتب على هذا الوضع أن تحل الاتجاهات الآلية للتكنولوجيا الحديثة محل ما تتمتع به الذاتية الإنسانية من أولوية على سائر الاعتبارات. ويؤدى هذا الوضع الجديد - الذى تحل فيه التكنولوجيا محل الإنسان - بدوره إلى جعل الذات المفكرة ظاهرة ثانوية فيما يتعلق بالمعرفة، وما ذلك إلا لأنه لم يعد بالإمكان اعتبار الذاتية الإنسانية المبدأ الأساسى الذى يركز عليه ما يعد معرفة. وإذا تحدثنا من زاوية أحد الأفكار الخاصة بالذاتية والمنطلقة من توجهات باطنية (كما هو الحال مثلاً فى عبارة ديكرت الشهيرة: “أنا أفكر، إذن أنا موجود” - قارن مصطلح الذات)، فإن المعرفة، وهى خاضعة لهذه الظروف التى فرضتها عليها التكنولوجيا، تصبح ذات طابع خارجى. وتصبح المعرفة، بعد أن تغير شكلها بهذه الطريقة، مرتبطة بالقيمة التبادلية فى السوق، وبنشأت القوى الخارجية. والأمر الجدير بالملاحظة فى هذا

التصور الذى طرحه ليوتار، هو ما ذهب إليه من أن القوى المادية (المتتمثلة فى التكنولوجيا) لا تقتصر فى قدرتها على تغيير المعايير والعلاقات الاجتماعية فقط، بل إنها تغير - بصورة جذرية - الأساليب التى نتبعها فى التفكير فى أنفسنا وفى قدراتنا. وقد يكون مدى "التطرف" الذى تتصف به نظرة ليوتار وصل هذه قضية قابلة لشيء من الجدل والخلاف. شاهد ذلك، أن المرء إذا رأى أن من الأفضل تحديد معنى المعرفة وفقاً لمنطق "الإثبات" (أى: باعتبارها "معتقداً يمكن إثباته")، فإن الشيء الذى تم تغييره بفعل التقدم التكنولوجى الذى أُلح إليه ليوتار ليس هو بالضرورة جوهر المعرفة وحقيقتها (أى كلمة "المعرفة" عندما تستعمل كاسم علم: بأداة التعريف) بل الأصح أن ما تغير هو المعايير والأعراف المتبعة التى تقوم بتحديد معنى كلمة "الإثبات". وبعبارة أخرى حتى لو استطعنا أن نوافق على أن تحديد ما يعد معرفة فى وقتنا هذا يكون فقط فى ضوء صلاحيته للترجمة إلى لغة التكنولوجيا، فإن هذا لا يعطينا الحق فى الادعاء بعد ذلك أن المعرفة "نفسها" - فى حقيقتها وجوهرها - قد تغيرت بهذا الشكل، وذلك لأن تحديد معنى المعرفة بأنها "المعتقد الذى يمكن إثباته" لم يتغير، إنما تغيرت المعايير التى تجعل الإثبات أمراً يعتد به.

وكما هو الحال مع لينتار، قام جان بودريار بتوضيح بعض جوانب فكرته عن مابعد الحديث بعد ما ظهر من التطورات التكنولوجية. وهكذا ينظر بودريار - هو الآخر - إلى التكنولوجيا بوصفها شيئاً قادراً على تغيير طبيعة تصوراتنا عن الخبرة والمعرفة، وهنا نجده يؤكد بشكل خاص قدرة التكنولوجيا على التأثير على فهمنا لمعنى الأحداث من خلال عملية التصور أو التمثيل. ومن الدعاوى الذائعة الصيت لبودريار (أو قل: من الدعاوى السيئة السمعة التى ذهب إليها تبعاً لمواقفك الفكرية فى هذا السياق) ما ذهب إليه من أن حرب الخليج الأولى كانت عرضاً مسرحياً تم تمثيل أنواره وتقديمه للجمهور من خلال تكنولوجيا وسائل الاتصال الجماهيرى، ولم تحدث

فى "الواقع"، أبداً. وبتعبير آخر، يعتقد بودريار أن القضية الأساسية فيما يشكل "حادثة" ما، مسألة تحسمها - فى أيامنا هذه - الوظيفة التصورية أو التمثيلية للتكنولوجيا. وقد قويت أفكار بودريار هذه، وكما هو مفهوم، باستجابات مختلفة.

وأياً ما كان الأمر بالنسبة لما فى هذه التصورات المذكورة من قبل من مزايا بوصفها صيغاً للتفسيرات الممكنة للأحداث الاجتماعية التاريخية، فإنها لا تقربنا - بالضرورة - من الفهم الواضح لطبيعة التكنولوجيا. كما أنه إن لم نفهم طبيعة التكنولوجيا، فقد يكون من العسير أن ندعى القدرة على صياغة تفسير مقنع لأهميتها الاجتماعية أو الثقافية. ومن الطرق الممكنة لمعالجة هذه المشكلة ما اقترحه الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر. ففى مقالته التى نشرها سنة ١٩٥٣ بعنوان "السؤال الخاص بالتكنولوجيا" (هايدجر ١٩٩٦)، يحاول أن يبرهن على أن الفهم الذرائعى البحث للتكنولوجيا فهم اختزالى. وهو اختزالى لأننا لو ناقشنا التكنولوجيا فى ضوء الاعتبارات الذرائعية وحدها فإننا بذلك نسقط من تفسيرنا ما تقتضيه التكنولوجيا من المعانى اقتضاءً ضمنياً، ومن ثم فإننا نخلى هذا التفسير من شىء جوهرى يتعلق بطبيعة التكنولوجيا. من هنا يرى هايدجر أننا إن لم نفسر التكنولوجيا وفقاً لما تقتضيه ضمناً، فإننا نتجاهل بذلك "جوهرها". كذلك يحرص هايدجر على البرهنة على أن "جوهر" التكنولوجيا ليس شيئاً تكنولوجياً على الإطلاق (١٩٩٦: ٣١١). وبتعبير آخر، لا يمكن تفسير ما تقتضيه التكنولوجيا ضمناً (أى ما هو جوهرى بالنسبة لها لى تكون على ما هى عليه) لا يمكن تفسيره من الزاوية التكنولوجية وحدها. فهناك هايدجر - على العكس مما سبق - ينظر إلى الصورة المعاصرة للتكنولوجيا باعتبار أنها تتصف بكونها "ذرائعية" و"أنثروبولوجية" (أو إنسانية) فى نفس الوقت. والخلاصة أن هذا الكلام يعنى أن التكنولوجيا تفهم - بصفة عامة - على أنها وسيلة لتحقيق غاية، مما يعنى ضمناً أن رغبات البشر وأغراضهم تشكل تعريفاً شاملاً لها. ويرى هايدجر أن

هذه الصورة صحيحة إلى أبعد مدى تستطيع بلوغه. ولكنها لا تستطيع أن تتقدم بنا بعيداً بما فيه الكفاية، لأنها تعنى ضمناً أن بمقدورنا تعريف مفهوم كلمة "الوسائل" وكلمة "الغايات"، بطريقة ميسورة لا خلاف عليها. ويقول هايدجر: "حيث تسود الرؤية الذرائعية تسود النظرة السببية" (١٩٩٦: ٣١٣)، ومن ثم فإن لم نقدم تصوراً مقبولاً للسببية، فمعنى ذلك أنه لا يمكن القول بأننا تعمقنا في البحث عن طبيعة التكنولوجيا بالقدر الكافي.

ووفقاً لتصوير هايدجر، يمكن شرح معنى السببية على أفضل الوجوه وفقاً لطبيعتها "الرباعية" على النحو التالي:

(١) المادة التي يصنع منها الشيء.

(٢) الشكل/ أو القالب الذي تصب فيه هذه المادة.

(٣) الغرض المطلوب من هذا الشيء.

(٤) ذلك الطرف الذي يحدث هذا التغيير (وهو الفاعل الإنساني).

ويذهب هايدجر إلى أنه من الأمور الجوهرية أن ندرك العلاقة بين كل عنصر من هذه العناصر بوصفه عنصراً أصيلاً. ويتعبّر آخر، فإن الفاعل (وهو العنصر رقم ٤) لا يوجد "بمعزل عن" أو "مستقلاً" عن العناصر رقم (١) و(٢) و(٣). بل إن كل واحد من هذه العناصر يعد نمطاً من أنماط "الاستحداث أو الخلق"، أي أنه يمثل عملية أو خطوة تسهم في إظهار ما هو خفي في هذا العالم. أضف إلى ذلك أن هذا الاستحداث أو الخلق يرتكز نفسه على الكشف (١٩٩٦: ٣١٨)، والكشف يتضمن معنى "نزع الغطاء"، وبهذا الشكل يبين الحال التي تكون الأشياء عليها. ويقول هايدجر:

"التكنولوجيا [...] ليست مجرد وسائل. التكنولوجيا طريقة من طرق الكشف. وعندما نلتفت إلى هذا المعنى ينفتح أمامنا عالم بأكمله يمثل جوهر التكنولوجيا. إنه عالم الكشف، أي عالم الحقيقة". (١٩٩٦: ٣٨)

والأهم من كل شيء، أن السبب في كون التكنولوجيا شكلاً من أشكال الاستحداث أو الخلق إنما يكمن في قدرتها كنمط من أنماط الكشف، وليس في مجرد قدرتها على "الصناعة". والاستحداث الموجود بصفة ضمنية في التكنولوجيا الحديثة شكل من أشكال "التحدى" التي "تهاجم" الطبيعة لتفرض النظام عليها بغية تحقيق الحد الأقصى للإنتاج باستعمال الحد الأدنى من التكاليف (١٩٩٦: ٣٢١). وموجز القول، إن الطبيعة في نظر التكنولوجيا الحديثة ليست سوى مصدر ثروة ومخزن طاقة. ولكن حتى هذا الوضع "ليس مجرد عمل إنسانى وحسب" (١٩٩٦: ٣٢٤). فكما أن السلسلة الجبلية تشكلها وتحدد نطاقها القوى الطبيعية التي لا يخلط أحد بينها وبين السلسلة الجبلية نفسها، فإن البشر يدفعون لخوض هذا "التحدى" عن طريق ما يسميه هايدجر (بالألمانية Gestell) أى "التأطير". والتأطير يعنى هنا تجميع أو حشد الهجوم الموجه للإنسان (١٩٩٦: ٣٢٥). وفي التكنولوجيا الحديثة يتعرض البشر أنفسهم "للهجوم"، ولهذا السبب يشتبكون في نزال مع العالم بطريقة لا يمكن تفسيرها بلغة أنثروبولوجية بحتة. ورغم أن عملية "التأطير" التي تجرى عندما توجد التكنولوجيا داخل نطاق الفعل البشرى، فإن التأطير لا يحدث "بالذات" فى داخل الإنسان، أو لا يحدث تحديداً من خلال الإنسان (١٩٩٦: ٣٢٩). ويرجع ذلك إلى أن البشر أنفسهم يتعرضون لهجوم الظروف التي تشكل أسلوب حياتهم مما يؤدي إلى دفعهم إلى الاستجابة لهذه الظروف بواسطة عملية التأطير التي تقوم عليها التكنولوجيا. وهكذا يتجلى جوهر التكنولوجيا فى عملية التأطير، وقد ثبت أن هذه العملية نفسها تعد نمطاً من أنماط الاشتباك مع الظروف التي تشكل أسلوب الحياة، ومن ثم إظهارها. ويقوم نمط الاشتباك هذا "بوضع الإنسان على طريق ذلك الإظهار الذى من خلاله يصبح الشئ المتوافر فى كل مكان رصيذاً احتياطياً مستديماً" (١٩٩٦: ٣٢٩). وبهذا المعنى يوجد نوع من الجبرية فيما يتصل بالطريقة التي يواجه بها البشر ظروف حياتهم، وذلك بمجرد أن تقوم عملية التأطير التي تشكل جوهر التكنولوجيا بوضعهم

على طريق الإظهار الذى تجسده التكنولوجيا. ويسمى هايدجر هذه العملية، التى تركز عليها كافة أنماط الإظهار، "حكم القدر" (بالألمانية *Geschick*). فالبشر يحيون داخل نطاق حكم القدر، ولكنهم ليسوا مرغمين على شئ أبداً، لأن حكم القدر هو نفسه "المجال الحر" الذى يكون فيه العمل الإنسانى ممكناً. وبهذا الاعتبار يمثل حكم القدر "مملكة الحرية" (١٩٩٦: ٣٣٠). ومن ثم تحتل التكنولوجيا - بدورها - موقعاً فعلياً ودائماً داخل نطاق الحرية. وإذا أدخلنا هذه النقطة الأخيرة فى الاعتبار يصبح من غير المعقول أن نتحدث عن أننا "واقعون تحت قهر" التكنولوجيا، سواء أكان هذا القهر بمعنى "الإجبار غير المنطقى على الاندفاع الأعمى" معه "أو بالمعنى الذى يؤول إلى نفس النتيجة، وهو التمرد اليائس عليها ولعننها باعتبارها عملاً من أعمال الشيطان" (١٩٩٦: ٣٣٠).

لذلك لا نستطيع - بناءً على تصور هايدجر - أن نتخذ موقفاً معيناً من التكنولوجيا سواء "بتأييدها" أو "بمعارضتها". أضف إلى ذلك، أن الخطر الذى تمثله التكنولوجيا يكمن فى احتمال أن يؤول الأمر بالتكنولوجيا إلى هدم كافة أنماط الإظهار الأخرى الممكنة أثناء سعيها لتنظيم العالم (أى: أثناء سعيها للسيطرة عليه). ومن شأن هذه السيطرة - بدورها - أن تختزل الجنس البشرى وكافة الموجودات إلى الوضع الذى تكون فيه مجرد مورد من موارد الثروة المخصصة لتحقيق أهداف التكنولوجيا. ومع ذلك، فإن نمط التكنولوجيا فى التأطير لا يمكنه أن يدمر تماماً الظروف الفعلية التى تسببت فى تطورها التاريخى، ويعنى ذلك عند هايدجر أنه لا بد من استمرار وجود قضاء يتسع لمختلف أنماط التفكير الواضحة التى تستطيع أن تشتبك مع العالم. ويعنى ذلك عند هايدجر - أولاً وقبل كل شئ - صياغة أسلوب شعري للحوار يتم به التعامل مع "الوجود"، وهذه واحدة من الأفكار الرئيسية التى تشيع فى معظم أعماله.

ومن بين التصورات الأخرى للتكنولوجيا، يشير المفكرون المرتبطون بمدرسة فرانكفورت إلى العلاقة بين ارتفاع شأن التكنولوجيا وظهور أشكال الرشد الحديثة. ومن أبرز هذه التصورات مفهوم ماكس هوركهايمر عن "الرشد الذرائعى" وما ارتبط به من انتقادات موجبة للنزعة الوضعية. إذ يرى هوركهايمر أن الحداثة تتسم بتحول توجهاتها نحو تصور للعقل يركز على ما له من جانب هادف ذرائعى، وموجز القول، إن الثقافة الحديثة تعنى بمصطلح "العقل" شكلاً من أشكال التفكير التى تعطى الأولوية لتحقيق هدف معين أو غاية معينة، وليس عملية من عمليات التفكير النقدى فى مجال فسيح من القضايا التى تقع خارج نطاق العقل العملى بما يتسم به من رشد قائم على مفهوم "الوسائل والغايات". وعلى ذلك تكون النزعة الذرائعية شكلاً من أشكال التفكير التى تعتبر الأغراض "معطيات مسلماً بها" تتصرف بناءً عليها، وليست انشغالاً عقلياً ونقدياً بالسؤال عما إذا كانت بعض الأغراض مما يمكن تبريره أم لا. ويذهب هوركهايمر إلى أن هذا التوجه الذرائعى أدى - فى مجال الفلسفة - إلى ظهور "النزعة الوضعية"، التى تسعى لمحاكاة منهجية العلم. ويزعم هوركهايمر أن الوضعية - فى سعيها لمحاكاة العلم - تتحول إلى مجرد تعبير سلبي وحيادى فيما يتصل بقضايا المعرفة، إذ تقنع بأن تترك للعقل الذرائعى الحديث أن يقوم - بما يتمتع به من هيمنة - بالفصل فيما يعد غرضاً يمكن تبريره من عدمه. (PS) للمزيد انظر: Heidegger (١٩٩٦) و Horkheimer (١٩٩٢) و Lyotard (١٩٨٩).

التليفزيون

Television

إن التطورات الحاسمة فى تكنولوجيا البث التليفزيونى الحديث - مثل عملية المسح الإلكتروني - كانت قد أنجزت فى عشرينيات القرن العشرين، كما أن التجارب الأولى للبث التليفزيونى العام كانت قد أجريت فى ثلاثينيات القرن العشرين. ولكن

خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية سرعان ما أخذ التلفزيون يحتل المكانة الأساسية التي يشغلها اليوم بوصفه الشكل السائد للترفيه الجماهيري (حيث حل محل الإذاعة والسينما في الولايات المتحدة في خمسينيات القرن العشرين، وفي بريطانيا في ستينيات نفس القرن). ومع ذلك فإن التنظير للتلفزيون من النواحي الثقافية والاقتصادية والسوسيولوجية لم يبلغ مرحلة النضج إلا في سبعينيات القرن العشرين. ولعل الأدق أن نقول إن التنظير للتلفزيون بوصفه وسيلة اتصال متميزة عن غيرها من النظريات الأكثر شمولية والخاصة بوسائل الاتصال الجماهيري، لم يتحقق إلا في سبعينيات القرن العشرين. غفى هذا الوقت نشر ويليامز (١٩٧٤)، وهول (١٩٧٣) ومجموعة جامعة جلاسجو لدراسة وسائل الاتصال (١٩٧٦) عدداً من الدراسات الأساسية عن التلفزيون.

ولعل بالإمكان ملاحظة وجود اهتمام ما بالتلفزيون في الأعمال المبكرة والمستمرة لرايموند ويليامز^(٥) في مجال التحول الثقافي والأشكال الديموقراطية للاتصال. فقد كان لازماً على الاتجاه السائد في التحليلات الماركسية لوسائل الاتصال الجماهيري أن يعالج وسائل الاتصال هذه بوصفها أدوات للإيديولوجيا، خاصة التهديد الذي يرى البعض أن وسائل الاتصال الجماهيري تشكله على أي نشاط ثقافي من أجل التحرر

(٥) ويليامز، رايموند Williams, Raymond (١٩٢١-١٩٨٨) يعد أعم مفكر 'يساري' في الحياة الثقافية البريطانية في القرن العشرين. وقد عدته صحيفة التايمز بقدر قمة سارتر. درس الأدب الإنجليزي في جامعة كامبردج (رغم أنه ابن أسرة عمالية فقيرة)، ثم أكمل دراسته - بعد أدائه الخدمة العسكرية - في أوكسفورد، وانتهى به المطاف أستاذاً في كامبردج. كاتب قدير ومؤثر غزير الإنتاج غطت دراساته مدى واسعاً بدءاً من الرواية الواقعية حتى روايات الخيال العلمي، ومن الدراسات الرائدة لوسائل الاتصال الجماهيري حتى النقد الأدبي الرصين، ومن فقه اللغة التاريخي إلى النظرية الثقافية في أعلى مراحلها. من أهم أعماله: 'الثقافة والمجتمع' (١٩٥٨)، و 'الثورة الطويلة' (١٩٦١)، و 'التراجيديا الحديثة' (١٩٦٦)، و 'الدراما من إبسن حتى برخت' (١٩٧٠)، و 'الريف والمدينة' (١٩٧٣)، و 'الماركسية والأدب' (١٩٧٧)، و نحو عام ٢٠٠٠ (١٩٨٣)، و 'سياسات الحدائق' (١٩٨٩). (المراجع)

----- (ت) -----

السياسى. وبينما يشارك ويليامز أصحاب الاتجاه الماركسى هذه الاهتمامات، نجده يقدم صيغة أكثر دقة وحصافة للنظرية الثقافية الماركسية. وقد تجلى ذلك فى العناصر الثلاثة التى يتضمنها تحليله للتلفزيون:

فهو معنى - فى المقام الأول - بأن يربط بين التلفزيون بوصفه ظاهرة ثقافية وبين تفسير يردّها إلى الظروف المادية للمجتمع. ولأن ويليامز يرفض نموذج التفسير البسيط القائم على مفهوم البناء التحتى والبناء الفوقى، والذى بمقتضاه يحدد التطور التكنولوجى شكل البناء الثقافى الفوقى، نجده يقوم بتعيين المتطلبات الاجتماعية اللازمة لتطور التلفزيون وانتشاره فيما أطلق عليه مصطلح "الخصوصية المتنقلة" Mobile Privatism. فتكنولوجيا التلفزيون لا يمكن استثمارها تجارياً إلا عن طريق تكييفها للاستعمال داخل المنزل. ويتم تحقيق شىء من التوازن لمعادلة هذه الخصوصية إلى حد ما (وخاصة داخل المملكة المتحدة) عن طريق سيادة البث التلفزيونى الحكومى، الذى يتيح سيطرة الدولة على التلفزيون. والحق أن ويليامز يدرك بوضوح قدرة الجانب الاجتماعى للتلفزيون (خاصة احتمال التجاوب مع الثقافة التلفزيونية الكوكبية الخاضعة لأمريكا) يدرك ما ينطوى عليه من إمكانية تحقيق عدد من أشكال الاتصال المحلى والديموقراطى بشكل مضطرد.

ويهتم ويليامز - فى المقام الثانى - ببناء الخبرة والمضمون التلفزيونى. فالبرامج يتم تنظيمها فى صورة تدفق متتابع، على خلاف العرض فى صورة سلسلة من الوحدات المنفصلة. والمعتقد أن هذا البناء يفضى بجمهور المشاهدين إلى السلبية، لأن هذه البرامج لا تؤثر فيهم إلا بشكل سطحي وعابر، وفى أثناء فترات الاسترخاء.

وأخيراً، يبدأ ويليامز فى التشكيك فى الأنماط السائدة لبحوث المشاهدة. إذ يرى البعض أن هذه البحوث تقوم على نوع ساذج من الاختبار للأثار المتفرقة التى يفترض أن يحدثها التلفزيون فى مشاهديه (كان يولد لديهم الميل للعنف مثلاً)، متجاهلة بذلك الأبنية/ أو النظم المؤسسية المعقدة التى يتم داخلها إنتاج التلفزيون واستهلاكه.

وبصورة مماثلة يشكك ستewart هول^(*) فى الفرضية التى تسلم بوجود أى نموذج على (سببى) بسيط يمكن أن يفسر تأثير التلفزيون على جمهوره. ولكنه يولى اهتمامه للرسالة (الإيديولوجية) التى يفترض أن ينقلها التلفزيون. ولأن هول يدرك مدى التعقد الذى تتصف به عمليات إنتاج (أو تشفير) الرسالة وعمليات تفسيرها (أو فك شفرتها) فإنه يذهب إلى أن صانعى البرامج التلفزيونية لا يستطيعون أن يحددوا المعنى الذى سوف يفهمه المشاهدون من هذه البرامج. إذ يتم تشفير الرسالة التى تنقلها هذه البرامج فى سياق مجموعة من الأفكار الثقافية المسبقة والمعارف المسلم بها، وعلاقات الإنتاج والتكنولوجيات (التي تؤثر - مثلاً - على طريقة انتقاء المادة المستخرجة من عالم الحياة اليومية وتغيير شكلها لتكون صالحة للإرسال). وقد تتوافق أو لا تتوافق هذه الأطر مع نظائرها لدى جمهور المشاهدين. لذلك قد يُعتقد أن جماهير المشاهدين يتجاوبون مع رسالة التلفزيون ضمن واحدة من ثلاث فئات عامة.

١- "موقف السيطرة" والهيمنة الذى يستتبعه القيام بفهم هذه الرسالة (والموجودة، مثلاً، فى نشرات الأخبار أو فى برامج الأحداث الجارية) على تحويع فى نطاق نفس الإطار الإيديولوجى الذى كتبت رموزها وفقاً له.

(*) هول، ستewart Hall، (من مواليد ١٩٣٢) من أبرز المفكرين البريطانيين المعاصرين (أصله من جامايكا)، ومن رواد "اليسار الجديد" هناك، وكان أول رئيس تحرير مجلة اليسار الجديد. تخلى فيما بعد عن حركة اليسار الجديد، وانتقل للعمل بمركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة، وتولى إدارته من ١٩٦٨ حتى ١٩٧٩ وحظى بشهرة واسعة فى دوائر المثقفين بفضل كتاباته الغزيرة المتنوعة. ويعدده البعض تجسيداً للنموذج المثالى "للمثقف العضوى" الذى بشر به المفكر الماركسى أنطونيو جرامشى، ويقصد به ذلك المثقف المستعد دائماً لاجتياز الحدود الفاصلة بين عالم السياسة والعالم الأكاديمى، من أهم مؤلفاته: "المقاومة بالطوقس: ثقافات الشباب الفرعية فى بريطانيا بعد الحرب" (١٩٧٦)، وإدارة الأزمة: العيوس، والدولة، والقانون والنظام (١٩٧٨)، والسياسات التاتشيرية (١٩٨٣)، والتاتشيرية وأزمة اليسار (١٩٨٨)، و"عصر جديد" (١٩٨٩). للمزيد انظر: A.Elliott and L.Ray, Key Con- temporary Social Theorists, Blackwell, 2003 (المراجع)

٢- "الموقف الفكرى التفاوضى" الذى يستتبع القيام بنوع من أنواع إعادة التفسير الجزئى (والمناقض) لهذه الرسالة فى ضوء خبرة المشاهدين المباشرة.

٣- ونجد أخيراً، أن "الموقف الفكرى المعارض" يستتبع أن ينظر المشاهدون من خلال الإطار السائد وهم مقرون، مثلاً، بالاحتكام إلى المصلحة القومية بوصفها تعزيزاً لمصلحتهم الطبقيّة (انظر مادة: طبقة). وقد طرح مورلى Morley (١٩٨٠) فى تحليله لنشرات الأخبار وبرنامج الأحداث الجارية فى التلفزيون - المذاع تحت عنوان "على امتداد البلاد" - Nationwide طرح اختياراً إمبيريقياً لجذوى محاولة التنميط هذه، فضلاً عما أتاحه من التعمق فى استكشاف العلاقة بين المواقف الفكرية الخاصة بتفسير رسالة التلفزيون وبين غيرها من المتغيرات، كالطبقة، ومستوى التعليم، والسن.

وقد نشرت مجموعة جامعة جلاسجو لدراسة وسائل الإعلام سلسلة من التحليلات الإمبيريقية والسيميوطيقية لنشرات الأخبار فى التلفزيون البريطانى. وقد أثبت التحليل المكثف والشامل للبرامج التلفزيونية المسجلة على أشرطة الفيديو وجود تحيز إيديولوجى منظم. من ذلك مثلاً أن تغطية أخبار النشاط الصناعى كان مقصوداً بها تحريف صورة المستوى الحقيقى والطبيعية الفعلية للنشاط الصناعى الجارى فى البلاد. فلم يتطابق مستوى التغطية التلفزيونية للصناعة ككل، أو لبعض الصناعات المعينة، مع طبيعة الإضرابات العمالية الجارية أو عددها. وكانت الأهمية الخبرية للإضراب تنقرر، إلى حد ما، تبعاً لتقدير مدى الإزعاج الذى يمكن أن يسببه الإضراب للجمهور. يضاف إلى ذلك، أن التغطية الخبرية والتعليقات تنطلق من المصالح الخاصة بالنظام الرأسمالى والطبقات المتوسط (التي ينتمى إليها منتجو هذه البرامج بنسب مختلفة). ومع أن هذا البحث قد تعرض فيما بعد للانتقادات، وذلك فيما يتصل بفرضياته النظرية ومنهجيته، فقد يرى البعض أنه قد أثر بالفعل، ليس فقط على ما تلاه من بحوث بل امتد هذا التأثير إلى الأنشطة الخاصة بإذاعة نشرات الأخبار التلفزيونية، وذلك فى المملكة المتحدة على أقل تقدير.

ومع أن أعمال هول - وأعمال مجموعة جامعة جلاسجو بدرجة أقل - قد فتحت الباب على مصراعيه للقضايا المتصلة بتحليل التلفزيون بوصفه نصاً، فإنها مع ذلك ركزت على تغطية الأخبار. لذلك حرص المحللون اللاحقون على توسيع نطاق البرامج التي يعنون بدراستها (بما فيها المسلسلات التلفزيونية والأعمال الكوميدية المعتمدة على كوميديا المواقف). أضف إلى ذلك أنه بينما ركزت البحوث التي تمولها أجهزة الإعلام على أعداد وأنماط مشاهدي برامج معينة (وذلك لأغراض إعلانية)، فإن بحوث علم الاجتماع والدراسات الثقافية تحرص على تأمل التنوع والاختلاف في الطرق والأساليب التي بها يتم تفسير البرامج التلفزيونية والإقبال عليها.

وقد بحث أنج Ang (١٩٨٥) موضوع مشاهدة المسلسل التلفزيوني اليومي "دالاس". والمفروض أن هذا البرنامج ينتمي إلى نوع من المسلسلات "الواقعية العاطفية"، بمعنى أنه رغم عدم تطابق المواقف التي يصورها هذا المسلسل مع خبرات الحياة لدى جمهور المشاهدين، فإن العواطف التي يعبر عنها تتطابق مع مشاعرهم. وتؤكد أنج أهمية المتع المختلفة التي تتحقق من خلال مشاهدة مسلسل دالاس، بما فيها - مثلاً - متعة "الهروب" التي تزيل الحواجز بين الواقع والخيال (وبذلك قد تكمن هذه المتعة في تقبل مسلسل دالاس بوصفه جزءاً من الملل والرتابة التي تتصف بها الحياة اليومية، بدلاً من أن تكمن في الفرار هروباً منها). وقد طور عدد من المفكرين المعنيين بالحركة النسوية التحليل الذي قدمته أنج مستعينين بنظرية التحليل النفسي، فطرحوا - بناءً على ذلك - المزيد من القضايا الخاصة بالعلاقة بين مشاهدة التلفزيون وبناء هوية النوع الاجتماعي.

أما فيسك Fiske (١٩٨٧ و ١٩٨٩) فقد ذهب إلى اعتبار التلفزيون نموذجاً للثقافة الجماهيرية أو الشعبية، ولهذا نجده يعود إلى التركيز على متعة المشاهدة، كما يرى ضرورة التفرقة بين البرنامج التلفزيوني بوصفه منتجاً تجارياً وبين تفسير عامة الناس

له (بوصف هذا التفسير منتجاً ثقافياً). فعامة الناس يعتقدون مختلف الآراء والاتجاهات، وبذلك يتم تفسير نفس البرنامج بصورة مختلفة، ويشاهد بطرق لم تكن واردة لدى صانعيه. لهذا يمكن القول إن استهلاك الثقافة الشعبية أو الجماهيرية يرقى إلى درجة أن يكون نوعاً من المعارضة التي تستمتع بالسخرية من الكتلة السياسية الحاكمة. وقد نجد ما يعارض هذا الرأي الذي انتهى إليه فيسك لدى إيجلتون Eagleton (١٩٩١). ومع أن إيجلتون ينتقد الاتجاهات التي تبالغ في تأكيد أهمية المضمون الإيديولوجي للبرامج التلفزيونية، فإنه يذهب إلى أن للتلفزيون تأثيراً إيديولوجياً على المشاهدين يتمثل في تلك السلبية السياسية التي تتولد من الاستعمال الشخصي للتلفزيون.

وقد أصبحت أعمال بودريار ذات أهمية كبرى في مسيرة نظريات ما بعد الحداثة التي تعالج قضية التلفزيون. ويقوم الاتجاه الفكري لبودريار في جوهره (وأعني نظريات "الواقعية الفائقة" و"صور المحاكاة") على محاولة تقويض الأساس الذي يرتكز عليه التعارض بين الواقع والخيال. فهو يرى أن المستوى الحالي لتكنولوجيا وسائل الاتصال لا يعيد إنتاج الواقع الموجود من قبل، إنما هو يخلق هذا الواقع. فالعالم الذي نعيشه ليس سوى ثمرة تفاعل وسائل الاتصال المختلفة (التلفزيون، والسينما، والفيديو، والموسيقى الشعبية، وما إلى ذلك)، وذلك بالنظر إلى أن صور المحاكاة أصبحت لها في أيامنا هذه تأثيرات حقيقية. وهكذا استطاع بودريار (١٩٩١) أن يطرح دعواه المشهورة وهي أن حرب الخليج الأولى لم تحدث في واقع الأمر، ويخفى هذا التعبير المغالى فيه زعماً بأن حرب الخليج تمت إدارتها، ليس فقط تحت أعين كاميرات التلفزيون، بل الأصح أنها أدير من أجل هذه الكاميرات. ومن ثم تصبغ هذه الحرب عرضاً مسلياً (يتجلى بأقصى درجات الوضوح في الصواريخ الموجهة التي تحمل كاميرات تلفزيونية) حتى وإن كان عرضاً يجرى في أعقاب الموت والدمار.

(ت) -----

وبهذه الصورة يرى بودريار أن طبيعة الحرب نفسها قد تغيرت بفعل التلفزيون (AE) للمزيد انظر: Morley (١٩٩٢) و Stevenson (١٩٩٥).

تمثيل

Representation

انظر: تصور.

التمفصل

Articulation

هو الجمع بين اثنتين من القوى الاجتماعية في علاقة بنائية وتراتبية. وقد برز هذا المصطلح في ثانيا التحليلات الماركسية لنمط الإنتاج، وبصفة خاصة تلك التي قدمها الفيلسوف الفرنسي ألتوسير. ومفاده أنه في كل لحظة تاريخية معينة، يسود نمط إنتاجي واحد. ومع ذلك، فإن هذا النمط لا يقوم بإقصاء الأنماط الإنتاجية الأخرى، بل يفرض عليها أن تتكيف وفقاً لاحتياجاته. لهذا، قد يظل النظام الملكي الإقطاعي باقياً مستمراً في ظل الرأسمالية، ولكن لا يتم له ذلك إلا بمقدار ما يتكيف وفقاً لاحتياجات الرأسمالية (انظر أندرسون Anderson ١٩٧٩) وقد عولج هذا المفهوم في التحليلات الخاصة بمادة العرق، ومادة النوع الاجتماعي، ومادة القومية في هذه الموسوعة (AE)

التناقض

Contradiction

في حالة القضية المنطقية (ب) التي تعني دعوى ما (ك) (خاصة بالوضع العام لموضوع ما مثلاً) والتي تنفيها قضية أخرى (أ)، في هذه الحالة يقال لهاتين القضيتين إنهما في حالة تناقض أو هما متناقضتان. وإن دعوى صدق واحدة من هاتين

القضيتين ولتكن (ب) يعنى بالضرورة كذب القضية الأخرى (أ). وهكذا، نجد فى مجال المنطق، أن مبدأ عدم التناقض يقرر أن كل دعويتين تصفان موضوعاً ما بوصفين ينفى كل منهما الآخر لا يمكن الزعم بأنهما صحيحتان فى نفس الوقت. مثال ذلك أنه من المحال بالنسبة لشيء ما أن يكون موجوداً ولا يكون موجوداً فى نفس الوقت. لهذا فإن مبدأ عدم التناقض بمثابة قاعدة لبناء الحجج الصحيحة. وفى أعمال هيجل وماركس، يؤدى مفهوم التناقض وظيفة هامة. فتصور هيجل لمعنى الجدل، مثلاً، يعتمد على فكرة التناقض نظراً لقوتها، وعند هيجل يعتبر التناقض مبدأً جوهرياً بالنسبة لطبيعة الوجود، وهو المبدأ الذى يتم التغلب عليه فى العملية الجدلية.

وفى المجالات الاجتماعية والسياسية، يستعمل مفهوم التناقض لتدقيق المشكلات ذات الأهمية الأساسية للعلاقات القائمة بين الأفراد فى المجتمع. وفى المجتمع المدنى، مثلاً، قد تنشأ التناقضات نتيجة لكون الأفراد المدنيين يسعون لتحقيق أهدافهم الخاصة (وقد لا تكون أهداف الفرد "س" متناسبة مع أهداف الفرد "ص") أو قد تنشأ هذه التناقضات نتيجة لأن مصالحهم تعارض بعضها بعضاً (PS).

التنشئة الاجتماعية

Socialization

التنشئة الاجتماعية هى العملية التى عن طريقها يتعلم الفرد كيف يكون عضواً فى مجتمع معين وثقافة معينة، ومن ثم يكون كائناً اجتماعياً وثقافياً حقاً. فالفرد يتشرب ثقافته فى نفسه، ومع أن لهذه العملية أهمية جوهريّة فى فهم الكيفية التى بمقتضاها تقوم الثقافات بمهامها، وخاصة فيما يتصل بالطريقة التى تتبعها فى إعادة إنتاج أنفسها عبر الأجيال، فإن الطبيعة الدقيقة للتنشئة الاجتماعية جرى التنظير لها بطرق مختلفة غاية الاختلاف، كما أنها لا تزال تقع فى مكان القلب من عدد من المناقشات الأساسية التى تبحث طبيعة الكائن الإنسانى والمجتمع الإنسانى.

وفى التراث الفكرى للنزعة الوظيفية فى مجال علم الاجتماع ومجال الأنثروبولوجيا الثقافية، تقوم التنشئة الاجتماعية بتكييف الفرد للقيام بالأنوار الاجتماعية المتوقعة منه. ففى ماضى كان يسود الاعتقاد - عموماً - بأن الطفل يولد كصفحة بيضاء يستطيع المجتمع أن يدون عليها ما يشاء من الصفات المميزة. وتشمل هذه الصفات المميزة العقائد الأساسية المتصلة بالمجالات الطبيعية والاجتماعية، بل والمجالات التى تقع فيما وراء الطبيعة، وذلك جنباً إلى جنب رؤية للكون ترتبط بهذه العقائد. كما تشتمل على القيم والأشياء المفضلة والمقدرة، سواء كان ذلك التفضيل فى الأمور المتعلقة بالجمال، أو بطرق الطهو، أو بالأخلاق (وإلا فكيف يمكن تفسير قدرة سكان جزيرة أيسلاند على أكل لحم سمكة القرش العفن إلا بمقتضى هذه التفضيلات؟). وتشمل تلك الصفات المعايير الخلقية التى يتقبلها الفرد من غير اعتراض، وأن يحكم بها على الآخرين؛ وتشمل أنماطه السلوكية (والتي تتضمن - بشكل لافت فى دلالاته - تلك الأنماط المرتبطة بالأنواع الاجتماعية). وعلى ذلك، يمكن النظر إلى شخصية الفرد أو ذاته باعتبارها ثمرة لذلك المجتمع المعين الذى ولد فيه الفرد.

وقد ركزت النزعة الوظيفية بشدة على التنشئة الاجتماعية "الأولية" أو "الأساسية" التى تتم داخل الأسرة. وبهذا الاعتبار، يؤول الأمر بالتنشئة الاجتماعية إلى تصويرها بصفته عملية تكتمل إلى حد كبير خلال السنوات الأولى من الطفولة، وأنها قد تتم بدرجة تقل أو تزيد من الجودة والإتقان، فإذا أخفقت التنشئة الاجتماعية، فسوف يترتب على ذلك أن يخفق الفرد فى التكيف مع مجتمعه. ومن شأن ذلك أن يفضى إلى الجريمة أو أى شكل آخر من أشكال الانحراف، وذلك لأن الفرد - فى هذه الحالة - يفشل فى الالتزام بالمعايير والأهداف التى تحظى بالتقدير والاحترام فى مجتمعه. وقد قوبلت هذه الفلسفة (الوظيفية) بالاعتراض، ومن أشهر الاعتراضات ما ذكره دينس رونج D.Wrong (١٩٨٠) من أنها تمثل رؤية للكائن الإنسانى "تسم بالغلاة فى تقدير

دور المجتمع". ولهذا فقد تغيرت نظرية التنشئة الاجتماعية، خاصة في التراث الفكري للنزعة التفاعلية الرمزية، لتعترف بأن الفرد ليس مجرد متلق سلبي لهذه العملية، ولتعترف - فوق ذلك - بأن هذه العملية قد لا تكتمل بالضرورة. ويرتكز هذا الفكر على أعمال جورج هربرت ميد والفرد شووتز. يشهد لذلك أن ميد (١٩٣٤) يميز بين "الذات" "إ"، باعتبارها الذات غير الواعية بنفسها والتي تستجيب لأفعال الآخرين واتجاهاتهم، و"الأنأ" (Me)، باعتبارها تمثل فهمنا الذاتي لأنفسنا كموضوع. وتقوم التنشئة الاجتماعية بعملها، خاصة من خلال "الأنأ"، بمقدار ما يلتزم الفرد - بصورة فعالة - بمجموعة منظمة من الاتجاهات التي تلقاها عن الآخرين، الأمر الذي يؤدي إلى الاعتراف به وفقاً للمفاهيم ذات الدلالة الاجتماعية. ويعترف هذا الاتجاه الفكري في مجال التنشئة الاجتماعية بوجود ذلك الهامش الذي يملكه الأفراد في تفاوضهم مع الآخرين، ويعترض على القيم والمعتقدات التي تجابه الأفراد في صراعهم من أجل فهم معنى الأوضاع التي يجدون أنفسهم فيها، وفيما يعقب هذا من صراع لفهم هويتهم الذاتية والتعبير عنها.

وعلى هذا الأساس، لسنا بحاجة إلى أن نتصور أن التنشئة الاجتماعية عملية موقوتة بفترة زمنية معينة، وذلك لأن ما يقوم به الفرد من التفاوض والصراع المذكورين بغية التماس المعنى في الأوضاع المستجدة والأوضاع التي لا يمكن التنبؤ بها - الذي هو من صميم عملية التنشئة الاجتماعية - سوف يستمر متواصلًا على امتداد حياة الفرد. فالتنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الطفل في الأسرة يعقبها، ويعززها ويعارضها ما يتلقاه بعد ذلك من التعليم الرسمي في المدرسة؛ ومن الاحتكاك مع نظرائه وأقرانه، وما يكتسبه من وسائل الاتصال الجماهيري؛ ومن المشاركة في الثقافات الفرعية؛ ومن العمل. فإذا كانت التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة، فمن العسير إذن اعتبارها ناجحة أو فاشلة. وقد يعطينا الموقف الفكري الذي تتبناه نزعة التفاعلية الرمزية من

قضية التنشئة الاجتماعية إحياءً بأن الفشل الظاهري للتنشئة الاجتماعية قد يمثل فشل الثقافة الخارجية في إشباع حاجات الفرد، لا فشل الفرد في الوفاء بحاجات المجتمع وتوقعاته. ومن الأمور التي توحى بالمفارقة والتناقض، أن ويليس Willis (١٩٧٧) أثبت أن المقاومة الفعالة التي يواجه بها تلاميذ المدارس الفقراء ما يتلقونه من تنشئة اجتماعية في مدارسهم، تفضى إلى اندماجهم في طبقة العمال غير المهرة.

وفيما يتصل بأساس تحليل التنشئة الاجتماعية، توجد بعض القضايا والمسائل المعقدة التي قد تكون غير قابلة للحل، تدور حول العلاقة بين الطبيعة والثقافة، ومن ثم فهي تتصل على وجه الدقة بمقدار ما يتشربه الفرد من مجتمعه (وتتصل - بناءً على ذلك - بمدى ما تتصف به الطبيعة الإنسانية من مطاوعة أى قدرة على التكيف والتجاوب مع تأثيرات المجتمع)، وبمقدار ما فى هذه الطبيعة الإنسانية من جوانب فطرية كامنة أو تقررهما الاعتبارات البيولوجية. (AE) للمزيد انظر: Berger (١٩٦٣).

The Enlightenment

التنوير

حركة فكرية جرت فى فرنسا (وكذلك فى بريطانيا فى صورة "حركة التنوير الاسكتلندية") خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر. ومن أهم المفكرين المرتبطين بحركة التنوير دالمبير^(*) D,Alambert، وديديرو^(**)، وهيزم، وكانط، وروسو، وسميث، وفولتير. وإن القول بالمؤثر

(*) دالامبير، جان لورون D. Alembert, Jean le Rond (١٧١٧-١٧٨٣) فيلسوف وفيزيائي وعالم رياضيات فرنسي. حرر هو وديدرو الموسوعة الفرنسية Encyclopedists. كان أمين السر الدائم للأكاديمية الفرنسية Académie Française وقد عرضت عليه رئاسة أكاديمية برلين فرفضها. وضع دراسات رياضية استغرقت ثمانية مجلدات كاملة (عام ١٧٨٠). (المراجع)

(**) ديدرو، دنيس Denis, Denis (١٧١٣-١٧٨٣) موسوعي فرنسي، وفيلسوف مادي، وناقد أدبي وفني. كان أيضاً هجاء، وروائياً، وكاتباً مسرحياً أصبح ١٧٤٧ رئيساً لتحرير "الانسيكلوبيديا" التي اشترك في =

الذى طرحه كانط حينما قال "تجرأ على الفهم" Dare to Understand ليلخص تلخيصاً جيداً تلك النظرة التفاضلية الأساسية التى كانت بمثابة الدافع لأغلب إنجازات التفكير التنويرى.

وقد اتسم هذا التفكير بعدد من الاتجاهات الهامة: إيمان وثيق بقدرة العقل على حل المشكلات الاجتماعية بجانب حل المشكلات الفكرية والعلمية، ونظرة نقدية هجومية على ما كان ينظر إليه - حينئذ - على أنه يمثل التأثيرات الرجعية للتراث والمؤسسة الدينية (وتتمثل هذه النظرة الهجومية فى تصريح فولتير الشهير عن الديانة المسيحية بقوله: "اسحقوا هذا العار!"); وإيمان وثيق بالنزعة الإنسانية وبنموذج التقدم، وتأييد سياسة التسامح والتفكير الحر. وعلى الرغم من ذلك الموقف الذى يتصف عمومًا بأنه موقف نقدي إزاء الدين، فليس كل مفكرى حركة التنوير من المجاهرين بالإلحاد، مثل ديدرو، فقد كان فولتير يؤمن إيماناً عميقاً بإله مخالف لصورة الإله فى المسيحية، بينما كان هيوم من المتسككين بالنزعة أو الفلسفة اللادينية فيما يتصل بتلك الأمور^(*). وذلك على الرغم من أن نقده الشهير للإيمان بالمعجزات يكشف عن الالتزام المعروف عن أصحاب النزعة التنويرية بوجهة النظر التى تشكك فى المعتقدات الميتافيزيقية، وذلك فى ضوء ما أحرزته العلوم الطبيعية من وجوه التقدم بعدما نشر نيوتن كتابه بعنوان

= تصنيفها أهم كتاب العصر. من أهم مسرحياته "رب الأسرة" ١٧٥٨، و"الراهبة" ١٧٩٦، ومن مؤلفاته الفلسفية "خواطر فلسفية" ١٧٤٦، و"رسالة عن الكونفون" ١٧٤٩، وفيها يشرح فلسفته المادية. نشأ النقد الفنى الحديث فى ناديه، حيث كان يجتمع أشهر كتاب العصر وفنانيه. تعد مراسلاته صورة واضحة لعصره. عانى فى أخريات أيامه من الضيق المالى، حتى كفلته كاترين ٢ قيصرية روسيا. كان له أثر كبير فى خلفائه المباشرين، مثل ملباخ وهلفتيوس، من كتاب فرنسا، وغيرهما من كتاب ألمانيا وإنجلترا. يقرن اسمه بالحركة الموسوعية، ويعد صاحب عبقريّة فذة فى هذا الميدان. (المراجع)

(*) الفلسفة اللادينية ليست إلحادية، ولكنها ترى أن العقل البشرى ليس فى مقدوره معرفة حقيقة الإله. (المراجع)

"Principia"^(*) وإذا قلنا ذلك، فلا بد من أن نذكر أن هيوم كان كثيراً ما يعارض ميل حركة التنوير للإيمان الشديد بالعقل، وأن كتابات روسو كثيراً ما كانت مرتبطة بتطور الرومانسية.

ولا يزال بعض النقاد أو المعلقين - مثل هابرماس - متمسكين بالمشروع الأساسي لحركة التنوير كما صاغه كانط، أي أنهم متمسكون بأحد المشروعات النقدية للحدثة التي تستهدف توضيح الأساس العقلاني لخطابات المعرفة، والنقد السياسي والاجتماعي. كما أن ليوتار (الذي ساءت سمعته بسبب تأييده في أوائل عهده (١٩٧٩) لنزعة ما بعد الحدثة^(**)) يرى أن حركة التنوير تمثل مرحلة حاسمة في مسيرة تطور العقل النقدي، بمعنى أنها كانت إيذاناً بظهور ما بعد الحدثة، ويظهر ذلك المعنى في كتابات كانط - ويصفه أساسية في كتابه "نقد الحكم". وقد دأب كثير من المفكرين في القرنين التاسع عشر والعشرين على معارضة المشروع التنويري، أو على محاولة إعادة صياغته بطرق مختلفة. مثال ذلك (١) أن تفكير نيتشه (رغم ارتباطه - مؤخراً - بفكر ما بعد الحدثة المعادي للتنوير) يدين بلا شك بقدر كبير من الفضل لتراث حركة التنوير، خاصة في كتبه الصادرة في أواخر سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، ومنها مثلاً كتابه بعنوان "إنسانيون - إنسانيون أكثر من اللازم" (١٨٧٨) الذي كرسه نيتشه لإحياء ذكرى فولتير عند نشره لأول مرة. كما يتخذ نيتشه موقف الشك المنهجي الذي يدل على تأثره بالفكر التنويري. (٢) والمثال الآخر كتاب هوركايمر وأبورنو ("جدل التنوير" - ١٩٤٧) الذي يسعى لتفريغ المسلمات المنهجية الأساسية التي يقوم عليها مفهوم العقلانية في حركة التنوير من مضامينها، في نفس الوقت الذي يتمسك بمثلها النقدية. (PS) للمزيد انظر: Habermas (١٩٨٨) و Gay (١٩٨٨) و Berlin (١٩٧٩).

(*) وهو اختصار للعنوان الكامل للكتاب: "Philosophiae Naturalis Principia Mathematica" أي:

المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية. الذي كتبه ونشره نيوتن سنة ١٦٨٧. (المراجع)

(**) أي تأييده لها في نقدها للتنوير والعقلانية وغيرها من مظاهر الحدثة (المراجع)

ليس من السهل تعريف مصطلح "الثقافة"، ولا يعود ذلك فقط إلى أن له معانٍ مختلفة عند استعماله في سياقات مختلفة. ومع ذلك، فإن المفهوم المستخدم في صميم الدراسات الثقافية هو إلى حد بعيد جداً، وكما يوحي به الواقع، نفس المفهوم الموجود في الأنثروبولوجيا الثقافية. وبهذا الاعتبار، فإن مصطلح الثقافة يتجنب أى اهتمام يحصره فقط في مجال الثقافة "الرفيعة" (وهو الاهتمام الذى لا يزال موجوداً، مثلاً، فى كتابات أرنولد Arnold، وليفيز Leavis، وفى النظريات الخاصة بموضوع الصفوة وموضوع المجتمع الجماهيري). ويستتبع ذلك المصطلح أن نعترف بأن جميع الكائنات البشرية تعيش فى عالم من صنع البشر، وأنها تجد فى هذا العالم معنى حياتها. فالثقافة هى هذا العالم المعقد الذى نواجهه فى حياتنا اليومية ونتحرك خلاله. وتبدأ الثقافة من هذه النقطة التى يتجاوز عندها البشر كل ما اكتسبوه من الطبيعة باليراث. وهكذا، نجد أن معالجة العالم الطبيعي أو تعهده بالعناية والاستصلاح، فى صورة الزراعة وفلاحة البساتين، يشكل عنصراً أساسياً من عناصر الثقافة. وبهذا الاعتبار، فإن أهم عنصرين أو أشمل عنصرين من عناصر الثقافة قد يتمثلان فى قدرة البشر على التشييد والبناء، وقدرتهم على استعمال اللغة (منظوراً إليها بصورة أشد اتساعاً من مدلولها الحرفي، لتتسع لجميع أشكال نسق العلامة).

ومما يلقي الضوء على هذا المعنى ما قام به جيليان روز G. Rose من استعماله للأسطورة اليهودية عن برج بابل (١٩٩٢). ففي بابل، حاول البشر أن يصلوا إلى السماء عن طريق بناءهم برجاً. ولكن الرب لم يدمر هذا البرج فحسب، إنما منع الاتصال بين البشر بعضهم ببعض بأن جعلهم يتحدثون بلغات متعددة، وذلك حتى يمنعهم من تجديد هذه المحاولة فيما بعد. وكثيراً ما تعد هذه القصة عملاً رمزياً يفسر ويبرر تعدد اللغات. ولكن روز قد نظر إلى هذه الأسطورة نظرة أبعد مما توحى به فى

ظاهرها، واعتبرها عملاً فنياً رمزياً يشير إلى اللغة وإلى العمارة. لهذا ينظر المفكرون إلى هذه الأسطورة على أنها تفسير وتعليق على عدد من الموضوعات الرئيسية فى الدراسات الثقافية، بما فيها موضوع المجتمع، والصدام بين الثقافات المختلفة، والقوة، والقانون، والأخلاق، والمعرفة. ولعلنا نبلور الخطوط الرئيسية لعدد قليل من هذه الموضوعات الرئيسية. فروز يرى أن بابل لا تمثل مشروعاً معمارياً فحسب، وإنما تمثل إلى جانب ذلك مشروعاً لبناء مدينة. فالمدن تمثل حدوداً ثقافية فاصلة، ذلك لأن الثقافات المختلفة (أى العادات الاجتماعية، والمعتقدات، والقيم المختلفة) إنما تتلاقى معاً فى المدينة. وفى المدينة يعى الناس - وربما لأول مرة - أن لهم ثقافة، ففيها يوجد دائماً من يختلف مع ما تأخذه مأخذ التسليم على الدوام. ويرتكز وعينا الذاتى بكوننا كائنات ذات طابع ثقافى على هذه المواجهة مع المختلفين عنا (وذلك حال نضالنا فى مداومة التمسك بقيمتنا الخاصة فى مواجهة هجوم الآخرين عليها).

والقضية الهامة فى أسطورة بابل، وربما فى جميع ثقافات البشر، هى أن البشر - من واقع إنجازهم المعمارى المتمثل فى بنائهم "المدينة / البرج" - حققوا لأنفسهم نوعاً من الخلود. وعلى حين تنتهى حياة الفرد بالموت، تستمر المباني التى بناها جيله باقية وتصبح جزءاً من المستقبل. فالثقافات تبقى وتدوم على الرغم من وفاة الأفراد الذين بنوها. وبهذا الشكل - على الأقل - يتغير فهمنا أو رؤيتنا للزمن، ويتخلق فهمنا وإدراكنا للتاريخ. لكن تحقيق هذا الإنجاز، كما يسميه روز، يستتبع خسارة المراء لليقين الذاتى البسيط. إن الوحدة والشمولية التى كانت القبيلة اليهودية الأولى تتصف بهما فى عزلتها وحياتها القائمة على السفر والترحال قد واجهت التحدى والتشكيك عندما واجهت ما تتصف به الثقافات الأخرى من تنوع وما تدعيه لنفسها من عمومية وشمول. ومن الأمور التى تتطوى على تناقض ظاهرى، أنه فى نفس اللحظة التى نكتسب فيها وعينا بأنفسنا بوصفنا كائنات ذات طابع ثقافى، نصبح قادرين على

أمرين اثنين معاً (حيث نستطيع أن نقوم بأعمال جديدة، بل نستطيع من حيث المبدأ أن نعمل ما نحب أن نعمله) ولكننا عندها نفقد اليقين بأن ما نفعله هو عين الصواب، وهكذا نقع فى الصدام مع الآخرين كلما قمنا بأى عمل. وعلى ذلك، يتعين على الدراسات الثقافية أن تهتم بالجهد الذى يبذله البشر فى صنع الثقافة، وبالنضال السياسى للعثور على المعنى أو الهدف للدفاع عنه. (AE) للمزيد انظر: Williams (١٩٨٦) و Jenks (١٩٩٣).

الثقافة الإلكترونية / ثقافة الواقع الافتراضى Cyberculture

هى الفضاء الثقافى (أو سايبيريا: Escobar 1994) الذى خلقتة تكنولوجيا الحاسب، خاصة وسائل الاتصال الإلكترونية التى تستخدم الحاسب، أى الإنترنت. فالثقافة الإلكترونية هى ذلك الحشد الهائل من المعلومات، والمعلومات المغلوطة، والأصوات، والصور، والأفكار التى يمكن الحصول عليها من الإنترنت، وذلك كله إلى جانب جملة الممارسات، والاتجاهات، والقيم، وأساليب التفكير التى تتفاعل مع "الفضاء الإلكترونى" وتمثل إحدى ثماره، والتى نجمت كلها عن الربط بين الحواسيب على مستوى العالم كله. والملاحظ أن تفسير الفضاء الإلكترونى وتحليله يتداخل إلى حد ملحوظ مع هموم الباحثين بشأن العلاقة بين الإنسانية وصور التكنولوجيا الأخرى، خاصة تعظيم القدرات الميكانيكية والوراثية للجسم البشرى التى تجلت فى شخصية السايبورج^(٥) (انظر مادة: ما بعد النزعة الإنسانية). وقد تم تناول مثل هذه الظواهر على نحو مكثف وبأسلوب نقدى فى روايات الخيال العلمى. وتجدر الإشارة هنا إلى

(*) السايبورج Cyporg هو الإنسان الذى اشتدت قواه الجسمانية -بفعل المعدات التكنولوجية- بحيث تجاوزت القدرات البشرية العادية. (المراجع)

(ث) -----

أعمال وليام جيبسون التي تكتسى أهمية ملحوظة، خاصة لأن جيبسون هو الذى صك مصطلح "الفضاء الإلكتروني" (وذلك فى ثنايا قصته القصيرة "الكروم المحترق" التى نشرت عام ١٩٨٦)، ومصطلح سايبيربانك^(*) (الذى يرسم معالم هذا النوع الخاص الجديد من روايات الخيال العلمى) (Gibson 1984).

وشبكة الإنترنت كان الجيش الأمريكى قد طورها فى الأصل خلال حقبة ستينيات القرن الماضى. وكان الهدف من فكرة وصل عدد كبير من الحواسيب الموزعة فى مواقع جغرافية متفرقة وجمعها فى شبكة واحد هو حماية نظام الحاسب ضد أى هجوم نووى، إذ إنه بهذا الشكل لا يكون ثمة نقطة ضعيفة يمكن تدميرها. ثم تحولت شبكة الإنترنت الأولى - إلى جانب وظيفتها العسكرية- إلى أداة للاستخدامات الأكاديمية. وكان أول جيل منها يحمل اسم شبكة ARPA، وكانت شبكة تصل -لأول مرة- الحواسيب الموجودة فى أربع جامعات أمريكية، وكان ذلك عام ١٩٦٩. ولكن الاهتمام التجارى بإمكانيات شبكة الإنترنت بلغ نقطة حاسمة فى أواخر ثمانينيات وأوائل تسعينيات القرن الماضى، وذلك عندما طور "تيم بيرنرز لى" برامج النص الإلكتروني المركب^(**) التى كانت أساس تطوير الشبكة بحيث تغطى العالم كله. عندئذ أصبح من الممكن للإنترنت أن تتطور خارج نطاق سيطرة الحكومات وخارج مجال التعليم، وأخذت تلعب دوراً محورياً متزايداً فى المجال التجارى، ومجال التسلية وأشكال عديدة أخرى من التفاعل الاجتماعى. واتخذت الشبكة شكلها المميز كساق أرضية شبيهة بالجذر (ويلاحظ بالمناسبة أن تحليل كل من ديليوز وجواتارى (١٩٨٧) لهذا المصطلح

(*) السايبيربانك Cyberpunk نوع من روايات الخيال العلمى التى تصور الثقافة المضادة - ذات الوجود الحضرى - فى عالم التكنولوجيا المتقدمة والواقع الافتراضى. (المراجع)

(**) النص الإلكتروني المركب Hypertext هو ذلك النص الذى يجمع بين الإحالات والأشكال والرسوم ويمثل أداة التعامل على الشبكة. (المراجع)

(ث) -----

كان بالغ التأثير فى رؤية النظرية الثقافية للإنترنت). والإنترنت بوضعها هذا أصبحت تدعو مستخدمها إلى أن يتجاوز عن الأشكال الخطية (المستقيمة) فى التفكير والبحث، وهى الأشكال التى هيمنت على الفكر الغربى ردحا طويلا من الزمن. فلم يعد التفكير يعرف الأشكال المركزية، وأصبح يتيح لمستخدم الشبكة أن يطور بنفسه ولنفسه كل سبل الاتصال والانفصال عبر كم هائل - يكاد يكون عديم الملامح - من المعلومات.

وقد خلقت شبكة الإنترنت مواقف متطرفة من الحماس المحب ومن المخاوف العميقة، شأنها شأن أى تكنولوجيا جديدة. وتجلى الصدام بين هذين الموقفين - ومازال - فى سلسلة طويلة من المناقشات ذات الطبيعة الأخلاقية والسياسية والثقافية. وقد بدأت المخاوف الأولى من المخاطر التى تتهدد الاستخدام الملائم للإنترنت (افتقاد هذا الاستخدام لأى قواعد أو أصول)، كشبكة واسعة من جانب جمهور عريض تغلب عليه الاعتبارات التجارية أحياناً؛ بدأت تلقى بظلالها على الشبكة التى كانت فى الأصل ذات طبيعة أكاديمية رفيعة. ولكن تلك المخاوف لا تزال مستمرة إزاء سوء استخدام البريد الإلكتروني (الذى قد يبلغ حداً مثيراً للغاية). وعلى مستوى أكثر عمقاً نجد الإنترنت يثير زعراً أخلاقياً من خلال إتاحتها لكافة أشكال العرى والعنف. وتعكس تلك المناقشات مخاوف قديمة ربما نجدها تتردد فى الكتاب العاشر من "جمهورية أفلاطون"، بما عبرت عنه من مخاوف بشأن فنون المحاكاة، وتحديداً لكونها قد فهمت بوصفها إغراء خطيراً تهدد الفضائل التى تستدعيها تلك الفنون إلى الـ *Plato* (١٩٩٨).

غير أننا نجد - برغم هذا كله - أن الأبعاد السياسية للإنترنت هى التى مازالت تمثل أكبر المخاوف من تلك الشبكة. إذ نجد -على مستوى معين- أن الأهمية المتزايدة للإنترنت فى الحياة اليومية (سواء كان ذلك على مستوى النشاط الاقتصادى أو الانخراط فى العمل السياسى أو فى التفاعل الاجتماعى) إنما تزيد من خطورة عدم

توفر اتصال بالإنترنت. إذ تتور عندئذ قضايا العدالة، حيث يجد الأفراد والجماعات الذين لا تتاح لهم فرص الاتصال بالإنترنت؛ يجدون أنفسهم مستبعدين من مصادر مهمة للمعرفة والنشاط الاجتماعي. وعلى مستوى آخر تتور المخاوف من التحكم التجارى والتحكم الحكومى فى شبكة الإنترنت. ذلك أن كثافة الاتصالات على شبكة الإنترنت قد دفعت مؤخراً بعض الشركات التجارية الخاصة التى توفر الخدمة إلى البحث فى إمكانية إنشاء وإتاحة "خطوط سريعة" للاتصال - تكون أكثر تكلفة بالطبع - لأولئك الراغبين فى ذلك والقادرين على دفع التكلفة الأعلى (وهو أمر قد يقلل فى الحقيقة من درجة انفتاح الإنترنت وإتاحته للكافة). على الناحية الأخرى نجد بعض الحكومات التى مازالت تملك من القوة ما يسمح لها بممارسة الرقابة على دخول مواطنيها على شبكة الإنترنت (وكثيراً ما يضرب المثل بممارسات الحكومة الصينية التى تعد نموذجاً لدرجة غير مقبولة من هذه الرقابة)^(*)، وكذلك مراقبة عمليات تبادل البريد الإلكتروني. كما تلعب الإنترنت دوراً متعاضداً الأهمية فى حركات النضال من أجل التحرير وسياسات الدفاع عن الهوية. فقد أصبحت الإنترنت أداة تزداد قوة فى يد جماعات المقاومة والجماعات الثورية، فعن طريقها تذيب أفكارها وتنتشر معلوماتها، وتتجنب وسائل الاتصال الجماهيري (كالتلفزيون) الأيسر خضوعاً للرقابة. ومن الشواهد على ذلك الدور الذى لعبه "المدونون" فى التعبير عن آراء وخبرات العراقيين وكذلك المعارضين الأمريكيين فى الحقيقة) خلال حرب العراق.

(*) لا تقتصر الرقابة الحكومية على التعامل مع الإنترنت على حكومة الصين. وإنما هى ممارسة شائعة فى كافة النظم الشمولية. وفى أغلب البلاد العربية. وما تزال الممارسات الحكومية فى هذا الصدد تتذبذب بين النفي والتأكيد (حسب ظروف الضغوط الدولية)، ولكنها تفصح عن نفسها بقوة فى مواقف بعينها. وتمثل الشبكة فى مصر - مثلاً - العمود الفقري لنظام الاتصالات وإصدار الأوامر والتعليمات فى تنظيمات الحركات الإسلامية وغيرها. (المراجع)

ولأن الفضاء الإلكتروني يتيح لمستخدمه أن يغير من هويته أو يختلق لنفسه هوية جديدة، فإنه يمثل - في الحقيقة - فضاء يمكن كل إنسان من أن يكتشف هويته هو نفسه على نحو خلاق (Turckle ١٩٩٦، ٢٠٠٥). فالسؤال: "من أنا؟" لا يطرح أبداً أثناء التعامل عبر الفضاء الإلكتروني. ولهذا يمكن القول إن مستخدم ذلك الفضاء ينصهر (على طريقة السايبورج) بفعل التكنولوجيا التي تتيحها له الإنترنت. فتجربة الفضاء الإلكتروني تهز بعنف الأفكار التقليدية عن تجسد الإنسان في كيان معين. وهكذا نجد أن الحركة النسوية عبر الفضاء الإلكتروني (التي تبنت تحليل هاراواي للسايبورج (١٩٩١)) قد أوضحت بجلاء الإمكانيات التي يتيحها الفضاء الإلكتروني لتفكيك التعارضات الثنائية ذات الطبيعة الأبوية التقليدية، كالتناقض بين الذكر والأنثى، والتناقض بين التكنولوجيا والطبيعة. (انظر: Kennedy (١٩٩٩) و Plant (١٩٩٧)).

وإذا كان الفضاء الإلكتروني يستطيع أن يغير فهمنا لذواتنا كأفراد وكجماعات، فإن استخدام ذلك الفضاء وشبكة الإنترنت قادر - من خلال الممارسة - على تغيير طرق تفاعلنا مع بعضنا البعض. وتعمل شبكة الإنترنت بسرعة - وعلى نحو لا يمكن التنبؤ به - على خلق أشكال جديدة من التفاعل، ومن التراسل البريدي الإلكتروني (الرسائل الطويلة والقصيرة)، والمدونات الكفيلة بخلق مواقع "الفضاء الخاص بي أنا"، والسكند لايف وما شابه، حيث تذوب الفروق بين الصداقات والعلاقات الاجتماعية، بل وبين الاقتصاديات "الواقعية" والافتراضية" Geffer (٢٠٠٦). (AE). للمزيد انظر: Sardar and Ravetz (١٩٩٦) و Levy (٢٠٠١) و Bell and Kennedy (٢٠٠٠).

Popular Culture

الثقافة الجماهيرية / الثقافة الشعبية

إذا عرفنا الثقافة الجماهيرية ببساطة بأنها الثقافة التي تروق لعموم الشعب أو التي يستوعبها الشعب أكثر من غيرها، فإن ذلك قد يخفي وراءه عدداً من مظاهر

التعقيد ومن الفروق الدقيقة المتصلة باستعماله فى نطاق الدراسات الثقافية. والمؤلف أن يستعمل هذا المصطلح إما للدلالة على شكل من أشكال الثقافة مناقض أو مضاد لشكل آخر، وإما بوصف هذه الثقافة الجماهيرية مرادفاً لذلك الشكل الآخر أو مكملاً له. وهكذا فإن المعنى الدقيق لمصطلح الثقافة الجماهيرية يختلف عند استعماله - مثلاً - فى مجال الثقافة الشعبية أو الفولكلورية folk culture عن استعماله فى مجال ثقافة وسائل الاتصال الجماهيرى، وعن استعماله فى مجال الثقافة الراقية. يضاف إلى ذلك أن الثقافة الجماهيرية قد تشير إما إلى الإبداعات الفردية (والتي تعالج فى كثير من الأحوال بوصفها نصوصاً) والتي منها مثلاً الأغنية الشعبية أو البرنامج التليفزيونى، وإما تشير إلى ما لجماعة ما من أسلوب المعيشة الخاص بها (ومن ثم فإنها تشير إلى نمط الإبداعات، والممارسات، وأشكال التفاهم التي تساعد على تثبيت دعائم الهوية المميزة لهذه الجماعة).

كانت النظريات المتعلقة بثقافة الجماهير (والتي كانت مسيطرة على علم الاجتماع الأمريكى والأوروبى فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين) كانت تربط الثقافة الجماهيرية بالإنتاج الصناعى، على خلاف الثقافة الشعبية التي يدرسها علم الفولكلور. وبينما كان ينظر إلى الثقافة الفولكلورية على أنها من نتاج عفوى يصدر عن الشعب بشكل تلقائى، كانت النظرية المتعلقة بثقافة الجماهير تركز على أشكال الثقافة الجماهيرية التي كانت خاضعة للوسائل الصناعية فى الإنتاج والتوزيع (كالسينما، والإذاعة، والموسيقى الشعبية) كما كانت هذه النظريات تصور هذه الأشكال الثقافية على أنها مفروضة على الشعب. وبهذا التصور يميل هذا الاتجاه الفكرى إلى افتراض أن الجمهور المتلقى لهذه الأشكال الثقافية كان مستهلكاً سلبياً لتلك السلع التي فرضت عليه. أما الرسالة التي تحملها هذه السلع والهدف الذي تقصده، فكان يتم تفسيرهما داخل سياق إحدى نظريات الإيديولوجيا الخاصة، التي كانت تنظر إلى جماهير

الشعب على أنهم واقعون تحت تأثير وسائل الاتصال الجماهيرى الحديثة التى تتلاعب بهم. ولعل أكثر أشكال هذا الاتجاه الفكرى تطوراً يتجلى فى تصور مدرسة فرانكفورت عن صناعة الثقافة.

ويتطور علم اجتماع وسائل الاتصال الجماهيرى وعلم اجتماع الدراسات الثقافية ابتداءً من خمسينيات القرن العشرين فصاعداً، بفضل أعمال هوجارت Hoggart وما قدمه مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة من إنجازات، بفضل ذلك أصبح ينظر إلى مستهلكى الثقافة الجماهيرية على أنهم جمهور إيجابى تتزايد درجة فعاليتهم باستمرار، ومن ثم أصبح ينظر إلى العملية التى يتم بواسطتها توصيل رسالة الثقافة الجماهيرية باعتبارها عملية تتزايد تعقيداً يوماً بعد يوم. ويمكن تمييز فعالية الشعب على مستويين اثنين: فعلى المستوى الأول، يعرف جماهير الشعب بأنهم منتجو الثقافة الجماهيرية (لذلك تصبح الثقافة الجماهيرية هى ثقافة العامة أو الثقافة الشعبية Folk Culture التى تسود فى المجتمع الصناعى)، وعلى المستوى الثانى، وهو مستوى أكثر دقة وتحديداً، تكون جماهير الشعب هى المفسرة لهذه الثقافة. وهكذا فإنه، وباستعمال إحدى نظريات الهيمنة مثلاً، لا يمكن النظر إلى انتشار ثقافة وسائل الاتصال الجماهيرى على أنه مجرد فرض لرسالة معينة على جمهور المتلقين، وذلك على الرغم من استعمال الأساليب الصناعية فى الإنتاج والتوزيع. إنما الأقرب للواقع، أن أفراد هذا الجمهور سوف يقومون بتفسير هذه الأعمال أو النصوص الثقافية، وتداولها وتبنيها لاستعمالها فى أغراضهم الخاصة، وسوف يفهمونها فى نطاق بيئتهم الخاصة وخبرتهم الحياتية. وإذا شئنا الدقة، فإنه بقدر ما قامت به الاتجاهات الفكرية الأكثر تدقيقاً المتعلقة بوسائل الاتصال (وخاصة الاتجاهات السيميولوجية والاتجاهات البنيوية) من التأكيد على أن تفسير رسالة ما لا يمكن أن يكون أمراً بديهياً أبداً أو أمراً لا خلاف عليه، بقدر ذلك أصبح ينسب للجمهور المتلقى مهارات تفسيرية أكبر،

ومن ثم أصبح ينسب إليه القدرة على مقاومة تفسير هذه الثقافة تفسيراً يخدم مصالح الطبقة المسيطرة فقط. مثال ذلك، أن تحليل المجلات النسائية قد يكشف لنا عن أمرين مختلفين فى نفس الوقت، أولهما ما فى هذه المجلات من أنظمة شفرات وغيرها من الآليات التى تدمج القارئة فى تصور نسوى إيديولوجى معين (ومن ثم تدمجها فى أنماط معينة من استهلاك السلع)، وثانيهما ما تتيحه هذه المجلات من عالم جديد تستمتع به القارئة وتندمج خلاله فى هذا التصور النسوى، رغم تحققها من أنه عالم محض خيال. وهكذا، فإن الثقافة الجماهيرية يمكن فهمها فى ضوء الصراعات الإيديولوجية، كما يمكن فهمها بوصفها عنصراً أساسياً فى أى سياسة ثقافية.

وتكشف الأعمال أو الإبداعات التى تقدمها الثقافة الجماهيرية عن الفروق الموجودة فى المجتمع فيما يتصل بالنوع الاجتماعى، والعمر، والعرق، كما تقوم بتشكيل الفهم الذاتى لكل فئة من تلك الفئات. ومثال ذلك أن الموسيقى الشعبية تلعب دوراً أساسياً فى التعبير عن النوع الاجتماعى، والطبقة، والهويات العرقية للمراهقين (بل لها فى واقع الأمر دور أساسى فى تشكيل "المراهق" بوصفه فئة عمرية متميزة). وأياً ما كان الأمر، فإن الدقة تقتضى القول بأنه نظراً لاستمرار معظم أشكال الثقافة الجماهيرية فى الاعتماد على موارد الرأسمالية الصناعية فى إنتاجها وتوزيعها، يظل التوتر قائماً فى مجال اختيار المنتجات الثقافية الجماهيرية بين مصالح الطبقة الرأسمالية (حتى لو كانت هذه المصالح هى المصالح التجارية البحتة الساعية إلى تعظيم الأرباح) وبين المصالح الثقافية والسياسية لجماهير مستهلكى هذه المنتجات.

يشهد لذلك أن فيسك Fiske يميز بين النظام الاقتصادى المالى والنظام الاقتصادى الثقافى اللذين يتم فى نطاقهما تداول الأعمال الثقافية. فبينما يهتم النظام الأول بتوليد القيمة التبادلية، ومن ثم يهتم بتراكم الثروة ودمج المستهلك فى النظام الاقتصادى المسيطر، فإن النظام الاقتصادى الثقافى يتولى إنتاج المعانى وأشكال

الاستمتاع عن طريق الجمهور ومن أجله. والحق أنه نظراً لأن إنتاج المعانى داخل نطاق النظام الاقتصادى الثقافى ليس من السهل ضبطه والتحكم فيه كما هو الحال فى إنتاج الثروة، فإنه يعتقد أن الجمهور - بوصفه منتجاً للمعانى - يمتلك قدرة كبيرة على مقاومة قوى التأثير المالية التى تحاول دمجها فى النظام الاقتصادى المسيطر. لهذا يرى فيسك أن الثقافة الجماهيرية تعد موقعاً رئيسياً لمقاومة الرأسمالية. (AE) للمزيد انظر: Fiske (١٩٨٩) وStrianti (١٩٩٥) وStorey (١٩٩٦، ١٩٩٧) وHall et al. (١٩٩٢) وWaites et al. (١٩٨٩).

Youth Culture

ثقافة الشباب

ظهرت فكرة ثقافة الشباب فى علم الاجتماع إبان خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وذلك اعترافاً بأن ثقافة الأفراد من الشباب - وخاصة من كان منهم فى سنوات المراهقة أو فى أوائل العشرينات من العمر - تتميز عن ثقافة والديهم. فللسباب قيمهم واتجاهاتهم وأنماط سلوكهم المختلفة عن نظائرها الشائعة فى الثقافة السائدة فى مجتمعهم. ويعتقد أن ثقافات الشباب تظهر فى ظل ظروف معينة. أول هذه الظروف أنه لا بد أن يشكل الشباب جماعة كبيرة إلى حد كاف. وثانيها: أن التغير الاجتماعى السريع قد يحول دون اندماج الشباب فى عالم الكبار، وقد يحدث هذا التغير بسبب التغيرات التى تقع فى مجال الصناعة وتقضى على الوظائف التقليدية أو مجرد أن تؤدى إلى البطالة. وآخرها أن تزايد التعددية فى المجتمع توفر دافعاً لظهور أفكار جديدة وأساليب معيشية جديدة.

ومع ذلك، فإن فكرة ثقافة الشباب تعرضت للانتقاد بسبب تسليمها بأن ثقافة الشباب ذات طبيعة واحدة ومتجانسة إلى حد كبير. ولكن أشد الانتقادات وجهت إليها

من جانب النظريات التى تتحدث عن **الثقافات الفرعية للشباب**، التى تترك انقسام ثقافة الشباب وفقاً لاعتبارات الطبقة، والنوع الاجتماعى، والتقسيمات الإثنية. وقد نلاحظ فى أيامنا هذه عودة إلى تأييد نظريات ثقافة الشباب، على أساس أن تحليلات أصحاب الثقافات الفرعية تولى أهمية مبالغاً فيها للمظاهر الخارجية أو الهامشية للحياة اليومية للشباب. (انظر أيضاً مادة **الثقافة المضادة**). (AE) لمزيد انظر: Clarke (١٩٨٢) وFirth (١٩٨٤) وGillis (١٩٧٤) وMcRobbie (١٩٩١).

ثقافة شعبية

Popular Culture

انظر: **ثقافة جماهيرية**.

الثقافة الفرعية

Subculture

يشير مفهوم "الثقافة الفرعية" - فى أبسط معانيه - إلى ما يسود جماعة من الأقليات (أو جماعة فرعية) داخل المجتمع من قيم، ومعتقدات، واتجاهات، وأسلوب معيشة. ومن شأن **الثقافة** السائدة فى هذه الجماعة أن تختلف عن الثقافة التى تتبناها الجماعة المسيطرة، رغم ارتباطها بها بوشائج قري. ومع أن مصطلح الثقافة الفرعية يرتبط اليوم - على الأغلب - بثقافات الشباب (كثقافة الشبان المتأقنين فى إنجلترا^(*))، وثقافة المولعين بموسيقى الروك ورقصاتها، وثقافة حليقى

(*) كلمة "mod" اختصار لكلمة Modern - بمعنى: حديث - وقد بدأ إطلاق هذا اللفظ فى ستينيات القرن العشرين على أى فرد من شباب الإنجليز الذين يبالغون فى التألق فى ملابسهم كتعبير عن مناوئتهم لأوضاعهم الاجتماعية. (المترجم)

الرؤوس^(*)، وثقافة البانك) فإنه ينطبق كذلك على ثقافات الجماعات الإثنية، وجماعات النوع الاجتماعي، والجماعات الجنسية (ذات السلوك الجنسى الخاص).

والواقع أن هذا المفهوم كان قد تم تطويره بوجه عام خلال بحوث علم اجتماع الانحراف (حيث كان يشير، مثلاً، إلى ثقافة "الجانحين"، أو المجرمين، أو مدمنى المخدرات). فقد كان أحد التفسيرات القديمة لسلوك المنحرفين من أبناء الطبقة العمالية يعتبر سلوكهم هذا نوعاً من مغالاة الشباب فى الالتزام بقيم الطبقة العمالية التى ينتمى إليها أبائهم (والتي منها مثلاً: الخشونة والاسترجال بما يوحى به من استعمال القوة، المكر والدهاء فى مواجهة السذاجة، والميل إلى المجازفة). وكان هذا التفسير يرى أن هؤلاء الشباب بمغالالتهم فى الالتزام بهذه القيم إنما ينتهكون القيم السائدة لثقافة الطبقة الوسطى Miller(١٩٥٨).

إن مفهوم الثقافة الفرعية مفهوم هام، وسبب ذلك تحديداً أنه يتيح الفرصة للاعتراف بتنوع الثقافات داخل المجتمع الواحد. وبينما كان المفهوم القديم لثقافة الشباب يميل إلى افتراض وجود ثقافة واحدة ومتجانسة بين الشباب، يؤكد مفهوم الثقافة الفرعية تفنّت هذه الثقافة، خاصة تبعاً للخطوط الفاصلة بين الطبقات. وكما هو الحال مع مفهوم الثقافة المضادة يميل مفهوم "الثقافة الفرعية" إلى افتراض وجود شكل ما من أشكال المقاومة للثقافة السائدة. ومع هذا، فإن مصطلح "الثقافة المضادة" يتزايد استعماله فى الحاضر للإشارة إلى الجماعات القادرة على تقديم تبرير وتصوير عقليين لوضعها الاجتماعى. أما الثقافات الفرعية فتبرز تعارضها مع المجتمع

(*) حليقو الرؤوس Skinheads: لفظ أطلق فى أواخر ستينيات القرن العشرين على مجموعة من العمال البريطانيين الذين تعمّدوا خلق رؤوسهم لإثبات خروجهم على المجتمع، واشتهروا بالدخول فى مشاغبات ومشاجرات كثيرة. (المترجم)

أساساً من خلال استخدامها لدلالات طراز الملابس (انظر مادة: أسلوب) وأنماط معينة من السلوك (أو الشعائر).

لهذا السبب كانت الاتجاهات السيميوطيقية ذات تأثير هائل من خلال قيامها بتفسير شفرة الملابس والتصرفات الخاصة بالثقافات الفرعية. فارتداء الرجل من حليقي الرأس لحملات البنطلون، واختياره لقصات الشعر القصيرة، وارتدائه لأحذية دكتور مارتنز^(*) ذات الشكل المتميز.. كلها إنما تفسر باعتبارها انتقادات يوجهها ذلك الفرد لماضٍ صناعي متخيل، وباعتبارها محاولة لتوطين النفس على قبول حالة العجز في مواجهة ثقافة الطبقة المتوسطة السائدة، وهي الثقافة التي لا يملك فيها ذلك الرجل الحليق الرأس لا الموارد المالية ولا الموارد الثقافية التي تلزمه لكي يساهم فيها. وبناءً على ذلك يمكن النظر إلى الثقافة الفرعية على أنها محاولة لخلق فضاء ثقافي، يمكن فيه أن تتحقق المطالب المتناقضة للثقافة الوالدية المسيطرة، أو يتسنى من خلاله مقاومتها والتصدي لها، كما يمكن فيه للجماعات ذات الثقافة الفرعية أن تعبر عن هويتها الخاصة وتطورها. من هنا يمكن وصف الاتجاه الفكري المعنى بالثقافة الفرعية بأنه يتعاطف مع الوضع الاجتماعي لهذه الثقافة الفرعية، موحياً بذلك أن الثقافات الفرعية تعد مصادر هامة للاختلاف والتنوع الثقافي - وذلك في مقابل الإدانة الضمنية أو الصريحة لنشاطات الثقافات الفرعية، وهي الإدانة التي رافقت الدراسات الأولى لظاهرة الانحراف.

وتقدم لنا جماعات المتأنقين البريطانية *mods* في ستينيات القرن العشرين مثلاً إيضاحياً ممتازاً للثقافة الفرعية وتحليلها. فجماعات المتأنقين يتسم أفرادها باهتمامهم

(*) أحذية Doc Martins - والصواب Dr. Marrens - هي طراز من الأحذية الثقيلة ذات الرباط، قد تكون برقبة عالية أو بدون. وأهم ما يميزها "فرشة" سمكية لينة. وهي تنسب إلى الألماني دكتور Dr. Maertens مخترع هذه الفرشة. (المترجم)

----- (ث) -----

بالأزياء والاستهلاك، كما يهتمون بأسلوب المعيشة القائم على تقديم المتعة على كل شيء. وكان الفرد من تلك الجماعات يمتحن في العادة عملاً غير يدوي (أي: عملاً مكتبياً) متواضع المستوى. وبهذا الشكل يكون هذا الفرد جزءاً من عصره إلى حد بعيد جداً، فهو يستجيب للنزعة الاستهلاكية المتزايدة التي اتسمت بها ستينيات القرن العشرين، ويستجيب لانتقال الاقتصاد من العمل اليدوي والصناعي التقليدي، إلى صناعات الخدمات والأعمال غير اليدوية. والحق أن الفرد من المتأنقين بلغ في نزعته الاستهلاكية أقصى مدى. وخلافاً للكثير من الثقافات الفرعية، كان الفرد من جماعات المتأنقين (المودرن) شخصاً مزعجاً، ليس لأنه ينأى بنفسه عما تطالبه به الثقافة "الوالدية" من ارتداء للملابس الأنيقة، ولكن لأنه - على العكس - كان يبالغ في التأنيق. والمشكلة التي يواجهها الفرد من المتأنقين أن الوظيفة التي يشغلها (والتي ترتبط ارتباطاً تقليدياً بوحدة من أخلاقيات العمل التي تعتمد على إنكار الذات وضبط النفس) كانت لازمة له كل اللزوم، لكي يدفع - من أجراها - نفقات حياته القائمة على المتعة، والتي لا تتفق مع أسلوب المعيشة هذا (وذلك لأن ضبط النفس هو نقيض النزعة التي تقدم المتعة على كل شيء). من هنا لم يكن أمام الفرد من المتأنقين سوى الإدمان على تناول أقراص الأمفيتامين (المخدرة)، لكي يستطيع التوافق مع المطالب المتناقضة للنزعة الاستهلاكية من جهة والحفاظ على وظيفته من جهة ثانية.

وقد وجهت بعض الانتقادات إلى ذلك الاتجاه الفكري المعنى بالثقافة الفرعية، وذلك بصورته التي ظهر بها في نطاق الدراسات الثقافية. فقد رأى فيه البعض مغالاة في الانتقائية للثقافات الفرعية التي قام هذا الاتجاه بدراستها. ومن المقطوع به أن أغلب بحوث أصحاب هذا الاتجاه قد ركزت على الأنشطة الذكورية، وذلك على حساب إقصاء أحد أمرين: أحدهما هو إسهام الأنثى أو الإسهام النسوي في هذه الثقافة الفرعية، وثانيهما - وهو الأهم - هو الاعتراف بثقافات فرعية نسوية متميزة. كما

يمكن القول إن هذا الاتجاه الفكرى قد غالى فى الاهتمام بالثقافات الفرعية للطبقة العمالية، الأمر الذى قاده إلى إضفاء طابع رومانسى على هذه الثقافات باعتبارها مصدراً للمقاومة (وللقيم التقدمية سياسياً). يضاف إلى ذلك أن المغالاة فى التأكيد على أهمية الثقافات الفرعية قد يعمل على تشويه الصورة التى ترسمها الدراسات الثقافية للشباب ككل. ويظل مفهوم ثقافة الشباب - مع هذا - من المفاهيم الهامة. ولكن التأكيد على أهمية الثقافات الفرعية قد يعمل على تسليط الضوء على هذه الوقائع والممارسات المثيرة للفتنة للانتباه على حساب تجاهل الأشكال الثقافية الأكثر اتصالاً بالحياة اليومية العادية الخاصة بأغلبية الشباب. وربما كان من الأنسب النظر إلى هذه الأغلبية بوصفها تنتمى لثقافة الشباب، لا باعتبارها تنتمى إلى ثقافة فرعية مقاومة. "كما أن القول بوجود" تعارض صريح بين الثقافة الشبابية التى تتسم بالامتثال (أو حتى الثقافة الشبابية "الشعبية") والثقافة الفرعية المتطرفة هو نفسه قول غير دقيق، بسبب إخفاقه فى إدراك مدى اندماج هاتين الثقافتين. (AE) للمزيد انظر: Clarke (١٩٨٢) وHall and Jefferson (١٩٧٦) وHebdige (١٩٧٩) وMcRobbie (١٩٩١) و (١٩٩٤) وMungham and Pearson (١٩٧٦) وWillis (١٩٩٠).

Counterculture

الثقافة المضادة

تم صك مصطلح "الثقافة المضادة" لأول مرة فى ستينيات القرن العشرين، وكان ذلك أساساً كرد فعل لظهور الحركات الشبابية لأبناء الطبقة الوسطى (مثل الهيبين)، وذلك للإشارة إلى الجماعات التى كانت تتشكك فى قيم الثقافة السائدة. وبينما كانت ثقافة الهيبين المضادة متمركزة حول معارضة حرب أمريكا فى فيتنام، فإنها - إلى جانب ذلك - عبرت عن استيائها وسخطها على قيم وأهداف الرأسمالية، ومنها مثلاً النزعة الاستهلاكية، وأخلاقيات العمل، والاعتماد الكبير على التكنولوجيا. ويمكن القول

----- (ث) -----

- عموماً - بأن مفهوم الثقافة المضادة قد تم التوسع فيه فأصبح يشمل القيم، والمعتقدات، والاتجاهات لدى أى جماعة أقلية تعارض الثقافة السائدة، ولكن - الدقة - يحدث عندما تفعل كذا وإذا بمعارضة الثقافة السائدة بأسلوب واضح نسبياً وكرد فعل - إلى حد ما - على هذه الثقافة السائدة. وهكذا كانت الديانة المسيحية عند بداية ظهورها تمثل ثقافة مضادة، وذلك بمعارضتها للثقافتين السائدتين اليهودية والرومانية. وفى الفترة المبكرة للرأسمالية البريطانية كانت جماعات الكويكرز^(*) وجماعات الميثوديين^(**) تمثل ثقافات مضادة فى معارضتها للقيم السائدة للكنيسة الإنجليزية. (انظر كذلك: الثقافة الفرعية، وثقافة الشباب). (AE) للمزيد انظر: Yinger (١٩٨٢) وRoszak (١٩٦٨) وHill (١٩٧٥).

(*) الكويكرز Quakers طائفة مسيحية تؤكد البساطة فى الملبس، وتكره الطقوس الكنيسية وتعارض الحرب. (المترجم)

(**) الميثوديون Methodists هم أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التى قادها فى أكسفورد (عام ١٧٢٩) تشارلز وجون ويزلى محاولين فيها إحياء كنيسة إنجلترا. (المترجم)

الجاز

Jazz

لكلمة "الجاز" أصول غامضة، وتذهب أغلب الآراء حول أصلها وتاريخها إلى أنها تطورت عن كلمة "جاس" Jass، وهي مصطلح ظهر في مطلع القرن العشرين في الولايات المتحدة للإشارة إلى المنى. ومن ثم ظل مصطلح "موسيقى الجاس" Jass Music، منذ ذلك الحين مشحوناً بالدلالات الجنسية، يشار به إلى الموسيقى الخليعة التي تعزف في المواخير أو غيرها من الأماكن المشبوهة والمحلات التي كانت تهتم بالإيقاعات الموسيقية السريعة الانتشار والوسائل الجديدة في العزف أكثر من اهتمامها بالكفاءة الموسيقية الفنية. ومع ذلك، زعم آخرون أن كلمة "الجاز" لها أصول شمال أفريقية أو حتى عربية، وأنها لهذا السبب ترجع إلى عهود سابقة على عهد الرق وقبل ظهور تلك الموسيقى المسماة بهذا الاسم في أيامنا الحالية. وفي هذه الحالة، تبدو الرابطة التي ربط بها البعض كلمة "الجاز" بكلمة "جاس" Jass، رابطة خبيثة.

ولموسيقى الجاز تاريخ طويل ومعقد، ولا يزال كثير من العناصر التي شكلت بواكير نشأتها محل خلاف. أما الأمر الذي لا خلاف فيه، فهو أن أغلب المبدعين الأساسيين في مجال هذه الموسيقى كانوا من الأمريكيين السود، وما زالوا كذلك، وإن كان على نطاق أضيق، بمن فيهم أوائل الشخصيات ذات التأثير الكبير، مثل "بودي" بولدن "Buddy Bolden"، و"كينج" أوليفر "Oliver King"، ولويس آرمسترونج "L. Armstrong". وقد كانوا جميعاً يعزفون ألحانهم وفقاً للأسلوب المتبع في مدينة نيو أورليانز (رغم أنهم غادروا هذه المدينة جميعاً في آخر الأمر وانتقلوا إلى مدينة شيكاغو)، وكان من سمات هذا الأسلوب في العزف قيام عدد صغير من العازفين باستعمال مجموعة صغيرة العدد من الآلات الموسيقية، والالتزام بالدقات المنتظمة، وبالارتجال الجماعي القائم على الألحان البسيطة مثل ألحان المارشات العسكرية. ولما زاد عدد العازفين وزاد عدد مجموعات الآلات الموسيقية وأصبح جمهور المستمعين لهذه الموسيقى من

(ج)

الفئات الاجتماعية الأكثر احتراماً، تطورت إلى ما عرف بعد ذلك بموسيقى 'السوينج' (١٠)، كما تحولت إلى ولع جُنْ به رواد صالات الرقص واستمر لأكثر من عقدين، وأسهم في خلق جمهور له من بيض الطبقة الوسطى الأكثر ثراءً، ويعترف الجميع اليوم بدوق إلينجتون Duke Ellington كأستاذ التأليف في موسيقى السوينج، لكن فرقة الكونت بازي Count Basie الموسيقية لم تكن أقل نجاحاً منه، كما أن الفرقة الموسيقية الضخمة التي كان يقودها بول وايتمان Whiteman كانت أكثر منهما نجاحاً.

وبالتدريج، بدأ الموسيقيون المنتمون لجماعات موسيقى السوينج يقومون بإجراء التجارب. فطور بعض العازفين مثل كولمان هوكنز Hawkins، ولستر يونج Young وتشارلي كريستيان Christian، (وهو واحد من أبرز عازفي الجيتار الذين لهم مكانة راسخة في تاريخ موسيقى الجاز) طوروا أسلوباً في العزف المنفرد أكثر تعقيداً من ذي قبل، وسعوا في تكوين تجمعات أصغر في عدد العازفين يمكنها أن تتيح لهم المجال لتطوير عدد من الأفكار على امتداد فترة زمنية أطول. وسرعان ما نسي الناس أنه على امتداد الأربعين سنة الأولى - أو نحو ذلك - من بداية ما يسمى الآن "بموسيقى الجاز" لم يكن الأداء الموسيقي المنفرد يشكل ملمحاً مهماً من ملامح هذه الموسيقى. وعلى النقيض من ذلك فإن مجموعات العازفين لموسيقى البيبوب Be-bop (وهي أحد أنواع موسيقى الجاز) كانت تتسم بقلة العدد، حيث تتكون - عادة - من ثلاثة إلى ستة عازفين، وتميل إلى التركيز على الأداء الموسيقي الفردي، ومن أكثر المبدعين شهرة في هذا المجال تشارلي باركر Parker، وديزي جيلسبي Gillespie، وتونيوس مونك Monk، وذلك لقيامهم بتطوير هذه الموسيقى إلى أن صارت مجاًلاً

(١٠) موسيقى السوينج Swing: شكل أو أسلوب من أنساب موسيقى الجاز، شاع بين سنة ١٩٣٥ و ١٩٤٥. ويتميز بكثرة عدد العازفين، وباستعمال الإيقاعات النشيطة القوية، وبالمزج بين الألحان بطريقة ارتجالية، وباستعمال أنماط إيقاعية بسيطة. (المترجم)

شديد التعقيد حافلاً بالمنافسة، حيث تتصارع فيه البراعة الفنية والاستجابات شبه الفورية، مع الأبنية الهارمونية المعقدة والسرعات العالية فى عزف المقاطع الموسيقية.

ومنذ استيعاب رافد موسيقى البيبوب داخل التيار العام لموسيقى الجاز، تعرضت هذه الموسيقى للتفتت إلى عدد كبير من المدارس المختلفة. ولعل أكثر الأمور دلالة فى هذا الصدد أن مظاهر الدقة البالغة فى إيقاع موسيقى البيبوب قد هجرها من احترفوا موسيقى "الجاز الحر"، خاصة أورنت كولمان Coleman وجون كولترين Coltrane (فى أعماله الأخيرة). ثم تطورت هذه الموسيقى من خلال اتصالها بفنانى الطليعة الأوروبيين، إلى أن تحولت إلى ما يعرف اليوم بموسيقى "الارتجال الحر". ومن الأمور ذات الأهمية البالغة - كذلك - تلك النقلة التى قام بها كثير من الموسيقيين فى اتجاه استعمال الآلات الموسيقية الكهربائية فى سبعينيات القرن العشرين، وهى الفترة التى شهدت جدياً اقتصادياً لموسيقى الجاز. وإحداث هذا التغيير، قام عدد من العازفين أمثال مايلز دافيس Davis وهربى هانكوك Hancock بإحداث ثورة فى مفردات الموسيقى، فاتحين الأبواب أمام أنواع جديدة من الموسيقى كموسيقى الجاز الاندماجية Fusion Jazz وموسيقى الجاز الحادة أو اللاذعة Acid Jazz والموسيقى الإلكترونية بصفة عامة. وانطلاقاً من هذه الروافد التراثية المتعددة حظيت موسيقى الجاز، ولا تزال تحظى، بنفوذ قوى ساهم فى تشكيل الموسيقى الشعبية الغربية فى مجملها. وإن من العدل أن نقول إن أشد أشكال الموسيقى شعبية، مثل موسيقى الهيبهوب Hip Hop وموسيقى الرقص الإلكترونية، تدين بالكثير لهؤلاء العازفين.

ربما كان كل ما سبق ذكره يكاد يكون من الأمور المعروفة التى لا جديد فيها، ولكنه - مع ذلك - مثير للجدل والخلاف؛ لأنه لا توجد محاولة محايدة للتاريخ لموسيقى الجاز. فقد أدى تاريخه المشحون بالتصورات العرقية على وجه الخصوص - إلى إفراز كم هائل من التشويه النقدي، سواء ما كان منه سلبياً (وذلك حينما اتهم أوائل النقاد

(ج)

هذه الموسيقى بأنها "موسيقى فودو" (*)، وما كان منه إيجابياً (وهي الكتابات النقدية التي تصفه بالبداية، والتي مازالت تتردد حتى اليوم، وتقابل ما يعتقد أنه اتصاف الموسيقى الأسود بسمات جسدية وعاطفية غريزية، في مقابل ما يتصف به العازفون الكلاسيكيون البيض من اتجاه عقلاني). وقد قدم ميلتزر Meltzer (١٩٩٣) مجموعة نافعة من هذه الآراء الانتقادية القائمة على التحريف. وكانت أشهر دراسات الجاز تأثيراً، والتي صاغت الأصول العرقية لهذه الموسيقى صياغة نظرية، تلك التي قدمها لوروا جونز Leroi Jones بعنوان "شعب الأغاني الحزينة: الموسيقى السوداء في أمريكا البيضاء" (١٩٦٥). (ويعرف جونز حالياً باسم أميرى بركة Amiri Baraka، وقد توجد كتبه منشورة تحت أى من هذين الاسمين).

وثمة اتجاه آخر في الكتابات النقدية عن موسيقى الجاز، يميل للمقارنة بينها وبين الموسيقى ذات التراث الكلاسيكي. والدراسة التي تعد - إلى حد بعيد - أهم الدراسات في هذا المجال، هي التي يحتويها كتاب جونتر شولر Gunther Schuller تحت عنوان "موسيقى الجاز في أول عصرها" (١٩٦٨)، والتي ذهبت إلى أنه إذا طبقت معايير التحليل الكلاسيكية على موسيقى الجاز، فقد تحظى هذه الموسيقى بفهم أفضل وتقدير أعلى. ومن المعروف أن أدورنو سعى لتقديم رأى مخالف، حيث زعم أن هذه المقارنة (بين هذين النوعين من الموسيقى) تظهر أن موسيقى الجاز شكل فقير من أشكال التسلية الشعبية. وفيما يتصل بهذا الرأى، انظر بصفة خاصة مقالاته بعنوان "الهوس البدائي في الاستماع للموسيقى" (١٩٧٨/ب). (RC) للمزيد انظر: Berliner (١٩٩٤) و Berlin (١٩٨٠) و Jost (١٩٨١) و Gabbard (١٩٩٥) و Collier (١٩٧٧) و Wilmer (١٩٩٢) و Stearns (١٩٥٦) و Shepherd (١٩٩١) .

(*) موسيقى فودو Voodoo Music نسبة إلى الموسيقى المنتشرة بين زنوج هايتى نوى الأصول الأفريقية. (المترجم)

فى مجال الفلسفة، يشير مصطلح "الجدل" أصلاً إلى الأسلوب القائم على المناقشة، والموجود فى حوارات أفلاطون. وقد كان سقراط - الشخصية الرئيسية فى الحوارات التى كتبها أفلاطون - يميل عادة إلى مُسألة غيره من المتفلسفين، والمفكرين، والخبراء فى المجالات المتعددة عن تصورهم لمفهوم معين (كفكرتهم عن "العدل" أو عن "الخير" مثلاً). وكانت طريقة سقراط تحدث أثرها عادة من خلال كشفها لما فى أفكار الآخرين من ضحالة أفضت بهم إلى أن يكون فهمهم لها فهماً مشوشاً غير متماسك، وذلك قبل أن يقوم سقراط بما يلزمه القيام به من تزويدهم بتعريف صحيح ومتماسك من عنده.

وقد اتخذ مصطلح "الجدل" معنى ذا صلة بالمعنى السابق - وإن كان متميزاً عنه - فى الفلسفة الألمانية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وذلك فى أعمال كانط وفيخته^(٥) Fichte

(٥) فخته أو فشته، جوهان جوتلوب Fichte, J. G. (١٧٦٢-١٨١٤) فيلسوف ألماني، استطاع بمعونة أحد أصحاب الأراضي المحليين أن يدرس اللاهوت وفقه اللغة والفلسفة فى بينا وليبرج، والتقى بكانط عام ١٧٩١ وأصبح تلميذه ومريده المقرب إليه. وفى عام ١٧٩٤ عين أستاذاً بجامعة بينا، ولكنه فصل عام ١٧٩٩ بتهمة تدريس الإلحاد. كان فشته يعتقد أن هناك منهجين ممكنين فى الفلسفة: القطعية التى تستنبط الفكرة من الشيء، أو المثالية التى تستنبط الشيء من الفكرة. ويتوقف المنهج الذى يتبعه المرء على تكوينه العقلى، غير أنه يؤثر المثالية ما دمنا لا نستطيع تفسير الوعى تفسيراً مرضياً بالكيونة وحدها كما تصنع القطعية، لكننا نستطيع إقامة خبراتنا - لا الشيء فى ذاته - من الوعى باعتباره معطى من المعطيات. وهكذا حذف فشته الشيء فى ذاته، وبدلاً من أن يشتق طبيعة الذات المفكرة من الخبرة ذات الأجزاء الكثيرة - كما فعل كانط - جعل يستنبط تكثر الخبرة من فاعلية الذات. ولعل أوضح عرض لهذه النظرية التى ليست على شىء كبير من اليسر هو ما تجده فى كتابه "مقدمة لنظرية المعرفة" (١٧٩٧). وبسط فشته آراءه الأخلاقية فى كتابه "نظرية الأخلاق" (١٧٩٨)، وخلاصتها أننا قد نتصرف بما يسبب احترامنا لأنفسنا أو إزدراءنا لها، واحترام النفس هو الضمير. ويتبغى أن ينبثق الفعل الأخلاقى عن الضمير لا عن الإذعان للسلطة. فالبدء الأخلاقى الأساسى هو أن نتصرف وفقاً لتصورنا الواجب=

وهيجل^(*). وكان فيخته هو الذى اقترح ذلك الوصف الشائع للحجة أو القضية الجدلية باعتبار أنها تتكون من ثلاثة مفاهيم: الفرض أو القضية، والنقيض، ومركب القضية أو التركيب. أى أن هناك قضية توفر الدليل على صدقها، ولكن ظهرت أدلة بنفس القوة تؤيد قضية أخرى بديلة عنها ومناقضة لها. عندئذ يمكن حل ذلك التناقض القائم بين الفرضية ونقيضها عن طريق الانتقال المفاجئ إلى أسلوب مختلف فى النظر إلى المشكلة قاصدين من ذلك حل التناقض المبدئى (بين الفرضية ونقيضها) من خلال التعرف الدقيق على القيود المفروضة على المرء فى استدلاله وفى معرفته، وهى الفروض التى كانت تعد من المسلمات وكانت تتحكم فى الحجة الأصلية.

أما الجدل الهيجلى فيزيد عن هذا الجدل المذكور عمقاً وتعقيداً، فقد يكون من الأفضل أن يُنظر إلى المصطلحات الثلاثة الخاصة بالجدل الهيجلى على أنها تمثل العام، والخاص، والشخصى. والعام يمثل مرحلة اليقين الذاتى الساذج. فثمة كيان كلى شامل ومتفرد يحيط بكل شىء (فالكائن الإنسانى المولود حديثاً - مثلاً - لا يعرف عن العالم شيئاً أكثر من وجوده الخاص). لكنه لا توجد فى هذه الحالة معرفة واقعية، لأن هذه المعرفة لا تحدث فى حالة وجود تباين وانفصال. لهذا لن يصل الكائن إلى معرفة نفسه إلا إذا تعرف على ما يخالفه (ومن ثم يواجه الآخر). وبهذا الشكل يتم

= وتصورنا للفعل الذى نعترف دون تحفظ بأنه فعلنا خلال الزمان كله؛ وهكذا تتألف الحياة الأخلاقية من سلسلة من الأفعال المؤدية إلى الحرية الروحية الكاملة للذات. وينشأ الشر الأخلاقى من عجزنا البلب. عن إمعان الفكر فى أفعالنا إمعاناً يكشف عن كل ما تنطوى عليه، وللبعض الأفراد قدرة على الفعل الأخلاقى يمتازون بها، وإن هؤلاء - بما يضرّبونه من مثل - ليصبحون بمثابة إلهام للآخرين، وفى هذه الحالة يمكن أساس الدين؛ وما الكنيسة غير اتحاد من أفراد اجتمعوا ابتغاء شحذ العقيدة الأخلاقية وتقريرها (المراجع)

(*) جورج فيلهلم فريدريش هيجل G. W. F. Hegel (1770-1831) فيلسوف ألمانى. صاحب المنطق الجدلى، وخلصته أن كل فكرة تولد نقيضها، ومن تفاعل الفكرتين تنشأ فكرة (أو قضية) جديدة تؤلف بينهما هى ما يعرف باسم التركيب. وهو من أعلام الفكر المثالى المطلق فى الفلسفة. (المراجع)

تحويل العام إلى الخاص، أو إلى شئ منفصل، أو مجزأ. (وتواجه الذاتية الخالصة للطفل الوليد موضوعاً غريباً عنها). ويؤدى هذا المستوى المتقدم من رؤية المرء لفرديته المتميزة إلى ظهور مرحلة خصيية من النضج واكتشاف الذات، وهو أمر لا يقتصر على الإنسان الفرد وحده. وهذه هي الطريقة التي يصف بها هيجل التاريخ الإنسانى فى مجمله. وتنتهى هذه المرحلة عندما تتعرف الذات على نفسها فى الموضوع (المغاير لها). وبهذا تستعيد الذات ما كانت تتمتع به من عمومية فى المرحلة الأولى أو المستوى الأول من الجدل، ولكن تستعيدها فى شكل جديد من أشكال الوعي العميق بالذات. فقد عادت الذات إلى نفسها، لكنها تكتشف نفسها من خلال هذه الرحلة. وهكذا نستطيع أن ندرك كيف تصادف أن كثيراً من روائع الروايات فى القرن التاسع عشر، مثل رواية جوته بعنوان "فيلهم ميستر" ورواية ديكنز بعنوان "الآمال العظيمة"، تكشف عن بنية مشابهة (للاولى التعليمية، والمسماة بالألمانية Bildungsroman)^(*) حيث يكتشف البطل نفسه من خلال خوضه لتجارب ومغامرات فى عالم غريب وملىء بالعقبات.

ولا يقتصر الجدل الذى قدمه هيجل على كونه بنية أو نظاماً للنقاش، بل إنه يمثل النظام الحقيقى للكون، الذى يتجلى ابتداءً من أعظم المستويات (كمستوى التاريخ الإنسانى فى تطوره، أو مستوى حركات الكواكب فى أفلاكها) وانتهاءً بأشد المستويات تواضعاً (كمستوى النبات فى نموه). وقد استعمل ماركس هذا النموذج الجدلى ليفسر تطور التاريخ البشرى من خلال مجموعة من مراحل الإنتاج أو أنماط الإنتاج. إذ يبدأ التاريخ عند ماركس عندما تندفع البشرية خارجة من مرحلة الشيوعية البدائية وما

(*) تتكون كلمة Bildungsroman من كلمتين الأولى "Bildung" ومعناها "تعليم" وكلمة "Roman" ومعناها "رواية". ويعنى هذا النوع من الروايات بعرض مراحل النضج الخلقي والنفسي لبطل الرواية، كوسيلة لتحقيق هدف تعليمى من الرواية. ويرجع استعمال هذا المصطلح الألمانى فى الإنجليزية إلى سنة ١٩١٠. (المترجم)

(ج)

تتسم به من عمومية ساذجة، وتُرغم على الدخول فى مرحلة المجتمع الطبقي. هنا يبدأ البشر فى صناعة التاريخ، ولكن ليس فى ظل ظروف من اختيارهم. وهذا يعنى أن المنتجات التى ينتجها فعل إنسانى ذاتى تواجه البشر بوصفها أشياء أو موضوعات غريبة عنهم. وبتحقيق الشيوعية، ينتهى هذا الشكل من التاريخ، لأن البشر عند تحقيق الشيوعية سيدركون أنفسهم ككائنات اجتماعية (ومن ثم سيكون لديهم الوعى الذاتى بالتفرد الشخصى - لكل واحد منهم - الذى قال به هيجل)، ومن ثم سوف يصنعون التاريخ وفق مشيئتهم.

وفى النظرية الثقافية فى القرن العشرين، قام فيلسوف مدرسة فرانكفورت تيودور أدورنو، وعالم التحليل النفسى الفرنسى جاك لاكان، قام كل منهما - على حدة - بصياغة شكلين فى غاية التشابه من أشكال إعادة تفسير هيجل. إذ يفترض هيجل، بناءً على دعواه بأنه يعرف المرحلة النهائية لهذا الجدل، أنه يعرف الحقيقة المطلقة، وأنه قادر على وصفها. ولكن كلاً من أدورنو ولاكان يرفض هذه النزعة التسلطية الماثلة فى افتراض المعرفة بالحقيقة المطلقة. لهذا يقترح أدورنو "جدلاً سلبياً" Negative Dialectics. وهذا يعنى إيقاف أو تجميد العملية الجدلية عند مستواها أو مرحلتها الثانية. وحينئذ فإن أفضل ما يمكننا معرفته - عند الوقوف فى هذه المرحلة - هو مظاهر التناقض والتضارب، والماثلة فى العالم وفى معرفتنا بهذا العالم، ولكننا لا نستطيع أن نفترض إمكانية الهروب منها. وبالمثل يهتم لاكان بتحليل الطرق التى نستعملها فى إنفاق أعمارنا ونحن نناضل من أجل استرجاع شكل من أشكال العمومية "التخيلية" التى كنا نحياها ونعيشها قبل أن نُززع ونُفصل من توحداً مع أمهاتنا (ثم يقذف بنا إلى عالم عقيم ومبتسر من الأنانية واللغة). وما أعمارنا إلا سعى دائب للوصول إلى بدائل لهذه العمومية التى افقدناها. ومن هنا يرفض لاكان فكرة "العلاج" القائم على التحليل النفسى، الذى بإمكانه استرجاع الوحدة المفقودة (ومن ثم نحرز التميز الفردى الذى

قال به هيجل). (AE) للمزيد انظر: Adorno (١٩٧٣ب) وHegel (١٩٧٥) وLacan (١٩٧٧) و (1979) Mephram and Ruben وRosen (١٩٨٢).

Body

الجسد

حتى عهد قريب، كانت النظريات الفلسفية والسياسية والثقافية، تتجاهل موضوع الجسد، أو تهمله. وهكذا كانت النظرة التقليدية في الفلسفة ترى أن موضوع الفاعل الإنساني وموضوع هوية هذا الشخص من الموضوعات التي كان مستقرها العقل. فالعقل (أو النفس) كان أمراً ثابتاً مستقراً، وكان يمثل - بسبب ما يتصف به من الرشد - منبع كل معارفنا. ومن المشكلات الفلسفية الرئيسية (ابتداءً من كتابات ديكارت في القرن السابع عشر - على سبيل المثال - فصاعداً) قضية العلاقة بين العقل والجسد. ولا يوجد إلا قلة من المفكرين، خاصة من بين أصحاب التراث الإمبريقي في الفلسفة البريطانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر (مثل ديفيد هيوم) الذين يمكن اعتبارهم مهتمين بالجسد الإنساني، وذلك من خلال اعترافهم بأن خبرتنا بهذا العالم تعتمد اعتماداً كلياً على حواسنا الجسدية. ومع ذلك، فإن هذه الإمكانية لم يكتب لها أنذاك أن تبرز وتتطور، بسبب التركيز على حاستي السمع والبصر وحدهما بوصفهما مصدر المعرفة. كما أن الحواس الجسدية الأكثر وضوحاً، كحواس الشم، والذوق، واللمس لم تحظ بأهمية تذكر، واعتبرت في درجة ثانوية. كذلك كان الحال مع ما تحمله هذه الحواس من دلالات وأهمية بالنسبة لأنشطتنا العملية التي تشترك بها مع العالم من خلال أجسادنا. وفي نهاية القرن الثامن عشر، يقوم كانط بإيضاح الوضع الإشكالي للحواس في كتابه "نقد الحكم" (١٩٨٧). فمن جانب، يذهب كانط إلى أننا لا نستطيع أن نخبر متعة الشعور بالجمال (في مقابل المتعة العقلية الصرفة بالخلق الصالح، أو الاستساغة البدنية البحتة للطعام والشراب) إلا لأننا

(ج)

مخلوقات تجمع بين كونها عقلية وحسية (أو جسدية) فى وقت واحد. ومن جانب آخر، يتوقف الإحساس بالجمال على حاستى البصر والسمع، وليس على حواس اللمس، والشم، والذوق.

وفى منتصف القرن التاسع عشر يطرح ماركس وجهة نظره التى ترى أن البشر كائنات تقوم فى الحقيقة بتغيير شكل بيئتها أو عالمها، بل خلق هذه البيئة من خلال العمل، فكان أن غزت الوعى بموضوع أهمية الجسد وأموره. ولعل قضية المعاشية الجسدية والعملية لهذا العالم وما لها من أهمية بالغة، لم تحظ بالمعالجة الفلسفية الشاملة الدقيقة إلا فى الفلسفة البراجماتية الأمريكية فى أواخر القرن التاسع عشر. وفى هذه الفلسفة البراجماتية فقط تبدأ أهمية المعرفة الجسدية بالعالم تحتل مكان الصدارة، لأن هذه المعرفة – التى تؤخذ كأمر مفروغ منه – لا تتوصل إليها إلا عن طريق قدراتنا ومهاراتنا المعتادة التى نستعمل من خلالها أجسادنا فى تناول الأشياء فى هذا العالم واختبارها.

وفى القرن العشرين، يتم تطوير هذه الرؤية الشاملة على يد هايدجر فيما قدمه من أعمال، ومنها على سبيل المثال مفاهيمه الخاصة "بما هو مائل فى اليد" وما هو فى متناول اليد" (١٩٦٢: ١٠٢-٧). وقد جرت عادة البشر أن يستعملوا الأشياء بطريقة خالية من التفكير المقصود. فعندما تقوم آلة ما بوظيفتها، فإنه لا يساورنا قلق حيالها. وعندما نتوقف عن أداء وظيفتها، فإننا نرجع خطوة للوراء ونستطلع حالتها ونفحصها. لهذا، فإننا لا نستطيع أن نكتسب المعرفة النظرية والوعى الحسى بهذا العالم إلا عندما يعرضنا – بصورة عملية – للوقوع فى الخطأ. وعلى النقيض من تصورات ديكارط وافتراضاته، لا يمكننا اكتساب المعرفة من خلال الاقتصار على تأمل هذا العالم فقط. فنحن فى حاجة إلى سبب يدعونا إلى التفكير والتأمل فيه، ولا يتوفر هذا السبب إلا من خلال التعامل الجسدى معه. لذلك نجد أن هايدجر، شأنه شأن

الفلاسفة البراجماتيين، بل كما فعل دافيد هيوم نفسه، نجده يدخل الجسد ضمن نطاق الفكر الفلسفي، وذلك من خلال نقده المباشر للطريقة التي يقدم بها ديكارت فلسفته. بل إن هايدجر - زيادة على ذلك - يؤكد حاجتنا الضرورية للجسد - بجانب حاجتنا الضرورية إلى ما للجسد من إمكانيات محتملة - لكي نفهم أنفسنا كمخلوقات بشرية، وذلك كجزء من حاجتنا الماسة إلى أن نتقبل حقيقة أننا صائرون إلى الموت يوماً ما. وقد كان هذا الاتجاه الفكرى لهايدجر ذا تأثير ونفوذ على تطور الفلسفة الظاهرية أى الفينومينولوجيا الفرنسية، خاصة فى التحليل الذى قدمه موريس ميرلو - بونتي (*) لـ "الطبيعة البشرية الحسية" (وهو التحليل الذى يبدأ - مرة أخرى - بالاستناد إلى الرأى القائل بأن الوعى يتجسد فى عالم معين) (١٩٦٢)، وفيما قدمه جان بول سارتر من أعمال (خاصة تحليله الرائع لقضية التعذيب، باعتبار أن التعذيب يمثل محاولة للاستيلاء والتسلط على حرية الضحية التى يستشعرها داخل كيانه الحسى) (١٩٥٨: ٣٣-٥٩).

وفى النظرية السياسية الغربية، ظل الجسد يتعرض - مرة ثانية - للتجاهل حتى وقت قريب. يشهد لذلك أن الليبرالية تتبنى نموذجاً للإنسان يركز على صفة الرشد العقلى، وعليه فالعقل الإنسانى هو الذى يهم وليس الجسد. والواقع أنه يمكن النظر إلى السعى وراء تحقيق شهوات الجسد بصورة جامحة باعتباره يمثل تهديداً للنظام السياسى. أضف إلى ذلك، أن المذهب الليبرالى يعميل إلى افتراض وجود مجموعة من

(*) ميرلو - بونتي، موريس Merleau - Ponty, Maurice (١٧٧٠-١٨٢١) فيلسوف فينومينولوجى فرنسى أولى اهتماماً خاصاً لدراسة العلاقة بين الجسد والوعى والعالم الخارجى. كان فى فترة من حياته صديقاً وزميلاً لجان بول سارتر. وعادة ما تعد كتاباته عن اللغة بمثابة الرابطة بين الفينومينولوجيا والبنائية. ويعد كتاب "فينومينولوجيا الإدراك" المنشور عام ١٩٤٥، أكثر كتب ميرلو-بونتي أهمية على الإطلاق. ونادراً ما يستخدم علماء الاجتماع أعماله، على الرغم من أن أنتونى جيندز قد تبني بعض أفكاره فى كتابه: "تأسيس المجتمع" (١٩٨٤). للمزيد انظر: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجومرى وزملاؤه، مرجع سابق. (المراجع)

الثنائيات المفهومة ضمناً بدرجة أو بأخرى. فالصواب يوضع فى مقابل الخطأ، والعقل فى مقابل الجسد، والذكر فى مقابل الأنثى. لذلك فإن ما يتسم به المذهب الليبرالى من غفلة تامة متوارثة عن الفرق بين الذكور والإناث، ومن استبعاد للمرأة عن مجال السياسة، قد يفهم جزئياً من خلال هذا الربط بين الصواب، والعقل، والذكورة.

وفى أواخر سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن العشرين، ومع انبعاث النظرية الليبرالية من جديد، على يد جون رولز Rawls (١٩٧٢)، ظهر نقد جديد - كذلك - للمذهب الليبرالى، على يد أصحاب النزعة الجماعية الاشتراكية. وفى هذا الخط من الجدل والمناقشة، يقوم مايكل ساندل Sandel (١٩٨٢) بنقد رولز (ومن ثم ينتقد المذهب الليبرالى المعاصر) ويركز نقده بصفة خاصة على أن النموذج الذى قدمه رولز للبشر نموذج غير متجسد (فى جسد) وغير متجذر (فى تراث). ومعنى ذلك أن رولز يجرّد البشر - بصورة اصطناعية غير طبيعية - من الخبرات الجسدية والثقافية التى تشكل نواتهم بوصفهم كائنات لها خصوصيتها. والحقيقة أن رولز قد اتهم بأنه يسلم بأن الكائن الإنسانى، من حيث كونه شخصاً راشداً قادراً على الاختيار الحر، له وجود سابق على حياته الجسدية داخل مجتمع معين. ويذهب ساندل إلى أن نفس هذه القدرة على الاختيار، وعلى التمسك بالقيم، وعلى الوعى بأنفسنا بصفتنا أفراداً لكل منا شخصيته المعينة، إنما تستمد فقط من الخبرة الجسدية، ولا يمكن أن توجد قبل حدوث هذه الخبرة الجسدية.

وفى النظرية الثقافية كتابات هامة عن موضوع "العرى" باعتباره المادة الرئيسية فى الفن الغربى. فمن جانب، تنطلق هذه الكتابات من الاتجاه التقليدى لأى مؤرخ ثقافى، مثال ذلك ما قدمه كلارك Clarke من تحليل لفكرة إضفاء صفة الكمال على الجسد وفقاً للمعايير الثقافية التى تختلف عبر عصور التاريخ (١٩٥٦). ومؤخراً نجد دعاة الحركة النسوية وغيرهم من المفكرين (أمثال جون برجر Berger، ١٩٧٢) يضعون العرى ضمن سياق سياسى، وذلك من أجل البحث عن إمكانية إسناد القيمة الجمالية (انظر مادة: علم الجمال) الحقيقية إليه، باعتبار أن العرى جزء من بناء قائم على نظام

سلطة الأب أو البناء الإيديولوجي للقوة فى الثقافة الغربية (ديبروز Diprose ١٩٩٤؛ جروتز Grotz ١٩٩٤؛ إيريجارى Irigaray ١٩٩٥).

ويتطور فهم الجسد فى الدراسات الثقافية من خلال الاعتراف بأن الجسد مقر المعنى ومركزه. وقد يمكننا تطبيق الاتجاه السيميوطيقى على الجسد. ويدل على ذلك توصيف أمبرتو إيكو Umberto Eco للجسد بأنه "آلة للتواصل" (١٩٨٦). فالجسد ليس مجرد شىء موجود، كحقيقة بهيمية من حقائق الطبيعة، إنما هو جزء من الأجزاء المندمجة فى كيان الثقافة. ويعد الجسد - فعلاً - موقعاً أساسياً يتم فيه التعبير والإفصاح عن الثقافة والهوية الثقافية، وذلك من خلال الملابس والحلى وغيرها من أشكال الزينة، ومن خلال تشكيل الجسد نفسه (بمختلف أنواع الوشم على الجلد، وتسريحات الشعر، وبناء الجسم أو تقويته بالرياضة، واستعمال أسلوب أو نظام معين فى التغذية وهكذا). ومن خلال الجسد فقط يتمكن الأفراد من التواؤم مع التوقعات المفروضة عليهم أو مقاومتها. لذلك يستطيع علم الاجتماع أن يتجه نحو تحليل الممارسات المرتكزة على الجسد. (انظر تيرنر ١٩٨٤). ويركز فوكوه فى تحليله لنظام السجون وأساليب العقوبات الرسمية، يركز على البدن بوصفه موضع إنزال العقوبة (١٩٧٧/١). والأمر الحاسم أن الجسد يتم تشكيله وتهذيبه من خلال أنظمة المراقبة، سواء أكانت مراقبة حقيقية أو مراقبة يتخيل الشخص أنها تحدث له. لهذا السبب، فإن تحليل الجسد يمكن أن ينظر إليه - باضطراب - على أنه حصيلة لكل من الإلزام الاجتماعى والبنیان الاجتماعى (وهى الفكرة الرئيسية التى تتكرر كذلك فى كتابات جوفمان)، أو على أنه حصيلة للغات وأشكال الخطاب التى يناقش فيها موضوع الجسد ويتم تحليله (كما هو الحال مثلاً فى لغة العلوم الطبية، أو الطب النفسى، أو علم الإجرام). (AE)

العبرة التى تلخص موجة الاعتداءات الإرهابية المنسقة التى ضربت الولايات المتحدة فى الحادى عشر من شهر سبتمبر ٢٠٠١. بدأت الهجمات فى تمام الساعة الثامنة وست وأربعين دقيقة صباحاً، عندما ارتطمت طائرة مخطوفة (تابعة لشركة الخطوط الأمريكية رحلة رقم ١١) بالبرج الشمالى من مركز التجارة العالمى فى نيويورك. وفى تمام التاسعة وثلاث دقائق من نفس الصباح اصطدمت طائرة ثانية (هى الرحلة رقم ١٧٥ لشركة الطيران المتحدة) بالبرج الجنوبى للمركز. وبعد ذلك بحوالى نصف ساعة ارتطمت طائرة ثالثة مخطوفة بمبنى البنتاجون (وزارة الدفاع). ثم سقطت طائرة رابعة (هى الرحلة رقم ٩٣، التى كانت موجهة فى الأصل لترطم بمبنى الكابيتول -مركز الحكم الأمريكى) سقطت فى بنسلفانيا فى أعقاب اشتباك وقع على متنها بين الركاب والمختطفين. ويقدر عدد ضحايا تلك الهجمات بـ ٢٩٧٣ فرداً. واتضح فيما بعد أن تلك الهجمات هى من عمل جماعة إسلامية سنية عسكرية هى "القاعدة"، التى أسسها أسامة بن لادن فى ثمانينيات القرن العشرين. وكانت القاعدة قد أنشئت فى إطار معارضة النفوذ الأمريكى فى العالم الإسلامى الذى تنامى بعد الحرب (وهى على سبيل المثال تدعو لتدمير إسرائيل وانسحاب القوات الأمريكية من الشرق). ومن الأمور التى جعلت عبارة "الحادى عشر من سبتمبر" بمثل هذه الدلالة الرمزية الثرية (خاصة فى عقول الكثيرين فى الغرب) تلك التغطية الإعلامية المفصلة للأحداث التى جرت ذلك اليوم وفى لحظة وقوعها فى نيويورك. فقد خلقت تلك الهجمات نوعاً من الرمزية لا يمكن أن يحى من الذاكرة بسبب البث التليفزيونى المباشر للارتطام بالبرج الجنوبى وما أعقب ذلك من انهيار كارثى لكلا البرجين، وضاعف من تأثير هذا البث الحى التكرار المستمر لعرض تلك المشاهد فى نشرات الأخبار العالمية، وبعدها فى أفلام تسجيلية وفى كم هائل من البرامج المختلفة. ولعل قوة تلك الرمزية وما أعقبها من

أحداث جراء الحادى عشر من سبتمبر قد أدت إلى تحقيق أقصى آمال المهاجمين من وراء فعلتهم. فقد تحولت درة القوة الصناعية والمالية والثقافية لأمريكا الرأسمالية إلى انقراض فى خلال ساعات قليلة، وبذلك صُنفت وتتابعحت محاولات تفسيرها فى إطار رمزى معبر تطفى عليه تلك القوة التى تصاعدت فجأة لإرادة الأصوليين الإسلاميين. والأمر الذى تقشعر له الأبدان ليس فقط تلك القسوة فى التضحية بالنفس التى مارسها المهاجمون، وإنما تلك السهولة التى نفذت بها تلك الهجمات، باستخدام طائرات أثناء رحلاتها على خطوط داخلية داخل الولايات المتحدة. وترتبط بتلك الحقيقة ارتباطاً قوياً القوة الرمزية لصور انهيار البرج الجنوبي. فالأبراج التى تجسد قوة الغرب على الصعيد العالمى قد جرى تدميرها باستخدام طائرات تعد هى نفسها نموذجاً ممثلاً للمصالح الصناعية والاقتصادية العالمية. فالطائرة التى نجحت - شأنها شأن صناعة الاتصالات عن بعد - فى تقليص الحيز الجغرافى وتقريب الناس من بعضهم البعض، بنفس نجاحها فى تقليص الحيز الثقافى والسياسى الفاصل بين الناس؛ تلك الطائرة لم تؤد فقط إلى جلب الراحة والأمان فى السفر إلى مقاصد بعيدة (لم تعد منذ ذلك الحين أمراً ميسوراً للغالبية العظمى من الناس فى الغرب)، وإنما زادت الطائرة منذ ذلك الوقت إحساسنا بالتعرض للخطر ومن ثم بعدم الاستقرار.

ومازال من الصعب فى الوقت الراهن سبر غور الدلالات التاريخية، ومن ثم الثقافية، للحادى عشر من سبتمبر، وإن كان ذلك لم يمنع الكثيرين من محاولة فهم تلك الدلالات، كما سنحاول نحن أيضاً فى هذا السياق. هناك على أى حال أمر واحد يبدو مؤكداً، وهو: لقد أثارت تلك الهجمات مجدداً تساؤلات عن طبيعة العلاقات الثقافية بين الغرب والشرق الأوسط. فمن ناحية أصبحت شكاوى العرب من معاملة إسرائيل للفلسطينيين ومن دعم الولايات المتحدة لإسرائيل تمثل للغرب قضايا محل اهتمام لم تبلغه من قبل. وفى نفس الوقت يمكن القول إن ردود الفعل العدوانية من جانب

الولايات المتحدة على هجمات الحادى عشر من سبتمبر لم تحرمها فقط من التعاطف الواجب الذى حظيت به فى أعقاب الهجمات، وإنما عملت على تعميق الأزمة التى كانت وراء كل ما حدث. ويلاحظ أن رد الفعل المبدئى من جانب الولايات المتحدة والذى تمثل فى تخفيف قبضة تنظيم القاعدة القوية على أفغانستان وطرد تنظيم طالبان الأصولى الذى كان يتولى حكم ذلك البلد؛ رد الفعل هذا لم يكن حاسماً فى نتائجه. فلم يتم مثلاً القضاء نهائياً على طالبان كما كان متوقعاً. وبسبب ذلك أصبحت أفغانستان - وما زالت - ساحة ترمز للصراع بين العنف العسكرى الإسلامى والغرب. وفى أعقاب ذلك قادت الولايات المتحدة - بدعم بريطانى - غزو العراق فى مارس من عام ٢٠٠٣، وهو الغزو الذى لم يؤد سوى إلى زيادة الهوة اتساعاً بين الفريقين وإثارة مشاعر الغضب والاستياء. ولجوء المسؤولين الأمريكين إلى تبرير غزوهم للعراق بادعاء أن صدام حسين كان ضالماً فى هجمات الحادى عشر من سبتمبر إنما يدلنا على الطبيعية الدرائعية لقيمهم السياسية. وقد تم الاعتراف فيما بعد أن تلك الادعاءات ليس لها أساس من الصحة، ولكن قوتها الإقناعية (التي تجلت بالتأكيد فى الدعم الجماهيرى المبدئى الواسع للغزو بين الأمريكين) تبرهن لنا بكل جلاء على مدى التنامى الهائل فى حساسية الأمريكين الذى يرجع ولاشك إلى هجمات سبتمبر.

وأعقبت الحادى عشر من سبتمبر جملة من الادعاءات الكاسحة. فقد أثار المعلقون من فريق المحافظين الجدد فكرة الشر المجرد من كل مبادئ أخلاقية ليفسروا بها أفعال أولئك الذين اقترفوا عمليات القتل فى الحادى عشر من سبتمبر. ويميل مثل هذا الرأى إلى اعتبار "الأصولية الإسلامية" تحريضاً غير منطقي ومفتقر إلى الدقة "للإسلام الحقيقى"، ليس له من هدف سوى خدمة أولئك المناوئين بشكل حاد لركائز المجتمع الحر (أى: الليبرالى) (انظر: Elstain ٢٠٠٣). من ناحية أخرى نجد أحد

(ح)

مفكرى يسار الوسط مثل ناعوم تشومسكى^(٥) يذهب إلى القول بأن أحداث الحادى عشر من سبتمبر المربعة يتعين فهمها كتعبير عن مشاعر الظلم العميقة التى امتدت لعدة عقود تجاه السياسة الخارجية الأمريكية (تشومسكى ٢٠٠٢). وهناك فضلاً عن هذا قضيتان محددتان طرحتا فى تاريخ سابق على هجمات الحادى عشر من سبتمبر، ولكن بُعثت فيهما حياة جديدة فى ظل رؤية جديدة. الأولى قضية "نهاية التاريخ" التى طرحها فوكوياما (١٩٩٢) التى تعلن أن نهاية الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٨٩ إيدان بصعود مضطرد لنظام السوق الحر الليبرالى وبداية عالم خال من الصراعات. ولكن هذه القضية بدت -فى هذا الطرف الجديد- أقل إقناعاً حتى مما كانت عليه عند طرحها لأول مرة. والقضية الثانية إيمان صامويل هانتجتون أن مرحلة ما بعد الحرب تتسم بشكل زائد بالوضوح بالصراعات الثقافية لا بالصراعات الإيديولوجية أو الاقتصادية، ويدت تلك القضية ذات كفاءة تفسيرية واضحة، لدى البعض على الأقل Ruthven (٢٠٠٢) وHuntington (١٩٩٨) وتعرف هذه القضية أحياناً باسم نظرية "صدام الحضارات". ويبدو أن قدرة هذه النظرية على الإقناع للوهلة الأولى تكمن فى بساطتها التى لا جدال فيها: فهى تتيح لنا أن نفسر هجمات الحادى عشر من سبتمبر فى ضوء جملة من القوى غير المنظورة، التى يمكن أن يقوى تأثيرها ويشدد فجأة، ولكنها تظل مع ذلك مغلقة إلى حد كبير على أفهام الغربيين، ومن ثم تكاد لا تحتاج إلى

(٥) تشومسكى، أفرام نوام (Chomesky, Avram Noam ولد فى فيلادلفيا عام ١٩٢٨) عالم لغويات وفيلسوف وناشط سياسى أمريكى. اشتغل بالتدريس فى معهد ماساشوسيتس منذ عام ١٩٥٥. نشر مؤلفات عديدة فى علم اللغويات، صاغ فيها تصوراً جديداً لبنية القواعد اللغوية بوصفها بنية فطرية وليست مكتسبة بالتعلم، كما اجتهد فى تلك الكتابات بالإسهام فى النظرية الاجتماعية. وكان فى كل ذلك ناقداً لازعاً للسياسة الخارجية الأمريكية (على نحو ما نفلس مثلاً فى مؤلفه "القوة الأمريكية والطبقة الحاكمة الجديدة"، ١٩٩٩). وكان حريصاً على النوام على أن يفصل بشكل واضح بين مجالى البحث العلمى والنشاط السياسى فى حياته. للمزيد عنه انظر: A.Elliott et al., Key Contemporary Social Thinkers, ٢٠٠٢. (المراجع)

تأمل عقلى دقيق. ومشكلة هذه النظرية أنها تهمش الأبعاد السياسية والاجتماعية للتاريخ، فى نفس الوقت الذى تحول فيه كلمة "ثقافة" إلى شىء مطلق ومستغلق على الفهم. فالقول بأن علاقة الثقافة بعضها ببعض تفصلها حدود قاطعة وفاصلة، شبيهة بخطوط الحدود الفاصلة بين الدول ومغلقة بطريقة سحرية تعزلها عن المؤثرات الخارجية هو أمر مجاف للواقع، ومن ثم يبدو غير قادر على إقناع أحد (انظر Sen ٢٠٠٥). وقد أوضحت الدراسة المهمة لجون كلارك (١٩٩٧) أن التأثير التاريخى للفكر الشرقى على الغرب منذ عصر التنوير على الأقل كان تأثيراً عميقاً وهو يحض فكرة الحدود الثقافية المغلقة.

وقد ذهب البعض إلى أن "الحرب على الإرهاب" التى أعلنها الرئيس الأمريكى جورج بوش فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر مباشرة (Bush 2001 a)، وهى الحرب التى تستهدف سحق "أعداء الحرية" (Bush 2001 b) قد لذت ببعض المفاهيم والتصورات الثقافية الأمريكية الأساسية. ففى رأى بورسورف (٢٠٠٢) أن بوش قدم لجمهوره خطاباً يستند إلى "لغة ميثاق بيوريتانى". ولو قبل ذلك الجمهور هذا الميثاق، فمعنى ذلك أن الجيل الجديد من الأمريكين سوف ينضوى بالفعل تحت سلطة العقيدة التى كان يؤمن بها جيل الحرب العالمية الثانية القديم، وستعود إليها الحياة من جديد. كما أن من شأن هذا الميثاق أن يستحضر معه لغة الاستقطاب القائم على اعتبارات أخلاقية (قادة الإرهاب الذين نصبوا أنفسهم بأنفسهم فى مقابل السياسيين المنتخبين انتخاباً ديمقراطياً، والشر الذى لا خلاق له فى مواجهة قيم أمريكا) كل ذلك مقترناً بنوع من البراجماتية الاقتصادية (تتمثل فى الحاجة إلى المشاركة والثقة الدائمين فى الاقتصاد الأمريكى) (Bush 2001 b). غير أننا نلاحظ أن خطاب الخير فى مواجهة الشر - الواضح أنه مسبب للخلاف والشقاق - سيكون أمراً مقبولاً سواء للإرهابيين أو للساسنة الغربيين، ومن ثم فإنه لن يسهم فى إضاعة الأمور.

يؤيد ذلك حديث بن لادن عن "الجرائم والخطايا التي اقترفتها الأمريكيون" ضد العالم الإسلامي (Bin Laden 1998). وكل ما في الأمر أن مثل هذا الخطاب سوف يضيف مصداقية على نظرية "صدام الحضارات" التي تؤيد -من حيث لا تقصد- دعوة بن لادن إلى "حرب مقدسة" (*) متطرفة ضد الغرب "الشرير"، الأمر الذي يزيد الأوضاع سوءا (Barber 2002). وقد عبر ديريدا عن رأى قريب من هذا (٢٠٠٢). إذ ذهب إلى القول بأن استجابة الغرب لوحشية الإرهاب تتسم بالميل إلى قصور الالتزام بالإجراءات القانونية (في مواجهة الإرهابيين)، مع أنها تمثل ضرورة حياة أساسية للمجتمع الغربي (يؤيد ذلك "قانون المواطن" الأمريكي الذي أقر على عجل في أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر- قارن Dworkin 2005).

وقد علق هابرماس (**) (٢٠٠٢) على اللهجة الدينية التي لاحظها بوسدورف، حيث يقول إن كثرة اللجوء إلى اللغة الدينية نجدها متضمنة في تكرار "صور الكتاب المقدس" على عملية انهيار برجى مركز التجارة العالمى. ويدل استخدام بوش للغة الثأر والانتقام بعد الحادث- مع ما تحمله من أصداء العهد القديم- على شىء غير عادى يعتمل فى داخل المجتمع الغربى العلمانى. وفى رأى هابرماس أن هجمات الحادى عشر من سبتمبر شأنها شأن "ظاهرة الأصولية الجديدة كل الجدة" لا يمكن تفسيرها إلا بوصفها تجليات أو تعبيرات عن العواقب المضطربة التي يمكن أن تتجم عن التحديث عندما يتخذ أبعاداً عولمية. فتأثيرات التحديث فى الغرب كانت تتم فى حدها

(*) "جهاد" (المترجم).

(**) يورجن هابرماس Jürgen Habermas (من مواليد ١٩٢٩) أشهر معلمى مدرسة فرانكفورت النقدية على الإطلاق. قدم نظرية متكاملة عن الحداثة. من أهم أعماله: نظرية الفعل الاتصالي، ١٩٨١، وخطاب الحداثة الفلسفى، ١٩٨٤، التفكير المابعد الميتافيزيقى، ١٩٨٨، وبين الحقائق والمعايير: إسهام فى نظرية الخطاب فى ميدانى القانون والديموقراطية، ١٩٩٢. وكان قد نشر مجلداً كاملاً عن نظريته فى عام ١٩٨٦ حرره أكسل هونيت وهانز يواس (بالألمانية). (المراجع)

الأدنى، ليس فقط بسبب بطنها النسبي آنذاك، وإنما بسبب التعويضات الملموسة عما تخلفه من آثار (فتوفير ظروف معيشة أفضل خفف من آثار فقدان التراث والتقاليد القديمة). ومع ذلك فإن من أخص خصائص الحداثة هو طابعها العلماني - الذي يفصح عن نفسه بأوضح صورة في الفصل بين الكنيسة والدولة- ومازال هذا الطابع العلماني يثير لدى البعض شيئاً من القلق حتى في أيامنا هذه. ويدل ذلك على أن الغرب مازال حتى الآن يعاني مخاض التغيير، وأن "عملية العلمنة الغربية" ظاهرة لا تزال مستمرة. ومن شأن الفجوة الزمنية بين التحولات الاجتماعية والثقافية أن تخلق بعض التوترات. ونلاحظ اليوم أن أشد ما يؤلم بصد زوال التراث والتقاليد على أيدي قوى العلمنة في العالم غير الغربي ليس فقط السرعة غير المسبوقة التي يتم بها الأمر، وإنما لأن تدمير التراث لا تعالجه وتخفف ألامه الإجراءات التعويضية الواجبة. من هنا أصبح ينظر إلى عملية إضفاء الطابع العلماني (العلمنة) على أنها عملية استعمار ثقافي. فإذا أخذنا ذلك في الاعتبار وأضفنا إليه عدم تفهم الغرب للمدى الذي وصلت إليه الأوضاع، فمن الممكن أن ينتهي الأمر بالعلمنة إلى أن تفتح الباب للتهديد بصد الحضارات كسبيل للمواجهة. ويرى هابرماس أن الحل الوحيد لهذا المأزق هو أن يضطلع الغرب بمحاولة ملموسة لتبني بعض المضامين الدينية لتراثه تبنيًا نقدياً، "وبفكر علماني بعيد كل البعد عن الانهزامية". ويتعين على مثل هذا المنطق في التفكير أن يحترم الأصول الدينية للثقافة وللتفكير نفسه، وعندما يفلح في تحقيق ذلك سوف يحطم الحاجز القائم بين الديني والعلماني، وبين الشرق والغرب، بزرع لغة للتفاهم المتبادل في صورة "فهم بدهي يتسم بالديمقراطية". (PS) للمزيد انظر: Ruthven (٢٠٠٢) و Margolis et al (٢٠٠٥) و Huntington (١٩٩٨) و Habermas (٢٠٠٣) و Eishtain (٢٠٠٢) و Chomsky (٢٠٠٢) و Bostdorff (٢٠٠٣) و Borradori (٢٠٠٣) و Barber (٢٠٠٢).

مفهوم نشره عدد من الفلاسفة السياسيين ذوى المشارب المختلفة (مثل توماس هوبز، وجون لوك، وجان جاك روسو). وموجز القول إن نظرية الحالة الطبيعية تتصور أو تتخيل الفرد الإنسانى فى حالة وجود تقع خارج نطاق القيود التى يفرضها المجتمع المدنى أو الحضارة. وفى كتاب هوبز^(*) بعنوان "ليفياثان Leviathan" (أى: العملاق) (١٦٥١) يشيع وصف الحالة الطبيعية باستعمال عبارات حادة قاسية، فهى شكل من أشكال الحياة مجرد من حكم القانون يقوم على "حرب الكل ضد الكل". وفى هذه الحالة، يتمتع الأفراد بحرية مطلقة فى السعى لتحقيق أغراضهم، وكذلك يتمتع الآخرون - للأسف - بنفس الحرية. ويستلزم هذا الوضع، والذى لا وجود فيه لحكم القانون، ألا يكون للأفراد حق فى الحماية سوى تلك التى يستمدونها مما لديهم من قدرات بدنية على الدفاع عن أنفسهم. ويستعمل هوبز هذا التصور كوسيلة لمحاولة البرهنة على أن من الصواب أن يقاوض المرء حريته الشخصية بالتنازل عنها فى مقابل الحماية التى يمنحها له حاكم ذو سلطة مطلقة (وهو المقصود من كلمة العملاق المذكورة فى عنوان كتابه) وذلك من خلال تأسيس عقد اجتماعى.

(*) هوبز، توماس Hobbes, Thomas (١٦٧٩-١٥٨٨) فيلسوف ومنظر اجتماعى إنجليزى من عصر التنوير. يقدم مؤلفه الرئيسى "التنيز" (١٦٥١) تبريراً للسلطة السياسية المطلقة التى يفترض أنها مشتقة من الطبيعة البشرية. وقد استطاع هوبز أن يحوّز - فى عصره - قبول أنصار الملكية وأنصار النظام البرلمانى على حد سواء. ومدح الماركسيون بعد ذلك نظريته المادية فى الطبيعة البشرية والقوة السياسية، بينما راجت آراؤه التسلطية حول البشر بوصفهم باحثين بالضرورة عن المصلحة، وكذلك حول الحد الأدنى (أو الحالة الدنيا)، واشتهرت هذه الآراء، لدى اليمين السياسى. وقد كان هوبز واحداً من أوائل المدافعين عن المنحى الطبيعى فى العلوم الاجتماعية وأشدهم ذكاء. وظلت الفلسفة السياسية لهوبز مؤثرة فى دراسة العلاقات الدولية. (المراجع)

وعلى نفس المنوال، ينظر كل من لوك وروسو^(*) إلى الحالة الطبيعية بوصفها الحالة التي تسبق ظهور القيود والالتزامات الخاصة بالمجتمع المدني. إذ يرى لوك أن الأفراد الموجودين في الحالة الطبيعية يملكون حقوقاً ومبهم الله إياها (ألا وهي: الحق في الحفاظ على الذات، وحققهم في امتلاك أجسادهم، وحققهم في حيازة المنتجات التي ينتجونها بعملهم). ويذهب لوك إلى أنه مع تنامي حيازة الملكية يسعى الأفراد إلى حماية مصالحهم من خلال صياغتهم لعقد اجتماعي يسبغ على هذه الحقوق حماية قانونية. هذا رغم أنه واثق - خلافاً لهوبز - أن الأفراد، في رأيه، يتنازلون عن كافة حقوقهم نتيجة لهذا العقد. ومما يستلفت الانتباه أن لوك يزعم أن الحالة الطبيعية لا تزال ماثلة في العلاقات القائمة بين الحكام ذوي السلطات المطلقة أو بين الدول القومية.

وكان روسو في عرضه لرواية الحالة الطبيعية في كتابه بعنوان "مقالة عن التفاوت الاجتماعي" (١٧٥٤) أكثر اهتماماً باستخدام مفهوم الحالة الطبيعية كأداة استرشادية توضيحية (حيث يذكر في بداية هذا الكتاب أن اهتمامه هو بالبشر بحالتهم التي هم عليها في ذاك الوقت) قاصداً بذلك الكشف عن المظالم الاجتماعية التي جلبتها المدنية المعاصرة. ويتخيل روسو في عرضه المذكور خروج البشر من الحالة الطبيعية إلى حالة

(*) روسو، جان - جاك Rousseau, Jean - Jacques (١٧١٢-١٧٧٨) فيلسوف اجتماعي ومعلم لحركة التنوير الفرنسية مختلف عليه، تركزت كتاباته الفرنسية حول تطوير نظرية العقد الاجتماعي، وهي نظرية ترى أن الطبيعة البشرية منطلقة من الأساس، ولكنها كبلت بالقيود فيما بعد، وله كذلك نظرية ديموقراطية في الحكم. وتعتمد مكانة روس كأحد المنظرين الاجتماعيين الأوائل، موقف القارئ من التناقضات العديدة الكامنة في أعماله. فهو يؤكد في مواضع عديدة على أننا يجب أن نتجنب البحث العلمي حيث إنه أقسى الفطرة الطيبة، ومع ذلك قدم هو نفسه دراسات منظمة عن عدم المساواة الاجتماعية. كما أصر على أن الطبيعة والمجتمع في تناقض غير قابل للنسوية، ومع ذلك قدم نظرية عن الدولة تفترض مسبقاً قدرة الأفراد على التوفيق بين اهتماماتهم واهتمامات الآخرين، وقدرتهم على التوحد مع الإدارة العامة كما تتجسد في السلطة الحاكمة. وربما كان كتابه الرئيسي هو "العقد الاجتماعي" الصادر عام ١٧٦٢، على الرغم من أن التصور المطروح فيه عن الحكومة الشرعية كان أكثر تأثيراً في الفلسفة السياسية منه في علم الاجتماع. (المراجع)

من حالات التنظيم الاجتماعى القبلى (وهى حالة المتوحش النبيل) وما يعقب ذلك من ظهور مجتمع مدنى ظالم وفاسد بسبب نظام الملكية.

ومن أنصار نظرية الحالة الطبيعية الأحداث ظهوراً روبرت نوزك Nozick (انظر مادة: التحرر)؛ بينما نجد شكلاً مختلفاً من أشكال هذه النظرية فيما طرحه جون رولز Rawls عندما استعمل فكرة "الوضع الأسمى" بغية البرهنة على صحة مفهومه عن العدالة (انظر كذلك مادة: الليبرالية). (PS) للمزيد انظر: Locke (١٩٨٨) و Hobbes (١٩٩٤) و Rousseau (١٩٨٤).

Determinis

الحتمية

الحتمية تقابل - فى مجال الفلسفة على وجه العموم - حرية الإرادة. لأن حرية الإرادة تعنى أن البشر قادرون على تحديد اختياراتهم بأنفسهم، وعلى العمل وفقاً لها، بينما تعنى الحتمية أن اختياراتنا تحكمها قوى أخرى، ولهذا السبب يمكننا - مثلاً - أن نفسر أفعالنا تفسيراً علياً. وإذا نظرنا إلى مفهوم الحتمية على الصعيد "الثقافى" الأشمل، فسنجد أنه يحمل معانى متشابهة: فالمؤمن بالحتمية شخص يتوقع منه أن يؤكد أوجه النشاط الاجتماعى والثقافى مستمدة - استمداداً علياً - من قوى أكثر كموناً وعمقاً (منها على سبيل المثال، دور علاقات القوة فى تكوين الذاتية). وقد يتمسك ذلك الحتمى (كما يفعل الماركسيون التقليديون) بأن الإيديولوجيا وما يصحبها من أشكال ثقافية إنما هى نتائج مباشرة للبناء التحتى للعلاقات الاقتصادية، أو، كما هو الحال عند أصحاب الداروينية الاجتماعية، قد يرى الحتمى أن هناك قوانين اجتماعية كامنّة أساسية تقوم - كما هو الحال فى عالم الطبيعة - بتحديد أى الأنماط الاجتماعية هى الأفضل لمقتضيات مبدأ "البقاء للأصلح"، أو قد يرى الحتمى أن اللغة

(ح)

التي تتكلم بها تحدد الأفكار التي ترد على فكرك. ولعلنا نضيف إلى ذلك أن أى شكل من أشكال الحتمية العلية المتطرفة (كذلك التي يدافع عنها عالم النفس السلوكي سكينر B.F. Skinner) (تنهار أمام أحد الاعتراضات التي يقدمها مايكل أوكشوت Oakeshott والقاتل: لكي يقوم الحتمى بصياغة دعواه بطريقة صحيحة، يتوجب عليه أن يدرج نظريته هذه نفسها داخل رؤيته أو تحليله (بمعنى أن يكون استبطانياً)، وبهذا الشكل فإن نظرية شاملة كاملة للحتمية لن تزيد عن أن تكون - وفقاً لشروطها - شيئاً محتملاً هو نفسه مسبقاً (وهي مشكلة مرتبطة بنظرية المعرفة). وعلى الصعيد الاجتماعي، تكتسب هذه النظرية أهمية كبيرة من حيث صلتها بالتساؤل عن مدى ما يتمتع به الأفراد من استقلال. (PS) للمزيد انظر: Oakeshott (١٩٧٥) و Honderich (١٩٩٣) و Skinner (١٩٧٤).

الحداثة

Modernism

يعتمد المعنى الدقيق لمفهومى "العصرية" و"الحداثة" اعتماداً كبيراً على الظروف التي ظهرا فيها وعلى السياق الذي يُستعملان فيه. وعلى ذلك فإن مفهوم "العصرية" يدل ضمناً - فى العادة - على معارضة لشيء ما، وخاصة معارضة مرحلة تاريخية مرت وانقضت وتجاوزها الناس. لهذا فإن العصرية، باعتبار أن هذه الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية "Modernus" (ومن كلمة "Modo" التي تعنى مؤخراً أو حديثاً) إنما تدل على الحقبة المسيحية فى أوروبا (ابتداءً من القرن الخامس الميلادى، وفى كتابات سانت أوغسطين)، وذلك فى مقابل الماضى الوثنى للأوروبيين. وقد تعرض هذا التمييز - بين الحقبة الوثنية والحقبة المسيحية - لمراجعات تناولت عدداً من القضايا على امتداد العصور الوسطى فى أوروبا وفى عصر النهضة. (فالعصر النهضة مثلاً بوصفه

----- (ح) -----

عصرًا حديثًا، كان يُنظر إليه أصلاً بوصفه مضاداً للعصور "الوسطى" السابقة عليه، وليس مضاداً للعصور الوثنية (أو العصور القديمة) والتي استردت اعتبارها في عصر النهضة).

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، أصبحت العصرية مرتبطة بالتنوير. وقد استتبع ذلك الارتباط القيام بمراجعة للفهم التاريخي للحاضر (آنذاك). ذلك أن فهم الزمان والتاريخ خلال العصور الوسطى المسيحية، بل وفي عصر النهضة، كان متأثراً بتوقع النهاية الحتمية للعالم من منظور العقيدة المسيحية. أما حركة التنوير - التي كانت أكثر علمانية - فإنها تسلم بأن التاريخ سوف يمتد إلى مستقبل رحب قد لا تحده حدود. يضاف إلى ذلك أن التطور التكنولوجي والصناعي، وما ارتبط به من تغيير اجتماعي، أصبح متسارعاً خلال هذه الفترة بصورة واضحة. وبهذا الاعتبار فإن العصرية لم تعد تدل - فقط - على ما هو أحدث عهداً أو على ما هو جديد، بل أصبحت كذلك تدل على ما هو أكثر تقدمية.

وهكذا استطاع المفكر الاجتماعي المعاصر يورجن هابرماس (١٩٨٣) أن يدافع عن مشروع العصرية "الذي لم يكتمل بعد". ويوحى هذا المشروع بأن العصرية ليست لها أهداف تكنولوجية فقط، بل الأهم من ذلك أن لها أهدافاً سياسية وأخلاقية كذلك (وخاصة في مجال تحرير الإنسانية من الخرافات ومن سلطة الماضي المطلقة) وفي هذا السياق يمكن القول بأن "الحداثة" - بمعناها المعاصر - قد ظهرت في أثناء الثورات السياسية التي شهدتها أوروبا في عام ١٨٤٨ .

وفي الفكر السوسيولوجي توضع العصرية - عادة - في الموقع المضاد للمجتمعات التقليدية، التي تكون كذلك لأنها تعيش المرحلة قبل الصناعية. ويدين علم الاجتماع بوجوده - كعلم - للجهود التي بذلت في إطار تنظير الحداثة بهذا المعنى الأخير. وفي أعمال إميل دوركايم - التي كتبها في نهاية القرن التاسع عشر - نجده

يقابل بين المجتمع الحديث المعاصر، بما يتصف به من تقسيم معقد للعمل وشعور أعظم بالهوية الفردية والاستقلال الفردي، وبين المجتمعات قبل الصناعية التي تتصف بالتضامن الآلى. وكذلك قام الفكر الاجتماعى الألمانى "توينز" (*) بالتمييز بين "المجتمع المحلى" الموحد والمتجانس والموجود فى المجتمع قبل الصناعى، وبين ما يتصف به "المجتمع" العصرى من تفتت، وعزلة، وتكلف. وفى أعمال ماكس فيبر يرتبط ظهور الحداثة بتزايد عمليات الترشيد فى جميع أوجه الحياة الاجتماعية. ويستتبع هذا الترشيد أن يتم إخضاع جميع الأنشطة الاجتماعية (ابتداءً بالاقتصاد، ومروراً بالقانون والإدارة السياسية، وانتهاءً بالعمارة والموسيقى) للفحص والتدقيق، وذلك من أجل تحديد أكفأ الوسائل عملياً لتحقيق أهدافها.

ونجد فى هذه التحليلات أن العصرية ليست كلها خيراً محضاً. وقد طرحت على بساط البحث فكرة العصرية، بوصفها تمثل التقدم الواضح المفهوم، كما طرحت بوضوح المشكلات والتوترات الناجمة عن وجود المرء فى المجتمع العصرى (بدءاً من مشكلة اللامعيارية عند دوركايم، ومروراً بالأفكار الماركسية عن الاغتراب، ووصولاً إلى تصور فيبر عن القفص الحديدى للبيروقراطية والذى يقلص مساحة الحرية والتلقائية الفردية والسياسية).

(*) توينز، فرديناند Toennies, Ferdinand (١٨٥٥-١٩٣٦) عالم اجتماع ألمانى شهير، ولد وعاش وقضى حياته الأكاديمية كلها بجامعة "كيل" بشمال ألمانيا. قدم مساهمات بارزة فى النظرية السوسيولوجية علاوة على عدد من الدراسات الميدانية الممتازة التى نشر عنها تقارير مفيدة. وكان من أبرز مؤلفاته جميعاً كتابه بعنوان "المجتمع المحلى والمجتمع" الذى نشر فى طبعته الأولى عام ١٨٨٧. ثم أعيد طبعه ست مرات، وهى حادثة نادرة بالنسبة لدراسة فى النظرية الاجتماعية. ويضم هذا الكتاب مساهمته الرئيسية فى النظرية، وتضم مؤلفاته اللاحقة وأخرها كتاب: "مقدمة فى علم الاجتماع". وظهر سنة وفاته، كثيراً من الآراء الممتازة ولكن لم تبلغ أى منها ما بلغت فيه فكرة "المجتمع المحلى والمجتمع" من تأثير. (المراجع)

وفى مجال الفنون وفى غيرها من مجالات الثقافة، قد يقصد بالحادثة التطور الذى حدث فى الأشكال الفنية الأكثر نزوعاً للاستبطان فى نهاية القرن التاسع عشر. وهكذا نجد الشاعر بوديلير Baudelaire يكتب سنة ١٨٤٥ عن الرسام الفرنسى كونستانتين جيز Constantin Guys فى مقال يحمل عنواناً له دلالة، وهو: "الرسام فى الحياة العصرية". يضاف إلى ذلك أن الحادثة فى الرسم ترتبط عادة بالفنان إدوارد مانيه Manet (١٨٣٢ - ١٨٨٣) وخاضعة لتأثيره، ولتأثير تطور الحركة الانطباعية عليها. وفى الكتاب المذكور توضع القواعد والأعراف التقليدية للفن الواقعى بشكل حاسم موضع التشكيك والاعتراض. لذلك فإن اهتمامات الفنان الحديث تنتقل من الموضوع الصريح للوحة، متجهة إلى عملية الرسم فى حد ذاتها. (وذلك كما ورد فى ملاحظة أبداها الموسيقار شونبرج Shoenberg ذات يوم، مؤداها أن الرسامين لا يرسمون الأشجار، وإنما يرسمون اللوحات). ويمكن ملاحظة نقلات مماثلة فى مجال الموسيقى (متمثلة فى القطيعة التى حدثت أوائل القرن العشرين مع القواعد والأعراف التقليدية النغمية على نحو ما نجد فى الأعمال الموسيقية لمدرسة فيينا الثانية)، ونقلات أخرى فى مجال الأدب (حيث أصبح أسلوب السرد التقليدى فى الرواية الواقعية محل شك واعتراض من قبل شخصيات مرموقة مثل بروسٲ Proust وجويس Joyce). (بل إنه ليجوز القول بأن زيادة الاهتمام بتقنيات وسيط التعبير الفنى، أو زيادة الاهتمام بشكل التعبير الفنى، يشكل فى حد ذاته وجهاً من وجود الفن الحداثى. ويساعد هذا التأكيد على الشكل فى فصل العمل الفنى عن أى شىء خارج الفن (وقد وصلت هذه النزعة إلى ذروتها، ليس فقط فى مجال فن الرسم الانطباعى المجرى مثلاً، بل الأهم من ذلك وصول هذه النزعة إلى ذروتها فى الأسلوب الذى اتبع فى التنظير الفكرى لهذه الأعمال الفنية وفى الدفاع عنها من قبل بعض النقاد مثل كلمنت جرينبرج Greenberg (١٩٩٢) ومايكل فرايد M.Fried (١٩٩٢)).

وعلى النقيض من ذلك النزوع للتجريد والبعد عن الواقع، فإن كثيراً من الفن الذى يصح وصفه بأنه فن حداثى يبدى قدراً كبيراً من الالتزام بالتغيرات السياسية والاجتماعية، أو يبدى اهتماماً بمشروع إنتاج فن يتلاءم مع الحياة الاجتماعية (الحديثة) المعاصرة. لذلك سعت النزعة المستقبلية، مثلاً، إلى تمجيد إنجازات العصر الصناعى، وتمجيد ما تتصف به التكنولوجيا الحديثة من صفات القوة والسرعة. وسعت العمارة الحديثة للوصول إلى شكل من أشكال تصميم المباني وتخطيط المدن يكون ملائماً لعصر عقلاى أخذ بمبادئ الرشد، ومجرداً مما كان شائناً فى الماضى من اهتمام بالتقاليد المتوارثة والعناية بالزخارف كما نجد مثلاً فى أعمال لوكوربيزيه ومدرسة الباوهاوس.

وقد غلب على نزعة الحداثة فى مجال الفن والعمارة ميل لإيثار الصقوة مع شىء من الانعزالية، الأمر الذى جعلها غير مستساغة لدى قطاع عريض من الجماهير. وتظهر أزمة الحداثة عندما تبدو طموحاتها للعالمية (ومن ثم تبدو طموحاتها لأن تفرض نموذجها لما ينبغى أن تكون عليه الثقافة والعمارة، معتمدة فى ذلك على مالها من منزلة متميزة) وكأنها تخفى فى ثناياها شكلاً من أشكال الحبس والتضييق على كثير من الأصوات الأخرى أو الاتجاهات الأخرى التى سبق أن استبعدت فعلاً من التطورات الحداثية (انظر مادة: ما بعد الحداثة). (AE) للمزيد انظر: Bradbury and McFarlane (١٩٧٦) و Berman (١٩٨٢) و Habermas (١٩٨٨) و Giddens (١٩٩٠).

Social Mobility

الحراك الاجتماعى

يشير الحراك الاجتماعى إلى حركة الأفراد بين الجماعات أو الفئات الاجتماعية الواقعة داخل نسق تراتبى. وأشهر أشكال الحراك هو الذى يتم بين الطبقات. وتعد

(ح)

دراسة الحراك الاجتماعي جزءاً مهماً من دراسات التدرج الاجتماعي، وذلك لأن المجتمع ذا التدرج الهرمي قد لا يعد أمراً مرفوضاً إذا توافرت فيه حرية التحرك أو الانتقال بين مختلف مستويات ذلك التدرج الهرمي. ويتضح من حرية الحركة هذه أن الطبقة الحاكمة أو الصفوة قد لا تكون جماعة مغلقة تخدم نفسها بنفسها، كما يفهم منها أن الفرد المولود في أدنى طبقات المجتمع ليس محكوماً عليه بأن يعيش حياة تتسم بالعجز وانخفاض الدخل. وأياً ما كان الأمر، فقد سبق أن ذهب أصحاب الاتجاهات الماركسية في نظرتهم إلى قضية الحراك الاجتماعي منذ عهد بعيد إلى أن الطبقة الحاكمة سوف تجند أقدر أعضاء الطبقات الدنيا في صفوفها لتمنعهم من أن يتحولوا إلى قوى فعالة تخدم الثورة. (AE) للمزيد انظر: Heath (١٩٨١).

Feminism

الحركة النسوية

يتمثل لب الحركة النسوية في الاعتقاد بأن النساء يعشن في مرتبة أدنى من الرجال في الثقافة الغربية. لذلك تسعى الحركة النسائية إلى تحرير النساء من هذا الخضوع، وإلى إعادة بناء المجتمع على نحو تتم بمقتضاه إزالة نظام سلطة الأب، وتنشأ ثقافة تأخذ في اعتبارها كل ما للنساء من رغبات وغايات. وثمة أنواع كثيرة مختلفة من النظريات في مجال الحركة النسوية. بيد أنها تشترك جميعاً في هذه الأهداف. وينحصر اختلافها في الرؤى الخاصة لما سيكون عليه هذا المجتمع الذي أعيد بناؤه، وفي الاستراتيجيات التي تطبقها لتحقيق هذا المجتمع.

وأول منظرة للحركة النسوية تم توثيق أعمالها في التراث الأنجلو أمريكي هي: ماري ولستونكرافت Mary Wollstonecraft التي طرحت نظرية اجتماعية عن خضوع النساء في كتيبها الذي كتبه سنة ١٩٧٢ بعنوان "دفاع عن حقوق المرأة". وقد تسببت

ولستونكرافت في إحداث شكل من أشكال الفعالية السياسية ظل - حتى الآن - في موقع القلب من الحركة النسوية في الغرب.

وكانت الحركة النسوية في أول أمرها مهتمة - أساساً - بتحقيق المساواة السياسية والاقتصادية للنساء مع الرجال. ثم اكتسبت مزيداً من السرعة والتقدم أثناء القرن التاسع عشر مع ظهور الكتابات السياسية التي تكشف عن الظلم المتمثل في عدم المساواة الجنسية للمرأة مع الرجل، والتي منها مثلاً الكتاب الذي صدر بعنوان "قهر النساء" (واشترك في تأليفه كل من جون ستيوارت ميل وهاريت تايلور ميل H. Taylor Mill سنة ١٨٦٩)؛ ومن خلال التنظيم الفعال للجماعات المنادية بحق المرأة في التصويت في الانتخابات، والتي منها "الاتحاد الاجتماعي والسياسي للنساء" (واختصاراً WSPU)، الذي تأسس سنة ١٩٠٣. وقد شهد القرن العشرون ازدهار حركات الحقوق المدنية وازدهار الجماعات التي تقوم بحملات منظمة تدعو فيها للمساواة السياسية للمرأة والتي ركزت على تقديم خدمات الرعاية الاجتماعية للأمهات، وبالمساواة في التعليم، والمساواة في الأجور بين الجنسين.

ولا تزال هذه القضايا التي أثّرت في أول عهد الحركة النسوية تشكل أولوية لجميع المهتمين بالحركة النسوية، كما تمثل الركيزة الأساسية للنظرية التي صيغت فيما بعد للحركة النسوية، وذلك من حيث إن هذه القضايا تؤكد أهمية المساواة الاقتصادية والسياسية كشرط لا غناء عنه من أجل تحرير النساء. وقد كانت هذه القضايا ذات أهمية كبيرة لدى الحركة النسوية الليبرالية بصفة خاصة، وهي الحركة التي تضرب بجذورها في حركة الحقوق المدنية، والتي تؤكد أن الفرص المتساوية والحقوق المتساوية هي الأساس الذي يتوقف عليه تحقيق المساواة الاجتماعية الكاملة.

وبينما كانت الحركة النسوية في أول عهدها تركز على أهمية المساواة السياسية والاقتصادية مع الرجال، فإن الحركة النسوية التي بدأت في العقود التالية للحرب

(ح)

العالمية الثانية كانت تهدف إلى الوصول إلى فهم أكمل وأدق للطبيعة الثقافية للقهر الذى تعانيه المرأة. ولتحقيق هذه الغاية تنظر "الموجة الثانية" من المشتغلين بالحركة النسوية، بعين الاهتمام إلى الطرق التى بمقتضاها تدعم المؤسسات الثقافية نفسها خضوع النساء وتعمل على استدامته. وترفض المشتغلات بالحركة النسوية - على وجه الخصوص - القيم الذكورية التى يزعم الرجال أنها قيم كلية شاملة. وبدلاً من ذلك فإنهن يذهبن - من أجل تحرير أنفسهن تحريراً تاماً من نظام سلطة الأب - إلى أنه يتوجب على النساء أن يلجأن إلى خبراتهن الخاصة ليبتكرن قيمهن الخاصة ويخلقن لأنفسهن ذواتهن الخاصة.

ومع تطور الحركة النسوية، أخذت الموضوعات المختلفة التى تعالجها تتركز على جوانب مختلفة من القهر: فالحركة النسوية الماركسية تزعم أن هذا القهر فى كل صورته إنما هو محصلة الأبنية الاجتماعية والاقتصادية؛ والحركة النسوية الراديكالية (أو المتطرفة) تحصر القهر الجنسى فيما يقوم به الذكور من التحكم فى السلوك الجنسى للنساء؛ وتهتم الحركة النسوية القائمة على أصول التحليل النفسى ببناء الذاتية النسائية ضمن ثقافة جنسية مجحفة بحقوق المرأة، وتربط الحركة النسوية الاشتراكية بين كثير من هذه الآراء وتصوغها فى نظرية عن القهر والاستغلال المنظم للنساء فى المجتمع القائم على نظام سلطة الأب، والذى ينحصر فيه الدور الإنجابى للنساء فى خدمة الرأسمالية فقط^(*).

(*) ترجع الجذور الأولى لهذا التصور إلى الكتابات المبكرة لماركس، حيث اختار كلمة البروليتاريا Proletariat للتعبير عن الطبقة الكادحة فى المجتمع الرأسمالى، إذ إن الأصل اللغوى لهذه الكلمة اللاتينية القديمة يعنى: الطبقة المعدمة الموجودة فى قاع المجتمع فى روما القديمة، والتى لا تخدم الدولة إلا عن طريق إنجابها للأطفال فقط. (المترجم)

يضاف إلى ذلك أن المفكرين من أصحاب النظريات يذهبون إلى أن القهر الواقع على النساء يضرب بجذوره في صلب الأنساق التي تقوم عليها معاييرنا الثقافية. ومن السمات الخاصة الدالة على هذا التصور وجود التعارضات الثنائية التي تستند على ذلك التناقض المزعوم بين الجنسين والذي يحط من شأن الأنثى في حالات متعددة. مثال ذلك أنه في مجال السياسة يقوم التمييز بين العام (وهو الذكر) والخاص (وهي الأنثى) باستبعاد النساء من الوظائف ذات الأهمية والسلطة الاجتماعية. أما في مجال اللغة فتذهب هيلين سيكسو H. Cixous (في كتابها بعنوان "المرأة الجديدة"، ١٩٨٧) إلى أن التعارضات الثنائية اللغوية القائمة على التفريق بين المذكر والمؤنث تعد جزءاً لا يتجزأ من علم النحو والصرف وبناء الجملة، وأنها بهذا الوضع تؤثر على إمكانية تحصيل المعرفة. وفي مجال الأخلاق ترى كارول جيلجان Carol Gilligan (في كتابها الصادر سنة ١٩٨٢، بعنوان: "بصوت مختلف") أن مهمة الرعاية - التي هي المجال التقليدي للأنثى - يتم التقليل من أهميتها وفقاً لنموذج العدالة عند الرجل.

وقد وصلت الحركة النسوية الغربية، حديثاً، إلى إدراك أنها هي نفسها ليست سوى ثمرة لتراث ثقافي بعينه، هو تراث البيض الأوروبيين الأمريكيين، وليس تعبيراً عالمياً عن نضال جميع نساء العالم من أجل التحرر. وبالنسبة للنساء السود والمولونات يعد الكفاح من أجل التحرر قضية عرقية بقدر ما هو قضية تتعلق بالنوع الاجتماعي. فهن ينتقدن تراث الحركة النسوية الغربية بسبب مركزيته العرقية، في نفس الوقت الذي يؤيدن فيه الكفاح ضد القهر الواقع على جميع النساء.

وفي رد فعل على اتهامها بالمركزية العرقية، تسعى الحركة النسوية في "موجتها الثالثة"، تسعى - جزئياً - إلى التغلب على الصعوبات التي تحيط بالسؤال عن هوية أو كينونة المرأة على وجه الدقة، ومن هي المرأة التي تدعى الحركة النسوية أنها تمثلها. وتتفق الموجة الثالثة النسوية مع ما بعد البنيوية في نبذ الفكرة القائلة بوجود هوية

(ح)

جمعية متفردة للنساء جميعاً. وتطرح بدلاً من ذلك أفكاراً - تتسم بالالتباس والتباين - حول وسيلة فهم ما لكل امرأة على حدة من قضايا واهتمامات خاصة بها وحدها. ويشكل هذا التطور الفكرى مسألة خلافية يثور حولها النزاع داخل الحركة النسوية. ويذهب نقاد هذا الموقف الفكرى إلى أن مفهوم الهوية يعد - فى حد ذاته - أمراً أساسياً لا غناء عنه لتحليل القهر. لذلك فإن تفكيكه أو تجزيئه على هذا النحو يضعف من إمكانية مقاومة النساء وتغييرهن لهذا الوضع، الأمر الذى يؤدى إلى تشويه صورة الالتزام السياسى للحركة النسوية. (JO).

New Criticism

حركة النقد الجديد

لعل أهم العوامل التى أثرت على حركة النقد الجديد هى ما قدمه ريتشاردز I.A. Richards من التفسيرات الأدبية المنصبة على النص والمهتمة بالتدقيق فى تفصيلاته. بيد أن الحركة المسماة "النقد الجديد" كانت قد تكونت - بصفة رئيسية - من الشاعر المغترب تى. إس. إليوت وثلاثة من كتاب الجنوب الأمريكى هم: جون كراو رانسوم J. C. Ransom، وآلن تيت A. Tate، وروبرت بن وارن R. P. Warren. وتعد هذه الحركة ظاهرة شمال أمريكية إلى حد كبير، حتى على الرغم من أن لها نظائر مهمة تجمعها مع أعمال الناقدين البريطانيين ليفيز F.R. Leavis وويليام إيمبسون W. Empson. وقد قامت هذه الحركة - من خلال تأكيدها أهمية قضايا الشكل الأدبى - بالتعبير عن اهتمام الشاعر بالإمكانات التى تتمتع بها اللغة. وقد استلزم ذلك صياغة نظرية جمالية نقلت اهتمام النقد بعيداً عن مجال حياة المؤلف واتجهت به نحو الانشغال التفصيلى بلغة الأدب، فكانت بذلك علامة فارقة على حدوث نقلة حاسمة فى الاتجاه بعيداً عن جوانب فقه اللغة، وعن تقصى أصول النص والسيرة الأدبية للكاتب،

والاهتمام - بدلاً من ذلك - بتحليل النصوص. وعلى الرغم من أن تأكيد هذه الحركة أهمية القراءة الدقيقة للنص كان مناسباً بصورة ممتازة للتعليم المدرسى، وأنه لا يزال يمثل نقطة البدء بالنسبة لمعظم التفسيرات التي تستلهم فكر هذه الحركة؛ على الرغم من ذلك فإن الأسس النظرية لحركة النقد الجديد كانت مترسخة بقوة داخل إحدى الإيديولوجيات الزراعية (أى البسيطة الساخجة) المحافظة على القديم وذات الرؤية المحدودة، إلى الحد الذى جعلها هدفاً لهجمات ضارية.

وقد كان التركيز الشديد لحركة النقد الجديد على النص نتيجة لرؤيتها للعمل الفنى باعتباره شيئاً من إبداع الإنسان يتصف بالظود والدوام والاكفاء الذاتى. وعلى الرغم من أن اهتمام الحركة بجوهر النص قد مس كذلك القضايا المتعلقة بإنتاج النص، فإن الممارسة الرسمية لتطبيق منهج البحث الخاص بحركة النقد الجديد، قد نزت من الأدب من سياقه الاجتماعى، حتى إنها أصبحت تنسارى - بوجه عام - مع الاهتمام المحصور بالكلمات المدونة على صفحة الكتاب. ومن الشواهد التى تثبت موقف هذه الحركة من التأكيد على أهمية النص الإصدارات التى نشرها ممثلوها الكبار: وأجدها بالذكر ما نشره كلينث بروكس C. Brooks وروبرت بن وارن R.P. Warren من سلاسل الكتب التعليمية، والتى منها كتاب "فهم الشعر" (١٩٣٨) والكتاب الذى وضعه بروكس بعنوان "غلاية الشاى الرائعة الشكل" (١٩٤٩). ومن المفكرين الذين يمثلون هذه الحركة مونرو بيردسلى M. Beardsley وبلاكمر R.P. Blackmur. وعلى الرغم من أن التأكيد على أهمية الشكل الأدبى كان قد بدأ كوسيلة لطرح أسئلة تتعلق بالمتطلبات الاقتصادية اللازمة لإنتاج العمل الفنى، فقد استخدم بعد ذلك كنزعة جمالية بورجوازية تُعلى من قدر البراعة البلاغية للنص فتغنى الكاتب عن الحاجة إلى أن يكون له التزام سياسى. وفى النظرية التى طرحها ويمسات W.K. Wimsatt يتم

تعريف النص باعتباره أيقونة^(١٠): أى أن اللغة الأدبية تصور كغاية تطلب لذاتها، وأن الأدب إنما يتخذ كوسيلة للتعبير عن عالم يختلف عن كافة ما يعرفه الناس من وقائع على امتداد التاريخ، وذلك لأن الأدب - فى هذه النظرية - إنما يعبر عن إدراك صحيح صحة مطلقة لما هو إنسانى (فى كتابه: الأيقونة اللفظية، ١٩٥٨). وإنما يعنى هذا الكلام أن الأدب يصور المشكلات الإنسانية العميقة التى لا ترتبط بالمؤلف ولا بالسياق التاريخى، كما أن احتكام الناقد لهذا المعنى الجوهرى للطبيعة الإنسانية، هو الذى يمكنه من فهم وشرح المعنى الشامل للعمل الفنى.

إن التأكيد على أهمية القراءة الدقيقة للنص، إنما هو نتيجة لإحدى النظريات الأدبية التى ركزت على الصياغات اللغوية بدلاً من التركيز على نفسية المؤلف. ومع ذلك تربط هذه النظرية، فى أفضل صورها، بين فحص الأبنية اللغوية وبين الاهتمام الأكثر انفتاحاً بـ سيكولوجيا وسوسيولوجيا إنتاج اللغة (أى بالاعتبارات النفسية الخاصة بالمؤلف والاعتبارات الاجتماعية الخاصة بالظروف التى تم فيها إنتاج النص). ومع أن أعمال ويليام إمبسون W. Empson بعيدة عن فكر حركة النقد الجديد، فإنها أثرت تأثيراً كبيراً على هذه الحركة. ذلك أن كتابيه اللذين وضعهما، وأولهما بعنوان "سبعة أنماط للغموض" (١٩٣٠)، الذى كتبه فى وقت كانت حركة النقد الجديد فيه على وشك الانطلاق كممارسة نقدية، وثانيهما بعنوان "بناء الكلمات المعقدة" (١٩٥١) يربطان بين الاهتمام الشديد بتفاصيل دلالات الكلمات ودلالات النص وبين مناقشة الأفكار السائدة ثقافياً. لكن من الجدير بالذكر أن إمبسون كان يدمج الاعتبارات الخاصة بسياق النص

(١٠) أيقونة icon: تعنى لفظة الأيقونة الصورة أو صورة الوجه وحدها (بورتريه) بعامية. وتنطبق هذه اللفظة بصفة خاصة على تصاوير الشخص المقدس فى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية مثل أيقونات القديسين أو أيقونات العذراء. وتعتبر الأيقونات جزءاً أساسياً من الكنيسة تحظى بتقديس شعائرى خاص. والأيقونوغرافية البيزنطية ليست فناً واقعياً بل رمزياً وتليفتها التعبير عن التعاليم اللاهوتية للكنيسة من خلال الخطوط والألوان. انظر: ثروت عكاشة، المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية. (المراجع)

داخل ما يقدمه من تفسيرات، وأن كتابه الذى وضعه عن الغموض كان حريصاً على ألا يعقد مصالحة نهائية للنزاع بين الاتجاهات النقدية فى معالجة النصوص، وذلك بالجوء إلى الأفكار القائلة بالمفارقة أو التناقض، أو التهمك والسخرية، أو ما شابه ذلك من الأفكار.

وكذلك الشأن مع الاتجاهات الحديثة فى الفن، وخاصة تلك التى تلتزم بأحد الخطوط الفكرية للنزعة التفكيكية (انظر مادة: تفكيك)، حيث تهتم اهتماماً شديداً بتحليل الدقيق للنص، كما تركز على ما فى النص من مظاهر التناقض. والفارق الرئيسى بين حركة النقد الجديد وهذه الاتجاهات هو أن حركة النقد الجديد عالجت الأدب باعتباره موضوعاً يمكنه تجلية مظاهر التعقد فى الحياة من خلال تأكيد النابع من طبيعته الذاتية مظاهر البراعة البلاغية (كاستعمال أسلوب المفارقة أو التناقض، وأسلوب الترادف المضاد Oxymoron^(*)، وأسلوب الغموض والالتباس، وأسلوب الشد والتوتر، وأسلوب التهمك والسخرية). وقد عدَّ الشعر - خاصة - الإنجاز الثقافى الأرقى بين الأنواع الأدبية وذلك نظراً للإيمان السائد فى ذلك الوقت بأن أساليب الشعر البلاغية تعبر عن إمكانية التوفيق بين مظاهر التناقض، وذلك بمقارنة هذه المظاهر بمنظومة المعتقدات الراسخة التى يشيع الإيمان بها فى المجتمع الغربى ولدى أتباع الديانة المسيحية. وقد أكدت الاتجاهات الفكرية المعارضة التى ظهرت بعد ذلك، والتى أفصح عنها المناضلون من أجل الاعتراف بالنوع الاجتماعى وبحقوق الأقليات العرقية؛ أكدت أنه حتى على الرغم من أن كتابات حركة النقد الجديد قد تكون فى غاية الحساسية لما فى النصوص من احتمالات الدلالات المتناقضة، فإن ما خلصت إليه هذه الكتابات من نتائج نهائية لم تكن مقبولة سياسياً عند هؤلاء المعارضين، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن الطريقة التى يتبعها أصحاب حركة النقد الجديد تختزل - عادة - معنى النص فى عبارة مفردة وشاملة شمولاً تاماً عن أسلوب حياة الفرد بوصفه عضواً فى مجتمع غربى (خاضع لسلطة الأب وذى نظام اقتصادى بورجوازي).

(*) الترادف المضاد أو الترادف المخالف: أسلوب فى التعبير تستعمل فيه كلمة مضادة فى معناها لكلمة مجاورة لها، كقولك المشائم المسرور: A cheerful pessimist. (الترجم)

وعلى النقيض من ذلك، نجد أن الاتجاه النقدي التفكيكي، وخاصة إذا كان مشتغلاً بالنقد القائم على دوافع سياسية كالنقد الماركسي، أو النقد النسوي، أو نقد ما بعد الكولونيالية، يسلط الأضواء على التفسيرات المتعددة للنص باعتبارها شواهد يمكن أن يعثر فيها على ما نفند به المعنى المفرد الذي تدور حوله الأفكار الرئيسية للنص، مثل معنى الذاتية أو معنى الهوية. ولم تكن الاعتراضات التي وجهت بها حركة النقد الجديد قائمة على أسس سياسية فحسب، بل كانت - إلى جانب ذلك - تتعلق بما أبدته هذه الحركة من رؤية اختزالية للغة. ذلك أن حركة النقد الجديد، ورغم اهتمامها بالأساليب البلاغية المعبرة عن التناقض، كانت متمسكة بالاعتقاد بأنه بالإمكان السيطرة على المعنى اللغوي للنص، وأن ما في الأدب من تعبيرات متناقضة لديها تلك القدرة الخاصة على الانتظار إلى أن يأتي عقل نوثقافة رفيعة تمكنه من تفسيرها وحل تناقضاتها. (CK) للمزيد انظر: Litz et.al: (٢٠٠٠). و Lentricchia (١٩٨٠) و Hosek and Parker (١٩٨٥).

Urbanism

الحضرية

الحضرية أو التحضر هو زيادة نسبة من يعيشون من سكان بلد ما في المدن الصغيرة town، والمدن cities، بالإضافة إلى النتائج أو الآثار الاجتماعية والثقافية الناجمة عن الحياة ذات الطابع الحضري الغالب. وينشأ التحضر إما نتيجة هجرة الناس من الريف إلى المدن، أو بسبب أن معدلات المواليد بين سكان الحضر تفوق معدلات الوفيات. والتحضر - على أية حال - ظاهرة حديثة. مثال ذلك أنه في سنة ١٨٠٠ وفي المملكة المتحدة كان ما يقرب من ٢٤٪ من السكان يعيشون في المراكز الحضرية. وبحلول عام ١٩٠٠ ارتفع هذا الرقم إلى ٧٧٪. لكنه مع زيادة أعداد الضواحي، وظهور عدد من التغيرات في هيكل المدن الصغيرة والكبيرة بسبب هبوط النشاط الصناعي في المدن، أخذ معدل التحضر يميل إلى ما عرف عنه من البطء بل إلى التقلص والهبوط.

وثمة اتجاهان عامان، وإن كانا متداخلين بالضرورة، يمكن تحديدهما في مجال قضية الحياة في المدن. فمن ناحية، يوجد ذلك الاتجاه المعنى بوصف وتحديد ما يميز أسلوب الحياة في المدن. ومن ناحية أخرى، توجد محاولات لشرح أسلوب الحياة الحضري. هذا وقد يكون الاتجاه الأول أوثق صلة بالدراسات الثقافية. وحدث في القرن التاسع عشر أن أصبحت المدينة تمثل موضوعاً أساسياً محورياً عند بعض الروائيين - أمثال ديكنز وبلزاك - وعند بعض الشعراء أمثال بودلير.

وفي نطاق النظرية الثقافية والاجتماعية، يمكننا أن نعر - ضمن المؤلفات التي كتبت في السنوات الأولى من القرن العشرين - على الأعمال التي قدمها جورج زيمل، وولتر بنيامين، ومدرسة شيكاغو، وحشد كبير من الكتاب المعاصرين نوى التوجهات الحديثة، وما بعد الحديثة والتوجهات المؤيدة للحركة النسوية. إذ يرى زيمل (*) (١٩٥٠) أن الحياة في المدينة الكبيرة تتسم بزيادة نسبية في عوامل النشاط الفكري والإثارة الفكرية. على حين تتصف الحياة الريفية - أو الحياة في المجتمع المحلي الصغير الحجم - بأنها أكثر عاطفية واستقراراً، ولكنها تقتقر إلى الحرية الشخصية. ومن المفارقات - عدا هذا - أن تكون الحياة المفرطة في النشاط والإثارة - والتي هي سمة الحياة في المدن الكبيرة - سبباً يهدد الفرد في سعيه للبحث عن هويته. فالإفراط في النشاط والإثارة، والتهديد الذي يمثله الآخرون بالنسبة للفرد يفضيان إلى جعله ميالاً للتحفظ أو اللامبالاة. ويتمثل هذا الميل في سعيه الدائم بحثاً عن كل ما هو جديد وفي اتصافه بغربة الأطوار.

ويقدم بنيامين في تحليله لمدينة باريس في القرن التاسع عشر (١٩٧٣) طائفة رائعة من القراءات المتناثرة عن هذه المدينة، وأشهرها ذلك التصوير الحي لشخصية "المتسكك" *flaneur* (الذي لا يختلف كثيراً عن وصف زيمل للبشر في المدينة). فالبطل

(*) انظر تعريفاً موجزاً به في مادة: الاستهلاك. (المراجع)

يتسكع في شوارع هذه المدينة التي لا يعرفه فيها أحد (مشابهاً في ذلك الفرد في الحشد في رواية إيجار آلان بو E. A. Poe التي تحمل هذا العنوان - ١٩٨٢)، وهو يلتهمها في سلسلة متتابعة من الانطباعات والخواطر العابرة.

وفي إطار تراث مدرسة شيكاغو^(*) في علم الاجتماع الحضري قام لويس ويرث^(**) بتلخيص الخبرة الحضرية في ضوء ما تحدثه من فقدان المرء للعلاقات الشخصية، وما يترتب على ذلك من تعاظم النزعة النفعية في تعاملاتنا مع الآخرين.

(*) مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع: مدرسة ذات تقاليد بحثية اقترن اسمها بجامعة شيكاغو خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، استطاعت أن تهيمن على علم الاجتماع في أمريكا الشمالية طوال تلك الفترة. وقد تأثرت تقاليد هذه المدرسة بشدة بالنزعة الفلسفية البراجماتية، والملاحظة المكتسبة بالخبرة المباشرة، وتحليل العمليات الاجتماعية الحضرية. ويرتبط اسم مدرسة شيكاغو عادة بالقضايا الثلاث التالية: القضية الأولى: وفي أكثرها شيوعاً، اقترن اسم مدرسة شيكاغو بإجراء الدراسات الميدانية الإمبريقية، في مقابل بعض الاتجاهات الأخرى الأكثر ميلاً إلى التجريد والتنظير التي كانت تسم أنشطة غالبية علماء الاجتماع الأوائل في أمريكا الشمالية، خاصة الداروينية الاجتماعية.

أما القضية المحورية الثانية فتتعلق بدراسة المدينة. هنا، وفي واحدة من أسرع المدن نمواً في أمريكا الشمالية في بداية هذا القرن، بكل ما صاحب ذلك من مشكلات الهجرة، والجناح، والجريمة والمشكلات الاجتماعية، أصبحت الدراسة السوسولوجية للمدينة فرعاً مستقلاً من فروع علم الاجتماع. وتعود العديد من جذور علم الاجتماع الحضري إلى تقاليد هذه المدرسة، سواء من الناحية الوصفية، أو من الناحية النظرية في ضوء محاولات تفسير ديناميات نمو المدينة وتغيرها.

وأما القضية الثالثة التي نبتت من مدرسة شيكاغو فتتمثل في صيغة مميزة لعلم النفس الاجتماعي، مشتقة جزئياً من قسم الفلسفة الحليف، وبخاصة من كتابات جورج هربرت ميد. وقد ركز هذا التقليد على خلق وتنظيم الذات، وهو ما عرف فيما بعد عبر كتابات هربرت بلومر باسم التفاعلية الرمزية. انظر المزيد في: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وزملائه، مرجع سابق. (المراجع)

(**) ويرث، لويس Wirth, Louis (١٨٩٧-١٩٥٢) عالم اجتماع أمريكي ألماني الأصل. درس في شيكاغو على سمول، وتوماس، وبارك، ويورجيس وغيرهم. أستاذ مرموق تولى عشرات من المناصب الرفيعة في حقل التخصص وفي ميدان التخطيط ورسم السياسات. تغطي بحوثه عدداً من مجالات علم الاجتماع المهمة منذ رسالته للدكتوراه عن "الجينز" (١٩٢٨). ولكنه من أعلام علم الاجتماع الحضري، واشتهر بمقال "ذائع الصيت يعرف الحضرية". كما نمطت اهتماماته علم الاجتماع المعرفي، "الإيديولوجيا والبيوتوبيا" (١٩٣٦). وشارك في تطوير الدرس السوسولوجي للعلاقة بين المعرفة والمجتمع. (المراجع)

وهو يشرح طريقة الحياة هذه عن طريق الاستشهاد بملامح البيئة الحضرية نفسها: من حيث حجمها، وكثافتها، واتصاف سكانها بصفات متغايرة متنافرة.

وتنزع بعض الاتجاهات الفكرية التي ظهرت بعد ذلك في مجال علم الاجتماع الحضري إلى رفض الزعم القائل بأن الخبرة الحضرية شيء واحد وفريد، فنجد جانز H. J. Gans - مثلاً - يعترف بما تنسم به العلاقات بين سكان المدن من افتقاد للمسمة الإنسانية الشخصية، وغربة ناجمة عن جهل كل منهم بغيره، وسطحية تخلو من الحميمية، وهى السمات التي تشكلت بفعل الظروف المتقلبة ويسبب افتقاد التجانس. لكنه يذهب إلى أن مثل هذه الظروف لا تنطبق إلا على جزء من سكان المدن، ويتعين فهمها في ضوء العوامل الاجتماعية، كالطبقة، وفرص التوظيف المتاحة (١٩٦٨). وبهذا الشكل يصبح فى الإمكان النظر إلى المدينة باعتبارها المجال الذي تفعل فيه القوى الأخرى - من اجتماعية وسياسية - فعلها بصورة دائمة.

وهكذا يقوم مارشال برمان M. Berman باستكشاف العلاقات بين المدن، والفن الحديث، والتحديث (١٩٨٣). وفى الجغرافيا المعاصرة نجد هارفى Harvey (١٩٨٩) وكاستلز Castells (١٩٨٩)، يتبنيان الأطر الفكرية الماركسية فى تحليل دور الرأسمالية والدولة فى تشكيل وتطوير المدينة. وعلى العكس من ذلك، يجد أنصار نزعة ما بعد الحداثة فى مدينة أواخر القرن العشرين ما يدل على تحولها إلى مركز للاستهلاك والترويج. والآن تحل مدينة لاس فيجاس بالولايات المتحدة محل باريس بوصفها تمثل الطراز المنشئ للخبرة الحضرية.

ويتصدى الاتجاه النسوى لويلسون Wilson (١٩٩١) لمناوئة التميز الذكوري الذي نلمسه فى كثير من المؤلفات التى كتبت عن المدن. ورد ذلك فى ثنايا تحليله للمدينة، التى لا تقتصر نظرته إليها على اعتبارها مكاناً يمثل تهديداً للنساء وخطراً عليهن بل باعتبارها مكاناً نافعاً لهن أيضاً. (انظر كذلك مادة: العمارة). (AE) للمزيد انظر: Leach (١٩٩٧) و Pahl (١٩٦٨) و Saunders (١٩٨١) و Soja (١٩٨٩).

L, Année Sociologique

حولية علم الاجتماع

دورية كان دوركايم يرأس تحريرها من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٩١٣، ثم أصبحت
النافذة الرئيسية لنشر بحوث أعضاء مدرسة دوركايم في علم الاجتماع، مما جعلها
تسهم مساهمة ظاهرة في سيطرة هذه المجموعة من العلماء الاجتماعيين على علم
الاجتماع الفرنسي. (AE)

Myth

خرافة

انظر: أسطورة.

Discourse

الخطاب

لا يوجد معنى واحد لكلمة الخطاب، حتى لو أخذها المرء بمفهومها الفني الضيق. ولا ريب أن كلمة "الخطاب" يمكن أن تعني مجرد حوار بين متحدثين، ولكنها تعني كذلك - كما في اللغويات مثلاً - الطريقة التي يتم بها التأليف بين العناصر اللغوية لكي تشكل نظاماً للمعنى يكون أكبر من حاصل جمع أجزائه. وإن كان يوجد كذلك شكل آخر لهذا المعنى ضمن ما تهتم به الدراسات الثقافية من أفكار تتعلق بموضوع الخطاب. ومن بين النظريات العديدة التي طرحت في هذا الشأن مفاهيم الخطاب الواردة في أعمال ميشيل فوكو وجان فرانسوا ليوتار، ذات الصلة بالنظرية الثقافية.

ويرى فوكو أن هناك عدداً من الممارسات والمؤسسات الاجتماعية (مثل: مؤسسات التعليم، والسياسة، والدين، والقانون) التي تتكون من عدد من أشكال الخطاب وتقع في إطارها، ويعنى بها طرق التحدث عن مجال الخبرة الاجتماعية. ويعد الخطاب، وفقاً لهذه الرؤية، وسيلة لإنتاج المعنى وتنظيمه ضمن سياق اجتماعي معين. وهكذا تكون اللغة مفهوماً أساسياً في نطاق هذه الرؤية، لأن اللغة هي التي تجسد أشكال الخطاب. وبهذا الاعتبار، يؤلف الخطاب "صيغة منطقية"، وهذا يعني أن أشكال الخطاب تعد بمثابة أساليب دالة أو كاشفة لطريقة التنظيم الدقيق للخبرة البشرية بالعالم الاجتماعي في صورة لغة، ومن ثم تؤلف هذه الأشكال الخطابية أنماطاً للمعرفة. ومن المهام الأساسية لأي خطاب بوصفه صيغة منطقية ألا يقتصر على القيام بدوره الجامع (أي الاحتواء أو الاستمالة)، بل يقوم - إلى جانب ذلك بدوره المانع (أي

(خ) -

الاستبعاد): وهذا معناه أن الصيغ المنطقية تزودنا بالقواعد التي نصوبُ بها ما يعد معرفة - مثلاً - ضمن سياق معين، في نفس الوقت الذي تنص فيه صراحة على ما لا يعد معرفة ضمن ذلك السياق. ووفقاً لتحليل فوكو يستتبع هذا الوضع الخاص بالصيغ المنطقية وقواعدها الحاكمة قدرة مجال الخطاب على أن تكون له مهمة قمعية.

ويرافق مع هذا التصور للخطاب زعم يرى أن بعض المفاهيم كمفهوم الذاتية لا يمكن فهمها، كما هو الحال بالنسبة لتلك المفاهيم ضمن التراث السياسى الليبرالية مثلاً. فعلى حين تعد الذات - في نظر الليبرالي - كياناً سياسياً واضحاً إلى حد ما، فإن الذاتية نفسها تتشكل حتماً - من وجهة نظر فوكو^(*) الخاصة بتحليل الخطاب - بواسطة الخطاب، وبالتالي بواسطة اللغة. وهنا ينبغي أن نضيف أنه إذا كان الأمر كذلك، فمن الغريب أن نحاول وصف أى شكل من أشكال الخطاب بأنه "قمعى". ذلك أنه إذا لم تكن هناك أى ذات لم تتشكل بواسطة الخطاب فإنه يحق للمرء أن يتساءل عما سيتم "قمعه".

وتحمل فكرة ليوتار عن "أجناس الخطاب" (انظر كتابه بعنوان: المختلف: عبارات محل خلاف - ١٩٨٢) بعض أوجه الشبه مع فكرة فوكو عن الصيغ المنطقية. ومع هذا، جاء ليوتار لي طرح وجهة نظره في ضوء قراءته لطائفة من النصوص المستمدة من تراث الفلسفة التحليلية (ومنها على سبيل المثال نصوص من الكتابات المبكرة والكتابات الأخيرة للودفيغ فيتجنشتين، وبرتراند راسل، وسول كريبك) ولنصوص أخرى كذلك من

(*) ميشيل فوكو Michel Foucault (١٩٢٦-١٩٨٤) فيلسوف فرنسى مثير للجدل ينتمى إلى تيار ما بعد البنيوية، وهو أستاذ لتاريخ المذاهب الفكرية، كان له تأثير عميق على أغلب العلوم الاجتماعية منذ سبعينيات القرن العشرين. وتستعصى أعمال فوكو على الوصف والتشخيص السهل، ولعل أقرب الطرق إلى ذلك قراءة دراسات الحالة التى أجراها على الجنون والطب والسجون والسلوك الجنسى. انظر المزيد عنه فى موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وزملاؤه، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (٣ مجلدات)، ٢٠٠٠-٢٠٠١، خاصة المجلد الثانى، ص ١٠٩٦ وما بعدها. (المراجع)

تراث الفلسفة الأوروبية. وتمثل فكرة ليوتار عن أجناس الخطاب تهجيناً بين هذين التراثين. فمن التراث التحليلي أخذ أفكاراً مثل فكرة "التسمية الجامدة"، وهو مصطلح يستعمل في وصف وظيفة "اسم العلم". وهذه الفكرة مستمدة من كتاب كريبك بعنوان: "التسمية والضرورة" (١٩٨٠). حيث يذهب كريبك إلى أن اسم العلم - لاحظ أنه وفقاً لهذه الرؤية تعد كلمة "الذهب" اسم علم بهذا المفهوم - له بمقتضى وظيفته دور في تثبيت، ومن ثم تقييد، نفس الكينونة (لن يطلق عليه اسم العلم هذا) وذلك عند ورود الاسم في أى عدد من المجالات التى يمكن وروده فيها. ويحصل اسم العلم على هذه الكينونة من خلال عملية "التعميد المبدئي"^(٩). وقد أدى ذلك التصور إلى تبني بعض مفكرى الفلسفة التحليلية لنوع من الفلسفة "الماهيوية البديهية" A Posteriori Essen-tialism، كما استعان بمفهوم فيتجنشتين عن "لعبة اللغة"^(١٠). ومن الفلسفة الأوروبية أخذ ليوتار بعض المسلمات الأساسية فى نزعة ما بعد البنيوية (ومنها على سبيل المثال، وجهة النظر التى ترى أن معنى مصطلح ما كمصطلح الذاتية إنما يتكون عن طريق اللغة). وجنس الخطاب - فى تحليل ليوتار - هو عبارة عن طريقة لتنظيم الواقع وفقاً لمجموعة معينة من القواعد. وتدُلنا هذه القواعد على كيفية ربط الوحدات الأساسية للغة معاً (أى "العبارات"). وبناءً على هذه الرؤية تتصف أجناس الخطاب بالسمات المتميزة التالية:

(١) أنها تزودنا - كما ذكرنا - بالقواعد اللازمة للربط بين العبارات.

(٢) اشتراط وجود الأغراض أو الغايات - بمعنى أن المرء لا يمكنه ربط الكلمات إلا بالنظر إلى غاية معينة أو إلى غيرها من الغايات.

(٩) تشبيهاً بعملية تعمييد الطفل الوليد فى الكنيسة وإعطائه اسماً عند ذلك. (المترجم)

(١٠) انظر تعريفاً بمفهوم "لعبة اللغة" فى هامش مادة: المعنى. (المراجع)

(خ)

لذلك، فإن من تصورات ليوتار أنه يعتبر الخطاب أمراً جوهرياً لا غنى عنه في تنظيم المعنى، وذلك على الرغم من أن الوحدات الأساسية للغة (أى العبارات) ليست - في حد ذاتها - ذات طبيعة "منطقية" (فالعبارة يجب تصنيفها ضمن جنس معين من أجناس الخطاب حتى يمكن تمييزها ومن ثم يمكن إعطاؤها معنى معيناً).

والأمر المشترك بين تصورات الخطاب فى أعمال بعض المشاهير مثل فوكو وليوتار، هو تلك الفكرة التى ترى أن اللغة، حال اعتبارها خطاباً، تكون ضرورة حيوية خاصة عندما نحاول فهم قضايا الثقافة والمجتمع. زد على ذلك، أن التحليل العقلانى للأبنية الاجتماعية يصبح أمراً مشكلاً عند الأخذ بهذا الاتجاه الخاص بأجناس الخطاب. وهكذا يرى ليوتار أن تعدد أجناس الخطاب إنما هدفه العمل على منع التأكيد على أولوية أى جنس بعينه منها، وذلك فيما يتصل بإثبات ما ينبغى اعتباره صحيحاً منها. فلأن جميع أجناس الخطاب منظمة وفقاً لغايات معينة، ولأن الغايات متعددة، فإنه يترتب على ذلك تعذر القول بأن جنساً بعينه من أجناس الخطاب يملك الكفاءة للقيام بمهمة وضع الأساس لسرد شامل يحقق هذه الغاية.

وقد تعرضت بعض أشكال هذا الاتجاه الأخير للنقد على يد يورجن هابرماس، الذى يختلف موقفه الفكرى عن ذلك الاتجاه اختلافاً ملحوظاً. إذ يرى هابرماس أن بالإمكان تفسير الخطاب فى ضوء قدرته على اتخاذ شكل النموذج القياسى (أى "موقف الكلام المثالى")، الذى يمكنه أن يحافظ على وجود مساحة ضرورية لإعمال الفكر، لا تكون خاضعة للضغوط الخارجية التى يمارسها أصحاب المصالح الخاصة أو أصحاب القوة. (PS) للمزيد انظر: Loytard (١٩٨٨) و Lee (١٩٩٢) و Kripke (١٩٨٠) و Foucault (١٩٧٢) و White (١٩٨٧) و Schiffirin (١٩٩٣).

Social Darwinism

الداروينية الاجتماعية

تمثل الداروينية الاجتماعية تطبيقاً للمبادئ التطورية التي وضع خطوطها العريضة تشارلز دارون في كتابه "أصل الأنواع" (١٨٥٩) وطرحها في أول الأمر هيربرت سبنسر^(*). والحق أن أفكار سبنسر ترجع إلى تاريخ سابق لنشر دارون لكتابه المذكور؛ فقد اعتمد على معطيات العلم المعاصر له كوسيلة لتبرير فرضياته، ثم لجأ فيما بعد إلى استخدام عمل دارون لتأكيد موقفه وتدعيم مصداقيته. وكان هدف سبنسر التأليف بين عدد من العلوم المختلفة (ومنهما مثلاً علم الاجتماع الذي كان أخذاً في التطور في ذلك الوقت، ومناهج العلوم الطبيعية ونظرياتها) في إطار تصور تطوري للمجتمع الإنساني. وعلى ذلك، فإنه بينما يعنى نموذج دارون التطوري بالواقع المادي (أي عالم الطبيعة)، نجد أن مفهوم التطور عند سبنسر يتميز عنه بدعوى كونه علماً للمجتمع.

ويرى سبنسر أن العملية التطورية عملية يحدث فيها تغير تلقائي من التجانس المفلك (أي الوحدة) إلى التباين المتناسك (أي التنوع)، ويصاحب ذلك التغير تشتت في الحركة وتكامل للمادة^(*) (انظر كتابه: البناء، والوظيفة والتطور، ١٩٧١: ٩٢). ومن هذه المقدمة يصوغ سبنسر نموذجاً لا سياسياً للمجتمع يتصف بكونه نموذجاً أضفى عليه

(*) سبنسر، هيربرت Spencer, Herbert (١٨٢٠-١٩٠٣) يعد واحداً من أكبر المفكرين الإنجليز تأثيراً في نهاية القرن التاسع عشر، وهو الأب الثاني لعلم الاجتماع بعد أوجست كونت. اشتهر بنظريته عن التطور، وقد استند على هذه النظرية في وضع أسس نسق سوسيولوجي يؤكد التطور تجاه تعقيد اجتماعي متزايد وارتفاع درجة الفردية فالمجتمع في نظره مثل الكائن الحي المعقد. يتصف بحالة من التوازن الدقيق ولا ينبغي ألا يسمح إلا لعملية التطور الطبيعية بالتأثير في نموه. ولقد أدى به هذا التأكيد على الفردية والتكيف الطبيعي إلى معارضة الإصلاح من خلال تدخل الدولة. ومن أهم مؤلفاته: أسس علم الحياة (١٨٦٧-١٨٦٤) وأسس علم النفس (١٨٧٦-١٨٩٦) وأسس علم الاجتماع (١٨٧٦-١٨٩٦) وأسس الأخلاق (١٨٧٩-١٨٩٣) هذا عدا حشد كبير من المقالات والمؤلفات الأخرى الأقل أهمية. (المراجع)

السمت الطبيعى ولم يلتفت فيه إلى ربطه بأى أبعاد تاريخية. فلو فرضنا أن المجتمع ترك لشأته - من غير تدخل - فسوف ينظم نفسه وفقاً لمبدأ "البقاء للأصلح"، وهو المبدأ الذى تحكمه تلك الحركة المتجهة صوب تحقيق المزيد من التماسك والتنوع. وتتسم نظرته تلك بأنها شديدة المحافظة فيما تضمنته من معان وإيحاءات: إذ يرى سبنسر أن استقرار نسق التدرج الاجتماعى أمر جوهري لا بد منه لتحقيق "تماسك" (أى: استقرار) البناء الاجتماعى، ومن هنا، فإن أى شكل من أشكال تفشى الفوضى فى المجتمع، على نحو يمثل تهديداً لنظام التدرج، يعد قوة هدامة، يشبه ما يحدثه المرض فى جسم الإنسان. فكل من الفوضى والمرض مظهران من مظاهر اختلال النظام التى تصيب المجتمع والجسم بالنكوص والتردى، كما أنهما يعوقان العملية التطورية بما يتسببان فيه من إحداث للتباين بدون التماسك. وفى أثناء شرحه لخطوات ظهور المرض فى جسم الإنسان، يعلق سبنسر على كيفية "اختفاء قواعد التنظيم - عبر مراحل متعاقبة - إلى أن تختفى تماماً"، ويقارن بين هذا الوصف وبين الاضطراب أو الفوضى الاجتماعية، والتى هى بمثابة "فقدان لتلك الروابط التى تربط المواطنين بعضهم ببعض داخل الطبقات الاجتماعية، وداخل الشرائع الفرعية الموجودة بكل طبقة" (١٩٧١: ٩٤). وفى هذه الحالة يتحول مبدأ "البقاء للأصلح" إلى صورة من صور الصراع الاقتصادى والاجتماعى من أجل البقاء، ويصبح الموقف "الفكرى" الوحيد المقبول تجاه مسائل التنظيم الاجتماعى هو الموقف الذى يتيح لقوى التطور التقدمى أن تواصل سيرها. وكان سبنسر يعتقد أن رأيه هذا هو أشد الآراء الفلسفية اتصافاً بالصفة "العلمية"، وذلك لأنه من الممكن - كما يعتقد سبنسر - اختباره إمبيريقياً. وقد جذبت نظرية سبنسر هذه عدداً من الأنصار المؤيدين المرتبطين بالفاشية، وبصفة خاصة الزعيم النازى أدولف هتلر.

وإذا تفاضينا عن قضية أصالة نظرية سبنسر تاريخياً (انظر مادة: التاريخ)، فلا ريب أنه قد ثار عدد من الاعتراضات على هذا النظرية التطورية. من ذلك أنه رغم إمكانية انطباق مبدأ "البقاء للأصلح" على الطبيعة، فليس من الواضح إمكان انطباقه

----- (د) -----

بنفس الطريقة، أو حتى بأى طريقة أخرى، على مجال الثقافة الإنسانية. أضف إلى ذلك أن البحوث العلمية الحديثة فى ميدان الحفريات البشرية القديمة علمتنا أنه ليس من المحتم أن تتطور أشكال الكائنات الحية من حالة "البساطة" النسبية والتجانس إلى حالة "التعقد" والتباين المتنوع. ولنراجع فى هذا تفسير ستيفن جولد S. J. Gould للتنوع الهائل لأشكال الحياة والذي عثر عليه فى الموقع المسمى بيرجس شيل Burges Shale، وهو عبارة عن تراكم طبيعى للصخور الرسوبية التى يرجع عمرها إلى ٥٢٠ مليون سنة تقريباً. حيث يذهب جولد - بناءً على هذه الشواهد - إلى أنه لا يصح تصور تاريخ التطور كسلسلة من الأحداث التى تسير فى خط مستقيم فى اتجاه التنوع والتباين المتصاعدين باضطراب، وذلك نظراً لأن الهيئات التى تتبدى فيها أنواع الكائنات الحية الموجودة فى وقتنا هذا تمثل نقصاً فى عدد التشكيلات أو الهيئات التى عثر عليها فى موقع بيرجس شيل الموهل فى القدم. ومما يثير الاهتمام، أن جولد يعتقد أن محاولة تفسير السبب فى استمرار بقاء بعض أشكال الأحياء وفى فناء بعضها وإرجاع ذلك إلى ما لديها من تراكيب بدنية "أفضل" من غيرها؛ محاولة لن يصادفها التوفيق، لأنه ليس بالإمكان دائماً رؤية ما قد يتوافر لواحد من أشكال الكائنات الحية فى موقع بيرجس من ميزات يتفوق بها على غيره. ويذهب جولد إلى احتمال قيام الصدفة بالنور الأساسى فى مسيرة التطور: لذلك فإنك إذا أعدت تشغيل ساعة التطور مرة ثانية ابتداءً من نفس نقطة البداية فإنها سوف تنتهى على نحو مختلف - أعنى بذلك أنه ربما لن يكون للبشر وجود. (PS) للمزيد انظر: Lacquer (١٩٨٨) و Gould (١٩٩١) و Appleman (١٩٧٠) و Spencer (١٩٧١).

Signifier/ Signified

الدال/ والمدلول عليه

فى السيميوطيقا يتم تحليل العلامة إلى مقومين تتركب منهما: الدال والمدلول عليه. والدال هو الشكل المادى الذى تتخذه العلامة كأن يكون كلمة منطوقة أو مكتوبة (مثل

"ذكرى"، أو يكون شيئاً مادياً (كالعشب، أو صورة لعشب) وما إلى ذلك. والدال متميز عن أى نطق أو استعمال خاص به أو صورة له. ومن ثم، فقد يتلفظ اثنا عشر فرداً بكلمة "ذكرى" بلهجات متعددة وتنغيمات صوتية متباينة كلٌ بطريقته الخاصة، ومع ذلك فإننا سنتعرف على الدال المشترك فى كافة صور النطق المذكورة. والدلول عليه هو المفهوم المجرد الذى تشير إليه العلامة (ومن ثم يكون، فى هذا المثال، هو فكرة التذكر). ومن الأمور الحاسمة هنا أن الدلول عليه لا ينظر إليه باعتباره شيئاً محدداً بعينه أو حادثة محددة بذاتها فى العالم الواقعى. ذلك أن كلمة "ذكرى" لا تزيد فى دلالتها على فعل من أفعال التذكر على ما تفعله كلمة "عشب" من الإشارة إلى أى عشب محدد. وبالمثل، فإن الصورة الفوتوغرافية لعشب إكليل الجبل أو حصا البان (أى الروزمارى)^(*)، والموجودة مثلاً فى أحد كتب علم النبات، تدل على ما يمكن تسميته "صفة عشب حصا البان"، ولا تدل على ذلك النبات المحدد بعينه الذى استخدمه المصور كنموذج.

كما أن من الضرورى الإشارة إلى أن الدال الواحد قد يكون له مدلولات عدة، وأن الدلول عليه الواحد قد يكون له أكثر من دال. وعلى ذلك، فإن كلمة "ذكرى"، أو عشب حصا البان، أو نبات الخشخاش الصناعى قد يكون لها جميعاً مفهوماها المجرد الموجود فى الذاكرة بوصفه مدلولها. وبالمثل، فإن كلمة "حصا البان" قد تشير عند استعمالها فى قصيدة شعرية إلى مفاهيم مختلفة تماماً عن المفاهيم التى تشير إليها عند استعمالها فى كتاب من كتب الطهى أو كتب علم النبات. لذلك فإن إدراك العلاقة التى تربط الدال بالدلول عليه يتم بأسلوب اتفاقي إلى حد كبير يعتمد على الأعراف الثقافية التى تحكم نظام علامات معيناً. (AE) للمزيد انظر: Barthes (١٩٦٧ب).

(*) حصا البان (أو إكليل الجبل) أو Rosemary نبات عشبي معمر، دائم الخضرة. موطنه بلاد حوض البحر المتوسط، ولكنه وُثِنَ فى أوروبا وأمريكا بعد ذلك. وهو ذو رائحة عطرية، ومذاق حريف، فيه بعض المرارة. يستخدم فى صناعة العطور وتبيل الطعام وفى بعض الأغراض الطبية. (المراجع)

فرع جديد من فروع العلم يدرس إنتاج وكذلك استهلاك منتجات وسائل الاتصال البصري الحديثة، كالتلفزيون، والفيلم السينمائي، والإعلانات.

ويمكن أن نفهم الدراسات البصرية - بشكل عام - بأنها تقوم على تطبيق أساليب وقضايا الدراسات الثقافية في دراسة الفنون البصرية والثقافة البصرية عموماً. ومن هنا يمكن القول بأنها ترتبط أوثق الارتباط بالمصطلح الأقدم قليلاً "الثقافة البصرية"، بل يمكننا بالفعل أن نعوّدها مرادفة له. وتمثل الثقافة البصرية تحولاً في عالم الصورة في ميدان الدراسات الثقافية (شبيهاً بالتحول اللغوي في الفلسفة)، والذي بفضل تحول المفكر النظري عن النص (الشفاهي أو الأدبي)، وأصبح يركز اهتمامه على الصورة المرئية. والمفكرون الأساسيون في هذا الفرع هم: والتر بنجامين (وخاصة دراسته للعمل الفني في عصر النسخ الآلي (١٩٧٠ب))، وكذلك دراسته عن فن التصوير الفوتوغرافي (١٩٩٠أ: ص ٥٠٧ - ٥٢٠) وعن النزعة الاستهلاكية في "بواكي باريس" أثناء القرن التاسع عشر (١٩٩٩ب). ومنهم أيضاً ميشيل فوكو، وخاصة دراسته عن فكرة "النظرة المحدقة" (*) (١٩٧٦)، ورولان بارت (١٩٧٣)، وباك لاكان (وتصور الآخر (١٩٧٧ب)). وعلى ذلك يمكن القول إن هذا الفرع الجديد يتبنى المناهج المستعارة من نظرية الأدب والنظرية النقدية، إلى جانب مناهج علم اجتماع الفن (**) وعلم تاريخ الفن.

(*) انظر المزيد عن النظرة المحدقة في: مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجومري وزملائه، مرجع سابق، مجلد ٣، ص ص ١٤٧٥-١٤٧٦ (المراجع)

(**) راجع كذلك: ديفيد إنجليز وجون مجسون (محرران)، سوسولوجيا الفن. طرق للرؤية، ترجمة ليلى الموسوي، مراجعة وتقديم محمد الجومري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليو ٢٠٠٧. (المراجع)

ويمكن أن تتمثل أفضل تصور لموضوع الدراسات البصرية من خلال المقارنة مع ميدان تاريخ الفن. فنلاحظ أن الدراسات البصرية تنتقد - ضمناً أو صراحة - الاتجاهات التقليدية فى تاريخ الفن باعتبارها تغالى فى اهتمامها بالثقافة السراقية أو ثقافة الصفوة، وأنها مشغولة بالماضى (ومن ثم تهمل الفن المعاصر ووسائل الاتصال الجديدة)، ولأنها -أخيراً- مازالت تجسد قيم ما بعد الكولونيالية. وتأثراً بميدان الدراسات الثقافية أصبحت تحتل الصدارة فى هذا الفرع الجديد قضايا سياسات الهوية والتركيبية الاجتماعية للمشاهدين أو المستهلكين. وأصبحت المواد البصرية المدروسة تشمل: التصوير الفوتوغرافى والفيلم والتلفزيون والفيديو والإنترنت، وتجلياتها فى مختلف الأشكال الثقافية التجارية والجماهيرية (مثل الإعلانات، ولعب الأطفال، والرياضة، والتكوينات البصرية السريعة الزوال فى مجرى الحياة اليومية). ولم تبد دراسات هذا الفرع اهتماماً كبيراً بأعمال التراث الفنى المعتمد المعروفة فى تاريخ الفن، أو أى شىء تم إنتاجه قبل عام ١٩٥٠. وعلى هذا يمكن القول إن العمل التأسيسى لميدان الدراسات البصرية هو مؤلف مايكل باكسندال: "الرسم والخبرة فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر" (١٩٧٢). كما يمكن القول إن ميدان الدراسات البصرية هو الإطار النظرى الأكثر ملائمة لدراسة فن الطليعة.

ومع ذلك مازال وضع الدراسات البصرية كفرع من فروع العلم محل خلاف. ويستعرض عدد خاص من مجلة "أكتوبر" (انظر: Kraus ١٩٩٦) وجهات النظر المتعارضة حول وضع هذا الفرع، وهى تدلنا على مدى التوترات الجارية بين المتخصصين الأكاديميين، حيث يستبسل الأكاديميون المحافظون فى الدفاع عن وضعهم، ويناضل الأكاديميون التقدميون من أجل إدخال مقررات وإجراء بحوث يمكن أن تستأثر باهتمام طلابهم. وعلى حين تعد المناقشات الدائرة حول مستقبل الدراسات

----- (د) -----

البصرية مناقشات حول طبيعة أشكال ومناهج البحث الملائمة لأشكال خاصة من الثقافة، وحول الحاجة إلى الاعتراف بأهمية بعض الأشكال الثقافية التي كانت مهمة حتى عهد قريب، ورغم ذلك يمكن اعتبارها مناقشات ناشئة عن السياسات الأكاديمية القائمة وعن الحاجة إلى استقطاب أجيال جديدة من الطلاب لدراسة هذا الفرع (AE). للمزيد انظر: Mirzoeff (١٩٩٩) و Holly et al (١٩٩٤) و Elkins (٢٠٠٢).

Cultural Studies

الدراسات الثقافية

قد يستعمل مصطلح "الدراسات الثقافية" - على نحو فضفاض - للإشارة إلى جميع جوانب دراسة الثقافة، الأمر الذي قد يفهم منه أن الدراسات الثقافية تحيط إحاطة شاملة بمختلف طرق دراسة الثقافة وتحليلها في علم الاجتماع، والتاريخ، والإثنوجرافيا، والنقد الأدبي، بل حتى في علم البيولوجيا الاجتماعية. ولكنه قد يستعمل أيضاً، وبصورة أدق، للإشارة إلى مجال محدد من مجالات البحث الأكاديمي. وفي هذا الاستعمال الثاني، يمكن تقصى الجذور التاريخية للدراسات الثقافية بالرجوع إلى أعمال ريموند ويليامز R. Williams وريتشارد هوجارت R. Hoggart في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين، وهكذا حتى نصل إلى إنشاء مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة في سنة ١٩٦٤، تحت إدارة هوجارت ثم تولاها بعده ستوارت هول S. Hall. ومن بين المجموعة الكبيرة من الأعمال التي قدمها هذا المركز ظهر اتجاه علمي متعدد التخصصات في دراسة الثقافة، لا يعتمد فقط على الاتجاهات التقليدية المستمدة من العلوم الاجتماعية، ولكن يضم إلى جانب ذلك اتجاهات أكثر تطرفاً أوحث بها، على سبيل المثال، الحركة النسوية، والماركسية، والسيميوطيقا: أى علم العلامات. وقد يسرت هذه التشكيلة من الاتجاهات طرح أسئلة جديدة، ومن ثم مهدت الطريق نحو تقديم صياغة جديدة أكثر دقة لمضامين مصطلح الثقافة.

وهكذا تصدت الدراسات الثقافية للأفكار المسبقة عن الثقافة التي تحفل بها علوم النقد التقليدية، كالنقد الأدبي، وعلم الجمال، وعلم الموسيقى. وبينما كانت هذه الاتجاهات التقليدية تعالج - في الغالب - المنتجات الثقافية باعتبارها موضوعات أو نصوصاً يمكن دراستها - وبصورة مشروعة، بل وبصورة شاملة كاملة - بمعزل عن السياق الاجتماعي والتاريخي لإنتاجها واستهلاكها، كان أصحاب الدراسات الثقافية يسعون لوضع المنتجات الثقافية بصورة واضحة صريحة في علاقة مع غيرها من الممارسات الاجتماعية، خاصة النظم السياسية وأنساق التدرج الاجتماعية، كالعرق، والطبقة، والنوع (الاجتماعي). وترتب على هذا الاتجاه في التناول أنه لم يعد من الممكن الاقتصار - في دراسة المنتجات الثقافية - على تلك المنتجات التي تنتقيها وتحثي بها صفوة من المفكرين أو الفنانين، إنما الأولى بالدراسة تلك المنتجات الثقافية المادية والرمزية التي نلقاها في كافة شرائح وقطاعات المجتمع.

لهذا يمكننا القول بأن الدراسات الثقافية تحتل موقعاً متوسطاً بين اتجاهين: أولهما ذلك الاتجاه الذي يعارض صراحة الاحتفاء بالثقافة الرفيعة أو ثقافة الصفوة، كما تتجسد مثلاً في نصوص التراث الفني المعتمد والتي يهتم الأدب الإنجليزي بدراستها، أو في مادة البحث التي يدرسها علم الموسيقى التقليدي، وثانيهما: ذلك الاتجاه الأكثر وضعية المستمد من العلوم الاجتماعية، وبصفة خاصة من الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم اجتماع الثقافة. (AE) للمزيد انظر: Grossberg et al (١٩٩٢) و Hall (١٩٨٠ و ١٩٩٦) و Inglis (١٩٩٣).

Role

الدور

مصطلح "الدور" في أبسط معانيه تعبير استعاري عن الأنشطة الاجتماعية التي يباشرها أعضاء المجتمع في حياتهم اليومية. ومن ثم، فإن كون الفرد "ابناً" أو "طالباً"

----- (د) -----

أو "هاوياً" أو "عضواً" في حزب أو جماعة" يمثل أدواراً في كل هذه الحالات (وهي في الواقع أدوار يستطيع الفرد الواحد مباشرتها بصورة متتابعة أو متزامنة).

ويمكن وراء هذا التعبير الاستعاري اتجاهان فكريان مختلفان على الأقل. ففي علم الاجتماع الوظيفي، يُنظر إلى الدور باعتباره مجموعة من التوقعات السلوكية المفروضة على الفرد بدرجة أو بأخرى، والتي تؤثر في تحديد هذا الدور. وهكذا يحاط الدور بمجموعة من المعايير، والقواعد والقيم، التي تحدد للفرد الطريقة التي يتبعها في أداء هذا الدور. والفشل في أداء الدور بصورة ملائمة يعاقب عليه الفرد بشكل ما من أشكال الجزاء السلبي. وعلى ذلك، فإن من شأن دور "المدرس" أن يُفهم وفقاً للقواعد التي تحكم مهارات التدريس وفقاً لرصيد الخبرات والمعارف الفنية التخصصية التي يتعين على المدرس أن يكون متمكناً منها، وذلك بجانب القواعد المنطقية التي تحكم علاقته بتلاميذه وزملائه، والتطلع إلى قيم معينة (كالإيمان بأهمية التدريس كمهنة)، ومن ثم، فإن التنشئة الاجتماعية (وهي عملية تعليم الفرد كيف يكون كائناً اجتماعياً وثقافياً) تُفهم كعملية إعداد الأفراد للاضطلاع بأدوار معينة.

وعلى النقيض من الاتجاه الوظيفي، يُنظر إلى الأدوار في نطاق النزعة التفاعلية الرمزية بوصفها أكثر مرونة، وباعتبار أنها تحتاج إلى بذل الجهد وتحقيق إنجاز كما تحتاج إلى التفاوض. وتستند هذه النزعة على ما جاء في أعمال جورج هيربرت ميد (*)

(*) ميد، جورج هيربرت Mead, George Herbert (١٨٦٣-١٩٣١) أحد رواد البراجماتية الأمريكيين، وفيلسوف مدرسة شيكاغو. وواحد من مؤسسة التراث السوسيولوجي الذي أصبح يعرف بعد وفاته بالتفاعلية الرمزية. وعادة ما يتم تصنيف فكره تحت فئة السلوكية الاجتماعية. يتركز إسهامه بالأساس حول تطويره لنظرية في العقل والذات والمجتمع، وهو نفس عنوان الكتاب الذي نشر بعد وفاته، وذلك في عام ١٩٣٤. وقد أرسى ميد في هذا الكتاب الأسس لنظرية سوسيولوجية في علم النفس الاجتماعي مؤكداً ما يلي: تحليل الخبرة في إطارها المجتمعي، أهمية اللغة، والرموز، والاتصال في حياة الجماعة البشرية، والأساليب التي تستثير بها أقوالنا وإيماءاتنا استجابات من جانب الآخرين من خلال عملية =

(١٩٣٤)، الذى ذهب إلى أننا لا نصل إلى فهم أدوارنا الخاصة بنا وتنفيذها إلا عن طريق تخيل الأدوار التى يقوم بها الآخرون. فالدور يتشكل استجابة لأفعال الآخرين، أو توقعاً لهذه الأفعال، وتبعاً لذلك يتشكل فهمنا لأنفسنا أو لهويتنا الذاتية. لذلك فإن دور المدرس - مثلاً - لا يوجد فى فراغ. فهو لا يتركب (أو: لا يُصنع فى لغة "ميد" الاصطلاحية) إلا وفقاً للسلوك المتوقع من الطلبة، واستجابة لردود أفعالهم الفعلية، كما أن كل مدرس على حدة قد يستنبط هذا الدور بطريقته الخاصة به. وهكذا يتم تحويل الأدوار بصورة دائمة من خلال التفاعل. لذلك يُعرف "ميد" الدور باعتبار أنه سلسلة من الإيماءات أو الإشارات التى تشكل جزءاً هاماً من أفعال الفرد وميوله وتشير إليها. وعلى ذلك فإن مفهوم الدور يدل على الطريقة التى بها نقرأ أفعال كل فرد آخر وإشاراته، والتى بها نعطي معنى لهذه الأفعال والإشارات (والتي بها نفكر - فعلاً - فى معنى أفعالنا نحن) وذلك بهدف توقع الأفعال التى سيقوم بها الآخرون فيما بعد والاستجابة لها.

ومن الأفكار الهامة المرتبطة بمسألة الدور فكرة "صراع الأدوار" وتباين الأدوار. ويحدث صراع الأدوار إما عندما يجد الفرد أن دورين من الأدوار التى يقوم بها تفرض عليه مطالب متنافرة لا يمكن التوفيق بينها، وإما عندما تكون توقعات جماعتين

= ادعاء الأدوار، والطبيعة العاكسة والانعكاسية (النقدية) للذات، ومركزية الفعل. على أن عمل ميد قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. فالواقع أن ميد قد قدم إطاراً نظرياً جامعاً لعلم الاجتماع أكثر رحابة توقع فيه عند أحد مستوياته التطورات فى مجال البيولوجيا الاجتماعية، وعند مستوى آخر التحولات التاريخية الكبرى. وقد وحد بين هذا كله اقتناعه الشديد بدور العلم فى القضايا الإنسانية، حيث كتب يقول إن المنهج العلمى هو منهج التقدم الاجتماعى. وقد اتخذ ميد أحياناً موقفاً وصف بأنه "نسبية موضوعية". إذ كان يشير عادة إلى "الواقع الموضوعى للمنظورات". فهناك العديد من التحليلات الممكنة للواقع استناداً إلى وجهة النظر التى يتم تبنيها. فالتاريخ - على سبيل المثال - هو دائماً تطويل للماضى من خلال شخص معاصر، ولقد مثلت نظرية ميد حول الصياغة الاجتماعية للزمن جانباً أساسياً من إسهامه. (المراجع)

----- (د) -----

عن كل دور منهما مختلفة ومتنافرة معها كذلك. ومن ثم، فإن الصداقة بين اثنين خارج مكان وزمان العمل قد تتصادم مع الحاجة إلى فرض النظام أثناء ساعات العمل، بينما قد يجد ممثل النقابة العمالية أن لدى المديرين والعمال توقعات مختلفة اختلافاً جذرياً فيما يتصل بما يمكن أن يؤديه من أعمال. أما مصطلح "تباين الأدوار" فقد ابتكره جوفمان (١٩٥٩)، للإشارة إلى درجة ابتعاد القائمين بدور ما عن الأداء الصحيح لهذا الدور، وإلى أنهم بسبب وعيهم بأنهم يقومون بدور ما لجمهور معين، يستطيعون التلاعب به لتحقيق مأرب معينة. (انظر كذلك مادة: النموذج المسرحي). (AE) للمزيد انظر: Biddle (١٩٧٩).

Nation-State

الدولة القومية

مجتمع سياسى يختلف، فى مفهومه الحديث عن غيره من المجتمعات السياسية بسبب استقلاله بمجموعة المبادئ القانونية، والأبتية الحكومية، ورئاسة الدولة، والحدود الجغرافية، ونظم الدفاع العسكرى، إلى آخره. فمثل هذه الدولة القومية تتسم بعدد من الملامح الرمزية التى تعمل على إبراز هوية ذات طبيعة موحدة وتفصح عن نفسها فى مظاهر معينة هى: العلم، والنشيد الوطنى، والصورة الذاتية للأمة، إلى آخر هذه الأمور. ومن الجدير بالملاحظة أن الدولة القومية ليست مرادفاً لحيازة الدولة للأهلية القومية^(١). ففى القرن التاسع عشر خاضت معارك الصراع من أجل تحقيق الاستقلال

(*) تدور معانى مصطلح الأهلية القومية Nationhood حول الدلالات الآتية :

(١) الصفة القومية لشعب ما. (٢) الوضع القومى (للدولة ما) خاصة فيما يتصل بالتزامها بحماية مواطنيها والتزام مواطنيها بالولاء لها. (٣) الاستقلال السياسى لشعب، متمثلاً فى صورة دولة مستقلة. (٤) بلوغ الشعب مرحلة النضج والأهلية لتحمل المسؤولية السياسية الدولية. ولعل تعبير "الأهلية القومية"، يكون أنسب الاختيارات لسياق النص. (المترجم)

السياسى للدولة القومية أمم لم تكن تتمتع بالاستقلال السياسى (كما حدث فى حالة الولايات الإيطالية قبل توحيدها فى صورة دولة قومية مستقلة، وفى حالة توحيد الولايات الألمانية تحت قيادة بروسيا سنة ١٨٧٢). وبالمثل، توجد فى أيامنا هذه أمم لا تملك بالضرورة مكانة الدولة القومية (مثل ويلز وأسكتلندا داخل المملكة المتحدة). ويترتب على ذلك أن تعريف ما هى الدولة القومية لا يمكن تحديده بالرجوع إلى بعض التصورات أو المفاهيم مثل: القومية، ولا إلى الإثنية، ولا إلى الثقافة أو اللغة. إنما تعريف ذلك يرجع إلى أنماط التنظيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ذات الأهمية الجوهرية فى هذا الصدد: فالدولة القومية هى التى تتمتع بالاستقلال السياسى، والمعايير المتميزة والمبادئ القانونية الخاصة، وذلك فيما يتصل بأنظمتها الخاصة بالعلاقات الاجتماعية، كما أنها تتمتع بهوية اقتصادية مستقلة استقلالاً نسبياً. (PS) للمزيد انظر: Tivey (١٩٨١).

الديكارتيّة (المذهب الديكارتي) Cartesianism

مصطلح يعنى، بالمفهوم الدقيق للكلمة، ما هو منسوب إلى فكر الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) أو ذو صلة به. غير أن الديكارتيّة أصبحت تدل - كذلك - على وجهة نظر ميتافيزيقية ذات صلة بقضية الهوية الشخصية، وقضية طبيعة الذات، وذات صلة - أيضاً - بقضايا ومشكلات نظرية المعرفة.

وتسعى كتابات ديكارت، التى كتبها فى الرد على كتابات المفكرين الأخذين بمبدأ الشك المعاصرين له، والذين كانوا يتساءلون عما إذا فى إمكاننا تحصيل معرفة مؤكدة، تسعى إلى إثبات أننا نملك بالفعل نوعاً واحداً على الأقل من المعرفة. ويرى ديكارت أن الاقتناع بهذا الرأى يقتضى استعمالنا لما اصطلح على تسميته "بالمنهج

----- (د) -----

الشكىّ أو "منهج الشك". وبهذا الشكل يقرر ديكارت أن يهدم كل معتقداته ثم يحاول بعد ذلك أن يقيم ركائز للمعرفة باعتبارها علماً راسخاً ومستمراً. ولكي يتم المرء هذا العمل، فإنه يكفيه - فحسب - أن يتشكك فى كافة ما يحمله من آراء ويضعها موضع التساؤل، بمعنى أن يُظهر أنها آراء "غير مؤكدة" أكثر من كونها آراء غير صحيحة. مثال ذلك، أن ما نتقبله من المعتقدات كحقيقة، هي تلك المعتقدات التي أمدتنا بها الخبرة (المستمدة من الحواس). لكن الحواس قد تخدعنا، مما يجعل كثيراً من المعتقدات المستمدة منها محل شك وارتياب. ولكن بعض المعتقدات لا يمكن الشك فيها: "مثال ذلك اعتقادى بأننى موجود هنا، جالساً بقرب المدفأة، مرتدياً ردائى الشتوى، وممسكاً بهذه الورقة فى يدي، وما إلى ذلك". لكن ديكارت يتقدم خطوة أخرى على طريق الشك ويتساءل: كيف نستطيع أن نميز بين كوننا أيقاظاً وكوننا نائمين؟ وبافتراض أن الإحساسات قد تكون نتيجة للتخيل، وحتى لو كان إحساس المرء بأن له جسداً هو مجرد حلم، إلا أنه توجد بعض الأشياء ("ذات طبيعة أوضح وأشمل"، ومنها تتركب أجسادنا) التي تكون حقيقية فعلاً، أعنى بها الأفكار الخاصة بالكمية، والشكل، والحجم، والعدد.

وهكذا نستطيع التمييز بين العلوم الطبيعية (كعلم الفيزياء، وعلم الفلك، وغيرها) والتي تعتمد على أفكار مركبة وليست بسيطة (حيث تعتبر هذه العلوم الأشياء التي تدرسها أشياء لها أحجام معينة، وأشكال معينة، إلى آخره) وبين أشكال أخرى من المعرفة (كالهندسة والرياضيات مثلاً) التي لا تعتمد على أفكار مركبة. فسواءً أكنّا نائمين أو كُنّا أيقاظاً فإن $2 + 2 = 5$ ، والمربع يكون له أربعة أضلاع. وقد يحتج البعض بأن وجود الإله القادر على كل شئ، يكفل لنا أن تكون هذه المعتقدات صحيحة. ولكن هبْ أننى بلغ بى النقص حداً جعلنى أقع ضحية الخداع فى كل وقت وحين. حينئذ، تكون حتى هذه المعتقدات الرياضية والهندسية محل شك وريبة. ثم افترض أنه

"ليس الإله هو الذى يكفل صحة هذه المعتقدات، إنما الذى يفعل ذلك شيطان خبيث ذو قوة ودهاء شديدين، يُسخر كل قدراته لكى يخدعنى". حينئذ قد أظن أن $2 + 3 = 5$ ، ولكنى أكون فى هذه الحالة مخدوعاً. فما العمل إذن؟

وفقاً لما يذهب إليه ديكارت، يبقى أمر واحد حقاً لا ريب فيه: فحتى لو كنت مخدوعاً، فإننى لا أزال أفكر: "لهذا يتحتم أن أستنتج أن الفرضية التى تقول "أنا أكون، أنا موجود" هى فرضية صحيحة بالضرورة فى أى وقت تعرض علىّ فيه وفى أى وقت تطرأ فيه على ذهنى". ويعبر عن هذه الفكرة بتلك العبارة البالغة الشهرة "أنا أفكر، إذن أنا موجود". ولكن: ما هو هذا "الأنا" الذى يفكر؟

(١) يوجد ذلك الجسد البشرى ببنيته الآلية.

(٢) توجد تلك الأنشطة التى يزاولها البشر: فهم يتمشون، ويأكلون الطعام، ولهم مدركات حسية اكتسبوها عبر حواسهم، إلى آخره. وفى رأى ديكارت، تعتبر هذه الأنشطة من أفعال "النفوس" أو "العقل" الذى يختلف نوعياً عن المادة الفيزيائية أو الحسية للجسم.

إن خواص الجسد ذات طبيعة مادية أو فيزيقية: إذ يمكن رؤيته، ويمكن تحريكه، كما أنه يشغل حيزاً معيناً، إلى آخره. ومع هذا، فإن "القدرة على التحرك الذاتى أو الالتقائى" ليست خاصية يمكن أن نعزوها إلى جسد مادى. ويرى ديكارت أن التسليم بوجود شيطانه الخبيث هذا، يعنى أن يصبح وجود جسده نفسه محل شك وريبة. أما النفس التى تفكر فلا يمكن أن تكون محل ريبة أو شك: "فى هذه اللحظة لا أعترف بشيء إلا بما هو حقيقى بالضرورة؛ وهو أننى عقل، أو ذكاء، أو فكر، أو لب [...] أى شيء مفكر". لذلك يعتقد ديكارت أنه عقل "وليس ذلك البنيان ذا الأطراف الذى يسمى جسداً بشرياً". وبهذه الطريقة تترسخ ثنائية العقل - والجسد (أو الثنائية الديكارتية)

----- (د) -----

فى مكانها الصحيح المناسب. وهو يؤكد أن الأمر الجوهرى فى وجوده، هو كونه عقل، وليس جسداً. بمعنى أنه فى جوهره كائن مفكر، كما أن العقل يختلف فى جوهره عن الجسد.

ومن وجهة نظرية المعرفة، فإن الجدير بالملاحظة فى معالجة ديكارت لهذا الموضوع، أنها معالجة تتصف بالذاتية (فى قوله "أنا أفكر") التى تشكل الأساس الذى تقوم عليه المعرفة. زد على ذلك أن مفهوم الذاتية الذى يطرحه ديكارت، مفهوم غير مقيد بقيود العالم الاجتماعى وحدوده. بل الحقيقة أن هذا المفهوم (ولو ظاهرياً على الأقل) مستمد عن طريق فكرى خالص بعيداً عن مجال العالم الاجتماعى المادى. لهذا فإن العلاقة بين الذات البشرية والعالم الخارجى - الذى تخبره - يتم تفسيرها عن طريق نموذج يضع هذه الذات "خارج" هذا العالم، وذلك باعتبارها راصداً لهذا العالم غير داخل ضمن أجزائه.

وقد تعرضت هذه النظرة لانتقادات متعددة. من ذلك ما قدمه الفيلسوف الألمانى مارتن هايدجر من تفسير للذات يتعارض تعارضاً مباشراً مع هذا الافتراض المسبق الذى تقول به الديكارتية. والذات عند هايدجر (أو بتعبير أصح: الوجود أو المقابل لكلمة Dasein الألمانية) ليس راصداً سلبياً للخبرة، إنما هو مرتبط ارتباطاً إيجابياً بالعالم الذى يعيش فيه. وهكذا فإن الذات الإنسانية - عند هايدجر - ليست موجودة "فى" العالم بنفس المعنى الموجود فى قولنا إن عود الثقاب موجود "فى" علبه الثقاب. وإنما نحن موجودون "فى" هذا العالم "بالمعنى المادى المحسوس على نحو لا ينفصل عن وجودنا الفعلى. يترتب على ذلك أنه لا يمكن النظر إلى عالمنا من منظور "موضوعى" خارج عنه، كما يحدث فى حالة المتفرج الجالس فى الصفوف الأولى من مقاعد المسرح، والذى يتابع أحداث المسرحية التى تدور أمامه. وإنما الأصح أننا نرتبط بعالمنا ارتباطاً إيجابياً، وهذا الارتباط جزء من مكونات ذلك العالم. أى أنه بجانب

قدرتنا على التفكير العقلى فى الأشياء نستطيع كذلك أن نرتبط بها ونتواصل معها، كما نفعل مع الأشياء الحسية التى يمكننا الإمساك بها بالمعنى المحسوس لهذه الكلمة (وبلغة هايدجر، ليست هذه الأشياء فى متناول اليد، إنما هى قريبة المنال). ولا تستطيع الديكارتية - من وجهة نظر هايدجر - أن تمدنا بتفسير كاف لكيفية تحقق هذا الشكل من أشكال العلاقة مع الأشياء الموجودة فى العالم، وذلك لأنها تفرق بين الإدراك وبين ما يمكن معرفته تفريقاً لا يقبل التوفيق.

وللنظرية الديكارتية بعض التوابع المهمة على الصعيد الثقافى، إذ إن أشكال الخطاب العلمى التقليدى تستلزم الأخذ بمفهوم الذاتية يشترك مع النموذج الديكارتى فى أمور كثيرة (وأعنى بفكرة الذاتية هنا وجود الراصد السلبي أو المحايد). كما نجد أن تاريخ الفلسفة الحديثة (أى الفلسفة بعد ديكارت) يتميز بوجود ارتباط حاسم - قد لا يكون أحياناً شديد الحسم - بين هذه الفلسفة وبين كثير من المبادئ المحورية فى المذهب الديكارتى. (PS) للمزيد انظر: Descartes (١٩٨٦) و Heidegger (١٩٩٣) و Mullhall (١٩٩٦).

Dictatorship of the Proletariat

ديكتاتورية البروليتاريا

فى الماركسية - اللينينية تتحقق ديكتاتورية البروليتاريا فور اشتعال الثورة التى تسقط الرأسمالية، وقبل تحقيق الشيوعية. وتوحى هذه العبارة بأن القوة السياسية للدولة، والتى كانت قبل ذلك بأيدي الطبقة البورجوازية الحاكمة، تنتقل إلى طبقة البروليتاريا التى استحوذت على السلطة أخيراً، وذلك لكى تقوم بعملية الانتقال إلى الشيوعية. ومن الأمور المهمة والحاسمة فى مرحلة الشيوعية أنه لن يكون عندها وجود للدولة (لأن الدولة سوف تذبل وتندوى أثناء المرحلة الاشتراكية السابقة على الشيوعية).

----- (د) -----

والحقيقة أن مصطلح "الديكتاتورية" مُضِل إلى حد ما. إذ إن لينين (١٩٩٢)، عندما كان يكافح لتحطيم القيود التي كانت تفرضها أنظمة الدولة القيصريّة القديمة، كان يفكر في نوع من الديمقراطية المباشرة القائمة على مبدأ المشاركة، والمرتكزة على المجالس العمالية. (AE) للمزيد انظر: Draper (١٩٨٧) و Ehrenberg (١٩٩٢).

Religion

الدين

بُذلت محاولات عدة لتعريف معنى الدين، انطلاقاً من وجهات نظر طائفة من العلوم المختلفة: فعلماء النفس وصفوه باعتباره إسقاطاً للرغبات الإنسانية (بل حتى كنوع من العصاب)، بينما اعتبره المفكرون السياسيون أحد وسائل الضبط الاجتماعي التي تُلطف المخاوف الإنسانية الغريزية. وعلى النقيض من هذه الاتجاهات، تحاول التعريفات الأنثروبولوجية للدين أن تصفه باستعمال لغته - أي تحاول فهمه من داخله.

وقد ذهب إميل دوركايم إلى أن التفرقة الأساسية بين المقدس والعلماني تقع في صميم كافة أشكال الخبرة الدينية. فهذه التفرقة تعد - في رأي دوركايم - أعمق تفرقة قام بها العقل الإنساني حتى الآن. وبناء على هذا الأساس، عرف دوركايم الدين بأنه "منظومة موحدة من المعتقدات والممارسات المتعلقة بالأمور المقدسة، أي الأمور المحظورة والمحركة".

وفيما تلا عصر دوركايم، صار ينظر إلى مفهومه عن المقدس على أنه مفهوم قاصر، على أساس أنه لا يمكن تحديده وفقاً للمعايير العلمية. وقد نزع تعريفات بديلة للدين إلى أن تكون ذات طابع وصفي أكبر، متفادية بذلك استعمال المصطلحات الأثرية كمصطلح "المقدس" ومصطلح العلماني. شاهد ذلك، أن كليفورد جيرتز Clifford

Geertz اقترح التعريف التالي: "الدين عبارة عن:

(١) نسق من الرموز التي تعمل من أجل:

(٢) ترسيخ عدد من الميول النفسية والدوافع العامة والمستمرة لدى البشر عن طريق.

(٣) صياغة أفكار وتصورات عن نظام عام للوجود.

(٤) وإضفاء هالة من الواقعية على هذه الأفكار من شأنها أن:

(٥) تجعل هذه الميول النفسية والدوافع تبدو واقعية بصورة منقطعة النظير.

إن مشكلة تعريف الدين التي يقوم شاهداً عليها هذا العدد الكبير المحير من الدعاوى والدعاوى المضادة التي سعت للكشف عن جوهر الدين، إنما تعكس المجال اللامحدود لما طرح من تعريفات وتنوعها الشديد، على امتداد الزمن وعلى اختلاف الأمكنة. تعبر عن ذلك كلمات نينيان سمارت Ninian Smart التي تقول: "... إننا في الواقع لا نواجه شيئاً واحداً متفرداً، أعني به الدين، إنما نواجه أدياناً متعددة. لكل دين منها أسلوبه الخاص، وديناميته الداخلية التي تحركه على نحو خاص، وله معانيه الخاصة، وله تفرد عن غيره من الأديان". وللتعبير عن هذا التنوع على نحو يأخذ في الاعتبار الطبيعة المتعددة الوجوه لكل دين على حدة ولأى دين كان، يقترح سمارت نوعاً من التشريح الذي يكشف عن تفاصيل الدين بدلاً من تعريفه فيقول: "إن أى دين هو... عبارة عن كائن حي ذي ستة أبعاد، يشتمل - عادة - على عدد من العقائد، والأساطير، والتعاليم الأخلاقية، والطقوس، والنظم الاجتماعية، ويستمد حيويته ونشاطه من مختلف أنواع الخبرات الدينية" (سمارت ١٩٧١: ٢١).

ومن المشكلات الأخرى المرتبطة بقضية تعريف الدين أنه يصعب التأكد من طبيعة ظاهرة أصولها مبهمة غامضة. فتحت أيدينا من الشواهد ما يعطينا الانطباع بأن

شعب نياندرتال^(*) مارسوا طقوساً جنائزية فى دفن موتاهم، الأمر الذى قد يشير إلى أنهم كانوا يؤمنون بعالم غيبى أو بنوع ما من الحياة بعد الموت. بيد أن من الأمور القابلة للبحث التساؤل عما إن كان بوسعنا وصف هذه المعتقدات بأنها دينية. ويشير سمارت إلى أنه حيث تكون الحياة مشدودة برباط وثيق إلى الممارسات الثقافية المرتبطة بمنظومة عقائدية شاملة، لا يكون الأفراد أحراراً فى الاختيار بين الدخول فى "الدين" أو الخروج منه. ذلك أنه لا يوجد فى مثل تلك الظروف حياة علمانية فى مقابل الحياة الدينية.

أضف إلى ذلك أن قضية تطور الدين محل نزاع وخلاف. فالفكرون الذين يتبنون النظريات التطورية (كروبولف أوتو Rudolf Otto مثلاً) صوروا تاريخ الدين باعتباره عملية تم عبرها تهذيب وتنقية الأشكال البدائية للمعتقدات التى تؤمن بوجود آلهة متعددة. وقد أفضت هذه العمليات التهديبية أحياناً إلى عقيدة توحيدية، بينما أدت فى أحيان أخرى إلى صيغة أخرى أكثر تطوراً من صيغ الاعتقاد فى تعدد الآلهة. وقد زعم إدوارد تايلور^(**)

(*) هم أقدم أسلاف البشر، الذين عاشوا فى أوروبا وشمال أفريقيا وشرق البحر المتوسط، فى عصور موغلة للقدم تتراوح بين عشرة آلاف سنة ونصف مليون سنة قبل الميلاد، قاموس ويستر الموسوعى. (المترجم)

(**) تايلور، إدوارد Tylor, Edward B. (١٨٣٢-١٩١٧) يعد السير إدوارد تايلور مؤسس علم الإثنولوجيا الحديث. وأحد أعلام المدرسة التطورية. كان يؤمن بوجود مراحل متميزة فى نمو الثقافة البشرية، ولو أنه لم يستخدم إطلاقاً مصطلح تطور. يرى أن الخبرة تقود دارس الإثنولوجيا إلى أن يتوقع - ويوجد - أن نفس الظواهر الثقافية ناشئة عن نفس الأسباب وذلك فى أى مكان وزمان توجد فيه هذه الظاهرة. وقد حاول تايلور إيجاد وسائل لقياس هذا النمو فى الثقافة البشرية. والمعايير الأساسية للنمو الثقافى - فى رأيه - هى: نمو المدن الصناعية، وحجم المعرفة العلمية، وطبيعة الدين، ودرجة التنظيم الاجتماعى والسياسى. وقد درس - فى كل مؤلفاته - التقدم البشرى فى ضوء هذه الأسس. ولكنه لم يكن يعتقد أن تقدم النمو الثقافى أمراً حتمياً. ونذكر من أشهر مؤلفاته: ١- أبحاث فى التاريخ القديم للجنس البشرى وتطور الحضارة عام ١٨٦٥. ٢- الثقافة البدائية عام ١٨٧١ (وقد قدم فى هذا الكتاب أهم وأكث مساهماته فى النظرية الاجتماعية ألا وهى تعريفه للثقافة الذى يحتل الصفحات الأولى من هذا الكتاب). ٣- الأنثروبولوجيا: مقدمة لدراسة الإنسان والحضارة عام ١٨٨١. وقد عين فى عام ١٨٨٤ محاضراً للأنثروبولوجيا بجامعة أكسفورد. ومنع فى عام ١٨٩٦ لقب أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة أكسفورد، وظل يحاضر هناك حتى بلغ سن التقاعد سنة ١٩٠٨. (المراجع)

- نتيجة لتأثره بنظرية دارون - أن كل الأديان ترجع فى الأصل إلى عقيدة الإيمان بالأرواح. ويرى هذا التحليل التطورى لمراحل نشأة الدين، أن الاعتقاد بوجود الروح الإنسانية أدى إلى استنتاج أن للأشياء الطبيعية أرواحاً أيضاً. وبالتدرج أصبح الناس يعتقدون أن الظواهر الطبيعية تعمل بشكل متناسق يخضع لنظام معين، واستنتجوا من ذلك وجود قوة مؤثرة مسيطرة: وهكذا انبثق شكل من أشكال الإيمان بالآله الواحد من داخل التعددية البدائية بتصوراتها المشتتة. وفى مقابل هذا التصور، يذهب فيلهلم شميت إلى أن أقدم أشكال الدين كان قائماً على التوحيد، الذى خالطته - فى مراحل لاحقة - بعض المعتقدات الروحية والمعتقدات التى تؤمن بالتواصل بين أرواح الموتى والأحياء.

وتصف بعض الاتجاهات الفكرية التى تعالج هذا الموضوع الظواهر الدينية باعتبارها من صنع البشر فحسب. ووفقاً لهذا التصور تنشأ المعتقدات الدينية نتيجة حاجة البشر إلى تفسير سبب وجودهم، وللإجابة على المشكلات المتصلة بهذا الوجود، ولتفسير ما يكابدونه من صور المعاناة. وفى هذا الصدد يكتب ريموند فيرث(*) قائلاً: " ينشأ الإيمان بالدين - حيثما وجد هذا الإيمان - من محاولات الإنسان لإنقاذ نفسه من العواقب المترتبة على نزواته، ورغباته، ومخاوفه، وأفعاله، وكذلك من العواقب المترتبة على نزوات غيره من الناس ورغباتهم ومخاوفهم وأفعالهم، أو لتعزيتهم ومواساتهم عن هذه العواقب".

(*) فيرث، ريموند Firth, Raymond (١٩٠١-١٩٨٩) عالم أنثروبولوجيا إنجليزى شهير، قام بتدريس الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة سيدنى بأستراليا ثم بجامعة لندن ابتداءً من ١٩٣٣ حتى إزالته إلى المعاش عام ١٩٦٨، وقد ترك مؤلفات عدة نذكر منها: ١- الاقتصاد البدائي عند شعب الماورى فى نيوزيلندة ١٩٢٩ وأعيد طبعها عام ١٩٥٩. ٢- الأنماط البشرية ١٩٣٦. ٣- مبادئ التنظيم الاجتماعى ١٩٥١. ٤- صيادو الملايو، اقتصادهم الريفى ١٩٤٦. ٥- التكبوييا: دراسة سوسولوجية للقرابة فى بولينزيا البدائية ١٩٣٦ وأعيد طبعه عام ١٩٥٧. وقد ضمن نتائج دراسته للتكبوييا عدة كتب أخرى عدا هذا الكتاب لا يتسع المجال لحصرها هنا. (المراجع)

وتعد هذه النظرة ذات النزعة الإنسانية النتيجة المترتبة على هبوط مكانة المسيحية فى الثقافات الغربية بعد أكثر من ألف سنة من السيطرة. وهذا معناه: أنه لكى يتم تعريف الدين "من الخارج"، فلا بد أولاً من تخفيف قبضته إلى الدرجة التى تسمح بوجود مثل هذه النظرة. وكان ارتفاع شأن العلم فى الغرب خلال القرن السابع عشر أهم الأسباب التى أدت إلى شق طريق للتفكير بعيداً عن نطاق الفكر الدينى. وبذلك صارت الحياة الإنسانية والظواهر الطبيعية تُفسر بطرق مختلفة اختلافاً جذرياً عما قبل. فحل محل الكون الغامض، والذى تتحكم فيه كائنات متقلبة الأحوال، وأحياناً ما تكون مؤذيه؛ حل كون معقول يعمل وفقاً لقوانين ثابتة، ويمكن للعقل الإنسانى أن يفهمه. وبمجرد تحقق هذه الخطوة الكبرى أصبحت التفسيرات الدينية للكون والإنسان تبدو مهجورة مهمة.

ويتضح وجود نموذج نظرى ذى طابع ما بعد - الأسطورى فى فلسفات القرن السابع عشر سواء ما كان منها منسوباً للنزعة العقلية أو للدراسة العلمية. وفى القرن الثامن عشر حاول إيمانويل كانط إعادة تعريف نور الدين فى العصر الجديد للفكر التنويرى. فحاول إثبات أنه ينبغى حصر الدين "فى حدود العقل وحده". ووفقاً لرؤية كانط، فإن الفضيلة لا تستلزم وجود الدين، ولكن وجود الفضيلة يؤدى حتماً إلى إيجاد الدين. ذلك أن المدارك الإنسانية ليست كافية لضمان أن تؤدى الأخلاق الصالحة إلى تحقيق السعادة، لذلك فإنه من الضرورى التسليم بوجود إله خير وقادر، يستطع أن يكفل تحقيق المنفعة جزاء لمن يتصرف وفقاً لأوامر العقل.

وقد سعى مفكرو القرن التاسع عشر - أمثال أوجست كونت ولودفيج فويرباخ - إلى الانتقال بالنقد الكانطى للدين إلى مدى أبعد وأشد وذلك بالتخلص تماماً من فكرة الإله. فقد ذهبوا إلى وجود "دين للإنسانية". وقد أكد فويرباخ أن "الكائن المقدس هو الكائن الإنسانى نفسه". وألح كارل ماركس - بناءً على تسليمه بتلك الدعوى الإنسانية

- على التخلي عن الفكرة التي تقول بوجود "دين" للإنسانية، وذلك من أجل تبني سياسة عملية تهدف إلى الإطاحة بالنظام الاجتماعي الذي أوجده الدين. لذلك وصف ماركس الدين بأنه: "الشعور بالذات والإدراك الذاتي للإنسان... وأنه زفرة المخلوق المضطهد... وأنه أفيون الشعوب".

وقد سرى - بالتوازي مع ارتفاع شأن العقل وما اقترن به من هبوط شأن الدين في الفكر الغربي - سرى تيار من الفكر الشكي (الذي كان لاعتقائياً أحياناً). فقد أشار هامان J.G. Hamann - معاصر كانط - إلى ما يتصف به إعلاء التنوير من شأن العقل من توترات وتناقضات لا تتفك عنه. وقد كان لهامان تأثيره الملحوظ على أعمال الفيلسوف الدانمركي سورين كيركجارد Soren Kierkegaard، وعلى تيار النزعة الرومانسية الألمانية الذي أفرز نزعة فردريك نيتشه المضادة للفلسفة الكانطية. وفي أيامنا هذه، يدين فكر ما بعد الحداثة، والذي يعتمد على أعمال كتاب مثل ميشيل فوكو، وجان فرانسوا ليوتار، وجان بودريار؛ يدين بالكثير لهذا الخط الفكري. فقد تسبب فكر ما بعد الحداثة - بما أبداه من شكوك في المقولات والمفاهيم الكانطية - في ظهور نوع من إعادة التفكير في الإمكانات الدينية. فقدم فلسفة مضادة للنزعة الإنسانية، وهي إن لم تدافع عن القيم الدينية التي كانت سائدة في الفترة السابقة على ظهور النزعة الإنسانية، فقد قامت - كما يقول فيليبيا بيرى Philippa Berry - بإلغاء ذلك التمييز القاطع بين التفكير العلماني والتفكير الديني الذي دافع عنه كانط والتراث الكانطي وتمسكا به بكل الحرص". (KM/ GH) للمزيد انظر: Durkheim (١٩٧٥ و ١٩٧٦) Geertz (١٩٧٦) و Smart (١٩٦٠ و ١٩٧٢) و Schmidt (١٩٢٥).

Subject/ivity

الذات / الذاتية

مصطلح يمكن إرجاع أصوله إلى فلسفة ديكارت مفكر القرن السابع عشر الميلادي. فقد سعى ديكارت جاهداً في دحض دعاوى فلسفة الشك التي كان يذهب إليها معاصروه زاعمين أنه لا يمكن أن يوجد أمر يقيني. ورداً على هذا التصور، أطلق ديكارت قوله الماثور الشهير "أنا أفكر، إذن أنا موجود" كمثال على المعلومة الوحيدة المؤكدة التي يتحتم أن تكون لدى أي كائن مفكر، حتى لو كان يشك في أمر آخر. لذلك، فإن الذات هي التي تفكر وهي التي يكسبها هذا التفكير بعض الخصائص الجوهرية التي تساعد في التعريف بها.

كذلك استخدم كانط مصطلح "الذات المتعالية" في فلسفته للدلالة على الشرط البنائي السابق على كل تفكير (قارن كتابه "نقد العقل الخالص"، فصل الاستدلال المتعالي، "فقرة ب"). فالذات المتعالية العالية هي هذا "الأنا المفكر" الذي يرى كانط أنه يتحتم أن يكون ملازماً لكل تمثلاتي الذهنية عندما أكون مستغرقاً في عملية التفكير. فهي التي تجعل أفكارى خاصة بى وحدى. والذات المتعالية ليست كائناً إمبيريقياً (أى: مادياً تختبره الحواس)، إنما هي شرط ميتافيزيقى ضرورى لكى يكون لدى أى أفكار أصلاً. وبهذا المعنى تكون الذات مصدر الوعي بالنفس.

كذلك ترتبط كلمة "الذات" بما طرحه لاكان من تصور خاص للتحليل النفسى (حيث توضع الذات في مقابل "الأنا" - "الإيجو"). يضاف إلى ذلك أن فكرة الذات تعرضت لمناقشات وانتقادات من قبل أنصار البنيوية (أمثال ألتوسير، الذى يرى أن الذات ثمرة من ثمار الإيديولوجيا) ومن قبل أصحاب نزعة ما بعد البنيوية (أمثال فوكو الذى يذهب إلى أن الذات إنما هي نتيجة لعلاقات القوة - وهو تصور مستمد من أفكار نيتشة). وتشترك هاتان النزعتان في التصور الذى يرى أن الذاتية (أى صفة

الذات) إنما تتكون بفعل القوى والعلاقات الاجتماعية، ويتعبير آخر تشترك هاتان النزعتان في أن المفاهيم الخاصة بالذاتية تتوقف على العوامل السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

وبالمثل، ذهب بعض المفكرين - مثل ليوتار - إلى أنه لا يمكن اعتبار الذاتية شيئاً مستقلاً عن أشكال اللغة، بل الأصح أن الذاتية تتكون داخل نطاق عملية التكلم وعن طريقها في أن واحد. وهكذا - وانطلاقاً من رؤية ليوتار - فإن الفكرة الخاصة بلعبة اللغة^(*)، التي طرحها فتجنشتين في أواخر حياته، والتي يقوم فيها بإجراء نوع من المماثلة بين لعبة اللغة ولعبة الشطرنج تحتوى في داخلها على الفرضية الأنثروبوية anthropocentric التي تتمحور حول الإنسان - والتي ترى أن الفاعلين الإنسانيين الأفراد هم مصدر المعنى (أى أن هناك شيء ما خارج لعبة اللغة "يحرك" القطع المستعملة في هذه اللعبة).

وبالإمكان وضع هذه الانتقادات في مقابل الرأي الذى طرحه أنصار المذهب الليبرالى بصورته الكلاسيكية، الذين يقومون - بوجه عام - بوضع فكرة الذاتية في مقابل فكرة المجتمع أو اللغة. لذلك فإن من الأفكار المهمة بنفس القدر فكرة الذات السياسية، أى فكرة وجود كائن له وضع سياسى خاص ومجموعة معينة من السمات الشخصية، التى توجد إما مستقلة عن نمط التنظيم الاجتماعى السياسى أو اعتماداً عليه (وذلك حسب وجهة نظرك) (قارن كذلك مواد: المواطنة، والفرد، النفس أو الذات). (PS) للمزيد انظر: Block et al (١٩٩٧). و Bowie (١٩٩٠) و Dallmayr (١٩٩٠) و Farrell (١٩٩٤).

(*) انظر تعريفاً بلعبة اللغة في هامش مادة: المعنى. (المراجع)

مصطلح يرتبط بقضايا الذاتية والهوية، كما أن له فروعاً المتشعبة في مجموعة متنوعة من المجالات التي تعالج موضوعات متعددة (كعلم السياسة، والنزعة الليبرالية، ومذهب الفردية، ونظرية المعرفة، وعلم الأخلاق).

ويشور مفهوم الذات في ذهن المرء بمجرد أن يسأل سؤالاً مثل: "من أكون؟". وقد لا يبدو هذا السؤال عصبياً على الإجابة للوهلة الأولى، ولعلك تجيب عليه بأن تقول اسمك فقط. ولكن نطلق باسمك لا يجيب بما فيه الكفاية على سؤال: "من أكون؟"، في حالة ما إذا كنت تعتبر أن هذا السؤال يعني - كذلك - "ماذا أكون؟". وبصورة عامة، ذهب الفلاسفة إلى أن السؤال عن تكون؟ يتضمن بالضرورة - كذلك - أخذ السؤال "عماذا تكون؟" في الاعتبار. وثم إجابة ممكنة على هذا السؤال وهي: "أنا عقل وجسد. فائناً أفكر كما أنتى أتحرك هنا وهناك في هذا العالم ككائن مادي". بيد أن الإجابة بهذه الطريقة لا تحل المشكلة، وذلك ما لم تكن قادراً على أن تقول كيف ترتبط هذه الأشياء - كالعقول والأجساد - بعضها ببعض. وفي هذه الحالة، ونتيجة للأسئلة المذكورة، فإن التفكير في طبيعة الذات يترتب عليه عدد من الأسئلة المرتبطة بهذا الموضوع: منها مثلاً: "كيف يرتبط العقل بالجسد؟ (أو قل بأسلوب آخر: ما هي العلاقة بين العقل والجسد؟)". كما أنه في حالة ما إذا كان المرء يأخذ بوجهة النظر التي ترى أن كل واحد منا عبارة عن عقل زائداً جسداً، فسوف تظهر قضايا أخرى، أعنى بها، أى الاثنين وجد قبل الآخر؟

ويتوافر لنا عدد من الاتجاهات الفكرية في تناول هذه القضية. فأفلاطون في محاورته بعنوان "فايدوس" Phaedo، (حوالى سنة ٣٨٠ قبل الميلاد، انظر الفقرة رقم ٦٣ وما بعدها) ذهب إلى أن الروح (أى العقل) والجسد متميزان عن بعضهما. زد على

ذلك أنه كان يؤمن بأن من الضروري أن تكون الروح سابقة في وجودها على الجسد. وفي هذا التباين بين الروح والجسد يكمن جوهر حقيقة كل منا. والجزء الجوهرى من كل واحد منا (وهو العقل/ أو الروح) لا يتغير أبداً، لأن ما هو جوهرى (ومن ثم حقيقى) يلزم - بمقتضى تعريفه - ألا يتغير أبداً. وعلى النقيض من ذلك يوجد العالم المادى فى حالة تغير مستمرة. وهنا نجد حجة أفلاطون - التى قدمها سقراط فى محاوره "فايدوس" - تقوم على النحو التالى:

(١) ثمة نوعان من الوجود: الوجود المرنى (أى العالم المادى) والوجود اللامرنى.
(٢) وعالم الخبرة والمعاشية (وهو هذا العالم المرنى) هو عالم التغير، بينما العالم اللامرنى لا يتغير.

(٣) ونحن مخلوقون من جزئين - جسد وروح.

(٤) والجسد شبيه بالوجود المرنى، ولذلك فهو متغير، أما الروح فشبيهة بالوجود اللامرنى، ولذلك فهى لا تتغير.

(٥) ومن بين هذين الاثنين، تشبه الروح المقدس (الذى لا يتغير) - فنحن باختصار نملك روحاً خالدة.

(٦) لذلك، فإن الروح سرمدية.

نخلص من ذلك إلى أن الذات (أى النفس أو الروح) هى الجزء الخالد فى كل واحد منا، وأن الجسد هو مجرد الوعاء الذى يحل فيه هذا الجوهر. وكان أفلاطون يعتقد، بناءً على ذلك التسلسل فى التفكير "المعروض فى الخطوات الستة السابقة"، أن ما هو جوهرى فى كل واحد منا يظل باقياً بعد الموت (أى أن الروح أو العقل خالد لا يموت).

ويمكن إجراء نوع من المقابلة بين وجهة النظر المذكورة هذه عن الذات بمعالجة دافيد هيوم^(*) - فيلسوف القرن الثامن عشر - لهذه المسألة في كتابه بعنوان بحث في الطبيعة الإنسانية (١٧٣٩): قارن الكتاب رقم ١، جزء ٤، فقرة ٦). ففي رأى هيوم أننى كلما أتكلّم عن نفسى Myself فإننى أفعل ذلك دائماً فى سياق فكرة معينة أو إحساس معين. فلا وجود لذات (أو نفس) تعلو على الأفكار والمشاعر يمكن تصور أنها مستقلة عن هذه الأفكار والمشاعر. وهذه "الأنا" إنما هى عبارة عن حزمة من الأحاسيس، وعلى ذلك فالذات هى محصلة قدرة الجسد على الشعور بالأحاسيس، والخبرات، وما إلى ذلك. ومن ثم، وبناءً على تصور هيوم، لا يمكن القول بوجود الذات مستقلة عن تلك الأحاسيس، ذلك أن الذات عرضة للموت. زد على ذلك أن الذات - بناءً على هذا التصور - تعتبر شيئاً ما مضافاً إلى الخبرات المذكورة، فهى زيف أو خداع. وبعبارة أخرى، فإن الذات ليست كياناً مستقلاً عن الأحاسيس التى يستطيع الجسد أن يشعر بها، وإنما هى ناتجة عن هذه الأحاسيس. ومن ثم، فإن الذات عند هيوم نوع من الترجمة لهذه الأحاسيس.

ويقدم هذان التصوران للذات، بصرف النظر عن وجوه النقص فى كل منهما، وجهتى نظر أنطولوجيتين متناقضتين عن طبيعة الذات. فنحن عندما نقدم تصوراً معيناً عن طبيعة الذات (أى عما تكون الذات)، فإننا نكون ملتزمين بنوع ما من أنواع الأنطولوجيا (أى مبحث الوجود). ويحدث هذا حتى لو تجرأنا - كما فعل هيوم -

(*) هيوم، دافيد Hume, David (١٧١١-١٧٧٦) أهم فلاسفة عصر التنوير الاسكتلندى ومن أبرز مؤسسى النزعة الإمبريقية. واشتهر هيوم بتحليله للعلة، ومشكلة الاستقراء المرتبطة بها. كما أن العلماء يذكرون لهيوم إصراره على أن القيم الأخلاقية لا يمكن استخلاصها إطلاقاً من المقدمات الواقعية (عبارته الشهيرة: لا استنباط لما ينبغى أن يكون مما هو كائن)، كما يذكرون له رفضه لمنظور "المصلحة الذاتية" إلى الطبيعة الإنسانية وإلى الأخلاق. كما حاول هيوم أن يرسى أسس الدراسة العلمية الإمبريقية للطبيعة الإنسانية. (المراجع)

وأنكرنا أن النفس موجودة بأى معنى أنطولوجى كان: فإننا بذلك نتبنى تصوراً أنطولوجياً عن الذات على أساس ما نعتقد أنه الحقيقة.

إن عدداً من العناصر الهامة فى وجهة نظر أفلاطون عن الذات ليست مقصورة عليه وحده بأية حال. ذلك أن كثيراً من الاتجاهات والأفكار الفلسفية والدينية والخلقية تضم فى ثناياها ذلك الاعتقاد بأن العقل والجسد يتميزان عن بعضهما من حيث الطبيعة (وإن يكن من المحتمل أن يرد هذا الاعتقاد بصورة ضمنية). كذلك الأمر فيما يتصل بالمعرفة إذا نظرنا إليها من كل من وجهة النظر الفلسفية ومن وجهة النظر العلمية التى تحظى بوضع ممتاز، نجد أن مسألة الذات واحدة من القضايا الهامة فى هذا المجال. ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه يترتب على الكلام عن المعرفة أن يثور - بالضرورة - ذلك السؤال الذى يبحث عن ما هو أو عما هو ذلك الذى يملك المعرفة، أو ما هو موضوع المعرفة. ومثال ذلك، أنه فى نطاق العلوم يتعين أن نفترض مقدماً وجود فكرة ما عن كون الباحث العلمى.

وقد قام فيلسوف القرن السابع عشر رينيه ديكارت، فى رده على كتابات بعض معاصريه من الفلاسفة المتشككين الذين كانوا يرتابون فيما إذا كان بوسعنا الوصول إلى أى نوع من المعرفة المؤكدة، قام بمحاولة إثبات أن لدينا - على الأقل - نوعاً من المعرفة اليقينية. ويبدأ ديكارت بزعم أنه صدم قبل ذلك من جراء ذلك العدد الكبير من المعتقدات الزائفة التى كان يأخذ بها منذ أن كان طفلاً. وهو يقرر أن "يُدمر هذه المعتقدات كلها كمقدمة لإرساء أسس المعرفة (وعادة ما يعرف هذا الاتجاه "بالمنهج الشكى" نظراً لأنه يبدأ بحثه من موقف الشك). ومن أجل القيام بهذا العمل، يكفى وضع جميع المعتقدات محل شك وارتياب، بمعنى الإشارة إلى أنها ليست يقينية"، وليست زائفة. ويذهب ديكارت إلى أن المرء مهما شك فى صحة معتقداته، فإن أمراً واحداً يبقى صحيحاً: فمهما يحدث فأننا لا أزال أفكر: وأخلص من ذلك إلى استنتاج

----- (ذ) -----

أن هذه القضية وهى "أنا كائن، فأنا موجود"، تكون صحيحة حتماً متى ما عرضت لعقلى أو خطرت على ذهنى". ويعبر عن هذه القضية بعبارة نالت أقصى الشهرة: "أنا أفكر، إذن أنا موجود".

فماذا يكون هذا "الأنا" الذى يفكر؟ يقوم ديكارت بالتمييز بين (١) البنیان الميكانيكى للجسد الإنسانى و (٢) الأنشطة التى يمارسها البشر: فهم يمشون هنا وهناك، ويأكلون الطعام، وتتكون لديهم إدراكات حسية تأتيهم من حواسهم، إلى آخر تلك الأنشطة. وهو يذهب إلى أن هذه الأنشطة هى الأفعال التى تقوم بها الروح أو العقل. فخواص الجسد خواص فيزيقية أى مادية، حيث يمكن رؤيته، ولمسه. وهو يشغل حيزاً معيناً، ويمكن تحريكه، إلى آخر هذه الأمور. لكن "القدرة على الحركة الذاتية" ليست خاصية يمكن أن ننسبها إلى الجسد. ووفقاً لمبادئ المنهج الشكى، يمكن أن يكون وجود الجسد محل شك. فإن الذات التى تفكر لا يمكن الشك فى وجودها، كما يذهب إلى ذلك ديكارت. ومن ثم يعتقد ديكارت أنه عقل، وليس تلك البنية المكونة من أعضاء، والتى تسمى جسداً إنسانياً (وهى نظرة يطلق عليها مصطلح "ثنائية العقل - والجسد"). وبتعبير آخر، تؤكد هذه النظرية الأمر الجوهرى بالنسبة للبشر وهو أنهم كائنات مفكرة، وأن هذه الخاصية التى يشار إليها بمصطلح "العقل" مختلفة اختلافاً جوهرياً عن الخاصية التى يشار إليها بمصطلح "الجسد". وبشكل هذا الاختلاف بين العقل والجسد الأساس الذى تقوم عليه نظريته فى المعرفة والتى تقول: إن المعرفة المؤكدة (أى الصحيحة) إنما تنشأ من هذا "الأنا الذى يفكر"، أى من الذات باعتبارها جوهرهاً مفكراً.

وكان من بين من انتقدوا هذا الاتجاه نيتشه، الذى أشار فى كتابه بعنوان "وراء الخير والشر" (الفقرة رقم ١٦) إلى أنه لا توجد صلة ضرورية بين التفكير والذات؛ ومعنى ذلك أنه لا يمكننا أن نثبت بثقة كاملة أن الذات هى الفاعل المحرك لنشاط

التفكير. فالذات عند نيتشه - على خلاف ديكارت - تكون دائماً مندرجة ضمن سياقات معينة، بوصفها المحصلة الحقيقية للثقافة البشرية، وليست مفهوماً أنطولوجياً يشكل أساس الخبرة ومن ثم يشكل أساس المعرفة.

ومع "الانقلاب اللغوي" في الفلسفة أثناء القرن العشرين وكذلك في ضوء التطورات الفكرية التي أحرزها التحليل النفسي، طرحت تصورات للذات تهتم، مثلاً، بقضية اندراج الذات ضمن نطاق اللغة والخطاب. فعند جان فرانسوا ليوتار، مثلاً، ينشأ مفهوم الذات مستقلاً عن اللغة من وجهة رؤية لطبيعة المعنى ترى أن الإنسان هو الحقيقة المركزية للكون، وهي رؤية يمكن الشك في صحتها. والذوات في هذا التصور لا توجد في عالم مستقل عن اللغة، كما أن ما تتصف به من مواقف وأمزجة ومقاصد لا تكفي وحدها لضمان توفير أساس إبستمولوجي للمعرفة. بل إن هذه المقاصد والميول والاهتمامات وأمثالها من صفات الذات إنما يتم إدراكها وفهمها داخل نطاق اللغة وعن طريقها. وعلى ذلك ينتقد ليوتار فكرة فيتجنشتين عن "لعبة اللغة" (*) لكونها محدودة النطاق بشكل بالغ. يشهد لذلك - وكما يقول ليوتار - أن فيتجنشتين عندما يقوم بالمضاهاة بين "لعبة اللغة" ولعبة الشطرنج، يظل حبيساً داخل حدود وجهة نظر عن المعنى تؤثر القول بوجود ذات مستقلة عن اللغة: ذلك أنه يفترض أن "اللاعب" يحرك إحدى قطع الشطرنج، ويظل مع ذلك منعزلاً عن اللعبة.

وبالمثل يذهب جاك ديريدا إلى أن معنى هذه الأمور - وهي المقاصد والميول والاتجاهات - باعتبارها بديهيات ليس مجرد مسألة من المسائل التي تخص مقاصد المتكلم. إذ يرى ديريدا أنه رغم "أن المعنى له مكانه الخاص به"، فإن إنتاج المعنى يتم بواسطة اللغة والسياق الذي يجري فيه الكلام. يضاف إلى ذلك أن كتاب ميشيل فوكو،

(*) انظر تعريفاً بلعبة اللغة في هامش مادة: المعنى. (المراجع)

----- (ذ) -----

مقتفياً أثر نيتشه، ركز هو الآخر على إعادة صياغة التصور الذهني لمفهوم الذات في ضوء العلاقات القائمة بين أشكال خطاب القوة المختلفة. (PS) للمزيد انظر: Lyotard (١٩٨٨) وHernadi (١٩٩٥) وDescartes (١٩٨٦) وDerrida (١٩٨٨ ب) وPlato (١٩٧٥) وNitzsche (١٩٦٨).

Capital

رأس المال

مفهوم مأخوذ من علم الاقتصاد يشير - بصورة شديدة الوضوح والبداهة - إلى الآلات، والتجهيزات، والمنشآت التي تستخدم في عمليات التصنيع. ويتعبّر أكثر فنية، يعد رأس المال واحداً من عناصر الإنتاج الأربعة. وأى عامل من عوامل الإنتاج هو أى مورد له قيمة لا لذاته، وإنما للدور الذى يقوم به فى إنتاج السلع أو الخدمات الأخرى التى لها قيمة فعلية. وبقيّة عوامل الإنتاج هى الأرض (ويدخل فيها كافة الثروات الطبيعية قبل استخراجها، وسطح الأرض، والبحر، والفضاء)، والعمل (باعتباره يمثل قدرة البشر على الاشتراك فى المهمة الإنتاجية) والإدارة (من حيث كونها تمثل القدرة على تنظيم العوامل الثلاثة الأخرى مجتمعة فى العملية الإنتاجية). ورأس المال هو أى مورد أو عنصر من عناصر العملية الإنتاجية التى خضعت لشكل ما من أشكال العمل الإنتاجية. (AE)

Cultural Capital

رأس المال الثقافى

تحدد عضوية الفرد فى طبقته - خاصة من وجهة النظر الماركسية - وفقاً لمدى وصوله إلى رأس المال الاقتصادى وسيطرته عليه (مثل الآلات الصناعية، والمواد الخام، وكذلك المال). وقد قام بيير بورديو^(*) (١٩٧٢) بعقد مماثلة بين هذا الوضع وبين وصول

(*) بيير بورديو Pierre, Bourdieu (١٩٢٠-٢٠٠٢) عمل أستاذاً لعلم الاجتماع فى الكوليج دى فرانسر بباريس حتى وفاته. حظى خلال حياته، وكذلك عند وفاته، باحترام واهتمام كبيرين من قطاعات واسعة فى المجتمع الفرنسى، وعلى الصعيد العالمى أيضاً. يعد آخر المفكرين الفرنسيين العظام الذين عرقتهم الساحة الثقافية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وظل منتجاً ونشطاً حتى آخر يوم فى حياته. بلور رؤى متكاملة وواضحة فى موضوعات: نظرية المعرفة، والمنطق الاجتماعى للممارسة، وفكرة إعادة إنتاج =

----- (ر) -----

الفرد إلى الموارد الثقافية، وذلك في ثانيا تحليله لدور النظام التعليمي في مجتمع رأسمالي مقسم إلى طبقات. فسوف يتوفر للأطفال درجات مختلفة من الكفاية الثقافية (بما في ذلك المعلومات والمهارات)، والتي يتم اكتسابها داخل الأسرة قبل دخولهم المدرسة. وبهذا الشكل لن يكون نظام التعليم نظاماً تمييزياً - بصورة مكشوفة - لصالح أطفال الطبقة المسيطرة. وإنما يتم تقويم جميع الأطفال "بحياد"، وذلك وفقاً لقدراتهم على الإنجاز تبعاً لنفس معايير التميز والتفوق. ومع هذا تظل تلك المعايير مستمدة من الثقافة السائدة. لذلك فإن أطفال الطبقة المسيطرة سوف يحققون نتائج أفضل، محققين بذلك منفعة (من حيث "القوة الرمزية") وتكون هذه المنفعة ناتجة عن استثمارات أبائهم في مجال رأس المال الثقافي. (AE)

Capitalism

الرأسمالية

شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، يتميز بالدور المسيطر الذي يلعبه رأس المال في العملية الإنتاجية الاقتصادية، وبوجود أسواق واسعة يتم عن طريقها تنظيم إنتاج وتوزيع واستهلاك السلع والخدمات (بما فيها العمل). وقد يتم الربط بسهولة كبيرة بين تطور الرأسمالية وبين حركة التصنيع، ويتجلى هذا التطور في أنقى صورة له في بريطانيا والولايات المتحدة أثناء القرن التاسع عشر. ومع هذا، فقد سبق أن وجد في أوروبا في العصور الوسطى شكل من أشكال الرأسمالية (التجارية)

= المجتمع، واللغة والثقافة... إلخ. من أهم أعماله: الإطار العام لنظرية الممارسة، ١٩٧٧، التميز: نقد اجتماعي لأحكام الذوق، ١٩٨٤، والإنسان الأكاديمي، ١٩٩٩، نظام إعادة الإنتاج في التربية، والمجتمع والثقافة، ١٩٩٠، وطبقة النبلاء الرسميين (الحكوميين): مدارس الصفوة في مجال القوة، ١٩٩٦ (والتواريخ جميعها تشير إلى صدور الطبقات الإنجليزية فقط). (المراجع)

المحدودة النطاق، التي كانت تتسم بأسواق محدودة لبيع السلع، الأمر الذي ترتب عليه وجود طبقة رأسمالية صغيرة من التجار، ولكن بدون إنتاج صناعي أو أسواق عمل حرة.

وتوجد نظريات مختلفة عن الرأسمالية، خاصة في ميدان النظرية الاجتماعية، تزودنا بنماذج تفسيرية تشرح لنا أصل الرأسمالية والمتغيرات التي أدت إلى نشأة ملامحها البارزة. وفي الماركسية يتم تنظيم الرأسمالية بالنظر إلى ما تقوم به من تنظيم للإنتاج وما يترتب على ذلك من علاقات تنشأ بين الطبقات الاقتصادية. وهكذا يفسر ظهور الرأسمالية في ضوء تطور التكنولوجيا الصناعية (أو تطور قوى الإنتاج). ويقوم بناء المجتمع الرأسمالي على العداء بين طبقتين مسيطرتين هما: الطبقة البورجوازية التي تملك وسائل الإنتاج وتسيطر عليها، وطبقة البروليتاريا التي لا تملك إلا قوة عملها (لذلك لا تستطيع البقاء على قيد الحياة إلا عن طريق بيع قوة عملها). وإذا نُظر إلى هذا الوضع نظرة سطحية، فإنه يبدو وكأنه يقوم على تبادل حر وعادل للسلع، بما فيها قوة العمل، من خلال أليات السوق. وفي تحليل ماركس للمجتمع الرأسمالي يرى أنه يكمن تحت هذا السطح الظاهر استغلال منظم لطبقة البروليتاريا، وذلك بقدر الفارق الذي يقل به سعر العمل الذي تفرضه السوق الحرة، عن قيمة المنتج الذي يقدمه هذا العمل. لهذا السبب يعتقد أن الطبقة البورجوازية تستولى بغير حق على فائض القيمة الذي يماثل مقدار التفاوت أو الفرق بين تكاليف إنتاج سلعة ما وإجمالي العائد المتحصل من بيعها.

وبينما توجد أمور مشتركة بصفة عامة بين تحليل ماركس فيبر للرأسمالية وتحليل ماركس لها، فإن فيبر يولى أهمية أكبر للتنظيم السطحي أو الظاهر للرأسمالية، ومن ثم فإنه يولى أهمية أكبر للرأسمالية كنظام للتبادل والاستهلاك (١٩٦٤ و ١٩٧٩). ومن

هنا تكون الرابطة بين الرأسمالية والترشيد رابطة محورية فى هذا التحليل. إذ يرى فيبر أن الشرط المسبق الذى لا غنى عنه لتحقيق التطور الرأسمالى يتمثل فى وجود نظام محاسبة قائم على أساس القيد المزدوج (وهو الأمر الذى يترتب عليه إمكانية الضبط الرشيد لموارد الرأسمالى وإمكانية التنبؤ بالموارد الرأسمالية فى المستقبل).

فى بداية القرن العشرين أحرزت الرأسمالية الأوروبية والأمريكية تطوراً فى عدد من المجالات الرئيسية. وقد كان تحليل فيبر للرشد بمثابة استجابة لنمو البيروقراطية فى الرأسمالية، من حيث إنه كلما ازداد الإنتاج تعقيداً وتركيباً كلما اقتضى ذلك توافر أشكال من الإدارة والرقابة تكون أكثر تطوراً وتعقيداً. وهو الأمر الذى يفضى بدوره إلى ارتفاع شأن الطبقة الوسطى من أصحاب الياقات البيضاء، وهى الطبقة التى تتميز فى مصالحها وولاءاتها عن كل من طبقة العمال البروليتارية والطبقة البورجوازية. زد على ذلك، أن البنوك وغيرها من المؤسسات المالية أصبحت أكثر أهمية عن ذى قبل، وذلك بسبب التزايد المستمر لانفصال الرقابة اليومية على الإنتاج عن الملكية. وهكذا استطاع بعض المفكرين تبين شكل واضح من أشكال رأس المال التمولي، نذكر منهم المفكر الماركسى - النمساوى رودلف هيلفردنج R. Hilferding (١٩٨١) وذلك سنة ١٩١٠ تقريباً.

وقد ارتبط بهذا التطور أمران، أولهما التركيز المتزايد لرأس المال، بحيث أصبح الإنتاج تحت سيطرة شركات أقل عدداً وأكبر حجماً عما قبل (مؤدية بذلك إلى الرأسمالية الاحتكارية)، وثانيهما توسع الرأسمالية وامتدادها إلى داخل أسواق البلاد المستعمرة. ويؤدى التدخل المتزايد للدولة، ليس فقط فى تنظيم الإنتاج الرأسمالى، بل فى ملكية وسائل الإنتاج كذلك؛ يؤدى إلى حدوث مزيد من الانحراف عن النموذج النقي لرأسمالية السوق الحرة. وعلى ذلك تبدأ مرحلة من مراحل الرأسمالية المنظمة

فى الظهور بعد الحرب العالمية الأولى، وتستمر مع تزايد قواعد الاستهلاك والإنتاج التى تملكها الشركات متعددة الجنسيات وفى ظل ارتفاع شأن رأسمالية دولة الرفاهية، وصعود السياسات الاقتصادية القائمة على أفكار كينز، خاصة حتى سبعينيات القرن العشرين. وقد ينظر إلى جميع هذه التطورات على أنها تلمس الخطوط الأساسية للصراع الطبقي كما عرفها ماركس. فطبقة البروليتاريا أصبحت تعيش أشكالاً متزايدة من الاختلافات بين أفرادها، كما ازدادت درجة تكاملها واندماجها فى النظام الرأسمالى، وذلك من خلال حصولها على قدر أكبر من تأمين فرصها فى الوظائف، وحصولها على قدر أكبر من الدخل الحقيقى. والأزمات الاقتصادية التى تنبأ ماركس بوقوعها أمكن - فى أسوأ الأحوال - تدبرها ومعالجتها، وأمكن - فى أحسن الأحوال - اجتنابها بفضل مساعى الحكومات التى تأخذ بمذهب حق الدولة فى التدخل فى شئون الاقتصاد.

إن التطورات الحديثة فى مجال التكنولوجيا، والمصاحبة لتراجع الصناعات التحويلية التقليدية، وارتفاع شأن الصناعات القائمة على نظام الاتصالات أو المعرفة، بجانب التطورات الحديثة فى النزعة الاستهلاكية، والمصاحبة للزيادة المضطردة فى أعداد أفراد الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة؛ وكذلك التطورات الحديثة التى تمثلت فى التحولات السياسية خلال ثمانينيات القرن العشرين، والتى تباعدت عن مبدأ تدخل الدولة فى الاقتصاد؛ كل تلك التطورات المذكورة تحتاج إلى صياغة نظريات جديدة عن تنظيم المجتمع المعاصر. وهكذا تمثل النظريات التى تتناول إحداها موضوع الرأسمالية الحديثة (جيمسون ١٩٩١)، وتتناول ثانيها موضوع مجتمع ما بعد الصناعة (بل ١٩٧٣)، وتتناول ثالثها الرأسمالية المختلة (لاش وأورى ١٩٨٧)، وبعض التحليلات المنسوبة إلى ما بعد الحداثة؛ كل تلك النظريات والتحليلات تعطينا انطباعاً

عن حدوث قطيعة جذرية - بدرجة أو بأخرى - عن النماذج الرأسمالية السابقة للتخطيط. (AE) للمزيد انظر: Bottomore (١٩٨٥) و Giddens (١٩٧٣) و Mandel (١٩٧٣) وسائر (١٩٩١).

الرقص

Dance

يبدو أن الرقص كان من الموضوعات التي أهملتها - إلى حد ما - العلوم الاجتماعية والدراسات الثقافية. مع أن الرقص يعد نشاطاً مهماً في شتى قطاعات المجتمع، وفي كافة المجتمعات رغم شدة اختلافها. وعلى أحد الطرفين نجد فن البالية الكلاسيكي الذي يخص جماعات الصفوة في المجتمع. وفي نطاق الثقافة الرفيعة تتعرض النزعة المحافظة التي يتسم بها فن البالية لهجوم ورفض فنانى الطليعة الذين يقدمون "الرقص الحديث". وإذا كان من المحتمل أن يبدو رقص البالية متطعناً لتحقيق شكل من أشكال الاستقلال الجمالي (انظر: علم الجمال) الذي يساعد على فصله عن مجالات الاهتمام الاجتماعية والثقافية، (وذلك على الرغم من وجود عدد لا بأس به من عروض البالية ذات الأفكار والموضوعات السياسية التي تم تقديمها في القرن العشرين) فإنه يمكن النظر إلى الرقص الحديث باعتباره استكشافاً جوهرياً للجسد، وللأعراف المرعية التي تحكم حركته وهيبته في الثقافة المعاصرة. كذلك لا ينبغي تجاهل أنواع الرقص الأخرى^(*) التي تؤدي في قاعات الرقص، ولا الرقص النقرى^(**) ولا غيرهما من أشكال الرقص التي يستمتع الناس بمزاوتها على نطاق واسع في

(*) كالتانجو والفالس. (المترجم)

(**) الرقص النقرى Tap Dance الذي يؤدي عن طريق ضرب الأرض بنقرات قوية بالأقدام أو برؤوسها أو بكموبها، أو بواسطة أحذية مركب في نعالها قطع معدنية لإظهار صوت النقرات. (المراجع)

أوقات فراغهم. كما أن فكرة الرقص الشعبي توحى أن بإمكان هذا الرقص أن يجسد تعبير المجتمع عن قيمه وهويته، أو تعبيراً عن مقاومته للضغوط الخارجية، وذلك على الرغم من أن هذا الرقص الشعبي قد يكون - فضلاً عن ذلك - فناً تجارياً (فى خدمة صناعة السياحة، مثلاً).

وقد أوضحت أنجلا ماك روبى Angela McRobbie أن الرقص، ليس فقط عنصراً خصباً ومهماً من عناصر الثقافة الفرعية للشباب، وإنما بالذات باعتباره جزءاً من ثقافة الشابات النسويات. لذلك فإن إهمال الدراسات الثقافية له يمكن اعتباره عرضاً من أعراض الإهمال العام للمشاركة النسوية فى الثقافات الفرعية. وتشير ماك روبى إلى عدد من المستويات المختلفة لتناول الرقص. فهو نشاط ترفيهى لشغل وقت الفراغ، ومصدر من مصادر المتعة الجنسية التى تعم الجسد كله، كما أنه شكل من أشكال التمرينات الرياضية. وعلى النقيض من ذلك، قد يكون الرقص شكلاً من أشكال التحكم فى جسد الأنثى وحركتها، من خلال تأكيد أهمية رشاقة الجسد وجماله. وإن كان الرقص - أيضاً - أسلوباً تمارس به الراقصة تحكمها فى جسدها. فماك روبى ترى أن الرقص يمكن أن يمثل توسيعاً لثقافة الحركة النسوية الخاصة، وتوصيلها إلى المجال الاجتماعى العام. والرقص شكل من أشكال المراوغة وفرصة لإطلاق الخيال، حيث يتحرر الراقص من التحكم فى نفسه، ومن ثم يكون فى مأمن من أى قوى تتحكم فيه. فالرقص يمثل - فى نفس الوقت - استعراضاً مثيراً للذات وللجسد، مصحوباً بقدر مساوٍ من الإنكار (النفى) المثير للذات وللجسد. (ماك روبى ١٩٩١: ١٤٤). (AE) للمزيد انظر: Thomas (١٩٩٢) و Foster (١٩٩٦) .

Symbol

الرمز

كلمة ذات معانٍ متعددة. وتنتشر الرموز فى كافة مجالات الحياة الإنسانية، كما تستعمل فى طائفة كبيرة من أنواع الخطاب المتخصصة، وتستعمل فى الحياة اليومية

أيضاً. وغالباً ما تعنى كلمة "الرمز" الإشارة إلى علامة ما أو فعل من نوع ما يستعمل فى نقل معنى معين لفرد ما استناداً إلى مجموعة من المعايير أو الممارسات العرفية المعتادة العامة. ومن ثم، فإن الرمز ينقل المعنى لأنه يمثل شيئاً آخر، وذلك على الرغم من عدم وجود رابطة ضرورية بينه وبين ما يمثله (لذلك فإن استعمال الرمز ومعنى الرمز يعدان من المسائل العرفية المعتادة، وهو مفهوم يستعمله بيرس Peirce فى كتاباته فى السيميوطيقا).

وفى الفلسفة التحليلية يعنى "المنطق الرمزي" استعمال الرموز محل العبارات الجارية فى اللغة الطبيعية (فهذا الرمز الكتابي "ا" يعنى كلمة "ليس"، والرمز "٠" يعنى "أو"، وهكذا) كوسيلة لتحليل بناء الحجج والآراء. وفى التحليل النفسى الفرويدى ينظر إلى الرموز على أنها تقوم مقام باعث ما تم كبتة. وبهذا المعنى، يغلب أن يكون للرموز علاقة بما ترمز إليه أو تدل عليه (وهى علاقة كثيراً ما تكون استعارية). ورغم أن فرويد - وكان من مدخنى السيجار - قرر أن السيجار لا يعنى فى بعض الأحيان إلا مجرد سيجار، فقد أوضح أن السيجار يمكن اعتباره من وجهة نظر تحليلية نفسية كاستعارة (أى كرمز) للقصيب، إذا تكرر ظهوره فى أحلام المريض. أما فى سيميوطيقا بيرس فالرمز إنما هو علامة ليس بينها وبين ما تمثله رابطة أو وجه من وجوه المشابهة. كما يمكن أن يكون للرمز دلالة تاريخية وعدد كبير من أصداء المعانى المرتبطة بهذه الدلالة (ففى الثقافة الأوروبية - مثلاً - يمكن أن يكون الصليب رمزاً بالغ التأثير، ليس فقط من حيث كونه رمزاً للعقيدة المسيحية، بل لكونه كذلك رمزاً للمؤسسات، والهوية، والتقاليد والقيم المرتبطة بهذه الثقافة). (PS)

Romanticism

الرومانسية

تمتد الفترة الرومانتيكية فى الثقافة الأوروبية ما بين سنة ١٧٨٠ وسنة ١٨٥٠ تقريباً. وعلى حين يسهل علينا تعيين الأعمال الفنية الرومانتيكية وفقاً لهذا التصور (كاللوحات

----- (ر) -----

الزيتية التي رسمها تيرنر(*) Turner وديلاكروا(**) Delacroix، وشعر وردزورث(***) Wordsworth ويايرون(****) Byron، وموسيقى فاجنر(*****)، فإن الصياغة الدقيقة لما يشترك فيه الفنانين والمفكرون الرومانتيكيون أمر عسير الإدراك. وقد يكون أفضل

(*) تيرنر، جوزيف مالورد ولیم J.M.W. Turner (1775-1851) أعظم مصوري المناظر الطبيعية الإنجليز. تفوق على كبار الأساتذة الذين ظل يتعلم على أيديهم في شبابه منذ عام 1800 حتى عام 1820. وكان شديد الولع بالموضوعات الأسطورية. ويجمع النقاد على أنه لم يبلغ القمة إلا خلال الأعوام من 1839 حتى 1850. الحقيقة أن فن تيرنر مذهب يتعدد جوانبه: فهو "رومانسي" بمساقاته اللانهاية وقمم جباله، وهو "انطباعي" بألوانه البيئية، كما أنه "تعبيري" أو "تجريدي" في لوحاته التي تحاكي القصائد اللونية. راجع المزيد عند: ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص 479-480. (المراجع)

(**) ديلاكروا، أوجين Delacroix, Eugene (1798-1863) رسام فرنسي. يُعتبر أحد أبرز زعماء المدرسة الرومانتيكية. ألوانه قوية، وهي تشكل جزءاً أساسياً من بنية الصورة عنده. وقد كان لأسلوبه في استخدام اللون أثر في نشوء كلتا المدرستين الانطباعية impressionism والانطباعية المتأخرة postimpressionism. من أشهر لوحاته "دانتى وفيرجيل في الجحيم" (عام 1822) و"نساء الجزائر" Les Femmes d' Alger (عام 1824). (المراجع)

(***) وردزورث، ولیم Wordsworth, William (1770-1850) شاعر إنجليزي. يعد كبير شعراء الحركة الرومانتيكية الإنجليزية. ارتبط اسمه بـ "منطقة البحيرات" التي استوحى منها أروع أعماله الشعرية. حاول أن يتحدث في شعره بلغة الرجل العادي فأنحدر إلى مستوى النثر أحياناً، ولكن تجربته هذه غيرت مجرى الشعر الإنجليزي، من أشهر آثاره قصيدة طويلة عنوان "الاستهلال" The Prelude وقد أنتمها عام 1805 ولكنه لم يجر نشرها إلا بعد وفاته فنشرت عام 1850. وهي عبارة عن سيرة حياة ذاتية فريدة لشاعر حرص على "الاستماع للغة الأرض العتيقة". (المراجع)

(****) باريون، جورج جوردون Byron, George Gordon (1788-1824) شاعر إنجليزي من قادة الحركة الرومانسية، أوسع شعراء إنجلترا شهرة خارج بلاده. أخذ عن روسو وجوته النزعة الرومانسية، فكان أكثر معاصريه تأثيراً بالأدب الأوروبي، وأكثرهم تأثيراً فيه فيما بعد. اهتم بمناصرة القوميات الحديثة وداغ عنها في البرلمان الإنجليزي بل جعل هذه المناصرة من أهم الشعارات للكتاب الرومانسيين. (المراجع)

(*****) فاجنر، ريتشارد Wagner, Richard (1813-1883) مؤلف موسيقى ألماني من مواليد ليبزج وقائد أوركستر مرموق. كان أول من تحمس للصفات الدرامية في الموسيقى بعد إعجابه بتاسعة بيبثوفن. ويرجع إليه الفضل في ترسيخ ظاهرة فنية في فن الأوبرا عندما حقق انصهار الموسيقى والشعر وحرفية المسرح انصهاراً خلقياً بحيث أصبحت دراماها الموسيقية نمطاً يستحيل الفصل فيه بين هذه المقومات الفكرية الثلاثة. ولقد ساعد على تحقيق التزاوج الكامل بين الموسيقى والشعر وحرفية المسرح كونه هو نفسه شاعراً مجيداً فجاء شعره قرين موسيقاه وتوأمها. (المراجع)

شئ هنا النظر إلى الرومانسية باعتبارها مجموعة من الاتجاهات والموضوعات الأساسية، وليس مذهباً متماسكاً مستقلاً. وتمثل الرومانسية في جوهرها رد فعل مضاد لتأكيد حركة التنوير على العقل والنظام، ومن ثم تعد رد فعل للنزعة الكلاسيكية في الفنون.

وقد كانت كلمة "رومانتيكي" في الأصل تستعمل للإشارة إلى اللغات الناشئة عن اللغات اللاتينية، ومن هنا كان يشار بها إلى الكتابة باللغة الفرنسية العامية، وليس إلى الكتابة باللاتينية. شاهد ذلك أن دكتور جونسون^(*) عرف مفهوم "رومانتيكي" - في سنة ١٧٥٥ - بأنه: يشبه الحكايات أو الروايات الغرامية، التي تتسم بالطيش والجموح... ولا يعقل وقوعه، وأنه زائف... ووهمي، وملئ بالمشاهد العاصفة. ويبدأ ذلك التعريف بلفت النظر بالفعل بوضع يده على مجموعة من الاهتمامات الرومانتيكية. فالعمل الفني الرومانتيكي يفر من أسر الكلاسيكية عن طريق لجوئه المتجدد للعاطفة، بل ولجوئه الحاد لانفعالات الخوف والعذاب الكئيبة. ومن ثم، نجد أنه على حين كانت حركة التنوير مهتمة بالطبيعة باعتبارها أحد مصادر العقل والنظام (والذي يمثل علم الميكانيكا لنيوتون)، أصبح الفنان الرومانتيكي يرى في الطبيعة نموها المتناسق وتنوعها. وفي العمل الرومانتيكي يشكل الطبيعي والخارق للطبيعة صفيحة واحدة، في نفس الوقت الذي يضيف فيه هذا العمل على الطبيعة قوة عاطفية وروحية تمثل شيئاً غريباً على التفكير التنويري. بالإضافة إلى ذلك أصبحت الرومانسية علامة على تجدد الاهتمام بثقافة العصور الوسطى، بل حتى بثقافة العصور الوثنية. لذلك رجع الفن الرومانتيكي إلى الأسلوب القوطي^(**)، (بالألفا ذروتها في صورة بعث العمارة القوطية من جديد).

(*) Johnson المؤلف الإنجليزي، والناقد، وواضع المعاجم عاش من ١٧٠٩-١٧٨٤. (المترجم)

(**) الفن القوطي: Gothic art هو المرحلة الأخيرة من فنون العصور الوسطى، بدأ حوالي عام ١١٤٠ في باريس وانتشر خلال القرن الثالث عشر في بقية أنحاء أوروبا إلى أن أعقبه فن عصر النهضة خلال القرن =

----- (ر) -----

وعلى حين اهتمت الكلاسيكية بالأساطير الإغريقية والرومانية، وجهت الرومانسية اهتمامها إلى الأساطير الأوروبية والثقافة الشعبية (ومنها على سبيل المثال أسطورة نيبلونجليد^(*) Nibelungenlied الألمانية وأسطورة كاليبالا^(**) Kalevala الفنلندية). والأهم من ذلك كله، أن الرومانسية تحتفى بالفرد الاستثنائي النادر.

ويمثل فريدريك وأوجست فيلهلم فون شليجل F. and A. W. Von Schlegel، فيما كتباه في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، يمثلان شخصيتين رئيسيتين في تطور الرومانسية. فقد أكد كلاهما ما للعمل الفني الرومانتيكي من طبيعة تتسم بالسيولة والتجزيئ. فالشعر الرومانتيكي عند فريدريك في حالة صيرورة وتحول دائماً، ولذلك لا يمكن أن يحقق ذلك الكمال أو التماسك المتناغم الذي يطمح إليه الفن

= الخامس عشر في إيطاليا ثم في القرن السادس عشر في سائر البلاد الأوروبية. واستمرت الحقبة الميكرة من الفن القوطي حتى عام ١٢٠٠، وبلغ أوجه حوالي عام ١٢٥٠ وانتهت حقبة اللاحقة بعد عام ١٢٥٠. وتعد الكاتدرائية بطرازها المعماري الفريد وزخارفها المعمارية المتقنة وألواح زجاجها المعشق الملون الضخمة ومخرماتها الحجرية أعظم إسهامات الفن القوطي قاطبة. وقد امتد هذا الفن الذي تميز بالخروج على النسب الكلاسيكية اليونانية والرومانية، ليضم إلى العمارة: النحت والتصوير والزخرفة. (المراجع)

(*) أنشودة النيبلونج Nibelungen Lied. أهم المنجزات التي خلفتها العصور الوسطى وأجمل أثر من آثار الفن الألماني القديم ويطلق عليها البعض 'إلياذة الألمان'. وهي قصيدة ليست ذات أهمية تاريخية وأثنولوجية فحسب بل وأهمية إنسانية عميقة وأثر بالغ. ويرجع الفضل في معرفة الديانة القديمة التي انتشرت من أيسلندة إلى البلاد الإسكندنافية وألمانيا وفي معرفة أساطير سكان الشمال الأقدمين إلى الوثيقتين الهامتين: الإدا الكبرى Older Edda والإدا الصغرى Younger Edda اللتين يرجع تاريخهما إلى القرنين ١٢ و١٣. ومعنى كلمة 'إدا' هو الجودة، وفي تسميتها بالإدا ما يوحي بالطابع الخيالي الخرافي الذي يميز مجموعات القصص الشعبي الذي يحكى للأطفال بطريقة شائقة تتغنى بمآثر أجدادهم ومغامرات أبطالهم ومعجزات آلهتهم. (المراجع)

(**) ملحمة كاليبالا: ملحمة شعبية فنلندية ذات طابع وطني، تتكون من عدة قصائد، ألفها في صيغتها المعروفة الشاعر إلياس لونيروت E. Loennrot (ونشرت في عام ١٨٤٩). (المراجع)

الكلاسيكي. والعمل الفني الرومانتيكي عند أوجست شليجل ينحصر فى مشكلة التفسير، وفى استحالة فهمه فى نهاية المطاف. ويركز مذهب شليجل فى السخرية الرومانتيكية على ما للشعر من طبيعة متناقضة، مما يجعل استخراج هدف أو استنتاج معنى محدد منه أمراً غير ممكن أبداً. لذلك يحتفى شليجل بشيكسبير نظراً لموقفه الاستقلالى الساخر من شخصيات مسرحياته. إذ يصبح بذلك قادراً على أن يصور المواقف المتناقضة، من خلال إبراز التعارض بين الشخصيات، وبدون أن يحل عقدة المسرحية لصالح وجهة نظر واحدة.

وفى مجال الفلسفة، يمكن ربط ظهور الرومانسية بأعمال جان جاك روسو، سواء منها ما يتصل بنقده لما أحدثته الحضارة المعاصرة من تأثير مفسد للطبيعة الإنسانية، أو ما يتصل بنغمته العاطفية والوجدانية الملحوظة فى روايته بعنوان "جوليا، أوهلوان الجديدة"، وفى كتابه بعنوان "الاعترافات" وما به من محاولة لاستكشاف نفسه. وكما اهتم روسو بتصوير الحالة الطبيعية - التى كان عليها الناس قبل الحضارة - لكى يستعيد صورة لإنسانية نبيلة لم تفسدها الحضارة بعد، كذلك اهتم الفيلسوف الألمانى يوهان جوتفريد هردر (*) J. G. Herder (١٧٤٤-١٨٠٣) بالثقافات الشعبية وبالثقافات غير الأوروبية، معتبراً أن هذه الثقافات لا تمثل الأصول البدائية للحضارة الأوروبية، وإنما هى ثقافات لها شريعتها الخاصة بها، ولها كذلك معاييرها التى تحكم بها على المعنى وعلى التميز. وبينما كان هردر يكتب فى رد فعل لعقلانية كانط، كان كانط نفسه يرتبط بعلاقة معقدة بالرومانسية. فهو يُخضع الأخلاق للعقل، بينما نظريته عن المعرفة وعلم الجمال تستهدف الكشف عن حدود المعرفة والعقل (مقيدة بذلك نطاق البحث العلمى من أجل إتاحة مجال للإيمان).

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: الموسيقى الشعبية. (المراجع)

ومع أن آرثر شوبنهاور^(*) هو الذى أعاد تفسير فلسفة كانط بنفسه، فإنه يعد المثال الخالص للفيلسوف الرومانتيكي. وقد كان لتحليله التشاؤمى للعالم، والمبنى على ما تكابده الإرادة الإنسانية فيه من أشكال المعاناة المستمرة، وهو التفسير الذى يستفاد منه أن الفن يزودنا بأحد المصادر القليلة للراحة النفسية؛ هذا التحليل أثر تأثيراً كبيراً على ريتشارد فاغنر، الفنان الرومانتيكي الذى يعد النموذج الأسمى لمن جاء بعده من الفنانين الرومانتيكيين. (AE) للمزيد انظر: Le Huray and Day (١٩٨٧) و Honour (١٩٧٩) و Granston (١٩٩٤) و Rosen and Zerner (١٩٨٤) و Simpson (١٩٨٨) و Wu (١٩٩٤) و Lovejoy (١٩٨٤) و Praz (١٩٧٠).

Worldview

رؤية العالم

مصطلح مستمد من الكلمة الألمانية "Weltanschauung". وهو مصطلح اختزالى يدل على مجمل المعتقدات التى تشترك فى الإيمان بها جماعة من المتكلمين، التى تتصل

(*) شوبنهاور، آرثر Schopenhauer, Arthur (١٧٨٨ - ١٨٦٠) ميتافيزيقي ألماني، اشتهر بمقالاته اللاذعة وبكتابه الرئيسى "العالم إرادة ونكرة". ولد فى داننرج. وبعد موت والده كرس حياته للفلسفة تكريساً تاماً. والفيلسوفان اللذان أعجب بهما أكثر من سواهما هما كانط وأفلاطون، حتى لقد اعتبر نفسه الوريث الشرعى لكانط بينما كان يعتبر فشته وشيلنج وهيجل مفتصبين. ولقد وجد، مثلما وجد فشته، أنه لا يمكن قبول نظرية كانط فى الشئ، فى ذاته الذى لا يمكن معرفته، وظن أنه قد كشف عن الطبيعة الأولية لحقيقة العالم، ألا وهى الإرادة. وهذه الإرادة ليس لها هدف ولا غاية، وليست معقولة ولا عقلية وإنما هى كدح أعمى. ولقد كان لتفصيلات الميتافيزيقا والأخلاق عند شوبنهاور تأثير ضئيل، وتتلخص أهميته التاريخية فى نقاط ثلاث: أولاً، أنه كان أول فيلسوف أوروبى كبير اتخذ من الإلهاد موضوعاً، ثانياً، أنه كان أول فيلسوف أوروبى كبير استرعى انتباه الناس إلى الأوباشاد والبوذية وتأثر بهما تأثراً عميقاً. ولقد أبرز شوبنهاور جانب الألم الذى يستغرق كل شئ، فوصفه وصفاً آخر قبله، ولهذا فكثيراً ما يشار إليه على أنه متشائم. وأخيراً فإن مذهب الإرادة عند شوبنهاور كان فاتحة لزيادة الاهتمام بالإرادة وبالجانب اللاعقول فى الفلسفة الحديثة، فعلى الرغم من أن كيركجارد وفيشته، وفاينجر وجيمس، وبرجسون وفرويد لم يتفقوا معه اتفاقاً صريحاً، فإن أفكارهم تشير إلى أن شوبنهاور يمثل نقطة انتقال هامة فى تاريخ الفكر، فتصوره للعقل على أنه أداة للإرادة جدير بالذكر بصفة خاصة فى هذا الصدد. (المراجع)

بالعالم وبمعتقداتهم به. وتوجد علاقة وثيقة متبادلة بين هذه الفكرة وبين "لعبة اللغة" lan-guage game (انظر مادة: المعنى)، أو الخطاب أو النموذج النظرى. ومن ثم فإن موقع المرء من لعبة اللغة، أو الخطاب، أو النموذج النظرى هو الذى يزود المرء بالمعتقدات والمسلمات التى يحتاجها لتكوين رؤيته الخاصة بالعالم. ولهذا فإنه يترتب على تلك العلاقة الوثيقة المتبادلة أنه عند حدوث تغير فى لعبة اللغة، أو فى الخطاب، أو فى النموذج النظرى يحدث تغير مماثل فى رؤية المرء للعالم (انظر كذلك مادة: النسبية الثقافية). (SH)

Sport

الرياضة

هى بعض الأنشطة البدنية التى تخضع ممارستها لقوانين محددة وتستهدف اختبار البراعة الرياضية للمتنافسين، سواء فى مواجهة بعضهم البعض (كما فى حالة الرياضات التنافسية) أو فى مواجهة بعض التحديات الطبيعية أو غيرها (كما فى الرياضات غير التنافسية كتسلق الجبال مثلاً). والحقيقة أن التعريف الدقيق للرياضة محل خلاف كبير، سواء كموضوع للجدل فى إطار فلسفة الرياضة (انظر: Suits ١٩٧٨) وMorgan and Meier (١٩٩٥)، أو كمحل للاهتمام السياسى والاقتصادى لبعض المنظمات كاللجنة الأولمبية الدولية أو الاتحادات الرياضية الوطنية المختلفة (خاصة لأن تصنيف أحد الأنشطة ضمن الأنشطة الرياضية يتيح له الحصول على مصادر تمويل جديدة، كما يفتح أمامه فرصاً تنافسية جديدة أيضاً).

ويمكن تتبع تاريخ الألعاب الرياضية فى إطار التراث الغربى وصولاً - على الأقل - إلى الألعاب الأولمبية القديمة (التي نظمت لأول مرة العام ٧٧٦ قبل ميلاد المسيح)، ولكن يمكن القول بوجه عام بأن الرياضة تستمد جذورها الأولى من عمليات

التدريب على المهارات الحربية الأساسية. أما الرياضات الحديثة فبدأت تتخذ شكلها ابتداء من القرن السابع عشر، خاصة مع محاولة إحياء الألعاب الأولمبية في إنجلترا عام ١٦١٢. أما طوال العصور الحديثة السابقة على ذلك فيعتقد أن "الرياضة" كانت تعنى - فى الغالب - الرياضات ذات الطابع العسكرى، بما فى ذلك الصيد البرى والبحرى. والحقيقة أن التصورات الحديثة للأخلاق الرياضية قد انبثقت عن تلك الأنشطة. فالاعتبارات الأخلاقية المتضمنة فى كلمة "رياضى" أو فى منح "فرصة رياضية" ترتبط فى الحقيقة بمنح فرصة كافية للطرائد التى يسعى الصياد إلى قنصها (من قبيل عدم التصويب على الطائر وهو فى وضع الاستقرار على الأرض). وقد شهد القرن التاسع عشر تطور ممارسة الرياضة داخل المدارس الثانوية الداخلية الأهلية الإنجليزية، ومن ثم تطور نظم شبيهة بالألعاب الرياضية التنافسية التى نعرفها اليوم فى عالم الرياضة المعاصر (بما فى ذلك أيضاً نظم فرق المشجعين، التى تبلورت - فى جانب منها- على ولاء التلميذ لمدرسته، ومن ثم للفرق الرياضية لمدرسته). من هنا قامت صلة مهمة ظلت قائمة بين الرياضة والتعليم. وكانت الرياضة تعد فى لب تعاليم توماس أرنولد لمدرسة الرجبي^(*) أنها تهدف إلى أن تغرس فى الشباب روح الانتماء إلى الفريق والولاء له، وأن تعمل على تفريغ الطاقة الزائدة لدى أولئك الأولاد. كذلك ارتبطت الرياضة فى تلك الفترة بالدين. فنجد مثلاً أن فكرة "المسيحية القوية البدن" محل احتفاء كبير فى رواية "أيام دراسة توم براون"^(**) التى تتخذ من مدرسة الرجبي محوراً لها.

(*) الرجبي لعبة رياضية من ألعاب كرة القدم. ابتكرت فى مدرسة الرجبي Rugby school فى وسط إنجلترا عام ١٨٢٣، ومن هنا اكتسبت اسمها. يتنافس فى لعبها فريقان يتألف كل منهما من ١٥ عضواً (أو من ١٣) على ملعب مستطيل، فى كل طرف من طرفيه هدف على شكل حرف H. وكرة الرجبي بيضية الشكل، يحق للاعبين أن يدفعوها بأقدامهم وأن يَعدوا بها وهى فى أيديهم أيضاً. راجع أيضاً موسوعة المورد، مرجع سابق، مجلد ٧، ص ١٧٤. (المراجع)

(**) Tom Brown's School Days.

كما شهدت أواخر القرن التاسع عشر أيضاً نجاح بيير كوبرتان P.Coubertin في إحياء حركة الألعاب الأولمبية. وهنا نتبين مجدداً أن كوبرتان كان مدفوعاً إلى ذلك بأنجدة أخلاقية مركبة، تجلت على وجه الخصوص في التزامه بالهواية في ممارسة الألعاب الأولمبية. ولكننا نجد أن تاريخ الرياضة في القرن العشرين قد تحول في الغالب إلى تاريخ تآكل روح الهواية في الممارسة الرياضية، وتحولها في مواجهة الإمكانات الهائلة التي أتاحتها تغطية وسائل الاتصال الجماهيري للرياضة؛ تحولها إلى شكل أساسي من أشكال الترويج الجماهيري Whannel (١٩٩٢). كما عرف القرن العشرون تزايد الطابع السياسي للرياضة، خاصة من ناحية أهميتها للهوية القومية لأي شعب (انظر على سبيل المثال Jarvie and Burnett 2000).

وقد احتلت الرياضة مكانة دائمة - ولكنها مكانة هامشية - في حقل علم الاجتماع، وكانت القضايا محل اهتمام علم الاجتماع تطرح دائماً، من قبيل علاقة الرياضة بالطبقة Gruneau (١٩٨٢)، وعلاقتها بالعرق Jarvie (١٩٩١)، وبالنوع (الاجتماعي). وبالسلوك الجنسي (Cahn 1994; Messner 1992). كما طرحت قضية الرياضة كمهنة وعلاقتها بالاقتصاد (Cooke 1994). وكانت الدراسات السوسيولوجية المبكرة يغلب عليها طابع النظرية الوظيفية، على الرغم من أن أصحاب نظرية التفاعلية الرمزية قد اجتهدوا منذ ثلاثينيات القرن العشرين في تبني رؤى تفسيرية إلى الرياضة (على نحو ما فعل مثلاً جورج هربرت ميد في مؤلفاته). وخلال هذه الفترة المبكرة نفسها أبدى الماركسيون بعض الاهتمام بدراسة الرياضة، خاصة من ناحية علاقتها بالإيديولوجيا. ويمكن أن نصادف نظرية دقيقة محكمة - وإن تكن ذات منظور نقدي - في الرياضة في أعمال أحد مفكرى مدرسة فرانكفورت، مثل تيودور أدورنو (Morgan 1988). ثم جاء علم اجتماع الرياضة عند داننج Dunning لفكرة نوربرت

إلياس^(*) من "عملية قيام الحضارة" ليؤشر لبداية مرحلة أساسية في تطوير نظرية اجتماعية في الرياضة (Elias and Dunning 1986; Dunning and Rojek 1992). وينصب علم الاجتماع التشكيلي^(**) عند إلياس على دراسة عمليات ظهور وتبلور العلاقات الاجتماعية. وهكذا أسهمت أعمال إلياس في تصويب المشكلات التي نجمت عن عدم اهتمام النظرية الوظيفية بالفاعل (الاجتماعي) (انظر مادة : الفاعل والبناء)، دون أن يؤدي ذلك إلى المبالغة في استقلالية الفرد. فلم تكن هذه الرؤية تنظر للإنسان كفرد مستقل، وإنما ككائن يعتمد على الآخرين. فالأفراد يتصرفون في معية، ويتبع كل منهم الآخرين معه، ويعتمدون على بعضهم البعض، مكونين - من خلال ذلك- كيانات دينامية يخلقونها بأنفسهم ويدعمون بقاءها، وإن كانت هي نفسها تمثل قيداً عليهم. وقد تم تبني هذه الرؤية في دراسة التطور المبكر للرياضة وللتحكم في ممارسة العنف، وظهور الاحتراف في الرياضة وتطوره، وعصابات الشباب (العنفية) المشجعة لفرق كرة القدم، وأخيراً علاقة الرياضة بالعولة (انظر على سبيل المثال: Dunning 1999, Dunning and Sheard 1979).

وقد بدأت الدراسات الثقافية للرياضة تظهر في ثمانينيات القرن العشرين، حيث تزعمتها باحثات نسويات ركزن فيها الاهتمام على هيمنة الذكور على الرياضة، وعلى دور الرياضة في ترسيخ مفهوم النوع (الاجتماعي) وفي التأثير على السلوك الجنسي

(*) إلياس، نوربرت Elias, Norbert (١٨٩٧-١٩٩٠) عالم اجتماع ألماني الأصل، هاجر من موطنه بعد تولى النازيين الحكم. عمل أستاذاً لعلم الاجتماع في عدد من الجامعات. أهم مؤلفاته كتاب "عملية قيام الحضارة" الذي نشر باللغة الألمانية عام ١٩٣٩، وهو الكتاب الذي لاقى إهمالاً طويلاً إلى أن تُرجم إلى الإنجليزية مرتين الأولى عام ١٩٧٨، والثانية عام ١٩٨٢. (المراجع)

(**) Configurational Sociology انظر المزيد عنه في جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٢٠٨-٢٠٩. (المراجع)

انظر: Hargreaves 1994, 2000, 2006. إذ يذهب كل من هارجريفز وماكدونالد إلى أن اتجاه الدراسات الثقافية قد استلهم -على الصعيد النظري- نظرية جرامشي عن الهيمنة، مما ترتب عليه الاعتراف بالرياضة كمجال للصراع الثقافي والسياسي، الذي ينطوي أحياناً على ممارسة للقمع السياسي أو يصبح مصدراً من مصادره (٢٠٠٢). ويمكن أن ندرج ضمن تراث الدراسات الثقافية هذا بحوث جرانت جارفي عن الألعاب الرياضية الجبلية ولعبة الشنتي^(*)، وبالتالي عن علاقة الرياضة بالمجتمعات المحلية وبالهويات المحلية Jarvie (٢٠٠٠).

ولعل كتاب جيمس: وراء الحدود^(**) سيظل أروع وأهم ما كتب عن الرياضة وأكثرها إثارة للفكر حول الموضوع. وقد كانت أهمية الكريكيت^(***) بالنسبة لتتشنه جيمس وطوال حياته كبالع فيما بعد هي العامود الفقري لجملة من التاملات والآراء عن الهوية الشخصية والوطنية (إذ يعمل جيمس على تهدئة التوترات الثائرة في داخله بين أصوله الكاريبية وحبه للأدب الإنجليزي والثقافة الإنجليزية)، وعن السياسة، بل حتى عن علم الجمال (مع فصل متميز في الكتاب عن الكريكيت كشكل فني). (AE) للمزيد انظر: Morgan (١٩٩٤) وGiulianotti (٢٠٠٥) وCoakley and Dunning (٢٠٠٢).

(*) لعبة Shinty لعبة رياضية إنجليزية تشبه الهوكي، تلعب بكرة ومضرب معقوف، وتتسم عوارض المرمى بارتفاعها عن عوارض مرمى الهوكي (المراجع)

(**) C.L.R. James, Beyond a Boundary, 1987.

(***) الكريكيت لعبة رياضية إنجليزية وطنية من ألعاب الكرة والمضرب. يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر للميلاد. يتبارى في لعبها فريقان يتألف كل منهما من ١١ لاعباً على أرض مجززة العشب، ببيضوية الشكل، ذات هدفين يبعد أحدهما عن الآخر حوالي ٢٠ متراً. واللعبة ذات قواعد شديدة التعقيد، قد تتناول مدة مبارياتها فتسنغرق ثلاثة أيام حيناً وخمسة أيام حيناً. انظر المزيد في موسوعة المورد، مجلد ٣، ص ١١٧. (المراجع)

الزراعة

Agriculture

لما كانت الدراسات الثقافية تولى أهمية كبرى للحياة الحضرية فى المجتمعات الصناعية، وبالحياة اليومية كما يمارسها السواد الأعظم من السكان، فليس لدى الدراسات الثقافية سوى القليل نسبياً الذى يمكن أن تقوله عن الزراعة (وذلك فى مقابل الكثير الذى يمكن أن تقوله الأنثروبولوجيا الثقافية مثلاً). ومع هذا، فجدير بالملاحظة أن الزراعة إنما هى شكل أساسى من أشكال الثقافة (على الأقل كما يوحى بذلك اسمها)، وأنها تحتل موقعاً مهماً فى سعى البشر لمواجهة الطبيعة وتطويعها لخدمة غاياتهم. لذلك تعد الزراعة وثيقة الصلة كمادة بحث لأغلب الثقافات الراقية والثقافات الشعبية أو الجماهيرية (ابتداءً من مؤلف فيرجيل بعنوان جيورجيكس Georgics فى القرن الأول قبل الميلاد، ومروراً بديوان الشعر الذى كتبه توماس هاردى T. Hardy بعنوان وسكس Wessex^(*) ووصولاً إلى المسلسل الإذاعى الإنجليزى (الخالص فى إنجليزيتيه) والمذاع تحت عنوان: رماة السهام The Archers (من حكايات الحياة اليومية لأهل الريف). بل إن الزراعة - إلى جانب ذلك - لا تزال تمثل خط الحدود الذى يتم عنده التفاعل المتبادل بين الثقافة والطبيعة. الأمر الذى نجد له مثلاً واضحاً فيما نراه فى أيامنا هذه من المخاوف المتعلقة بالمعالجة الجينية^(**) المحاصيل الزراعية ولحيوانات المزارع. وقد تُخفى أمثال هذه المخاوف عنا ملاحظة أن المنتجات الزراعية الحالية إنما تمثل فى ذاتها محصلة قرون من المعالجات الثقافية. (AE) للمزيد انظر: Newby (١٩٨٨).

(*) ديوان شعر بعنوان "قصائد وسكس Wessex Poems" كتبه الكاتب والشاعر الإنجليزى الكبير توماس هاردى سنة ١٨٩٨ عن مسقط رأسه مقاطعة وسكس. (المترجم)

(**) الهندسة الوراثية للخلايا الجينية. (المترجم)

كان كانط(*) أشهر من اهتم بتأمل معنى السامي وأهميته، خاصة في كتابه "نقد الحكم" (فقرة ١٨ وما بعدها). وإذا أردنا تبسيط معنى هذا المصطلح، فإن اللحظة السامية لحصول المعرفة هي اللحظة التي يعرض فيها شيء ما على العقل الذي لا يستطيع، بدوره، أن يستوعبه أو يفهمه إلا في ضوء مدى مطلق يستعصى على التصور في ذاته (كان يكون مثلاً كبير الحجم بصورة رهيبة): "وهذا الشيء يكون سامياً، بحيث يكون كل شيء آخر صغيراً بالمقارنة به" (نفس المرجع، فقرة ٥). وبناءً على هذا الاعتبار، فإن اللحظة السامية هي تلك التي تستخدم القدرات الجمالية للعقل الإنساني أكثر مما تستخدم القدرات المعرفية/ الإمبريقية: فهذه اللحظة تجسد إحساساً ما.

وفي نطاق النموذج الكانطي يوجد نمطان لتصوير شيء ما بوصفه سامياً: النمط الديناميكي والنمط الحسابي أو الرياضي. ويرتبط النمط الرياضي بمفهوم الكبر أو الضخامة، وذلك من حيث إن ما هو سام من الوجهة الرياضية يتضمن تمثل شيء ذو ضخامة مطلقة (مثل الأشياء الهائلة الحجم) إلى حد يعجز عنده فهمنا عن تقديم صورة ذهنية قادرة على استيعابه. وفي مقابل ذلك يقتضي نمط السامي الديناميكي تصور مثل هذه الأحجام من حيث قوتها أو قدرتها (والمتمثلة في تلك القدرة المربعة للطبيعة،

(*) عمانويل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤). مد من أعظم - إن لم يكن أعظم - الفلاسفة المحدثين. كان له تأثير عميق ومستمر على الفلسفة نفسها وعلى أغلب العلوم الاجتماعية، ومن بينها علم الاجتماع بطبيعة الحال. يتمثل جوهر الفلسفة النقدية عند كانط - بصفة عامة - في التوليف بين تراث اتجاهاين كبيرين متنافسين هما النزعة الإمبريقية والمذهب العقلي، وهما الاتجاهان اللذان سيطرا على نظرية المعرفة (أو النظرية الفلسفية في المعرفة) في زمن كانط. راجع المزيد عن كانط، خاصة دلالات آرائه للعلوم الاجتماعية، في موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١١٩٨-١٢٠١. (المراجع)

كالبراكين، والعواصف، والأعاصير)، وهى الأحجام التى لا يمكن كذلك للعقل استيعابها داخل صورة ذهنية.

والسامى - فى جوهره - عبارة عن نتيجة لمقتضيات عقلنا، من حيث إن المنطق يقتضى أن يتم استحضار الذهن لأى شىء من خلال عملية التخيل (وهى العملية التى تصوغ شكل مداركنا الإمبريقية للعالم المحيط بنا) الذى يستحضره فى صورة كيان كلى. ويضاف إلى ذلك أن التخيل نفسه يعجز عن القيام بهذا العمل لأنه مشدود الوثاق إلى عالم الطبيعة الإمبريقى، ولأنه يستحيل - داخل هذا النطاق المحدود أن يتحقق استحضار ذهنى إمبريقى للإحساس بالمدى المطلق الذى هو جزء من لوازم السامى، أى أنه من المستحيل على المستوى الإمبريقى الاستحضار الذهنى لشيء يتصف بالضخامة المطلقة، وذلك لأن العالم الإمبريقى نفسه لا يمكن فهمه إلا وفقاً لعلاقات الضخامة النسبية لا المطلقة. لذلك يرى كانط أن اللحظة السامية، وما ينجم عنها من إحساس نابع منها، لا تكمن فى الشيء الفعلى الذى تسبب فى حدوثها، بل تكمن فى العقل الإنسانى: "إنها ضخامة لا تساوى إلا نفسها فقط. الأمر الذى يترتب عليه أنه لا ينبغي التماس السامى فى الأشياء الموجودة فى الطبيعة، بل يجب أن نلتمسه فى أفكارنا وحدها" (المرجع السابق). وهكذا يتضمن السامى الاستحضار الذهنى لفكرة لا يمكن أن يكون لها مدلول إمبريقى تشير إليه. والحق أن مصدر السامى هو مصدر الأفكار (ومنها فكرة الضخامة المطلقة).

ويرى كانط أن هذه السلسلة من الاستدلالات المنطقية تقودنا إلى نتيجتين: أولاً، حين نعتبر أنفسنا "كائنات طبيعية"، عندها تتيح لنا اللحظة السامية أن نتعرف على عجزنا المادى" (المرجع السابق، فقرة ٢٨)، أى أنها تظهر بوضوح محدودية وجودنا الإنسانى عندما نتأمل فى إطار ما تتصف به الطبيعة من عظمة مطلقة رهيبة. كما نجد - من ناحية أخرى - أنه فى مقابل هذا المعنى، وبناءً على أن

الشعور السامى لا يكمن فى الطبيعة، وإنما يكمن فى العقل البشرى فقط، فإن السامى يتيح لنا فى نفس الوقت أن نعتبر أنفسنا مستقلين إلى حد ما عن الطبيعة، وهو الأمر الذى يظهر بوضوح تفوقنا عليها: "وهذا يحافظ على إنسانيتنا من الامتهان، على الرغم من أن الإنسان مضطر للتسليم بتلك السيطرة (التي للطبيعة)" (نفس المرجع).

وهكذا يقوم هذا الشعور السامى بوظيفته كوسيلة لترقية الخيال الإنسانى على النحو الذى يتم به تعويض شعور الأسى الذى يلازمه (أعنى به الشعور بالعجز فى مواجهة الطبيعة) لكونه يمنحنا - أيضاً - شعوراً بالبهجة، وهو الشعور المتمثل فى أن "هذا الحكم بالذات ... متناغم (فى حد ذاته) مع الأفكار العقلية الرشيدة" (نفس المرجع، فقرة ٢٧). ومن ثم يطابق كائط بين العقل وبين المقياس المطلق الذى يقاس به كل ما هو عظيم - الذى يوصف بالسامى. زد على ذلك، أنه لما كان اتصاف الإنسان بالرشد شرطاً مسبقاً للحصول على الحرية، ولما كانت هذه الحرية تجعلنا كائنات مهذبة وعلى خلق، لذلك كان تصور كائط للسامى مرتبطاً بتصوره للطبيعة وللأهداف التى ترمى الثقافة إلى تحقيقها.

ومؤخراً خطى تحليل كائط للسامى بالتأييد من جانب بعض المفكرين - مثل جان فرانسوا ليوتار - باعتباره وسيلة لتفسير وإيضاح نزعة ما بعد الحداثة. (PS) للمزيد انظر: Lyotard (١٩٩٤) و Kant (١٩٨٧) .

Irony

السخرية / أو التهكم

هذا المصطلح (فى صيغته الإنجليزية) مشتق من اللفظ الإغريقى Eironeia بمعنى "محاكاة - أو ادعاء - الجهل". ومع ذلك فإن تعريفه الدقيق أمر محير. والسخرية فى أبسط تعريف: شكل من أشكال الكلام فيه يكون ما ينطق به القائل عكس ما يعنيه

(فيشير - مثلاً - إلى الطوال بأنهم قصار، وإلى الجبناء بأنهم شجعان، وهكذا). ولكن هذا الأسلوب - القائم على استعمال اللفظ في عكس معناه - لا يلتفت بالقدر الواجب لما في السخرية من ذكاء وبراعة. فقد يقول الكاذب أو المحتال عكس ما يغنيه، إلا أن الكاذب لا يستعمل - في هذه الحالة - أسلوب السخرية، وذلك لأن هؤلاء الذين يستقبلون هذا القول كنوع من السخرية، يدركون ما فيه من قلب للمعاني. لهذا فإن مسألة قلب المعنى تصبح ذات أهمية في هذا الشأن - فلماذا تقول عكس ما تعنيه، إن لم تكن تحاول خداع سامعيك؟ وللإجابة على هذا السؤال يمكن طرح سببين:

أولهما: أن السخرية شكل من أشكال التهكم^(*) أو التلقيق اللاذع. فتلقب الجبناء بلقب الشجعان - على سبيل التهكم - إنما هو استهزاء بافتقارهم إلى الشجاعة. كما يساعد أسلوب السخرية على إنقاذ المتكلم من التورط في الظهور بمظهر صاحب الرأي القاطع، ويساعد - إلى حد ما - على استبقاء المتكلم بمعزل عن القضايا التي يعلق عليها. (ومن الأمثلة الكلاسيكية على الأسلوب الأدبي في السخرية رواية "الاقتراح البسيط" Modest Proposal لسويفت Swift (١٧٢٩)، التي يدافع فيها عن التهام الأطفال الصغار في أيرلنده بوصفه حلاً للمشكلة السكانية. فهو بهذا الشكل يسخر من الحلول الموجودة "للمشكلة الأيرلندية"، ويدون أن يقدم حلاً جدياً).

وثانيهما: أن إدراك أسلوب السخرية على حقيقته قد يساعد على تمييز الأعضاء المحنكين الموجودين في جماعة داخلية عن غيرهم من الأعضاء السذج الذين يفتقرون إلى هذه المهارة.

ولعل بالإمكان ملاحظة معنيين خاصين من معاني أسلوب السخرية. "الأسلوب السقراطي في السخرية" يشير إلى طريقة في الجدل كان يستخدمها سقراط، خاصة

(*) اللفظ العامي المصري: نازرة هو أنسب كلمة للتعبير عن هذا المعنى Mockery. (المترجم)

على النحو الذى أورده أفلاطون فى المحاورات الأولى. إذ يتظاهر سقراط بالجهل بالموضوع الذى تدور حوله المحاوره، كما يتظاهر بالتعاطف مع رأى محاوره بزعم هذا المحاور خبيراً فى هذا الموضوع. ويسمح هذا التظاهر لسقراط بإلقاء الأسئلة على ضحاياه، وهو يلاحقهم بها فى هجمات متكررة إلى أن تنهار مزاعمهم وأفكارهم المتعارضة وتنتهى إلى ضرب من التناقض والتناظر المنطقي. ويرتبط أسلوب السخرية الرومانسيّة - على وجه الخصوص - بالشعراء المتفلسفين فى أوائل القرن التاسع عشر فى ألمانيا، ومنهم هولدرلين^(*) Hölderlin وفريدريك شليجل^(**). ويرتبط هذا الأسلوب فى السخرية - بسبب اعتماده على أسلوب سقراط - ارتباطاً ظاهراً بالغموض، والشك، وتفتيت المعنى. ويرى شليجل أنه "ينبغي أن يكون كل شيء فى أسلوب السخرية هائلاً وجاداً، وواضحاً بلا خفاء وخفياً فى دهاء". أو قل بجانب ذلك: "إن أسلوب السخرية هو الشكل الذى تتبدى فيه المفارقة. والمفارقة هى كل شيء يعد جيداً وعظيماً فى نفس الوقت" (سيمبسون Simpson ١٩٨٨: ١٨٢). وهكذا يقوم أسلوب السخرية بتمزيق المعانى المسلم بها للأقوال والكتابات كاشفاً عما فيها من زيف وتكلف. وإن السبب الذى أدى إلى إدخال أسلوب السخرية فى مجال النظرية الأدبية المعاصرة، يتمثل فيما يتصف به هذا الأسلوب من تأكيد الطبيعة الإشكالية والشديدة الغموض لتفسير أى قول أو نص. لهذا يرى بارت أن السخرية هى "جوهر الكتابة"، من حيث إنها تكشف عجز الكاتب عن التحكم فى تفسير النص. (AE) للمزيد انظر: Kierkegaard (١٩٦٦).

(*) فريدريك هولدرلين Friedrich Hölderlin (١٧٧٠-١٨٤٣) من كبار الشعراء الفنانيين الألمان. (المراجع)

(**) وفريدريك شليجل Friedrich von Schlegel (١٧٧٢-١٨٢٩) من كبار الشعراء الفنانيين الألمان الذين مهدوا الطريق للاتجاه الرومانسى فى الأدب المعاصر. (المراجع)

Narrative

السرد

هو تنظيم اللغة بإفراغها في بناء يمكن من خلاله نقل وصف للأحداث بأسلوب مترابط ومنظم. وعلى ذلك، فإن أشكال السرد تثير فكرة التعاقب: "فقد حدث هذا... ثم حدث هذا..." إلى آخره. وثمة مجموعة متنوعة من النظريات التي تفسر السرد، منها مثلاً نظرية جيرار جينيت Gérard Genette، التي تُفيض في شرح السرد وفقاً للنموذج النظري للبنىوية، ومن ثم تزودنا بتفسير علمي للشكل السردى (وهو المبحث العلمى المسمى علم السرد: "الناراتولوجيا" Narratology). وبناءً على هذا المفهوم يتكون السرد من العلاقات المنتظمة (بنائياً) بين بعض الأمور كالأحداث المروية، ومن التعاقب التاريخي لوقوع تلك الأحداث، والتعاقب الزمنى المقدم فى طوايا هذا السرد، وما للقاص من منظور فكرى ومزاج نفسى، والعلاقة بين كتاب الأعمال السردية وجمهورهم، والنشاط المتمثل فى السرد نفسه.

ومن بين المفكرين المرتبطين بنزعة ما بعد الحداثة وما بعد البنىوية، سعى رولان بارت إلى إحداث قطيعة مع النموذج العلمى الذى تأخذ به النزعة البنىوية، واستبدل بها التأكيد على أهمية دور القارئ فى توليد المعنى. هذا فى الوقت الذى يتسم فيه نقاش جان فرانسوا ليوتار لما هو بعد حداثى - والوارد فى كتابه "الطرف ما بعد الحداثى" - (١٩٧٩) بالنظرة التى ترى أن أشكال السرد تتصف بشيء من التعددية وعدم التجانس، لا يمكننا التغلب عليه عن طريق اللجوء إلى أحد أشكال "ما فوق السرد" (أو أنساق التفسير الكبرى). وبناءً على ذلك، فإن مكونات شكل سردي معين لا يمكن الحكم عليها بنفس المقاييس المتبعة مع غيره من الأشكال السردية. والطرف ما بعد الحداثى - بدوره - يعد فى نظر ليوتار ذلك الطرف الذى يجسد زوال أشكال السرد الكلية واستبدالها بعدد كبير من أشكال السرد المحدودة التى ترفض ادعاء اتصافها بصفة الشمولية أو العمومية. كذلك أشار بعض الكتاب - مثل هومى بابا

- Homi Bhabha إلى العلاقة القائمة بين أشكال السرد وقضايا الهوية، وبالأساس في صلتها بمجال القومية وما بعد الكولونيالية. (PS) للمزيد انظر: Genette (١٩٨٠) و Barthes (١٩٧٤) و Ricoeur (١٩٨٤-١٩٨٨) و Lyotard (١٩٨٩).

Authority

السلطة

مفهوم في علم الاجتماع وفي الفلسفة السياسية يشير إلى الاستخدام الشرعي لل قوة. لذلك فإن أى شخص حر ومسئول عن أعماله(*) يخضع بإرادته، أو يطيع أوامر شخص آخر يعتقد أنه من أصحاب السلطة، وإطاعة السلطة أمر لا يُفرض بالإجبار أو التهديد بالعنف. وفي مجال النظرية الاجتماعية، كان فيبر أول من قدم تحليلاً للسلطة. وقد ركز فيه على الأسباب التي تجعل أشخاصاً معينين يحوزون السلطة، وهو يقدم في تفسيره لهذا الأمر ثلاثة أنماط مثالية للسلطة:

١- فقد تكون السلطة سلطة قانونية رشيدة، وفي هذه الحالة تكون السلطة للقواعد أو القوانين، ويتم ذلك - عادة - من خلال عملية منتظمة وعلنية لصياغة القوانين أو من خلال إثبات ضرورة القواعد القائمة وكفافتها (كما هو الحال في النظم البيروقراطية).

٢- هناك بجانب ذلك نمط السلطة التقليدية التي تخضع هي الأخرى لقواعد محددة تحديداً جيداً بدرجة أو بأخرى، لكن أمثال تلك القواعد تنهض على ما في التراث من الممارسات والعادات الاجتماعية، والمعتقدات المتصلة بتفسير نشأة الكون ونواميسه، وليس على أصول مستمدة من العمليات العامة الحديثة لصياغة القوانين.

(*) لكلمة Agent استعمالات عديدة، وأنسب المعاني لها في هذا السياق المعنى القانوني، وهو: الشخص الحر المسئول عما يعمله. (المترجم)

٢- النمط الثالث هو السلطة الكاريزمية (الملهمة)^(*) وهى لا تقوم على أساس من القواعد أو القوانين، بل تستند إلى شخصية قائد معين (وعلى ما يتصف به من قداسة أو بطولة) ومن ثم فإنها تقوم على أساس ما يقدمه هذا الإنسان من تعاليم تُتبع أو أسوة يُقتدى بها.

وفى الفلسفة السياسية حظيت قضية السلطة لدى هوبز بصياغة حديثة ذات أهمية بالغة. فقد طرح هوبز - بأسلوب مؤثر - قضية الحاجة إلى السلطة (وربما كان ذلك فى مواجهة الاضطراب الاجتماعى الناجم عن الحرب الأهلية على أيامه)، كما تساءل عن القواعد التى على أساسها يتعين أن يخضع الأفراد لهذه السلطة. وإذا استعملنا لغة فيبر، قلنا إن رأى هوبز فى السلطة يعنى أنه يقصد بها السلطة القانونية الرشيدة. وهى - عند هوبز - رشيدة بمعنى أنها تقوم بصياغة عقد اجتماعى حر مع حاكم، بشرط أن يحافظ هذا الحاكم على النظام الاجتماعى ويؤمن السلام للناس.

وقد تم تطوير هذا الاتجاه فى التراث الليبرالى، حيث يُنظر إلى الدولة على أنها تمتلك من السلطة بمقدار ما تحظى به قواعدها وقوانينها من القبول لدى كافة مواطنيها الراشدين، بصرف النظر عن أى من المصالح الخاصة التى يرغبون فى تحقيقها. وتصور جون رولز John Rawls (١٩٧٢). وجود "وضع اجتماعى أصلى" عايشه المواطنون أصحاب الحق واستطاعوا فيه أن ينشئوا مجتمعاً غير مدركين لما عندهم من مواهب ومن مصالح خاصة؛ ورأى رولز أن هذا الوضع يمثل - بالنسبة لتلك الأراء الخاصة بالعقد الاجتماعى - أكثر صور هذا العقد تطوراً ورقياً.

فى مقابل ذلك تؤمن الفلسفة السياسية ذات النزعة الجماعية الاشتراكية بأولوية وتفوق السلطة التقليدية. فبخلاف المذهب الليبرالى، يُفترض - فى النزعة الجماعية

(*) Charismatic Authority أى السلطة القائمة على الموهبة القيادية التى يتمتع بها الزعيم أو القائد أو النبى، وتكفل له انبهار الجماهير بشخصه وانقيادهم له. (المترجم)

الاشتراكية - أن الأشخاص يشكلون جزء لا يتجزأ من مجتمع معين وثقافة معينة. من أجل ذلك فإن حكم عضو الجماعة على السلطة الموجودة، يعتمد على القيم التي يسلم بها المجتمع الذي ينتسب إليه.

أما "الواقعيون" السياسيون، من أمثال فلغريدو باريتو وجيتانو موسكا، فيرفضون التفرقة بين السلطة والقوة، زاعمين أنه في نهاية الأمر يتم فرض الخضوع التام والطاعة الكاملة على عموم أعضاء المجتمع. والتفرقة بين السلطة والقوة مسألة تنظر إليها بعض التحليلات الإيديولوجية بالشك والتحفظ. ففي الماركسية خصوصاً، نجد أنها طرقت موضوع احتمال أن يتعرض أفراد المجتمع للقسر والإجبار، ليس فقط عن طريق استعمال التهديد بالعنف البدني، ولكن عن طريق ما تمارسه جماعة مهيمنة أو طبقة مهيمنة من تحكم في أفكار الناس (من خلال التحكم في التعليم، ووسائل الاتصال الجماهيرية، والدين مثلاً). وقد تبدو الدولة في عيون مواطنيها متمتعة بالسلطة، لمجرد أن هؤلاء المواطنين قد حرموا من الحصول على الإمكانيات الثقافية المناسبة والمعلومات اللازمة لتمكينهم من إدراك أنها لا تعمل وفقاً لما تقتضيه مصالحهم. وقد قام هابرماس (١٩٧٦/ب) بتحليل ما تعانيه الدولة من صعوبة متزايدة في الحفاظ على سلطتها، وذلك في إطار نظريته عن أزمة إضفاء الشرعية. (AE) للمزيد انظر: Barry (١٩٨٩) و Hampton (١٩٩٧).

Commodity

السلعة

السلعة هي شيء (أو خدمة) يتم إنتاجه للتبادل (أو للسوق) وليس للاستهلاك أو الاستخدام من قبل منتج. و"السلعة" هي أكثر المفاهيم أهمية في علم الاقتصاد لدى ماركس، لأنها تمثل مقدمة تحليله للرأسمالية، وخاصة تحليله للدور الذي تقوم به السلع وتبادل السلع في عملية استغلال البروليتاريا (انظر مادة: تقديس السلع). (AE)

السلوك الجنسى

Sexuality

لعل مصطلح "السلوك الجنسى" يكون أشد ما أسىء فهمه من مفاهيم التحليل النفسى عند فرويد. إذ يشيع دمج مع مصطلح "التناسلى". والسلوك الجنسى عند فرويد مصطلح ذو دلالة أوسع: ذلك أن التناسلى مجرد جانب واحد من جوانب السلوك الجنسى. ويبنى أصحاب الاتجاه الجنسى الشامل نقدهم الموجه للتحليل النفسى على أساس الفكرة التى تقول إن فرويد يختزل كل سلوك فيرجعه إلى السلوك الجنسى (أى إلى التناسلى). وفى كتابه بعنوان "ثلاث مقالات فى نظرية السلوك الجنسى" (١٩٠٥)، يوسع فرويد نطاق السلوك الجنسى ليشمل السلوك الجنسى للطفل فى مراحل طفولته المبكرة، والانحراف الجنسى متعدد الأشكال، ووظيفة الأعراض (التي تمثل الحياة الجنسية للذات) والتنوع الشديد والانحرافات الشديدة المتعلقة باختيار الموضوع الذى يوجه إليه السلوك الجنسى. والسلوك الجنسى لا يمكن اختزاله إلى مجرد سلوك غريزى، وذلك لأن الرابطة بين الدافع أو الشهوة والموضوع - الذى توجه إليه - رابطة تحكمية. ولا يقتصر السلوك الجنسى على كونه يشكل إطار الصورة الظاهرية للعرض العصابى، بل يساعد المحلل النفسى كذلك على فهم علة هذا العرض. وقد كان إصرار فرويد على رد كافة أشكال الأمراض العصبية إلى أسباب جنسية، هو الذى أدى إلى حدوث الفارقة بين فرويد وتابعيه الأولين: الفريد أدلر Adler وكارل جوستاف يونج Jung.

ويتم وصف السلوك الجنسى - من وجهة نظر التحليل النفسى - وفق نموذج تطورى يتقدم الطفل فيه خلال مراحل مختلفة: المرحلة الفمية، والمرحلة الشرجية، ومرحلة الأعضاء التناسلية، والمرحلة القضيبية. وتقوم الاضطرابات المتصلة بأى من هذه المستويات بتحديد توزيعات اللبىدو أو الشهوة الجنسية التى تشكل حياة الفرد. وقد كان ينظر إلى الأمراض العصبية فى بادئ الأمر بوصفها من صور النكوص إلى

واحد من مستويات التثبيت الليبىدى المذكورة. والذي يجعل هذا النكوص أمراً حتماً هو عجز الذات عن الاستجابة لمطالب "الواقع". ويستنتج من ذلك أن السلوك الجنسى يكشف عن نفسه ابتداءً من فترة الطفولة المبكرة. أما مطالب الدافع أو الشهوة الجنسية فى فترة ما قبل النضج فيتم كبتها فى المرحلة المعروفة بالمرحلة الأوديبية، ويتحول الطفل من التوحد "الخيالى" مع الأم إلى التوحد "الرمزى" مع الأب. ثم تعقب هذه الفترة فترة من الكمون. وفى مرحلة البلوغ يعود السلوك الجنسى فيفرض على الذات مطالب ملحة شديدة مما يؤدى إلى إحياء أنماط السلوك التى كانت تشكل المنبت الليبىدى لمرحلة الطفولة.

وفى حالة الأفراد الذين يخفقون فى العبور الأوديبى السليم من التوحد بالأم إلى التوحد بالأب، تتخذ الانطباعات الجنسية الخاصة بمرحلة الطفولة المبكرة مظهر الصدمة النفسية أثناء مرحلة البلوغ، مما ينتج عنه عودة مطالب الشهوة الجنسية المكبوتة. ويفضى هذا الوضع إلى التسبب فى ظهور بعض الأعراض المرضية العصابية، التى تشكل الحياة الجنسية للفرد. ويمكن - أيضاً - تصنيف ما ترمز له أشكال العصاب وفقاً لنموذج من نماذج المراحل. مثال ذلك: أنه بالنسبة لعصاب التثبيت (الليبىدى) تعد الهستيريا (العُصاب الهستيرى) رمزاً للمرحلة الفمية، كما يعد الوسواس القهرى رمزاً للمرحلة الشرجية.

ومع ذلك، فقد ارتاب لكان فى صحة نموذج المراحل البيولوجية فى تفسير تطور السلوك الجنسى للطفل، دون أن يستطيع التخلص منه تماماً. وفى النموذج الذى اقترحه لكان، نجد أنه على الرغم من أن الطفل لابد أن يمر عبر هذه المراحل جميعاً، فإنه لا يوجد شئ بيولوجى - على وجه الخصوص - له صلة بهذا التطور فى السلوك الجنسى. ذلك أن الخوف من الإخصاء هو الذى يربط بين الفرد وكل مرحلة من هذه "المراحل". فالإخصاء - عند لكان - له بُعد رمزى بصفة خاصة. والإخصاء الرمزى

بمثابة الفصل الحاد بين الفرد وموضوع الرغبة الخاص به، وذلك حتى لا يتمكن موضوع بعينه من الاستنفاد الكامل لاستمرارية الدافع أو الشهوة. لذا فإن الدراما الأوديبية هي العالم الرمزي الذي يتم فيه تغريب الفرد عن رغبته الجنسية لأول مرة. ويترتب على ذلك أن يصبح الدافع الجنسي عاجزاً عن أن يبحث - الإشباع رغبته - إلا عن موضوع واحد فقط، وذلك عن طريق محاكاة الموضوع "الأصلي" المفقود محاكاة غامضة أو عن طريق تحريفه^(*). لهذا السبب لا يمكن اختزال السلوك الجنسي إلى مجرد سلوك غريزي، فهو - بدلاً من ذلك - يتخذ صورة العلاقة الجدلية التي تربط الفرد بكل ما هو غير موجود، أو محظور، أو مستحيل. (SKS) للمزيد انظر: La planche and Pontalis (١٩٧٣) و Freud (١٩٧٧ و ١٩٧٩).

Cinema

السينما

تطورت الصور المتحركة عن عروض الفوانيس السحرية التي كانت تقام في الساحات المخصصة للمعارض والأسواق الموسمية، وفي المسارح المخصصة للمسرحيات الهزلية وحفلات المنوعات، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر. وفي بداية الحرب العالمية الأولى، تطورت الأفلام من مجرد أفلام قصيرة مدتها دقائق معدودة إلى عروض تمثيلية مدتها تسعون دقيقة أو أكثر. وشهدت الفترة التي أعقبت تلك الحرب حدثين كبيرين، أولهما تأسيس مدينة هوليوود كمركز عالمي للإنتاج السينمائي، والآخر تطور وسائل الكتابة القصصية البالغة الرقي، من خلال إنجازات متعددة ليس أقلها أعمال التعبيريين الألمان وصناع السينما السوفيت أمثال أيزنشتاين Eisenstein

(*) التحريف Distortion يعني تكيف الموضوع وتحويله إلى شكل مقبول في الوعي عن طريق الحيل النفسية. انظر: عبدالمعزم الحفنى، موسوعة علم النفس والتحليل النفسى وقاموس أطلس الموسوعى. (المراجع)

ويودوفكين Pudovkin. وفي أواخر عشرينيات القرن العشرين تم إنتاج أول الأفلام الناطقة، كما تم إدخال أسلوب الأفلام الملونة (التكنيكولور Technicolor) لأول مرة في الثلاثينيات.

وطوال هذه الفترة المبكرة كانت الكتابة عن السينما تركز على حالة السينما كشكل فني، ومن ثم على الخبرة الجمالية المرتبطة لها، وتركز كذلك على تطور الأساليب الفنية السينمائية، مثل تشغيل الكاميرا وإدارتها، وطول اللقطات وطبيعتها، وعملية التوليف أو تركيب أجزاء الفيلم (التي لا تقتصر على دور المونتاج). وكان يضاف إلى هذه الكتابات التحليلية المهمة بالأساليب الفنية والقضايا الجمالية طرح بعض الآراء والتأملات التي تتناول الوظيفة الاجتماعية للسينما. فقد كان الماركسيون الجدد من أصحاب مدرسة فرانكفورت - ومعهم وولتر بنيامين^(*) - يركزون على العلاقة بين السينما والإيديولوجيا (كما حدث - على سبيل المثال - في تنظيرهم لقضية صناعة الثقافة)، كما كانوا يركزون على تأثير الأشكال الفنية لعمليات الإنتاج الميكانيكي على المفاهيم والأفكار التقليدية في مجال الفن والخبرة الجمالية.

وفي أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، تواصلت الكتابات التحليلية للأعمال السينمائية لعدد من المفكرين الماركسيين الألمان، كان أشهرها تلك التي كتبها سيجفريد كراكاور Siegfried Kracauer (١٩٤٧). وبدأت المجلة الفرنسية المسماة "كراسات السينما" - Chaïers du Cinéma - والتي أُنشئت سنة ١٩٥١ - في تطوير اتجاه جديد ومتميز في مجال النقد السينمائي، نذكر منها على وجه الخصوص كتابات

(*) بنيامين، والتر Benjamin, Walter (١٨٩٢-١٩٤٠) ناقد أدبي ارتبط بمدرسة فرانكفورت ونظريتها النقدية في ثلاثينيات هذا القرن. ثم اكتسبت أعماله أهمية بين المشتغلين بعلم اجتماع الأدب في عصر السبعينيات، ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى تحطيمه للجوانب المادية للإنتاج الأدبي. (انظر كتاب: روبرتس بعنوان: والتر بنجامين، الصادر عام ١٩٨٢). (المراجع)

مدير تحرير المجلة أندريه بازان A. Bazin (١٩٦٧). وقد طورت مجموعة الكتاب المشتركين فى الكتابة لهذه "الكراسات" وصفاً لمخرج الفيلم باعتباره هو مؤلف الفيلم. وكان هذا الوصف - فى جانب منه - قائماً على الإقرار بالكيفية التى استطاع بها مخرجو هوليوود - الذين كانوا فيما عدا ذلك جزءاً من عملية إنتاجية عالية التنظيم والانضباط - استطاعوا أن يقدموا سينما متميزة ببصمة إبداعهم، من خلال أسلوبهم المتفرد فى تركيب المشاهد السينمائية. وقد طور "بازان" فيما بعد تحليلاً لدور المتفرج بوصفه مفسراً إيجابياً للفيلم، ذهب فيه إلى أن السينما الواقعية التى كانت تتجنب تأكيد أيزنشتاين أهمية المونتاج - تأييداً منها لما اصطلح على تسميته وقتها أسلوب التوليف الفنى "ذى البؤرة العميقة" - هذه السينما الواقعية أفسحت المجال للغموض والإبهام فى التعبير، معيدة - بذلك - إنتاج الغموض والإبهام الذى تتصف به الحياة الواقعية، الأمر الذى يقتضى من المتفرج بذل المزيد من الجهد فى شرح الفيلم وتفسيره.

وقد شهدت ستينيات القرن العشرين توجيه انتقادات أساسية لمجموعة كتاب "الكراسات"، ركز فى المقام الأول على احتفانها بالمخرج بوصفه مؤلف الفيلم. وقد انطلق هذا النقد من تطبيق الاتجاهات البنيوية والسيميوولوجية أى العلاماتية على السينما. ففى منظور البنيوية يعامل الفيلم بوصفه نصاً. ومهمة الناقد البنيوى - التى يمثلها كتاب كريستيان متز Metz (١٩٧٤) - هى كشف الغطاء عن المعنى الخفى للنص وعن بنائه القاعدى، وذلك عن طريق تحديد نطاق المجموعات ذات المعنى من العناصر السينمائية البارزة (والتي تعالج بوصفها تركيباً أو مركباً لفظي). من ذلك ما قام به ويل رايت Will Wright (١٩٧٥) من تحليل أفلام رعاة البقر، فى ضوء الطريقة التى يتم بها إظهار مجموعة ما من التعارضات الثنائية (مثل: داخل المجتمع/ فى مقابل خارج المجتمع، والطيب/ فى مقابل الشرير، والقوى/ فى مقابل الضعيف، والحضارة/ فى

مقابل (التخلف) وهى التعارضات الشائعة فى كافة أفلام رعاية البقر، أساساً من خلال وضع البطل فى علاقة معينة مع المجتمع. وفى الفيلم التقليدى من أفلام رعاية البقر - خلال الفترة من ثلاثينيات وحتى خمسينيات القرن العشرين - يكون البطل إلى جانب المجتمع الطيب، فى مواجهة التهديد القادم من المجتمع المتأخر. أما أفلام رعاية البقر التى ظهرت أواخر الخمسينيات من ذلك القرن، فقد شهدت انعكاس اتجاه هذا التعارض، حيث أصبح المجتمع القوى بأسره موضوعاً فى مواجهة البطل الطيب.

وعلى حين تعمل التفسيرات البنيوية على تشويه التصور المسبق عن المؤلف، ومن ثم تشوه تفسير الفيلم من خلال مقاصد المؤلف وأسلوبه، كانت لا تزال ميالة - فى الوقت نفسه - إلى افتراض وجود معنى ثابت وحيد يمكن استخلاصه من الفيلم. وعلى أسوأ التقديرات كان ينظر إلى الفيلم - كذلك - كنص معزول عن الظروف التاريخية والمادية لإنتاجه. وبالمثل تعرضت البنيوية للنقد من قبل ما بعد البنيوية، وما ارتبط بها من النزعة إلى الأخذ بمجموعة من التوجهات الفكرية (يأتى فى مقدمتها تأثير أفكار ديريدا، وما جاء به من التفكيرية، وتأثير التحليل النفسى من وجهة نظر لاكان، وتأثير الحركة النسوية).

وهنا لم يعد ينظر إلى الفيلم كنص معزول عن الأمور الأخرى، وإنما فى ضوء عدد كبير من العلاقات الممكنة التى تربطه بالنصوص الأخرى (التي منها عمليات الإنتاج المادية). لذلك أصبح معنى الفيلم يتسم بالسيولة، لكونه نتيجة لتفاعل تلك النصوص. وقد يمكن القول إن اتجاه ما بعد البنيوية - فى جوهره - إنما يطرح السؤال الخاص بمدى قيام النص السينمائى بتشكيل كل من المؤلف والمتفرج معاً. فتحديق المتفرج النظر إلى مشاهد الفيلم والمتعة البصرية الشهوية التى يجنيها من هذا النظر، تصبح أمراً هاماً لهذا التحليل. فالسينما تستلزم وجود موضوع معين للمشاهدة والنظر، أو قل إنها تنشئ هذا الموضوع وتركبه. وفى البداية كان يفترض

فى هذا المتفرج أنه ذكر، على نحو ما جاء مثلاً فى أعمال متر Metz، أما النساء، فإنهن يكشفن عن رغبتهن فى "أن يكن محط أنظار" كل من بطل الفيلم والمتفرجين من الذكور بين جمهور المشاهدين. لهذا السبب يبدو أن المتعة المستمدة من مشاهدة الأفلام محصورة داخل خيالات الرجال (ومن ثم داخل "المسار الأوديبى" الذى يعبره بطل الرواية الرجل وهو يتغلب على المشاق التى تقابله، من أجل أن يجد المرأة المناسبة ويستقر معها).

وقد عملت لورا مالفى Laura Mulvey (١٩٧٥ و ١٩٩٣) على تطوير تلك الفكرة. ذلك أن تحديد الرجل فى المشاهد السينمائية لا يتيح للأنثى المتفرجة أى مجال واضح للمتعة البصرية. لذلك ترى مالفى أن الأنثى المتفرجة يتعين عليها إما أن تندمج مع الموقف السلبي للمرأة التى على الشاشة (وهو موقف غير ممتع)، وإما أن تتبنى موقف الذكر. يترتب على ذلك أن إمكانية ظهور نوع من السينما التى لا تخضع للسلطة الذكورية يقتضى إحداث تحد جذرى للأشكال السينمائية التقليدية.

ومن العناصر المهمة التى ظهرت مؤخراً فى الدراسات الثقافية للسينما، ذلك الذى يقوم على الانتفاع بالدراسات الإثنوجرافية فى هذا الميدان. فما قامت به نزعة ما بعد البنيوية من اختزال للجمهور المشاهد إلى أن يصبح مجرد نتاج للنص السينمائي، بحيث إنه يمكن استنباط طبيعة المتفرج من النص السينمائي؛ هذا الموقف قد تعرض للنقد بفضل البحوث الميدانية التى قامت على سؤال رواد السينما عن معاشتهم للفيلم ومواقفهم تجاهه. لذلك، فإن العمل الذى قدمته جاكى ستاسى Jackie Stacey (١٩٩٤)

يقوم على أساس إجراء مقابلات شخصية مع النساء اللاتى يعتبرن أنفسهن من محبى حضور العروض السينمائية بكثرة، فى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، ومن خلال تقسيم نزعات هؤلاء النساء إلى ثلاث فئات: فئة "النزعة الهروبية"، ونزعة الاندماج والنزعة الاستهلاكية، استكشفت الباحثة الجانب الخيالى (أو البوتويى) فى

----- (س) -----

ظاهرة كثرة التردد على العروض السينمائية (خاصة - كما يقول داير Dyer - فيما يتعلق بأن النص السينمائي يوفر حلولاً للمشكلات الاجتماعية الحقيقية التي يكابدها جمهور المتفرجين، بل فيما يتصل - كذلك - بإدراك مظاهر الترف والرفاهية التي يستمتع بها هذا الجمهور داخل السينما كمبنى)، ولكنها أكدت كذلك أهمية ما يستشعره جمهور المشاهدين من وعى ذاتى فى علاقته بالفيلم، وببطل الفيلم، وبالمنتجات المرتبطة بالأفلام. (AE) للمزيد انظر: Gavell (١٩٧١) ، وDeleuze (١٩٩١)، وDyer (١٩٧٩) وKracauer (١٩٦٠) وMetz (١٩٨٢).

السيميوطيقا / علم العلامات Semiotics/ Semiology

يشير مصطلح "السيميوطيقا" ومصطلح "علم العلامات" كذلك إلى نظرية العلامات، ومن ثم إلى الطريقة التي يمكن بها لدراسة العلامات ونظم العلامات أن تفسر مشكلات المعنى والاتصال. (ومع أن مصطلح "السيميوطيقا" قد تم صكه فى القرن السابع عشر على يد الفيلسوف الإنجليزى جون لوك، ومصطلح "علم العلامات" صكه فى القرن العشرين عالم اللغة فرديناند دي سوسير، إلا أن الأقدم وهو السيميوطيقا هو الأكثر شيوعاً). ويمكن تقصى الأصول الأولى لدراسة العلامات بصفة عامة وصولاً إلى اليونان القديمة، كما هو الحال مثلاً فى الدراسة الطبية للأعراض المرضية باعتبارها علامات على المرض. وكذلك فإن السيميوطيقا الحديثة قد تشمل دراسة كل شئ يمكن أن يستخدم كعلامة، ومن ثم يمكنه أن يولد المعنى ويقوم بتوصيله إلى الآخرين.

ومن الأمثلة على ذلك، أن سيميوطيقا الحيوان Zoosemiotics تعنى بالعمليات الطبيعية التي توجد فى وسائل الاتصال بين الحيوانات. ومع ذلك، فإن أهمية

السيميوطيقا للدراسات الثقافية تكمن فيما توفره لنا من فهم عميق لطبيعة الاتصال داخل الثقافات الإنسانية المختلفة، وما يترتب على ذلك من فهم عميق للعمليات الصناعية (فى مقابل العمليات الطبيعية) التى تيسر الاتصال بين الناس. وقد لا يكون من المبالغة أن نشير إلى أن السيميوطيقا تمثل وحدها أهم مجموعة من الأدوات النظرية المتوافرة للدراسات الثقافية، ويرجع ذلك - بالذات - إلى قدرتها على إدراك وتحليل العلاقات ذات المعنى فى طائفة واسعة من أنشطة البشر وإبداعاتهم. ففى نطاق الدراسات الثقافية يمكن تطبيق السيميوطيقا - بنفس النتيجة الإيجابية - على ما يقدمه البشر من الإبداعات المختلفة، مثل: النصوص الأدبية، والأغاني الشعبية، والصور الفوتوغرافية، والإعلانات، ولافتات الطرق، والطعام، والملابس. ولهذا السبب تتيح السيميوطيقا للدراسات الثقافية أن تنفصل - بصور حاسمة - عن ذلك الاتجاه التقويى للنقد الأدبى التقليدى وعلم الجمال التقليدى، لأنها لا تسعى لتقدير قيمة النصوص، بل تسعى لفهم العمليات التى من خلالها تصبح هذه النصوص مفهومة وكيف يتم تفسيرها على وجوه مختلفة.

إن اللغة هى النموذج البارز لنظام العلامات فى السيميوطيقا، وقد كان لإسهامات سوسير فى علوم اللغة تأثير كبير على تطور السيميوطيقا الحديثة. ويقوم اتجاه سوسير اللغوى - فى جوهره - على القول بأن اللغة (ومن ثم الكلمات أو العلامات الموجودة داخل اللغة) لا تتطابق فقط مع الواقع الموجود سلفاً (وخارج نطاق اللغة). بل إن اللغة هى التى تشكل الواقع الذى نعيشه. ومن ثم فإن كلمة "عشب" لا تشير إلى جزء من الواقع موجود سلفاً، وذلك لأن التمييز بين الأعشاب، والزهور، والخضروات يتوقف على امتلاكنا للغة تتيح لنا إدراك الفروق بين هذه الأنواع الثلاثة من النباتات. (وقد يكون من اليسير علينا أن نتخيل لغة ليس فيها هذا التمييز بين تلك الأنواع، ثم نتخيل مدى الصعوبة التى سنواجهها فى تفسيرنا لهذا الفرق - بين كل

نوع وآخر من أنواع النباتات المذكورة - لمن لا يعرف الإنجليزية، حتى لو كنا متمكنين كل التمكن من تلك اللغة الأخرى). لهذا يذهب سوسير إلى أن اللغة - بوصفها نسقاً من العلامات - لا تقوم بعملها من خلال تلك الرابطة البسيطة التي تربط العلامات التي تتكون منها اللغة بالأشياء الخارجية، وإنما من خلال علاقات التشابه والاختلاف الموجودة بين العلامات (والموجودة - بالتالي - كلية داخل اللغة). وعليه فإن جزءاً من معنى كلمة "عشب" هو أنه ليس من "الخضروات". كما نلاحظ - إذا استخدمنا مثلاً شائعاً - أن كلمة "رجل" في اللغة الإنجليزية يعنى "ليس حيواناً"، وليس امرأة، و"ليس غلاماً". وقد يتم التوسع في هذا الاختلاف للإيحاء بأن هذه الكلمة تحمل تداعيات ذهنية أبعد، كأن تعنى مثلاً أنه "ليس سريع التأثير"، و"ليس عاطفياً". وعلى هذا يتوقف معنى كلمة "رجل" على الفهم الخاص للذكورة الشائع في ثقافة الناطقين باللغة.

وثمة مثال آخر يوضح هذه القضية، ويؤكد بالذات ما تتصف به الأبنية السيميوطيقية من التحكمية. ففي الثقافات الغربية يرتبط اللون "الأبيض" - عادة - بالمشاعر والأحداث الإيجابية (ومن هنا جاء ثوب الزفاف الأبيض). وهكذا يختلف اللون الأبيض عن اللون الأسود، فالأسود يرتبط بالمشاعر والأحداث السلبية. أما في الثقافات الشرقية فنجدها تعرف أيضاً ذلك التعارض بين اللون الأبيض واللون الأسود، بينما تكون هذه المعانى أو التداعيات الذهنية معكوسة تماماً. وبناءً على ذلك يرتبط اللون الأبيض بالجنانز في تلك الثقافات.

وقد تصلح الأمثلة التي أوردناها بداية للإشارة إلى كيفية انتقال السيميوطيقا من اللغة - بوصفها نموذجاً لنسق العلامات - إلى غيرها من أنساق العلامات. مثال ذلك، أن اختيار المرء لملابسه إنما هو أمر له دلالة ومغزاه. فالملابس السوداء قد تكون ملائمة في ظروف أو مناسبات اجتماعية معينة، وقد تكون غير ملائمة في ظروف

أو مناسبات أخرى. والسبب أن الملابس - بالذات - تبعث برسالة للناس عن يرتديها (فهذه السيدة مرتدية ثياب الحداد، أو مرتدية ثياباً تلائم مناسبة رسمية، أو مرتدية ملابس مثيرة جنسياً). وكما أنه توجد أعراف متبعة تحكم معنى الكلمة المكتوبة أو المنطوقة في جملة ما، كذلك توجد قواعد عرفية تحكم معنى قطعة الملابس التي يقرر المرء ارتداها. وتحدد هذه القواعد - بصورة حاسمة - اختيار قطعة ملابس معينة من بين مجموعة من الاختيارات الممكنة (كأن يختار المرء مثلاً ثوباً أسود، وليس ثوباً أبيض أو أصفر أو أزرق) (انظر مادة: النموذج النظري/ أو الصيغة)، كما تحدد اختيار المرء للمجموعة المؤلفة من كمالات الزي (انظر مادة: التركيب/ أو المركب اللفظي). ومن ثم يستطيع المرء أن يفرق بين الملابس الخاصة بالجنائز، والبذلة التي يرتديها في مكان العمل، وملابس الحفلات - رغم أنها قد تكون كلها سوداء اللون - وذلك عن طريق تمييزه للتألف بين اللون (كإحدى العلامات) والطرز، والخيوط التي تنسج بها حاشيته، والقماش الذي يصنع منه وما إلى ذلك (كعلامات أخرى)، وذلك بنفس الوضع الذي يكون فيه لجملة أو لآى نص منطوق أو مكتوب معنى من خلال ترابط الكلمات وعلاقتها ببعضها البعض.

ويشير المثالان المذكوران من قبل عن "الرجل" وعن "اللون الأسود" إلى أن العلامات تحظى - عادة - بمجموعة من المعاني، يكون بعضها حرفياً وواقعياً إلى حد بعيد (كأن يقال: الرجل ليس امرأة) بينما يكون بعضها الآخر أكثر ميلاً للتلميح والإشارة (كأن يقال: الرجل ليس عاطفياً). وهكذا يتم التمييز بين دلالات العلامة الصريحة بوصفها أشد معاني العلامة واقعية وثباتاً، ومضامين العلامة أو إحياءاتها، بوصفها تلك الصور الذهنية المرتبطة بالعلامة، أو بوصفها الظلال الدقيقة بين المعاني التي تستدعيها العلامة، والتي تحمل قدرأ أكبر من العاطفية، والميل إلى التعبير عن المشاعر، والنزعة التقويمية.

وفى الواقع، لا توجد علامة ذات دلالة صريحة تماماً (باستثناء تلك العلامات المستخدمة فى الرياضيات وفى المنطق الصورى). مثال ذلك أن اختيار المرء لأن يتحدث عن "الجياد المظهمة" (وهى أفضل أنواع الخيل) بدلاً من حديثه عن "الخيـل" يحدث تحريفاً بسيطاً وإن يكن مهماً لمعنى ما يقال. وباستعماله للتمييز بين إحياء العلامة الضمنية ودلالاتها الصريحة، ينطلق رولان بارت من الفكرة الأصلية لسوسير عن السيميوطيقا لـكى يثبت أن الإحياء (أو المعنى الضمنى) ينبغى أن يُفهم بوصفه وسيلة لاستحضار نسق القيم الموجود فى الثقافة التى يتم فيها استعمال هذه العلامة وتفسيرها. وترتبط هذه الأحكام القيمية الخاصة والمبنية على الاعتبارات الثقافية - بصورة حاسمة - بتوزيع القوة داخل المجتمع (بحيث يتم - مثلاً - الربط الذهني بين الذكورة من ناحية - فى العلامة: "الرجل" - والرشد، والفعالية، والقوة من ناحية أخرى؛ الأمر الذى يدل على وجود مجتمع ذى نظام أبوى).

ويؤدى هذا الوضع الذى نأخذ فيه إحياءات الكلمات مأخذ التسليم، ثم نخلطها مع معانيها الصريحة وما يترتب على ذلك من قبولها كما لو كانت معانى طبيعية وثابتة؛ يؤدى إلى ما يسميه بارت الأسطورة/ أو الخرافة. ويتم حجب الإحياءات التقويمية - والتى هى فى أساسها إحياءات سياسية - مما قد يجعل القارئ يتشرب النسق القيمى السائد، وذلك عن غير قصد أو دراية حال تجاويه مع النص. ومن ثم فإن القارئ الساذج عندما ينظر إلى أحد الإعلانات، يتشرب الأحكام القيمية الخاصة بالذكورة والأنوثة من مجرد الطريقة التى يصور بها الرجال والنساء نوع علاقتهما ببعضهما، كما يتشرب غير ذلك من العلامات الموجودة فى الإعلان. (لذلك يرى فيسك وهارتلى Fiske and Hartley أن فهم السيميوطيقا والأساطير - بالمعنى الذى يستعمله بارت - يؤدى بنا إلى نظرية فى الإيديولوجيا).

وعلى الرغم مما توفره السيميوطيقا للدراسات الثقافية من قدرة على التحليل، خاصة ذلك النموذج الذى قدمه بارت فى مؤلفاته، فقد يرى البعض أن اتجاه سوسير فى موضوع العلامات يعانى من نقاط ضعف معينة. وقد قدم المفكر الروسى فولوشينوف V.N. Voloshinov بديلاً مبكراً لسيميوطيقا سوسير. إذ يرى فولوشينوف أن تأكيد سوسير النسق اللغوى أو نسق العلامات يضيف على اللغة نوعاً من الموضوعية الزائفة. ذلك أن فولوشينوف لم يكن معنياً بالبنية التاريخية للغة، إنما معنى بقضية كيف يتم فهم اللغة والمعنى فى أوضاع اجتماعية معينة. فقد تُفهم علامة ما بوصفها مجالاً محتملاً للصراع الطبقي، لأنه على الرغم من أن أعضاء المجتمع قد يشتركون فى لغة واحدة، فإن الطبقات المختلفة سوف تختلف فى استعمال تلك اللغة لأغراض سياسية متباينة. ومن ثم يكون للعلامات "معان اجتماعية متعددة"، رغم أن هذا الوضع لا يتجلى بأوضح صورة إلا فى أوقات الأزمات والثورات.

وثمة نقد آخر يمكن توجيهه إلى سيميوطيقا سوسير، وذلك بالتشكيك فيما تلح عليه من تأكيد شديد على دور اللغة فى تشكيل عالمنا الذى نعيشه، بل دورها فى خلق هذا العالم بالفعل. فمثل هذا التأكيد قد يترتب عليه خطر انهيار السيميوطيقا فتنحول إلى أحد أشكال النزعة المضادة للواقعية، وهو ما يعنى أنها لا تتعرض إلا قليلاً لما يفرضه علينا العالم خارج نطاق اللغات وخارج أنساق العلامات من قيود، وللطريقة التى تشير بها العلامات إلى ذلك العالم الخارجى وغير اللغوى. وقد تم تطوير عدد من الرؤى والاتجاهات الفكرية لمعالجة هذه المشكلة، وخاصة بلورة مفهوم محكم للإشارة أو الإسناد. ومن ناحية ثانية، حظيت أعمال الفيلسوف الأمريكى تشارلز بيرس Peirce بالناية والاهتمام، خاصة لأن ما قدمه من سيميوطيقا هى من بداية أمرها أكثر تنبهاً وإدراكاً للعلاقة بين العلامة والموضوع الواقع خارج نطاق اللغة.

وتقوم نظرية بيرس^(*) في العلامات على مخطط من ثلاثة أجزاء. فما يطلق عليه بيرس مصطلح "العلامة" يرتبط "بمفسر" معين، وذلك من خلال موضوع معين. ويوضح هذا الأمر خير توضيح مثال بسيط (مستعار من كتابات هوكواي Hookway). فعندما أرى لحاء شجرة منزوعاً منها، فقد يكون ذلك علامة على وجود الأيل^(**) في مكان قريب. فاللحاء المنزوع هو العلامة، والأيل الحقيقي الذي نزع هذا اللحاء هو الموضوع، وفكرتي عن وجود دب هي المفسر لهذه الواقعة أو العلامة. وبذلك يكون المفسر هو الاستجابة العقلية التي يبدئها المشاهد تجاه العلامة الأصلية. ويواصل بيرس عرضه فيطرح نقطة حاسمة مؤداها أن العلامات تولد سلسلة من المفسرات، مما يوحي بأن العلامة ليست واضحة وضوحاً بدهياً ولا هي ذات معنى جلي صريح. لذلك فإن كل مشاهد سوف يولد تفسيره الخاص به للعلامة. وبناءً على ذلك يكون المشاهد منفصلاً على الدوام عن الموضوع الواقعي أو الحقيقي بسبب هذه العلامة وبسبب ما يولده من تفسير لها.

بجانب ذلك، يذهب بيرس إلى أنه مع استمرار سلسلة التفسيرات في التقدم، يحدث (خاصة بالنسبة لأنماط معينة من العلامات، كتلك المستخدمة في الاتصال داخل مجتمع العلماء) يحدث أن تتحول التفسيرات تدريجياً إلى تفسيرات أكثر ملاءمة

(*) بيرس، تشارلز سوندرز Pierce, Charles Sanders (١٨٣٩-١٩١٤) أحد مؤسسي البراجماتية وعلم العلامات (السيمولوجيا). وإن كانت أعماله قد صادفت على العموم تجاهلاً من أصحاب كلا العلمين. ومن بين أفكاره الأساسية تلك الفكرة التي تحتويها العبارة الماثورة التالية: "عندما نهتم بالشئ المؤثر، الذي يمكن أن تكون له نتائج عملية، وعندها سنفهم الشئ موضوع إدراكنا. وهنا يمثل إدراكنا لتلك الآثار مجموع إدراكنا للشئ". والبراجماتية في رأي بيرس ليست نظرية في الحقيقة، ولكنها نظرية في المعنى. وقد أسهمت كتاباته السيمولوجية في تقديم فكرة "العلامات الإشارية"، وهي إشارة إلى أن العلامة قد تكون لها عدة معانٍ مختلفة في السياقات المختلفة، وهي فكرة محورية بالنسبة لمبدأ إمكانية التأشير (الدلالية) في جميع اللغات الذي تقول به الإثنومثودولوجيا. (المراجع)

(**) الأيل Deer : حيوان برى من ذوات الظلف. (المترجم)

"الموضوع" (ومن ثم يصبح فهم المشاهد للموضوع أكثر دقة). والحق أنه من الممكن النظر إلى "الموضوع"، خارجاً عن نطاق اللغة، على أنه يمارس ضغطاً على العلامات وأنساق العلامات. فعلى حين تستطيع الثقافات المختلفة أن تقوم بتصنيف مملكة النباتات بطرق مختلفة، فإن المعالجة والدراسة العملية للنباتات - فى نظر بيرس - سوف تفضى بعالم النبات وبالطامى - فى نهاية المطاف - إلى تمييز العُشب عن الخُضر، وتمييز نبات حصا البان عن الجزر.

وتقدم سيميوطيقا بيرس مجموعة أخرى من المفاهيم النافعة، حيث يميز بين ثلاثة أنماط من العلامات. فالرموز تعد علامات لا ترتبط بالأشياء أو الموضوعات التى تشير إليها إلا بموجب العرف (أى اتفاق الناس على دلالة الرمز). وعلى ذلك، فإن كلمة "كلب" لا تشترك مع الكلاب الحقيقية فى أمر مادى أو فى غيره من الأمور. وقد يدل العَلَم على أمة معينة، إلا أنه لا يتطلب أكثر من تصميم تجريدى معين. أما المؤشرات فتترتبط - على عكس الرموز - بموضوعها برابطة سببية أو وجودية. وهكذا فإن لحاء الشجرة المنزوع عنها يعد مؤشراً، لأنه نجم عن فعل الأيل. والدخان مؤشر لوجود النار. وأخيراً، فإن الأيقونات - بصفتها لوحات تصويرية - تشترك مع ما تمثله أو تصوره من موضوعات فى بعض الصفات. ومن هنا تعد الخريطة (فى الجغرافيا) عملاً ذا طابع أيقونى، لكونها لوحات تصويرية وصوراً فوتوغرافية. (AE) للمزيد انظر: Fiske and Hartley (١٩٧٨) و Eco (١٩٧٦) و Barthes (١٩٧٦، ب) و Saussure (١٩٢٨) و Peirce (١٩٨٦) و Innis (١٩٨٦) و Hookway (١٩٨٥) و Voloshinov (١٩٧٣).

Rites de Passage

شعائر الانتقال أو العبور

مصطلح "شعائر الانتقال أو العبور" من مصطلحات الأنثروبولوجيا الثقافية، ويشير إلى تلك الاحتفالات الشعبية أو الشعائر التي تعلن الانتقال من إحدى مراحل العمر إلى المرحلة التالية لها. وتميل شعائر الانتقال أو العبور إلى التسليم بخضوع الفرد خضوعاً كاملاً للجماعة، ومن ثم قيامه بالتنفيذ الدقيق لمتطلبات هذه الشعيرة. والمثال النموذجي لهذه الشعائر هو الاحتفالات المرتبطة بالانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ، وبينما يسهل ربط أمثال تلك الاحتفالات بالمجتمعات قبل الصناعية، إلا أنها لا تزال تؤدي دوراً مهماً في المجتمع المعاصر، كما هو الحال مثلاً في احتفالات التعميد، وحفلات التخرج من المدارس والجامعات، وفي الجنائز. (AE)

Ritual

الشعيرة

الشعيرة فعل رسمي، وهو إذ يتبع أنماطاً محددة ومكررة، فإنما يعبر عن القيم، والمعاني، والمعتقدات السائدة في جماعة معينة. ويوحى الاستعمال الأصلي للشعيرة بأنها تستلزم وجود نوع من الارتباط بالعوالم المقدسة، أو ما فوق الطبيعية، أو السحرية. بل إن دوركايم ذهب - فعلاً - إلى أن التمييز بين "المقدس" و"العلماني" يمثل أمراً أساسياً بالنسبة للشعيرة، يستلزم عبور الحد الفاصل المألوف بين هذين المجالين. والمقدس، في نظر دوركايم، يعبر عن الجماعة أو المجتمع الذي يعيش الفرد في نطاقه. لذلك تقوم الشعيرة بمهمة دمج الفرد بطريقة أشد إحكاماً في الكل الاجتماعي. وبالتوسع في استصحاب هذه الفكرة الرئيسية عن الشعيرة، يمكن القول بأنها تمثل رد فعل للتهديدات التي تتعرض لها الجماعة. فنجد النشاط الشعائري يشتد في مواجهة التغيرات الاجتماعية أو في غيرها من مراحل عدم الاستقرار الاجتماعي.

وفى مجال الدراسات الثقافية، استعملت هذه المفاهيم الخاصة بالشعائر، وبأسلوب يتفاوت فى دقته، أو بأسلوب استعارى، لاستكشاف الطرق التى تتبعها الجماعات العلمانية (وبصفة خاصة الجماعات ذات الثقافات الفرعية أو الجماعات الإثنية) فى تحديد هويتها والتعبير عنها، وفى مقاومة الضغوط الخارجية القائمة فى النظام الرأسمالى المعاصر. (ومن هنا جاء - على سبيل المثال - عنوان الكتاب الذى وضعه هول Hall وجيفرسون وهو: "المقاومة من خلال الشعائر"، ١٩٧٦). (AE)

Code

الشفرة

الشفرة الدالة (أى ذات المعنى) هى فئة من القواعد المتفق عليها ثقافياً، والتى ترشد إلى الوسيلة التى يمكن بها قراءة نص ما. وتقوم هذه الشفرة بتحديد المادة التى يمكن اختيار الوحدات ذات المعنى منها (انظر مادة: النموذج النظرى أو الصيغة) كما تقوم بتحديد الكيفية التى يمكن بها ربط هذه الوحدات المختارة على نحو يعطيها معنى ودلالة. (AE). (للمزيد انظر مادة: تركيب - مركب لفظى).

Episteme

الشكل المعرفى

مصطلح يتردد فى كتابات ميشيل فوكو (انظر كتابه: "نظام الأشياء" ١٩٧٠). والشكل المعرفى شكل من أشكال المعرفة. ويرى فوكو أن عصر الحداثة قد شهد ظهور بعض أشكال الخطاب التى تمثل المفاهيم الأساسية - العامة والخاصة - التى تنهض عليها العلوم (من ذلك مثلاً التصور الإستمولوجى (انظر: نظرية المعرفة) الخاص بالذات). وهذه المفاهيم تشكل - مجتمعة - الشكل المعرفى الحديث. (PS) للمزيد انظر: Foucault (١٩٧٠) و Habermas (١٩٨٨) و Smart (١٩٨٤) .

الصفوة

Elite

الصفوة جماعة صغيرة تتولى القيادة فى مجال معين من مجالات الحياة الاجتماعية (كالصفوة الثقافية مثلاً)، أو تتولى قيادة المجتمع بأسره. ويفترض فى الصفوة - عادة - أنها جماعة متجانسة نسبياً ولها عضوية مغلقة على أفرادها إلى حد كبير. وقد تطورت النظرية الحديثة للصفوة فى السنوات الأولى من القرن العشرين على يد فلغريديو باريتو^(*) (١٩٦٣)، وجيتانو موسكا^(**) (١٩٣٩) وغيرهما. وكانت هذه النظرية تتخذ موقفاً معارضاً من الاشتراكية، خاصة فيما يتصل بمحاولتها إثبات أنه لا يمكن أبداً تجنب تقسيم كافة المجتمعات إلى صفوة (ذات قدرات تنظيمية متفوقة)، وجماهير ذات منزلة أدنى. ولكن الأهم أن نظرية الصفوة كانت ترى - على المستوى الفكرى - بجانب معارضتها للاشتراكية والماركسية أن القوة التى تتمتع بها الجماعة المسيطرة فى المجتمع لا ترتكز بالضرورة على ما لها من قوة اقتصادية. ويمكن ما كانت الطبقات تُعرّف وفقاً للاعتبارات الاقتصادية (كما هو الحال فى الاشتراكية

(*) باريتو، فلغريديو Pareto, Vilfredo (١٨٤٨-١٩٢٣) عالم اقتصاد وعالم اجتماع إيطالى، استطاع أن يحقق شهرة من خلال إسهاماته فى نظرية التوازن بوصفه متخصصاً فى الاقتصاد الرياضى، ولكنه تحول فى آخر أيامه إلى الاشتغال بعلم الاجتماع، ونشر فى عام ١٩١٦ مؤلفه الرئيسى (بالإيطالية) 'دراسة علم الاجتماع العام' (الذى ترجم إلى الإنجليزية وصدر فى أربعة مجلدات بعنوان: 'العقل والمجتمع'. ١٩٢٥) وعلى الرغم من أن البعض يعتبرون هذا الكتاب مؤيداً لأراء الفاشيين، فإنه من المؤكد أن نشر كتاب دراسة علم الاجتماع قد رسخ شهرة باريتو وهو بعد على قيد الحياة، وإن لم يستمر من هذه الشهرة حتى اليوم سوى النذر اليسير. ولعل أكثر ما يشتهر به باريتو اليوم أنه أول من استخدم مصطلح 'صفوة' للإشارة إلى الجماعة القليلة العدد التى تحكم جماعة كبيرة العدد. كما أثر فى مرحلة مبكرة على تطور نظرية النظم الاجتماعية. (المراجع)

(**) موسكا، جيتانو Mosca, Gaetano (١٨٥٨-١٩٤١) منظر سياسى إيطالى من مؤيدى نظرية هيمنة الصفوة. وقد انتقد موسكا الماركسيين الذين فشلوا فى تفسير استمرارية الهيمنة. كما انتقد الليبراليين الذين افترضوا أن التحول نحو المجتمع الصناعى سوف يفضى إلى تراجع حكم الصفوة المعزولة عن الجماهير. (المراجع)

والماركسية)، كانت نظرية الصفوة تطرح - لذلك - تصوراً آخر للتدرج الاجتماعي الطبقي ونظم التراتب الاجتماعي بديلاً لما تقدمه نظرية الطبقات. ومن هنا تكتسب كتابات تشارلز رايت ميلز^(*) (١٩٥٦) عن موضوع "صفوة القوة" دلالتها ومغزاها. إذ يذهب ميلز إلى أن أمريكا المعاصرة تسيطر فيها جماعات صفوة على ثلاثة من المجالات الأساسية في المجتمع هي: الصناعة، والسياسة، والجيش. وكان الشغل الشاغل لميلز - وخلافاً للمفكرين الأوائل من أصحاب نظرية الصفوة - أن يوضح هذه الصفوة، ويكشف ما لها من تأثيرات ضارة بالرأسمالية، بدلاً من أن يهتم بإثبات أنها أمر حتمي لا سبيل لاجتنابه.

وفي دراسة الثقافة، كان لنظرية الصفوة أعظم التأثير من خلال نظرية المجتمع الجماهيري، كما أثرت على الفرضية التي تقول بوجود ثقافة راسخة خاصة بالصفوة المتفوقة. وهذه الثقافة يُنظر إليها، في أسوأ الأحوال، على أنها مهددة بالمخاطر وبأنها تتعرض للتآكل بفعل وسائل الاتصال الجماهيري المعاصرة، أو يُنظر إليها في أحسن

(*) ميلز، تشارلز رايت Mills, Charles Wright (١٩١٦-١٩٦٢) عالم اجتماع أمريكي نشرت أهم أعماله خلال حقبة الخمسينيات. وباعتباره راديكالياً ينتمي إلى اليسار الأمريكي فقد كان شخصاً غير عادي في علم الاجتماع الأمريكي في ذلك الوقت، حيث تبني موقفاً لعل أفضل وصف له أنه جماهيري ليبرالي منه اشتراكي. ولعل أهم دراساته الموضوعية شيوعاً تلك التي تحمل عنوان: "نور الباقات البيضاء" (الصادرة عام ١٩٥١) وتحتوي على تحليل للطبقة الوسطى الأمريكية. ثم كتاب صفوة القوة (صدر عام ١٩٥٦) ذهب فيه إلى القول بأن الولايات المتحدة تحكم بواسطة مجموعة من الصفوات المتداخلة ذات المصالح الثابتة. ويذكر لميلز أولاً وقبل كل شيء مؤلفه الخيال السوسيولوجي (المصادر عام ١٩٥٩) الذي يمثل مقدمة رائعة وملخصاً للنزعة الإنسانية الكامنة وراء علم الاجتماع كعلم. ويمثل الخيال السوسيولوجي رؤية اجتماعية وأسلوباً للنظر إلى العالم يمكن أن يدرك الارتباطات بين المشكلات الفردية التي تبدو شخصية في الظاهر والقضايا الاجتماعية الهامة. وهو يذهب إلى ضرورة تأسيس علم اجتماع ذا نزعة إنسانية يربط بين الأبعاد الاجتماعية والشخصية والتاريخية لحياتنا، ويتخذ موقفاً نقدياً من النزعة الإمبريقية المجردة والنظريات الكبرى في الآن معاً. وتعد ترجمته لمقتطفات طويلة من أعمال تالكوت بارسونز إلى لغة إنجليزية بسيطة بمثابة نموذج يحتذى للمناقشة النقدية. (المراجع)

الأحوال، على أن وسائل الاتصال الجماهيرى عاجزة عن خدمة ثقافة الصفوة. وبهذا الاعتبار، تحكم نظرية الصفوة - بصورة صريحة أو ضمنية - على الثقافة الجماهيرية بتطبيق مستويات ثقافة الصفوة عليها، فتراها ثقافة قاصرة عن درجة الكفاية. ومن هنا لا تنتبه ثقافة الصفوة - عادة - لما تتمتع به الثقافة الجماهيرية من صفات العمق والتعقيد. (AE) للمزيد انظر: Bottomore (١٩٩٣) و Scott (١٩٩٩).

الصناعة الثقافية / أو صناعة الثقافة

Culture Industry

صك مصطلح "الصناعة الثقافية أو صناعة الثقافة" المفكران هوركهايمر(*) وأدورنو من مدرسة فرانكفورت فى كتابهما بعنوان "جدل التنوير" (١٩٧٢)، وذلك للإشارة إلى عمليات إنتاج الثقافة الجماهيرية. وهذا المصطلح الذى يحمل صورة تناقضية متعمدة (حيث يضع الثقافة فى مواجهة نقيضها الظاهرى المتمثل فى الصناعة) يحاول أن يفهم شيئاً عن مصير الثقافة فى مجتمع رأسمالى حديث يلتزم بدرجة عالية من الرشد الفعال وتدار فيه الأمور عبر جهاز بيروقراطى. ويمكن النظر إلى هذا التصور الخاص بالصناعة الثقافية - فى أساسه - على أنه تصور اقتصادى، ومن ثم فإنه يعتبر جزءاً لا يتجزأ من إعادة تفسير المادية الجدلية التى تعتبر فكرة أساسية محورية من أفكار مؤلفى "جدل التنوير". فالصناعة الثقافية، والتى تشمل الإعلان كما تشمل الإذاعة والسينما، تقوم بتحويل القيمة الاستعمالية (أى المنفعة التى يستمدّها المستهلكون من السلعة) إلى شىء يقوم النظام الرأسمالى بإنتاجه. وقد

(*) ماكس هوركهايمر Max Horkheimer (١٨٩٥-١٩٧٢) عضو مؤسس فى معهد فرانكفورت للبحوث الاجتماعية، اشتهر فى علم الاجتماع بنقده للعقلانية المسيطرة للرأسمالية المتأخرة. من أهم كتبه: سقوط العقل (١٩٤٧)، ونقد العقل الأداى (١٩٦٧). (المراجع)

يتصور البعض أن الربط بين الإعلان وبين وسائل الاتصال الجماهيرى يعزز المنتجات الأقل تميزاً وخصوصية، ويرفع من شأن أسلوب المعيشة الأكثر رأسمالية.

ويتسق هذا التصور - الخاص بامتصاص القيمة الاستعمالية فى داخل الإنتاج - مع تحليل أدورنو^(*) لمصير العلاقة بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج فى رأسمالية القرن العشرين. ذلك أن الاستقلال الذى كانت تحظى به القيمة الاستعمالية فى رأسمالية القرن التاسع عشر، كان يعطى الذات البشرية استقلالاً حقيقياً فى اختيارها للسلع التى تناسب حاجاتها، ويعطيها - بذلك - القدرة على المقاومة (وهو الأمر الذى يمكنها من تقويض أساس الرأسمالية). لكن هذا الاستقلال - الآن - يتناقض باستمرار وبوتيرة متزايدة. وبالمثل، فإن الأساليب الفنية الإدارية، التى تطورت كجزء من قوى الإنتاج (لزيادة كفاءة الصناعة) أصبحت الآن أمراً أساسياً لا غنى عنه لعلاقات الإنتاج (حتى أن عمليات التبادل فى الأسواق، ومعها حيازة الملكية أصبحتا خاضعتين للتنظيم البيروقراطى، وأصبح العاملون والعاطلون على حد سواء يطالبون بالحصول على أجور من هيئات الرعاية الاجتماعية). وبذلك فإن التناقض القائم بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، والذى يمكنه - عند ماركس - أن يتسبب فى سقوط الرأسمالية، قد زال من الوجود فى هذا المجتمع الذى تحكمه النظم الإدارية حكماً شاملاً.

ولكن ذلك التصور للصناعة الثقافية قد تعرض مراراً للتهوين من شأنه على يد منتقديه (خاصة أولئك المشتغلين بالدراسات الثقافية) فنجد - مثلاً - أن هوركهايمر وأدورنو لا يسلمان - بصورة واضحة - بأن النوات الإنسانية ضحايا لا حول لها للصناعة الثقافية، كما لا يسلمان بأن الصناعة الثقافية أداة للسيطرة الطبقيّة. ذلك أن

(*) نظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: علم الجمال. (المراجع)

التحكم الإدارى الشامل فى المجتمع على يد الرأسمالية المعاصرة يحاصر كل إنسان ويوثقه بوثقائه، حتى إن الطبقة البورجوازية الحائزة على الملكية، ورغم أنها قد تستمر منتفعة بهذا النظام الرأسمالى، فإنها تظل عاجزة أمامه، شأنها فى ذلك شأن الطبقات التى لا تحوز شيئاً من الملكية. ومع ذلك فإن هذه الذوات العاجزة تظل فى صراع مع هذا النظام، وفى البقاء داخله.

ويلاحظ هوركهايمر وأدورنو أن استهلاك منتجات الصناعة الثقافية يتخذ صوراً مختلفة. فمن كان من هواة اللاسلكى، مثلاً، يحاول أن يحتفظ لنفسه بشيء من الاستقلال والتفرد، وذلك بقيامه بتركيب وتشغيل جهاز الراديو الخاص به، مفضلاً ذلك على الرضا بما هو ميسور ومتوافر من أجهزة الراديو الجاهزة التى تباع فى الأسواق. ويستعمل بعض الناس الغطاء الخارجى لمؤسسات الصناعة الثقافية - كدور السينما مثلاً - لتقبل ما يعانونه من تعاسة يمكنها أن تشمل حركتهم فى الحياة الواقعية.

وحتى فى داخل الصناعة الثقافية، لا تتصف جميع منتجاتها بالتجانس. ومن شواهد ذلك أن أورسون ويلز (ومن بعده ميكيلانجلو أنتونىونى M. Antonioni) يبرهنا على أن السينما تمتلك قدرة على النقد وعلى استبطان الذات، وهى القدرة التى ينسبها أدورنو إلى جميع أشكال الفن المستقل؛ وأن بيتى دافيز قد أحييت تراث فن التمثيل الرفيع المفعم بالحياة؛ وأن أفلام الرسوم المتحركة التى تنتجها شركة وارنر لا تتصف بذلك الاستسلام الساذج للسلطة، وهو الاستسلام الذى يمثل سمة مميزة لأفلام شركة ديزنى، هذا بالطبع إذا سلمنا بوجود فروق دقيقة وظلال للمعانى داخل النص الواحد. (AE) للمزيد انظر: Held (١٩٨٠) وCook (١٩٩٦) وAdorno (١٩٩١).

Simulacrum

الصورة الباهتة

من المتعارف عليه، أن "الصورة الباهتة" هى نسخة لنسخة فى مبحث الوجود أو الأنطولوجيا عند أفلاطون. والنسخة أقل درجة من الشكل المثالى الذى تمثل نسخة

منه، بينما تكون الصورة الباهتة أبعد وأبعد عن هذا الشكل الأصلي، وتكون لذلك أدنى درجة من النسخة المباشرة. ومن حيث إن رسم شيء ما يعد نسخة من هذا الشيء، والتي هي في حالتنا هذه مجرد نسخة من الشكل الأصلي، فإن هذا الرسم لا يكون مرغوباً فيه خاصة، بسبب احتوائه على قدر من الحقيقة المتعلقة بالشكل الأصلي أقل مما هو موجود في الشيء المرسوم نفسه.

وسيراً على خطى نيتشه جنح بعض الفلاسفة الآخذين بالأشكال الأكثر تطرفاً من نزعة ما بعد الحداثة إلى التأكيد على أهمية الصورة الباهتة. ولعل موقفهم هذا مرتبط بميولهم الجمالية العامة. فقد أولى جان بودريار أهمية خاصة للصورة الباهتة، بينما تبنى كل من جيل ديلوز G. Deleuze وجان فرانسوا ليوتار هذا الاتجاه، خاصة في أعمالهما الأولى. وينعقد الإجماع على أن الصورة الباهتة ليست مجرد نسخة لنسخة أخرى: ذلك أنها تحاول - بطريقة ما - تحاشي الاتصال بالشكل المثالي. وإذا أدخلنا في الاعتبار أن نظام الأشكال يمثل - عند أفلاطون - النظام العقلي للكون، فإن الصورة الباهتة تشير حينئذ إلى ما لا يقبل القياس أو لا يتناسب مع العقل التصوري. (RC) للمزيد انظر: Deleuze (١٩٩٠ب).

Stereotype

الصورة النمطية

نظرة مفرطة في تبسيط الأمور وغالباً ما تكون مشبعة بالأحكام القيمية تكون على أساس الحكم على الاتجاهات، والتصرفات والتوقعات الخاصة بإحدى الجماعات أو أحد الأفراد. وهذه الآراء والنظرات قد تكون متجذرة في أعماق الثقافات الجنسية، أو الثقافات العرقية أو غيرها من الثقافات المتعصبة (انظر مادة: التعصب)، بحيث تستعصى عادة على التغيير إلى حد بعيد، كما تقوم بدور هام في تشكيل اتجاهات أعضاء الثقافة إزاء الآخرين. وفي نطاق الدراسات الثقافية، قد يتمثل دور الصور

النمطية بأوضح ما يكون فيما تقدمه وسائل الاتصال الجماهيري من أعمال (من قبيل تصويرها للمرأة وللأقليات الإثنية في الأعمال المسرحية والكوميديا، وطبيعة عملية التغطية الإخبارية وتفسيرها)، هذا على الرغم من أن دور هذه الصور النمطية المهم في مجال التعليم، والعمل، والرياضة أيضاً (إذ توجه أنشطة الأفراد إلى المجالات التي تعد ملائمة للصور النمطية للجماعة التي ينتمون إليها). (AE) للمزيد انظر: Macrae et al. (١٩٩٦) و Oakes et al (١٩٩٤) .

Structuration

الصياغة البنائية

انظر: التشكل البنائي.

Paradigm

صيغة

انظر: نموذج نظري.

الطبقة

Class

قد تُفهم الطبقات - أساساً - بوصفها تقسيمات اقتصادية، وذلك على الرغم من أن العوامل الاقتصادية ذات الصلة والتي تساهم في تمييز طبقة ما عن غيرها قد تكون هي نفسها محل خلاف. لذلك يتم تعريف الطبقات في التراث الماركسي، في ضوء ملكية الثروة المنتجة، بينما ينظر المفكرون الآخرون في تعريفهم للطبقات إلى الفروق في الدخل أو في العمل. ويُنظر إلى التقسيمات الطبقيّة - عادة - بوصفها أمراً أساسياً لعملية التدرج الاجتماعي في المجتمع، ومن ثم تكون مرتبطة بالفروق وصور التفاوت في القوة والثقافة. والمهم أن الطبقات لا تُفهم - في التصور النموذجي - على أنها مجرد مجموعات أو تجمعات من الأفراد، بحيث يصبح التحليل الطبقي مجرد الاهتمام بتصنيف أولئك الأفراد تبعاً لما يملكونه أو يتصفون به من خاصية ما. إنما الأصح أن الطبقات تُفهم بوصفها كيانات اجتماعية ذات وجود حقيقي مستقل عن الأفراد الذين تتكون منهم. وبهذه الصفة، قد تكون الطبقة عاملاً حاسماً في تفسير التركيبة التي تتكون منها الذات الإنسانية الفردية.

إن الملاحظة المشهورة لماركس وإنجلز، وإن كانت ملاحظة سطحية، التي ترى أن تاريخ البشرية السابق برمته إنما هو تاريخ الصراع الطبقي (١٩٨٥)، تكشف عن الكثير مما هو جوهري بالنسبة إلى النظرة الماركسية للطبقات. ذلك أن تحليل أي مجتمع معين، في أي مرحلة من مراحل التاريخ، يمكنه أن يركز على الصراع الكامن أو المكشوف، الدائر بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع. حيث تتكون الطبقة الخاضعة من الأفراد المنتجين الاقتصاديين الفعّالين في المجتمع. ومع ذلك، فإن أفراد هذه الطبقة ليس لهم سيطرة على العملية الإنتاجية، ومن ثم لا يمكنهم الحصول على القيمة الكاملة لما ينتجون، كما لا يمكنهم أن يقرروا كيفية تعيين وتوزيع المواد المنتجة. وذلك لأن الطبقة المسيطرة تملك وتسيطر على رصيد المجتمع من الثروات الاقتصادية

(أو قل: وسائل الإنتاج)، ومن ثم فهي التي تحدد مصير ما يتم إنتاجه باستعمال هذه الثروات. لهذا تكون العلاقة بين الطبقة المسيطرة والطبقة الخاضعة علاقة استغلال، على الرغم من أن الطبيعة الدقيقة لهذا الاستغلال تتوقف على المرحلة التاريخية المعينة التي يحدث فيها، أو على نمط الإنتاج. ففي مرحلة الرأسمالية مثلاً تتمثل الطبقة المسيطرة في البورجوازية التي تملك رأس المال، بينما تتمثل الطبقة الخاضعة في البروليتاريا (التي لا يملك أعضاؤها شيئاً سوى قوة عملهم، والتي يتعين عليهم أن يبيعوها من أجل أن يظلوا على قيد الحياة). ويتحقق الاستغلال من خلال استيلاء الطبقة البورجوازية على فائض القيمة، بمعنى أن العائد الذي تحصل عليه طبقة البروليتاريا من بيعها لقوة عملها تقدر بما هو أقل من القيمة التبادلية للمنتج عند بيعه.

وبينما يكون من المعترف به أن الطبقة البورجوازية وطبقة البروليتاريا هما الطبقتان التاريخيتان الكبيرتان المؤثرتان داخل النظام الرأسمالي، فإن ماركس يعترف بوجود طبقات أخرى داخل نفس النظام. وتمثل تلك الطبقات - في أى مرحلة تاريخية - البقايا أو الآثار المتبقية من مراحل تاريخية سابقة (وهكذا نجد أن طبقة الأرستقراطية الإقطاعية، مثلاً، ظلت موجودة داخل النظام الرأسمالي)، أو قد تكون هذه الطبقات هي الصورة المبكرة أو الأولية لطبقة سيصبح لها شأن فيما بعد (وذلك مثل ما حدث لطبقة الرأسماليين التجاريين التي كانت موجودة في المرحلة المتأخرة من حياة النظام الإقطاعي). وقد يكون لجماعات أخرى في المجتمع الرأسمالي أوصاف اجتماعية ملتبسة أو غير محددة بدقة، كوضع المنتج البورجوازي الصغير (وهو الوضع الذي يشمل صاحب المتجر، وصاحب المشروع التجاري الحر)، وهذه الجماعات ليس لديها من الملكية الإنتاجية ما يكفيها لتحرير أنفسها من ضرورة العمل (انظر ماركس ١٩٧٦).

وتتظفر الماركسية إلى الصراع الطبقي فى ضوء المصالح المتصارعة للطبقات. فمن مصلحة الطبقة المسيطرة أن تستمر العلاقات الاقتصادية القائمة. ومن مصلحة الطبقات الخاضعة أن تشهد نهاية تلك العلاقات. ومع ذلك، فإن الصراع الطبقي الصريح والذى يتخذ شكل الثورة، يتم كبته - ولو فى جانب كبير منه - من خلال الآليات الإيديولوجية (كالأنظمة والمؤسسات التعليمية، والدين، ووسائل الاتصال الجماهيرى) الموجودة فى هذا المجتمع. وتذهب إحدى نظريات الإيديولوجيا إلى أن الطبقة المسيطرة لا تحافظ على وضعها بالاقتصار فقط على ممارسة القوة المادية (أو السيطرة على وسائل العنف). بل إنها تضيف إلى ذلك التهديد باستعمال العنف، وربما يصبح هذا التهديد - على المدى القصير - أمراً لا حاجة إليه بفضل الاستعانة بآساق الاعتقاد التى تضيف الشرعية على ذلك التسلط الذى تمارسه الطبقة المسيطرة. وهكذا تؤمن الطبقات الخاضعة - وهى واقعة تحت تأثير الإيديولوجيا السائدة - بالمعتقدات التى تتناقض مع مصالحها الموضوعية على المدى البعيد. وتصبح قضية الإيديولوجيا قضية جوهرية بالنسبة للدراسات الثقافية عندما تذهب نظريات الإيديولوجيا الأكثر تعمقاً (خاصة تلك المتمركزة حول مفهوم الهيمنة)؛ تذهب إلى أن الطبقات الخاضعة لا تتقبل ببساطة، وبصورة سلبية، تفسيراً للعالم يكون من مصلحة الطبقة المسيطرة، وإنما تستطيع - على نحو أو آخر - أن تُعدّل فى هذا التفسير وتقاومه، وذلك فى ضوء خبرتها الخاصة. وبذلك، تعد الثقافة بناءً يتشكل أساساً وفقاً لصور التفاوت الطبقي.

وعلى حين يميل التراث الماركسى إلى تفسير كافة صور عدم المساواة الاجتماعية بالاستناد إلى الفوارق الاقتصادية (بحيث يظل الناس يتوقعون للطبقة ذات السيطرة الاقتصادية أن تكون هى نفسها المسيطرة سياسياً وثقافياً) نجد فى تراث التحليل السوسيولوجي المعتمد على أعمال ماكس فيبر إيثاراً لتفسير آخر للتفاوت الاجتماعي،

يقوم على رؤية عدد من الطبقات فى المجتمع أكبر من مجرد طبقتين اثنتين (١٩٤٦/ح). ويكمل فيبر التحليل الاقتصادى للطبقة، بتحليلاته للفوارق فى القوة والمكانة الاجتماعية. كما أن نظرة فيبر للمحددات الاقتصادية للطبقة تتسم فى الحقيقة بأنها أكثر تنوعاً من نظرة ماركس لتلك المحددات. ففى المقام الأول، لا يفترض فيبر مسبقاً أن جميع الفوارق الاجتماعية يمكن اختزالها إلى فوارق اقتصادية (مشيراً، على سبيل المثال، إلى أن المجلس السياسى الأرسقراطى الألمانى (والسمى Junta) فى أواخر القرن التاسع عشر كان يسيطر على القوة السياسية فى البلاد، على الرغم من وجود طبقة بورجوازية قوية اقتصادياً).

زد على ذلك أن فيبر يرى، ولو فيما يتصل بالرأسمالية المعاصرة فقط، أن الموقع الطبقي للفرد لا يتوقف توقفاً تاماً على علاقته بوسائل الإنتاج، إنما يتحدد هذا الموقع من خلال السوق. ولهذا يتحدث فيبر عن فرص السوق، كأن يجلب الفرد إلى أسواق رأس المال وأسواق العمل موارد مختلفة، منها مثلاً ما يملكه من أسهم فى مختلف الشركات، وقدرته على العمل، والأهم ما يملكه من مستويات عالية من المهارة. وسوف تجنى الثروات المختلفة مستويات مختلفة وأنواعاً مختلفة من المكافآت المادية والرمزية (أو من فرص الحياة).

ويتيح هذا الرأى للمفكر الآخذ بنظرة فيبر أن يتبين بعض صور التباين داخل طبقة البروليتاريا بمعناها الماركسى، بحيث يستطيع أن يفسر سبب وجود مستويات عالية من المكافآت ومن الوضع الاجتماعى الرفيع، والتي تُمنح للمثقفين والمديرين ورجال الإدارة الحكومية، على نحو يفوق ما يمنح للعمال اليدويين. وهذا الرأى يلقى - بدوره - الضوء على الوضع الطبقي الغامض والممتبس لهذه الجماعات وذلك من حيث إنه رغم تعريفها - بصورة قاطعة - بأنها جماعات من العاملين، فإن ما لها من مصالح طبقية عاجلة أو ظاهرة، وما تتمتع به من إدراك لنفسها ومن هوية ثقافية قد

يكون أكثر اتقافاً مع، واقترباً مما لدى الطبقة البورجوازية المالكة للثروة. (وتشكل التحليلات التي تناولت هذه الجماعات جزءاً رئيسياً من النظرية الطبقيّة عند رايت E.O. Wright (١٩٨٥)، على سبيل المثال). يضاف إلى ذلك أن تحليل الفوارق في المكانة الاجتماعية، أو الهوية والاحترام، والمرتبطة بالأوضاع الاجتماعية المختلفة، يمكن أن يفضى إلى تحليل لأساليب المعيشة المميزة لكل طبقة من الطبقات المختلفة (بحيث تصبح النظرة للطبقة - مجدداً - بوصفها ظاهرة ثقافية وليس ظاهرة اقتصادية بحتة).

وهناك خطر أن تختزل النظرة الفيبيرية في تحليل الطبقات إلى مجرد تفسير لطبيعة الطبقات في ضوء الفوارق المهنية فحسب، ومن ثم تتحول إلى شيء قريب الشبه بذلك التصنيف الذي وضعته الإدارة العامة للسجل المدني بالملكة المتحدة لتصنيف الجماعات والفئات الاقتصادية الاجتماعية (الذي يقسمها إلى فئة أصحاب المهن التخصصية (كالأطباء والمهندسين والمحامين)، ثم فئة الموظفين والإداريين، وفئة العاملين بالوظائف الوسطى غير اليدوية، وفئة العمال اليدويين المهرة والعمال غير المهرة الذين يعملون لحسابهم، والعمال نصف المهرة، وشاغلي الوظائف اليدوية غير الماهرة). وما لم تقم هذه التصنيفات على ركائز قوية من النظرية الطبقيّة فإنها لن تفعل شيئاً أكثر من تمييزها لتجمعات من مختلف الأفراد، لتحقيق أغراض إدارية، بدلاً من وصفها وتفسيرها للطبقات بوصفها كيانات اجتماعية موجودة بالفعل، وشرحها للدور الأساسي الذي تقوم به في حياتنا.

وثمة مشكلة أخرى تواجه جميع التحليلات الطبقيّة، وأعني اختزال الطبقات إلى مجرد مجموعات أو فئات اقتصادية - اجتماعية، وتتمثل هذه المشكلة في إخفاق هذه التحليلات في إدخال وضع النساء الطبقي في الحسابان. فلاشك أنه بسبب كون التحليلات الطبقيّة تجري غالباً وفقاً للنشاط الاقتصادي لأفراد الطبقة، ظلت النساء بعيداً عن الأنظار، أو تم توزيعهن تبعاً للطبقة التي ينتسب إليها شركاؤهن من الرجال،

وذلك على أساس أنهم لم يكن من فئة العاملين بأجر. أما إذا كن من العاملين بأجر، فإن أجورهم (وما يرتبط بها من وضع اقتصادي) كانت ذات أهمية ثانوية بالنسبة لما يتحصل عليه شركاؤهم من الرجال. وقد حاولت بعض عضوات الحركة النسوية الاشتراكية تقديم تحليل للعلاقة بين الرجال والنساء بوصفها مناظرة - فى ذاتها - للعلاقة الطبقية، وذلك بلفت النظر إلى ما يقوم به الرجل من الاستيلاء على عمل الأنثى (كاستيلائه على عملها داخل المنزل بدون أجر، أو ذلك الفارق المستمر بين أجر الذكر وأجر الأنثى) (باريت Barrett ١٩٨٠) (انظر كذلك مادة: الحراك الاجتماعى). (AE) للمزيد انظر: (Bennett et al ١٩٨١). و (Giddens and Held ١٩٨٢) و (Giddens ١٩٧٢) و (Edgell ١٩٩٢) و (Eagleton ١٩٩١).

Underclass

الطبقة الدنيا

"الطبقة الدنيا" مصطلح يشيع استعماله على نحو يشويه الغموض، كما ينتشر من حين لآخر فى مجال الأزياء ومجال الفكر الاجتماعى والسياسى، ويشار به إلى جماعة لها بناؤها الخاص وتعيش فى قاع التدرج الطبقي الهرمى (انظر مادة: الطبقة) فى المجتمعات الرأسمالية. أما ظهور مصطلح "الطبقة العمالية الجديدة" فى مدن أمريكا الشمالية فيعزى إلى إس. إم. ميلر S. M. Miller (١٩٦٥). وكانت هذه الطبقة مكونة من الأقليات الإثنية (بما فيها من البورتوريكيين، والمكسيكيين، والأمريكيين السود)، والذين كانوا يعملون فى المهن الخدمية ذات الدخول المتدنية، ولا يضمهم تنظيم نقابى يمثلهم، كما يعانون من البطالة مدداً طويلة (ويمكن لهذه الأسباب مقارنتهم بالطبقة العمالية القديمة" التى كانت تتمتع بقدر أكبر من الغنى والأمان، وتتكون من العمال البيض فى غالبيتها. ويمكن للمعالجة النظرية المتعمقة لفهوم الطبقة الدنيا أن تدرج النساء جنباً إلى جنب الأقليات الإثنية باعتبار أن النساء تنطبق عليهن سائر صفات أعضاء الطبقة الدنيا انطباقاً تاماً (AE)

الطبيعة

Nature

لمصطلح "الطبيعة" عدد من المعاني، يشير أقدمها إلى الخاصية الجوهرية أو الصفة الجوهرية لشيء ما (انظر ويليامز ١٩٧٦: ٢١٩ وما يليها). وإذا كان لكل شيء مفرد طبيعته الخاصة به، إذن "فالطبيعة" هي الصفة الجوهرية لكل شيء. والطبيعة هي القوة الأساسية والمحركة من وراء الكون. وبعبارة أبسط نقول، إن الطبيعة قد تكون معادلة - بوضوح - للكون وجميع ما يحتوى عليه الكون (بدلاً من قولنا إنها وراء الكون). وهناك معنى أدق وأكثر تحديداً بمقتضاه تكون الطبيعة هي العالم الحي (عالم النباتات الطبيعية والحيوانات). ويقصد بمفهوم "الطبيعة" - في أحدث استعمال له - ما يقابل المجتمع الإنساني والثقافة الإنسانية، أو ما هو سابق على ظهورهما، أو ما يقع - فحسب - خارج نطاقهما. ذلك أن الثقافة الإنسانية والمجتمع الإنساني أمور مصنوعة، بمعنى أنه يتم إنتاجها، أو تصنيعها أو تغيير أشكالها من خلال الإبداع الإنساني والكد والمثابرة التي يبذلها البشر في هذا الشأن. وقد تكون الطبيعة هي المادة التي تخضع لعملية التحويل والتشكيل المذكورة، لكنه لا يصح اعتبارها جزءاً من المجتمع الإنساني، إلا بعد أن يتم تحويلها أو إعادة تشكيلها على هذا النحو.

وهذا المعنى الأخير للطبيعة هو أشد المعاني ارتباطاً بالدراسات الثقافية. وإذا وضعت الطبيعة في الجانب المقابل للمجتمع الإنساني، فإما أن يكون ذلك بسبب النظر إليها بوصفها تسمى درجة من المجتمع، وإما لأنها أقل منه شأنًا. من ذلك وصف الفيلسوف السياسي الإنجليزي توماس هوبز - في منتصف القرن السابع عشر - الحالة التي يمكن أن ينتهي إليها المجتمع عند انهياره بأنها الحالة الطبيعية للمجتمع، والتي لا تنحصر في حالة الحرب الأهلية فقط (١٩٩٤). وهذه الحالة الطبيعية التي يقول بها هوبز تتسم بالوحشية والعنف، ولهذا يتعين أن تضطلع الفلسفة السياسية

بمهمة وصف أشكال نظم الحكم التى تكون أكثر كفاءة فى وقاية المجتمع من التفكك والعودة إلى حالته الطبيعية.

فى مقابل هذه النظرة إلى الطبيعة نجد نظرة أخرى تتضح فى كتابات الفيلسوف الألمانى كانط (١٩٨٣) وهيجل (١٩٤٨)، وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر تماماً وبداية القرن التاسع عشر. فكلاهما يطرح تصوراتهما عن التاريخ الإنسانى، انطلاقاً من تفسير ما جاء فى سفر التكوين^(٥)، وهو التاريخ الذى يبدأ بأوائل البشر (كآدم وحواء، ونوح وإبراهيم) بعد أن حُكم عليهم بالطرد من الطبيعة وما فيها من الأمن والسلام، وذلك لحملهم على إطلاق طاقاتهم الكامنة فيهم بوصفهم كائنات إنسانية. فالطبيعة هنا - سواء أكان معناها جنة عدن، أم كان يشار بها إلى إبراهيم الذى كان يعيش فى البادية وكل ما يشغله متابعة الأغنام الشاردة عن القطيع - لم تكن تفرض تحدياً على البشر، ومن ثم فإنها لا تستحثهم على تطوير ما لديهم من إدراك لذواتهم ومن قدرة على التدبر والتفكير.

أما الصورة السائدة للطبيعة فى العلم والفلسفة السياسية لدى مفكرى حركة التنوير الأوروبية أثناء القرن السابع عشر، فهى صورة للطبيعة باعتبارها أسمى درجة من المجتمع. فهى منبع النظام والعقل (كما تصوره المبادئ الفيزيائية التى صاغها علماء الطبيعة، وخاصة نيوتن). ومن الناحية السياسية، ساعد اللجوء إلى الطبيعة والنظام الطبيعى على الاعتراض على المجتمع المعاصر وقتها وعلى توجيه النقد إليه. فقد كانت الطبيعة بما فيها من نظام وانضباط تبشر بالوصول إلى وضع آخر بدلاً من الأوضاع الموروثة التى تبدو أوضاعاً تحكمية بل حتى أوضاعاً فاسدة، هيمنت على المجتمع الخاضع للحكم الاستبدادى المطلق، كما هيمنت على المجتمع الإقطاعى.

(٥) من أسفار التوراة.

وهكذا لجأ الفيلسوف الإنجليزي جون لوك(*) - مثلاً - إلى فكرة الحالة الطبيعية ولكن باعتبارها حالة طيبة نسبياً كانت قائمة قبل تكون المجتمع (١٩٨٠). وفي تلك الحالة الطبيعية كانت الكائنات الإنسانية تتمتع بالحريات الواسعة النطاق (أو بالحقوق الطبيعية). وقد كان من السهل إضعاف هذه الحريات أو إلزالتها بسبب التصرفات العنيفة والأنانية من جانب الآخرين، وهكذا ظهر المجتمع للوجود (في صورة الحكومة أو الدولة) عندما تجمع الناس معاً ليحمي بعضهم بعضاً. ولذلك كانت المهمة المنوطة بأى شكل راشد ومقبول من أشكال الحكم هي حماية الحريات الطبيعية للمواطنين الخاضعين له. ومن الجدير بالذكر هنا أن نظام الحكم الإقطاعي أخفق في أداء هذه المهمة.

وفي رومانسية أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، تعرض هذا المعنى السامى للطبيعة لشيء من التحوير والتعديل. فالمجتمع في ذلك الوقت يتعين عليه أن يتعلم من الطبيعة، وأن يجدد نفسه من خلال ذلك الدرس (بدلاً من تعرضه للدمار بسبب لجوئه إلى الطبيعة). والأهمية التي توليها حركة التنوير للعقل، وللنظام العقلى الذى وجدته فى الطبيعة، حل محلها شكل من أشكال الاهتمام بالتنوع والخصوبة التى يتصف بها الوجود العضوى. وتصير الطبيعة منبعاً للقيم والمشاعر الروحية. وتصير رمزاً لما هو خير وطاهر. فهى ذلك العالم الذى يعيش فيه "البدانى النبيل".

(*) لوك، جون Locke, John (١٦٣٢-١٧٠٢) فيلسوف إنجليزي ومنظر سياسى. وجدت فيه ثورة العلوم الطبيعية فى القرن السابع عشر أحد الفلاسفة الأساسيين المدعين لها. فكان لوك من الشخصيات البارزة التى لعبت دوراً مهماً فى تحقيق التحالف المتصل بين العلم الحديث وبين التراث الإيبيريقي للمعرفة. كذلك تعتبر الفلسفة السياسية الخاصة بجون لوك ذات أهمية مستمرة باعتبارها واحدة من التيارات العقلانية المبكرة للنظام الملكى الدستورى الحديث. ويعتبر تحليل لوك لمصادر وحدود حقوق الملكية الفردية فى ظل عالم نشأ بالتشارك بين كل البشر، من الأجزاء ذات الأهمية الخاصة فى فلسفته السياسية. انظر المزيد عنه فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٢٢٤ وما بعدها. (المراجع)

ويعد هذا الاستعمال لكلمة الطبيعة بهذا المعنى الأخير أمراً مهماً، لأنه لا يزال مستمراً في أيامنا هذه، خاصة في لغة الإعلان. إذ تزعم الإعلانات أن القمح الذي يعد منه إفطارك إنما هو قمح "طبيعي". ولو أننا إذا أردنا الدقة، فإن القمح منتج من منتجات الثقافة الإنسانية (أو إذا أردنا المزيد من الدقة، هو منتج من منتجات الزراعة). وهو ثمرة مئات السنين من عمليات الاستيلاد الانتقائي من بين سلالات القمح المتعددة. (ومن الممكن أن يكون القمح الطبيعي - الذي لم يتعرض لتدخل البشر في تعديل صفاته - عشبة غير مستساغة المذاق إلى حد ما لا تزال توجد في الحبشة على صورتها الطبيعية). وفي وقتنا هذا توجد فروق دقيقة شديدة الترابط ببعضها عند استعمالنا لكلمة "العضوي".

وربما يكون التحوير الأخير الذي أصاب معنى كلمة "الطبيعة" هو ذلك الاستعمال الفائق الأهمية بالنسبة للدراسات الثقافية، وذلك لأنه يكشف الكثير عن تأثير الإيديولوجيا. فقد ينظر إلى الإيديولوجيا على أنها مجموعة من الأفكار والمفاهيم التي تشكل فهمنا للعالم، كما أنها تقوم بصورة حاسمة بتشكيل وتشويه هذا الفهم حتى لا نعترض على علاقات القوة القائمة ولا نناقشها. فالطبيعة تقوم بدور حاسم في الإيديولوجيا، لأنه إذا نظرنا إلى العلاقات والأحداث الاجتماعية والثقافية على أنها علاقات وأحداث طبيعية فإنها لن تقابل بالاعتراض. ولن تبدو في أعيننا كنتاج من نواتج الفاعل الإنساني وممارسة القوة السياسية، كما أن الاعتراض على هذه العلاقات والأحداث سوف يبدو - من حيث العقل والإدراك - مماثلاً للاعتراض على قانون الجاذبية الأرضية أو على كون السماء تمطر، حال نزول المطر فعلاً.

وقد استعمل الفيلسوف المجري جورج لوكاتش عبارة "الطبيعة الثانية" مستهدفاً بها تلخيص هذه الخبرة المجتمعية (١٩٧٨). ومفاد هذه العبارة أن ما هو حصيلته العمل والإبداع الإنساني (أي: مجتمعنا وثقافتنا) وما ينبغي - بناءً على ذلك - أن

يكون حافلاً بالمعانى والإشارات الدالة على المقاصد والغايات الإنسانية؛ كل ذلك يواجهنا - فى واقع الأمر - كأنه شىء غريب عنا وكأنه لا معنى له عندنا، مثله فى ذلك مثل الطبيعة الأولى - أى الطبيعة الحقيقية. وقد لخص الفيلسوف الماركسى الألمانى تيودور أدورنو ذلك التحدى الذى تفرضه الإيديولوجيا بقلبها معنى الطبيعة وقلبها معنى الثقافة بسبب سعيها للوصول إلى دراسة للثقافة تشكلها الاعتبارات السياسية، فقال: "إن ما لا يمكن تغييره قد يترك وشأنه ليعتنى بنفسه. أما عندما يكون فى الإمكان تغييره، فمن واجبنا تغييره" (فيجرهاوس Wiggerhaus ١٩٩٤: ٩٠). وهذا معناه أن مهمة النظرية الثقافية هى تأمل تلك الطبيعة الثانية، ومن ثم العمل على تغيير ما يبدو أنه غير قابل للتغيير. (AE) (المزيد انظر مادة: الإيكولوجيا، علم البيئة)

الطليعة/ فنانون الطليعة

Avant-Guard

مصطلح مجازى يستعمل فى ميدان نظرية الفن والفلسفة السياسية. ويشير المصطلح الفرنسى Avant-Guard، أو المصطلح الإنجليزى Vanguard - فى معناه الحرفى - إلى المقدمة الأمامية للجيش. ومنذ بداية القرن العشرين، استعمل هذا المصطلح استعمالاً مجازياً ليشار به إلى القيادة السياسية والثقافية لإحدى جماعات الصفوة فى المجتمع. وتنطوى هذه الفكرة على عدد من الافتراضات المتصلة بالتقدم السياسى والثقافى اللذين تسعى هذه الطليعة إلى تحقيقهما. ويكون أغلب أفراد المجتمع - بدرجة أو بأخرى - غير مباينين بمصلحتهم الماثلة فى هذا التقدم، أو حتى غير مدركين لها، كما أنهم يقارمون أفراد هذه الطليعة أو يتخذون منهم موقفاً عدائياً. ونظراً لأن الطليعة تُعد أحد الجوانب الأساسية للحدث الثقافي، فإنها تعبر عن نفسها - عادة - من خلال استعمالها لأساليب غامضة ومجددة، فى الوقت الذى تقاوم فيه - عن عمد - محاولة استيعابها بسهولة ضمن الثقافة الشعبية أو الجماهيرية (انظر

أدورنو (١٩٨٤). وفي الفلسفة السياسية، تعد الطليعة صفوة فكرية لا غنى عنها، فهي التي تقود الجماهير التي لا تزال مبتلاة بالإيديولوجيا، والمبتلاة - لهذا السبب - بالوعى الزائف الذي يعميها عن رؤية القدر الأكبر من مصالحها. (انظر لوكاتش، ١٩٧١). ومع تزايد التساؤلات والشكوك حول الحداثة، وحول الماركسية في واقع الأمر، أصبح قبول مصطلح الطليعة نفسه محل شك وارتياب (انظر بورجر Bürger ١٩٨٤) (AE)

Social Fact

الظاهرة الاجتماعية

تتصف الظاهرة الاجتماعية - خاصة في علم اجتماع دوركايم بتأثيرها القاهر على الفرد. وعلى ذلك، فإنه على الرغم من أن الظواهر الاجتماعية قد تكون - أصلاً - ثمرة للعمل أو النشاط الإنساني، فإنها طورت لنفسها نوعاً من الاستقلال عن الأفراد الذين قاموا بها، ومن ثم أصبحت تجابه الأفراد باعتبارهم شيئاً خارجياً عنها. وتتصف الظواهر الاجتماعية بشكل من الموضوعية مماثل للموضوعية التي تتصف بها الأشياء الطبيعية والقوانين في عالم الفيزياء. ويذهب دوركايم (١٩٨٢) إلى أن هدف علم الاجتماع هو دراسة هذه الظواهر الاجتماعية (AE).

Art world

العالم الفني

مصطلح من مصطلحات علم الجمال، كان آرثر دانتو A.Danto أول من صكه (١٩٦٤)، إلا أن جورج ديكي G.Dickie هو الذى طوره بوصفه المفهوم الرئيسى من مفاهيم النظرية المؤسسية للفن. فقد أسهمت أعمال فنية حديثة معينة، خصوصاً أعمال الفنان دوشان(*) Duchamp (وبصفة خاصة لوحته المسماة "المبولة" Fountaln): أسهمت بجانب الفنون الذهنية فى إثارة المشكلات فى وجه الاتجاهات التقليدية فى علم الجمال، وذلك إزاء ادعاء تلك الاعمال كونها أعمالاً فنية، حتى ولو لم يكن لديها فى الظاهر أى صفة من الصفات التى تنسب عادة إلى الفن. وتحاول النظرية المؤسسية للفن أن تحل هذه المشكلة بالقول بأنه لا يوجد فى أى شئ أو موضوع خاصيات متصلة فيه كفيلة بأن تسمه بأنه عمل فنى. وإنما يتم إضفاء صفة العمل الفنى على الشئ أو الموضوع من قبل العالم الفنى (**).

ويعرف ديكي العالم الفني بأنه "مجموعة من الأشخاص المنظمين فى إطار فضفاض، لكنهم مع ذلك مترابطون متواصلون. وتضم تلك الجماعة: الفنانين، والمنتجين، ومديرى المتاحف، ورواد المتاحف، والنقاد، وفلاسفة الفن، وغيرهم" (ديكي ١٩٧٤: ٣٥-٣٦). وموجز القول إن هذه المجموعة - فى الأعم الأغلب - هى التى تحدد

(*) دوشان، مارسيل Duchamp, Marcel (١٨٨٧-١٩٦٨) رسام فرنسى. أحد مؤسسى المدرسة الدادية dadaism والمدرسة السريالية. هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٥، واكتسب الجنسية الأمريكية عام ١٩٥٥ هجر الرسم عام ١٩٢٢ وأخذ بشكل منحوتات من مواد صناعية. أشهر أعماله لوحة دعاها "عارية تثبط سلفاً" (١٩١٢) وفيها ملامح تكعيبية صارخة. (المراجع)

(**) راجع كذلك: إنجليز ومجسون (محرران)، سوسيولوجيا الفن. طرق للرؤية، ترجمة لىلى الموسوى، مراجعة وتقديم محمد الجومرى، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٧ (انظر خصوصاً: الفصل السابق ص ١٤٧-١٦٢). (المراجع)

هويتها بنفسها وهوية أعضائها، ممن يبدون اهتماماً بالفن، وهكذا تتداول الآراء فيما يتصل بالوضع القائم لطائفة معينة من المنتجات والأعمال الفنية اليدوية. وترى النظرية المؤسسية للفن أن المنتجات الفنية اليدوية التي لم يقصد من إنتاجها أصلاً أن تكون أعمالاً فنية (من قبيل الأعمال التي أنجزت في العصور الوسطى والعصور القديمة قبل صياغة المفهوم الحديث "للفن") نقول: إن تلك المنتجات اليدوية قد تُمنح صفة الأعمال الفنية في وقتنا هذا. وبالمثل فإن الأشياء التي كانت تعد - في وقت مضى - فناً قد ينزع عنها هذا الوصف اليوم. والسؤال الذي قد يطرح في هذا المقام وتكون له وجهته: أليس من الأنوب أن تُفهم النظرية المؤسسية للفن - على الوجه الصحيح - باعتبارها اتجاهاً داخل علم الاجتماع الثقافي وليس داخل علم الجمال؟ (AE)

Life-World

عالم الحياة

طرح مفهوم "عالم الحياة" الفيلسوف الفينومينولوجي الألماني إدموند هوسرل (*)، للإشارة إلى ما تتمتع به الكائنات الإنسانية من قدرات على توقع المستقبل ومن مهارات عملية، وذلك من قبل أن يكون لديهم أدنى ارتباط مقصود أو نظري بهذا العالم. وبينما نجد أن هذه المعتقدات والقدرات قد يتم اكتسابها في أي وقت بشكل واع مقصود، فتكون ثمرة التفكير المتعمق في العالم الاجتماعي والمادي، إلا أنها أصبحت الآن تؤخذ كأمر مسلم به ولا يلتفت إليه في كثير من الأحوال. ذلك لأنها

(*) هوسرل، إدموند Husserl, Edmund (١٨٥٩-١٩٣٨) فيلسوف ألماني ومؤسس الحركة المعروفة باسم الفينومينولوجيا. من أهم مؤلفاته: "فلسفة الحساب" (١٨٩١)، و"أبحاث منطقية" (١٩٠٠-١٩٠١)، و"أساس الفينومينولوجيا" وأفكار للفينومينولوجيا الخالصة" (١٩١٣)، ونشر الجزأين الثاني والثالث بعد وفاته (١٩٥٢). للمزيد انظر: فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص ٢٩١. (المراجع)

تصبح "مترسبة" فى أعماق عالم الحياة، إذ نكتسبها أثناء تعلمنا كيف نصبح عناصر اجتماعية مقتدرة داخل مجتمعا. وعلى ذلك، فإن عالم الحياة يتكون من "أرصدة معرفية" (على حد تعبير ألفرد شوتز)، أو من المهارات ومن التوقعات المستقبلية التى تتيج لنا أن نضفى المعنى على العالم الاجتماعى الذى نعيش فيه (وأن نبنيه فى واقع الأمر). وقد تم الأخذ بهذا المفهوم حديثاً فى النظرية الاجتماعية بفضل يورجن هابرماس، حيث يوضع عالم الحياة، كما توضع الخبرة المستقاة من الحياة اليومية - كخبرة لها معناها وتخضع لسيطرتنا - فى مواجهة جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى المنظمة أو التى تبدو فى ظاهرها موضوعية وخالية من المعنى، ومقيدة للحرية الفردية. (AE) للمزيد انظر: Schutz (١٩٦٢) و Husserl (١٩٥٤) و Habermass (١٩٨٤، ١٩٨٧).

Race/ Racism

العرق / النزعة العرقية

نمط من أنماط تصنيف البشر يميز بينهم على أساس الخواص البدنية (كلون البشرة، وملامح الوجه مثلاً) التى يدعى أنها تنشأ عن الوراثة الجينية. والمشكلة الأساسية فى نمط التصنيف المذكور تكمن فى أن عمليات الاختيار المتعلقة بما ينبغى أن يعد من هذه الصفات المميزة "عرقياً" ومن ثم يعد "طبيعياً" (بمعنى أنه ليس ثقافياً) هى فى حد ذاتها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بوجود معايير ثقافية خاصة بما يحدد فارقاً ما باعتباره "عرقياً" بالأساس. ويستتبع ذلك أنه ربما تكون المقاييس المستخدمة فى التفرقة بين ما تسمى "أعراقاً" قد اكتسبت مكانتها والاعتراف بها نتيجة لعوامل أخرى لها بُعد اجتماعى أساساً ومرتبطة - مثلاً - بقضية القوة وقضية التصور أو التمثيل، وهى قضايا تحكمها الاعتبارات الاجتماعية.

وقد طرحت هذه المسألة الدقيقة من قبل بعض الكتاب أمثال إدوارد سعيد. حيث يذهب سعيد في كتابه "الاستشراق" (١٩٧٨) إلى أن مفهوم "الشرقي" (من حيث دلالة على كل من الذات الشرقية والثقافة الشرقية) كما هو مطروح في الدراسات الأوروبية عن الاستشراق إنما يمثل في الواقع صورة للمفاهيم والقيم الأوروبية عن الذات الشرقية. وعلى ذلك فمن الممكن قراءة ما يُزعم أنها صفات "موضوعية" للشرقي على أنها تعبيرات تفصح عن الرغبة الاستعمارية الأوروبية في تفسير أو تصوير هوية الذات المستعمرة وفي السيطرة على هذه الذات بناءً على هذا التفسير. وبالمثل عندما تتم مناقشة ما هو شرقي بعبارة سلبية (كأن ينسب إلى الفرد الشرقي، مثلاً، صفة "اللاعقلانية")، فإن هذه المناقشة كذلك يمكن تفسيرها على أنها إسقاط للمخاوف الأوروبية وليست وصفاً دقيقاً للملامح "العرقية" و"الثقافية" للإنسان الشرقي.

إن الاعتقاد بأن الفروق والاختلافات البدنية بين الأعراق البشرية تثبت - بدورها - صحة إسناد سمات إضافية (لعرق بشرى معين) غير ذات طابع بدني صرف، وإنما تدل على وجود مجموعة محددة من القدرات أو الميول أو أشكال السلوك؛ هذا الاعتقاد مرتبط بالاتجاه الذي تميل إليه النزعة العرقية. ولا حاجة إلى تذكير القارئ بأن القرن العشرين شهد بعضاً من أقوى التعبيرات النابعة من التفكير العرقي وأشدّها إثارة للإزعاج والاضطراب، كما شهد - فعلاً - طرفاً من العواقب الفاجعة لهذا التفكير التي تمثلت في النزعة الاشتراكية القومية الألمانية (النازية).

وعلى الرغم من أن وصف الاتجاهات العرقية قد لا يكون بالأمر البالغ الصعوبة دائماً، فإن الكيفية التي يمكن للمرء أن يفسر بها الظواهر المتأثرة بالنزعة العرقية - كظاهرة معادة السامية - تعد مسألة صعبة فعلاً. ولا ريب أنه بالإمكان الإشارة إلى عدد كبير من المجالات الفكرية (بما فيها مجال العلوم الطبيعية نفسها) والزعم بأن النزعة العرقية وجدت - في كثير من الأوقات - تعبيراً عنها داخل هذه المجالات (وفي

هذا السياق يقفز إلى ذهن الفيلسوف الألماني هيجل في ملاحظاته المغلوطة عن القارة الأفريقية، والتي صور فيها هذه القارة باعتبارها مرحلة "متخلفة" Undeveloped في جدليته عن "الروح المطلق". وينفس القدر كذلك، يمكن توجيه نفس الاتهام - بحق - إلى "الاستشراق"، الذي انتقده سعيد باعتباره أحد تجليات النزعة العرقية. يضاف إلى ذلك أن الإيديولوجيا النازية تبو أنها كانت - فيما يتصل بهذه النقطة - في غاية البعد عن الحاجة إلى تقديم مبررات فكرية شاملة للمتقنين الألمان، وذلك على الرغم من أن ما فيها من عدا للسامية ربما يكون قد نال دعماً من بعض أتباع هتلر من المشتغلين بعلم الوراثة.

وفي هذا الصدد علق هوبسباوم Hobsbawm قائلاً: "كانت النزعة العرقية الهتلرية... خليطاً غير متجانس من أفكار ما بعد الداروينية التي يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث كانت تدعى أنها تستند إلى شواهد من علم الوراثة الجديد (وللأسف، حدث ذلك في ألمانيا في أكثر من مرة)، أو إذا شئنا مزيداً من الدقة قلنا إنها كانت تطالب بدعم ذلك الفرع الخاص بعلم الوراثة التطبيقية (وهو "علم تحسين النسل") الذي كان يحلم بالوصول إلى توليد عرق إنساني فائق (سوبر) عن طريق "عمليات" الاستيلاء الانتقائي الموجه والتخلص من الأفراد غير الأصحاء" (هوبسباوم ١٩٩٥: ١١٨).

وهكذا، فإنه على الرغم من أن النزعة العرقية الهتلرية نفسها تلقت الدعم والتأييد من بعض المشتغلين بعلم تحسين النسل (وادعت بذلك لنفسها حقاً في نوع من الزعم الخاطي بأنها تحظى بالاحترام "العلمي")، فإن الأصول والمبررات الفكرية لهذه النزعة العرقية كانت قضية واهية الأساس تماماً. ويذهب هوبسباوم إلى أن الأمر الأكثر أهمية لهذا المظهر الذي تجلى فيه النزعة العرقية كان يتمثل في الكراهية الجماعية للأجانب التي ورثتها المرحلة الأخيرة من القرن التاسع عشر للقرن العشرين (والتي

يمكن للمرء أن يضيف إليها ما أحدثته النزعة المحافظة ذات الحنين المرضى للماضى من تأثير فى نفس الاتجاه). وهكذا كانت الثقافة التى تبنتها النزعة العرقية النازية، شأنها فى ذلك شأن هذه الحركة نفسها ظاهرة جماهيرية، كما أنها تقدم لنا دليلاً كافياً على المخاطر التى قد تشكل جزءاً لا يتجزأ من أشكال الثقافة الجماعية القائمة على التفرير بالجماهير.

وأياً ما كانت أسباب النزعة العرقية، فمن الواضح أن أنصارها يُخضعون الفروق والاختلافات التى يوحى ظاهرها بأنها فروق أو اختلافات بدنية أو معيارية (أى: سلوكية) "هامة"، يخضعونها للافتراضات المسبقة التى تذهب إلى أن اتصاف عرق بشرى معين بمجموعة من السمات المميزة لا يدل على وجود فارق بدنى فقط، إنما يدل كذلك على وجود فارق جبلى (أى فطرى متأصل) فى هوية هذا العرق، وفى طبيعته، وفى "قيمه الذاتية" (قارن مادة: الصورة النمطية/ أو النمط الثابت). وهكذا تميز النزعة العرقية بين الأعراق على نحو تراتبى، محدثة بذلك ثغرة واسعة بين هذه الأعراق وواضعة مجموعة منها بتصنيفها على أساس عرقى فى مرتبة أسمى من مجموعة أخرى وفقاً لمعيار القيمة الخلقية، والذكاء، والأهمية. وبناءً على ذلك فإن الإيديولوجيا ذات النزعة العرقية تصنف المجموعات البشرية المختلفة وفق نسق تراتبى. وانطلاقاً من وجهة نظر تلك الإيديولوجيات، يكون العرق أكثر أهمية بالنسبة للتمييز الاجتماعى بين الأفراد والجماعات من غيره من الأسس، كالطبقة مثلاً. وهكذا تجسد النزعة العرقية الاتجاه الذى يتبناه أحد المفاهيم المتصلة بطبيعة الأفراد والجماعات، وهو مفهوم متصلب ولكنه عولج ليبدو وكأنه متفق مع طبيعة البشر (انظر مايلز ١٩٨٩ Miles).

أما مسألة ما إذا كان من الواجب - بناءً على ما سبق ذكره عن النزعة العرقية - أن نعرفها فى ضوء الاتجاهات ذات الطابع الإيديولوجى وحدها، أم نعرفها - بالإضافة إلى ذلك - فى ضوء المعايير والأعراف الخاصة بمجتمع معين؛ فهى قضية

تحتل الجدول والاختلاف. وفي هذا الصدد أشار عدد من دارسي النزعة العرقية إلى الدور الذي يقوم به التصور أو التمثيل في المجتمع المعاصر، ومن أمثلة ذلك أن التصور هو الذي يصوغ صورة الهوية العرقية لمجتمع ما من خلال طرحه للصور النمطية الثابتة عن الجماعات البشرية ذات الثقافات المختلفة عن هذا المجتمع، وهي الصور التي تروج في وسائل الإعلام مثلاً، (وهو عامل يطرح - مرة أخرى - تلك القضية التي تبحث عن الروابط القائمة بين النزعة العرقية والثقافة الجماهيرية في العالم الحديث).

ولا تنحصر دلالة النزعة العرقية في التفرقة العدائية الموجهة ضد شعب ما، سواء تمت عن طريق النظم، أو الإيديولوجيات، أو المعايير والأعراف السائدة في مجتمع معين، أم عن أى طريق آخر. بل هي تتسع لمجالات أخرى، فإحساس بالذات لدى ضحايا هذا التعصب العرقى يتأثر نتيجة لذلك. وقد تصدى لذلك إدوارد سعيد الذي درس نشأة الهوية العرقية في سياق النزعة الاستعمارية الأوروبية وما ترتب عليها من آثار. كما تناول نفس الجوانب فرانز فانون الذي تصدى في كتابه "بشرة سمراء وأقنعة بيضاء" (١٩٥٢) للكشف عن التأثير الضار الذي أحدثته النزعة الاستعمارية في صورة الذات لدى الرعايا الذين خضعوا للاستعمار. (PS) للمزيد انظر: Banton (١٩٧٧) و Hobsbawm (١٩٩٥) و Hartmann and Husband (١٩٧٤) و Fanon (١٩٨٩) و Said (١٩٧٨) و Miles (١٩٨٩).

Social Contract

العقد الاجتماعي

تتصور نظرية العقد الاجتماعي أنه قد تم توقيع عقد بين عدد من الأفراد الأحرار بهدف إرساء المبادئ السياسية والمدنية والأخلاقية الأساسية للمجتمع. ومن هنا

تستهدف نظرية العقد الاجتماعي إضفاء الشرعية على هذه المبادئ عن طريق اللجوء لمفهوم الرضا والقبول الطوعي. فبناء على هذا القبول يتأسس لهذا العقد شكل من أشكال السلطة مستمد من اتفاق هؤلاء الذين يتعهدون بالالتزام به. وقد عالج هذا المفهوم عدد من الفلاسفة: فقد طرح كل من هوبز، ولوك وروسو نظريات تتصل بالعقد الاجتماعي، بينما طرح مفكرون آخرون مثل: ديفيد هيوم، وهيغل وماركس عدداً من الانتقادات لهذه الفكرة (انظر كذلك مادة: الليبرالية). (PS) للمزيد انظر: Boucher and Kelly (١٩٩٤) .

عقدة أوديب

Oedipus Complex

مصطلح أساسي في التحليل النفسي، يستعمل لصياغة نظرية عن انتقال الطفل (في الفترة الواقعة بين السنة الثالثة والخامسة من عمره تقريباً) من العلاقة الثنائية التي تربطه بالأم، إلى العلاقة الثلاثية التي تضم الأب كرمز للسلطة. ويعد الفشل في اجتياز هذه الفترة بطريقة صحيحة مصدراً مهماً من مصادر المرض النفسي لدى البالغين. وهذا المصطلح اشتقه فرويد من الأسطورة اليونانية، التي يقتل فيها أوديب أباه ويتزوج أمه. ويذهب فرويد، بالاعتماد - جزئياً - على ذكريات يتخيلها عن طفولته الخاصة وما عايشه فيها من خبرة، إلى أن الطفل يعشق أمه منذ مولده ويغار من أبيه، (في المراحل الأولى للصياغة النظرية لهذه العقدة كان يفترض في الطفل أنه ذكر). ثم استكمل فرويد وصف عقدة أوديب بما قدمه من تفسير لنظريته عن السلوك الجنسي في مرحلة الطفولة. إذ يفترض الطفل أن كل الأطفال يولدون ولدى كل واحد منهم قضيبه. وأن فقدان الإناث لهذا العضو يفسر عندهن بأنه عقوبة أنزلها بهن الأب الغيور. ولذلك يقوم الطفل الذكر بقطع علاقته بأمه، تحت تأثير ما يتخيله من خطر التعرض للإخصاء. وعلى العكس من ذلك، تقوم الطفلة الأنثى بإزاحة رغبتها في أن

يكون لها قضيب بأن ترغب في أن يكون لها طفل وليد. (AE) للمزيد انظر: Freud (١٩١٠، ١٩٢٤، ١٩٧٩).

العقل

Reason

قضية طبيعة العقل قديمة قدم الفلسفة. فقد ذهب أفلاطون (حوالي ٤٢٨ - ٣٤٨ قبل الميلاد) إلى أن العقلانية خصيصة من خصائص الواقع. وفي رأى أفلاطون (١٩٩٨) هناك مجالان متميزان هما: الأشياء التي تُدرك بالعقل، والأشياء التي تُدرك بالحس. ويقابل مجال الحواس ما اعتدنا أن نسميه اليوم الخبرة الإمبريقية. فهو مجال تتخلق فيه الأشياء، وتعيش وتذوى وتموت، وتسيطر عليه المظاهر الخارجية والآراء. أما مجال المدركات العقلية فهو - على خلاف ذلك - مجال الأفكار. وهذا المجال من المدركات العقلية هو الذى يقدم المعرفة الحقيقية على خلاف الآراء التى تقدمها الخبرة. بعبارة أخرى يدلنا مجال الفكر على واقع موجود وجوداً مستقلاً عن عالم الحواس. ويذهب أفلاطون بدوره إلى القول بأن عالم الخبرة يحصل على الواقع الذى يملكه من عالم المدركات العقلية. ويرتبط هذا الرأى "بنظرية الأفكار" عند أفلاطون، التى تبين أن جميع السمات الخاصة التجريبية أو الخبروية(*) التى تشترك فى نفس الهوية إنما تكون كذلك لأنها تمثل ملامح أو حالات خاصة لفكرة عامة كلية وشاملة تسبق تلك الخصوصيات منطقياً. وهكذا لو أننا أخذنا ثلاثة قطط مختلفة عن بعضها، يتسم كل واحد منها بسمات محددة تميزه عن القططين الآخرين، فالشئ المشترك بينها جميعاً أنها تمثل فى كل حالة تجلياً من تجليات فكرة (أو مثال) "القط" العامة. وما يربط كل

(*) المكتسبة من الخبرة الحسية . (المراجع).

قط منها بالآخرين هي السمة العامة "كونه قطاً" Cat-ness. ويرى أفلاطون أن نفس الكلام ينطبق على الأفكار والمفاهيم الأكثر تجريداً، كالجمال، والخير، والعدالة. فكل حالة من حالات تلك الأشياء تفترض وجود صورة عامة (مجردة). وكل الأشياء المجردة توجد في ذاتها: "ماهية الخير ذاته"، أو "ماهية العدالة ذاتها". الخ. ويترتب على ذلك بالنسبة لأفلاطون أن نوع المعرفة التي يمكن أن نحصلها عن عالم الخبرة لا تزيد عن كونها تحصيل بعض الآراء عنها والتي يعتقد أنها صحيحة (أي: يبدو أن الموضوع هو كذا وكذا). في مقابل ذلك تتعلق المعرفة الحقيقية (أي أن الموضوع هو كذا وكذا فعلاً) بالواقع في أعلى مستوياته، وهو الصور التي تكتسب واقعيته من "فكرة الخير". ففكرة الخير هي التي تمنح الحياة المستوى أو المعيار الذي يمكن به قياس الأفعال، والمعتقدات ونحوها والحكم عليها بأنها خير أو صحيحة.. الخ. بمعنى آخر هناك حقيقة مستقلة عن ميول الفرد ونزعاته أو نفسيته هي التي تهيه ما يفعل، وما يستطيع أن يفعله بشكل له معنى. وبما أن فكرة الخير تمثل أساس عملية الإدراك العقلي، فإنها لا تتغير (على نحو ما يفعل عالم الخبرة الحسية بلا هوادة)، وتظل متسقة اتساقاً أبدياً. ومعرفة ذلك هي أرقى صور المعرفة ("الجدل")، وهي تجد أرقى تعبير عنها في العقل البشري. ومن هنا يرى أفلاطون أن الخير، والعقل، والسعادة ترتبط ببعضها البعض بالضرورة. ولذلك يؤمن أن الحقيقة إنما تحددها الظروف العقلية الموضوعية. فأفلاطون يرى - باختصار - أن الحقيقة بطبيعتها عقلية.

واستمر الجدل الفلسفي طويلاً - منذ أفلاطون - حول طبيعة العقل. فقد عارض أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد) رأى أستاذه أفلاطون عن الأفكار العامة الجامعة، رافضاً بذلك فكرة أن العلوم المختلفة يمكن توحيدها في المبادئ العامة الجامعة للجدل. غير أن أرسطو يقر فكرة أن المعرفة المطلقة تتوقف على التعريف، ويؤمن أن الحقيقة تتعلق بما هو أبدي ودائم. ويتفق المفكر العقلي رينييه ديكرات (١٥٩٦-١٦٥٠) مع رأى

----- (ع) -----

أفلاطون في أنه يمكن الحكم على الحقيقة وفقا للمحك الذي تضعه قدراتنا العقلية (ديكارت ١٩٦٨). وتستمد فلسفة ديكارت جذورها من فكرة أنه بوسعنا تأسيس وصفنا للمعرفة على عملية الاستبطان العقلي (انظر مادة: الديكارتية (المذهب الديكارتى)). وهو يرى أن العقل "أداة عامة" وهبنا إياها الله تدلنا على أكثر الوسائل أمنا للحكم على المعرفة ومن ثم ييسر علينا تأسيسها. ومن الملامح الجوهرية لتحليل ديكارت للعقلانية إيمانه بأن قدراتنا العقلية هي لب الذاتية والوعي. ويمثل هذا الرأي أساس ثنائيته عن العقل والجسد. فنحن من حيث الجوهر كائنات مفكرة تعتمد على العقل، ويقوم تعريفها على أساس المادة العقلية. وذلك على خلاف الحيوانات التي ليست سوى آلات، مجردة من القدرة على التفكير ومن العقل، وتتكون من مادة جسدية فقط. وفي رأى ديكارت أن المشكلة التي تستعصى على الحل هي إقامة الصلة بين العقل والمادة، لأننا - فى رأيه - كائنات مادية ذات أجساد ولكن تعريفنا يقوم فى نهاية الأمر على أساس قدراتنا العقلية.

وعلى خلاف الفلاسفة العقلين - مثل ديكارت- الذين ذهبوا إلى أن جميع ألوان المعرفة إنما تشتق من المبادئ العقلية، اعتبر الفلاسفة التجريبيون - مثل جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ودافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) الخبرة التجريبية هي أصل كل معرفة. وإن كان جون لوك يتفق مع الديكارتين فى أن العقل ذو أصل مقدس. كما يرى لوك أن معرفتنا قد تكون مستمدة من الحواس لا من مبادئ عقلية فطرية، لكنه لا يتقبل فكرة أن العقل والفكر يمكن أن يستمدا من تفاعل المادة البهيمية (غير العاقلة). فالفعل فى الحقيقة يتسم بنوع من الشمول والعمومية يدل على وجود الله، فى مقابل ذلك نجد دافيد هيوم يكتشف فكرة أن قدراتنا العقلية مستمدة من نزعات نفسية وليس من ظروف أو شروط عامة. وفى رأى هيوم أن الذات حزمة من العادات الفردية، ومزيج من العادات الاجتماعية والممارسات ليس لها وجود مستقل عن تجسيداتها

الواقعية. وهكذا نتبين أن الذات - التي تمثل الحامل المركزى لقدراتنا العقلية الفطرية فى فلسفة ديكار - تتشظى فى رؤية هيوم وتفقد نواتها ولبها. وهكذا حدث تحول فى النظر إلى دلالة قدراتنا العقلية ومعناها. واستهدف تحليل هيوم الشهير لمفهوم العلية أن يوضح أنه لا يمكن أن يستمد من مبادئ فطرية ولا من شروط موضوعية. فنحن نستطيع أن نفكر تفكيراً عالياً طول الوقت، بل إننا مضطرون إلى فعل ذلك كى نعيش، ولكننا يجب ألا ننخدع بالاعتقاد أن فكرة العلية يمكن أن تستمد من مبادئ معرفية أو مبادئ البرهنة العلمية. ففى رأى هيوم أن كافة أنواع التفسير بالعلة والمعلول إنما تستمد أصولها من الإدراك الحسى ومما تولده تلك المدركات الحسية فى العقل. ويترتب على هذا - فى رأى هيوم - أنه بدلا من أن يعمل عقلنا على استخلاص الأسس العامة للمعرفة العامة الشاملة، فإن مهمته تصبح - فى أحسن الظروف - وسيلة تقليل احتمال الشطح بعيداً عن حدود الإدراك البدهى. فعقلنا يملك القوة العلية التي تمكنه من إظهار الحقيقة، وذلك هو فى الواقع "الأثر الطبيعى" الذى يحققه. ولكننا مخلوقات تقوم حياتها على العادات الفردية، ومن ثم تحكمها العواطف والنوافع. ويرتب هيوم على ذلك أن قدرتنا العقلية معرضة للإفساد بفعل نزعاتنا الأخرى، ومن ثم تصبح كافة أنواع المعرفة احتمالية أكثر منها يقينية.

ويعود إيمان هيوم بأن الظروف النفسية هى الأساس الذى تنهض عليه قدراتنا العقلية؛ يعود إلى التزامه الصارم بروح البحث العلمى (بمفهوم بحوث القرنين السادس عشر والسابع عشر التى أجرتها شخصيات علمية مثل جاليليو ونيوتن). فهو من هذه الناحية يجسد بوضوح تراث التنوير. فمفكرو التنوير كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بأنه كما أن ظواهر الطبيعة قابلة للبحث العلمى الإمبريقي العقلى، كذلك يمكن إخضاع ظواهر العقل الإنسانى والمجتمع البشرى للتحليل على نفس الأسس وبذات المنهج. ومن هنا فإن الرأى الذى يبديه هيوم فى مقدمة كتابه "دراسة الطبيعة الإنسانية" (١٧٣٩) وهو أنه من الممكن تأسيس "علم للإنسان" يحظى بنفس المكانة التى تحظى بها علوم

الرياضيات والفيزياء وغيرها. وسار على نفس النهج تقريباً - وإن بطرق مختلفة - باقى مفكرى التنوير. فقد اتفقوا على القول بأنه من الممكن التوصل إلى تحليل عقلى للمجتمع الإنسانى يمكنه - لو وضع موضع التطبيق - أن ينهى كافة صور اللاعقلانية التى نلمسها فى عدم العدالة، وفى القسوة، والتعصب، والتفكير الأسطورى، فحركة التنوير - باختصار - اقترحت قائمة أوأويات، ذات طبيعة راديكالية سياسية، للتحويلات الاجتماعية التى يمكن إحداثها بالعلم والتكنولوجيا.

وتدلنا فلسفة إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) على أمرين: أولهما استمرار مفكرى التنوير بنفس الموضوعات، وثانيهما على اختلافهم فى تناولها وفيما توصلوا إليه من نتائج بشأنها. فكانت لا يتفق مع هيوم وياقى الفلاسفة التجريبيين فى أنه من الممكن تأسيس دراسة الفكر والعقل على فكرة التجربة وحدها. وهكذا يذهب كانط فى كتابه "نقد العقل الخالص" (١٧٨١-١٧٨٧) إلى أن التجربة (أو الخبرة الحسية) ضرورية ولازمة للمعرفة، ولكنها لا يمكن أن تكون المصدر الوحيد للمعرفة. فالقول - على ما يذهب التجريبيون - إن الخبرة الحسية هى مصدر كافة أفكارنا إنما يتجاهل حقيقة مهمة، وهى أنه لكى تكتسب أى خبرة حسية يتعين أن تكون مزوداً -على نحو أو آخر- بالقدرة على الملاحظة أولاً وقبل أى شئ، فكافة أنواع الخبرات التى نتعرض لها تفترض سلفاً وجود ظروف مسبقة، أى شروط لازمة لها وسابقة عليها. ويرى كانط أن تلك الشروط شروط متعالية^(*). وهى لا تتعالى على الخبرة أو تتسامى فوقها،

(*) أى transcendental وقد وصف كانط فلسفته بأنها متعالية رافضاً وصفها بأنها نقدية فقط. والبعض يكتب الكلمة كما تنطق "ترانسندنتالية". ولكن هناك ترجمات كثيرة اقترحت ترجمة لها، يشير زكى نجيب محمود إلى: المتعالية، الجوانية، الشارطة، والتحليلية. واقترح هو نفسه ترجمة جديدة الأصلائية أى التعمق إلى الأصول. ويقول كانط نفسه عن فلسفته: إنها لا تهتم بالأشياء اهتمامها بطريقة معرفتنا بالأشياء، من حيث إنها ممكنة قبلياً. راجع فزاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص ٢٤٥ - ٢٥٥، خاصة ص ٢٤٨. (المراجع)

وإنما هي حاضرة على الدوام كشرط لكل تفكير إنسانى فى الخبرة الحسية. ويبلغ هذا حد القول بوجود شروط موضوعية للمعرفة، ولكن تلك الشروط ليست قائمة فى العالم الخارجى، وإنما هى ماثلة فى طريقة تأسيس الذاتية الإنسانية. وهذا الكيان هو ما يسميه كانط "الأنا المتعالى". وهذا الأنا المتعالى "ليس شخصاً، وإنما هو بنية لا شخصية يتعين أن يمتلك لمتطلباتها كل إنسان لكى يكون ما هو عليه. وهكذا نرى أن الفهم الإنسانى - عند كانط - يخضع لقواعد معينة. وتمثل تلك القواعد أساس العقل الإنسانى، من حيث كونها -أولاً- لازمة للتفكير، ومن حيث هى -ثانياً- عامة وشاملة (أى مشتركة بين كل الذوات الإنسانية). وبذلك يفهم العقل على أنه مرتبط بقدرتنا على معرفة القواعد وعلى الالتزام بها. فلها - إذن - نوع من المشروعية، كما للقانون مشروعيته.

ثم جاء هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) فوسع ودعم انتقادات كانط للنزعة التجريبية. ولو أن هيجل كان يرى أن تحليل كانط للشروط التى تركز عليها العقلانية لم يستكمل على النحو اللازم بحيث إن مفاهيم العمومية والضرورة لا تتكشف للفرد -فى رأى كانط- إلا للذات، ومن خلال الخبرة الحسية وليس عن طريق التحليل الجوهرى لها الذى ينصب عليها بذاتها. ففى رأى كانط أن معرفة الأشياء تتحدد بواسطة الشروط العقلية التى نخلعها نحن عليها. على خلاف ذلك يذهب هيجل إلى أن الفكر والواقع لهما نفس البنية المنطقية التى لا تتكشف إلا من خلال نمو التجربة التاريخية وتطورها. ويمكن أن نلمس نموذج ذلك فى الجدل الهيجلى الأوسع شهرة (والأقل فهماً فى الغالب). فالجدل عند هيجل يمثل التطور المنطقى للفكر الواعى أثناء تناوله العالم المادى من خلال الحواس. غير أن هذا التطور ينعكس فى العالم المادى نفسه: فالواقع الفيزيقي يمثل لأوامر الجدل المنطقية. أى يمكن القول باختصار إن الواقع يخضع لقواعد المنطق على نحو لا يقل تماماً عن خضوع الفكر لتلك القواعد. وبذلك يطرح هيجل الرأى القائل بأن العقلانية موضوعية وليست ذاتية.

وقد أصبحت قضية التمييز بين العقل الموضوعى والعقل الذاتى إحدى أهم القضايا المطروحة لفهم مرحلة ما بعد كانط فى عالم الفكر الفلسفى. فيذهب - مثلاً - هوركهايمر وأدورنو (Horkheimer and Adorno 1972; Horkheimer 1992) إلى أن تراث التنوير - استجابة منه لمتطلبات الفهم العلمى للعقلانية - قد أسهم بدور فعال فى تقبل تحويل العقل إلى شىء أكبر قليلاً من مجرد أداة لتلبية الرغبات الذاتية الموجودة سلفاً. وتمثل تلك الرغبات فى "نظرية الاختيار العقلى"، التى لا ترى فى العقل سوى أقصى إشباع للرغبات الفردية (Green and Shapiro 1994; Taylor 1990). وقد كان لهذه الفكرة عن العقل الأثر العميق على السياسات العامة الحديثة فى الغرب، حيث أصبحت تؤمن أن إطلاق القدرات الكامنة لاقتصاديات السوق الحر فى توفير الحاجات الفردية إنما يعد غاية التحقق الفعلى للحرية الفردية. غير أن التصور الذرى للذات المغربى فى البساطة والكامن وراء هذه الفكرة هو الذى يجعلها محلاً للاعتراض. فإعمال العقل - كمجرد أداة - يخدم إشباع تلك الرغبات بالشكل الكافى، ولكن ذلك يؤدى بدوره إلى خلق نوع من الفراغ الأخلاقى. فعلى حين يرى أفلاطون وهيجل أن عقلنا يمدنا بمعيار موضوعى للحكم على الأشياء، ومن ثم يؤسس لوجود نوع من الحوار الأخلاقى، نجد أن الذرائعية إنما تقودنا إلى إلغاء الموضوعية الأخلاقية. ومن الأمور التى تثير القلق بشكل خاص تلك القدرات الكامنة فى العقل الذرائعى على خدمة المصالح الاجتماعية المسيطرة. وهكذا نجد أن العلوم المختلفة تطور فروعها المعرفية المتخصصة لتلبية لخدمة علاقات القوة المسيطرة. فالعقل - بذلك - يتخلى عن قدراته النقدية لكى يحتل مكانة التابع المساعد المكبل بقيود "العملية الاجتماعية". ويحاول هوركهايمر وأدورنو فى كتابهما "جدل التنوير" - الذى وضعاه فى مناهما فى الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية - يحاولان استعراض تلك الرؤية المتعمقة والتعيسة للتنوير. وثمة مفكرون مثل فريدريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) والماركيز دى صاد - يمثلون فئة مفكرى التنوير البورجوازيين "الظلاميين"، الذين يرفضون تحديدات فكر التنوير لمفهوم العقل، بدفع منطق إلى أقصى حدود التطرف.

ولا يقل نيتشه عن هوركهيمر أو أدورنو في كونه أحد الشخصيات المحورية في المناقشات المعاصرة الدائرة حول مفهوم العقل. ويصعب تلخيص أفكار نيتشه عن العقل بون أن ننحدر إلى نوع من المحاكاة الساخرة. وكثيراً ما نجده -من ناحية أخرى- ينساق إلى اعتبار العقل مجرد أداة لمجمل العلاقات التي تكون الذات. بهذا الوعي - كذلك - ينزل من علياء سلطته الفلسفية، لكي تحل محله الرغبة في حياة القوة. وقد وصف يورجن هابرماس (من مواليد ١٩٢٩) هذا الجانب من فكر نيتشه بأنه بمثابة إعلان بإلغاء العقل النقدي، وإيداناً ببداية ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية. وتصديقاً من هابرماس لذلك (وهو نفسه تلميذ لكل من أدورنو وهوركهيمر) سعى إلى إحياء صيغة لغوية من مفهوم التعالي عند كانط (انظر مادة: مدرسة فرانكفورت). ويمكننا من ناحية أخرى أن نضع أيدينا في أعمال نيتشه على تحليل دقيق لتطور الأبنية المعيارية التي يقوم عليها التفكير العقلي الإنساني الذي يتجسد في فكرته عن القوة الأخلاقية للعادة الاجتماعية. ومؤخراً جداً دعا هابرماس إلى إعادة التفكير في مفهومنا عن العقلانية (إعمال العقل) والفكر العلماني في ضوء الاعتراف النقدي الواعي بعلاقة كل منهما الوثيقة بالتراث الديني بشتى صوره (Habermas 2003, 2007). وقد يكون لتلك الفكرة دلالاتها العميقة بالنسبة للتطورات المستقبلية المتعلقة بفهم طبيعة العقل وحدوده (P.S) للمزيد انظر: Kant (١٩٦٤) و Horkheimer and Adorno (١٩٧٢) و Hegel (١٩٧٧) و Hume (١٩٧٨) و Descartes (١٩٨٦) و Horkheimer (١٩٩٢) و Sedgwick (٢٠٠١)

علاقات الإنتاج

Relations of Production

في الماركسية، تتمثل علاقات الإنتاج في العلاقات الاجتماعية القائمة بين طبقة المنتجين وطبقة الملاك داخل نظام اقتصادي ما. وفي النظرية الماركسية يتم توصيف

كافة أنواع المجتمعات فى ضوء الصراع القائم بين هاتين الطبقتين الكبيرتين. والطبقة الخاضعة هى الطبقة التى تقوم فعلاً بإنتاج السلع والخدمات، وذلك من خلال استعمالهم لقوة عملهم (انظر: العمل). والطبقة المسيطرة هى التى تملك وتتحكم فى الموارد أو الثروات التى تستخدم فى العملية الإنتاجية (أى فى وسائل الإنتاج)، وتكون بهذه الصفة هى القادرة على التحكم فى العملية الإنتاجية وفى مصير الإنتاج. وتتسم أنماط الإنتاج المختلفة، أو المراحل التاريخية للإنتاج، بعلاقات إنتاج متميزة ومستويات تكنولوجيا (أو قوى إنتاج) متميزة. وعلاقات الإنتاج بطبيعتها علاقات ذات طبيعة ساكنة، وتحدث الثورة الاجتماعية عندما تصبح الطاقة الإنتاجية الكامنة فى قوى الإنتاج المتطورة فى وضع لا يمكن السيطرة عليها فيه أو استغلالها بصورة كاملة داخل نطاق علاقات الإنتاج القائمة. (انظر مادة: أنماط الإنتاج). (AE)

Sign

العلامة

قد ينظر إلى العلامة باعتبارها أى شىء يرمز، أو يشير إلى، أو يمثل شيئاً غيره. ويتم تحليل العلامة إلى عنصرين اثنين: أولهما الدال وهو الشكل المادى الذى تتخذه العلامة، كالكلمة المكتوبة (وردة مثلاً)، أو الشئ الفعلى (كعنق الوردة وأوراقها)، والعلامة التجارية، والصور الفوتوغرافية، والروائح، والألوان، وما إلى ذلك. وثانيهما المدلول عليه وهو المفهوم المجرى الذى يشير إليه هذا الدال (ومن ثم فقد تشير الوردة أو صورة الوردة إلى معنى الحب بأوفى مما تشير إليه كلمة "الحب"، فتمنحك - بوصفها علامة - ما أسماه بارت الوردة "المشحونة بالعاطفة"). وقد يُنظر إلى العلامات على أنها أهم الوحدات التى تحمل المعنى وتنتج فى أى عمل من أعمال الاتصال بين الناس. وتكون للعلامات معانيها بسبب وضعها داخل نطاق مجموعة من القواعد (أو الشفارات) المتفق عليها والتى تحددها الاعتبارات الثقافية التى تحكم استعمالها

وتقرر مدى مناسبتها لمقتضى الحال. (انظر كذلك مادة: السيميوطيقا). (AE) للمزيد انظر: Silverman (١٩٨٣).

Archaeology

علم الآثار

دراسة ماضى الإنسان من خلال استعادة البقايا المادية للعصور الماضية وتحليلها وتفسيرها. فهي بذلك تعد دراسة للثقافة المادية، أى البقايا المادية للأنشطة البشرية. والمصطلح الإنجليزي يمكن أن يستخدم فى نفس الوقت للإشارة إلى نفس الثقافة المادية موضوع الدراسة، وكذلك للدلالة على العلم نفسه. ومع أن علم الآثار كان فى الأصل يهتم بدراسة الماضى السحيق أو ما يسمى "ما قبل التاريخ"، فإن علم الآثار الحديث أصبح يحرص اليوم على أن يكون مكملاً للتاريخ (بل ولعلم الاجتماع أيضاً)، وذلك بتطبيق مناهجه على كافة المراحل التاريخية.

والعلاقة بين علم الآثار والنظرية الثقافية علاقة ثرية. فعلم الآثار نفسه يميل إلى استعارة بعض أطره النظرية من العلوم الاجتماعية (وكذلك الطبيعية) الأخرى، أكثر من ميله إلى توليد نظرية خاصة به. غير أن هذه الاستعارة النظرية وتطبيقاتها الجديدة تعمل بدورها على إلقاء ضوء جديد على النظرية، خاصة من خلال ربط النظرية الثقافية بالمناهج المستمدة من العلوم الطبيعية (مثل عمليات تقدير عمر القطع الأثرية باستخدام نظائر الكربون المشع، والدراسات المسحية الجيوفيزيائية). كذلك استخدم بعض علماء النظرية الثقافية - خاصة فوكو - "علم الآثار" كمجاز مفيد لتوضيح بعض قضاياهم المنهجية (١٩٧٠، ١٩٧٢).

وقد تطور علم الآثار كثمرة من ثمار اهتمام عصر النهضة بآثار العصور القديمة وجمع الأشياء الغريبة اللافتة للنظر. وبدأت الدراسة المنهجية للمواقع القديمة فى

مطالع القرن الثامن عشر، على يد ويليام ستوكويل وأمثاله، بمسح أبرز الآثار القديمة، كآثر Avebury فى مقاطعة ويلتشير Wiltshire الإنجليزية. وقد أوضح ستوكويل أن تلك الآثار القديمة الضخمة هى من صنع البشر القدماء، وليست من صنع عمالقة أو شياطين، كما تروى الحكايات والأساطير الشعبية. وفى أمريكا قام توماس جيفرسون (ثالث رئيس أمريكى، وكان يتحدث لغة أهل ويلز) بعمليات تنقيب منظمة لبعض تلال الجبانات فى ولاية فيرجينيا، وقام بحفر بعض الخنادق فيها فى عام ١٧٨٤. وقد أدرك جيفرسون - شأنه شأن ستوكويل - أن عمليات التنقيب قد أخطأت اللثام مؤقتاً عن بعض الراقات (أو الشرائح) المتتابعة من الأنشطة البشرية. وبناء على ذلك استطاع جيفرسون أن يثبت أن بعض تلال الجبانات قد أعيد استخدامها فى بعض الفترات التاريخية. وقد أدى اكتشاف مدينتى بومبىي (*) وهرقولانيوم (**) فى أوائل القرن الثامن عشر إلى إنعاش اهتمام مفكرى عصر التنوير بدراسة الآثار الكلاسيكية (***) والذى تجلى بشكل خاص فى أعمال مؤرخ الفن يوهان يواخيم فينكلمان J. Winckle، الذى يعده الكثيرون مؤسس علم الآثار الكلاسيكى (٢٠٠١). ولم تبدأ الحفائر المنظمة والمسجلة بدقة فى هذين الموقعين إلا فى العام ١٨٦٠. وتتمثل النقطة الحاسمة من الاهتمام بآثار العصور القديمة (العاديات) إلى البحث الأثارى العلمى بمعناه

(*) بومبىي Pompeii مدينة قديمة تقع فى الجزء الجنوبى الغربى من إيطاليا، وعلى مسافة حوالى ٢٢ كيلو متر إلى الجنوب الشرقى من مدينة نابولى. يرجع تاريخها إلى مطالع القرن الخامس قبل الميلاد. وكانت قد دفتت هى ومدينة هرقولانيوم تحت حمم بركان فيزوف عام ٧٩ ميلادية. (المراجع)

(**) هرقولانيوم Herculaneum مدينة قديمة فى الجزء الغربى من وسط إيطاليا. كانت تقع على السفح الشمالى الغربى من بركان فيزوف الشهير. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها الأسطورى هرقل (أحد أبطال الميثولوجيا اليونانية القديمة). وقد ورد ذكرها للمرة الأولى فى القرن الرابع قبل الميلاد. وقد دفتت هى ومدينة بومبىي تحت حمم بركان فيزوف عام ٧٩ ميلادية. (المراجع)

(***) التى ترجع إلى العصور الإغريقية. (المترجم)

الصحيح فى التخلّى عن الاهتمام بالمصنوعات الفنية المتفرقة (ولكن مؤكّد أنّها كانت جذابة من الناحية الجمالية)، والاتّجاه بدلاً من ذلك إلى محاولة فهم السياقات الأوسع التى عثر على تلك المصنوعات فى إطارها، وكذلك محاولة إدراك أنّ الأداة المصنوعة لا يمكن أن تدلّ الباحث على طبيعة الحياة البشرية والممارسات الاجتماعية - على الوجه الصحيح - إلا إذا كانت علاقتها بالسياق قد أخضعت للتوثيق والتحليل الكاملين.

ثمّ شهد القرن التاسع عشر تحولاً مهمّاً فى التفكير التاريخي كان له بالتاكيد تأثيراً ملحوظاً على علم الآثار. فقد مثل تطوّر علم الجيولوجيا وكذلك نظرية داروين فى التطوّر تحدياً لما ورد فى الكتاب المقدس عن الزمن وعن التاريخ الإنسانى. إذ اتضح أنّ التاريخ الإنسانى يضرب بجذوره فى عمق زمني أطول بكثير من الخمسة آلاف سنة - أو نحو ذلك - التى يوحى بها التفسير الحرفى للكتب المسيحية المقدسة. من هنا أصبح من المسلم به فى أواسط القرن التاسع عشر أنّ البشر عرفوا مرحلة "ما قبل التاريخ". وأصبح مؤلف جون لايوك: "عصور ما قبل التاريخ" (*) من أوسع الكتب انتشاراً لدى ظهوره فى العام ١٨٦٥ .

وابتكر العالم الدانمركى كريستيان تومسون فى كتابه "مدخل لدراسة الآثار القديمة فى شمال أوروبا" (**) تصنيفاً للمصنوعات الفنية، ومن ثمّ للتاريخ البشرى كله، على أساس التكنولوجيا التى كانت مستخدمة فى كل عصر: وهى العصور الثلاثة المشهورة: العصر الحجرى، والعصر البرونزى، والعصر الحديدى. ثمّ أثبتت الحفريات التى تمت فى اليونان وتركيا (بواسطة هينريش شليمان وأمثاله) وجود ثقافات العصور البرونزى فى تاريخ سابق على المرحلة الإغريقية الكلاسيكية المعروفة فى عالم الأدب.

(*) John Lubbock, Prehistoric Times, 1865.

(**) Christian Thomsen, A Guide to Northern Antiquities.

(صدرت طبعته الأولى باللغة الدانمركية عام ١٨٣٦، ثم صدر فى طبعة باللغة الإنجليزية عام ١٨٤٨).

ثم شهد القرن التاسع عشر وأوائل العشرين تجويد طرق التنقيب عن الآثار، وإجراء عمليات تنقيب ضخمة فى عدة مواقع فى الشرق الأوسط (مدفوعة بالرغبة فى استكشاف الواقع التاريخى لبعض الأحداث التى ورد ذكرها فى النصوص الإغريقية - كإلياذة هوميروس - وفى العهد القديم المسيحى)، وكذلك فى أوروبا وأمريكا الشمالية. وكان العمل فى تلك الفترة يقوم - أساساً - على وصف المواقع الأثرية وتوثيق محتوياتها. أما القضايا النظرية الأشمل التى شغلت علماء الآثار الأوائل فى تلك الفترة فكانت تميل إلى التركيز على طبيعة التغير الثقافى. وكانت الفروض المتعلقة بالدور المحورى لكل من مصر واليونان والذى لعبناه قطعاً فى تطوير الثقافة الغربية قد دفعت منظرى ذلك العصر إلى تبني نماذج انتشارية للتغير الثقافى. ومعنى هذا أن الفرض المسيطر حينذاك هو أن الأفكار والابتكارات الثقافية قد انتشرت من مناطق قلب الحضارة - كمصر مثلاً - إلى أطراف العالم المعروف، أو أنها انتقلت برفقة موجات المهاجرين، ولكنها لم تتطور تطوراً مستقلاً فى مختلف المناطق الجغرافية.

أما عالم الآثار الأعظم فى حقل التنظير فى أوائل القرن العشرين فكان جوردون تشايلد. ومع أنه ظل يعتمد فى آرائه على النظرية الانتشارية، فقد تبني توجهاً ماركسى فى تحليل التغير التاريخى عندما تصدى لشرح تطور الزراعة وتطور الحضارة. وقد اعتمد فى ذلك على دراسات مقارنة للتغيرات التى وقعت فى عصر ما قبل التاريخ فى شتى أنحاء أوروبا وفى الشرق الأوسط (Childe 1927). وقد اعتبر تلك التجديدات التى طرأت ثورات، قريبة الشبه بالثورة الصناعية. وتشايلد هو الذى صك مصطلحى "ثورة العصر الحجري الحديث" و"الثورة الحضرية"، الأول لوصف ما حدث فى العصر الحجري الحديث، والآخر لوصف مرحلة الاستقرار (انظر: Childe 1956 and 1964) وعلى خلاف النظرية الماركسية الأكثر أصولية تبني تشايلد نموذجاً يقوم على الإجماع وليس على الصراع، حيث رأى أن التجديد يحدث بفضل الدور

الإدارى (التوحيقي) التقدمى الذى كانت تضطلع به جماعات الصفوة العلمانية الأولى، فى الوقت الذى كان الدين يمارس دور قوة المحافظة بحظر التغير التكنولوجى.

وشهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تطوراً مهماً فى الإحكام النظرى لعلم الآثار، الذى انعكس كذلك فى التدقيق العلمى للمناهج التى كانت متاحة لعلماء الآثار. وفى مقدمة تلك المناهج الدقيقة استخدام طرق موثوق منها فى تقدير عمر المنتجات الفنية، نذكر منها على وجه الخصوص تقدير العمر باستخدام نظائر الكربون المشعة. وقد تم ذلك فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه أهمية التعاون مع العلماء من تخصصات أخرى. فاستطاع علماء النبات أن يلقوا الضوء على أنواع النباتات التى كانت تستخدمها تلك المجتمعات وتآكلها، واستطاع علماء التشريح أن يحددوا هوية العظام الحيوانية التى يتم العثور عليها، وهكذا. واتسعت الشواهد على مختلف الأنشطة الإنسانية التى كان يدرسها علماء الآثار بحيث تجاوزت المنتجات الفنية، فبدأت تشمل كذلك المباني وبقايا الأواني الفخارية. وكانت "الإيكولوجيا الثقافية" أول إنجاز نظرى يستفيد من هذا التوسيع الجديد فى مادة الدراسة. وقد برزت فيه بشكل خاص أعمال جوليان ستيوارد وجوردون وايلى فى الولايات المتحدة، وجراهام كلارك فى المملكة المتحدة. إذ ركزت بحوثهم على طريقة تفاعل الثقافات مع بيئاتها، واهتم كلارك - على نحو خاص - بدراسة البقايا العضوية التى يمكن أن نستدل منها على الطرق التى كانت متبعة فى سكنى موقع معين وفى استخدامه.

ويمثل ظهور علم الآثار "الوظيفى" processual (أو علم الآثار الجديد) خطوة نظرية كبرى إلى الأمام، رغم تبنيها الاتجاه الإيكولوجى واعتمادها عليه، ويتجلى هذا التطور بصورة مكثفة فى أعمال لويس بينفورد (Binford and Binford 1968) ودافيد كلارك (Clark 1968). وقد انتقد علماء الآثار الوظيفيون الاتجاهات العلمية التى كانت سائدة من قبل فى علم الآثار واعتبروها غير علمية. إذ كانوا يرون أن علم الآثار القديم

لم يقدم تفسيرات للتغير الثقافي، واكتفى بتقديم أوصاف أو سرد لبعض المواقع التي تم التنقيب فيها. إذ إن التفسيرات - فى رأيهم - تتطلب طرح فروض علمية يمكن اختبارها إمبريقياً (بالاعتماد - عادة - على البيانات الكمية)، ويمكن التعميم منها بدراسة أكثر من موقع واحد أو مواقع قليلة فقط. ويدين علم الآثار الوظيفى بالكثير للفهم الوضعى للمنهج العلمى. وقد اعتمد - عملياً - اعتماداً أساسياً على نظرية النظم وعلى ذلك النوع من التفسيرات الوظيفية التى كانت مسيطرة فى ميدانى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية. فكانوا ينظرون إلى المجتمع كنسق يعمل فى حالة تفاعل مع بيئته. وبالتحديد أكثر كان ينظر إلى السلوك الإنسانى بوصفه تمفصل^(*) مختلف الأنساق الفرعية للظواهر الثقافية وغير الثقافية. وقد تضم تلك الأنساق الفرعية الأنساق الفرعية الطبيعية لتحركات الحيوانات، أو للعمليات الجيولوجية والمتيولوجية^(**)، كما تشمل الأنساق الفرعية الثقافية للديناميات السكانية، وتنوع وتمايز الأنساق الفرعية الاقتصادية والسياسية وغيرها من الأنساق الاجتماعية، كما تأخذ فى اعتبارها وجود مجتمعات أخرى (ومن هنا تهتم ببعض العمليات الاجتماعية مثل: التبادل الطقوسى والاقتصادى أو الصراع الذى قد ينشب بين المجتمعات). وقد أتاحت الدراسات المقارنة التوصل إلى تحليلات عامة للتغير الثقافى، وبذلك أتاحت تطور علم عالمى (كونى) للآثار.

ثم ظهر علم آثار ما بعد الوظيفى فى ثمانينيات القرن العشرين من خلال حركة نقد علم الآثار الوظيفى (Hodder (١٩٨٦). وتمثل النقد الرئيسى فيما اعتبر تطرفاً فى اعتماد علم الآثار الوظيفى على نموذج التفسير المستمد من العلوم الطبيعية، وكذلك

(*) أى تجاور وتداخل. (المراجع)

(**) نسبة إلى علم الأرصاد الجوية الذى يبحث فى الجو وظواهره، وبخاصة فى الأحوال الجوية والتننبؤ بها. (المراجع)

المبالغة فى تأكيد أهمية اقتصاد الكفاف أو الإنتاجية الاقتصادية للمجتمعات. وهاتان النقطتان ترتبطان ببعضهما فى الحقيقة، فتركيز علم الآثار الوظيفى على وظيفة المجتمع فى التكيف مع بيئته رؤى أنه أهمل جانباً كبيراً من ثقافة ذلك المجتمع. والأمير الحاسم أن علماء الآثار الوظيفيين قد عجزوا عن رؤية العمليات الرمزية التى عن طريقها تخلع الثقافات المعنى على المنتجات الفنية المادية. ولهذا اتجه علماء آثار ما بعد الوظيفية إلى الاعتماد على التأويل، والفينومينولوجيا، والبنوية (وكذلك على الماركسية، والحركة النسوية، وبعض النظريات مثل نظرية جيدنز عن التشكل البنائى)، لكى يوفروا لاتجاههم الجديد الأدوات النظرية اللازمة لفهم طريقة تعرف أبناء ثقافة معينة على بيئتهم كشئ له معنى ودلالة، وكيف تشكل هذه المعرفة ممارساتهم فى إطار تلك البيئة. وقد أدى ذلك أيضاً إلى الابتعاد عن وضع الفروض القابلة للتعميم، والاتجاه إلى التحليلات التى تبرز خصوصية وتميز كل ثقافة من الثقافات المختلفة. ولتوضيح ذلك باختصار نقول إنه بينما كان علم الآثار الوظيفى فى تناوله للآثار الضخمة المبنية من حجر المجلت (*) (كالمقابر، وتلال الجبانات، والنصب الحجرية أو الخشبية (**)) التى توصف جميعها بالآثار الضخمة؛ كان فى تناوله لها يركز على وظيفة تلك الآثار فى الحفاظ على بقاء المجتمع وعلى تجددته (وذلك - مثلاً - بإضفاء المشروعية على أبنية القوة القائمة)، نجد أن علم الآثار ما بعد الوظيفى يتجه إلى إبراز المعانى الرمزية التى ترتبط بتلك الآثار (ومن ثم - مثلاً - الصلة بين المقبرة والبيت، وبالتالي استكشاف دورها فى بلورة فهم تلك الثقافة للموت).

(*) حجر المجلت Megalithic stone: حجر ضخم غير منحوت مستخدم فى كثير من الآثار التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ. (المترجم)

(**) النصب الحجرية أو الخشبية henges: أثر يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ يتكون من دائرة من الأعمدة الحجرية أو الخشبية. (المترجم)

ويمثل الاتجاه الوظيفي المعرفى فى علم الآثار محاولة من جانب علماء الآثار الوظيفيين للاستفادة من الانتقادات التى وجهت إلى علم الآثار ما بعد الوظيفي، وذلك بإبداء اهتمام أعظم بالجوانب الرمزية. وتخلّى هذا الاتجاه الوظيفي المعرفى عن التوجه الوضعى المتطرف فى التفسير، ولو أن البعض عبر عن مخاوفه من مخاطر النزعة النسبية المتأصلة فى الاتجاه ما بعد الوظيفي، والذى يفترض أن عالم الآثار الحديث يستطيع أن يستعيد - على نحو موثوق به - خبرات ومفاهيم إنسان فرد كان يعيش فى الماضى. من هنا ظل أصحاب الاتجاه "الوظيفي/المعرفي" من علماء الآثار يطالبون باختبار ما يطرحونه من فروض، فى نفس الوقت الذى كفوا فيه عن التطلع إلى وضع قوانين ثقافية عامة. وقد تبنى هذا الاتجاه بسرعة من الماركسية ومن النزعة النسوية بعض الأفكار التى تتصل بدلالة الإيديولوجيا والصراع السياسى داخل المجتمعات، كما استعان ببعض الأفكار الفلسفية الأكثر دقة عن طبيعة النظرية، وهى أفكار مستعارة أو مستلهمة من علم الاجتماع وبعض العلوم الاجتماعية الأخرى. والجدير بالذكر أن علماء الآثار تبينوا بوضوح أن دراسة الماضى وتأمله من شأنه أن يتيح للتحليلات الأثرية أن تكشف أموراً كثيرة عن الحاضر (وعن فهمنا لأنفسنا) تماماً كما تكشف لنا جوانب الماضى. إن عالم الآثار ليس ملاحظاً محايداً، وإنما هو نتاج عصره ومجتمعه، ولذلك فإن تصورات المسبقة وتحيزاته الثقافية التى أخذها عن مجتمعه سوف تتدخل فى تشكيل دراسته للماضى. (AE) للمزيد انظر: Shanks and Tilley (١٩٩٢) و Renfrew (٢٠٠٣) و Renfrew and Bahn (٢٠٠٤).

Sociology

علم الاجتماع

علم الاجتماع هو دراسة المجتمع (وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية "socius" التى تعنى "الرفيق" companion والكلمة الإغريقية "logos" التى تعنى

الرأس أو العقل، وقد صاغها الفيلسوف الوضعي الفرنسي أوجست كونت Conte، سنة ١٨٢٠ تقريباً). والواقع أن هذا التعريف البسيط "لعلم الاجتماع" يجنح إلى التعميم بشكل ظاهر:

أولاً لأن من الواضح وجود علوم أخرى يدرس كل منها جزءاً من الكل الذى يمثل المجتمع (كعلم الاقتصاد، والتاريخ، والجغرافيا، وعلم السياسة)، مما يؤدى إلى أن يظل المعنى الدقيق لمصطلح "المجتمع" أمراً يفتقد الوضوح، وثانياً لأن هذا التعريف لا يذكر شيئاً عن الأسلوب أو النهج الذى تتبعه هذه الدراسة. ويترتب على ذلك أن يكون فى الإمكان النظر إلى تاريخ علم الاجتماع باعتباره مناقشة ممتدة لهاتين القضيتين على وجه الدقة: ما هو المجتمع؟ وكيف تتم دراسته؟

ومن المعتاد أن يذكر كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وإميل دوركايم (١٨٥٨-١٩١٧) وماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) باعتبارهم المؤسسين الثلاثة لعلم الاجتماع (ومعهم جورج زيمل (١٨٥٨-١٩١٨) الذى يذكر معهم أحياناً، تبعاً للموضوعة الفكرية السائدة آنذاك). والحق أنه من الإنصاف القول بأن أغلب التوجهات الفكرية والمشكلات التى يعالجها علم الاجتماع المعاصر يمكن ردها إلى أصول موجودة فى بعض المشكلات التى أثارها هؤلاء المؤسسون.

فإلى دوركايم يرجع فضل تأسيس تراث لعلم الاجتماع يؤسس له كعلم (يلتزم التزاماً شديداً بنموذج علمى الفيزياء والأحياء الطبيعيين)، وينظر إلى المجتمع بوصفه حقيقة موضوعية. فللمجتمع عنده وجود حقيقى يزيد عن الوجود الحقيقى للأفراد الذين يتألف منهم ويعلو عليهم. مما يترتب عليه أن التفسير السوسيولوجى (أى الذى يقدمه علم الاجتماع) لا يمكن تجزئته أو تفكيته إلى أن يصير تفسيراً يرتكز على سيكولوجية الأفراد الذين يكونون هذا المجتمع. والأصح أن يحتكم التفسير السوسيولوجى السليم إلى صور الانتظام والقوانين الموجودة على مستوى المجتمع فقط، والتى قد لا يكون

الأعضاء العاديين فى المجتمع على وعى بها. (وكان المثال التوضيحي الممتاز الذى استشهد به دوركايم لإثبات هذه الظاهرة يتعلق بالانتحار. فعلى الرغم من أن الانتحار يتسم على نحو فريد بكونه فعلاً شخصياً ويتم بمعزل عن الآخرين، فإن عدد حالات الانتحار التى تقع سنوياً داخل مجتمع معين يكون ثابتاً إلى حد ما. ويوحى ذلك بأن قرار الفرد بالانتحار يتأثر فعلياً بالقوى الاجتماعية العامة المؤثرة). وقد أدى اتجاه دوركايم الفكرى من قضايا علم الاجتماع إلى ظهور النزعة الوظيفية، وهى النزعة التى ظلت سائدة فى أمريكا حتى ستينيات القرن العشرين. وتعتمد النزعة الوظيفية على تشبيه المجتمع بالكائن العضوى الحى، وذلك لمحاولة إثبات أن السمة الرئيسية لأى مجتمع تتمثل فى قدرته على الاحتفاظ بالتوازن وعلى تكوين عدد كبير من الأجيال المتعاقبة (وهى تشبه قدرة الكائنات العضوية على الاتزان البدنى). لهذا كانت الوظيفية تفسر ما يوجد فى المجتمع من أجزاء أو مؤسسات (أو نظم) مختلفة وفقاً لما تقدمه من إسهام فى كفالة هذا التوازن المستمر. وعلى ذلك فإن لكافة النظم الاجتماعية وظائف محددة.

وعلى النقيض من دوركايم، الذى كان يعتبر نفسه متخصصاً فى علم الاجتماع. تعد الانتقادات الفكرية لماكس فيبر أكثر اتساعاً وشمولاً (حيث تتضمن القانون، والتاريخ، وعلم الاقتصاد). إلى جانب ذلك، يمكن أن يتسم اتجاهه الفكرى فى علم الاجتماع باهتمام رئيسى بالتطور والتفوق التقنى للحضارة الأوروبية الغربية، خاصة فى ضوء ما تتصف به هذه الحضارة من الرشد. ذلك أن اهتمامه بالقوانين الكلية العامة للتنظيم الاجتماعى أقل من اهتمامه بالظروف الخاصة التى أدت إلى نشأة الرأسمالية فى أوروبا الغربية دون غيرها. ولهذا يتفوق إنتاجه الفكرى على عمل دوركايم من ناحية الحس التاريخى تفوقاً كبيراً. فضلاً عن أن اتجاهه فيبر الفكرى أو تصوره لعلم الاجتماع بوصفه فرعاً من فروع العلم يدين بالقليل للعلوم الطبيعية،

ويدين بالكثير لمناهج التفسير التاريخي (أو التأويل). ونجد فيبر يهتم بالتعاطف مع الفاعلين الاجتماعيين، ويؤسس تفسيراته على ما يحرك هؤلاء الفاعلين من دوافع وما يعزونه من معان لبعض المواقف، وعلى طريقة استجاباتهم لها. والواقع أنه بينما يميل الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع إلى اختزال الفاعل الفرد إلى مجرد أداة من أدوات البناء الاجتماعي، ومن ثم يكون مخلوقاً لا يحتاج إلا إلى القليل من المهارة أو الوعي، وذلك لأنه يمثل طائفاً لما يأمره به المجتمع، يميل فيبر إلى تصوير الأفراد باعتبارهم يتمتعون بالكفاءة الاجتماعية.

وقد تبنى هذا الاتجاه الفكري أصحاب النزعة التفاعلية، أمثال ألفرد شوتز (والتأثر كذلك بفينومينولوجيا هوسرل)، وأصحاب النزعة التفاعلية الرمزية. فقد أولت هذه المدارس الفكرية السوسيولوجية أهمية كبيرة لقدرة الأفراد - حال تعاملهم مع غيرهم من الأفراد وفي استجاباتهم لهم - على تشكيل وفهم العالم الاجتماعي المحيط بهم. وهكذا لا تنتظر هذه المدارس إلى المجتمع بوصفه شكلاً خاصاً من أشكال الواقع الموضوعي الذي يتحكم تحكمًا تاماً في الأفراد (كما هو الحال في تصور دوركايم وأصحاب النزعة الوظيفية)، وإنما هي تراه بوصفه ثمرة لفعل الإجماع الذاتي أو إجماع النوات. (وقد بلغ هذا الاتجاه الفكري أقصى مداه النظري في نزعة الإثنوميثولوجيا). ومع أن المدارس الظاهراتية والتفاعلية في علم الاجتماع كانت قد ازدهرت منذ ثلاثينيات القرن العشرين على أقل تقدير (على نحو ما ظهر في مدرسة شيكاغو)، فإنهما لم يبلغا مكان الصدارة في بحوث علم الاجتماع إلا في ستينيات القرن العشرين، شاغلتين بذلك الموقع الذي كانت تحتله النزعة الوظيفية.

وللماركسية دور هامشي في تاريخ علم الاجتماع في بعض النواحي فحسب. وقد برز أول تأثير لها بقوة بوصفها ذلك الشكل من أشكال التفسير السوسيولوجي الذي اتخذ فيبر موقفاً منه. لذلك، جاء رأي فيبر في تفسير نشأة الرأسمالية (وهو الرأي

الذي يولى أهمية رئيسية لدور العوامل الثقافية، وبخاصة العوامل الدينية بوصفها محفزات على التغيير الاجتماعي) جاء معارضاً للتفسير المادى الذى طرحه ماركس. وبالمثل، طور فيبر تصويراً متعدد الارات أو الطبقات للتدرج الاجتماعى، وذلك على النقيض من تفسير ماركس الذى يركز على الطبقة فقط.

وعلى الرغم من هذا التوتر، وربما نتيجة له، حدثت التطورات الجوهرية للماركسية فى أوروبا الغربية فى النصف الأول من القرن العشرين من خلال المزج بين أفكار كل من ماركس وفيبر، على نحو ما نجده مثلاً فى أعمال جورج لوكاتش وفى بحوث مدرسة فرانكفورت. وبذلك دخل شكل جديد من علم الاجتماع الماركسى فى خضم المجرى الرئيسى للنقاش السوسيولوجى، على الأقل فى المجتمعات الناطقة بالإنجليزية، خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، ولكن بصفة خاصة من خلال استيعاب هذه المجتمعات لأفكار الفيلسوف البنىوى الفرنسى ألتوسير Althusser وإحياء مؤلفات الماركسى الإيطالى جرامشى.

وكان علم الاجتماع إبان سبعينيات القرن العشرين - فى بريطانيا على الأقل - هو المحيط الفكرى الذى تبلور داخله جزء هام من الدراسات الثقافية. فقد كان منبعاً ثرياً للأدوات المفاهيمية والنظرية الخاصة بتحليل الحياة الاجتماعية، وتحليل الحياة الثقافية كذلك. إذ أدى بروز بعض أشكال النزعة التفاعلية والنزعة الفينومينولوجية إلى زحزحة علم الاجتماع بعيداً عن الاهتمام بالأبنية الاجتماعية الكبرى، ووجه الاهتمام إلى التأكيد على قدرة الأفراد العاديين، ومن ثم إبراز أهمية الحياة اليومية العادية. ثم أدت عودة ظهور الماركسية (جنباً إلى جنب صعود الحركة النسوية) إلى دعم تكامل هذا المحور الجديد من محاور الاهتمام، بتقديم أدوات لتحليل علاقات القوة وتحليل الثقافة (وهى الأدوات التى كان غيابها يمثل دائماً نقطة ضعف فى النزعة التفاعلية). وقد كشفت جهود التنظير لمفهوم الإيديولوجيا ومفهوم الهيمنة التى بذلها كل من

التوسير وجرامشي، كشف عن وعى جديد بالطريقة التى تكون بها الثقافة ثمرة التفاوض بين الفئات الاجتماعية المتصارعة، ومجال هذا التفاوض أيضاً.

إن صعوبة توليد اتجاه فكرى واحد ومتماسك لعلم الاجتماع، اتجاه يستطيع أن يؤلف بين الرؤى التى طرحها علماء الاجتماع المعينون بتحليل الوحدات الاجتماعية الكبرى (كالوظيفيين والماركسيين)، وتلك التى طرحها علماء الاجتماع المهتمين بتحليل الوحدات الاجتماعية الصغرى (كالفيثومينولوجيين والتفاعليين)، هذه الصعوبة لا تزال من القضايا المحورية فى نظرية علم الاجتماع. وقد بذلت محاولات مهمة للاستجابة لهذه المشكلة، نجدها فى أعمال يورجن هابرماس (عن علاقة المجتمع - باعتباره منظومة ذات طبيعة موضوعية - بالخبرة اليومية لعالم الحياة)، وفى مؤلفات أنتونى جيدنز عن التشكل البنائى. (انظر كذلك مادة: الفاعل والبناء). (AE) للمزيد انظر: Bii-ton et al (١٩٩٦) و Bocock et al (١٩٨٠). و Elias (١٩٧٠) و Giddens (١٩٩٧).

علم الاجتماع المعرفى والثقافى Sociology of Knowledge and Culture

طرحت اتجاهات علم الاجتماع فى تناول قضايا المعرفة، والعلم، الفن بعض الاعتراضات الأساسية على التصورات التقليدية لطبيعة وقيمة مجالات النشاط المذكورة وما تقدمه من ثمرات وإنجازات. فالمعرفة العلمية، مثلاً، تطمح إلى أن تكون معرفة صحيحة بصرف النظر عن المجتمع أو الثقافة التى يتم فيها إنتاج هذه المعرفة. ومع أن مثل هذه المعرفة قد تكون قابلة للتفنيد (بما يعنى أنها قد تراجع وتعدل بصورة كبيرة كما قد يتم تحسينها مستقبلاً)، فالمفترض أن مثل هذا التحسين إنما يحدث من خلال القيام برصد أفضل أو من خلال تراكم المعارف عن العالم الخارجى. وعلى ذلك فإن قيمة المعرفة العلمية تتوقف على درجة مطابقتها لواقع الحال الفعلى للعالم

الخارجي المستقل عن الأفراد الباحثين. وبالمثل يميل علم الجمال التقليدي - خاصة منذ نشر كانط كتابه بعنوان "نقد الحكم" في نهاية القرن الثامن عشر - يميل إلى القول بأن قيمة العمل الفني إنما تكمن في مدى تعبيره عن أو اتصافه بقيمة جمالية معينة مستقلة عن السياق التاريخي الذي توجد فيه. كذلك نظر علم الجمال إلى العمل الفني بوصفه ثمرة للعبقرية، والعبقرية - بطبيعتها - تسمو على قيود عصرها. وعلى ذلك فإن القيمة التي يتصف بها العمل الفني، ويتصف بها إنتاج تلك الأعمال في واقع الأمر، شأن لا صلة له بالظروف الاجتماعية لجمهور متلقيه ولا بالظروف الاجتماعية للفنان الذي قدمه. ويعترض علم الاجتماع على هذه الافتراضات، لأنه يرى أن المعرفة والأعمال الفنية الثقافية تحددها - أساساً - المجتمعات التي يتم إنتاجها فيها.

ومع أن مفهوم "علم الاجتماع المعرفي" قد صاغه الفيلسوف الألماني ماكس شيلر^(*) في عشرينيات القرن العشرين (١٩٨٠)، فقد توفرت قبل ذلك بعض عناصر اجتماع معرفي في أعمال كارل ماركس وإميل دوركايم. فقد كان تحليل

(*) شيلر، ماكس Scheler, Max (١٨٧٤-١٩٢٨) مدير معهد البحث العلمي الاجتماعي، وأستاذ الفلسفة في جامعة كولونيا في ألمانيا ابتداء من عام ١٩١٩. وقد كان شيلر من الشخصيات المهمة في تطوير كل من علم الاجتماع الظاهراتي (الفينومينولوجيا)، وعلم الاجتماع المعرفي، وعلم الاجتماع الثقافي. وقد حاول شيلر، تحت تأثير كل من فريدريك نيتشه، وإدموند هوسرل، أن يتجنب النزعة النسبية في علم الاجتماع المعرفي، وذلك بتبنيه وجهة نظر جوهرية Essential عن الطبيعة البشرية في كتاباته عن الأنثروبولوجيا الفلسفية، والتي تأثرت أيضاً بمعتقداته الكاثوليكية الرومانية. ورغم أن شيلر اعترف بتعددية ونسبية نظم الاعتقاد أو الإيمان، فإنه أكد أن الطبيعة البشرية ذات طبيعة عامة واحدة. وقد استبدل شيلر ثنائية كارل ماركس لما أسماه بالبناء التحققي والبناء الفوقي، بثنائية أسماها: الديني والروحي. وكان يتبنى وجهة نظر تشاؤمية تجاه المجتمع الصناعي المعاصر، حيث رأى أنه إفساد للقيم الحقيقية الأصلية. ومن أهم أعماله كتاب: الاستياء، الصادر عام ١٩١٢، وكتاب "طبيعة التعاطف"، الذي صدر عام ١٩١٣، وكتاب "مشكلات علم الاجتماع المعرفي"، المنشور عام ١٩٢٦، وكتاب "مكانة الإنسان في الطبيعة"، الصادر عام ١٩٢٨ وتعد إسهامات شيلر في علم الاجتماع المعرفي من الإسهامات التي لا يمكن لأي دارس تجاهلها. (المراجع)

ماركس للمجتمع وفقاً للتعبير الاستعارى الخاص بالبناء التحتى والبناء الفوقى (وفيه يكون البناء التحتى هو النشاط الاقتصادى للمجتمع، ويكون البناء الفوقى مؤلفاً من الأعراف القانونية والثقافية) كان يوحى بأن التكوينات الاقتصادية المختلفة يمكنها أن تؤدي إلى ثقافات مختلفة، خاصة بمقدار انخراط هذه الثقافات فى عملية الصراع الطبقي (انظر مادة: طبقة) بوصفها تمثل أشكالاً من الإيديولوجيا.

كما اتخذ دوركايم (١٩٧٦) - جنباً إلى جنب الأنثروبولوجى الثقافى مارسل موس^(*) (١٩٦٦) - نظم التصنيف عند المجتمعات الصغيرة والمجتمعات قبل الصناعية؛ اتخذ موقفاً ربما كان أكثر تطرفاً، عندما قال إن الطريقة التى ندرك بها الواقع (بما فى ذلك إدراكنا للزمان والمكان) تتحدد على أساس من خبرتنا الاجتماعية. وهكذا نرى أنه على حين سبق لكانط أن ذهب - فى نظريته عن المعرفة - إلى أن إدراكنا للزمان والمكان يعتمد على الطريقة التى يشكل بها العقل الإنسانى الكلى خبرتنا، كان دوركايم يؤكد أن العقل البشرى نفسه إنما يتشكل اجتماعياً، بحيث إن الأفراد المنتسبين إلى ثقافات مختلفة يدركون العالم بصور مختلفة (أو بتعبير أشد تطرفاً: سيؤدي ذلك إلى أن يعيش هؤلاء الأفراد داخل عوالم مختلفة). أما المفكر

(*) موس، مارسيل Mauss, Marcel (١٨٧٢-١٩٥٠) تلقى مارسيل موس تعليمه الجامعى فى كل من جامعتى باريس وبوردو. وقد أسس بالاشتراك مع خاله، إميل دوركايم، وبمصاحبة مجموعة مثيرة للإعجاب من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والمؤرخين كان من بينهم: هنرى هوبير، وروبرت هرتز الدورية الذائعة التأثير "حواليات علم الاجتماع" والتي تم على صفحاتها استكشاف أغلب الأفكار الرئيسية فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ولا يمكن المبالغة فى أثر موس على الأنثروبولوجيا الاجتماعية. فمن خلال دراسته المتعمقة لطبيعة علاقات تبادل الهدايا كشف موس مبادئ المعاملة بالمثل أو التبادل الودى التى لم يتم الطعن فيها فى أى من الأنثروبولوجيا الوظيفية أو البنائية بعد ذلك. والواقع أنه من الممكن القول إن أنثروبولوجيا كلود ليفي شتراوس البنائية لم يكن لها أن توجد بدون أعمال موس التى تستمد منها أصولها، ليس فقط بالنظر إلى فكرة التبادل الودى، وإنما بالنسبة لفكرة التصنيف أيضاً (انظر كتاب دوركايم وموس بعنوان: التصنيفات الأولية، الصادر عام ١٩٠٢). ولقد تأثرت دراسات علم الاجتماع لعلاقات التبادل وأنساق المعتقدات بأفكار موس. (المراجع)

الماركسي لوكاتش فيرى أن إدراكنا للزمان والمكان - الذى يعتبره كانط أمراً أساسياً عاماً - هو فى الواقع أحد نواتج الحياة داخل النظام الرأسمالى، بما فيه من تقسيم للعمل، ونظم مكانية وزمنية لتنظيم العمل داخل المصنع.

وقد حول كارل مانهايم^(*) تفسير ماركس للإيديولوجيا إلى نوع من علم الاجتماع المعرفى. حيث وسع موقف ماركس الخاص بالتركيز على البناء الاقتصادى التحتى فقط، لكى يثبت أن الجماعات المختلفة داخل المجتمع تدرك العالم بصور مختلفة، وسوف تسلم - بناءً على ذلك - بدعائى مختلفة تعتبرها معارف صحيحة. ويبدو أن الاتجاه الفكرى لمانهايم يفتح الطريق لشكل من أشكال النسبية الثقافية، للدرجة التى لا يمكن - معها - اعتبار أى معرفة حقيقية أو صادقة، بمعزل عن وجهة النظر الاجتماعية التى تم فى إطارها إنتاج هذه المعرفة والانتفاع بها.

وقد لقيت المضامين الفكرية للنزعة النسبية فى علم الاجتماع المعرفى دعماً وتأييداً من جراء التأثير الذى أحدثته فلسفة العلم عند توماس كون فى علم الاجتماع

(*) مانهايم، كارل Mannheim, Karl (١٨٩٢-١٩٤٧) عالم اجتماع مجرى هاجر إلى ألمانيا وأخيراً إلى إنجلترا بعد صعود هتلر إلى سدة الحكم بفترة قصيرة. وتنتمى أكثر إسهاماته أهمية إلى مجال علم الاجتماع المعرفى، الذى عرفه بأنه نظرية التشريط الاجتماعى أو الوجودى للفكر. وقد اعتبر مانهايم كافة أشكال المعرفة والأفكار مرتبطة بموضع محدد فى إطار البناء الاجتماعى والعملية التاريخية. وهكذا، فإن الفكر يعكس بالضرورة منظوراً بعينه ومن ثم ينتسب إلى الموقف الذى يوجد فيه. وقد تأثر مانهايم بكل من ماركس وفيربر، وأدرك فى معظم كتاباته تباين المواضيع الاجتماعية للأفكار فى ضوء عوامل الطبقة وجماعات المكانة بصفة أساسية. فهو يقابل على سبيل المثال بين الفكر اليوتوبى المتماثل فى الآمال المستقبلية للمحررين والفكر الإيديولوجى الذى يتبناه أولئك المستفيدون من الوضع القائم. ومع ذلك، فقد أولى مانهايم اعتماداً خاصاً لموضوع الفروق بين الأجيال فيما يتعلق بالأفكار. فالجيل الذى ينتمى إليه الشخص، شأنه شأن طبقة الاجتماعية، يضيف على الفرد وضعاً محدداً فى الزمن التاريخى والاجتماعى، ومن ثم فإنه يوجهه إلى أنماط معينة من الفكر. وقد اتهم مانهايم بتبنيهِ لموقف نسبي كلى عندما أصر على القول بأن كل أشكال الفكر هى بالضرورة ذات طابع إيديولوجى، وهو اتهام جاهد ليدفعه عن نفسه دون أن تكال جهوده بالنجاح. وقد اتسمت إسهاماته الرئيسية بأنها لم تكن إبستمولوجية بقدر ما كانت موضوعية. (المراجع)

(١٩٧٠). فقد ذهب كون إلى أن البحث العلمى لا يعتمد كلية - بل إنه حتى لا يعتمد أساساً - على الملاحظة المستقلة للعالم الخارجى، وإنما يعتمد على نموذج نظرى أو مجموعة من الفروض (عن طبيعة العالم وطبيعة العلم والمعرفة العلمية) والى تشكل أى إدراك لهذا العالم. ولا تبعد فكرة النماذج النظرية لكون كثيراً عن الرأى القائل بأن النماذج النظرية نفسها تعتمد على توافر بعض الظروف أو الأوضاع الاجتماعية والثقافية الأشمل. وهكذا يمكن ملاحظة أن مفهوم نيوتن عن الزمان المطلق والمكان المطلق لا يعتمد على الرصد بل على معتقدات لاهوتية وكوزمولوجية^(*) مسبقاً. (وبتعبير أكثر تحديداً، يبدو واضحاً أن نيوتن قد رصد خمسة ألوان فقط من ألوان الطيف. ولما كان متأثراً بالكيمياء القديمة وبالدلالة السحرية للأعداد، فقد أضاف لونين آخرين ليصل إلى عدد "سبعة" السحرى). لذلك يؤيد علم اجتماع العلم - فى أشد مواقفه تطرفاً - الفكرة التى تقول إن العلم هو الذى يشكل العالم المادى، وليس ما يفعله مجرد استجابة لعالم مستقل.

ولئن انهزم العلم أمام ذلك الهجوم السوسيولوجى عليه بهذه السهولة، فإن الفن يمثل هدفاً أضعف من أن يصمد لهذا الهجوم. فمن اليسير - وفقاً لهذا الهجوم السوسيولوجى - وضع الفن: فى إنتاجه واستهلاكه ضمن سياق سياسى واقتصادى ما^(**). مثال ذلك، أنه حدث - قبل ازدهار سوق الفنون، وبصورة فائقة الوضوح فى أوروبا القرنين السابع عشر والثامن عشر - أن أغلب ما نعهده الآن من الفنون كان يودى وظائف اجتماعية واضحة لا ريب فيها. فالموسيقى، مثلاً، يمكن أن تساعد فى تشكيل الحركات الطقوسية للمصلين أثناء القداس، أو تساعد فى الحفاظ على التماسك

(*) متصلة بالكون وأصله وبنيت العامة وعناصره ونواميسه. (المترجم)

(**) انظر كذلك: سوسيولوجيا الفن. طرق للرؤية، ترجمة إيلي الموسوى. مراجعة وتقديم محمد الجومرى، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٧. (المراجع)

----- (ع) -----

داخل جماعة العمال. والفنون البصرية قد تساعد - وعلى نحو غير مباشر - على أن يبدي رعاتها (من سُرّة القوم) رغبتهم فى التباهى والتفاخر بثروتهم ونفوذهم السياسى).

ومع ازدهار سوق الفنون الجميلة الخاصة بالطبقة الوسطى، بدا الفن وكأنه شئ ليس له فائدة. فليس له تلك المنفعة العملية التى للسلع الأخرى. لذلك فسر البعض هذا التطور المعاصر فى علم الجمال باعتباره استجابة لهذه المشكلة. فمن جهة يساعد وصف عمل ما بأنه ذو قيمة جمالية على تبرير استهلاك هذا العمل الذى قد يكون عديم الفائدة لولا وصفه بهذه الصفة، ومن جهة أخرى، يرفع هذا الوصف القيمة الاقتصادية لهذا العمل الفنى (انظر بورديو ١٩٨٤). ومن هنا قد يتكشف أمر دقيق - وبالتوافق مع علم الاجتماع المعرفى - مؤداه أن العمل الفنى يفصح عن القيم التى تتبناها الجماعة الاجتماعية وعن رؤيتها للعالم. وعلى ذلك يتناول لوفنتال - وهو أحد مفكرى مدرسة فرانكفورت - الأدب بوصفه تعبيراً عن الإيديولوجيات الطبقية، ويجتهد فى وصف "مدى ما تبلغه بعض البنى الاجتماعية من نجاح فى أن تجد ما يعبر عنها فى الأعمال الأدبية المختلفة، وفى وصف الوظيفة التى تؤديها هذه الأعمال فى المجتمع" (١٩٨٩: ٤٤). يشهد لذلك، أن تحليله للروايات التى كتبها نوت هامسون Knut Hamson يربط بينها وبين إحدى الديانات التى يعبد أتباعها الطبيعة، والتى تتصف بالنزعة السلطوية (١٩٧٨).

ومع أن ما فى علم الاجتماع المعرفى والثقافى من نظريات متطرفة قد تختزل قيمة المعرفة والفنون إلى مجرد وظائف أو تأثيرات ذات أساس اجتماعى أو سياسى، فإن الاتجاهات الفكرية الأكثر تركيياً بينها تحاول دمج التصور السوسيولوجى داخل الاهتمامات التقليدية للتفسير والنقد. وهكذا نجد مؤرخى الفنون أمثال تيم كلاك Tim Clark (١٩٧٣) وباكساندال Baxandall (١٩٨٠) (الأخذين بأحد اتجاهات التفسير

التي ترجع نشأتها - فى أقل تقدير - إلى أعمال معهد فاربرورج Warburg Institute فى ثلاثينيات القرن العشرين)، أو علماء الموسيقى أمثال تريتلر Treidler (١٩٨٩) وتوملنسون Tomlinson (١٩٨٤) قد اعتدوا بصورة أساسية على الاتجاومات الفكرية السوسيولوجية لإثراء قراءة الفن. وفى نطاق مدرسة فرانكفورت تدور نظرية أدورنو فى علم الجمال (١٩٨٤)، ونظريته فى المعرفة (١٩٦٧) - وهما النظريتان اللتان تحتلان منزلة عالية فى هذه المدرسة - تدوران حول الاعتراف بالتوتر الجدلى بين استقلال الفن والعلم من جهة، ووضعهما بوصفهما ظاهرتين اجتماعيتين من جهة أخرى (وما يترتب على ذلك من اعتبارهما موضوعاً مشروعاً للتحليل السوسيولوجى). (AE) للمزيد انظر: Meja and Stehr (١٩٩٠) و Wolff (١٩٨١).

علم تحسين النسل

Eugenics

مصطلح صكه فى العام ١٨٨٢ العالم البريطانى سير فرانسيس جالتون الذى عاش فى القرن التاسع عشر. وترى نظرية علم تحسين النسل أنه من الممكن تعديل بعض السمات الفيزيائية (الجسمانية) والخلقية لأى فرد أو عرق والتحكم فى تلك السمات من خلال بعض الممارسات التى تقوى السمات الإيجابية وتدعمها وتثبط السمات السلبية وتضعفها. ومن بين هذه الممارسات: التمارين البدنية، أو علاج إدمان المخدرات أو الأمراض السرية (الجنسية)، وأخيراً الأمر المزعج: وهو التعقيم. ففكرة إمكانية الكمال البشرى تحتل موقعاً أساسياً فى نظرية علم تحسين النسل، شأنها شأن فكرة الانحطاط أو التدهور (وهى الفكرة التى حظيت بقبول جماهيرى واسع فى تسعينيات القرن التاسع عشر بفضل مؤلف ماكس نورود المثير للجدل والذى يحمل نفس العنوان (انظر: Nordau (١٨٩٤) ويمثل علم تحسين النسل مزيجاً من المؤثرات المتنوعة، نذكر من بينها تأثير الداروينية الاجتماعية. ونصادف أبرز الداعمين الأوائل

لعلم تحسين النسل فى بريطانيا وأمريكا. ففى أمريكا تم - خلال السنوات الأولى من القرن العشرين - تبني المبادئ الأساسية لعلم تحسين النسل فى قوانين الولايات. وترتب على ذلك "علاج" آلاف البشر الذين حكم عليهم بالتخلف العقلى، أو لأنهم يمثلون "الانحلال الأخلاقى"، وهو علاج كان معناه التعقيم الإجبارى لأكثر من ستين ألف نسمة.

وعلى الرغم من الحقيقة المروعة لهذا المثال، فإنه حدث ما هو أسوأ منه فى ألمانيا فى العهد النازى، حيث تطور علم وراثه عرقى أدى إلى تطوير علم تحسين نسل عدوانى، وهو أمر غير مستغرب بسبب الطبيعة العنصرية للإيديولوجيا النازية. وقد أدى تطبيق سياسات تحسين النسل إلى عمليات تعقيم واسعة النطاق طالت أكثر من نصف مليون فرد، ممن حكم عليهم بأنهم متخلفون، أو يعانون من أمراض عقلية، أو مولودون بعيوب خلقية. وكان الدكتور "جوزيف منجل" أحد الشخصيات البارزة فى دوائر علم تحسين النسل النازى، الذى أبدى منذ فجر شبابه تعاطفاً مع الفكر النازى، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميونخ، ثم نال دكتوراه أخرى فى تخصص تحسين النسل من جامعة فرانكفورت (انظر: Gutman and Berenbaum، ١٩٩٤، ص٣١٧ وما بعدها). وشرع "منجل" منذ مايو ١٩٤٢ فى إجراء بعض التجارب على أطفال من الغجر، ثم من اليهود فيما بعد الذين كانوا سجناء معسكر أوشفيتز - بركناو، حيث كان قد عين ضمن الفريق الطبى بمعسكر الاعتقال بعد إصابته بإصابة شديدة أبعده عن الوحدات العسكرية المحاربة لفرق "العاصفة". ولم يحدث قطعاً أن ألقى القبض على منجل فيما بعد، وتوفى إثر إصابته بجلطة دماغية وهو يسبح أثناء إجازة له فى عام ١٩٧٩. والحقيقة أن التجاوزات المريعة لعلم تحسين النسل فى العهد النازى قد أدت إلى انهياره وتراجعته فى فترة ما بعد الحرب^(٥).

(٥) انظر كذلك مادة: المحرقة. (المراجع)

ومع ذلك فإن هناك بعض الشواهد والتطورات التي تدل على أن كثيراً من القضايا التي أثارها علم تحسين النسل مازالت تعيش بيننا، وذلك بفعل التطورات الحديثة في الهندسة الوراثية والممارسات الطبية الحديثة كعملية الفرز الوراثي للنساء الحوامل. وقد أوجز هابرماس (٢٠٠٣، ص ١١٥) القضية الأخلاقية المحورية التي تطرحها الأحلام الذرائعية التي يحاول إغرائنا بها كل من علم تحسين النسل وعلم الوراثة: "ألم يكن أول من قرر وحدد - على هواه تماماً - الجوهر الطبيعي لإنسان آخر إنما يدمر - في الوقت نفسه - الحريات المتساوية المتاحة لأشخاص من نفس المولد لكي يصونوا الرقوق التي تميزهم؟" (PS) للمزيد انظر: Galton (١٩٠٧) و Osborn (١٩٥١) و Kevles (١٩٨٥) و Gutman and Berenbaum (١٩٩٤).

Aesthetics

علم الجمال

علم الجمال هو ذلك الفرع من فروع الفلسفة الذي يتناول بالمعالجة قضايا الفن والجمال. وعلى حين يعد علم الجمال أحد مجالات الفلسفة التي أسيء تعريفها واختلف فيها اختلافاً شديداً من عدة وجوه، فإنه بالإمكان النظر إلى اهتماماته الرئيسية باعتبارها تلك التي تُعنى بتعريف مفهوم "الفن"، أو التي تُعنى، في أقل تقدير، بتقديم تفسير للكيفية التي تميز بها الأعمال الفنية باعتبارها أعمالاً فنية، وبالتساؤل عن العلاقة بين الفن واللافتن، أو بين الفن والعالم الفعلي (الواقعي) (وهو التساؤل الذي يطرح سؤالاً آخر عن دور التمثيل Representation - أو المحاكاة Mimesis - والتعبير في الفن، وكذلك عن علاقة الفن بالمجال الأخلاقي والسياسي)، وهي الاهتمامات التي تزودنا بفلسفة للنقد تستكشف الكيفية التي يتم بها تفسير الأعمال الفنية وتقييمها.

وعلى امتداد تاريخ الفلسفة يتكرر النقاش الذى يدور حول أحكام التذوق (الفنى أو الجمالى)، وذلك ابتداءً من الإغريق القدماء. فالكتاب الذى ألفه أفلاطون بعنوان "هيبياس الكبير" Hippias Major يحتوى على مناقشة لمفهوم الجمال، كما أن تحليل أرسطو للبناء المسرحى (وبخاصة التراجيديات) كان له تأثير على الفن وعلى النقد الفنى استمر أمداً طويلة، رغم أنه كان فى بعض الأحيان تأثيراً محبطاً.

وبينما يتكرر ظهور الآراء والأفكار المتباينة عن الفن على امتداد تاريخ الفلسفة، فإن علم الجمال لم يبدأ فى التشكل باعتباره فرعاً من فروع الفلسفة يتمتع بتعريف واضح المعالم وبثقة بنفسه، إلا فى القرن الثامن عشر. ولم يكن من قبيل المصادفة أن تتم نشأة هذا العلم عقب انفصال الأعمال الفنية *Works of Art* عن الأعمال الحرفية *Craft Works* (التي ينجزها الصناع المهرة)، الأمر الذى جعل البعض يتصور أن ظهور علم الجمال واستكمال له لمامحه جاء استجابة لهذا الانفصال. ولسنا فى حاجة إلى تبرير أو تفسير الأعمال الحرفية. بينما يحدث العكس بالنسبة للأعمال الفنية، التي باتت تمثل إشكالية عسيرة الحل مع تزايد انفصالها عن التوظيف العملى فى المجال السياسى، أو فى مجال الاحتفالات الرسمية، أو فى المجال الدينى. يشهد لذلك أن شارل باتو Charles Batteux صك لأول مرة فى سنة ١٧٤٦ مصطلح "الفنون الجميلة" (*Beaux Arts*) على اعتبار أن مثل هذه الأعمال تشترك فى اتصافها جميعاً بصفة الجمال.

أما مصطلح "علم الجمال" فقد صكه لأول مرة الكساندر جوتليب بومجارتن Alex-ander Gottlieb Baumgarten، عندما نشر كتابه بعنوان "الاستطيقا" سنة ١٧٥٠. ومع هذا، فإن المقال الذى كتبه هيوم بعنوان "عن معيار التذوق" (سنة ١٧٥٧) يطرح مشكلة أساسية تؤدى - من فترة إلى أخرى - إلى إضعاف الثقة بعلم الجمال. وتتمثل هذه المشكلة فى البحث عما إذا كان الحكم القائم على التذوق هو حكم ذاتى خالص

أم لا، ذلك لأنه لو كان حكماً ذاتياً، لأصبحت المناقشات العقلانية الراشدة للموضوعات الجمالية عملاً لا معنى له. ويقدم كانط في كتابه بعنوان "نقد الحكم" (١٧٩٠) استجابة مركبة وبارعة للشكوك الأولية في مدى قدرة علم الجمال على البقاء. وباستناده إلى ما قدمه في نظريته عن المعرفة وفي فلسفته الأخلاقية من ثروة فكرية، استطاع كانط أن يوفر لنا تفسيراً للحكم الجمالي ذا جذور راسخة في البنية العامة للعقل البشرى (لذلك فإن الحكم الصادق بأن شيئاً ما جميل هو ذلك الحكم الذى ينبغى على الجميع أن يتفقوا عليه). كما أنه يفصل الخبرات الجمالية عن الخبرات المستمدة من المتعة الحسية المحضة، وبالأذات فيما يتصل بالحيدة والنزاهة التى يلتزم بها المشاهد تجاه الموضوع الجمالى، وكذلك بالنظر إلى الغياب التام لأى غرض عملى يمكن أن يعزى إلى هذا الموضوع الجمالى. أما هيغل وشوبنهاور فهما قادران أن يبينيا - بكل ثقة - رؤيتهما لعلم الجمال ضمن منظومتيهما الفلسفتين الكبيرتين اعتماداً على فلسفة كانط إلى حد بعيد.

وإذا كان القرن التاسع عشر قد شهد ازدهار علم الجمال، فإن القرن العشرين قد شهد تجدد الشكوك حوله وتجدد الهجمات عليه. وقد تصدى إدوار بولو Edward Bullough (١٩٥٧) للشكوك التى أثّرت حول جدوى علم الجمال. فعلم الجمال لا يقدم - كما هو واضح - أى مساعدة سواء للفنان لكى يبدع عملاً جديداً (والحقيقة أن وضوح القواعد العامة والشاملة التى تقدم تعريفاً لكلمة "الفن" وكلمة "الجمال" إنما تعرقل الفنان فى واقع الأمر)، كما لا يقدم علم الجمال أى مساعدة لجمهور الأعمال الفنية على أن يفهم معنى الفن (نظراً لكون التفسيرات الفلسفية للفن من العمومية والانتساع بحيث تقصر عن إلقاء الضوء على ذلك المنتج الفنى الخاص المائل أمام أعين الجمهور). وفى ستينيات القرن العشرين أعلن الفنان الأمريكى بارنت نيومان Barnett Newman، وبصرامة قاسية، أن "علم الجمال يمثل للفن ما يمثل علم الطيور للطيور"، قاصداً بذلك أن الطيور تمكنت من تدبير أمور حياتها بنجاح رغم جهلها بحقائق علم

الطيسور، كما أن الفنانين تمكنوا من تدبير أمر إبداعهم الفنى بنجاح رغم جهلهم بعلم الجمال.

ولعل أوجه الانتقادات السوسيولوجية لعلم الجمال أشد إدانة له من تلك الانتقادات النابعة من مجال الفلسفة، وقد يرى البعض أن الدراسات الثقافية ظهرت إلى الوجود كرد فعل لما يتضمنه علم الجمال من هيمنة الصفوة (وبالأخص كرد فعل لاتجاه النقد الأدبى الذى دافع عنه ليفيز Leavis). (كذلك ما حدث فى علم الاجتماع الثقافى وما أثارته على سبيل المثال أعمال بيير بورديو (سنة ١٩٨٤، وسنة ١٩٩٣) من شكوك لم تقتصر فقط على الأساس الإيديولوجى للفن (انظر مادة: إيديولوجيا). وأعنى بذلك التمييز بين الثقافة الرفيعة والثقافة الجماهيرية أو الشعبية، وهو الأمر الذى أصبح من المسلمات فى عدد كبير جداً من الكتابات فى علم الجمال، بل أثارت الشكوك كذلك حول موضوع دور علم الجمال فى تعزيز استدامة هذه الإيديولوجيا، ومن ثم إخفاقه فى استكشاف جذوره الثقافية والسياسية الخاصة. وهذا معناه أن علم الجمال قد لا يزيد - إلا قليلاً - عن أن يكون تبريراً وتفخيماً زائفاً لإحدى هوايات الطبقة الوسطى. لقد كان من المألوف وفقاً لهذه الإيديولوجيا أن يكون الهدف الأكبر لعلم الجمال هو العمل على تعزيز واستدامة القيمة الاقتصادية للأعمال الفنية (وليس القيمة الجمالية الغامضة).

وفى نطاق الفلسفة، كشفت التطورات الحديثة فى علم الجمال عن مزيد من تقدير أهمية السياق الاجتماعى والثقافى الذى يتم من خلاله إنتاج الفن واستهلاكه. وقد ذهب الفيلسوف الأمريكى آرثر دانتو A. C. Danto إلى أنه حدث مع صعود الفن الحديث (انظر مادة: الصداث) وفن ما بعد الصداث وارتفاع شأنهما، حدث - بالمصاحبة لذلك - أن ارتفع شأن الأشكال الفنية التى تعتمد - واعية - لإحقاق الأذى بسمعة الفن. (والتي يمثلها بصورة شديدة المبالغة معرض الفنان دوشان Duchamp

الذى اقتصر فيه على عرض صورة لمبولة باعتبارها عملاً فنياً أسماه "النافورة" Fountain". وكان ذلك فى سنة ١٩١٧). ويلاحظ دانتو أنه نتيجة لذلك أصبح الفن نفسه يثير أسئلة فلسفية. فالفن يسأل عما هو الفن تحديداً، وما عساها تكون حدود الفن وأغراضه. لذلك يعترف دانتو بأن مسألة ما هو الفن، وما هى الطريقة التى يمكن بها تفسير عمل فنى بعينه، إنما هى أمور سوف تعتمد اعتماداً بالغاً على الظروف والأحوال الخاصة: التاريخية والثقافية، بل وحتى السياسية، والتى تم فيها إبداع هذا العمل الفنى (دانتو ١٩٨١).

وقد قامت النظرية المؤسسية للفن (التي تنظر للفن بوصفه نظاماً اجتماعياً)، ومن خلال مصطلحها الرئيسى العالم الفنى، قامت بإحداث شكل جديد من أشكال التقارب والتلاقى مع التفسير السوسيولوجى للفن، وإن يكن ذلك قد حدث بدون التأثير بالنقد السياسى الذى أشار إليه بورديو وآخرون غيره. لهذا نجد ديكى Dickie (سنة ١٩٨٤) مثلاً، فى سياق تأكيده تنوع الأشكال الفنية التى تكاثرت وانتشرت فى القرن العشرين (وهو الأمر الذى لم يحدث بتاتاً فى تطور الفنون الذهنية) يوضح أن المعايير الخاصة بتعريف الفن والاعتراف بأن موضوعاً ما أو نشاطاً ما يعد فناً، إنما تتبع من داخل تلك المؤسسات الفنية، مثل قاعات العرض أو المعارض والصحف التى تتعامل مع الفنون. وعلى ذلك فإن العمل الفنى يعد عملاً فنياً لأنه تم "تعميده" بصفته هذه، من خلال الاعتراف به فى العالم الفنى المؤلف من النقاد الفنيين، وهواة الفنون، وأصحاب المعارض، والفنانين، وجماهير المهتمين بالفن.

وفى ألمانيا، تصادف التناقض الظاهرى والقوة التى تميز "نظرية علم الجمال" لأدورنو^(٥) (وهو عنوان كتاب له صدر سنة ١٩٨٤)، والتى ربما تمثل آخر النظريات الكبرى فى مجال الفن التى تسير على نهج كانط وهيجل، وتتسم هذه النظرية بأنها

(*) تيودور فيزنجروند أدورنو Theodor Wiesengrund Adorno (١٩٠٣-١٩٦٣) أحد رواد مدرسة فرانكفورت للبحوث الاجتماعية. كان عالماً مبرزاً اتسم فكره بالتمعقيد، ويغلب عليه القموض وصعوبة الأفكار. غطت أعماله مجالات نظرية الجمال، نظرية الأدب والموسيقى، والنقد الثقافى العام، وعلم النفس=

----- (ع) -----

تؤيد بحماس شديد الانتقادات الموجهة لعلم الجمال وللفن من قبل علم الاجتماع والماركسية، بينما تدافع - فى نفس الوقت - عن فكرة أن الفن (وبخاصة الفن الطليعى فى القرن العشرين)، لا يزال له دور يضطلع به فى مقاومة الإيديولوجيا، ويوافق أدورنو على أن الفن منتج من إبداع مجتمع معين (ومن ثم فإن إنتاج الفن واستهلاكه سيكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بإنتاج أى شئ آخر من الأشياء التى يصنعها الإنسان بيده، وإنتاج أى سلعة أخرى داخل هذا المجتمع). إلا أن الفن، عند أدورنو، لا يزال له القوة التى تكفل له الاستقلال الذاتى أو الحرية التى تحفظه من الخضوع للحتمية الاجتماعية. ومن ثم يستطيع الفن أن يسمح للفنان وللجمهور بأن يفكروا وفق طرق متعددة لا تغفرها الثقافة المسيطرة فى ذلك الوقت. وبهذا الشكل، يحفظ الفن جذوة الأمل حية متقدة فى مقاومة الإيديولوجيا والقهر السياسى. (EA) للمزيد انظر: Cooper (١٩٩٢، ١٩٩٧) وEagleton (١٩٩٩) وGraham (١٩٩٧) وMaynard and Feagin (١٩٩٧).

Semiotics

علم العلامات

انظر: السيميوطيقا.

Grammarology

علم الكتابة

كانت الطبعة الأولى من كتاب جُلِب I.J. Gelb بعنوان "دراسة الكتابة"، تحمل عنواناً فرعياً هو: "أسس الجراماتولوجى" أو "أسس علم الكتابة" (وقد حُذف هذا

= الاجتماعى، والفلسفة. ويعتبر علماء الاجتماع كتاب الشخصية التسلطية (١٩٥٠) أهم مؤلفاته. وقدم أدورنو إسهامات مهمة لميدان النقد الثقافى (انظر مثلاً مؤلفه Prisms، ١٩٥٤)، وبالنسبة لفلسفته يمكن الرجوع إلى مؤلفه: الجدل حول السلب، ١٩٦٦. (المراجع)

العنوان الفرعى من الطبعة الثانية، ١٩٦٣)^(٥). وكتب جُلب، وهو يقوم بتعريف هذا المصطلح، وتحديد مشروعه، كتب يقول: "إن هدف هذا الكتاب أن يطرح أساساً لعلم كامل للكتابة... وبإمكاننا أن نطلق على هذا العلم الجديد اسم "الجراماتولوجى" أى "علم الكتابة".

وكان قد سبق للعالم اللغوى فردينان دى سوسير أن ذهب إلى أن دراسة اللغة بوجه عام ينبغي أن تُجرى على أساس علمى (انظر كتابه بعنوان: "دراسة علم اللغة العام"، الذى صدرت طبعته الفرنسية الأصلية سنة ١٩١٦). وكان سوسير، برفضه للمنهج التاريخى الذى اتبعته المدارس والاتجاهات السابقة يستهدف أن يكون التركيز على حالة اللغة فى وقت معين، كما كان يسعى للكشف عن المبادئ الثابتة للغة، التى تشكل الأساس البنائى للغة كلها. وكانت النظرية التى توصل إليها فى هذا الصدد تفسر اللغة، من الناحية النظرية، بوصفها نظام علامات يتولد فيه المعنى من ذلك التناقض أو التقابل بين التوليفات الصوتية المختلفة.

وعلى الرغم من إنجازه الكبير فى مجال علم اللغة العام، فإن سوسير لم ير من الضرورى دراسة الكتابة بوصفها ظاهرة إنسانية متميزة. فقد كان مقتنعاً بالنظر إليها باعتبارها شكلاً مشتقاً وثانوياً وذرائعياً من أشكال اللغة، تكتنفه شتى أنواع الصعوبات والمخاطر.

وقد حُكم على علم الكتابة (أو الجراماتولوجى) الذى ابتدعه "جُلب" بالفشل، حيث إنه لم يحاول - تحديداً - طرح نظرية عن الكتابة يمكنها أن تنقذ دراسته من سيطرة علم اللغة العام عليها. وظل اتجاهه اتجاهاً تاريخياً خالصاً، ولم يستطع أن يقطع

(٥) I.J. Gelb, The Study of Writing, The Foundations of Grammatology.

صلته بالنماذج القديمة لدراسة اللغة، والسابقة على سوسير. وكل ما في الأمر أنه صنف نظم الكتابة باعتبار أنها تنسب إلى واحد من ثلاثة أشكال تطويرية هي: الشكل اللفظي لوجوجرافيك Logographic (ويضم أنظمة الكتابة القائمة على الكلمات)، والشكل المقطعي Syllabic (ويضم أنظمة الكتابة القائمة على تقطيع الكلمة إلى مقاطع هجائية منفصلة)، والشكل الأبجدي Alphabetic (ويضم أنظمة الكتابة القائمة على الوحدات الصوتية، أو الفونيمات) (*).

ومؤخراً حاول روى هاريس Harris أن يقدم لعلم الكتابة ما قدمه سوسير لعلم اللغة العام. ففي كتابه بعنوان "علامات الكتابة" (١٩٩٥) نجده يضع الخطوط الرئيسية لإطار نظري للتحليل المنظومي للكتابة باعتبار أنها "شكل فريد في تعقده من أشكال الاتصال". وخلافاً لجلب Gelb، لا يقتصر هاريس في تحليله على الأشكال القائمة على الكلام فقط، بل يضم إلى مجال دراسته أنظمة التدوين باستخدام مجموعات خاصة من العلامات أو الرموز Notation Systems في مجالي الرياضيات والموسيقى.

وفي كتابه بعنوان "عن علم الكتابة" (والذي صدرت طبعته الأصلية باللغة الفرنسية سنة ١٩٦٧) تبني جاك ديريدا اتجاهًا مختلفًا كل الاختلاف، يتسم بقدر أكبر من الفلسفة. فهو يكشف عما حظى به الكلام من تفضيل له عن الكتابة ومحاباة له على امتداد تاريخ الفكر الغربي، ابتداءً من أفلاطون (الذي اتهم الكتابة بأنها تبتعد ابتعاداً شديداً عن الحقيقة، وعن الحضور وعن أن يكون لها أصول يعتد بها) وانتهاءً بسوسير، الذي وصف الكتابة بأنها مرض من أمراض اللغة. ويذهب ديريدا، مع

(*) الفونيم: Phoneme إحدى وحدات الكلام الصغرى التي تساعد على تمييز نطق لفظة ما عن نطق لفظة أخرى في لغة أو لهجة، مثال ذلك الوحدة الصوتية الموجودة في حرف "P" من كلمة "Pin" والوحدة الصوتية الموجودة في حرف "F" من كلمة "Fin"، هاتان الوجدتان الصوتيتان "F" و "P" هما فونيمتان مختلفتان. (المراجع)

اعترافه بالأسبقية التاريخية للكلام على الكتابة، يذهب إلى أن هذه المصادفة التاريخية قد تم دعمها وتكثيفها بصورة غير مشروعة إلى أن تحولت إلى شكل من أشكال "ميتافيزيقا الحضور". وقد ترتب على ذلك أننا نشاهد الآن شبكة كاملة من الأضداد القيمة (كالحضور/ والغياب، الداخلي/ والخارجي، الجسد/ والروح... إلى آخره) التي تتمتع بأهمية جوهرية في الميتافيزيقا الغربية.

ولكى يقضى ديريدا على هذا التراث الفكري، نجده يسلط الضوء على ما يسميه Arche-Writing أى: "الكتابة الأولية أو الأساسية". ويشير هذا المصطلح إلى الأبنية أو النظم السابقة التي تشكل أساس كل عمل أو ممارسة يقوم بها الإنسان، بما فى ذلك ممارسة الكلام، والتي لا يمكن تمثيلها إلا بواسطة النقول الكتابية والمكتوبة - Inscript - tional Metaphors مثل المقطع Script (بمعنى نص مكتوب) ضمن كلمة: Prescript (بمعنى: قاعدة أو أمر أو قانون) ومثل المقطع Gramme (بمعنى: رسم أو كتابة أو تسجيل) ضمن كلمة (Programme بمعنى برنامج) أو الكلمات المتعددة التي تنتهى باللاحقة Graphy بمعنى: الكتابة أو التصوير أو الوصف (ومن هذه الكلمات كلمة Choreography وكلمة Cinematography إلخ). ويلاحظ ديريدا أنه حتى الذين شوهوا سمعة الكتابة مثل أفلاطون، وروسو، وسوسير كانوا مضطرين - دائماً - إلى استعمال أمثال هذه النقول الكتابية فى ثنايا وصفهم للغة. (KM) للمزيد انظر: Derrida (١٩٧٦).

Genetics

علم الوراثة

هو الدراسة العلمية لوراثة السمات والخصائص المميزة للأفراد وللجماعات السكانية، ولتنوع تلك السمات. وقد أحدثت مظاهر التقدم فى هذا العلم أثرا بارزا فى العلوم الطبية وفى غيرها من التخصصات التي تتدخل فى الجسم الإنسانى وفى

الجماعات البشرية، ومن ثم في أسلوب حياة الناس. وقد كانت الدلالات الأخلاقية للطب الوراثي محل دراسة مستفيضة، أسهم فيها مفكرو النظرية الثقافية مثل بودريار (٢٠٠٠) وهابرماس (٢٠٠٢) وديريدا (٢٠٠٢). كما أدت الممارسات البحثية في علم الوراثة إلى طرح أسئلة جديدة على فلسفة العلم، خاصة فيما يتعلق بطبيعة الجين (المورث) نفسه وبشكل التفسير والبرهنة في علوم الوراثة (Graham 2002).

ويتأثر تبني علم الوراثة والهندسة الوراثية وتطبيقها وفهمها - شأنها في ذلك شأن كل أنواع التكنولوجيا - يتأثر بتوقعات الثقافة ومصادر التفسير التي تتيحها. ويلاحظ أن "الجين" (المورث) وعلم الوراثة لا يعنيان بالضرورة الشيء نفسه بالنسبة للجماعة العلمية من ناحية وللمجتمع من غير المتخصصين من ناحية أخرى (Nelkin and Lindee 1995)، ومن وجهة نظر النظرية الثقافية ليس من البديهي أو الواضح بذاته أي فهم منهما (مفهوم المتخصصين ومفهوم غير المتخصصين) هو الأفضل. ففهم غير المتخصصين لبحوث علم الوراثة هو الذي يشكل طريقة استيعاب نتائج بحوث الوراثة في ممارسات الحياة اليومية، كما تشكل أسلوب تعديل فهم غير المتخصصين لما يعد إنسانياً. كما يصدق - بالقدر نفسه - أن الفروض الثقافية المسبقة التي يتبناها العلماء إنما تؤثر على ما يجرونه من بحوث، ومن ثم على ما يتم اكتشافه عن الجين وعلى طريقة تداول أخبار تلك الاكتشافات. وعلى الرغم من أن تكنولوجيا الوراثة عموماً والأفاق التي تفتحها تلك التكنولوجيا أمام تعديل الخصائص والسمات البشرية وتغيير الطبيعة الإنسانية قد حظيت باهتمام مكثف من جانب أصحاب حركة ما بعد النزعة الإنسانية؛ على الرغم من ذلك ظل علم الوراثة يعاني إهمالاً نسبياً من مفكرى النظرية الثقافية قياساً على الاهتمام الذي حظيت به أنواع أخرى من التكنولوجيا، كتكنولوجيا الحاسب الآلى (انظر مادة: الثقافة الإلكترونية).

وقد أجريت بعض الدراسات العلمية فى الوراثة التى اعتمدت اعتماداً كبيراً ومثمراً على الإطار الفكرى للنسوية. ولعل أبرز من اضطلع بمثل هذه الدراسات ساندرا هاردنج وتحليلها لما أسمته "الموضوعية القوية" (Harding 1992, 2003). وقد اجتهدت فى دراستها لكى تتحاشى تبنى تفسيرين متطرفين للممارسة العلمية. فهناك بعض العلماء الذين يميلون عادة إلى تبنى رؤية للعلم بوصفه نشاطاً موضوعياً خالصاً، منفصلاً عن تأثيرات الثقافة التى يعيش فى كنفها. على النقيض من ذلك هناك بعض مفكرى النظرية الثقافية الذين يفضلون تخفيض مستوى العلم إلى ممارسة ذات طابع ثقافى أوضح، لا يجوز لنتائجها أن تزعم لنفسها نصيباً من الموضوعية أو الحقيقة يفوق أى ممارسة ثقافية أخرى (كالدين، أو الفن والأدب). وتقوم فكرة هاردنج عن الموضوعية القوية على التسليم بأن الممارسة العلمية إنما تتشكل بتأثير من السياق الثقافى، ولكن العلم يظل مع ذلك نشاطاً منظماً ومقنناً يستطيع أن يقدم تحليلات موضوعية لبعض الظواهر الطبيعية. من هنا فإن التحيزات الثقافية يمكن أن تؤدى بنا إلى بحث علمى سيئ. وفى ضوء وجهة النظر هذه ذهب هارواى (Haraway 1997) - وهى نفسها متخصصة فى علم الأحياء - إلى أن البحوث المعاصرة فى علم الوراثة لا تستطيع أن تتحاشى البيئة الثقافية الدينية التى يصنعها بقية المجتمع. وهكذا عثرت فى تحليل ريتشارد داوكنز للجين (Dawkins 1976) على شىء يذكرنا باللاهوت المسيحى. وبالمثل نلاحظ أن بعض علماء الأحياء الأمريكىين قد ارتدوا إلى ثقافة تؤمن بمبدأ "الخلق العلمى" لأنهم يسعون إلى عدم الدخول فى صراع مع المعتقد الأساسى فى الكتاب المقدس عن الخلق، والذى أصبح سمة مميزة للثقافة الأمريكية المعاصرة.

وفى داخل إطار فكرى مشابه تناول كل من سبانير وفوكس كيلر بالدراسة دور الثقافة الأبوية فى تشكيل بحوث علم الوراثة وفى عرض نتائجها وتقديمها للناس. ويبدو ذلك بشكل خاص فى الفروض المسبقة عن طبيعة عملية التكاثر باجتماع الذكور

----- (ع) -----

والإناث وعن الحاجة إلى وجود ذكر "إيجابي" وأنثى "سلبية"، وكيف أدت هذه الفروض المسبقة إلى التحديد النوعي غير السليم لبعض أشكال البكتيريا ذات الخلية الواحدة المعروفة باسم *E. coli*، وإلى بعض التصورات الخاطئة عن عملية الإخصاب (Spanier 1995). ودرست فوكس كيلر تاريخ علم الوراثة، وركزت هنا أيضاً على تأثير الفروض الأبوية على هذا التاريخ. وذهبت - مثلاً - إلى أن الفروض التي تبناها علماء الوراثة إبان ستينيات القرن الماضي وهي أن الآلية التي تُطلق حركة الجين موجودة في النواة إنما تعتمد في الحقيقة على فكرة مسبقة عن سلبية بروتوبلازما خلية البويضة (Keller 2000).

ويجدر بنا الإشارة كذلك إلى كتابات عالم الأحياء الجزيئية روبرت بولاك التي يقدر فيها إسهام نظرية الأدب في بناء التفسيرات في علم الوراثة. ويذهب إلى أن المقارنة بين الشفرة الوراثية والنص الأدبي تتجاوز حدود الاستعارة. "فحروف الجينوم البشرى تحوى معلومات وبيانات تفوق كمية ما تحويه دائرة المعارف البريطانية، وأن كلا من الجينوم ودائرة المعارف البريطانية تحتويان ما فيهما من معلومات في خط واحد من الحروف" (Pollack 1994: 21). وهكذا فإن نظرية الأدب هي التي تصيغ أسلوب عالم الأحياء في فهم الجينات، خاصة في التسليم بتعدد القراءات التي يمكن الخروج بها من تتابع بيانات الجين.

وتوضح وجهة نظر بولاك بجلاء أن الجين - شأنه شأن أى ظاهرة طبيعية أخرى - لا يمكن أن يفسر نفسه بنفسه، فالجين يتجلى للعلماء - كما هو لغير المتخصصين - على هيئة صور. وقد تناول هذه الصور بالدراسة المكثفة بعض المفكرين مثل فان ديك (1998) وتيرنى (1998). وركزت "فان ديك" على أنواع الاستعارة المستخدمة في المناقشات المتعلقة بالجين ("كالشفرة"، و "الرسالة"، و "الوسيط" على سبيل المثال)، حيث يتم تصوير الحامض النووي DNA بوصفه نسق اتصال. ومع ذلك فعلى حين يعد بولاك ذلك بمثابة انفتاح بحوث علم الوراثة على نظرية الأدب، نجد "فان ديك" أكثر حذراً، إذ

ترى وجود صلة بين هذه الاستعارات والممارسات التي تتبع أثناء الحروب لفك الشفرة (١٩٩٨، صفحة ٢٧). كما قدمت لنا فان ديك تاريخاً لتصور الجين منذ ستينيات القرن الماضي. وترى أن التهديد الخطير الذي يستشعره العامة جراء تطبيق تكنولوجيا الوراثة إنما يرجع إلى ما يمثله علم الوراثة من تحد لأفكارنا المعتادة عن السلامة الجسدية وعن الحدود القائمة بين الطبيعة والثقافة، وبين العلم والمجتمع، وأخيراً بين الحقيقة والصورة. ومع ذلك فإننا نلاحظ - وبالعجب - أن مثل هذا التباين يحدث في نفس الوقت الذي يتم فيه بقوة دعم الأفكار التقليدية عن الحتمية الوراثة. وإذا كان مفكرو النظرية الثقافية قد تناولوا بالدراسة تصور الجين، فإن الفنانين كانوا قد بدأوا بالفعل تطوير ذلك التصور. ولعل من أكثر الفنانين اهتماماً بعلم الوراثة الفنان إدواردو كاك. وأشهر أعمال كاك الفنية لوحة ألبا Alba، وهو أرنب تم تعديله وراثياً (عن طريق حقنه بمادة وراثية من سمكة قنديل البحر) بحيث أصبح يتوهج باللون الأخضر عندما يتعرض لضوء أزرق. وفي أعمال فنية أخرى "لكائنات معدلة وراثياً" تناول كاك "طبيعة الحامض النووي كشفرة وراثية. ومن خلال ربط القواعد الأربعة للحامض النووي (A, C, G and T) بشفرة الحاسب الآلي (أ س ج ٢، ASCII) بحيث أصبحت $A = ٠٠$ و $C = ٠١$ ، و $G = ١٠$ ، و $T = ١١$ وبذلك يمكن ترجمة عبارة "أنا أفكر، إذن أنا موجود" بطريقة تتابع الحامض النووي، وأن يستخدم هذا التتابع لتعديل أحد النباتات وراثياً (انظر: Kac 2007).

وقد بدأ بعض علماء الأنثروبولوجيا الثقافية - أمثال رابينوف (١٩٩٢) وفرانكلين (١٩٩٣، ١٩٩٥، ٢٠٠٣) - دراسة أثر بحوث علم الوراثة على ممارسات الحياة اليومية. فممنذ العام ١٩٩٢ ذهب رابينوف إلى أن تكنولوجيا الوراثة سوف تترسخ وتتجذر ضمن النسيج الاجتماعي على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى، بحيث تخلق نوعية "اجتماعية بيولوجية" جديدة: "تصاغ فيها الطبيعة على نسق الثقافة بوصفها

ممارسة. والحقيقة أن رابينوف يتفق مع بعض المفكرين الآخرين - مثل راينبرجر (Rheinberger 2000) - فى الوعي بالإمكانات الهائلة التى يتيحها علم الوراثة البشرية لكى تعيد تشكيل الطبيعة والطبيعة الإنسانية، على نحو يمكن أن يغير من أخص قوانين علم الأحياء. أما فرانكلين فنجدتها أكثر مقاومة لطمس الحدود بين الطبيعة والثقافة على هذا النحو، وإن كانت تقر أن معنى مادة علم الأحياء قد تغير. وأصبحت مادة هذا العلم تمثل فئة تكون الطبيعة حاضرة فيها بشكل لا يمكن تجنبه، ولكنها قد تغيب كثيراً فى حالات المزج بين الحيوى والتكنولوجى (Franklin 2003).

وإذا كان بعض مفكرى النظرية الثقافية يتنبأون بحدوث انهيار، أو حتى تفكك التعارضات الثنائية بين الطبيعة والثقافة، فإن هناك الكثيرين الذين يخشون بنفس القدر انبعاث النزعة الماهيوية (أو الجوهرية)^(*)، حيث تضطلع المعارف التى يتوصل إليها علم الوراثة بتعريف جوهر الإنسانية وماهيتها (أو جوهر أى نوع حى آخر). والحقيقة أن ذلك الرأى يرد على التناقض الذى اكتشفته "فان ديك"، من أن علم الوراثة سوف يؤدى إلى هدم البنى المفاهيمية (والتصنيفية) التقليدية، ويدعم أفكار الحتمية الوراثة. وتم صك مصطلح وفكرة "إسباغ الرؤية الوراثة" لتلخيص هذه النزعة الماهيوية الجديدة (انظر Hedgecoe، ١٩٩٨). وهى بذلك تتوازى مع الفكرة القديمة عن "إسباغ الطابع الطبى" medicalisation، التى بمقتضاها يتم تفسير المزيد والمزيد من السمات والأساليب السلوكية (على غير أساس صحيح) بوصفها مشكلات طبية، (انظر مادة: الصحة). وبالمثل يشير مصطلح "إسباغ الرؤية الوراثة" إلى التفسير (غير الصحيح) للخصائص والسمات السلوكية والإنسانية على أسس وراثية (Lippman،

(*) essentialism أى النزعة الماهيوية أو الجوهرية، وهى نظرية تقدم الماهية أو الجوهر على الوجود، فهى بذلك تنقض الفلسفة الوجودية. (المترجم)

١٩٩٣: صفحة ١٧٨). فالجينات (المورثات) أصبحت تعد "جوهر الحياة"، وبمى رؤية اعتبرتها هارواى "دليلاً على واقعية مسيحية تكاد بالكاد تكون علمانية" (Haeraway، ١٩٩٧، صفحة ١٠). ويتمثل إغراء مصطلح "إسباغ الرؤية الوراثية" فى أنه يعيد - فى الظاهر- تأكيد الحدود الراسخة والتي لا يمكن تجاوزها فى مواجهة طوفان ثقافة ما بعد الحداثة وما يصاحبها من تمزيق الثقافة التقليدية.

وهناك ملاحظة أخيرة عن الصلة بين علم الوراثة والنظرية الثقافية. فقد أصبحت البحوث الوراثية تمثل باضطراد أداة منهجية مهمة للعلوم الاجتماعية والثقافية. فتتبع عمليات الوراثة البيولوجية يمثل وسيلة للكشف عن بعض التحركات والهجرات السكانية، ومن ثم الكشف عن بعض الأحداث التاريخية التي ربما تكون قد وقعت ولم يُسجل عنها شيء فى الوثائق المكتوبة أو تترك أثراً من أعمال فنية ومادية. وهكذا شهدت السنوات الأخيرة - على سبيل المثال - عدداً كبيراً من الدراسات الوراثية التي تناولت أصول بعض الجماعات اليهودية المختلفة. وربما كان أشهر ما نشر من هذه الدراسات تلك التي أجريت على الكوهانيم (الأخبار اليهود)، والأخرى التي أجريت على إحدى القبائل الأفريقية الصغيرة التي اعتنقت اليهودية واسمها قبيلة "الليمبا" Lemba، وأخيراً الدراسة التي أجريت على جماعة يهودية هندية اسمها "بنى إسرائيل" Zoloth (٢٠٠٣). والمعروف أن وظيفة الحبر اليهودى تورث من الأب إلى الابن. ومن هنا، وبافتراض الالتزام بتطبيق التراث، فإنه لا بد وأن يتسم الأخبار اليهود ببعض أوجه الشبه الوراثية فى صيغياتهم الصادية (من صيغيات الجنس). وقد أثبتت الدراسات التي أجريت على قبيلة "الليمبا" التي اعتنقت اليهودية فى جنوب أفريقيا وعلى جماعة "بنى إسرائيل" اليهودية الهندية (وتتنمى الجماعتان إلى ما يسمى أحياناً الجماعات اليهودية "المكتشفة حديثاً"، بسبب أن تاريخهم القديم ليس موثقاً على الوجه الأكمل وأن انتماءهم لليهودية محل شك): أثبتت أن كلاً الجماعتين تتسم بما يعرف بالنمط

البسيط الشكلي الذي حدده كوهن^(*)، ومن ثم يوجد في تحليلهم البيولوجي الجزيئي ما يؤيد تقاليد توارث مهنة الكهنوت. وقد استأثرت تلك البحوث باهتمام كثير من وسائل الاتصال الجماهيري، واهتمام المؤرخين والأنثروبولوجيين، الذين طرحوا - كما في حالة الاختبارات التي أجريت على الأمريكيين من أصول أفريقية - تساؤلات حول تأثير بعض البحوث الوراثية التي تجرى على جماعات معينة على هوية تلك الجماعات، وحول الدلالات الأخلاقية للأنثروبولوجيا الوراثية (AE) للمزيد انظر: Cooke and Turner (١٩٩٩) و Condit (١٩٩٩) و Burley and Harris (٢٠٠٢).

Architecture

العمارة

يمكن لمفهوم العمارة أن يغطي كافة أنواع المباني (كالمساكن، والمعابد، والمجمعات الإدارية وما إلى ذلك)، أو قد يستخدم هذا المفهوم في مقابل مصطلح البناء أو المبنى Building وذلك بقصد التركيز على التشييد الذي يقصد به إنشاء مبان تتسم بالرقى والتميز المثير للإعجاب. وإذا أخذنا بالمعنى الأوسع لمصطلح العمارة، فقد نذهب إلى القول بأن فهم العمارة والاهتمام بها يعد من المتطلبات الأساسية للوصول إلى فهم شامل للثقافة. وربما أمكننا العثور على واحد من أغرب المعالجات التي تناولت هذه الفكرة في الآراء والخواطر التي سجلها هايدجر عن العلاقة بين الوجود والسكن (١٩٩٣). ويربطه بين السكن وعملية البناء، يقدم هايدجر المسكن بوصفه الشكل الأساسي للوجود الإنساني.

وتعتبر المباني عن قدرة البشر على تنظيم البيئة التي يعيشون فيها، وذلك وفقاً للمواقع أو الأماكن ذات الأهمية الخاصة لدى بناء هذه المباني، ومن ثم تعبر عن

(*) Cohen modal haplotype.

قدرتهم على إيضاح عالمهم الثقافى وتحديد ملامحه. وقد يترتب على ذلك التصور إمكان القول بأنه من خلال العمارة وحدها تعبر الثقافات عن نفسها وتفهم ذاتها، بمثل ما تعبر الإنسانية ككل عن نفسها وتفهم ذاتها. ولهذا غابته من خلال مواجهتنا للمباني الخاصة بثقافة أخرى، نستطيع أن نتعرف على اختلافهم عنا أو مغايرتهم لنا.

ومع ذلك، فإن المعنى الضيق لمصطلح العمارة يسلط الأضواء على القضية الهامة التى مفادها أن البيئة المبنية (أى المباني التى يشيدها البشر) إنما هى ثمرة للأنظمة السياسية ذات الطابع الهرمى التراتبى، كما أن هذه المباني تعبر عن النظام التراتبى لتلك الأنظمة. لذلك فإن البيئة المبنية (أى المباني) التى نراها إنما هى انعكاس لما بين الجماعات البشرية من تفاوت فى القدرة على أن تبني كل جماعة منها ما يروق لها أن تبنيه. وإذا أردنا التوسع فى معنى مصطلح العمارة لوجدنا أنها يمكن أن تُفهم بوصفها أداة للتحكم فى السكان، وذلك على نحو ما ورد - مثلاً - فى الكتاب الذى كتبه فوكو ودليوز Deleuze.

ورغم أهمية شأن العمارة، فإن تناول الدراسات الثقافية لها قد جاء بشكل غير مباشر فحسب. فمن جانب، سيطرت نظرية العمارة وتطبيقاتها على الدراسات الثقافية باعتبارها أحد الروافد المبكرة لمفهوم ما بعد الحداثة. ومن جانب آخر، تعاود الدراسات الثقافية الاستجابة للفراغ المعمارى الذى يعد أمراً أساسياً فى الخبرة الحداثية، سواء كانت تلك الاستجابة من خلال العناية بالحياة الحضرية والمدينة بوجه عام، أم من خلال العناية بفراغات خاصة، كتلك الموجودة فى أبناء (جمع بهو) الفنادق وفى السوق التجارى.

ويمكن القول إن مفهوم ما بعد الحداثة قد تم تطويره فى مجال نظرية العمارة لإظهار الاستجابة النظرية والعملية لما أصاب العمارة الحداثية من أزمات وإخفاق، وهى العمارة التى سيطرت على المباني فى القرن العشرين (والتي تجسدها - على

----- (ع) -----

سبيل المثال - أعمال مدرسة الباوهاوس، التي أبدعها لوكوربوزييه^(*) Le Corbusier، ومييه فان در روه Mies van de Rohe، وبدرجة أقل أعمال فرانك لويد رايت F. L. Wright). وبإمكاننا أن نوجز تاريخ العمارة الحديثة، وبصورة قد تكون فى غاية السهولة، فى مجموعة من الشعارات. فالشعار الذى طرحه لوكوربوزييه الذى يقول: "البيت آلة للعيش فيها" أو شعاره الآخر الذى يقول فيه إن العمارة هى "الاستخدام الكفء والسليم للكتل عند إخراجها إلى النور" شعارات جديرة بأن يُستشهد بها حقاً. إلا أنه من بين جميع هذه الشعارات، شعار هو أولها وأشدّها أهمية، هو القول المأثور الذى أطلقه لويس سوليفان Louis Sullivan وهو أن "الشكل يتبع الوظيفة" Form Follows Function (والذى تم سكه سنة ١٨٩٦). وقد حدث لشعار سوليفان هذا - مثل ما حدث لأغلب الشعارات المعمارية، بما فيها تلك التى أطلقها لوكوربوزييه - أن أصبح شديد التأثير على العمارة عندما أُسئ فهمه بمثل ما كان عندما أُحسن فهمه. ومع ذلك، فإن هذا الشعار أظهر بحق المكانة التى يستحقها سوليفان فى تأسيس النزعة الوظيفية الحديثة. فأى جزء من أجزاء المبنى يجب تصميمه ليعبر عن الوظيفة التى يؤديها داخل هذا المبنى. فالدعامة الرئيسية الأفقية الحاملة للسقف يجب أن تبدو دعامة حاملة للسقف. ويعبر هذا الشعار عن نقلة فى التفكير المعماري تبتعد به عن الاهتمام بالزخارف المعمارية (والتي تتجلى فى أكثر صورها إثارة لدى أدولف لوس Adolf Loos عندما يربط بين الزخارف المعمارية والجريمة، ١٩٦٦) وتنتج به صوب نوع من الرشد الجديد.

(*) لوكوربوزييه Le Corbusier (١٨٨٧-١٩٦٥) مهندس معماري ومخطط مدن ورسام فرنسي. سويسري المولد. يعتبر هو، وزميله الفرنسي أوزانفان مؤسسي الصفاية أو المذهب الصفاي purism (حوالي عام ١٩١٨). اسمه الحقيقي شارل أنوار جنيريه Jeanneret. أما "لوكوربوزييه" فاسم فني أو مستعار. (المراجع)

كانت نزعة الرشد المعمارية، خاصة فى شكلها الأوروبى، تميل إلى الإفصاح الصريح عن برنامج سياسى (اشتراكى عادة)، ولذلك كانت تميل إلى التفكير العميق فى العلاقة بين العمارة والمجتمع. ويمثل هذا التطور فى التفكير المعمارى - لما يتمتع به من تنوع حقيقى - يمثل بصورة قاطعة ما يمكن أن نعتبره نوعاً من أنواع الاحتكام التنويرى (انظر مادة: التنوير) للإدراك العقلى العام، من أجل حل جميع المشكلات الاجتماعية. وبهذا الشكل يؤدى الرشد إلى نوع من التأكيد على الإمكانات الفنية للمبنى (والتي يتم استثمارها من خلال استخدام الصلب والخرسانة والزجاج فى إقامة المباني الشاهقة الارتفاع) وإلى التأكيد على الإنتاج الكبير فى عالم البناء. وقد عكف المعماريون على دراسة الإمكانات التى توفرها طريقة التجهيز المسبق، وذلك كجزء من الاستجابة للحاجة إلى الإسكان الرخيص الثمن فى فترات اشتعال الحروب. ومع هذا، فإن تأكيد طريقة التجهيز المسبق لمكونات المبنى يعد نزوعاً إلى فصل المبنى عن البيئة الخاصة أو الموطن الطبيعى الذى شيد فيه، وهو الأمر الذى تم التخطيط له وفقاً للنزعة العامة نحو الترشييد. وفوق ذلك، كان يتم تحكيم العقل عند تصميم المباني. ولم يقتصر ذلك على تصميم المباني الفردية فحسب، بل على تصميم المجمعات السكنية كذلك، بل حتى على تصميم المدينة ككل فى إطار عمليات التخطيط العمرانى الحضرى.

وقد طرح "ميثاق أثينا"، الذى نُشر عقب المؤتمر الدولى الرابع للعمارة الحديثة سنة ١٩٣٣، والذى تأثر - إلى حد بعيد - بالفكر المعمارى لكوربوزيه فى ذلك الوقت؛ طرح منهجاً عقلانياً "للمدينة الوظيفية" (أى المدينة التى يكون لكل شىء فيها، من مسكن، أو مرفق، أو فراغ... إلخ، وظيفة معينة). ورغم ما يتمتع به هذا المنهج العقلانى من مقاصد طيبة، فإن سكان المدينة أصبحوا فى وضع لا يفضل كثيراً الوضع الذى يعيش فيه السكان السلبيون لكثير من الأماكن والمنشآت التى تتصف بصفة الوظيفية

وبصفة الإدارة الرشيدة^(*). لذلك فإن ما يذهب إليه روبرت جان فإن بلت Robert Jan Van Pelt من أن معسكر أوشفيتز^(**) يؤدي الوظائف الكلاسيكية للمدينة (كتوفير الموتى، أو الاهتمام بالمستقبل، أو توفير النظام، أو المأوى، أو الغذاء، أو النشاط التجارى)؛ هذا الرأى إنما يقدم لنا تعليقاً ساخراً ومزعجاً على هذا المفهوم الخاص بالتخطيط العمرانى الحضرى.

ولعل روبرت فنتورى R. Venturi - فى أقل تقدير - ضمن أوائل النقاد الرئيسيين للحدثاء. أما النقاد أمثال كرسنوفر جنكس C. Jencks وتوم وولف T. Wolfe فقد اشتهر نقدهم للعمارة الحديثة من خلال ترويجهم للمفهوم الآخر للعمارة (وهو مفهوم عمارة ما بعد الحدثاء). وتشدد فلسفة ما بعد الحدثاء على أهمية عودة المعنى إلى البيئة المبنية، وذلك من خلال استعمال عدد كبير من عناصر التصميم التقليدية. وفى مقدمتها عنصر الزخارف المعمارية الذى اهتم فنتورى برد الاعتبار إليه بصورة مؤكدة، وذلك فى تحليله للمكانة التى تحظى بها اللافتات التجارية بوصفها تعبيراً عن الثقافة الأمريكية الحديثة (وهى اللافتات التى لا يقتصر وجودها على كازينوهات لاس فيجاس وحدها).

وبهذا الشكل يتبين أن ما بعد الحدثاء اتجاه "متعدد المشاعر"، وذلك نظراً لرفضه لهذا الأسلوب فى التفكير القائم على مبرر واحد يتسم بالعمومية ولا يهتم بالتاريخ وهو أسلوب العمارة الوظيفية. وتمثل النزعة الهزلية المتزايدة وإيثار الإبهام والغموض،

(*) كالسجون، والمعسكرات، والمستشفيات، ونحو ذلك. (المترجم)

(**) أوشفيتز Auschwitz : مدينة بولندية فى مقاطعة كراكاوا اشتهرت عالمياً بسبب وجد أحد معسكرات الاعتقال النازية فيه خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. انظر كذلك مادة: المحرقة فى هذه الموسوعة. (المراجع)

بجانب استعمال الرموز أو التوليفات المعمارية المكونة من أساليب تاريخية عديدة (بدون تفكير عميق في الخصوصيات التاريخية لهذه الأساليب)؛ تمثل ما تتصف به عمارة ما بعد الحداثة من سمات تناوئ المباني الحديثة المغالية في صرامتها. ويمثل مبنى الإدارات العامة في بورتلاند، بولاية أوريجون (بالولايات المتحدة) والذي صممه المعماري مايكل جريف M. Grave (١٩٨٠-١٩٨٢) بما يتميز به من تنوع في الخطوط والتراكيب؛ يمثل نمطاً مميزاً لعمارة ما بعد الحداثة بمثل ما يمثل مبنى سيجرام Seagram الضخم (المشيد من الصلب والزجاج) الذي صممه المعماري ميه Mies في مدينة نيويورك (١٩٥٤-١٩٨٥) كذلك صار التخطيط العمراني الحضري يواجه التحديات التي تأتيه من أسلوب عمارة المجتمع، الذي يسعى إلى أن يشارك السكان في عملية التخطيط، وأن يستخدم أساليب معمارية محلية تستجيب للبيئة الخاصة لهذه الأماكن.

وبعيداً عن نطاق نظرية العمارة تحظى التجربة الحضرية - بوصفها خبرة حداثة مميزة - بموقع رئيسي في تطور العلوم الاجتماعية. ونجد في كتابات عدد من المؤلفين مثل زيمل، وفيبر، وبنيامين، أن تجربة الحياة في المدينة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين قد أخضعت للدرس الدقيق، سواء عن طريق مباشر، كما هو الحال، مثلاً، في الوصف الذي أورده زيمل للعاصمة (١٩٥٠/ب)، أو عن طريق غير مباشر، من خلال تأمل مكانة المدينة في الأدب، كما هو الحال في دراسة بنيامين عن "بودلير وباريس" Baudelaire and Paris (١٩٧٣/أ). وفي دراسة وليم الأصيلة عن التوتر القائم بين الحضري والريفي، والتي نشرت سنة ١٩٧٣ .

وعلاوة على ذلك، عملت المناقشة حول ما بعد الحداثة على إحياء الاهتمام بالشأن الحضري من جديد، نذكر منها أعمال بيرمان Berman، وبودريار، وجيمسون Jameson، وسيو Cixous وفيريو Virilio. ورغم تنوع هذه الكتابات واختلافها، فإنها قد تكشف عن

اهتمام عام بفهم التجربة الحضرية وتشخيصها وإلقاء الضوء على دالاتها المتعددة. وقد تدلنا تلك الكتابات كذلك كيف أهملت نظرية العمارة الحداثية قضية المعنى، بسبب مبالغتها في التأكيد على النزعة الوظيفية التي تتحكم فيها الاعتبارات التكنولوجية. يضاف إلى ذلك أن تطور المدينة في أواخر القرن العشرين يقدم مثلاً لعدد من الموضوعات التي تشكل أبواب وجوهر نزعة ما بعد الحداثة. من ذلك ما يتصل - مثلاً - بقضية التحول من الإنتاج إلى الاستهلاك، وقضية الاهتمام المتزايد بتطوير الأحياء الفقيرة، ودور السياحة في تحديد شكل المدينة وإعادة تشكيلها من جديد. وقد قام ليتش - بكفاءة - بتجميع عدد من النصوص الأساسية الممثلة للاتجاهات المختلفة في نظرية العمارة، وذلك في كتابه بعنوان "إعادة النظر في قضية العمارة" (١٩٩٧). (AE) للمزيد انظر: Kolb (١٩٩٠) و Watkin (١٩٧٧، ١٩٩٢).

Labour

العمل

العمل، في علم الاقتصاد، واحد من عوامل الإنتاج الأربعة، بجانب رأس المال، والأرض (أو الموارد الطبيعية) والمشروع، بما يعنى أنه واحد من الأنماط العامة للمدخلات أو الموارد اللازمة للإنتاج الاقتصادي. وفي علم الاقتصاد التقليدي، يشتمل العمل على عدد الأفراد الموظفين فعلاً في الإنتاج، أو المتاحين لهذا الغرض، أو - إذا أردنا مزيداً من التجريد - فإن العمل يشتمل على الكفاءة المطلوبة للإنتاج (كما تُفهم وفقاً للمهارات العقلية والمهارات اليدوية، والجهد المبذول). وفي علم الاقتصاد الماركسي، يعد العمل المصدر الوحيد للقيمة الاقتصادية بأكملها (ومن هنا جاءت نظرية قيمة العمل). أضف إلى ذلك أن طبقة البروليتاريا (وهي الطبقة الخاضعة داخل النظام الرأسمالي) تتسم بأنها مجبرة على أن تقدم كفاءتها في العمل (أو قوة عملها) في مقابل حصولها على السلع التي تحتاج إليها لكي تظل على قيد الحياة. (AE)

Practice

العمل

انظر: التطبيق العملي.

Allegory

العمل (الفنى) الرمزى

العمل (الفنى) الرمزى هو المسرحية، أو القصيدة، أو اللوحة أو أى عمل فنى آخر يستخدم ما فيه من شخصيات وأحداث لتمثل أو تجسد معنى خفياً أو مستتراً، يكون - عادة - معنى خلقياً أو روحياً. وبهذا الأسلوب تصاغ المعانى والصفات المجردة فى صورة بشرية أو فى شكل مادى محسوس. ومثال ذلك أن أوبرا أورفيو التى قدمها مونتفردى^(١) (١٦٠٧)، تؤديها مغنية سوبرانو باعتبارها تجسيداً "للموسيقى". والعمل الرمزى كان يمثل أمراً أساسياً فى المسرحيات الأخلاقية فى العصور الوسطى، حيث تُجسد الفضائل والرذائل وألوان الغواية أثناء وصف صراع النفس الإنسانية، كما هو الحال فى مسرحية ويليام لانجلاند W. Langland بعنوان بيرس بلاومان (فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر). وفى مسرحية إدموند سينسر بعنوان "ملكة عالم الجن"

(*) مونتفردى، كلوديو Monteverdi, Claudio (١٥٧٦-١٦٤٣) رئيس الموسيقيين ببلاط آل جوناغا فى مدينة مانتوا ثم أصبح رئيساً لجوقة منشدى كنيسة القديس مرقس بالبندقية. وأمله أسلوبه الفنى الرفيع فى التأليف الموسيقى ليكون أصلح مؤلفى عصره لبعث الحياة فى النموذج الجديد للأوبرا بعدما علق بها من إطالة تبعث على الملل، كما كان بالمثل أول موسيقى فى القرن ١٧ أضفى قبساً من تراث الماضى العريق على المبتكرات الحديثة. واستخدم فى أوبراته طريقة تكرار لحن معين للإيحاء بإحدى الشخصيات أو بأحد المواقف مما يدل على أنه قد فكر جدياً فى طريقة الألكسان الدالة، ومهد مونتفردى لأوبراته بتصديرات جلية الطابع تبرز فيها الآلات بخصائصها وبآثارها الصوتية، التى كانت تتجلى بالمثل فى الفواصل الموسيقية التى تتخلل السرد والغناء، والتى تربط أجزاء الأوبرا بعضها ببعض. وكما بدأ مونتفردى عهداً جديداً فى تطوير الموسيقى المسرحية الحديثة فقد شرع كذلك فى إعداد الأوركسترا الحديث كمحاولة أولى لتكوين الأوركستر الأوبرالى. (المراجع)

(١٥٩٠-١٥٩٦) كانت هذه الملكة رمزاً يجسد كلاً من صفة المجد وشخصية الملكة إليزابيث الأولى، وكان فرسانها رمزاً تجسد فضائل خاصة كالتقوى، والعفة، والعدالة، وكان الأمير آرثر رمزاً يجسد معنى العظمة، وما إلى ذلك. وتحتشد قصة جون بونيان John Bunyan مسيرة الحاج (١٦٧٨ و١٦٨٤) بأمثال هذه الشخصيات مثل كريستيان (أى المسيح) وكريستيانا (أى المرأة المسيحية) والسيد الحكيم الخبير بشئون الدنيا، و"المؤمن" و"الرحمة"، كما تضم المسرحية عدداً من الأماكن والبقاع ذات الطابع الرمزي مثل "مستنقع اليأس والقنوط" و"عالم الفناء" و"جبال المسرات".

وبالمثل، يقدم العمل الفنى الرمزي مفتاحاً لتفسير أغلب ما أنجزه عصر النهضة من أعمال فنية فى مجال التصوير الزيتي، والتمائيل التي توضع فى الأماكن العامة والفنون التي تقدم فى المهرجانات والمواكب (انظر بيتس 1975 Yates)، هذا على الرغم من أن بعض العلاقات الرمزية لهذه الأعمال الفنية قد تكون غامضة ومحل خلاف شديد، ويؤثر التفسير الدقيق للصور المرسومة فى اللوحة التي قدمها يان فان إيك(*) Jan Van Eyck تحت عنوان: "أرنولفينى وزوجته" (١٤٣٤) (بصرف النظر عن الإقرار بأنها صور رمزية أو غير رمزية) يؤثر تأثيراً جوهرياً على فهم هذه اللوحة ككل. وتقدم الصورة المنقذة بالحفر والتي شكلها ألبرخت دور(**) Durer تحت عنوان "ميلينكوليا

(*) فان إيك، يان Van Eyck, Jan (١٣٨٠ - ١٤٤٠) رسام فلمنكي. يعتبر أباً المدرسة الفلمنكية فى الرسم وأحد أكثر الرسامين أصالة فى مختلف العصور. من أشهر آثاره: "جيوفانى أرنولفينى وزوجته"، ووجه صانع، ووجه الكريدينال ألبرغاتي، ووجه رجل معتمر عمامة. (المراجع)

(**) دور، ألبرخت Duerer, Albrecht (١٤٧١-١٥٢٨) فنان ألماني غريب الأطوار ولم يكن متديناً كبيره، ولعل مرد ذلك إلى ما يعزى إلى شدة نرجسيته وإعجابه الشديد بنفسه الذى انعكس على بورتريهاته الذاتية. وكانت عبقرية دور خطية تشهد على ذلك رسومه التي ضارع بها رسوم ليوناردو الذي كان يشترك معه فى صفات عدة منها شغفه الشديد بالمعرفة وإن لم يصل به الفضول العلمى إلى الوقوف على ماهية الأشياء، وكيف تعمل مثل ليوناردو. وكان دور يقبض بيد من حديد على عالم الظواهر مع قدرة خصبة على الابتكار، ويمرور الوقت أصبح أستاذاً لا يبارى فى تقنيات عصره ولا سيما تقنية المنظور التي =

الأولى (١٥١٤) مثلاً شديد الوضوح والتكثيف لاستعمال الصور ذات الطابع الرمزي. وقد تصدى بوكوفتسر Bukofzer (١٩٣٩) لدراسة دور العمل الفني الرمزي في موسيقى الباروك فأوضح كيف يمكن أن ننسب معنى تقليدياً إلى بعض الأشكال الموسيقية الخاصة (لهذا، وعلى سبيل المثال، يمكن الربط بين ما جاء في إحدى الأناشيد الدينية التي لحنها باخ Bach^(*) من إشارة إلى كلمة "الصليب" جاءت ضمن كلمات النشيد الملحن، يمكن الربط بين هذه الإشارة وبين وجود نغمة موسيقية حادة في الموسيقى المصاحبة "لأداء النشيد"، وذلك نظراً لكون كلمة "حاد" Sharp تعنى كلمة "صليب": Kreuz في اللغة الألمانية).

ويقدم وولتر بنيامين^(**) في كتابه بعنوان "أصل الدراما المتساوية الألمانية" (١٩٧٧) تحليلاً شاملاً لدور العمل الفني الرمزي في دراما عصر الباروك. ويتم فهم العمل الفني الرمزي وفقاً للمفاهيم التقليدية التي يمكن استبدالها بمفاهيم أخرى، سواءً كان لهذه المفاهيم الأخيرة صلة واهية بالمعاني المضمرّة في المفاهيم التقليدية أم لم تكن لها بها صلة. وبذلك يمكننا أن نلمح نوعاً من التناظر بين عملية استبدال المعاني هذه وعملية تبادل السلع. وإذا شئنا المزيد من الدقة، فإننا نقول إن العمل الفني الرمزي ينطوي على المعالجة الرمزية للقوة السياسية، وإعادة إنتاجها، وإظهارها للناس (وهي الشخصية التي تتجسد بوضوح في صورة ذلك الأمير الحزين المكتئب). ولعله يمكن إيجاز العمل الفني الرمزي بصورة مُلغزة بأنه سلطة القوة وقوة السلطة (بنيامين ١٩٧٧). (AE) للمزيد انظر: Kelley (١٩٩٧).

= لم يستخدمها حيلة عقلانية مثل المصورين الفلورنسيين الأوائل فحسب، وإنما استخدمها أيضاً لزيادة الحس بالواقع. وكان دور مؤمناً بأن الجسد الكلاسيكي العاري ينطوي على سر غامض يحتفظ به الفنانون الإيطاليون كي يبرزوا بأعمالهم أعمال زملائهم الألمان، ومن ثم عقد العزم على اكتشاف هذا السر وشرع في تحليل هندسي للجسم استغرق كل حياته. (المراجع)

(*) الموسيقار الألماني الشهير (عاش من ١٦٨٥-١٧٥٠). (المترجم)

(**) انظر تعريفاً موجزاً به في هامش مادة: السينما. (المراجع)

Field Work

العمل الميداني

يمكن أن نفهم العمل الميداني - عموماً - على أنه عملية جمع البيانات السوسولوجية أو الثقافية الإمبريقية (أو الواقعية)، والتي يتم جمعها - عادةً - من خلال المشاركة في نشاط اجتماعي أو ثقافة ما (والتي تسمى لهذا السبب بالملاحظة المشاركة) أو من خلال الاقتصار على ملاحظة هذه الثقافة عن كثب (أي: الملاحظة الميدانية) وذلك كما يحدث في العمل الميداني المرتبط بالأنثروبولوجيا الثقافية. وقد شبه ليفي شتراوس ما يشعر به الباحث في الأنثروبولوجيا الثقافية أثناء عمله من ارتباط طويل وحميم بثقافة معينة، بما يشعر به من يرغب في أن يصير - في المستقبل - محلاً نفسياً عندما يتعرض هو نفسه، للمرور بتجربة الخضوع للتحليل النفسي^(*). فهذا الموقف يكشف للمرء القناع عما ورثه من ثقافته الخاصة من افتراضات مسلم بها، كما أن من المحتمل أنك لو لم تعايش هذا الموقف - لما أصبحت قادراً على فهم الثقافات الأخرى حق فهمها. (AE) للمزيد انظر: Lareau and Shultz (١٩٩٦).

Globalisation

العولمة

يمكن إرجاع مصطلح العولمة - على وجه الخصوص - إلى المفهوم الذي استحدثه مارشال ماكولوهان عن "القرية الكونية" في أوائل ستينيات القرن الماضي (انظر مادة: وسائل الاتصال الجماهيري). وبناء على هذا التصور يمكن القول إن مصطلح "العولمة" يشير إلى إضفاء الطابع الكوني والرسمي في نفس الوقت على مختلف أشكال الفكر

(*) وذلك لأن بين هذين الموقفين قاسماً مشتركاً، يتمثل في إطلاع الباحث الأنثروبولوجي على الفروق بين صورة ثقافته الاجتماعية كما يراها وصورتها كما تراها الثقافات الأخرى، وفي إطلاع المحلل النفسي على الفروق بين صورة شخصيته كما يراها وصورتها كما يراها غيره من المحللين النفسيين. (المراجع)

والاتصال كنتيجة مترتبة على توحيد طرق الإنتاج، والعرض، والتسويق، والتوزيع، وتنظيم العلامات التجارية. وبهذا المعنى ترتبط العولمة ارتباطاً واضحاً بمجال الاقتصاد. وقد ظهرت التجليات الأولى لهذه السمات في حرص الشركات العالمية العملاقة والقوية على توسيع الأسواق القائمة. فنجد شركات مثل كوكاكولا تسعى إلى تعظيم طرق الإنتاج ذات المواصفات القياسية الموحدة وتبنيها بذكاء بحيث تعمل من ناحية على استمرارها في كل الأنحاء، في نفس الوقت الذي تحرص فيه على إشباع المتطلبات الخاصة لكل الأسواق (من النواحي اللغوية بالذات) في شتى البيئات الثقافية. ويترتب على ذلك أن يصبح هدفها من وراء ذلك هو استغلال الإمكانيات المتنامية التي يتيحها هذا السوق المتسع، وذلك بقدرتها على الوصول إلى جماهير السلعة المتباينين ثقافياً باعتماد نظام واحد للإنتاج والتوزيع والاستهلاك تتم إدارته بصرامة تامة، وإن تطلبت الضرورة أدنى حد ممكن من المرونة. وهناك بعض الشركات المتعددة الجنسية - مثل شركة ماكدونالدز وغيرها - التي استغلت تلك الإمكانية بكفاءة تامة، وحققَت شهرة واسعة في هذا الصدد. ومن النتائج المباشرة والواضحة لتلك السياسة قدر من توحيد شكل المنتج داخل نطاق جغرافى شديد الاتساع. فشطيرة "البرجر" العالمية التي تقدم في مدينة نيويورك لا تختلف اختلافاً يذكر عن مواصفات شطيرة "البرجر" التي تقدم في قارات العالم الأخرى، وليس مطلوب منها أن تختلف. ومن النتائج الملازمة لذلك - بالضرورة - توحيد ممارسات وأساليب الخدمة والعمل داخل مؤسسات تلك الشركات. فالعولمة - بمعنى آخر - تؤدي إلى نوع من التوحيد الثقافي وتقليص التباين والتنوع، حيث إن إنتاج السلع في مكان معين يجب أن يحافظ على نفس مواصفاتها في كافة أماكن الإنتاج الأخرى. ومن النتائج الأخرى للعولمة تنامي الوعي العام لدى الجماهير بتأثير الاقتصاد الأجنبي وتأثير الاهتمامات الثقافية الأجنبية على الحياة المحلية. ويتجلى ذلك واضحاً من خلال حقائق كثيرة، منها أن بعض عمليات الإنتاج الصناعي والخدمات يمكن - لاعتبارات مالية - نقلها من

الأسواق المحلية وتوطئتها في مواقع أخرى. كما تتجلى بوضوح في الخطاب السياسي الذي أصبح مسيطراً منذ انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٩. وكان انتهاء الحرب الباردة إيداً بإعلان "النظام العالمي الجديد" الذي يفترض سلفاً أن انتصار الرأسمالية الحرة القائمة على نظام السوق (وفقاً للنموذج الأمريكي تحديداً) سوف يؤذن بعصر جديد من التنمية الاقتصادية العولمية. وهكذا احتفى فوكوياما (١٩٩٢) قبل الأوان بنهاية التاريخ نفسه نتيجة لانتصار الغرب على النظام السوفيتي. وكما يبدو واضحاً في نظرية ماركسهايم فإن العولمة لم يكن لها أن تتحقق بدون الخلفية التكنولوجية التي تتم أمامها عمليات التغير الاجتماعي. وتجلت إمكانيات التكنولوجيات العالمية بالذات - في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين - تجلت بأوضح صورها في الازدهار الكبير لوسائل الاتصال، خاصة الإنترنت واتساع التجارة الإلكترونية. كذلك لعبت بعض التكنولوجيات الأخرى - مثل النقل الجوي وغيرها - دوراً بنفس الأهمية في خدمة عملية العولمة.

وقد أدى القبول العام للعولمة في الوقت الراهن كحقيقة من حقائق الحياة المعاصرة لا يمكن تجنبها إلى ميل السياسيين في الغرب إلى التأكيد على الشروط القائمة في السوق العالمي والتي لا يمكن الفكاك منها (على نحو ما وجدناه لدى إدارة كلينتون في الولايات المتحدة). ولكن السياسيين بدوا بذلك عرضة لأن ينحط مستواهم إلى مجرد تقليد أساليب الإدارة التي قيل إنها متبعة على المسرح الاجتماعي العالمي. ويترافق مع ذلك التسليم بضرورة أن تتقبل كافة الأمم الروح التنافسية التي تنطوي عليها الأسواق العالمية المفتوحة. ويفسر ذلك قبول الحاجة إلى الالتزام الصارم بسياسات مالية ذات مواصفات قياسية موحدة (من قبيل تخلي حكومة العمال البريطانية عن سلطتها في تحديد أسعار الفائدة لبنك إنجلترا عام ١٩٩٧).

وبذلك أصبحت اللغة الأخلاقية قابلة للامتزاج بالخطاب البراجماتي للسوق والتوافق معه، يشهد على ذلك خطاب رئيس الوزراء البريطاني - آنذاك - توني بليز إلى

مؤتمر حزب العمال للعام ٢٠٠٦ (بلير ٢٠٠٦). بدأ بلير خطابه بالقول بأن قيم حزب العمال ليست محلًا للتفاوض أو المساومة: "فهي لا تتغير". وتتجسد تلك القيم في كلمات مثل "الديموقراطية"، و"التضامن"، و"العدالة الاجتماعية" و"الاختيار"، و"الفرصة"، و"التسامح"، و"الاحترام"، و"الإصلاح"، و"التحديث"، و"المجتمع المحلى (الصغير)". ويؤكد لجمهور الحاضرين أن مثل هذه الكلمات هي التي تجسد بإخلاص المثل العليا التي أمن بها المؤسسون الاشتراكيون للحركة العمالية، ولكنها تنقسم إلى جانب ذلك "بقيمة مضافة" ذات دلالة معاصرة: فغداة التحولات العالمية "يتعين على قيمنا أن تطبق تطبيقاً جديداً". فالخطاب بذلك يحثنا على قبول فكرة القيادة السياسية بوصفها تجسيدا لقيم ثابتة لا تتغير، ولكنها تسعى في الوقت نفسه إلى التوفيق بين الثوابت الراسخة والمتطلبات الراهنة. فالصورة الذاتية للسياسى هنا هي صورة باحث أخذ على غرة إلى "معركة... لكى يؤمن المستقبل". ومع تسلسل الخطاب يتضح بجلاء أكبر المعنى المراد بتأمين المستقبل. إنه يعنى مواجهة حقائق الواقع الاقتصادى واستيعاب "التغير" الذى تفرضه علينا تلك الحقائق الجديدة. فالعالم الذى نعيش فيه الآن سريع التحول ولا جدوى من مقاومة القوى التى تحركه. وبلغت نظرنا بشدة طريقة تلخيص الموقف: "إن طبيعة هذا العالم المتغير هي عدم الالتفات إلى التقاليد والتراث. فهو لا يصفح عن زلة، ولا يكثر بالتقاليد، فليست له عادات ولا ممارسات مستقرة". وهكذا ينتقل الخطاب من الحديث عن عالم يؤمن بمبادئ أخلاقية خالدة إلى عالم مجرد من مثل هذه المبادئ.

ويتضح لنا أن المعتقدات الأخلاقية الثابتة التى احتفى بها المتحدث فى أول الخطاب قد وضعت فى خضم صراع من أجل البقاء بالمفهوم الداروينى. إذ يصبح عالم الاقتصاد المتعولم - مثله مثل عالم الطبيعة - عالماً لا قيمة فيه للضعيف، والتقاليد، والعادات الراسخة، بل ولا حتى "للممارسات" المتبعة. وبذلك تتحول أساليب العمل

----- (ع) -----

والحياة التي عرفتيا الأجيال السابقة وأرستها ونقلتها إلى عصرنا الراهن في صورة شبكة من الممارسات التي تشكل تاريخها وتراثها؛ قد أصبحت بذلك تمثل عقبات لا قيمة لها أمام إحراز النجاح في المستقبل. وأصبحت "المرونة" اليوم هي أم الفضائل التي بدونها لن يكون ثمة أمل في البقاء وسط غابة الاقتصاد التي نحن مقبلون عليها. أما منافسو بريطانيا (خاصة الصين والهند) فلا يمكن تجاهلهم، وليس أمامنا سوى أن نتفوق عليهم، وليست ثمة فرصة للطلول الوسطى.

وواضح أن الرؤية التي يقدمها ذلك الخطاب للعولة تحتفى أكبر احتفاء بالذرائعية. وتعنى الذرائعية أنه يمكن التمييز بكل وضوح بين الوسائل والغايات، ويؤكد الخطاب ثقة المتحدث في قدرته على هذا التمييز : "فحزب العمال الجديد كان أول وأقدر من استطاع فك الاشتباك بين الغايات والوسائل". وهكذا ترى الذرائعية أننا إذا عرفنا ماذا نريد (أى حددنا غاياتنا)، يصبح من الميسور أن نحدد الطريقة الصحيحة لبلوغ ما نريد. ومشكلة الرؤية الذرائعية أنها تتجاهل العلاقات الدقيقة - ولكن العميقة - القائمة في مختلف الثقافات بين القيم والتقاليد. فالأسباب والعادات الراسخة والتقاليد هي التي تجسد القيم، فهي ليست أبنية محايدة ذات وجود مستقل عن المعايير الأخلاقية. وفي كل أنواع السلوك العام - سواء على المستوى العلمى أو المحلى - تجسد العادات والممارسات المراعية تلك المعايير، ولهذا لا يمكن أن يكون هناك وجود للقيم بدون مثل هذه الممارسات: فبدون الأساليب والطرق المعتادة في الحياة والتي تجسد القيم وتنقلها من جيل إلى جيل؛ بدون ذلك تُفَرَّغ القيم من كل معنى. فنجد مثلاً أن فعل شيء معين بطريقة متفق على أنها "عادلة" لا يختلف عن فعل شيء بطريقة توصف بانها "تراعى الجيرة"، أو "شريفة"، أو "مهذبة"، أو "مهنية احترافية". فكل تلك الطرق تلتزم بالممارسات والأساليب المعتادة التي تشكل جوهر العدل: ونفس هذا الالتزام بالتقاليد هو الذى يجعل الأشياء وقائع ملموسة ذات معنى. ويدهى أن كل تلك

الأساليب والمفاعيم ليست محصنة ضد التغيير. ولكن الإقرار بأن هذه الممارسات والأساليب المعتادة تتغير إنما يدل على أنها صامدة وأنها تتطور في نفس الوقت. فإذا أردنا فهم العولة فهماً صحيحاً فلا بد أن نأخذ ذلك في اعتبارنا، لأنه يسمح لنا بأن نراعى حقائق الواقع الثقافي التي ستؤدي الرؤية الذرائعية إلى طمسها بالضرورة.

ودلالة التحليل السابق للعلاقة بين الممارسات والتقاليد من ناحية والتغيير الاقتصادي العالمي من ناحية أخرى (أو ما يوصف "بالتحديث") أنه لا يمكن تجاهل البعد الثقافي (وهو مجال التقاليد والأعراف والممارسات الاعتيادية) دون أن يترتب على ذلك عواقب خطيرة. وقد سبق أن لاحظ هابرماس (٢٠٠٣) أن عملية التحديث المتسارعة في دول العالم غير الغربية قد جلبت معها استياء وانتفاضات عنيفة من شأنها أن تطرح أسئلة مهمة على فهم الغرب لنفسه (انظر مادة: الحادي عشر من سبتمبر). وتتطلب عملية إعادة النظر النقدية تبني توجه حذر عند تناول عملية التوحيد القياسي المنهجية التي تحتفي بها احتفاءً كبيراً وجهة النظر الذرائعية (PS). للمزيد انظر: Featherstone (١٩٩٠) و Scholte (٢٠٠٠) و Lechner and Boll (٢٠٠٤) .

----- (غ) -----

Absence

الغياب

يستخدم مصطلح الغياب في علم السيميوطيقا / أى علم العلامات للإشارة إلى غياب مصطلح عن التابع ذى المعنى للعلامات، وذلك في حالة أنه من الممكن أن يشغل ذلك المصطلح موقعا في هذا التابع، وإذا كان استبعاده أو إغفاله يؤثر على معنى العلامات الموجودة (AE).

Surplus - Value

فائض القيمة

"فائض القيمة" مصطلح أساسى فى علم الاقتصاد عند ماركس، وخاصة فى تفسيره لعملية الاستغلال. ففى أى حقبة تاريخية (أو فى أى نمط من أنماط الإنتاج) تقوم الطبقة المسيطرة بانتزاع فائض القيمة من الطبقة العمالية الخاضعة لها. وفى المجتمعات قبل الرأسمالية، كان ذلك الانتزاع يتم بصورة صريحة (يشهد لذلك أن العبد كان يعمل مباشرة لحساب سيده، ولا يتلقى مقابل ذلك إلا ما يسد رمقه؛ وفى النظام الإقطاعى كان السيد الإقطاعى يستولى مباشرة على جزء من ناتج عمل الفن (أى عبد الأرض).

أما الوضع فى النظام الرأسمالى فيكون أكثر خفاءً. فوفقاً لنظرية قيمة العمل، يعتمد ثمن السلعة على مقدار وقت العمل الذى استغرقه إنتاجها. ومن الناحية المثالية، ينبغى أن يكون المال الذى يتلقاه العامل فى مقابل ما أنفقته من وقت فى عمله مساوياً لقيمة المنتج الذى أنتجه. وعلى ذلك، إذا عملت لمدة خمس ساعات، وأنتجت عشر ياردات من قماش الكتان مثلاً، وإذا كان لعشر ياردات من قماش الكتان نفس القيمة التبادلية (أى لها نفس سعر البيع) المماثل لسعر بيع خمسة أرغفة من الخبز، فإن أجرك ينبغى أن يكون كافياً لشراء خمسة أرغفة من الخبز. ويذهب ماركس إلى أن النظام الرأسمالى هو ذلك النظام الذى يكون فيه أجر العامل - عادة - أقل من قيمة المنتج الذى أنتجه. والفارق بينهما هو فائض القيمة، الذى يستولى عليه الرأسمالى لنفسه. ومعنى ذلك أن العامل يعمل جزءاً من يومه لنفسه، وجزءاً آخر من اليوم للرأسمالى. والحق أن العمال لن يدركوا حقيقة هذا الاستغلال فى العادة، لأنهم يعتقدون أن الأجور التى يتلقونها هى أجور "عادلة"، لأن الذى يحددها سوق العمل الحرة.

وثمة تحليل لفائض القيمة يتسم بأنه أكثر دقة، يرى أنه يتعين على الرأسمالي أن يشتري موارد معينة قبل بدء الإنتاج. فمن جهة، يلزم توفير الآلات، والمباني، والمواد الخام (وهي الأشياء التي يسميها ماركس رأس المال الثابت). ومن جهة أخرى، يتعين على الرأسمالي أن يشتري قوة العمل، أو رأس المال المتغير. ويذهب كارل ماركس إلى أن قيمة رأس المال الثابت تصب مباشرة في المنتج النهائي. (بمعنى أنه إذا اشترى الرأسمالي كتاباً لصناعة المعاطف، فلا بد من إدراج قيمة هذا الكتاب ضمن قيمة المنتجات النهائية من المعاطف). وإذا كان الأمر كذلك، فإن فائض القيمة لا يمكن أن ينتزع من رأس المال الثابت. وقد قادت هذه الملاحظة الدقيقة ماركس إلى التنبؤ بأن النظام الرأسمالي سيؤول في نهاية أمره إلى الانهيار، لأنه كلما ازدادت التكنولوجيا فعالية، كلما زادت نسبة رأس المال الثابت إلى رأس المال المتغير. وإذا لم يكن أمام الرأسمالي سوى أن ينتزع فائض القيمة من رأس المال المتغير، الذي يمثل نسبة دائمة الانخفاض من إجمالي رأسماله، فمعنى ذلك أنه لن يستطيع مواصلة الحفاظ على أرباحه (بمعنى أنه لن يستطيع مواصلة الحفاظ على مستوى فائض القيمة) المتحصلة المشروع الرأسمالي إلا بتخفيض الأجور التي تدفع للعمال (متسبباً بهذا الإجراء في إفقار طبقة البروليتاريا). وقد ركزت أهم الكتابات في ماركسية القرن العشرين على قضية الأسلوب الذي اتبعته الرأسمالية الحديثة لتفادي هذا المصير. (AE) للمزيد انظر: Mandel (١٩٧٢) و Marx (١٩٧٦).

Fascism

الفاشية

ليست الفاشية مذهباً سياسياً متجانساً، بل هي مجموعة من الأفكار غير المترابطة، وأحياناً المتعارضة، المستمدة من عدد من الثقافات. وتتسع الإيديولوجيا الفاشية لإعادة تعريفها من جديد، بحيث تقدم نفسها كمصطلح شامل لمجموعة من

الدوافع الرجعية، لا ترتبط إلا بالظرف التاريخي. ومع ذلك يمكن الاقتراب من تكوين صورة متماسكة إلى حد ما عن الاتجاهات الرئيسية الفعالة في الفاشية باستخدام مفهوم المخالفة: ففي معارضتها لليبرالية، تؤيد الفاشية الدولة الشمولية كما تدعى التزامها بالمبادئ الاشتراكية. هذا في نفس الوقت الذي تعارض فيه الشيوعية بتأكيدها: أهمية النضج القومي للأمة، والنقاء العرقي، وفكرة الصفوة، وبجانب هذه المعايير الفارقة، تتميز الأنظمة الحكومية الفاشية بأنها توحيد بين الإرادة القومية للأمة وشخص قائدها السياسي. كما تتميز هذه الأنظمة الفاشية بالنزعة العسكرية، وبشكل غامض من أشكال الاحتكام إلى القانون الطبيعي من أجل تبرير هذه المزاغم. كما يستخدم مصطلح "فاشى" كمصطلح تحقيرى بالمعنى العام، وذلك عندما يستخدم للإشارة إلى نظام أو سلطة يعتقد أنها تتسم بواحد من الملامح المذكورة، وهى الحقيقة التى قد تفيد فى إيضاح الإيديولوجيا المشوشة التى استمدت منها تلك الأفكار والسمات.

وقد ميز إرنست نولته Ernst Nolte ست نظريات مختلفة فى تفسيره للظاهرة الفاشية: تفسير مسيحى بهتكتضاه تكون الفاشية ثمرة لمجتمع علمانى، وتفسير أو اتجاه محافظ يلقى باللوم على رفض النظام القديم، ونظرية ليبرالية ترى جذور الفاشية ماثلة فى الحكومة الشمولية، ونظرية قومية تماهى بين الفاشية والنزعة القومية العدوانية، وتفسير ماركسى يركز على ما تتصف به الرأسمالية الصناعية الحديثة من طبيعة متناقضة، ونظرية نولته نفسه "غير المنحازة"، وهى النظرية التى تركز على تفرد الفاشية بالنسبة لمرحلتها التاريخية التى ظهرت فيها، بدون الرجوع إلى الاتجاهات السوسيولوجية فى تفسير ظهور الفاشية.

ويذهب كثير من المنظرين إلى أن ظهور الفاشية إنما جاء نتيجة مباشرة لمشاعر الاغتراب التى نمتها وغذتها المجتمعات الصناعية الحديثة، بينما يفضل غيرهم أن

(ف)

يؤكدوا استقلال الفكر الفاشي عن الظروف الاجتماعية المحيطة به. وقد أطلق مارتن كيتشن M. Kitchen على هاتين الرؤيتين المتناقضتين اسمين: أولهما: الاتجاهات أو النظريات "ذات الطابع الاتباعي" (وهي التي تجعل ظهور الفاشية تابعاً للظروف المحيطة بها) وثانيهما: الاتجاهات أو النظريات "ذات الطابع الاستقلالي" (أي التي ترى أن ظهور الفاشية مستقل عن الظروف المحيطة بها)، ويذهب كيتشن إلى أن الفهم الصحيح لدوافع ظهور الفاشية يلزمه أن يدخل في حسابانه هذين النوعين من التفسيرات النظرية. وعلى الرغم من ذلك، فإن الإجماع على الأصول الحقيقية للفاشية وطبيعتها يظل أمراً محيراً، فالنقاد ذوو الاتجاهات الماركسية يميلون إلى تشبيه الفاشية بما تحدثه الرأسمالية من مغالاة وتجاوز، هذا في الوقت الذي قد لا يرى فيه أصحاب النظريات الليبرالية فارقاً كبيراً بين ألمانيا النازية ذات الطابع الفاشي وبين شيوعية الدولة ذات الطابع الستاليني.

أما إلى أي مدى تظل الفاشية قوة فعالة في المجتمعات المعاصرة، فهي قضية محل نزاع واختلاف. فعلى الرغم من أن بعض العلماء البارزين، أمثال هانا أرندت(*) وكارل فريدريش C. Friedrich، يرون أن الفاشية لا تستقر إلا في بيئة ثقافية وتاريخية خاصة، نجد جمهرة العلماء المعاصرين كثيراً ما يلفتون الأنظار إلى التأثير المستمر للإيديولوجيا الفاشية داخل المجتمعات الحديثة. وقد يتجلى هذا التأثير في ازدهار

(*) أرندت، هانا Arndt, Hannah (١٩٠٦-١٩٧٥) فيلسوفة أمريكية ألمانية الأصل، درست الفلسفة في عدد من الجامعات الألمانية، ثم حصلت على درجة الدكتوراه تحت إشراف كارل ياسبرز. وفي عام ١٩٣٢ هربت إلى باريس، ومنها هاجرت عام ١٩٤١ إلى الولايات المتحدة. وهناك أصدرت عدداً من الأعمال العلمية، كما نشطت في ميدان المنظمات اليهودية. وفي عام ١٩٦٢ عينت أستاذة ورئيسة للجنة الفكر الاجتماعي. وابتداءً من عام ١٩٦٧ وحتى وفاتها عام ١٩٧٥ عملت أستاذة للدراسات العليا بالمعهد الجديد للبحث الاجتماعي. من أهم مؤلفاتها: "جذور التسليطة" (١٩٥٨)، و"الظرف الإنساني" (١٩٥٨)، و"عن الثورة" (١٩٦٥)، و"عن العنف" (١٩٧٠). للمزيد انظر: A.Elliott et al., Key Contemporary. So. cial Thinkers, 2003 (المراجع)

الدراسات التاريخية المراجعة، والمنتشرة حالياً في أوروبا، إذ تنكر قسوة أحداث المحرقة، كما تقلل من أهمية ما تتصف به الفاشية من نزعة بغیضة للتمييز بين الناس على أساس عرقى. يضاف إلى ذلك الحضور المؤثر للأحزاب ذات النزعة الفاشية مثل "الحزب القومى البريطانى" وحزب "التحالف القومى الإيطالى" وغيرهما داخل الدول الديموقراطية الغربية. ومع ذلك فإن أغلب الدراسات الجامعية تتفق على تشخيص الطابع الأساسى للفاشية: وهى أنها مجموعة من صور التعصب التى تتصف بالتناقض فيما بينها، وبالغموض، والفجاجة، ولا يميزها سوى قدرتها - التى أثبتتها التاريخ - على إسقاط وتدمير الطابع الخلقى والعقلى لأى ثقافة ترغب فى الأخذ بها. (CW) للمزيد انظر: Laqueur (١٩٨٨).

Agency and Structure

الفاعل والبناء

من المشكلات الرئيسية فى النظرية الاجتماعية مشكلة العلاقة بين ما يصدر عن الأفراد من أفعال تبدو فى ظاهرها أفعالاً مستقلة، وبين النظام الاجتماعى المهيمن المستقر. وقد قدم دوركايم تصويراً نابضاً بالحياة لهذه المشكلة فى دراسته عن الانتحار (صدرت الترجمة الإنجليزية ١٩٥٢) وذلك بملاحظته أنه بينما يتعين أن يتم فعل الانتحار بمعزل عن المجتمع بطبيعة الحال، وأنه فعل يستحيل تكراره، إلا أن عدد حالات الانتحار التى تحدث فى مجتمع معين تنسم بدرجة عالية من القابلية للتنبؤ من سنة إلى أخرى. وقد نفهم هذه المشكلة عن طريق طرح الأسئلة التى تبحث عما إذا كانت الأبنية الاجتماعية تستطيع أن تحدد أو تقرر مقدماً شكل الأفعال التى تصدر عن الأفراد أم لا، وإذا كانت تستطيع ذلك فكيف يتسنى لها هذا الأمر، كما نفهم هذه المشكلة عن طريق طرح الأسئلة التى تبحث عن الكيفية التى يتم بها خلق أمثال هذه الأبنية الاجتماعية.

ولعل أنجح الحلول لهذه المشكلات وأحظاها بالقبول على وجه العموم قد قدمها علم الاقتصاد، وذلك فيما قدمه آدم سميث من وصف للسوق الحرة. فالفعل المبني على المصلحة الشخصية فقط، والذي يصدر من كل فرد بصورة حرة مستقلاً عن الآخرين جميعاً، هذا الفعل يفضي في نهاية الأمر إلى التنسيق بين كمية السلع المعروضة وكمية السلع المطلوبة. وتبدو السوق في ظاهرها كأنها نتيجة لفعل "يد خفية" موجهة، تماثل في أفعالها الخفية ما يصدر من أفعال عن الشخص الذي يحرك الدمي في مسرح العرائس (دون أن يراه الجمهور). لكن تحليل سميث للدور الذي تقوم به آلية السعر يبدد هذا الوهم الخادع. (وقد أدى نجاح هذا التحليل الذي قدمه سميث لعالم الاقتصاد إلى تضليل عدد من الفلاسفة السياسيين، وبخاصة في معالجتهم لنظرية العقد الاجتماعي وأصولها القديمة المتوارثة^(*) فطبقوه على أمور تقع خارج حدود نطاقه الدقيق).

وفي النظرية الاجتماعية، تضمنت المحاولات التي بذلت لتخفيف التوتر بين (الفرد) الفاعل والبناء الاجتماعي اتجاهات شتى متباينة. وفي الطرف الأقصى لهذه الاتجاهات نجد أصحاب النزعة الوظيفية البنائية (حال كونهم متابعين لجانب من تراث دوركايم) وأصحاب النزعة الماركسية البنائية، وكلا الفريقين يميل إلى التهوين من شأن حرية الفرد، حيث نزلوا بدرجة الفاعلين الاجتماعيين إلى الدرجة الهابطة (التي أسماها

(*) نظرية العقد الاجتماعي: نظرية عن النظام الاجتماعي كانت شائعة ومشهورة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، على الرغم من أن أصولها قديمة ترجع إلى عهد أفلاطون. انظر: جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، المجلد الثاني ص ٩٤٣، ٩٤٤ إصدار المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة - الطبعة الأولى - سنة ٢٠٠٠ - راجعها وقدم لها وشارك في الترجمة محمد الجوهري. (المترجم)

دينيس رونج (D. Wrong) درجة المُسيرين أو مسلوبي الإرادة الذين قُدر عليهم ذلك، أو إلى درجة يكونون فيها مجرد حمالين لهذا البناء يتبعون المبادئ التي اعتنقوها أثناء فترة التنشئة الاجتماعية اتباعاً سليماً.

وعلى أقصى الطرف الآخر نجد من ينكر وجود البناء الاجتماعي إنكاراً تاماً من أصحاب النزعة الإثنوميثولوجية (منهجية الجماعة)، أو بشكل أخف وطأة عند أصحاب النزعة الفردية المنهجية الذين يعترفون بوجود البناء الاجتماعي ولكن كموجه للأفراد لا يوفر لهم إلا وصفاً مختزلاً للأفعال الفردية التي هي في أساسها كثيرة العدد. وهو بهذا الوصف بناء ليس لديه القوة القاهرة التي يسيطر بها على الفرد.

وفيما بين هذين الطرفين المتناقضين بذلت محاولات شتى لفهم الأبنية الاجتماعية باعتبارها منتجات صنعها فاعل إنساني يتسم بالكفاءة، وهي المنتجات التي يجب - بدورها - أن تكون جامعة لوصفين أولهما أن تتلقى الدعم والتأييد بصورة فعالة (ولو بطريقة تلقائية عن غير قصد) أو يتم إعادة إنتاجها من قبل مثل هذا الفاعل، وثانيهما أن توفر للأفراد ظروفاً تحدد مجالات الأفعال (لا أن تقرر هذه الأفعال) التي يمكن فهم الفعل في نطاقها، وإضفاء معنى عليه، وإنجازه. وفي ضوء ذلك، فإن التوتر بين الفاعل والبناء الاجتماعي قد يُفهم من خلال ما قدمه هابرماس (١٩٨٧) من تحليل للنظام ولعالم الحياة، ومن خلال نظرية أنتوني جيدنز (١٩٨٤) عن "التشكل البنائي". (AE) للمزيد انظر: Callinicos (١٩٨٣) و Giddens (١٩٧٩) و Sztompka (١٩٩٣).

Commodity Fetishism

فتشية السلع

انظر: تقديس السلع.

Individual / ism

الفرد / (مذهب) الفردية

الفرد هو الشخص أو الذات. وعندما يستخدم للإشارة إلى ما لا يمكن تقسيمه إلى وحدات أبسط^(*) فإن "الفرد" يوضع عادة في مقابل الجماعة. وترتبط وجهة النظر التي ترى أن الذات الفردية (١) لا يمكن اختزالهم إلى وحدات أبسط (٢) وأنهم وهبوا القدرة على استعمال ما يتمتعون به من رشد وفقاً لميولهم ورغباتهم (٣) وأنه ينبغي أن يكونوا فاعلين مدنيين أحراراً؛ ترتبط وجهة النظر هذه بمذهب الفردية. وينظر مذهب الفردية إلى الفرد باعتباره فاعلاً حراً في عالم التجارة، فهو يدافع عن الحرية السياسية والاجتماعية بناءً على هذه الاعتبارات. وكثيراً ما يتم الربط بين وجهة النظر المذكورة وبين التأثير الذي أحدثته كتابات آدم سميث (من ذلك ما حدث في المملكة المتحدة في فترة ثمانينيات القرن العشرين عندما أثرت أفكاره على رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر، التي كانت تدافع عن شكل من أشكال فردية السوق الحرة). (PS) للمزيد انظر: Lukes (١٩٧٣ب) و Avineri and De Shalit (١٩٩٢) و Morris (١٩٩١) و MacPherson (١٩٦٢).

Life-Chances

فرص الحياة

مصطلح يستعمل في علم الاجتماع (خاصة في المجالات التي تأثر فيها هذا العلم بماكس فيبر) للإشارة إلى ما يتوافر لأعضاء الجماعات أو الفئات الاجتماعية من فرص للحصول على السلع والمكافآت ذات القيمة الإيجابية والمروية اجتماعياً، وتقادى

(*) تتكون كلمة Individual في اللغة الإنجليزية من مقطعين أولهما "in" بمعنى "لا" أو "ليس" والثاني "Dividual" بمعنى "قابل للتقسيم إلى وحدات أبسط، وباجتماعها معاً يكون المعنى الحرفي للكلمة: "ما لا يمكن تقسيمه إلى وحدات أبسط". (المترجم)

العناصر ذات القيمة السلبية أى المرفوضة اجتماعياً. وعلى ذلك فإن فرص الحياة لا تقتصر فقط على العناصر الاقتصادية الصريحة (كالثروة، والدخل، والممتلكات المادية)، وإنما تضم إلى جانب ذلك العناصر الثقافية (بما فيها فرص التعليم وفرص استهلاك الفنون أو الإسهام فى إنتاجها)، وعنصر الصحة، وعنصر القدرة على مخالفة القانون، وترتبط فرص الحياة - عادة - بالطبقة الاقتصادية التى ينتمى لها المرء، بحيث إنه كلما ارتفع مستوى هذه الطبقة بين مستويات التدرج الهرمى الأخرى، كلما ازدادت فرصه فى التمتع بالدخل المرتفع، والتعليم المتميز لمدة طويلة، وفى اجتناب الإصابة بالأمراض والوفاة فى سن مبكرة، وفى اجتناب التعرض للمقاضاة فى حالة ارتكابه لإحدى الجرائم. (AE) للمزيد انظر: Dahrendorf (١٩٧٩).

Speech act

فعل الكلام

فعل الكلام عمل يتم القيام به لحظة النطق بكلمة ما. ونظرية "فعل الكلام" مستمدة من أعمال الفيلسوف البريطانى أوستن (١٩١١-١٩٦٠)، وقد تبناها فيما بعد عدد من الفلاسفة، وعلماء اللغة، ومنظري الأدب، بل حتى علماء التحليل النفسى. ويميز أوستن بين الفئات المختلفة للكلمات التى تؤدى وظائف مختلفة. إذ يعتقد أن النشاط المتمثل فى نطق الكلمات أمر معقد يمكن - تبعاً لذلك - أن يجرى تحليله وفقاً للوظائف المختلفة التى تؤديها شتى أنماط الكلمات. ويركز أوستن فى تحليله على لغة الحياة اليومية، وهى اللغة التى تستعمل بأسلوب فى غاية الصراحة أو المباشرة والبساطة.

وفى صياغته للمعالم الرئيسية لنظريته، كان أوستن يقاوم النظرية (التي قدمها أنصار الوضعية، مثلاً) عن اللغة، والتي تذهب إلى أن جميع الجمل ذات المعنى أو جميع القضايا أو الجمل الخبرية، التى تقرر أمراً ما هى وصف لأوضاع عامة (أى

(ف)

تقاريرات)، وهى من ثم إما أن تكون صحيحة أو تكون خطأ. ووجهة نظر أوستن أن بعض أجزاء اللغة تعبر عن معان قد لا تكون صحيحة ولا خطأ. ويطلق أوستن على هذه الأجزاء أو العبارات مصطلح "الألفاظ الأدائية". والألفاظ الأدائية هى تلك التى يستعملها المرء كوسيلة لإنجاز بعض الأمور كإعطاء الوعود، أو تحذير الآخرين، أو إبداء الآراء... إلخ. (مثال ذلك قول القائل: "أعدك بأن أعطيك المال"، أو "احترس"، أو "أنا أسمى هذه السفينة باسم كذا..."). والألفاظ الأدائية لا صلة لها بشروط الصحة والخطأ، إذ إنها مبنية على الأعراف الاجتماعية (بمعنى أنها إما أن تكون لائقة أو غير لائقة). ومع ذلك، فإن أوستن لم يقنع بذلك التمييز بين التقريرى والأدائى. إذ إنه - بدلاً من ذلك - يزيد هذا التمييز تعقيداً بمحاولته إثبات وجود معنى ما بمقتضاه يمكن للعبارات التقريرية أن تصبح من العبارات الأدائية، والعكس بالعكس. ووفقاً لهذا التصور، فإن كافة الألفاظ المنطوقة يمكن أن توصف بأنها من أفعال الكلام، على اعتبار أن أى لفظ يقرر واقعاً قابلاً لأن يعاد التعبير عنه بالصيغة اللغوية: "بناءً على ذلك أؤكد أن كذا وكذا". (أى أن بالإمكان اعتبار كافة الاستخدامات اللغوية من أفعال الكلام).

وقام جون سيرل J. Searle بتطوير أفكار أوستن عن طريق محاولته تحديد القواعد الخاصة التى تميز الصيغ المختلفة لفعل الكلام. وبناءً على هذا التصور، يمكن تمييز الوعد بأنه ينطوى بالضرورة على شكل أو آخر من أشكال الفعل المستقبلى. يضاف إلى ذلك، أنه يتوجب أن يكون هذا الوعد خاصاً بشئ، لا يتحتم أن يفعله مقدم الوعد بأية حال، كما يتوجب أن يتضمن رعاية المقاصد التى كان يرمى إليها مقدم الوعد، من حيث إنه يتعهد بالالتزام بالوفاء بوعده.

ومن أبرز المفكرين الذين تأثروا بنظرية فعل الكلام: الفيلسوف الألمانى المنظر النقدى يورجن هابرماس، الذى لجأ إلى مفهوم "الأدائية" كوسيلة لإيضاح نظريته عن

(ف)

الفعل التواصلى. وتتضح أهمية مفهوم "أفعال الكلام"، على وجه الخصوص فى أنه يقدم تصوراً لتناول القضايا المتعلقة بالمعنى يمكن أن يناقض النظريات التى تعتمد على الميراث الفكرى للنزعة البنيوية (أى ما بعد البنيوية). وقد يفسر لنا ذلك انجذاب هابرماس إليه، الذى قام - مخالفاً لبعض المفكرين أمثال ليوتار - باستعمال مفهوم "الأداة" فى محاولة البرهنة على أن النموذج المعيارى للإجماع العام أمر لا غنى عنه لكى تؤدى الأوضاع الاجتماعية اللازمة للوجود الإنسانى وظائفها، ولكى يتم إعادة إنتاجها. (PS) للمزيد انظر: Austin (١٩٧٥) و Searle (١٩٦٩).

Utopia

الفكر الخيالى

انظر: يوتوبيا.

Horticulture

فلاحة البساتين

أهملت الدراسات الثقافية فن البستنة إلى حد كبير. وهو أمر يدعو إلى الأسف لأننا بذلك أغفلنا نوعاً مهماً من أنواع التعبير الثقافى الشعبية. وقد تناول مؤرخو الفن والعمارة موضوع الحديقة بالدراسة (سواء الحديقة الأرستقراطية أو الحديقة المنزلية العادية) (Ugiow 2004)، كما بذلت مؤخراً محاولة متحمسة لاستعادة تاريخ تصميم الحدائق، وإعادة النظر فى جهود أعلام فن البستنة فى مطلع القرن العشرين، مثل جيرترود جيكيل (Jekyll 1973) وفيتا ساكفيل - وست (إلى حد يمكن معه القول بأن امتداد جيكيل أصبح بالفعل موضة قديمة). لكن الحديقة المنزلية تمثل مصدراً ثرياً للمعنى (ومن ثم ربما لمعرفة تكوين الهوية الذاتية وملاحها). فاختيار النباتات وتصميم الحديقة وتخطيطها ليست أموراً عفوية، كما أنها ليست محددة تحديداً كلياً

(ف)

بالخصائص الطبيعية للنباتات والتربة والمناخ. فالنباتات - وخاصة النباتات المزهرة - لها معانٍ وارتباطات تاريخية وثقافية، حتى لو بلغت تلك الارتباطات أحياناً حد التوق الشديد الذي يحمل حنيناً إلى أساطير الأناشيد التي كان يغنيها الرعاة عن حياة الريف وجماله في حديقة الكوخ، أو بلغت درجة العلاقة المتناغمة مع الطبيعة من خلال حديقة الحياة البرية. من هنا فإن اختيار النباتات وترتيبها يعد عملية تحكمها الأعراف المتبعة وشفرات المعنى. ومن الناحية الاستهلاكية يعد مركز البستنة نظيراً طريفاً لمركز التسوق (المول التجارى). فكما اضطرر تحول مراكز التسوق إلى منطقة جذب لقضاء وقت الفراغ (بما تحويه من مرافق لازمة لذلك كالمطاعم ودور السينما) لم تعد مراكز البستنة مجرد مكان لشراء النباتات (على نحو ما كان "المشتل" فى الماضى) ولكنها أصبحت مكاناً لشغل وقت الفراغ من نوع خاص. لذلك كله تمثل الحديقة، وتقسيماتها، وأصص الورود التى توضع على نوافذ البيوت: تمثل جميعاً مصدراً ثرياً لتأمل الثقافة المعاصرة (AE). للمزيد انظر: Turner (٢٠٠٥).

Continental Philosophy

الفلسفة الأوروبية

يطلق مصطلح "الفلسفة الأوروبية" - بصورة عامة - على أعمال الفلاسفة المنتمين إلى القارة الأوروبية. ومع ذلك، يوجد داخل نطاق المفكرين الذين قد يوصفون بأنهم أوروبيون درجة هائلة من الاختلاف والتباين فى المواقف الفكرية تجاه طائفة واسعة من القضايا الفلسفية، بحيث يكون من الصعب تماماً أن نصنفهم بطريقة متجانسة ضمن فئة "الفلاسفة الأوروبيين". وعلى الرغم من ذلك، فمن الحق أن نقول إنه على امتداد المائة عام الأخيرة أو نحو ذلك حدث - ولا يزال يحدث - انشقاق بين الفلسفة التحليلية الأنجلو أمريكية من جهة، والفلسفة كما يمارسها الفلاسفة فى أوروبا من جهة أخرى. وقد يوصف هذا الانشقاق - فى أفضل الأحوال - بأنه انقسام من النوع الذى يقع

(ف)

على المستوى المؤسسى (أى داخل المؤسسات الجامعية فى أوروبا، وفى المملكة المتحدة، وفى الولايات المتحدة). وإذا افترضنا وجود سبب رئيسى يساعدنا على تحديد سبب هذا الانشقاق، فلعل السبب كامن فى ثنايا أعمال الفلاسفة المشتغلين بالفلسفة التحليلية، وليس فى أعمال فلاسفة القارة الأوروبية (ومن أمثلة الفلاسفة التحليليين برتراند راسل وجوتلوب فريجه).

لذلك نجد راسل - مثلاً - وقد كان طالباً يدرس الفلسفة فى بريطانيا فى عصر كانت فلسفة هيغل سائدة مهيمنة على النظام الجامعى، وكان هو نفسه من الشباب المتحمسين لتلك الفلسفة؛ نجده وقد آل به الأمر بعد ذلك إلى أن أصبح ينظر بارتياح واضح إلى ما كان يعتبره غلوفاً فى التأمل الميتافيزيقى والمثالية الذى يتسم به فكر هيغل وغيره من المفكرين، مثل شوبنهاور ونيتشة، (انظر كتابه بعنوان "تاريخ الفلسفة الغربية" (١٩٤٦) الذى يعبر تعبيراً جيداً عن موقفه). وبدلاً من هذه التأملات، دعا رسل وغيره من الفلاسفة التحليليين إلى تبني خطاب تحليلى صارم ودقيق يركز - مثلاً - على إيضاح التعريفات الخاصة بأصناف الأفكار الفلسفية (مثل فكرة المعنى، وفكرة الإشارة أو الإسناد، وفكرة اللغة).

والأهم من ذلك، أن المرء قد يصف ما تتميز به الفلسفة التحليلية من تدقيق بالغ فى ضوء التزامها بصيغة منطقية - أساساً - من صيغ الخطاب، مع التزامها كذلك بالفهم الميتافيزيقى فى أساسه لمعنى بعض المصطلحات، مثل مصطلح "الضرورة". وقد سعى الفلاسفة التحليليون بصورة عامة إلى تجلية وإيضاح القضايا الخاصة بالمعنى، كما كانوا يتجنبون - عادةً - ما كان يعتبره كثير منهم (وحتى عهد قريب) تأملات مثالية مبهمة اتسم بها المفكرون الأوروبيون (ولعل ما قام به جيلبرت رايل G. Ryle من رفضه الشهير لكتاب "الوجود والزمان" لهايدجر، ووصفه الكتاب بأنه لا يستحق القراءة، يمثل أسوأ التعبيرات شهرة عن هذا الموقف الفكرى).

وقد تُفهم الفلسفة الأوروبية بصورة أفضل - لو أننا جازفنا فعلاً بتعريفها - عن طريق وضعها داخل سياق المناقشات الدائرة حول قضايا المعرفة، وليس وفقاً لخاصيتها "التأملية" الضمنية. ويفيد هذا الاتجاه بصورة خاصة، لأن قضية المعرفة هي من الاهتمامات المشتركة التي تعنى بها الكتابات الفلسفية التحليلية في بريطانيا والأعمال الفلسفية الأوروبية معاً. لذلك يصبح بالإمكان عقد نوع من أنواع المقارنة وإبراز الفروق القائمة بينهما. وبطبيعة الأمر، توجد استثناءات للتصور المطروح فيما بعد، إلا أنه من المؤكد أن ما يُناقش هنا تحت عنوان الاتجاه الأوروبي، أو النظرة الأوروبية إنما يجسد أمراً يختلف اختلافاً بيناً عن تلك التحليلات التي قدمها كثير من الفلاسفة التحليليين البريطانيين.

وعلى حين يميل الفلاسفة التحليليون إلى إجراء الفحص الدقيق للقضايا المتعلقة بالمعرفة وفقاً لما يمكن تسميته بالشروط الميتافيزيقية - المنطقية (مثال ذلك النص الذي كتبه لودفيج فيتجنشتاين^(*)) بعنوان "الكراسة المنطقية - الفلسفية"، (١٩٢١) نجد أن عدداً كبيراً من الفلاسفة الأوروبيين قد اهتموا في كتاباتهم اهتماماً فائقاً بالعوامل المادية الوقتية (غير الدائمة) التي قد تكون لها أهميتها بالنسبة للمعرفة. وهكذا نجد - مثلاً - أن رأى نيتشه^(**) في نشأة المعرفة يركز على تحليل الشروط المادية التي تعد أمراً جوهرياً لوجود هذه المعرفة. لهذا فإن "المعرفة" - عند نيتشه - ينظر إليها في نهاية الأمر على أنها محصلة لسلسلة من الوقائع العرضية الطارئة، هذا في الوقت الذي يُنظر فيه - غالباً - إلى الشروط المنطقية المسبقة للتفكير على أنها ليست حجة

(*) انظر تعريفاً موجزاً به في هامش مادة: الفلسفة التحليلية. (المراجع)

(**) فريدريش فيلهلم نيتشه F. W. Nietzsche (١٨44-١٩٠٠) فيلسوف ألماني، دعا إلى تسامي الإنسان وارتقائه بذاته حتى يبلغ مرتبة "الإنسان الأسمى" أو السوبرمان. تأثرت النازية بأرائه تأثراً كبيراً. أشهر أعماله: هكذا تكلم زرادشت (١٨٨٣-١٨٩٢). (المراجع)

أنطولوجية على واقع هذا العالم (ومن ثم فإنها لا تكون معياراً للموضوعية والصدق)، وإنما تعد مجرد علامة تدل على عجز الإنسان عن أن يفكر فى هذا العالم بطريقة مختلفة. وفى رأى نيتشه أن حتمية التفكير بطريقة منطقية لا تعطينا الحق فى أن نتحدى فندعى أن العالم نفسه يجب أن يخضع لهذه القيود ذات الشكل المنطقى (انظر المذكرات التى كتبها نيتشه، المنشورة فى كتابه "إرادة القوة" (١٩٦٨/ب)، الذى يحتوى على عدة صياغات لهذا الرأى) وإنما الأولى من ذلك أن يقر هذا الوضع بالشروط المادية التى تطورت البشرية وفقاً لها.

ويمكن إلقاء المزيد من الضوء على هذه القضية بعرض موقف الكتاب التحليليين والأوروبيين من مشروع كانط كما عرضه فى كتابه "نقد العقل الخالص" (١٩٦٤) حيث يوضح الشروط القبلية التى يتحتم وجودها لكى تصبح المعرفة ممكنة. ويعنى كانط بعبارته "القبلية" أنها شروط مستقلة عن جميع أنواع الخبرات العملية. وعلى الرغم من أن المعرفة كلها عند كانط معرفة عن الخبرة، فإن هذا لا يستتبع بالضرورة أن تكون الشروط اللازمة لإمكان تحصيل هذه المعرفة هى نفسها مستمدة من الخبرة. وقد دأب النقاد التحليليون (مثل سترود 1984: 153 وما يليها من صفحات) على اعتبار أن هذا الاستقلال (الذى تتصف به الشروط القبلية لتحصيل المعرفة) ذو دلالة ميتافيزيقية. ذلك أن كلمة "قبلية" تعنى دائماً - عند سترود - أنها مستقلة عن الخبرة، وأنها خاصة بالسمات الذاتية (أى متعلقة بالصفات التى يتحتم أن تتصف بها الذات لكى تعرف شيئاً) والتى من المتفق عليه أنها موجودة "قينا". وهذه الشروط هى - فى رأى سترود - تلك الخواص التى يلزم أن يتصف بها العقل لكى يكون قادراً على المعرفة (١٩٨٤: ١٦٠). وهو يعتبر هذه السمات الذاتية صفات أو خصائص مميزة للبشر. فهى تمثل ما يجب بالضرورة أن يكون عليه الوضع الصحيح للعقل لكى يمكنه تحصيل المعرفة. والصفة الأساسية للضرورة المذكورة هنا أنها ميتافيزيقية، أى أنها

تتعلق بتلك السمات التي بفضلها تكون المعرفة ممكنة. وهذه الشروط الضرورية - منظوراً إليها بهذا المعنى - لا تستلزم أن تكون موجودة قبل وجود ما هو مشروط بها. وهكذا يرفض ستروود اعتبار معنى كلمة "قبلية" أنها سابقة على الخبرة.

فى مقابل ذلك نجد مفكراً مثل ميشيل فوكو يتخذ وجهة نظر مخالفة إلى حد ما، فيما يتصل بمعنى فكرة كانط عن "القبلية"، وهى وجهة نظر تبين مدى التدقيق الذى عولجت به فكرة كانط هذه داخل التراث الأوروبى (انظر كتاب فوكو بعنوان "نظام الأشياء"، ١٩٧٠)، الذى سنشير إليه فيما بعد، (وكذلك كتابه بعنوان "أركيولوجيا المعرفة"، ١٩٧٢). ويرى فوكو أن مشروع كانط النقدى يشكل نقطة تحول فى تاريخ الفلسفة الأوروبية (باعتبار أنه كان افتتاحاً لعصر الحداثة)، كما يأخذ فوكو بعين الاعتبار تراث كانط فى الفكر الفرنسى والألمانى. لذلك يحاول أن يطرح تصوره عما يعتقد أنه تفسير أوروبى متفق عليه لتراث كانط. ويرى فوكو أن المفهوم التقليدى لنظرية المعرفة يمكن تشخيصه بأنه يعتبر البحث عن شروط المعرفة ماثلاً فى العلاقة بالتصورات العقلية (أى قضية: كيف تنطبق تصوراتنا المكتسبة من الخبرة على الواقع). على عكس ذلك لا تسعى التفسيرات الحديثة لآراء كانط إلى وضع تلك الشروط على نفس مستوى التصورات العقلية (فوكو ١٩٧٠: ٢٤١، ٢٥٤). إنما تقوم - بدلاً من ذلك - باجتئاب قضية التصور العقلى متسائلة عن شروط وجود تلك التصورات كافة وعلى اختلاف أشكالها (المرجع السابق: ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٥٤). وفى رأى فوكو أن هذا المنطلق الفكرى يعادل تحليل "مصدر التصور العقلى ومنشأه" (المرجع السابق: ٢٤٣-٢٥٦). ووفقاً لهذه النظرة يكون اهتمام كانط بشروط المعرفة اهتماماً بموضوع شروطها القبلية (أى السابقة على تحصيلها).

ويمكننا زيادة إيضاح هذه النقطة بالرجوع إلى فوكو فيما نسب - ضمناً - إلى كانط من نظرة إلى الذات باعتبار أنها تتصف بطبيعة إمبيريقية (خبروية) وطبيعة

----- (ف) -----

متعالية في الآن معاً (المرجع السابق: ٢١٨، ٢٢٩). ومن شأن هذه النظرة - كما يراها فوكو - أن تقود إلى نوعين من التحليل للمعرفة الإنسانية:

(١) نوع ذو نزعة تجريبية (خبروية) اختزالية، معنى بالشروط الفسيولوجية - التشريحية للمعرفة.

(٢) نوع من التحليل الجدلي المتعالي الذي يتناول الشروط التاريخية للمعرفة (المرجع السابق: ٣١٩، ٣٢٠).

وينظر فوكو إلى هذين النوعين من التحليل باعتبارهما يفسران منشأ المعرفة، وليس الشروط المنطقية/ الميتافيزيقية لإمكان تحصيل المعرفة. فالنوع الأول من التحليل يسعى لشرح التطور التاريخي للمعرفة في بحثها عن الحقيقة (وهو ما يسمى بالنزعة الوضعية). ويسمى النوع الثاني لتقديم تفسير شروط المعرفة هذه التي يتعين أن يحققها التاريخ (ويسمى بالتحليل الجدلي أو بالجدل) (المرجع السابق: ٢٢٠، ٢٢١). وفي كلتا الحالتين، فإن ما يتم تحليله إنما هو الشروط المسبقة للمعرفة وليس تحليل المعرفة نفسها. وهكذا يرى فوكو أن فكرة كانط عن الضرورة - التي تشكل الأساس الذي تنبنى عليه صحة معرفتنا - إنما هي جزء من الشروط المسبقة لتلك المعرفة. "فالقلبية"، بهذا المعنى، هي ما يكون سابقاً (سبقاً زمنياً) على الخبرة.

ويتضح من هذه المقارنة أن كلا الاتجاهين يبعد عن الآخر ويختلف عنه، ليس فيما يتصل بنوع الأسئلة التي يطرحها (وفي حالتنا هذه نقصد بالأسئلة: تلك المتصلة بالشروط الضرورية للمعرفة)، وإنما فيما يتصل بكيفية الإجابة على هذه الأسئلة. ويلاحظ أن التأكيد على أهمية النمط الوقتي (أو الزمني) أو النمط المادي لشروط المعرفة ليس مقصوراً - فقط - على فكر نيتشه وفوكو (وقد تناول كلاهما - كذلك - مسائل أخلاقية وسياسية واضحاً نصب عينيه مشكلة القوة التي تنجم هي نفسها عن

التحليل المادى للعلاقات الاجتماعية). كذلك ذهب مارتن هايدجر فى كتابه "الوجود والزمان" إلى أن عنصر الزمن - فى شروط المعرفة - أمر جوهرى لنجاح أى تفسير للقضية الأنطولوجية الخاصة بمعنى الوجود. وبالمثل، نجد أن جيل ديلوز يرى أن الصفة الزمنية لشروط المعرفة تشكل الأساس لصياغة تصور لنظرية أنطولوجية عن "الضرورة" (*).

ولا ريب أنه توجد - كما ذكرنا آنفاً - استثناءات لهذا التحليل الذى قدمناه هنا، كما أنه من الجدير أن نؤكد مجدداً أنه سيكون من الخطأ لو قرأنا مصطلح "الفلسفة الأوروبية" بوصفه مصطلحاً جامعاً مانعاً يدل على مجموعة من المذاهب الفكرية التى اتبعت فى طرح التساؤلات الفلسفية. من ذلك مثلاً أن جاك ديريدا قد اتبع اتجاهاً فى تفسير المعرفة لا يتضمن النمط المادى للشروط الضرورية للمعرفة، وإنما يطرح تصوراً لعملية تكوين الدلالة يتشكك فى النزعة الميتافيزيقية تجاه قضايا المعرفة؛ وذلك فى نفس الوقت الذى يتشبه فيه بموقعه داخل ذلك المجال الذى يتميز بالتفكير الميتافيزيقى، ويحرص على المغالاة فى شكوكه فى المشروع التاريخى لفوكو (انظر الانتقادات التى وجهها ديريدا لفوكو فى المقالة المعنونة "الكوجيتو وتاريخ الجنون" (**)) المنشورة ضمن كتابه "الكتابة والاختلاف" (١٩٧٨)).

وبالمثل، نجد أن جان فرانسوا ليوتار هو المفكر الذى يتعين وصفه - حقاً - بأنه المفكر الذى يستخدم طائفة من الاستراتيجيات الفكرية المشتركة بين التراث الفكرى للفلسفة التحليلية والتراث الفكرى للفلسفة الأوروبية (وهو فى واقع الأمر يبنى حُججه فى ضوء معرفته بأعمال راسل، وفريجيه، وفيتجنشتاين بمثل ما يفعل مع أعمال هيجل، ونيثشه وهايدجر). (PS) (المزيد انظر: Foucault (١٩٧٠) و Hylton (١٩٩٠) و Kearney و Rainwater (١٩٩٦) و Silverman and Welton (١٩٨٨) و Stroud (١٩٨٤) و West (١٩٩٦)).

(*) الصيرورة Becoming هى طبيعة تحول وتغير الأشياء بمرور الزمن عليها. (المترجم)

(**) الكوجيتو هى الكلمة الأولى من مقولة ديكارت 'Cogito Ergo Sum' أى: أنا أفكر إذن فأنا موجود. (المراجع)

Analytic Philosophy

الفلسفة التحليلية

تتميز الفلسفة التحليلية بوصفها إحدى مدارس الفلسفة - عادة - بالاهتمام باللغة وبالتحليل المنطقي لها. ويهدف هذا التحليل إلى تحسين فهمنا للكيفية التي تنطبق بها اللغة على العالم الطبيعي. وينهض هذا المشروع على فرضية أن الاستعمال الأولى للغة إنما هو في مجال توصيل وتبادل الحقائق المتصلة بهذا العالم. ويقسر هذا الافتراض أيضاً اهتمام الفلاسفة التحليليين بالقضايا والمسائل المتصلة بعلاقة الدلالة بين اللغة والواقع (انظر مادة: الإشارة/ الإنسان) وكيف أن الكلمات تعني ما تعنيه (انظر مادة: المعنى).

وقد مارس التراث الفلسفي للفلسفة التحليلية نفوذاً كبيراً، وبخاصة في بريطانيا وأمريكا الشمالية. ويمكن تتبع أصوله الأولى في المؤلف الذي كتبه جوتلوب فريجه^(*)، ومروراً بمؤلفات برتراند راسل ولودفيج فيتجنشتين^(**) في كتابه بعنوان "جماعة فيينا" (انظر مادة: المعنى، ومادة: الميتافيزيقا)، وبيتر ستراوسن Peter Strawson (ورد في

(*) جوتلوب فريجه (Gottlob Frege 1878-1975) فيلسوف ألماني. وأهمية فريجه التاريخية ذات شقين: أهمية باعتباره مؤسساً للمنطق الرياضي الحديث، وأهمية باعتباره فيلسوف منطق ورياضة. ابتكر فريجه فكرة "النسق الصوري"، وقدم أول مثال له في كتابه "ترقيم الأفكار". ويعد هذا النموذج في الوقت نفسه أول صياغة لحساب التفاضل والتكامل للجمل والمحمولات. وفرق لأول مرة بين البديهيات وبين قواعد الاستهلاك، وهو الذي اهتدى إلى الطريقة التي بها نميز المنطق الحديث من سوائه ونجعله متفوقاً عليها، ألا وهي استخدام المتغيرات وأسوار الكم. (المراجع)

(**) لودفيج فيتجنشتين Ludwig J. J. Wittgenstein (1889-1951) ويعد فيتجنشتين أهم الفلاسفة المتحدثين بالإنجليزية في القرن العشرين، مع أنه ولد في فيينا وعاش في النمسا حتى عام 1912. ويتمثل إنجاز الفذ في أنه قدم للفكر الإنساني - خلال حياته الأكاديمية القصيرة نسبياً - مذهبين فلسفيين أحدثا أثراً فكرياً عميقة رغم عدم توافق أحدهما مع الآخر. الأول رأى متكامل في اللغة والمعنى، والثاني اتخذ شكلاً للنقد العاصف المدمر لنفس الآراء في اللغة والمعنى التي سبق أن تبناها ودافع عنها في المرحلة السابقة من حياته. والمصدر الرئيسي لتلك الفلسفة الجديدة كتابه الشهير: "البحوث الفلسفية"، الذي نشر بعد وفاته (1953). انظر معالجات مفصلة لأرائه وأثره والتعليق عليه في: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص. 110-116. (المراجع)

مادة: الإشارة/ الإسناد) كواين^(*) W.V.O. Quine وانتهاءً بوقتنا الحاضر في مؤلفات سامويل كريبك (مادة: الإشارة/ الإسناد) ومؤلفات دونالد دافيدسون.

وبفضل ما كتبه كواين ودافيدسون وفيتجنشتين خاصة في أعماله الأخيرة، نشب الجدل والخلاف حول الافتراض بأن الوظيفة الأساسية للغة تتمثل في الإشارة إلى العالم الطبيعي والدلالة عليه أو في تبادل الحقائق المتصلة به. بل إننا نجد دافيدسون يخلص - في نهاية الأمر - إلى رفض تلك الفكرة الخاصة بكون اللغة إشارة إلى العالم الطبيعي رفضاً تاماً (دافيدسون، ١٩٨٤). ومع ذلك، فلا يزال عدد كبير من الفلاسفة التحليليين يؤيدون مشروع الفلسفة التحليلية في هيئته الأصلية (كريبك، ١٩٨٠). (SH)

الفلسفة الظاهرية

Phenomenology

انظر: الفينومينولوجيا.

فنانو الطليعة

Avant-Garde

انظر: الطليعة.

الفينومينولوجيا/ الفلسفة الظاهرية

Phenomenology

يشير مصطلح الفينومينولوجيا إلى مجموعة من الاتجاهات الفكرية في مجال البحث الفلسفي والسوسيولوجي، وفي مجال دراسة الفن، انطلاقاً من أعمال

(*) انظر تعريفاً موجزاً به في هامش مادة: المعنى. (المراجع)

الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل^(٥) (١٨٥٩-١٩٣٨). وتدل هذه المجموعة المتنوعة المشارب من الاتجاهات الفكرية التي توصف بأنها تشكل الفينومينولوجيا، والتي لا تقتصر فقط على أعمال هوسرل (التي كانت تتغير وتتطور باستمرار على امتداد عمره)؛ تدل على أنه ليس من السهولة تقديم تعريف للفينومينولوجيا يتصف بالدقة والشمول. وأياً ما كان الأمر، فإن بالإمكان إدراك شيء من نكهة فلسفة هوسرل فضلاً عن الاستفادة ببعض ردود أفعال أتباعه، ومنهم مارتن هايدجر، وموريس ميرلو-بونتي، وجان بول سارتر، وألفرد شوتز.

والفينومينولوجيا، كما يدل عليها اسمها، معنية بوصف الخبرة الإنسانية الأساسية (ومن هنا فهي معنية بالظواهر وهي كلمة مشتقة من اللفظ الإغريقي الدال على "الظهور"). ومراد هذه الفلسفة أن تستكشف الظواهر التي تسلم بها العلوم الطبيعية وغيرها من فروع المعرفة، والتي تجعل من دعاوى المعرفة هذه أموراً ممكنة لهذا السبب. وتحاول الفينومينولوجيا أن تصف كيف يتعين أن يبدو العالم بالنسبة للراصد البسيط، وبشرط أن يكون وصف هذا الراصد مجرداً من كافة المسلمات المسبقة، ومن كافة التوقعات التي تملئها الاعتبارات الثقافية. ويمكننا التقاط هذا المعنى من ذلك الشعر الذي يقول إن الفينومينولوجيا تعود إلى "الأشياء نفسها" (هوسرل ١٩٦٢: ٧٤ وما بعدها). لذلك فإن البحث الفينومينولوجي يتم من خلال منهج "الحصص أو التعليق Bracketing". ويقتضى هذا المنهج شكلاً من أشكال تعليق الاعتقاد أي التوقف مؤقتاً عن الأخذ به. مثال ذلك أن العالم أثناء رصده لأحد الألوان، إنما يدرسه وفقاً للاعتقاد بأنه يمثل موجات ضوئية ذات تردد معين. إلا أن هذا الاعتقاد ليس متاحاً للباحث غير المتخصص في الفيزياء. لذلك فإن هذا الاعتقاد لا يقوم بدور فيما يمارسه الباحث الفينومينولوجي من وصف للعالم كما يبدو عليه في الظاهر.

(٥) انظر تعريفاً موجزاً به في فامش مادة: عالم الحياة. (المراجع)

أما الأمر الأهم من ذلك، فهو أن هوسرل يقوم بتعليق ما يسميه الموقف أو الاتجاه الطبيعي. ذلك أننا، أثناء معاشتنا لتجربة الحياة اليومية، نسلم ببعض الافتراضات المتصلة بخبراتنا، خاصة التسليم بوجود موضوع حقيقي خارجي عنا نقوم بمحاولة التعرف عليه، أو على التسليم بأننا ذوات موحدة لدينا نفس الخبرة. وهذه الافتراضات بدورها ليست هي الأخرى مما اكتسبناه عن طريق الخبرة. والأمر الحاسم أن هوسرل لا يذهب إلى القول بأن العالم الفعلي غير موجود. ولكن عملية التعليق المذكورة تستلقت انتباهنا إلى الافتراضات التي يتعين علينا الأخذ بها لكي نتعرف على العالم الحقيقي أصلاً.

وهذه النقطة يمكن إيضاحها بالتعرف على الأهمية التي تحظى بها إحدى دعاوى هوسرل. إذ يذهب إلى أن وعينا كله ذو طبيعة قصدية. وهذا معنا أنه نكون دائماً واعين بوجود شيء ما (ولسنا مجرد واعين فحسب). وعلى ذلك، فإننا أرى أمامي واحة، وأمس بإصبعي مكتباً، وأنا أتوق إلى زيادة في أجرى. لاحظ هنا أن هذه الموضوعات التي نعيها ليس من الضروري أن تكون موجودة في الواقع. (فهذه الزيادة في الأجر قد لا نحصل عليها، وهذه الواحة قد تكون سراباً). ومراد هوسرل من ذلك أن تفسير الخبرة لا يمكن أن يتم وفقاً للعلاقة السببية التي تجعل هذه الخبرة ناجمة عن وجود الشيء أو الموضوع المادى. وإنما الموضوع يوجد على ما هو عليه (سواء كان واحة حقيقية أو كان خيلاً موهوماً) وذلك بسبب ما لدى راصد هذا الموضوع من علاقة لها معناها تربطه به. ويرى هوسرل أن الموضوع يحقق لراصده ما يتوقعه منه، وأننا في حالة مواجهتنا لموضوع ما، يكون لدينا عدد كبير من التوقعات التي تشكل علاقتنا نحوه.

وفى علم الجمال عند رومان إنجاردن R. Ingarden - والمعتمد على أفكار هوسرل - يعالج العمل الأدبي كموضوع مقصود لذاته (١٩٧٣). ونظراً لاهتمام إنجاردن بوصف الاتجاهات الجمالية الأصلية إزاء العمل الفني، فإنه يرفض النظر إلى العمل

الفنى باعتباره مطابقاً للأساس المادى الذى بُنى عليه. ذلك أن هذا العمل الفنى أو الأدبى له هويته الثابتة الخاصة به. مستقلاً عن التفسيرات المتعددة التى تطرح بشأنه. وعلى ذلك يكون المجال المناسب للتقييم أو التذوق هو مضمون هذا العمل الفنى، حيث يقوم القارئ "بتجسيد" هذا العمل (أى وضعه فى صورة ملموسة)، وذلك بإعماله لخياله فى إعادة تشكيل ما تركه مبدع هذا العمل غامضاً من غير تحديد.

وقد اعترض أتباع هوسرل على مثاليته هذه بالأسلوب المعهود عند نقاد المثالية. فالفيينومينولوجيا التى قدمها تركّز على الخبرة التى يكتسبها دارس مجرد إلى حد بعيد. وعلى النقيض من ذلك ينطلق هايدجر (ويشايه فى موقفه هذا سارتر) من الخبرة التى يكتسبها فاعل حقيقى له وجوده المحسوس، ينهمك بصورة عملية فى معالجة مشكلات الحياة الواقعية والمادية الملموسة. لهذا، وعلى سبيل المثال، يجاهد هوسرل ليكتشف "المعنى" الموجود فى كل خبرة باعتباره الجوهر الضرورى والعام لكل خبرة. وعلى عكس ذلك يرى هايدجر أن مثل هذا المعنى يتطور على امتداد الزمان فى ثنايا انهماكنا فى معالجة مشكلات الحياة العملية. فمعنى كلمة "المطرقة"، إذا استعملنا مثلاً أثيراً لدى هايدجر، يعتمد على استعمال البشر للمطارق. وبذلك لا يكون للخبرات معان عامة أو كلية يتم اكتشافها من خلال الوصف الفيينومينولوجى، بل هى معان يعزوها البشر لهذا العالم، فى ثنايا سعيهم لتحقيق أهدافهم المختلفة. وقد عبر هايدجر عن هذا المعنى بهذه العبارة الأنيقة حيث يقول: "الغابة هى حشد من الأشجار، والجبل هو مقلع ملئ بالأحجار، والنهر هو تلك القوة التى يجرى بها الماء، والرياح هى تلك الرياح التى تحرك أشعة المراكب" (١٩٦٢: ٤٠-٤١). وبالمثل، يرى ميرلو - بونتي أن المعنى لا يمكن عزوه لشيء، إلا من خلال الجسد^(*)، وبذلك لا يمكننا تعليق الإيمان بالجسد (١٩٦٢: ١٤٧).

(*) أى من خلال الخبرة الحسية. (المترجم)

----- (ف) -----

وفى مجال العلوم الاجتماعية تم تطوير علم الاجتماع الفينومينولوجى بفضل أعمال ألفرد شوتز^(*) (١٨٩٩-١٩٥٩). ويرفض شوتز (١٩٦٢) هو الآخر تلك المثالية التى يتصف بها برنامج هوسرل الفلسفى، هادفاً من ذلك إلى وصف الخبرة الإنسانية كما تحدث فى عالم اجتماعى مكون من العلاقات بين الذات الإنسانية (أو: كما تحدث فى عالم الحياة). وبذلك يصير "الاتجاه الطليعى" - عند شوتز - مكوناً من تلك الافتراضات التى يسلم بها الفاعلون الاجتماعيون القادرون فى علاقتهم بالعالم الاجتماعى وبالبشر الذين يلاقونهم فيه. ويسلم هؤلاء الفاعلون بوجود غيرهم من البشر الآخرين، كما يسلمون بوجود نوع من "تبادل وجهات النظر". وهكذا يتكون لدى الفاعلين الاجتماعيين "رصيد جاهز من المعرفة" (فى صورة مجموعة مترابطة من المهارات، والمسلمات، وعمليات التتميط، وهى العلامات والمفاهيم التى من خلالها يوجهون تصرفاتهم تجاه بعضهم البعض) والتى تتيح لهم أن يتعرفوا على الواقع الاجتماعى ويستجيبوا له، كما تتيح لهم أن يشكلوا هذا الواقع بصورة فعالة، حتى وإن تم ذلك على نحو عقوى غير مقصود. (AE) للمزيد انظر: Schutz and Luckmann (١٩٧٤) و Bell (١٩٩٠).

(*) شوتز، ألفريد Schutz, Alfred (١٨٩٩-١٩٥٩) عالم اجتماع نمساوى. درس فى النمسا، ثم هاجر إلى نيويورك عام ١٩٣٩ حيث عمل فى "المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى"، والتحق فى نفس الوقت بوظيفة فى أحد البنوك لواجه ظروفًا مادية صعبة. وقد استعان شوتز بمفاهيم هوسرل لكى يدعم تحليل ماكس فيبر للفعل الاجتماعى، وتعمق فى دراسة كيفية تكون "عالم الحياة" و"الإجماع الذاتى" (أو إجماع الذات) وآليات عمله، وهو الأمر الذى أثر تأثيراً قوياً على الإثنوميثودولوجيا أهم أعماله الذى طرح فيه إطاره التحليلى كتاب "فينومينولوجيا العالم الاجتماعى" (١٩٣٢). (المراجع)

القاعدة

Rule

مصطلح حظى بأهمية متزايدة فى مجال تحليل اللغة، حيث أصبح يستعمل أحياناً بطريقة تشبه معنى "التقليد المتبع" Convention. وتصر النظريات التى تدرس اللغة من منطلق مفهوم القاعدة على أنه بواسطة القواعد أو التقاليد اللغوية المتبعة - وبواسطتها فقط - يتشكل المعنى، وليس - مثلاً - من خلال الطريقة التى وفقاً لها تشير (انظر مادة: الإشارة) الكلمات إلى أوضاع عامة غير لغوية. وقد وفرت الأعمال الأخيرة لفيتجنشتين القوة الدافعة الأكبر نحو تحليل قواعد اللغة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية (وذلك أساساً من خلال مفهوم "لعبة اللغة")^(*). ومن الأمثلة الجيدة لتفسير اللغة تفسيراً قائماً على القواعد كتاب جان فرانسوا ليوتار بعنوان "المختلف: عبارات محل خلاف" (١٩٨٢).

وبناءً على هذا الفهم، فإن القواعد التى يتألف منها أى أسلوب خاص من أساليب الكلام تشكل نوعاً من أنواع الخطاب. ولكل نوع هدفه، وهذه القواعد هى التى تدلك على ما تفعله لكى تحقق هذا الهدف. وقد يقرم المرء بنوع من المماثلة بين هذه الفكرة وبين عملية الطهى: فحين يرغب المرء فى إعداد "تورته"، فإن هذا النوع من أنواع الطهى يتضمن بداخله القواعد التى يتوجب مراعاتها لتحقيق هذا الهدف. ويترتب على ذلك أن القواعد ليست ملزمة فى حد ذاتها - فلا توجد قاعدة تخبرك بأنه ينبغى عليك إتباع قاعدة معينة - ذلك أن هذه القواعد تتوقف على وجود أهداف معينة؛ كما أن القواعد تدلك على الطريقة التى بها "تحسن الأداء": فالمرء قد يتبع قواعد لعبة الشطرنج ومع ذلك يكون لعبه لها رديئاً (ولو أنه إذا رضى أن يهزم - طائناً - فى لعبة الشطرنج على يد رئيسه فى العمل، فربما يحلوه له الزعم بأنه إنما يلعب لعبة أخرى لها عائد

(*) انظر تعريفاً بالمفهوم فى مامش مادة: المعنى. (المراجع)

مختلف). وتختلف "التقاليد المتبعة" عن القواعد على مستوى التفاعل الاجتماعي، إذا اعتبرنا مصطلح "التقاليد المتبعة" دالاً على أحد أساليب السلوك في مناسبة معينة وتحظى باتفاق أعضاء المجتمع على اعتبار هذا الأسلوب معياراً (مثال ذلك المصافحة عند التلاقي، وطرق الباب قبل دخول الحجرة، وارتداء زى معين من الملابس في مناسبة معينة، كالزفاف مثلاً). وبهذا المعنى للتقاليد المتبعة نجد أنها تشكل - كذلك - الأساس الذي تقوم عليه أنواع أدبية معينة. ففي الأدب مثلاً يشترط شكل الرواية الأخذ بمجموعة ثابتة من التقاليد المتبعة التي تشترك في مراعاتها جميع الروايات بطريقة أو بأخرى - ولو نظرياً على الأقل - هذا على الرغم من أن الغاية التي تستهدفها أى رواية من الروايات لا يشترط بلوغها الالتزام على نحو معين بالتقاليد المتبعة المميزة لهذا النوع الأدبي. (PS)

Rule

قانون

انظر: المادة السابقة.

Utterance

قول

انظر: لفظة.

Nationalism

القومية

تُقدم القومية نفسها ليس كمجرد ظاهرة سياسية فحسب، وإنما كمسألة من مسائل الهوية الثقافية كذلك. وبهذا الاعتبار، فإن أى تصور عن الأمة التي يشير إليها

هذا المصطلح يجب أن يدخل في حساب المعايير الإثنية، والتاريخية واللغوية لهذه الأمة، فضلاً عن الاهتمام بالمفاهيم والأفكار السياسية كمفهوم الشرعية، والبيروقراطية، ووجود حدود واضحة معترف بها. وقد قام القوميون (دعاة القومية) بطرح عدد من الدعاوى الخاصة بالأمة، التي تختلف دلالتها النسبية تبعاً للوضع التاريخي الخاص لكل أمة. ومن القضايا ذات الأولوية هنا حق الأمة في الاستقلال، وأن الشعب الذي يشكل هذه الأمة يجب أن يكون حراً في تسيير أموره الخاصة به. وكنيجة طبيعية لهذا الاستقلال، يسلم القوميون (أو يطالبون) باشتراك أفراد هذه الأمة في هوية مشتركة جامعة، يمكن تعريفها وفقاً للمقاييس السياسية أو الثقافية (أي: الإثنية، واللغوية). وقد يتم تعزيز مفهوم الهوية هذا لإحداث شعور بوحدة الهدف، عن طريق دمج مشروعات الأفراد ضمن مشروعات الأمة.

والقومية بمقتضى هذا التعريف ظاهرة حديثة، أخذت في الانتشار أواخر القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من وجود أفكار مشابهة لها في أزمنة سابقة، فإن تطور القومية جاء ملازماً لتطور الدولة الحديثة، وبصفة أساسية في أوروبا وشمال أمريكا. لذلك من المعتاد أن يذكر تاريخ إعلان الاستقلال الأمريكي سنة ١٧٧٦ وتاريخ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ باعتبارهما علامتين مميزتين لبداية ظهور القومية. وعلى الرغم من ذلك فإن جذور القومية كحركة فكرية لا تزال غامضة؛ ومع أن القومية فكرة متشربة بتراث الحركة التنويرية الموجود في كتابات روسو وهردر، فإن مطالبة القومية بحقها في وجود حقيقى لها يستند إلى ميراث ثقافى مشترك، إنما تشبه في أمور كثيرة الأفكار الرئيسية السائدة في النزعة الرومانسية وفي كتابات فخته وهيجل. ومع ذلك فإن الدراسة التحليلية لها بوصفها قوة سياسية لم تبدأ إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، أما اهتمام المثقفين بها فلم ينتشر على نطاق واسع إلا بعد نهاية الحقبة الاستعمارية (انظر مادة: ما بعد الكولونيالية).

وإذا أخذنا في اعتبارنا الخلاف حول طبيعة الأمة في النظرية السياسية والنظرية الثقافية، فليس عجباً أن يظل عصياً حتى الآن الوصول إلى نظرية عن القومية تحظى بالقبول والإجماع. فالمفكرون لا يزالون منقسمين بصفة خاصة بشأن تقدير الأهمية النسبية للأبعاد السياسية والثقافية للقومية، فتعريف إرنست جلنر^(*) للقومية بوصفها "مبدأ سياسياً"، وهو التعريف الذي يؤمن بضرورة أن تتطابق كل من الوحدة السياسية والوحدة القومية، يمثل نموذجاً للموقف الفكري الذي يؤكد البعد السياسي للقومية. من ناحية أخرى يرى من يسمون أنصار المذهب الفطري، والذين يمثلهم عالم الأنثروبولوجيا كليفورد جيرتز، أن القومية إنما تنبثق من أنماط التنظيم الاجتماعي المتغلخلة في أعماق سائر النفوس البشرية لأي سلالة أو جماعة إثنية. وعلى النقيض من ذلك، يذهب إيريك هويسباوم^(**) وإيلي قدوري Elie Kedourie إلى أن

(*) جلنر، إرنست Gellner, Ernest (١٩٢٥-١٩٩٥) قضى الشطر الأعظم من حياته العملية في إنجلترا. واشتغل خلال الفترة من عام ١٩٤٩ حتى ١٩٨٤ بتدريس علم الاجتماع ثم الفلسفة في مدرسة لندن للاقتصاد. قبل أن ينتقل لشغل كرسى الأستاذية في تخصص الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة كمبردج. وفي عام ١٩٩٢ عاد إلى براغ ليتفرغ للعمل مديراً لمركز دراسات القومية في جامعة وسط أوروبا. أصدر أول كتبه في نقد الفلسفة اللغوية (وعنوانه: الكلمات والأشياء، ونشر عام ١٩٥٩) ولكنه عاد فأنكره ورفضه لما يتسم به من ثقة لا مبرر لها، واقتدار إلى الخيال، ومحدودية الأفق، وطرح في كتابه: الفكر والتغير، الذي صدر عام ١٩٦٤، القضية الخلافية التي قرر فيها أن النظم الاجتماعية لا تعد شرعية إلا إذا أشبعت حاجة الناس إلى الوحدة وإلى القومية. كما قدم دراسة أنثروبولوجية ميدانية عن بربر شمال أفريقيا (نشرها في كتابه: أولياء منطقة الأطلس، الصادر عام ١٩٦٩) وعدداً من الدراسات النقدية للتحليل النفسي (نشرت في كتابه: حركة التحليل النفسي، الذي صدر عام ١٩٨٥) ودراسة للإيديولوجيا السوفيتية (نشرت في كتابه الدولة والمجتمع في الفكر السوفيتي، وصدر عام ١٩٨٨) كما أصدر عدداً من الدراسات والكتب موضوع القومية، والمجتمع الإسلامي، ومذهب النسبية، والتعددية، ومناهج العلوم الاجتماعية، ونشرت جميعها بعد ذلك على التوالي. واستطاع قبل أن توافيه المنية بوقت قصير أن يفرغ من كتاب عن القومية (ملاحظات في القومية، ١٩٩٥)، ودراسة عن فتجنشتين وماليونفسكي (في كتاب: اللغة والعزلة، ١٩٩٥) ولكنه لم يستطع أن يكمل دراسة كان قد بدأها عن ظروف التحول الناجم من الاشتراكية إلى الديمقراطية. (المراجع)

(*) ترجم له كتاب مهم إلى اللغة العربية، انظر: إيريك هويسباوم وتيرنس رينجر، اختراع التراث. دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع، ترجمة شيرين أبو النجا وآخرون، مراجعة وتقديم عاصم الدسوقي، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤. (المراجع)

القومية ليست سوى اختراع ابتدعته جماعات الصفوة الاجتماعية لم يفلح في تفسير ما خلقته الأمم من كيانات ذات طبيعة عرضية لا تخضع لنظام ثابت، وعمدت تلك الصفوات إلى ابتداع تقاليد مستحدثة أخذت تشكل ميراثاً ثقافياً سطحياً غير حقيقي.

يضاف إلى ذلك، أن العلماء منقسمون بشأن ما إذا كان من الممكن التمييز بين القومية "الجيدة" والقومية "الرديئة" (أي بين: "الوطنية" والنصرة القومية المفرطة" = الشوفينية). وأياً ما كان الأمر، فإن القومية لا تزال - رغم عدم الاتفاق على تحديد طبيعتها - تمثل إيديولوجيا فعالة في المجتمع المعاصر، كما أن رواجها وانتشارها لم يتراجع كثيراً في مواجهة التهديدات المحتملة من جانب العولمة، ووسائل الاتصال الجماهيري والمؤسسات متعددة الجنسيات. (CW) للمزيد انظر: Gellner (١٩٨٣).

Power

القوة

مصطلح له عدة معان مختلفة. وأكثر ما يستعمل مصطلح القوة في الدلالة على ممارسة الضغط أو السيطرة على الأفراد أو الجماعات الاجتماعية الخاصة على يد غيرهم من الأفراد أو الجماعات. وطبقاً لهذه الرؤية، تمثل القوة أمراً عرضياً خارجياً بالنسبة لتكوين كل من الأفراد والمجتمع. من ذلك الرأي المتصل بدور الدولة في كتابات المذهب الليبرالي الذي ينظر إلى القوة التشريعية - من حيث المبدأ - في ضوء القيود المفروضة على قدرة الدولة على استعمال القوة المبررة على سلوك الأفراد الخاضعين لسلطتها. وبناءً على مثل هذه الرؤية، لا يتحتم أن تكون ممارسة الدولة للقوة ذات طابع قسري بدهاء، ذلك لأن القوة التي تمارسها في نطاق وحدود الشرعية تعد ممارسة عادلة. ومن جانب آخر، ينظر أصحاب المذهب الليبرالي إلى أن أي ممارسة للقوة تجبر الأفراد على التصرف على نحو لم يكونوا ليختاروه بحرية على أنها ممارسة قسرية.

والقوة والسلطة ليسا مترادفين بالضرورة، لذلك، وعلى سبيل المثال، قام الفيلسوف السياسى جيمس هارينجتون Harrington فى القرن السابع عشر (وأحد أنصار النزعة الإنسانية المدنية) بالتمييز بين القوة الممارسة بالفعل (أى حيازة القوة كواقع فعلى) والسلطة الشرعية (أى السلطة بمقتضى الحق، أى السلطة المكتسبة على وجه مستحق). ويشير هارينجتون إلى أن المرء قد يتمتع بالقوة دون السلطة أو بالسلطة دون القوة: والقوة بدون سلطة تعبر عنده عن الملمح الجوهري الذى يميز الشكل الحديث للحكومة، والذى يتمثل فى حيازة أحد الملوك للقوة كواقع فعلى، حيث لا يكون مسئولاً أمام أولئك المواطنين الخاضعين لحكمه، وبذلك يحكمهم بدون أن يكون لديه السلطة المستندة من قبولهم ورضاهم.

وكثيراً ما تعد كتابات الفيلسوف الفرنسى ميشيل فوكو ذات تأثير كبير (وبصفة رئيسية بين أنصار بعض أشكال نزعة ما بعد البنيوية أو نزعة ما بعد الحداثة، وهما النزعتان اللتان ارتبطت فوكو بهما ارتباطاً شديداً فى وقت أو آخر) فى محاولتها إعادة تحديد المعنى المراد من مصطلح "القوة". فقد سعى فوكو - مقتفياً أثر نيتشه - إلى إعادة تعريف القوة بطريقة تختلف اختلافاً ظاهراً عن طريقة فهمها فى النظريات التقليدية. وهكذا، فإن القوة عند نيتشه (انظر بصفة خاصة كتابه بعنوان "إرادة القوة"، ١٩٦٨، فقرة رقم ١٠٦٧)، لا تعبر عن الفروق فى العلاقات القائمة بين الأفراد أو بين الجماعات بقدر ما أنها تتخلل الواقع فى كل أجزائه، ومن ثم تصبح جوهره وحقيقته. وبالمثل، لا يعتبر فوكو القوة موجودة بوصفها شيئاً يمارس على الأفراد أو الجماعات، بل بوصفها المكون الأساسى للعلاقات التى تنشأ بين الجماعات، ومن ثم بوصفها المكون الأساسى لهوية الفرد نفسه ولهوية الجماعة نفسها. ومن الأمور الهامة فى تحليل فوكو دعواه بأن القوة لا تقتصر على كونها المكون الأساسى للواقع الاجتماعى وللأشكال والصيغ الاجتماعية كالأثنية. كما يذهب إلى أن خطابات المعرفة تمثل - فى واقع الأمر - تعبيراً عن علاقات القوة وأنها تجسيدات للقوة (وهى نظرة ترجع إلى الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز، الذى كان يرى المعرفة بوصفها تعبيراً عن القوة.

كما ترجع هذه النظرة فعلاً إلى زمن أقدم من ذلك بكثير، كالزمن الذي عاش فيه أحد أعلام الإغريق القدماء وهو جيورجياس Georgias، حيث نوقشت هذه النظرة فى إحدى محاورات أفلاطون التى تحمل اسم هذا العَلم). وبناء على هذه النظرة، تصبح القوة شيئاً عاماً وجوهرياً بالنسبة للعلاقات الاجتماعية للدرجة التى يتعذر معها النظر إليها إلا بوصفها مفهوماً ميتافيزيقياً. (PS) للمزيد انظر: Mill (١٩٨٤) و Harrington (١٩٩٢) و Foucault (١٩٨٠) و Nietzsche (١٩٦٨ ب).

Forces of Production

قوى الإنتاج

فى الماركسية، يعنى مصطلح "قوى الإنتاج" القدرات الإنتاجية المتاحة فى مجتمع ما. وهكذا تشمل التكنولوجيا المادية (كآلات، والأوت، ومصادر الطاقة) والمهارات البدنية والعقلية، والقدرات التى يتمتع بها الناس فى هذا المجتمع. ويذهب ماركس (١٩٧١) إلى أن قوى الإنتاج تظل تتطور وفقاً لقدراتها الإنتاجية، عبر مراحل التاريخ. ويحدث التغير الاجتماعى من خلال الصراع المتنامى بين قوى الإنتاج المتطورة وبين نظام المجتمع الاقتصادى والسياسى والقانونى الذى يتصف - أساساً - بالجمود. (انظر مادة: علاقات الإنتاج). ولذلك فإن استخدام تكنولوجيا جديدة سوف يتطلب القضاء على النظام الاجتماعى القائم (انظر مادة: نمط الإنتاج). (AE) للمزيد انظر: Cutler et al (١٩٧٧). و Cohen (١٩٧٨) و Balibar (١٩٧٠).

Value

القيمة

يمكن تعريف "قيمة" شىء ما بأنها: نسبة أهمية أو استحقاق لهذا الشىء، ومن ثم يعنى هذا التعريف وضع هذا الشىء فى نطاق أحد أشكال التدرج الهرمى. ومن

المجالات الأساسية لموضوع القيمة ثلاثة مجالات ذات صلة بالنظرية الثقافية هى علم الجمال، والأخلاق، والاقتصاد.

وتتضمن القيمة الجمالية تقدير الأعمال والأنشطة الثقافية المختلفة. ويهتم علم الجمال التقليدي - جزئياً - بالمبادئ التى يرتكز عليها وصف أعمال فنية معينة بأنها أعمال ذات قيمة. ومع أن علم الجمال قد لا يكون مهتماً - فى حد ذاته - بتقييم أعمال فنية معينة (فالأنسب أن يكون هذا مهمة نقاد الفن)، فإن الاهتمام الذى يوليه للفن، وخاصة اهتمامه بالمنتجات الثقافية التى تستهلكها الطبقات المسيطرة فى المجتمع (خاصة فى المجتمع الأوروبى منذ القرن الثامن عشر) يفترض أن هذه المنتجات تعد أشياء وأنشطة قيمة وأن بها ما يعد قيمة جمالية.

وفى نهاية القرن الثامن عشر، احتل كتاب كانط بعنوان "نقد الحكم" (١٩٨٧) مكانة بارزة فيما يتصل باقتراح - وكذلك بالدفاع عن - التفرقة بين المتعة المستمدة من الجمال (ومنها المتعة المستمدة من الفن) والاستمتاع الحسى البحت بالأشياء النافعة غير الفنية (كالطعام مثلاً). ومع ذلك فلا تزال الفكرة الخاصة باستقلال القيمة الفنية وتميزها محل اعتراض متزايد. فمن ناحية يربط بعض المفكرين بين الفن والإيديولوجيا ربطاً سياسياً، فيفسرون ما يشيع لدى الطبقة المسيطرة من فن يتمتع بالقيمة الجمالية بالرجوع إلى الدور الذى يقوم به هذا الفن فى إضفاء الشرعية على القيم السياسية والخلقية للطبقة المسيطرة ونشرها وإذاعتها. ومن ناحية أخرى، قد يكون بالإمكان الربط بين القيمة الجمالية والقيمة الاقتصادية. فقد يذهب البعض إلى أن الهدف الأصلي لعلم الجمال لا يتمثل أساساً فى إضفاء قيمة جمالية وهمية على الموضوعات الفنية، إنما يتمثل فى إضفاء قيمة اقتصادية على ما يعد - لولا تلك النظرة الجمالية - شيئاً قليل الفائدة. لذلك يمكن أن تباع الأعمال ذات القيمة الجمالية بأثمان مرتفعة (بورديو ١٩٨٤).

ويمكن القول بأن تطور علم الاجتماع واكتسابه صفة العلم يتسم بالتركيز على الدراسة الإمبريقية للقيم، خاصة أفكار إميل دوركايم عن "الظواهر الأخلاقية" (١٩٨٢). حيث يرى أن سلامة المجتمع واستقراره يتوقفان على قيام الأفراد باستدماج القيم التي يجمع عليها المجتمع داخل ذواتهم (وهو المعنى الذي أوجزه دوركايم في مفهومه عن الوعي الجمعي)، وذلك خلال عملية التنشئة الاجتماعية. وكذلك كانت النزعة الوظيفية، وباعتبارها الاتجاه الفكرى الأمريكى الذى ساد مجال علم الاجتماع حتى ستينيات القرن العشرين، كانت تسلم بأن الإجماع على القيم الخلقية شرط مسبق للمجتمع المستقر. لكن هذا التصور الذى كانت تسلم به النزعة الوظيفية أخذ يواجه اعتراضات متزايدة من جانب علم اجتماع الانحراف، وهو الوضع الذى ترافق مع الاعتراف بوجود طائفة كبيرة من الثقافات الفرعية البديلة، ذات أنساق القيم - المتباينة تبايناً ملحوظاً - داخل المجتمع الواحد. وعلى نفس المنوال، أدت العودة الجديدة للماركسية كقوة لها شأنها فى مجال علم الاجتماع فى ستينيات القرن العشرين، إلى الاعتراف المتزايد بأن القيم التى يجمع عليها المجتمع هى نفسها ثمرة الممارسات السياسية، وفى مقدمتها الممارسات الإيديولوجية وتلك التى تملئها السلطة المهيمنة (انظر مادة: الهيمنة)، وهى الممارسات التى تتولد خلال سعى الجماعات المتصارعة إلى الدفاع عن أنساق قيمها المختلفة، وتأكيدا، وإلى التغلب على العقبات التى تتعرض لها. وقد ساعدت أعمال ميشيل فوكو (١٩٧١) عن العقاب (١٩٧٧) وعن السلوك الجنسى (١٩٨١) فى أن تعيد إلى علم الاجتماع - من جديد - آراء نيتشة فى الصراعات السياسية التى تتركز عليها أنساق القيم، والتى فى نطاقها يتم تلقين القيم وغرسها فى النفوس.

وترتكز قضية القيمة الاقتصادية على التفسيرات التى تشرح سبب ما ينسب للسلع من قيمة وثمان. وتتسم الماركسية بأنها تحتكم إلى نظرية قيمة العمل، والتى

تعتمد فيها القيمة التبادلية للسلعة على مقدار وقت العمل الذى استغرقه إنتاجها. وعلى النقيض من ذلك يفسر علم الاقتصاد التقليدى القيمة (أو الثمن) من خلال احتكاه إلى التفاعل القائم بين العرض والطلب فى السوق. (AE) للمزيد انظر: Hechter et al. (١٩٩٣) و Squires (١٩٩٣).

Use - Value

القيمة الاستعمالية

مفهوم القيمة الاستعمالية من المفاهيم التى يركز عليها علم الاقتصاد الماركسى. ويشير هذا المفهوم - عند ماركس - إلى ما فى شىء ما من منفعة، وهى المنفعة التى تكون من صميم الخواص الأساسية والطبيعية لهذا الشىء. فالخبز له قيمة استعمالية لأنه يشبع جوعنا. وهكذا تشير القيمة الاستعمالية إلى أمر ما يتصف به هذا الشىء على نحو متميز، تبعاً للغرض الخاص الذى يفيد هذا الشىء فى تحقيقه. ويضع ماركس القيمة الاستعمالية للسلع فى مقابل القيمة التبادلية بقصد إظهار الفروق بينهما. (AE) للمزيد انظر: Cunningham-Wood (١٩٨٨).

Exchange Value

القيمة التبادلية

القيمة التبادلية واحدة من الأفكار الرئيسية فى علم الاقتصاد الماركسى. ويميز ماركس بين شكلين من القيمة فى السلع. فالقيمة الاستعمالية تركز على إمكانية أن تقوم السلعة بإشباع حاجة أو رغبة إنسانية يمكن تعيينها. ومع هذا، فإن "قيمة" الشىء إنما تكمن فى كونه منتجاً من منتجات العمل الإنسانى. ووفقاً لتصوير ماركس عن نظرية قيمة العمل، فإن قيمة السلعة تعتمد على مقدار وقت العمل الذى أنفق فى إنتاجها. ويضع ماركس بعض الشروط لهذه الملحوظة البسيطة، وذلك بالتاكيد على أن

----- (ق) -----

وقت العمل الذى أنفق فعلاً فى إنتاج السلعة ليس هو المهم (فالمنتجات التى أنتجها عامل بطيء أو كسول أو غير ماهر لن تزيد فى قيمتها عن تلك التى أنتجها عامل سريع وذو كفاءة، لمجرد أن العامل البطيء استغرق وقتاً أطول فى إنتاجها. بل نجد ماركس يشير إلى "وقت العمل اللازم اجتماعياً"، ويعنى به الوقت المطلوب لإنتاج مقدار معين من سلعة نافعة، وذلك فى ظل ظروف الإنتاج العادية فى مجتمع معين، وباستعمال المستوى المعهود من المهارة والقوة المطلوبة للعمل السائد فى هذا المجتمع". (١٩٦٧: ١٢٩). وهذه القيمة هى التى تعد قيمة تبادلية، وذلك حينما يتم تبادل الأنواع المختلفة من السلع (أى: السلع ذات القيم الاستعمالية المختلفة). وعلى ذلك، لو أننا فى حاجة إلى ٥ ساعات عمل لإنتاج ١٠ ياردات من البياضات كالمقارش والأغطية، وفى حاجة إلى ٢٠ ساعة عمل لإنتاج معطف واحد، إذن تكون البياضات التى طولها ٤٠ ياردة مساوية (أى لها نفس القيمة التبادلية) التى لمعطف واحد. ويعبر عن القيمة التبادلية بسعر نقدي (على الرغم من أنها قد لا تتطابق تطابقاً تاماً مع هذا السعر). (AE) للمزيد انظر: Cunningham-wood (١٩٨٨).

قام عدد من مفكرات الحركة النسوية الفرنسيات - خاصة سيكسو Hélène Cixous وإيريجارى Luce Irigaray - بتطوير فكرة وممارسة نوع من "الكتابة النسوية"، وهو شكل من أشكال الكتابة والقراءة يقاوم الخضوع للثقافة الأبوية السائدة. ويزعم البعض - انطلاقاً من أفكار لاكان فى مجال علم التحليل النفسى وتطويراً لها - أن الثقافة الأبوية تؤثر الأخذ بأسلوب تدرجى فى التفكير، يقوم على مجموعة من التعارضات (كالتعارض بين الذكر/ والأنثى، والثقافة/ والطبيعة، والمعقول/ والمحسوس، والإيجابى/ والسلبى) مع تسيد الذكر على الأنثى. فالذكر هو الإيجابى وهو صاحب الرأى والنظر، وذلك بالمقارنة بالأنثى السلبية التى تنتظر رأى الآخرين. فلا يكون للأنوثة حضور إلا تبعاً لنظرة الذكر إليها، والأهم من ذلك، أنه بينما تمثل الأنثى ذلك "الأخر" بالنسبة للذكر، حسب تصور سيكسو، فإن الذكر لا يهتم بهذا الآخر إلا من أجل ما يعود عليه منه، بمعنى أن رغبة الذكر فى المرأة تمثل - فى نهاية الأمر - نوعاً من حب الرجل لنفسه (١٩٨٧). لذلك يتم استبعاد المرأة فى الثقافة الأبوية، حتى أنها تصبح كمّاً مهملاً حتى بالنسبة لنفسها. بل إنها تُفصل عن جسدها وعن رغباتها الخاصة. فالمرأة لا تستطيع - صراحة - أن تفهم نفسها باستعمال لغة مصممة للإفصاح عن الذكورة وتصوير أفكارها. وتحتمل الكتابة النسوية إلى الخبرة الجسدية السابقة على انفصال الوليد عن أمه، ومن ثم فإنها تحتكم إلى ما هو سابق على فرض القانون الأبوى عليها.

وتسعى سيكسو إلى استعادة الأنثى بكل جوانبها وتنوعاتها. فعلاقة الأمومة (أى علاقة الأم بالآخر) تساعد على هدم مفهوم الذكر عن الذاتية. فبينما تكون الذات الذكورية موحدة ومستقلة، توحى تجربة المرأة لولادة الطفل وتغذيته ورعايته، عند سيكسو، بتعطيل الأنا عند المرأة وتعطيل المواجهة الصادقة مع الآخر. فهذه العلاقة

التي بين المرأة ووليدها نوع من اقتصاد "الهبّة"، حيث تهب المرأة كل شئ، ولا تتوقع شيئاً في مقابل ذلك.

وثمة نوع آخر من العلاقات شبيه بهذه العلاقة، يتبدى في ثنائية الجنس (والتي بدورها تلقى الضوء على إنكار الرجل لما فيه من سمات أنثوية)، فثنائية الجنس - وهي الصفة التي يظن أنها من الأمور المقصورة على المرأة - تمنحها نوعاً من "النشوة" (بالفرنسية Jouissance، وبالإنجليزية Ecstasy) التي تتميز عما يشعر به الذكر من رغبة ولذة، لأنها تتطوى على تفاعل بين صاحبة هذه الصفة المتميزة وبين الآخر. ولا يمكن وصف هذه "النشوة" بلغة الذكر. وبالمثل: لا يمكن صياغة مفاهيم "الكتابة النسوية" بلغة الذكر، لأن الكتابة النسوية تحاول تيسير العودة إلى الوضع الذي تم قمعه بواسطة فرض هذه اللغة الذكورية الرمزية وما لها من قانون أبوي منحاز للذكور. وتعتبر سيكسو في كتاباتها عن هذا الموقف، وذلك باستعمالها للتورية والتلاعب بالألفاظ، وبهدم التعارضات الموروثة، كالتعارض بين الفكر/ والخيال، أو الفكر/ والسيرة الذاتية.

أما إيريجاري فقد استكشفت في كتاباتها إمكانية وجود نوع من الكتابة النسوية، من خلال قراءتها في التراث الفلسفي التي كشفت لها كل ما يقع تحت عوامل القمع والكبت أو ما يتم تجاهله في صمت (ومن ذلك الباب: الجسد، والعناصر الأصلية الأربعة^(*) وهي الماء، والتراب، النار، والهواء) (١٩٩١)، وكذلك من خلال استكشافها "لربّة الأنثى" (وهي ربّة التنوع والتدفق أو ربّة الوفرة والرخاء) التي لا تخضع لسيطرة الدين واللاهوت الأبوي، والتي "لم يأت أوانها بعد" (١٩٨٦: ٨). (AE).

(*) وهي عناصر الوجود في الفلسفة الإغريقية القديمة. ولعل في الجمع بين الجسد والعناصر الأصلية الأربعة للوجود في الفلسفة الإغريقية القديمة، إشارة إلى الأهمية الكبرى للجسد بالنسبة للوجود الإنساني، والتي تماثل أهمية هذه العناصر بالنسبة للوجود المادى الطبيعي. (المراجع)

Parole

الكلام

فى علم اللغة عند دى سوسير، يشير مصطلح "الكلام" إلى اللغة كما ينطق بها الناس فى الواقع أو إلى الشواهد الممكنة التى لا تحصى من الاستعمال اللغوى (كالجمل المكتوبة، والجمل المنطوقة، وقصائد الشعر، والتقارير). ويوضع الكلام كتنقيض للنظام الأساسى للغة - كموضوع للدراسة - أو اللغة نفسها. (AE)

Holism

(النظرية) الكلية

النظرية الشاملة المحيطة بأى موضوع، وتتناول قضايا: الحقيقة، والمعنى، والتفسير تناولاً كلياً فى إطار السياق العام فى كل حالة. ويميل إلى هذه النظرية بعض الفلاسفة - وخاصة كواين W.V.Quine - وكذلك كثير من أصحاب النظريات الثقافية والأدبية الذين يعملون فى مجال التراث التأويلى بصورة عامة، والذى يبدأ من شلايرماخر (١٧٧٢-١٨٢٩) وينتهى بهايديجر وجادامر. ووفقاً لهذه النظرية، يكون من المحال تعيين معانى النصوص، أو تفسير المعتقدات إلا ضمن سياق (أو إطار) أوسع من البيئة الخاصة بالعبارة المفردة أو القول المفرد وحده. وتختلف الآراء فيما يتصل بالمدى الدقيق لهذا الأفق التفسيرى وكيف نحدده، أو ما إذا كان يوجد - من حيث المبدأ - أى حدود للخلفية التى يلزم الإحاطة بها بالنسبة لأى معلومة معينة. وفى الغالب يميل الفلاسفة فى المعسكر الأنجلو-أمريكاني (التحليلي) إلى تبني نظرة برجماتية فى معالجة هذه القضية ولا يولون اهتماماً فائقاً بقضية تحديد هذا السياق الكلى للمعرفة المطروحة. هذا فى الوقت الذى يتبع فيه المفكرون الأوربيون هايديجر فى دفاعه عن الاتجاه التأويلي المتعمق، الذى يشغل نفسه - بصورة رئيسية - بهذه القضية بالذات.

وهكذا يرى هايدجر أن تاريخ "الميتافيزيقا الغربية" منذ أفلاطون حتى هوسرل هو فى جوهره تاريخ خطأ معين، ظهر عندما حاد التفكير بعيداً عن الحقيقة (Aletheia) باعتبارها كشفاً للواقع نظفر به من خلال اللغة، وسعى - بدلاً من ذلك - فى تحليل بناء الحقيقة ومضمونها من خلال نظريات مختلفة عن المعرفة والتصور^(*). ولهذا يرى هايدجر أنه لا يمكن إعادة الفلسفة إلى الطريق الذى يفضى بها إلى الوصول للحقيقة الأولية الجديرة بالتصديق، إلا بالتغلب على ذلك الميراث (الميتافيزيقى الغربى) المشنوم، وذلك بتعزيز روح التحرر الفكرى المتسم بقدرته على تفهم ما يعرض عليه من أفكار تتصل باللغة بعد تأويلها وفقاً للنظرية الكلية. وقد اختلف شراح هايدجر اختلافاً كبيراً فى مدى رغبتهم فى متابعتة على امتداد هذا الطريق. أما بالنسبة لأقرب مرديه إليه، ومنهم جادامر، فقد كانوا يرون أن هذا الطريق هو الكفيل بتحقيق فهم أعمق وأكمل لما يسمى "بدائرة التأويل"، وهى التى تعنى الحوار المستمر بين الماضى والحاضر، والذى تقوم - من خلاله - المعانى والقيم المستمدة من التراث بالتحكم فى التفسير، أو التحكم فيما لهذا التفسير من "أفق" محدد سلفاً. ولهذا السبب وجّهت تهمة النزعة المحافظة اللانقدية إلى جادامر، من قبل يورجن هابرماس وغيره من النقاد المعارضين لجادامر.

ولهذه التهمة صلة بموضوعنا هنا، ذلك لأن ما حدث فى فلسفة اللغة ونظرية التفسير من تحول "فكرى" قائم على تصورات النزعة الكلية، يمكن اعتباره دعماً لمختلف أشكال النسبية الثقافية فيما تذهب إليه من تصورات. والسبب فى ذلك أنه إذا كانت قيمة التعبيرات المختلفة (فى صورة كلام منطوق أو نص مكتوب) تتوقف على صدقها، فإن هذه الرابطة بين قيمة التعبيرات وصدقها تعد دالة من نوال دور هذه

(*) أو التمثل الذمنى أى مثل الصور الذمنية فى الوعى. (المترجم)

التعبيرات فى إطار التعبيرات التى يُعتقد فى صدقها فى أى وقت معين. وإذا لم يكن لهذه التعبيرات معنى مفهوم إلا إذا تم تأويلها فى ضوء الإطار العام للمعتقدات التى يؤمن بها الناس فى مجتمع ما، فإنه يترتب على ذلك كله أنه لا يمكن نقد التعبيرات والمعتقدات إلا فى ضوء الأسس التقييمية التى أرساها الإجماع الثقافى لمجتمع ما. وهذه هى قراءة أفكار هايدجر كما يراها عدد من الفلاسفة الأنجلو-أمريكيين فى سياق سعيهم للوصول إلى أفكار بديلة من خارج الاتجاه السائد فى تراث المدرسة التحليلية. وعلى ذلك يمكننا - كما يقول ريتشارد رورتى R. Rorty - أن نطرح كل ذلك الكلام الخطير الذى يتحدث عن التعمق الوجودى فى "الميتافيزيقا الغربية"، وعن الحقيقة باعتبارها "كياناً" Dasein حقيقياً كاشفاً ومظهراً للواقع... إلخ، وذلك بتبنى وجهة نظر هايدجر البراجماتية عن اللغة بوصفها طريقة من طرق الحياة العملية لا تتطلب منا أى أسس أخرى لتبريرها، أو لتبرير دعمها دعماً إبستمولوجياً (معرفياً). وتتجه وجهة النظر البراجماتية هذه نحو تفسير ذلك التقارب الذى ظهر حديثاً بين نوع معين من أنواع الفلسفة المابعد التحليلية (وهو تقارب يبدو مستبعداً فى ظاهر الأمر) وبين أسلوب معين - قد يبدو انتقائياً - من أساليب انتحال الأفكار الرئيسية لهايدجر. والأمر الذى يربط بين هذين الاتجاهين - رغم وجود قدر كبير من الاختلافات بينهما فى المنهج والطريقة - هو اعتقادهما بأنه لا يمكن تفسير معنى أى تعبير أو نص عن طريق تحليله تحليلاً لغوياً دلالياً على نحو ما تفعل فلسفة اللغة التى وصلت إلينا من فريجه Frege وراسل.

وتعد المقالة التى كتبها كواين بعنوان "مسلمتان من المسلمات الإمبريقية" بياناً نموذجياً حول هذا الموضوع، كما أنها أحدثت تأثيراً بالغاً على النقاش الدائر حديثاً فى المدرسة الأنجلو-أمريكية. ومن الممكن تلخيص حجج هذا الرأى بإيجاز على النحو التالى: كثيراً ما كان الفلاسفة يفترضون أنه يوجد فارق واضح قاطع بين العبارات

التحليلية (مثل قولك: "كل العُرَاب غير متزوجين") والتي تركز في صدقها فقط على تعريف موضوعها (وهو هنا كلمة "العُرَاب")، ومن ثم تكون بديهية عقلياً، وبين العبارات "التركيبية" (مثل قولك: "الماء مادة ذات تركيب جزيئي من $2\text{H} + \text{O}$ ") والتي تتضمن إحدى مفردات المعرفة المكتسبة. ومن ثم لا يركز صدقها على كونه أمراً بديهيّاً واضحاً، ولا على أن محمولها تكرر لموضوعها (كما كان الحال في عبارة "كل العُرَاب غير متزوجين"). وهذا هو الموقف الذي تبناه كانط في كتابه "نقد العقل الخالص"، الذي أكد فيه وجود حقائق تركيبية بديهية، وهى الحقائق التى منها مبدأ العلية أو السببية والتى يتحتم علينا دائماً افتراضها مسبقاً فى كل حكم نصدره من الأحكام الإمبيريقية، ومن ثم تزودنا بالأساس الفكرى (أو بشرط الإمكان) لكل الخبرات والمعارف.

وقد قام الفيلسوف الإمبيريقى هيوم - كذلك - بالتمييز بين "حقائق العقل" Truths of Reason و"مسائل الواقع" Matters of Fact، وهو الموقف الذى تبناه - بعد ذلك - وطوره عدد كبير من مفكرى القرن العشرين، مثل برتراند راسل، ورو돌ف كارناب R. Carnap والوضعيين المناطقة. وكانت نقطة التلاقى بين هذين الاتجاهين - وعلى الرغم من كل ما بينهما من اختلافات عميقة فى الأساس الفلسفى لكل منهما - كانت تنهض على وجهة النظر التى ترى أن العبارات المختلفة (أى الأحكام العقلية أو الأقوال أى الجمل الخبرية التى تحتمل الصدق والكذب) هى الوحدات التى يتكون منها الخطاب المفهوم، كما أن هذه الوحدات يمكن تحليلها بقصد الكشف عن بنائها الأساسى أو تركيبها اللغوى - الداللى.

وكما هو الحال مع مقالة كواين المشار إليها، كان الحال مع المقالة التى كتبها راسل بعنوان "نظرية الأوصاف" Theory of Descriptions التى احتفلت بها الأوساط الفلسفية التحليلية، والتى قصد من كتابتها أن يزيل بعض أو جل الغموض المتصل بموضوع الإشارة (أو الإسناد) وموضوع المدى (أو النطاق) فى اللغة العادية

(الطبيعية)، وذلك عن طريق توفير شكل من أشكال الصياغة الجديدة المنطقية الواضحة فى ضوء عدد من المحددات الكمية^(*)، والمتغيرات، والثوابت المنطقية. وفى هذه الجزئية، كانت مقالة راسل تسير فى خط موازٍ لخط نظرية فريجه عن المعنى والإشارة (أو الإسناد)، التى تسعى للتمييز بين التعبيرات الإشارية الحقيقية والأسماء الأخرى (كالأسماء الخيالية أو الأسطورية) - مثل "بيجاسوس"^(**)، أو "أوديسوس"^(***)، التى يتعذر انطباقها على أى موضوع حقيقى، أو أى كائن له وجود تاريخى.

فهذه أمثلة للنموذج النظرى للفلسفة التحليلية من حيث إنها تفترض أو تسلم بالمعطيات الآتية:

(١) تكتسب العبارة معناها مما فيها من شروط الصدق .

(٢) وأن هذه الشروط يمكن تعريفها أو تحديدها فى ضوء الأجزاء المختلفة التى تتكون منها العبارة. وكانت مقالة كواين بعنوان "مسلمتان من المسلمات الإمبريقية" بمثابة هجوم على هذا البرنامج التحليلى الشامل، خاصة بصيغته التى عُرِضَ بها فى كتاب كارناب Carnap بعنوان "التركيب المنطقى للعالم" وفى رأى كواين^(****) أن هذا البرنامج قد صادف عدداً من المشكلات التى تستعصى على الحل. وكانت أشد هذه المشكلات اتصالاً بجوهر هذا البرنامج، مشكلة إخفاقه فى تقديم التبرير الكافى لتسويغ ما يسلم به من تفرقة بين العبارات ذات الطابع التحليلى والعبارات ذات الطابع التركيبى، أو التفرقة بين حقائق العقل المنطقية ومسائل الواقع الإمبريقية. ذلك لأنه

(*) أى الكلمات التى تصنف كلمة معينة باستعمال تعبيرات كمية. (المترجم)

(**) Pegasus : اسم الحصان المجنح فى بعض الأساطير الإغريقية. (المترجم)

(***) Odysseus : بطل ملحمة الأوديسا الإغريقية. (المترجم)

(****) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: المعنى. (المراجع)

يمكننا دائماً إثبات أن أى تعريف للمصطلح: "تحليلي" يلزمه الاعتماد على مصطلحات أخرى - مثل: المصطلح: "مرادف" Synonymous، أو "مساوي منطقياً" Logically Equivalent - وهى المصطلحات التى تعتمد على مفهوم التحليلية، وبذلك يقع هذا البرنامج فريسة لاتهامه بأنه يقوم على أساس حُجة دورية^(*). وفى هذه الحالة لا يمكننا قبول وجود خط ثابت وقطعى يفصل بين المنطق بوصفه الأساس البديهي للاستنتاج السليم كله، وبين المعارف الإمبريقية المختلفة التى تكون عرضة - على الدوام - للاعتراض عليها أو مراجعتها تحت وطأة ما يظهر من أدلة وبراهين قوية يتعذر تنفيذها. معنى ذلك أنه من المرجح دائماً أن نضطر اضطراباً إلى مراجعة "أحد قوانين الفكر" المنطقية المسلم بها - مثل قانون ثنائية التكافؤ Bivalence (فى الكيمياء أو البيولوجيا) أو قانون الوسط المستبعد Excluded Middle (فى المنطق) - وذلك إذا تصادم هذا القانون مع أفضل النظريات الحديثة فى العلم الطبيعى، وعليه قد يتعين - وفق المثال الذى استخدمه كواين وبناء على أحد تفسيرات ميكانيكا الكم - يتعين تعليق العمل "بقانون" الوسط المستبعد وذلك كى يتسنى استيعاب بعض الظواهر المختلفة التى لم تكن واردة قبلاً، مثل ظاهرة التطابق الكمي أو ظاهرة ثنائية الموجة/ فى مقابل الجسيم^(**).

وفى هذا السياق بالذات يطرح كواين عبارته المجازية المشهورة التى يصف بها المعرفة البشرية فى أى عصر باعتبارها "نسيجاً من صنع الإنسان" يمتد فى كل اتجاه ابتداءً من منطقة القلب - والخاصة بالقواعد المنطقية الأساسية المفترضة - وانتهاءً

(*) Circular Argument : الحُجة الدورية هى الحُجة التى تعتمد على التسليم بصحة مقدمتها لإثبات صحة نتيجتها، مثل قولهم "بما أن فلاناً صادق، إذن فإن أقواله صادقة". (المترجم)

(**) Wave Particle Dualism : وهى الظاهرة المتعلقة بخواص الضوء وأنه يتصرف كما لو كان موجة Wave، وكذلك يتصرف كما لو كان جسيماً Particle . (المترجم)

بالسطح الخارجى لهذا النسيج، حيث ترتبط العبارات المستمدة من الملاحظة بالبيانات المستقاة من الخبرة الإمبريقية. ويرى كواين - فى هذا الصدد - أنه لا يوجد شيء محصن من المراجعة والتحقق، طالما أن بمقدورنا دائماً أن نصون بعض المعتقدات التى تتعلق بها قلوبنا أو نحافظ على نظرية ما من النظريات النافعة عملياً، وذلك بالقيام بإجراء بعض التعديلات فى أى موقع داخل هذا النسيج. ومن هنا جاءت دعوى كواين الخاصة باتصاف عملية التفسير كلها بصفة الكلية - سواء أكان هذا التفسير يتم فى مجال العلوم الطبيعية أم فى مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية - وكذلك دعواه بافتقارنا لأى معيار مطلق (لا ارتباط له بأى نظام أو هو فوق كل نظام) يمكننا أن نميز بواسطته بين العناصر الواقعية والعناصر أو المكونات النظرية داخل المخطط العام الجامع لسائر معتقداتنا.

وتفسير ذلك أن الأفكار النظرية تتعرض للتعديل والمراجعة دوماً فى ضوء ما لدينا من البراهين المتاحة، بينما تكون العبارات القائمة على الملاحظة "مشحونة بالأفكار النظرية" دائماً، بمعنى أنها تتضمن طائفة واسعة من المواقف الفكرية الثابتة المتعلقة بقضية الوجود، ابتداءً من الأشياء والموضوعات المتضمنة فيما نتداوله كل يوم من لغة حسية قائمة على الآراء المرسله، وانتهاءً بالكواركات(*)، والجليونات(**)، والميونات(***) وغيرها من الموضوعات التى تتناولها الدراسات المتخصصة. وطبقاً لما قاله كواين، فإنه

(*) الكواركات Quarks : هى العناصر التى تتركب منها البروتونات والنيوترونات والجسيمات دون الذرية. (المترجم)

(**) الجليونات Gluons : هى كميات أو مقادير من الطاقة، أو جسيمات لا كتلة لها، يفترض أنها تحمل القوة أو تنقل القوة اللازمة لربط الكواركات معاً داخل الجسيمات دون الذرية. (المترجم)

(***) الميونات Muons : هى الجسيمات ذات الكتلة التى تقع بين كتلة الإلكترون وكتلة البروتون، وتظهر وتنفك فى مدة متناهية القصر (أقل من واحد على عشرين مليون جزء من الثانية). (المترجم)

لا يوجد مبرر قوى - بعيداً عن اعتبارات المنفعة العملية - يسوغ لنا افتراض أن بعض هذه الأشياء أو الموضوعات تتمتع بوضع أونطولوجى متميز (أى أن لها فعلاً وجوداً مستقلاً تماماً عن الإطار الحالى لمعتقداتنا) بينما بعض الموضوعات الأخرى تعتمد بالضرورة على الأفكار النظرية، أو أنها تعدّ "موجودة" فقط استناداً إلى دورها فى الخطاب العلمى لميدان الفيزياء النظرية المتقدمة. لذلك يتعين إسقاط مثل هذه التميزات (بين الموضوعات وفقاً للاعتبارات الفعلية أو النظرية) إذا أخذنا بوجهة نظره الخاصة بالنسبية الأونطولوجية ويكون "جميع" أحكامنا الواقعية تتوقف بدرجة أو بأخرى على هذه الطريقة أو تلك من الطرق التى نستعملها فى تعديل هذا النسيج الاعتقادى أو إعادة صياغته.

والواقع أن كواين يرغب فى تصعيد هذه الدعوى إلى حد إنكار وجود أى فارق جوهري بين "الموضوعات" الفيزيقية الماثية (مثل المنازل المبنية بالقرميد فى شارع: إلم ستريت Elm Street) والجسيمات دون الذرية، والقوى، والأعداد، والفئات والتصنيفات الرياضية، أو القنطور^(هـ) أو الآلهة التى ذكرها الشاعر الإغريقى القديم هوميروس. فكل هذه الكيانات "تدخل أذهاننا باعتبارها أشياء أو موضوعات ثقافية فقط، حتى وإن تكن أسطورة الأشياء الفيزيقية - وفقاً لما يسلم به كواين عن طيب خاطر - تعد أرقى من الناحية المعرفية (الإبستمولوجية) من أغلب الأساطير الأخرى، وذلك من حيث كون أسطورة الأشياء الفيزيقية قد ثبت أنها أكثر فعالية من غيرها... بوصفها أداة للتشكيل نظام فكرى عملى ومرن داخل ذلك التدفق المتواصل للخبرات". وعلى ذلك، فإن أى اختيار بينهما يؤدى دائماً إلى إحداث "ميل براجماتى فينا بصورة غامضة" (بيننا). نقوم بتعديل واحد أو أكثر من الخيوط داخل هذا النسيج)، بجانب ما يحدث هذا

(هـ) Centaurs : حيوان خرافى نصفه رجل ونصفه فرس فى الأساطير الإغريقية. (المترجم)

الاختيار فينا من نزعة للحكم والتقدير قائمة على المعلومات الإمبريقية تجعلنا نقدر "مدى تسهيل هذه الموضوعات الثقافية عملية معالجتنا لخبراتنا الحسية". فقد كان كواين يميل إلى مواكبة أفضل نظريات العلم الطبيعي السائدة، وإلى الإقرار - فقط - بذلك النطاق من الموضوعات التي تبدأ بالمنازل المبنية بالقرميد وتنتهى بالقوى والجسيمات المتحقق من وجودها، وبكل ما يلزم للوصول إلى كيانات أكثر تجريداً كالأعداد، والأصناف، إلى آخره - وذلك من أجل التوفيق بين النظريات من ناحية، وبين أفضل المعلومات المستمدة من الرصد والملاحظة العلمية من ناحية أخرى. وهكذا أقول - بصفتي غير متخصص في علم الفيزياء - إننى أؤمن إيماناً مؤكداً بالأشياء الفيزيقية (أى المادية) وليس بما ذكره هوميروس فى أساطيره من آلهة! وأعتبر من الخطأ العلمى الإيمان بغير ذلك. ولكننا نلاحظ أنه "من حيث الأساس الإستيمولوجى (المعرفى) تختلف الأشياء الفيزيقية عن الآلهة الأسطورية فى الدرجة وليس فى النوع"، وذلك لأن كلا منهما - ومعهما كافة الموضوعات العلمية المتخصصة - يتم إدراجه داخل مختلف المخططات الفكرية الشاملة إما بوصفه موضوعاً ذا منفعة براجماتية، وإما بوصفه اعتقاداً نحن مهينون سلفاً للإيمان به.

وليس من العسير فهم السبب الذى جعل أفكار كواين تعزف على الوتر الذى يلقي تجاوباً ليس فقط لدى فلاسفة مدرسة "ما بعد التحليلية" مثل رورتى، وإنما كذلك لدى غيرهم من المفكرين المنتسبين إلى طائفة من فروع المعرفة مثل الدراسات الثقافية، وعلم الاجتماع المعرفى، والإثنوجرافيا، والنقد الأدبى، والعلوم الإنسانية بصورة عامة. لذلك كثيراً ما يلجأ بعض هؤلاء المفكرين فى دفاعهم عن نظرية النزعة النسبية الثقافية (أو النزعة الاجتماعية - التأويلية)، كثيراً ما يلجأون إلى القول بأن الحقيقة Truth والواقع Reality هما فقط ما نتصوره عنهما وفقاً لمجموعة مترابطة من الأعراف اللغوية أو المنطقية أو الاجتماعية.

وهكذا نجد لكواين حضوراً ملحوظاً فى طائفة من الكتابات التى يستبعد ظهوره فيها، أو الكتابات المرتبطة بمفكرين لهم آراء يتعذر عليه أن يجدها متقاربة مع آرائه، وذلك إذا أخذنا فى الاعتبار موقفه الفكرى الذى يتسم بالثقة الراسخة بواحد من الاتجاهات الفكرية من القضايا المعرفية، وهو الاتجاه المادى *Physicalist* (إن لم يكن الاتجاه الواقعى). ومن بين هؤلاء المفكرين: فلاسفة العلم الآخذين بأفكار "كون" والذين لهم نظرية عن التغير فى النموذج النظرى العلمى قائمة على أساس مفاهيم النزعة الكلية؛ وعلماء أركيولوجيا المعرفة (أو قل: جينيولوجيا (أصل) المعرفة) من الآخذين بأفكار فوكو، الذين يتوسعون فى تطبيق أفكار كواين بتوجه نسبى - شكى - وأصحاب النظريات الاجتماعية الآخذين بأفكار فتجنشتاين الذين يعتبرون جميع دعاوى الصحة أموراً نسبية (أو قل: "داخلية") فى لعبة لغوية معينة أو شكل ما من "أشكال الحياة الثقافية"؛ ومنهم أنصار أحد اتجاهات التأويل المتعمق الذين يرحبون بأفكار كواين باعتبارها علامة على انتهاء عهد ذلك التصور الاختزالى التحليلى الضيق فى معالجة المعنى، والمعرفة، والحقيقة.

ولا يتبقى سوى حالة واحدة فقط - هى نظرية "كون" فى الثورات العلمية - التى يمكن وصفها بأنها مستمدة مباشرة من الأفكار الفلسفية لكواين وأنها تمثل تجسيداً فكرياً متماسكاً للمضامين البعيدة لهذه الأفكار فى مجال فلسفة العلوم وتاريخ العلم. بيد أنه توجد - أيضاً - علاقة مقبولة ظاهراً بين رأى كواين الخاص بدعم اتجاه تفسير العبارات والنصوص بالاعتماد كلية على السياق العام الشامل المحيط بها (أى اتجاه يعتمد على أفكار النزعة الكلية فى تفسير المعنى) وبين فكرة فوكو التى تقول إن "الحقيقة" لا تعدو أن تكون محصلة للأوضاع المتبدلة باستمرار عبر التاريخ، والتى تؤثر فى "نظام الأشياء" الذى يتولد من تنقلها من حال إلى حال، ويتحقق عن طريق الاتفاق الاجتماعى عليه.

وقد تطورت نظرية "كلية - المعنى" نتيجة لرد فعل قوى مضاد للنظريات الأخذة بالاتجاه المنطقي الدلالي، التي تتناول العبارة أو القضية (أى القول الذى يحتمل الكذب والصدق فى ذاته) بمعزل عن السياقات المحيطة بها، وترى أن هذه العبارة أو القضية هى موضوعها الأساسى الذى ينبغى عليها تحليله. وقد شكلت نظرية كلية المعنى قطيعة حاسمة - بصورة خاصة - مع فلسفة الذرية المنطقية التى كان راسل يؤيدها (وإن لم يستمر ذلك التأييد إلا قليلاً)، وكانت تطبق بصورة مختلفة نوعاً ما - وينزعة اختزالية أقل صراحة - على يد أصحاب النزعة الإمبريقية المنطقية مثل كارناب، وتارسكى. وهكذا يكون من اللغو - كما يقول كواين - "... الذى يقوم عليه أغلب أشكال اللغو، أن نتكلم عن جزء لغوى وجزء فعلى من أجزاء الحقيقة الموجودة فى أى عبارة مفردة". فهذا هو الخطأ الذى وقعت فيه النزعة الإمبريقية المنطقية، وهو - كذلك - الخطأ الذى وقع فيه كثير من الفلاسفة - ابتداء من كانط وهيوم حتى وقتنا الحاضر - الذين فكروا فى التفرقة بين الأحكام التحليلية والأحكام التركيبية، أو بين "حقائق العقل" و"مسائل الواقع". ويواصل كواين كلامه فيقول: "يعتمد العلم - إذا نظرنا إليه فى مجمله - اعتماداً مزدوجاً على كل من اللغة والتجربة، إلا أن هذه الازدواجية لا يسهل تقصى أثرها وملاحظتها بصورة واضحة فى التعبيرات العلمية إذا عولجت تعبيراً تعبيراً". وهذا هو الوضع الذى ينبغى علينا فيه أن نكف عن السعى العقيم لصياغة نظرية للمعرفة (أو فلسفة للعلم) تقوم على التسليم بذلك الاعتقاد العتيق الطراز للذرية المنطقية، والذى يؤمن بأن بالإمكان إثبات صحة أى عبارة - أو إثبات زيفها - وذلك عن طريق طرح هذا أو ذاك من البراهين الإمبريقية. بينما الأقرب للواقع - وكما يقول كواين - "إن أى عبارة يمكن الاعتقاد فى صحتها: أيًا كانت هذه العبارة، وذلك إذا قمنا بإجراء التعديلات الكافية القوية فى أى موقع آخر من هذا النظام". ويستطرد قائلاً: "إنه حتى لو كانت هذه العبارة قريبة جداً من الهامش الخارجى لنسيج المعرفة (القائمة على الرصد والملاحظة) فإن بالإمكان الاعتقاد بصحتها فى مواجهة

الخبرة الثابتة والمؤكدة، وذلك عن طريق ادعاء الإصابة بالهلوسة أو عن طريق القيام بتعديل بعض العبارات من النوع المسمى بالقوانين المنطقية^(*).

إن هذا الجانب من جوانب تفكير كواين - وهو الجانب المتمثل في نظريته عن المعرفة والحقيقة، والقائمة على النظرة الكلية إلى السياق وعلى نزعة النسبية الثقافية (المختلف عليها) - هذا الجانب من جوانب تفكيره هو الذي فتح الطريق أمام ذلك التقارب الحالي بين بعض المذاهب الفكرية "ما بعد التحليلية" من ناحية، والمذاهب الفكرية الأوروبية من ناحية أخرى. ومع ذلك، يعد هذا التقارب نوعاً من التحالف الذي يغلب عليه التوتر بشكل واضح^(*)، كما أن هذا التقارب لا يقيم وزناً لاعتراضات كواين المتكررة على الإيمان بالعلم كأفضل المصادر وأكثرها عقلانية في إرشادنا وتوجيهنا في مجال القضايا والمسائل الإستمولوجية. ومع ذلك فإن مقالة كواين المعنونة "مسلمتان من المسلمات الإمبريكية" تتيح لنا أن نقرأها قراءة ذات نزعة شكية نسبية تماثل نزعتها نفسها التي تتبدى من خلال التزامها بالمدخل "الكلّي" في فهم المعنى ومن خلال ما يترتب على ذلك من مذهبها في النسبية الأنطولوجية الشاملة. وعلى أية حال، يتعين على أصحاب النظريات الثقافية التنبه إلى وجود آراء قوية تعارض هذا الاتجاه الكلّي (انظر مثلاً آراء فودور Fodor وليبور Lepore، ١٩٩١) وتؤيد واحداً من التصورات الفكرية المبينة على الحقائق في مجال تفسير المعنى والمحتوى الاعتقادي.

وقد ساهم بالقدر الأكبر في تطوير هذه الآراء فلاسفة المعسكر الأنجلوأمريكي الذين يسعون لتفادي ما يعتبرونه طريقاً يبدأ من النظريات الكلية في التفسير وينتهي بأنماط الفكر الآخذة بالنزعة النسبية الثقافية أو أنماط الفكر السوسولوجية

(*) بسبب الإرث القديم من التعارض والاختلاف بين الفلاسفة التحليليين في بريطانيا وأمريكا من ناحية، وفلاسفة القارة الأوروبية من ناحية أخرى. (المترجم)

المتطرفة(*)). وقد طرحت هذه القضية بقوة وحدة عندما أنكر أصحاب النظريات الاجتماعية من أنصار فتنجشتاين - ومنهم بيتر وينش P. Winch - إمكان قيامنا بنقد المعتقدات، أو الألعاب اللغوية أو أشكال الحياة الثقافية باستثناء ما يخصصنا من هذه الأمور، إلا إذا سلمنا مسبقاً بأن لنا موقفاً (عقلياً أو عاطفياً) نتخذه خارج هذه الأعراف الاجتماعية المطروحة ومن موقع يعلوها، وهو الأمر الذي يجعلنا نخفق في فهمها وفقاً لما لها من شروط داخلية خاصة بها وتحمل في ذاتها الحكم بسلامتها وصحتها. وفي هذه الحالة فإننا - كما يشير إلى ذلك نقاد هذا المذهب - لا نستطيع أبداً أن يكون لنا الحق في نقد أي ممارسة ثقافية ابتداءً من إحراق السحرة في أوروبا العصور الوسطى وانتهاءً بختان الإناث، أو التمييز العرقي، أو هذا المثال الجيد الذي ذكرته ماري ميدجلى Mary Midgeley عن العادة الاجتماعية التي كانت تمارسها طبقة الساموراي(**) حين كان يقوم الواحد من هؤلاء المحاربين بقطع رأس أول شخص غريب يقابله وذلك لكي يختبر سيفه الجديد. والسبب في استحالة هذا النقد أن هذه الأعراف تمثل جزءاً من نسج يجمعها مع طائفة واسعة من غيرها من العادات الاجتماعية والمعتقدات التي لا صلة لنا بها - نحن أبناء ثقافة أواخر القرن العشرين العلمانية - سوى أنه تصادف أن وجدناها، ولكننا لم نشارك فيها.

وهكذا نجد أن وراء هذه الخلافات عدداً من القضايا الهامة، مثل قضية ما إذا كان بالإمكان نقد مجموعة معينة من المعتقدات على أساس واقعي، أو منطقي، أو

(*) ينظر فلاسفة المعسكر الأنجلو أمريكي (المنطقيين التحليليين) إلى أنماط الفكر السوسيولوجية باعتبارها أنماط فكر متطرفة، وذلك لأنهم يقيمون فلسفتهم على الاعتبارات المتصلة بالعقل الخالص للفرد، ويقدمونها على الاعتبارات المتصلة بالمجتمع، بينما تقيم أنماط الفكر السوسيولوجية فلسفتها على العوامل الاجتماعية الحاكمة على سائر الأفراد، وتقدمها على الاعتبارات الفردية، فهذان الاتجاهان يمثل كل منهما وجهة نظر متطرفة عند الآخر. (المراجع)

(**) وهي طبقة المحاربين الأرستقراطية في اليابان قديماً (المترجم)

أخلاقى، أو غير ذلك من الأسس من غير أن ندخل فى اعتبارنا الخلفية الشاملة المحيطة بهذه المعتقدات والمكونة من المعانى والقيم المرتبطة بها. ويحدث مثل ذلك الوضع فى مجال فلسفة العلوم، فمن العسير دائماً فهم كيف يمكن للاكتشافات أو للتقدم العلمى أن يحدث إذا كان يوجد على الدوام - فعلاً - ما يذهب إليه كواين من إمكانية الاستعانة بفرضية علمية مساعدة بديلة من أجل الحفاظ على المظهر الخارجى للنسيج الكلى الشامل للاعتقاد "العلمى" أو من أجل إعادة توزيع الشواهد والقيم الحقيقية على امتداد هذا النسيج، وبالشكل الذى يتحقق معه وجود تبادل عملى فعال بين المنطق، والنظرية، والملاحظة الإمبريقية. ويلاحظ كواين "أنه تبرز فى مثل هذه الحالات النزعة المحافظة، جنباً إلى جنب مطلب البحث عن البساطة"^(*). وقد تبدو بعض العبارات - خاصة تلك شديدة القرب من هامش نسيج المعرفة والاعتقاد "وثيقة الصلة" - بصورة خاصة - ببعض الخبرات، أى تلك التى تدعمها الشواهد بقوة، وتكون لهذا السبب أشد مقاومة لأى اعتراض عليها. ومع ذلك - وكما يقول كواين - "أنا لا أرى فى "متانة الصلة" هذه (بين بعض العبارات وبعض الخبرات) مجرد صلة واهية تكشف عما فى تفكيرنا من ميل نسبى، عملياً، إلى اختيارنا عبارة بعينها وتفضيلنا لها على غيرها، وذلك عند الشروع فى مراجعة معارفنا فى ضوء ما نكتسبه من الخبرة الراسخة".

وكما رأينا من هذا العرض، فإن هذه النظرية الخاصة بالمراجعة الشاملة تستوعب كافة المجالات ابتداءً من "قوانين الفكر" المنطقية وانتهاءً بالعبارات ذات الصلة

(*) والسبب فى أن النزعة المحافظة والحرص على البساطة لدى العلماء يكون لهما أهمية ملحوظة فى هذا الصدد، أنهما يكفلان للعلماء الإبقاء على ما توافر لهم من منظومة ضخمة من المعارف العلمية، من غير حاجة إلى بذل جهود لإجراء تغييرات فيها، كما أنهما يكفلان استقرار صورة هذه المنظومة فى نظر المجتمع وحمايتها من التعرض للتشكيك فى بعض معطياتها أو الاعتراض عليها. (المراجع)

"بالأشياء أو الموضوعات" المادية كالمنازل المبنية بالقرميد فى شارع إلم ستريت. وهكذا يتضح وجود إحساس - أيًا كانت عبارات كواين البالغة الحرص والدقة فى هذا الموضوع - بمقتضاه تنسجم فكرة كواين عن "كلية المعنى" انسجاماً كافياً وعلى نحو سهل ميسور مع غيرها من الأفكار ذات النزعة الشككية النسبية، كذلك التى يدعو لها أصحاب نزعة ما بعد البنيوية، وأصحاب نزعة ما بعد الحداثة، وأتباع فوكو، وعلماء الاجتماع المعرفى ذوو النزعة المتطرفة^(*).

وكما ذكرت آنفًا، فإن مقاومة هذا الخط الفكرى الكلى صدرت فى أغلبها من الفلاسفة من أتباع التراث التحليلى الأنجلو أمريكى. ومع ذلك، يوجد بجانب هؤلاء المفكرين التحليليين منظرون أوروبيون - خاصة بول ريكور P. Ricoeur - ممن اعتمدوا على مختلف أنواع النظريات التحليلية وغيرها من النظريات (كذلك الأخذة بأفكار هابرماس) التى تعالج قضية المعنى والحقيقة، مستهدفين بذلك توجيه النقد إلى جوانب معينة من التفكير التأويلى الموجود فى ذلك الخط الفكرى الذى يبدأ بهایدجر وينتهى بجادامر. ويعد ريكور نفسه من أشد المتأثرين بالنظرية التأويلية، كما أنه كرس القدر الأكبر من أعماله لمعالجة القضايا التى تندرج ضمن هذا المجال. ولكنه مع ذلك، يعترف - فضلاً عن هذا - بوجود تلك النزعة المحافظة الضمنية، كما يسلم بوجود المازق والإشكاليات المنهجية فى أى نظرية أو فلسفة فى تفسير المعنى تنظر إلى الفهم باعتبار أنه "عملية" محصورة دائماً داخل "الدائرة التأويلية" المكونة من القيم، والمعانى، والمعتقدات والموجودة مسبقاً. أما ما هو مطلوب لكسر هذه الدائرة والخروج منها فهو أمر أكثر من ذلك الكلام الغامض الذى يقوله جادامر عن "انصهار" الآفاق التفسيرية (أى نطاقات التفسير) أو التفاعل بين الرؤى الثقافية الماضية والحاضرة. وموجز

(*) فى تقديم العوامل الاجتماعية على غيرها فى تفسير كافة الظواهر. (الترجم)

القول، أن المطلوب لكسر هذه الدائرة يتمثل في قدرة الفكر النقدي على تحليل ما لديه هو نفسه من مسلمات أو عادات اعتقادية تربي عليها، وعلى تحليل ما لدى غيره من الناس من هذه الأمور، وفي قدرته (فضلاً عن ذلك) على القيام بهذا التحليل دون الادعاء بأنه وصل إلى موقع مهيمن يعلو على كافة أشكال الارتباطات العقائدية والالتزامات القيمية ويتجاوزها.

ولا ريب أن هذا الاتجاه الفكرى يتعارض تماماً مع النظرية الكلية التى ترى أن العبارات لا يكون لها معنى وأن المعتقدات لا يكون لها مضمون إلا حينما يتم تأويلها فى علاقتها بمجمل المعرفة السائدة فى وقت معين. ويفسر ذلك أتباع فتنشتاين - فى تعليقاتهم التى يُشغفون بإطلاقها فى هذا الصدد - بأننا لن نستطيع أبداً أن ننقد أى معتقد ونحكم عليه حكماً دقيقاً بدون أن نأخذ فى اعتبارنا مجمل النسق الاعتقادى الذى ينتمى إليه هذا المعتقد، مما يؤدى فى واقع الأمر إلى أن نسقط عن أنفسنا الأهلية اللازمة لاعتبارنا مفسرين أو نقاداً أكفاء. وهكذا فكثيراً جداً ما يؤدى التطرف فى تطبيق نظرية كلية المعنى بالمرء فى النهاية إلى تبني موقف تشككى فى كل شىء، وذلك فيما يتصل بمجرد إمكانية تفسير ما لدى الآخرين من المعانى والمعتقدات حال كوننا مختلفين عنهم فى هذه المسألة أو تلك من الأحكام الواقعية، أو الأحكام المنطقية، أو الأحكام القيمية ذات الأساس الأخلاقى. وهو الرأى الذى يوحى - ضمن غيره من الآراء التى تنتقد هذا المذهب - بأنه لا يتعين علينا أن نبتلع (إن جاز القول) النزعة الكلية بأكملها، طالما أننا نستطيع أن نحدد مواصفات أى عبارة من ناحية المضمون والصدق، فى نفس الوقت الذى ندرك فيه بوضوح مدى اعتمادها فى تكوينها على طائفة من الاعتقادات والمسلمات التى تشكل خلفيتها المحيطة بها والمؤثرة عليها.

وكما هو الحال فى الكثير جداً من أمثال هذه المناقشات، يحدث ميل لدى أصحاب المواقف المتعارضة لاستقطاب هذه القضية حتى يصل بنا الحال بطريقة ما -

وبأسلوب منافٍ للعقل - إلى موقف دقيق حرج يُخبر فيه بين الأخذ بنزعة الذرية المنطقية (أو بشيء شديد الشبه بها) والأخذ بالفكرة الخاصة بالمعنى والمضمون الاعتقادي، التي لا يمكن أن نوفيها حقها إلا بالرجوع إلى مجمل البيئة الثقافية المحيطة بهذه المعاني والمضامين الاعتقادية. وهذا الموقف، في أقل التقديرات، موقف لا يحسد عليه أحد، ولا يشبه في صعوبته ودقته ما نمارسه فعلاً فيما نتخذه من قرارات، سواء في حياتنا اليومية أو في المجالات الأخرى (كمجال البحث العلمي مثلاً).

أما النقد في مجال الأدب فإن أغلبهم يدبرون أمرهم - في هذا المجال - بالاعتماد على صيغة واهية من صيغ النزعة الكلية في تفسير المعنى، سواء عند تطبيقهم لها على المنظومة المعقدة للمعاني المتضمنة في نص معين، أو على مختلف أنواع العلاقات التي يفترض وجودها بين النص والسياق التاريخي أو الثقافي الواسع. لذلك، فإن النقد نوى النزعة الشكلية^(*) "في دراسة النصوص" يميلون إلى التأكيد على أهمية ما يتصف به النص من تركيبات مجازية، وغموض، وسخرية، وما إلى ذلك، معتمدين في موقفهم هذا على التسليم بأن نزعتهم النصية^(**) يمكن قبولها داخل حدود واضحة النطاق، بينما يفضل أصحاب النزعة التاريخية الجديدة وأصحاب النزعة المادية الثقافية التركيز على الديناميات الاجتماعية للمعاني أو على مجال القوة الخاص "بالمقاومة والتفاوض" (من قبيل: ستيفن جرينبلات S. Greenblatt مثلاً)، وهو

(*) النزعة الشكلية Formalism : نزعة تنادى بتغليب الشكل والقيم الجمالية على ما في العمل الفني من فكر وخيال وشعور، مرهضة بنظرية الفن للفن، تلك النظرية الحديثة التي أخذت تنافس نظرية المحاكاة التي نشأت مع نشوء الفن. وعلى حين تربط نظرية المحاكاة بين الفن وبين التجربة الإنسانية خارج نطاق الفن الذي هو مرآة مباشرة للحياة يتغذى منها ويرمى إلى إيضاحها، ترى النزعة الشكلية أن الفن السرى منبت الصلة بالأفعال والموضوعات التي تشكل تجاربنا المألوفة، ذلك أن الفن عالم قائم بذاته، وهو غير مطالب بتسجيل مجريات الحياة أو الأخذ عنها، فلا معنى عن أن يكون مستقلاً مكفياً بذاته. (المراجع)

(**) أي التي تركز في عملها النقدي على النص وحده. (المترجم)

(ك)

مجال يفوق فى أهميته كافة أشكال هذه الأفكار المحصورة فى النص المدرس وحده، وتحصر اهتمامها فيما يمكن اعتباره نصاً مناسباً. وهؤلاء المفكرون يشاركون - فى هذه الجزئية - الاتجاه الكلى بصورته عند المفكر التأويلى جادامر، رغم كونهم يقرأون هذه النصوص قاصدين البحث عن قضايا الصراع وعن الشواهد الدالة على وجود التوتر الإيديولوجى، ومن غير نظر إلى الوصول إلى شكل من أشكال التلاقى بين دوائر التفسير وأفاقه المختلفة.

ولا ريب أنه يمكننا القول بأن النقد الأدبى، وكما يمارس بصورة عامة، لا يهتم كثيراً بدعوى الحقيقة، أو القضايا، أو العبارات المتضمنة فى النصوص الأدبية، إنما يفضل الاهتمام بتفسير معانى هذه العبارات ودلالاتها وفقاً لإطارها الكلى بشكل فضفاض وعلى نحو لا يميل إلى الجزم والتأكيد. وبهذا الشكل تعد النزعة الكلية - فى واحدة أو أكثر من صيغها العديدة - الفلسفة الغائبة عن أغلب النقد الأدبى. وعلى أية حال فإن هذه النزعة لا تفضى للوصول إلى أى من النتائج المغالية فى مناوئتها للواقع أو ذات الطابع الشكى، كتلك التى تظهر عند تطبيق تساؤلات مشابهة على فلسفة العلم أو على غيرها من فروع البحث الإبستمولوجى.

وعلى الرغم من ذلك فإن بعض النقاد - ومنهم وليام إمبسون فى كتابه بعنوان "بناء الكلمات المعقدة"^(*) (١٩٥١) - قد دافعوا بحرارة عن تفسير اللغة الأدبية فى ضوء ما تحويه من نسق القضايا الضمنية أو القواعد المنطقية الدلالية، عوضاً عن استعمال لغة طنانة شمولية يشوبها الغموض وهى تتحدث عن المفارقات، والسخرية، وما أشبه ذلك من الأمور. وهكذا يرفض إمبسون تلك النظرة الكلية، التى طورها ريتشاردز I.A. Richards، التى ترى أن المعانى تعتبر "مبتوثة" أو منتثرة على نحو ما على امتداد فقرات النص -

(*) William Empson: The Structure of Complex Words.

ضاققت تلك الفقرات أم اتسعت - ومن ثم لا يمكن لأى معنى ضمنى فى النص إلا أن يكون سلسلة من الحلقات المتصلة التى تتجلى على امتداد عملية الاتضاح التدريجى لسياق النص كله. وفى مقابل ذلك الرأى يذهب إيميسون إلى أن: الذى يحدث فى كثير من الأحوال هو عملية معاكسة لما يقوله ريتشاردز، بمقتضاها يتم تكثيف جملة من المعانى وما يربطها من الصلات المنطقية الضمنية فى "كلمة مركبة" واحدة يُعتقد أنها - لهذا السبب - تحمل "مذهباً مكثفاً"، وأنها تقوم بدور النقطة البؤرية التى يركز عليها تفسير السياق الأوسع للرأى المطروح.

ومن بين هذه الكلمات الرئيسية (المركبة) كلمة "Wit"^(*) التى وردت فى مقال بوب بعنوان "مقال فى النقد"^(**)؛ وكلمة "Sense"^(***) التى وردت فى طائفة كبيرة من النصوص ابتداء من شيكسبير وانتهاء بجين أوستن Jane Austen ووردزورث Wordsworth؛ وكلمة "All"^(****) التى وردت فى كتاب ميلتون Milton بعنوان "الفردوس المفقود"؛ وكلمة "Honest"^(*****) التى وردت فى مسرحية "عطيل" لشيكسبير، وكلمة "Fool"^(*****) التى وردت فى كتاب إيرازموس Erasmus^(*****) بعنوان "مدح الحماقة"، وفى مسرحية "الملك لير" لشيكسبير، وكلمة "Dog"^(*****) باعتبارها كلمة تستوعب السلسلة الكاملة للمعانى

(*) التى تعنى: العقل، الذكاء، الفطنة، أو الدهاء.

(**) Pope Essay on Criticism.

(***) التى تعنى أموراً كثيرة منها المعنى، الإحساس، الشعور، أو الإدراك وحسن التقدير. (المترجم)

(****) التى تعنى - ضمن ما تعنى - كل، أو جميع، أو كافة. (المترجم)

(*****) التى تعنى - ضمن ما تعنى - الصادق، والصحيح، والشريف، والأمين، والمتواضع... الخ. (المترجم)

(*****) التى تعنى - ضمن ما تعنى - المغفل، أو المجنون، أو المولع بشئ ما... إلى آخره. (المترجم)

(*****) الفيلسوف واللاهوتى الهولندى (١٤٦٦-١٥٣٦). (المترجم)

(*****) التى تعنى - ضمن ما تعنى - الوفاء، أو الجلاء، أو التعبير الصريح عن المشاعر، أو الشخص التافه أو الحقيقير، أو مجرد الشخص أو الفتى، أو الخائن... وغير ذلك من معان عندما توجه هذه الكلمة إلى إنسان. (المترجم)

(ك)

ابتداء من معنى الازدراء الساخر - كما هو الحال فى مسرحية شيكسبير "تيمون
الاثينى" وانتهاء بأحد استعمالاتها فى عصر إعادة الملكية فى إنجلترا^(*)، حيث تحمل
معنى الإعجاب الداروينى البدائى بتلك الفضائل الحيوانية الدنيا لدى الكلب (وهى
الوفاء، والجلد، وظهور الابتهاج الصريح عليه) فى معانيها التى تشكل علامة على
ظهور نوع من الروح الاجتماعية ذات الطابع العلمانى - الإنسانى النزعة. وفى كلتا
الحالتين يطبق إمبسون "معداته" المنطقية الدلالية - التى شرحها تفصيلاً فى الفصول
الأولى لكتابه المذكور - لكى يستخلص تلك "المعادلات" اللفظية المختلفة (أو قل:
يستخرج أنظمة العبارة الضمنية) والتى تتيج لتلك الكلمات أن تعبر عن هذا المدى
الواسع من المعانى المعقدة، والمشحونة بالدلالات الإيديولوجية، والتى تحمل معانٍ
متعارضة فى كثير من الأحيان.

وكان هذا الجانب من أعمال إمبسون هو الذى ألهم رايموند ويليامز أن يكتب
كتابه بعنوان "الكلمات المفتاحية" Keywords (١٩٧٦) حيث طبق منهج إمبسون فى
البحث، من غير أن يستعمل معداته المنطقية الدلالية. وتوسع فيه فطيقه على تحليله
لعدد من الكلمات المختلفة التى يرى ويليامز أنها قامت ولا تزال تقوم بدور حاسم فى
تشكيل المواقف الاجتماعية والثقافية على امتداد القرنين الماضيين.

وتتمثل وجهة النظر الرئيسية لإمبسون - على خلاف وجهة نظر ريتشاردز - فى
أننا لا نستطيع أن نفهم اللغة، ناهيك عن شرح قدرتها على تيسير التواصل عبر
مسافات كبيرة من الزمن وعلى امتداد بيئات ثقافية واسعة؛ لا نستطيع أن نفهمها

(*) Restoration قد تعنى إعادة الملكية فى إنجلترا عام ١٦٦٠ عندما ارتقى العرش الملك تشارلز الثانى، أو
تطلق على عهد الملك تشارلز الثانى كله الذى استمر من ١٦٦٠ حتى ١٦٨٥، وأحياناً يقصد بها عهد الملك
جيمس الثانى (١٦٨٥-١٦٨٨) أيضاً. (المراجع)

بمجرد الاعتماد فقط على أى تصور من قبيل النزعة الكلية فى تحليل المعنى. ذلك لأنه بناء على هذه النظرية، كما يصفها ريتشاردز، لا يبقى للتفسير مهمة يقوم بها سوى إجراء نوع من التعديل الحر فى السياق، على نحو وثيق الشبه بالعملية التى يصفها كواين فى كتابه "مسلمتان من المسلمات الإمبيريقية".

وانطلاقاً من هذا التصور نكون قد اقتربنا اقتراباً وثيقاً من النتيجة - التى يعتنقها ويتحمس لها أنصار النسبية الثقافية - التى ترى أن المعنى والحقيقة لا تعدوان أن تكونا ثمرة ذات فائدة عملية أو تفسيرية. وهذا هو السبب الذى جعل إمبسون يكرس كل هذه الجهود لتطوير بديل آخر، ألا وهو نظريته عن الكلمات المعقدة والقائمة على تفسير النص وفقاً لما فيه من قضايا خبرية قائمة على أسس منطقية دالة على صدقها، مع تطبيق هذه النظرية على كل من النصوص الأدبية وعلى (ما يسمى) "اللغة العادية". ذلك لأنه حتى فى حالة استعمال كلمات "مبتذلة مسطحة ساذجة" مثل كلمة "Quite" (بمعنى: تماماً، فِعْلاً أو حَقّاً، وإلى حد بعيد... إلخ) والتى تُفْرِنَا ببساطتها وتواضعها، يكون ثمة متسع لممارسة المكر والدهاء أحياناً عند النطق بها بنبرة معينة، وفى مجال المعنى المراد منها، وفيما يتصل بالمضمون الاجتماعى لها. لذلك فإن وجهة نظر إمبسون فى الحقيقة - فى تعارضها مع القدامى من أصحاب نظرية النقد الأدبى الجديد والنقاد المهتمين بالمسائل الشكلية من ذوى المشارب المختلفة - وجهة نظره أن الشعراء يعبرون عن أفكارهم بأسلوب يشبه كثيراً أسلوب مستعملى لغة الحياة اليومية، وإن كان تعبير الشعراء يتم على مستوى أعلى من حيث التعقد الدلالى فى أغلب الأحيان. أما الذى يَمَكِّن الشعراء من التعبير بهذا الأسلوب - ويمكِّن القراء من تفسير معانى ما يكتبه الشعراء - فهو ما تتمتع به اللغة من مقدرة على نقل المعانى والمفاهيم من خلال أنظمة ذات ميراث منطقى دلالى ضمنى، ومن خلال أنظمة فائقة التجاوب مع السياق العام ولكنها غير معتمدة كلياً عليه، ولا منسوبة إليه (بالمفهوم الكلى عند كواين).

وعلى الإجمال يبدو من الإنصاف أن نستنتج مما ذكر آنفاً - وكما فعل غوبور ولوبير في دراستهما الشاملة لهذا المجال - أنه لم يتم حتى الآن صياغة حجج مقنعة تكفي لتأييد النزعة الكلية في تفسير المعنى، كما يسعنا أن نخلص إلى أن هذا المذهب قد خلق من المشكلات أكثر مما قدم من الطول البناء أو المقنعة. (CN) للمزيد انظر: Fordor and Lepore (١٩٩١) و Empson (١٩٥١) و Kuhn (١٩٧٠) و Heidegger (١٩٦٢) و Gadamer (١٩٧٥) و Ricour (١٩٨١) و Richards (١٩٢٨) و Quine (١٩٨٠)، و Winch (١٩٥٨) و Rorty (١٩٩١).

Metonymy

الكناية

شكل من أشكال التعبير يستخدم فيه أحد الأجزاء أو أحد العناصر للإشارة رمزاً إلى الكل. وعند استعمالنا للكناية في أبسط صورها، نتكلم عن "رأس القطيع" أو نتحدث عن "التاج"، عندما نريد الإشارة إلى الملك. ويجانب ذلك، فإننا قد لا نستطيع أن ندرك معاني كثير من النصوص المعقدة أو الدقيقة إلا من خلال الكناية. مثال ذلك، أن صورة فوتوغرافية تظهر في نشرة الأخبار لعامل زراعي ريفي فقير يعيش وحده، قد ترمز إلى جميع الريفيين، أو إلى جميع أعضاء مجتمع معين، أو أمة، أو قارة بأكملها. والكناية، بهذا الاعتبار، تستطيع أن تقوم بدور في الأساطير، وذلك وفقاً لتعريف "بارت" لها. وإننا بقيامنا بهذه الخطوة التأويلية التي ننتقل بها من العنصر المفرد الوارد (في النص أو الصور) إلى الكل، إنما نعتمد - عن غير قصد أو دراية - على افتراضات مختلف عليها سياسياً أو موضوعياً، ولكنها برغم ذلك تؤخذ مأخذ التسليم (ومن ثم تبدو طبيعية أو عادية). وعلى ذلك، فإن صورة الفلاح الريفي الوحيد قد تعزز ما لدى المشاهدين من اعتقاد ضمني بينهم مؤداه أن جميع الأفارقة، مثلاً، هم الضحايا العاجزون لبيئة ذات مناخ قاس لا يرحم (AE).

Unconscious

اللاشعور

رغم أن مفهوم اللاشعور يرجع إلى زمن سابق على فرويد، فإنه لم يتخذ بُعداً أساسياً إلا من خلال التحليل النفسي. ففي الرؤية الفرويدية للأحكام العامة المهيمنة على حقائق علم النفس يعرف اللاشعور بأنه ذلك الذي يقع بين الإدراك الحسى والوعى. إنه عالم العملية الأولية (وذلك فى مقابل العملية الثانوية التى يقوم بها الوعى والمتسمة بوجود قدر أكبر من "الربط" بين الوقائع فيها). ويتميز اللاشعور بوجود سيولة بين عمليات التركيز النفسى (على شخص أو شيء)، والإزاحة، والتكثيف، والرمزية وإبدال الحقيقة الخارجية بالواقع الذاتى. وهو كذلك يفتقر إلى الوعى بالزمن أو بإبدال الحقيقة الخارجية بالواقع الذاتى. كما أنه يفتقر إلى إدراك التناقضات المنطقية. إذ يمكن للميول المتعارضة أن توجد فيه جنباً إلى جنب. وهو يتصف ببعض صفات مرحلة الطفولة، ولكنه لا يختزل إلى أن يكون صورة منها. وفى النموذج الوصفى المبكر الذى طرحه فرويد للاشعور، يتناقض اللاشعور مع ما قبل الشعور ومع الشعور. ثم أصبح اللاشعور أقل أهمية فى النموذج البنائى الذى قدمه فرويد فيما بعد وفيه تنقسم النفس إلى "الهو" و"الأنا" و"الأنا الأعلى"، حيث يذهب فرويد إلى أن أفضل جزء فى هذه القوى قد يكون لاشعورياً إلى حد بعيد. ويفرض هذا المفهوم نفسه نظراً لوجود ثغرات فى ذاكرة المريض النفسى - الذى يجرى تحليله - تكون ذات دلالات تتصل بالصدمة (التي سببت المرض النفسى). يضاف إلى ذلك - كما يرى فرويد - أنه من الضرورى أن ينظر إلى تلك الثغرات الموجودة فى الحياة العقلية للمريض النفسى باعتبارها تخص شخصاً آخر غير شخص المريض. وهذه الفكرة هى التى يتبناها لكان فى عبارته التى يقول فيها "اللاشعور هو الخطاب الخاص بالآخر".

والتزاماً بالدقة الشديدة، يتعين علينا التفرقة بين مصطلح "اللاشعور" ومفهوم "الكبت". ورغم أن الشيء المكبوت هو الصورة الأولية للاشعور، فإن الأخير هو الذى

يغطي نطاقاً أوسع. فكل ما هو مكبوت يكون لاشعورياً ولكن ليس كل ما هو لاشعوري يكون مكبوتاً. ورغم أن الفصل النهائي بين الشعور واللاشعور لا يظهر قبل مرحلة البلوغ، غلابد من التسليم بوجود اللاشعور في شخصية الطفل حتى نستطيع تفسير عمل الكبت. والكبت ليس من السمات المقصورة على المرضى العصبيين، وذلك كما قد يوحي به الوصف الشائع لشخص ما بأنه "مكبوت". فالعصابي لا يعدو أن يكون شخصاً أخفق الكبت لديه في القيام بمهمته. ولابد للجميع أن يمروا بتجربة الكبت الأولى أثناء المرحلة الأوديبية (انظر مادة: عقدة أوديب). ويرى لاكان أن سقوط هذا الدال الأول من سلسلة التعبير يعد ضرورة بنائية. كما يشير أتباع لاكان إلى هذا الدال الأول (انظر مادة: الدال والمدلول عليه) باعتباره دالاً إضافياً. والكبت الثانوي ظاهرة مشتقة من الكبت الأول: وهو يقوم بتشويه وتحريف التعبيرات الصادرة من تلك الدوال التي تشي بوجود صلة بين الصدمة النفسية والأفكار المعقدة المرتبطة بالكبت الأول. وهذا الدال هو الذي يتعرض دائماً للكبت، وليس العاطفة. أما العواطف فلا تتعرض إلا للإزاحة وفقاً لعلاقتها بمنطق هذا الدال. لذلك يمكن النظر إلى أشكال اللاشعور بوصفها تفاعلاً بين نوعين من العناصر:

أولاهما: تلك العناصر التي تكشف عن نفسها بغرض تفسيرها (وهي عناصر الرغبة) .

وثانيتهما: العناصر التي تقاوم هذا التفسير (وهي عناصر الخيال).

لهذا السبب ذهب جاك ألان ميلار Jacques-Alain Miller، المحلل النفسي ذو الاتجاه اللاكاني (وخلافاً للتفسيرات ما بعد الحداثية الخاطئة)، إلى أنه لا يمكن اختزال اللاشعور إلى أن يصير مجرد كناية عن الرغبة. فاللاشعور له بناء أو نظام شبيه ببناء اللغة من بعض النواحي، وله في نفس الوقت بناء مخالف لبناء اللغة من نواح أخرى. واللاشعور في جوهره - عند لاكان - ليس مجرد فوران عاطفي قديم

العهد، مما يحتاج لفهمه إلى أنطولوجيا بديلة. بل فوران عاطفى سابق على الوجود: فهو فى صميم حقيقته، إذا تفاضينا عن الخطأ فى هذا التعبير، النظام الذى يخضع له كل ما لم يستطع الفرد تحقيقه. (SKS) انظر: Freud (١٩٩١) و Klein (١٩٩٢/٩٣) و Lacan (١٩٧٧ : ١٩٧٧ ب) و Laplanche and Pontalis (١٩٧٣) و Miller (١٩٨٨).

Anomie

اللامعيارية

مصطلح أساسى فى علم الاجتماع الدوركايمى، يشير إلى فقدان الفرد أو الجماعة للمعايير اللازمة لتوجيه التفاعل الاجتماعى. ويستفاد بهذا المفهوم فى إيضاح العلاقة بين السلوك والخبرة الفردية من ناحية، والبناء الاجتماعى من ناحية أخرى. وتشكل المعايير عادة إطاراً يحد من تطلعات الأفراد من أعضاء المجتمع وغاياتهم، وذلك بقصد أن يكونوا ملتزمين بالوسائل المتاحة لتحقيق هذه التطلعات والغايات. وفى رأى دوركايم (١٩٥٢، ١٩٨٤) يعد هذا الالتزام شرطاً مسبقاً للسعادة الإنسانية. ويؤدى انهيار هذا الإطار أو تآكله (بسبب تزايد النزعة الفردية مثلاً) أو الوفرة فى الوسائل المتاحة لتحقيق التطلعات والغايات (بسبب النمو الاقتصادى السريع والرخاء مثلاً) يؤدى إلى إحداث تعارض واختلاف بين الوسائل والغايات. عندئذ: "ينقلب الميزان، مع العلم بأنه ليس فى إمكان المجتمع أن يسارع بتوفير ميزان جديد للمعايير بصورة فورية" (هارالامبوس ١٩٨٥: ٢٣٨ - مستشهداً بأقوال دوركايم).

وقد حدث بعد ذلك أن قام ميرتون (١٩٦٨) بتطوير هذا المصطلح، فى إطار نظرية عامة للانحراف. وقد تمر بعض الجماعات الاجتماعية بتجربة الصراع بين الغايات التى تحظى بتقدير غالبية أفراد المجتمع، والوسائل المتاحة داخل هذه الجماعات الخاصة. ولهذا السبب يتم التخلّى عن الإطار المعيارى السائد فى المجتمع

الكبير، وتصبح السرقة، مثلاً، أمراً مقبولاً كوسيلة منحرفة لتحقيق غايات سوية. (AE) للمزيد انظر: Lukes (١٩٦٩) و Orrù (١٩٨٧).

Theology

اللاهوت

تسيطر على اللاهوت في الثقافات الغربية الاتجاهات المسيحية الخاصة بالعقيدة الإلهية منذ العصور الرومانية. ويصوِّرة عامة، تصف هذه الرؤية الإله بأنه كائن على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، خلق العالم، وتجلى للبشر في شخص يسوع الناصري. ويُعبد المسيح بوصفه الإله الابن، جنباً إلى جنب الأقنومين الآخرين من أقانيم الثالوث المقدس: وهما الإله الأب والإله روح القدس. ولا ينظر إلى هذه الأقانيم باعتبارها آلهة أنداداً لبعضها، ولكن باعتبارها جوهرًا إلهيًا يتجلى في ثلاثة أقانيم.

وبينما يصلح هذا العرض الإجمالي المذكور سلفاً كوصف أساسي لللاهوت في الغرب، فإنه عرض مضلل إلى حد ما. فلم يحدث أبداً أن تمثل اللاهوت المسيحي في نظام كلى متماسك من العقائد المقطوع بها والتي يقر بها جميع المؤمنين. بل إن في العهد الجديد نفسه ما يدل على وجود عدد من الاتجاهات المختلفة التي قسمت الكنيسة في أول عهدها. ويحلول القرن الميلادي الثاني كانت بعض الاتجاهات اللاهوتية القديمة المرتبطة بالغنوصية(*) قد تطورت فصارت فرقاً تشبه تلك التي نمت وترعرعت في فلك مارسيون Marcion (**).

(*) الغنوصية Gnosticism : هي مجموعة الأفكار والممارسات الخاصة بعدد من الطوائف الدينية التي كانت موجودة قبل ظهور المسيحية وفي أوائل عهد هذه العقيدة، وتميزت بالاعتقاد بأن المادة هي الشر، وأن الخلاص يتأتى من المعرفة الروحية. (المراجع)

(**) مارسيون Marcion : هو صاحب الطائفة الدينية المارسيونية، التي أخذت في الظهور في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وقد أخذت هذه الطائفة بأجزاء من العهد الجديد، وأنكرت كون المسيح مخلوقاً من المادة أو أنه بشر، كما أنها لا تعترف بما هو مذكور في العهد القديم عن الإله الخالق. (المراجع)

----- (ج) -----

فقد كان مارسيون يعبر عن وجهة النظر (التي كان يشاركه فيها كثير من المفكرين منذ ذلك الحين - بمن فيهم فيلسوف القرن التاسع عشر جون ستيوارت ميل) والتي تذهب إلى أن الإله المذكور في العهد القديم ليس هو الإله الذي تحدث عنه المسيح بصفته "الأب المحب".

وقد تركزت بعض الخلافات الأخرى على طرق تفسير الكتاب المقدس (بعهديه: القديم والجديد). فقد أثر البعض - مثل أوريجين (حوالي سنة ١٨٥-٢٥٤) - التفسيرات الرمزية، بينما أكد البعض - مثل ترتوليان (حوالي سنة ١٥٥-٢٢٢) - ما يرون أنه يمثل الحقيقة الحرفية لنصوص الكتاب المقدس. وظلت قضية تفسير نصوص الكتاب المقدس واحدة من أمهات القضايا عند مارتن لوثر وعند علماء لاهوت حركة الإصلاح الديني إبان القرن السادس عشر. كما ثار عدد كبير من الخلافات اللاهوتية الأخرى أثناء فترة الإصلاح الديني، بما فيها الخلافات التي نشبت بين هؤلاء الذين أصروا على أن البابا والأساقفة يتمتعون بحق شرعي منحه إياهم الله يفصلون به في المسائل العقائدية، وبين هؤلاء الذين كانوا يحتكمون إلى الإنجيل بوصفه المرجع الأعلى. وقد شهدت نفس الحقبة ظهور الطائفة (البروتستانتية) الموحدة التي تنكر الثالوث المقدس وتؤكد وحدة الله في شخص واحد.

وفي أعقاب عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني في أوروبا، اتخذت دراسة الكتاب المقدس منعطفاً حاداً. فقد بدأ ريتشارد سايمون R.Simon في كتابه بعنوان "النقد التاريخي للعهد القديم" (الذي صدر عام ١٦٧٨) عملية نقد نصوص الكتاب المقدس التي نتج عنها تجريد هذا الكتاب من مرجعيته بصورة تدريجية. ومع تسارع وتيرة هذه العملية وتعمقها أثناء القرن الثامن عشر، أخذ تيار لاهوتي متحرر في النمو والاكتمال متخلياً عن كل ما هو خارق للطبيعة وملتزمًا في الحكم على المسائل الدينية بالمعايير التي يقبلها العقل ذو المستوى الرفيع من التفكير.

وثمة تطور سابق لحركة الإصلاح الدينى فى أوروبا له أهمية خاصة فى الفكر اللاهوتى المعاصر. ففي أوائل القرن الرابع عشر، طور الكاتب الصوفى يوهانس "مايستر" إيكارت(*) نوعاً من اللاهوت الرافض أو السلبي Negative Theology الذى اعتمد على كتابات الراهب السورى الذى عاش فى القرن الخامس أو القرن السادس والمسمى ديونيس الأريوجوتى Dionysius the Areopagite (أو: ديونيس - المزيف). فقد ذهب هذا الراهب إلى أن الإله لا يمكن للعقل الإنسانى إدراك حقيقته، ولهذا فإن اللغة الإنسانية لا تفى للتعبير عن أى شأن يتعلق بالطبيعة الإلهية تعبيراً صحيحاً صحة تامة. ومن ثم لا يصف هذا اللاهوت الرافض أو السلبي الإله إلا بالتعبير عنه بأنه "ليس" كذا "He is not" فهو "ليس - إلهاً"، "ليس - روحاً"، "ليس - ألقنوماً"، "ليس - صورة ذهنية". (إيكارت - الموعظة رقم XCIX).

وقد تجلى هذا الشك - فى قدرة اللغة على التعبير عن الإله وفى قدرة العقل على إدراك حقيقته - فى أعمال إيكارت، وجون رويسبروك John Ruysbroeck، وغيرهما من اللاهوتيين المتصوفين فى ذلك العصر، كما أحدث هذا الشك صدها فى نزعة من نزعات الفكر الفلسفى المعاصر التى تستلهم أفكار فردريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) ومارتن هايدجر (١٨٨٩-١٩٧٦). ففي كتابه بعنوان "تجاوز حدود العلامة"، يستكشف كيفن هارت Kevin Hart العلاقة بين اللاهوت الرافض أو السلبي والفلسفة الأوروبية المعاصرة، مستنتجاً من ذلك أن هذا اللاهوت يمثل نوعاً من أنواع الفكر التفكيكى الذى يحمل أوجه شبه قوية بأعمال جاك ديريدا.

(*) إيكارت، ميستر Eckhart, J.M (١٢٦٠-١٣٢٨) دومينيكاكى المانى متصوف بعث حركة تصوفية بألمانيا فى القرن الرابع عشر. أخذت عليه قبل وفاته بسنة، وهو يطم فى كولونيا ثمان وعشرين مسألة مخالفة للدين. من أوائل الذين استخدموا اللغة الدارجة فى الدين والفلسفة. لقب بمنشئ النثر الألمانى، وبأبى الفلسفة الألمانية. (المراجع)

وقد كان لأعمال نيتشه تأثير عميق على اللاهوت في القرن العشرين، ولا يقتصر السبب في ذلك على أن نيتشه تشكك في المسلمات الفلسفية التي يركز عليها التراث اللاهوتي المسيحي، بل يرجع كذلك إلى ما ذاع عنه وشاع من قوله بموت الإله. وقد بنيت هذه النتيجة على أساس أن العلم قد طرح تفسيرات جديدة وغير لاهوتية لكثير من الظواهر الطبيعية. فلم تعد ثمة حاجة للإله (لتفسير هذه الظواهر) كما أن العقيدة الدينية كانت قد بدت تعاني من سكرات الموت. واستجابة لهذا الموقف، اقترح عدد من علماء اللاهوت أمثال بول فان بورن Paul van Buren، وتوماس ألنزر Thomas Altizer في أمريكا، ودون كويت Don Cupitt في بريطانيا، "لاهوتاً" مبنياً على زعم موت الإله - أي نوعاً من الإلحاد المسيحي المناقض للعقل.

ومن بين أوجه التقدم العلمي الرئيسية التي عكرت على فكرة الإله، كانت نظرية تشارلز داروين عن التطور القائم على الانتخاب الطبيعي. فقد أحدث كتاب "أصل الأنواع" (الصادر عام ١٨٥٩) انقساماً في العقيدة المسيحية، وذلك بتسببه في صعود النزعة الأصولية من جانب، وبتأثيره - من جانب آخر - على المفكرين الأكثر تحوراً ليقدموا تفسيرات جديدة للعلاقة بين الخالق والمخلوقات.

ونظراً لتأثره الشديد بدارين، كان لأعمال "حبر" القرن العشرين الصوفي الكاثوليكي تيار دي شاردان^(*) تأثير بالغ الأهمية على أعمال من جاءوا بعده من

(*) تيار دي شاردان، بيير Teilhard de Chardin، Pierre (١٨٨١-١٩٥٥) عالم لاهوت وحفريات قديمة فرنسي. درس في معاهد الجزويت في فرنسا وإنجلترا، حيث تخرج قساً جزويتاً. درس بعد ذلك الجيولوجيا والحفريات القديمة بالمعهد الكاثوليكي، ثم في متحف التاريخ الطبيعي لمدة عشر سنوات (١٩١٢-١٩٢٢). ورأس كلية الجزويت للدراسات العليا في الصين خلال الفترة من ١٩٢٣-١٩٤٦ توزعت مؤلفاته بين اللاهوت والعلوم، وإن كانت رئاسته في الجزويت قد فرضت حظراً على نشر مؤلفاته طيلة حياته. أشهر أعماله "الظاهرة الإنسانية" (١٩٥٥). انظر المزيد عن حياته وأعماله في: محمد الجوهري، تيار دي شاردان والظاهرة الإنسانية، دراسة نشرت في مجلة الفكر المعاصر، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢. (المراجع)

علماء اللاهوت الكاثوليكين. فقد ذهب إلى أن "التطور إنما هو ضوء ينير كافة الوقائع والأحداث، وهو منحني يتحتم على كافة الخطوط أن تتبعه وتلتزم به". فالعالم، عند تيار دى شاردان لم يصل إلى الكمال بعد، وهو يتقدم صوب "نروته"، وهى اللحظة التى سوف يتجلى فيها الإله تجلياً تاماً فى البشر وفى الطبيعة. كما أن ما يسمى بـ"لاهوت التقدم" الذى نادى به شوبرت أوجدن Schubert Ogden، وجون كوب John Cobb وآخرون يدين بالكثير لهذا النوع من الاتجاهات الفكرية، كما تدين له الاتجاهات الفكرية الروحية الحديثة التى تؤمن بالخلق.

ومن بين مؤيدى الاتجاه الأخير، كان ماتيو فوكس Matthew Fox هو أكثرهم شهرة. إذ حاول فى كتابه بعنوان "البركة الأولى" (الصادر عام ١٩٨٣) - الذى يوحى عنوانه برفض الفكرة المسيحية المتوارثة عن "الخطيئة الأولى" - حاول زحزحة اللاهوت المسيحى بعيداً عن تركيزه على "الخطيئة" القديمة (أو: سقوط Fall آدم بلغة التوراة) وعلى ضرورة التكفير عنها، ونقله إلى الحفاوة بالخلق الإلهى للعالم بوصفه جوهر العبادة ولبها. وقد اجتمع فى أعمال فوكس كل من: الوعى الإيكولوجى، وفكر حركة العصر الحديث، والمسيحية السلطية، واللاهوت الرافض أو السلبي ومختلف أشكال النزعات الباطنية اللامسيحية. كما نلاحظ أن ما يعده فوكس "تراثاً مرتكزاً على الإيمان بالخلق" يعد كذلك - وبصورة عامة - تراثاً ذا طابع نسوى. فهو يرفض كلاً من الصورة الذكورية للإله كئب والبناء الأبوى لتراث الكنيسة.

وقد نما اللاهوت النسوى وترعرع جنباً إلى جنب الحركات السياسية والثقافية التى استهدفت تحقيق المساواة بين أدوار الأنثى/ والذكر فى المجتمع. فممنظ ظهور كتاب إليزابيث كادى ستانتون Elizabeth Cady Stanton بعنوان "إنجيل النساء"، فى أخريات سنوات القرن التاسع عشر، أخذ التفسير الذكورى للمسيحية والسيطرة الذكورية التى تتمتع بها، أخذاً يتعرضان للتمحيص والفحص الدقيق بصورة حادة

مستمرة. واليوم لدينا أعمال هامة ومتزايدة العدد، تتناول جميع مجالات الاهتمامات اللاهوتية من مختلف زوايا الرؤية النسوية. وفي مقدمتها لكتابتها بعنوان "اللاهوت النسوي: مجموعة من النصوص المختارة" (صدر عام ١٩٩٠)، تقول أن لودز An Loades :

"ينصب اهتمام علماء اللاهوت ذوى النزعة النسوية على الطريقة التى تعمل بها النصوص الدينية الموروثة، وعلى الرمزية التى تستعملها، والسمات التى تميز الأدوار داخلها، وكيف تعكس هذه الموارد المسلمات الاجتماعية وكيف تشكل هذه المسلمات وتعيد تشكيلها، وخاصة الطريقة المرتبطة بالنوع الاجتماعى والتى نتبعها فى الكلام عن الإله".

وإذا نظرنا إلى كل من: فكرة "موت الإله"، والوعى الإيكولوجى، وما قدمه الفكر النسوي من عمليات إعادة تفسير وتخصيص لمختلف النصوص الدينية المتوارثة، فسوف نتبين أنها تشكل مجتمعة العناصر المكونة لواحد من التحولات الكبرى فى مواقف دراسة قضية الألوهية. وقد لا يكون من المبالغة أن نتحدث عن الأثر المشترك لهذه التغيرات باعتباره فجرًا لعصر جديد من عصور اللاهوت. (KM/GH) انظر: Altizer (١٩٦٨: ١٩٧٧) و Cobb (١٩٧٧) و Cupitt (١٩٨٨) و Fox (١٩٨٣) و Loades (١٩٩٠) و Milbank (١٩٩٠) و Ogden (١٩٧٩: ١٩٩٦) و Stanton (١٩٩٠).

Language

اللغة

ثمة مداخل كثيرة فى تناول اللغة. ويدلنا التفكير السليم أن اللغة هى الأداة المستعملة فى توصيل الأفكار (انظر مادة: الاتصال). ومن ثم، فإن المعنى وتقل المعنى أمران أساسيان لتعريف ما هى اللغة. ومن شأن هذه النظرة أن تعتبر أن الذات لديها أفكار، وأنها بدورها تعبر عن هذه الأفكار من خلال اللغة فى صورة الكلام. وإذا نُظر إلى

لغات معينة بهذه النظرة فالراجع أن يتم إنتاج هذه اللغات المعينة بواسطة ثقافات معينة، ولكن ليس من الضروري أن تتحكم فى الأفكار الاعتبارات الثقافية (وبعبارة أخرى نقول: إن قضية المعنى قد تدور حول مسائل الطبيعة البشرية، وحول علم النفس، وعلم وظائف الأعضاء، وما إليها من العلوم). ويترتب على ذلك، ووفقاً لهذا التصور، أن يكون المعنى فى أساسه مسألة تتصل بمقاصد المتكلم وأهدافه.

وتناوئ هذه النظرة وتختلف حولها مجموعة من وجهات النظر الأخرى، والتى منها مثلاً، الاتجاهات الفكرية المرتبطة بنزعة ما بعد الحداثة، وبالنزعة البنوية، ونزعة ما بعد البنوية. واللغة فى رأى هذه الاتجاهات تنتج المعنى، ولكنها لا تنتج من خلال ما يقوم به متكلم مستقل عن اللغة من تأكيد قول يعبر عن مقصده تعبيراً منعزلاً عن هذه اللغة المستخدمة، والسبب فى ذلك أنه لولا وجود اللغة (منظوراً إليها بوصفها نظاماً للعلامات، أو بوصفها عملية دلالية مستقلة أنطولوجياً عن تكوين الذاتية المتحدثة بهذه اللغة). والسبب فى ذلك أنه لولا وجود اللغة ما وجد هؤلاء "المتكلمون"، وما وجدت هذه "المقاصد". كما أن المتكلمين يمثلون جزءاً من أجزاء اللغة، ومن ثم فلا يعتبرون سابقين عليها فى الوجود. وقد قدمت الفلسفة التحليلية - فيما تركه أصحابها من تراث فكرى - عدداً من التصورات عن اللغة والمعنى التى لا تعتمد فحسب على وجود نموذج من نماذج الذاتية أو الوعى الذاتى لتبنى عليه أسسها الفكرية، وإنما تمتد فى اتجاه استيعاب ما للغة من مسلمات وشروط منطقية وبنوية بوصفها أموراً مهمة فى فهمنا لأمثال هذه القضايا (كقضية اللغة وقضية المعنى)؛ هذا بينما يتصور لكان - فى نموذجها القائم على مبادئ التحليل النفسى - وجود صلة ما بين تكوين اللاشعور واللغة (أى أنه يزعم أن اللاشعور يتكون أو يتشكل على نحو ما تتكون اللغة).

وعلى نفس القدر من الأهمية بالنسبة لأى تصور عن اللغة تأتى أمور: الأفكار الخاصة بالتصور وتلك الخاصة بالإشارة أو الإستناد. وعلى ذلك، يمكننا طرح بعض الأسئلة مثل: "هل تمثل اللغة العالم لنا، أم أنها تؤلفه أو تركبه لنا؟" أو: "هل تنجح اللغة فى الإشارة إلى الكيانات "اللا- لغوية؟" وتقتضى هذه الأسئلة منا الاهتمام بالقضايا ذات الصلة بمجالات الميتافيزيقا، والأنطولوجيا (مبحث الوجود) ونظرية المعرفة. شاهد ذلك مثلاً، أن تصور ديريدا عن التراث الميتافيزيقى للغرب ينظر إلى هذا التراث بوصفه تجسيداً لمجموعة من المسلمات عن طبيعة المعنى والمقصد. وتشتمل هذه المسلمات على ذلك التصور الذى يقول إن المعنى مسألة تتعلق بـ"حضور" المتكلمين، وإن الكتابة بدورها تأتى فى المقام الثانى بعد الكلام الذى داخل النظام التدرجى للمعنى: فالمتكلمون ينتجون بكلامهم المعانى، ولكنهم يحتاجون للكتابة ليحفظوا الحضور الذى لهذه المعانى حتى يستمر باقياً فى حالة غيابهم. وبالمثل، فإن وجهة النظر التى ترى أن الذاتية (أى الذات أو الشخص المتكلم) هى مصدر المعنى (أى: منتج المعنى) تفترض مسبقاً أن للذات وجوداً معيناً قبل وجود المعنى (أى أن هذه الذات، وبمقتضى تكوينها، لها كفاءة تستطيع بها توليد المعنى)؛ وذلك بينما تهتم الأسئلة المطروحة لتفهّم طبيعة المعرفة (أعنى بها الأسئلة الإبستمولوجية) - تهتم هى الأخرى - باللغة فيما يتصل بالموضوعات التالية:

(١) قدرة أو كفاءة اللغة فى الإشارة إلى الخبرة "اللا-لغوية" أو قدرة الخبرة "اللا-لغوية" على الإشارة إلى اللغة.

(٢) المعايير اللغوية للأعراف التى تحدد ما يعد معرفة لدى أى مجتمع من المتكلمين. وعندما تأتى قضايا المعيارية والمجتمع فى الصدارة، فلا بد لأى تصور عن اللغة أن يبدى الاهتمام بالعوامل الثقافية التى يتضمنها بناء المعنى.

ولعل من الموضوعات التي تتسع للبحث والتساؤل، موضوع ما إذا كان من الممكن الحديث - مطلقاً - عن اللغة بمعنى عام، أم لا (مع مراعاة أننا نستعمل لفظ Lan-guage المبدوء بحرف L الكبير (إشارة إلى اللغة بصفة عامة وليس إلى لغة معينة). ويؤكد واقع الأمر أن كثيراً من النظريات (ومنها مثلاً النظرية البنيوية) تقوم - على أقل تقدير - بالانتفاع الضمني بذلك المعتقد الذي يؤمن بأن اللغة خواصاً يمكن وصفها، وأن هذه الخواص يمكن تطبيقها بصورة شاملة على جميع اللغات. وسبب ذلك أنه لولا الاستناد إلى هذه النظرة لما استطاعت البنيوية أن تدعى أحقيتها في وضعها باعتبارها وصفاً "علمياً" للغة.

ومع ذلك، فإن "اللغة" - بصفة عامة - قد تكون وفقاً لهذا المعنى عبارة عن مفهوم ذي صلة وثيقة لا تنفصم بمشكلات الميتافيزيقا، لأن ما يشير إليه المرء عند استعماله لكلمة "اللغة" لا يمكن إظهاره بوضوح أو عرضه بالطريقة التي يمكن بها عرض المدلولات الخاصة التي يتضمنها أو يدل عليها قول ما. وكمثال آخر على هذا المفهوم كلمة "الكون": فمدلول هذه الكلمة كيان شامل لا يمكن الإشارة إليه، وذلك لأسباب عديدة أقلها أن نفس محاولة الإشارة إلى "الكون" ستكون حتماً جزءاً مما يراد الإشارة إليه. وبالمثل، فإن الكلام عن "اللغة" وفي الحد الأدنى من التعبير، يفترض مسبقاً أن المرء باستطاعته أن يشير إلى كيان شامل يتحتم أن يكون التعبير الذي يشير إليه جزءاً من هذا الكيان، وذلك لأن هذا التعبير إنما هو تعبير لغوي (وهي مشكلة ذات صلة بكلام راسل عن التردد والارتياب^(*) - قارن ذلك بمدخل: انساق التفسير الكبرى (PS).

(*) كلمة Aporia كلمة لاتينية تستعمل في العلوم المنطقية للدلالة على واحد من طائفتي المعاني التالية: (١) المعاني الدالة على الشك والتحير والتردد والارتياب (٢) والمعاني الدالة على الاستحالة. ولعل المعنى المذكور في الترجمة أقرب إلى السياق الذي جاء فيه. (المراجع)

Langue

اللغة

تشير كلمة "اللغة" Langue (الفرنسية) في علم اللغة عند سوسير^(*) إلى ما للغة Language من بناء أساسي ومكونات. وعلى ذلك فاللغة تتألف من ذخيرة من الإمكانيات المتاحة للمتكلم بها، بجانب القواعد التي تحدد الاختيار والربط المقصودين بين الوحدات المتاحة للمعنى. (AE) للمزيد انظر: Holdcroft (١٩٩١) و Barthes (١٩٧٦ ب).

Utterance

اللفظة - أو القول

اللفظة أو القول، عند فولوشينوف V.N. Voloshinov، هو الوحدة الأساسية للواقع المحسوس للغة" (١٩٧٣: ٩٣). ويتميز القول أو اللفظة عن المفاهيم الأخرى التي منها مفهوماً "الصيغة اللغوية"، والتي تُستنتج - خلافاً لمفهوم القول أو اللفظة - من خلال تجريد واقع اللغة، والتي يميل بعض المفكرين - مثل سوسير - رغم ذلك، إلى التلميح بوجود تطابق بينها وبين الواقع (انظر فولوشينوف ١٩٧٣: ٧١، ٧٩، ٨٢، ٩٨). ومع أن فولوشينوف يستعمل مصطلح "فعل الكلام" أحياناً بوصفه مرادفاً لمصطلح "اللفظة أو القول"، فإن كتاباته توضح أن مفهومه هذا يشمل كافة أشكال

(*) فردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧-١٩٣١) عالم لغويات سويسري يعد مؤسس البنيوية اللغوية المعاصرة، ولهذا فهو الجد الأكبر لمذهب البنيوية. ويرى سوسير باختصار أن اللغات لا تتكون من تصورات يخلقها الأفراد، ويعيدون إنتاجها من جديد، ولكنها تتكون من علامات هي ثمرة أبنية أو أنساق تباين تتجاوز مستوى الفرد. ولعل إزاحة الفرد من مركز الاهتمام في تحليل ظاهرة اجتماعية بهذا الوضوح كاللغة كان بمثابة نقلة كبرى وأيضاً بداية ما أطلق عليه الثورة البنيوية. ولا يوجد مدخل للتعرف على هذه الثورة أفضل أو أهم من كتاب دي سوسير نفسه "مقدمة في علم اللغويات العام" (١٩٣٤). راجع المزيد في: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق. (المراجع)

استعمال اللغة، ومن ثم فإنه ينطبق، مثلاً، على النصوص المكتوبة أو التفكير كما ينطبق على الكلمة المنطوقة تماماً.

ويرى فولوشينوف أن القول يتصف بكونه حوارياً واجتماعياً. وفي رسمه للخطوط الرئيسية للصفة الأولى للقول يطرح بعضاً من الأفكار المعروفة جيداً (وإن لم تكن هي الأفكار الوحيدة قطعاً) والتي تعالج مفهوم الحوارية، والذي طرحته جماعة باختين الفكرية^(٩) التي ينتمي فولوشينوف إليها (انظر مورسون وإمرسون Morson and Emerson ١٩٩٠؛ هيرشكوب Hirschkop ١٩٨٦؛ ومورسون ١٩٨٦). ومن هذه الأفكار النظرية التي تذهب إلى أن كل لفظة أو قول إنما هو عنصر في حوار مستمر - أو "مرحلة" من مراحل "مسيرة متصلة من التواصل الشفاهي" - وإلى ما يترتب على ذلك من أن كل لفظة أو قول يجيب على قول سابق عليه أو على ألفاظ سابقة عليه، كما تذهب كذلك إلى أن كل قول يتشكل وفقاً لما يتوقعه الناطق به من استجابات أو اعتراضات المخاطبين على ما قد ينطق به. (فولوشينوف ١٩٧٣ : ٩٥، وانظر كذلك صفحتي ٧٢-٧٣).

وربما أمكن تلخيص فكرة فولوشينوف عن الطبيعة الاجتماعية للقول أو اللفظة بأنها - في نظره - تخضع في تعيين موقعها، وتوجيهها، وتحديدتها للاعتبارات

(٩) Bakhtin, Mikhail Mikailovitch. باختين ميخائيل ميكيلوفيتش Bakhtin Cricle of Intellectuals (١٨٩٥-١٩٧٥) فيلسوف روسي وواحد من أبرز مفكرى نظرية الأدب. درس في كلية فقه اللغة في أوديسا، وفي جامعة بطرسبرج. وعمل لمدة ثلاثين عاماً في كازاخستان وسرنسك وموسكو في ظروف لا تعرف عنها الكثير. وفي عام ١٩٥٧ عين أستاذاً للأدب الروسية والأجنبية بجامعة موسكو، حتى تقاعده عام ١٩٦١ وقد نشر عدة كتب بأسماء بعض أصدقائه، نذكر منها: "المنهج الشكلي في الدرس الأدبي" (١٩٢٨). وقد نسب إلى صديقه ميد فيديف، و"الماركسية وفلسفة اللغة" (١٩٢٩) وقد نسب إلى فولوشينوف. وقد أثار هذا السلوك قدراً من الجدل، ولكن أصبح من المعروف عامة أن باختين هو صاحب هذين الكتابين. ثم نشر في عام ١٩٢٩ "مشكلات أشعار ديستوفسكي". وفي عام ١٩٦٦ "رأبليه وعالاه". للمزيد انظر: A.Elliott et al., Key Contemporary Social Thinkers, 2003. (المراجع)

الاجتماعية. وفي كتابه بعنوان "الماركسية وفلسفة اللغة" يتداخل تفسير ما للقول من طبيعة اجتماعية مع تفسير ما له من طبيعة حوارية. ومن العناصر الكبرى التي يتكون منها هذا التفسير تلك النظرية الخاصة بالتخاطبية Addressivity التي يتسم بها القول. ومفاد هذه النظرية أن القول يوجه دائماً إلى مخاطب. وليس من الضروري أن يكون هذا المخاطب شخصاً موجوداً أو حاضراً مع المتلفظ بهذا القول. ولا هو من الضروري كذلك أن يكون هذا المخاطب شخصاً حقيقياً، كما يشير إلى ذلك فولوشينوڤ. بل يمكن تصور المخاطب في صورة "تمثل" لفئة اجتماعية معينة (١٩٧٢: ٨٥). ويصور فولوشينوڤ (١٩٧٢: ٨٦) رؤية للقول تذهب إلى أن ذلك القول إنما يقرره - بنفس درجة التأثير - المتكلم والمخاطب، وأنه لذلك يكون "ثمرة العلاقة التبادلية بينهما". وبهذا الشكل يشير فولوشينوڤ إلى إمكان النظر إلى القول باعتباره خاضعاً للاعتبارات الاجتماعية "بسبب اشتراط وجود أكثر من شخص لإمكان التلطف به" أو باعتباره محصلة تأليف مشترك بين طرفين.

وثمة رؤى وأفكار أخرى في مجال اللفظة أو القول تضمنتها مقالة فولوشينوڤ بعنوان "الخطاب في الحياة والخطاب في الشعر". وفيها يطرح نظرية مؤداها أن السياق غير المنطوق - الذي يفترض وجوده كل من الناطق والمتلقى - يمثل إلى جانب المكون المنطوق جزءاً من اللفظة أو القول (كلارك وهولكويسست Clark and Holquist ١٩٨٤: ٢٠٤) وهو يفترض (١٩٨٨: ١١) وجود ثلاثة عناصر قد يتألف منها سياق القول في الحياة اليومية: الوضع المكاني - الزماني للمتخاطرين المشتركين في الحديث، ومعرفتهما المشتركة وفهمهما المشترك لهذا الوضع؛ وأخيراً تقييمهما المشترك له. ويشير إلى أن هذا السياق المفترض حدوث القول فيه يساهم في تحديد معنى القول. ويذهب فولوشينوڤ في مقارنة عقدها بين القول الشائع في الحياة اليومية والقول الشفاهي الجمالي، إلى أن القول الأخير لا يعتمد في معناه على سياقه غير المنطوق بنفس درجة اعتماد القول الشائع في الحياة اليومية.

ويعتقد فولوشينوف كذلك أن مظاهر "الجوهر الاجتماعي" الكامن في كافة أشكال الأقوال تظهر واضحة وضوحاً نسبياً في القول الشائع في الحياة اليومية، وللتنظيم (أى: أسلوب الأداء الصوتي من حيث رفع وخفض طبقة الصوت أثناء الكلام) الذي يحدث في القول المستخدم في الحياة اليومية أهمية خاصة في هذا المقام. فهو من خلال تعبيره عن القيم الشائعة، يكشف عن ارتباط هذه الأقوال بما يحيط بها من بيانات اجتماعية. كما أنه يكشف عن وجود علاقة "تفاعل اجتماعي" (١٧: ١٩٨٨) ليس فقط بين الناطق بهذا القول، أو قل صانعه، وبين "المستمع إليه"، بل إنه ومن خلال توجيهه للقيم الاجتماعية، وتوجيهه لما يرتبط بهذه القيم من نزعة للتشخص أو التجسد نحو هدف هذا القول، يكشف كذلك عن وجود هذه العلاقة التفاعلية الاجتماعية بين الناطق/ أو المتكلم وبين موضوع هذا القول أو "بطله".

وقد أسهم ميخائيل باختين (١٩٨٦) ببعض النظريات التي تناولت موضوع اللفظة أو القول، والمشابهة لما طرحه فولوشينوف في هذا الصدد، وذلك على الرغم من أن باختين - وخلافاً لفولوشينوف (١٩٧٣: ٩٧) - لا يعتبر نفسه مساهماً في صياغة رؤية فلسفية ماركسية للغة. زد على ذلك، أن كتابات باختين تحمل قدراً أكبر من التركيز على التفرقة العرفية بين القول (أى: التفوه بالكلام) والجملة، وذلك من حيث إن الأول يصور باعتباره توظيفاً للجملة أو للجمل في مجال التواصل اللغوي. وتوجد مثل هذه التفرقة في أعمال يورجن هابرماس (١٩٧٩)، حيث يُنظر إلى القول على أنه غاية النزعة العملية العامة، وهو اتجاه يعتبره هابرماس نقيضاً لاتجاه علم اللغة الذي يُعنى بالجملة المجردة. (RW) للمزيد انظر: Bakhtin (١٩٨٦) و Clark and Holquist (١٩٨٤) و Hirschkop (١٩٨٦) و Morson (١٩٨٦) و Morson and Emerson (١٩٩٠) و Voloshinov (١٩٨٨).

الليبرالية

Liberalism

"الليبرالية" مصطلح أساسى فى مجال الفلسفة السياسية، حيث ترتبط الكلمة بعدد كبير من المفكرين (منهم: لوك، وأدم سميث، ومالتوس، وكوندنرسيه، وجون ستيوارت ميل، ورولز Rawls، وآخرهم ريتشارد رورتى فى عصرنا الحالى).

ويمكن تقصى الأصول الأولى لليبرالية - خاصة - بالرجوع إلى كتابات جون لوك^(*) (١٦٣٢-١٧٠٤). إذ تكشف أعمال لوك - فى واقع الأمر - عن كثير من الملامح الأساسية التى انتفع بها المفكرون فيما بعد فى تعريف معنى الليبرالية. شاهد ذلك، أن لوك فى كتابه بعنوان "رسالتان عن الحكومة" (١٦٩٠) اهتم بإظهار أن القيام بتحليل القوة السياسية يقتضى أن ندخل فى اعتبارنا عدداً معيناً من الخواص الأساسية التى يتصف بها جميع البشر (ويعنى هذا - عند لوك - تحليل البشر فى حالتهم الطبيعية (انظر مادة: الحالة الطبيعية) وهى فكرة مستمدة من أعمال توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩). وياتخاذ لوك لهذا الاتجاه الفكرى، فإنه يؤكد - فى حقيقة الأمر - وجود عدد من المبادئ المتعلقة بالحق السياسى لكل إنسان والتى تقوم بأداء دورها خارج مجال المجتمع المدنى، ولكنها فى الواقع هى التى تساعد على توفير الأساس والمبرر لقيامه. وهذه المبادئ هى (١) حرية الفعل و (٢) المساواة فى الحقوق. وعلى ذلك، فإنه فى الحالة الطبيعية للبشر لا يكون لأى فرد الحق فى انتهاك ما يتمتع به أى فرد آخر من حرية أساسية. ويبرر لوك دعواه هذه بالاستناد إلى مفهوم القانون الطبيعى المستمد من دعاوى العقل، "والعقل هو القاعدة والمقياس العموميان اللذان منحهما الله للبشر كافة" (الرسالة الثانية، فقرة رقم ١١).

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى غامش مادة: الطبيعة. (المراجع)

ويدعى البعض، انطلاقاً من وجهة نظر عقلانية، أن كل فرد له الحق فى أمرين اثنين هما: أن يحمى نفسه، وأن يطالب بتعويض عما يصيبه من ضرر على أيدى الغير. وانطلاقاً من هذه الرؤية يتضح أن ثمة فهماً معيناً للفرد الإنسانى (يعبر عنه بطريقة تفصل الذاتية الفردية عن القيود التى تفرضها أشكال التنظيم الاجتماعى) وأن هذا الفهم يشكل أساس الخطاب السياسى عند لوك.

ويرى لوك أن كل فرد حريص على مصلحته الشخصية. ويترتب على ذلك أن يصبح من الضرورى توافر شكل ما من أشكال الهيئات التنظيمية لتقوم بالإدارة النزيهة لهذه الحقوق. ويشكل هذا التصور الأساس الذى يبنى عليه لوك تبريره لوجود الحكومة، والتى تمثل أداة للفصل فى النزاعات التى لابد أن تنشعب بين الأفراد الموجودين فى حالتهم الطبيعية (فقرة رقم ١٢). والحكومة - بدورها - تركز على تكوين المجتمع المدنى، الذى يتم الوصول إليه طوعاً من خلال عقد ما (فقرة ١٤). وعلى ذلك، ووفقاً لما يراه لوك، ينبغى أن تستمد شرعية القوة السياسية للحكومة من إجماع كل من يخضعون لها على الرضا بها. ومن حيث المبدأ، لا يكون المرء خاضعاً للقوة السياسية للحكومة إلا إذا كان موافقاً على الدخول فى عضوية المجتمع المدنى، مما يترتب عليه أن يصبح فاعلاً مدنياً.

ويرى لوك أن المجتمع المدنى مستمد - فى جوهره - من مبدأ أساسى واحد من مبادئ القانون الطبيعى، وهو المبدأ الذى يكون فعلاً حال كون البشر فى حالتهم الطبيعية، ويتمثل فى: حق كل امرئ فى امتلاكه لجسده ولنتائج استعماله لجسده (١٣). المنتجات التى يحصلها بعمله). ولعل بالإمكان إيجاز ما يذهب إليه لوك فيما يلى (فقرات من رقم ٢٥ حتى رقم ٢٠):

(١) لكل البشر الموجودين فى الحالة الطبيعية الحق فى الحفاظ على أنفسهم.

(٢) الأرض ملك مشترك لكل البشر بصورة متساوية.

(٣) والثمرات الطبيعية للأرض هي - مبدئياً - من حق كل فرد.

(٤) ومع ذلك، فنظراً لأن هذه الثمرات متاحة للانتفاع بها من الجميع، فإنه يترتب على ذلك ضرورة وجود وسيلة ما لتقسيم هذه الثمرات على الأفراد وتمليكها لهم بناء على ذلك؛

(٥) ثمة شيء واحد يملكه كل البشر، ألا وهو أجسادهم.

(٦) إن كنت تملك جسدك، فإن منتجات عملك تكون ملكك أيضاً.

(٧) ومن ثم فإنه إن كنت تحوز شيئاً حصلت عليه منذ كان الناس في الحالة الطبيعية، فإنه يلزم أن يكون هذا الشيء، بمقتضى تعريفه، ثمرة من ثمار عملك، ويصبح - تبعاً لذلك - ملكاً لك.

ويقول لوك: إنه وبمجرد الوصول إلى هذه النقطة الأخيرة، فإنه يترتب عليها أن لا يكون الآخرين الحق في الاستيلاء على ما تملكه في هذا الوقت - أي على ثمرات عملك - ذلك لأن الممتلكات التي يتم إحرازها بهذا الأسلوب (أي عن طريق العمل) أثناء وجود الناس في الحالة الطبيعية تصبح من خلال هذا الإجراء مسألة "حق خاص". وهذا الحق هبة من الله، ذلك لأن الله لم يكن ليضع عالم الطبيعة تحت تصرف البشر لولا أنه يريد أن ينتفعوا به. ويترتب على ذلك وجود "قانون للعقل"، وهو القانون الأصلي للطبيعة، الذي يؤسس ويبرر حيازة الملكية الخاصة، ومن ثم يقدم الأساس الذي يبرر قيام المجتمع المدني (فقرة رقم ٢). والحكومة بدورها، وفقاً لتصوير لوك، لها وظيفة أصلية هي حماية حقوق الأفراد وحماية ممتلكاتهم (وهي الممتلكات المتمثلة في صورة جسد الفرد وفي صورة ثمرات عمله).

وثمة قيد يحد من الاستيلاء على الأشياء في الحالة الطبيعية للبشر هو قيد استعمال هذه الأشياء: بمعنى أن المرء لا يسمح له بأن يمتلك إلا ما يمكنه استهلاكه بدون فاقد (مثال ذلك أنه إذا استولى فرد على عدد من ثمرات التفاح أكثر مما يمكنه أن يأكله منها فسوف تتلف هذه الثمرات الزائدة وتُفقد؛ وتنطبق نفس هذه الملحوظة على الأرض). ومع ذلك، فقد حدث بعد اختراع النقود (التي تعد سلعة غير قابلة للتلف أو الفساد) أن تغلب الناس على ذلك القيد الذي يحد من ملكيتهم للأشياء، شاهد ذلك أن المرء قد يملك - في واقع الأمر - مقداراً كبيراً من الأراضي، التي يمكن أن يبيع منتجاتها بالمال، ومن ثم لا تذهب هذه الأراضي هباءً. ويترتب على ذلك أن يصبح تبرير التفاوت في الملكية أمراً ممكناً: فبما أن الذهب والفضة، حال كونهما لا ينفعان الإنسان في حياته إلا قليلاً، بالقياس إلى منفعة الطعام، والملبس، والمركبة، وبما أن الذهب والفضة لا يكون لهما قيمة إلا بناء على إجماع البشر على استعمالهما... فمن الواضح أن البشر قد أجمعوا على هذا التفاوت وعدم المساواة في ملكية الأرض" (فقرة رقم ٥٠). معنى ذلك أن الحرية ليست كفيلة بتحقيق المساواة. إذ الواقع أن انتقال البشر من الحالة الطبيعية إلى حالة المجتمع المدني، يمثل عند لوك انتقالاً يجلب معه شكلاً ضرورياً من التفاوت فيما يتصل بحيازة الممتلكات.

وتكشف أفكار لوك عن عدد من الملامح المشتركة عند كثير من مفكرى الليبرالية. أولها وجود اهتمام محوري بالأساس الذي يقوم عليه حق الفرد في حيازة الممتلكات، بما فيها وعلى رأسها ملكيته لجسده. وثانيها أن هذا الحق أعلى من الحقوق الأخرى، وأن وظيفة الحكومة الصالحة أن تحميه وتصوره. وثالثها أن الحرية، بدورها، يجب أن تعنى حرية المرء في أن يُترك وحده ليسعى في تحقيق أهدافه بأقل قدر من تدخل الآخرين في شئونه. ورابعها أن وظيفة الحكومة إنما تتجلى وتتأسس على هذا الافتراض الأساسي المتعلق بحرية الفرد: فينبغي أن تقوم الحكومة على أساس من

إجماع الناس (وهو الأمر الذى تستمد منه شرعيتها وسلطتها)، وعلى أساس أن لها وظيفة أصلية تتمثل فى حماية حقوق الفاعلين المدنيين. وخامسها أن دور الدولة - بناء على ما سبق - دور محدد فى حياة الأفراد: فهي ليست موجودة لتفرض على الأفراد أنماطاً معينة من السلوك ينبغى عليهم الالتزام بها، بل الأولى بها أن تقتصر على الإشراف على سلوك الأفراد فى حدود التأكد من أنه لا يترتب على أفعال فرد ما انتهاك حقوق فرد آخر. ويترتب على ذلك أن الفرد، عند المفكرين الليبراليين، له الأسبقية على كافة الاهتمامات السياسية الأخرى (أى أن الحرية الفردية لها الأولوية على كافة القيم الأخرى، كقيمة المساواة مثلاً).

وتبدو هذه الملامح الفكرية واضحة فى الكتاب الممتاز الذى صنفه جون ستيوارت ميل^(*) بعنوان "عن الحرية" (١٨٥٩). والهدف المعلن الذى استهدفه ميل من تأليفه لهذا الكتاب يتمثل فى "استكشاف طبيعة وحدود القوة التى يمكن للمجتمع أن يمارسها على الفرد بصورة شرعية" فى سياق "الصراع الاجتماعى بين الحرية والسلطة" (١٨٥٩: ٥٩). ويرى ميل أنه يوجد توتر سياسى متأصل بين دائرة الحرية ودائرة السلطة، وبين توتر الحرية الفكرية للفرد و"الرأى الجمعى" (والذى يظهر فى أسوأ صورة فى شكل "طغيان الأغلبية"). والفرد عند ميل كائن مستقل له حق ملازم لهذا الاستقلال: "وهو أن استقلاله هذا استقلال مطلق تماماً" (١٨٥٩: ٦٩). ويظهر الفرد عدداً من القدرات (كالقدرة على التفكير والقدرة على الاختيار بين البدائل) كما يبدى عدداً من العواطف،

(*) جون ستيوارت ميل Stuart Mill John (١٨٠٦-١٩٧٣) فيلسوف إنجليزى من أنصار مذهب الحرية ومذهب المنفعة، ومصلح اجتماعى. حاول أن يطور علماً عاماً للإنسان فى المجتمع فى مؤلفه "علم المنطق الاستدلالي والاستقرائي" (١٨٤٣). وتتجسد أهمية ميل لعلم الاجتماع المعاصر أساساً فى تصنيفه للنامج المناسب للتطبيق فى العلوم الإنسانية، أو "الطرق الخمس للبحث التجريبي": طريقة الاختلاف، وطريقة الاختلاف غير المباشر، وطريقة التلازم، وطريقة التغير، وطريقة الرواسب. راجع المزيد فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص. ١٤٣-١٤٣٣. (المراجع)

والرغبات، والأغراض. وبأخذ هذه القدرات معاً في الاعتبار، يتيسر لنا تعريف الفرد بأنه ذلك الكائن الذي لديه مصالح شخصية يهتم بها. وإذا افترضنا وضعاً يكون فيه عدد مختلف من الأفراد موجودين في مجتمع ما، فإنه يترتب على ذلك أن يحتوى هذا المجتمع - أيضاً - على عدد مختلف من المصالح الشخصية. وهذا الشكل بالذات من أشكال المجتمع، الذي يحتوى على اختلاف القدرة البشرية ويعبر عنها، والمتمثلة في صورة الفرد، هو الشكل الأثير عند ميل لكونه أكثر أشكال المجتمع تقدمية.

ومن هنا فإن تصور ميل للشخصية الفردية والسلطة السياسية معاً، يدل على تأكيده مفهوم معين للحياة الثقافية. "فالثقافة الأكثر تقدماً يمكن اعتبارها مرادفاً للثقافة السياسية الليبرالية، وهى الثقافة التى ترى الفرد باعتباره القيمة الأساسية الرئيسية: "فلن يصبح البشر موضوعاً جميلاً ونبيلاً للتأمل والدراسة إذا تعرض كل ما هو فردى للإضعاف بدمجه داخل أشكال النظم الموحدة... وإنما يتم ذلك عن طريق رعاية الاعتبارات الفردية واستحضارها داخل الحدود التى تفرضها حقوق الآخرين" (١٨٥٩: ١٢٧). وكما هو الحال مع لوك، فإن ميل من بعده يرى أن للفرد حقوقاً تتقرر بالاستناد إلى نموذج تنظيمي أو تشريعي للحرية السلبية^(*). وبعبارة أخرى، تعنى الحرية حرية المرء فى التصرف وفقاً لرغباته، وبشرط ألا ينتهك حريات الآخرين فى تصرفاته هذه ("فحرمان المرء من الحرية فى عمل كذا.... يتوازن مع "حريته فى عمل كذا...."). وبناء على ذلك فإن مفهوم الليبرالية للشخصية الفردية يضع قيداً ذا طابع معيارى يعين لنا حدود تصرفات الفرد الفاعل، وذلك حتى وهو يؤكد حق الأفراد المطلق فى التحرر من الضغوط التى تقع عليهم سواء من قبل الدولة أو من قبل إجماع الناس على أمر ما، وهى الضغوط التى قد تعوق سبيل حقهم الأساسى فى الحرية.

(*) "الحرية السلبية" Negative Freedom تعبير يشبه تعبير الفضيلة السلبية Negative Virtue. فكما أن الفضيلة السلبية تعنى الكف عن الرذائل، فإن الحرية السلبية تعنى الكف عن التدخل فى حرية الغير. (المترجم)

ومنذ عهد قريب، قام جون رولز^(*) (في كتابه بعنوان "نظرية عن العدالة"، ١٩٧٢) بإعادة شرح وتفصيل كثير من المعتقدات المحورية التي تشكل الأساس الفكرى لدى كل من لوك وميل. ويهتم رولز، كما اهتم هذان المفكران، بإيضاح أن الحق السياسى للحكومة فى حكم الناس يتعين أن يكون مستمداً من قيامها بحماية مصالح الأفراد، وهى المصالح الراسخة داخل إطار عقلانى راشد قادر على تزويد كل فرد بالنموذج المعيارى الذى يحتاج إليه. ويرى رولز أن التعبير عن هذا الإطار يتم من خلال افتراض ما يمكن تسميته "بالوضع الأسمى". ويقول إنه فى هذا "الوضع الأسمى" يفترض وجود مجموعة من الأفراد خلف "حجاب من الجهل"، ثم يطلب منهم أن يختاروا القواعد الأساسية التى ستقوم عليها ركائز المجتمع الذى سوف يعيشون فيه فيما بعد. وفى هذا الوضع، يكون هؤلاء الأفراد على غير علم بكثير من الأمور، التى منها: ما هى المكانة الاجتماعية التى سيتمتعون بها فى هذا المجتمع الافتراضى، وما مقدار المال الذى سيملكونه، إلى آخر هذه الأمور. وعلى ذلك، فإن هذا "الوضع الأسمى" المفترض يقوم بوظيفة الوسيلة الإرشادية التى يراد منها الكشف عن طبيعة الاختيارات التى سيفضلها هؤلاء الأفراد الراشدون المجردون من المصالح الشخصية فيما يتصل بشكل النظام الاجتماعى الذى يؤثرونه عما سواه.

ويشترك مفهوم رولز الخاص "بالوضع الأسمى" فى ملامح كثيرة مع نظرية لوك عن "الحالة الطبيعية". شاهد ذلك أنه يتخيل أن من الممكن وصف ذوات إنسانية راشدة

(*) رولز، جون بوردلى Rawls, John Boardly (من مواليد بالتيمو ١٩٢١) فيلسوف أخلاق أمريكى. تعلم وتولى التدريس فى عدد من الجامعات الأمريكية، إلى أن انتهى به المطاف أستاذاً فى هارفارد (منذ ١٩٦٢). ورولز هو مؤلف كتاب "نظرية فى العدالة" (١٩٧١) الذى استلهم فيه كانط (ومن ثم كان مناوئاً فيه للنظم الشمولية) وطرح فيه إطاراً عاماً للفلسفة الأخلاقية المعاصرة (من وجهة نظر الفكر التعاقدى). وهو أشهر عمل صدر فى حقل فلسفة الأخلاق منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. للمزيد عنه انظر: A. Elliott et al., Key Contemporary Social Thinkers, 2003 (المراجع)

وقد نزعَتْ عنها قيود السلطة الاجتماعية، وأنه من الممكن - نتيجة لهذا الوضع - أن تُؤثر هذه الذوات الإنسانية شكلاً من أشكال النظام الاجتماعي الذي يمنحهم أقصى درجة من درجات الحرية الشخصية. كما يذهب رولز إلى أن هؤلاء الأفراد سوف يختارون مجتمعاً تقل فيه إلى أدنى الحدود تلك المظالم التي يمكن تعرضهم لها فيما لو جروا على أنفسهم المتاعب فوجدوا أنفسهم في قاع المجتمع (ويطلق على هذا الوضع - الذي يجتمع للناس فيه أقصى درجات الحريات الشخصية وأدنى درجات التعرض للمظالم - يطلق عليه مبدأ "أقصى الحد الأدنى")^(*). وهكذا يتضح - مرة أخرى - أن النزعة الليبرالية عند رولز تتصور أن القضية السياسية الرئيسية هي القضية المتعلقة بالحرية الفردية، وبأفضل طرق تعظيم هذه الحرية، وبأفضل طرق حمايتها. والأفراد عند رولز - كما عند لوك وميل - يتمتعون بالحرية الممنوحة لهم شريطة ألا يتجاوزوا حدودهم فيتعبدوا على مصالح الآخرين.

وأياً كان الأمر، فإن من الواضح أن الليبرالية - كما وردت في أعمال هؤلاء المفكرين الثلاثة - ليست مصطلحاً يمكن استعماله للتعريف باتجاه فكري إجرائي معين يهتم بكيفية الوصول إلى أفضل نموذج للنظام الاجتماعي. ولذلك نجد أنه على حين يلجأ كل من لوك ورولز إلى أحد نماذج التبرير، الذي ينزع الأفراد من سياقهم الاجتماعي، وذلك من أجل استنباط مبدأ الحق ومبدأ الحرية اللذين سوف يطبقان عليهم، لا يرى ميل أن هذا الإجراء أمر ضروري. وبعبارة أخرى، لا يتخيل ميل أن فكرة "الحالة الطبيعية" (أو أي شيء يشبهها) يعتبر أمراً لا غناء عنه لمحاولة البرهنة على أولوية الحرية الفردية للفاعلين السياسيين. والحقيقة أن تصور ميل للفرد أكثر

(*) ويسميه رولز The Maximin Principle جامعاً في كلمة واحدة مفهومي الحد الأقصى Maximum والحد الأدنى Minimum ليعطى المعنى المشار إليه. (المترجم)

خضوعاً للاعتبارات الاجتماعية، بحيث إن الشخصية الفردية - عنده - تكتسب معناها من البيئة الاجتماعية التي يمارس فيها الأفراد نشاطهم سعياً لتحقيق أهدافهم الشخصية. وعلى الرغم من هذا التصور ذى المنحى الاجتماعى، فإن ميل يلتزم - بنفس الدرجة - بوجهة النظر التى ترى أن الحقوق الفردية أسمى من الحقوق الأخرى، وأن السعى فى توفير الظروف التى تعظم الحرية الفردية يؤدى إلى أفضل أشكال التنظيم الاجتماعى والحياة الثقافية.

وفيمما يتصل بالدولة نجد أن الليبراليين ليسوا - كذلك - على اتفاق بشأنها. فمن كان منهم مؤيداً لأفكار رولز، فإنه يذهب - كما رأينا للتو - إلى أن تعظيم الحرية الفردية يجب - رغم ذلك - أن ينسجم مع جعل المخاطر التى تهدد صالح الفرد والموجودة فى المجتمع فى أدنى حدودها. وبناء على ذلك فإن قيام الحكومة بتوفير مستوى محدد من إعادة توزيع الثروات يكون أمراً له ما يبرره من وجهة نظر رولز، بينما نجد أن مفكراً غيره مثل لوك، يرى أن التوزيع المتفاوت للثروات يمثل نتيجة حتمية للنشاط البشرى فى المجتمع المدنى، وأن على المرء أن يتقبل هذه الحقيقة ببساطة.

وبجانب تأكيدهم أهمية الحرية الفردية، يبدى الليبراليون - كذلك - التزاماً بشكل من أشكال التمييز الشديد الوضوح بين مجالات الحياة العامة ومجالات الحياة الخاصة. وبعبارة أخرى، فإن ليبرالياً مثل ميل، يرى أن ما يختار الفرد أن يفعله بثروته، وحتى بحياته الشخصية، ليس من المسائل التى تدخل فى باب المصلحة العامة، وذلك طالما لم تؤد هذه الاختيارات إلى إيقاع الضرر بالحقوق الخاصة بالآخرين. ويعكس هذا المنحى من التفكير تأكيد الليبراليين أهمية الفرد باعتباره الوحدة الأساسية للخطاب السياسى. ويعرض هذه القضية بأسلوب آخر، يمكن للمرء أن يقول إن الليبراليين ملتزمون - بصفة عامة - بنظرية ما عن أنطولوجيا (وجود) الفرد، وهى

فكرة ميتافيزيقية عن الفرد باعتباره كائناً بسيطاً لا يمكن اختزاله إلى ما هو أبسط منه، يتمتع بنوع من الوجود يمكن اعتباره متجاوزاً لكافة القيود الموجودة في أى ثقافة خاصة أو مجتمع بعينه.

وفى ضوء ما سبق بيانه، قد نجد من المغرى أن نقوم بوضع أفكار الليبراليين فى مقابلة التطورات الفكرية القريبة العهد التى حدثت داخل فلسفة ما بعد الحداثة. من ذلك النقد الذى وجهته فلسفة ما بعد الحداثة لفكرة الذات والذى قد ينظر إليه - فى حالة الاقتناع به - على أنه إيذان بنهاية المفهوم الليبرالى للذاتية وما يستلزمه ذلك المفهوم من التزام الليبرالية بمفهومها الخاص بالحرية. ومع هذا فالأمر ليس كذلك فى الحقيقة. يشهد لذلك أن المفكر البراجماتى الأمريكى ريتشارد رورتى لا ينفر من وصف نفسه بأنه يجمع بين كونه مؤيداً لنزعة ما بعد الحداثة ومؤيداً للمذهب الليبرالى. ولعل بالإمكان أن نضيف إلى ذلك أنه ليس حتماً أن يقوم النقد المابعد الحداثى باستئصال عدد من المبادئ الليبرالية. يشهد لذلك أن من بين أعمال مفكرى ما بعد الحداثة، يمكن إيراد أعمال جان فرانسوا ليوتار باعتبارها نموذجاً لمفكر - رغم التزامه بموقف انتقادى تجاه المفاهيم الليبرالية عن السياسة - فإنه يحتفظ مع ذلك بملامح فكرية كثيرة يمكن أن يطلق عليها مصطلح "أفكار ليبرالية" بحق. ففى كتابه بعنوان "المختلف: عبارات محل اختلاف" (وفى مؤلفاته الأخرى بالفعل) نجد أن دعوة ليوتار للسعى فى تحقيق شكل من أشكال التعددية فى "أنواع الخطاب" لا تتعارض مع دعوة الليبراليين لتحقيق تعددية ما فى الأنماط الفردية لأساليب الحياة.

ولعل من الأمور الوثيقة الصلة بهذا الموضوع فعلاً، أن نقارن الفكر الليبرالى بالفكر الموجود فى التراث الماركسى، الذى يختلف عن فكر ما بعد الحداثة فى أنه لا يميل إلى اعتبار السعى لتحقيق التعددية كهدف فى حد ذاتها أمراً مسلماً به دون جدال. (PS) للمزيد انظر: Barry (١٩٨٦) و Grant (١٩٨٧) و Gray (١٩٩٠)

----- (ج) -----

و (١٩٨٩) Kukalhas و (١٩٨٩) Kymlicka و (١٩٨٨) Locke و (١٩٨٨) Lyorard و (١٩٨٨) Mill و (١٩٨٩) Moore و (١٩٩٢) Rorty و (١٩٩٦) Rawls و (١٩٩٦) Mulhall and Swift و (١٩٩١) Sandel و (١٩٨٩ : ١٩٩٢).

Post-Structuralism

ما بعد البنيوية

حركة فكرية ظهرت فى مجالات مختلفة - كالتقد الأدبى، والدراسات الثقافية، والنظرية السياسية، وعلم الاجتماع، والإثنوجرافيا، وكتابة التاريخ، والتحليل النفسى - وقد نتجت هذه الحركة عن الصيغة البنيوية القديمة التى أخذ بها المفكرون الفرنسيون أساساً فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين، كما كانت - إلى حد ما - رد فعل مضاد لها. وقد سبق للبنيوية أن استمدت اتجاهاتها المنهجية من برنامج علم اللغة النظرى الذى ابتكره فردينان دى سوسير de Saussure قبل ذلك التاريخ بأربعة عقود. ثم أعيد اكتشاف هذا العمل - أو البرنامج - وبقدر كبير من الإثارة على يد المفكرين البنيويين الذين بدأوا فى تطبيق أفكار سوسير على طائفة من الظواهر الاجتماعية والثقافية التى يفترض أنها تحمل وجه شبه (منظومى) مع اللغة، ومن ثم تكون هذه الظواهر قابلة لأن توصف وتحلل بعبارات مستمدة من الاتجاه البنىوى التزامنى لسوسير.

لذلك، فقد كان الهدف الذى يتغياه كل فرع من فروع العلم المذكورة أنفأ هو إحداث قطيعة عن إحدى المعالجات القائمة (والتي لا تعدو أن تكون معالجة إمبيريقية أو معالجة فردية تنصب على الحالة وليست شاملة) لعدد هائل من الحكايات، والأساطير، والطقوس، والممارسات الاجتماعية، والإيديولوجيات، والسير الشخصية، والأنماط الثقافية للاعتقاد ... إلخ، كما كانت تهدف إلى التركيز - بصورة أشد - على البناء الأساسى، أى على المنطق الداخلى للمعنى الذى كان يرجى منه أن يحقق الحلم الكبير لسوسير فى الوصول إلى سيميوطيقا أو علم علامات عام موحد. وكان يراد لهذا العلم أن يمثل المفتاح البنىوى لفهم كافة أنواع الأساطير، وأن يشرح لنا كيف يمكن جمع مثل هذه المجموعة الضخمة (والتي لا يمكن ضبطها عملياً) من الظواهر الثقافية داخل نطاق نظرية لا تتطلب إلا قدرأ يسيراً من المصطلحات، والمفاهيم، وعمليات التمييز والقياسات المنطقية.

ومن بين هذه الأمور - وأكثرها أهمية - ما وضعه سوسير من تميزات أساسية بين الدال والمدلول عليه، وبين اللغة والكلام، وكذلك أفكاره عن المحاور الزمنية الثنائية (التاريخية والمتزامنة) للبحث اللغوي - العلاماتي أو السيميويطيقى. وفوق ذلك، كانت المهمة الرئيسية لهؤلاء المفكرين أن يقوموا بضغط هذا التحليل إلى الحد الذى لا يدع مجالاً لمثل هذه الأفكار - التى وصفت بالساذجة - عن الذات، وهى الذات المستقلة بنفسها المعروفة فى الخطاب الذى تتبناه الفلسفة الإنسانية، بوصفها موجودة بوجه ما خارج نطاق ومن وراء هذه الأبنية المختلفة (أو هذه "المواقف الذاتية") التى تشكل علامة تميز الحدود الفعلية للغة والفكر فى مرحلة ثقافية معينة.

وهكذا تقدم الفكر البنيوي فى أغلب الأحيان مصحوباً بنزعة فكرية مضادة للفلسفة الإنسانية تعبر عن نفسها تعبيراً قاطعاً بأنها ضد أمثال تلك الحركات الفكرية القديمة "المتحصنة حول الذات" كالفلسفة الظاهرية والفلسفة الوجودية. وفى هذا الجانب، وغيره من الجوانب تبدو بوضوح تلك الاستمرارية بين الفلسفة البنيوية وما بعد البنيوية. والحق أنه قد ثار جدال كبير بين المفكرين حول الطريقة التى ينبغى علينا الأخذ بها فى تفسير مقطع "ما بعد" - Post (الذى يأتى فى أول كلمة ما بعد البنيوية Post-Structuralism)، وهل نأخذه بالمعنى المتطرف، الذى يعنى إبطال البنيوية والحلول محلها، أم نأخذه بالمعنى البسيط الذى يشير إلى التعاقب الزمنى والذى يعنى تطوير الفكر البنيوي والتوسع فى تطبيقه فى اتجاهات جديدة. أضف إلى ذلك أن ما بعد البنيوية تستلهم أفكارها الرئيسية من برنامج علم اللغة الذى وضعه سوسير، وذلك على الرغم من أن ما بعد البنيوية تميل إلى التهورين من شأن (أو أحياناً الرفض التام) لأى فكرة ترى أن هذا البرنامج قد يوفر أساساً "علمياً" لتحليل النصوص، والمنظومات العلاماتية، والشفرات الثقافية، والأبنية الإيديولوجية، والممارسات الاجتماعية، إلى آخر هذه المجالات.

----- (م) -----

واليوم يرى البعض أن ذلك الزعم لا يعدو أن يكون وهماً علمياً في دراسات علم اللغة، يشبه الوهم القديم (فى الفكر البنيوي وكذلك فى الفكر الماركسى) الذى يعتقد أن النظرية يمكنها - بوجه ما - أن تصل إلى رأى نقدى يتجاوز كل ما تسعى فى تفسيره وتعليله من الظواهر ويعلو عليها. وعلى النقيض من ذلك، تذهب ما بعد البنيوية إلى أنه ليس بالإمكان وضع حد منهجى فاصل بين النص وتفسيره، وبين اللغة وما وراء اللغة، وبين منظومات الاعتقاد الإيديولوجية وبين غيرها من أنماط الخطاب (النظرية) التى تدعى أنها تكشف قناع الإيديولوجيا بوصفها محصلة الوعى الزائف أو - بلغة أحد الماركسيين البنيويين مثل لوى ألتوسير - بوصفها محصلة أحد أشكال سوء الفهم "الوهمى". وقد ترسخت هذه الأفكار من خلال ذلك الاعتقاد الزائف بأن النظرية يمكنها تحقيق "قطيعة إبستمولوجية" حاسمة عن الأنواع المختلفة من المعرفة "البديهية" الشائعة التى توهم الناس أنها معرفة صحيحة بشكل واضح، مع أنها ترمز - فى واقع الأمر - إلى القيم الثقافية السائدة فى نظام سياسى اجتماعى معين (كأن يكون نظام بورجوازي لكنه يأخذ بالفلسفة الإنسانية). وأياً ما كان الأمر، فإن هذا الموقف يصبح موقفاً هشاً يتعذر الدفاع عنه بمجرد أن يتضح أن جميع المواقف الفكرية المتمحورة حول الذات - والتى منها الموقف الفكرى لعالم التحليل النفسى - مضطرة للدخول فى عملية لا نهاية لها من عمليات التغيير أو الاستبدال، والناجمة عن افتقار اللغة إلى الثبات والاستقرار، وعن العلاقة التحكمية بين الدال والمدلول عليه، بجانب استحالة إدراك معنى الكلام فى نفس لحظة انعقاد نية الناطق به والمدرک له.

ولهذا قد يفهم المقطع "ما بعد" Post من كلمة "ما بعد البنيوية" على أفضل الوجوه بقياسه على غيره من المقاطع المشابهة مثل مصطلح "ما بعد الحداثة"، و"ما بعد

الماركسية"، وأخيراً مصطلح "ما بعد النسوية" - وذلك بوصف هذا المقطع علامة على حركة واسعة الانتشار في اتجاه التراجع عن المواقف الفكرية السابقة ذات الانحياز الصريح لمشروع التحرير السياسى والنقد السياسى. وأياً ما كان الأمر، فإن ما بعد البنيوية تتمسك بأرائها السياسية المتطرفة، والتي بمقتضاها تتخيل وجود ذات - قيد - التشكيل "Subject-in-Process" لا يمكن فهم مختلف أوضاعها المتغيرة فى مجال اللغة أو الخطاب بالاعتماد على أى نظرية (بنيوية، أو ماركسية، أو نسوية أو أى نظرية كانت) تقوم على أفكار "التنوير" العتيقة الطراز عن المعرفة والحقيقة.

وقد كان أشد الأمور تأثيراً فى هذا الصدد، وعلى الأقل فيما بين نقاد الأدب، هذا التعاقب فى المواقف الفكرية المتغيرة، والذي يشاهد فى أعمال رونالد بارت، وذلك ابتداءً من مرحلته الفكرية المبكرة ذات النزعة البنيوية الحادة (فى كتاباته التى منها مثلاً كتابه "الأساطير" (١٩٥٧) ومقالته بعنوان "التحليل البنيوى للقصص" (١٩٧٧/ب) وانتهاءً بأسلوبه الأخير فى الكتابة، مثل ما جاء فى مقالته بعنوان "إس/زد" "S/Z" (١٩٧٠) وكتابه بعنوان "متعة النص" (١٩٧٣)) حيث يتخلى عن كل دعاواه السابقة الخاصة بالدقة النظرية البالغة، وبدلاً من ذلك، يعتمد اعتماداً صريحاً وبصورة يتفرد بها عن غيره على أى من المصادر التى تقع يده عليها - الأدب، وعلم اللغة، والتحليل النفسى البنيوى، والماركسية، وطائفة ضخمة من الإشارات المستقاة مما بين النصوص من صلات ودلالات - وذلك حال معالجته لها بمهارة بالغة وسخرية شديدة، متتصلاً من أى التزام منهجى تقليدى. وفى كتابه بعنوان "الأساطير" قدم بارت - إلى حد بعيد - التطبيق الأشد إقناعاً للمنهج البنيوى المتطرف (والمستمد من أفكار سوسير) على تحليله لعدد من مختلف "الأساطير" البورجوازية الحديثة، ابتداءً من صور الإعلانات إلى طرق الطهى فى المطبخ الفرنسى، ومن مقالة "الرومان فى الأفلام السينمائية" إلى أسطورة قائد الطائرة النفاثة، ومن "مُخْ أينشتين" (وهو من الموضوعات الفائقة إثارة

التي خلقتها الإيديولوجيا الحديثة للعبقريّة العلمية) إلى مشاهد مباريات الملاكمة بوصفها نموذجاً أولياً للاحتيال الثقافي الذي ينتحل صفة المسابقات الرياضية.

وبعد ذلك بعقد من السنين أخذ بارت يفصح - في أسف وندم - عما بدأ يدركه من أن هذه الطريقة المنهجية أصبح بوسع كل من ينتقى أدوات التحليل اللازمة أن يطبقها وأن يعرف كيف ينزع الصفة الأسطورية تماماً عن كل شيء يتناوله بهذه الأدوات. وهكذا يتوجب على المرء أن يمضى قدماً في طريقه، وأن يتخلى عن تلك الفكرة الزائفة عن التحليل "ما فوق اللغوى"، وأن يقدم - بدلاً من ذلك - عدداً من القراءات التي من شأنها أن تغير الموضوع نفسه - وهو نفس التعبير الذي اختاره بارت ليكون عنواناً لإحدى مقالاته التي كتبها فيما بعد - وذلك عن طريق "إعادة كتابة" الأساطير المذكورة فعلاً من خلال عملية تحويل إبداعى للنص. فإن لم يفعل المرء ذلك فسيصل حتماً إلى مرحلة - بغضه إلى بارت - تبدأ عندها الأفكار الثورية المتطرفة في الجمود والاستقرار فتتخذ شكلاً من أشكال المعتقدات التقليدية، أو عندما يؤول الأمر بالأفكار والنظريات التي كانت تبدو فيما مضى ذات نزعة نضالية مدمرة (كتلك الأفكار التي كانت تنادى بها البنيوية "الكلاسيكية") إلى أن يعاد تدويرها وصياغتها في شكل أكاديمي وديع لا يُخشى منه شر.

ويمكن للمرء أن يلاحظ في كتابات بارت الأخيرة هذا التشخيص مطبقاً على جوانب معينة من فكر "ما بعد البنيوية" وذلك على الرغم من أن هذه الحركة الفكرية لم تحقق يوماً أى قدر من الذبوع الذي حققته غيرها من الحركات الفكرية الواسعة الانتشار التي ظهرت فيما بعد. وهكذا، وعلى سبيل المثال، أصبح من القضايا الذائفة المبنية على أحد مبادئ ما بعد البنيوية (والمشتق من أفكار جاك لاكان في التحليل النفسى) القول بأن اللاوعى له بنية تشبه بنية اللغة، وأن ما يقوم به من أعمال هي - طبقاً لتعريف اللاوعى نفسه - أمور يتعذر على الفكر الواعى أن يصل إليها، وأن

الذات الإنسانية ممزقة بشكل بالغ يتعذر إصلاحه بين عالم براق من الإدراك الزائف (الوهمي) للآنا، وعالم رمزي تتكون فيه "هوية" هذه الذات من مجرد سلسلة من التصورات الشخصية الدائمة التغير والتحول، والتي لا يربطها رابط معين. وبذلك يتضح مجدداً أن ما بعد البنيوية قد تأثرت تأثراً شديداً بأفكار ميشيل فوكو ذات النزعة الشككية والخاصة بأصل (جينياالوجيا) المعرفة، وبما ذهب إليه من أن "الحقيقة" في كل زمان ومكان إنما هي ثمرة للمصالح الخاصة لأصحاب النفوذ السياسى، لذلك تتسبب الأنظمة المختلفة للمعرفة المرتبطة بالنفوذ السياسى فى ظهور طرائق أو أنماط صارمة مختلفة للرقابة والضبط الذاتى النابعة من الشخص نفسه. وتتهم هذه الأفكار بأنها تشكل علامة على قطيعة - نعم قطيعة جذرية - الأفكار والقيم السائدة فى الخطاب الأخذ بالفلسفة الإنسانية (التي تؤكد قدرة الفرد على تحقيق ذاته عن طريق العقل) وهو الخطاب الذى يُخفى رغبته فى حيازة القوة عن طريق تعزيزه لوهم الحرية والاختيار المستقل.

وهكذا تذهب هذه الدعوى إلى أن ما بعد البنيوية توفر فضاء يمكن أن يحقق التحرر، وأن يتسع للتصورات والأفكار الذاتية التي تتصف بالتعددية، وافتقاد المحور الذى تتمركز حوله، والتنوع المتغير، بحيث لا يعود فى الإمكان بعد ذلك تعريف الهويات الفردية وفقاً لتلك المفاهيم "الوجودية" القديمة الخاصة بالنوع الاجتماعى أو الانتماء الطبقي. ويرى بعض المفكرين، ومنهم إرنستو لاكلو Ernesto Laclau وشانتال موف Chantal Mouffe، أن ما بعد البنيوية تشير إلى الطريق الذى يفضى إلى شكل من أشكال علم السياسة - الذى تجهز به نزعة ما بعد الماركسية - والذى يعترف بكافة أنواع المصالح الاجتماعية الموجودة فى أيامنا هذه. وبناء على تلك الرؤية يكون من قبيل الوهم "الما فوق السردى" أن نفترض أن أى نظرية تتمتع بشهرة ما (مثل ما تتمتع به الماركسية التقليدية) يمكنها أن تكشف لنا حقيقة التاريخ أو أن تحدد تلك المصالح

الاجتماعية الراهنة درجات الأولوية المناسبة لها وفقاً للعوامل الاجتماعية الاقتصادية أو العوامل التطبيقية باعتبار أن هذه القضية هي وحدها أهم القضايا. ولكن الأحرى بنا أن ننظر إلى الذات الإنسانية - في ضوء المفاهيم المابعد البنوية - باعتبارهم "منتشرين" فوق مجال ممتد عبر جملة من الاتجاهات، وأشكال الخطاب، ومواقع النضال وغيرها، وليس لديهم شيء (ولو نظرية "شمولية" كبرى من نوع ما) من شأنه أن يبرر لهم ادعاءهم الحق في التحدث بالنيابة عن هذه أو تلك من الطبقات المقهورة أو جماعات المصالح المضطهدة. ومع ذلك تبقى أماننا مشكلة تتصل بتفسير الطريقة التي يتبعها أى فرد ليتمكن من الوصول إلى اختيار قائم على العقل والاستنتاج المنطقي أو قائم على عقيدة أو مبدأ أساسى فى أمثال تلك المسائل إذا كان كل "اختيار" من هذه الاختيارات هو - فى واقع الأمر - مجرد محصلة لما يتبعه الفرد من أنماط خاصة فى الاندماج داخل طائفة معينة من أشكال الخطاب السابقة عليه فى الوجود.

كما أن هذه المشكلة لا يمكن حلها بأى شكل من خلال الفكرة التى تقول إن الأفراد (أى الذوات) ليسوا هم أنفسهم، أو أن تكوين الذات عملية متطورة على الدوام، أو أنه بجانب ذلك - وكما يذهب إليه لاكان - لن يحدث أبداً أن تصل "الأننا" إلى مرحلة تستطيع فيها أن تغفلت من تلك المنعطفات التى لا تنتهى والتي يدور فيها الدال، وأن تحقق لنفسها فى نهاية المطاف ما ترجوه من بلوغ حالة من الكمال والحضور "الوهميين". ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الفكرة التى يدور عليها هذا الحال لا تزال تعمل بنجاح بوصفها مذهباً حتمياً، ينظر إلى الذات باعتبار أنها تتشكل على هيئة اللغة (أو تشكلها اللغة)، وذلك بصرف النظر عن رغبة بعض المفكرين من أصحاب النزعة المابعد البنوية فى أن يضيفوا على الذات نوعاً من المظهر الوهمى الغامض عن طريق الإفراط فى إطرء ما يتمتع به الدال من "حرية الحركة" أو إطرء كل ما يمكن للأفراد تبنيه من اتجاهات - أو قل إن شئت: من أدوار "تمثيلية" تتعدد بتعدد ما يمر به الفرد من أحوال متعاقبة.

وفى كتاب بارت الأخير يكون فعل الكتابة نفسه، والمتمثل فى بعض النصوص الأدبية الطليعية، هو الفعل الذى يتوقع منه أن يقوم - بطريقة ما - بإحداث القطيعة مع المعايير القمعية (سواء ما كان منها مكتسباً أو ما كان منها واقعياً)، ومن ثم يقوم بالإعلان عن نظام جديد لا تعود فيه الهوية والنوع الاجتماعى أموراً يتحكم فيها القانون الأبوى الصارم الذى تطبقه "الواقعية التقليدية" البورجوازية. وتحظى هذه الأفكار بنوع من الجاذبية الشديدة إذا ما قورنت بالرسالة الكثيبة التى تحملها أراء بعض المفكرين أمثال فوكو ولاكان. ومع ذلك فإنها عرضة لأن يوجه إليها نفس الاعتراض والمتمثل فى أن: الذات تظل (بتعبير لاكان) مجرد "لعوبة" تتلاعب بها اللغة أو يتلاعب بها الخطاب، وأن الواقع يصبح - بالمثل - مجرد تصور عقلى مختار من بين مختلف الشفرات والأعراف ذات الدلالة لدى الآخذين بها.

وكما رأينا من واقع الاتجاهات المابعد البنيوية فى كتابة التاريخ والعلوم الاجتماعية، فإنه يترتب عليها نتيجة واحدة تتمثل فى طمس الخط ذى الأهمية القصوى، والذى يفصل بين الخطاب الخيالى (المتمثل فى الروايات، والقصص، ومختلف أنواع السيناريوهات الخيالية) وبين غيره من أنواع السرد التى تهدف إلى تقديم وصف صادق لأحداث الماضى أو الحاضر. وقد بلغ هذا الخلط بين عالم الخيال وعالم الواقع مدى أبعد فى كتابات المفكرين الآخذين بنزعة ما بعد الحداثة مثل جان بودريار، الذى يذهب - انطلاقاً من نفس المقدمة بالأساس - إلى أننا نقيم فى عالم تشيع فيه مظاهر الزيف بفعل وسائل الاتصال الجماهيرى حيث نجد أن فكرة وجود واقع "خلف ظواهر الأشياء" فى حد ذاتها (بجانب المفاهيم المتصلة بالحقيقة، والنقد، والإيديولوجيا، والوعى الزائف وما إلى ذلك من أفكار ومفاهيم) توجب علينا أن ننظر إليها بوصفها تنتمى إلى أحد العصور الغابرة التى سادت فيها أفكار التنوير الساذجة. ويمثل هذا العرض كله - وكما يطيب للمفكرين الآخذين بما بعد البنيوية أن

----- (م) -----

يعترفوا به - شوطاً بعيداً يبدأ من البرنامج الأصلي الذي وضعه سوسير ليكون خطة لشكل من أشكال علم اللغة البنيوي القائم على المبادئ العلمية الدقيقة. أما مسألة ما إذا كان بوسع الدعاوى البالغة التطرف لمفكرى ما بعد البنيوية أن تتحدى الإخضاع للفحص الدقيق أم لا، فلا يزال من الموضوعات التي يثور بشأنها خلاف شديد بين المفكرين من مختلف المشارب والاتجاهات. (CN) للمزيد انظر: Attridge et al. (١٩٨٧) وBarthes (١٩٧٥) وBelsey (١٩٨٠) وHarari (١٩٨٠) وHarland (١٩٨٧) وSturrock (١٩٧٩) وYoung (١٩٨١).

ما بعد الحداثة Postmodernism

يذهب أنتوني جينز إلى أن "الوصف بما بعد الحداثة، إن كان يعنى أى معنى، فهو مقصور فى أفضل الأحوال على الإشارة إلى الإبداعات أو الحركات التي حدثت فى مجال الأدب، والتصوير الزيتي، والفنون التشكيلية، والعمارة. ويتعلق هذا المصطلح بجوانب التفكير الجمالي فى طبيعة الحداثة" (١٩٩٠: ٤٥). ويربط جينز هذا المصطلح - فى الواقع - بنيتشه وهابيدجر، وبالتخلي عن مشروع التنوير المعنى بالنقد العقلي. ويستمر جينز قائلاً إن إنجازات ما بعد الحداثة، رغم ذلك، ليس لديها شئ أفضل من هذا التفكير الجمالي تقدمه كبديل للمثل التي قدمتها حركة التنوير.

ومن بين الأعمال النقدية الأخرى التي عالجت ما بعد الحداثة، سعى كتاب دافيد هارفى David Harvey المعنون "ظرف بعد الحداثة" إلى تحليل هذا الظرف من الوجهة الاجتماعية - الاقتصادية. ويذهب هارفى إلى أن الوصف بما بعد الحداثة يمكن أن يفهم على أنه يشير إلى مرحلة فى تطور السوق تتصف باللامركزية والتنوع، يحل فيها

محل الأساس المنطقي لنظام الإنتاج الفوردى^(*) Fordist المتركز في موقع واحد (هو المصنع) شكل من أشكال الصناعة يقوم على تنسيق الإنتاج داخل مصادر متعددة (بمعنى أن أجزاء المنتج النهائي الواحد يتم صنعها في أكثر من مكان ثم تنقل بعد ذلك إلى مكان آخر بقصد تجميعها معاً في منتج نهائي) وذلك بهدف تحقيق قدر أعظم من المرونة في الإنتاج. ونتيجة لذلك، أصبح بوسع هذا الشكل الجديد للصناعة أن يوفر القوى العاملة المتنقلة والمتاحة على نحو لم تكن تسير عليه أسواق العمل في نظام الفوردية فيما مضى. وعلى ذلك فما بعد الحداثة تمثل في الواقع - عند هارفى - توسعاً لتلك العمليات الاجتماعية التي وصفها ماركس بأنها سمة مميزة لمنطق المجتمع الرأسمالي. والحق أن ما بعد الحداثة (على الأقل في صورتها الفلسفية) يصح أن تعد - بناء على فكر هارفى - بمثابة اعتذار عن الرأسمالية.

لذلك فثمة شيء واحد مؤكد فيما يخص ما بعد الحداثة: وهو أن استعمالات هذه الكلمة تكشف عن درجة كبيرة من تعدد المعاني، بحيث تتحدى أى تعريف بسيط. ففي مجال العمارة مثلاً، استعمل مصطلح ما بعد الحداثة ليعنى التغلب على الأعراف الصارمة القديمة التي تشكل أساس الأنواع الحداثية (والمتمثلة في النزعة الوظيفية للمهندس المعماري الشهير لوكوربوزييه^(**) Le Corbusier) مفضلة عليه الذوق الجمالي الأكثر ميلاً للانتقائية وللبهجة، وأكثر بعداً عن النزعة الوظيفية. وعلى النقيض من ذلك، يمكن وصف الرواية "بعد الحداثية" بأنها تمثل نوعاً من التجريب في الأسلوب

(*) نسبة إلى فورد، هنري Ford, Henry (١٨٦٣ - ١٩٤٧) أحد رجال الصناعة الأمريكيين، من رواد صناعة السيارات، وقد ساعدت السيارة الرخيصة ذات الحجم المناسب التي كان أول من أنتجها بالجملة، على جعله أعظم منتج للسيارات. استخدم نظام إشراك الموظفين في الأرباح، وقاوم النقابات العمالية حتى ١٩٤١. أنشأ مؤسسة فورد، وكان ابنه إدموند بريان فورد (١٨٩٣-١٩٤٢)، مدير شركة محركات فورد (١٩١٩-١٩٤٣). خلف هنري فورد الثاني، (١٩١٧-١٩٨٧) جده في منصب المدير (١٩٤٥). (المراجع)

(**) انظر تعريفاً موجزاً به في هامش مادة: العمارة. (المراجع)

السردى، ومن خلال ذلك التجريب يسعى الروائى إلى تجديد الأعراف والتقاليد الراسخة فى شكل الرواية نفسها، وذلك عن طريق الاحتفاظ بجانب من تلك الأعراف والتقاليد وإعادة توظيف جانب آخر باسم تبنى إحدى النزعات الطليعية المنتمية إلى مرحلة الحداثة. ومن بين الكتاب الذين يغلب عليهم الارتباط بنزعة ما بعد الحداثة جان بودريار، وچاك ديريدا، وميشيل فوكو، ولوسى إيريجاراي Luce Irigaray.

ولعل أكثر تفسيرات ما بعد الحداثى تماسكاً ذلك الذى طرحه الفيلسوف جان فرانسوا ليوتار فى كتابه بعنوان "وضع ما بعد الحداثة: تقرير عن المعرفة"، والذى أوجزه بصورة بارعة فى الفصل الأخير من هذا الكتاب، وعنوانه: "الإجابة على سؤال: ما هى ما بعد الحداثة؟". ويقدم ليوتار تفسيراً لصفة ما بعد الحداثة يؤكد انهيار أنساق التفسير الكبرى (مثل أنساق التفسير الماركسية)، وإحلال "أنساق تفسير صغرى" Little Narratives محلها، وذلك فى أعقاب "ظهور" التكنولوجيا التى غيرت مفهومنا لما يعد معرفة. وفى هذه الجزئية، تركّز النظرية المطروحة فى هذا الموضوع على نظرية المعرفة الخاصة بما بعد الحداثة أو إستمولوجيا ما بعد الحداثة، أى إنها تركّز على الشأن المابعد الحداثى فى ضوء ما نعانیه من أزمة فى قدرتنا على صياغة تصور ملائم و"موضوعى" للحقيقة.

وفى مقالته بعنوان "الإجابة على سؤال: ما هى ما بعد الحداثة؟"، يقدم ليوتار تحليلاً لمفهوم كانط عن السامى أو الجليل (كما طرحه كانط فى كتابه بعنوان "نقد الحكم")، وذلك باعتبار هذا المفهوم وسيلة لشرح معنى المابعد الحداثى. فالسامى عند كانط، شعور يتولد لدى المشاهد عندما يعرض لعقله أمر يتحدى قدرته على الفهم والإدراك. وبالمثل، فإن ما بعد الحداثى، كما يرى ليوتار، يمكننا وصفه بأنه نمط للتعبير يسعى لتقديم أساليب جديدة للتعبير عن هذا الشعور السامى أو الجليل. وبعبارة أخرى تعد ما بعد الحداثة خطاً جمالياً طليعياً، يسعى للتغلب على الأعراف المتوارثة

عن طريق البحث عن استراتيجيات جديدة لمشروع شرح الخبرة وتفسيرها. ومن اللافت للنظر ما يذهب إليه ليوتار من أنه يتعين ألا ننظر إلى ما بعد الحداثي باعتباره تقدماً تاريخياً يشير إلى انطلاق حاضرم من حادثة سابقة، إذ إن الأقرب للواقع أن الحادثة تتصف - فى الحقيقة - بأنها استجابة لمجموعة من الاهتمامات التى تعتبر فى حد ذاتها اهتمامات ما بعد حداثية بالفعل. ووفقاً لما يذهب إليه ليوتار، تجسد الحادثة شكلاً من أشكال الشوق الشديد إلى إحساس مفقود بالوحدة، وتنشئ عقب ذلك شكلاً من أشكال علم الجمال الذى يعنى بالتفتت والتشظى. أما ما بعد الحادثة فإنها - على العكس من ذلك - تبدأ بهذا الافتقاد للوحدة ولكنها، بدلاً من التفجع عليه، تحتفى به. وهو موقف توضحه غاية الوضوح تلك المقارنة التى عقدها ليوتار بين "الكسرة" Frag-ment الحداثية (أى: بين العمل الفنى الذى يعد جزءاً من كل أكبر منه، وإن كان هذا الكل أمراً يتعذر تحقيقه) وبين "التجريب" Essay المابعد الحداثى (وذلك بمعنى القيام بمحاولة ما، وبدافع من نزعة تجريبية تترفع عن بناء هذه الوحدة أو التفجع على فقدانها - حيث يتسم هذا الميل إلى التجريب بأنه يحمل وجه شبه قوى بالتحليل الذى قدمه أدورنو فى مقاله بعنوان "التجريب كشكل").

وفى وقت لاحق، أخذ ليوتار فى الابتعاد عن عرضه السابق لفلسفة ما بعد الحادثة. فمن جانب، سعى إلى إعادة تعريفها باعتبارها نوعاً من "إعادة كتابة" مشروع الحادثة (انظر المقالات التى جمعها ليوتار فى كتابه بعنوان "الإنسانى"). ومن جانب آخر، فإن أحد أعمال ليوتار، مثل كتابه بعنوان "المختلف: عبارات محل خلاف" يومى - فى أقل تقدير - إلى أنه قد ينظر إلى ما بعد الحادثة فى ضوء أقل فى قطعيته و يقينه (وأكثر تواضعاً بالتأكيد) من الضوء الذى نظر به إليها فى كتابه بعنوان "الوضع الما بعد الحداثى"، فيقول: "إن ما بعد الحادثة بمثابة رجل مَرْم ينبش فى كومة القمامة التى خلفتها الفلسفة الغائبة باحثاً عن بقايا طعام... وهو هدف يسعى لتحقيقه بعض البشر" (كتاب المختلف: فقرة رقم ١٨٢).

وقام الفيلسوف الإيطالي جيانى فاتيمو Gianni Vattimo كذلك بطرح تفسير لما بعد الحداثى فى مقالته بعنوان "العدمية وما بعد الحداثى فى الفلسفة" الواردة فى كتابه المعنون "نهاية الحداثة". وعلى خلاف رؤية جيدنز، يربط فاتيمو - بصفة خاصة - بين ما بعد الحداثة والفلسفة، أكثر مما يربط بينها وبين الفن. وكما هو الحال مع جيدنز يرى فاتيمو أن ثمة مفكرين يرمزان إلى ابتداء فلسفة ما بعد الحداثة: وهما نيتشه وهابيدجر. ويركز فاتيمو على مفهوم هايدجر عن "لى المعنى أو تحريفه" (Verwindung بالألمانية) كوسيلة لشرح نظريته^(*). والكلمة "الألمانية" Verwindung تختلف فى معناها عن كل من الكلمة الألمانية Überwindung (التي تعنى الانتصار الحاسم على التناقض من خلال استعمال العقل) والكلمة الألمانية التى استخدمها كانط Verbindung، والتى تعنى السعى لتأسيس الأنماط البديهية للجمع والتوليف، باعتباره وسيلة لبناء نقد متعالٍ فى شكل قوانين أولية للفهم ومبادئ للتفكير. أما مفهوم Verwindung عند هايدجر فإنه يعنى، بدلاً من ذلك، نوعاً من "تحريف" المعنى أو ليه بحيث يفسح المجال لنوع من النقد الآخذ بمفهوم النسبية يزدرى جميع المزاعم التى تدعى الموضوعية. وبهذا الشكل يتيح هذا المفهوم لفاتيمو أن يفسر مقطع "ما بعد" الموجود فى كلمة "ما بعد الحداثة"، لأنه لا يسلم تسليمًا مسبقًا بإمكانية وجود نقد متعالى. ومما يثير الاهتمام هنا، أن فاتيمو يرى أن نيتشه، وليس هايدجر، هو أول فيلسوف يتكلم بلغة الـ Verwindung (أى: تحريف المعنى وليه). والحق أن فاتيمو يرى أن ما بعد الحداثة ولدت مع كتابة نيتشه لمقالته بعنوان "نهاية الحداثة، ١٦٤). وبالرجوع إلى كتاب نيتشه بعنوان "الإنسانى، والإنسانى جداً"، يلاحظ فاتيمو أن هذا

(*) يعنى الفعل Verwinden فى معناه اللغوى الدقيق: يتعزى عن كذا أو يبرأ منه، ولكن المؤلف يشير إليه هنا باعتباره يعنى تحريف المعنى أو ليه. (المراجع)

الكتاب يعرف الحداثة بوصفها عملية إحلال مستمر، حيث يتم هجر القديم (الذي تعبر عنه بعض الأفكار كفكرة "التراث") وتفضيل الجديد، والذي يبلى بدوره وتستبدل به أشكال أكثر منه جدة. وفي نطاق هذا السياق، لا يمكن هزيمة الجديد أبداً، وذلك لأن كل هزيمة له لن تعدو أن تكون تكراراً للاهتمام المفرط بالجديد. وبناء على هذا التحليل الذي يطرحه نيتشه، يرفض هذا الكتاب أن يتخيل سبيلاً للخروج من الحداثة بالاتجاه - مثلاً - إلى نوع من الفلسفة المتعالية الكانطية ("وهي الفلسفة التي تذهب إلى أن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر، وليس عن طريق الخبرة والتجربة). بل الأحرى أن نيتشه - في تفسيره أو رؤيته هذه - إنما يسعى إلى تجذير الحديث من خلال تذويب "نزعاته الفطرية" (ص ١٦٦). ويتحقق ذلك من خلال سلسلة العمليات العقلية التالية:

(١) نقد للأعراف (وهي الصيغ السائدة للسلوك الأخلاقي) يقوم به نيتشه من خلال إحدى خطط "الاختزال الكيميائي". انظر كتاب "الإنساني، والإنساني جداً" الفقرات رقم ١٠ وما بعدها، حيث يكتب نيتشه عن صياغة نوع من "كيمياء المشاعر الخلقية والدينية". وهي الخطوة التي تفضي إلى:

(٢) إدراك أن الركيزة الأنطولوجية والأساس المنهجي لهذا الاختزال (أي الحقيقة) يخضعان بالمثل للحل والتذويب بتعرضهما للخضوع لمثل هذا الفحص والتدقيق.

(٣) وأن الحقيقة تصير - نتيجة لذلك - ثمرة للصدفة التاريخية. وبهذا الشكل، يكون من الواضح أن الحقيقة (وما يتبعها من لغة تعبر عن هذه الحقيقة) تتصف بكونها خاضعة لبعض القوى - مثل قوة الحاجة للبقاء - وبأنها تتشكل وفقاً لضغوط هذه القوى عليها، كما أنها ترتكز على بعض المفاهيم والأفكار، التي منها مثلاً ذلك الاعتقاد الواهي الذي لا سند له والذي يذهب إلى أن الحقيقة يمكن أن تُعرف. وهذه الخطوة تُفضي بدورها إلى النتيجة التي تقول:

----- (م) -----

(٤) تركز الحقيقة في أصولها على الوظيفة الاستعارية للغة (واللغة هنا بوصفها أداة لمواجهة هذا العالم والتعامل معه، لا كوسيلة لوصف الواقع). وفي نطاق هذا السياق، تتلاشى الحقيقة ويموت الإله (على نحو ما تقول العبارة الشهيرة) على يد الميتافيزيقا التي دلت عليه. وإذا تسعى الميتافيزيقا المسيحية للوصول إلى الحقيقة ينقلب سعيها هذا عليها، فتجد نفسها عاجزة عن العيش وفقاً لمثلها الأعلى الخاص بها.

ويرى قاثيمو أن هذه النتيجة العدمية التي انتهى إليها نيتشه تطرح أو تقدم سببلاً للخروج من الحداثة، وتشكل معلماً على ميلاد ما بعد الحداثة، بمعنى أنها تستبدل بالاهتمام بإقامة المعرفة على ركائز من مفهوم الحقيقة ومفهوم الجوهر (وهي سمة الحداثة) اهتماماً آخر يؤكد التحليل التاريخي "للظاهر" (أي المظهر الخارجي وليس الجوهر) وغلبة الصدفة على أشكال معرفتنا. ومن الجدير بالملاحظة أن مثل هذا التصور يهمل كثيراً من جوانب فكر نيتشه التي من شأنها ألا تتوافق مع وجهة نظر قاثيمو. ومنها على سبيل المثال تحليله الأخير للحداثة بوصفها شكلاً منحطاً يتوجب قهره، ومنها كذلك انتقاداته للنزعة العدمية الحديثة بوصفها عرضاً للانحطاط أو الانحدار الثقافي. (PS) انظر: Giddens (١٩٩٠) و Harvey (١٩٨٩) و Hassan (١٩٨٧) و Jenks (١٩٩١) و Lyotard (١٩٨٨، ١٩٨٩، ١٩٩١) و Vattimo (١٩٨٨).

ما بعد الكولونيالية / ما بعد الاستعمار Post - Colonialism

يستعمل هذا المصطلح - بصفة عامة - للدلالة على طائفة من التطورات الثقافية التي شهدتها العالم غداة الحرب العالمية الثانية. ولهذا المصطلح، في هذا المجال، معان ذات فروق دقيقة من النواحي التاريخية والفكرية على السواء. فمن جهة، يعنى مصطلح "ما بعد الكولونيالية" شيئاً مهماً مميزاً لتلك الفترة باعتبارها الفترة التي كانت أحداثها

الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية علامة مميزة لما أصاب النزعة الاستعمارية الأوروبية من ضعف وهبوط. ومن جهة أخرى، شغل الفلاسفة الآخرون بمفهوم "ما بعد الكولونيالية" أنفسهم بطائفة واسعة من الاهتمامات الميتافيزيقية، والأخلاقية والمنهجية، والسياسية. وتتضمن القضايا محل اهتمام هذا الاتجاه الفكري: قضية طبيعة الهوية الثقافية، والنوع الاجتماعي، والدراسة المتعمقة لمفهوم القومية، ومفهوم العرق، ومفهوم الإثنية، وتكوين الذاتية تحت ظروف الإمبريالية، وتتضمن كذلك قضايا اللغة والقوة السياسية.

ومن أوائل الكتاب الذين لفتوا النظر إلى أمثال هذه القضايا فرانز فانون^(*)، والذي سعى للتعبير عن الوعي المضطهد للمواطن المستعمر. وقد ذهب إلى أن الاستعمار يُطلق في نفوس هؤلاء الذين يخضعون له عملية من عمليات "الاستدماج أو التمثيل" يعانون فيها من الشعور بالدونية الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية. ولا يقتصر شعورهم هذا على العلاقات الخارجية المتبادلة مع مستعمرهم، بل يحسون تلك المشاعر على نحو يؤثر على إحساسهم بهويتهم الخاصة. ولهذا السبب تخلق الدونية المادية شعوراً بالدونية العرقية والدونية الثقافية. وقد حاول فانون - بدوره - أن يؤكد دور اللغة في هذه العملية. فهو يذهب إلى أن الخضوع للاستعمار يتم من خلال اللغة كذلك: فتحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية تصبح اللغة الكريولية Creole^(**) "أدنى"

(*) فانون، فرانز (عُمر) Fanon, Frantz (Omar) (١٩٢٥-١٩٦١) طبيب نفساني وفيلسوف اجتماعي مارتينيكي. عرف بنظريته القائلة بأن بعض العُصابات neuroses اجتماعي المنشأ. انضم إلى حركة التحرير الجزائرية عام ١٩٥٤ أشهر أثاره: "المعذبون في الأرض" (Les Dammés de la terre) (عام ١٩٦١) وقد دعا فيه الشعوب المستعمرة إلى الثورة على جلاذيتها، و"في سبيل الثورة الأفريقية" Pour la révolution Africaine (عام ١٩٦٤). (المراجع)

(**) اللغة الكريولية Creole: اسم يطلق على أي من اللغات التي تنشأ على أساس امتزاج لغتين أو أكثر والتي يعتبرها الناطقون بها لساناً قومياً. ومن الأمثلة على اللغات الكريولية "الكريولية الهايتية" (وهي =

----- (م) -----

قدراتاً من اللغة الفرنسية، ويجبر المواطن المستعمر على التكلم بلسان حكامه الاستعماريين، حيث يعايش بهذا الشكل شعوراً بالخضوع يحس به في قدراته اللغوية الخاصة وفي هويته الخاصة (وهو شعور، قد يكون إلى جانب ذلك، أمراً غير نادر في محيط أوروبا نفسها، مثال ذلك ما تعانيه الثقافة الأيرلندية والثقافة الويلزية من مكابذات استعمارية تحت سيطرة التوسع الإنجليزي منذ القرن السادس عشر).

وفي أعقاب الأعمال التي قدمها أعلام مثل فانون، أخذ الكتاب يطرحون أسئلة تتعلق بمدى ملائمة التعريفات التي وضعت لتحديد معنى الثقافة ومعنى الطبيعة البشرية (ومنها على سبيل المثال السؤال عن الصفة القومية)^(*) وهي التعريفات التي طرحت داخل نطاق السيطرة الثقافية الغربية (وانظر على سبيل المثال "بها بها" Bhabha^(*) ١٩٩٠)، أو التي تكشف عن التحيز الثقافي الكامن في طبيعة أشكال معينة من الخطاب الأوروبي (انظر كتابات إدوارد سعيد E. Said عن الاستشراق Orientalism). وبالمثل تم تطوير بعض الأفكار، كفكرة "الهجنة أو التهجين" (أي اختلاط الأجناس بالتزاوج وإنجاب ذريات مهجنة) وفكرة الشتات، وذلك بغرض التأكيد

= مشتقة من الفرنسية). والكريولية الميلانيزية (وهي مشتقة من الإنجليزية) والكريولية اللوزيانية (وهي اللهجة الفرنسية التي ينطق بها كثير من الزوج في الجزء الجنوبي من ولاية لوزيانا الأمريكية. وهي تنسب إلى فئة الكريوليين مواليد جزائر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية المتحدتين من أصل أوروبي أو من أصل إسباني بخاصة. ويطلق اسم الكريوليين أيضاً على أولئك البيض الذين تحذروا من مستوطنى بعض الولايات الأمريكية الفرنسيين أو الإسبانيين الأولين والذين لا يزالون يحتفظون بلغتهم وثقافتهم الأصلية. كما يطلق على الأشخاص الذين يجرى في عروقهم مزيج من الدم الفرنسي (أو الإسباني) والزنجي ويتكلمون بإحدى اللهجات الفرنسية أو الإسبانية. والمصطلح يستخدم في سياقات عديدة ولأغراض مختلفة استخداماً استعارياً للإشارة إلى أى شخص أو فئة من المهجنين مختلطة التكوين البيولوجي، والثقافي، والاجتماعي.. وتعاني من التباس الهوية. (المراجع)

(*) المقصود بالصفة القومية Nationhood هنا: بلوغ الشعب أو الأمة مرحلة النضج والأهلية لتحمل المسؤولية السياسية الدولية. (المراجع)

على أهمية مفهوم التنوع الثقافي الكامن الذى يشكل أساس هويات ثقافة ما يسمى بـ"العالم الثالث" أو ثقافة ما بعد الاستعمار (انظر مثلاً، كتابات ستيوارت هول أو هومي بهابها Homi Bhabha). وفى هذا السياق، تم التوسع فى استعمال نظرية الخطاب، ونظرية السرد كوسيلة للتعبير عن وجوه الاختلاف بين الثقافة الغربية والثقافة غير الغربية، وللتشكيك، من ثم، فى تفوقها الذى تعلو به على سائر الثقافات. وقد تم استلهاً بعض هذه النظريات من الماركسية أو من فكر ما بعد الحداثة وفكر ما بعد البنيوية - وذلك على الرغم من أن النزعة المضادة للواقعية الكامنة فى أعمال المفكرين المرتبطين بالحركتين الفكريتين الأخيرتين قد أفضت إلى توجيه بعض الانتقادات، من قبل إدوارد سعيد(*) مثلاً، إلى إمكانية انطباق النزعة المضادة للواقعية على الخبرة التى عايشها أبناء البلاد المستعمرة فى مرحلة ما بعد الاستعمار (وقد يتوجب على المرء أن يذكر هنا وجهاً آخر ممكناً من وجوه النقد، وهو أن الفكر الذى يشكل صلب ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية إنما جاء ثمرة من ثمار الفكر الأكاديمي الغربى).

ومن الأمور الجديدة بالملاحظة كذلك أن استعمال مصطلح "ما بعد الكولونيالية" لتعريف هذه النظريات، أو حتى لتعريف مرحلة تاريخية فى الواقع، أمر فيه خلاف. إذ إنه من الممكن القول بأن هذه الكلمة تحتفظ فى ذاتها بذلك الافتراض الذى يسلم بأن الثقافة الغربية لا يزال لها تلك السيطرة التى حققتها أثناء المائتى سنة أو الثلاثمائة سنة الماضية نتيجة للتوسع الاستعماري، وبعبارة أخرى نقول، إن تعريف أمر بأنه منسوب إلى مرحلة "ما بعد الكولونيالية" يقتضى ضمناً تأكيد الاعتقاد بأن النزعة الاستعمارية لا تزال مستمرة فى ممارسة سطوتها من خلال طرحها لتعريف ما لهوية الرعايا من أبناء البلاد المستعمرة فى مرحلة ما بعد الاستعمار، ولثقافات هؤلاء

(**) انظر ترجمة موجزة لحياته فى مادة: الآخر. (المراجع)

----- (م) -----

الرعايا. وبالمثل، فإن مسألة ما إذا كان من الممكن النظر إلى مرحلة ما بعد الحرب العالمية باعتبار أنها تعبر - فعلاً - عن نقلة للابتعاد عن الأنماط والأعراف الاستعمارية؛ هي مسألة لا تزال موضع شك وارتياب. فقد كان بزوغ نزعة التسلط الاستعماري ذات الجذور الراسخة في الشكل السياسي للدولة القومية في أوروبا مرتبطاً بالنظام الرأسمالي في الحقبة الحديثة، ثم ربما حدث بعد ذلك أن خفت حدة هذا الشكل السياسي. لكن البعض يذهب إلى أن النفوذ الثقافي والاقتصادي للغرب يحتفظ بسيطرته في صورة تلك العمليات التي تقوم بها العولة، وهي العمليات التي وصفها بعض النقاد بأنها سمة مميزة للتطورات التي وقعت في داخل النظام الرأسمالي حديثاً (انظر مناقشة أعمال دافيد هارفي D. Harvey في مادة: ما بعد الحداثة)، (PS) للمزيد انظر: Bhabha (١٩٩٠؛ ١٩٩٤) و Fanon (١٩٨٩) و Said (١٩٧٨؛ ١٩٩٢).

ما بعد النزعة الإنسانية Post - Humanism

التناول المتحمس عادة لتأثير التكنولوجيا على الخبرات الإنسانية المنظمة، كما نصادفه في ميادين: الفلسفة، والنظرية الثقافية، وروايات الخيال العلمي. ويركز أصحاب ما بعد النزعة الإنسانية بالأساس على تعظيم إمكانيات الجسد والعقل الإنسانيين بالاستعانة ببعض التكنولوجيات مثل : ما يفرس أو يزرع من معينات سيرناتيقية، والتعديل الوراثي، وحديثاً جداً استخدام النانو تكنولوجي (*).

(*) Nanotechnology ويمكن تعريفها بأنها استخدام التكنولوجيا فائقة الدقة، وتشير بادئة Nano إلى جزء من بليون من كذا. والمفروض أنها تكنولوجيا المستقبل. (المراجع)

ويمكن فهم مصطلح ما بعد النزعة الإنسانية بوصفه تعبيراً عن موقف يتجاوز الفلسفات الإنسانية التي طبعت بطابعها جانباً كبيراً من الفكر الغربى منذ عصر النهضة. وهكذا يفترض صاحب النزعة الإنسانية مقدماً أن هناك طبيعة إنسانية محددة لا يمكن تغييرها، وأنها مشتركة بين كافة البشر على امتداد التاريخ وعبر الثقافات. (ويعتبر الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) فى الغالب نموذجاً لمثل هذا التوجه الإنسانى). ومع أن هذا الموقف لا يعنى بالضرورة أن الإنسانية لا يمكن أن تتحسن أو تتقدم، فإن صاحب النزعة الإنسانية يفترض عادة أن مثل هذا التقدم -إذا تحقق- إنما يسعى نحو هدف محدد سلفاً، ألا وهو تحقيق جوهر الإنسانية الكاملة. وقد درست تلك الأبعاد التاريخية للنزعة الإنسانية دراسة مكثفة فى القرن التاسع عشر، خاصة فى أعمال فلاسفة مثل هيغل وهاركس، الذين أدركو أن الطبيعة الإنسانية كانت تمر آنذاك بحالة تدفق ونمو تاريخيين. وأكد هاركس - على وجه الخصوص- أن الطبيعة الإنسانية ترتبط ارتباطاً وثيقاً باستخدام التكنولوجيا (انظر مادة: قوى الإنتاج)، وأنها تغيرت عندما أصبحت التكنولوجيا نفسها أكثر دقة، ومن ثم بدأ يرى أنه لا يوجد شئ اسمه طبيعة إنسانية خاصة بالإنسان جوهرياً. وقد دعم هذا التحدى للنزعة الإنسانية اللاتاريخية نظرية داروين فى التطور، التى صورت البشر كنوع من بين الأنواع الحية الموجودة، وليست مخلوقة هكذا أو منفصلة بأى شكل من الأشكال عن قوى الانتخاب الطبيعى التى شكلت تطور الأنواع الأخرى. وهكذا شرع عالم الكيمياء الحيوية البريطانى هالدين (J.B.S.Haldane ١٩٢٤) فى عام ١٩٢٣ فى دراسة الآثار الإيجابية التى يمكن أن تعود على الإنسانية من استخدام التكنولوجيا الوراثية وغيرها من أشكال التكنولوجيا فى تنظيم القدرات الإنسانية.

وفى رأى أصحاب ما بعد النزعة الإنسانية أن الإنسانية لا تمثل فقط موقفاً فلسفياً يتعلق بطبيعة الوجود الإنسانى، وإنما تعنى كذلك الفرض المسبق بأن "الأنسنة"

(أو كون الإنسان إنساناً humanness) هى قيمة معيارية أساسية. وتفترض تلك 'الأسنة' التقييم الإيجابي لاستقلال الإنسان (وهو الاستقلال الذى عبرت عنه -أعمق تعبير- الفلسفة الأخلاقية لفيلسوف القرن الثامن عشر عمانويل كانط، والذى تم تبنيه فى المواثيق، السياسية والأخلاقية، من قبيل الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة). ويمثل الاستقلال - من منظور النزعة الإنسانية - المصدر الوحيد الفريد للكرامة الإنسانية. وقد تصدى مفكرو البنيوية لتحدى هذه الفكرة، مثل لوى ألتوسير (١٩١٨ - ١٩٩٠). ففى رأى ألتوسير أن التركيز على الاستقلال الفردى إنما هو إيديولوجيا، من شأنها أن تحجب اعتماد الفعل الإنسانى اعتماداً حقيقياً على الأبنية الاجتماعية والثقافية. والإنسان الفرد فى أفضل صورة هو مجرد حامل لمثل هذه الأبنية، وتتحد أفعاله (بشكل صارم أحياناً) بفعل تلك الأبنية.

ويبدو تميز الرؤية ما بعد الإنسانية فى تأكيدها الكبير على التكنولوجيا، وعلى انفتاح الطبيعة الإنسانية (أو ما بعد الإنسانية) وعدم إمكانية التنبؤ بما ستكون عليه فى المستقبل. ويذهب بودريار - فى لحة تنبئ بأمر حاسم فى أهميته بالنسبة للنزعة ما بعد الإنسانية - إلى أن البشر المعاصرين (أو ما بعد المعاصرين) يعتمدون أشد الاعتماد على التكنولوجيا التى تحيط بهم من كل جانب، بحيث أصبحوا شديدي الشبه بالشخص الذى يعيش داخل "خيمة أوكسجين" لحمايته من أخطار التلوث^(*) (بودريار، ٢٠٠٠ ب، صفحة ٢٤). والشخص الذى يعيش فى "خيمة أوكسجين" هو طفلُ جهازه المناعى من الضعف بحيث إنه لا يستطيع الحياة خارج بيئة معقمة وصناعية تخضع لتحكم صارم، أى أنه لا يمكنه أن يظل على قيد الحياة خارج تلك "الخيمة" التى

(*) ترجمة بتصرف لتعبير "The boy in a bubble" ومعناه الحرفى "الولد الموجود داخل فقاعة كبيرة شفافة". (المترجم)

صممها وكالة الفضاء الأمريكية NASA. ولعل التغيير الحاسم فى تفكير النزعة ما بعد الإنسانية هو تحويل الانتباه من التحكم التكنولوجى فى البيئة (الذى كان الأساس وراء تطوير ماركس لأفكاره) إلى الإمكانيات التى يمكن أن يتيحها إدخال تلك التكنولوجيا إلى الجسد الإنسانى نفسه، بحيث يتم تجاوز أى طبيعة جوهرية للإنسان من داخل الإنسان نفسه.

وقد شهد القرن العشرون مناقشات جادة - وإن تم تهميشها أحياناً- حول مستقبل الإنسان، ومن ثم مستقبل ما بعد الإنسانى أو ما وراء الإنسانى. ويمكن اعتبار مصطلح ما وراء الإنسانى Transhuman مرادفاً إلى حد ما لمصطلح ما بعد الإنسانى، مع أنه يتضمن إشارة مزدوجة لطيفة إلى تسامى (أو تجاوز) الإنسانية، والإنسانية المتحولة (والمعنى الأخير هو الذى حدده لهذا المصطلح إسفانيارى Esfaniary (١٩٨٩)، 2030 aka FM ، مؤسس "فريق التقدم" Upwingers. وقد أسهمت فى تطوير نظرية ما بعد النزعة الإنسانية وزيادة الوعى الجماهيرى العام بها: إسهامات بعض العلماء (مثل روبرت إتينجر R. Ettinger، ١٩٧٢، وغيره من العلماء الذين اشتغلوا بموضوع حفظ الأجساد البشرية بالتجميد)، وبعض المفكرين الطوباويين (مثل ماكس مور، ٢٠٠٢، مؤسس معهد "الانتحاء للخارج" (الإكستروبييا)، باعتبار الانتحاء للخارج هو نقيض "الانتحاء للداخل" (الإنتروبييا))^(*)، والروائيين وصناع الأفلام السينمائية. وتأسس اتحاد عالمى لما وراء الإنسانى فى عام ١٩٩٨ على يد نيك بوستروم ودافيد بيرس.

ويمثل "بيان إنسان السايبورج" Cyborg Manifesto الذى وضعته دونا هاراواى (١٩٩١) نصاً أساسياً داخل ميدان النظرية الثقافية. وفيه تصدت هاراواى - من

(*) المقصود بالانتحاء للخارج Exropy هنا: الطاقة المستغلة فى نظام دينامى حرارى، على أساس أن الانتحاء للداخل Entropy هو العامل الرياضى الذى يعد مقياساً للطاقة غير المستفادة فى نظام دينامى حرارى. (المراجع)

منظور نسوى- لتحدى ثلاثة أنواع من التعارضات الثنائية الرئيسية التى حددتها فى مسيرة التفكير الإنسانى وهى: الإنسان ضد الحيوان، والكائن الحى ضد الآلة، والمادى ضد غير المادى. وذهبت إلى أن تلك الفروق سوف تضعف وتختفى فى مرحلة ما بعد الإنسانية، وأن تحيز النظام الأبوى للطرف الأول فى كل تعارض من هذه التعارضات سوف يضعف هو الآخر. ولذلك تصبح مهمة الباحث فيما بعد الإنسانية - من منظور نسوى - أن يعثر على الشفرات التى توفر الأرضية المشتركة التى تسمح بتضايف تلك المكونات التى كانت منفصلة من قبل، مما سيؤدى إلى تكافل^(*) الآلة والكائن الحى: السايبورج بوصفه ذاتاً شخصية أو جمعية ما بعد إنسانية جرى تفكيكها وإعادة تجميعها^(Haraway، ١٩٩١: ١٦٣). وفى تحليل كاترين هابلس لما بعد الإنسانى تقرر أنه لا توجد فروق جوهرية أو حدود مطلقة بين الوجود الجسمانى والمحاكاة الكمبيوترية، أو بين الآليات السيبرناتيقية والكائنات العضوية الحيوية، أو بين تكنولوجيا الروبوت (الإنسان الآلى) والغايات الإنسانية^(K.Hayles، ١٩٩٩: ٣).

وقد كشفت مؤخراً المناقشات الأخلاقية لما بعد النزعة الإنسانية بسبب تنامى الإمكانيات التى أتاحتها تكنولوجيا الوراثة. ويمكن القول إن تلك المناقشات تتبنى قضية الكرامة التى أكدتها النزعة الإنسانية، وتركز تساؤلاتها على ما إذا كانت التعديلات الوراثية أو غيرها من التعديلات فى الإنسان سوف تترك هذا الإنسان المعدل وهو مازال يتمتع بقدر مقبول من الكرامة، وماذا عساها تكون - فى الحقيقة - مكونات تلك الكرامة. وهناك بعض المفكرين الذين يقاومون فكرة التعديل الوراثى (أو أى تعديل آخر) فى الفرد الإنسانى أو فى النوع الإنسانى. وهم يعترضون على

(*) التكافل Symbiosis مصطلح مستعار من علم الأحياء يعنى تعايش كائنين عضويين غير متشابهين.
(المترجم)

ذلك عادة على أساس أن ذلك التعديل يمثل اعتداء على الكرامة الإنسانية (ومن ثم اعتداء على القيم التي تؤسس لكون الإنسان إنساناً - الأنسنة). وهكذا يذهب يورجن هابرماس إلى أن الإنسان الذي تم تعديله وراثياً من أجل تعظيم بعض قدراته أو إمكانياته يكون قد حُرِمَ فعلاً من حقه في الاختيار العقلاني - الرشيد - لأهدافه في الحياة. وهو يقابل بين تعظيم القدرات على هذا النحو والتعليم العادي، حيث تمنح العملية التعليمية للفرد المتعلم القدرة على تأمل الأهداف والغايات التي يتعلم من أجلها، وقد ينتهي به الأمر إلى رفضها إذا رأى ذلك. أما الشخص المعدل وراثياً فإنه يحرم من هذا الحق في الاختيار (Habermas، ٢٠٠٣). ولعل فرانسيس فوكوياما هو أشهر مناوئى نزعة ما بعد الإنسانية وأراؤه هي الأوسع انتشاراً (٢٠٠٢). ففي رأيه أن التعديل الوراثي سوف يضعف "العامل س" - الذي لسنا قادرين على معرفته - وهو القاسم المشترك بين كافة البشر، والذي يعتبر أساس الكرامة المشتركة وأساس حقوق كل البشر داخل مجتمعاتهم. ومن شأن إضعاف هذا "العامل س" المشترك أن يؤدي بنا إلى أشكال جديدة من التحيز والقهر، إذ إنه سيحكم على بعض الجماعات أو الأفراد أن يكونوا أدنى أو أرقى - في خصائصهم الوراثية - من الآخرين.

وقد تصدى للاعتراض على هذه النظرة المحافظة نفر من المفكرين، نذكر منهم بوستروم وهيوز. إذ سعى بوستروم (Bostrom، ٢٠٠٥ ب) إلى البحث عن فكرة أرحب للكرامة، يمكن أن توفر فضاءً يتيح في داخله تقبل واحترام كافة أنواع الوجود الممكنة. أما هيوز (Hughes، ٢٠٠٤) فقد تصور مجتمعاً تتاح فيه للكافة شتى أنواع التكنولوجيا المأمونة لإنسان المستقبل، مع منح كل فرد من أفراده الحق في تشكيل جسده على النحو الذي يريده. ويكون دور الدولة هنا مقتصرًا على ضمان أمان تلك التكنولوجيات الجديدة وفعاليتها، وأن تتأكد أن تلك التكنولوجيات لن تكون حكرًا على صفوة الأثرياء أو صفوة الأقوياء. (AE). للمزيد انظر: Bostrom (٢٠٠٥) و Badmington (٢٠٠٠).

المادية الجدلية والتاريخية Dialectical and Historical Materialism

المادية التاريخية هي نظرية التغير الاجتماعى التى طورها كارل ماركس وفريدريك إنجلز. وينقسم التاريخ - وفق هذه النظرية - إلى سلسلة من عصور الإنتاج أو أنماط الإنتاج. ويتسم كل واحد من هذه الأنماط باقتصاد متميز وببنية طبقية متميزة. ويستمد التغير التاريخي قوته المحركة من التوسع المطرد للقوة الإنتاجية لهذا الاقتصاد (ومن تطور التكنولوجيا، أو تطور قوى الإنتاج نتيجة لذلك) كما يتجلى هذا التغير التاريخي فى صورة الصراع الطبقي والثورة.

وتشتمل المادية الجدلية على تلك الجوانب من الفلسفة الماركسية عدا نظرية ماركس عن التاريخ، بما فى ذلك نظرية المعرفة والأنطولوجيا (نظرية الوجود). وقد أصبحت المادية الجدلية الفلسفة الرسمية العقيدية (من العقيدة) للاتحاد السوفيتي (سابقاً). ويلاحظ أن هذا المصطلح لم يستعمله ماركس ولا إنجلز، وإن كانت بعض المحاولات قد بذلت لتطوير أو صياغة فلسفة مادية جدلية متماسكة ابتداء من بليخانوف Plekhanov ولينين، تأسيساً على ما جاء فى كتاب إنجلز بعنوان "ضد دورنج" (١٩٤٧) وكتابه بعنوان: "جدل الطبيعة" (١٩٧٢). وتتسم المادية الجدلية بنزعتها المادية ويرفضها لئى شكل من أشكال النزعة الشككية (*). فالعالم المادى عند المادية التاريخية له الأولوية على العالم العقلى، ومن ثم فإن الجسد شرط سابق على الوعى. وهى ترى أن هذا العالم المادى يمكن - أساساً - معرفته من خلال تطبيق العلوم التجريبية. كما أنها ترى أن الفلسفة جدلية، من حيث إنها تقدم الواقع وهو فى حالة تطور. ولا يعنى هذا مجرد القول بوجود تغير فى العالم المادى، بل الأحرى أنه يعنى أن الواقع يتسم بانكشاف ماله من خواص جديدة نوعياً. (AE) للمزيد انظر: Gallinicos (١٩٨٣) و Gohen (١٩٧٨) و Cornforth (١٩٧١) و Ruben (١٩٧٩).

(*) وهى النزعة الفلسفية التى تذهب إلى أن المعرفة الحقيقية، أو المعرفة فى حقل معين غير مؤكدة. (المترجم)

يشير مصطلح الماركسية إلى تلك المدارس الفكرية فى مجالات علم الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والفلسفة، التى تستمد توجهها من الأعمال التى قدمها كارل ماركس وفريدريك إنجلز. وتتسم الكتابات التى تناولت أعمال ماركس بالشرح والتفسير - وكذلك التطورات التى مرت بها هذه الأعمال - بدرجة فائقة من التنوع والاختلاف. وتشترك هذه الكتابات والأعمال فى اتجاهاتها نحو تحليل المجتمع تحليلاً يعطى النشاط الاقتصادى الأولوية على غيره من الاعتبارات، وذلك على الرغم من أن الخلافات الكبرى الدائرة داخل الماركسية تركز على الدرجة التى يبلغها البناء الاقتصادى فى تحديد طبيعة جوانب المجتمع الأخرى وبنائه. فالمجتمعات فى الماركسية إنما تقوم على أساس الاستغلال الذى تمارسه الطبقة المسيطرة على الطبقات الخاضعة لها. لذلك يتعين تحليل التغير التاريخى فى ضوء التطورات التى تقع داخل القاعدة الاقتصادية، والتى تتجلى فى صورة الصراع الطبقي والثورة. وتظل الماركسية - بوصفها فلسفة سياسية - ملتزمة بتحقيق المجتمع المتحرر من الاستغلال (أى مجتمع الشيوعية)، ويتم ذلك كما هو معروف من خلال تحرير طبقة البروليتاريا، وهى الطبقة الخاضعة داخل النظام الرأسمالى. أضف إلى ذلك أن أحد الخلافات الرئيسية، خاصة فى المراحل المبكرة من الماركسية كانت تدور حول المدى أو الدرجة التى عندها تكون ثورة البروليتاريا حدثاً محتوماً يتعين أن تقوم به قوى التغير التاريخى، أم أنه يتوجب على الأحزاب السياسية الماركسية التعجيل بالقيام بهذه الثورة.

ونظراً لأن ماركس لم يكتب عن الثقافة إلا قليلاً، فثمة متسع كبير لتطبيق أفكاره فى مجال الدراسات الثقافية بصور مختلفة. ولعل الأمر المشترك لدى أغلب الاتجاهات الماركسية إزاء قضية الثقافة هو الاعتراف بأن الثقافة تتجدل مع الصراع الطبقي فى ضفيرة واحدة من خلال الإيديولوجيا. وهو الأمر الذى يوحى بأن الثقافة يتم إنتاجها

داخل المجتمع المقسم إلى طبقات، وأنها تساهم إما في الحفاظ على علاقات القوة القائمة وفي إضفاء الشرعية عليها، وإما في مقاومة هذه القوة. وثمة ثلاثة اتجاهات فكرية رئيسية إزاء الماركسية، ومن ثم إزاء التنظير الماركسي للثقافة، يمكننا تعيينها بصورة واضحة.

وتستلهم الماركسية التقليدية - التي صاغها كاوتسك Kautsk و بليخانوف، ثم صاغها من بعد ذلك لينين وتروتسكي Trorsky، - الأعمال الفكرية التي قدمها إنجلز في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر (إنجلز ١٩٤٧). وتقوم هذه الأعمال بطرح الماركسية بوصفها تفسيراً علمياً للتغير الاجتماعي. وبهذا الوصف أصبحت الماركسية المذهب الرسمي للاتحاد السوفيتي، وبشكل جعلها عقيدة لهذا الاتحاد. وإن أشد نظريات الثقافة ارتباطاً بالماركسية نظرية بليخانوف عن "الصورة المنعكسة". ففي كتابه بعنوان "الفن والمجتمع" (١٩١٢) يقدم شكلاً من أشكال "علم اجتماع الفن"، يعارض به معارضة صريحة مذهب "الفن للفن"، وهو المذهب الذي ينظر إلى الفن بمعزل عن الواقع السياسي والاقتصادي للمجتمع. لذلك يؤول أمر الثقافة عند بليخانوف إلى اعتبارها "مرآة الحياة الاجتماعية".

وفي عهد زدانوف Zhdanov ذي الاتجاه الستاليني^(*) يصبح هذا الاتجاه الفكري هو العقيدة التي تتمسك بها نزعة "الواقعية الاشتراكية" تمسكاً أظهرها في صورة غير منطقية. وبالمقارنة مع تفسير بليخانوف للفن بأنه مجرد صورة منعكسة للمجتمع، نجد أن الفنان عند زدانوف هو مهندس الروح الإنسانية، الذي يعلم الطبقات العاملة، ويرسم صورة الواقع في تطوره الثوري.

(*) نسبة إلى جوزيف ستالين أمين الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي من ١٩٢٢ إلى ١٩٥٣، ورئيس الوزراء من ١٩٤١ إلى ١٩٥٣. (المترجم)

وقد كان جورج لوكاتش أدق شراح نزعة الواقعية الاشتراكية بوصفها نظرية من نظريات الأدب^(*). إذ يرى لوكاتش أن الأعمال الروائية الواقعية في القرن التاسع عشر قدمت أكثر أشكال الرواية التقدمية السياسية. مثال ذلك أن بلزاك^(**) Balzac (رغم نزعته السياسية المحافظة الصريحة) يستحق التقدير والثناء بمقدار ما في رواياته من كشف وإيضاح للقوى الاجتماعية الأساسية في المجتمع، والاهتمام بذلك أكثر من مجرد الاكتفاء بتسجيل المظهر السطحي للمجتمع.

ومن المفارقات أن الأعمال المبكرة التي كتبها لوكاتش، وخاصة كتابه بعنوان "التاريخ والوعي الطبقي" (١٩٢٣)، كان لها التأثير الرئيسي على تطور الماركسية في الغرب. ويصف لوكاتش ماركس بأنه الوارث الحقيقي للتراث الفلسفي الألماني، ومن ثم يرى لوكاتش أن النظرية الاجتماعية عند ماركس تمثل شكلاً من أشكال إعادة الصياغة المادية للفلسفة الهيجيلية المثالية. وبذلك تصبح الماركسية فلسفة ذات نزعة إنسانية أكثر من كونها علماً. وهي تتناول الاتجاهات الوضعية إزاء العلم الاجتماعي، التي تحاول تفسير المجتمع من خلال مناهج البحث في العلوم الطبيعية. وعلى النقيض من هذه الاتجاهات الوضعية تركز الماركسية الغربية على مشكلة إعادة وضع المجتمع - الذي أصبح شيئاً موضوعياً - وضعه من جديد تحت سيطرة أعضائه البشر. ومن ثم فإن

(*) انظر ترجمة موجزة لحياته في مادة: البيروقراطية. (المراجع)

(**) بلزاك، أونوريه Balzac, Honoré de (١٧٩٩-١٨٥٠) روائي فرنسي ولد في أسرة بورجوازية في ترو وأهمل كثيراً في صباه. درس القانون، ولكنه اتجه إلى التأليف الأدبي، قضى حياته في عمل مستمر ونشاط جم. وعاش مع ذلك غارقاً في بؤسه وديونه. له مجموعة روايات وتضمن قصيرة بعنوان "الكوميديا الإنسانية" (١٨٤٢-١٨٤٨)، يصف فيها المجتمع الفرنسي بكل فئاته ومختلف حرفهم ومهنتهم وصناعاتهم. وتشمل المجموعة ٦٥ قصة كاملة. ومن أشهر روايات المجموعة "أوجيني جراند" ١٨٣٣، و"الآب جوريو" ١٨٣٥ كان يعرض أسلوبه المهمل، وميله إلى الوعظ والحزن، بما امتاز به من قوة الملاحظة، وحدة الخيال، والميل إلى السخرية اللاذعة. ألف بعض الروائع في القصة القصيرة، ولكن محاولاته في المسرحية فشلت. كان يحاول أن يعيش في الواقع كثيراً مع أحداث رواياته الخيالية ليتقن وصفها. (المراجع)

نظرية الاغتراب، أو قل إن شئت الدقة: مجاز الاغتراب (الذى يعرف باسم: تجسيد المجردات فى كتابات لوكاتش ومفكرى مدرسة فرانكفورت) تحتل مكانة فائقة الأهمية فى هذا المجال. فالإنسانية قد هجرت العالم الذى ينبغى أن يكون بيتها الذى تسكن فيه. لذلك يمكننا أن نعزو للثقافة موقعاً داخل المجتمع يتصف بالتعقد والتشابك، وأن نتصور أن ما للثقافة من قيمة جمالية إنما تنجدل مع قيمتها السياسية فى ضفيرة واحدة. فالثقافة الرجعية يمكن - من جهة - اعتبارها بمثابة إيديولوجيا. فهى تعيد إنتاج مقولات الفكر والتفكير التى تجعل النظام الاجتماعى يبدو نظاماً طبيعياً ومشروعاً. مثال ذلك، أن وولتر بنيامين W. Benjamin ينعى على استغلال الفاشية للمفاهيم الجوهرية لعلم الجمال التقليدى، مثل مفهوم "الأصالة" ومفهوم "العبقريّة" (١٩٧٠ب) فى تبرير نظامها وإضفاء الشرعية عليه. والثقافة التقدمية - من جهة أخرى - يتم تفسيرها بوصفها تعبيراً عن الاغتراب وعملاً من أعمال المقاومة السياسية.

شاهد ذلك أن أعمال الفيلسوف الألمانى إرنست بلوخ^(*) E. Bloch تستكشف ما يراود البشر من آمال يوتوبية وأشواق إلى تحقيق مجتمع أفضل وأكثر عدالة، وهى الآمال والأشواق التى تشكل جزءاً لا يتجزأ من أغلب الأشكال المتنوعة لهذه الثقافة. ويرى مفكرو مدرسة فرانكفورت - ومنهم أدورنو وماكس هوركهايمر - أن

(*) بلوخ، إرنست Bloch, Ernst (١٨٨٥-١٩٧٧) فيلسوف ألماني، تأثر فى مسيرته الفكرية بالماركسية والمثالية الألمانية واللاهوت المسيحي واللاهوت اليهودي. نشر أول مؤلفاته أثناء إقامته فى سويسرا بعنوان "روح اليوتوبيا" (١٩١٨) الذى اعتبر فيه أن الفن والشعر والموسيقى جميعاً إنما تجسد القدرة البشرية على تحقيق الذات. وأثناء عمله كاتباً حراً فى برلين فى عشرينيات القرن العشرين جمعته صداقة بكل من برخت، وفايل، وبنيامين، ولوكاتش، كما التحق بالحزب الشيوعى الألمانى. وهاجر من ألمانيا عام ١٩٣٣، ثم استقر بعد ذلك فى الولايات المتحدة ابتداء من عام ١٩٣٨ عاد إلى ألمانيا الشرقية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حيث شغل أستاذية كرسي الفلسفة بجامعة ليبزج ١٩٤٩. ولكن السلطات هناك غضبت عليه فانتقل إلى ألمانيا الغربية حيث عين أستاذاً للفلسفة بجامعة توبنجن. للمزيد انظر: A.Elliott et al. Key Contemporary Social Thinkers, 2003 (المراجع)

الثقافة الراقية، على وجه الخصوص، تعد إحدى المجالات القليلة التي يستطيع المرء فيها أن يفكر بأسلوب مختلف، وأن يعارض الأوهام الإيديولوجية للفكر السائد، ذى الدافع الاقتصادي (وذى النزعة الوضعية). وبالمثل، فإن مسرح برتولت برخت^(*) Bertolt Brecht - خاصة ما يحويه من تعبير عن الاغتراب- يبذل الأوهام التي يدعو لها المسرح السياسي المحافظ. وتقوم نظرية الهيمنة- التي صاغها المفكر الماركسي الإيطالي انطونيو جرامشي - بدفع نظرية الإيديولوجيا إلى الأمام، ويتم ذلك على وجه الدقة عن طريق اهتمامها الخاص بحقيقة أن الطبقة الحاكمة لا تستطيع أن تفرض- ببساطة- تفسيرها للعالم على الطبقات الخاضعة لها. فأي تفسير من هذا القبيل سوف يكون مجالاً للأخذ والرد، ومن ثم تصبح الثقافة مجالاً للصراع الطبقي.

وفي ستينيات القرن العشرين كانت ماركسية لوى ألتوسير البنوية المضادة للنزعة الإنسانية تمثل مرحلة جديدة في تطور الماركسية. فهذه الماركسية البنوية ترفض النزعة الهيجيلية التي تتصف بها الماركسية الغربية، لحساب الاتجاه العلمى. كما ثار في نفس الوقت نوع من التشكك ورفض الحتمية الاقتصادية للماركسية السوفيتية، حتى إن الجانب الاقتصادي لم يعد ينظر إليه باعتباره عاملاً حاكماً إلا في "المرحلة الأخيرة"^(**) فقط، الأمر الذى يعطى جوانب المجتمع الأخرى نوعاً من

(*) برخت، برتولت Brecht, Bertolt (١٨٩٨-١٩٦٥) شاعر وكاتب مسرحى ألماني، ترك ألمانيا ١٩٣٣، وذهب إلى روسيا. وأصدر هناك مجلة "الكلمة" لمكافحة النازية (١٩٣٦-١٩٣٩). من أكبر الدعاة إلى الشيوعية، ومن أقطاب الحركة التعبيرية في المسرح الألماني. يعتبره البعض من أعظم الشعراء المسرحيين في القرن العشرين. له نظرية في الأداء المسرحي تعرف باسم "النظرية الابتعادية" ومؤداها أن المسرح وسيلة للتعليم لا للتسلية، وأن هدف المؤلف ليس مشاكلة الواقع، بل إلقاء درس على النظارة، فعلى الممثل أن "يتعد" عن الدور الذي يلعبه بدلاً من أن ينفخ فيه، وأن يخاطب عقول النظارة لا عواطفهم. يعرف مسرحه بالمسرح المحمى. من أشهر مسرحياته "الأم الشجاعة وأولادها" ١٩٤١، و"دائرة الطباشير القوقازية" ١٩٥٥. (المراجع)

(**) أى عند الضرورة القصوى - (المترجم).

الاستقلال النسبي. وقد بادر ألتوسير بطرح فكرة ترى في الإيديولوجيا ممارسة يعيش الناس وفقاً لها (بدلاً من أن تكون مجرد تأملات فكرية)، وهى الفكرة التى أدت - بدورها - إلى طرح اتجاهات فكرية جديدة تتصل بتحليل ثقافة الحياة اليومية، وهى اتجاهات كان لها أهمية خاصة فى الدراسات الثقافية التى ظهرت حديثاً آنذاك.

أما ما تتضمنه هذه الاتجاهات والرؤى من معانٍ تتصل بالفن والأدب، فقد تم استكشافها على يد بيبير ماكيرى P. Macherey (١٩٧٨، ١٩٩٥) على نحو له دلالة الفارقة. إذ يرفض ماكيرى الأفكار المتصلة بالإبداع ويرفض مفهوم المؤلف (كمنشئ للنص)، بل إنه - فى الواقع - يرفض النقد الأدبى بوصفه تقييماً للنص أو تفسيراً له. ويتعامل مع قضية إنتاج النص الأدبى باعتبار هذا الإنتاج أقرب إلى أن يكون شكلاً من أشكال التطبيق المادى المحدد، الذى يعالج المادة الخام للإيديولوجيا ويؤثر عليها. والأدب عند ماكيرى ينتج نوعاً من "النقد الضمنى" للإيديولوجيا، وذلك بكشفه للعلاقة القائمة بين الإيديولوجيا والظروف المادية اللازمة لبقائها.

وقد يذهب البعض إلى أن الدراسات الثقافية قد انتقلت - بصورة متزايدة على الدوام - إلى مرحلة من مراحل ما بعد الماركسية. وقد ينظر إلى عدد من المفكرين ذوى التأثير الكبير، ومنهم بودريار وليوتار، على أنهم قد تطوروا بعيداً عن أشكال التأثير الماركسية الأولية، حتى آل بهم الأمر إلى أنهم لم يقتصروا على مجرد التشكك فى فهم الثقافة الذى تطرحه الماركسية، بل تشككوا - بصورة أدق - فى الرؤى السياسية والتاريخية التى يركز عليها هذا الفهم. (AE) للمزيد انظر: Bottomore (١٩٨٣) و Kolakowski (١٩٧٨) و Lunn (١٩٨٢).

Essentialism

الماهوية/ الجوهرية

هى النظرية التى تقول بوجود خواص جوهرية تحدد لكل شىء ما يكونه، وبدونه لا يمكن لهذا الشىء أن يوجد هو. ويعزو أحد أشكال النزعة الماهوية تلك الخواص إلى

التعريف المعطى للشيء. مثال ذلك، أن من شأن من يأخذ بهذا الشكل من الماهيوية أن يعتقد بوجود خواص جوهرية معينة هي التي تعرف ما يشير إليه مصطلح "الذهب" (حيث يشير هذا المصطلح إلى خواص معينة تتصل بالوزن الذرى، واللون، وخواص الصلابة، ودرجة القابلية للطرق.. إلى آخره). ومن ثم يتعين أن تتصف أى قطعة من الذهب بتلك الخواص الواردة ضمن تعريف مصطلح "الذهب"، حتى يتسنى وصفها بأنها ذهب حقيقى. ومن القضايا التي لم تحسم بعد ما إذا كان الأخذ بهذه النظرة يلزم صاحبها بالتمسك بأن هذه الخواص لابد أن تكون موجودة فى الواقع قبل القيام بتسمية الشيء، لأن هذا التعريف إن كان صادقاً فإن صدقه يمثل حقيقة مسلماً بها من قبل (انظر نقد ليوتار للماهيوية فى كتابه بعنوان "المختلف: عبارات محل خلاف" (١٩٨٨)، الفقرة رقم ٨٨).

ثم لاحظ أنه يوجد فرق بين هذا الشكل من الماهيوية وتلك النظرة التي تذهب إلى أن الأشياء لابد أن تتصف بجوهر أو ماهية خفية - ملموسة أو واقعية - تجعلنا ننسب إلى هذه الأشياء ما نلاحظه عليها من خواص (أى: تجعلنا ننسب إلى الأشياء "ماهيتها الاسمية" Nominal Essence). وكان أول من تناول هذا الوضع بالشرح والتفصيل الفيلسوف التجريبي جون لوك.

وقد بُعثت هذه النظرة فى صورة جديدة فى ثمانينيات القرن العشرين فى أعقاب ما أثاره الفيلسوف الأمريكى سول كرييك Saul Kripke من مناقشات لطبيعة اسم العلم Proper Name. إذ يفهم من كلام كرييك، وبصورة واضحة لا لبس فيها، أنه ما دامت اللغة قد نجحت فى الإشارة إلى الأشياء بواسطة أسماء الأعلام (ويصف كرييك هذه الأسماء بأنها "تسميات صارمة"، كما ينبغي الانتباه إلى أنه يعتبر أن أمثال كلمة "الذهب" تعد من أسماء الأعلام) إذا كانت اللغة نجحت فى ذلك، فلا بد أن الشيء المشار إليه يتصف بالخواص التي تجعله ما هو عليه، بصرف النظر عن وصف اللغة

له. ويشار إلى هذا الموقف الفكرى بأنه "ماهيوية استدلالية" (*) (أى تأتى بعد الإقرار بالحقيقة الواقعية أولاً). وذلك أنه بناءً على تصور كريك، لا يوجد أمر بدهى ضرورى مسبق (أى يأتى قبل الإقرار بالحقيقة الواقعية) إلا القيام بتسمية الشيء، ومن ثم تثبت الإشارة إليه بهذا الاسم، على حين قد تكون الخواص التى اختيرت عند تسمية الشيء خواصاً "عرضية" بالنسبة للشيء المشار إليه، وقد يتبين فيما بعد أن الشيء المسمى يفقد كل أو بعض هذه الخواص. (PS) للمزيد انظر: Kripke (١٩٨٠).

Ontology

مبحث الوجود

انظر: الأنطولوجيا.

Diachronic

ممتّابع

انظر: متزامن/ متتابع.

Synchronic/ Diachronic

المتزامن/ والمتتابع

قام سوسير بالتمييز بين المتزامن والمتتابع فى ثنايا مشروعه الخاص لتطوير علم اللغة، وقد صار هذا التمييز أمراً أساسياً فى أغلب الأعمال التى تتناول **البنوية**. وإن اتخاذ الفكر لاتجاه تزامنى إزاء ظاهرة ما يعنى معالجته لها فى فترة واحدة من

(*) A Posteriori بمعنى "استدلالي" أى أنه قائم على دراسة الوقائع المتفرقة والحالات الخاصة بقصد استخلاص المبادئ العامة منها. (المترجم)

فترات التاريخ، أو باعتبارها أمراً يقع خارج التاريخ. ومن هنا فإن التناول المتتابع يهتم بالجوانب التاريخية أو الزمنية للظاهرة المدروسة. ويدرس علم اللغة البنىوى الذى وضعه سوسير اللغة باعتبارها بناءً ثابتاً لا يتغير، وذلك خلافاً للاتجاه الذى ساد علم اللغة فى القرن التاسع عشر، والذى كان يهتم بالأصول التاريخية للغة وتطورها (AE).

Society

المجتمع

المجتمع فى معناه الحديث نسق من المؤسسات، وأنماط العلاقات، وأشكال التنظيم، والمعايير.. إلى آخره، تؤلف كياناً كلياً ذا علاقات متبادلة بين مكوناته، وتعيش فى نطاقه مجموعة من البشر. وفى ضوء هذا المعنى لا يوجد تعريف بسيط للمجتمع، يمكن أن يلائم جميع النظريات بنفس السهولة. ذلك أن أسلوب المرء فى فهم هذا المصطلح يعتمد غالباً على أسلوبه فى تصور الفرق بين الفرد والمجتمع. فالنزعة الليبرالية التقليدية (كما هو الحال عند لوك، وميل، وروزلز مثلاً) تنظر إلى المجتمع بوصفه تجمعاً للفاعلين الأحرار الذين يتصفون بصفات وخصائص مستقلة عن أنماط العلاقات التى تقوم بعملها فى سياق بيئة معينة. وعلى ذلك، فليس للمجتمع حدود مشتركة مع الفرد، كما أن المؤسسات التى تساعد على ترسيخ العلاقات الاجتماعية الأساسية مستقلة عن هوية الفرد.

وقد عارض النقاد زوؤ الاتجاهات الجماعية الاشتراكية هذه النظرة الليبرالية، مؤكدين وجود رابطة ضرورية بين كون المرء كائناً اجتماعياً وبين أى مفهوم عن الذات أو الأنا قد يرد بأذهاننا. وينظر الماركسيون - عادة - إلى المجتمع فى ضوء تاريخ العلاقات الاقتصادية والمؤسسية (أى علاقات البناء التحتى الاقتصادى والبناء الفوقى الإيديولوجى) التى تحدث تأثيراً حاسماً على المصالح والفرق الطبقيّة، كما يعارض الماركسيون ذلك المفهوم الليبرالى عن الفرد واستقلاله عن المجتمع.

كذلك هاجم الكتاب المرتبطون بالفاشية تلك النظرة التي ترى إمكان تناقض الأفراد مع المجتمع. ففي النموذج الفكرى الفاشستى، يجسد الإصرار على الفصل المبدئى بين الفرد والمجتمع شكلاً من أشكال الاتجاه "الميكانيكى" الذى يعد مناوئاً لوحدة الشعب ككل ومعارضاً للتراث الفكرى الذى يشكل الأساس الذى يقوم عليه مجمل البناء العضوى المنظم للعلاقات الإنسانية. وبالمثل، فإن الغالب على المحافظين (ومنهم إدmond بيرك Edmund Burke مثلاً^(*)) أنهم يدرسون المجتمع وفقاً لما تتصف به تقاليده من وحدة عضوية، خلافاً للمفهوم الليبرالى للمجتمع، الذى يعده جملة من الأفراد، كما يستخدم المحافظون هذه الوحدة العضوية فى إثبات أنه لا بد من الحفاظ على حياة المجتمع عن طريق صيانة هذه التقاليد.

وفى نطاق علم الاجتماع (وهو العلم الذى يدرس المجتمع) يمكننا اكتشاف شكل مماثل من أشكال التناقض. مثال ذلك، أن النزعة الوظيفية تشترك مع وجهة النظر المحافظة - عموماً - فى تأييدها للنموذج العضوى، بينما تميل الاتجاهات الفكرية الفيدرالية والتفاعلية إلى النظر إلى المجتمع فى ضوء ما يتصف به الأفراد من قدرات على فهم بيئتهم الاجتماعية وعلى التفاعل معها بطريقة مستقلة عنها. (PS) للمزيد انظر: Frisby and Sayer (١٩٨٥) و Welford et al. (١٩٦٧).

Post-Industrial Society

مجتمع ما بعد الصناعة

إن الفكرة التى نتحدث عن "حالة أو وضع ما بعد الصناعة"، والقائمة على نوع من الاقتصاد الذى يتميز بالإنتاج المحدود، والنشاط الحرفى للورش الصناعية، كانت

(*) انظر ترجمة موجزة لحياته فى مادة: النزعة المحافظة. (المراجع)

قد طرحت أول ما طرحت في أواخر القرن التاسع عشر، على يد أتباع الاشتراكي اليوتوبى ويليام موريس^(*) W.Morris. ولكننا نلاحظ - من ناحية أخرى - أن مصطلح "مجتمع ما بعد الصناعة"، في استعماله الراهن، قد ظهر بصورة واضحة في أوائل ستينيات القرن العشرين، وبشكل متزامن تقريباً في كتابات كل من دانييل بل D.Bell (١٩٧٣) وألان تورين^(**) (١٩٥٨).

والمقصود من مفهوم مصطلح "مجتمع ما بعد الصناعة" إجمال وصف التغيرات التي حدثت داخل النظام الرأسمالي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. فقد قُدم مجتمع ما بعد الصناعة باعتباره شكلاً اجتماعياً جديداً يختلف عن الرأسمالية الصناعية، كما اختلفت الرأسمالية الصناعية من قبل عن النظام الإقطاعي. والفكرة الرئيسية لهذا المصطلح تدور حول أن المعرفة النظرية أو الفكرية قد أصبحت الآن مصدر التغيير الاجتماعي ومصدر تشكيل السياسة. فقد أصبح المجتمع أعلى في مستوى التعليم، فضلاً عن استثمار مقادير كبيرة من الموارد في إنتاج المعرفة النظرية

(*) موريس، ويليام Morris, William (١٨٣٤-١٨٩٦) شاعر ورسام ومصمم أثاث وداعية اشتراكي إنجليزي. يعد واحداً من أركان الفن الجديد. ابتكر الكرسي المعروف بـ "كرسي موريس" Morris Chair وهو ذو ذراعين وظهور مرّن قابل للتعديل وحشايها يمكن نزعها. (المراجع)

(**) تورين، آلان Tourainem, Alain (من مواليد ١٩٢٥) عالم اجتماع فرنسي شهير، ذاع صيته بسبب إسهاماته في علم الاجتماع الصناعي. درس في الجامعات الفرنسية، وشيلى، وجامعة كولومبيا - نيويورك. أحدث رؤيته تحولاً في بحوث الاجتماع الصناعي من التركيز على مناهج ومفاهيم علم النفس الاجتماعي وتطبيقها في دراسة الظواهر الاجتماعية الصناعية. فلفت الانتباه إلى الموقف الإنساني الناجم عن التكنولوجيا الصناعية، وتسهم في التأثير عليه الأوضاع الاقتصادية وطبيعة النشاط الصناعي للمنشأة نفسها. ونبه أن هذه العوامل: التكنولوجيا، والوضع الاقتصادي، وطبيعة النشاط هي العوامل الحاكمة في التأثير على اتجاهات العمال نحو العمل، ووعي العمال، وتوجهات الحركة العمالية. وقد بذل تورين جهداً خاصاً في تحليل الأوضاع والظروف العمالية، وتمتين العلاقة بين علم الاجتماع الصناعي وسوسيولوجيا الطبقات الاجتماعية. أسهمت بحوثه الإمبريقية في إثراء نظرية العمل، ونظرية المجتمع الصناعي. (المراجع)

(فى التعليم العالى وفى البحث والتطوير فى مجال التجارة). وبذلك ينتقل الاقتصاد من إنتاج السلع وتوفير المواد الخام، إلى إنتاج الخدمات. وتصبح الصناعات المسيطرة هى تلك التى تعتمد على المعرفة النظرية (كصناعة الحاسبات الآلية والصناعة المعتمدة على علوم الفضاء). ويرافق هذا الوضع مع تناقض الطبقة العاملة القديمة، ومع ارتفاع شأن طبقات "ذوى الياقات البيضاء" (أو الطبقات التى لا تمارس عملاً يدوياً). وتصبح الطبقات المهنية والفنية (أو "طبقة المعرفة") الجديدة هى الطبقات المسيطرة.

ويعتمد الفرق بين تصور كل من "بل" وتورين بصورة عامة على مقدار حمس كل منهما لمجتمع ما بعد الصناعة. فعند "بل" يمثل هذا المجتمع تطوراً إيجابياً، يفضى إلى تحقيق قدر أعظم من التكامل الاجتماعى، وإلى تخفيف حدة الصراع السياسى. وعند تورين، يشكل مجتمع ما بعد الصناعة تهديداً بأن يتحول إلى مجتمع تسيطر عليه صفوة تكنوقراطية، ممن لا يقيمون وزناً كبيراً للقيم الإنسانية التى يتصف بها التعليم الجامعى التقليدى. (AE) للمزيد انظر: Kumar (١٩٧٨).

Civil Society

المجتمع المدنى

قبل أن يكتب الفيلسوف هيجل عن موضوع المجتمع المدنى، كان هذا المصطلح مرادفاً فى معناه - تقريباً - لمصطلح "الدولة" (انظر مقدمة ألن وود A.Wood لكتاب هيجل بعنوان: "مبادئ فلسفة الحق"، صفحة ١٨). وكان هيجل^(*)، فى استخدامه لهذا المصطلح، يشير إشارة ضمنية إلى المجال الاجتماعى لظاهرة التبادل التجارى فى السوق (أى: اقتصاد السوق - وهى فكرة مستمدة من بعض الكتابات السابقة، مثل

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: الجدل. (المراجع)

كتاب "ثروة الأمم" لأدم سميث). وفي اقتصاد السوق ينهمك الفاعلون المدنيون، كل بصفته الفردية وبصورة إرادية، فى السعى الحثيث لتحصيل الثروة المالية، والملكية، وتبادل السلع. ويضع هيجل المجتمع المدنى فى مقابل مجال الأسرة، الذى تقوم فيه الروابط التى تجمع بين أعضائها على أساس المحبة المتبادلة (أى روابط الحب). وعلى النقيض من الأسرة يتميز المجتمع المدنى بأنه يمثل عالم الاشتباك الذى يسعى كل فرد فيه لتحقيق غاياته الخاصة به وحده، وهو بهذا التصرف يواجه الآخرين الساعين بدورهم لإشباع حاجاتهم الذاتية (ويتعبير آخر، تكون العلاقات القائمة بين أفراد هذا المجتمع من نوع العلاقات الذرائعية، أو النفعية)^(*). وبهذا الشكل يكتسب الفرد فى المجتمع المدنى إحساساً بهويته يستمدّه من استقلاله النسبى عن الآخرين.

ومع هذا فإن هذا الاستقلال ينطوى فى رأى هيجل على سمة مشتركة، ذلك لأن الأفراد يقومون - من خلال سعيهم الحثيث لتحقيق غاياتهم الذاتية - بتطوير إحساس بالاعتماد المتبادل بين كل فرد والآخرين. ومن هنا لا ينظر هيجل إلى المجتمع المدنى على أنه مجرد حصيلة وجود أفراد منهمكين فى السعى بحرية لتحقيق رغباتهم الخاصة (وهو المجال المقصور على اقتصاد السوق بالمفهوم الوارد عند آدم سميث) ولكنه يفهمه على أنه - بجانب ذلك - مجتمع يجلب معه إحساساً بالمصالح المشتركة، بمقتضاه يدرك الأفراد واجبه تجاه أنفسهم حيث يتعين عليهم إعالة أنفسهم، كما يدركون واجباتهم تجاه بعضهم بعضاً (من ذلك يستطيع الأفراد فى المجتمع المدنى - فى رأى هيجل - المطالبة بحقوق معينة مثل الحق فى تأمين العمل لكل منهم، والحق فى التعليم، والحق فى الحماية من الشدائد الاجتماعية كالفقر مثلاً). ولهذا السبب، يتسم

(*) نسبة إلى الفلسفة الذرائعية Instrumentalism، التى تذهب إلى أن الأفكار عبارة عن وسائل للعمل، وأن قيمتها تتحدد بمقدار نجاح العمل، واختصاراً: هى الفلسفة النفعية. (المترجم)

----- (م) -----

المجتمع المدنى - عند هيجل - بأنه مجتمع مكون من أسرة أو عائلة كبيرة شاملة، إذ يتألف من الجماعات، أو الجماعات المكونة من أفراد ينتمون إليها على أساس الاشتراك فى الحرفة أو المهنة. ويضع تحليل هيجل لطبيعة المجتمع المدنى، هذا المجتمع فى مقابل الدولة، بوصفها الكيان الذى يهتم اهتماماً أساسياً بالمصلحة الأخلاقية للمجتمع كله، ويعمل على أن يحقق مبدأ الأسرة الشاملة ثمرته المنطقية، وذلك عن طريق قيام الدولة بدور الوسيط بين المطالبات المتنافسة الناجمة عن المصالح المختلفة (لكل من الأفراد والجماعات) بهدف تحقيق الرخاء لكل المجتمع (أو تحقيق "الحياة الأخلاقية" لكل المجتمع، على حد تعبير هيجل).

وقد ورث كارل ماركس الشاب رؤية هيجل عن المجتمع المدنى، وأبدى موقفاً منها يتسم - بدرجة أو بأخرى - بعدم التدقيق أو المراجعة. ومع ذلك انتهى ماركس فى كتاباته اللاحقة، إلى تبني وجهة النظر التى ترى أن المجتمع المدنى والدولة تربطهما علاقة وثيقة، مؤكداً أن ما يبدو فى الظاهر من حرية يتمتع بها الفرد فى ارتباطه بغيره وفى سعيه لتحقيق الثروة فى المجتمع المدنى، إنما هو فى واقع الأمر مظهر مقنّع يخفى وراءه البناء أو النظام المسيطر لقوة الدولة. وهى قوة بيد أقلية رأسمالية ثرية هدفها استغلال الأكثرية عن طريق تحقيق منافعها الخاصة المتمثلة فى الأرباح الزائدة. لهذا يرتبط مجال المجتمع المدنى - من وجهة نظر الماركسية - ارتباطاً وثيقاً بقضايا القوة والإيديولوجيا.

ويميل بعض الملحقين المعاصرين (انظر كين Keane ١٩٨٨) إلى تبني وجهة النظر الهيكلية، ألا وهى أن المجتمع المدنى يمثل مجالاً للارتباط الفردى الحر بالآخرين فى مقابل مجال قوة الدولة. لهذا السبب، فإن هذا المصطلح لم يُستنفد على يد ماركس وهو يحاول إعادة تقييمه. (PS) للمزيد انظر: Hegel (١٩٩١) و Keane (١٩٨٨) و Smith (١٩٨٦).

Neoconservatism

(نزعة) المحافظين الجدد

يمثل المحافظون الجدد جناحاً من اليمين السياسى شغل موقعاً يزداد قوة فى الولايات المتحدة منذ تولى الجمهورى جورج دبليو بوش منصب الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠١. وصاحب التأثير المحورى على فكر المحافظين الجدد أستاذ جامعى اسمه ليو شتراوس. ويرى إرفنج كريستول - أحد قيادات المحافظين الجدد - أنها "ليست حركة"، على نحو ما يتصورها بعض النقاد التأمريين، وإنما هى فى الحقيقة "قناعة". وهكذا نرى أن اتجاهات المحافظين الجدد تعبر عن حالة عقلية. ويؤكد كريستول الطبيعة الأمريكية "الخالصة" لهذه الحالة العقلية، على أساس أنها تستمد مشروعيتها من خلال ارتباطها بالجذور الثقافية والسياسية للمجتمع الأمريكى. ويدعو المحافظون الجدد إلى اقتصاد يخف فيه العبء الضريبى إلى أدنى حد، وبذلك تتحقق سيطرة السوق المتحرر من كل قيد. ولهذا يجاهرون بنفورهم من النظم الحكومية الكبرى كنظام الرعاية الصحية ونظم الرعاية الاجتماعية فى كثير من دول الاتحاد الأوروبى. ومما يبدو متناقضاً أن هذا الاتجاه لا ينسجم مع إيمان المحافظين الجدد بدولة قوية على مستوى عال من التأهيل. وربما يفسر لنا ذلك - إضافة إلى شعور قومى جارف، واحترام المثل العليا للنزعة الدينية (المسيحية) المحافظة، والاعتراض على المحاكم الدولية - يفسر لنا لماذا يؤيد المحافظون الجدد ذلك النوع من التدخل العسكرى الأمريكى كذلك الذى وقع فى غزو العراق عام ٢٠٠٣ (PS). للمزيد انظر: Norton (٢٠٠٤) و Kristol (١٩٩٩، ٢٠٠٣)

Holocaust

(المحرقة) (الهولوكوست)

عملية القتل الجماعى التى قام بها النازيون لحوالى ٥.٢ إلى ٦ مليون يهودى خلال السنوات الثلاث الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. وقد تم تصفية أولئك الناس

----- (م) -----

بطريقة منظمة في معسكرات للقتل خلال الفترة من ١٩٤٢ حتى ١٩٤٥، وكان أكبر تلك المعسكرات وأكثرها شهرة معسكر أوشفيتز Auschwitz في بولندا (الذي تأسس في مايو ١٩٤٠)، وأصبح فيما بعد رمزاً لتلك الأحداث المروعة. ومن المعسكرات الأخرى التي شهدت مثل هذه الوقائع: بلسن Belsen، وترلينكا Treblinka، وسوبيبور Sobibor. على أن معسكر أوشفيتز نفسه لم يكن مجرد مركز للإعدام فقط. كان يستهدف تحقيق ثلاثة أهداف في مؤسسة واحدة: فهو معسكر عمل بنظام السخرة، ومعسكر اعتقال، ومعسكر لتنفيذ عمليات الإعدام (وهذا القسم الأخير كان موجوداً في بيركناو في أوشفيتز). والحقيقة أن مؤسسة أوشفيتز باقسامها الثلاثة المشار إليها كانت تضم أكثر من أربعين معسكراً، تقع جميعها وسط منطقة صناعية ضخمة غنية بالموارد الطبيعية. وطوال الفترة من مايو ١٩٤٠ وحتى أوائل ١٩٤٢ لم يتجاوز عدد نزلاء معسكر أوشفيتز ٣٦٠٠٠ سجين، كان حوالى ثلثهم من أسرى الحرب الروس. وكان سجناء المعسكر يستخدمون لخدمة المجهود الحربي الألماني، فيعملون في مناجم الفحم، والمسابك، والمصانع ونحو ذلك. ولكن حدث في عام ١٩٤٢ أن أرسلت الدفعة الأولى من حوالى مليون يهودى من ضحايا محرقة النازى - أطلقت عليهم السلطات الألمانية علامة "معاملة خاصة" (أى الإعدام) - الذين وصلوا إلى أوشفيتز واقتيدوا مباشرة إلى أفران الغاز، التي كانت قد شيدت خصيصاً لهذا الغرض، حيث لا قوا حتفهم.

أما معسكر أوشفيتز-بيركناو نفسه فكان يتكون من المنشآت المرتبطة ببعضها، مثل رصيف لمحطة القطار، وغرف الغاز المبنية خصيصاً، وأفران حرق الجثث الملحقة بها (كانت طاقة بعضها تقدر بحرق حوالى ثمانية آلاف جثة يومياً)، وحفر في الأرض لحرق الجثث، ومحطة صرف صحى، وبعض الثكنات التي كانت مخصصة لإجراء بعض التجارب الطبية على النزلاء. ويمكن القول إن عمليات تخطيط وتصميم

معسكرات الإعدام قد تمت على نطاق صناعى ضخم، بدءاً من تنظيم عمليات النقل، مروراً بتكليف بعض المصانع الكبرى (قامت شركة تويو وأولاده بإنشاء الأفران فى كثير من المعسكرات) بتصميم أفران ذات مواصفات خاصة، ومروراً كذلك بعملية اختيار الضحايا (على يد مجموعة من الأطباء المؤهلين فى الغالب). وهكذا امتزجت المهارات العلمية، والفنية والبيروقراطية وتضافرت مع أهداف القتل والإبادة. ويتجلى المعدل المحموم لعمليات القتل فى أن الضحايا كانوا يُسلمون إلى معسكر الإعدام - فور وصولهم بواسطة القطارات- باستمرار وبدون انقطاع طوال الفترة من ١٩٤٢ حتى ١٩٤٤ . ولم يسجل اسم أى من أولئك الضحايا: "لم يبق أى أثر يدلنا على هوية أى ممن قتلوا عقب وصولهم مباشرة : فلم تسجل أسماء، ولا بيانات، ولا أى معلومات دقيقة" (Gutman and Berenbaum 1994:7).

ومن المحزن أن عدم توفر تلك السجلات الورقية الإدارية دفعت منكرى المحرقة إلى القول بأنه لا توجد شواهد تثبت حدوث عمليات إبادة جماعية على الإطلاق. لكن هناك كمّاً هائلاً من الشواهد التى تدل على العكس - أى وجود المحرقة - فى صورة مستندات مكتوبة، ومخلفات المعسكرات نفسها وشهادات الناجين من المحرقة، وكذلك شهادات مرتكبي تلك الجرائم من النازيين، وغيرهم من الشهود. وكان ينتزع من ضحايا المحرقة ملابسهم، وأدويتهم، ونقودهم، وشعورهم، بل حتى الأغلفة الذهبية للأسنان، وتم استثمار قيمتها الاستعمالية. فبالنسبة لشعور الضحايا بلغت الكميات التى عثرت عليها منها القوات السوفيتية التى حررت أوسشفيتز عام ١٩٤٥: "٢٩٣ جوالاً من الشعر الأدمى يزن الجوال الواحد فى المتوسط ٢٠ كيلو جراماً، و١٢ جوالاً يزن الواحد منها فى المتوسط ٨٨ كيلو جراماً" (Strzelecki, In Gutman and Be- renbaum 1994: 260). وكان ذلك الشعر يستخدم بطرق عدة: فكان يستعمل فى صنع الغزول واللباد، والأقمشة، والحبال، بل والجوارب. أما الرماد المتخلف عن حرق الجثث

----- (م) -----

والعظام فكان يرش على الحقول التابعة للمعسكر كنوع من المخصبات. فلا شك أبداً في أن العمليات التي كانت تجرى في أوسشفيتز وغيره كانت - من هذه النواحي - تحقق ربحاً أكيداً.

ويمكن القول إن واقعة المحرقة ذات أبعاد مروعة تكاد تستعصى على الوصف. وكما قال أدورنو (١٩٧٣ب) لم يعد من الممكن بعد أوسشفيتز بلورة مفهوم إيجابي للتسامي إلا أن يكون مفهوماً يزدري مصير الضحايا ومن ثم يعدل نفسه بنفسه. لقد فرض علينا ميراث هتلر "ضرورة مبدئية جديدة" تحتم علينا ألا نسمح بتكرار مثل هذه الأحداث في المستقبل. وإذا أخذنا هذا المطلب في الاعتبار وتأملنا في الوقت نفسه بعض الأحداث التي وقعت مؤخراً (سواء في يوغوسلافيا، أو رواندا، أو غيرهما) فإنه يمكننا أن نقول بشكل حاسم إن الإنسانية في أيامنا هذه قد أخفقت إخفاقاً تاماً في الالتزام بهذا المطلب.

وتذهب هانا أرندت^(*) (١٩٠٦ - ١٩٧٥) إلى أن معسكرات الموت تدلنا على أنانية العقل الشمولى التي لا حدود لها وكذلك على "تحول الشر إلى ممارسة اعتيادية" (Arendt 1965). وتمثل أنانية النظام الشمولى تحولاً من النظرة العدمية التي سادت القرن التاسع عشر والتي كانت ترى أن "لا شيء حقيقي، وكل شيء مباح"، إلى الإيمان بأن "كل شيء ممكن". وكما توحى عبارة أرندت "إن الشر تحول إلى ممارسة اعتيادية"، أى أن الشر أصبح يقترف دون أدنى تفكير أو مراجعة: فالقتلة وضحاياهم لم يعودوا فاعلين^(**)، وإنما أصبحوا مجرد أدوات لتنفيذ أدوار اجتماعية محدودة.

(*) انظر تعريفاً موجزاً بها في هامش مادة. الفاشية. (المراجع)

(**) نوى إرادات مستقلة. (المراجع)

ويرى ليوتار (١٩٨٨) أن أوسشفيتز أصبحت تمثل نموذجاً بارزاً "لخصومة"، يرتكب فيها جرم في حق شخص، ويحرم هذا الشخص من وسائل إثبات وقوع هذا الجرم في حقه فعلاً. ومن هنا فإن إعدام الملايين في عمليات الإبادة الجماعية التي قام بها النازيون، وإزاء توفر الشواهد الدالة على حدوث هذا الإعدام فإن إنكار حق أولئك القتلى في أن يحظوا بمكانة الضحايا إنما يمثل استمرار وقوع الجرم في حقهم. وعلى كل من يرغب في فهم المحرفة أن يقرأ ما كتبه بعض الناجين منها مثل: بريمو ليفي، تاديوز بوروفسكي وشارلوت ديلبو، ليس لمجرد كونها شهادات بأقلام شهود عيان للمجزرة، وإنما بسبب قدرتهم على تصوير الأمور للقارئ تصويراً حياً يجعل من المحرفة " تجربة يمكن معايشتها معهم " (Langer, in Gutman and Berenbaum, ١٩٩٤: ٦٠٤). (P.S). للمزيد انظر: Borowski (١٩٧٦) و Levi (١٩٨٨) و Gutman and Berenbaum (١٩٩٤) و Delbo (١٩٩٥).

Risk

المخاطرة

موقف لا يمكن معرفة نتيجته بأي قدر من اليقين. وفي عالم الاقتصاد تختلف المخاطرة اختلافاً حاداً عن عدم اليقين. ففي حالة عدم اليقين لا يعرف الفاعل ماذا يمكن أن يحدث. أما في حالة المخاطرة فإن الفاعل يكون واعياً بالنتائج التي يمكن أن تحدث، وقد يكون قادراً على حساب الاحتمالات المرتبطة بكل نتيجة ممكنة، لكنه لا يستطيع أن يحدد ماذا يمكن أن يحدث فعلاً (كما في حالة رمي زهر الطاولة مثلاً) (Knight, ١٩٢١). وقد تصدت بعض دراسات المخاطرة في مجال الاقتصاد وفي علم النفس لدراسة طرق الفاعلين -عادة- في حساب المخاطر، مع إشارة خاصة إلى التضارب بين حسابات فاعل رشيد نموذجي وحسابات فاعل حقيقي. ويعتقد عادة أن

البغض الشديد للمخاطرة هو الذى يحكم الاختيارات والتصرفات الفردية. ومن الأمور المعروفة جيداً أن الناس ليسوا بارعين فى تقدير المخاطر، بحيث نجد -مثلاً- أن حادثاً غير محتمل ولكنه مثير (كمهاجمة شخص بقصد السلب) يمكن أن يعد تهديداً أكبر من أى فعل روتينى (مثل قيادة السيارة). وتوحى هذه النظرة بالفعل أن تصور الناس للمخاطرة يتحدد اجتماعياً إلى حد ما.

ونجد فى ميدانى علم الاجتماع والنظرية الثقافية أن دراسات عالمة الأنثروبولوجيا الثقافية مارى دوجلاس عن مفهومى "الطهارة" و "الخطر" قد ألقت الضوء على الصياغة الاجتماعية لمفهوم المخاطرة (Douglas، ١٩٦٩). "فالآخر" يتم تصويره كموضوع للخوف والجاذبية، ومن ثم للخطر والتلوث، بمعنى أنه يمثل تهديداً بتمزيق الحدود الثقافية المستقرة. ففهم المخاطرة على هذا النحو بوصفها خطراً بحدوث تلوث إنما يتشكل بمعنى - مصطبغ ثقافياً - للسواء وللحدود الأخلاقية والطقوسية السليمة. وفى المجتمعات قبل الحديثة كان يتهم بإحداث التلوث الشخص الذى يفتقر بالفعل إلى الشعبية والقبول لدى الآخرين، الأمر الذى يعنى أنه حتى الأحداث الطبيعية كان يخلع عليها تفسير ذو دلالة اجتماعية وسياسية بالأساس. أما فى المجتمعات الحديثة فإن النظرة العلمانية إلى الأمور تسمح بإرجاع كل مخاطرة إلى عوامل سببية، وإن كان يحدث أيضاً أن يلام الضحايا الذين كانوا "معرضين للخطر" (انظر: Douglas، ١٩٨٥ و ١٩٩٢؛ Douglas and Wildavsky، ١٩٨٢).

وقد حظيت نظرية أولريك بيك عن "مجتمع المخاطر" بتأثير كبير على علم الاجتماع(*)، ويميز بيك فيما يتصل بالمخاطر (Beck، ١٩٩٢) بين المجتمعات قبل

(*) بيك، أولريش Beck، Ullrich (من مواليد ١٩٤٤) من أشهر علماء الاجتماع المعاصرين وأبرزهم فى مجال النظرية الاجتماعية. وهو إلى جانب يورجن هابرماس، وأكسل مونت، والراحل نيكلاس لومان يعدون أهم علماء النظرية الألمان. ولقد كان كتابه "مجتمع المخاطرة" من أوسع الكتب انتشاراً، ليس فقط فى=

الحديثة والمجتمعات الحديثة. ففي المجتمع قبل الحديث لم تكن المخاطرة تعد مفهوما ذا أهمية. فالشيء الأهم فيها هو القدر، الذي يرتبط بالكوارث الطبيعية كالأوبئة والمجاعات، وسبب ذلك في الحقيقة هو أن تلك الأحداث تقع خارج نطاق سيطرة الإنسان. أما المخاطرة فتعني إمكانية حدوث استجابة من جانب الإنسان، كما تفترض إمكانية وجود حساب للمخاطر وتقدير لحجمها. وهكذا نجد المجتمعات الحديثة تتمتع بالوسائل التكنولوجية اللازمة لتقدير حجم المخاطرة، والعمل -كلما أمكن- على تجنبها أو التخفيف من أضرارها. وقد أدى هذا على سبيل المثال إلى ظهور دولة الرعاية كوسيلة لحماية الأفراد من المخاطر الاجتماعية (كمخاطر البطالة، والمرض، والعجز). ومع ذلك لا يظهر مجتمع المخاطر إلا في أعقاب الحروب، حيث يمر المجتمع بمرحلة "الحداثة الانعكاسية" (*) (Beck وآخرون، ١٩٩٤). ففي مرحلة الحداثة الانعكاسية هذه يتحول الشاغل الرئيسى للمجتمع من مسألة تنمية التكنولوجيا الجديدة وإعادة انتشارها، إلى مواجهة المخاطر المترتبة على التكنولوجيا المستخدمة فعلاً، وتؤكد وجهة نظر "بيك" أن المجتمع الصناعى لا ينتج "الأشياء الطيبة" فقط، وإنما هو يصنع "الشرور" أيضاً، ويقصد بها المخاطر والأعباء المرتبطة بالتكنولوجيا (كالتلوث، والنفائات النووية، والانبعاث الحرارى على مستوى العالم، والآثار الجانبية المصاحبة للعلاج الطبى). وتمثل تلك "الشرور" الآثار غير المقصودة للنشاط الصناعى. ويؤكد بيك - فى سخرية - أن معالجة تلك الشرور يمكن أن تؤدي هى نفسها إلى آثار أخرى غير

= دوائر المشتغلين بعلم الاجتماع، وإنما على مستوى الإنتاج الفكرى المعاصر على وجه الإطلاق. من أهم أعماله: "مجتمع المخاطرة: نحو حداثة جديدة" (١٩٩٢)، و"السياسات البيئية فى عصر المخاطرة" (١٩٩٥)، و"إعادة اختراع السياسة" (١٩٩٧)، و"مجتمع المخاطر العالمى" (١٩٩٩). انظر المزيد عنه فى A. Elliott et al., Op. Cit., pp. 45-51. (المراجع)

(*) أى تأمل الحداثة وتقدما. (المترجم).

مقصودة.. وهكذا. ويوضح كذلك أن مثل هذه المخاطر لا تهدد عادة جماعات بعينها داخل المجتمع، وإنما تمثل تهديداً للكافة. ويذكرنا بيك أن سحب الضباب والدخان ذات طابع ديموقراطي في آثارها (Beck، ١٩٩٢: ٢٦). ويعنى هذا أن تلك "الشُرور" تصيب الأفراد جميعاً ولا تصيب طبقات معينة بالمعنى التقليدي للطبقة.

وهكذا يمكن تشخيص المجتمع المعاصر، أولاً بانھیار الثقة في الخبراء العلميين وفى قوة التفسير التكنولوجى. ويرى جيدنز أن مشروع حكومة حزب العمال الجديد التى تسلمت السلطة فى المملكة المتحدة عام ١٩٩٧ كان يتمثل تحديداً فى الاستجابة لهذه الثقافة الجديدة (Giddens، ١٩٩٨). ويتميز مجتمع المخاطر - ثانياً - فى رأى بيك بأنه، إلى جانب انهيار الثقة هذا، يقلل من شأن الأبنية الطبقية التقليدية. ومع ازدياد وعى الأفراد بوضعهم فى المجتمع نجدهم يحسبون المخاطر المرتبطة بالاختيارات المختلفة لنمط الحياة، ويتحملون المسؤولية عن نمط الحياة الذى اختاروه لأنفسهم. وهكذا يتحول الصراع السياسى من قضايا الطبقة إلى قضايا الهوية (بالتكيز - مثلاً - على الانتماء العرقى، أو النوع (الاجتماعى)، أو السلوك الجنسى أو الثقافة).

وقد وجه النقد إلى كتابات بيك بسبب تقليده من مدى التشكل الاجتماعى للمخاطرة. ويبدو أن الفرض المبدئى الذى انطلق منه هو أن المخاطر التى يخلقها المجتمع المعاصر هى مخاطر حقيقية، وأن إدراكها يكون دقيقاً إلى حد كبير. وقد تصدى فوكو الرد على ذلك بمفهومه "توسيع وظائف الحكومة" (Foucault، ١٩٩١). والحجة هنا هى أن المخاطرة تتشكل اجتماعياً من خلال تصرفات الحكومة فى التعامل مع شعوبها. وقد ركزت بعض كتابات فوكو على الدور الذى لعبته الدراسات الديموجرافية (السكانية) فى الحكومات الأوروبية منذ القرن السابع عشر (فوكو، ١٩٧٧). وقد خلقت الحكومات فى عقول المواطنين وعياً ببعض المخاطر، جنباً إلى

جنب تحميل الفرد المسؤولية عن الاستجابة لتلك المخاطر. وقد أثر هذا الاتجاه على بعض الدراسات المهمة عن الرعاية الصحية (Flynn, ٢٠٠٢ و Rose, ٢٠٠٢)، وأمور الحفاظ على النظام (Erison and Haggerty, ٢٠٠٢)، ورسم السياسات الاجتماعية (Rose, ١٩٩٦)، وقد يراه البعض على جانب كبير من الأهمية خاصة في فترة تعبئ فيها الحكومات الغربية مواطنيها لخوض "حرب على الإرهاب". (انظر مادة: الإرهاب) (AE) للمزيد انظر: Taylor-Gooby and Zinn (٢٠٠٦) و Lupton (١٩٩٩) و Beck (١٩٩٩؛ ١٩٩٩ب)

Frankfurt School

مدرسة فرانكفورت

يشير مصطلح "مدرسة فرانكفورت" إلى أعمال أولئك الفلاسفة، والنقاد الثقافيين والعلماء الاجتماعيين الذين كانوا ينتمون إلى معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي. وأشهر الشخصيات التي يسهل ربطها بهذه المدرسة: ماكس هوركهايمر^(*)، وتيودور أدورنو، وهيربرت ماركيوز^(**)، وإريك فروم، ووالتر بنيامين. ومن بين الشخصيات التي ظهرت في "الجيل الثاني" لهذه المدرسة بعد الحرب العالمية الثانية، يورجن هابرماس.

(*) انظر تعريفاً موجزاً به في مادة: الصناعة الثقافية. (المراجع)

(**) ماركيوز، هربرت Marcuse, Herbert (١٨٩٨ - ١٩٨٩) فيلسوف ألماني، كان عضواً بمدرسة فرانكفورت هاجر منفياً إلى الولايات المتحدة، وعلى عكس الآخرين، بقي في أمريكا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وحافظ على التزامه بالسياسات الراديكالية حتى نهاية حياته. وقد مارس تأثيراً قوياً على أفكار اليسار الطلابي في الستينيات. بزغت رؤيته للنظرية النقدية من رحم الاتجاه الرئيسي للفلسفة الأوروبية: أعمال هيجل، والفيثومينولوجيا والوجودية، والتلاقى ما بين هذه وبعض جوانب الماركسية. وقد غطت كتاباته ميادين السياسة وعلم الجمال فضلاً عن النقد الفلسفي والثقافي، وركزت بصفة خاصة على ما اعتبره التوجهات الشمولية للمجتمعات الحديثة. فالرأسمالية، في رأيه، تجاوزت الظروف التي حلها ماركس، كما أن الطبقة العاملة فشلت في أن تتطور إلى قوة ثورية. وكان يراوده الأمل في أن تطور الجماعات المستبعدة من المجتمع يمكن أن يخلق حساً معارضاً. ومن أهم كتبه: العقل والثورة (١٩٤١)؛ الذي طور فيه هيجلية نقدية أو ماركسية سلبية ووجه نقداً عنيفاً للفلسفة الوضعية؛ وكتاب: الإنسان ذو-

وكان هذا المعهد قد افتتح سنة ١٩٢٤، ولكنه لم يبدأ فى تطوير اتجاهه الفكرى الماركسى المميز له والمرتبط به إلا بعد أن تولى رئاسته ماكس هوركهايمر عام ١٩٣٠ . من هنا يمكن وصف الاتجاه الفكرى لمدرسة فرانكفورت، بأنه محاولة لتطوير شكل من أشكال الماركسية - الهيجلية أكثر ملاءمة للأوضاع القائمة فى رأسمالية القرن العشرين. ولذلك كانت أعمال المفكر الماركسى المجرى جورج لوكاتش من أبرز مصادر التأثير على مدرسة فرانكفورت، خاصة كتابه بعنوان "التاريخ والوعى الطبقي" (١٩٢٣) الذى قدم قراءة جديدة لماركس تركز فى أسسها على التراث الفلسفى الألمانى لكانط وهيجل. هذا فضلاً عن سعى لوكاتش إلى تعديل تفسير ماركس للرأسمالية، بناء على إدراكه أهمية الأعمال الفكرية التى قدمها عالم الاجتماع ماكس فيبر (ليس فقط فيما يتصل بتحليله لتزايد الدور الذى تقوم به البيروقراطية والإدارة الحكومية فى الصناعة المعاصرة وفى نظام الحكم المعاصر).

وإلى جانب هذا المجال تضيف مدرسة فرانكفورت اهتماماً آخر بالتحليل النفسى، ومن ثم اضطلعت بمهمة دمج أعمال ماركس وفرويد فى مزيج واحد. وقد سعت مدرسة فرانكفورت بصورة عامة - خاصة وهى تحت إشراف وتوجيه هوركهايمر - إلى تبني أسلوب المشروعات البحثية المتعددة المداخل، التى يخضع فيها البحث العلمى الاجتماعى للإمبيريقى للتوجيه الماركسى، ويتم تحليل نتائجها فى ضوء النظرية الماركسية.

وقد وصف هوركهايمر اتجاه مدرسة فرانكفورت بأنه يمثل "النظرية النقدية". فقد قام بالتمييز بين النظرية النقدية وبين ما أسماه النظرية التقليدية (١/١٩٧٢). فقد كانت

= البعد الواحد (١٩٦٤): الذى اهتم فيه بالأساليب التى تحد بها الرأسمالية الحديثة من إمكانية المعارضة؛ وكتاب الحب والحضارة (١٩٥٥)؛ والذى يستلهم بعض الأفكار الميثافيزيقية من فرويد، وبخاصة فكرته عن غريزتى الحياة والموت، ليوجه نقداً للأسلوب الذى تتحول به الثقافة الحديثة وتؤدي إلى اغتراب الرغبة. ولا يزال كتاب الأسدير ماكنثير، "ماركيوز" (١٩٧٥) هو أفضل عرض لأفكاره على الرغم من نزعة التشكيكية الزائدة. (المراجع)

النظرية التقليدية - التي سادت البحث العلمى الغربى منذ أوائل القرن السابع عشر (أى خلال عصر التنوير) - تفترض أن العالم مستقل عن الشيء الذى يدرسه، وهى ترى كذلك أن تطبيق منهجية بحث علمية محكمة كفىل بأن يتيح للعالم رصد العالم ووصفه بما هو عليه فعلاً من صفات، كما يسمح له بصياغة الفروض والقوانين التى تفسر هذا العالم. ويرى هوركهايمر أن هذه النظرية التقليدية تتجاهل حقيقة أن الباحث (ومن ثم المؤسسة العلمية بأكملها) إنما هو محصلة القوى الاجتماعية والتاريخية. فالباحث ليس مستقلاً عن المجتمع والثقافة اللذين يعيش فى إطارهما. فالعلماء يتم تشكيلهم بواسطة هذه الثقافة. ولذلك يذهب هوركهايمر إلى أن الطريقة التى ينظر بها الباحث إلى العالم، والطريقة التى يفهم بها ما يراه، إنما يصيغها المجتمع الذى يعيش فيه. أضف إلى ذلك - على الأقل فى مجال العلوم الاجتماعية - أن الموضوع الذى يرصده الباحث هو فى حد ذاته - أيضاً - محصلة التغير التاريخى. وتسلم النظرية النقدية بهذه التصورات، وتدرجها ضمن اتجاهها الخاص بالبحث الإمبريقي والتحليل الإمبريقي. من هنا يكون المفكر الملتزم بمفاهيم النظرية النقدية وإعياً، أن الطريقة التى يرى بها العالم تتحدد بشكل حاسم بواسطة الأنظمة السياسية والإيديولوجية للمجتمع. لذلك تعد النظرية النقدية نظرية انعكاسية تتأمل ذاتها. فهى لا تقتصر فى بحثها فقط على المجتمع "الموجود فى الخارج"، والذى يبدو فى ظاهر الأمر مستقلاً عن الباحث الذى يلاحظه ويرصده، بل تتأمل إلى جانب ذلك الطريقة التى يشكل بها المجتمع إدراك الفرد للمجتمع، ويعمل فى نفس الوقت على تشويه هذا الإدراك.

وبذلك تمثل النظرية النقدية صيغة تجمع بين "الإيديولوجيا - والنقد" بما يعنى أنها ليست مجرد تحليل للتكيف الاجتماعى للمعرفة (على نحو ما هو موجود فى علم الاجتماع المعرفى)، ولكنها تمثل أيضاً إدراكاً لأبنية القوة الكامنة فى ذلك التشكيل

الاجتماعى للمعرفة. وعلى ذلك، يُنسب إلى المعرفة أنها تقوم بدور محورى فى إعادة إنتاج المجتمع المحروم من المساواة السياسية والمقسم إلى طبقات.

وتتضح مظاهر التعقيد التى يتصف بها هذا الاتجاه إذا ما قورنت بأعمال لوكاتش. فقد كان لوكاتش واعياً هو الآخر بالتطور التاريخى والتشكيل الاجتماعى لكل من الذات العارفة وموضوع المعرفة فى البحث العلمى والفلسفى. ومع ذلك فإن لوكاتش كان يعتقد أنه قد عثر فى طبقة البروليتاريا - وتحديداً فى طليعة الحزب الشيوعى - على الرؤية التى تحررت فى نهاية الأمر من التشويه الإيديولوجى. أما مدرسة فرانكفورت فإنها لم تأخذ أبداً بهذا التصور، وذلك بناء على أسباب إمبريقية وأخرى سياسية. فمن الناحية الإمبريقية، حدث فى نهاية ثلاثينيات القرن العشرين أن تخلى معظم أعضاء هذه المدرسة عن كل أمل فى قدرة الطبقات العاملة على القيام بالثورة على النظام الرأسمالى المتقدم. فقد كانوا يرون أن الطبقة العاملة باتت مندمجة داخل النظام الرأسمالى إلى درجة بعيدة، شأنها فى ذلك شأن أى طبقة أخرى.

وبناء على ما قامت به مدرسة فرانكفورت من تطوير لأفكار فيبر عن البيروقراطية، أصبح يعتقد أن جميع الجماعات الموجودة داخل المجتمع تخضع بنفس القدر للأنظمة الإدارية الحكومية وللأنظمة الإدارية الصناعية، وأن الطبقات لا يتم التمييز بينها وفقاً لما تحوزه من القوة السياسية، بل وفقاً لما تملكه من وفرة مادية. وبذلك لم تعد طبقة البروليتاريا تملك رؤية متميزة للواقع الرأسمالى. أضف إلى ذلك أن النظرة التطورية للتاريخ التى دافع عنها لوكاتش (والمستمدة من المادية التاريخية عند ماركس) قد هجرها الباحثون هى الأخرى. ذلك لأن التاريخ، فى تصور مدرسة فرانكفورت، لم يكن بمثابة حركة مضطربة لتحرير البشرية، بل كان بمثابة إحكام الخناق على البشرية باضطراد، بفعل قبضة عوامل الضبط والتحكم التى يمارسها رجال الإدارة الحكومية ورجال الصناعة.

وعلى المستوى السياسى، كانت مدرسة فرانكفورت تربط بين دعاوى "امتلاك الحقيقة وبين النزعة التسلطية، سواء أكانت هذه الدعاوى هى دعاوى العلم المؤمن بالتنوير، أم دعاوى القادة السياسيين. فهؤلاء الذين يدعون امتلاك الحقيقة (المطلقة) - سواء أكانوا يتجاهلون ما يمارسه عليهم المجتمع من تحديدهم لمواقفهم، أم كانوا يدعون أنهم قد تجاوزوا هذه التأثيرات - هم أناس خطرون سياسياً، سواء أكانوا ستالينيين، أم كانوا نازيين، أم كانوا رجال الإدارة الحكومية البيروقراطية فى الدول الديمقراطية الغربية. وهذه هى فى واقع الأمر الفكرة الرئيسية التى تدور عليها الدراسة التى قدمها هوركهايمر وأدورنو فى كتابهما بعنوان "جدل التنوير" (الذى كتباه خلال فترة الحرب العالمية الثانية وهما مغتربان عن ألمانيا ومقيمان بالولايات المتحدة، ١٩٧٢). وكانت حركة التنوير قد ظهرت فى أول أمرها ك ممارسة نقدية، تسعى إلى تبديد الأسطورة والخرافة. ثم حدث أثناء تطورها، أن ضعفت هذه الملكة النقدية وخفت حدتها، حتى إن حركة التنوير - بسبب توقفها عن النقد الذاتى لنفسها - حاولت مبادئها التى قامت عليها إلى مبادئ مطلقة (ومن ثم صارت هذه المبادئ أسطورة جديدة، يتقبلها الناس بدون تفكير أو تدبر). ويتحول حركة التنوير إلى حركة بوجماتية (قائمة على معتقدات قطعية)، أصبحت هى نفسها حركة تسلطية (ووجدت نفسها تتجلى فى صورة الإدارة الوحشية لمعسكرات الإبادة النازية، وهى الإدارة التى كانت رغم وحشيتها إدارة فعالة).

ومن الجدير بالملاحظة، خاصة عند المقارنة بالانتقادات التى وجهتها نزعة ما بعد الحداثة لحركة التنوير، أن هوركهايمر وأدورنو لم يتخلوا على الإطلاق عن حركة التنوير. إذ إن المشكلة هنا تتمثل - وفقاً لتشخيص أدورنو - فى أن مقدار التنوير الموجود أقل كثيراً مما نحتاج إليه (بمعنى أنه يفتقر إلى النظر النقدى إلى الذات) وليس أكثر مما نحتاج إليه. لهذا السبب، فإن موقف مدرسة فرانكفورت يمثل توازناً

دقيقاً (وأحياناً ما يكون توازناً مثيراً للحيرة) بين تجنبها للنقد الذاتى للدعوى الدوجماتية بامتلاك الحقيقة، وبين الرغبة فى الحفاظ على التزامها السياسى، مع الحرص على عدم الانزلاق إلى موقف نزعة النسبية الثقافية التى يبغضونها بنفس القدر. ذلك أن المفكر الملتزم بالنسبية الثقافية يصبح عاجزاً عن الاعتراض على النظام السياسى الذى يعيش فيه، وذلك بسبب اعتقاده أنه ليست المعرفة وحدها هى التى تتشكل بفعل التأثيرات الثقافية، وإنما تتأثر بالعوامل الثقافية - بنفس القدر - الأحكام الخاصة بالاستقامة الأخلاقية وبالعادلة السياسية. (أدورنو ١٩٦٧). (وأكبر شاهد عند مدرسة فرانكفورت على حالة مفكرى النسبية الثقافية موقف مارتن هايدجر فى خضوعه واستسلامه للنازية).

وقد قدم أدورنو أبرع معالجة لهذه المشكلة. إذ تمثل فكرة أدورنو عن الجدول السلبى " (١٩٧٣/ب) أو التفكير غير المعبر عن هوية بعينها، شكلاً من أشكال إعادة توظيف الجدول الهيجلى. فالجدول الهيجلى يتم على ثلاثة مراحل، الأخيرة منها هى مرحلة بلوغ الحقيقة المطلقة، لكن أدورنو يتخلى عن هذه المرحلة، تاركاً كل التفكير والتأمل يتركز عند المرحلة الثانية. ففى هذه المرحلة (وهى مرحلة الجمع بين الفكرة ونقيضتها) يوجد شوق شديد إلى الحقيقة، ومن ثم شوق إلى الوصول إلى حالة نهائية من الأمان والاستقرار. ومع ذلك، فإن تصور أدورنو لا يعدو أن يكون رد فعل لظرف يتسم بأنه مفتت أو تجزئى أو متناقض. ولكى يعبر أدورنو عن هذا الظرف ويعالجه، نجده يذهب إلى تبني أسلوب التناقضات. فالطريقة الوحيدة عنده لفهم الواقع المعاصر هى أن نصفه دائماً بوصفين متناقضين، وأن نعتقد أن كلا من هذين القولين صحيح وخطأ فى نفس الوقت. فالمجتمع المعاصر - على سبيل المثال - يتصف بصفتين فى آن واحد، فهو محصلة للفعل البشرى وأن البشر يدركونه ويفهمونه (كما يذهب إلى ذلك فيبر)، وهو على الرغم من ذلك كيان يقف فى مواجهة أعضائه من البشر بوصفه كياناً

طبيعياً وموضوعياً له وجود مستقل عن أعضائه (على نحو ما يرى عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم). لهذا يمكن القول بأن أدورنو يتناول الحقيقة بأسلوب نقدي لها أو على نحو سلبي "أى نافٍ لها". وهو بوضع يده على التناقضات الماثلة فى الفكر وفى المجتمع المعاصرين، إنما يميز حدود فهمه للأمور (ومن ثم ينجح فى أن يوضح لنا مدى تشكل فهمه للتأثيرات الواقعة عليه من قبل مجتمع متناقض و"زائف"). وتتجلى هذه النظرة المتجهمة عند أدورنو فى ذلك القول المأثور الذى يستعيره من الفيلسوف برادلى Bradley إذ يقول: "حينما يكون كل شئ سيئاً، فمن الخير أن تعرف ما هو الأسوأ" (i/1978).

وكمنظرين فى مجال الثقافة، ترك أعضاء مدرسة فرانكفورت ميراًاً فكرياً غنياً ومتنوعاً فى هذا المجال. ومن الشواهد على هذا الميراث كتاب علم اجتماع الأدب الذى وضعه ليو لوفنتال Leo Lowenthal (1989) فقد كان لوفنتال مهتماً بتطوير شكل من أشكال القراءة الماركسية للأدب، مبرزاً كيف توضح الأبنية الاقتصادية والطبقية نفسها فى شكل الأعمال الأدبية ومحتواها. وحاول هوركههايمر (1972/ب) وأدورنو(*) (1991/أ، 1991/ب، 1992/أ) - من خلال ما قدماه من كتابات شاملة عن الموسيقى والثقافة الجماهيرية أو الشعبية - أن يدمجا شكلاً من أشكال علم اجتماع الفن ذى

(*) أدورنو- تيودور فيزنجروند Adorno Theodor Wiesengrund (1903-1969) فيلسوف ألماني ومتخصص فى علوم الموسيقى. درس فى فرانكفورت وفيينا. وكان عضواً بمعهد فرانكفورت للبحوث الاجتماعية (الذى نمت وتبلورت فيه مدرسة فرانكفورت التى أثرت النظرية النقدية)، فقد التحق للعمل به عام 1931. درس التأليف الموسيقى والعزف على البيانو فى فيينا. وغادر ألمانيا عام 1934، حيث بقى فترة فى لندن ثم غادرها ليلتحق بالمعهد ثم انتقل إلى المنفى فى الولايات المتحدة. عاد إلى فرانكفورت عام 1950. وتابع العمل بالمعهد، إلى أن أصبح مديراً له فى عام 1958. من أهم أعماله "جدل التنوير" (1947)، بالاشتراك مع ماكس هوركههايمر)، و"فلسفة الموسيقى الحديثة" (1949)، و"الشخصية التسلطية" (1950)، و"الجدل السلبي" (1966). كما كتب عدة فصول فى كتاب "الجدل الوضعى فى علم الاجتماع الألمانى" (1969). (المراجع)

النزعة الماركسية بعلم الجمال ذى النزعة التقليدية. ومن الأهمية بمكان، أنهما كانا يعتبران الفن (وبخاصة الفن الذى يقدمه فنانون الطليعة الحداثيون) واحداً من المصادر القليلة للمقاومة التى ظلت باقية فى الرأسمالية المعاصرة (فهما إذن يعتبران الفن شيئاً تستطيع النظرية النقدية أن تتعلم منه - فالفن مصدر من مصادر البصيرة السياسية).

ولكى نشرح هذه النقطة، يتعين علينا الرجوع إلى إحدى المحاولات التى بذلها أدورنو وهو يفكر فى موضوع التناقضات لنقول: إن الفن يجمع فى وقت واحد بين كونه ظاهرة اجتماعية وكونه مستقلاً. وهذا معناه أن أدورنو وهوركهايمر يقران - من ناحية - بسلامة التفسيرات السوسيولوجية للفن، والتى تعتبره محصلة للقوى الاجتماعية والاقتصادية (ولاحظ - بصفة خاصة - تأثير رواج أسواق الفن البورجوازية على تطور الفن). كما يذهبان - من ناحية أخرى - إلى أنه لا يزال بالإمكان أن يكون للفن قيمة جمالية. والمعنى المقصود هنا، هو أن نفس المادة التى يستخدمها الفن (ولتكن هذه المادة الطبيعية المتمثلة فى الألوان الزيتية أو الصوت أو الأشكال والأنواع التى يرثها الفنان من الأجيال السابقة عليه) هذه المواد لها تاريخ اجتماعى مرتبط بها. فهى تحمل فى أعماقها محتوى اجتماعياً، ويرجع السبب الحقيقى لهذا إلى أنها مشروطة اجتماعياً، كما يذهب إلى ذلك عالم الاجتماع. ومع ذلك يتمتع الفنان - بفضل التأثيرات المتناقضة لسوق الفن - بقدر من الحرية لا يتمتع به غيره من المنتجين الاقتصاديين. ذلك لأن العمل الفنى لا يقصد منه أن يكون ذا نفع مادى. فهو لا ينتج لمجرد تحقيق الربح (أو فائض القيمة) كما هو الحال فى أى سلعة أخرى. بل الأقرب للواقع، أن الفنان لديه الحرية التى تمكنه من متابعة القضايا الفنية البحتة، وأن يبدع فناً لتحقيق غايات فنية (وليس لتحقيق غايات اقتصادية). ومفتاح هذه القضية يتمثل فى أنه على حين يعد الفنان منتجاً، مثل أى منتج آخر داخل النظام الرأسمالى، يعمل مستخدماً للمواد التى يقدمها المجتمع له، لكن هذا الفنان يتمتع بنوع فريد من

الحرية فى التصرف أو اللعب بهذه المواد. فبمقدوره - بهذا الشكل - أن يقلت من الطرق الإيديولوجية المسلم بها فى استعمال هذه المواد، وأن يقلت - من ثم - من الطرق التى يتم النظر بواسطتها إلى العالم.

من هنا تتمثل أهمية الفن الذى يقدمه فنانون الطبيعة - فى نظر أدورنو وهوركهايمر - فى أن هذا الفن يحطم الأوهام الماثلة فى فهمنا اليومى العادى لهذا العالم. (والفن الجيد، فى إبداعه واختراعه، يعد رأياً سياسياً جيداً كذلك). والفن هو الذى يستطيع - كما ورد فى تعبير هوركهايمر عنه - أن يقلت من أشكال التواصل المعتادة التى تسيطر على الحياة الاجتماعية وتطفى جذوتها؛ حتى يصير الطبيعى (أى: ما هو مأخوذ مأخذ التسليم) غير طبيعى (أى: يصير مهجوراً لكونه مشكلاً أو متحذلقاً). ومع هذا، فإن كلاً من هوركهايمر وأدورنو يعترف ببساطة بالمشكلة الكبيرة التى تواجه الفن المعاصر، وهى أن أغلب الناس يتحاشونه، لأنه يخفق فى أن يخاطبهم بما يهمهم أو بما يفهمونه. وفى هذه الناحية تتفوق الثقافة الشعبية أو الجماهيرية على الفنون الراقية.

ومرة أخرى يواجه قارئ الأعمال الفنية المعاصرة بأنه أمام أشكال من التناقضات، وليس الحلول، أو يواجه، كما يرى هوركهايمر وأدورنو خاصة، بحالة من العجز السياسى التام. ورغم مقدرة هذين المفكرين على صياغة النظريات التى تفسر مشكلات وهموم المجتمع المعاصر، وقدرتهما على رؤية هذه المشكلات ماثلة فى الثقافة الراقية، رغم ذلك فقد عجزا عجزاً تاماً عن الفعل أو عن إيصال هذه المعرفة إلى أى حركة سياسية شعبية. (انظر كذلك مدخل: صناعة الثقافة). (AE) للمزيد انظر: Arato and Gebhardt (١٩٧٨) و Bronner and Kellner (١٩٨٩) و Connerton (١٩٧٦) و Jay (١٩٧٣) و Wiggershaus (١٩٩٤).

Humanism

المذهب الإنساني

كلمة تحمل مجموعة متنوعة من المعانى. وعادة ما تستعمل للدلالة على وجهة النظر التى تدافع عن القيمة العليا للإنسان والمتمثلة فى مقولة: "الإنسان مقياس الأشياء جميعاً". وخلال فترة عصر النهضة الأوروبية، كان دارسو الأعمال الكلاسيكية (وهى الآداب التى خلفها قدماء الإغريق والرومان) كانوا يعتبرون من أصحاب النزعة الإنسانية. فقد كانوا يعتقدون نظرة تفاؤلية إلى الإنجازات والإمكانات البشرية. وفى خلال القرن العشرين أصبح كون المرء إنسانى النزعة يعنى ضمناً وجود موقف متناقض مع المعتقدات والمؤسسات الدينية.

وفى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية اشتعلت الخلافات بين الأكاديميين حول مصطلح المذهب الإنسانى فى عديد من المجالات (كمجال السياسة، والأخلاق، وفلسفة اللغة). وفى هذا السياق أصبح لفظ معتنق المذهب الإنسانى يدل (ضمن دلالات أخرى) على امرئ يدافع عن نظرة معينة إلى الطبيعة البشرية، تؤكد استقلال الفاعل الفرد فى بعض المجالات كالاختيار الأخلاقى أو السياسى، أو يدل على امرئ يلتزم بوجهة النظر التى ترى أن الذاتية الإنسانية هى مصدر المعنى فى عالم الاستعمال اللغوى. وصاحب النزعة الإنسانية - طبقاً لهذه النظرة - شخص يسلم بوجود خواص جوهرية تحدد ما يجعل الإنسان إنساناً (ألا وهى خاصية الاستقلال، والحرية، ووجود القصد والاختيار فى السلوك، والقدرة على استعمال اللغة بهدف توليد العبارات ذات المعنى، والرشد).

وقد تم توجيه النقد إلى مفهوم الذاتية الإنسانية استناداً إلى نظريات المعنى المستمدة من البنيوية وما بعد البنيوية. وقد ذهب المفكرون من أنصار هاتين المدرستين، ممن ظهروا بعد نيتشه ومعاصريه من المفكرين، إلى أن إنتاج المعنى، ومن ثم إنتاج الذاتية، من مسائل العلاقات القائمة بين أنواع خطاب القوة (كما جاءت عند فوكو)،

أو أن بعض عمليات الانزياح Elippage الدلالي داخل اللغة (كما يذهب إليه دريدا) وليس مسألة ذات لغوية - خارجية توجد خارج مجال اللغة وتستخدم اللغة - تبعاً لذلك - للتعبير عن مقاصدها. وقد تبني هذه الآراء أنصار نزعة ما بعد الحدأة الذين كانوا يزعمون، مثلاً، أن الآراء والميول السياسية التي يدعى أنها تتماشى مع المذهب الإنساني عُرضة للإضعاف بسبب هذه الأشكال التحليلية. وتعتمد هذه النظرة على ما إذا كان المرء يميل - أو لا يميل - إلى تقبل الدعوى الذي تذهب إلى أن الدفاع عن نظرية معينة من نظريات أنطولوجيا الذات تسلم المرء إلى الالتزام بنوع بعينه من الآراء والميول السياسية. ولاشك أن من العسير محو كثير من وجود النزعة الليبرالية عن طريق الدفاع عن نزعة مضادة للمذهب الإنساني. والشاهد على ذلك، أن النزعة المضادة للمذهب الإنساني، والموجودة في طوايا التصور التقليدي للفيلسوف جان فرانسوا ليوتار عن اللغة في كتابه بعنوان "المختلف: عبارات محل اختلاف" لا تروغ من بعض المبادئ الأساسية للفكر الليبرالي كما أفاض القول في ذلك جون ستيوارت ميل في كتابه بعنوان "عن الحرية"، بل الأرجح أن يقال إن توجه ليوتار يتمشى مع هذه المبادئ (انظر سيدجويك Sedgwick ١٩٩٨).

ومن المفكرين الآخرين الذين يتبنون موقفاً فكرياً مضاداً للمذهب الإنساني هايدجر (والذي ينبغى ألا نخلط بين فكرته عن الوجود وبين التصورات الإنسانية عن الذاتية، فقد رفض هايدجر - في واقع الأمر - وبصورة صريحة، تلك النزعة الإنسانية لوجودية جان بول سارتر^(*) في مقالته "رسالة عن المذهب الإنساني"، ١٩٤٧)، ومنهم

(*) جان بول سارتر Jean Paul Sartre (١٩٠٥ - ١٩٨٠) كاتب وفيلسوف فرنسي وجودي حاول تطوير نقد إنساني للأسس الفلسفية للماركسية. ومن أكثر أعماله المتاحة ذات الصلة بالعلوم الاجتماعية كتابه: مشكلة المنهج (١٩٥٧)، وكذلك كتابه: الوجود والعدم (١٩٤٣)، وأخيراً نقد العقل الديالكتيكي (١٩٦٠). (المراجع)

أيضاً لوى ألتوسير، الذى عارض فى مقالته بعنوان "الماركسية البنيوية" رأى ماركس بأن البشر يصنعون مصائرهم بأيديهم. وقد استند ألتوسير فى ذلك إلى أن العلاقات الاجتماعية لها تأثيراتها فى تكوين الهوية الفردية، وأنساق الاعتقاد، وأشكال الوعي. (انظر مادة: أجهزة الدولة الإيديولوجية). (PS) للمزيد انظر: Callinicos (١٩٧٦) و Davies (١٩٩٧) و Heidegger (١٩٩٦) و Sartre (١٩٩٠) و Sedgwick (١٩٩٨).

Libertarianism

مذهب الحرية أو التحرر

ربما يعد التحرر - بوصفه مذهباً سياسياً - شكلاً متطرفاً من أشكال الليبرالية، وهو يشبه الليبرالية فى امتداد جذوره التاريخية إلى أعمال الفيلسوف السياسى للقرن السابع عشر جون لوك. ويولى التحرر أهمية محورية للضرورة الأخلاقية والسياسية لاحترام الحرية الإنسانية، والاستقلال الإنسانى، والمسئولية الإنسانية. ويتم التعبير عن هذه الحرية أساساً من خلال ممارسة المرء لحقه فى حيازة الملكية وحقه فى التمتع بها. لذلك يجب أن يكون البشر أحراراً فى الحصول على الملكية (ولكن ليس عن طريق سرقة ممتلكات الآخرين) وأحراراً فى نقل ملكيتهم (بوهبها أو بيعها أو استبدالها). لهذا السبب فإن أنصار التحرر يذهبون إلى أن تدخل الدولة فى حياة مواطنيها أمر يجب تقييده. فواجب الدولة أن تقوم بحماية ما لمواطنيها من حريات أساسية (ومن ثم يصبح عليها أن تعد لهذه المهمة قوة من الشرطة مع الأجهزة القانونية اللازمة لدعمها فى أداء ذلك). ومع ذلك، فإن الدولة لا تستطيع أن تستولى على ما لدى مواطنيها من ممتلكات (فى صورة ضرائب) لتحقيق أى هدف آخر غير حماية الحريات الأساسية لمواطنيها. مثال ذلك أن قيام الدولة بتوفير تعليم مجانى أو رعاية صحية مجانية يتطلب أولاً استيلاء الدولة بصورة غير شرعية على ممتلكات المواطنين (للإنفاق على هذه الخدمات)، كما أنه يجعلها - ثانياً - تقصر فى واجبها نحو احترام استقلال مواطنيها

واحترام ما يلتزمون به من مسئولية تجاه تنظيم ما يخصهم من تعليم أو رعاية صحية. وفى الفكر التحررى هذا، يقوم السوق بالدور الرئيسى فى تنظيم المجتمع الحر. (AE) للمزيد انظر: Nozick (١٩٧٤).

Cartesianism

المذهب الديكارتى

انظر: الديكارتية.

Utilitarianism

مذهب المنفعة

اتجاه فكرى يعالج قضايا علم الأخلاق، ويذهب إلى أن بالإمكان تقييم أى فعل تبعاً لقيمته الخلقية، وذلك عن طريق حساب نتائجه وعواقبه، ويرتبط هذا الاتجاه بعدد من المفكرين أمثال جيريمى بنتام Bentham (*) وجون ستيوارت ميل (١٨٠٦-١٨٧٢). ويرتبط مذهب المنفعة عموماً بذلك المبدأ الأساسى الذى ينادى بتحقيق "أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس"، أو مبدأ "المنفعة"، باعتبار أنه المبدأ الذى يركز عليه إدراك قيمة أى فعل. وهذا المبدأ يعنى بصراحة أن على المرء، عند ما يواجه مأزقاً أخلاقياً، أن يتصرف بالطريقة التى تحقق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس الذين يمكن أن يتأثروا بهذا التصرف ("والسعادة" فى هذا السياق تعنى حصول السرور وغياب الألم، بينما يمكن أن تعنى "التعاسة" حصول الألم وتناقص السرور).

(*) بنتام، جيريمى Bentham, Jeremy (١٧٤٨-١٨٣٢) يعد مؤسس مذهب النفعية الحديث، وتعود شهرته إلى كتاباته فى ميدان الفلسفة القانونية وبرامجه للإصلاح الاجتماعى (وبخاصة الإصلاح العقابى). وقد كان بنتام أحد رواد علم الإجرام الذين حاولوا أن يجعلوا النظام القانونى نظاماً أكثر رشداً، وصمم السجن المفتوح - وهو تصميم تنظيمى ومعمارى للسجون ييسر أقصى قدر من المراقبة والسيطرة على النزلاء. (المراجع)

وقد آل أمر أصحاب مذهب المنفعة فى القرن العشرين إلى انقسامهم إلى طائفتين:

(١) "القائلين بمنفعة الفعل"، وهم الذين يذهبون إلى أنه ينبغى الحكم على تصرفات الفرد وفقاً لمبدأ "المنفعة".

(٢) "القائلين بمنفعة القاعدة"، وهم الذين يرون أن التصرفات المختلفة يمكن إعادة تقسيمها إلى أنماط مختلفة، وأن بالإمكان وضع كل تصرف على حدة تحت قاعدة تنطبق على كافة الحالات التى من نفس النمط.

وثمة عدد من الانتقادات التى وجهت إلى نظرية المنفعة:

أولاً، كيف يمكن تقدير عواقب أى تصرف تقديراً شاملاً؟

ثانياً، مع أن من الممكن لأكثر عدد من الناس أن ينتفعوا بعمل ما، فماذا عن تلك القلة التى يعانى أفرادها من جراء هذا العمل؟

ثالثاً، يسلم أصحاب مذهب المنفعة بأن "السعادة" شئ يمكن وصفه وصفاً كمياً محسوباً؛ ولكن لا يوجد لديهم طريقة لإظهار ما تعنيه "السعادة" أو "السرور" على وجه الدقة، ولا يوجد لديهم - بسبب ذلك - أى تعريف لهذا المصطلح يمكن تطبيقه تطبيقاً عاماً كلياً.

رابعاً، ليس من المفهوم أن يكون فى الإمكان اختزال معنى الحياة الاجتماعية والثقافية فى مجرد السعى لتحقيق السعادة أو السرور، باعتبار أن ذلك السرور أو تلك السعادة هى الأمر الضرورى الذى يتمسك به أصحاب مذهب المنفعة، ولو ضمناً على الأقل (وهى نقطة ذكرها نيتشه حينما أشار، بطريقة ساخرة إلى حد ما، إلى أن "الإنجليز" (أى أصحاب مذهب المنفعة) وحدهم هم الذين يناضلون سعياً وراء السعادة، وليس البشر).

وتجسد بعض جوانب نظرية المنفعة رؤية للهوية الثقافية يمكن أن توجد ضمناً في مذهب الليبرالية. من ذلك أنها تسلم بأن الأفراد هم الذين يصنعون مصائرهم، وأنهم في الأساس كائنات تحركها المصالح (وذلك من حيث إنهم يسعون جميعاً لتعظيم حظهم من ألوان السرور، وأن هذا السعى أمر محمود). (PS) للمزيد انظر: Glover (١٩٩٠ب) و Mill (١٩٨٤) و Plamenatz (١٩٥٨) و Scarre (١٩٩٦) و Sen and Williams (١٩٨٢) و Singer (١٩٩٢).

مركب لفظي

Syntagm

انظر: تركيب.

مركز برمنجهام للدراسات

Birmingham Center for

الثقافة المعاصرة

Contemporary Cultural Studies

أسس هذا المركز سنة ١٩٦٤ كمركز بحوث لمرحلة الدراسات العليا في جامعة برمنجهام بالملكة المتحدة، واستطاع أن يضطلع بدور محوري في تطور الدراسات الثقافية في المملكة المتحدة (وقد قضى عدد كبير من أعلام الدراسات الثقافية البريطانية بهذا المركز فترات - طالت أو قصرت - في مرحلة ما أثناء حياتهم العملية). واستطاع المركز في بادئ الأمر - عندما كان تحت إدارة ريتشارد هوجارت R.Hoggart وستوارت هول S.Hall من سنة ١٩٦٨ إلى سنة ١٩٧٩ - أن يتطور تطوراً كبيراً حتى صار الآن نموذجاً مثالياً للإحاطة بشتى المواد العلمية لمختلف فروع الدراسات الثقافية، ولأساليب التحليل المستخدمة فيها.

وفى فترة إدارة هول تطورت موضوعات البحث من مجرد الاهتمام الأولى بالثقافة "الحية" لمختلف الطبقات (وهو الاهتمام التابع من مؤلف هوجارت بعنوان "استخدامات القراءة والكتابة"، ١٩٥٧)، تطورت إلى أن صارت تركز على أهمية وسائل الاتصال الجماهيرى، وما يرتبط بهذا المجال من دراسات فى حقل الشباب والثقافات الفرعية، والتعليم، والعرق، والنوع الاجتماعى.

وكان هذا المركز منذ بدء العمل فيه مهتماً بالدراسات البينية، مع اعتماده بصورة كبيرة على علم الاجتماع، والفن الأدبى، بجانب اعتماده اعتماداً أساسياً على التاريخ (وذلك تأثراً - مثلاً - بطومسون E.P. Tompson، ١٩٦٣).

وقد يرى البعض أن التطور الفكرى لهذا المركز يمثل - فى جانب منه - استجابة للاتجاهات البحثية الأمريكية فى دراسة وسائل الاتصال الجماهيرى. ولاشك أن هذا المركز قد استند إلى التراث الفكرى الثرى لأوروبا المعاصرة - بما فيه أعمال التوسير وبارت فى مجال البنىوية - فى دراساته للميديا (وسائل الاتصال والإعلام) بوصفها مؤسسات إيديولوجية ومهيمنة. وعليه أصبح يُنظر إلى الثقافة الجماهيرية أو الشعبية بوصفها الموقع الذى تلجأ إليه الجماعات المهمشة والمستضعفة فى المجتمع فى مقاومتها للجماعات القوية والمسيطرة والتفاوض حول تحسين ظروفها.

ويمكن القول إن إنجازات المركز تتسم بنفس السمة التعاونية التى تميز طبيعة مجال عمله البحثى وهو الثقافة. يشهد لذلك أن سلسلة أوراق العمل التى أصدرها المركز أصبحت تمثل المجال الرئيسى للنشر، سواء بالنسبة لأساتذة المركز من أعضاء هيئة التدريس به أم من طلبة الدراسات العليا. وفى الفترة التى كان المركز فيها تحت إشراف ريتشارد جونسون R.Johnson ومن بعده جورج لورين J.Lorrain، لاحظ بعض المعلقين حدوث شىء من التحول فى اهتمامات المركز البحثية، فبعد أن كان يركز على تحليل النصوص الإعلامية، انتقل اهتمامه بعيداً إلى مجال تاريخ الحياة اليومية. وفى

سنة ١٩٨٨، تحول المركز إلى قسم (جامعى) للدراسات الثقافية، فأصبح قادراً على تقديم مقررات دراسية للطلبة الجامعيين فى مرحلة الليسانس، وذلك - طبعاً - بجانب ما يقوم به من البحث على مستوى الدراسات العليا. وفى عام ٢٠٠٢ قررت جامعة برمنجهام إغلاق المركز. (AE) للمزيد انظر: Turner (١٩٩٦).

Ethnocentrism

المركزية السلافية

هى ذلك الميل إلى انحصار المرء فى القيم والأعراف الثقافية الخاصة به، حتى لو كان يتعامل مع الآخرين الذين لا يتبعون قيمه. وبالمثل يشير هذا المصطلح إلى ذلك الميل الذى يبيده المرء نحو وصف منظومات القيم والأعراف السائدة لدى ثقافات أخرى والحكم عليها من وجهة نظره هو الخاصة. ولهذا الميل ارتباط بمسألة النظر إلى الآخرين وفقاً لصور نمطية ثابتة، كما أنه قد يكون ملمحاً يدل على انصاف صاحبه بالنعرة العنصرية والتعصب. (PS) للمزيد انظر: Allport (١٩٨٠).

Meaning

المعنى

يبدو أنه لا يوجد - من الناحية الفلسفية - سوى قدر يسير من الاتفاق النظرى على تعريف لهذا المصطلح، أو على "مكان" وجود المعنى على وجه الدقة. وفى الواقع، فإن غياب هذا الاتفاق بلغ من الوضوح حداً جعل بعض الفلاسفة قادرين على التشكيك فى وجود المعنى أصلاً. ولعلنا نفهم بشكل أفضل غياب الاتفاق على تعريف مصطلح المعنى عن طريق دراسة التطور التاريخى لهذا المصطلح.

ويرجع تاريخ واحدة من أشد نظريات المعنى تأثيراً - وهى نظرية "التسمية" - إلى أقدم عصور الفلسفة. وتعتبر هذه النظرية - أساساً - عن فكرة مؤداها أن معنى اسم

ما أو معنى مصطلح نوعى ما إنما يتمثل فى الموضوع أو الشئ الذى يرمز إليه هذا الاسم أو المصطلح. والافتراض الذى تقوم عليه هذه النظرية مبنى على وجود علاقة جوهرية أو طبيعية بين العلامة اللغوية (أى الكلمة) وبين الموضوع الذى ترمز إليه فى نطاق لغة ما. وقد كان هذا التصور هو المذهب الذى ناقشه أفلاطون فى حوارهِ بعنوان Cratylus.

وثمة وجهة نظر قريبة الشبه جداً بهذه النظرية لا يزال لها تأثير كبير فى أيامنا هذه. ولعل برتراند راسل (١٩١٨ و ١٩٢٤) وفتجنشتين فى أوائل كتاباته (١٩٢١) هما أشهر المؤيدين المحدثين لوجهة النظر المذكورة. ويرجع تاريخ هذه النظرية - التى أصبحت تعرف باسم: "الذرية المنطقية" - إلى بداية القرن العشرين تقريباً. وتذهب الفكرة المحورية لهذه الفلسفة إلى أن الجمل الموجودة فى لغة ما لا يمكن أن يكون لها معنى إلا إذا كانت مركبة من وحدات أصغر ذات معنى، تستمد - بدورها - معناها من علاقاتها المباشرة بالأوضاع العامة فى المجتمع البشرى.

وكانت هذه الرؤية بمثابة التمهيد لظهور النزعة الوضعية المنطقية فيما بعد، والتى لقيت دعماً وتأييداً من أعضاء "جماعة فينا". ولعل أوجز شرح لهذه النظرية الفلسفية هو ما قدمه أير^(*) A.J. Ayer (١٩٤٦). ففى صميم النزعة الوضعية المنطقية يكمن "مبدأ الإثبات"، الذى ينص على أن معنى جملة أو خبر ما (وهو ما يحتمل الصدق والكذب لذاته حسب تعريف الخبر فى علم المنطق) هو الطريقة التى يتم إثباته بها. أو بعبارة أخرى، يتم تعريف معنى الجملة عن طريق الملاحظات التى تسهم فى الكشف عن صدق هذه الجملة أو زيفها. ووفقاً للتعريف الذى تقدمه هذه النظرية، فإن الجملة التى تكون غير قابلة للإثبات عن طريق هذه الوسائل، تكون "بلا معنى". وعلى ذلك، فإن قضايا الميتافيزيقا التقليدية لن يكون لها معنى لأن الشروط اللازمة لإثباتها غير متوفرة.

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: الوضعية. (المراجع)

وجهة النظر المضادة للذرية المنطقية هي نزعة الكلية الدلالية. وتعود الأصول الأولى لهذه النزعة إلى أعمال كل من فريجه Frege (١٨٩٢) وسوسير (١٩١٦). ويعتبر فريجه - من وجهة نظر الفلسفة التحليلية - هو الذى فتح الباب لوجهة النظر التى تذهب إلى أن اللغة تقوم بدور فعال فى بناء مفهومنا عن الواقع (انظر مادة: الإشارة أو الإستناد). كذلك قام سوسير بدور شبيه بالدور المذكور فى إطار البنيوية. كما كان كواين^(*) (١٩٥٣) أشد الأعلام تأثيراً فى فلسفة العلوم الحديثة. إذ اعترض كواين على ذلك المفهوم الذى يرى أن بالإمكان وجود نظرية فعالة عن المعنى يمكن صياغتها فى ضوء أى شذرات لغوية. فاللغة، بدلاً من ذلك، يتعين النظر إليها بوصفها بناء كلياً، وأن معانى أجزائها تتوقف على وحدتها الكاملة. وقد ذهب فيلسوف العلم بيير دوهيم P. Duhem (١٩٦٢) إلى رأى قريب الشبه من رأى كواين فى اللغة. وآل الأمر بهذين

(*) كواين، ويلارد. ف.أ. Quine, Willard V.O. (١٩٠٨-١٩٩٠) أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد، منطقى رياضى ممتاز، ومن المهتمين اهتماماً كبيراً بفلسفة المنطق العامة ونظرية المعرفة. تتناول مؤلفاته الصورية الخالصة فى المنطق مشكلات شديدة التنوع وعلى درجة كبيرة من الفنية؛ والأغلب أن أشهر إضافاته فى هذا الميدان من ميادين البحث وأبلغها تأثيراً هو الصورة المنقحة لرد الرياضيات إلى المنطق، وهو قد قام به كل من هوبنر ورسل فى كتابهما "برانكيا ماثماتكا". وقد حصل كواين على هذا الصورة بإدخاله وسائل جديدة هامة قصد بها - بين ما قصد إليه - تجنب مزامع كثيرة هى موضع نقاش، مزامع وردت فى كتاب "برانكيا ماثماتكا". ومهما يكن من أمر فإن الكثير من إضافات كواين الفنية فى المنطق الرياضى كان الدافع إليه اعتبارات فلسفية عامة، فهو بخلاف كثيرين ممن درسوا الموضوع يعتقد بأن المنطق الصورى محايد من الناحية "الوجودية" مادام النسق المنطقى عنده يلزمنا بأن نقبل بعض أنواع بعينها من الكائنات (مثال ذلك الأفراد المتعينة كالأشياء الفيزيقية؛ أو الكائنات المجرد كالفئات والصفات) ولهذا فقد اقترح معياراً لتحديد نوع الوجود المفترض سلفاً فى أية عبارة، وخلافاً للراء التقليدية برهن كواين على أن الوجود (مثال ذلك أنواع الكائنات التى يفترض وجودها سلفاً) لا تحدده أسماء الأعلام التى قد ترد فى عبارة ما، بل يحدده فيها أنماط المتغيرات التى قد نضع مكانها نوابت. ولقد أوجز كواين هذه القاعدة فى الصياغة القائلة: "لأن يكون الشيء موجوداً معناه أن يكون قيمة لمتغير". وعلى أية حال فعلى الرغم من محاولته إعادة بناء الرياضيات على نحو يوائم فيه بينها وبين ميله نحو المذهب الأسى، فمن المسلم به أنه لم يكن موفقاً فى ذلك ولو أنه لم يرفض استخدام الدعوى الافلاطونية فى المنطق حين وجد أنه لا غناء عنها لإبنيته الصورية. (المراجع)

الرأيين المتحدين إلى أن أصبحا يعرفا باسم "فرضية كواين ودوهميم". وهى تعنى أن عالم الطبيعة، عندما يقوم بتجربة علمية، فإنه لا يختبر فرضاً واحداً فقط، إنما الأصح أنه يختبر مجموعة كاملة من الفروض.

وثمة صياغة أخرى أكثر ثراء وعمقاً لهذا الاتجاه الفكرى فى تناول المعنى فى فلسفة العلوم قدمها توماس كون (١٩٧٠). فقد ذهب كون إلى أن العلوم تتضمن نماذج نظرية أو صيغاً تزود العلماء الذين يشتغلون بها برويتهم للعالم. وأن هذه النماذج النظرية تتضمن - بدورها - الأفكار النظرية والفروض التى درج العلماء على الإيمان بصدقها. ويتم تعريف معنى كل مصطلح من مصطلحات تلك النظريات على حدة تبعاً لعلاقته بالمصطلحات الموجودة داخل هذا النموذج النظرى. ونتيجة لذلك، فإن معنى أى مصطلح أو جملة أو عبارة هو، بالضرورة واللاقتضاء، معنى موجود فى داخل هذا النموذج النظرى. وعليه فعندما يتغير النموذج النظرى، تتغير كذلك معانى المصطلحات المتضمنة فيه، والمحصلة النهائية لذلك أن يصبح للعلماء أصحاب النماذج النظرية العلمية المختلفة رؤى مختلفة للعالم. ويؤدى المعنى الذى تتضمنه نظرية كون إلى مشكلة اللاقياسية (أى تعذر القياس باستعمال نفس وحدات القياس).

وقد تبنى فيتجنشتين فى كتاباته المتأخرة (١٩٥٢) رؤية مشابهة بالنسبة للغة العادية، وأدرجها ضمن مفهومه عن "لعبة اللغة"^(٥). ومؤدى هذه الرؤية أن معنى

(٥) اتخذت فلسفة فيتجنشتين فى الفترة المتأخرة صيغتها الأكثر وضوحاً وبساطة وعمومية. وأساس النظرية الجديدة هو النظر إلى اللغة من زاوية جديدة: فقد نبذ الرأى القديم الموجود فى "الرسالة" عن اللغة، والقاتل بأن هناك من حيث المبدأ لغة علمية كاملة واحدة مهمتها الوحيدة هى وصف العالم؛ وأصبح ينظر إلى اللغة على أنها مجموعة غير محددة من النشاط الاجتماعى يخدم كل نشاط منها غرضاً مختلفاً عن سواه. هذا وكل طريقة من هذه الطرق المتميزة فى استخدام اللغة أسماها فيتجنشتين "لعبة اللغة" Language Game. نعم إنه لاشك فى أن إحدى طرائق استخدام اللغة هى أن نصف بها العالم وربما كانت هناك طريقة ما لاداء ذلك، وهى ما قد يطلق عليها تسمية معقولة فيقال عنها أنها طريقة "تصويرية" كما أطلق عليها فى "الرسالة". بيد أن هناك حشدًا من الاستعمالات الأخرى للغة كالأمر والاستفهام=

مصطلح ما إنما يتوقف على الطريقة التي يستعمل بها داخل لعبة اللغة. والمعنى المتضمن هنا أنه على الرغم من أن بالإمكان أن تشترك كلمات معينة فى نوع من أنواع "التشابه العائلى" (أى كما لو كانت تنتمى لعائلة واحدة)، من حيث إنها تنطق بنفس الشكل أو تكتب بنفس الحروف، فإن معانيها تختلف باختلاف وجوه لعبة اللغة. ورغم أن بين وجهات النظر المذكورة فروقاً فكرية كثيرة، فإن رؤية فتنجشتين تتصف بعدد من وجوه الشبه المهمة التى تجمع بينها وبين أفكار سوسير التى يرى فيها أن "المعنى" فى هذا النموذج الفكرى يتصف بأنه متضمن فى اللغة ومتوقف عليها، أو قل إن المعنى بالنسبة لفتنجشتين يمثل جزء من اللغة (هاريس Harris، ١٩٨٨). وقد كان لكل من وجهتى النظر اللتين قدمهما فتنجشتين وسوسير - ولا يزال - تأثير كبير على مدرسة ما بعد الحداثة ومدرسة ما بعد البنيوية.

تتميز الرؤية الكلية للغة بعدد من المضامين ذات الأهمية الجوهرية، ليس فقط بالنسبة للعلوم الطبيعية، وإنما كذلك بالنسبة للعلوم الاجتماعية. فإذا كانت المعانى متضمنة فى صلب لغة معينة أو فى أسلوب من أساليب لعبة اللغة، فإن التواصل بين لغة وأخرى أو بين لعبة لغوية وأخرى يصبح أمراً معضلاً، وذلك لعدم وجود وسيط مشترك بين هذه الأطراف. وإذا كانت اللغات أو العبارات القائمة على لعبة اللغة مقترنة بثقافات معينة أو بأجزاء معينة من ثقافة ما، فالظاهر أن ذلك الوضع يؤدى إلى أن

= والشكر واللعن والتحية والدعاء. ويقدم فتنجشتين قائمة طويلة لأمثال هذه الاستعمالات المختلفة للغة (وهو يسمى كل استعمال منها "لعبة" إذ يتفق على قواعد استعمالها كما يتفق على قواعد اللعب) وذلك فى الفقرة رقم ٢٢ من كتابه "البحوث الفلسفية" الذى ينتهى بالملاحظة القائلة: "إنه لمن الطريف أن نقارن فى اللغة بين تعدد الأدوات وبين الطرق الكثيرة التى تستخدم بها وتعدد أنواع الكلمة والعبارة، وبين ما قاله المنطقة عن تركيب اللغة". (بما فى ذلك مؤلف كتاب "رسالة منطقية فلسفية") كأنما للغة تركيب واحد هو الذى يتحدثون عنه". انظر: فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص ٢١٠-٢١٥ خاصة صفحتى ٢١٢-٢١٣. (المراجع)

يصبح التواصل بين هذه الثقافات أو بين بعض أجزاء ثقافة ما وغيرها من الثقافات أمراً معضلاً كذلك (انظر مادة: "النسبية الثقافية"). وحيث إن الأمور تجري على هذا النحو، فالظاهر أن إمكانية القيام بمقارنات بين الثقافات سيحكم عليها بأنها خاطئة كنتيجة طبيعية لهذا الوضع، وذلك لأن المتخصص في العلم الاجتماعي - بحكم التعريف - يكون حبيساً داخل الحدود الخاصة بلغة معينة أو بعبارات معينة قائمة على لعبة اللغة مماثلة لحدود اللغة التي يقوم بدراساتها.

وثمة سبيل قد يمثل لنا مخرجاً من هذه الإشكالية، يدلنا عليه مفهوم كواين عن "الترجمة الجذرية أو الجوهرية" Radical translation. وهو الطريق الذي سلكه بعده دونالد دافيدسون D. Davidson بنجاح وتوفيق أكبر مما فعله كواين.

ولعل أخطر الاعتراضات على قضية المعنى جاءت في ثانيا أحد مؤلفات جاك ديريدا (١٩٦٧). ومن الفروض الأساسية لأي نظرية عن المعنى ذلك الذي يسلم بأن اللغة يمكنها أن تبقى في حالة من الاتزان زماناً يتيح تطوير المعاني وبلورتها. وفرض كهذا فرض صحيح بالتأكيد - على المستوى المنهجي على الأقل - وفقاً لنظرية سوسير عن اللغة. وترتكز هذه النظرية على المفهوم الذي مؤداه أن القيمة التي تتمتع بها العلامة اللغوية في أي لغة إنما تأتي من اختلافها عن سائر العلامات اللغوية في تلك اللغة. كما أن من شروط الحفاظ على ثبات المعنى الذي تحمله كل علامة لغوية الإبقاء على التمييز الصارم بين "اللغة" Langue و"الكلام" Parole. وإن ما فعله ديريدا - في واقع الأمر - أنه اعترض على سلامة هذا التمييز الذي قال به سوسير. وقد عزز ديريدا اعتراضه ذاك بقيامه بتفكيك ما ذهب إليه سوسير من وجود تعارض بين الكلام والكتابة (انظر مدخل التفكيك أو تحليل البنية). إذ يرى سوسير أن الكتابة تشكل تهديداً خطيراً لما تتمتع به اللغة من تراث شفاهي مستقر. وتقديراً لحدوث هذا التهديد يعطى سوسير الأولوية للكلام (الشفاهي) في هذا التعارض (القائم بين الكتابة

والكلام). ولا يكتفى ديريدا بطرح وجهة نظره المعاكسة لوجهة نظر سوسير، وإنما يستخدم نفس منطقته لتأييد وجهة نظره هو، وخلق نفس التشوهات اللغوية التي يحرص ديريدا على منعها. والمحصلة النهائية لذلك هي فقدان الاستقرار الضروري الذي لابد منه للحفاظ على المعانى الأصلية للعلامات اللغوية.

وثمة اعتقاد شائع، وخاصة لدى الفلاسفة التحليليين، يذهب إلى وجود رابطة وثيقة بين مفهوم "المعنى" ومفهوم الإسناد أو الإشارة. (SH)

Norm

المعيار

المعيار قاعدة أو قانون يحكم نمطاً من أنماط السلوك الاجتماعي. ومن أمثلة المعايير: القوانين، والمبادئ والتوجيهات الأخلاقية، والعادات الاجتماعية، والقواعد الخاصة بأداب اللياقة (أى الإتيكيت)، كما أن المعايير قد تعبر أيضاً عن القيم والأهداف المرغوبة. ولمصطلح "المعيار" معنيان اثنان، يجدر التمييز بينهما عند الممارسة والتطبيق. فمن جهة، قد يمثل المعيار تكثيفاً للسلوك الشائع داخل المجتمع (وهو - على ذلك - يعد معياراً بمعنى أنه سلوك شائع بلغة الإحصاء). من ناحية أخرى، يعد المعيار أحد أنماط السلوك المرغوبة أو "الموصوفة"، سواء كان ذلك السلوك الفعلى ممثلاً لهذا المثال أم غير ممثل. والمعايير، خاصة بالمعنى الأخير هذا، تكون مصحوبة بالجزاءات الإيجابية والسلبية - بمعنى أنها تكون مصحوبة بالمكافأة والثوبة على العمل المتوافق معها، كما تكون مصحوبة بالعقوبة على السلوك المخالف لها. وتختلف طبيعة الجزاء، ابتداء من الاستحسان البسيط والنظرة المتجهمه القاسية، وانتهاء بالمكافآت المالية الضخمة والأحكام بالسجن لسنوات طويلة، وذلك تبعاً لنوع المعيار المعنى.

وإن الفكرة التى ترى أن الأفراد يكتشفون معايير مجتمعهم من خلال ما يتلقونه من تربية (أو: تنشئة اجتماعية)، لتساعد فى تفسير كيف يصبح هؤلاء الأفراد فاعلين اجتماعيين أكفاء يتوافقون بصورة عامة مع ما تتوقعه منهم ثقافتهم ومجتمعهم. وقد اهتم علم اجتماع دوركايم فى أعماله الأولى بالخسائر الناجمة عن فقدان الأفراد للمعايير (وهى الظاهرة التى أطلق عليها مصطلح اللامعيارية). فبيد الإرشاد الذى توفره المعايير، تفقد حياة المرء الإشراف والتوجيه وتصبح بلا معنى. وأياً ما كان الأمر، فإن هذا الاتجاه الفكرى الدوركايمى يحمل وجهاً من وجوه الخطورة يمكن تبينه بصورة خاصة فى علم الاجتماع الوظيفى (انظر مادتي: الوظيفية، وعلم الاجتماع). وتتمثل هذه الخطورة فى أن هذا الاتجاه الفكرى يميل إلى التسليم بأن المعايير توجد مستقلة عن أى حدث اجتماعى معين (ولذلك فليس ثمة غموض يشعر به الأفراد حول أى من المعايير التى يطبقونها هنا والآن)، كما يميل إلى التسليم بوجود إجماع عام فى المجتمع على المعايير التى يلتزم الكل بها.

أما النزعة التفاعلية الرمزية فبسبب تركيزها - خصوصاً - على أن المجتمع إنما يتشكل من خلال التفاعل بين أعضائه من الفاعلين الاجتماعيين الأكفاء، تذهب إلى أنه قد يكون من الأفضل النظر إلى المعايير باعتبارها موضوع هذا التفاوض أو هذا التفاعل. فالاتفاق على المعايير المناسبة يدخل ضمن نسيج النشاط المطلوب لفهم طبيعة الحدث الاجتماعى الذى يكون المرء طرفاً فيه.

أما علماء الاجتماع الماركسيين، - وخلافاً لما سبق - يتشككون فيما إذا كان بالإمكان النظر إلى المعايير باعتبارها محل ظهور إجماع عام بديهى أم لا. وبدلاً من الأخذ بهذا الرأى الوظيفى يفضل علماء الاجتماع الماركسيون القول بأنه يتعين تحليل عملية فرض المعيار وقبول الأفراد له فى ضوء أبنية القوة فى المجتمع (ومن ثم يعد المعيار جزءاً من الإيديولوجيا). (AE)

Status

المكانة

تشير المكانة الاجتماعية إلى تلك المنزلة العالية والسمعة الحسنة التي ينسبها الناس إلى مراكز اجتماعية ومهن معينة داخل المجتمع. وقد أدرك ماكس فيبر (١٩٤٦ ج، ١٩٤٦ د) أن من الممكن تعيين شكل ما من أشكال التدرج في جماعات المكانة داخل المجتمع، وهو الشكل الذي يجب أن يكون مستقلاً تماماً عن أشكال التدرجات الطبقية. والمثال التقليدي على ذلك هو مثال القساوسة وغيرهم من ذوي المناصب الدينية في المجتمع المعاصر، الذين لا تتناسب مكانتهم مع دخولهم أو نفوذهم السياسي (رغم أن هذه المكانة قد تدل على ما لهم من تأثير على تشكيل الرأي العام). وقد يكون من المتوقع أن تتمايز أساليب المعيشة لدى جماعات المكانة، بما فيها من أنماط السلوك، وأنماط المعتقدات، وأنماط التفضيل والاستهلاك. ويرى فيبر أن نظام الطائفة الاجتماعية المغلقة يمثل شكلاً تدرجياً لجماعات المكانة، وليس للطبقات. والأمر الحاسم هنا هو النظر إلى المكانة الاجتماعية باعتبارها تمثل المنزلة العالية التي تنسب للمركز الاجتماعي، والتي لا يلزم بالضرورة أن تتطابق مع إدراك كل عضو من أعضاء الجماعة لنفسه. (AE) للمزيد انظر: Turner (١٩٨٨) و Weber (١٩٧٨).

Participant Observation

الملاحظة بالمشاركة

الملاحظة بالمشاركة أحد مناهج البحث الإمبريقية، ويعنى قيام الباحث بدراسة مجتمع صغير أو نشاط ثقافي يكون الباحث نفسه جزءاً منه (في العادة طوال مدة قيام الباحث بالدراسة). ولثل هذا الاتجاه البحثي مزية يتفوق بها على كثير من غيره من الاتجاهات الأكثر ضبطاً وتجريبية، من حيث ثراء المعلومات الوصفية التفصيلية التي يمكن لهذا الاتجاه أن يوفرها. إلا أنه يواجه عدداً من المشكلات التي تم رصدتها وتسجيلها:

أولها، أن وجود الباحث ضمن الجماعة المدروسة قد يغير شكل التصرف الاجتماعي المعتاد داخل تلك الجماعة (بحيث يؤول حالها إلى التصرف وفقاً لما تظن أن الباحث يطلبه منها من تصرفات).

وثانيها، أن الدور الذي يقوم به الباحث في الجماعة دور هام، فإذا كان هذا الدور غير ملائم فإن بمقدوره أن يحول بين الباحث وبين الفاعلين المهمين أو متخذي القرار داخل هذه الجماعة، مما يجعل نظرة الباحث لأسلوب الجماعة في عملها نظرة محرفة أو غير دقيقة.

وعلى أية حال، كثيراً ما يوجه إلى الملاحظة بالمشاركة النقد بأنها تفتقر إلى الموضوعية، وأنها شديدة التعرض للخضوع للأحكام القيمية المسبقة (انظر مادة: القيمة) التي قد يفرضها الباحث، ويدون وعى منه، على ملاحظاته. وفي مقابل ذلك، إذا أحسن الباحث اختيار دوره، فإن ذلك مما يسهل عليه أداء مهمته. ففي دراسة لأحد المجتمعات الريفية في ويلز، استطاع رونالد فرانكنبرج R. Frankenburg (١٩٥٧) أن يقوم بدور "الغريب". وقد أتاح له ذلك الدخول في الأنشطة التي يمارسها هذا المجتمع الريفي (الدرجة أنه أصبح سكرتيراً لنادى كرة القدم)، وذلك في نفس الوقت الذي لم يتنازل فيه عن استقلاله (أى لم يفقد موضوعيته). والمهم في هذا المقام، أن فرانكنبرج يذهب إلى أن هذا الدور كان موجوداً قبل دخوله هذا المجتمع، بحيث إن قيامه به لم يحدث أى قدر من الفوضى في نظامه (انظر كذلك مادة: الإثنوجرافيا). (AE) للمزيد انظر: Spradley (١٩٨٠).

الملكية

Property

(١) هي حيازة السلع الخاصة أو الشخصية، فالأرض، والثروة، بل حتى الأفكار يمكن أن تكون من الملكية (ومثال ذلك براءات الاختراع، وحقوق النشر أو التأليف).

والملكية مجال له أهمية رئيسية في كتابات كثير من الفلاسفة السياسيين. فكل من جون لوك^(*) وجان جاك روسو^(**) يسوى بين الحيابة الخاصة للملكية وتطور المجتمع المدني، وإن كانت النتائج التي انتهايا إليها مختلفة غاية الاختلاف (ولناقشة تصور لوك لأساس الملكية الخاصة انظر مادة: "الليبرالية"، وانظر كذلك مادة: الحالة الطبيعية). بينما تؤيد الماركسية القضاء على الملكية الخاصة للسلع وتدعو لإعادة توزيعها على أساس درجة الحاجة إليها. والأمر الذي يتضح من أعمال هؤلاء المفكرين هو أن كلاً من حيابة الملكية، وقضية ما هي الحقوق التي تبرر (أولاً) وتصاحب (ثانياً) الملكية الخاصة، لها دلالاتها ومضامينها الهامة بالنسبة لأسلوب فهمنا للمجالات الاجتماعية والسياسية.

وإذا كانت ثمة فكرة سياسية مهمة جرى ربطها بحيابة الملكية فهي فكرة المنفعة الذاتية. ويستلقت لوك انتباهنا إلى هذه المسألة حينما يذهب، في رسالته الثانية من رسائله عن الحكومة، إلى أن الشيء الأساسى الذى يملكه كل فرد هو جسده الخاص به. وإذا كان كل واحد منا هو المالك الشرعى لجسده، فإنه يترتب على ذلك أن كل فرد له منفعة ذاتية ترتبط برفاهيته المادية، كما أن الحقوق الفردية تنبع من هذه المنفعة الذاتية. وبالمثل، يرى لوك أنه نظراً لأن استثمار الجهد البشرى يتضمن توسيعاً لنطاق خاصية ملكية المرء لنفسه والمرتبطة بالجسد، فإن العمل يضفى على ما أنتجه المرء بهذا العمل نفس تلك الخاصية: فالمرء بمقتوره أن يقطف ثمرة تفاح أو يحرث قطعة من الأرض لا يعتنى بها أحد، وطالما أنه لا يوجد شخص غيره يملك هذه الأشياء فعلاً، فإنها تصبح ملكاً له بفضل ما بذل فيها من جهد وعمل. وبالمثل، فإن السلطة التشريعية تتبع بدورها عند لوك من الحق فى الملكية الخاصة، على أساس أن حماية الملكية فى نظر لوك هي المهمة الرئيسية للحكومة الشرعية.

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: الطبيعة. (المراجع)

(**) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: الحالة الطبيعية. (المراجع)

ويمكننا قراءة وجهة نظر لوك بوصفها تبريراً ضمنياً مترتباً على تطور الرأسمالية التجارية^(*). وعلى ذلك، فإذا اعتُبرت الملكية الخاصة شكلاً مشروعاً من أشكال الملكية، وترتب على ذلك أن أصبح دور الحكومة يتمثل أساساً في حماية الأفراد من أن تنزع عنهم ملكيتهم - على نحو ما يرى لوك - إذن فإن المصلحة الخاصة هي التي تكون لها الأولوية على المصلحة العامة من حيث الأهمية الاجتماعية. وترتباً على هذا الموقف يمكننا تعريف الحرية السياسية هكذا: بناءً على هذه الرؤية، فإن الحرية تعنى دائماً "التحرر من...". أى أن "الحرية" - بتعبير آخر - تعنى حرية المرء فى سعيه لتحقيق مصلحته الذاتية بأقل قدر من العوائق التى تتسبب فيها نشاطات الآخرين، بما فيها نشاطات الدولة. وعلى النقيض من ذلك، فإن فهم الملكية وفقاً لآراء روسو أو ماركس يجعلنا نرى أن حيابة الملكية تمثل ثمرة المصالح، لكن هذه المصالح ليست شرعية بالبداية، وذلك خلافاً لرأى لوك فى هذه النقطة.

وعلى ذلك، فقد كان روسو، فى كتابه بعنوان "مقالة عن التفاوت الاجتماعى"، يرى أن اختراع الملكية الخاصة يعد عنصراً أساسياً لإفساد البشر، وذلك بمقدار ما تفضى الملكية إلى التوزيع غير العادل للسلع، وإلى ما يترتب على ذلك من غلبة الطمع الشخصى على العفة والقناعة.

وعند ماركس، تعد الملكية الخاصة والتوزيع غير العادل للسلع فى المجتمع أحد السمات التى تميز النمط الرأسمالى فى الإنتاج، كما أن هذا الشكل الإنتاجى يقوم بمهمته من خلال الاستغلال الواقع على طائفة كبيرة العدد من السكان من قبل أقلية حائزة على الملكية. والحق أن المرء قد يقول - انطلاقاً من وجهة النظر هذه - إن

(*) المركنتيلية الرأسمالية Mercantile Capitalism: نظام اقتصادى نشأ فى أوروبا أثناء تفكك النظام الإقطاعى لتعزيز ثروة الدولة عن طريق التنظيم الحكومى الصارم للاقتصاد القومى بأكمله وانتهاج سياسات تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية. (المترجم)

الدفاع عن حيابة الملكية الخاصة هو السمة المميزة للرأسمالية، لأنه إذا لم يتم إضفاء الشرعية على هذا الحق فإن ظهور النمط الرأسمالى فى الإنتاج (انظر مادة: نمط الإنتاج) سىصبح مستحيلأ. وعلى النقيض من هذه الرؤية التى يدافع عنها المفكرون الليبراليون، يميل أحد الاتجاهات الماركسية إلى اعتبار الملكية الخاصة للسلع أمراً يحد من حرية الآخرين (والتى تعنى "الحرية فى أن تفعل كذا وكذا...").

وفى المجتمعات التكنولوجية الحديثة، آل الأمر بقضية حيابة الملكية إلى أن اتخذت مظهرأ أكثر تعقيدأ عن ذى قبل بسبب ظهور الأساليب التكنولوجية الخاصة بإعادة الإنتاج (أو النسخ). مثال ذلك أنه فى مجال صناعة التسجيلات الموسيقية (على الشرائط والاسطوانات) أدت الوفرة الشائعة المتزايدة للأجهزة المتداولة فى نقل الموسيقى بين وسائل التسجيل المختلفة سهلة الاستخدام (كأن يقوم الفرد، مثلاً، بالتسجيل من الأقراص المدمجة التى تصنعها شركة الإنتاج الفنى إلى ما يملكه هو من أقراص مدمجة يمكن التسجيل عليها أو إلى الأشرطة السمعية الرقمية)؛ أدى هذا الوضع إلى تسليط الضوء على مشكلة تتصل بحقوق الملكية الأدبية (أى ملكية حقوق الطبع والنشر) الخاصة بوسائل التسجيل. ولا ريب أن السؤال عن صاحب حقوق الملكية الأدبية (كأن يكون المالك الشرعى لمنتج صوتى مسجل) ليس فى العادة من الأسئلة المختلف عليها من الناحية القانونية. ومع ذلك، فإن المرء قد يميل إلى التسليم بأن حقوق الملكية الفكرية تتعرض للانتهاك دائماً، وإلى ادعاء أن ذلك سوف يؤدى - على المدى البعيد - إلى تعقيد المعنى الذى نقصده عندما نتكلم عن ملكية مثل هذه السلع. ومع ذلك فإن احتمال أن يكون هذا الادعاء قابلاً للتبرير من عدمه، هو موضوع آخر. فحتى إذا كانت التكنولوجيا تؤثر على الجوانب العملية للحفاظ على حقوق الملكية الفكرية للمواد المسجلة، أو للأفكار، أو حتى للأثار الفنية، فلا يزال من الأمور محل الخلاف ما إذا كان مفهوم الملكية المتضمن فى حقوق الملكية الفكرية عرضة للتحديات

----- (م) -----

الخطيرة من قبل هذه الممارسات أم لا. والأرجح أنه حتى لو صح هذا التصور، فإنه لا يترتب على ذلك أن مصطلح "الملكية" - في أوسع معانيه - سيتعرض لهذا السبب لشكل ما من إعادة التعريف.

ولعل الأمر الأكثر اتصالاً بهذا الموضوع أن نتذكر أن القضايا المحيطة بحيازة الملكية والتي سبق تحديدها على يد المفكرين أمثال لوك وروسو وماركس (ومنها مثلاً قضية حقوق الملكية من حيث صلتها بمفهوم "الفرد"، أو صلتها بالعلاقة الاجتماعية القائمة بين توزيع السلع ومسائل الحرية السياسية والقوة)؛ نتذكر أن هذه القضايا الجانبية لا تزال على حالها من حيث أهميتها لتحقيق فهمنا لقضية حيازة الملكية ولتفرعاتها الثقافية. شاهد ذلك أن ما ذهب إليه لوك من حجة تتعلق بتبرير حيازة المرء لقطعة الأرض المهجورة من خلال ما يبذله من جهد فيها مازالت تطبق على المناطق الجغرافية خارج أوروبا، ومنها مثلاً "الغابات البرية والأراضي البور المتروكة للطبيعة في أمريكا" (كما جاء في الرسالة الثانية من رسائل لوك عن الحكومة - فقرة ٢٧)، الأمر الذي يعني أن مثل هذه النظرية تصل إلى حد تبرير الاستيلاء على الأرض التي احتلتها ثقافات أخرى.

(٢) التعريف الثاني للملكية أنها ملمح أو خاصية. (قارن مادة الماهيوية). (PS) للمزيد انظر: Locke (١٩٨٨) و Marx (١٩٧٦) و Rousseau (١٩٨٤).

Practice

الممارسة

انظر: التطبيق العملي.

Ethnomethodology

منهجية الجماعة

انظر: الإثنوميثولوجيا.

يقال عن كل كائن بشري (فاعل بشري) إنه يتمتع بالمواطنة إذا كان يتمتع بخصائص اجتماعية معينة لها معناها السياسي المعتبر به قانوناً (مثل الحقوق، والواجبات، والالتزامات، والحرية في اتخاذ القرارات التي تمثل شأنًا يتصل بمصلحته الخاصة، وفي المشاركة في المصالح العامة وكذلك المشاركة في حياة المجتمع المدني). وقد يصطلح على تسمية هذه المواطنة "المواطنة الأساسية أو الفعلية"، وذلك في مقابل التمتع "بالمواطنة الرسمية"، وهو اللفظ الذي أصبح من المعتاد في أيامنا هذه أن يقتصر معناه على كون الفرد عضواً في دولة قومية. ويقتضى تمتع الفرد بالمواطنة في معناها الأول أن يشكل هذا الفرد جزءاً من كيان سياسي اجتماعي، وأن تلك الحقوق والواجبات وغيرها من الأمور التي من حق الفرد، إنما يحوزها في صورتها الحسية الملموسة، وكذلك في صورتها المعنوية استناداً إلى كونه عضواً في هذا الكيان. لذلك، فإن المواطن الفرنسي - مثلاً - يتمتع بوضع سياسي معين (أي يتمتع بالمواطنة) كنتيجة لكونه:

أولاً: خاضعاً لحكم القانون الفرنسي.

ثانياً: لكونه قادراً على الاحتكام إلى هذا القانون.

ومع ذلك، فإن مسألة ما إذا كان تمتع الفرد بحق معين يستتبع - بالضرورة - التزامه ببعض التبعات في مقابل هذا الحق، لا تزال قضية غير واضحة المعالم. ومن المعتاد أن ينازع في صحة هذه الفكرة أنصار مذهب الحرية الذين يميلون إلى فهم الحقوق بوصفها النتيجة الأساسية التي ترافق قضايا الحرية السياسية. وبالمثل، فإن مسألة صياغة الحقوق في صورة قوانين، ومدى مواعة تلك القوانين مع ما قد يكون للمرء من مصالح، كانت محل شك وتساؤل من قبل الفيلسوف جان فرانسوا ليوتار.

(P.S.) للمزيد انظر: Marshall (١٩٥٠) و Mead (١٩٨٦) و Turner (١٩٨٦) و (١٩٩٤) and Hamilton.

Folk Music

الموسيقى الشعبية

أبسط تعريف للموسيقى الشعبية أنها الموسيقى التي تنتقل شفاهياً بين الأجيال، وذلك داخل نطاق مجتمع محدود متجانس ثقافياً. ويعتقد عادة أن الموسيقى الشعبية مجهولة الأصل. أضف إلى ذلك أن الصورة العقلية لكلمة "شعبي" Folk توحى بالإشارة إلى مجتمع ريفي، ومن ثم فإن تلك الموسيقى تمثل بعض البقايا المترسبة من الثقافة قبل - الصناعية. ومع ذلك سوف نتبين أن هذا التعريف البسيط للموسيقى الشعبية هو في النهاية محل لبعض الاختلاف والجدل.

ولعل المرحلة الأساسية لجمع الأغاني الشعبية تقع في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين (رغم أنه كان من سمات الرومانسية الأوروبية وجود قدر واضح من الاهتمام بالثقافة الشعبية، حيث كان هيردر^(*) من أوائل المدافعين عن دراسة الثقافات الشعبية). وقد كانت الحوافز الدافعة لاستكشاف الأغاني الشعبية والاهتمام بها متعددة.

أولها، أنه كان يوجد في ذلك العهد اهتمام بالحفاظ على ما كان يعد ثقافة على وشك الزوال بسرعة (ولهذا السبب ظهر، على سبيل المثال، المؤلف الذي كتبه سيسل

(*) هيردر، جوهان غوتفريد فون Herder, Johann Gottfried von (١٧٤٤-١٨٠٣) ناقد ولاهوتي وفيلسوف ألماني. أحد أبرز وجوه حركة "العاصفة والدفع" الأدبية. عُنى بدراسة الميثولوجيا والفولكلور. من أشهر آثاره كتابه الذي لم يتم: "أفكار في سبيل فلسفة لتاريخ الجنس البشري" (١٧٨٤-١٧٩١). (المراجع)

شارب Cecil Sharp عن الأغاني الشعبية فى إنجلترا وفى منطقة جبال الألباش بشمال شرق الولايات المتحدة). وسرعان ما أدت عمليات جمع الأغاني الشعبية إلى طرح عدد من التساؤلات - حول الموسيقى الشعبية - عن بساط البحث. فقد اكتشف الدارسون أن الأغنية الشعبية ليست كياناً متميزاً بذاته، كما هو الحال مع الأغنية الفنية Art Song أو مع الأغنية الجماهيرية Populer. الأغنية الشعبية تتغير بتغير المؤدين لها (بل إنه يتعاقب عليها ألوان الأداء المتغيرة من قبل نفس المغنى الشعبى). أضف إلى ذلك أنه ليس من الضروري أن تكون الأغنية الشعبية مجهولة المؤلف. وقد حدث أن أدرجت بعض الأغنيات الجماهيرية التجارية ضمن التراث "الشعبى" Folk منذ القرن التاسع عشر.

والحافز الثانى الذى دفع للاهتمام بدراسة الأغنية الشعبية هو ما ساد بعض المجتمعات الأوروبية من إدراك لقدرة التراث الشعبى على أن يكون عنصراً هاماً للإفصاح والتعبير عن الهوية القومية. (لهذا السبب، وعلى سبيل المثال، استخدمت موضوعات الأغاني الشعبية فى الأغاني التى لحنها المؤلفون الموسيقيون التشيك، والمجريون، والويلزيون، والإنجليز فى أوائل القرن العشرين للتعبير عن تلك القوميات).

وبدلنا هذان الحافزان كيف أن صفة "الشعبية" Folk نفسها تعد تصوراً فكرياً محدداً يدين فى ظهوره بالكثير لمظاهر الاستياء والسخط السياسى، بأكثر مما يدين به لاهتمام المتخصصين فى الأنثروبولوجيا الثقافية بفهم أوضاع المجتمع قبل الصناعى. إذ يوحى طموح الباحثين لاستعادة المجتمع الشعبى (المفقود) بوجود رد فعل نقدى رافض للمجتمع الصناعى الحاضر، أو يمثل طريقة للتعبير عن التوترات السياسية^(*).

(*) انظر تحليلاً وافياً للإتجاهات الفكرية الأدبية والسوسيولوجية - المناوئة للتحضر وكذلك تلك المجنحة والمؤيدة له فى: محمد الجومرى، "التحضر بين الإدانة والتمجيد"، مقدمة الكتاب الذى ترجمه من تاليف جيرالد برين، مجتمع المدينة فى البلاد النامية، الطبعة الثانية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨، ص ٤١-٤٢. (المراجع)

يضاف إلى ذلك أن العمل الرائد الذي كتبه لويد A.L.Lloyd فى منتصف القرن العشرين، قد توسع فى تفسير هذا الموقف النقدى الراض للمجتمع الصناعى، عندما رفض الربط بين "الشعبية" وبين الماضى الذى يتصف - على نحو ما - بأنه ماض ريفى أسطورى. من هنا اهتم لويد بالفحص الدقيق للموسيقى الشعبية الموجودة فى المجتمعات الحضرية (١٩٦٧). وقد اكتشف لويد من خلال عمله ذلك تراثاً موسيقياً غنياً تزخر به ثقافة الطبقة العاملة. ولعل فى مقدور هذا الاتجاه البحثى أن يقودنا إلى "اكتشاف" أسطورة جديدة (عن ثقافة بكر للطبقة العاملة لم تمسحها - بعد - الأيدي المفسدة للثقافة الجماهيرية ذات الطابع التجارى).

وكان الحافز الثالث الذى دفع للاهتمام بالموسيقى الشعبية، هو النظر إليها بمثابة مصدر للتجديد يستلهمه واضعو ألحان الموسيقى الفنية فى الغرب. ذلك أن النظام النغمى للموسيقى الغربية، والذى كان سائداً منذ أوائل القرن السابع عشر، أصبح يعد فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين نظاماً بالياً استنفذ أغراضه. وفى الوقت الذى كان فيه هذا النظام النغمى (أو هذه اللغة الموسيقية) يبدو فى أذان أغلب المستمعين إليه لغة موسيقية طبيعية، فإنها كانت فى واقع الأمر - وإلى حد بعيد جداً - محصلة للأعراف والمبادئ المصطلح عليها فى مجال التلحين الموسيقى. وكانت أغلب ألحان الموسيقى الشعبية تكتب وفقاً لسلم موسيقى خماسى النغمات أو مقصور على بعض الأنوار (أو المقامات الموسيقية)، ومن ثم فإنها تقع لدى السامع على نحو يختلف اختلافاً شديداً عن الموسيقى الشائنة أو الجماهيرية والموسيقى الفنية. وهكذا استطاعت الموسيقى "الشعبية" ذات السلم الموسيقى الخماسى أن تحدث انقطاعاً للتوقعات المسلم بها المتعلقة بما ينبغى أن يكون عليه صوت الموسيقى. وهكذا استطاعت هذه الموسيقى أن تزود عدداً من مؤلفى الموسيقى (أمثال فوجان وويليامز V. Williams وهولست Holst فى إنجلترا) بمادة ثرية كانوا فى حاجة إليها ليعبثوا الحيوية فى تراثهم الفنى الراقى من جديد.

إن مفهوم "الموسيقى الشعبية" مفهوم معقد التركيب، سواء في معناها الأصلي المتصل بالتراث الشفاهي "للشعب"، أو في أحدث معنى لها باعتبارها نوعاً فنياً من أنواع الموسيقى الشائعة أو الجماهيرية (وذلك على الرغم من أن هذا النوع الموسيقى له جذور راسخة في أساليب الموسيقى الشعبية المجهولة المؤلف، على نحو ما يتضح في كتابات وودي جوثري W. Guthrie، وبيتر سيجر P. Seeger وبوب ديلان B. Dylan)، من هنا يتعين علينا تناولها بوصفها تعبيراً عن الآمال السياسية "لدى العامة" بقدر اعتبارها وصفاً وبياناً لطبيعة المجتمع الثقافي في واقع الأمر. (AE) للمزيد انظر: Harker (١٩٨٥) و Lloyd (١٩٦٧) و Vaughan Williams (١٩٦٣).

Popular Music

الموسيقى الشعبية الجماهيرية

اتخذ البحث في مجال الموسيقى الجماهيرية مساراً مألوفاً في كثير من مجالات الدراسات الثقافية، ابتداءً من الموقف الرافض لهذه الموسيقى، والمتمثل في نظرية "مجتمع الجماهير" المعبرة عن فكر الصفوة، وانتهاءً بالاهتمام بالموسيقى الشعبية الجماهيرية بوصفها تعبيراً خلافاً عن التماثل بين الهوية الشخصية وهوية الجماعة. ومن مسلمات نظرية مجتمع الجماهير - والتي سادت بدءاً من ثلاثينيات القرن العشرين - أن الموسيقى الشعبية الجماهيرية، بوصفها أحد منتجات الصناعة الموسيقية، تعد سلعة تخضع في إنتاجها لقواعد ومواصفات قياسية إلى حد بعيد. لذلك يعتقد أن الفروق بين الأغاني الشعبية الجماهيرية ليست سوى فروقاً سطحية بوجه عام، حيث تقوم هذه الفروق على مجرد إعادة ترتيب العناصر المألوفة داخل نطاق صيغة صارمة في الإنتاج الفني. ومستهلك هذه الموسيقى يتسم بالسلبية عموماً (إذ إن استهلاك الموسيقى، يمثل أحد أنشطة وقت الفراغ، وهو الوقت الناتج بصورة لازمة عن

----- (م) -----

الفراغ من العمل، حيث يتم تجديد قوى العامل وتهيئته ليوم العمل التالى). لذلك فإن الموسيقى الشعبية الجماهيرية (خاصة فى تأكيدها أهمية التأثير الشديد للإيقاع الموسيقى) تعمل على تهيئة المستمع لأسلوب حياته فى ظل النظام الرأسمالى المعاصر (انظر أدورنو، ١٩٩٤). والأمر المهم هنا أن هناك نوعاً من التقسيم داخل مجال الموسيقى، جعل الموسيقى الشعبية الجماهيرية فى جانب، وجعل فى الجانب الآخر بعضاً من أنواع الموسيقى الأكثر أصالة والأعلى مكانة من النواحي الجمالية والسياسية. وينظر إلى الموسيقى الشعبية الجماهيرية على أنها موسيقى مصنوعة، ومن ثم فإنها تفرض على جماعة يتم تشكيلها والحفاظ عليها بطرق صناعية (هى "الجمهور"). أما الموسيقى الأصلية فتعبر عن الاهتمامات الحقيقية للناس، سواء أكانت هذه الموسيقى هى الموسيقى الفنية الراقية (عند أدورنو) أو موسيقى الجاز (عند هول Hall ووانل Whannel، ١٩٦٤) أو موسيقى العامة أو الشعب (Folk) عند روسلسون Roselson، ١٩٧٩). ويلاحظ أن هذا التعارض الثانى بين نوعى الموسيقى المذكورين من الأمور الراسخة المستمرة حتى وقتنا الحاضر.

وقد ظهر نوع من الاقتصاد السياسى للموسيقى الجماهيرية (يرتبط بالاقتصاد السياسى لوسائل الاتصال الجماهيرى) فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين (انظر جولدنج Golding وميردوك Murdock ١٩٩١). وقد قام هذا الاقتصاد السياسى للموسيقى الجماهيرية - إلى حد ما - بإعادة إنتاج المسلمات التى أخذت بها نظرية مجتمع الجماهير، وذلك من حيث إنه قام بالفحص الدقيق للآليات الاقتصادية التى تتيح للجمهور إمكانية الوصول إلى المنتجات الموسيقية. فقد كان التنظيم التجارى لاستديوهات التسجيل والموسيقى ولصناع أجهزة التسجيل، بل حتى محلات بيع التسجيلات الصوتية والموسيقية، كان يعد بمثابة قيد شديد الوطأة على الموسيقى المطروحة فى السوق. ويمكننا اعتبار الاتجاه الفكرى الذى تتبناه الدراسات الثقافية

فيما يتصل بموضوع الموسيقى الجماهيرية رد فعل لهذا الاتجاه الاقتصادي التجارى. إذ ترى تلك الدراسات أن الاستهلاك ضرب من ضروب النشاط، وأنه نشاط يستطيع المستهلك من خلاله أن يقاوم تأثير الصناعة عليه. وهكذا يذهب هول ووانل (١٩٦٤) إلى أن الموسيقى الجماهيرية وما يرتبط بها من سلع (كالمجلات الموسيقية، وحفلات الكونسرت، والملصقات، والأفلام) إنما يتم اختيارها من أجل أن يستكشف الفرد من خلال هذا الاختيار معنى هويته وأن يرسخ إدراكه لهذا المعنى. وبهذا الشكل تزود الموسيقى الجماهيرية المراهقين بالوسائل (هى هنا الحكايات الوهمية الموجهة) التى يفيدون منها فى مواجهة الصعوبات الخاصة بالتحول العاطفى والجنسى فى تلك السن. وعلى ذلك فإن المراهق لا يشتري كافة ما تنتجه صناعة التسجيلات الموسيقية. ففى الواقع، لا تربح هذه الصناعة إلا من عشرة فى المائة فقط مما تطرحه للبيع (الأمر الذى يدل على وجود رفض على نطاق كبير لما تقدمه هذه الصناعة).

وقد تم تطوير هذا الاتجاه الفكرى الخاص بالدراسات الثقافية من خلال بحوث الثقافات الفرعية (هول وجفرسون Hall and Jefferson، ١٩٧٦). ويتركز الاهتمام- فى هذا الاتجاه- على استعمال الموسيقى الجماهيرية كوسيلة تستخدمها الجماعات الخاضعة (أو المستضعفة) وجماعات الأقليات فى مقاومة القيم والاتجاهات المسيطرة للثقافة "الأم". من هنا يتم اختيار شكل معين من أشكال الموسيقى الجماهيرية بوصفه أحد العناصر التى تعكس مجموعة من القيم الرئيسية التى تعدها الجماعة ذات الثقافة الفرعية مميزة لها ودالة عليها. وبذلك لا يكون هذا الاختيار اعتباطياً أو غير مقصود، فالموسيقى فى هذه الحالة أمر له مغزاه وغايته. ويوضح هذا المعنى ما قام به ويليس Willis من تحليل لثقافة جماعات راكبي الدراجات البخارية (١٩٧٨). وتعد موسيقى الروك التقليدية التى شاعت فى خمسينيات القرن العشرين أمراً له دلالاته، إذ استطاعت بوصفها مجموعة كاملة موحدة من الموسيقى، أن تتصدى لمعارضة الموسيقى

الجماهيرية المعاصرة لها، ومن ثم ينفصل الفرد من راكبي الدراجات البخارية عن استهلاك الموسيقى (الأخرى) الشائعة جماهيرياً. وتعتبر موسيقى الروك أند رول التقليدية (كما نعرفها في أغاني إلڤيس برسلى Elvis Presley وبيادى هولى Buddy Holly مثلاً) تعبيراً واضحاً عن القيم الذكورية. وأخيراً - وليس آخراً - تعبر الإيقاعات السريعة التى تتميز بها موسيقى الروك بوضوح عن لون من الحياة مفعم بالحركة (ومن ثم توفر هذه الموسيقى لسامعها تأثيراً صوتياً تخيلياً للصوت الناجم عن ركوبه للدراجة البخارية). وقد تم هذا الاتجاه الفكرى الخاص بالثقافات الفرعية والموسيقى والتوسع فيه إلى حد أقصى على يد هيبديج Hebdige (١٩٧٩) حيث استعان بالسيميوطيقا أو علم العلامات - بوضوح - فى تحليل ثقافة البانك وفى أصولها السابقة عليها.

وإذا كان الاتجاه الفكرى الموسوم باتجاه الدراسات الثقافية فى دراسة الموسيقى الشعبية الجماهيرية قد بلغ ذروته المتمثلة فى الدراسة السيميوطيقية للثقافات الفرعية، فمازال يتعرض للنقد بسبب نظرته المبالغ فيها إلى المقاومة الغربية التى تبديها تلك الثقافات الفرعية، فى مقابل الاستهلاك الشائع والأوسع انتشاراً للموسيقى، الذى يعد سمة مميزة لقطاع كبير من ثقافة الشباب (الأمر الذى يؤدى إلى استمرار توجيه تلك الملحوظة القاسية والتى تنتقد ذلك التمييز بين كل من الموسيقى الأصلية والموسيقى الصناعية أو المصنوعة).

ويحاول التناول الإثنوجرافى لموضوع إنتاج الموسيقى واستهلاكها إلقاء الضوء على الأسباب أو الجذور الاجتماعية التى تفسر هذا الأمر. حيث تكشف لنا عالمة الإثنوجرافيا روث فينينجان R. Finnegan فى دراستها لأعمال المؤلف الموسيقى ميلتون كينز M. Keynes (فى إنجلترا) عن عالم لصناعة/ أو إنتاج الموسيقى يتسم بالثراء وتنوع الأشكال (١٩٨٩). كما أن الموسيقيين الهواة ذوى الإطلاع الواسع، والذين

يقدرون التعبير الفردي والإبداع الفردي في مجال الموسيقى يشكلون جزءاً من شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تتنامى بصورة متدرجة ومضطردة، على نحو يساعد على تحديد ملامح المجتمعات المحلية. والفرق الموسيقية الشعبية الجماهيرية ليست مجرد مجموعة من العازفين، بل هي عبارة عن عازفين يتلقون الدعم والتأييد من الأتباع والأعوان. فهم يعتمدون على الدعم الذي يتلقونه من المؤسسات الاجتماعية القائمة (مثل المدارس والكلية، والحانات والعائلات) التي توفر لهم ما يحتاجون إليه من موارد: كالأماكن التي يتدربون فيها أو يعرضون عليها حفلاتهم الموسيقية، كما تقدم لهم هذه المؤسسات الآلات الموسيقية والمعدات اللازمة. وبهذا الشكل فإن التعبير عن الاعتراض أو عن الثورة والتمرد يتم تخفيف حدته عن طريق هذا الدمج في المجتمع المحلي.

وأياً ما كان الأمر، وطبقاً لما يلاحظه فريث Frith (١٩٩٢) يظل عالم إنتاج واستهلاك الموسيقى الشعبية الجماهيرية خاضعاً في تشكيله وبنائه لاعتبارات النوع الاجتماعي والطبقة. فالنساء عموماً يستبعدن من الفرق الموسيقية، أو يهملن بأن تسند إليهن الأدوار الثانوية التقليدية في مجال دعم عمل هذه الفرق الموسيقية. أضف إلى ذلك أن فريث لا ينظر إلى الموسيقى الشعبية الجماهيرية باعتبارها نشاطاً يغلّب على الطبقة العمالية الانشغال به. ومن الواضح أن شباب الطبقة الوسطى لم يرد لهم ذكر في هذه الدراسات، لكنهم بسبب كونهم يتمتعون بنصيب أكبر من الموارد اللازمة (من المال والوقت) لتأسيس وتطوير فنهم، فمن المرجح أن يحولوا نشاطهم في صناعة الموسيقى من هواية إلى مهنة يحترفونها. (AE) للمزيد انظر: Frith (١٩٨١).

الموضوعية

Objectivity

هي المعرفة الصحيحة التي تكون- أو ينبغي أن تكون- محايدة في حكمها من الناحية القيمة. وعلى ذلك، فالمعرفة الموضوعية هي معرفة بواقع الأشياء، في مقابل

الصورة التي تبدو عليها الأشياء فى الظاهر. وفى العلوم الطبيعية (كالفيزياء مثلاً) تعد الموضوعية مفهوماً أساسياً لا غنى عنه فيما يتصل بتطبيق النظريات، والأهم من ذلك، فيما يتصل بالتحقق من صحة هذه النظريات عن طريق التجربة. وتفترض الموضوعية وجود عالم خارجى (عن الإنسان) حقيقى مستقل عن معرفتنا به، وأن بالإمكان وصف هذا العالم بدقة. وبناءً على هذه النظرة العلمية، يتطلع منهج البحث العلمى إلى توفير القواعد التى بواسطتها يمكن معرفة الحقيقة (ويمكن العثور على صيغة أخرى لهذا المعنى فى النزعة الوضعية).

وقد انتقد بعض الفلاسفة - مثل نيتشه - مفهوم الموضوعية. إذ يرى نيتشه أنه لا وجود لمعرفة محايدة ليست مرتبطة بمصلحة معينة، بمعنى أنه لا توجد معرفة لا تنتفع بموضوع البحث الذى تدرسه، ومن ثم فإنه لا توجد معرفة مبرأة من موقف قيمي معين من موضوع بحثها. وبالمثل، اتخذ فوكو خطأ فكرياً مشابهاً مضمونه أن التطلع إلى إعطاء الموضوعية الأهمية التى تفوق كل شئ فى المعرفة هو فى ذاته أمر نابع من الاعتبارات التاريخية والثقافية، ومن ثم فهو خاضع لها. (انظر كذلك مادتي: الذات أو الأنا، ونظرية المعرفة). (PS)

Author

المؤلف

يفهم مصطلح المؤلف فهماً سطحياً بأنه يدل على المصدر المبدع (أو الخالق) الوحيد للنص المكتوب. بيد أن الفكرة التى تقول بوجود مبدع فذ للنص، وبأن مهمة القراءة - تبعاً لذلك - ليست سوى عملية سلبية إلى حد ما، تتمثل فى استعادة مقاصد هذا المؤلف ومعانيه، هذه الفكرة تتعرض للنقد والتحفظ من وجوه متعددة. وقد قام المفكرون التأويليون فى القرن التاسع عشر - ويصفة خاصة فيلهلم

ديلتاي(*) W.Dithey - بالحفظ والاعتراض على الافتراض القائل بأن المؤلف يتميز عن غيره ببصيرة أو نظرة ثاقبة يدرك بها معنى النص الذى يكتبه. وقد بسطوا تلك التحفظات فى ثنايا دراستهم النقدية للعملية الإيجابية التى تنطوى عليها القراءة، والتى يترتب عليها أن يكون القارئ فى حاجة إلى أن ينشئ معنى للنص من عنده، لا أن يقتصر على مجرد استعادة المعنى من النص. وفى الواقع، فإن فهم المؤلف الخاص للنص أصبح يطرح بوصفه واحداً من تفسيرات النص بين تفسيرات أخرى كثيرة. وفى علم الجمال، يرى نقاد فكرة "وهم القصد" Intentional Fallacy أنه ليس بوسع أى تفسير للعمل الفنى أن يدعى أنه نهائى أو أن له سطوة ومجبة خاصة، باعتباره قادراً على استعادة مقاصد المؤلف من نصه المكتوب. (وفى نطاق فلسفة ما بعد البنيوية، أعلن بارت(**) بطريقة فى غاية الإثارة عن "موت المؤلف"، ١٩٧٧ج). وبذلك فإن هذا الرفض لمكانة المؤلف يدفع علم الجمال إلى أن يوجه تفكيره صوب الصفات الجوهرية للعمل الفنى أو النص، وإلى أن يعمل بأقصى ما يستطيع على هدم إمكانية وجود قراءة واحدة للنص يمكن أن توصف بأنها نهائية أو صحيحة.

ولعله من الملاحظ أنه لا يوجد سوى قليل من النصوص المعينة التى لها مؤلفون تنسب إليهم على وجه الدقة. لذلك فإن النصوص العادية والنصوص الوظيفية، مثل قوائم الأسعار فى المحلات التجارية، والتمرينات الدراسية، ونسخ الإعلانات التجارية، ومعظم الكتابات الصحفية، لا تنسب إلى مؤلف بعينه، أو أن عنصر التأليف فيها لا يعد أمراً مهماً لفهم هذا العمل. وبالمثل، فإن كثيراً من النصوص (مثل الأغاني الشعبية، والفكاهات، والأساطير التى تروج فى الحضر) تظهر فى إطار التراث الشفاهى، حيث

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى مادة: التأويل. (المراجع)

(**) انظر تعريفاً موجزاً به فى مادة: التصوير. (المراجع)

لا يصدق عليها - كذلك - الأفكار التقليدية الخاصة بالتأليف، التي ترى أن لكل نص مؤلفاً قام بتأليفه. وعلى العكس من ذلك، فإن أى نص (مثل المسودات المكتوبة بصفة مؤقتة، والخطابات، واليوميات) والتي يكتبها شخص يعد هو مؤلفها (كأن يكون روائياً معترفاً به) قد تكتسب أهمية إضافية خاصة لانتسابها إلى ذلك الروائي المعروف. ومن المفارقات فى هذا المقام أن الإبداع الفردى قد ينسب إلى طائفة من الجهود التى بذلت فى عمل تعاونى، كأن ينسب أحد الأفلام إلى المخرج (وربما ينسب إلى المنتج)، مع أنه من النادر أن ينسب إلى الكاتب الذى كتب النص السينمائى (السيناريو). (AE) لمزيد انظر: Biriotti and Miller (١٩٩٣) و Burke (١٩٩٢).

Metaphysics

الميتافيزيقا

جرت العادة على النظر إلى الميتافيزيقا بوصفها الدراسة التى تعنى الواقع المائل فيما وراء مظهره الخارجى المجرد. ويفهم من الغرض الثلاثى لهذه الدراسة أنها الكشف عن:

أولاً: ما هو واقع "فى الحقيقة".

ثانياً: لماذا يوجد هذا العالم.

وثالثاً: ما هو موقعنا - كبشر - فى هذا العالم.

وقد بدأ مفكرو الميتافيزيقا - مؤخراً - يميلون بصفة عامة إلى تحديد مباحثهم فى نطاق الموضوعين الأول والثالث، معتبرين بذلك أن الموضوع الثانى موضوعاً تتعذر الإجابة عليه إلى حد بعيد، وذلك اتساقاً مع موقف علم الفيزياء الحديث.

ونتيجة لمحاولات الميتافيزيقيين التقليديين للإجابة على جميع الأسئلة الثلاثة للميتافيزيقا، نجدهم يميلون إلى تشييد عدد من الأنساق الفكرية. فهم يحاولون تفسير

الطبيعة الحقيقية للواقع عن طريق بناء نموذج لهذا الواقع تتكامل فيه الإجابات على الأسئلة الثلاثة للميتافيزيقا فى إجابة وحيدة، وعامة، وكاملة. ولعل أعظم من استخدم هذه المنهجية فى البحث كان الفيلسوف هيغل، الذى كان يرى الكون مجرد جوهر فرد (هو: "العقل" أو الروح)^(*) يسعى إلى أن يعرف نفسه. ومن الفلاسفة الذين استعملوا هذه المنهجية فى البحث ليبنتز^(**) Leibniz، - وبدرجة محدودة قليلاً - بيشوب بركلى B. Berkely. ولبت هذا الأسلوب فى معالجة القضايا الميتافيزيقية يجتذب الفلاسفة المؤيدين للنزعة المثالية ونوى الميول العقلانية. ولا يعتنى الفلاسفة العقلانيون إلا بالوسائل أو الأدوات التى يمكن الاعتماد عليها فى اكتشاف الطبيعة "الحقيقية" للواقع، والمتمثلة فى قوة العقل وملكات الفكر. ويشكل هذا الاتجاه الفكرى تنمة لفكرة بناء الأنساق الفكرية، إذ إن الركيزة التى يعتمد عليها للوصول إلى بناء نسق فكرى جيد تتمثل فى توظيف ما ذكر من قوة العقل وملكات الفكر فى تطوير نظرية عن الوجود تتصف بالعمومية، وتكون متماسكة بصورة ملائمة، بحيث يمكنها أن تجيب بشكل متكامل عن التساؤلات الثلاثة للميتافيزيقا.

(*) وتعنى الكلمة الإنجليزية Mind أو الألمانية Geist. (المترجم)

(**) ليبنتز، جوتفريد فيلهلم. Leibniz, G.W. (١٦٤٦-١٧١٦) فيلسوف ورياضى ألماني. تعلم فى ليبزج وهى موطنه، ثم فى بينا، وحصل على الدكتوراه فى القانون فى ألتنبورف. رفض العمل أستاذاً للقانون ليتحق بالسلك الدبلوماسى. ف قضى بباريس أربعة أعوام (١٦٧٢-١٦٧٦) قائماً بخدمة المصالح الألمانية فى بلاط لويس ١٤. نشر حساب ١٦٨٤ قبل نشر نيوتن لحسابه بتسعة أعوام، مستعملاً الرموز التى أصبحت فيما بعد معترفاً بها بين العلماء كافة. وكان ليبنتز أول من فكر فى إقامة منطق رياضى بوساطته يمكن للمتجادلين أن يحسبا أفكارهما حساباً، بدل أن يتناقشا نقاشاً لا ينحسم. وأساس منطق الرياضى أن العالم محتوم العناصر والقومات، فلكل مونا مضمونها الذى لن ينقص أو يزيد، وكل ما فى الأمر أن المونا تبسط نفسها كأنها الشريط المطوى ينسط. وإذن فاية قضية تقال عن أى شىء هى قضية تحليلية. تذكر ما قد كان متضمناً فى موضوعها، فلو عرفنا جميع القومات، عرفنا بالتالى كيف نحصر بالحساب عناصر كل فكرة، فنحللها ونركبها دون التعرض للخطأ. معظم مخلفاته مقالات ورسائل تبادلها مع أصدقائه حول فلسفته. (المراجع)

----- (م) -----

ولعل أخطر التحديات التي تعرضت لها الميتافيزيقا المثالية التقليدية جاءت من إيمانويل كانط في ثانيا نظريته عن "المثالية المتعالية"، فقد كان كانط يرى أن الاتجاه الفكري للفيلسوف الميتافيزيقي التقليدي لا يمكن أن يؤدي به إلى تحقيق شيء، وذلك لأنه يطمح إلى تحقيق إنجاز يتجاوز طاقته. كما كان يرى أنه على الرغم من وجود عالم وراء هذا المظهر المجرد، فإننا لا نستطيع أن نعرف حقيقة ذلك العالم في واقع الأمر، لأن كيفية وصولنا إلى معرفة ذلك العالم مقيدة بما نخلعه عليه من خصائص، بوصفنا مخلوقات. وهذا الذي نخلعه على هذا العالم هو ما يسميه كانط "المقولات" Categories، وهي عبارة عن شروط تفكيرنا في العالم أو تصورنا له. ومن بين هذه الشروط توجد مفاهيم "الزمان" و"المكان" و"السبب" و"النتيجة". وعلى ذلك، يمكن القول إلى حد ما بأنه رغم وجود عالم مستقل عن طريقة تفكيرنا فيه، فإنه يظل دائماً بمنأى عن أن نصل إليه، ومن ثم يتعين أن نتفق على بحث هذا العالم ومحاولة فهمه كما يبدو لنا في ظاهره. وبسبب ما لقيته وجهة نظر كانط هذه من قبول لدى المفكرين والفلاسفة فقد تمثل تأثيره الكبير في الاتجاه - للمرة الأولى - في ربط قضايا الميتافيزيقا بقضايا نظرية المعرفة.

ويلاحظ أن المناقشات الأخيرة في مجال الميتافيزيقا أصبحت تميل إلى التركيز حول الخلاف القائم بين المؤيدين للواقعية الميتافيزيقية وأولئك المؤيدين للنزعة المضادة للواقعية في صورها العديدة التي تتفاوت في تطرفها. أما المؤيدون للواقعية الميتافيزيقية فيعكسون (ويستمدون أصولهم الفكرية) نفس الاهتمامات التي شغلت دعاة النزعة الإمبريقية، الذين جرت عاداتهم على مناوأة كل من النزعة العقلانية والنزعة المثالية. ويتمسك الواقعيون الميتافيزيقيون بوجهة النظر التي تؤمن بوجود واقع مادي/ فيزيقي مستقل عن العقل، يمكننا أن نصل إلى إدراكه ومعرفته. وهكذا لا يقتصر الأمر على أن أشياء كالأشجار، والقطط، والأحجار تبدو أنها موجودة، بل

إن هذه الأشياء توجد فعلاً فى العالم المستقل عن العقل (فإن إنواجن Van Inwagen ١٩٩٢) .

وأما المناهضون للواقعية الميتافيزيقية فقد أصبحوا يعرفون بوصفهم خصوصاً للواقعيين. وأياً كان الأمر، فمن الأهمية بمكان أن نتبين هنا على وجه الدقة الأمر الذى يعارضه خصوم الواقعية، ونحدد ما إذا كانوا كلهم معارضين لنفس الأمر أم لا. والواقع أن بعض المفكرين من خصوم الواقعية إنما يعترضون على أى مفهوم مباشر عن الواقع، ولا يعترضون - بالضرورة - على الزعم بوجود الواقع فى ذاته، كما يوجد منهم من يبدو أنهم يعارضون مفهوم الواقع نفسه معارضة تامة. وتضم مجموعة المفكرين الأخيرة هذه الفلاسفة التحليليين (انظر مادة: الفلسفة التحليلية) أمثال ريتشارد رورتى R.Rorty (١٩٧٢) ونلسون جودمان N.Goodman (١٩٧٨)، كما تضم بعض فلاسفة ما بعد الحداثة مثل جان بودريار (١٩٨٨). وإلى المجموعة الأولى ينتمى عدد من الفلاسفة أمثال هيلارى بوتنام H.Putnam (١٩٨١) وتوماس كون (١٩٧٠) الذى يبدو - وهو يدعى أنه يسير على نهج كانط - يريد ملاحظة الإشكاليات المرتبطة بمسألة الوصول إلى حقيقة الواقع، وليس رفض هذا الواقع بوصفه فكرة أو مفهوماً خارجاً عن سيطرة المرء.

وقد عارض بعض الفلاسفة مشروع الميتافيزيقا معارضة تامة، ففى نطاق الفلسفة التحليلية نجد الوضعيين المناطقة يزعمون أن الميتافيزيقيين لا يمكنهم أن يقولوا شيئاً له معنى (آير ١٩٤٦). وذلك لأنهم يعجزون عن تقرير الشروط التى تسمح لنا بالحكم على ما إذا كانت إحدى العبارات الميتافيزيقية صحيحة أو خاطئة (انظر مادة: المعنى). ومنذ عهد قريب ظهر الاعتراض على ما يسميه جاك ديريدا "بميتافيزيقا الحضور". ذلك أن أعمال ديريدا قد جرى تفسيرها على صور شتى، بما يعنى إما أنه ينكر أى شيء يقع خارج النص، وإما أنه - إذا استعملنا تعبيراً أخف حدة - يقرر أنه

----- (م) -----

لا أمل في الكلام عن الواقع خارج أى إطار تأويلي معين (انظر نوريس Norris ١٩٨٧ :
فصل ٦). (SH) للمزيد انظر: Kim and Sosa (١٩٩٤) و Walsh (١٩٦٣).

Mass Communication

الميديا

انظر: وسائل الاتصال الجماهيرى.

----- (ن) -----

Empiricism

النزعة الإمبريقية

اتجاه فلسفى يركز على الأولوية التى تتمتع بها الخبرة فى جميع مجالات الفهم الإنسانى. ومن المعتاد أن يؤرخ لظهور "النزعة الإمبريقية" بردها إلى مؤلفات الفيلسوف جون لوك، الذى ذهب فى كتابه بعنوان "رسالة حول الفهم الإنسانى" (١٦٩٠) إلى أن جميع أفكارنا وتصوراتنا تُستمد أساساً من خبرتنا للعالم الذى نعيش فيه، ويقرر لوك - فى تعبير شهير - أن العقل البشرى أشبه بصفحة الورق البيضاء، "تُخط عليها" الخبرة - فيما بعد - ما تشاؤه.

ويعد بركلى Berkeley والفيلسوف التتويرى الإسكتلندى دافيد هيوم من أنصار النزعة الإمبريقية، وذلك على الرغم من أن اتجاهيهما يختلفان عن اتجاه لوك من بعض الوجوه.

وقد كانت أعمال لوك وهيوم مصدر وحى لإيمانويل كانط (وخاصة فى رد فعل كانط للنزعة الشكية لدى هيوم فيما يتصل بإمكان الوصول إلى معرفة صحيحة كلياً) حيث قدم كتابه "نقد العقل الخالص" (١٧٨١). وقد قام هيوم فى كتابه بعنوان "رسالة فى الطبيعة الإنسانية" (١٧٣٩) (والذى أعاد كتابته وعرضه بعد ذلك فى كتابه "رسالة حول الفهم الإنسانى")، قام باقتراح تعديل شهير فى الاتجاه الإمبريقى، حاول فيه البرهنة على أن أساس كافة أنواع التفكير العقلى للإنسان إنما ينحصر فى العادات الاجتماعية أو الفردية..

(مما يعنى - بعبارة أخرى - أن النظم الاجتماعية تُحدث تأثيراً حاسماً على قدراتنا الذهنية). (PS) للمزيد انظر: Hume (١٩٩٠) و Locke (١٩٧٥) و Priest (١٩٩٠) و Woolhouse (١٩٨٨).

Civic Humanism

النزعة الإنسانية المدنية

واحد من الاتجاهات التي تعالج قضايا السلطة السياسية والقوة السياسية، والتي يمكن تقصى أصولها السابقة في كتابات الفيلسوف الإغريقي القديم أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد)، حيث نجد لهذه النزعة مفهومها الخاص بالقوة، والسلطة والفاعل المدني Civil Agent الذي يختلف اختلافاً ملحوظاً عن المفاهيم المناظرة لها في الليبرالية أو الماركسية.

ومن بين دعاة النزعة الإنسانية المدنية نجد أن نيقولو ماكيافيلي (*) هو أكثرهم شهرة، وذلك على الرغم من أن غيره من المفكرين قدموا شروحاً وتفسيرات للقوة السياسية تشتمل على أفكار تتصل بالنزعة الإنسانية المدنية (نذكر منهم على سبيل المثال جيمس هارنجتون J. Harrington (في القرن السابع عشر) وفي القرن العشرين داعية "الاشتراكية النقابية" كول G.D.H. Cole، وذلك في الوقت الذي يمكن أن يقال عن بعض الموضوعات التي تناولها المفكر التنويري جان جاك روسو في كتابه "العقد الاجتماعي" إنها تكشف عن مواقف مشابهة لتراث النزعة الإنسانية المدنية. حيث نجد أن كلاً من كتاب ماكيافيلي "الرسائل" (وهو كتاب يتناقض تناقضاً تاماً مع كتابه "الأمير")، وكتاب هارنجتون "اتحاد الأوقيانوسية" (الذي تأثر فيه بماكيافيلي) نجدهما يقدمان فكرة واضحة عن موقف النزعة الإنسانية المدنية تجاه القضايا السياسية. فهما يدافعان عن

(*) ماكيافيلي، نيقولو Machiavelli, Niccolò (١٤٦٩-١٥٢٧) منظر سياسي وباحث في العلوم الإنسانية ذائع الصيت من أبناء فلورنسا. وقد اعتد أن الطبيعة البشرية في جوهرها أنانية، واستناداً إلى ذلك أيد ماكيافيلي الحاجة إلى حكومة قوية، وبخاصة في كتابيه "الأمير" و"المحاورات" (كتبا ما بين عامي ١٥١٣، ١٥٢١). وقد مارس عمله تأثيراً بالغاً على علم السياسة، وإن كان عدد من علماء الاجتماع قد تأثروا بنظريته في فن الحكم مثل ستانفورد م. ليمان، ومارفن ب. سكوت، على سبيل المثال. (انظر كتابهما: سوسيولوجيا العبث، الذي صدر في طبعته الثانية عام ١٩٩٠). (المراجع)

----- (ن) -----

المواطنين النشطين سياسياً، الذين يتمتعون بإحساس قوى بالواجب المدني، الذى يفرضه عليهم انتماءهم لمجتمعهم (ويطلق ماكيافيلى على هذا الإحساس مصطلح "الفضيلة المدنية").

وترتكز النزعة الإنسانية المدنية على قناعة مفادها أن السلطة التشريعية التى تحكم مجتمعاً ما يجب أن تتألف من القوانين التى تكفل استمرار توفير الظروف اللازمة لدوام بقاء هذا المجتمع، ألا وهى الظروف الخاصة بالفضيلة المدنية (ومن هنا جاءت الكلمة الماثورة لهارنجتون التى يقول فيها "القوانين الصالحة تصنع البشر الصالحين"). لهذا السبب، نجد أن المفكر ذا النزعة الإنسانية المدنية لا يتصور الفاعل السياسى - كما يفعل الليبراليون - من وجهة نظر نزعة فردية تعبر عن هويتها عن طريق ممارسة الاختيارات الحرة الطليقة التى لا يعوقها إلا ذلك الحد الأدنى من التدخل المشروع من جانب الدولة، وإنما ينظر إلى الفرد كامتداد لهويته الشخصية وامتداد للمبادئ الحاكمة التى يركز المجتمع نفسه عليها. وبعبارة أخرى، لا يوجد تمييز صارم بين المجالات التى تسمى "عامة" وتلك التى تسمى "خاصة". لذلك يعد المواطن - بدوره - كائناً مستقلاً بمقدار ما يؤدي من دور فعال فى الحياة السياسية والثقافية لهذا المجتمع (والمثال الذى يتجسد فيه هذا الكلام هو مثال الجمهورية الرومانية القديمة).

وقد كان كل من ماكيافيلى وهارنجتون يسعى للوصول إلى هيئة تشريعية سياسية "متوازنة"، أى هيئة يتم فيها استثمار ما لدى كل من الأقلية الثرية (من النبلاء) والأكثرية من العوام، من المواهب والمصالح، كما تتم فى ساحتها المواجهة بين مواهب ومصالح كل من هاتين المجموعتين، وذلك من أجل الوصول إلى نموذج لحكومة تحمى المجتمع من التعرض لأسوأ العواقب السياسية التى يمكن أن تنجم عن الأشكال الثلاثة المختلفة من أنظمة الحكم، وهى: الملكية المطلقة، أو نظام الحكم الأرستقراطى،

أو نظام الحكم الديمقراطي. وهى أنظمة كانت تعد - فى نظر ماركيا فيلى وهارنجتون - سينة إلى الحد الذى يجعلها مؤهلة للتحويل إلى الطغيان، فى حالة الملكية المطلقة، أو إلى الأوليغاركية (أى حكم الأقلية) فى حالة نظام الحكم الأرستقراطى، أو إلى الفوضوية فى حالة نظام الحكم الديمقراطى. (PS) للمزيد انظر: Harrington (١٩٩٢) و Machiavelli (١٩٨٢) و Pocock (١٩٧٥).

النزعة الجماعية الاشتراكية Communitarianism

اتجاه يتصل أساساً بقضايا الأخلاق والسياسة (وذلك على الرغم من أن فروعه قد تمتد لتدخل فى مجال نظرية المعرفة أيضاً) ويذهب هذا الاتجاه إلى أن المعايير المعمول بها فى جماعة ثقافية معينة هى وحدها مصدر ما يعد صواباً على الصعيدين الأخلاقى والسياسى. ويتعبّر آخر، يرفض أصحاب النزعة الجماعية الاشتراكية أى وجهة نظر تسعى لتقديم أشكال من التبرير للأفكار الخلقية أو السياسية التى تتجاوز الأطر الثقافية (كالصيغة التى طرحها رولز Rawls عن "الوضع الأولى أو الأصلية" وهو يقدم تبريراً عقلانياً للمبادئ الأساسية للعدالة السياسية - انظر مادة: الليبرالية).

وأهم المفكرين الذين ارتبطوا باتجاه النزعة الجماعية الاشتراكية: ألاسدير ماك إنتاير Alasdair Mac Intyre، ومايكل ساندل M.Sandel، وتشارلز تايلور C.Taylor، ومايكل وولتز M. Waltzer. ويذهب ماك إنتاير فى رؤيته لقضايا الأخلاق إلى أنه إذا كان علينا أن نقدم تفسيراً متماسكاً - منطقياً - للذات الإنسانية (بوصفها كائناتاً أخلاقياً)، فعلينا إذن أن نقر بحقيقة أن الأفراد محكومون بالممارسات والتقاليد الاجتماعية. وهذه الطبيعة المشتركة (أى العامة أو الاجتماعية) لمعنى الفعل الأخلاقى، فى نظر ماك إنتاير، شرط مسبق ضرورى لهذا الفعل، ومن ثم فهى خاصية جوهرية لأى مفهوم لما نقصده "بالخير الإنسانى".

----- (ن) -----

ويميل ساندل إلى التركيز على نقد مفهوم رولز عن "الذات أو الأنا". حيث يذهب إلى أن رولز يختلق تفسيراً ميتافيزيقياً للذات من أجل أن يؤسس لأفكاره السياسية الليبرالية، وهو بذلك يتجاهل البعد الاجتماعي للشخصية الفردية في ثنايا تفسيره للعناصر التي تتكون منها ذات المواطن السياسي.

وبالمثل يتبنى تايلور اتجاهًا مشابهًا لاتجاه ساندل، يركز فيه على أهمية الوجود المسبق لشروط لغوية يشترك الأفراد في الالتزام بها، والتي يرى أنها ضرورية للتعبير عن التميز الشخصي لكل فرد، وعن الأخلاق الحميدة، وعن القدرة العقلية على التفكير المنطقي. وعليه يرى تايلور أن المجتمع باعتباره يتكون من نظام مشترك من المعايير اللغوية) يستلزم بالضرورة وجود أفكار ومفاهيم كالذاتية، والفاعل، والاستقامة الخلقية، إلى أخرى.

وقد تبني والترز، كذلك، الاتجاه الذي يرى أن طبيعة ما يعد خيراً، إنما تتوقف على مجال من المعاني المشتركة، وأنه يترتب على ذلك الاتجاه بالضرورة أن أى تصور للعدالة يجب أن يتوقف على ذلك النظام المشترك من المعاني فى أى مجتمع سياسى. لهذا اتخذ أصحاب النزعة الجماعية الاشتراكية، موقفاً يبرز أهمية البعد الاجتماعي للغة الأخلاقية.

وفى ضوء ذلك، يمكن الادعاء بأن هذه الاتجاهات التي تبناها هؤلاء المفكرون لها ملامح مشابهة للملامح اتجاهات بعض أنصار ما بعد الحداثة (أمثال ميشل فوكو، وجان فرانسوا ليوتار، وريتشارد رورتي). مع أنه من الجدير بالملاحظة - على الأقل بالنسبة لأفكار تشارلز تايلور - أن القضية الخاصة بتحديد ما إذا كنا ملزمين بأن نتبنى موقفاً مضاداً لنظرية المعرفة ومتابعاً لما بعد الحداثة (بدلاً من تجاوز نظرية المعرفة التي وضع كائط خطوطها الرئيسية) هي واحدة من القضايا التي لا تزال بعيدة عن القول الفصل فيها. (PS) للمزيد انظر: Avineri and De-Shalit (١٩٩٢) و Bell (١٩٩٢)

و MacIntyre (١٩٨١، ١٩٨٨) و Mulhall and Swift (١٩٩٦) و Sandel (١٩٨٢) و Taylor (١٩٩٠، ١٩٩٧) و Walzer (١٩٨٣).

النزعة التاريخية Historicism

نظرية ترى أن التحليل التاريخي لمعتقدات البشر، وأفكارهم، ونظمهم الأخلاقية، وأساليب معيشتهم، هو الوسيلة الوحيدة لتفسير مثل هذه الظواهر. لذلك لا يؤمن صاحب النزعة التاريخية بوجود حقائق حتمية أو ضرورية غير تاريخية تتعلق بتركيب الهوية الإنسانية (انظر كذلك مادة **الماهيوية** أو **الجوهرية**). وهو يبنى هذا الرافض على أساس أن مثل هذه الأفكار والتصورات إنما هي محصلات للعمليات التاريخية الخاصة بثقافات معينة وبأشكال ثقافية معينة. ولهذا السبب تغالى النزعة التاريخية فى الإشادة بالنسبية الثقافية.

ومن بين المفكرين المرتبطين بالنزعة التاريخية عالم الاجتماع كارل مانهايم، الذى يذهب - بجمعه بين النسبية المعرفية والنسبية الثقافية - إلى أن كل معرفتنا عن التاريخ إنما هى مسألة علاقات، وأن وجهة نظر الراصد لوقائع التاريخ لا يمكن فصلها عن تحليله للتاريخ. وبدوره يذهب ميشيل فوكو إلى الاعتقاد بأن الأنا ذات تركيب تاريخي، أكثر من كونها بناءً طبيعياً فى نشأته ذا عمومية على امتداد كافة العصور والثقافات. وقد أذكت هذه النظرية التاريخية المناقشات المتصلة بتركيب جوانب الهوية الإنسانية فى علاقتها بقضايا العرق والنوع الاجتماعى.

وفى الولايات المتحدة، كان لأعمال فوكو (وكذلك أعمال راييموند ويليامز) تأثير كبير فى ظهور "النزعة التاريخية الجديدة" التى تنطلق من المزج والتلاقح بين نظريات ما بعد البنيوية والماركسية. ويهتم مفكرو النزعة التاريخية الجديدة بالآثار الاجتماعية والإيديولوجية للمعنى، ولتأويل هذا المعنى. وهم يطرحون عدداً من القراءات لبعض

النصوص الأدبية أساساً، حيث تسعى تلك القراءات (على خلاف الاتجاه النقدي التقليدي في تفسير النصوص والذي لا يُدخل الظروف التاريخية في اعتباره ويقتصر فقط على معالجة النص وحده) تسعى إلى تفسير تلك النصوص الأدبية ضمن السياق الثقافي الذي أُنتجت فيه، وباستعمال نوع من منهجيات البحث التاريخية، وترفض - رغم ذلك - أنساق التفسير الكبرى في ميداني التاريخ أو لإبستمولوجيا. ومن الكتاب الذين طوروا هذا الاتجاه ستيفن جرينبلات S.Greenblatt، الذي قدم طرحاً دقيقاً محكماً للنزعة التاريخية الجديدة في كتابه بعنوان "أشكال القوة وقوة الأشكال في عصر النهضة الأوروبية" (١٩٨٠). (PS) للمزيد انظر: Greenblatt (١٩٨٠) و Hamilton (١٩٩٦) و Mannheim (١٩٧٢) و Verser (١٩٨٩) .

Behaviourism

النزعة السلوكية

اتجاه في علم النفس يذهب إلى أن هذا العلم لا يمكنه أن يحوز الصفة العلمية بحق إلا إذا قصر اهتمامه على الظواهر التي يمكن للكافة قياسها بوضوح، كما هو الحال مثلاً في ردود الأفعال العضلية والغدية. لذلك يعد البعض هذا الاتجاه استجابة للمشكلات الكامنة في التفسير الثنائي للكائن البشري (حيث يفهم هذا الكائن البشري على أنه عقل أو نفس يعيشان داخل بدن)، واعتراضاً على المكانة التي يحظى بها أي ادعاء يزعم إحاطته بالأحوال العقلية التي تتعمل داخل كائن بشري آخر.

وجرت العادة على أن ينسب إدخال النزعة السلوكية ضمن نطاق علم النفس إلى واطسون(*) إبان سنوات العقد الثاني من القرن العشرين. ذلك أن واطسون كان

(*) واطسون، جون برويس Watson, John B. (١٨٧٨-١٩٥٨) سيكولوجي أمريكي. درس في جامعة شيكاغو، وكان مديراً لمعمل علم النفس بجامعة جونز هوبكنز. صاحب نظرية السلوكية المعروفة في علم النفس. والتي تصف السلوك بأنه الاستجابة السيكلوجية للمنبه، وبذلك ترفض مفهوم النشاط الذهني =

يعارض أسلوب الاستبطان كطريقة من طرق علم النفس، ساخراً من تلك الدعاوى التي كانت تطالب علماء النفس بأن يمرنوا أنفسهم عليه بحيث يصبح بمقدورهم أن يميزوا بين أحوالهم العقلية الداخلية وأن يصنفوها. وقد كان واطسون متأثراً بالبحث الذي أجراه بافلوف Pavlov قبل ذلك على الأفعال المنعكسة (أو الاستجابات الانعكاسية) لدى الحيوانات (حيث أقام الدليل على أنه إذا تم تعريض كلب لصوت جرس قبل تناوله للطعام، فإنه سيتكون لديه فعل منعكس يتمثل في أن يسيل لعابه عند سماع صوت الجرس فقط، دون الطعام). ومن ذلك المنطلق كان واطسون قادراً على الادعاء بأن اللجوء إلى الأحوال الباطنية في تفسير الفعل الإنساني هو أمر لا موجب له. ذلك أن تفسير الفعل الإنساني يمكن أن يمضى قدماً - ملتزماً بالموضوعية - عن طريق التعرف على الارتباطات الشبيهة بالقواعد العامة أو القوانين التي تربط بين المثيرات أو المنبهات وبين ما يمكن ملاحظته من استجابات أو ردود أفعال يبدئها الشخص الموضوع تحت الدراسة تجاه هذه المثيرات. لذلك، فإن الحالة الداخلية كالشعور بالجوع مثلاً، لا يمكن أن تُفهم، أو تُعرف تعريفاً إجرائياً، إلا وفقاً للسلوك المتوقع من الشخص أو الحيوان الذي يمر بهذه الحالة. (وفي الوضع الطبيعى للأمور، يكون الشعور بالجوع بديلاً للعيان في صورة السلوك الخاص بالبحث عن الطعام، أو إن شئت استعمال بعض مصطلحات المدرسة السلوكية الدقيقة: فإن الشعور بالجوع يستنفذ خلال سلوك البحث عن الطعام). وبهذا الشكل فإن سلوك الشخص موضع الدراسة لن يعتمد على أحواله الداخلية (كالتنيمات، أو الأغراض، أو المشاعر التي يعايشها فيما بينه وبين نفسه أو بصورة خاصة لا يدري بها غيره)، وإنما يعتمد -

= الشعوري، أو اللاشعوري، وقال واطسون بثلاث استجابات غير مكتسبة ولا مشروطة عند المولودين، وهي: الخوف والحب والغضب. ألف "علم النفس في نظر السلوكيين" ١٩١٩. و"السلوكية" ١٩٢٥، والعناية السيكولوجية بالأطفال والأولاد" ١٩٢٨. (المراجع)

----- (ن) -----

على الأرجح - على مدى حداثة عهده بمواجهة مثير معين وعلى مدى تكرار مرات هذه المواجهة. وتمشياً مع هذا التصور، تبني واطسون موقف النزعة البيئية(*) المتشددة، حيث يرى واطسون أنه لا يوجد في سلوك الإنسان الفطري (أو الذي تحدده المورثات) إلا شيء يسير، هذا إن وجد أصلاً. فالبشر يتعلمون من واقع استجاباتهم للمثيرات التي تأتيهم من البيئات المحيطة بهم.

وقد اضطر واطسون إلى اعتزال الحياة الأكاديمية في سنة ١٩٢٠ (بعد حادثة طلاقه التي اقترنت بفضيحة)، ولكن النزعة السلوكية أصبحت تمثل إحدى القوى المسيطرة في مجال علم النفس الأمريكي حتى ستينيات القرن العشرين، حيث تعرضت للتطوير بصورة ظاهرة على يد كل من إدوارد جوتري E.Guthrie، وكلاارك هل C.Hull، وسكينر(**).

وقد ظل جوتري وثيق الارتباط بمفهوم واطسون عن السلوكية، رغم أنه أسقط من الحساب العامل الخاص بعدد مرات تكرار مواجهة الفرد لمنبه معين، فلم ير فيه عاملاً مهماً في تحديد سلوك الفرد. وكان "هل" يطمح للوصول إلى تفسير منهجي للسلوك البشري يمكن صياغته في تعبيرات رياضية.

أما سكينر فقد نحا بالسلوكية بعيداً عن أفكار واطسون، وبالأذات فيما يتصل بالأهمية المحورية التي كان يخلعها على مفهوم رد الفعل الانعكاسي. وقد فعل سكينر

(*) النزعة البيئية Environmentalism، بدأت في أوائل القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية، وركزت اهتماماتها على الحفاظ على الموارد الطبيعية، والحماية من كافة مظاهر التلوث، وعلى ضمان استمرار قدرة الأرض نفسها على تجديد نفسها تجديداً تلقائياً بدون تدخل البشر، ثم تطورت فيما بعد واتخذت شكل تنظيمات محلية وعالمية، تحكمها مواثيق وقوانين عديدة. (المترجم)

(**) سكينر، بوروس فريدريك Burrhus Frederic Skinner (١٩٠٤ -) عالم نفس أمريكي. من أركان المدرسة السلوكية. عرف بتجاربه المبتكرة في حقل تعليم الحيوانات. درب مجموعة من الحمام على لعب كرة الطاولة (البفنبغ)، وقد كان لدراسته أثر كبير في نشوء التعلم المبرمج (programmed learning) (المراجع)

ذلك لصالح التركيز على تأثير سلوك الفرد على البيئة المحيطة به. ذلك أن ما يهم فى شأن السلوك - فى رأى سكرن - مجاهدة هذا السلوك فى التكيف مع البيئة المحيطة بالكائن الحى. مثال ذلك، أن أحد الحيوانات التى كان يجرى عليها اختبار معملى كان يحرك مفتاحاً أمامه من وضع الإغلاق إلى وضع التشغيل، حتى يتحصل - بهذا السلوك - على الطعام الذى لم يكن فى إمكانه الحصول عليه إلا بتحريكه لهذا المفتاح. والجدير بالملاحظة هنا أن سكرن كان يرى - بوضوح لا لبس فيه - أن سلوك الحيوان أو الكائن الحى لا يمكن تفسيره وفقاً لنية هذا الكائن أو رغبته فى الحصول على الطعام. إنما الأصح أن هذه النية أو الغرض من وراء هذا الفعل لا يعود إلى نوع من توقع للمستقبل من جانب الكائن الحى، وإنما يعود إلى كون هذا الغرض نتيجة لذلك السلوك فى الماضى. وعليه فالكائنات الحية (بما فيها البشر) لا تنصرف بناءً على ما لديها من أغراض مستهدفة، إنما بالأحرى بناءً على ما سبق أن عاشته من نتائج لأعمالها من قبل.

ويميز سكرن بين "النزعة السلوكية المنهجية" وبين ما خطه لنفسه من "نزعة سلوكية جذرية أو راديكالية"، فالباحث الذى يلتزم بالسلوكية المنهجية يوافق موافقة مطلقة على أن الأحداث الداخلية كالنيات والمقاصد أمور غير قابلة للرصد بصورة ظاهرة، ومن ثم لا تستطيع أن تقوم بدور مشروع يعتد به فى تقديم تفسير علمى يمكن إثباته والتحقق من صحته بصورة ظاهرة. أما الباحث الذى يلتزم بالسلوكية الراديكالية فيعترف بوجود الأحداث الداخلية وبدورها "فى إحداث السلوك" ويحاول أن يقر بخصوصيتها (بدلاً من أن يتجاهلها)، وذلك بمحاولته إثبات أنها تخضع لنفس أشكال أو صيغ قانون الارتباط الشرطى (بين المثير - والاستجابة) التى يخضع لها السلوك الظاهر، وأن بينها وبين السلوك الظاهر علاقات سببية واضحة يمكننا اكتشافها. من أجل هذا تحاول السلوكية الراديكالية أن تتسع لتستوعب كلاً من الاستدلال الرياضى والمنطقى

----- (ن) -----

والاستبطان داخل نفس الإطار التفسيري المشابه للإطار المطبق على السلوك الشرطى لحيوانات المختبر العلمى.

إن ما تتصف به المدرسة السلوكية من صورة مثيرة للجدل والاختلاف، لا يرجع فقط إلى ما قد يبدو فى ظاهر الأمر تفسيراً ميكانيكياً مغالى فيه للكائن الإنسانى، أو إلى التحديات التى يفرضها هذا التفسير على المكانة العالية المزعومة لحرية الإنسان، بل يرجع - بجانب ذلك - إلى أن هذا التفسير كان يراد له - على الأقل عند واطسون وسكندر - أن يطبق تطبيقاً عملياً فى الحياة الاجتماعية اليومية. ويقدم لنا سكندر مشروعاً متطرفاً لتطبيق هذا التفسير الميكانيكى للسلوك البشرى فى روايته بعنوان "وولدن تو" (Walden Two) (١٩٧٦)، التى تصف مجتمعاً تطبق فيه أساليب المدرسة السلوكية فى تشكيل أفرادها ليبلغوا مستوى طيباً من التعاون، الحب، بل والإبداع كذلك. وعلى مستوى أكثر اتصالاً بالحياة اليومية تمثل مدرسة علم النفس السلوكى الأساس الذى يستند إليه أسلوب العلاج السلوكى وغيره من الأساليب والتقنيات السلوكية التى تستهدف مساعدة الأفراد على التغلب على المخاوف المرضية والأمراض العصبية. (AE) للمزيد انظر: Skinner (١٩٧٢، ١٩٧٤) و Zuriff (١٩٨٥).

Contextualism

نزعة السياق

هى وجهة النظر الفلسفية التى ترى أن الجمل لا تؤدى معنى، وأن الأفعال لا تكون لها قيمة أخلاقية بمعزل عن السياق الذى تتم فى إطاره. ففى فلسفة اللغة تستجيب نزعة السياق للحقيقة التى مؤداها أن بعض الكلمات يجب أن تشير إلى سياق محدد لكى تؤدى معنى ولكى يتسنى الحكم عليها بالصدق أو الزيف. وهكذا فإن جملة "إن فلان مشتغل بالنظرية الثقافية" تتفاوت درجة صدقها تبعاً لتحديد من هو

المقصود "بفلان"، ولو أن هذه الحجة يمكن تطويرها بحيث نخلص إلى أن معنى كل الجمل وصدقها يتوقف على سياقها، وإن كان يمكن القول - سطحياً - إن جملة "بورديو مشغول بالنظرية الثقافية" قول صادق ويؤدي معنى بغض النظر عن سياقه. أما في الإجابة على السؤال: "ما هي حالة الجوّ؟" فيبدو أنه لا يؤدي أى معنى على الإطلاق (انظر: 195: 1981 MacIntyre). وتجتهد نظرية سياق المعنى فى شرح القواعد التى يتعين على المتحدث الكفاء أن يكون متمكناً منها لكى يستخدم اللغة استخداماً سليماً ولانقاً فى السياقات المختلفة (انظر على سبيل المثال: 120-26: 1987 Habermas).

أما فى مجال الأخلاق فإن نزعة السياق تقف على طرفى نقيض من النظريات الأخلاقية التى تؤمن أن القيمة الأخلاقية لأى فعل يمكن أن تُستمد من بعض المبادئ العامة المجردة. وقد ظلت تلك الاتجاهات اللاسياقية فى تناول الأخلاق هى المسيطرة على التراث الأخلاقى الغربى، كما يتجسد فى أعمال عمانوئيل كانط، ولكنها سيطرت بدرجة أقل على مذهب المنفعة، وتصاعدت أهمية اتجاهات السياق فى أواخر القرن العشرين. وكان من التطورات الأساسية المسئولة عن ذلك ظهور ما عرف "بالأخلاق الموقفية" (أى ربط الأخلاق بالمواقف) عند جوزيف فلتشر (1966 Fletcher)، الذى ذهب إلى أن قيمة الأفعال لا يمكن أن تنفصل عن السياق أو الموقف الذى يتم الفعل فى إطاره.

ويمكن بداية توضيح أهمية السياق بالإشارة إلى العمارة، حيث يكون معنى السياق حاسماً لتفسير معنى مبنى قائم بالفعل أو تصميم مبنى جديد (انظر: 138-42: 1975 Gadamer). والسياق لا يشير هنا مجرد وجود وتصميم المبانى المجاورة، وإنما يشير كذلك - حسب رأى بيتر سميثسون - "إلى سياق نماذج العلاقات الإنسانية، وأنماط استخدام المبانى، وأنماط الحركة، وأنماط السكن، والهدوء، والضوضاء وما إلى ذلك، وأنماط الشكل بمقدار قدرتنا على الكشف عنها وتحديدها". (١٩٧٥)

كما يمكن الإشارة - ثانياً- إلى علم الآثار، حيث يعد مفهوم السياق مصطلحاً فنياً متخصصاً، يشير إلى ظروف العثور على منتج فني معين. والمهم هنا أنه على الرغم من أن المنتج الفني يمكن أن يتميز في ذاته بقدر كبير من الجمال، لو أنه انتزع من السياق الذي عثر عليه فيه؛ على الرغم من ذلك فإنه لن يمكن معرفة شيء عن عمره، أو عن استخداماته وأهميته. وذلك لأن مثل هذه المعلومات لا يمكن تحديدها بدقة إلا بتحليل علاقة المنتج الفني بالمنتجات الفنية الأخرى، وتجميع شواهد عن أساليب حياة صانعه ومستخدمة وممارساتهم المعيشية. وهكذا لا تكون للمنتج الفني المنتزع من سياقه أهمية حقيقية تذكر بالنسبة لعالم الآثار (انظر: Renfrew 2003: 55-8). ويعكس الشك المهني المستمر لعلماء الآثار في مستخدمى أجهزة استكشاف المعادن (وفى غيرهم ممن ينهبون "كنوز" المواقع الأثرية)؛ يعكس إدراكاً لأهمية معرفة السياق فى التوصل إلى تفسير له قيمة للمنتج الفني الذى يعثر عليه. (AE).

Conservatism

النزعة المحافظة

ربما يكون من الأفضل أن نصف النزعة المحافظة باعتبارها تمثل موقفاً فى أمور السياسة والمجتمع وليس إيديولوجيا سياسية. وبالإمكان تعقب أصولها الأولى بالرجوع إلى كتاب إدموند بيرك^(*)، وعنوانه: "تأملات فى ثورة فرنسا" (١٧٩٠)، والذى

(*) بيرك، إدموند Burke, Edmund (١٧٢٩-١٧٩٧) سياسى بريطانى وكاتب سياسى، ولد بدبلن لأب بروتستانتى وأم كاثوليكية، وكان هو نفسه بروتستانتياً. انتقد الأنظمة الإدارية بأيرلندا، وتميز البروتستانت على الكاثوليك. بدأ دراسة القانون بلندن، ولكنه هجرها للأدب. نشر مؤلفات انتقد فيها المذهب العقلى فى السياسة، وبحث السمو والجمال فى الأدب، وانضم إلى جماعة صمويل جونسون، وبدأ حياته السياسية بالبرلمان ١٧٦٦ بدفاعه عن سحب قانون التصفية، وخطبه المشهورة عن الضرائب بأمريكا والمستعمرات لتعديل سياسة الملك فى أمريكا. دبر محاكمة وارن هيسستنجز (١٧٨٥-١٧٩٤)، ورغم أن هيسستنجز لم يعرف فإن خطب بيرك عرفت الرأى العام فى إنجلترا مسئولية الحكم الإمبراطورى فى الهند والمظالم الواقعة بها، ولكنه عادى الثورة الفرنسية والإصلاحات البرلمانية، وقنع بتحدييد سلطة الملك، فانفصل عن الأحرار وزعيمهم فوكس، واعتزل ١٧٩٥. (المراجع)

استلهم فيه أحداث الثورة الفرنسية من أجل شرح وتوضيح السمات الأساسية التي يركز عليها التفكير المحافظ. وعلى ذلك، فقد يصح القول بأن النزعة المحافظة الحديثة تستمد إلهامها الأول من رد الفعل الذي قوبلت به حركة التنوير ومثلها العقلانية أو الرشيدة، التي عبرت عنها الثورة الفرنسية (وإن جاء هذا التعبير بصورة محرفة نوعاً ما). وتتمثل ريدود الفعل هذه فيما يلي:

أولاً: موقف سلبي تجاه التغير الاجتماعي.

ثانياً: إيمان ثابت لا يتزعزع بأن المواقف والمعتقدات المتوارثة صحيحة من الناحية الأخلاقية والسياسية.

ثالثاً: رؤية كئيبة ومتشائمة للطبيعة البشرية، بمعنى أن المحافظين يميلون للاعتقاد بأن الأفراد إذا تركوا وشأنهم في مسعاهم لتحقيق غاياتهم، فإنهم سوف ينحدرون - بصورة عامة - إلى أسلوب معيشة قد يكون في أحسن الأحوال أسلوباً أخلاقياً، أو ينحدر - في أسوأ الأحوال - إلى أسلوب لا أخلاقي تماماً (وهي رؤية تقف على النقيض تماماً من الرؤية الأكثر تفاؤلاً والتي تنظر بها الليبرالية والاشتراكية).

رابعاً: الرؤية التي تنظر إلى المجتمع على أنه بناء من العلاقات المترابطة التي تكون مجتمعاً ما.

وقد شهد القرن العشرون وجود عدد من دعاة النزعة المحافظة لهم شأنهم (أو على الأقل لهم شهرة واسعة). وكثيراً ما يذكر مايكل أوكشوت M.Oakeshott كمثال على هذه الحالة. وذلك رغم ما يقال من أن فكره السياسي يدين بالكثير للفلاسفة أمثال أرسطو، وتوماس هوبز وهيغل (ويتسم الفيلسوفان الأخيران بميول "محافظة")، في نفس الوقت الذي يشترك فيه مع بعض سمات النزعة الجماعية الاشتراكية. وإن كانت رؤيته تبلغ من عمقها وترباطها مبلغاً يتجاوز مجرد تسميته أحد

----- (ن) -----

المحافظين المحدثين. وقد يكون ليوستراوس Leo Strauss، وروجر سكروتن R. Scruton - وهو أحدث عهداً بكثير من صاحبه - قد يكون كلاهما نماذج أفضل للفكر المحافظ الحديث.

وقد قدم الفيلسوف الألماني يورجن هابرماس - فى وقت لاحق - تفسيراً للنزعة المحافظة تربطها بكتابات ما بعد الحداثة (كجاك ديريدا، وميشيل فوكو، وجان فرانسوا ليوتارد). ووجهة نظر هابرماس فى ذلك أن فكر ما بعد الحداثة، وهو يفصح عن وجوه نقده للتنوير (أى نقده لإيمان حركة التنوير الشديد بالعقل والعلم) إنما يعبر فى الواقع عن نزعة محافظة اتبعثت من جديد - بعد طول رقاد - تستلهم كتابات أولئك المفكرين "الظلاميين" فى التراث البورجوازي، أمثال ماركيزدى ساد Sade، ونيتشه (مع أن فكر ما بعد الحداثة يعد - كذلك - مناسباً للربط بين آراء مفكر مثل ليوتارد والتراث الليبرالى، الذى تجمع بينه وبين أعمال ليوتارد الأخيرة بعض السمات المشتركة) (PS). للمزيد انظر: Burke (١٩٨٢) و Oakeshott (١٩٧٥) و Scruton (١٩٨٤).

Neoconservatism

(نزعة) المحافظين الجدد

انظرها فى الميم مع الحاء.

Utopianism

النزعة اليوتوبية

انظر: يوتوبيا.

Cultural Relativism

النسبية الثقافية

هى وجهة النظر التى ترى أن أنظمة الأخلاق والممارسات والمعتقدات ذات المستويات المختلفة اختلافاً جوهرياً، تفعل فعلها داخل كل ثقافة على حدة، ومن ثم

يتعذر الحكم عليها من حيث الأهمية والقيمة انطلاقاً من وجهة نظر خارجية عنها. وهكذا ترى النسبية الثقافية أنه لا يمكن المقارنة بين أنساق القيم الموجودة في الثقافات المختلفة وفقاً لوحدة قياس معينة. أما مسألة ما إذا كانت وجهة النظر هذه تسلم إلى شكل من أشكال النسبية فيما يتصل بقضايا المعرفة (انظر مادة: نظرية المعرفة) أم لا، فإنها قضية أخرى تتوقف على ما إذا كان المرء ميالاً للتمسك بأن قواعد الصدق التي تنطبق على تصورات ودعاوى المعرفة (ومنها على سبيل المثال مبدأ "اللاتناقض" انظر مادة: التناقض) ذات طابع ثقافي، أم لا. ومع ذلك، فمن العسير فهم كيف يستطيع الملتزم بالنسبية الثقافية الدفاع عن أن فكرة ذات صدق معرفي، ويبرئها من تهمة أنها - كذلك - منتج ثقافي وأنها - لهذا السبب - غير قابلة للمقايضة (أي للمقارنة) مع غيرها من المفاهيم الصحيحة الأخرى المتولدة داخل ثقافات أو سياقات مختلفة.

ويمكننا تعريف النسبية الثقافية الأحدث عهداً في ضوء التزامها بنموذج معين من اللغة والمعنى مستمد من (أو يكون له وجوه شبه قوية) بالأعمال التي قدمها فتنشتين في أخريات حياته^(*). وعلى ذلك، فإن تأييد ريتشارد رورتي Rorty لليبرالية ولنزعة ما بعد الحداثة، وهو موقف يتبنى نظرة النسبية الثقافية تجاه الممارسات والعمليات التي تتألف منها الخواص العقلية المشتركة المستعملة في مجال التفسير، موقف رورتي هذا يدين بالفضل للفكرة التي قدمها فتنشتين في عبارة "المعنى هو الاستعمال". وعلى الرغم مما يتردد كثيراً من مزاعم تدعى أن الملتزم بالنسبية الثقافية يهتم بالتعبير عن وجهات نظر الفئات والثقافات المهمشة، فإنه من الواضح أن الواقع غير ذلك تماماً. ويذهب

(*) إشارة إلى آخر ما كتبه فتنشتين (المتوفى سنة ١٩٥١)، وهو كتابه بعنوان "البحوث الفلسفية" (المنشور سنة ١٩٥٢) وفيه قدم مراجعات لمواقفه الفكرية القديمة من قضايا اللغة، والتعبير، والواقع، وغيرها مما سبق له نشره في أول أعماله وأشهرها، وهو كتابه بعنوان: "رسالة منطقية فلسفية" (المنشور سنة ١٩٢١). (الترجم)

البعض (قارن مثلاً كتاب كريستوفر نوريس بعنوان "نزاع القدرات" ١٩٨٥) إلى أن دفاع رورتي عن النسبية المعرفية الثقافية وتأييده لها يجلب معه شبح الإمبريالية الثقافية (انظر كذلك: الأنثروبولوجيا الثقافية). (PS) للمزيد انظر: Hollis and Lukes (١٩٨٢) و Margolis (١٩٩١) و Norris (١٩٨٥) و Rorty (١٩٩١).

Indexicality

نسبية المعنى

انظر: الإرشادية.

Bricolage

النسج الأسطوري^(*)

استعارة جذابة تم تطويرها انطلاقاً من الأنثروبولوجيا البنوية الليفي-شتراس. والكلمة الفرنسية التي اشتق منها هذا الاسم هي Bricoleur تشير -حرفياً- إلى ذلك النوع من العمال الذي يكون الواحد منهم قادراً على إصلاح أو صيانة أى آلة أو جهاز بواسطة إعادة استعماله لقطع من الآلات، يجلبها من مصدر آخر، فيستحدث - بهذا

(*) ترجم الفكر الراحل سامي خشبة هذا المصطلح بـ"تجميع عشوائى (التراث القصصى)". وقد شرحه باستفاضة موضعاً معناه الأصلي لدى صاحب الفضل في ابتكاره وهو ليفي شتراس. وكذلك ما جرى عليه من مناقشات وتحليلات على يد اللغوى الفرنسى البنيوى جيرار جينيه، مروراً بجاك ديريدا وغيرهم. ونعتقد أن المعنى الحقيقى للمصطلح - لدى كافة المفكرين الذين تناولوه - لا يقول بعشوائية "التجميع" أو "النسج" ولا يبنى عليها، ولكنه يبرر استلزام أو استعارة عناصر ثقافية (تحديداً أسطورية أو نحوها) وإعادة تدويرها - بلغة اليوم - فى سياق ثقافى جديد. وقد يكون هذا النسج عشوائياً وقد يكون قصدياً. ولكنه فى الغالب تلقائى. كما أنه قد يكون فى أى مجال ثقافى: فى الأدب الشعبى، أو العادات، أو الدين، أو اللغة... إلخ، ولكنه فى الغالب يكون أسطورى الطابع. ولهذا اخترنا هذه الترجمة وأثبتناها هنا. راجع: سامي خشبة، مصطلحات الفكر الحديث، الجزء الأول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ص ١٤٨-١٥٠. (المراجع)

التصرف - استعمالات جديدة لهذه القطع. وعلى ذلك، يشير هذا المصطلح عند استعماله في مجال النظرية الثقافية، وبصفة خاصة في تحليل الثقافات الفرعية، إلى العملية التي يتم بواسطتها تبني عدد من العناصر من الثقافة السائدة، وتغيير معانيها، ثم وضع بعضها بجانب بعض بأسلوب تهكمي، وذلك بقصد الطعن في هذه الثقافة وتقويضها من الداخل. (AE) للمزيد انظر: Lévi-Strauss (١٩٦٦).

Text

النص

يدل مفهوم "النص" - خاصة في السيميوطيقا أو علم العلامات - على البناء ذي المعنى، الذي يفهم بوصفه مركباً من عدة علامات. ويتحدد معنى النص بناء على القواعد (أو الشفرات) التي تحكم اختيار تلك العلامات والتأليف بينها. ومن شأن القواعد التي تحكم هذه المجموعة ذات المعنى من العلامات أن تكون محل اتفاق عرقي، بحيث يتعين على أي قارئ لهذا النص أن يتسلم مهارات أو قدرات معينة كي يستطيع تفسير هذا النص (أو يفك شفرته). لذلك فإن القراء ذوي الخلفيات الاجتماعية والثقافية المختلفة، الذين يتمتعون بمهارات وأفكار اكتسبوها من مصادر مختلفة اجتماعياً، قد يقرأون نفس النص بأساليب مختلفة أشد الاختلاف.

ومن المعهود أن يكون للنص وجود مادي، ولكن لا يلزم أن يكون النص مجرد رسالة مكتوبة (كأن يكون جملة، أو مذكرة مكتوبة، أو تقريراً، أو رواية مثلاً). وبهذا الاعتبار، يمكن النظر إلى الصورة الفوتوغرافية، أو الأغنية، أو الإعلان (الذي يحتوى على الصور الفوتوغرافية أو غيرها من العلامات البصرية بجانب العلامات المكتوبة) أو شريط الفيديو أو الملابس على أنها نصوص أيضاً. (AE)

----- (ن) -----

نظام / مؤسسة Institution

يعتبر النظام أو المؤسسة، من المنظور الفنى فى العلم الاجتماعى، ممارسة اجتماعية مألوفة وتمارس بصورة متكررة. وبمقتضى هذا التعريف يتسع نطاق هذا المصطلح لما هو أكبر من النطاق الذى يعنيه فى الحياة اليومية، حيث لا يقتصر فقط على الإشارة إلى السجون، والملاجئ، والمدارس، والمستشفيات والإدارات الحكومية ونحو ذلك، بل يضم كذلك نظام اللغة، والممارسات الخلقية والثقافية. (AE)

النظام الإقطاعى Feudalism

انظر: الإقطاع.

نظام الحكم لأهل الكفاءة/ نظام الجدارة Meritocracy

يدل هذا المصطلح على مجتمع ذى نظام تدرجى مهنى (انظر مادة: التدرج الاجتماعى). فالمهن المختلفة تحظى بدرجات مختلفة من المكافآت، والقوة، والمكانة. وأياً ما كان الأمر، فالأفراد فى مجتمع أخذ بنظام الجدارة يتحركون صعوداً وهبوطاً على درجات هذا النظام الهرمى المتدرج (انظر مادة: الحراك الاجتماعى) على أساس من الجدارة، أو قل على أساس المواهب والكفاءات التى يحوزونها، بجانب ملاءمة هذه الصفات للمهام المطلوبة فى كل مهنة. لذلك فإن أعلى المهن عائداً تكون هى نفسها أشد المهن أهمية للمجتمع، وهى التى تتطلب مهارات نادرة أو مهارات ومعارف يستغرق اكتسابها وقتاً طويلاً، وعلى عاتقها تقع أعلى مستويات المسؤولية. (ومن المفترض أن المكافآت المالية وغيرها من المكافآت تكون أموراً ضرورية لتحفيز أنسب الأفراد للإقبال على الاضطلاع بالتدريب اللازم للوفاء بمتطلبات هذه المهن).

وقد قام الفيلسوف الليبرالي جون رولز Rawls بالدفاع بشكل بالغ التأثير عن نظام الجدارة لكونه نظاماً أساسياً لا غنى عنه للمجتمع العادل والسليم (١٩٧٢). وهو، بجانب ذلك، لا يألو جهداً في التمييز بين ما يسميه نظام الكفاءة الصارم وبين العدالة في تكافؤ الفرص. ففي النظام الأول الصارم يتوقف حظ المرء من التعليم - إلى حد بعيد - على ما يستطيع أبواه أن يتحملوه من نفقات في هذا المجال. ومن ثم فإن أبناء الأسر الثرية يغلب عليهم أن يفوزوا بالوظائف الراقية، لأن فرصهم تكون أرجح في الحصول على مستوى أفضل من التعليم. ويؤدي هذا الوضع إلى حدوث أشكال من التفاوت الاجتماعي بعيدة المدى. لذلك يدافع رولز عن النظام التعليمي الذي يتيح لكل فرد فرصة مساوية لغيره للالتحاق به، باعتبار أنه يضمن الاعتراف بالمواهب التي يتمتع بها كل فرد ورعايتها وتشجيعها، بصرف النظر عن ظروفه الأسرية. (AE) للمزيد انظر: Young (١٩٥٨).

نظام سلطة الأب

Patriarchy

يعنى مصطلح Patriarchy حرفياً: نظام سلطة الأب. وقد استعمله أغلب مفكرى الحركة النسوية للإشارة إلى أسلوب تنظيم المجتمعات من خلال هيمنة الذكور على النساء وقهرهم لهن. وعلى ذلك يشير نظام سلطة الأب إلى الطرق المتبعة في التوزيع غير العادل لمصادر الثروة المادية والرمزية (بما فيها الدخل المادى، والثروة، والقوة السياسية) بين الرجال والنساء، وذلك من خلال النظم الاجتماعية المختلفة كالأسرة، والحياة الجنسية، والدولة، والاقتصاد، والثقافة، واللغة.

ومع أنه لا يوجد تحليل واحد لآليات عمل نظام سلطة الأب، فإن الجدل الدائر حول طبيعة هذا النظام وتطوره التاريخي لعب دوراً مهماً في ظهور مدارس الفكر

النسوى واختلافها. ويمكن تحديد عدد من القضايا الرئيسية في مجال الصياغة النظرية لنظام سلطة الأب. وقد كانت قضية العلاقة بين السيطرة الذكورية وعلم الأحياء من أوليات القضايا التي ثار حولها الخلاف. ومع أنه يمكننا العثور على الأنظمة الاجتماعية القائمة على السلطة الأبوية في كافة المجتمعات البشرية المعروفة، فإن اختزال نظام سلطة الأب برده إلى العوامل البيولوجية الثابتة - من قبيل أدوار كل من الرجال والنساء في إنجاب الأطفال ورعايتهم - يوحي بأن نظام سلطة الأب يمثل علاقة طبيعية جوهرية لا يمكن تغييرها.

لكن الحركة النسوية تميل - على خلاف ذلك - إلى الزعم بأن نظام سلطة الأب يعد، في الحد الأدنى من التقدير، التفسير الثقافي لتلك العلاقات الطبيعية، هذا إن لم يكن هذا النظام برمته نظاماً ثقافياً تاماً. وقد تربط النظريات السيكلوجية، وبصفة خاصة نظريات التحليل النفسي، نظام سلطة الأب بالمراحل المبكرة من تنشئة الطفل اجتماعياً (خصوصاً في المرحلة الأيديئية التي ينخلع الطفل فيها عن أمه). وقد لعبت المواقف التي اتخذها دعاة النسوية من أفكار لاكان فيما قدمه من تحليل نفسي لهذا الموضوع - مثل موقف كريستيفا Kristeva وموقف سيكسو Cixous - لعبت دوراً مهماً في اعتبار الثقافة المسيطرة، واللغة المسيطرة، والعقل المسيطر (أي ما يسميه لاكان بالنظم الرمزية) من الأمور الخاضعة بطبيعتها لنظام سلطة الأب. لذلك فإنهم يسعون لاستعادة مرحلة ما قبل نظام سلطة الأب، ويعبرون عن ذلك بنوع من "الكتابة النسوية"، حيث تستطيع النساء أن يفصحن عن أنفسهن لأنفسهن بعيداً عما تحمله اللغة الذكورية من تحريفات وتشويه.

ويحظى موضوع العلاقة بين نظام سلطة الأب وغيره من أشكال القهر الأخرى، كالقهر الطبقي، والقهر العرقي، بمعالجات نظرية مختلفة. وتتضمن الأسئلة والقضايا المطروحة في هذا المقام البحث عما إذا كان نظام سلطة الأب هو أعلى أشكال القهر أم

لا، وما هي الطريقة التي قد تتبعها مختلف أشكال القهر في التفاعل فيما بينها وفي تعزيز بعضها لبعض. وهكذا سعى أتباع الحركة النسوية الاشتراكية - على نحو ما هو متوقع - إلى ربط نظام سلطة الأب بالاستغلال الطبقي (باريت Barret - ١٩٨٠). لكن أهمية العرق والإثنية في هذا المجال دلت على أن الخطأ الكامن في أى نظرية شاملة عن نظام سلطة الأب لا تكتثرت أن تأخذ في الاعتبار الاختلافات بين ظروف النساء. فما تتعرض له النساء من استغلال وما يزرحن تحته من سيطرة ليس من الأمور التي يتماثلن فيها جميعاً، ولذلك لا يمكن اعتبارهن مجموعة واحدة متجانسة. (AE) للمزيد انظر: Mies (١٩٨٦) و Spivak (١٩٨٧) و Walby (١٩٩٠).

Queer Theory

نظرية الشذوذ (أو الإغراب)

منذ أوائل سبعينيات القرن العشرين حدث تطور مضطرد وهام في دراسة الخبرة الجنسية للفرد اللوطى، والأنثى السحاقية، ولن يمارس الجنس مع كل من الذكور والإناث. وعلى الرغم من أن مصطلح "نظرية الشذوذ" قد يكون من المفيد فهمه على أنه يشمل ذلك القدر الكبير المتنوع من المجالات البحثية، فإن لا يمكن الادعاء بأنه يتميز بأى شكل من أشكال الوحدة في المنهج أو ميدان التخصص. وتشير نظرية الشذوذ إلى طائفة من البحوث التي أجريت في كثير من المجالات، منها على سبيل المثال، مجال التاريخ (دافيد David ١٩٩٧)، ومجال النقد الأدبي (سدجويك Sedgwick ١٩٩٤، ١٩٩٧) وعلم الاجتماع، والفلسفة (بتلر Butler ١٩٩٠، ١٩٩٢)، وتاريخ الفن، وعلم الموسيقى (بريت Brett، وتوماس وود Thomas and Wood ١٩٩٤)، والدراسات الثقافية (دوتى Doty ١٩٩٢؛ مورتون Morton ١٩٩٧)، وهى المجالات التى تطرح للمناقشة مسألة السلوك الجنسى محوراً لاهتمامها، وكذلك باعتباره القضية الرئيسية التى من خلالها يتعين فهم غيره من الظواهر الاجتماعية، والسياسية، والثقافية.

----- (ن) -----

لذلك فقد ينظر إلى نظرية الشذوذ على أنها تستكشف العمليات التي من خلالها تتكون - سواء في الماضي أو في الحاضر - الهوية الجنسية في المجتمعات قديماً وحديثاً. وبهذا الشكل يطرح السلوك الجنسي بوصفه نشاطاً أو إنجازاً له معناه ودلالته ويتعرض دائماً للتفاوض ومحاولات نشره، بدلاً من النظر إليه بوصفه ظاهرة طبيعية (ناهيك عن اعتباره ظاهرة طبية) (انظر لى فاي Le Vay ١٩٩٦). ويستتبع تكوين الهوية الجنسية بما له من تلك الأهمية القيام بدراسة كل ظواهر التقبل الراهن للخبرات وأساليب المعيشة الجنسية البديلة، وعلاقتها ببعضها البعض (تمفصلها)، فضلاً عما تتعرض له هذه الممارسات من قمع، وتهميش، وتعويق. وسوف يكون من الأمور الحاسمة بالنسبة لأى محاولة للتأريخ للشذوذ تسجيل ما يتمتع به مؤيدو اللوطية والسحاقيات من حضور مؤثر، قياساً على ما كانت تقابل به في الماضي من تعميم ورفض. وعلى الرغم من ضرورة ربط نظرية الشذوذ بترويج وحماية الآراء السياسية لجماعات اللوطية والسحاقيات في مواجهة ما تتعرض له هذه الفئات من القمع والكرهية، فإن نتائج البحث في هذه النظرية سوف تتبدد وسط زحام القضايا الرئيسية المتعلقة بالطبيعة السياسية - بل حتى بالتماسك السياسى - لبقية الفئات الاجتماعية التي يفترض أنها فئات مهيمنة وسوية ذات سلوك جنسى طبيعى غير لوطى وغير سحاقي. (ريتشاردسون Richardson ١٩٩٦). (AE) للمزيد انظر: Abe-love, Barale and Halperin (١٩٩٣) و Weeks (١٩٨٩).

Conflict Theory

نظرية الصراع

يشير مصطلح "نظرية الصراع" في علم الاجتماع إلى مجموعة متنوعة من النظريات التي ظهرت في خمسينيات وستينيات القرن العشرين للاعتراض على النزعة التقليدية للمدرسة البنائية الوظيفية التي كانت مهيمنة على العلم آنذاك. فقد كان

الوظيفيون يميلون إلى التسليم بأن المجتمعات المستقرة تكون مجتمعات متناعمة أو منسجمة بصورة عامة، مع النظر إلى الصراع باعتباره أمراً غير مرغوب فيه ويمثل خللاً وانحرافاً. لذلك كان الوظيفيون يرفضون إمكانية الحديث عن المجتمعات ودراستها على أساس قيام صراع بنائى طويل الأمد فيها بين الجماعات المختلفة.

ولعل بالإمكان تعقب الأصول الأولى لنظرية الصراع بردها إلى الفلسفات السياسية لهيجل وماركس وزميل^(*)، وإلى الداروينية الاجتماعية، وإلى نظرية الصفوة. وقد تصنف نظريات الصراع - بصورة عامة - فى شكلين اثنين. فمن ناحية تمثل الماركسية نموذجاً للنظريات التى ترى أن الصراع الاجتماعى دائم الحدوث على امتداد محور واحد ذى أهمية بالغة. وهذا المحور فى الماركسية هو محور الصراع الطبقي، وهو بهذا الاعتبار صراع من أجل السيطرة على الاقتصاد ووسائل الإنتاج. ويذهب هذا التحليل إلى أن هذا الصراع سينتهى به الحال إلى تقويض أساس الاستقرار الاجتماعى مفضياً - وفقاً للماركسية - إلى ثورة طبقية، ومفضياً - وفقاً لنظرية الصفوة - إلى أن تخلف صفوة جديدة مفعمة بالحياة تتولى السيطرة بعد صفوة أصابها الشيخوخة واستنفدت طاقاتها.

فى مقابل ذلك نجد أن الصورة المعدلة لنظرية الصراع التى طورها لويس كوزر L.Coser (١٩٥٦). متطفاً من أعمال زميل، تذهب إلى أن الصراع قد يحدث كذلك على امتداد عدد كبير من المحاور، وأن هذا الصراع يمكن أن يدعم الاستقرار والنمو لمجتمع مفتوح وتعددى. ومعنى ذلك أن الدلالة الحقيقة للصراع تتوقف على نوع البناء الاجتماعى والسياسى الذى يجرى فيه. فالمجتمعات المفتوحة يمكنها أن تسمح بالصراع وتستفيد منه بطريقة لا تقدر عليها المجتمعات المغلقة والمجتمعات التسلطية.

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى مامش مادة: الاستهلاك. (المراجع)

----- (ن) -----

ويذهب كوزر في رؤيته هذه إلى أنه لا يمكن وضع كل أنواع الصراع المذكورة على محور وحيد، كمحور التقسيم الطبقي. لذلك، فإن أى داعية لأى مذهب أو فكرة قد يكون حليفاً للمرء فى مسألة خلافية معينة، وخصماً له فى مسألة أخرى. ويقوم مثل هذا الصراع المتعدد الأطراف إلى دعم ارتباط أجزاء المجتمع بعضها ببعض، لأن الصراع - فى هذه الحالة - يتم استغلاله أو توظيفه بصورة نموذجية داخل المؤسسات الاجتماعية التى تحظى بالقبول والرضا العام، بحيث يؤدى إلى توليد أفكار وبواعث جديدة للإصلاح التدريجى. (AE) للمزيد انظر: Collins (١٩٧٥).

Action Theory

نظرية الفعل

تميز النظرية الاجتماعية - عادة - بين الفعل والسلوك. فبينما يشكل السلوك حركة بدنية (أو فطرية) بحته تصدر عن الشخص الذى قام بها، يكون الفعل نابعاً من قصد وهادفاً إلى غاية. وإذا شئت المزيد من الدقة، فإن الفعل الاجتماعى يستهدف به صاحبه سلوك الآخرين وأفعالهم. ويميز فيبر (١٩٧٨) أربعة أنماط مثالية للفعل. أولها الأفعال التقليدية التى تؤدى لأنها كانت على الدوام تؤدى على ذلك النحو. وهى بذلك تقدم لنا حالة مقيدة من حالات الفعل، نظراً لكونها أفضل قليلاً من السلوك. أما الأفعال العاطفية فهى تعبير عن عاطفة. ثم هناك الفعل الرشيد الهادف Zweckrational، الذى يستلزم، بصورة أكثر وضوحاً، اختيار ما يراه المرء أنفع الوسائل لتحقيق الهدف. (والهدف فى حد ذاته قد يتم تحديد مدى أهميته وفقاً لدرجة الرغبة فى بلوغ النتائج المترتبة على السعى وراءه والمترتبة على تحقيقه). ومن الممكن للمرء أن يفهم طبيعة الفعل الهادف، وذلك بقدر فهمه لوجهة نظر فاعل هذا الفعل فيما يحكم العالم من علاقات غائية أو سببية، أو بقدر مشاركة الفاعل فى وجهة النظر هذه. أما فى الفعل القيمي الرشيد، فإن هذا الفعل يوجه لإنجاز هدف يحظى بقيمة إيجابية، ومن ثم

يتم تنبيه كأمـر مسلم به، وتقهم أمـثال هذه الأفعال من خلال إدراك المرء لأهمية هذه القيم المناسبة لدى فاعل هذا الفعل.

ويمكن التعرف على نوعين واضحين من الاستجابة لوصف فيبر لأنواع الفعل. أما الأولى فترى أنه من الممكن التأكيد على أهمية كون الفعل هادفاً (أى ذا معنى)، وعلى تولد هذا المعنى داخل المجتمع وداخل نطاق عملية التفاعل الاجتماعى. ويرى شوتز (١٩٦٢ و ١٩٦٤) أن تصوير الأفعال على أنها صادرة عن بواعث معينة (ومن ثم القيام بشرح وتفسير للأهداف، والوسائل، والقيم) إنما يمثل الاستثناء وليس القاعدة. ويتم تعلم المرء للتفاعل الاجتماعى اليومى من خلال ما يديه من استجابات مسلم بها ومتفق عليها تجاه أفعال الآخرين، ومن خلال استجابات الآخرين لأفعاله. (فى الواقع، يعد معظم الفعل سلوكاً اعتيادياً خالياً من التفكير والتدبر). ولو فرض أن عالم الحياة الذى نأخذه كأمـر مسلم به، قد انهار، فإن البواعث يمكن إسنادها حينئذ إلى الأفعال إما بأثر رجعى (أى "البواعث السببية" التى تشرح الدوافع غير المباشرة للأفعال السابق وقوعها فى الماضى) وإما بالنظر إلى المستقبل (أى بالنظر إلى "البواعث الغائية" التى تجتهد فى شرح الأهداف الخاصة بالفعل المنتظر وقوعه). ويتم هذا - على سبيل المثال - عندما يريد المرء أن يدافع عن أفعاله، أو عندما يريد توجيه أفعال الآخرين. ولا يعد الفعل هادفاً أو ذا معنى إلا باعتماده - أساساً - على محصلة التفاوض الذى يتم بين جميع الأطراف المشاركة، وليس بالاعتماد على نوايا الفاعل الأصلى للفعل. وقد أسهم فى تطوير هذا الاتجاه إلى حد ما الإثنوميثولوجيا (أو منهجية الجماعة).

أما الاستجابة الثانية لوصف فيبر لأنواع الفعل، فنجدها فى ثنايا تراث الفلسفة الوضعية، وهى تخضع الأفعال الصادرة من الأفراد لنظام اجتماعى مهيم على كل شىء. لذلك، نجد عند بارسونز (١٩٣٧، ١٩٥١) أن التشابك والتعقد الذى يتصف به التفاعل الاجتماعى، يتسع المجال فيه لوجود طائفة من التفسيرات (تبعاً للنوايا،

----- (ن) -----

والبواعث، والأهداف) بحيث لا يتمكن المرء أبداً من التنبؤ، بأية درجة من درجات الثقة واليقين، باستجابات الآخرين تجاهه. من هنا يقتضى هذا التشابك والتعقد وجود نوع ما من الآلية الاجتماعية السابقة على وجود الأفراد، وذلك من أجل التخفيف من حدة ذلك التشابك والتعقيد، ومن أجل زيادة القدرة على التنبؤ بردود أفعال الآخرين. وهكذا، يحتكم الأفراد المشاركون فى هذا التفاعل الاجتماعى إلى المعايير المقررة فى بنية النظام الاجتماعى، والتي يتشبع بها الأفراد أثناء ممارستهم لعملية التنشئة الاجتماعية. ولا يقتصر عمل المعايير على تنظيمها للقواعد التى يتبعها كل فرد على حدة، ولتقييم الأفراد للأهداف المحتملة، بل إنها تقوم - بجانب ذلك - بتوجيه أفعال هؤلاء الأفراد. وتذهب نظرية بارسونز إلى أن الفعل الاجتماعى للفرد يتم دمج - بهذه الطريقة - فى النسق الاجتماعى ككل. وبينما يعتمد الأفراد - فى رأى شوتز - على مواردهم الثقافية بصورة إيجابية فعالة، لإدراك معنى الفعل بوصفه ضرورة، فإن الأفراد - عند بارسونز - يتبعون القواعد المقررة للسلوك بصورة سلبية على العموم. (AE) للمزيد انظر: Habermas (١٩٨٤) و Joas (١٩٩٦).

Labour Theory of Value

نظرية قيمة العمل

تعد نظرية قيمة العمل محاولة لإيضاح قيمة السلع والخدمات تبعاً لتكاليف إنتاجها، وذلك فى مقابل منفعتها (أو فى مقابل قيمتها الاستعمالية). ويمكننا تقصى الأصول الأولى لعناصر نظرية قيمة العمل بالرجوع بها - على الأقل - إلى القرن السابع عشر لدى الفيلسوف السياسى جون لوك، الذى قام بتحليل مسألة سلامة أو مشروعية الملكية الخاصة، وذلك فى ضوء قدرة الفرد على "المرج" بين عمله وموارده الطبيعية (١٩٨٠).

ثم قدم عالم الاقتصاد البريطاني دافيد ريكاردو (١٧٧٢-١٨٢٣) أول تحليل متماسك لهذه النظرية. وقد كان عمله هذا يمثل - إلى حد ما - رد فعل للتناقض الظاهري للقيمة. فقد ذهب البعض إلى أن منفعة السلعة لا يمكنها أن تحدد قيمتها، لأن الأشياء البالغة النفع - كالهواء والماء - متاحة عمومًا بلا ثمن أو بثمن زهيد جدًا. وعلى النقيض من ذلك، يمكن لسلع الترف التي لا منفعة لها في الظاهر (كالذهب والألماس مثلاً) أن تكون باهظة الثمن. وتشرح نظرية قيمة العمل هذه الظاهرة في ضوء مقدار العمل (أو الوقت اللازم للعمل) الذي ينفق في إنتاج هذه السلع، سواء كان ذلك بصورة مباشرة، أو بصورة غير مباشرة من خلال تخزين هذه السلع الذي لم يكن ليتاح لولا ما أنفق من وقت وعمل في إنتاج الآلات الصناعية وغيرها من السلع الرأسمالية التي استخدمت في إنتاجها. فالماء شيء من السهل الحصول عليه ومن السهل نقله إلى المستهلكين، وذلك بخلاف القدر الكبير من الوقت اللازم للتعبير عن الألماس واستخراجه.

ومن الناحية العملية نجد أن القدر الفعلي من العمل الذي ينفق في الإنتاج أقل أهمية من متوسط وقت العمل الاجتماعي (ولولا ذلك لكانت هذه النظرية تعنى ضمناً أن منتجات العمال الكسالى تساوى في قيمتها أكثر مما تساويه منتجات العمال الكفاء). ومع أن هذه النظرية تعد من أساسيات علم الاقتصاد الماركسي، ومن أساسيات علم الاقتصاد التقليدي منذ أواخر القرن التاسع عشر، فقد حلت محلها تفسيرات أو تصورات للقيمة أكثر عمقاً ودقة تقوم على أساس المنفعة (ابتداءً من تحليلات مارشال للمنفعة الحدية). (انظر كذلك مادة: **فائض القيمة**). (AE) للمزيد انظر: Meek (١٩٧٣).

Epistemology

نظرية المعرفة

كلمة الإبيستيمولوجي مصطلح فلسفي يعنى: "نظرية المعرفة". وتهتم نظرية المعرفة بتحليل ما هو مقصود بمصطلح "المعرفة" نفسه، وبالأسئلة التي تبحث عن:

(١) ما الذى يمكننا أن نقول عنه إننا نعرفه (أى: حدود ونطاق المعرفة).

(٢) ثبات المعرفة Reliability، وما هى مقومات مبرر أو مسوغ تصديق اعتقاد معين، ومن ثم اعتبار هذا الاعتقاد "معرفة". ويهذا الشكل، قد يتساءل الفلاسفة قائلين: هل يوجد أى فرق بين معرفة شئ ما واعتقاد أن هذا الشئ حقيقى؟ أو -إلى أى حد يعتمد تحصيل المعرفة على العقل أو الحواس؟.

وثمة طائفة واسعة من الاتجاهات التى تصدت لمعالجة هذه القضايا: فقد كان أفلاطون (ولد تقريباً سنة ٤٢٨ قبل الميلاد ومات سنة ٣٤٨ قبل الميلاد) يرى أن قدراتنا العقلية من الخواص الأصلية لعقولنا، وأنها تمثل المصدر الوحيد للمعرفة (وهى وجهة نظر تصنف عادة ضمن "النزعة العقلية"). أما أصحاب النزعة الإمبيريقية فهم على النقيض من ذلك يرون أن الفهم الإنسانى، ومن ثم المعرفة، إنما تتحصل عن طريق الخبرة الحسية وحدها. وعلى ذلك، فإن ما نعرفه - فى رأى الإمبيريقية - إنما هو ثمرة لقدرتنا على تكوين صورة عقلية للعالم عن طريق حواسنا. وترتبط وجهة النظر هذه - أساساً - ببعض المفكرين أمثال لوك، وبيركلى، وهيوم.

وخلافاً لأصحاب النزعة الإمبيريقية، ذهب الفيلسوف الألمانى كانط إلى وجود شروط ضرورية للمعرفة لا يمكن اختزالها فى الخبرة وحدها. ولهذا طرح كانط تصوراً عن الشروط "البديهية" أو "القبلية" اللازمة لإمكان تحصيل الخبرة. وبإمكان المرء الوصول إلى الأحكام "البديهية" من غير اعتماد على الخبرة. وبناءً على وجهة النظر هذه، فإن لدينا شكلاً من أشكال المعرفة (هو المعرفة القبلية أو البديهية) التى تكون موجودة قبل تحصيل أى معرفة إمبيريقية، وغير معتمدة عليها. بل إن كانط يرى أن مثل هذه المعرفة القبلية (ومن أمثلتها "البدايات الخالصة" أو الإدراكات البديهية للزمان والمكان) تمثل الشرط المسبق لإمكانية تحصيل أى معرفة مستمدة من الخبرة أصلاً.

ويمكن للمرء فهم وجهة نظر كانط هذه على نحو أفضل إذا عقد مقارنة بينها وبين التصور الإمبيرىقى للعقل عند لوك^(*). فالعقل الإنسانى، عند لوك، يشبه "صفحة بيضاء" تُكتب عليها ما ندركه بواسطة الخبرة الحسية. ومع ذلك، فإن وجهة النظر الإمبيريقية هذه يمكن منازعتها بالقول: إذا كان العقل قادراً على تحصيل الخبرة، فإن قدرته هذه - إذن - يجب إرجاعها إلى وجود شكل ما من أشكال البنية العقلية التى يتمتع بها العقل قبل تحصيله لأى خبرة. ولو أن عقولنا كانت "صفحات بيضاء" فكيف تمكنا - إذن - من القدرة على إدراك أى خبرة على أنها خبرة أصلاً؟ لهذا، فإن هذه القدرة على تحصيل الخبرة لا يمكن أن تستمد - فى رأى كانط - من أى خبرة خاصة، ومن ثم لابد من وجود أحكام عقلية بديهية أو قبلية، هى التى تمثل الشروط اللازمة لكى يمكن تحصيل الخبرة.

ويذهب كانط^(**) إلى القول بوجود نوعين من المعرفة المسبقة، معرفة قائمة على الأحكام التحليلية، ومعرفة قائمة على الأحكام التركيبية. وتتضمن المعرفة التحليلية المسبقة قضايا من قبيل أن: "كل المثلثات لها ثلاثة أضلاع" فهذه القضية صادقة بمقتضى التعريف ولسنا بحاجة فيها إلى بيانات نستمدّها من الخبرة لنؤكد هذه الحقيقة. وعلى ذلك، فإنه بالتفكير فى الموضوع "أ" وفى المحمول "ب"^(***)، نكون قد أدرجنا المحمول "ب" ضمن الموضوع "أ" باعتبار "ب" جزءاً من "أ". وعلى النقيض من ذلك، يكون المحمول "ب" - فى الأحكام التركيبية - خارجاً عن الموضوع "أ" (انظر كتاب: "نقد العقل الخالص" A7/B11). وبهذا الشكل تتضمن الأحكام التركيبية عملاً من

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: الطبيعة. (المراجع)

(**) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: السامى. (المراجع)

(***) فى المنطق: كل جملة خبرية تتكون من "موضوع" هو مجال الكلام والمحمول هو ما يسند إلى هذا الموضوع من حكم أو وصف. (الترجم)

----- (ن) -----

أعمال الاستدلال يتجاوز نطاق التصورات العقلية المستمدة من التحليل والتي تكون متاحة للمرء بدون الاعتماد على الخبرة (أى أن هذه الأحكام التركيبية تتضمن المجال الإمبيريقى أو الخارجى). فجميع الأحكام المتعلقة بالخبرة هى - فى رأى كانط - أحكام تركيبية، وكل معرفة لها قيمة حقيقية هى معرفة من واقع خبرة.

وبجانب المناقشات التى تشبه ما ذكرناه من قبل مما يتصل بالبحث عن مصادر معرفتنا، فإن من الجدير بالملاحظة أن الفلاسفة يميلون أيضاً إلى وضع الفواصل التى تميز بين "أنواع" المعرفة المختلفة. ومن تلك الأنواع:

(١) "معرفة أن..."، وهى المعرفة التى تتضمن دعاوى معرفية حقيقية بالإمكان تأكيدها عن طريق الرجوع إلى الدليل.

(٢) "معرفة كيف..." وهى المعرفة المطلوبة للقيام بأعمال معينة (كركوب الدراجة مثلاً).

(٣) "المعرفة التى يحصلها الشخص" وهى المعرفة التى تشتمل على أمور مثل المعرفة المكتسبة عن طريق الخبرة الفردية، أو المعرفة الشخصية (كالمعارف الموجودة فى الذاكرة) والتى ليس فى الإمكان إثباتها أو تأكيد صحتها - بالضرورة - بنفس الطريقة التى يتم بها إثبات المعرفة المذكورة فى النوع الأول.

(٤) "المعرفة من خلال الوصف"، وهى تتضمن المعرفة المستمدة من اطلاعنا على مجموعة معينة من الحقائق والخصائص... إلى آخره، والمتصلة بشئ ما أو بشخص معين (كأن يقال لنا إن شكسبير هو مؤلف مسرحيات: "هاملت" و"الملك لير" وغيرهما، وأنه كان متزوجاً من أن هاتاواى، وما إلى ذلك). وكما هو شأن الفلاسفة فى كثير من الأحيان، نجدهم يختلفون اختلافاً كبيراً حول جدوى هذه التعريفات.

ومن بين وجهات النظر الأخرى التى تتعلق بالمعرفة، تلك الرؤية التى طرحها عدد من المفكرين أمثال فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) - ومن بعده وعلى نهجه - ميشل

فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤). وثمة عدد كبير من التفسيرات الممكنة لموقف نيتشه من قضايا المعرفة. فاعماله، مثلاً، تحمل وجوه شبه مع بعض الأفكار المحورية للبراجماتية. وأياً كان الأمر، فإن من التحليلات البارزة لقضية المعرفة، والتي أثرت تأثيراً قوياً على وجهات النظر المرتبطة بما بعد الحداثة وما بعد البنيوية، هو تحليل مستمد من نهج فوكو في تفسير أعمال نيتشه. "فالمعرفة" عند نيتشه ليست شيئاً يمكننا تحليله على الوجه الصحيح في غياب الاعتبارات الخاصة بعلاقات القوة. ويرجع نيتشه السبب في ذلك إلى أن ما نعتبره "معرفة" إنما هو في الحقيقة تعبير عن مجمل الدوافع والمصالح (انظر على سبيل المثال مذكراته التي نشرت بعد وفاته والتي شكلت كتابه بعنوان "إرادة القوة"). وينظر هذا الموقف الفكري تفسير نيتشه لمعنى "الأخلاقية" (أى الالتزام بالمثل الأخلاقية العليا)، الذى طرحه فى كتابه بعنوان "عن أصل الأخلاق" (١٨٨٧). ففى هذا الكتاب، يطرح نيتشه تصوره للنظم الأخلاقية الذى يطابق فيه بين القيم التى تتبناها هذه النظم الأخلاقية وبين تراثها الذى تنتمى إليه وتنحدر منه: فأخلاق "العبيد" تُعلى من شأن الودعاء والخانعين، وذلك لأن العبد واقع دوماً تحت قهر ماله، وفى مقابل ذلك تعلى أخلاق "النبلاء"، من شأن كل ما هو قوى. وخلاصة القول، إن كلاً من العبد والسيد إنما يؤكدان ذاتيهما - بطريقة أو بأخرى - من خلال أخلاقيتهما. وقد طور فوكو بناءً على هذا التصور - الذى طرحه نيتشه - اتجاهاً يسعى لتحليل أشكال المعرفة بوصفها تعبيرات عن المصالح الاجتماعية الأساسية (انظر مادتي: الخطاب، وأصل (جينياالوجيا) الخطاب). وأياً ما كانت المزايا والمشكلات التى تكتنف وجهة نظر كل من نيتشه وفوكو فثمة أمر واضح: وهو أنه لا نيتشه (بأفكاره التى عرضنا لها هنا) ولا فوكو يملك "نظرية معرفة" بنفس الطريقة التى نعرفها لدى غيرهما من المفكرين، ومنهم كانط مثلاً. وفى الواقع، لو افترضنا أننا اقتنعنا بنيتشه وفوكو، فسنكون

----- (ن) -----

على وشك نبذ نظرية المعرفة من أجل تأييد شكل معقد من أشكال تحليل العلاقات الاجتماعية، مع أن وضع هذه التحليلات - كأشكال معرفية - قد يمثل قضية حرجية، خاصة بالنسبة لفوكو.

وأياً ما كان الأمر، فليس مفهوماً أن يتمكن المرء من نبذ نظرية المعرفة بمثل هذه السهولة البالغة. وهكذا لاحظ نيتشه نفسه في مطلع كتابه "إنسانى... إنسانى إلى أقصى حد" (١٨٧٨-٨٠)، أن القيام بتحليل أصول شيء ما لا يعتبر - بالضرورة - تفسيراً شاملاً له. وهكذا فإنه مهما كانت الشروط أو المقاصد والنيات وراء نشأة خطاب ما فلن يكون من الصواب اختزال معناه إلى أن ينحصر فى هذه الشروط وحدها. كذلك يمكن القول إنه رغم أن نيتشه لم يقيم - بالتأكيد - ببناء نظرية متكاملة للمعرفة، فإنه لم يتخل تماماً عن ذلك الإغراء الذى كان يزين له طرح أسئلة تتعلق بنظرية المعرفة. ومن ثم نجد أن كثيراً من ملاحظاته تظل وثيقة الصلة بدراسة نظرية المعرفة (شاهد ذلك، أنه يجوز القول إن بمقدور المرء أن يستمد من كتاب نيتشه "عن أصل الأخلاق" تحليلاً معيارياً للتبرير يمكن بسهولة إدراجه ضمن نطاق نظرية المعرفة. وبالمثل، فإن ما قدمه فوكو من منهج لتقصي أصول المعرفة يمكن توجيه انتقادات مختلفة إليه استناداً إلى قراءات بديلة لنيتشه، وثمة مثال جيد لهذه الانتقادات قدمه بيتر ديوز Peter Dews، فى الكتاب الذى وضعه كرل Krell وود Wood وصدر سنة ١٩٨٨). ولعل أهم ما يقدمه هذا النوع من الرؤى هو موقفها النقدي الأساسى لنظرية المعرفة عند ديكاوت (انظر: الديكاوتية)، وذلك باعتبار أنه طالما أن القوة تشكل جزءاً لا يتجزأ من أنماط المعرفة، فإنها تشكل - فى الوقت نفسه - جزءاً لا يتجزأ من الإنسان العارف. (PS) للمزيد انظر: Dancy (١٩٨٥) و Dancy and Sosa (١٩٩٢) و Foucault (١٩٧٠ و ١٩٧٢ و ١٩٧٧ ب) و Krell and Wood (١٩٨٨) و Nietzsche (١٩٦٨ و ١٩٦٨ ب).

استخدم المفكرون عدة صيغ مختلفة لنظرية النظم فى محاولات تحليل المجتمع على امتداد القرن العشرين، فى الوقت الذى قد تعد فيه الوظيفية أطول أشكال هذه النظرية عمراً وأشدّها تأثيراً. وقد ينظر إلى النظام، بصورة عامة، باعتباره مجموعة من الأجزاء ذات صلات متبادلة تربط بينها. وهناك حدود واضحة تفصل النظام عن بيئته الخارجية. والبيئة أكثر تعقيداً وتشابكاً من النظام. لذلك يتميز النظام بدرجة الانتظام التى تتبدى فيه، على الأقل فيما يتعلق بحرص ذلك النظام على حظر قيام علاقات معينة بين أجزائه وتعزيز قيام علاقات أخرى (مثال ذلك، أن الجملة ذات المعنى تعد أمراً واضحاً إلى حد ما، وذلك لأن ما يحدد معناها هو قواعد اللغة التى كتبت بها. أما الأصوات الصادرة عن حركة المرور، وعن غيرى من الناس، وعن أغانى الطير، وعن سقوط المطر ونحو ذلك من الأصوات التى أسمعها حولى، وأنا أنطق بالجملة المذكورة، فهى أكثر تعقيداً من تلك الجملة بكثير، كما أنها تبدو مشوشة فعلاً). ويحافظ النظام على الحدود التى تفصله عن بيئته الخارجية، فكلاهما يعمل - فى نفس الوقت - على دعم انتظامه الداخلى، كما يستخدم حاجاته الضرورية لبقائه ولتكاثر نوعه من هذه البيئة الخارجية. (وعلى ذلك، يمكن اعتبار الكائن الحى نظاماً. فجلده حد فاصل بينه وبين العالم الخارجى. ولا بد أن يكون الكائن الحى قادراً على أن يستمد قوته من ذلك العالم، وأن يحافظ على نفسه ككائن حى. وعند موته، ينهار هذا الحد الفاصل، ويتحلل هذا الكائن داخل بيئته). وقد يذهب البعض إلى ضرورة أن يستوفى أى نظام مجموعة محددة من الشروط المجردة لى يظل مستقراً حياً. وتتضمن هذه الشروط تكيفه مع البيئة الخارجية، وتكامله الداخلى، ودوافعه إلى تحقيق غايات هذا النظام فى مجموعه.

ومن الممكن تناول المجتمع بوصفه نظاماً، تتعدد مستوياته وتتوزع. شاهد ذلك، أن التفاعل بين شخصين يمكن اعتباره نظاماً، ولذلك التفاعل غرض يستهدفه. ولا يقوم

----- (ن) -----

النظام، بالمعنى الضيق للنظام، بالتنسيق بين هذين الشخصين، وإنما ينسق بين أفعالهما. أما غيرهما من الأشخاص وكذلك سائر الأحداث والأفعال التي ليس لها صلة بهما فيتم تنحيتهما أو استبعادها من هذا النظام. ويتم تدبير أمور هذا النظام وفقاً لمختلف القواعد التي تمنحه تماسكه وتكامله، فالسوق - مثلاً - نظام يقوم بالتنسيق بين عدد من الأفعال التي لا تقتصر على شخصين اثنين فقط، وإنما الأرجح أن تكون أفعال عدد كبير من الناس. ولا تحكم نظرية النظم على هذا السوق بوصفه شكلاً هادفاً من أشكال التبادل بين الناس (وذلك لأن الآخذ بمفاهيم نظرية النظم غير معنى بالخلفية الاجتماعية والدوافع المحركة لأولئك الأفراد المشتركين في هذا السوق) إنما تحكم هذه النظرية على هذا السوق من خلال ما تتصف به أنشطة الشراء والبيع من تنسيق وقد ينظر - بالمثل - إلى نفس المجتمع، ولكن على مستوى أعلى - من حيث التشابك والتعقيد - بوصفه نظاماً أيضاً، كما هو الحال مثلاً في مجتمع الدولة القومية أو الوطن. وبناءً على ذلك، فإن المفكر الآخذ بمفاهيم نظرية النظم يهتم بجانب معين من جوانب المجتمعات المعاصرة: وهو كيف تواجه هذه المجتمعات أعضائها بوصفها تملك قوة قادرة على التحكم فيهم والسيطرة عليهم. والمهم في الأمر هنا ليس الاقتصار على النظر إلى السوق بوصفه نظاماً، وأن نمحو - نظرياً - كل خبراتنا الشخصية به تماماً، وإنما المهم أن نلاحظ أن الأسواق أخذت في التحول إلى أنظمة بحثة بصورة متزايدة. والقضية التي يمكن أن تثار في هذا الصدد هي أن الأسواق، شأنها شأن الأنظمة البيروقراطية، لا تعترف إلا بقدرة الأفراد على البيع أو الشراء، وأنها تغالى في هذا الأمر بصورة مستمرة، فالمال وحده هو الاعتبار المهم في تنسيق أفعالنا تنسيقاً مشتركاً. وبهذا الشكل يتخذ السوق صورة القوة الضاغطة التي يتصف بها القانون الموضوعي، مما يجعلنا مجبرين على الخضوع له، سواء أحببناه أم كرهناه،

رغم أننا قد نكون مدركين أن السوق لا يعدو - في الواقع - أن يكون مجرد مجموعة أو أكثر من الأعراف والممارسات الثقافية التقليدية.

لذلك يذهب البعض إلى أنه يمكن تمييز المجتمعات الحديثة (انظر مادة: الحداثة) بذلك المستوى العالي من اكتساب ملامح النظام: إذ يتزايد باستمرار تنسيق الأفعال أو الأنشطة الاجتماعية فيها وفقاً لمجموعة كاملة من القواعد والمواضعات الاجتماعية التي تقع خارج نطاق مدارك الأفراد من أعضاء المجتمع (بل قد تقع خارج نطاق خبرتهم). وينظر بعض المفكرين، أمثال نيكلاوس لومان N. Luhmann (الذي فعل الكثير لإحياء نظرية النظم في ميدان العلوم الاجتماعية)، إلى أن خضوع الأفعال والأنشطة الاجتماعية للقواعد والمواضعات الاجتماعية أمر طيب، لأنه يزيح عن كاهل الفرد جزءاً من عبء المسؤولية. بينما ينظر غيرهم، أمثال يورجن هابرماس، إلى هذا الوضع على أنه يشكل تهديداً "أى خطراً"، من حيث إنه يخرج المجتمع من سيطرة الأفراد الذين يتكون المجتمع منهم (١٩٨٤ و ١٩٨٧). (AE) للمزيد انظر: Habermas (١٩٨٤ و ١٩٨٧) و Luhmann (١٩٨٢) و Parsons (١٩٥١).

Critical Theory

النظرية النقدية

"النظرية النقدية" مصطلح شامل إلى حد ما، وقد آل به الأمر إلى أن أصبح مرتبطاً - داخل الأوساط الجامعية الإنجليزية الأمريكية - بنوع من تحليل النصوص الذي ترسخت جذوره بالأساس في أقسام اللغة الإنجليزية بالجامعات. هذا مع أن المصطلح نفسه كان مرتبطاً في مبدأ الأمر بأعمال مدرسة فرانكفورت (ومنها، مثلاً، أعمال هوركهايمر، وأدورنو، وبنيامين، وماركيوز). وكانت النظرية النقدية تعنى عند هؤلاء المفكرين، التزاماً نقدياً صارماً بالقضايا الاجتماعية والفلسفية، يهدف إلى

----- (ن) -----

إحداث نوع من التلاقح بين مناهج البحث المستمدة من العلوم الاجتماعية، والإطار النظرى الماركسى، من أجل فهم العلاقات الاجتماعية والتنظير لها. ومع ذلك يدلنا كتاب "جدل التنوير" الذى كتبه هوركهايمر وأدورنو أنه ظل فى أعمال مدرسة فرانكفورت ميل للشك والتحفظ على بعض الأفكار التى تعد محورية بالنسبة للماركسية. ومنها مثلاً الثقة التقليدية التى يوليها الماركسيون لعملية تسييس طبقة البروليتاريا من أجل قيادة الثورة، أو موقف الماركسية القاطع الذى تجزم فيه بأن الرشد - وهو من المثل الأساسية لحركة التنوير - يمثل المفتاح الذى لا غناء عنه لتحقيق التقدم الاجتماعى.

ومنذ ثمانينيات القرن العشرين، أصبح مصطلح "النظرية النقدية" مرتبطاً بأحد اتجاهات نقد النصوص الذى يعتمد على كتابات المفكرين المرتبطين بالبنوية وما بعد البنوية، وما بعد الحدائث (ومنهم على سبيل المثال: فوكو، وديريدا، وليوتار). وقد استطاع بعض أنصار النظرية النقدية أن يجد المجال الملائم لتبنى الاتجاهات المستمدة من النزعة التاريخية الجديدة، أو من كتابات عالم التحليل النفسى جاك لاكان، وبهذا الشكل يتضح أن أى تعريف بسيط أو شامل شمولاً واطحاً لمصطلح "النظرية النقدية" بهذا المعنى ليس ممكناً. وأياً كان الأمر، فقد يكون من المناسب أن نورد عدداً من السمات المميزة للنظرية النقدية كوسيلة للوصول إلى وصف مجمل إلى حد ما لبعض الملامح البارزة لهذا الشكل من أشكال النظر النقدى.

فى أعقاب ظهور النزعة البنوية الفرنسية، تم تطوير نوع من تحليل النصوص خلال سبعينيات القرن العشرين، يركز أساساً على إيضاح وتجليه قراءات النصوص الأدبية، فى ضوء مفاهيم فردينان دى سوسير اللغوية. ووفقاً لذلك، كان ينظر إلى النص باعتباره شبكة مركبة من العلامات، لا تتحدد معانيه تبعاً لما تشير إليه كل علامة من معنى وإنما:

(١) من خلال العلاقات المتبادلة بين كل علامة وأخرى.

(٢) وكذلك من خلال علاقة التعارض الثنائي.

وكان التحليل البنوي للنصوص يسعى لتقديم وصف علمي / موضوعي للنظام البنائي للمعنى المائل داخل طوايا النصوص. أما النظرية النقدية الحديثة فقد تم تطويرها في أعقاب التحول من البنوية إلى ما بعد البنوية، حيث بدأت في الظهور في أعمال بعض الأعلام مثل بول دي مان Paul de Man والفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا. ويشكل دفاع ديريدا، في كتابه بعنوان "عن الجراماتولوجي" (عن علم الكتابة) (١٩٧٦)، والقائم على استراتيجية التفكيك/ أو تحليل البنية، حيث يتم تحليل النصوص بقصد التفتيش عن البنى المتعارضة للمعاني من أجل التعرف على الأنساق الفكرية المنظمة تنظيمياً تدريجياً والبحث فيها؛ يشكل هذا العمل الأساس لأغلب الأعمال الحديثة التي أنجزت في مجال النظرية النقدية. ولعل أشد أفكار ديريدا تأثيراً في هذا المجال فكرته عن "الاختلاف"، التي تمثل في نظره السبب الدائم في تأجيل إمكانية الوصول إلى المعنى التام والنهائي للمفردات داخل اللغة. واللغة وفقاً لهذا التصور ليست مجرد منظومة من الاختلافات (كما هو الحال مع نموذج اللغة المستمد من لغويات سوسير) وإنما هي "نظام قائم على الاختلاف" (ديريدا ١٩٨١: ٢٨). وهو نظام يمكننا تجميده بصفة مؤقتة حتى نتمكن من توليد أو استخراج الأنساق المفاهيمية الرئيسية (كأنساق الموضوعية، و"الذاتية" - كمفهومين متقابلين - و"الأنا" و"الأخر") بوصفها من ثمرات هذا النظام ونتائج.

وفي النظرية النقدية، نجد أن هذه النظرة إلى اللغة قد أفضت إلى إنتاج عدد من القراءات للنصوص الأدبية والفلسفية تركز على تجلية صور التدرج الهرمي للأفكار الماثلة في هذه النصوص، ومن ثم تحاول إقصاء هذه التدرجات أو تحاول هزها، وذلك عن طريق اللجوء إلى فرضية "الاختلاف". ومما يؤسف له أن هذه الاستراتيجية قد

----- (ن) -----

تكرر تطبيقها بدرجة مفرطة حتى أصبح المرء ميالاً للظن بأن فكرة ديريدا عن "الاختلاف" قد اختزلت - فى واقع الأمر - إلى شكل من أشكال "المعاجم السحرية" على أيدي هؤلاء النقاد الذين يبدو أنهم أصبحوا يميلون إلى تطبيقها بصورة غير نقدية وغير مدققة باعتبارها مفتاحاً لكشف المعانى "الخفية" الموجودة فى طوايا هذه النصوص. وهكذا يبدو هؤلاء النقاد راضين باختزال العمل النقدى إلى مجرد هذا التطبيق لفكرة شديدة العمومية (أو تطبيق قاعدة تقع فيما وراء القواعد).

قد تكون هذه الظاهرة الأخيرة أمراً مثيراً للسخرية فعلاً، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ذلك الالتزام الصريح الذى أخذه المفكرون النقادون على أنفسهم بشكل من أشكال النسبية المعرفية. وبالإمكان إرجاع جذور هذه النسبية المعرفية إلى عاملين رئيسيين من عوامل التأثير:

العامل الأول: ما حدث لكتابات ميشل فوكو من استعادة لقوتها ونفوذها، حيث أدت كتاباته فى تحليل أشكال خطاب القوة، إلى حد أن أصبح البعض يشدد على أهمية علاقات القوة السياسية فى تكوين المعنى داخل النصوص (وفى هذا السياق، لعل أكثر آثار فوكو إيجابية وخصوبة تتمثل فى العمل الذى قدمه إدوارد سعيد، الذى بذل جهداً مؤثراً لتعزيز الوعى النقدى بالقضايا المتصلة بالاستعمار وما بعد الاستعمار فى الثقافة المعاصرة.

وثانى عوامل التأثير: دفاع جان - فرانسوا ليوتار عن شكل من أشكال تعددية ما بعد الحداثة فيما يتصل بقضايا الأخلاق والمعرفة، كما أنه فى بعض أعماله، مثل كتابه بعنوان "وضع ما بعد الحداثة"، ترك أثره الواضح على الأعمال الصادرة فى مجال النظرية النقدية الأدبية (وذلك على الرغم من أن استراتيجيات القراءة فى هذه الأعمال لا تتواءم تماماً مع أحدث أعمال ليوتار، ومع بعض كتاباته مثل مقالته بعنوان "المختلف" (١٩٨٨) التى تتجلى فيها بوضوح علاقة متناقضة بما بعد الحداثة).

وبالمثل أحدثت كتابات جان بوردريار بعض التأثير - كذلك - على اتجاهات وأفكار المفكرين النقيدين (انظر تصور نوريس Norris لهذا التأثير، فى كتابه بعنوان "النظرية اللانقدية"، ١٩٩٢). وإلى هنا، وعلى الرغم من دأب الأكاديميين المتربعين على كراسيهم داخل الأقسام الأدبية بالجامعات على تطبيق النظرية النقدية، فإن هذا النمط منها لم يعد ينظر إليه باعتباره خطاباً أدبياً - هذا إذا افترضنا أنه سبق أن اعتبرت - أصلاً - خطاباً أدبياً. ففى معالجاتها لقضايا الأدب أظهرت النظرية النقدية ميلاً للشك والارتياب فى قواعد النقد الأدبى المعتمدة والمتوارثة، هذا علاوة على ما أبدته من التزام قوى بالتطرق إلى قضايا كانت - ولا تزال حتى عهدنا هذا - مما لا يهتم به إلا الفلاسفة (وهو أمر يمكن للمرء - بالفعل - أن يتوقعه، باعتبار أن الشخصيات الرئيسية المؤثرة فى مجال النظرية النقدية، كانت من المفكرين الذين اشتغلوا بالدرس الفلسفى أمثال ديريدا وليوتار). وهكذا أصبحت القضايا المتعلقة بطبيعة الهوية، وقضية المعنى، والعلاقة بين اللغة والخبرة (أى المناقشات الخاصة بالواقعية فى مقابل اللاواقعية) أصبحت تمثل لكثير من أنصار النظرية النقدية أموراً مهمة لممارسة النظرية النقدية.

وفى وقت أحدث عهداً، ظهر رأى يدعو إلى اعتبار عدد من المشكلات الرئيسية جزءاً من اهتمام النظرية النقدية - خاصة كريستوفر نوريس - الذى مر موقفه الفكرى منها ببعض المراجعات الجذرية منذ تبنيه لها أول الأمر فى أوائل ثمانينيات القرن العشرين (انظر كتابه بعنوان: "التفكيك أو تحليل البنية: النظرية والتطبيق" (١٩٨٦)، الذى تحتوى أحدث طبعة له على ملحق يقدم فيه شهادة مسهبة على رؤيته لقضية "صحوة المؤلف" (Author's Disillusionment). هذا فى حين أن نوريس كان قد أبدى، فى أعماله السابقة، ثقته بالإمكانات الأساسية لنجاح نظرية نقدية تلتزم بشكل من أشكال النسبية الأخلاقية والمعرفية، ثم آل به الأمر - فى كتاباته الأخيرة (التي صدرت

----- (ن) -----

منذ الثمانينيات فصاعداً) - إلى أن أصبح ينظر إلى النظرية النقدية باعتبار أنها تجسد وتتضمن شكلاً من أشكال النسبية اللانقدية، التي تتخلى عن إمكانية الاشتغال الراديكالي بالقضايا والشئون السياسية والأخلاقية المعاصرة. يشهد لذلك، أن كتاب نوريس بعنوان "النظرية اللانقدية" يهاجم لا - واقعية بودريار، مورداً - كمثال يدل على هذه اللا - واقعية - المقالات التي كتبها بودريار عن "حرب الخليج" التي نشرتها مختلف الصحف الفرنسية والإنجليزية قبل بداية القتال مباشرة وبعد نشوبه. حيث يرى نوريس أن ادعاء بودريار أن تلك الحرب ما كان ينبغي لها أن تحدث أبداً (وكذلك تأكيد - فعلاً - بعد ذلك أنها لم تحدث) وأن هذه المزاعم إنما هي تجاوزات صادرة عن نزعة لاواقعية تخطت حدود العقل والمسئولية الأخلاقية. أضف إلى ذلك، أن نزعة ما بعد الحداثة التي يتبناها ليوتار في كتابه "وضع ما بعد الحداثة"، والتي يؤيدها كثير من المفكرين النقيدين، قد واجهها نوريس بعدد من الكتابات الناقدة الشديدة، ذات الملاحظات الحادة في كثير من الأحيان.

وسواء أكان المرء يقبل المبادئ الجوهرية للنظرية النقدية أم لا، فإن تطورها داخل الأقسام الأدبية بالجامعات لابد أن يعد تطوراً مهماً. ذلك أن المحاولات التي قام بها المفكرون النقيدين لترجمة الخبرة الإنسانية بأكملها وفقاً "لنزعتهم النصية" Textuality، وانتقاداتهم للنظرية الواقعية بالصورة التي عرضها بعض الفلاسفة - ضمن التراث التحليلي مثلاً - وكذلك هجوم البعض منهم على الفلسفة نفسها، هذه الممارسات من قبل المفكرين النقيدين يمكن تأويلها - في الحقيقة - بوصفها علامة تؤشر لمحاولة فضح زيف "المجال الأكاديمي الرفيع" الذي تشغله نظرية الوجود (الأطولوجيا)، والميتافيزيقا، والأخلاق، ونظرية المعرفة، وهي المجالات التي كانت تقليدياً حكراً على الفلاسفة، ومحاولة للسيطرة على هذا المجال الأكاديمي. ومع هذا، فإنه مما يدعو إلى السخرية (وبشكل مفحم فعلاً) أن واحداً من أعلام المفكرين الذين أثروا تأثيراً قوياً

على النظرية النقدية - وهو ليوتار - كان ولا يزال ملتزماً بوجهة النظر التي ترى أن الفلسفة لديها، وينبغي أن يكون لديها، عدد من الحقوق الممتازة في تناول مثل هذه القضايا (يشهد على ذلك أن ما قام به ليوتار- في كتابه "المختلف" وفي غيره من الكتابات- من تفرقة وتمييز بين "الفيلسوف" و"المثقف"، وما قدمه من شواهد مسببة تؤكد هذه الحقيقة). ويكشف لنا ذلك وجود توتر عميق داخل مجال النظرية النقدية، فيما بين أهدافها الصريحة التي تجاهر بها وبين ميراثها الفلسفي/ النظري، وهو توتر لم يتم تسويته حتى الآن على الأقل. وفي حالة ما لو شايح أنصار النظرية النقدية ليوتار فيما فعل، وتحركوا صوب توجه فلسفي أكثر قرباً من التوجه الأنجلوأمريكي، فإن كثيراً من المبادئ والبراهين الأساسية للنظرية سوف يتعين القيام بتفحصها وتدقيق النظر فيها، وربما اقتضى الأمر مراجعتها مراجعة جذرية. (PS) للمزيد انظر: Derrida (١٩٧٦) و Harland (١٩٨٧) و Norris (١٩٨٦ و ١٩٩٢).

Literary Criticism

النقد الأدبي

يشتمل النقد الأدبي على تحليل وتفسير وتقييم النصوص الأدبية. ويحاول أن يحدد معنى النص وأن يطرح الأسئلة المتعلقة بالدلالة الاجتماعية العامة لعمل أدبي معين. وقد كان الاهتمام الأصلي للنقد الأدبي - على امتداد تطوره التاريخي - يتركز على مؤلف النص، ثم أخذ ينتقل تدريجياً إلى الاهتمام بالنص نفسه، في نفس الوقت الذي كان يدرج في نطاق اهتماماته مناقشة دور القارئ ودور الفترة التاريخية التي كتب فيها النص.

وقد ترافق ظهور النقد الأدبي مع الرغبة في الوعي بمعنى ودلالة "الثقافة" و"المجتمع". ويعد النقد الأدبي، في كثير من نواحيه، جزءاً من مشروع تحرري (وهو

واحد من مواريث حركة التنوير) يحاول فهم الذات أو الأنا في علاقتها بسياقها التاريخي. ومن السمات المميزة للنقد وجود موقف فكري من قدرات العقل قائم على الوعي بالذات، وكذلك القيام بالبحوث الدقيقة التفصيلية للملكة الخيال التي تنتج لنا نظريات في الأدب لا تكتفى بهجر كافة محاولات التبسيط المخل التي تسوى بين الشاعر والكذاب، وإنما تتجاوز ذلك إلى تقديم معالجات مهمة لمجموعة الأسئلة التي تدور حول النزعة الواقعية.

لقد كانت أهم قضايا الخلاف في مجال النقد الأدبي - ولا تزال - مشغولة بالصلة بين كل من النص والواقع التاريخي. فلا ريب أن الأدب يشير إلى حقيقة خارجية، إلا أنه من الصعوبة البالغة أن نقدر نوع هذه الإشارة. وعن طريق تمثيل النص للخبرة المستمدة من العلاقات الاجتماعية يخلق النص نوعاً من تحديد المواقع الاجتماعية. ومهما تباعد السرد القصصي أو انصب على عوالم غريبة، فإن النص يكتب دائماً من وجهة نظر معينة، كما أنه يهتم باستعمال أسلوبه البلاغي ليستدرج القارئ إلى اتخاذ نفس موقفه الإيديولوجي. ونظراً لأن الأدب - الذي يستحق أن يسمى أدباً - يتعامل بأسلوب نقدي مع مقدماته المنطقية، فيعبر بطريقة مثيرة عن نوع من التوتر بين معايير التي يستعملها في الوصف والتصوير ومعايير التي يستعملها في التوجيه والإرشاد. ومن ثم فإن مهمة النقد أن يستخرج الطرق والوسائل التي بواسطتها يتيح الأدب فرصة الخلاف حول عدد معين من الأعراف المتبعة والمسلمات النمطية. ومن المنطلقات الهامة التي يبدأ منها الأدب القيام بهذه المهمة، أن يحلل طريقة النص في طرح نوع الذاتية التي يبرزها النص لقرائه. وفي هذه الحالة يكون لتحليل السخرية أو التهكم نفس أهمية الاضطلاع بمهمة السعي لتشخيص أوجه التناقض وأشكال عدم الاتساق المنطقي الموجودة في أفكار النص. وعلى حين كانت القراءات الأخذة بمفاهيم مدرسة "النقد الجديد" ترى أنه من غير المشروع أن نفترض احتواء

الشعر على الرؤى والأفكار، كما أنه من غير المشروع أن نعيد صياغة معانيه بالفاظ أخرى، أصبحنا نجد النظريات النقدية الحديثة تلج على التأكيد أن منهج البحث النقدي الهادف ينبغي أن يركز على المعانى المتعددة للنص الواحد ويناقش الوسائل التى عن طريقها تتصارع التفسيرات المختلفة للنص مع بعضها البعض.

وفى بداية التوسع فى استعمال هذا النقد الحديث لتفسير نصوص الكتاب المقدس، كان هذا النقد يعالج الكتابات الدينية باعتبارها كياناً له حضوره الذاتى المتميز، على أساس أن تلك النصوص كانت تعد وحيّاً إلهيّاً منزلاً. لكن النظريات التأويلية التى ظهرت فى القرن العشرين قد أوضحت أن فهم الفقرات المفردة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا بنى على أساس المعرفة المسبقة بأسلوب ترجمة الخبرة الخاصة إلى عمل أدبى. لذلك فإن ما يوصف بمفهوم "الدائرة التأويلية" إنما يصف المشاق التى لابد من مكابذتها قبل الوصول إلى المعانى المستقاة من الخبرة الشخصية المباشرة التى يمكن إعادة إنتاجها بدقة فى الأفكار والصور التى يتضمنها النص الأدبى. وفكرة التأويل تعنى وجود سبيل مباشر للوصول إلى عالم من الأفكار والتصورات، هى أكثر الأفكار إثارة للاختلاف والجدل حولها، خاصة من قبل المفكرين التفكيكيين فى كتاباتهم النقدية عن اللغة والإيديولوجيا.

وفى المرحلة التى ظهر فيها النقد الأدبى فى صورة حركة النقد الجديد أخذ يعبر عن نظرة إلى معنى النص تتسم بالجزم والتوكيد. بيد أنه على الرغم من أن الفكرة التى تقول إن انحصار التركيز فى "الكلمات المكتوبة على الورق" والموجودة موضوعياً من شأنه أن يحد من جنوح التفسير إلى الأحكام الجذافية؛ على الرغم من ذلك فإن كلاً من حركة النقد الجديد والنزعة البنيوية سرعان ما اضطرتا إلى التخلي عن تأييدهما للموضوعية فى تفسير معنى النص. أما فى وجهتى النظر المابعد البنيوية والتفكيكية المتعلقتين بالتفسير، فقد تم التغلب على مشكلة الخطأ فى التفسير من خلال تأسيس

----- (ن) -----

شكل من أشكال علم جمال الأدب يحتفى بالنص المتعدد المعانى. ومعنى ذلك أن النص فى حد ذاته لم يعد يُنظر إليه باعتباره كياناً يمكن اختزاله فى معنى وحيد. فإنه يعيب وجهة النظر هذه أن النص يمكن أن يُفهم على أنه يقول - تقريباً - أى شئ، وأن مهمة النقد تصبح مقصورة على انتقاء التفسيرات المناسبة من بين طائفة كبيرة من التفسيرات أو الاختيارات المقبولة أو المعقولة.

وتتصل بعض الأسئلة الأخرى التى يطرحها مبحث النقد الأدبى بالعلاقة القائمة بين الأدب والنقد. ونظراً لأن النقد يعد فى حد ذاته نوعاً أدبياً يعنى بدراسة النصوص، فقد زعم البعض تعذر التسليم بوجود فرق نوعى بين النص وتفسيره. أما المناقشات المتعلقة بالقيمة الأدبية للنص، والتى أصبحت تعد - فى وقتنا هذا - جزءاً من المناقشات الدائرة حول مكانة القصص الشعبية، كانت أحد الاهتمامات القديمة التى برزت بوضوح فى المرحلة التى أصبحت فيها السينما وغيرها من وسائل الاتصال الجماهيرى تؤثر تأثيراً مباشراً على الخيال الشعبى فى أواخر القرن العشرين على نحو يفوق تأثير غيرها من أشكال الفن الأكثر رقىاً. ويتضح من هذه القضايا المثارة فى مجال النقد الأدبى أن محاولة شرح معنى الأدب تمثل مجاًلاً مهماً من المجالات التى يدور فيها الصراع الإيديولوجى. (CK) للمزيد انظر: Eagleton (١٩٨٢) و Lodge (١٩٧٢) و Rice and Waugh (١٩٨٩) و Welleck (١٩٨٦).

Mode of Production

نمط الإنتاج

تتنظر الماركسية إلى التاريخ على أنه تتابع حتمى لمراحل إنتاج متميزة أو لأنماط إنتاج متميزة (ماركس وإنجلز ١٩٧٠). ويحدد ماركس ست مراحل تاريخية هي: مرحلة الشيوعية البدائية؛ ومرحلة مجتمع الرق القديم؛ ومرحلة الإقطاع؛ ومرحلة

----- (ن) -----

الرأسمالية؛ ومرحلة الاشتراكية؛ ومرحلة الشيوعية. ولكل مرحلة من هذه المراحل سماتها الاقتصادية المتميزة، عندما نتصدى لتحليلها وفقاً لقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، أو بعبارة أخرى: وفقاً لمستوى التكنولوجيا المستخدمة داخل المجتمع وعلاقات القائمة بين المنتجين والملاك الذين يتحكمون فى الموارد اللازمة للإنتاج (أى: وسائل الإنتاج). لذلك فإن نمط الإنتاج يمثل العلاقة بين قوى الإنتاج وعلاقاته من ناحية، وما يرتبط بهما من أنظمة الاستغلال الاقتصادى من ناحية أخرى. ورغم أنه يتعذر علينا - إن أردنا الدقة التامة - أن نقوم بالتحليل الشامل لبناء اجتماعى عائد إلى فترة تاريخية معينة وفقاً لنمط وحيد من أنماط الإنتاج، كما أن النقاش المثمر ما زال متصلاً حول مظاهر التميز والاختلاف بين أنماط الإنتاج الرأسمالية (من ذلك مثلاً: النقاش حول وجود قطيعة بين الرأسمالية القديمة والرأسمالية الحديثة) رغم ذلك فإن التحليل الماركسى لأنماط الإنتاج يطرح نموذجاً قوياً - وإن يكن مجرداً - لتفسير التغير الاجتماعى.

ويمكن أيضاً هذه القضية بالرجوع إلى فترة الانتقال من النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالى. فالتكنولوجيا الموجودة فى المرحلة الإقطاعية تعتمد على عدد من مصادر القوة الطبيعية (بما فيها قوة الحيوانات، وقوة الريح، وقوة البشر)، بينما يمتلك النظام الرأسمالى الآلات التى تعمل عن طريق احتراق أنواع الوقود المستخرج من الأرض (كالفحم مثلاً). كما أن ما توفره التكنولوجيا الإقطاعية من إنتاج متواضع نسبياً يمكن استغلاله تماماً على نطاق ضيق، ومن خلال طرق الإنتاج الزراعى غالباً. أما ما تتمتع به التكنولوجيا الرأسمالية من طاقة أكبر فقد أصبح يسمح لمصدر واحد من مصادر الطاقة أن يوفر القوة المحركة اللازمة لعدد كبير من العمال. من هنا يبرز المصنع بوصفه أنسب أساليب استغلال هذه القدرة. يضاف إلى ذلك أن أصبح المصنع - وكذلك نوع التنظيم الذى يقوم عليه - يعد فى ذاته جزءاً لا يتجزأ من قوى الإنتاج.

----- (ن) -----

ولكى يصبح قيام المصنع أمراً ممكنًا، لابد من قطع دابر روابط الإنتاج الإقطاعية هذه. وهذه الروابط هي تلك القائمة بين السيد الإقطاعي والقرن^(*)، حيث يكون القرن مقيداً إلى قطعة معينة من الأرض، وبالخدمة لدى سيد إقطاعي معين. وبمقدور السيد الإقطاعي أن يستغل القرن عن طريق استيلائه على حصة من الإنتاج الذي تغله هذه الأرض، وكذلك عن طريق إلزامه للقرن بأن يعمل جزءاً من الوقت في الأرض التي يملكها السيد الإقطاعي. وتحتاج الرأسمالية، كما تحتاج - تبعاً لذلك - البورجوازية أو الطبقة الرأسمالية التي تسعى للانتفاع بالتكنولوجيا الجديدة إلى أقصى حد؛ تحتاج إلى قوة عاملة تتمتع بحرية الحركة بين مختلف أصحاب الأعمال تبعاً لما يحرك سوق العمل الحرة من حاجات وحوافز. من هنا تركز العلاقات الرأسمالية للإنتاج على السوق أساساً. ويكون العامل حراً - من الناحية الشكلية - في أن يعمل لدى كل من يرغب في استخدامه ويقدر على ذلك، وذلك في مقابل أجر تحدده هذه السوق. أما الرأسمالي فإنه لا يملك وسائل الإنتاج فحسب، وإنما يملك معها ناتج العمل الذي بذل داخل مصنع. والرأسمالي حر في بيع ناتج العمل هذا كما يحلو له (ونلاحظ مجدداً أنه يبيعه بسعر يحدده السوق الذي تباع فيه السلع الاستهلاكية).

لهذا السبب يتخفى استغلال الرأسماليين للطبقة الخاضعة وراء عمليات التبادل التي تتم في سوق العمل وفي سوق السلع، وهي العمليات التي تبدو في ظاهر الأمر عادلة لا ظلم فيها لأحد. ولكن المال الذي يدفع للعامل كأجر - يبدو في ظاهره عادلاً ومتفقاً عليه بينه وبين صاحب العمل - في مقابل كمية معينة من العمل يكون أقل من

(*) القرن Serf: أو عبد الأرض وهو شكل من افتقاد الحرية مناظر أو قريب من العبودية، ولكنه يرتبط بالنظام الإقطاعي، خاصة في أوروبا في العصور الوسطى. وهذا النظام من الاستعباد كان يقيد القرن وهو - مجازاً - مستأجر الأرض وأبنائه مدى الحياة لصالح أمراء من أصحاب الأرض الإقطاعيين ويدينون له بالولاء. ويمثل نظام "القنانة" أو عبودية الأرض نظاماً للسلطة والتكيف الاقتصادي في نفس الوقت. (المراجع)

القيمة التبادلية التي يحصل عليها الرأسمالي من بيعه لنتائج العمل المذكور. (وهكذا يتم الاستغلال عن طريق استيلاء الرأسمالي على فائض القيمة).

والانتقال من أحد أنماط الإنتاج إلى غيره يتسم بالعنف (الناجم عن الثورات التي تمثل المظهر الصريح للصراع الطبقي). والأمر الذي يجعل هذا العنف أمراً حتمياً أن علاقات الإنتاج تتسم بطبيعة محافظة أو جامدة لا تنفك عنها، على النقيض من الطبيعة الديناميكية (المتغيرة) التي تتسم بها قوى الإنتاج. وتحدث الثورة عندما يقع التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. وهذا معناه أن علاقات الإنتاج القائمة لم تعد ملائمة لاستثمار الإمكانات الإنتاجية الكامنة في قوى الإنتاج. شاهد ذلك أن الطبقة الإقطاعية المسيطرة، ومن ثم علاقات الإنتاج الإقطاعية، أصبحت - في فترة معينة - عاجزة عن الاستفادة من التكنولوجيا الصناعية استفادة تامة. وذلك في مقابل الطبقة الرأسمالية الصاعدة التي باتت وحدها القادرة على تطوير إمكانيات التكنولوجيا الصناعية، وذلك في حالة تمكّنها أولاً من الإطاحة بعلاقات الإنتاج الإقطاعية، عن طريق القضاء على أشكال الحظر والتقييد التي يفرضها النظام الإقطاعي على حركة القوة العاملة وعلى حريتها. من هنا يعتقد أن علاقات الإنتاج الرأسمالية تكون كامنة - إلى حد ما - في المرحلة المبكرة للتكنولوجيا الصناعية، كما تكون هذه الرأسمالية الكامنة في حالة تناقض مع واقع النظام الإقطاعي القديم.

وبالاستناد إلى التعبير الاستعاري الخاص بمصطلح البناء التحتي والبناء الفوقي (وغيره من التعبيرات الواردة في مختلف أشكال ماركسية القرن العشرين، وفي الدراسات التي قامت بتحليل كل من ظاهرة تقديس السلع وظاهرة التجسيد، أي اعتبار المجرّد شيئاً مادياً)؛ بالاستناد إلى المصطلح يوحى الماركسيون أن العناصر الاقتصادية لنمط الإنتاج (أي الأساس الاقتصادي لهذا النمط) هي صاحبة التأثير الحاسم على الجوانب القانونية والثقافية للمجتمع. ومعنى ذلك أن مختلف أنماط

----- (ن) -----

الإنتاج لا تتحدد قسماتها على أساس الخصائص الاقتصادية المختلفة فقط، إنما تتحدد إلى جانب ذلك وفقاً للخصائص الثقافية المتباينة (وفى مقدمتها وعلى رأسها الآليات الإيديولوجية التي تستغل لإضفاء الشرعية على نظام الحكم الذى تقبض عليه الطبقة المسيطرة). (AE) للمزيد انظر: Balibar (١٩٧٠) و Gutler et al (١٩٧٧). و Marx and Engels (١٩٧٠) و Sweezy et al (١٩٧٨).

Stereotype

نمط ثابت

انظر: صورة نمطية.

Ideal Type

النمط المثالى

النمط المثالى مصطلح نشأ أصلاً فى علم اجتماع ماكس فيبر^(*) وهو مصطلح يساء فهمه بسهولة. والنمط المثالى عند فيبر - يمثل فى العادة - نموذجاً مجرداً لنظام اجتماعى أو عملية اجتماعية. لذلك يحاول هذا النمط المثالى أن يحدد الخواص الرئيسية للنظام الاجتماعى ويعزلها. والهدف منه توجيه البحث الإيميريقي، حيث يلفت انتباهه إلى نوع الملامح التى ينبغى على العالم الاجتماعى أن يفحص عنها ويرصدها.

(*) ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠) ويعد إلى جانب دوركايم مؤسساً علم الاجتماع الحديث كعلم اجتماعى متميز. وإن كانت أعمال فيبر هى الأكثر تركيياً وطموحاً، ومازالت تمثل معيناً ثرياً للتفسير والإلهام بفكر جديد. وكان إسهامه فى علم الاجتماع هائلاً بكل المقاييس. فقد قدم الأساس الفلسفى اللازم للعلوم الاجتماعية، وقدم إطاراً نظرياً عاماً لعلم الاجتماع، وعدداً من الدراسات التى شملت كافة الأديان العالمية الكبرى، والمجتمعات القديمة، والتاريخ الاقتصادى، وعلم الاجتماع القانونى، والدراسة الاجتماعية للموسيقى، وغيرها من فروع دراسة علم الاجتماع. انظر المزيد فى موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٠٩٨-١١٠٢. (المراجع)

من ناحية أخرى يكون من الممكن تعديله في ضوء هذا البحث الإمبريقي نفسه. (انظر مادة: البيروقراطية كمثال على أحد الأنماط المثالية عند فيبر). فالنمط المثالي يكون مثالياً بمعنى كونه تعبيراً مجرداً. ولا يشترط - بالضرورة - أن تظهر كافة ملامح النمط المثالي في كل (أو في أي) مظهر واقعي من مظاهر هذا النمط. الأمر الحاسم هنا أن النمط المثالي ليس مثالياً، بمعنى كونه وصفاً للشكل الكامل أو المرغوب من أشكال النظم الاجتماعية. (AE)

النموذج المسرحي(*) Dramaturgical Model

يحاول النموذج المسرحي أن يفسر الحياة اليومية عن طريق المماثلة بيننا وبين المسرح. لهذا يؤكد هذا النموذج الفكرة التي تقول إن كل فاعل اجتماعي إنما يؤدي دوراً، ويتمثل الجزء الأساسي والأهم من التفاعل الاجتماعي في طريقة أداء هؤلاء الفاعلين لأدوارهم مع بعضهم البعض. ويقدم جوفمان(**) (١٩٥٩) وصفاً شهيراً -

(*) ترجم المفكر والناقد الراحل سامي خشبة هذا المصطلح بالإنموذج الدرامي، وهي ترجمة تكاد تكون حرفية، ولكنها دقيقة على كل حال. ولقد اخترنا كلمة "المسرحي" بدلاً من "الدرامي" التماساً للمزيد من الوضوح والتحديد. فهذا المنهج في التحليل ينطلق من أن كل فرد في المجتمع يتقمص دوراً بعينه، مثلاً يتقمص الممثلون أدوارهم على المسرح. انظر: سامي خشبة، مصطلحات الفكر الحديث، الجزء الأول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ص ٩٩-١٠٢. (المراجع)

(**) جوفمان، إرفنج Goffman, Erving (١٩٢٢-١٩٨٢) أشهر علماء الاجتماع الذين اهتموا بدراسة الوحدات الاجتماعية الصغرى خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. كما كان رائداً في المنظور المسرحي في علم الاجتماع. من أهم مؤلفاته "تصور الذات في الحياة اليومية" (١٩٥٩)، وفيه حدد معالم منحاه المسرحي. ولقد اتصل في كتابيه التاليين اهتمامه بالمسرح، ولكنه طبق هذا الإطار على مجال الانحراف، والمستشفى العقلي ("الوصمة"، ١٩٦٤، "الماوي"، ١٩٦١). وقد أثرت هاتان الدراستان تأثيراً بعيداً في تطور نظرية الرصم. ولقد قدمت دراساته التالية قاموساً لمفاهيم جديدة في علم الاجتماع، والتي ساعدت على فهم التفاصيل الدقيقة للتفاعل المباشر وفي عمل كل الباحثين الذين اشتغلوا بدراسة الحياة اليومية. انظر المزيد عنه في: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وزملائه، مرجع سابق. (المراجع)

----- (ن) -----

ويحق - للأدوار المختلفة التي يقوم بها "الجرسونات" في صالة تقديم الطعام بأحد المطاعم، ثم في المطبخ. حيث يحل محل السلوك المهذب المبالغ في الاحترام الذي يبدو أنه لرواد المطعم، سلوك أكثر تهاوياً بل أكثر استهتاراً وتهكماً في الواقع أثناء تعاملهم مع زملائهم من العمال داخل المطبخ.

وربما لا يكون هذا الاتجاه ذا كفاءة تفسيرية عالية اللهم إلا قدرته - من الناحية العملية - على توصيف عمليات التفاعل الاجتماعي المباشر الذي يتم وجهاً لوجه، ومع ذلك يؤثر هذا الاتجاه بالفعل أسئلة مهمة عن طبيعة الهوية الشخصية في أثناء التفاعل الاجتماعي. ويرى جوفمان، أننا لا نغير فقط الأدوار التي نؤديها في المواقف الاجتماعية المختلفة، بل نغير - معها - ثواتنا، وذلك في شأنا نتقلنا من مجال تفاعلي إلى مجال آخر. (AE) للمزيد انظر: Berger (١٩٦٣) و Burns (١٩٩٢).

النموذج النظرى / الصيغة Paradigm

(١) فى علم العلامات يمثل النموذج النظرى مجموعة الوحدات الأساسية التى تتألف منها الرسالة. فالحروف التى توجد فى أبجدية ما - مثلاً - تمثل النموذج النظرى الذى يمكن أن تتألف منه الكلمات. وهكذا يشكل كل من حرف "A" الكبير و "a" الصغير، وحرف "B" الكبير و "b" الصغير جزءاً من النموذج النظرى للأبجدية الرومانية، بينما لا يشكل هذا الرمز "b" ولا هذا الرمز "A" (**) لا يشكلان جزءاً من النموذج النظرى للأبجدية الرومانية. وفى نطاق النموذج النظرى الواحد، تكتسب الوحدات دلالاتها بمقدار ما تكون متميزة بعضها عن بعض وبمقدار ما تكون قابلة لأن تحل محل بعضها البعض (انظر كذلك مادة: التركيب اللفظي).

(*) الذى يشار به إلى عملة الين اليابانية. (المترجم).

(**) الذى يشار به إلى الدولار الأمريكى. (المترجم).

(٢) والنموذج النظرى مصطلح من مصطلحات فلسفة العلوم. والنماذج النظرية، كما فسرهما توماس كون فى كتابه بعنوان "بنية الثورات العلمية" (١٩٦٢)، عبارة عن نظريات أو رؤى شاملة للعالم، تقوم بتيسير نشاط الدراسة والبحث فى المجالات التى تغطيها الدراسات العلمية المختلفة. ويرى كون أن النموذج النظرى يمكن أن يكون "إنجازاً" فكرياً (كما هو الحال فى الأعمال الأساسية فى تاريخ العلم، ككتاب نيوتن بعنوان "المبادئ الأساسية"، أو كتاب ليل Lyell بعنوان "مبادئ الجيولوجيا") حيث يرسى هذا الإنجاز الأساس الذى تقوم عليه المبادئ الموجهة داخل ميدان علمى معين، واللازمة لما يجد فى المستقبل من تساؤلات وتحقيقات فى مجال الظواهر المعنية. والنموذج النظرى - بهذا الشكل - يعد نموذجاً ذو فائدة عملية يتيح للعلماء أن يواصلوا نشاطهم فى مجال الممارسة العلمية الفعلية.

والإنجاز الذى يدل على ميلاد نموذج نظرى ملمحان رئيسيان:

(١) أولهما أنه يجذب أنظار مجموعة من الأنصار المهتمين بعيداً عن أنماط النشاط العلمى المنافسة لهذا النموذج.

(٢) وثانيهما أن هذا النموذج ذاته لا يكون كاملاً أبداً، بل يكون منفطحاً بدرجة كافية على كافة أنواع المشكلات يتيح لمجموعة من العلماء من ذوى العقلية الجديدة القيام بحلها فى المستقبل (كون ١٩٦٢: ١٠).

وعلى ذلك، فالنموذج النظرى عبارة عن نظرية عامة أحرزت النجاح فى صراعها ضد النظريات المنافسة الأخرى، ولكنه فى نفس الوقت لم يستوف تماماً دراسة كافة الظواهر والوقائع التى يتعين عليه أن يعالجها. وبمجرد أن يستقر النموذج النظرى، يصبح تعريف حقل البحث الذى يغطيه هذا النموذج، وتعريف العلماء المشتغلين فى هذا الحقل، أكثر وضوحاً ودقة، وتصبح المشكلات اللاحقة التى ستقع فى المستقبل

والمراد بحثها محل اتفاق أوضح. وفي مثل هذه الأحوال يكون العلم المعيارى فى طور التنفيذ. ويصل النموذج النظرى إلى مرحلة الأزمة حينما يصبح من العسير التوفيق بينه وبين الظواهر التى يواجهها العلماء فى نطاق المجال العلمى الذى يخدمه هذا النموذج، وحينما تصبح هذه الظواهر من الخطورة والكثرة إلى الحد الذى يتعذر - معه - تجاهلها: "فإخفاق القوانين العلمية القائمة يعد إيداناً بالبحث عن قوانين علمية جديدة" (كون ١٩٦٢: ٦٨). وتؤدى هذه الأزمة إلى انهيار النظرية، التى سوف تستمر - مع ذلك - فى العمل إلى أن تأتى نظرية جديدة أكثر كفاءة من سابقتها فى تفسير الظواهر التى لا تنطبق عليها القواعد المعروفة (١٩٦٢: ٧٧). ومن شأن حلول نموذج نظرى جديد مكان آخر فى أعقاب هذه الأزمة، أن يشكل تغييراً فى تصور مجتمع العلماء للمشكلات العلمية وكذلك لمعايير القياس المشروعة (١٩٦٢: ١٠٨).

وأهم ما فى هذا الأمر - فى رأى كون - أنه لا يجوز فهم هذه التغيرات كعملية تراكمية يتم عن طريقها زيادة تدقيق وتطوير نفس المشكلات بوصفها موضوعات للدراسة (وهو رأى سبق لفيلسوف العلم كارل بوبر^(*) أن طرحه). ذلك أن تغيير النموذج النظرى يتضمن تغييراً جوهرياً فى القضايا التى يعتقد أنها ذات أهمية داخل

(*) بوبر، السير كارل ريموند Popper, Sir Karl Raimund (من مواليد فيينا عام ١٩٠٢) واحد من كبار فلاسفة العلوم. درس فى فيينا الرياضيات والفيزياء والفلسفة، واتصل بمدرسة فيينا، ولكنه لم يكن عضواً من أعضائها. سعى فى مؤلفه الأول "منطق الكشف العلمى" (١٩٣٥) إلى أن يحل مشكلة الاستقراء عند هيوم بأن يحل معيار "العلمية" (أو مبدأ التحقق) الذى قالت به مدرسة فيينا محل مبدأ "التكذيب" الذى قال به هيوم. بعد نهاية الحرب العالمية الثانية هاجر إلى إنجلترا حيث عمل أستاذاً بمدرسة لندن للاقتصاد. واتجه هناك إلى دراسة الفلسفة الاجتماعية والسياسية، فطور نقداً لأعداء "المجتمع المفتوح" (خاصة أفلاطون وهيغل وماركس) وللنزعة التاريخية التى اعتبرها نوعاً من الاعتقاد بوجود قوانين للتاريخ يمكن الكشف عنها. وذلك فى مؤلفيه الشهيرين "المجتمع المفتوح وأعداؤه" (١٩٤٥)، و"علم النزعة التاريخية" (١٩٥٧). للمزيد عنه انظر: A. Elliott et al., Key Contemporary Social Thinkers, 2003. (المراجع)

نطاق أحد ميادين البحث العلمى. والسبب فى اكتساب النموذج النظرى الجديد للقبول يرجع إلى أنه أقدر على تفسير الظواهر التى لا تنطبق عليها القواعد أو القوانين المعروفة، كما يرجع بدرجة كبيرة إلى أنه يكتسب أعداداً متزايدة من الأنصار المؤيدين. وعلى ذلك، فإن مثل هذه التغيرات (أو قل: هذه الثورات) لا ينبغي النظر إليها باعتبارها علامة لمرحلة من مراحل التقدم فى تاريخ ميدان علمى معين يتعين فهمها أو تناولها تناوياً موضوعياً خالصاً. إنما الأولى من ذلك أن تعتبر هذه التغيرات بمثابة مظاهر ذات طبيعة سوسيولوجية. وبهذا المعنى يعد العلم نفسه ممارسة ثقافية يتم تحديد مادة بحثها ومشكلاتها الرئيسية بواسطة القوى الموجودة داخل مجتمع الباحثين العلميين أنفسهم، وليس وفقاً لآى مقياس موضوعى له صلة بالعالم الخارجى ومعزول عن مشكلات الشرح والتفسير. (PS) للمزيد انظر: Kuhn (١٩٧٠).

Gender

النوع الاجتماعى

يوضع مفهوم "النوع الاجتماعى" عادة بصورة تتعارض تماماً مع مفهوم "الجنس" Sex. فبينما يكون جنس الواحد منا (أنثى/ أو ذكر) من مسائل علم الأحياء، يكون نوع الواحد منا (من حيث الأنوثة/ أو الذكورة) من مسائل الثقافة. لذلك قد ينظر إلى أن النوع الاجتماعى يشير إلى أنماط مكتسبة من السلوك والأفعال، فى مقابل ما هو محكوم منها بالاعتبارات البيولوجية. والفصل هنا أنه لا يجوز لنا افتراض أن البيولوجيا تتحكم فى النوع الاجتماعى. وهذا معناه أنه بينما يكون ما يجعل شخصاً ما ذكراً أو أنثى أمراً عاماً وشاملاً يرتكز على أساس من قوانين الطبيعة، فإن الأساليب والطرق الدقيقة التى تعبر بها النساء عن أنوثتهن، ويعبر بها الرجال عن ذكورتهم تختلف من ثقافة لأخرى. ولهذا، فإن الصفات التى يعزوها الناس بصورة نمطية للنساء وللرجال فى الثقافة الغربية المعاصرة (كغلبة التعبير العاطفى

----- (ن) -----

أو الانفعالي لدى النساء، وغلبة نزعات العنف والعدوان لدى الرجال) تعد من الأمور الدالة على النوع الاجتماعي، مما يعنى ضمناً أن بالإمكان تغييرها. وتزودنا الكتابات فى مجال علم الأنثروبولوجيا الثقافية بشواهد عديدة على التعبيرات المختلفة عن النوع الاجتماعى فى المجتمعات غير الغربية (من ذلك مثلاً ما كتبه مرجريت ميد Mead مما يعد نموذجاً يحتذى فى هذا الصدد). أما اختزال النوع الاجتماعى فى صورة الجنس وحده (وهو الاتجاه الذى ينظر إلى الفروق المتصلة بالنوع الاجتماعى باعتبار أنها هى ذاتها محكومة بالاعتبارات البيولوجية) فيعد خطوة أساسية فى مسار التبرير الإيديولوجى لنظام سلطة الأب. (AE) للمزيد انظر: Butler (١٩٩٠) وWalby (١٩٩٠).

Genre

النوع (الأدبى أو الفنى)

النوع طريقة من طرق التصنيف، حيث يشير المصطلح إلى مجموعة من الخواص المشتركة التى تسمح بتجميع عدد من أشكال التعبير الفنى أو الإنتاج الثقافى المختلفة معاً فى فئة واحدة. ومثال ذلك، أن النوع الأدبى للرواية يشير إلى مجموعة من النصوص التى ينطبق عليها التعريف الأساسى لما تتكون منه الرواية (أى نصوص تحتوى على شخصيات من ابتداء الكاتب، وبناء سردي، وما إلى ذلك من عناصر الرواية). وبالمثل نجد فى مجال التليفزيون، أن "المسلسلات التليفزيونية"، أو "الأفلام التسجيلية"، أو "كوميديا الموقف" تدل كلها على أنواع فنية بعينها.

ومع ذلك، فكثيراً ما يكون أمراً بالغ الصعوبة توفير قائمة شاملة للملامح التى تحدد أو تعرف نوعاً أدبياً أو فنياً معيناً، وذلك لأن أى عمل يمكن إدراجه ضمن نوع أدبى أو فنى معين، قد يتصف - بوضوح - بلامح لا تشاركه فيها حالات أخرى نفس النوع بصورة قياسية، أو قد يفتقد ملامح تشترك فى الاتصاف بها أعمال أخرى فى نفس النوع.

ولعل من الأفضل بالنسبة لمصطلح "النوع الأدبي أو الفني" - وفقاً لهذا المعنى - أن ننظر إليه باعتباره وسيلة فضفاضة للقيام أحياناً بتجميع عدد من الأعمال المختلفة - بدرجة أو بأخرى - فى فئة واحدة معاً. أضف إلى ذلك أن الأعمال التى تدرج - وفقاً لمظهرها الخارجى - ضمن نوع أدبي أو فنى معين، قد تعبر عن علاقة ساخرة مع هذا النوع نفسه (مثال ذلك النوع الفني المسمى "المسلسل التلفزيونى"، الذى يسخر من النوع الفني للمسلسلات التلفزيونية، ويعد - بهذا الشكل - صورة من كوميديا الموقف).

ومن بين الفلاسفة، لعلنا نجد أن جان فرانسوا ليوتار هو الفيلسوف الذى يقدم لنا تفسيراً أكثر دقة مما قدمه غيره. إذ يرى أن النوع الأدبي أو الفني طريقة للربط بين العناصر اللغوية التى لا تجانس بينها فى فئة واحدة معاً (أى أنه مجموعة من قواعد الربط) وأن التمييز بين نوع ونوع آخر يتم وفقاً للغاية التى يستهدفها كل نوع (انظر كذلك مادة: الخطاب) (PS).

الهوية

Identity

قضية الهوية قضية رئيسية فى الدراسات الثقافية، من حيث إن الدراسات الثقافية تدرس السياقات التى يقوم الأفراد والجماعات داخلها ومن خلالها بتكوين هوياتهم أو فهمهم لنواتهم والتعبير عنها وحمايتها. وتعتمد الدراسات الثقافية اعتماداً شديداً على تلك الاتجاهات الفكرية فى معالجة قضية الهوية، التى تتشكك فيما يسمى بالتصورات التقليدية للهوية، حيث تفترض هذه التصورات التقليدية أن الذات شىء مستقل بنفسه (نظراً لكونها ثابتة ومستقلة عن المؤثرات الخارجية جميعها). فالدراسات الثقافية تعتمد على تلك الاتجاهات التى تؤمن بأن الهوية عبارة عن رد فعل لشيء خارجى ومختلف عنها (أى الآخر).

وفى الكتابات الفلسفية الأوروبية التقليدية التى كتبت فى القرن السابع عشر، ابتداء من ديكارت فما بعده، شاع الافتراض القائل بأن النفس (أو الأنا أو الذات) توجد بوصفها مصدراً مستقلاً للمعنى والفعل. فقد وجد ديكارت - نفسه - أن الأمر الوحيد الذى لا يمكنه الشك فيه هو أنه موجود، وأن هذا الوجود يتخذ شكل "جوهر مفكر" (ديكارت، ١٩٦٨). وقد سيطرت فكرة الذات المستقلة الواثقة من هويتها الخاصة والثابتة على امتداد عمر الإنسان الفرد، ليس على ميدان الفلسفة فقط، ولكن كذلك على الفكر السياسى (خاصة بوصفها أحد الفروض الأساسية لليبرالية) وعلى ميدان علم النفس أيضاً.

ومع ذلك بدأ الشك يثور فى هذه الفكرة إبان القرن الثامن عشر، خاصة لدى الفيلسوف الأسكتلندى دافيد هيوم (هيوم ١٩٧٨: ٢٥١-٢٦٣). فقد لاحظ هيوم أن محتويات وعيه تتضمن صوراً متعددة (أو انطباعات حسية) عن كل شىء يفكر فيه سواء أكان هذا التفكير فى صورة إدراك حسى مباشر، أم فى صورة استدعاء

للذاكرة. ورغم ذلك، فإنه لم يكن ثمة صورة لهذه النفس التى يفترض أنها تقوم بهذا الإدراك الحسى أو التذكر العقلى. لذلك طرح هيوم ما كان يعرف عند الناس وقتها بأنه "نظرية الحزمة" التى تتصور أن النفس ليست أكثر من حزمة من الانطباعات الحسية، التى يعترئها التغير باستمرار كلما اكتسب الفرد خبرات جديدة أو استعاد خبرات قديمة.

وفى أواخر القرن التاسع عشر أثار إميل دوركايم اعتراضاً جوهرياً على النزعة الفردية الليبرالية (دوركايم ١٩٨٤). فالليبراليون يسلمون بأولوية الفرد، وبأن المجتمع - وفق هذا التصور - يتألف من الأفراد (يجمعهم معاً عقد اجتماعى مثلاً). وعلى النقيض من ذلك، ذهب دوركايم إلى أن الفرد ليس سوى نتاجاً للمجتمع (وليس أن المجتمع هو نتاج الأفراد). وكانت وجهة نظره ترى أن الفهم الحديث للشخصية الفردية (ومن ثم فهم البشر لأنفسهم فى المجتمع الحديث) إنما هو نتاج ثقافة معينة. ففى المجتمعات قبل الصناعية - التى تنخفض فيها أو تنعدم تماماً درجة التخصص الاقتصادى - (أو تقسيم العمل)، يتشابه جميع أعضاء المجتمع فى الاتجاهات، والقيم، والمعايير. ولم تكن تلك المجتمعات بقادرة على التماسك والتضامن إلا بسبب هذا التجانس فقط (انظر مادة: التضامن الألى). وعلى النقيض من ذلك، تظهر فى المجتمع الصناعى - وبسبب ما يتوفر فيه من درجة عالية من التخصص - النزعة الفردية بوضوح، لأن الناس يعيشون حياتهم متميزة ويكتسبون خبرات متميزة. وبهذا الشكل يمكن لقيمهم واتجاهاتهم أن تتنوع وتختلف. ولهذا السبب يرى دوركايم أن الهوية الفردية ليست عنصراً أولياً، بل هى ثمرة للتنظيم الاقتصادى.

أما التحليل الذى قدمه جورج هربرت ميد (G.H. Mead) للنفس فيطرح مجموعة بديلة من المشكلات أمام الفكرة القائلة بوجود "أنا مستقلة". فالنفس عند ميد، تتكون

(*) انظر تعريفاً موجزاً له فى هامش مادة: الدور. (المراجع)

من خلال علاقاتها بالآخرين. إذ يميز ميد بين كلمة "أنا" (كضمير المتكلم بصفته فاعلاً) وكلمة "إيأى" "me" (كضمير المتكلم بصفته مفعولاً به أو متلقياً من الآخرين)، ذاهباً إلى أن هذه "الأنا" "أ" تمثل رد فعل هذا الكائن الحى إزاء اتجاهات الآخرين بينما تمثل كلمة "إيأى" "me" المجموعة المنظمة لاتجاهات الآخرين التى يسلمهم بها الفرد نفسه (ميد ١٩٣٤: ١٧٥). وهكذا تتداعى الأنا ego إلى أن تصير شيئاً لا يزيد إلا قليلاً عن كونه رد فعل لكائن حى. ومن ثم ترتكز النفس self ومن ثم الوعى بالنفس - على تلقى واستيعاب وجهات نظر الآخرين. لذلك لا يصبح الأنا "نواعياً بنفسه إلا بمقدار ما يستطيع تخيل صورته فى عيون الآخرين، وهى الصورة التى يبنى عليها رد فعله إزاءهم. لهذا يتوقف تطور النفس على الآخرين الذين تلتقى بهم هذه النفس.

ويشكل هذا الخط الفكرى أساساً من أسس الاتجاه التفاعلى الرمضى فى علم الاجتماع. وقد خطا إرفنج جوفمان (فى كتابه المنشور سنة ١٩٥٩) بهذه الأفكار خطوة أبعد. إذ يرى أن النفس هى محصلة لتفاعلات معينة، وذلك على أساس أن مدارك الفرد واتجاهاته وأساليب سلوكه تتغير (وربما كذلك أساليب تفكيره فى نفسه) كلما تغير الناس من حوله. معنى ذلك أن الفرد - بمعزل عن الآخرين - إما أن يكون غير واع بنفسه، وهكذا لا يكون لديه فى هذه اللحظة نفس، وإما أن يكون واعياً بنفسه، وذلك بمقدار ما يكون واعياً بالصورة التى يريد أن يظهر بها لمجموعة ما من الأفراد الآخرين. وعلى ذلك لا يكون للنفس حال ثابتة، وذلك لكونها فى حالة قريبة جداً من السيولة تشبه فيها النفس التى وردت فى تصورات هيوم.

ويثير التحليل النفسى مزيداً من الشكوك فى وجهة النظر التقليدية إلى الهوية، وفى رأى فرويد أن الهوية ترتكز على تمثّل الطفل لأشخاص محيطين به. ويتشكل بناء النفس من خلال العلاقة بين "الأنا" و"الهو" و"الأنا الأعلى". فعلى حين يعتبر "الهو" بمثابة الأساس الغريزى للنفس، يمثل "الأنا الأعلى" ذلك الوعى الأخلاقى الكابح الذى

يتم استدماجه فى النفس أثناء عملية النمو النفسى. أما "الهو" فتكون إما اتحاداً يضم كلاً من "الهو" و"الأنا الأعلى"، أو فاعلاً منفصلاً عن هذين العنصرين. ولعل التفسير الأخير يكون أكثر أهمية ودلالة فى هذا السياق المطروح، وذلك لأنه يرى أن الأنا ليس هو عين النفس.

وتقوم نظرية إريك إريكسون E.Erikson فى الدينامية النفسية على هذا التفسير، فالهوية عند إريكسون عملية تتم بين هوية الفرد وهوية ثقافة مجتمعه. وقد كان إريكسون هو الذى سك عبارة "أزمة الهوية" فى أربعينيات القرن العشرين. وكان هذا المصطلح يشير فى بادئ الأمر إلى شخص فقد الإحساس "بالتماثل الشخصى والاستمرارية التاريخية" (إريكسون ١٩٦٨: ٢٢) وبهذا الاعتبار، ينفصل هذا الفرد عن الثقافة التى تستطيع أن تهبه التماسك "النفسى" أو تهبه إحساسه بنفسه. ثم حدث فيما بعد، أن صار هذا المصطلح يستخدم لوصف مرحلة الشباب، كمرحلة من مراحل التطور النفسى لأى فرد.

وقد قام لاكان^(٥) - فى مشروعه لإعادة تفسير فرويد - بالتوسع فى دراسة الجوانب المثيرة للخلاف فى هوية النفس أو الذات، فالوعى بالنفس - عند لاكان - لا يظهر إلا فى مرحلة المرأة (والتي تقع بين الشهر السادس والشهر الثامن عشر من العمر تقريباً)، ففي هذه المرحلة يتعرف الطفل الوليد على تفكيره بوصفه انعكاساً

(٥) جاك لاكان Jacques Lacan (١٩٠٩-١٩٨٢) عالم تحليل نفسى وطبيب بشرى فرنسى. أعاد تفسير أعمال سيجموند فرويد على ضوء نظرية اللغويات البنيوية لصاحبها فريدان دى سوسير. ويرى لاكان أن اللاشعور شبيه باللغة لأنه يعمل من خلال استخدام الكناية والمجاز، أى بطريقة رمزية. وتشكل اللغة حسب رأى لاكان المعانى داخل الثقافة، على أن اللغة أيضاً قابلة للتغير الطفرى، وبالتالي فإن عملية التغير ليست فقط ممكنة وإنما هى حتمية، على كل من المستويين الشخصى والاجتماعى. وهكذا تساعد نظرية لاكان فى تصور إمكانية نمو الهوية والذاتية باعتبارهما يتشكلان اجتماعياً بدلاً من اعتبارهما يتحددان بيولوجياً. انظر المزيد فى موسوعة علم الاجتماع. مرجع سابق، ص ١٢٢٤-١٢٢٥. (المراجع)

لذاته، ويصير بهذا الشكل عارفاً بنفسه، ولا يتم له ذلك بطريقة مباشرة، بل من خلال صورة المرأة، وتظهر النفس في هذه المرحلة كبشير بتحقيق الضبط والتحكم "الذاتي" بعد ذلك في مواجهة التفاتت أو التشظى الذى يحدث عندما يُفصل الطفل عن أمه، ومع ذلك فإن هوية الطفل الذكر تعتمد - عند فرويد - على هوية الأم (أخذاً في الاعتبار ذلك التلاعب اللفظي بالصلات الموجودة بين كلمة "other" بمعنى "الآخر" وبين كلمة "mother" بمعنى "الأم" في اللغة الإنجليزية). ويدخل الطفل عالم اللغة من خلال القانون الذى يفرضه الأب عليه بقوله له "لا" التى تحرم عليه الاتصال الجنسي بالأم. فالطفل يرغب فى الأم لكى يستعيد توحده السابق معها. وهى رغبة فى عصيان الحظر الذى فرضه عليه أبوه، فوق أنها رغبة يتعين كبتها. وهكذا يستطيع لاكان أن يذهب إلى أن اللاشعور يتشكل كما تتشكل اللغة. ويوحى هذا الرأى - فى واقع الأمر - بأن الذات يتحدد موضعها عن طريق اللغة، بما معناه أن الذات يتحدد موضعها باعتبار أنها تقوم على الدوام بكبت حاجتها الخاصة إلى التوحد مع الأم.

ويقدم ألتوسير فى صياغته البنيوية للماركسية تصوراً موازياً للذات، وإن كان هذا التصور يعد الآن ثمرة للإيديولوجيا. فالمؤسسات الاجتماعية كالكنيسة، والنظام التعليمي، والشرطة، والعائلة ووسائل الاتصال الجماهيري تضع الذات دوماً محل المسألة أو تمطر الذات بوابل من تأثيراتها، وبذلك تقوم هذه المؤسسات بتحديد موضع الفرد - ذكراً كان أم أنثى - داخل المجتمع.

ولعل بالإمكان كذلك تفسير أعمال فوكو من خلال الأهمية المحورية لمسألة الهوية. ففي مؤلفه المبكر عن "الجنون" (١٩٧١)، يحلل كيف اختلفت النظرة إلى الجنون على امتداد العصور المختلفة (مقارناً، على سبيل المثال، نظرة الناس فى عصر النهضة الأوروبية للجنون باعتباره شكل العقل الخاص بهذا العصر، وكذلك نظرة الناس فى القرن السابع عشر الذى غلبت عليه العقلانية وهى النظرة التى ترى إقصاء المجانين

عن المجتمع). وعلى ذلك فإن الجنون يتم تفسيره وتحديدده وفقاً لنظرة المجتمع إليه، كما أن الأعراف الاجتماعية التي كانت تتغير بتغير العصور كانت تتولى فرض القيود عليه، ومع ذلك فالأمر الحاسم عند أبناء القرنين السابع عشر والثامن عشر، أن الجنون هو الآخر أيضاً، بالنسبة للعقلاء والراشدين الذين يعدون أنفسهم العقلاء وغيرهم المجانين. لهذا تعتمد هوية الجماعة المسيطرة في المجتمع على تعريفها لمن هم الآخرون في نظرها.

ويعود فوكو، في كتاباته بعد ذلك، إلى مشكلة تفسير "الذات" (خاصة في علاقتها بالسلوك الجنسي) من خلال تحديد موضعها داخل أشكال الخطاب (١٩٨١). وانطلاقاً من ذلك الموضع، يمكن أن ينظر إلى الذات وفقاً لما تعتمد عليه من إمكانيات مفاهيمية وغيرها من الإمكانيات الفكرية عندما تريد التعبير عن نفسها بالكتابة أو الكلام، ووفقاً للأسلوب الذي يتبعه الآخرون حيث يكتبون إليها، أو حين يكتبون عنها. وهكذا نرى أن الأسلوب الذي يتم به صياغة نص ما يتطلع إلى ذات معينة سوف تقرأه، ومن ثم يحدد لها موضعاً.

ومن الممكن كذلك أن نربط بين تشكك البنيوية وما بعد البنيوية في طبيعة هوية الذات، بالصورة التي وردت بها في أعمال لاكان، وألتوسير، وفوكو؛ وبين الجوانب السياسية للهوية. فالاعتراف بأن الهوية لا يمكن أن تكون قائمة بذاتها، وإنما تعتمد على طرف آخر، يفسح المجال الفكرى للجماعات المهمشة والمقهورة لتعترض على الهويات التي فرضت عليهم من قبل الجماعة المسيطرة، ولتعيد تشكيل هذه الهويات من جديد. وبذلك يتم الزج بالهويات العرقية، وهويات اللوطيين والسحاقيات، وهويات النساء عامة في غمار عملية من عمليات التغير السياسى. (انظر كذلك مادة: الذات/الأنثى). (AE)

Hegemony

الهيمنة

مصطلح "الهيمنة" مشتق من الكلمة الإغريقية Hegemon، التي تعني "القائد"، أو "المُرشد" أو "الحاكم". وفي الاستعمال العام له، يشير هذا المصطلح إلى السيطرة أو النفوذ الذي يمارسه بلد ما على بلاد أخرى، وفقاً لمبدأ تنتظم حوله مجموعة من العناصر. وفي نطاق ماركسية القرن العشرين، تم تطوير هذا المصطلح على يد المفكر الإيطالي أنطونيو جرامشي^(*)، لتفسير قيادة الطبقة المسيطرة في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة. وهو يذهب إلى أن هذه الطبقة المسيطرة لا يمكنها أن تحافظ على قيادتها للمجتمع من خلال استعمال العنف أو القوة فقط، إذ إن الحكم يجب أن يعتمد على توافق الآراء، وذلك بسبب ارتفاع شأن النقابات العمالية وغيرها من جماعات الضغط، ونظراً للتوسع في الحقوق المدنية (بما فيها حق التصويت في الانتخابات)، ونظراً لتحقيق مستويات عالية في مجال التعليم. لهذا يؤدي تعاطف المثقفين مع الطبقة الحاكمة إلى تقديم الأفكار والمبررات التي تسوغ سيطرة هذه الطبقة بصورة متماسكة ومقنعة. ويؤدي ذلك العمل إلى إثراء عملية تقديم هذه الأفكار من خلال بعض المؤسسات التي منها وسائل الاتصال الجماهيرية، والكنيسة،

(*) جرامشي، أنطونيو Gramsci, Antonio (١٨٩١-١٩٣٢) منظر ماركسي إيطالي شهير وناقد مرهوق للحتمية الاقتصادية. ترجع مكانته الرفيعة بين العلماء الاجتماعيين الماركسيين إلى مجموعة الكتابات التي تعرف الآن باسم مذكرات السجن (١٩٢٩-١٩٣٥ والتي حررت وترجمت إلى الإنجليزية عام ١٩٧١). ومن الموضوعات التي نوقشت في مذكرات السجن: المثقفون، والتعليم والتاريخ الإيطالي، والأحزاب السياسية، والفاشية والهيمنة والفورديّة. تلك هي الأفكار والمفاهيم التي جعلت جرامشي فارساً لا يشق له غبار في المناقشات والتطورات داخل العلم الاجتماعي الماركسي خلال السبعينيات؛ حيث استخدمها نيكوس بولانتزاس لتطوير أفكاره في علم الاجتماع السياسي؛ كما استخدمها آخرون عديون كجسر مفهومي يربط التراث الماركسي بتحليل الخطاب. ومن الكتب الجديدة التي تناقش حياته وأعماله وتعرض لأهم مفاهيماته وموضوعاته السوسيولوجية التي أشرنا إليها آنفاً، الذي كتبه جيمس جول بعنوان جرامشي (صدر عام ١٩٧٧). (المراجع)

والمدرسة، والأسرة. ومع ذلك فإنه لا يمكن فرض هذه الأفكار بالقوة على الطبقات الخاضعة خاصة، لأن هذا الفهم للسيطرة السياسية للطبقة المهيمنة يستلزم - ضمناً - تحقيق توافق الآراء العام. فالتبعية الحاكمة سوف يلزمها - من جهة - أن تقدم عدداً من التنازلات التي تحقق بها مصالح واحتياجات الطبقات الخاضعة. والطبقات الخاضعة - من جهة أخرى - لن تتقبل الهيمنة عليها بالوقوف منها موقفاً سلبياً. لهذا يتعين أن يقوم الجميع بالتفاوض حول الأفكار الخاصة بالطبقة المسيطرة وتحويلها من أجل جعلها ملائمة لما تعاشه الطبقات الخاضعة من خبرات يومية. (ولهذا السبب قد يتوفر لأفراد الطبقات الخاضعة نوع من الوعي المزيج - الوعي بمصالحها وبمصالح الطبقة الحاكمة. فهم سوف يجمعون في وقت واحد بين الإيمان بفئتين من المعتقدات متناقضتين أو غير متوافقتين، فئة منهما قائمة على الهيمنة، والفئة الثانية قائمة على خبراتهم اليومية).

وقد كانت نظرية الهيمنة ذات أهمية رئيسية في تطوير الدراسات الثقافية البريطانية (خاصة في الأعمال التي أنجزها مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة). فقد يسرت هذه النظرية تحليل الطرق التي تتبعها الجماعات الخاضعة في تجاوزها الفعال، وكذلك في مقاومتها الفعالة للسيطرة السياسية والاقتصادية. وبهذا الشكل لا تحتاج الطبقات الخاضعة إلى أن تبدو وكأنها نسخ مسلوقة لإرادة من الطبقة المسيطرة وإيديولوجيتها. (AE) للمزيد انظر: Bacoock (١٩٨٦) و Fontana (١٩٣٣) و Gramsci (١٩٧١) و Sassoon (١٩٨٧).

الواقعية

Realism

(١) فى مجال الأدب وعلم الجمال يشير مصطلح الواقعية إلى تلك الأساليب الخاصة بالعرض الفنى التى يفترض أنها تعمل من خلال نوع من المشابهة أو المحاكاة بين العمل الفنى وبين الموضوع الذى يصوره. ومن ثم فإن لوحة زيتية يرسمها الفنان فيرمير Vermeer أو رواية يكتبها ولتر سكوت W.Scott تبدوان فى ظاهر الأمر وكأنهما تقدمان صورة أو وصفاً لأحداث تشابه الكيفية التى نعيش بها تلك الأحداث فى الحياة الواقعية. فى مقابل ذلك نجد أن لوحة تعبيرية من أعمال الفنان مونك Munch تقدم فى أحسن الأحوال صورة محرفة للواقع.

وفى النقد الأدبى وعلم الجمال الماركسى، وضعت الواقعية فى مواجهة الحدائث، فضلاً عن حدوث جدل خطير حول أى هاتين النزعتين أشد اتصافاً بالتقدمية السياسية. فمن ناحية، قام جورج لوكاتش G. Lukacs بالدفاع عن الواقعية (فى أعمال بلزاك مثلاً) لقيامها بالتعبير عن مجمل الواقع الاجتماعى، أى مختلف القوى الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية التى تعمل وتؤثر تحت سطح الأحداث الاجتماعية التى تبدو فى ظاهرها أحداثاً عرضية طارئة. ومن ناحية أخرى، وجه مفكرو مدرسة فرانكفورت انتقاداتهم للواقعية بسبب إخفاقها فى التعمق فى الممارسات والأعراف التى تحكم إنتاج الصورة الفنية (فبدلاً من تعبيرها عن المجتمع كما هو عليه فى واقع الأمر، قامت بإعادة إنتاج صورة للمجتمع بعد أقلمتها وإضفاء الطابع الإيديولوجى عليها) (انظر بلوخ Bloch وآخرين ١٩٧٧).

وقد تشكل بعض الفلاسفة من غير الماركسيين، وأشهرهم نلسون جودمان N.Goodman (١٩٧٦) فى إمكانية التفرقة بين الأعمال الفنية أو الأدبية الواقعية وغير الواقعية. إذ يرى جودمان - من خلال ملاحظته لعدد من المشكلات المتصلة بالتفسير الدقيق لمعنى التشابه بين العمل الفنى والواقع ومكمن هذا التشابه (وشاهد ذلك لفته

النظر إلى أن اللوحة الزيتية تشبه لوحة زيتية أخرى إلى درجة أقرب مما تشبه به أى منهما الموضوع الذى تعبر عنه، وذلك رغم أنه من النادر أن تكون لوحة زيتية صورة للوحة زيتية أخرى) - يرى أن الواقعية فى حقيقة الأمر إنما تحكمها الأساليب والأعراف السائدة فى تفسير العمل الفنى، ومن ثم فهى نزعة مصطنعة إلى حد بعيد. وإن السبب الذى يجعل الأمر يختلط علينا عندما نظن أن العلاقة بين اللوحة الزيتية الواقعية وبين الموضوع الذى تعبر عنه علاقة مباشرة أو طبيعية، إنما يرجع إلى أننا تعلمنا هذه الأساليب التقليدية فى تفسير العمل الفنى وتثريناها إلى حد بعيد وفى مرحلة مبكرة من مراحل تطورها.

(٢) الواقعية فى الفلسفة عموماً، هى المذهب الذى يقول بوجود الأشياء مستقلة عن أى راصد أو باحث إنسانى لها أو عن أى وصف قد يقدم عنها. وكان دانتو Danto قد سبق أن أشار إلى أن الفلسفة إنما تظهر فى تلك الثقافات النادرة التى يكون من المعقول فيها أن يطرح السؤال القائل: "هل هذا الشيء حقيقى أو واقعى؟ ويسأل به عن الأشياء التى توجد فعلاً بصورة جلية ظاهرة (كالموائد مثلاً). والفلسفة، فى حقيقة الأمر، (وشأنها هنا شأن الفن، كما يرى دانتو) تستلزم ضمناً وجود ثقافة يكون من الممكن فيها وضع العالم "الواقعى" فى مقابل شيء غير واقعى (كأن يكون - مثلاً - صورة ذهنية، أو مظهرًا أو وهمًا، أو عرضًا تمثيليًا، أو انطباعًا حسياً، أو مفهوماً عقلياً) (دانتو ١٩٨١ ص ٧٨-٨٠). وعلى ذلك فقد أشك - مثلاً - فى حقيقة وجود هذه المائدة، وذلك إن كان بوسعى الادعاء بأنه لا يتوافر لى برهان مباشر على وجودها، فيما عدا تلك المعطيات أو المعلومات الحسية التى أستقيها من رؤية هذه المائدة أو شم رائحتها أو لمسها. وعلى ذلك، فإذا كنت أخذًا بهذا التصور أو التفكير، فقد أذهب إلى أن تلك المعلومات الحسية هى وحدها الواقعية، وليست المائدة.

وفى فلسفة العلوم - على وجه التحديد - أصبحت الواقعية تشير إلى وصف للعلم يفترض أيضاً أن الموضوعات التى يتناولها البحث العلمى توجد مستقلة عن عملية

البحث العلمى نفسها، ومن ثم فإن هذا الوصف يذهب إلى أن العلم يتقدم عن طريق بنائه للنماذج النظرية لموضوعات البحث المذكورة. وعلى الرغم من أن موضوع البحث قد يكون فى حد ذاته مما لا يمكن رؤيته أو ملاحظته (كما هو الحال مع الذرات والجزيئات مثلاً)، فإن النموذج النظرى سوف يسمح بالتنبؤ بالأحداث التى يمكن رؤيتها أو ملاحظتها. ويمكن للعلماء تنقيح هذا النموذج النظرى، بحيث يزداد دقة فى تمثيله للواقع، ويتم ذلك فى ضوء البرهان التجريبى المستقى من التجربة العلمية. (انظر كذلك: العقل). (AE) للمزيد انظر: Bhaskar (١٩٧٥) و Chalmers (١٩٨٢) و Harré (١٩٧٠).

وسائل الاتصال الجماهيرى Mass Media

وسائل الاتصال الجماهيرى هى تلك المؤسسات التى تقوم بإنتاج وتوزيع المعلومات والصور البصرية والسمعية على نطاق واسع. ومن الناحية التاريخية، تعود نشأة وسائل الاتصال الجماهيرى إلى عهد اختراع آلة الطباعة، ومن ثم فإنها تبدأ فى الغرب منذ قام يوهان جوتنبرج J. Gutenberg بالاستغلال التجارى لصناعة الطباعة حوالى سنة ١٤٥٠ وقد كانت أوائل ثمرات آلات الطباعة من الكتب الدينية والأدبية، جنباً إلى جنب الكتابات الطبية والقانونية. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر بدأت الدوريات والصحف فى الظهور بصفة منتظمة. ثم أدت عملية التصنيع إلى مزيد من التوسع فى صناعة الكتاب وصناعة الصحافة خلال القرن التاسع عشر. وشهد القرن العشرون إدخال وسائل الاتصال الإلكترونية (وهى السيغما والإذاعة، والتليفزيون) والانتشار السريع لها، وذلك إلى الحد الذى أصبحت فيه عنصراً مهيماً من عناصر معايشة الحياة اليومية وتنظيمها.

وقد بدأت أولى المحاولات البارزة لصياغة نظرية فكرية لوسائل الاتصال الجماهيرى فى القرن العشرين داخل الإطار العام لنظرية المجتمع الجماهيرى. ولأن

هذه النظرية قد تم تطويرها أساساً فى الربع الثانى من القرن العشرين كرد فعل لظهور النازية والفاشية ولغير ذلك من الاعتبارات، نجد أنها كانت تمثل - بطريقة نموذجية - المجتمع الصناعى أثناء تفككه إلى جماهير من البشر متشابهة الملامح فى نزعاتها، وتفتقد الرشد، وتحركها الانفعالات والعواطف، بعد أن تقطعت أواصرها بالتراث، وباتت تفتقر إلى أى حساسية مرفهة للقيم الجمالية أو الأخلاقية. ومن ثم أصبح يُعتقد أن وسائل التسلية تمثل أدوات أساسية لازمة لخلق هذه الجماهير، وذلك تحديداً بقدر النظر إلى هذه الوسائل بوصفها تخاطب فى الذوق الشعبى عناصره البالغة الهبوط (وتختزل - بذلك - كل ما فيها من مضمون إلى أن يصل إلى مستوى مبتذل يكاد يهوى إلى أقصى درجات الانحطاط) فى مسعاها لاكتساب عدد كبير من جماهير القراء والمشاهدين والمستمعين. وبذلك تساعد وسائل الاتصال هذه على إضعاف مكانة التميز التراثى والتميز الثقافى المحلى، كما أنها تساعد عن طريق ما يتصف به مضمونها من طبيعة انفعالية على كبح الاستجابات الرشيدة للرسائل التى تقدمها. ويتم استكمال دور وسائل التسلية عن طريق الإرسال الإذاعى، باعتبار أنه يمثل بالذات أحد أدوات الدعاية السياسية، أو باعتباره يمثل - إن أردنا مزيداً من الدقة - أحد الأنواع الجوهرية المعاصرة للإيديولوجيا فى الماركسية. لذلك قد يرى البعض أن نظرية المجتمع الجماهيرى تنسب لوسائل الاتصال قوة هائلة، وترتيباً على ذلك تصور جماهير وسائل الاتصال على أنهم ضحايا سلبيون - بدرجة أو بأخرى - للرسائل التى تفرض عليهم بالخداع والإيهام. ويميل البحث الإمبيريقى الذى تشجعه هذه النظرية - وأعنى به البحث الذى يركز على النتائج والآثار الواقعية - يميل إلى تقصى النتائج الضارة التى تحدثها وسائل الاتصال المذكورة، سواء على الصعيد السياسى (حيث تقوم هذه الوسائل بكتب الديمقراطية وتعويقها)، أو من الناحية الأخلاقية (حيث تقوم هذه الوسائل - مثلاً - بتشجيع العنف). ومن المفارقات أن هذا التسليم بما لوسائل الاتصال الجماهيرى من نفوذ هائل جاء فى صالحها، وذلك لأنه بات يدل ضمناً على أنها تمثل أداة قوية وفعالة من أدوات الإعلان.

وقد ظهر فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية اتجاه فكرى فى مجال البحوث التى تعالج وسائل الاتصال الجماهيرى يتسم بالدقة والبراعة، وذلك فى إطار النزعة الوظيفية فى علم الاجتماع، ويعرف باسم "الاستخدامات والإشباعات". وتنسب البحوث التى أجريت فى إطاره قدراً كبيراً من الفعالية والتنوع لأفراد الجمهور، وذلك نظراً لما هو مفترض فيهم من شعور ذاتى بعدد من الاحتياجات، زرعها فيهم بينتهم الاجتماعية والمادية، وتستطيع وسائل الاتصال الجماهيرى هذه أن تحققها لهم. ومن الوظائف الرئيسية التى تؤديها هذه الوسائل:

١- تنمية نزعة التهرب من متاعب الواقع لدى جمهورها (نظراً لأن شدة انشغال الجمهور بهذه الوسائل تسمح له بنوع من الانسحاب المشروع من ضغوط الحياة العادية).

٢- وترسيخ دعائم أنماط من العلاقات الشخصية (بما تتضمنه هذه الوظيفة من استعمال "الجمهور" لبرامج وسائل الاتصال كملتقى تدور حوله المناقشات وغيرها من صور التفاعل الاجتماعى).

٣- وتشكيل الهوية الشخصية (وهى الوظيفة التى بسببها يعتقد أن القيم التى تعبر عنها هذه البرامج إنما تعزز قيم المرء الشخصية).

وفى خمسينيات القرن العشرين، ظهرت مدرسة كندية فى مجال نظرية الميديا، تجسدها أساساً الأعمال التى كتبها هارولد إينيس H. Innis ومارشال ماكluhan M. McLuhan. وتمثل الفكرة الرئيسية لهذه المدرسة فى وجود رابطة سببية بين الشكل السائد للاتصال فى مجتمع ما وتنظيم هذا المجتمع. لذلك، قام إينيس (فى كتابيه الصادرين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٥١) بالتمييز بين "وسائل الاتصال المتحيزة للزمان" و"وسائل الاتصال المتحيزة للمكان". والنوع الأول من هذه الوسائل - كقطع الصلصال

أو قطع الحجارة - ليس من السهل نقلها ولكنها متينة وتدوم طويلاً، ومن ثم فإنها تؤدي إلى استقرار بعض الظواهر الاجتماعية، التي تركز على إعادة إنتاج التراث على امتداد فترات متطاولة من الزمان. أما النوع الثاني من وسائل الاتصال (كالورق مثلاً)، فيكون أقل متانة ودواماً من سابقتها، لكنه من السهل نقلها من مكان لآخر. لذلك فإن بإمكانها أن تعزز من انتشار السلطة الحكومية والسياسية على امتداد مناطق وأقاليم كبيرة.

أما مالكوها فقد ذهب (١٩٩٤) إلى أن تطور تكنولوجيا وسائل الإعلام الحديثة يؤثر تأثيراً جوهرياً على الإدراك عند الإنسان. فقد أدت الطباعة إلى إحداث مقدار كبير من تجزئة المدارك الإنسانية وتخصصها، وذلك عندما سيطرت الصفحة المطبوعة على الاتصال (في مقابل الاتصال الشفوي الذي كان مسيطرًا من قبل). وبذلك صار البصر عاملاً مسيطرًا، لكنه يتعامل مع المعلومات المعروضة في شكل خطي، وموحد، وقابل للتكرار إلى ما لا نهاية. وبهذا الشكل يصبح الفكر موحدًا وتحليليًا. وتؤدي الطباعة كذلك إلى غلبة المزاج الفردي، وذلك لأن القراءة أصبحت صامتة ويمارسها المرء بمعزل عن غيره. وتتعرض ثقافة الطباعة - التي هي في نظر مالكوها كما هي في نظر إينيس ثقافة متحيزة للمكان - تتعرض للتحدى من قبل وسائل الاتصال الإلكترونية. إذ أدت وسائل الاتصال الإلكترونية - بتكاثرها وحضورها الدائم - إلى إلغاء اعتبارات المكان والزمان. ولأن وسائل الاتصال تواجهنا دائماً لم نعد في حاجة للبحث عنها. وبالمثل لم يعد فعل القراءة أو استخدام وسائل الاتصال المختلفة، لم يعد مقصوراً على فترات معينة من ساعات اليوم. وأصبحت المعلومات المستقاة من بقاع مختلفة من العالم، بل والمستقاة من فترات مختلفة من التاريخ، متوافرة جنباً إلى جنب في صحيفة واحدة أو برنامج سهرة تليفزيوني. وعلى ذلك أصبحت العصرية لوسائل الاتصال تمثل شكلاً من أشكال النقل المستمر للمعلومات في إطار الزمان والمكان،

والذى يقضى إلى الوصول إلى ما أطلق عليه ماكلوهان مصطلح "القرية الكونية". ومع أن أفكار ماكلوهان قد فقدت بريقها فى سبعينيات القرن العشرين، فإنها تحمل - الآن - وجه شبه بفكر ما بعد الحداثة القريب العهد بأيامنا.

وفى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين ظهر لنظرية الميديا (وسائل الاتصال) صياغات جديدة، جاء الكثير منها بسبب الاهتمام المتزايد بهذه الوسائل، وخاصة **التليفزيون**. ومن بين هذه الصياغات يمكن تمييز صيغتين تقعان على طرفى نقيض من بعضهما. فمن جانب تهتم إحدهما بالأساس المادى الذى يحدد شكل المنتج الثقافى قبل إنتاجه. ذلك أن الاقتصاد السياسى لوسائل الاتصال يركز على البنى المؤسسية التى يقوم عليها المنتج الذى تقدمه وسائل الاتصال (ومن ثم تؤثر على محتويات هذا المنتج وتوجهاته القيمة). شاهد ذلك، أن ميردوك Murdock وجولدنج (١٩٧٧) قاما بالفحص الدقيق لنظم المشاركة فى ملكية وإدارة وسائل الاتصال، التى تربط بين منظمات وسائل الاتصال الموجودة داخل النظام الرأسمالى المتعدد القوميات.

فى مقابل ذلك، تولى الصياغة الثانية أهمية كبيرة للمحتوى الذى تبثه وسائل الاتصال بوصفه مجموعة من النصوص، فى حاجة إلى التفسير والإيضاح. وقد أدى التأثير المتنامى للسيميوطيقا أو علم العلامات إلى نوع من إعادة التقييم الجذرية للدور الذى يقوم به جمهور وسائل الاتصال، فلم يعد أفراد هذا الجمهور مجرد ضحايا لوسائل الاتصال هذه، بل أصبح ينظر إليهم على أنهم يشاركون بصورة فعالة فيما تقدمه وسائل الاتصال من أعمال، كما يقومون بتفسير هذه الأعمال على وجوه متعددة قد تتناقض مع ما يغلب على أصحابها من مقاصد وأهداف إيديولوجية. وفى هذا الصدد، تعتبر الأعمال التى أصدرها مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة وكلية ستوارت Stuart Hall أعمالاً ذات أهمية بالغة. ويفضل هذه الأعمال بدا جلياً أن الدراسات الثقافية وكأنها تعطى قدراً من الاهتمام بصياغة نظرية شاملة لوسائل

الاتصال فى ذاتها، أقل مما تعطيه لتطوير الأفكار النظرية والتفسيرات المحددة لهذه الوسيلة أو تلك من وسائل الاتصال (كالتليفزيون، والموسيقى الشعبية الجماهيرية، بل وجهاز الوكمان الذى تنتجه شركة سونى).

ويطرح يورجن هابرماس (١٩٨٩/أ) وجان بودريار تصورين محددين، وإن كانا يتصفان بصفة العمومية، يتناولان موقع وسائل الاتصال الجماهيرى من المجتمع المعاصر فيما يعايشه من خبرات وما يمر به من تطورات. ويركز تصور هابرماس على فكرة "المجال العام". وقد ظهرت الفكرة البورجوازية عن المجال العام فى أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك بوصفها نوعاً من التأمل الذاتى والتفكير النقدى فى موضوع الدولة، الذى بدأ أول الأمر يدور فى المقاهى والصالونات الأدبية، ثم استمر من خلال الكتيبات والمجلات والصحف. ومع أن هذا المجال العام كان- فى واقع الأمر- محدود النطاق، حيث كانت المشاركة فيه تقتصر على الرجال الموسرين من الطبقة البورجوازية، المشهود لهم برجاجة العقل، فإن هابرماس يعثر فى هذا المجال من النشاط على شكل من أشكال الانتفاع الحر المتاح للكافة - ومن ثم الديموقراطى - بالعقل العام. ويعتقد فى أيامنا هذه أن وسائل الاتصال الجماهيرى الإلكترونية ذات تأثير مركب وجدلى على هذا المجال العام. ولاشك أن الأساليب الفنية للإنتاج الحديث فى مجال الميديا تستطيع أن توفر- على نطاق واسع- المواد الإعلامية التى تتسم بالتعقيد والتوجه النقدى وذات المواصفات الثقافية المرتفعة. من ناحية أخرى أصبح الاستهلاك الثقافى- فى واقع الأمر- فى أيدي المؤسسات الخاصة باضطراد، كما بات مسألة شخصية، الأمر الذى قوض فكرة المجال العام، كما أصبح خاضعاً لسيطرة المادة الإعلامية ذات المستوى الهابط، والمعدة لإرضاء الجماهير. وفى مجال السياسة، أدى هذا الوضع إلى أن أخذ مستوى النقاش السياسى والبنية السياسية يهبط باضطراد، إلى أن صارت أمور السياسة تدار بطريقة مسرحية.

ويفهم بودريار (١٩٩٠/ب، ١٩٩٠/ج، ١٩٩٢) النظام الرأسمالي المعاصر في ضوء التبادل الرمزي (بوصفه صورة مضادة للتبادل الاقتصادي البحت). فأصبح العالم المعاصر تحكمه العلامات، والصور، والتصورات الذهنية، إلى الدرجة التي تزول معها التفرقة بين العلامة والشيء الذي تشير إليه أي العالم الواقعي (حتى إن المرء لم يعد يستطيع بعد أن يتحدث عما لدى الناس من احتياجات أو اهتمامات حقيقية مثلاً). وتعد الميديا (والتلفزيون خاصة) من الوسائل الرئيسية لإنتاج هذه العلامات وتبادلها، كما أن طبيعة انشغال الجماهير بهذه العلامات هي المسألة التي يهتم بودريار بدراستها، وهو في سبيله لصياغة الخطوط العريضة لنظرية تشاؤمية عن تأثير وسائل الاتصال الجماهيري على المجتمع الديمقراطي.

فمستهلك المواد الإعلامية- في نظر بودريار- هو صورة نموذجية لشخص كسول مستلق على أريكته أمام شاشة التلفزيون ينتقل بسرعة بين قنواته. والتلفزيون- من جهة- يحول العالم إلى أجزاء صغيرة قابلة للاستهلاك، مع أنه يضطلع بهذا العمل ضمن غيره من وسائل الاتصال الجماهيري التي تقدم من المعلومات أكثر كثيراً مما يستطيع المرء استيعابه وإدراكه، حتى إن التلفزيون لا يجتذب من المشاهدين إلا الجانب السطحي من رغبته في حب الاستطلاع والتلهي بها. من جهة أخرى تقضي الميديا على المجال الخاص للفرد تماماً، لأنه رغم أن التعامل معها يتم بشكل شخصي خاص عادة، فإنها تقتحم من أوقاتنا أشد اللحظات خصوصية فتجعلها لحظات مشتركة أو عامة. ولم يعد يوجد شيء له حرمة لا تمس، كما أن ما تتصف به الميديا من تغطية فورية ومباشرة للأحداث والآراء يحول بين الفرد وبين التفكير النقدي. لذلك فإن ما تقوم به هذه الوسائل من استطلاع آراء الناس، مثلاً، لا يستطيع أن يجتذب إليه جمهوراً حقيقياً. فوسائل الاتصال الجماهيري لا تتحكم في هذا الجمهور، لأن هذا الجمهور لم يعد له وجود (كما أن التمييز بين العام والخاص لم يعد له وجود). وأصبح

التعبير عن الرأى السياسى يختزل إلى نوع من الاختيار بين نعم أو لا ، وهو اختيار يشبه ما يقوم به المرء من قبوله أو رفضه لسلعة ما فى سوبر ماركت، أو لفيلم فى إحدى دور السينما . من هنا تكمن المقاومة- عند بودريار- فى رفض المشاركة أصلاً فى هذا النظام. (AE) للمزيد انظر: Giner (١٩٧٦) و McQuail (١٩٩٤) و Stevenson (١٩٩٥).

Means of Production

وسائل الإنتاج

فى الماركسية يشير مصطلح "وسائل الإنتاج" إلى جميع الموارد المادية المستخدمة فى الإنتاج. وتخضع التقسيمات الطبقيّة الكبرى فى أى مجتمع للاعتبارات المتصلة بملكية وسائل الإنتاج والسيطرة عليها، أو المتصلة بفقدان هذه الملكية والسيطرة. وعلى ذلك، ففى النظام الرأسمالى، تملك الطبقة البورجوازية المصانع، والمواد الخام وغيرها من الموارد الإنتاجية، وتستطيع أن تسيطر على ما يتم إنتاجه، وعلى التصرف فيه. أما طبقة البروليتاريا الخاضعة، فإنها لا تملك إلا قدرتها على العمل، وهى القدرة التى تتبعها للرأسمالى البورجوازي. (AE) للمزيد انظر: Cutler et al (١٩٧٧).

Mediation

الوساطة / التشكيل

أولاً: يمكن لمصطلح Mediation أن يكون له معنيان مختلفان تماماً. فعند أبسط مستويات هذا المصطلح، وأقرب مستوياته من الاستعمال الشائع فى الإنجليزية، يشير إلى أى شئ يكون بين شيئين آخرين. لهذا، فإن مصطلح Mediation يشير، فى مجال دراسة وسائل الاتصال الجماهيرى، إلى أى شئ (أو أى شخص) ينقل رسالة ما إلى الجمهور. فالمراسل الصحفى أو مذيع الأخبار يكون واسطة بين الحدث الذى يتناوله

وبين الجمهور، أو يكون الصحفي محرر الحوادث والجرائم واسطة بين الجمهور وبين ما استقاه من الشرطة أو عرفه عن الجريمة.

ثانياً: أما في الفلسفة الألمانية (وكما نعثر عليه - مثلاً- في مدرسة فرانكفورت وغيرها من أشكال الماركسية)، فإن مصطلح Mediation يتخذ معنى فنياً أكثر تخصصاً، أقرب إلى معنى "التشكيل" Construction. وعلى ذلك، فإذا قيل، في الماركسية، إن الذات تتشكل بفعل أو بواسطة الموضوع، فمعناه أن الذات الإنسانية - أى الفرد أو الكائن الإنسانى - يتم خلقه أو تركيبه بصورة جوهرية بواسطة القوى الموضوعية سواء كانت تلك القوى متمثلة فى القوانين البيولوجية - أو فيما هى أرجح منها وأقرب للواقع - وهى القوة القاهرة التى تتصف بها الضغوط الاجتماعية، وأن هذه القوى الاجتماعية هى التى تمارس تأثيرها عليه. وبالمثل، فإن فهمنا الذاتى للعالم الاجتماعى إنما تتم صياغته وتشكيله عن طريق الأطر الإيديولوجية والثقافية؛ فهذه الأطر تشكل خبرتنا وإدراكنا (AE).

Labelling

الوصم

مفهوم الوصم أداة هامة من أدوات الكشف والإيضاح فى ميدان دراسة الانحراف. وكان لمرت Lemert أول من طرح هذا المفهوم (١٩٥١)، ولكنه أصبح أشد ارتباطاً بأعمال هوارد بكر H. Becker (١٩٦٣)، وهو الآن من المفاهيم الأساسية فى التفاعلية الرمزية. ويذهب هذا المفهوم إلى أن الفرد لا يصبح منحرفاً بمجرد خرقه لأحد المعايير السلوكية (كالقانون مثلاً). بل الأحرى أن "وصفه بأنه منحرف" إنما يعتبر نوعاً من الوصم الذى يوصم به ذلك الفرد. وإذا قام فرد - لأول مرة - بانتهاك قاعدة سلوكية متفق عليها من الجميع، فإن عمله هذا لا يكتسب دلالة إلا إذا قوبل برد فعل

من جانب الآخرين. وينظر إلى الكائنات الإنسانية، بمقتضى هذا المفهوم، على أنها إنما تقوم بتشكيل هويتها الشخصية أو فهمها لأنفسها من خلال التفاعل مع الآخرين. وعلى ذلك، فإذا نظر الآخرون إلى أفعال المرء نظرة سلبية، وتكلموا معك ووصفوا أفعالك بهذه اللغة السلبية وبطريقة حاسمة، فإنك حينئذ سوف تبدأ فى التفكير فى نفسك على هذا الأساس ووفقاً لهذه التعبيرات. وبهذا الشكل فإن هويتك الشخصية سوف تتشكل من خلال هذه التعبيرات. وهكذا، فإن النعوت أو الوصمات التى تطلق على بعض الأفراد، مثل قولهم: مدمن أو متعاطى مخدرات، أو مجنون أو مريض عقلياً، أو سفاح، أو متحرش بالأطفال لا تعد نوعاً أو صفات حيادية. بل إنها تتضمن فى ذاتها نوعاً من النقد والإدانة لذلك النوع من الأشخاص الذين تصفهم.

وبقيام الفرد بدمج هذه الوصمات فى هويته الذاتية، فإنه يتعلم كيف يعيش ويتصرف بطريقة مختلفة. وعلى سبيل المثال، قام جوفمان (١٩٦١) بتحليل العمليات التى عن طريقها يتعلم النزلاء الجدد فى المصحات العقلية كيف يتصرفون كمرضى عقليين. وقد يعزل المنحرفون عن المجتمع "السوى" فيتحولون بذلك إلى مرافقة المنحرفين الآخرين. ثم إن الآخرين الذين يلتقى بهم الفرد بصورة متكررة رتيبة، والذين يكونون - لهذا السبب - مسئولين عن تشكيل الهوية الذاتية للفرد، يتعرضون هم أنفسهم أيضاً للتغير. ويترتب على ذلك أن يصير بالإمكان "تضخيم" سلوك مخالف للمعايير بدرجة بسيطة نسبياً (مثل تدخين السجائر المحتوية على الحشيش)، حتى يتحول إلى شكل بالغ الخطورة من أشكال الانحراف (مثل تعاطى المخدرات شديدة المفعول). ويحدث ذلك أثناء انتقال الشخص المنحرف من معايير السلوك واللغة المعهودة فى المجتمع "السوى"، إلى تلك المعايير المعهودة فى الثقافات الفرعية "للمنحرفين". وقد يضاف إلى ذلك أن العملية التى عن طريقها يتم إعادة بناء الهوية الذاتية للفرد ليست عملية آلية، فقد تتعرض عملية فرض إحدى الوصمات للمقاومة. ذلك أن هؤلاء الذين لديهم

----- (و) -----

إمكانات اقتصادية كبيرة أو إمكانات عقلية وتعليمية كبيرة يكون لديهم قدر أكبر من القوة الكافية لمقاومة وصمهم بأحد هذه الوصمات (كأن يكون لديهم، مثلاً، الإمكانات التي توفر لهم أن يدافعوا عن أنفسهم في المحكمة بصورة أكثر كفاية). (AE) للمزيد انظر: Fine (١٩٧٧) و Gove (١٩٨٠).

Stigma الوصمة

هي صفة ذات ملمح ثقافي تستعمل لتمييز شخص وتشويه سمعته. وقد تكون الوصمة بدنية (كالعاهة الجسدية)، أو سلوكية (كبعض التفضيلات الجنسية)، أو اجتماعية (بمعنى الانتساب إلى جماعة معينة). وتستخدم عملية تحديد الوصمة أو إثباتها في اختزال هذا الشخص من كيان كلي مكتمل ومعدّد التركيب إلى صفة وحيدة ملوثة ومحتقرة، تبنى عليها كل أشكال التفاعل الاجتماعي مع هذا الشخص. (انظر كذلك مادة: الصورة النمطية). للمزيد انظر: Goffman (١٩٦٣) و Page (١٩٨٤).

Positivism الوضعية

نظرية في المعرفة تؤكد أن ما ينبغي اعتباره معرفة مقصور على ما يمكن إثباته من خلال طرق الملاحظة المستمدة من ذلك المثل الذي تقدمه العلوم الطبيعية. وهكذا يؤمن المفكرون الوضعيون أن ما يعد معرفة إنما هو أمر من أمور الخبرة الحسية فحسب، وبالإمكان الرجوع بالجنود الأولى للنزعة الوضعية إلى كتابات أوجست كونت(*)، مع

(*) كونت، أوجست Comte, Auguste (١٧٩٨-١٨٥٧) عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن، أكد ضرورة بناء النظريات العلمية على الملاحظة، لكن كتاباته كانت على جانب عظيم من التأمل الفلسفي، ويعد مؤسس الفلسفة الوضعية. ويرى أن تاريخ البشرية =

أن فيلسوف القرن السابع عشر فرانسيس بيكون^(*) (الذى طرح تصوراً للمعرفة فى كتابه بعنوان الآلة الجديدة أو الأورجانون الجديد (١٦٢٠) أكد فيه أهمية الملاحظة الإمبريقية) قد يستشهد بأرائه فيما يتصل بالنزعة الوضعية.

وفى القرن العشرين قام عدد من المفكرين بالدعوة إلى ما أطلق عليه اصطلاحاً "الوضعية المنطقية"، وهو اتجاه فكرى مستمد من الكتابات الأولى للودفيش فتنجشتين، وكذلك كتابات برتراند راسل وجوتلوب فريجه. وكثيراً ما ينظر إلى كتاب إير^(**)،

= ينقسم إلى ثلاث مراحل من التقدم الشامل، هى المرحلة الدينية والمرحلة الميتافيزيقية، ثم المرحلة العلمية. قدم مقترحات على جانب كبير من التعقيد لإقامة دولة وضعية تقوم على صفوة من علماء الاجتماع لإدارة المجتمع وتوجيهه. وفى وقتنا هذا لم تعد أفكار كونت تلاقى إلا القليل من القبول، لكنه أعطى المناقشات التى أدت إلى ظهور علم الاجتماع الحديث الذقعة التى حركتها. ومن أهم أعماله كتاب "الفلسفة الوضعية" الذى ظهر لأول مرة فى ستة أجزاء (١٨٣٠-١٨٤٢). (المراجع)

(*) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: اليوتوبيا. (المراجع)

(**) إير، ألفريد جولز J. Ayer, (١٩١٠-١٩٩٣) الزميل بالأكاديمية البريطانية، ولد فى لندن، وتلقى تعليمه فى إيتون واكسفورد حيث شغل فيما بعد مناصب أكاديمية. أصاب إير الشهرة فى سن مبكرة بوصفه مؤلف كتاب "اللغة والصدق والمنطق" (١٩٣٦)، وهو مؤلف قد كان له أثر كبير فى جعل العالم الناطق بالإنجليزية على إلف بفلسفة الوضعية المنطقية؛ ولما كان الكتاب يقوم على معرفة مباشرة بجماعة قميئنا، فهو يعد من أوضاع المؤلفات وأصريحها التى تعرض هذا الموضوع فى أية لغة من اللغات، يضاف إلى ذلك أنه يمثل من بعض النواحي تركيباً يؤلف بين الاتجاهات التجريبية فى بريطانيا من ناحية وفى القارة الأوروبية من ناحية أخرى. ويتفق إير مع هذه الأخيرة فى رفض الميتافيزيقا وقصر الفلسفة على التحليل، لكن تصوره للمنهج التحليلي - وهو ترجمة التعبيرات المشككة إلى لغة اصطلاحية أكثر وضوحاً من الناحية المنطقية - لا يختلف كثيراً عن تصور مدرسة كيمبريدج. هذه النزعة الظاهرية القوية يعرضها إير باعتبارها حقيقة قد عنت من قبل ليباركلى وهيوم فى كتاباتها. وقد خصص إير الجانب الأكبر من مؤلفاته التى ظهرت بعدئذ لتقوية موقفه فى ضوء النقد الذى وجه إليه عقب صدور كتابه. وهو فى هذه المؤلفات ما يفتأ يشن الهجوم مرة بعد مرة على نفس المشكلات المعرفية (أى المتعلقة بنظرية المعرفة) وينفس الأسلحة إلى حد كبير، لكننا نلمس فيها أنه أقل استعداداً مما مضى لأن يدعى النهائية لتنتائج: فما يزعمه الإدراك الفطري لنفسه من القدرة على معرفة العالم الخارجى ومعرفة الماضى ومعرفة الذات ومعرفة الأشخاص الآخرين، وضع فى مؤلفاته هذه موضع التمهيص لا تردد - إلى أصولها أو لترفض، ولكن لتجلية المسوغات المنطقية التى تسوغ لنا التسليم بها. (المراجع)

----- (و) -----

بعنوان "اللغة، والحقيقة، والمنطق" بوصفه أبرز الأعمال التى عبرت عن المعتقدات الأساسية للوضعية المنطقية. وقد ذهب أير فى هذا الكتاب إلى أن بالإمكان وصف جميع القضايا بأنها إما صحيحة أو زائفة أو لا معنى لها. وبتعبير آخر يرى أير أنه إذا لم تؤكد قضية ما شيئاً يمكن - من حيث المبدأ - إثباته أو نفيه عن طريق الملاحظة التى تجرى وفقاً لمقاييس التحقيق العلمى فإنها تكون قضية خالية من المعنى. وقد كانت هذه المحاولة التى بذلت لتوضيح معنى القضايا أو الجمل تمثل - بمقتضى تلك الشروط - محاولة من نوع "توضيح الأساس" داخل نطاق الفلسفة، حيث ساد الاعتقاد من قبل بأن كثيراً من القضايا (كتلك المتعلقة بمسائل الدين والميتافيزيقا) تعد فى الواقع خالية من المعنى.

وقد ظهر نقاد كثيرون انتقدوا النزعة الوضعية، منهم توماس كون، وكواين W.Quine، وكارل بوبر(٥)، وماكس هوركهايمر أحد مفكرى مدرسة فرانكفورت. ويذهب هوركهايمر فى هجومه على الوضعية، ضمن أوجه نقد كثيرة أخرى، إلى أن المناهج التى يتم استعارتها من العلوم الطبيعية لا يمكن اعتبارها المعيار الوحيد للمعرفة، وذلك لأن الوضعيين يتجاهلون الحقيقة المتمثلة فى أن المجال الاجتماعى والثقافى الذى تطبق فيه أساليب البحث والتحقيق العلمى الدقيق يمثل عاملاً جوهرياً من عوامل تكوين المعرفة. وقيام الوضعيين باختزال مصطلح "المعرفة" إلى أن صار مساوياً "للمنهج" - كما يقول هوركهايمر - يعنى أنهم يفهمون المعرفة وفقاً للمبادئ التى تأخذ بها إحدى الفلسفات الزرائعية التى تحكمها الاعتبارات الاجتماعية (والزرائعية نظرية ترى أن المعرفة أمر يتصل بالوسائل المناسبة لتحقيق غرض معين). ويعكس ذلك ميل الثقافة الصناعية الحديثة إلى التخلي عن التأمل النقدى، بسبب ما تتسم به تلك الثقافة من

(٥) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: النموذج النظرى. (المراجع)

طبيعة خاصة وتكوين خاص. (PS) للمزيد انظر: Ayer (١٩٥٩، ١٩٦٧) و Hauffling (١٩٨١) و Horkheimer (١٩٩٢).

Functionalism

الوظيفية

ظلت الوظيفة تمثل النموذج النظرى المسيطر فى ميدانى الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع على امتداد النصف الأول من القرن العشرين. وتحاول الوظيفية - فى جوهرها - أن تفسر أى نظام أو مؤسسة اجتماعية أو ثقافية فى ضوء النتائج التى يحدثها هذا النظام أو هذه المؤسسة بعينها على المجتمع ككل. (لذلك تعد الوظيفية بديلاً للتفسيرات التاريخية لظهور النظم أو لظهور المجتمعات). ويذهب التفسير الوظيفى إلى التسليم بأن جميع النظم الاجتماعية والثقافية تساهم - نموذجياً - فى الحفاظ على استقرار المجتمع، ومن ثم فإنها تساهم فى إعادة إنتاج المجتمع عبر الأجيال. ويفترض فى المجتمع، وفقاً لما هو مألوف من مناظرته بالكائن الحى، أنه يتصف بصفة الاتزان البدنى، وهى الصفة التى تعنى أن مختلف أجزاء المجتمع تعمل للحفاظ على المجتمع ككل. وهكذا تتمثل وظائف الأسرة الحديثة - مثلاً - فى تغذية الصغار بدنياً وتنشئتهم اجتماعياً (انظر مادة: التنشئة الاجتماعية). وبهذا الشكل يتم نقل الثقافة (التي تشمل الأخلاق، أو المعايير والقيم الخاصة بهذا المجتمع) دون تغيير إلى حد كبير، من جيل إلى الجيل الذى يليه، وإمداد الحياة الاقتصادية باحتياجاتها من الأفراد القادرين على القيام بأشوار نافعة.

وقد اقترح عالم الاجتماع الأمريكى روبرت ميرتون (١٩٦٨) التمييز بين الوظائف الظاهرة والوظائف المستترة أو الكامنة، فالوظائف المستترة أو الكامنة للنظم الاجتماعية هى تلك التى يكون الفاعلون الاجتماعيون الممارسين لها غير واعين بها.

لذلك تتجاوز هذه الوظائف كافة أشكال المقاصد المتعمدة التي قد تكون لدى هؤلاء الفاعلين حال قيامهم بأنشطتهم الخاصة. وعلى ذلك، فإن القساوسة أو كهنة الشامان^(*) الذين يقودون طقوس رقص المطر قد يتصورون أنفسهم يقومون بمحاولة التحكم في الطقس. أما عالم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا الوظيفي فسوف يقول - على الأرجح - إن هذه الطقوس تساعد على رفع معنوية الجماعة، ومن ثم تعمل على استقرارها وتوحيدها، ربما في مواجهة الضغوط التي يسببها استمرار الطقس السيئ مدة طويلة.

وقد أسهم تالكوت بارسونز^(**) (١٩٥١) بتطوير صيغة جديدة للنزعة الوظيفية تعد أشد صيغ الوظيفية تركيياً ودقة، فقد استخدم في ذلك أحد المداخل المعتمدة على نظرية النظم، استعاره من علم السيبرنطيقا: أى علم التحكم الآلى، والنظام - فى نظرية النظم - يحتفظ بتكامله فى مواجهة بيئة خارجية عنه. فإذا أردنا النظر إلى المجتمع بوصفه نظاماً، فلا بد من وجود مجموعة من أربعة "شروط أو متطلبات وظيفية" يتعين على المجتمع - بوصفه نظاماً - أن يكون مستوفياً لها من أجل الحفاظ على تكامله، وما يترتب على ذلك من استمرار بقاءه.

وأول المتطلبات الوظيفية التى يلزم استيفاؤها: التكيف مع البيئة الخارجية. وهذا المطلب، فى واقع الأمر، هو المهمة التى يؤديها النظام الاقتصادى فى أى مجتمع (حيث يجعل الموارد الموجودة فى البيئة الخارجية متاحة لهذا المجتمع).

(*) هم الكهنة الذين يقومون بممارسات سحرية لمعالجة المرضى، وكشف الخُبا، والسيطرة على الأحداث، والقائمون على شئون الديانة الشامانية، وهى ديانة بدائية ظهرت فى شمال آسيا وأوروبا، ولدى بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية. (المترجم)

(**) تالكوت بارسونز Talcott Parsons (١٩٠٢-١٩٧٩) ظل بارسونز نحو ثلاثين عاماً بعد الحرب العالمية الثانية المفكر النظرى الأكبر والأشهر فى علم الاجتماع فى البلاد الناطقة بالإنجليزية، إن لم يكن فى علم الاجتماع على مستوى العالم أجمع راجع المزيد عنه فى: موسوعة علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢٦١-٢٦٥. (المراجع)

وثانى هذه المتطلبات: تحقيق الأهداف. حيث يجب أن يتوفر للمجتمع مؤسسات معينة (كالمؤسسات السياسية) تكون قادرة على توجيه المجتمع.

وتكامل المجتمع - وهو المتطلب الثالث - هو الذى يحافظ على نظامه الداخلى (وهى المهمة التى تقوم بها الشرطة والنظام التعليمى).

أما المتطلب الرابع والأخير فهو المحافظة على النمط، وهو يقتضى تحفيز أعضاء هذا النظام على أداء الوظائف المطلوبة منهم. وهذا المتطلب يتم استيفاءه عن طريق النسق الفرعى للثقافة. وهكذا يفهم بارسونز الثقافة بوصفها تمثل - فى حد ذاتها - نسقاً متكاملأ (ومن ثم يتعين أن تتوفر لها المتطلبات الأربعة التى لاي نسق أو نظام). ومن حيث المبدأ، يمكن تطبيق التحليل الذى قدمه بارسونز للأنساق الفرعية داخل الأنساق الكبرى إلى ما لا نهاية، أو على الأقل تطبيقه نزولاً من مستوى النظام الكبير للمجتمع وصولاً إلى مستوى الفاعل الاجتماعى الفرد، الذى يعد هو نفسه نسقاً متكاملأ.

وأبرز الانتقادات التى وجهت إلى النزعة الوظيفية عجزها عن معالجة الصراع الاجتماعى والتغير الاجتماعى، فالوظيفيون يميلون إلى افتراض أن المجتمع عبارة عن كيان كلى متجانس إلى حد كبير، يتصف بإجماع راسخ وطيد على المعايير والقيم الجوهرية. وفى ضوء تحليلها للثقافة، لا تفسح الوظيفية مجالاً لظهور نظرية ما فى الإيديولوجيا، مما يعنى ضمناً أن الإجماع المذكور يمكن تليفقه، أو الطعن فيه. وإلى جانب ذلك، لا تسمح الوظيفية - إلا فى نطاق ضيق - بالصراع بين الجماعات الفرعية داخل المجتمع، سواء أكان هذا الصراع من قبيل صراع الطبقات فى النموذج الماركسى، أو كان فى ضوء تصور أصحاب نظرية الصراع له باعتباره علامة على وجود مجتمع متفتح نابض بالحياة السياسية. كما أن الانحراف عن المعايير التى أجمع عليها المجتمع أمر مستتكر باعتباره - فى رأى الوظيفية - نوعاً من الإخلال بالوظيفة، أى أنه ممزق ومعتل للكيان الاجتماعى فى مجموعه.

وهذه النزعة المحافظة الكامنة في هذا التصور عن الصراع الاجتماعي نلمسها كذلك في معالجة قضية التغير الاجتماعي، حيث تذهب الوظيفية إلى أن المجتمعات لا تتغير من خلال الاضطرابات الثورية العنيفة - كما يرى الماركسيون - وإنما الأصح أنها تتغير من خلال إحداث نوع من التمايز في الوظائف الاجتماعية يتسم دائماً بالرقعة والنعومة (ومن ثم تتغير المجتمعات في هذه الحالة من خلال استحداثها لأنساق فرعية جديدة). فكلما ازدادت درجة تعقد المجتمعات وراقيها، كلما استجدت نظم متخصصة لإنجاز الوظائف التي كانت تؤدي قبل ذلك على نحو قاصر وغير مرض. من ذلك أن الأسرة في المجتمع قبل الصناعي كانت مسؤولة إلى حد بعيد عن تعليم الطفل. ولما تطور هذا المجتمع إلى مجتمع صناعي، ظهرت المدرسة كمؤسسة تعليمية متخصصة.

ولعل أكبر ما يؤخذ على الوظيفية من أخطاء أو عيوب عجزها عن معالجة قضية المعنى، وعدم استطاعتها الاعتراف بقدرة الفاعلين الاجتماعيين على القيام بالورود الفعال في إدراك وإنشاء عالم اجتماعي له معناه يستطيعون أن يعيشوا ويتحركوا فيه. ولهذا السبب جاء أول الاعتراضات الهامة على ما تحظى به الوظيفية من سيطرة وتفوق في العلوم الاجتماعية من مدرسة التفاعلية الرمزية. وقد شهدت صيغ الوظيفية الأرقى والأعقد، والمرتبطة بنظرية النظم، شهدت شكلاً من أشكال الإحياء في السنوات الأخيرة، يتجلى على وجه الخصوص في الأعمال التي قدمها المنظر الاجتماعي الألماني نيكلاس لومان Niklas Luman (١٩٨٢) كما كان لهذه الصيغة الحديثة للنظرية الوظيفية تأثير كبير على أعمال يورجن هابرماس (١٩٨٤، ١٩٨٧). (AE) للمزيد انظر: Giddens (١٩٧٧) و Radcliffe Brown (١٩٥٢).

Consciousness

الوعى

غالباً ما يستخدم مفهوم "الوعى" و"العقل" بالتبادل، إذ يحل أحدهما محل الآخر. والوعى هو إدراك الكائن الفرد (إنساناً كان أم حيواناً) لبيئته، وإذا كان هذا الكائن

واعياً لنفسه أو مدرّكاً لذاته، فإن الوعي حينئذ يشمل - كذلك - وعى هذا الكائن بموقعه أو مكانه فى تلك البيئة وعلاقته بها. فالبشر، والرئيسات العليا^(*) وبعض المخلوقات الأخرى، كالدلافين مثلاً، ينظر إليهم عادة على أنهم كائنات تتمتع بوعى ذاتى بأنفسها. ويقول بعض الفلاسفة - على سبيل الحدس والتخمين - مثل جوناثان جلوفر J.Glover (١٩٩٠/١: ٤٦-٥٠)، بوجود نطاق من الوعي يتزايد ويتسع تدريجياً ابتداءً من الوعي لدى الأحياء البسيطة الدنيا وانتهاءً بالكائنات الإنسانية التى تتمتع بالوعي الذاتى بأنفسها.

إن الموقف الذى يتخذه المرء إزاء الحكم على طبيعة الوعي، وفيما يتصل بمن يملك هذه الخاصية، إنما يتوقف على نظرة المرء إلى طبيعة العقل. فذو النزعة الثنائية - مثل رينيه ديكارت - يميل إلى اعتبار أن "النفوس" (أو العقول) والأجساد فئتان ترجعان إلى جوهرين مختلفين فى طبيعتهما اختلافاً جذرياً. فالأجساد عند ديكارت لها شكل، وكتلة، وحيز تشغله فى كل من الزمان والمكان. وفى مقابل ذلك نجد أن العقول، رغم احتوائها على الأفكار التى يدوم بقاؤها زماناً ما، لا تشارك الأجساد فى أى خاصية أخرى. وقد أدى ذلك الفصل الجذرى بين العقول والأجساد إلى تلك المشكلة السيئة السمعة، والخاصة بالمقابلة بين العقل/ والجسد. وهى المشكلة التى تبحث كيف يمكن لجوهرين مختلفين فى طبيعتهما، أن تكون العلاقة المتبادلة بينهما كطبيعة العلاقة بين العلة والنتيجة، وذلك بالتسليم بأن العقول تؤثر فعلاً فى الأجساد، والأجساد تؤثر بدورها فى العقول.

وفى الفلسفة العقلية الحديثة، عادة ما تسفر محاولة الإجابة عن مشكلة العقل فى مقابل الجسد عن تبني النزعة المادية. ويحاول أصحاب النزعة المادية تفسير العقل

(*) أى الرتبة العالية فى الثدييات. (المترجم)

----- (و) -----

باستعمال المصطلحات الفيزيائية والحيوية. ويرى أصحاب النزعة السلوكية أن العقل لا يعدو أن يكون سلسلة أو مجموعة من الاستعدادات بطرق مختلفة بافتراض وجود أنواع معينة من المثيرات البيئية. ويرفض أغلب السلوكيين أى كلام عن العمليات السيكلولوجية الباطنية. ويتخذ أنصار نظرية وحدة العقل والمخ اتجاهًا اختزاليًا، حيث يتمسكون بأن العقل ليس شيئًا أكثر من المخ. ويذهب أصحاب الوظيفية إلى أنه بالإمكان فهم الظواهر العقلية أو الأحوال السيكلولوجية فى ضوء العلاقات السببية القائمة بين المثيرات من جهة، والأحوال العقلية ومظاهر السلوك الناجمة عن هذه المثيرات من جهة أخرى. ويرى أصحاب النزعة الاستيعادية أن جميع ما نتحدث به من كلام معقول عن الأحوال السيكلولوجية مثل المعتقدات والرغبات، هو كلام غير صحيح. وفى الواقع، نجد أن أصحاب النزعة الاستيعادية، أمثال بول تشيرشلاندر P. Churchland، يعتقدون أن العلم سوف يصل فى النهاية إلى إنتاج نموذج لتفسير الوعى أفضل بكثير مما لدينا الآن فى هذا الشأن. وسوف يسفر هذا البديل عن نظرة مختلفة اختلافاً كلياً عن العقول: ما هى طبيعتها وكيف تقوم بعملها. (SH) للمزيد انظر: Churchland (١٩٨٨، ١٩٩٥) و Crane (١٩٩٥) و Descartes (١٩٦٨) و Ryle (١٩٤٩).

Conscience Collective

الوعى الجمعى

مصطلح فى علم الاجتماع الدوركايمى، يشير إلى حقيقة المجتمع التى تعلق حقيقة الفرد وتسيطر عليه. فالوعى الفردى والضمير الخلقى إنما يستمدان وجودهما من نظام معيارى يجبر أفراد المجتمع على التفكير، والحكم، والعمل، وفقاً لمعايير معينة، مرغوب فيها على مستوى المجتمع. (AE)

False Consciousness

الوعى الزائف

فى النظرية الماركسية، يحدث الوعى الزائف عندما تخفق الطبقة فى تمييز المسار الذى يتماشى مع مصالحها الحقيقية من بين مسارات العمل السياسى والولاءات السياسية. وتكون مثل هذه الطبقة خاضعة لنوع من الإيديولوجيا (انظر كذلك: المادة التالية). (AE)

Class Consciousness

الوعى الطبقي

يشير مصطلح الوعى الطبقي فى النظرية الماركسية إلى ذلك الإدراك الذاتى لدى أفراد طبقة البروليتاريا، على وجه الخصوص، والذى به يدركون أنفسهم بوصفهم أعضاء فى طبقة. ويميز ماركس بين الطبقة فى حد ذاتها والطبقة من أجل نفسها. فالطبقة فى حد ذاتها جماعة اجتماعية يحددها وضع اقتصادى مشترك. والطبقة من أجل نفسها جماعة ذات وعى جماعى بهذا الوضع الاقتصادى المشترك، وذات وعى بموقعها داخل البناء الاقتصادى والاجتماعى، ومن ثم ذات وعى بمصالحها فى التغير الاجتماعى. والطبقة من أجل نفسها - التى تمثل جماعة يملكها الإحساس بوعى طبقي حقيقى - سوف تطرح عن نفسها أوهام الإيديولوجيا والوعى الزائف. ويرى ماركس أن هذا التحول فى الوعى الطبقي إنما يتحقق من خلال الزيادة المضطربة لجماعية الإنتاج فى ظل النظام الرأسمالى، بحيث لا يعود للأفكار السائدة عن الفردية معنى عند طبقة البروليتاريا المقهورة.

وفى علم الاجتماع اللاماركسى، قد يستعمل مصطلح "الوعى الطبقي"، ولكن فى صورة أقل تحديداً وتركيزاً، فقد يشير إلى ما لدى الأفراد من إدراك لوضعهم الطبقي والطريقة التى يفصحون بها عن هذا الإدراك. لهذا فقد تحتوى عناصر الوعى الطبقي

لدى فرد - مثلاً - على تمييزه لنفسه كفرد ينتمى إلى طبقة بعينها، (ومن ثم يتقبل وصفه بأنه من "الطبقة العاملة" مثلاً)، أو تحتوى إدراكه للطبقات الأخرى (كطبقة الملاك وطبقة المديرين) بوصفها كيانات يتكون منها خصومه وأعداؤه. (AE) للمزيد انظر: Lukacs (١٩٧١) و Marx (١٩٦٨) و Marx and Engles (١٩٨٥).

Leisure

وقت الفراغ

هو الوقت الذى يتبقى بعد الفراغ من العمل، والأنشطة التى تمارس خلال ذلك الوقت. وكان وقت الفراغ يُعرّف ويفهم تقليدياً من خلال المقابلة بينه وبين مفهوم العمل. وإذا كان الوقت المنفق فى العمل يعد فترة يبذل فيها جهد لازم للحصول على نفقات المعيشة، أى فترة لكسب دخل، فإن وقت الفراغ هو وقت الحرية، الذى لا يمكن اكتسابه إلا بفضل العمل، والذى ينفق فيه صاحبه فائض دخله. ومن الوعود الصريحة التى وفرها التحديث أن وقت الفراغ سوف تطول مدته. بل إننا نجد أن بعض النقابات العمالية فى المملكة المتحدة فى عشرينيات القرن الماضى قد اعتبرت زيادة وقت الفراغ أكثر أهمية من رفع الأجور، وهو المطلب الذى أدى إلى زيادة عدد أيام الإجازات الرسمية وتقصير مدة يوم العمل.

ومع ذلك فإننا نجد الاتجاهات فى النظر إلى وقت الفراغ معقدة وملتبسة. فعلى حين يعد وقت الفراغ عموماً شيئاً طيباً، فإن التأكيد أن البشر هم فى الأصل عاملون (على نحو ما نجد مثلاً فى الماركسية) يولد نوعاً من الشك - أو على الأقل يخلق توجهها إرشادياً إلى حد بعيد - تجاه الأنشطة التى تمارس أثناء وقت الفراغ. وعلى ذلك فإن الوعد بزيادة ساعات الفراغ لا يفسر بأنه وعد بعدم العمل وحسب، وإنما هو وقت للتنمية والتثقيف الشخصى والاجتماعى. وكما حدث فى القرن التاسع عشر عندما لم

تعد الزيادة الكبيرة في وقت الفراغ امتيازاً خاصاً محصوراً في الطبقة الحاكمة، أصبح ينظر إلى وقت فراغ الطبقة العاملة على أنه يمكن أن يمثل تهديداً للنظام الاجتماعي. فأنشطة وقت الفراغ الصاخبة يمكن أن تخل بالسير الطبيعي للمجتمع؛ وتترك العامل في حالة يصبح غير قادر فيها على متابعة عمله. والملاحظ في بريطانيا القرن التاسع عشر - بل وكذلك في بعض بلاد العالم الصناعي الأخرى - أن الطبقات الحاكمة كانت تتخذ موقفاً أوبياً (تسلطياً) من وقت فراغ الطبقات العاملة. لذلك كانوا يحرصون على توفير الوسائل التي يمكن أن توجه ممارسات وقت الفراغ وجهة تحقق الفائدة وتتجنب أي مخاطر أو تهديدات. وكان من تلك الوسائل دعم فرق الموسيقى النحاسية في شمال إنجلترا، ومرافق ممارسة الرياضة، وغير ذلك من الأسباب. ويمكن أن نلمس مناواة لمثل تلك المثل العليا في استمرار ممارسة بعض الأنشطة - مثل صراع الكلاب- بين بعض أبناء الطبقات العمالية. ثم قامت حركة "الترويج الرشيد" في العصر الفيكتوري بتشجيع ودعم إنشاء المتاحف، والمكتبات، ومعاهد تعليم العمال. ثم استمر الاهتمام بالمخاطر التي قد يسببها وقت الفراغ خلال القرن العشرين، خاصة وقت الفراغ الإجباري الذي تفرضه البطالة وتأثيرها على الشباب. وعلى حين اعتبر بعض المعلقين وقت الفراغ الطويل بمثابة تهديد محتمل، لكن هناك غيرهم - مثل عالم الاجتماع الأمريكي لويد- الذين اعتبروه شرطاً لازماً لتنمية ثقافة ديمقراطية. ومن اللافت للنظر أن اهتمت لورين برويت (في كتابها: المرأة ووقت الفراغ: دراسة في الفاقد الاجتماعي، الصادر عام ١٩٢٤)^(*) بزيادة وقت فراغ المرأة، الذي تحقق بفضل تطوير الأدوات التي اختصرت جهد العمل المنزلي، ولكنها أكدت خطر إضاعة وقت الفراغ هذا بسبب استمرار التمييز بين الجنسين الذي يحول بين المرأة وبين ممارسة أنشطة أكثر جدوى وفائدة.

(*) Lorine Pruette, Women and Leisure; A Study in Social Waste, 1924.

وتدل المعالجات النظرية لوقت الفراغ على تعدد الاتجاهات فى تناوله. وكانت أول دراسة سوسيولوجية رئيسية لوقت الفراغ هى تلك التى قدمها تورشتين فيبلين بعنوان : "نظرية الطبقة المترفة" (*) (١٩٥٣). ويمكن القول إن فيبيلين يقدم تعليقا يسخر فيه من الفرضية الماركسية التى ترى أن الكرامة الإنسانية تكمن فى القدرة على العمل. إذ يذهب فيبلين إلى أن المترفين فى المجتمع الأمريكى قد أصبحوا يشكلون طبقة عاطلة وطفيلية، انفصل أعضاؤها عن الملاك الغائبين(**) أو أصحاب رؤوس الأموال عن "غريزة العمل". ففى نظر هؤلاء الناس أصبح العمل دليلا على المكانة المتدنية، وأصبح السعى وراء رموز المكانة بالنسبة لهذه الفئة أهم من السعى وراء المال. وأصبحت المكانة تكتسب عبر الإنفاق، فى سياق استعراض تنافسى بين جماعات الصفوة الاجتماعية، بحيث أصبح الأثرياء يشكلون "طبقة مترفة" منغمسة فى الاستهلاك المظهري (ولو أن فيبلين نفسه استخدم مصطلح "وقت الفراغ المظهري"). ويتعين - فى نظرهم - أن يكون هذا الاستهلاك ظاهراً وبادياً إلى أقصى حد، وأن يكون متسماً بالإتلاف (أى باللعب فى كازينوهات القمار مثلاً) إذا أريد أن يضاف على صاحبه مكانة مرتفعة.

ولعل الاتجاهات الماركسية فى تناول وقت الفراغ فى منتصف القرن العشرين قد بلغت أعلى مستوياتها اتقائاً على يدى تيودور أدورنو(***) وزملائه من أعضاء مدرسة

(*) Thorstein Veblen, the Theory of the Leisure Class, 1953.

وانظر تعريفاً موجزاً لفيلين فى هامش مادة: الاستهلاك. (المراجع)

(**) الملاك الغائبون هم بالأساس كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين لا يقيمون فى الريف - حيث أراضيهم الشاسعة - وإنما يتركون مهمة رعايتها والإشراف عليها لمعاونيه، ويقيمون هم فى المدينة، التى تكون العاصمة فى الغالب. وهو نظام كان معروفاً فى بلاد كثيرة، ومنها مصر قبل ثورة ١٩٥٢. (المراجع)

(***) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: مدرسة فرانكفورت. (المراجع)

فرانكفورت. فقد ذهب أدورنو في تحليله للصناعة الثقافية إلى أن وقت الفراغ في المجتمعات الرأسمالية الحديثة ليس وقتاً حراً يمكن أن يمارس فيه صاحبه طاقاته الإبداعية أو التثقيف الذاتي، وإنما هو وقت يتم التحكم فيه بشكل غير صريح في إطار النظام الاقتصادي القائم. ففي وقت الفراغ يتحول العامل إلى مستهلك، ولكن استهلاكه هذا تقيده إلى حد كبير الصناعة الثقافية، وبالذات من حيث إن الإعلانات والصور التي تزيدها وسائل الاتصال الجماهيري عن الحياة الطيبة هي التي تشكل تقدير المستهلك وحكمه على قيمة السلع المعروضة أمامه. وهكذا نرى أنه على حين كان المستهلكون في المجتمعات الرأسمالية المبكرة خلال القرن التاسع عشر يختارون بحرية نوع السلع التي يستهلكونها، بناء على تقديرهم هم لقيمة كل سلعة منها (أو قيمتها الاستعمالية)، نجد اليوم أن المنتج أصبح هو الذي يصوغ للمستهلك قراره. وأصبحت القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية تخضع للتحكم في إطار العملية الإنتاجية الرأسمالية الحديثة.

ثم ظهرت اتجاهات أكثر دقة وتعاطفاً في تناول وقت الفراغ مع ازدهار الحركة النسوية والدراسات الثقافية. وقد فضح النسويون النظرة النمطية غير المكترثة بوقت فراغ المرأة التي سيطرت على المناقشات السابقة لهذا الموضوع. ففي ظل المقابلة بين وقت الفراغ والعمل المدفوع الأجر، أصبح ينظر إلى العمل المنزلي للمرأة على أنه وقت فراغ. وإذا كنا نعتز اليوم بأن وقت فراغ المرأة أمر مختلف عن العمل المنزلي، فإننا ما زلنا ننظر إليه في سياق البيت، وليس في سياق أى فضاء عام أرحب. أما الدراسات الثقافية فأصبحت تنظر إلى استهلاك السلع كنشاط إبداعى حقيقى، على خلاف النظرة الحتمية التي عرفناها عن الماركسية. كما أصبح لوقت الفراغ نوع من الاستقلالية والصدق بعيداً عن مجال العمل. ويمكن القول، من وجهة نظر ما بعد حداثة أوسع إن المستهلك يصوغ هويته وأسلوب حياته من خلال عملية الاستهلاك التي

----- (و) -----

يمارسها في وقت فراغه، وهي هوية سريعة التغير وتجزئية في الغالب. كذلك تبنت بعض دراسات مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة ودراسات أخرى أيضاً النظرة إلى وقت الفراغ كوسيلة لمقاومة الإيديولوجيا المسيطرة (انظر : الثقافة الفرعية) ، (وانظر: Hall et al. ١٩٧٦)، أو كساحة لبلورة الهوية السياسية ومصدر لتحقيق التماسك الاجتماعي بعيداً عن مكان العمل (Elias and Dunning ١٩٨٦).

وقد بات من الأمور المتفق عليها اليوم بسهولة والتي تجرى فيها البحوث بنشاط غير مسبوق: ثراء وقت الفراغ المعاصر وطبيعته المعقدة، خاصة في ظل مجتمع عولمي تمثل فيه أنشطة السفر والسياحة بعض الأنشطة الرئيسية لقضاء وقت الفراغ. (AE) للمزيد انظر: Wimbush and Talbot (١٩٨٨) و Rojek (١٩٨٥، ١٩٩٣، ١٩٩٥) و Hunnicutt (١٩٨٨) و Adorno (١٩٩٩C).

تعنى كلمة "يوتوبيا" في أصلها الإغريقى "ليس فى أى مكان". والاستعمال الشائع لهذا المصطلح بمعنى "غير الواقعى"، أو "الخيالى" أو "الوهمى" مستمد من كتاب السير توماس مور^(*) بعنوان "يوتوبيا" (١٥١٦)، والذي يقدم وصفاً لدولة مثالية أو خيالية. وتؤمن النزعة اليوتوبية أنه من الممكن إنشاء مجتمع لا يقتصر على كونه "أفضل" من المجتمع الحالى، بل يكون مجتمعاً بالغاً حد الكمال. وهكذا تسمى الكتابات اليوتوبية لتقديم رؤية لمجتمعات يمكن تحقيقها فى المستقبل، يمكن فيها التغلب على ما يسود المجتمعات المعاصرة من الصراعات والمظالم. ويمكننا إرجاع الأصول الأولى لمحاولة وصف مثل هذا المجتمع الخيالى وشرح مبادئه التى يركز عليها إلى الفيلسوف الإغريقى القديم أفلاطون. فقد سعى فى كتابه بعنوان "الجمهورية" إلى تبرير وجهة النظر التى تقول بأن حكم الملوك الفلاسفة (والذين يتصور أنهم كائنات راشدة وهبت ملكة المعرفة الحققة، ولذلك يعرفون الخير) سوف يؤدى للوصول إلى النظام الاجتماعى المثالى. وبناءً على هذا التصور الذى يطرحه أفلاطون، يعتقد أنه يمكن بلوغ أرقى أشكال الحياة الثقافية وتحقيقها فى الواقع من خلال إلقاء الضوء على نموذج للطبيعة البشرية يعكس ما يتصف به الواقع المحسوس والعقل من النظام. وثمة مؤلفات أخرى من هذا النوع، منها كتاب فرانسيس

(*) مور، (السير) توماس Moore, Sir Thomas (١٤٧٨-١٥٣٥) سياسى وكاتب إنجليزى، قضى عامين فى أكسفورد حيث تأثر بالتعليم الجديد. وظل مهتماً بالمذهب الإنسانى بعد أن كرس حياته لدراسة القانون، كان من أصدقائه المقربين كولييت، وليلى، ورازموس. ألف أحد الكتب العالمية، وهو "يوتوبيا" أو "المدينة الفاضلة" نشر باللاتينية ١٥١٦ وبإنجليزية ١٥٥١، أوجز فيه آراءه التربوية فوصف مدينة مثالية تعم فيها الاشتراكية والتعليم والتسامح الدينى. كتب مقالات دينية عديدة، منها "دفاع سير توماس مور" ١٥٣٢، و"حياة جون بيكوس" ١٥١٠، ألف روبرت بولت مسرحية "رجل كل العصور" عن حياته. (المراجع)

بيكون^(*) Bacon بعنوان "أطلانطا الجديدة" (١٦٢٤) وكتاب ويليام موريس^(**) بعنوان "أخبار من حيث لا مكان" (١٨٩٠).

كما يقدم المفكر نو النزعة الإنسانية المدنية جيمس هارنجتون Harnington في كتابه بعنوان "اتحاد الأوقيانوسية" (١٦٥٦) مثلاً جيداً لهذا النوع اليوتوبى من الفكر، والاستخدامات التي قد ينتفع به فيها (وإن كان محل اختلاف مسألة ما إذا كان يجوز تسمية أفكار هارنجتون بأنها فى جوهرها "أفكار يوتوبية" من عدمه). فهارنجتون يستعمل شكلاً من أشكال الدولة "الخيالية" - هى اتحاد الأوقيانوسية - كوسيلة لرسم الخطوط العريضة للبناء الأساسى الذى يرى أن على المجتمع اتباعه فيما يتصل بوضع الأساس الراسخ لكل من السلطة السياسية الشرعية وللأوضاع اللازمة لتحقيق الحياة المدنية. وتكمن أهمية كتاب "اتحاد الأوقيانوسية" فى جمعه بين العناصر اليوتوبية، والرؤية السياسية والعمل (الفنى) الرمضى. والدولة المذكورة فى كتاب "اتحاد الأوقيانوسية" هى نوع من الخطاب الرمضى عن التطورات التاريخية التى أنت إلى قيام الثورة الإنجليزية وتأسيس الكومنولث البريطانى تحت قيادة أوليفر كرومويل O. Cromwell، وي طرح هذا الكتاب فى صيغة يوتوبية ما يرى هارنجتون أنه أفضل دستور للحكومة يمكن لهذا الكومنولث أو لهذه الدولة أن تأخذ به.

ومن الممكن وصف بعض أشكال الفكر الماركسى والاشتراكى، بأنها تحتوى على عناصر يوتوبية (مثال ذلك باكونين^(***) Bakunin) - رغم أن ماركس نفسه كان يرى أن

(*) فرانسيس بيكون F. Bacon (١٥٦١-١٦٢٦) سياسى وفيلسوف وكاتب إنجليزى، ويعد أحد رواد العلم التجريبي الحديث. وضع أول تصنيف للعلوم فى العصر الحديث. أشهر آثاره: "الأرجانون الجديد" (١٦٢٠-١٦٢٨) وفيه بسط طريقته العلمية. (المراجع)

(**) انظر تعريفاً موجزاً به فى هامش مادة: مجتمع ما بعد الصناعة. (المراجع)

(***) باكونين، ميخائيل Bakunin, M. (١٨١٤-١٨٧٦) فوضوى روسى من أصل أرستقراطى وتحول إلى ثورى مما اقتضى نفيه إلى سيبيريا ١٨٤٩، ولكنه نجح فى الهروب. يرى أن الصرية والعدالة لا تتحققان إلا بالقضاء على الدولة والملكية الفردية. وكان ينادى بالعنف فى سبيل الوصول إلى أهدافه. تمتع بنفوذ=

----- (ي) -----

تحليله "العلمي" للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية يختلف تماماً عن أعمال الاشتراكيين "اليوتوبيين" الأوائل. ويبدو أن هذا النوع اليوتوبي قد ترك الساحة - في القرن العشرين - لأشكال السرد التي تتنبأ بإمكان وقوع أمور في المستقبل أكثر إزعاجاً من أوضاع الحاضر. ومن أمثلة هذه الأشكال السردية كتاب ألدوس هكسلي (*) A. Huxley بعنوان "عالم جديد شجاع" (١٩٣١) أو كتاب جورج أورويل G. Orwell بعنوان ١٩٨٤ (الصادر عام ١٩٤٨). وبالمثل، تعرض مفهوم النظام الاجتماعي المتناغم الذي يشكل أساس الفكر اليوتوبي للتشكيك والرفض من قبل مؤيدي ما بعد الحداثة، ضمن غيرهم من المفكرين والنقاد. (PS) للمزيد انظر: Davis (١٩٨١) و Kelly (١٩٨٢) و Kumar (١٩٩١).

= كبير في الحركة الاشتراكية في أوروبا إلى أن عارضه الماركسيون في الدولية الأولى ١٨٦٨ وتمكن ماركس من طرده من الحركة الاشتراكية ١٨٧٢. (المراجع)

(*) هكسلي، ألدوس Huxley, Aldous (١٨٩٤-١٩٦٣) روائي وشاعر وكاتب إنجليزي. حفيد العالم البيولوجي توماس هنري فوكسلي. هاجم المادية العلمية التي تهدد القيم الإنسانية بأعظم الخطر. فتنه صوفية الشرق في المراحل الأخيرة من حياته الأدبية. أشهر أثاره رواية "العالم الجديد الطريف" (عام ١٩٣٢) وقد صور فيه مجتمع المستقبل الممكن المجرد من العاطفة. (المراجع)

المراجع

- Abelove, H., Barale, M.A. and Halperin, D.M. (eds) (1993) *The Lesbian and Gay Studies Reader*, New York: Routledge.
- Abercrombie, N., Hill, S. and Turner, B.S. (1980) *The Dominant Ideology Thesis*, London: Allen & Unwin.
- Adorno, T.W. (1967) (1955) *Prisms*, London: Spearman.
- (1973a) (1948) *The Philosophy of Modern Music*, London: Sheed & Ward.
- (1973b) (1966) *Negative Dialectics*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1978a) (1951) *Minima Moralia: Reflections from Damaged Life*, London: New Left Books.
- (1978b) (1938) 'On the Fetish Character in Music and the Regression of Listening', in A. Arato and E. Gebhardt (eds), *The Essential Frankfurt School Reader*, Oxford: Blackwell.
- (1982) (1956) *Against Epistemology*, tr. Willis Domingo, Oxford: Blackwell.
- (1984) (1970) *Aesthetic Theory*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1991a) *The Culture Industry: Selected Essays on Mass Culture*, ed. J.M. Bernstein, London: Routledge.
- (1991b) (1957–1963) *Notes to Literature*, volume 1, New York: Columbia University Press.
- (1991c) 'Free Time', in his *The Culture Industry: Selected Essays on Mass Culture*, London: Routledge.
- (1992a) (1965–1974) *Notes to Literature*, volume 2, New York: Columbia University Press.
- (1992b) (1963) *Quasi una fantasia: Essays on Modern Music*, London: Verso.
- (1994) (1941) 'On Popular Music', in J. Storey (ed.), *Cultural Theory and Popular Culture: A Reader*, London: Edward Arnold.
- (2006) (1949) *Philosophy of New Music*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.
- Adorno, T.W., Frenkel-Brunswick, E., Levinson, D.J. and Sanford, R.N. (1950) *The Authoritarian Personality*, New York: Harper.
- Aggleton, P. (1987) *Deviance*, London: Routledge.
- Allport, G. (1980) *The Nature of Prejudice*, Reading, MA: Addison-Wesley.
- Althusser, L. (1969) (1959) *For Marx*, tr. Ben Brewster, London: New Left Books.

- (1971) *Lenin and Philosophy and Other Essays*, London: New Left Books.
- Althusser, L. and Balibar, E. (1970) *Reading Capital*, London: New Left Books.
- Altizer, T. (1968) *Radical Theology and the Death of God*, Harmondsworth: Penguin.
- (1977) *The Self-Embodiment of God*, New York: Harper & Row.
- Amin, A. (ed.) (1995) *Post-Fordism: A Reader*, Oxford: Blackwell.
- Amin, S. (1973) *Neo-colonialism in West Africa*, tr. Francis McDonagh, Harmondsworth: Penguin.
- Anderson, P. (1979) *Lineages of the Absolutist State*, London: Verso.
- Ang, I. (1985) *Watching 'Dallas': Soap Opera and the Melodramatic Imagination*, London: Methuen.
- Ansell-Pearson, K. (1991) *Nietzsche contra Rousseau: A Study of Nietzsche's Moral and Political Thought*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Antoun, R.T. (2001) *Understanding Fundamentalism: Christian, Islamic, and Jewish Movements*, Walnut Creek, CA: AltaMira Press.
- Anyon, J. (1980) 'Social Class and the Hidden Curriculum of Work', *Journal of Education*, 162: 67–92.
- Apel, K.-O. (1976) 'The Transcendental Conception of Language Communication and the Idea of a First Philosophy', in H. Parret (ed.), *The History of Linguistic Thought and Contemporary Linguistics*, Berlin and New York: De Gruyter.
- (1981) *Charles S. Peirce: From Pragmatism to Pragmaticism*, tr. John Michael Krois, Amherst, MA: University of Massachusetts Press.
- Appleman, P. (ed.) (1970) *Darwin*, London: W.W. Norton & Co.
- Arato A. and Gebhardt, E. (eds) (1978) *The Essential Frankfurt School Reader*, Oxford: Blackwell.
- Arendt, H. (1965) *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil*, New York: Viking.
- (1966) (1951) *The Origins of Totalitarianism*, New York: Harcourt & Brace.
- Armstrong, D. (1983) *Political Anatomy of the Body: Medical Knowledge in Britain in the Twentieth Century*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Arnold, M. (1993) *Culture and Anarchy and other Writings*, ed. Stefan Collini, Cambridge: Cambridge University Press.
- Atkinson, J.M. and Heritage, J. (eds) (1984) *Structures of Social Action: Studies in Conversation Analysis*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Attali, J. (1985) *Noise: The Political Economy of Music*, Manchester: Manchester University Press.
- Attridge, D., Bennington, G. and Young, R. (eds) (1987) *Post-Structuralism and the Question of History*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Austin, J.L. (1975) (1955) *How to Do Things With Words*, second edn., Oxford: Oxford University Press.
- Avineri, S. and De-Shalit, A. (eds) (1992) *Communitarianism and Individualism*, Oxford: Oxford University Press.
- Ayer, A.J. (ed.) (1959) *Logical Positivism*, London: Allen & Unwin; Glencoe, IL: Free Press.
- (1967) (1946) *Language, Truth and Logic*, second edn, London: Victor Gollancz.

- Bachelard, G. (1964) (1938) *The Psychoanalysis of Fire*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1969) (1957) *The Poetics of Space*, Boston, MA: Beacon Press.
- Badcock, C.R. (1975) *Lévi-Strauss: Structuralism and Sociological Theory*, London: Hutchinson.
- Badmington, N. (ed.) (2000) *Posthumanism*, Basingstoke: Macmillan.
- Bahro, R. (1982) *Socialism and Survival*, London: Heretic.
- (1984) *From Red to Green*, London: Verso.
- Bakhtin, M. (1981) *The Dialogic Imagination: Four Essays by M.M. Bakhtin*, ed. M. Holquist, tr. Caryl Emerson and Michael Holquist, Austin, TX, University of Texas Press.
- (1984) *Rabelais and His World*, tr. Hélène Iswolsky, Bloomington, IN: Indiana University Press.
- (1986) *Speech Genres and Other Late Essays*, ed. C. Emerson and M. Holquist, tr. Vern McGee, Austin, TX: University of Texas Press.
- Balibar, E. (1970) 'The Basic Concepts of Historical Materialism', in L. Althusser and E. Balibar, *Reading Capital*, London: New Left Books.
- Bantock, G. (1975) 'Towards a Theory of Popular Culture', in M. Golby, J. Greenwald and R. West (eds), *Curriculum Design*, London: Croom Helm; Milton Keynes, Open University Press.
- Banton, M. (1977) *The Idea of Race*, London: Tavistock Publications.
- Barber, Benjamin (2002) 'Democracy and Terror in the Era of Jihad versus McWorld', in *Worlds in Collision*, Basingstoke: Macmillan.
- Barker, M. (1989) *Comics: Ideology, Power and the Critics*, Manchester: Manchester University Press.
- Barrett, M. (1980) *Women's Oppression Today: Problems in Marxist Feminist Analysis*, London: New Left Books.
- (1991) *The Politics of Truth: From Marx to Foucault*, Cambridge: Polity Press.
- Barry, N.P. (1986) *On Classical Liberalism and Libertarianism*, Basingstoke, Macmillan.
- (1989) *An Introduction to Modern Political Theory*, second edn, Basingstoke, Macmillan.
- Barthes, R. (1967a) (1953) *Writing Degree Zero*, New York: Hill & Wang.
- (1967b) (1964) *Elements of Semiology*, New York: Hill & Wang.
- (1973) (1957) *Mythologies*, St Albans: Paladin.
- (1974) (1970) *S/Z*, New York: Hill & Wang.
- (1975) (1973) *The Pleasure of the Text*, New York: Hill & Wang.
- (1977a) *Image, Music, Text*, tr. Stephen Heath, London: Fontana.
- (1977b) 'Introduction to the Structural Analysis of Narratives', in *Image, Music, Text*, London: Fontana.
- (1977c) 'The Death of the Author', in *Image, Music, Text*, London: Fontana.
- (1977d) 'From Work to Text', in *Image, Music, Text*, London: Fontana.
- (1977e) (1975) *Barthes, R. by Barthes, R.*, New York: Hill & Wang.
- (1978) (1977) *A Lover's Discourse: Fragments*, New York: Hill & Wang.
- (1981) (1980) *Camera Lucida: Reflections on Photography*, New York: Hill & Wang.
- (1987) (1966) *Criticism and Truth*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

- Baudrillard, J. (1983) *Simulations*, tr. Paul Foss, Paul Patton and Philip Beitchman, New York: Semiotext(e).
- (1988) *Selected Writings*, ed. Mark Poster, Cambridge: Polity Press.
- (1990a) *Revenge of the Crystal: Selected Writings on the Modern Object and its Destiny, 1968–1983*, London: Pluto Press.
- (1990b) 'Mass Media Culture', in *Revenge of the Crystal: Selected Writings on the Modern Object and its Destiny, 1968–1983*, London: Pluto Press.
- (1990c) *Fatal Strategies*, London: Pluto Press.
- (1991) 'The Reality Gulf', *Guardian*, 11 January.
- (1993) *Symbolic Exchange and Death*, London: Sage.
- (2000a) *The Vital Illusion*, New York: Columbia University Press.
- (2000b) 'Prophylaxis and Virulence', in N. Baddington (ed.), *Post-humanism*, London: Palgrave Macmillan.
- Bauman, Z. (1989) *Modernity and the Holocaust*, Cambridge: Polity Press.
- Baxandall, M. (1972) *Painting and Experience in Fifteenth Century Italy: A Primer in the History of Pictorial Style*, Oxford: Clarendon Press.
- (1980) *The Limewood Sculptors of Renaissance Germany*, New Haven, CT: Yale University Press.
- Bazin, A. (1967) *What is Cinema?*, Berkeley, CA: University of California Press.
- Beck, U. (1992) *Risk Society: Towards a New Modernity*, London: Sage.
- (1999a) *Globalisation*, Cambridge: Polity Press.
- (1999b) *World Risk Society*, Cambridge: Polity Press.
- Beck, U., Giddens, A. and Lash, S. (1994) *Reflexive Modernization*, Cambridge: Polity Press.
- Becker, H. (1961) *Boys in White: Student Culture in Medical School*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- (1963) *Outsiders: Studies in the Sociology of Deviance*, New York: Free Press.
- (1982) *Art Worlds*, Berkeley, CA: University of California Press.
- Becker, H., Geer, B. and Hughes, E.C. (1968) *Making the Grade: The Academic Side of College Life*, New York: Wiley.
- Beetham, D. (1996) *Bureaucracy*, second edn, Buckingham: Open University Press.
- Behr, S., Fanning, D. and Jarman, D. (eds) (1993) *Expressionism Reassessed*, Manchester: Manchester University Press.
- Bell, D. (1960) *The End of Ideology*, Glencoe, IL: Free Press.
- (1973) *The Coming of Post-Industrial Society: A Venture in Social Forecasting*, New York: Basic Books.
- (1976) *The Cultural Contradictions of Capitalism*, London: Heinemann.
- (1990) *Husserl*, London: Routledge.
- (1993) *Communitarianism and its Critics*, Oxford: Clarendon Press.
- Bell D. and Kennerly, B.M. (eds) (2000) *The Cybercultures Reader*, London: Routledge.
- Bell, M. (1988) *ER. Leavis*, London: Routledge.
- Belsey, C. (1980) *Critical Practice*, London: Methuen.
- Bendix, R. (1960) *Max Weber: An Intellectual Portrait*, Garden City, NY: Doubleday.
- Benedict, R. (1935) *Patterns of Culture*, London: Routledge & Kegan Paul.

- (1989) *Chrysanthemum and the Sword*, New York: Houghton Mifflin.
- Benjamin, W. (1970a) *Illuminations*, ed. H. Arendt, London: Jonathan Cape.
- (1970b) (1936) 'The Work of Art in the Age of Mechanical Reproduction', in *Illuminations*, London: Jonathan Cape.
- (1970c) (1940) 'Theses on the Philosophy of History', in *Illuminations*, London: Jonathan Cape.
- (1973a) *Charles Baudelaire: A Lyric Poet in the Era of High Capitalism*, London: New Left Books.
- (1973b) *Understanding Brecht*, London: New Left Books.
- (1977) (1928) *The Origin of German Tragic Drama*, tr. John Osborne, London: New Left Books.
- (1978) (1937) 'Author as Producer', in A. Arato and E. Gebhardt (eds), *The Essential Frankfurt School Reader*, Oxford: Blackwell.
- (1979) *One-Way Street and Other Writings*, London: New Left Books.
- (1996) *Selected Writings: Volume 1, 1913–1926*, Cambridge, MA: Belknap Press.
- (1999a) *Selected Writings: Volume 2, 1927–1934*, Cambridge, MA: Belknap Press.
- (1999b) *The Arcades Project*, Cambridge, MA: Belknap Press.
- (2002) *Selected Writings: Volume 3, 1935–1938*, Cambridge, MA: Belknap Press.
- (2003) *Selected Writings: Volume 4, 1938–1940*, Cambridge, MA: Belknap Press.
- Bennett, J. (1966) *Kant's Analytic*, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1974) *Kant's Dialectic*, London: Cambridge University Press.
- Bennett, T., Martin, G., Mercer, C. and Woollacott, J. (eds) (1981) *Culture, Ideology and Social Process*, London: Batsford in association with the Open University Press.
- Bennington, G. (1988) *Lyotard: Writing the Event*, New York: Columbia University Press.
- Berger, J. (1972) *Ways of Seeing*, Harmondsworth: Penguin.
- Berger, P.L. (1963) *Invitation to Sociology*, Harmondsworth: Penguin.
- Berger, P.L. and Luckmann, T. (1961) *The Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge*, London: Allen Lane.
- Berkeley, G. (1975) *Philosophical Works: Including the Works on Vision*, London: Dent.
- Berki, R.N. (1975) *Socialism*, London: Dent.
- Berlin, E.A. (1980) *Ragtime: A Musical and Cultural History*, London: University of California Press.
- Berlin, I. (ed.) (1979) *The Age of Enlightenment*, Oxford: Oxford University Press.
- Berliner, P.F. (1994) *Thinking in Jazz: The Infinite Art of Improvisation*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Berman, M. (1983) *All This is Solid Melts into Air: The Experience of Modernity*, London: Verso.
- Bernstein, B. (1977) *Class, Codes and Control*, volume 1, *Theoretical Studies Towards a Sociology of Language*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1996) *Pedagogy, Symbolic Control and Identity: Theory, Research, Critique*, London: Taylor & Francis.

- Bernstein, R.J. (1983) *Beyond Objectivism and Relativism: Science, Hermeneutics, and Praxis*, Oxford: Blackwell.
- Bhabha, H.K. (ed.) (1990) *Nation and Narration*, London: Routledge.
- Bhaskar, R. (1975) *A Realist Theory of Science*, Hemel Hempstead: Harvester.
- Biddle, B.J. (1979) *Role Theory: Expectations, Identities and Behaviours*, New York: Academic Press.
- Bilton, T., Jones, P., Skinner, D., Stansworth, M. and Webster, A. (1996) *Introductory Sociology*, third edn, Basingstoke: Macmillan.
- Binford, S.R. and Binford, L.R. (1968) *New Perspectives in Archaeology*, Chicago, IL: Aldine Press.
- Bin Laden, O. (1998) 'Jihad Against Jews and Crusaders', World Islamic Front Statement, 23 February 1998 (www.fas.org/irp/world/para/docs/980223-fatwa.htm).
- Biriotti, M. and Miller, N. (eds) (1993) *What is an Author?*, Manchester: Manchester University Press.
- Black, M. (1979) 'More about Metaphor', in A. Ortony (ed.), *Metaphor and Thought*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Blair, T. (2006) 'Valedictory Address to the Labour Party Conference' Kegan Paul.
- Block, N., Flanagan, O. and Guzeldere, G. (eds) (1997) *The Nature of Consciousness: Philosophical Debates*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Blumer, H. (1969) *Symbolic Interactionism: Perspective and Method*, Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
- Blumer, M. (1984) *The Chicago School of Sociology: Institutionalization, Diversity, and the Rise of Sociological Research*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Bocock, R. (1986) *Hegemony*, London: Tavistock.
- (1993) *Consumption*, London: Routledge.
- Bocock, R., Hamilton, P., Thompson, K. and Walton, A. (eds) (1980) *An Introduction to Sociology*, London: Fontana in association with the Open University Press.
- Bogue, R. (1989) *Deleuze and Guattari*, London and New York: Routledge.
- Bolton, R. (ed.) (1989) *The Contest of Meaning: Critical Histories of Photography*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Bookchin, M. (1980) *Towards an Ecological Society*, Montreal: Black Rose Books.
- Boorse, C. (1975) 'On the Distinction between Disease and Illness', *Philosophy and Public Affairs*, 5: 49–68.
- (1977) 'Health as a Theoretical Concept', *Philosophy of Science*, 44: 542–73.
- Borowski, T. (1967) (1959) *This Way for the Gas Ladies and Gentlemen*, tr. B. Vedder, New York: Penguin.
- Borradori, G. (ed.) (2003) *Philosophy in a Time of Terror*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Bostdorff, D.M. (2003) 'George W. Bush's Post-September 11 Rhetoric of ... Covenant Renewal: Upholding the Faith of the Greatest Generation', *Quarterly Journal of Speech*, vol. 89, no. 4.
- Bostroni, N. (2005a) 'A History of Transhumanist Thought', *Journal of Evolution and Technology*, 14 (<http://jetpress.org/volume14/freitas.html>).
- (2005b) 'In Defence of Posthuman Dignity', *Bioethics*, 19 (3), 202–14.

- Bottomore, T. (ed.) (1983) *A Dictionary of Marxist Thought*, Oxford: Blackwell.
- (1985) *Theories of Modern Capitalism*, London: Routledge.
- (1993) *Elites and Society*, second edn., London: Routledge.
- Boucher, D. and Kelly, P. (eds) (1994) *The Social Contract from Hobbes to Rawls*, London: Routledge.
- Boundas, C.V and Olkowski, D. (eds) (1994) *Gilles Deleuze and the Theater of Philosophy*, New York: Routledge.
- Bourdieu, P. (1973) 'Cultural Reproduction and Social Reproduction', in R. Brown (ed.), *Knowledge, Education and Cultural Change*, London: Tavistock.
- (1984) (1979) *Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1993) *The Field of Cultural Production*, Cambridge: Polity Press.
- Bowie, A. (1990) *Aesthetics and Subjectivity: From Kant to Nietzsche*, Manchester: Manchester University Press.
- Bowles, S. and Gintis, H. (1976) *Schooling in Capitalist America*, New York: Basic Books.
- Boyer, R. and Durand, J.-P. (1997) *After Fordism*, tr. Sybil Hyacinth Mair, Basingstoke: Macmillan.
- Bradbury, M. and McFarlane, J. (eds) (1976) *Modernism: 1890–1930*, Harmondsworth: Penguin.
- Brasher, B.E. (ed.) (2001) *Encyclopedia of Fundamentalism*, London: Routledge.
- Braudel, F. (1972) (1949) *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, London: Collins.
- (1958) 'History and the Social Sciences', in *On History*, London: Weidenfeld & Nicolson.
- Braverman, H. (1974) *Labour and Monopoly Capitalism: The Degradation of Work in the Twentieth Century*, New York: Monthly Review Press.
- Breckenridge, C. and Van der Veer, P. (eds) (1993) *Orientalism and the Post-colonial Predicament*, Philadelphia, PA: University of Philadelphia Press.
- Brett, P., Thomas, G. and Wood, E. (eds) (1994) *Queering the Pitch: The New Gay and Lesbian Musicology*, New York: Routledge.
- Breuer, J. and Freud, S. (1974) (1895) *Studies on Hysteria*, ed. A. Richards, tr. James Strachey, Harmondsworth, Pelican Books.
- Bronner, S.E. and Kellner, D.M. (eds) (1989) *Critical Theory and Society: A Reader*, London: Routledge.
- Brooks, C. (1938) *Understanding Poetry: An Anthology for College Students*, New York: Henry Holt.
- (1949) *The Well Wrought Urn: Studies in the Structure of Poetry*, London: Dennis Dobson.
- Brubaker, R. (1984) *The Limits of Rationality: An Essay on the Social and Moral Thought of Max Weber*, London: Allen & Unwin.
- Bruce, S. (2000) *Fundamentalism*, Cambridge: Polity Press.
- Brundtland, G.H. et al. (1987) *Our Common Future: World Commission on Environment and Development*, Oxford: Oxford University Press.
- Buck-Morss, S. (1991) *The Dialectics of Seeing: Walter Benjamin and the Arcades Project*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Bukofzer, M. (1939) 'Allegory in Baroque Music', *Journal of the Warburg Institute*, 3:1–21.

- Bullough, E. (1957) *Aesthetics: Lectures and Essays*, Palo Alto, CA: Stanford University Press.
- Bourdieu, P. (1977) *Reproduction in Education, Society and Culture*, trans Richard Nice, London: Sage Publications.
- Bürger, P. (1984) *Theory of the Avant-Garde*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.
- Burke, E. (1982) (1790) *Reflections on the Revolution in France*, Harmondsworth: Penguin.
- Burke, J. and Moore, S. (1979) 'Reification and Commodity Fetishism Revisited', *Canadian Journal of Political and Social Theory*, 3(1): 71–86.
- Burke, P. (1990) *The French Historical Revolution: The Annales School, 1929–1989*, Cambridge: Polity Press.
- Burke, S. (1992) *The Death and Return of the Author: Criticism and Subjectivity in Barthes, Foucault and Derrida*, Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Burley, J. and Harris, J. (2002) *A Companion to Genethics*, Oxford: Blackwell.
- Burns, T. (1992) *Erving Goffman*, London: Routledge.
- Bury, M. and Gabe, J. (eds) (2006) *The Sociology of Health and Illness: a Reader*, second edn, London: Routledge.
- Bush, G.W. (2001a) 'Statement by the President in His Address to the Nation, 11 September 2001' (www.whitehouse.gov/news/releases/2001/09/20010911-16.html).
- (2001b) 'Address to a Joint Session of Congress and the American People, 20 September 2001' (www.whitehouse.gov/news/releases/2001/09/20010920-8.html).
- Butler, J. (1990) *Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity*, London: Routledge.
- Cage, J.M. (1966) *Silence*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Cahn, S. (1994) *Coming on Strong: Gender and Sexuality in Twentieth Century Women's Sport*, New York: Free Press.
- Callinicos, A. (1976) *Althusser's Marxism*, London: Pluto Press.
- (1983) *Marxism and Philosophy*, Oxford: Clarendon Press.
- Camus, A. (1990) (1942) *The Myth of Sisyphus*, tr. Justin O'Brien, Harmondsworth: Penguin.
- Canguilhem, G. (1978) (1966) *On the Normal and the Pathological*, Dordrecht: Reidel.
- Carr, E.H. (1987) (1961) *What is History?*, Harmondsworth: Penguin.
- Carson, R. (1972) (1962) *Silent Spring*, Harmondsworth: Penguin.
- Carver, T. (1975) 'Marx's Commodity Fetishism', *Inquiry*, 18(1): 39–63.
- (ed.) (1991) *The Cambridge Companion to Marx*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Castells, M. (1989) *The Informational City*, Oxford: Blackwell.
- Cavell, S. (1971) *The World Viewed: Reflections on the Ontology of Film*, New York: Viking.
- Chadwick, R.F. and Cazeaux, C. (eds) (1992) *Immanuel Kant: Critical Assessments*, London and New York: Routledge.
- Chalmers, A.F. (1982) *What is This Thing Called Science?*, second edn, Milton Keynes: Open University Press.

- (1990) *Science and its Fabrication*, Milton Keynes: Open University Press.
- Chancy, D. (1996) *Lifestyles*, London: Routledge.
- Charon, R. (2004) 'Narrative and Medicine', *New England Journal of Medicine*, 350: 862–4.
- Childe V.G. (1927) *The Dawn of European Civilization*, London: Kegan Paul.
- (1956) (1936) *Man Makes Himself*, third edn, London: Watts & Co.
- (1964) (1941) *What Happened in History?* Harmondsworth: Penguin.
- Chipp, H.B. (1968) *Theories of Modern Art: A Source Book by Artists and Critics*, Berkeley, CA: University of California Press.
- Chomsky, N. (1957) *Syntactic Structures*, The Hague: Mouton.
- (1966) *Cartesian Linguistics*, New York: Harper & Row.
- (1972) *Studies on Semantics and Generative Grammar*, The Hague: Mouton.
- (1973) *For Reasons of State*, New York: Pantheon.
- (1978) *Language and Politics*, Montreal: Black Rose Books.
- (2002) *9/11*, New York: Seven Stories Press.
- Christie, R. and Jahoda, M. (eds) (1954) *Studies in the Scope and Method of 'The Authoritarian Personality'*, Glencoe, IL: Free Press.
- Churchland, P. (1988) *Matter and Consciousness: A Contemporary Introduction to the Philosophy of Mind*, Cambridge, MA: MIT Press.
- (1995) *The Engine of Reason, the Seat of the Soul: A Philosophical Journey into the Brain*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Cixous, H. (1981) (1975) 'The Laugh of the Medusa', in E. Marks and I. de Courtivron (eds), *New French Feminisms*, Brighton: Harvester.
- (1987) *The Newly Born Woman*, Manchester: Manchester University Press.
- Clark, D.L. (1968) *Analytical Archaeology*, London: Methuen.
- Clark, J.J. (1997) *Oriental Enlightenment: The Encounter Between Asian and Western Thought*, London: Routledge.
- Clark, K. and Holquist, M. (1984) *Mikhail Bakhtin*, Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press.
- Clark, M. (1988) *Jacques Lacan: An Annotated Bibliography*, New York: Garland Publishers.
- Clark, T.J. (1973) *The Absolute Bourgeois: Artists and Politics in France 1848–1851*, London: Thames & Hudson.
- Clarke, G. (1982) *Defending Ski-Jumpers: A Critique of Theories of Youth Subcultures*, Stencilled Paper 71, Centre for Contemporary Cultural Studies, Birmingham University.
- Clarke, K. (1956) *The Nude*, New York: Pantheon.
- Clarke, S. (1981) *The Foundations of Structuralism: A Critique of Lévi-Strauss and the Structuralist Movement*, Brighton: Harvester.
- Clement, C. (1983) (1981) *The Lives and Legends of Jacques Lacan*, tr. Arthur Goldhammer, New York: Columbia University Press.
- Coakley, J. and Dunning, E. (eds) (2002) *Handbook of Sports Studies*, London: Sage.
- Cobb, J. (1977) *Process Theology: An Introductory Exposition*, Belfast: Christian Journals.
- Cohen, G.A. (1978) *Karl Marx's Theory of History*, Oxford: Clarendon Press.
- Cohen, I.J. (1989) *Structuration Theory: Anthony Giddens and the Constitution of Social Life*, London: Macmillan.

- Cohen, P. (1980) 'Subcultural Conflict and Working-Class Community', in S. Hall, D. Hobson, A. Lowe and P. Willis (eds), *Culture, Media, Language*, London: Hutchinson.
- Cohen, S. (1980) *Folk Devils and Moral Panics*, second edn, Oxford: Martin Robertson.
- Collier, G. (1977) *Jazz*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Collini, S. (1988) *Arnold*, Oxford and New York: Oxford University Press.
- Collins, R. (1975) *Conflict Sociology: Toward an Explanatory Science*, New York: Academic Press.
- Condit, C. (1999) *The Meanings of the Gene. Public Debates about Human Heredity*, Madison, WI: University of Wisconsin Press.
- Connerton, P. (ed.) (1976) *Critical Sociology*, Harmondsworth: Penguin.
- Conrad, Joseph (2000) (1902) *Heart of Darkness*, London: Penguin.
- Cook, D. (1996) *The Culture Industry Revisited: Theodor W. Adorno on Mass Culture*, Lanham, MD: Rowman & Littlefield.
- Cooke, A. (1994) *The Economics of Leisure and Sport*, London: Routledge.
- Cooke, B. and Turner, F. (1999) *Biopoetics: Evolutionary Explorations in the Arts*, Lexington, KY: Icus Books.
- Cooper, D.E. (1986) *Metaphor*, Oxford: Blackwell.
- (1992) *A Companion to Aesthetics*, Oxford: Blackwell.
- (1997) *Aesthetics: The Classic Readings*, Oxford: Blackwell.
- Cornforth, M. (1971) *Dialectical Materialism*, London: Lawrence & Wishart.
- Coffigan, P. (1997) *The Sociology of Consumption*, London: Sage.
- Coser, L.A. (1956) *The Functions of Social Conflict*, New York: Free Press.
- Crane, T. (1995) *The Mechanical Mind: A Philosophical Introduction to Minds, Machines and Mental Representation*, London: Penguin.
- Cranston, M. (1994) *The Romantic Movement*, Oxford: Blackwell.
- Crothers, C. (1996) *Social Structure*, London: Routledge.
- Crouch, D. and Ward, C. (1997) *The Allotment: Its Landscape and Culture*, Nottingham: Five Leaves.
- Crozier, B. (1987) *Socialism: Dream and Reality*, London: Sherwood Press.
- Cudd, A.E. and Andreasen, R.O. (eds) (2005) *Feminist Theory: A Philosophical Anthology*, Oxford: Blackwell.
- Culler, J. (1975) *Structuralist Poetics: Structuralism, Linguistics and the Study of Literature*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1983) *Roland Barthes*, New York: Oxford University Press.
- (1986) *Ferdinand de Saussure*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Cunningham-Wood, J. (ed.) (1988) *Karl Marx's Economics: Critical Assessments*, volume 2, *Marx's Capital*, London: Croom Helm.
- Cupitt, D. (1979) *Explorations in Theology*, London: SCM Press.
- (1988) *The New Christian Ethics*, London: SCM Press.
- Curris, W.J.R. (1992) *Le Corbusier: Ideas and Forms*, London: Phaidon Press.
- Cutler, A., Hindess, B., Hirst, P.Q. and Hussain, A. (1977) *Marx's Capital and Capitalism Today*, Volume 1, London: Routledge & Kegan Paul.
- Dahl, R.A. (1956) *A Preface to Democratic Theory*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Dahrendorf, R. (1979) *Life Chances*, London: Weidenfeld & Nicolson.

- Dallmayr, F.R. (1981) *Twilight of Subjectivity: Contributions to a Post-Individualist Theory of Politics*, Amherst, MA: University of Massachusetts Press.
- Dancy, J. (1985) *An Introduction to Contemporary Epistemology*, Oxford: Blackwell.
- Dancy, J. and Sosa, E. (1992) *A Companion to Epistemology*, Oxford: Blackwell.
- Dant, T. (1996) 'Fetishism and the Social Value of Objects', *Sociological Review*, 44(3): 495-516.
- Danto, A.C. (1964) 'The Artworld', *Journal of Philosophy*, 61:571-84.
- (1981) *The Transfiguration of the Commonplace*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Darwin, C. (1976) (1859) *The Origin of Species*, ed. J.W. Burrow, Harmondsworth: Penguin.
- David, H. (1997) *On Queer Street: A Social History of British Homosexuality 1895-1995*, London: HarperCollins.
- Davidson, D. (1984a) (1977) *Inquiries into Truth and Interpretation*, Oxford: Clarendon Press.
- (1984b) (1973) 'Radical Interpretation', in *Inquiries into Truth and Interpretation*, Oxford: Clarendon Press.
- (1984c) 'Belief as the Basis of Meaning', in *Inquiries into Truth and Interpretation*, Oxford: Clarendon Press.
- (1991) 'Truth and Meaning', in *Inquiries into Truth and Interpretation*, Oxford: Clarendon Press.
- (1993) 'A Coherence Theory of Truth and Knowledge', in E. Lepore (ed.), *Truth and Interpretation*, Oxford: Blackwell, pp. 307-19.
- Davies, T. (1997) *Humanism*, London and New York: Routledge.
- Davis, J.C. (1981) *Utopia and the Ideal Society: A Study of English Utopian Writing, 1516-1700*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Dawkins, R. (1976) *The Selfish Gene*, Oxford: Oxford University Press.
- (1991) *The Blind Watchmaker*, London: Penguin.
- Day, G. (1996) *Re-reading Leavis: Culture and Literary Criticism*, Basingstoke: Macmillan.
- De Certeau, M. (1984) *The Practice of Everyday Life*, Berkeley, CA: University of California Press.
- Delbo, Charlotte (1995) (1965) *Auschwitz and After*, tr. R. Lamont, New Haven, CT: Yale University Press.
- Deleuze, G. (1983) (1962) *Nietzsche and Philosophy*, tr. Hugh Tomlinson, London: Athlone Press.
- (1990a) (1969) *The Logic of Sense*, tr. Mark Lester with Charles Stivale, London: Athlone Press.
- (1990b) 'The Simulacrum and Ancient Philosophy', in *The Logic of Sense*, London: Athlone Press.
- (1991) *Cinema*, 2 volumes, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.
- Deleuze, G. and Guattari, F. (1977) (1972) *Anti-Oedipus: Capitalism and Schizophrenia*, tr. Robert Hurley, Mark Seem and Helen R. Lane, New York: Viking Press.
- (1987) (1980) *A Thousand Plateaus: Capitalism and Schizophrenia*, tr. Brian Massumi, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

- De Man, P. (1979) *Allegories of Reading: Figural Language in Rousseau, Nietzsche, Rilke, and Proust*, New Haven, CT: Yale University Press.
- (1989) *Blindness and Insight: Essays on the Rhetoric of Contemporary Criticism*, London: Routledge.
- Dennett, D. (1996) *Darwin's Dangerous Idea*, London: Penguin.
- Denzin, N.K. (1992) *Symbolic Interactionism and Cultural Studies*, Oxford: Blackwell.
- Derrida, J. (1973) 'Speech and Phenomena' and Other Essays on Husserl's Theory of Signs, tr. David B. Allison, Evanston, IL: Northwestern University Press.
- (1976) (1967) *Of Grammatology*, tr. G. Spivak, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.
- (1978) (1967) *Writing and Difference*, tr. Alan Bass, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1979) *Spurs: Nietzsche's Styles*, tr. Barbara Harlow, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- (1981) *Dissemination*, tr. Barbara Johnson, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- (1982) *Margins of Philosophy*, tr. Alan Bass, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- (1987) *The Truth in Painting*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- (1988a) *The Ear of the Other: Otobiography, Transference, Translation Texts and Discussions with Jacques Derrida*, ed. C. McDonald, tr. Peggy Kamuf, Lincoln, NE, and London: University of Nebraska Press.
- (1988b) *Limited Inc.*, Evanston, IL: Northwestern University Press.
- (1992) *Given Time. I. Counterfeit Money*, tr. Peggy Kamuf, Chicago, IL and London: University of Chicago Press.
- (1994) *Specters of Marx: The State of Debt, the Work of Mourning, and the New International*, tr. Peggy Kamuf, New York and London: Routledge.
- (1996) *Archive Fever: A Freudian Impression*, tr. Eric Prenowitz, Chicago, IL, and London: University of Chicago Press.
- (2002) 'The Aforementioned So-called Human Genome', ed. E. Rottenberg, in *Negotiations*, Stanford, CA: Stanford University Press.
- Descartes, R. (1968) (1637 and 1641) *Discourse on Method and the Meditations*, Harmondsworth: Penguin.
- (1986) (1641) *Meditations on First Philosophy*, tr. J. Cottingham, Cambridge: Cambridge University Press.
- Devitt, M. and Sterelny, K. (1987) *Language and Reality*, Oxford: Blackwell.
- Dewey, J. (1974) *John Dewey on Education: Selected Writings*, ed. R.D. Archambault, Chicago, IL: Chicago University Press.
- (1997) (1910) *The Influence of Darwin in Philosophy*, New York: Prometheus Books.
- Dews, P. (1988) 'Nietzsche and the Critique of Ursprungsphilosophie', in D.F. Krell and D. Wood (eds), *Exceedingly Nietzsche*, London: Routledge.
- Dickie, G. (1974) *Art and the Aesthetic: An Institutional Analysis*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
- (1984) *The Art Circle: A Theory of Art*, New York: Havens.
- Dijk, H. van (1998) *Imagination. Popular Images of Genetics*, London: Macmillan.

- Diprose, R. (1994) *The Bodies of Women: Ethics, Embodiment and Sexual Difference*, London: Routledge.
- Doty, A. (ed.) (1993) *Making Things Perfectly Queer: Interpreting Mass Culture*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.
- Douglas, M. (1969) *Purity and Danger*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1973) *Natural Symbols: Explorations in Cosmology*, Harmondsworth: Penguin.
- (1985) *Risk Acceptability According to the Social Sciences*, New York: Sage.
- (1992) *Risk and Blame*, London: Routledge.
- Douglas, M. and Wildavsky, A. (1982) *Risk and Culture*, Berkeley, CA: University of California Press.
- Downes, D. and Rock, P. (1982) *Understanding Deviance*, Oxford: Clarendon Press.
- Draper, H. (1987) *The 'Dictatorship of the Proletariat' from Marx to Lenin*, New York: Monthly Review Press.
- Dreyfus, H. and Hall, H. (eds) (1992) *Heidegger: A Critical Reader*, Oxford: Blackwell.
- Dror, Y. (1983) (1968) *Public Policymaking Reexamined*, New Brunswick, NJ: Transaction Books.
- Du Gay, P., Hall, S., Jones, L., Mackay, H. and Negus, K. (1997) *Doing Cultural Studies: The Story of the Sony Walkman*, London: Sage.
- Dube, W.D. (ed.) (1997) *German Expressionism: Art and Society 1909–1923*, London: Thames & Hudson.
- Duhem, P. (1962) *The Aim and Structure of Physical Theory*, tr. Philip P. Wiener, New York: Atheneum.
- Dummett, M. (1973) *Frege: Philosophy of Language*, London: Duckworth.
- Dunning, E. (1999) *Sport Matters: Sociological Studies of Sport, Violence and Civilization*, London: Routledge.
- Dunning, E. and Rojek, C. (eds) (1992) *Sport and Leisure in the Civilising Process: Critique and Counter-critique*, Basingstoke: Macmillan.
- Dunning, E. and Sheard, K. (1979) *Barbarians, Gentlemen and Players: A Sociological Study of the Development of Rugby Football*, Oxford: Martin Robertson.
- Durkheim, E. (1952) (1897) *Suicide: A Study in Sociology*, tr. John A. Spaulding and George Simpson, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1975) *Emile Durkheim on Religion*, ed. W.S.F. Pickering, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1976) (1912) *The Elementary Forms of the Religious Life: A Study in Religious Sociology*, London: Allen & Unwin.
- (1982) (1895) *The Rules of Sociological Method*, London: Macmillan.
- (1984) (1893) *The Division of Labour in Society*, tr. W.D. Halls, Basingstoke: Macmillan.
- Durkheim, E. and Mauss, M. (1963) (1903) *Primitive Classification*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Dworkin, R. (2005) 'Terror and the Attack on Civil Liberties', in *The Philosophical Challenge of September 11*, ed. T. Rockmore, J. Margolis and A.T. Marsoonian, Oxford: Blackwell.
- Dyer, R. (1979) *Stars*, London: British Film Institute.

- (1985) 'Entertainment and Utopia', in B. Nichols (ed.), *Movies and Methods*, volume 2, Berkeley, Los Angeles, CA and London: University of California Press.
- Eagleton, T. (1983) *Literary Theory: An Introduction*, Oxford: Blackwell.
- (1984) *The Function of Criticism*, London: Verso.
- (ed.) (1989) *Raymond Williams: Critical Perspectives*, Cambridge: Polity Press.
- (1991) *Ideology: An Introduction*, London: Verso.
- (1999) *The Ideology of the Aesthetic*, Oxford: Blackwell.
- Eatwell, R. (1996) *Fascism: A History*, London: Vintage.
- Eco, U. (1976) *A Theory of Semiotics*, Bloomington, IN: Indiana University Press.
- (1986) *Faith in Fakes: Travels in Hyperreality*, London: Minerva.
- Edgell, S. (1993) *Class*, London: Routledge.
- Ehrenberg, J. (1992) *The Dictatorship of the Proletariat: Marxism's Theory of Socialist Democracy*, New York: Routledge.
- Elders, F. (ed.) (1974) *Reflexive Water: Basic Concerns of Mankind*, London: Souvenir Press.
- Eldridge, J. and Eldridge, L. (1994) *Raymond Williams: Making Connections*, London: Routledge.
- Elias, N. (1970) *What is Sociology?*, London: Hutchinson.
- Elias, N. and Dunning, E. (1986) *Quest for Excitement: Sport and Leisure in the Civilizing Process*, Oxford: Basil Blackwell.
- Elkins, J. (2003) *Visual Studies: A Skeptical Introduction*, London: Routledge.
- Ellenberger, H. (1970) *The Discovery of the Unconscious: The History and Evolution of Dynamic Psychiatry*, London: Allen Lane, The Penguin Press.
- Elshain, J. (2003) *Just War Against Terrorism*, New York: Basic Books.
- Elton, G.R. (1991) *Return to Essentials*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Empson, William, (1951) *The Structure of Complex Words*, London: Chatto & Windus.
- (1953) *(1930) Seven Types of Ambiguity*, London: Chatto & Windus.
- Engels, F. (1947) *(1876–1878) Anti-Dühring*, Moscow: Progress Publishers.
- (1973) *(1873–1883) Dialectics of Nature*, tr. C. Dutt, New York: International Publishers.
- Erikson, E. (1968) *Identity: Youth and Crisis*, London: Faber & Faber.
- Ericson, R. and Haggerty, K. (2002) 'The Policing of Risk', in T. Baker and J. Simons (eds), *Embracing Risk*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Escobar, A. (1994) 'Welcome to Cyberia: Notes towards an Anthropology of Cyberculture', *Current Anthropology*, 35(3): 211–31.
- Ettinger, R.C.W. (1972) *Man into Superman: The Startling Potential of Human Evolution—and How to Be Part of It*, New York: St Martin's Press.
- Evans, G. (1973) 'The Causal Theory of Names', *Proceedings of the Aristotelian Society*, 47:187–208.
- Evans-Pritchard, E.E. (1951) *Kinship and Marriage Among the Nuer*, Oxford: Clarendon Press.
- Falk, P. and Campbell, C. (eds) (1997) *The Shopping Experience*, London: Sage.
- Fanon, F. (1989) *(1952) Black Skin, White Masks*, tr. Charles Lamm Markmann, New York: Grove Press.

- Farrell, F.B. (1994) *Subjectivity, Realism, and Postmodernism: The Recovery of the World*, Cambridge and New York: Cambridge University Press.
- Featherstone, M. (ed.) (1990) *Global Culture: Nationalism, Globalisation and Modernity*, London: Sage.
- Feldstein, R., Fink, B. and Jaanus, M. (eds) (1995) *Reading Seminar XI: Lacan's Four Fundamental Concepts of Psychoanalysis*, Albany, NY: SUNY Press.
- Feyerabend, P. (1975) *Against Method*, London: Verso.
- Fine, B. (1977) 'Labelling Theory: An Investigation into the Sociological Critique of Deviance', *Economy and Society*, 6(2): 166-93.
- Fink, B. (1995) 'The Real Cause of Repetition', in R. Feldstein, B. Fink and M. Jaanus (eds), *Reading Seminar XI: Lacan's Four Fundamental Concepts of Psychoanalysis*, Albany, NY: SUNY Press.
- Finnegan, R. (1989) *Hidden Musicians*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Fiske, J. (1987) *Television Culture*, London: Methuen.
- (1989) *Understanding Popular Culture*, Boston, MA: Unwin Hyman.
- Fiske, J. and Hartley, J. (1978) *Reading Television*, London: Methuen.
- Fleming, R. and Duckworth, W. (eds) (1989) *John Cage at Seventy-Five*, Lewisburg, PA: Bucknell University Press.
- Fletcher, J. (1966) *Situational Ethics*, London: SCM Press.
- Flynn, R. (2002) 'Clinical Governance and Governmentality', *Health, Risk and Society*, 4(2): 155-73.
- FM 2030 (1989) *Are You a Transhuman: Monitoring and Stimulating your Personal Rate of Growth in a Rapidly Changing World*, New York, NY: Warner Books.
- Fodor, J. and LePore, E. (1991) *Holism: A Shopper's Guide*, Oxford: Blackwell.
- Fontana, B. (1993) *Hegemony and Power*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.
- Forman, J.D. (1973) *Socialism: Its Theoretical Roots and Present Day Development*, New York: New Viewpoints.
- Forrester, J. (1990) *The Seductions of Psychoanalysis: Freud, Lacan and Derrida*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Forte, A. (1973) *The Structure of Atonal Music*, New Haven, CT: Yale University Press.
- Foster, G. (1960) *Culture and Conquest*, New York: Wener-Gren Foundation for Anthropological Research.
- Foster, S.L. (ed.) (1996) *Corporealities: Dancing Knowledge, Culture and Power*, London: Routledge.
- Foucault, M. (1970) (1966) *The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences*, London: Tavistock.
- (1971) (1961) *Madness and Civilization: A History of Insanity in the Age of Reason*, London: Tavistock.
- (1972) (1969) *The Archaeology of Knowledge*, tr. A.M. Sheridan Smith, New York: Pantheon Books.
- (1976) (1963) *The Birth of the Clinic*, London: Tavistock.
- (1977a) (1975) *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*, Harmondsworth: Penguin.

- (1977b) 'Nietzsche, Genealogy, History', in D.F. Bouchard (ed.), *Language, Counter-Memory, Practice*, Oxford: Blackwell.
- (1980) *Power-Knowledge: Selected Interviews and Other Writings 1972-1977*, ed. Colin Gordon, Hassocks: Harvester Wheatsheaf.
- (1981) (1976) *The History of Sexuality*, volume 1, *An Introduction*, Harmondsworth: Penguin.
- (1991) 'Governmentality', in G. Burchell et al. (eds), *The Foucault Effect*, London: Harvester Wheatsheaf.
- Foules, A.P. (1983) *Literature and Propaganda*, London: Methuen.
- Fox, M. (1983) *Original Blessing*, London: Bear/Mountain.
- Fränk, A.W. (1995) *The Wounded Story Teller*, Chicago, IL: Chicago University Press.
- Frankenburg, R. (1957) *Village on the Border*, London: Cohen and West.
- Franklin, S. 1993. 'Essentialism, Which Essentialism? Some Implications of Reproductive and Genetic Technoscience', in J. Dececco (ed.), *Issues in Biological Essentialism Versus Social Constructionism in Gay and Lesbian Identities*, London: Harrington Park Press.
- (1995) 'Science as Culture, Cultures of Science', *Annual Review of Anthropology*, 24: 163-84.
- (2003) 'Re-thinking Nature-Culture: Anthropology and the New Genetics', *Anthropological Theory*, 3(1): 68.
- Frege, G. (1953) (1884) *The Foundations of Arithmetic*, second revised edn, tr. J.L. Austin, Oxford: Blackwell.
- (1984) *Collected Papers on Mathematics, Logic and Philosophy*, ed. B. McGuinness, Oxford: Clarendon Press.
- (1993) (1892) 'On Sense and Reference', in A.W. Moore (ed.), *Meaning and Reference*, tr. Max Black, Oxford: Blackwell.
- Freidson, E. (1970) *The Profession of Medicine: A Study of the Sociology of Applied Knowledge*, New York: Dodd, Mead & Co.
- Freud, S. (1908) 'On the Sexual Theories of Children', in *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, Volume 9, tr. J. Strachey, London: Hogarth Press and Institute of Psychoanalysis.
- (1910) 'A Special Type of Choice of Object Made by Men', in *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, Volume 11, tr. J. Strachey, London: Hogarth Press and Institute of Psychoanalysis.
- (1924) 'The Dissolution of the Oedipus Complex', in *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, Volume 19, tr. J. Strachey, London: Hogarth Press and Institute of Psychoanalysis.
- (1955) 'Beyond the Pleasure Principle', in *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, Volume 18, tr. J. Strachey, London: Hogarth Press.
- (1966) *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, ed. J. Strachey, London: Hogarth Press.
- (1977) (1905) *On Sexuality: Three Essays on the Theory of Sexuality and Other Works*, ed. A. Richards, tr. James Strachey, London: Penguin.
- (1979) (1909) 'My Views on the Part Played by Sexuality in the Aetiology of the Neuroses', in *On Psychopathology*, ed. A. Richards, tr. James Strachey, Harmondsworth: Pelican Books.

- (1984) (1920) 'Beyond the Pleasure Principle', in *On Metapsychology*, ed. A. Richards, tr. J. Strachey, London: Penguin.
- (1991a) (1900) *The Interpretation of Dreams*, ed. A. Richards, tr. James Strachey, London: Penguin.
- (1991b) (1915) 'Instincts and their vicissitudes', in *On Metapsychology: The Theory of Psychoanalysis*, ed. A. Richards, tr. James Strachey, London: Penguin.
- (2001) (1919) 'Lines of Advance in Psycho-Analytic Therapy', in his *An Infantile Neurosis and Other Works*, (The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, Volume XVII (1917–1919)), London: Vintage.
- Fried, M. (1992) (1965) 'Three American Painters', in C. Harrison and P. Wood (eds), *Art in Theory 1900–1990: An Anthology of Changing Ideas*, Oxford: Blackwell.
- Friedman, M. (1953) *Essays in Positive Economics*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Frisby, D. (1988) *Fragments of Modernity*, Cambridge: Polity Press.
- (ed.) (1994) *Georg Simmel: Critical Assessments*, London: Routledge.
- Frisby, D. and Sayer, D. (1985) *Society*, London: Tavistock Publications.
- Frith, S. (1981) *Sound Effects*, New York: Pantheon.
- (1984) *Sociology of Youth*, County of Lancashire: Causeway Books.
- (1992) 'The Cultural Study of Popular Music', in L. Grossberg, C. Nelson and S. Frith (eds), *Performing Rites: On the Value of Popular Music*, Oxford: Oxford University Press.
- Fukuyama, F. (1992) *The End of History*, London: Hamish Hamilton.
- (2002) *Our Posthuman Future: Consequences of the Biotechnology Revolution*, London: Profile Books.
- Gabbard, K. (ed.) (1995) *Jazz Among the Discourses*, London: Duke University Press.
- Gadamer, H.-G. (1975) (1962) *Truth and Method*, tr. Garrett Barden and John Cumming, London: Sheed & Ward.
- Gallie, W.B. (1975) *Peirce and Pragmatism*, Westport, CT: Greenwood Press.
- Galton, F. (1907) (1883) *Enquiries into Human Faculty and its Development*, New York: Dutton.
- Gans, H.J. (1968) 'Urbanism and Suburbanism as Ways of Life', in R. Pahl (ed.), *Readings in Urban Sociology*, Oxford: Pergamon.
- Gardiner, M. (1992) *The Dialogics of Critique: M.M. Bakhtin and the Theory of Ideology*, London: Routledge.
- Garfinkel, H. (1967) *Studies in Ethnomethodology*, Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
- Gay, P. (1984) *The Bourgeois Experience: Victoria to Freud*, Volume 1, *Education of the Senses*, Oxford: Oxford University Press.
- (1986) *The Bourgeois Experience: Victoria to Freud*, Volume 2, *The Tender Passion*, Oxford: Oxford University Press.
- (1988a) *The Enlightenment: An Interpretation*, 2 volumes, London: Weidenfeld & Nicolson.
- (1988b) *Freud: A Life for Our Time*, London: Macmillan.
- Geertz, C. (1973) *The Interpretation of Cultures*, New York: Basic Books.
- (1976) *The Religion of Java*, Chicago, IL: University of Chicago Press.

- Geffer, A. (2006) 'This is Your Space', *New Scientist*, 16 September, 46–8.
- Gelb, I.J. (1963) *The Study of Writing*, second edn, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Gellner, E. (1983) *Nations and Nationalism*, Oxford: Blackwell.
- Genette, G. (1980) *Narrative Discourse: An Essay on Method*, Oxford: Blackwell.
- Gettier, E.L. (1963) 'Is Justified True Belief Knowledge?', *Analysis*, Vol. 23.
- Gibson, W. (1984) *Neuromancer*, London: Grafton.
- (1986) *Burning Chrome*, London: Gollancz.
- Giddens, A. (1973) *The Class Structure of the Advanced Societies*, London: Hutchinson.
- (1977) *Studies in Social and Political Theory*, London: Hutchinson.
- (1978) *Durkheim*, London: Fontana.
- (1979) 'Agency, Structure', in: *Central Problems in Social Theory*, London: Macmillan.
- (1984) *The Constitution of Society: Outline of the Theory of Structuration*, Cambridge: Polity Press.
- (1990) *The Consequences of Modernity*, Cambridge: Polity Press.
- (1991) *Modernity and Self-Identity*, Cambridge: Polity Press.
- (1997) *Sociology*, third edn, Cambridge: Polity Press.
- (1998) *The Third Way*, Cambridge: Polity Press.
- Giddens, A. and Held, D. (eds) (1982) *Classes, Power and Conflict: Classical and Contemporary Debates*, Basingstoke: Macmillan.
- Gillian, H., Gillis, S. and Munford, R. (eds) (2004) *Third Wave Feminism: A Critical Exploration*, Basingstoke: Palgrave Macmillan.
- Gillies, D. (1993) *Philosophy of Science in the Twentieth Century: Four Central Themes*, Oxford: Blackwell.
- Gilligan, C. (1982) *In a Different Voice: Psychological Theory and Women's Development*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Gillis, J.R. (1974) *Youth and History*, New York: Academic Press.
- Gillock, G. (1996) *Myth and Metropolis: Walter Benjamin and the City*, Cambridge: Polity Press.
- Giner, S. (1976) *Mass Society*, London: Martin Robertson.
- Giroux, H. (1983) *Theory and Resistance in Education*, London: Heinemann.
- Giulianotti, R. (2005) *Sport: A Critical Sociology*, Oxford: Polity.
- Grünau, R. (1983) *Class, Sports, and Social Development*, Amherst, MA: University of Massachusetts Press.
- Gjertsen, D. (1989) *Science and Philosophy: Past and Present*, Harmondsworth: Penguin.
- Glasgow University Media Group (1976) *Bad News*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Glover, J. (1990a) *Causing Death and Saving Lives*, Harmondsworth: Penguin.
- Glover, J. (ed.) (1990b) *Utilitarianism and its Critics*, New York and London: Macmillan.
- Goffman, E. (1956) 'Embarrassment and Social Organization', *American Journal of Sociology*, 62: 264–71.
- (1959) *The Presentation of Self in Everyday Life*, Harmondsworth: Penguin.
- (1961) *Asylums: Essays on the Social Situation of Mental Patients and Other Inmates*, New York: Doubleday.

- (1963) *Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity*, New York: Prentice Hall.
- (1974) *Frame Analysis*, New York: Harper & Row.
- Golding, P. and Murdock, G. (1991) 'Culture, Communications and Political Economy', in J. Curran and M. Gurevitch (eds), *Mass Media and Society*, London: Arnold.
- Goldman, A. (1986) *Epistemology and Cognition*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Goodman, N. (1976) *Languages of Art*, second edn, Indianapolis, IN: Hackett.
- (1978) *Ways of Worldmaking*, Indianapolis, IN: Hackett.
- Goodwin, R. (2006) *What's Wrong with Terrorism?*, Cambridge: Polity Press.
- Gorz, A. (ed.) (1973) *The Division of Labour: The Labour Process and Class Struggle in Modern Capitalism*, Hassocks: Harvester.
- Gorz, A. (1980) *Ecology as Politics*, London: Pluto.
- Gould, S.J. (1991) *Wonderful Life*, London: Penguin.
- (1980) *Ever Since Darwin*, Harmondsworth: Penguin.
- Goux, J.-J. (1993) *Oedipus, Philosopher*, tr. Catharine Porter, Stanford, CA: Stanford University Press.
- Gove, W. (1980) *The Labelling of Deviance*, Beverly Hills, CA: Sage.
- Graham, G. (1997) *Philosophy of the Arts: An Introduction to Aesthetics*, London: Routledge.
- (2002) *Genes: A Philosophical Inquiry*, London: Routledge.
- Gramsci, A. (1971) (1929–1935) *Selections from Prison Notebooks*, London: Lawrence & Wishart.
- Grant, R.W. (1987) *John Locke's Liberalism*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Gravett, P. (2006) *Great British Comics*, London: Aurum Press.
- Gray, J. (1990) *Liberalisms: Essays in Political Philosophy*, London: Routledge.
- Gray, R.M. (1996) *Archetypal Explorations: Towards an Archetypal Sociology*, London: Routledge.
- Grayling, A.C. (1988) *Wittgenstein*, Oxford: Oxford University Press.
- Green, D. and Shapiro, I. (1994) *Pathologies of Rational Choice Theory*, New Haven, CT: Yale University Press.
- Greenberg, C. (1992) (1961) 'Modernist Painting', in C. Harrison and P. Wood (eds), *Art in Theory 1900–1990: An Anthology of Changing Ideas*, Oxford: Blackwell.
- Greenblatt, S. (1980) *The Forms of Power and the Power of Forms in the Renaissance*, Norman, OK: University of Oklahoma Press.
- Grossberg, L., Cary, N. and Treichler, P.A. (eds) (1992) *Cultural Studies*, New York: Routledge.
- Grossmann, R. (1992) *The Existence of the World: An Introduction to Ontology*, London: Routledge.
- Grosz, E. (1989) *Sexual Subversions. Three French Feminists: Julia Kristeva, Luce Irigaray, Michele Le Doeuff*, Sydney: Allen & Unwin.
- (1994) *Volatile Bodies: Toward a Corporeal Feminism*, Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press.
- Grunbaum, A. (1984) *The Foundations of Psychoanalysis: A Philosophical Critique*, Berkeley, CA: University of California Press.

- Gueguen, P.-G. (1995) 'Transference as Deception', in R. Feldstein et al. (eds), *Reading Seminar XI: Lacan's Four Fundamental Concepts of Psychoanalysis*, Albany, NY: SUNY Press.
- Gutman, Y. and Berenbaum, M. (eds) (1994) *Anatomy of the Auschwitz Death Camp*, Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press.
- Habermas, J. (1970a) 'On Systematically Distorted Communication', *Inquiry*, 13: 205-18.
- (1970b) 'Towards a Theory of Communicative Competence', *Inquiry*, 13: 360-75.
- (1971) (1968) *Knowledge and Human Interests*, Boston, MA: Beacon Press.
- (1976a) (1971) *Theory and Practice*, Boston, MA: Beacon Press.
- (1976b) (1973) *Legitimation Crisis*, London: Heinemann.
- (1979) (1976) *Communication and the Evolution of Society*, Boston, MA: Beacon Press.
- (1983) 'Modernity—An Incomplete Project', in H. Foster (ed.), *Post-modern Culture*, London: Pluto Press.
- (1984) (1981) *Reason and the Rationalisation of Society*, Volume 1 of *The Theory of Communicative Action*, Cambridge: Polity Press.
- (1987) (1981) *Lifeworld and System: A Critique of Functional Reason*, Volume 2 of *The Theory of Communicative Action*, Cambridge: Polity Press.
- (1988) (1985) *The Philosophical Discourse of Modernity*, Cambridge, MA: MIT Press.
- (1989a) (1962) *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society*, Cambridge: Polity Press.
- (1989b) (1985) *The New Conservatism: Cultural Criticism and the Historians' Debate*, Cambridge, MA: MIT Press.
- (1990) *Moral Consciousness and Communicative Action*, Cambridge, MA: MIT Press.
- (2003) *The Future of Human Nature*, Oxford: Polity.
- (2007) *The Dialectic of Secularism: On Reason and Religion*, San Francisco, CA: Ignatius Press.
- Hahn, L.E. (ed.) (1990) *The Philosophy of Paul Ricoeur*, Oxford: Blackwell.
- Haldane, J. and Wright, C. (eds) (1993) *Reality, Representation, and Projection*, New York: Oxford University Press.
- Haldane, J.B.S. (1924) *Daedalus: or, Science and the Future*, London: Kegan Paul, Trench, Trubner.
- Hall, S. (1973) 'Encoding and Decoding in Television Discourse', CCCS stencilled paper (see Hall (1980)).
- (1975) 'Television as a Medium and Its Relation to Culture', CCCS stencilled paper no. 34.
- (1980) 'Encoding/Decoding', in S. Hall, D. Hobson, A. Lowe and P. Willis (eds), *Culture, Media, Language*, London: Hutchinson.
- (1982) 'The Rediscovery of "Ideology": The Return of the "Repressed"', in *Media Studies*, in M. Gurevitch, T. Bennett, J. Curran and J. Woollacott (eds), *Culture, Society and the Media*, London: Methuen.
- (1985) 'The Toad in the Garden: Thatcherism amongst the Theorists', in C. Nelson and L. Grossberg (eds), *Marxism and the Interpretation of Culture*, Urbana, IL: University of Illinois Press.

- (1990) 'Cultural Identity and Diaspora', in J. Rutherford (ed.), *Identity, Community, Culture, Difference*, London: Lawrence & Wishart.
- (1996) *Critical Dialogues in Cultural Studies*, London: Routledge.
- Hall, S. and Jefferson, T. (eds) (1976) *Resistance Through Rituals: Youth Subcultures in Post-war Britain*, London: Hutchinson.
- Hall, S. and Whannel, P. (1964) *The Popular Arts*, London: Hutchinson.
- Hall, S., Critcher, C., Jefferson, T., Clarke, J. and Roberts, B. (eds) (1978) *Policing the Crisis: Mugging, the State and Law and Order*, London: Macmillan.
- Hall, S., Hobson, D., Lowe, A. and Willis, P. (eds) (1992) *Culture, Media, Language: Working Papers in Cultural Studies, 1972-79*, London: Hutchinson.
- Halsey, A.H., Heath, S. and Ridge, J.M. (1980) *Origins and Destinations: Family, Class and Education in Modern Britain*, Oxford: Clarendon Press.
- Hamilton, P. (1996) *Historicism*, New York: Routledge.
- Hamilton, P. and Turner, B.S. (eds) (1994) *Citizenship: Critical Concepts*, London: Routledge.
- Hamilton, W.D. (1964) 'The Genetic Evolution of Social Behaviour', *Journal of Theoretical Biology*, 7:1-52.
- Hampton, J. (1997) *Political Philosophy*, Boulder, CO: Westview Press.
- Hanfling, O. (ed.) (1981) *Essential Readings in Logical Positivism*, Oxford: Blackwell.
- Haralambos, M. (1985) *Sociology: Themes and Perspectives*, second edn, London: Bell & Hyman.
- Harari, J.V. (ed.) (1980) *Textual Strategies: Perspectives in Post-Structuralist Criticism*, London: Methuen.
- Haraway, D. (1991) 'A Cyborg Manifesto: Science, Technology, and Socialist-Feminism in the Late Twentieth Century', in *Simians, Cyborgs and Women: The Reinvention of Nature*, New York: Routledge, 149-81.
- (1997) *Modest_Witness@Second_Millennium. FemaleMan_Meets_Oncomouse. Feminism and Technoscience*, New York: Routledge.
- Harding, S. (1992) *Whose Science? Whose Knowledge? Thinking from Women's Lives*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
- (2003) 'A World of Sciences', in S. Harding and R. Figueroa (eds) *Science and Other Cultures: Issues in Philosophies of Science and Technology*, London: Routledge.
- Hargreaves, J. (1994) *Sporting Females: Critical Issues in the History and Sociology of Women's Sport*, London: Routledge.
- (2000) *Heroines of Sport: The Politics of Difference and Identity*, London: Routledge.
- (2006) *Physical Culture, Power and the Body*, London: Routledge.
- Hargreaves, J. and MacDonald, I. (2002) 'Cultural Studies and the Sociology of Sport', in J. Coakley and E. Dunning (eds), *Handbook of Sports Studies*, London: Sage.
- Harker, D. (1985) *Fakesong: The Manufacture of British Folksong, 1700 to the Present Day*, Milton Keynes: Open University Press.
- Harland, R. (1987) *Superstructuralism*, London: Methuen.
- Harré, R. (1970) *The Principle of Scientific Thinking*, London: Macmillan.
- Harrington, J. (1992) (1656) *Commonwealth of Oceana*, ed. J.G.A. Pocock, Cambridge: Cambridge University Press.
- Harris, R. (1987) *Reading Saussure: A Critical Commentary on the Cours de Linguistique Générale*, London: Duckworth.

- (1988) *Language, Saussure and Wittgenstein: How to Play Games with Words*, London: Routledge.
- (1995) *Signs of Writing*, London: Routledge.
- Harrison, C. (1991) *Essays on Art and Language*, Oxford: Blackwell.
- Hartmann, P. and Husband, C. (1974) *Racism and the Mass Media*, London: Davis-Poynter.
- Harvey, D. (1989) *The Condition of Postmodernity: An Enquiry into the Origins of Cultural Change*, Oxford: Blackwell.
- Hassan, I. (1987) *The Postmodern Turn: Essays in Postmodern Theory and Culture*, Columbus, OH: Ohio State University Press.
- Hauser, A. (1962) *A Social History of Art*, volume 2, *Renaissance, Mannerism and Baroque*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Hayes, F.A. (1973) *Law Legislation and Liberty – Rules and Order*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Hayles, N.K. (1999) *How We Became Posthuman: Virtual Bodies in Cybernetics, Literature, and Informatics*, Chicago, IL: Chicago University Press.
- Heath, A. (1981) *Social Mobility*, London: Fontana.
- Heath, A. (1981) *Social Mobility*, London: Fontana.
- Hebdige, D. (1979) *Subculture: The Meaning of Style*, London: Methuen.
- Hechter, M., Nedel, L. and Michael, R. (eds) (1993) *The Origin of Values*, New York: de Gruyter.
- Hedgecoe, A. (1998) 'Geneticization, Medicalisation and Polemics', *Medicine, Health Care and Philosophy*, 1(3): 235–43.
- Hedges, I. (1983) *Language of Revolt: Dada and Surrealist Literature and Film*, Durham, NC: Duke University Press.
- Hegel, G.W.F. (1931) (1807) *The Phenomenology of Mind*, tr. J.B. Bailey, London: Allen & Unwin.
- (1942) (1821) *The Philosophy of Right*, tr. T.M. Knox, Oxford: Clarendon Press.
- (1948) *Early Theological Writings*, tr. T.M. Knox, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- (1970) (1817) *Philosophy of Nature*, tr. A.V. Miller, Oxford: Clarendon Press.
- (1971) (1817) *Philosophy of Mind*, tr. W. Wallace and A.V. Miller, Oxford: Clarendon Press.
- (1975a) (1817) *Hegel's Logic*, tr. W. Wallace, Oxford: Clarendon Press.
- (1975b) *Hegel's Aesthetics*, 2 volumes, tr. T.M. Knox, Oxford: Clarendon Press.
- (1977) (1807) *The Phenomenology of Spirit*, tr. A.V. Miller, Oxford: Clarendon Press.
- (1988a) *Introduction to the Philosophy of History*, tr. L. Rauch, Indianapolis, IN: Hackett.
- (1988b) (1827) *Lectures on the Philosophy of Religion*, Berkeley, CA: University of California Press.
- (1991) (1821) *Elements of the Philosophy of Right*, ed. Allen Wood, tr. H.B. Nisbett, Cambridge: Cambridge University Press.
- Heidegger, M. (1962) (1927) *Being and Time*, tr. John MacQuarrie and Edward Robinson, Oxford: Blackwell.

- (1993) (1951) 'Building, Dwelling, Thinking', in D.F. Krell (ed.), *Basic Writings*, London: Routledge.
- (1996) *Basic Writings: Martin Heidegger*, ed. David Farrell Krell, London: Routledge.
- Held, D. (1980) *Introduction to Critical Theory: Horkheimer to Habermas*, London: Hutchinson.
- Held, D. and Thompson, J. (eds) (1990) *Social Theory of Modern Societies: Anthony Giddens and his Critics*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Henri, M. (1993) (1985) *The Genealogy of Psychoanalysis*, tr. Douglas Brick, Stanford, CA: Stanford University Press.
- Heritage, J. (1984) *Gaffinkel and Ethnomethodology*, Cambridge: Polity Press.
- Hernadi, P. (1995) *Cultural Transactions: Nature, Self, Society*, Ithaca, NY and London: Cornell University Press.
- Hilbert, R.A. and Collins, R. (1992) *The Classical Roots of Ethnomethodology: Durkheim, Weber and Garfinkel*, Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press.
- Hilferding, R. (1981) (1910) *Finance Capital: A Study of the Latest Phase of Capitalist Development*, London: Verso.
- Hill, C. (1975) *The World Turned Upside Down: Radical Ideas During the English Revolution*, Harmondsworth: Penguin.
- Hindess, B. and Hirst, P.Q. (1975) *Pre-Capitalist Modes of Production*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Hirsch, E.D. (1967) *Validity in Interpretation*, New Haven, CT, Yale University Press.
- Hirschkop, K. (1986) 'A Response to the Forum on Mikhail Bakhtin', in G.S. Morson (ed.), *Bakhtin: Essays and Dialogues on His Work*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Hitchcock, H.-R. and Johnson, P. (1966) *The International Style*, New York: W.W. Norton.
- Hobbes, T. (1994) (1651) *Leviathan*, ed. R. Tuck, Cambridge: Cambridge University Press.
- Hobsbawm, Eric (1995) *Age of Extremes*, London: Abacus.
- Hodder, I. (1986) *Reading the Past: Current Approaches to Interpretation in Archaeology*, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1992) *Theory and Practice in Archaeology*, London: Routledge.
- Hoggart, R. (1957) *Uses of Literacy*, London: Chatto & Windus.
- (1988) *Life and Times*, 3 volumes, London: Chatto & Windus.
- Holdcraft, D. (1991) *Saussure: Signs, System and Arbitrariness*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Hollingdale, R.J. (1973) *Nietzsche*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Hollis, M. and Lukes, S. (eds) (1982) *Rationality and Relativism*, Oxford: Blackwell.
- Holly, M.A., Moxey, K., and Bryson, N. (eds) (1994) *Visual Culture: Images and Interpretations*, Middletown, CT: Wesleyan University Press.
- Holquist, M. (1990) *Dialogism: Bakhtin and His World*, London: Routledge.
- Holub, R.C. (1992) *Crossing Borders: Reception Theory, Poststructuralism, Deconstruction*, Madison, WI: University of Wisconsin Press.
- Honderich, T. (1993) *How Free Are You?: The Determinism Problem*, Oxford: Oxford University Press.

- Honour, H. (1979) *Romanticism*, London: Allen Lane.
- Hookway, C. (1985) *Peirce*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Horkheimer, M. (1972a) (1937) 'Traditional and Critical Theory', in *Critical Theory: Selected Essays*, New York: Herder & Herder.
- (1972b) (1941) 'Art and Mass Culture', in *Critical Theory: Selected Essays*, New York: Herder & Herder.
- (1992) (1947) *Eclipse of Reason*, New York: Continuum.
- Horkheimer, M. and Adorno, T.W. (1972) (1947) *Dialectic of Enlightenment*, London: Allen Lane.
- (2002) (1947) *Dialectic of Enlightenment: Philosophical Fragments*, tr. E. Jephcott, Stanford, CA: Stanford University Press.
- Hobsbawm, E. (1987) *The Age of Empire, 1875–1914*, London: Weidenfeld and Nicolson.
- Hosek, C. and Parker, P. (eds) (1985) *Lyric Poetry: Beyond New Criticism*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Howie G., Gillis, S. and Munford, R. (eds) (2004) *Third Wave Feminism: a Critical Exploration*, Basingstoke: Palgrave Macmillan.
- Hughes, J. (2004) *Citizen Cyborg: Why Democratic Societies Must Respond to the Redesigned Human of the Future*, Cambridge, MA: Westview Press.
- Hume, D. (1978) *Enquiries Concerning Human Understanding and Concerning the Principles of Morals*, Oxford: Clarendon Press.
- (1985) (1757) 'Of the Standard of Taste', in *Essays: Moral, Political and Literary*, ed. E.F. Miller, Indianapolis, IN: Liberty Press.
- (1990) (1739) *A Treatise of Human Nature*, ed. P.H. Nidditch, Oxford: Clarendon Press.
- Hunnicut, B.K. (1988) *Work without End: Abandoning Shorter Hours for the Right to Work*, Philadelphia, PA: Temple University Press.
- Hunt, J.D. (1976) *The Figure in the Landscape: Poetry, Painting and Gardening during the Eighteenth Century*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.
- Hunt J.D. and Willis, P. (eds) (1988) *The Genius of the Place: The English Landscape Garden 1620–1820*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Huntington, S. (1998) *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*, New York: Touchstone.
- Husserl, E. (1954) (1938) *The Crisis of European Sciences and Transcendental Phenomenology*, Evanston, IL: Northwestern University Press.
- (1962) (1913) *Ideas*, New York: Collier.
- Hylton, P. (1990) *Russell, Idealism, and the Emergence of Analytic Philosophy*, Oxford: Clarendon Press.
- Illich, I. (1971) *Deschooling Society*, London: Calder & Boyars.
- (1976) *Limits to Medicine: Medical Nemesis, the Expropriation of Health*, London: Calder & Boyars.
- Ingarden, R. (1973) *The Literary Work of Art*, Evanston, IL: Northwestern University Press.
- Inglis, F. (1993) *Cultural Studies*, Oxford: Blackwell.
- Ingold, T. (ed.) (1996) *Key Debates in Anthropology*, London: Routledge.
- Innis, H.A. (1950) *Empire and Communications*, Oxford: Oxford University Press.

- (1951) *The Bias of Communication*, Toronto: Toronto University Press.
- Innis, R.E. (ed.) (1986) *Semiotics: An Introductory Reader*, London: Hutchinson.
- Inwood, M. (1992) *A Hegel Dictionary*, Oxford: Blackwell.
- Irigaray, L. (1985a) (1974) *Speculum of the Other Woman*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
- (1985b) (1977) *This Sex Which is Not One*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
- (1986) *Divine Women*, Sydney: Local Consumption.
- (1991) (1980) *Marine Lover of Friedrich Nietzsche*, New York: Columbia University Press.
- (1992) (1990) *Culture of Difference*, New York: Routledge.
- (1993a) (1984) *An Ethics of Sexual Difference*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
- (1993b) (1990) *Je, tu, nous: Towards a Culture of Difference*, London: Routledge.
- Jaanus, M. (1995) 'The Démontage of the drive', in R. Feldstein, B. Fink and M. Jaanus (eds), *Reading Seminar XI: Lacan's Four Fundamental Concepts of Psychoanalysis*, Albany, NY: SUNY Press.
- Jakobson, R. (1971–1985) *Selected Writings*, Volumes 1–6, The Hague and Berlin: Mouton.
- (1987) 'Linguistics and Poetics', in *Language and Literature*, ed. K. Pomorska and S. Rudy, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- (1990) *On Language*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- James, A., Hockey, J.L. and Dawson, A.H. (eds) (1997) *After Writing Culture: Epistemology and Praxis in Contemporary Anthropology*, London: Routledge.
- James, C.L.R. (1987) (1963) *Beyond a Boundary*, London: Serpent's Tail.
- Jameson, F. (1971) *Marxism and Form*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
- (1972) *The Prison-House of Language: A Critical Account of Structuralism and Russian Formalism*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
- (1991) *Postmodernism, or, The Cultural Logic of Late Capitalism*, London: Verso.
- Jarvie, G. (1991) *Sport, Racism and Ethnicity*, Sussex: Falmer Press.
- (2000) 'Highland Games', in G. Jarvie and J. Burnett (eds), *Sport, Scotland and the Scots*, East Linton: Tuckwell Press.
- Jarvie, G. and Burnett, J. (eds) (2000) *Sport, Scotland and the Scots*, East Linton: Tuckwell Press.
- Jay, M. (1973) *The Dialectical Imagination*, Boston, MA: Little Brown and Company.
- (1984) *Adorno*, London: Fontana.
- Jekyll, G. (1937) *A Gardener's Testament. A Selection of Articles and Notes*, London: Country Life.
- Jenger, J. (1996) *Le Corbusier: Architect of a New Age*, London: Thames & Hudson.
- Jenkins, K. (1995) *On "What is History?": from Carr and Elton to Rorty and White*, sixth edn, London: Academy Editions.
- Jenks, C. (1991) *The Language of Postmodern Architecture*, sixth edn, London: Academy Editions.

- (1993a) *Culture*, London: Routledge.
- (ed.) (1993b) *Cultural Reproduction*, London: Routledge.
- Joas, H. (1996) *The Creativity of Action*, Cambridge: Polity Press.
- Johnson, B. (1980) *The Critical Difference: Essays in the Contemporary Rhetoric of Reading*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.
- Johnson, L. (1979) *The Cultural Critics: From Matthew Arnold to Raymond Williams*, London, Boston, MA, and Henley: Routledge & Kegan Paul.
- Jones, E. (1964) *The Life and Work of Sigmund Freud*, London: Penguin.
- Jones, L. (Baraka, A.) (1965) *Blues People: Negro Music in White America*, London: MacGibbon & Lee.
- Jost, E. (1981) *Free Jazz*, New York: Da Capo Press.
- Jung, C.G. (1959) *The Collected Works of C.G. Jung*, volume 91, *Archetypes and the Collective Unconscious*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1993) (1917) *Psychology of the Unconscious: A Study of the Transformations and Symbolism of the Libido*, London: Routledge.
- Kac, E. (ed.) (2007) *Signs of Life: Bio Art and Beyond*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Kant, I. (1964) (1781) *Critique of Pure Reason*, tr. Norman Kemp Smith, London: Macmillan.
- (1970) *Political Writings*, ed. H. Reiss, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1976) (1788) *Critique of Practical Reason, and Other Writings in Moral Philosophy*, ed. and tr. Lewis White-Beck, New York: Garland.
- (1983) (1786) 'Speculative Beginning of Human History', in *Perpetual Peace and Other Essays*, tr. T. Humphrey, Indianapolis, IN: Hackett.
- (1987) (1790) *The Critique of Judgement*, tr. W.S. Pluhar, Indianapolis, IN: Hackett; (1952) Oxford: Oxford University Press.
- Kaplan, E. Ann and Sprinker, M. (1993) *The Althusserian Legacy*, London: Verso.
- Kaufmann, W. (1974) *Nietzsche: Philosopher, Psychologist, Antichrist*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Keane, J. (ed.) (1988) *Civil Society and the State: New European Perspectives*, London: Verso.
- Kearney, R. and Rainwater, M. (eds) (1996) *The Continental Philosophy Reader*, London: Routledge.
- Keller, E. Fox (2000) *The Century of the Gene*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Kelly, T.M. (1997) *Reinventing Allegory*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Kellner, D. (1989) *Jean Baudrillard: From Marxism to Postmodernism and Beyond*, Cambridge: Polity Press.
- Kelly, A. (1982) *Mikhail Bakunin: A Study in the Psychology and Politics of Utopianism*, Oxford: Clarendon Press.
- Kennedy, B. (1999) 'Post-feminist Futures in Film Noir', in M. Aaron (ed.), *The Body's Perilous Pleasures: Dangerous Desires and Contemporary Culture*, Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Kenny, A. (ed.) (1994) *The Wittgenstein Reader*, Oxford: Blackwell.
- Kermode, F. (1975) *The Classic*, London: Faber & Faber.

- Kevles, D.J. (1985) *In the Name of Genetics: Genetics and the Use of Human Heredity*, New York: Knopf.
- Kierkegaard, S. (1966) (1841) *The Concept of Irony*, London: Collins.
- Kim, J. and Sosa, E. (1994) *A Companion to Metaphysics*, Oxford: Blackwell.
- Klein, R. (1992/3) 'Notes on the Foundations', *Journal of the Centre for Freudian Analysis and Research*, Winter.
- Klotz, J.-P. (1995) 'The Passionate Dimensions of Difference', in R. Feldstein et al. (eds), *Reading Seminar XI: Lacan's Four Fundamental Concepts of Psychoanalysis*, Albany, NY: SUNY Press.
- Knight, F.H. (1921) *Risk, Uncertainty, and Profit*, New York: Houghton Mifflin.
- Kolakowski, L. (1972) *Positivist Philosophy*, London: Penguin.
- (1978) *Main Currents of Marxism*, 3 volumes, Oxford: Oxford University Press.
- Kolb, D. (1990) *Postmodern Sophistications: Philosophy, Architecture and Tradition*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Korner, S. (1955) *Kant*, Harmondsworth: Penguin.
- Kracauer, S. (1947) *From Caligari to Hitler*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Kracauer, S. (1960) *Theory of Film: The Redemption of Physical Reality*, London: Oxford University Press.
- Kraus, R. (1996) 'Welcome to the Cultural Revolution', *October*, 77: 83–96.
- Krell, D.F. and Wood, D. (1988) *Exceedingly Nietzsche: Aspects of Contemporary Nietzschean Interpretation*, London: Routledge.
- Kripke, S. (1980) *Naming and Necessity*, Oxford: Blackwell.
- Kristeva, J. (1969) *Séméiotiké: Recherches pour une sémanalyse*, Paris: Seuil.
- (1982) (1980) *Powers of Horror: An Essay on Abjection*, New York: Columbia University Press.
- (1984) (1974) *Revolution in Poetic Language*, New York: Columbia University Press.
- (1986a) 'Word, Dialogue and Novel', in T. Moi (ed.), *The Kristeva Reader*, Oxford: Blackwell.
- (1986b) 'The System and the Speaking Subject', in T. Moi (ed.), *The Kristeva Reader*, Oxford: Blackwell.
- (1987) (1983) *Tales of Love*, New York: Columbia University Press.
- (1989) *Black Sun*, New York: Columbia University Press.
- (1991) (1988) *Strangers to Ourselves*, New York: Columbia University Press.
- Kristol, I. (1999) *Neoconservatism: The Autobiography of an Idea*, Chicago, IL: Ivan R. Dee Inc.
- (2003) 'The Neoconservative Persuasion', in *The Weekly Standard*, Volume 008, Issue 47, 2003.
- Kuhn, T.S. (1970) (1962) *The Structure of Scientific Revolutions*, second edn, London and Chicago, IL: The University of Chicago Press.
- Kukathas, C. (1989) *Hayek and Modern Liberalism*, Oxford: Clarendon Press.
- Kumar, K. (1978) *Prophecy and Progress*, Harmondsworth: Penguin.
- (1991) *Utopianism*, Milton Keynes: Open University Press.
- Kurzweil, E. (1980) *The Age of Structuralism: Lévi-Strauss to Foucault*, New York: Columbia University Press.

- Kymlicka, W. (1989) *Liberalism, Community and Culture*, Oxford: Clarendon Press.
- Lacan, J. (1977a) (1973) *Four Fundamental Concepts of Psychoanalysis*, London: Hogarth.
- (1977b) (1966) *Écrits: A Selection*, tr. Alan Sheridan, ed. Jacques-Alain Miller, London: Routledge.
- (1979) 'Tuché and Automation', in *The Four Fundamental Concepts of Psychoanalysis*, ed. Jacques-Alain Miller, tr. A. Strachey, London: Penguin.
- Laclau, E. and Mouffe, C. (1985) *Hegemony and Socialist Strategy*, London: Verso.
- Ladurie, E. Le Roy (1980) (1978) *Montaillou: Cathars and Catholics in a French Village 1294–1324*, Harmondsworth: Penguin.
- Laing, D. (1985) *One Chord Wonders: The Power and Meaning in Punk Rock*, Milton Keynes: Open University Press.
- Langer, S.K. (1942) *Philosophy in a New Key: A Study of the Symbolism of Reason, Rite and Art*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Laplanche, J. and Pontalis, J.-B. (1973) 'Instinct (or drive)', in *The Language of Psychoanalysis*, tr. Donald Nicholson-Smith, London: Karnac Books and the Institute of Psychoanalysis, pp. 214–17.
- (1988) (1967) *The Language of Psychoanalysis*, tr. Donald Nicholson-Smith, London: Karnac Books and the Institute of Psychoanalysis.
- Laqueur, W. (ed.) (1988) *Fascism: A Reader's Guide*, London: Wildwood House.
- Lareau, A. and Shultz, J. (eds) (1996) *Journeys through Ethnography: Realistic Accounts of Fieldwork*, Boulder, CO: Westview Press.
- Larain, J. (1979) *The Concept of Ideology*, London: Hutchinson.
- Lasdun, S. (1991) *The English Park: Royal, Private and Public*, London: Deutsch.
- Lash, S. and Urry, J. (1987) *The End of Organised Capitalism*, Cambridge: Polity.
- Laszlo, E. (1987) *Evolution: The Grand Synthesis*, London: New Science Library.
- de Laszlo, V.S. (ed.) (1992) *The Basic Writings of C.G. Jung*, London: Routledge.
- Lavers, A. (1982) *Roland Barthes: Structuralism and After*, London: Methuen.
- Lavie, S. and Swendenburg, T. (eds) (1996) *Displacement, Diaspora, and Geographies of Identity*, Durham, NC: Duke University Press.
- Leach, E. (1970) *Lévi-Strauss*, London: Fontana.
- (1982) *Social Anthropology*, Glasgow: Fontana.
- Leach, N. (ed.) (1997) *Rethinking Architecture: A Reader in Cultural Theory*, London: Routledge.
- Leavis, F.R. (1972) *Nor Shall My Sword: Discourses on Pluralism, Compassion and Social Hope*, London: Chatto & Windus.
- (1977) *The Living Principle: 'English' as a Discipline of Thought*, London: Chatto & Windus.
- (1979) (1933) *For Continuity*, London: Norwood Editions.
- (1986) *Valuation and Criticism and Other Essays*, ed. G. Singh, Cambridge: Cambridge University Press.

- Leavis, FR. and Thompson, D. (1933) *Culture and Environment*, London: Chatto & Windus.
- Lebowski, S. and Widlocher, D. (eds) (1990) *Psychoanalysis in France*, New York: International Universities Press.
- Lechner, F.J. and Boli, J. (eds) (2004) *The Globalization Reader*, second edn, Oxford: Blackwell.
- Lechte, J. (1990) *Julia Kristeva*, London: Routledge.
- Le Corbusier (1954) (1948) *The Modulor: A Harmonious Measure to the Human Scale Universally Applicable to Architecture and Mechanics*, London: Faber & Faber.
- (1958) (1955) *Modulor II*, London: Faber & Faber.
- (1967) (1933) *The Radiant City: Elements of a Doctrine of Urbanism to be used as the Basis of our Machine-Age Civilization*, London: Faber & Faber.
- (1987a) (1923) *Towards a New Architecture*, London: Architectural Press.
- (1987b) (1924) *The City of Tomorrow and Its Planning*, London: Architectural Press.
- Lecourt, D. (1975) (1969) *Marxism and Epistemology: Bachelard, Canguilhem and Foucault*, London: New Left Books.
- Le Doeuff, M. (1982) 'Utopias: Scholarly', *Social Research*, 49(2).
- (1986) (1980) *The Philosophical Imaginary*, Stanford, CA: Stanford University Press.
- (1989) *Hipparchia's Choice: An Essay Concerning Women, Philosophy etc.*, Oxford: Blackwell.
- Lee, D. (1992) *Competing Discourses: Perspective and Ideology in Language*, London: Longman.
- Leech, K. (1973) *Youth-Quake: The Growth of a Counter-Culture Through Two Decades*, London: Sheldon Press.
- Lefebvre, H. (1982) *The Sociology of Marx*, New York: Columbia University Press.
- Le Huray, P. and Day, J. (eds) (1987) *Music and Aesthetics in the Eighteenth and Early-Nineteenth Centuries*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Leibniz, G.W. (1973) *Philosophical Writings*, London: Dent.
- Lemert, E. (1951) *Social Psychology*, New York: McGraw-Hill.
- Lenin, V.I. (1992) (1917) *The State and Revolution*, Harmondsworth: Penguin.
- Lentricchia, F. (1980) *After the New Criticism*, London: Athlone Press.
- Leupin, A. (ed.) (1991) *Lacan and the Human Sciences*, Lincoln, NE and London: University of Nebraska Press.
- LeVay, S. (1996) *Queer Science: The Use and Abuse of Research into Homosexuality*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Levi, P. (1988) *The Drowned and the Saved*, trans. by Raymond Rosenthal, London: Abacus.
- Lévi-Strauss, C. (1966) (1962) *The Savage Mind*, London: Weidenfeld & Nicolson.
- (1968a) (1958) *Structural Anthropology*, Harmondsworth: Penguin.
- (1968b) 'The Structural Study of Myth', in *Structural Anthropology*, Harmondsworth: Penguin.
- (1969) (1949) *The Elementary Structures of Kinship*, London: Eyre and Spottiswoode.

- (1970) (1964) *The Raw and the Cooked: Introduction to a Science of Mythology*, Volume 1, London: Jonathan Cape.
- (1973) (1967) *From Honey to Ashes: Introduction to a Science of Mythology*, Volume 2, London: Jonathan Cape.
- (1975) (1955) *Tristes Tropiques*, New York: Atheneum.
- (1977) (1973) *Structural Anthropology*, volume 2, Harmondsworth: Penguin.
- (1978) (1968) *The Origin of Table Manners: Introduction to a Science of Mythology*, volume 3, London: Jonathan Cape.
- (1981) (1971) *The Naked Man: Introduction to a Science of Mythology*, volume 4, London: Jonathan Cape.
- Lévy, P. (2001) *Cyberculture*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.
- Lipietz, A. (1987) *Mirages and Miracles: The Crises of Global Fordism*, London: Verso.
- Lippman, A. (1993) 'Prenatal Genetic Testing and Geneticization: Mother Matters for All', in *Fetal Diagnosis and Therapy*, 8: 175–88.
- Lipton, P. (1991) *Inference to the Best Explanation*, London: Routledge.
- Litz, W.A., Meiland, L. and Raitney, L. (2000) *The Cambridge History of Literary Criticism*, volume 7, *Modernism and New Criticism*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Livingstone, M. (ed.) (1991) *Pop Art*, London: Royal Academy of the Arts.
- Llewelyn, J. (1985) *Beyond Metaphysics? The Hermeneutic Circle in Contemporary Continental Philosophy*, Atlantic Highlands, NJ: Humanities Press.
- Lloyd, A.L. (1967) *Folk Song in England*, London: Lawrence & Wishart.
- Loades, A. (1990) *Feminist Theology: A Reader*, London: SPCK.
- Locke, J. (1964) (1693) *John Locke on Education*, ed. P. Gay, New York: Teachers' College Press.
- (1975) (1690) *An Essay Concerning Human Understanding*, Oxford: Clarendon Press.
- (1980) (1690) *Second Treatise of Government*, ed. C.B. Macpherson, Indianapolis, IN: Hackett.
- (1988) (1690) *Two Treatises of Government*, ed. P. Laslett, Cambridge: Cambridge University Press.
- Lodge, D. (ed.) (1972) *20th Century Literary Criticism: A Reader*, London: Longman.
- (1990) *After Bakhtin: Essays on Fiction and Criticism*, London: Routledge.
- Loos, A. (1966) (1908) 'Ornament and Crime', in L. Münz and G. Künsler, *Adolf Loos: Pioneer of Modern Architecture*, London: Thames & Hudson.
- Lovejoy, O.A. (1948) *Essays in the History of Ideas*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.
- Lowenthal, L. (1978) (1937) 'Knut Hamsun', in A. Arato and E. Gebhardt (eds), *The Essential Frankfurt School Reader*, Oxford: Blackwell.
- (1989) (1932) 'On Sociology of Literature', in S.E. Bronner and D.M. Kellner (eds), *Critical Theory and Society: A Reader*, London: Routledge.
- Lucie-Smith, E. (1995) *Artoday*, London: Phaidon.
- Luhmann, N. (1982) *The Differentiation of Society*, New York: Columbia University Press.

- Lukács, G. (1963) (1958) *The Meaning of Contemporary Realism*, London: Merlin Press.
- (1971) (1923) *History and Class Consciousness: Studies in Marxist Dialectics*, tr. R. Livingstone, London: Merlin Press.
- (1978) (1916) *The Theory of the Novel*, London: Merlin Press.
- (1983) (1937) *The Historical Novel*, Lincoln, NE and London: University of Nebraska Press.
- Lukes, S. (1969) 'Alienation and Anomie', in P. Laslett and W.G. Runciman (eds), *Philosophy, Politics and Society*, Oxford: Blackwell.
- (1973a) *Emile Durkheim*, London: Allen Lane.
- (1973b) *Individualism*, Oxford: Blackwell.
- Lunn, E. (1982) *Marxism and Modernism: An Historical Study of Lukács, Brecht, Benjamin and Adorno*, Berkeley, CA: University of California Press.
- Lupton, D. (1999) *Risk*, London: Routledge and Kegan Paul.
- (2003) *Medicine as Culture: Illness, Disease and the Body in Western Societies* (2nd ed.), London: Sage Publications.
- Lyon, H. (1980) *The Story of Modern Art*, London: Phaidon.
- Lyons, J. (1977) *Chomsky*, London: Fontana.
- Liotard, J.-F. (1988) (1983) *The Differend: Phrases in Dispute*, tr. Georges Van Den Abele, Manchester: Manchester University Press.
- (1989) (1979) *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*, tr. Geoff Bennington, Manchester: Manchester University Press.
- (1991) *The Inhuman: Reflections on Time*, tr. Geoffrey Bennington and Rachel Bowlby, Cambridge: Polity Press.
- (1993) *Political Writings*, tr. Bill Readings and Kevin Paul Geiman, London: UCL Press.
- (1994) *Lessons on the Analytic of the Sublime: Kant's Critique of Judgment*, [sections] 23–29, tr. Elizabeth Rottenberg, Stanford, CA: Stanford University Press.
- Macherey, P. (1978) (1966) *A Theory of Literary Production*, London: Routledge.
- (1995) *The Object of Literature*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Machiavelli, N. (1983) (1531) *The Discourses*, ed. B. Crick, tr. Leslie J. Walker with revisions by Brian Richardson, Harmondsworth: Penguin.
- MacIntyre, A. (1981) *After Virtue*, London: Duckworth.
- (1988) *Whose Justice? Which Rationality?*, London: Duckworth.
- MacPherson, C.B. (1962) *The Political Theory of Possessive Individualism: Hobbes to Locke*, Oxford: Oxford University Press.
- Macrae, C.N., Stanger, C. and Hewstone, M. (eds) (1996) *Stereotypes and Stereotyping*, London: Guilford Press.
- Magnus, B. and Higgins, K.M. (eds) (1996) *The Cambridge Companion to Nietzsche*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Malinowski, B. (1922) *Argonauts of the Western Pacific*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Mandel, E. (1972) *Marxist Economic Theory*, London: Merlin.
- Mannheim, K. (1960) (1929) *Ideology and Utopia: An Introduction to the Sociology of Knowledge*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1972) (1924) 'Historicism', in *Essays on the Sociology of Knowledge*, tr. Paul Kecskemeti, London: Routledge & Kegan Paul.

- Marcuse, H. (1972) *An Essay on Liberation*, Harmondsworth: Penguin.
- Margolis, J. (1991) *The Truth About Relativism*, Oxford: Blackwell.
- Margolis, J., Marschall, A. T. and Rockmore, T. (eds) (2005) *The Philosophical Challenge of September 11*, Oxford: Blackwell.
- Marini, M. (1992) *Jacques Lacan: The French Context*, tr. Anne Tomiche, New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.
- Marshall, T.H. (1950) *Citizenship and Social Class, and Other Essays*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Marx, K. (1968) (1852) 'The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte', in *Karl Marx and Frederick Engels: Selected Works*, London: Lawrence & Wishart.
- (1971) (1859) *A Contribution to the Critique of Political Economy*, London: Lawrence & Wishart.
- (1973) (1857–1858) *Grundrisse*, Harmondsworth: Penguin.
- (1975) *Early Writings*, tr. R. Livingstone and G. Benton, introduction by L. Colletti, Harmondsworth: Penguin.
- (1976) (1867) *Capital: A Critique of Political Economy*, volume 1, tr. B. Fowkes, Harmondsworth: Penguin.
- Marx K. and Engels, F. (1970) (1845–1846) *The German Ideology*, London: Lawrence & Wishart.
- (1985) (1848) *The Communist Manifesto*, Harmondsworth, Penguin.
- Mauss, M. (1966) (1925) *The Gift: Forms and Functions of Exchange in Archaic Societies*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Maynard, P. and Feagin, S. (eds) (1997) *Aesthetics: An Oxford Reader*, Oxford: Oxford University Press.
- McCarthy, Timothy (1978) *Marx and the Proletariat: A Study in Social Theory*, Westport, CT: Greenwood Press.
- McCarthy, Thomas (1978) *The Critical Theory of Jürgen Habermas*, London: Hutchinson.
- McCloud, S. (1993) *Understanding Comics*, Northampton, MA: Tundra Publishing.
- McCulloch, G. (1989) *The Game of the Name: Introducing Logic, Language and ... Mind*, Oxford: Clarendon Press.
- (1995) *The Mind and its World*, London: Routledge.
- McLellan, D. (1973) *Karl Marx: His Life and Works*, New York: Harper & Row.
- (1975) *Karl Marx*, New York: Viking.
- McLuhan, M. (1994) *Understanding Media: The Extension of Man*, London: Routledge.
- McQuail, D. (1994) *Mass Communication Theory: An Introduction*, third edn, London: Sage.
- McRobbie, A. (1981) 'Settling Accounts with Subcultures: A Feminist Critique', in T. Bennett, G. Martin, C. Mercer and J. Woollacott (eds), *Culture, Ideology and Social Process: A Reader*, London: Open University Press.
- (1989) 'Jackie: An Ideology of Adolescent Femininity', in B. Waites, T. Bennett and G. Martin (eds), *Popular Culture: Past and Present*, London: Routledge.
- (1991) *Feminism and Youth Culture from Jackie to Just Seventeen*, London: Macmillan.

- (1994) *Postmodernism and Popular Culture*, London: Routledge.
- Mead, G.H. (1934) *Mind, Self and Society*, Chicago, IL: Chicago University Press.
- Mead, L. (1986) *Beyond Entitlement: The Social Obligations of Citizenship*, New York: Free Press.
- Mead, M. (1928) *Coming of Age in Samoa: A Psychological Study of Primitive Youth for Western Civilization*, New York: Morrow.
- Meadows, D.H. et al. (1972) *The Limits to Growth: A Report for the Club of Rome's Project on the Predicament of Mankind*, London: Earth Island.
- Meek, R.L. (1973) *Studies in the Labour Theory of Value*, second edn, London: Lawrence & Wishart.
- Mehlman, J. (ed.) (1972) *French Freud: Structural Studies in Psychoanalysis*, YFS no. 48.
- Meja, V. and Stehr, N. (eds) (1990) *Knowledge and Politics: The Sociology of Knowledge Dispute*, London: Routledge.
- Meltzer, D. (ed.) (1993) *Reading Jazz*, San Francisco, CA: Mercury House.
- Meltzer, F. (1987) *The Trials of Psychoanalysis*, Chicago, IL and London: The University of Chicago Press.
- Mepham, J. and Ruben, D.-K. (eds) (1979) *Issues in Marxist Philosophy*, volume 1, *Dialectics and Method*, Brighton, Harvester.
- Merleau-Ponty, M. (1962) (1945) *Phenomenology of Perception*, London, Routledge & Kegan Paul.
- Merrell, F. (1993) *Sign, Intertextuality, World*, Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press.
- Merton, R.K. (1968) (1949) *Social Theory and Social Structure*, New York: Free Press.
- Messner, M. (1992) *Power at Play: Sport and the Problem of Masculinity*, Boston MA: Beacon Press.
- Mészáros, I. (1986) *Marx's Theory of Alienation*, fourth edn, London: Merlin Press.
- Metz, C. (1974) (1971/1972) *Film Language: A Semiotics of the Cinema*, New York: Oxford University Press.
- (1982) *Psychoanalysis and the Cinema: The Imaginary Signifier*, London: Macmillan.
- Meynell, H. (1975) 'Science, the Truth, and Thomas Kuhn', *Mind*, 84: 79–93.
- Mies, M. (1986) *Patriarchy and Accumulation on a World Scale: Women in the International Division of Labour*, London: Zed Books.
- Milbank, J. (1990) *Theology and Social Theory: Beyond Secular Reason*, Oxford: Basil Blackwell.
- Miles, R. (1989) *Racism*, London: Routledge.
- Mill, J.S. (1984) (1859) *On Liberty*, Harmondsworth: Penguin.
- (1988) *The Subjection of Women*, ed. S.M. Okuri, Indianapolis, IN: Hackett.
- Miller, D. (ed.) (1995) *Acknowledging Consumption: A Review of New Studies*, London: Routledge.
- Miller, F. (1986) *Batman: The Dark Knight Returns*, London: Titan Books.
- Miller, J.-A. (1988) 'Another Lacan', tr. Ralph Chipman, *Lacan Study Notes: Hystoria 6/9*, Paris/New York, Published by the New York Lacan Study Group.

- Miller, S.M. (1965) 'The "New" Working Class', in A.B. Shostak and W. Gomberg (eds), *Blue-Collar World*, Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
- Miller, W. (1958) 'Lower Class Culture as a Generating Milieu of Gang Delinquency', *Journal of Social Issues*, 14: 5-19.
- Mills, C.W. (1956) *The Power Elite*, London: Oxford University Press.
- Milner, A. (1994) *Contemporary Cultural Theory*, London: UCL Press.
- Minson, G. (1985) *Genealogies of Morals: Nietzsche, Foucault, Donzelot and the Excentricity of Ethics*, Basingstoke: Macmillan.
- Mirzoeff, N. (1999) *An Introduction to Visual Culture*, London: Routledge.
- Moerman, M. (1988) *Talking Culture: Ethnography and Conversation Analysis*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press.
- Moi, T. (ed.) (1986) *The Kristeva Reader*, Oxford: Blackwell.
- Mommsen, W.J. (1974) *The Age of Bureaucracy: Perspectives on the Political Sociology of Max Weber*, Oxford: Blackwell.
- More, M. (2003) *Principles of Extropy, Version 3.11* (<http://www.extropy.org/principles.htm>)
- Moore, A. and Gibbons, D. (1987) *Watchmen*, London: Titan Books.
- Moore, M. (1993) *Foundations of Liberalism*, Oxford: Clarendon Press.
- Moore, R. (2004) *Education and Society: Issues and Explanations in the Sociology of Education*, Oxford: Polity.
- Moreno, A.O.P. (1974) *Jung, Gods and Modern Man*, London: Sheldon Press.
- Morgan, W.J. (1994) *Leftist Theories of Sport*, Urbana, IL: University of Illinois Press.
- (1988) 'Adorno on Sport: The Case of the Fractured Dialectic', *Theory and Society*, 17(6): 813-38.
- Morgan, W.J. and Meier, K.V. (1995) *Philosophic Inquiry in Sport*,ampaign, IL: Stripes.
- Moriarty, M. (1991) *Roland Barthes*, Cambridge: Polity Press.
- Morley, D. (1980) *The 'Nationwide' Audience*, London: British Film Institute.
- (1992) *Television, Audiences and Cultural Studies*, London: Routledge.
- Morris, B. (1991) *Western Conceptions of the Individual*, New York: St Martin's Press.
- Morris, M. (1988) 'Feminism, Reading, Postmodernism', in J. Storey (ed.), *Cultural Theory and Popular Culture*, Hemel Hempstead: Prentice-Hall.
- (1993) 'Things to do with Shopping Centres', in S. During (ed.), *The Cultural Studies Reader*, London: Routledge.
- Morrow, G.R. (1973) *The Ethical and Economic Theories of Adam Smith*, Clifton, NJ: A.M. Kelly.
- Morson, G.S. (1986) 'Dialogue, Monologue, and the Social: A Reply to Ken Hirschkop', ed., G.S. Morson, in *Bakhtin: Essays and Dialogues on His Work*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Morson, G.S. and Emerson, C. (1990) *Mikhail Bakhtin: Creation of a Prosaics*, Stanford, CA: Stanford University Press.
- Morton, D. (ed.) (1997) *A Lesbian Gay Cultural Studies Reader*, London: Westview Press.
- Mosca, G. (1939) *The Ruling Class*, New York: McGraw-Hill.
- Mosser, M. and Teyssot, G. (eds) (1991) *The History of Garden Design: The Western Tradition from the Renaissance to the Present Day*, London: Thames & Hudson.

- Mounce, H.O. (1997) *The Two Pragmatisms: From Peirce to Rorty*, London and New York: Routledge.
- Mulhall, S. (1996) *Heidegger and Being and Time*, London: Routledge.
- Mulhall, S. and Swift, A. (1996) *Liberals and Communitarians*, Oxford: Blackwell.
- Mulhern, F. (1979) *The Moment of Scrutiny*, London: NLB.
- (1995) 'Culture and Authority', *Critical Quarterly*, 37(1): 77–89.
- Mulvey, L. (1975) 'Visual Pleasure and Narrative Cinema', *Screen*, 16(3): 6–18.
- (1993) 'Afterthoughts on "Visual Pleasure and Narrative Cinema"', inspired by King Vidor's *Duel in the Sun* (1946), in A. Easthope (ed.), *Contemporary Film Theory*, London and New York: Longman.
- Mumham, G. and Pearson, G. (eds) (1976) *Working Class Youth Cultures*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Murdock, G. and Golding, P. (1977) 'Capitalism, Communication and Class Relations', in J. Curran, M. Gurevitch and J. Woolacott (eds), *Mass Communication and Society*, London: Edward Arnold in association with the Open University Press.
- Murphy, M.G. (1993) *The Development of Peirce's Philosophy*, Indianapolis, IN: Hackett.
- Niss, A. (1989) *Ecology, Community and Lifestyle: Outline of an Ecosophy*, translated and revised by David Rothenberg, Cambridge: Cambridge University Press.
- Neighbour, O.W., Griffiths, P. and Perle, G. (1983) *The New Grove Second Viennese School: Schoenberg, Webern, Berg*, London: Macmillan.
- Nelkin, D. and Lindee, S. (1995) *DNA Mystique: The Gene as a Cultural Icon*, New York: Freeman.
- Neocleous, M. (1997) *Fascism*, Philadelphia, PA: Open University Press.
- Newby, H. (1988) *The Countryside in Question*, London: Hutchinson.
- Newhall, B. (1982) (1937) *The History of Photography*, New York: Museum of Modern Art.
- Weber, M. (1946a) Nietzsche, F.W. (1968b) *The Will to Power*, tr. Walter Kaufmann and R.J. Hollingdale, New York: Viking.
- Nietzsche, F.W. (1968a) *The Birth of Tragedy (1872), Beyond Good and Evil (1886), On the Genealogy of Morals (1887)*, all in *Basic Writings of Nietzsche*, ed. and tr. Walter Kaufman, New York: Basic Books.
- (1968b) *The Will to Power*, tr. Walter Kaufmann and R.J. Hollingdale, New York: Viking.
- (1974) *The Gay Science*, tr. Walter Kaufmann, New York: Vintage.
- (1982) (1881) *Daybreak*, tr. R.J. Hollingdale, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1983) (1873–1876) *Untimely Meditations*, tr. R.J. Hollingdale, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1986) (1878–1880) *Human, All-Too-Human*, tr. R.J. Hollingdale, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1995) *Thus Spoke Zarathustra (1883–92); Twilight of the Idols (1889); The Antichrist (1888/1895)*, all in *The Portable Nietzsche*, ed. and tr. Walter Kaufmann, New York: Penguin.
- Nisbet, R. (1980) *History of the Idea of Progress*, London: Heinemann.

- Nomberg-Przytyk, S. (1985) *Auschwitz: True Tales from a Grotesque Land*, tr. Rosalyn Hirsch, Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press.
- Nordau, M. (1894) *Degeneration*, London: Heinemann.
- Norman, R. (1980) *Hegel, Marx and Dialectic*, Hassocks, Harvester.
- Norris, C. (1985) *The Contest of Faculties: Philosophy and Theory after Deconstruction*, London: Methuen.
- (1986) *Deconstruction: Theory and Practice*, revised edn, London: Routledge.
- (1987) *Derrida*, London: Fontana.
- (1992) *Uncritical Theory: Postmodernism, Intellectuals and the Gulf War*, London: Lawrence & Wishart.
- Norton, A. (2004) *Leo Strauss and the Politics of American Empire*, New Haven, CT: Yale University Press.
- Nozick, R. (1974) *Anarchy, State and Utopia*, Oxford: Blackwell.
- Oakes, P.J., Haslam, S.A. and Turner, J.C. (1994) *Stereotyping and Social Reality*, Oxford: Blackwell.
- Oakeshott, M. (1975) *On Human Conduct*, Oxford: Blackwell.
- (1983) *On History and other essays*, Oxford: Blackwell.
- Oakley, A. (1984) *The Captured Womb: A History of the Medical Care of Pregnant Women*, Oxford: Blackwell.
- O'Connor, A. (1989) *Raymond Williams: Writing, Culture, Politics*, Oxford: Blackwell.
- Oelschläger, M. (ed.) (1995) *Postmodern Environmental Ethics*, Albany, NY: SUNY Press.
- Ogden, S. (1979) *Faith and Freedom: Toward a Theology of Liberation*, Belfast, Ontario: Christian Journals Ltd.
- (1996) *Doing Theology Today*, Valley Forge, PA: Trinity Press International.
- Orrù, M. (1987) *Anomie: History and Meanings*, London: Allen & Unwin.
- Osborn, F. (1951) *Preface to Eugenics*, New York: Harper.
- Outhwaite, W. (1994) *Habermas: A Critical Introduction*, Oxford: Polity.
- Page, R.M. (1984) *Stigma*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Pahl, R. (ed.) (1968) *Readings in Urban Sociology*, Oxford: Pergamon.
- Pakenham, Thomas (1997) *The Scramble for Africa: 1876-1912*, London: Weidenfeld & Nicolson.
- Palisca, C.V. (1991) *Baroque Music*, third edn, Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
- Pareto, V. (1963) *The Mind and Society*, New York: Dover.
- Parfitt, T. (2003a) 'Constructing Black Jews: Genetics Tests and the Lemba — the "Black Jews" of South Africa', *Developing World Bioethics* 4 (2): 112-8.
- (2003b) 'Place, Priestly Status and Purity: The Impact of Genetics Research on an Indian Jewish Community', *Developing World Bioethics* 4 (2): 178-85.
- Parsons, T. (1937) *The Structure of Social Action*, New York: McGraw-Hill.
- (1951) *The Social System*, Glencoe, IL: Free Press.
- (1975) 'The Sick Role and the Role of the Physician Reconsidered', *The Milbank Memorial Fund Quarterly. Health and Society*, 53(3): 257-78.
- Pascal, R. (1973) *From Naturalism to Expressionism: German Literature and Society 1880-1918*, London: Weidenfeld & Nicolson.

- Patton, P. (ed.) (1993) *Nietzsche, Feminism and Political Theory*, London and New York: Routledge.
- Pearce, F. (1989) *The Radical Durkheim*, London: Unwin Hyman.
- Pears, D. (1985) *Wittgenstein*, London: Fontana.
- Pearson, R.E. and Uricchio, W. (eds) (1991) *The Many Lives of the Batman*, New York: Routledge.
- Peck, J. (ed.) (1987) *The Chomsky Reader*, New York: Pantheon.
- Peirce, C.S. (1931–1958) *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*, 8 volumes, ed. C. Hartshorn and P. Weiss (volumes 1–6), A.W. Burks (volumes 7–8), Cambridge, MA: Harvard University Press.
- (1982) 'Definition and Description of Pragmatism' and 'The Fixation of Belief', in H.S. Thayer (ed.), *Pragmatism: The Classic Writings*, Indianapolis, IN: Hackett.
- (1986) 'Logic as Semiotic: The Theory of Signs', in R.E. Innis (ed.), *Semiotics: An Introductory Reader*, London: Hutchinson.
- (1998) (1905) 'What is Pragmatism', in his *The Essential Peirce*, volume 2 (1893–1913), Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press.
- Perkins, S. (1993) *Marxism and the Proletariat: A Lukácsian Perspective*, London: Pluto.
- Pettit, P. (1975) *The Concept of Structuralism: A Critical Analysis*, Dublin: Gill and Macmillan.
- Plamenatz, J. (1958) *The English Utilitarians*, Oxford: Blackwell.
- Plant, S. (1997) *Zeros and Ones: Digital Women and the New Technoculture*, London: Fourth Estate.
- Plato (1975) *Phaedo*, tr. David Gallop, Oxford: Clarendon Press.
- (1998) *Republic*, Oxford: Oxford University Press.
- Plekhanov, G.V. (1974) (1912). *Art and Society, and Other Papers in Historical Materialism*, New York: Oriole.
- Pocock, J.G.A. (1975) *The Machiavellian Moment: Florentine Political Thought and the Atlantic Republican Tradition*, Princeton, NJ and London: Princeton University Press.
- Poe, E.A. (1982) 'The Man of the Crowd', in *The Complete Tales and Poems of Edgar Allan Poe*, Harmondsworth: Penguin.
- Pollack, R.F. (1994) *Signs of Life: the Language and Meaning of DNA*, London: Penguin.
- Pollock, John L. (1987) *Contemporary Theories of Knowledge*, London: Hutchinson.
- Pomeroy, William J., (1970) *American Neo-colonialism*, New York: International Publishers.
- (1974) *An American Made Tragedy: Neo-colonialism and Dictatorship in the Philippines*, New York: International Publishers.
- Ponzio, A. (1993) *Signs, Dialogue and Ideology*, Amsterdam: John Benjamins.
- Popper, K. (1959) *The Logic of Scientific Discovery*, London, Hutchinson.
- (1963) *Conjectures and Refutations*, New York: Harper & Row.
- (1972) 'Conjectural Knowledge: My Solution to the Problem of Induction', in *Objective Knowledge*, Oxford: Oxford University Press.
- Porter, R. (1996) 'What is Disease?' in his (ed.) *Cambridge Illustrated History of Medicine*, Cambridge: Cambridge University Press.

- (1997) *The Greatest Benefit to Mankind: A Medical History of Humanity from Antiquity to the Present*, London: HarperCollins.
- Praz, M. (1970) *The Romantic Agony*, London: Oxford University Press.
- Priest, S. (1990) *The British Empiricists: Hobbes to Ayer*, London: Penguin.
- Primoraz, I. (ed.) (2004) *Terrorism: The Philosophical Issues*, Basingstoke: Macmillan.
- Purdy, M. and Banks, D. (eds) (2001) *The Sociology and Politics of Health: a Reader*, London: Routledge.
- Putnam, H. (1981) *Reason, Truth and History*, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1995) *Pragmatism: An Open Question*, Oxford and Cambridge, MA: Blackwell.
- Qualter, T.H. (1962) *Propaganda and Psychological Warfare*, New York: Random House.
- (1985) *Opinion Control in the Democracies*, London: Macmillan.
- Quine, W.V.O. (1960) *Word and Object*, Cambridge, MA: MIT Press.
- (1980) (1953) 'Two Dogmas of Empiricism', in *From a Logical Point of View*, second edn, Cambridge, MA and London: Harvard University Press, pp. 20–46.
- (1991) 'Two Dogmas in Retrospect', *Canadian Journal of Philosophy*, 21(3): 265–74.
- Rabinow, P. (1992) 'Artificiality and Enlightenment: From Sociobiology to Biosociality', in J.C. Kwinter (ed.), *Incorporations*, New York: Zone.
- Raddcliffe-Brown, A.R. (1952) *Structure and Function in Primitive Society*, New York: Free Press.
- (1977) *The Social Anthropology of Raddcliffe-Brown*, ed. A. Kuper, London: Routledge & Kegan Paul.
- Ragland-Sullivan, E. (1986) *Jacques Lacan and the Philosophy of Psychoanalysis*, London and Canberra: Croom Helm.
- Rand, E. (1995) *Barbie's Queer Accessories*, London: Duke University Press.
- Raphael, D.D. (1985) *Adam Smith*, Oxford: Oxford University Press.
- Rawls, J. (1972) *A Theory of Justice*, Oxford: Clarendon Press.
- Readings, B. (1991) *Introducing Lyotard: Art and Politics*, London and New York: Routledge.
- Renfrew, C. (2003) *Figuring It Out: The Parallel Vision of Artists and Archaeologists*, London: Thames & Hudson.
- Renfrew, C. and Bahn, P. (2004) *Archaeology: Theories, Methods and Practice*, fourth edn, London: Thames & Hudson.
- Rheinberger, H.-J. (2000) 'Beyond Nature and Culture: Modes of Reasoning in the Age of Molecular Biology and Medicine', in M. Lock, A. Young and A. Cambrosio (eds), *Living and Working with the New Medical Technologies: Intersection of Enquiry*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Ricardo, D. (1951) (1817) *Principles of Political Economy*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Rice, P. and Waugh, P. (1989) *Modern Literary Theory: A Reader*, London: Edward Arnold.
- Richards, I.A. (1938) *Interpretation in Teaching*, New York: Harcourt Brace.

- Richardson, D. (ed.) (1996) *Theorising Heterosexuality: Telling it Straight*, Buckingham: Open University Press.
- Richter, H. (1965) *Dada: Art and Anti-Art*, London, Thames & Hudson.
- Ricoeur, P. (1981) *Hermeneutics and the Human Sciences*, ed. and tr. J.B. Thompson, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1984–1988) (1983–1985) *Time and Narrative*, tr. Kathleen McLaughlin and David Pellauer, 3 vols, Chicago, IL and London: University of Chicago Press.
- Robbins, D. (2006) *On Bourdieu, Education and Society*, Oxford: Bardwell Press.
- Rockmore, T. (1992) *Irrationalism: Lukács and the Marxist View of Reason*, Philadelphia, PA, Temple University Press.
- Rojek, C. (1985) *Capitalism and Leisure Theory*, London: Routledge.
- (ed.) (1995) *Decentring Leisure: Rethinking Leisure Theory*, London: Sage.
- (1993) 'After Popular Culture: Hyperreality and Leisure', *Leisure Studies* 12: 277–89.
- Rorty, R. (1972) 'The World Well Lost', *Journal of Philosophy*, 69:649–65.
- (1978) 'Philosophy as a Kind of Writing: An Essay on Derrida', *New Literary History*, 10(1): 141–60.
- (1982) *Consequences of Pragmatism: Essays, 1972–1980*, Brighton: Harvester.
- (1991) *Objectivity, Relativism and Truth: Philosophical Papers*, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1998) *Truth and Progress*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Rose, G. (1978) *The Melancholy Science: An Introduction to the Thought of Theodor W. Adorno*, London: Macmillan.
- (1993) 'Architecture to Philosophy—the Post-Modern Complicity', in *Judaism and Modernity: Philosophical Essays*, Oxford: Blackwell.
- Rose, N. (1996) 'Refiguring the Territory of Government', *Economy and Society*, 25(3): 327–56.
- (2002) 'At Risk of Madness', in T. Baker and J. Simon (eds), *Embracing Risk*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Rosen C. and Zerner, H. (1984) *Romanticism and Realism: The Mythology of Nineteenth Century Art*, London: Faber & Faber.
- Rosen, M. (1982) *Hegel's Dialectic and Its Criticism*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Rosselson, L. (1979) 'Pop Music: Mobilizer or Opiate', in C. Gardner (ed.), *Media, Politics and Culture*, London: Macmillan.
- Rossi-Landi, F. (1990) *Marxism and Ideology*, Oxford: Clarendon Press.
- Roszak, T. (1971) (1968) *The Making of a Counter Culture: Reflections on the Technocratic Society and its Youthful Opposition*, London: Faber & Faber.
- Rotenstreich, N. (1989) *Alienation: The Concept and its Reception*, Leiden: Brill.
- Roudinesco, E. (1990) *Jacques Lacan and Co.: A History of Psychoanalysis in France 1925–1985*, tr. Jeffrey Mehlman, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Rousseau, J.-J. (1984) (1754) *A Discourse on Inequality*, tr. Maurice Cranston, Harmondsworth: Penguin.

- (1991) (1762) *Emile, or On Education*, London: Penguin.
- Ruben, D. (1979) *Marxism and Materialism*, Brighton: Harvester.
- Russell, B. (1905) 'On Denoting', *Mind*, 14: 479–93.
- (1924) 'Logical Atomism', in R.C. Marsh (ed.) (1988) *Logic and Knowledge*, London: Hyman.
- (1946) *History of Western Philosophy*, London: Allen & Unwin.
- (1988) (1912) *The Problems of Philosophy*, Oxford: Oxford University Press.
- (1988) (1918) 'The Philosophy of Logical Atomism', in R.C. Marsh (ed.), *Logic and Knowledge*, London: Hyman.
- Russell, B. and Whitehead, A.N. (1910) *Principia Mathematica*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Ruthven, M. (2004) *Fundamentalism: The Search for Meaning*, Oxford: Oxford University Press.
- (2002) *A Fury for God*, London: Granta Books.
- Ryan, M. (1982) *Marxism and Deconstruction: A Critical Articulation*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.
- Ryle, G. (1949) *The Concept of Mind*, London: Hutchinson.
- Sabin, R. (1993) *Adult Comics: An Introduction*, London: Routledge.
- Sacks, H. (1992) *Lectures on Conversation*, 2 volumes, Oxford: Blackwell.
- Sadler, T. (1996) *Heidegger and Aristotle: The Question of Being*, London and Atlantic Highlands, NJ: Athlone.
- Said, E. (1978a) *Orientalism*, New York: Random House.
- (1978b) 'The Problem of Textuality: Two Exemplary Positions', *Critical Inquiry*, 4: 673–714.
- Said, E.W. (1993) *Culture and Imperialism*, London: Chatto and Windus.
- Sandel, M.J. (1982) *Liberalism and the Limits of Justice*, Cambridge: Cambridge University Press.
- (ed.) (1984) *Liberalism and its Critics*, Oxford: Blackwell.
- Sardar, Z. and Ravetz, J.R. (1996) *Cyberfutures: Culture and Politics on the Information Superhighway*, London: Pluto Press.
- Sartre, J.-P. (1958) (1943) *Being and Nothingness*, London: Methuen.
- (1990) (1946) *Existentialism and Humanism*, tr. Philip Mairet, London: Methuen.
- Sassoon, A.S. (1987) *Gramsci's Politics*, second edn, London: Hutchinson.
- Saúl, J.M. (2003) *Feminism: Issues and Arguments*, Oxford: Oxford University Press.
- Saunders, P. (1981) *Social Theory and the Urban Question*, London: Hutchinson.
- de Saussure, F. (1983) (1916) *Course in General Linguistics*, ed. C. Bally and A. Sechehaye, tr. Roy Harris, London: Duckworth.
- Sayer, D. (1991) *Capitalism and Modernity: An Excursus on Max Weber*, London: Routledge.
- Scarre, G. (1996) *Utilitarianism*, London and New York: Routledge.
- Scheler, M. (1980) (1926) *Problems of a Sociology of Knowledge*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Schiffman, D. (1993) *Approaches to Discourse*, Oxford: Blackwell.
- Schmidt, W. (1935) *The Origin and Growth of Religion*, London: Methuen.

- Schneiderman, S. (1983) *Jacques Lacan: The Death of an Intellectual Hero*, Cambridge, MA and London: Harvard University Press.
- Scholte, J.A. (2000) *Globalisation: A Critical Introduction*, Basingstoke: Macmillan.
- Schuller, G. (1968) *Early Jazz: Its Roots and Musical Development*, New York: Oxford University Press.
- (1989) *The Swing Era: The Development of Jazz 1930–1945*, New York: Oxford University Press.
- Schutz, A. (1962) *Collected Papers*, volume 1, The Hague: Martinus Nijhoff.
- (1964) *Collected Papers*, volume 2, The Hague: Martinus Nijhoff.
- (1967) (1932) *The Phenomenology of the Social World*, London: Heinemann.
- Schutz, A. and Luckmann, T. (1974) *The Structures of the Lifeworld*, London: Heinemann.
- Scott, J. (1990) *The Sociology of Elites*, 3 volumes, Aldershot: Edward Elgar.
- (1996) *Stratification and Power: Structures of Class, Status and Command*, Cambridge: Polity Press.
- Scruton, R. (1984) *The Meaning of Conservatism*, London: Macmillan.
- Searle, J. (1969) *Speech Acts*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Sedgwick, E.K. (1994) *Epistemology of the Closet*, London: Penguin.
- (ed.) (1997) *Novel Gazing: Queer Reading in Fiction*, Durham, NC: Duke University Press.
- Sedgwick, P. (ed.) (1995) *Nietzsche: A Critical Reader*, Oxford: Blackwell.
- (1998) 'Politics as Antagonism and Diversity: Mill and Lyotard', in G. Day (ed.), *Varieties of Victorianism*, Basingstoke: Macmillan.
- (2001) *Descartes to Derrida: An Introduction to European Philosophy*, Oxford: Blackwell.
- (2007) *Nietzsche's Economy: Modernity, Normativity and Futurity*, Basingstoke: Macmillan.
- Seedhouse, D. (2001) *Health: The Foundation of Achievement*, second edn, Chichester: John Wiley & Sons.
- Sen, A. (2005) 'Critical Imprisonments', in *The Philosophical Challenge of September 11*, ed. Margolis, J., Marsoonian A.T. and Rockmore, T., Oxford: Blackwell.
- Sen, A. and Williams, B. (eds) (1982) *Utilitarianism and Beyond*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Shanks, M. and Tilley, C. (1992) *Re-constructing Archaeology: Theory and Practice*, 2nd ed. London: Routledge.
- Shepherd, J. (1991) *Music as Social Text*, Cambridge: Polity Press.
- Shepherd, J. et al. (1977) *Whose Music? A Sociology of Musical Languages*, London: Latimer New Dimensions.
- Shiach, M. (1991) *Hélène Cixous: A Politics of Writing*, London: Routledge.
- Shope, R.A. (1983) *The Analysis of Knowing*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Silverman, H.J. and Welton, D. (eds) (1988) *Postmodernism and Continental Philosophy*, Albany, NY: State University of New York Press.
- Silverman, K. (1983) *The Subject of Semiotics*, Oxford: Oxford University Press.
- Simmel, G. (1950a) *The Sociology of Georg Simmel*, ed. and tr. Kurt H. Wolff, Glencoe, IL: Free Press.

- (1950b) (1903) 'The Metropolis and Mental Life', in *The Sociology of Georg Simmel*, Glencoe, IL: Free Press.
- (1950c) (1908) 'The Stranger', in *The Sociology of Georg Simmel*, Glencoe, IL: Free Press.
- (1957) (1904) 'Fashion', *American Journal of Sociology*, 62(6): 541–58.
- (1959a) *Georg Simmel 1858–1918: A Collection of Essays with Translations and a Bibliography*, ed. Kurt H. Wolff, Columbus, OH: Ohio University Press.
- (1959b) (1908) 'How is Society Possible?', in *Georg Simmel 1858–1918: A Collection of Essays with Translations and a Bibliography*, Columbus, OH: Ohio University Press.
- (1968) (1911) 'On the Concept and Tragedy of Culture', in *Conflict in Modern Culture and Other Essays*, New York: Teachers College.
- (1978) (1907) *The Philosophy of Money*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1997) *Essays on Culture: Selected Writings*, ed. D. Frisby and M. Featherstone, London: Sage.
- Simpson, D. (ed.) (1988) *The Origins of Modern Critical Thought: German Aesthetic and Literary Criticism from Lessing to Hegel*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Singer, P. (1993) *Practical Ethics*, Cambridge and New York: Cambridge University Press.
- Skinner, B.F. (1973) *Beyond Freedom and Dignity*, Harmondsworth: Penguin.
- (1974) *About Behaviourism*, London: Jonathan Cape.
- (1976) *Walden Two*, London: Macmillan.
- Skirbekk, G. (1993) *Rationality and Modernity: Essays in Philosophical Pragmatics*, Oslo: Scandinavian University Press.
- Smart, B. (1984) *Foucault, Marxism and Critique*, London: Routledge.
- Smart, N. (1960) *A Dialogue of Religions*, London: SCM Press.
- (1971) *The Religious Experience of Mankind*, London: Fontana.
- (1972) *The Concept of Worship*, London: Macmillan.
- (1973) *The Phenomenon of Religion*, New York: Herder & Herder.
- Smith, A. (1976) (1776) *The Wealth of Nations*, ed. R.H. Campbell, A.S. Skinner and W.B. Todd, Oxford: Clarendon Press.
- (1986) *The Essential Adam Smith*, ed. Robert L. Heilbroner, Oxford: Oxford University Press.
- Smith, G. (ed.) (1988) *On Walter Benjamin: Critical Essays and Recollections*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Smith, S. (1984) *Reading Althusser: An Essay on Structural Marxism*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Smithson, P. (1975) 'The Slow Growth of Another Sensibility; Architecture as Townbuilding', in J. Gowan (ed.), *A Continuing Experiment: Learning and Teaching at the Architectural Association*, London: Architectural Press.
- Soja, E. (1989) *Postmodern Geographies*, London: Verso.
- Solomon, R.C. (1983) *In the Spirit of Hegel*, New York: Oxford University Press.
- Sontag, S. (1973) *On Photography*, New York: Farrar, Straus & Giroux.
- (1979) *Illness as Metaphor*, London: Allen Lane.
- (1989) *AIDS and its Metaphors*, London: Allen Lane.

- Sorel, G. (1972) (1907) *Reflections on Violence*, London: Macmillan.
- Spanier, B. (1995) *Im/Partial Science: Gender Ideology in Molecular Biology*, Indiana, IN: Indiana University Press.
- Spector, J. (1997) *Surrealist Art and Writing 1919-1939: The Gold of Time*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Spencer, H. (1971) *Structure, Function and Evolution*, ed. Stanislaw Andrewski, London: Thomas Nelson & Sons.
- Spiegelman, A. (1987) *Maus: A Survivor's Tale*, Harmondsworth: Penguin.
- (1992) *Maus II: A Survivor's Tale: And Here My Troubles Began*, Harmondsworth: Penguin.
- Spivak, G. (1987) *In Other Worlds: Essays in Cultural Politics*, New York: Methuen.
- Spradley, J.P. (1980) *Participant Observation*, New York: Holt, Rinehart & Winston.
- Sprigge, T.L.S. (1984) *Theories of Existence*, Harmondsworth: Penguin.
- Squires, J. (ed.) (1993) *Principled Positions: Postmodernism and the Rediscovery of Value*, London: Lawrence & Wishart.
- Stacey, J. (1994) *Star Gazing: Hollywood, Cinema and Female Spectatorship*, London: Routledge.
- Stanley, L. and Roland, F. (1988) *Doing Feminist Ethnography in Rochdale*, Manchester: Manchester University Press.
- Stanton, E.C. (1990) *The Woman's Bible*, Seattle, WA: Coalition on Women and Religion.
- Stanworth, M.D. (1983) *Gender and Schooling: A Study of Sexual Divisions in the Classroom*, London: Hutchinson Education.
- Starr, P. (1982) *The Social Transformation of American Medicine*, New York: Basic Books.
- Stearns, M.W. (1956) *The Story of Jazz*, London: Oxford University Press.
- Sterba, J. (ed.) (2003) *Terrorism and International Justice*, Oxford: Oxford University Press.
- Sternhell, Z., Sznajder, M. and Asheri, M. (1994) *The Birth of Fascist Ideology: From Cultural Rebellion to Political Revolution*, tr. David Maisel, Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Stevens, A. (1994) *Jung*, Oxford: Oxford University Press.
- Stevenson, N. (1995) *Understanding Media Cultures: Social Theory and Mass Communication*, London: Sage.
- Storey, J. (1996) *Cultural Studies and the Study of Popular Culture: Theories and Methods*, Edinburgh: Edinburgh University Press.
- (ed.) (1997) *Cultural Theory and Popular Culture: A Reader*, London: Routledge.
- Strathern, M. (ed.) (1995) *Shifting Contexts: Transformations in Anthropological Knowledge*, London: Routledge.
- Strauss, L. (1965) (1949) *Natural Right and History*, Chicago, IL: University of Chicago Press.
- Strawson, P. (1959) *Individuals: An Essay in Descriptive Metaphysics*, London: Methuen.
- Strawson, P.F. (1966) *The Bounds of Sense: An Essay on Kant's Critique of Pure Reason*, London: Methuen.

- Strianti, D. (1995) *An Introduction to Theories of Popular Culture*, London: Routledge.
- Stroud, B. (1984) *The Significance of Philosophical Scepticism*, Oxford: Clarendon Press.
- Sturrock, J. (ed.) (1979) *Structuralism and Since: From Lévi-Strauss to Derrida*, Oxford: Oxford University Press.
- Suits, B. (1978) *The Grasshopper: Games, Life and Utopia*, Edinburgh: Scottish Academic Press.
- Sweezy, P.M. et al. (1978) *The Transition from Feudalism to Capitalism*, London, Verso.
- Swift, J. (1996) (1729) 'A Modest Proposal for Preventing the Children of Ireland from being a Burden to their Parents or Country', in *A Modest Proposal and other Satires*, New York: Dover.
- Swiss, T., Sloop, J.M. and Harmon, A. (eds) (1997) *Mapping the Beat*, Malden, MA: Blackwell.
- Sztompka, P. (ed.) (1993) *Agency and Structure: Reorienting Social Theory*, Reading: Gordon and Breach.
- Tarski, A. (1949) (1944) 'The Semantic Conception of Truth and the Foundations of Semantics', in H. Feigl and W. Sellars (eds), *Readings in Philosophical Analysis*, New York: Appleton-Century-Crofts.
- Taylor, A.J.P. (1967) *Germany's First Bid for Colonies, 1884-1885: A Move in Bismarck's European Policy*, Hamden, CO: Archon.
- Taylor, C. (1975) *Hegel*, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1990) *Sources of the Self*, Cambridge: Cambridge University Press.
- (1997) *Philosophical Arguments*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Taylor, F.W. (1964) (1947) *Scientific Management*, New York: Harper.
- Taylor, T.D. (1997) *Global Pop: World Music, World Markets*, New York: Routledge.
- Taylor-Gooby, P. and Zinn, J.O. (2006) 'Current Directions in Risk Research: New Developments in Psychology and Sociology', *Risk Analysis*, 26(2): 397-411.
- Thayer, H.S. (1982) *Meaning and Action: a Critical History of Pragmatism*, Indianapolis, IN: Hackett.
- Thomas, H. (ed.) (1993) *Dance, Gender and Culture*, Basingstoke: Macmillan.
- Thomson, B.C. (1982) *Making Sense of Reification: Alfred Schutz and Constructionist Theory*, London: Macmillan.
- Thompson, E.P. (1963) *The Making of the English Working Class*, London: Gollancz.
- Thomson, P. and Sacks, G. (eds) (1993) *The Cambridge Companion to Brecht*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Tiles, M. (1984) *Bachelard: Science and Objectivity*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Tivey, L. (ed.) (1981) *The Nation-State: The Formation of Modern Politics*, Oxford: Martin Robertson.
- Tomlinson, G. (1984) 'The Web of Culture: A Context for Musicology', *Nineteenth Century Music*, 7:350-62.
- Touraine, A. (1971) (1968) *The Post-Industrial Society*, New York: Random House.

- Townsend, P. (ed.) (1982) *Inequalities in Health: the Black Report*, Harmondsworth: Penguin.
- Treichler, P. (eds) (1992) *Cultural Studies*, London: Routledge.
- Treider, L. (1989) *Music and the Historical Imagination*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Turkle, S. (1996) *Life on the Screen: Identity in the Age of the Internet*, London: Weiderfeld & Nicolson.
- (2005) *The Second Self: Computers and the Human Spirit*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Turner, B.S. (1981) *For Weber: Essays on the Sociology of Fate*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1984) *The Body and Society: Explorations in Social Theory*, Oxford: Blackwell.
- (1986) *Citizenship and Capitalism: The Debate Over Reformism*, London: Allen & Unwin.
- (1988) *Status*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.
- Turner, B.S. and Hamilton, P. (eds) (1994) *Citizenship: Critical Concepts*, London: Routledge.
- Turner, G. (1996) *British Cultural Studies*, second edn, London: Routledge.
- Turner, R. (ed.) (1974) *Ethnomethodology*, Harmondsworth: Penguin.
- Turner, T. (2005) *Garden History: Philosophy and Design 2000 BC – 2000 AD*, London: Spon.
- Turney, J. (1998) *Frankenstein's Footsteps. Science, Genetics and Popular Culture*, New Haven, CT and London: Yale University Press.
- Uglov, J. (2004) *A Little History of British Gardening*, London: Chatto and Windus.
- Urry, J. (2002) *The Tourist Gaze: Leisure and Travel in Contemporary Societies*, London: Sage.
- Van Inwagen, P. (1993) *Metaphysics*, Oxford: Oxford University Press.
- Van Pelt, R.J. and Dwork, D. (1996) *Auschwitz: 1210 to the Present*, London and New Haven, CT: Yale University Press.
- Vatimo, G. (1988) *The End of Modernity: Nihilism and Hermeneutics in Post-modern Culture*, tr. Jon R. Snyder, Cambridge: Polity Press.
- Vaughan Williams, R. (1963) *National Music and Other Essays*, Oxford: Oxford University Press.
- Veblen, T. (1953) (1899) *The Theory of the Leisure Class*, New York: Mentor Books.
- Veezer, H.A. (ed.) (1989) *The New Historicism*, London and New York: Routledge.
- Venturi, R., Scott Brown, D. and Izenour, S. (1977) *Learning from Las Vegas: The Forgotten Symbolism of Architectural Form*, Cambridge, MA: MIT Press.
- Voloshinov, V.N. (1973) *Marxism and the Philosophy of Language*, New York and London: Seminar Press.
- (1976) *Freudianism: A Marxist Critique*, New York: Academic Press.
- (1988) 'Discourse in Life and Discourse in Poetry', in A. Shukman (ed.), *Bakhtin School Papers*, Oxford: RTP.
- Waites, B., Bennett, T. and Martin, G. (eds) (1989) *Popular Culture: Past and Present*, London: Routledge in association with the Open University Press.

- Walby, S. (1986) *Patriarchy at Work*, Cambridge: Polity Press.
- (1990) *Theorising Patriarchy*, Oxford: Blackwell.
- Walsh, W.H. (1963) *Metaphysics*, London: Hutchinson.
- Walzer, M. (1983) *Spheres of Justice*, New York: Basic Books.
- (1985) *Spheres of Justice: a Defence of Pluralism and Equality*, Oxford: Basil Blackwell.
- (2004) *Arguing About War*, Yale, CT: Yale University Press.
- Watkin, D. (1977) *Morality and Architecture: The Development of a Theme in Architectural History and Theory from the Gothic Revival to the Modern Movement*, Oxford: Clarendon Press.
- (1992) *A History of Western Architecture*, London: Laurence King.
- Waugh, L. (1976) *Roman Jakobson's Science of Language*, Bloomington, IN: P. de Ridder.
- Weber, M. (1930) (1904–1905) *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, London: George Allen & Unwin.
- (1946a) *From Max Weber: Essays in Sociology*, ed. H.H. Gerth and C.W. Mills, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1946b) (1921) 'Bureaucracy', in *From Max Weber: Essays in Sociology*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1946c) (1921) 'Class, Status, Party', in *From Max Weber: Essays in Sociology*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1946d) 'India: The Brahman and the Castes', in *From Max Weber: Essays in Sociology*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1958) (1922) 'Three Types of Legitimate Rule', tr. H.H. Gerth, *Berkeley Publications in Society and Institutions*, vol. VI: 1–11.
- (1964) (1922) *The Theory of Social and Economic Organisation*, tr. A.M. Henderson and T. Parsons, New York: Free Press.
- (1978) (1921) *Economy and Society*, ed. Guenther Roth and Claus Wittich, Berkeley, Los Angeles, CA and London: University of California Press.
- (1979) (1923) *General Economic History*, New Brunswick, NJ: Transaction Books.
- (1994) (1895) 'The Freidberg Address', in *Political Writings*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Weber, R.P. (1990) *Basic Content Analysis*, second edn, Newbury Park, CA: Sage.
- Weber, S.M. (1985) 'The Intersection: Marxism and the Philosophy of Language', *Diacritics*, 15(4): 94–112.
- Weeks, J. (1989) *Sexuality*, London: Routledge.
- Weider, D.L. (1974) 'Telling the Code', in R. Turner (ed.), *Ethnomethodology*, Harmondsworth: Penguin.
- Welford, A.T. et al. (eds) (1967) *Society: Problems and Methods of Study*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Wellek, R. (1986) *A History of Modern Criticism*, 6 volumes, New Haven, CT: Yale University Press.
- West, D. (1996) *An Introduction to Continental Philosophy*, Cambridge: Polity Press.
- Whannel, G. (1992) *Fields of Vision: Television Sport and Cultural Formation*, London: Routledge.

- White, H. (1987) *The Content of the Form: Narrative Discourse and Historical Representation*, Baltimore, MD and London: Johns Hopkins University Press.
- (1987) *Tropics of Discourse*, Baltimore, Johns Hopkins University Press.
- White, S.K. (1988) *The Recent Work of Jürgen Habermas: Reason, Justice and Modernity*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Whiteley, S. (ed.) (1997) *Sexing the Groove: Popular Music and Gender*, London: Routledge.
- Whitford, F. (1984) *Bauhaus*, London: Thames & Hudson.
- Whitford, M. (1991) *Luce Irigaray: Philosophy in the Feminine*, London: Routledge.
- Wiggershaus, R. (1994) (1986) *The Frankfurt School: Its History, Theories and Political Significance*, Cambridge: Polity Press.
- Wilcox, H. (ed.) (1990) *The Body and the Text: Hélène Cixous, Reading and Teaching*, Hemel Hempstead: Harvester.
- Willett, J. (1970) *Expressionism*, London: Weidenfeld & Nicolson.
- (1984) *Brecht in Context: Comparative Approaches*, London: Methuen.
- Williams, R. (1958) *Culture and Society 1780–1950*, London: Chatto & Windus.
- (1961) *The Long Revolution*, London: Chatto & Windus.
- (1962) *Communications*, Harmondsworth: Penguin.
- (1968) *Drama from Ibsen to Brecht*, revised edn, London: Chatto & Windus.
- (1973) *The Country and the City*, London: Chatto & Windus.
- (1974) *Television: Technology and Cultural Form*, London: Fontana.
- (1976) *Keywords*, London: Fontana.
- (1977) *Marxism and Literature*, Oxford: Oxford University Press.
- (1983) *Keywords*, second edn, London: Fontana.
- (1986) *Culture*, London: Fontana.
- Willis, P. (1977) *Learning to Labour: How Working Class Kids Get Working Class Jobs*, London: Saxon House.
- (1978) *Profane Culture*, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1990) *Common Culture*, Milton Keynes: Open University Press.
- Wilmer, V. (1992) *As Serious as Your Life: The Story of the New Jazz*, London: Serpent's Tail.
- Wilson, E. (1991) *The Sphinx in the City*, London: Virago.
- Wilson, E.O. (1975) *Sociobiology: The New Synthesis*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
- (1994) *Naturalist*, London: Allen Lane.
- Wimbush, E. and Talbot, M. (1988) *Relative Freedoms: Women and Leisure*, Milton Keynes: Open University Press.
- Wimsatt, W.K. (1967) *The Verbal Icon: Studies in the Meaning of Poetry*, Lexington, KY: Kentucky University Press.
- Winch, P. (1958) *The Idea of a Social Science and Its Relation to Philosophy*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Winckelmann, J.J. (2001) *Essays on the Philosophy and History of Art*, ed. C. Bowman. Bristol: Thoemmes.
- Wirth, L. (1938) 'Urbanism as a Way of Life', *American Journal of Sociology*, 44: 1–24.

- Wittgenstein, L. (1961) (1921) *Tractatus Logico-Philosophicus*, tr. D.F. Pears and B.F. McGuinness, London: Routledge & Kegan Paul.
- (1967) (1953) *Philosophical Investigations*, tr. G.E.M. Anscombe, Oxford: Blackwell.
- (1956) *Remarks on the Foundations of Mathematics*, tr. G.E.M. Anscombe, Oxford: Blackwell.
- (1958) *Philosophical Investigations*, second edn, tr. G.E.M. Anscombe, Oxford: Blackwell.
- Wolfe, T. (1989) *From Bauhaus to Our House*, London: Cardinal.
- Wolff, J. (1981) *The Social Production of Art*, London: Macmillan.
- Wollstonecraft, M. (1992) (1792) *Vindication of the Rights of Woman*, ed. M. Brody, Harmondsworth: Penguin.
- Wood, J.C. (ed.) (1984) *Adam Smith: Critical Assessments*, London: Croom Helm.
- Woolhouse, R.S. (1988) *The Empiricists*, Oxford: Oxford University Press.
- Wright, E.O. (1985) *Classes*, London: Verso.
- Wright, W. (1975) *Six Guns and Society: A Structural Study of the Western*, Berkeley, CA: University of California Press.
- Wrong, D. (1980) (1961) 'The Oversocialised Conception of Man in Modern Sociology', in R. Bock, P. Hamilton, K. Thompson and A. Walton (eds), *An Introduction to Sociology*, London: Fontana in association with the Open University Press.
- Wu, D. (ed.) (1994) *Romanticism: An Anthology*, Oxford: Blackwell.
- Yates, F.A. (1975) *Astraea: The Imperial Theme in the Sixteenth Century*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Yinger, J.M. (1982) *Countercultures: The Promise and Peril of a World Turned Upside Down*, New York: Free Press.
- Young, I.M. (1990) *Justice and the Politics of Difference*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Young, M. (1958) *The Rise of Meritocracy*, London: Thames & Hudson.
- Young, R.E. (ed.) (1981) *Untying the Text: A Post-Structuralist Reader*, London: Routledge & Kegan Paul.
- Young-Eisendrath, P. and Dawson, T. (eds) (1997) *The Cambridge Companion to Jung*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Zizek, S. (1989) *The Sublime Object of Ideology*, London and New York: Verso.
- (1992) *Enjoy Your Symptom! Jacques Lacan in Hollywood and Out*, New York and London: Routledge.
- Zolloth, L. (2003) 'Yearning for the Long Lost Home: The Lemba and the Jewish Narrative of Genetic Return', *Developing World Bioethics*, 4(2): 127–32.
- Zuriff, G.E. (1985) *Behaviourism: A Conceptual Reconstruction*, New York: Columbia University Press.

Utopia/ nism	يوتوبيا (الفكر الخيالي) ، النزعة اليوتوبية
Utterance	لفظة - قول
	V
Value	القيمة
Value-freedom	التحرر من القيمة
Visual Studies	الدراسات البصرية
	W
Worldview	رؤية العالم
	Y
Youth Culture	ثقافة الشباب

Style	أسلوب
Subculture	ثقافة فرعية
Subject/ ivity	الذات / الذاتية
Sublime	السامي - الجليل
Superstructure (see base and Superstructure)	البناء الفوقى (انظر البناء التحتى)
Surplus-value	البناء الفوقى
Symbol	رمز
Symbolic Interactionism	التفاعلية الرمزية
Synchronic/ Diachronic	متزامن / متتابع
Syntagm	تركيب - مركب لفظى
Syntax	بناء الجملة
Systems Theory	نظرية النظم

T

Technology	التكنولوجيا
Television	التلفزيون
Terrorism	الإرهاب
Text	نص
Theology	

U

Unconscious	اللا شعور
Underclass	الطبقة الدنيا
Urbanism	الحضرية
Use-value	القيمة الاستعمالية
Utilitarianism	مذهب المنفعة

Sign	علامة
Signifier/ Signified	الدال والمدلول عليه
Simulacrum	صورة باهتة
Social Contract	العقد الاجتماعي
Social Darwinism	الداروينية الاجتماعية
Social Fact	الظاهرة الاجتماعية
Socialisation	التنشئة الاجتماعية
Socialism	الاشتراكية
Social Mobility	الحراك الاجتماعي
Social Stratification	التدرج الاجتماعي
Social Structure	البناء الاجتماعي
Society	المجتمع
Sociobiology	البيولوجيا الاجتماعية
Sociology	علم الاجتماع
Sociology of Knowledge and Culture	علم الاجتماع المعرفي والثقافي
Speech Act	فعل الكلام
Sport	الرياضة
State of Nature	الحالة الطبيعية
Statistics	الإحصاء
Status	مكانة
Stereotype	صورة نمطية، نمط ثابت
Stigma	وصمة
Structuralism	البنائية، البنيوية
Structuration	التشكل البنائي (الصباغة البنائية)

R

Race/ Racism	العرق
Rationalisation	الترشيد
Realism	الواقعية
Reason	العقل
Reference	الإشارة، الإستناد
Reflexivity	الانعكاسية
Reification	التجسيد (اعتبار المجرّد شيئاً مادياً)
Relation of Production	علاقات الإنتاج
Relative Autonomy	الاستقلال النسبي
Religion	الدين
Representation	تصور، تمثيل
Reproduction (see Cultural Reproduction)	
Rhetoric	البلاغة
Risk	المخاطرة
Rites de Passage	شعائر الانتقال أو العبور
Ritual	شعيرة
Role	دور
Romanticism	الرومانسية
Rule	قاعدة

S

Self	الذات، الأنّا
Semiotics/ Semiology	السيميوطيكا/ علم العلاقات
Sexuality	السلوك الجنسي

Participant Observation	الملاحظة بالشاركة
Patriarchy	نظام سلطة الأب
Phenomenology	الفينومينولوجيا، الفلسفة الظاهرية
Photography	التصوير
Pluralism	التعددية
Political Economy	الاقتصاد السياسي
Popular Culture	ثقافة جماهيرية، ثقافة شعبية
Popular Music	موسيقى شعبية
Positivism	الوضعية
Post-colonialism	ما بعد الكولونيالية / ما بعد الاستعمار
Post-humanism	ما بعد النزعة الإنسانية
Post-industrial society	مجتمع ما بعد الصناعة
Postmodernism	ما بعد الحداثة
Post-structuralism	ما بعد البنيوية
Power	القوة
Pragmatism	البراجماتية
Praxis	التطبيق العملي، الممارسة، العمل
Prejudice	التعصب
Production	الإنتاج
Progress	التقدم
Proletariat	البروليتاريا
Property	الملكية
Psychoanalysis	التحليل النفسي

Q

Queer Theory	نظرية الشذوذ (الإغراب - خاصة النزعة المثلية)
--------------	--

Minority	الأقلية
Mode of Production	نمط الإنتاج
Modernism	الحداثة
Myth	أسطورة، خرافة

N

Narrative	سرد
Nation-state	الدولة القومية
Nationalism	القومية
Nature	الطبيعة
Neoconservatism	(نزعة) المحافظين الجدد
New Criticism	حركة النقد الجديد
9/11	الحادي عشر من سبتمبر
Norm	المعيار

O

Objectivity	الموضوعية
Oedipus Complex	عقدة أوديب
Oligarchy	الأوليغاركية، حكم الأقلية
Ontology	الأنطولوجيا (مبحث الوجود)
Organic Solidarity	التضامن العضوي
Orientalism (see: other)	الاستشراق (انظر: الآخر)
Other	الآخر

P

Paradigm	نموذج نظري، صيغة
Parole	الكلام

L

Labelling	الرسم
Labour	العمل
Labour Theory of Value	نظرية قيمة العمل
Language	اللغة
Langue	اللغة
Legitimation	إضفاء الشرعية
Leisure	وقت الفراغ
Liberalism	الليبرالية
Libertarianism	مذهب الحرية، التحرر
Life-chances	فرص الحياة
Life-world	عالم الحياة
Literary Criticism	النقد الأدبي

M

Marxism	الماركسية
Mass Media	وسائل الاتصال الجماهيري
Meaning	المعنى
Means of Production	وسائل الإنتاج
Mechanical Solidarity	التضامن الآلي
Mediation	الوساطة، التشكيل
Meritocracy	نظام الحكم لأهل الكفاءة، نظام الجدارة
Metaphor	الاستعارة
Metaphysics	الميتافيزيقا
Metonymy	الكفاية

H

Health	الصحة
Hegemony	هيمنة
Hermeneutics	التأويل
Historicism	النزعة التاريخية
History	التاريخ
Holism	النزعة الكلية
Holocaust	المحرقة
Horticulture	فلاحة البساتين
Humanism	المذهب الإنساني

I

Ideal Type	النمط المثالي
Identity	الهوية
Ideological State Apparatus	أجهزة الدولة الإيديولوجية
Ideology	الإيديولوجيا
Indexicality	الإرشادية (نسبية المعنى)
Individual/ism	الفرد / (مذهب) الفردية
Institution	نظام، مؤسسة
Interaction	تفاعل
Intersubjectivity	الإجماع الذاتي (إجماع الذات)
Intertextuality	تحليل النص (في ضوء علاقته بنصوص أخرى)
Irony	السخرية، التهكم

J

Jazz	الجاز
------	-------

Ethnocentrism	المركزية السلافية
Ethnography	الإثنوجرافيا
Ethnomethodology	الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة)
Eugenics	علم تحسين النسل
Evolution	التطور
Exchange-value	القيمة التبادلية

F

False Consciousness	الوعي الزائف
Fascism	الفاشية
Feminism	الحركة النسوية
Feudalism	الإقطاع (النظام الإقطاعي)
Field Work	العمل الميداني
Folk Music	الموسيقى الشعبية
Forces of Production	قوى الإنتاج
Frankfurt School	مدرسة فرانكفورت
Functionalism	الوظيفية
Fundamentalism	الأصولية

G

Gender	النوع (الاجتماعي)
Genealogy	أصل (جينالوجيا) الخطاب
Genetics	علم الوراثة
Genre	النوع (الأدبي أو الفني)
Globalisation	العولمة
Grammatology	علم الكتابة
Grand Narrative	أنساق التفسير الكبرى

D

Dance	الرقص
Deconstruction	تفكيك، تحليل البنية
Determinism	الاحتمية
Deviance	الانحراف
Diachronic (see synchronic/ diachronic)	متتابع (انظر متزامن/ متتابع)
Dialectical and Historical Materialism	المادية الجدلية والتاريخية
Dialectics	الجدل
Dictatorship of the Proletariat	ديكتاتورية البروليتاريا
Difference/ Différance	الاختلاف
Discourse	الخطاب
Division of Labour	تقسيم العمل
Dramaturgical Model	النموذج المسرحي

E

Ecology	الإيكولوجيا، علم البيئة
Écriture Feminine	الكتابة النسوية
Education	التعليم/ التربية
Elite	الصفوة
Empiricism	النزعة الإمبريقية
The Enlightenment	التنوير
Episteme	الشكل المعرفي
Epistemology	نظرية المعرفة
Essentialism	الماهوية، الجوهرية
Ethnic/ Ethnicity	إثني/ إثنية

Commodity	السلعة
Commodity Fetishism	تقديس السلع (فتشية السلع)
Communication	الاتصال
Communitarianism	النزعة الجماعية الاشتراكية
Conflict Theory	نظرية الصراع
Conscience Collective	الوعى الجمعى
Consciousness	الوعى
Conservatism	النزعة المحافظة
Consumption	استهلاك
Content Analysis	تحليل المضمون
Contextualism	نزعة السياق
Continental Philosophy	الفلسفة الأوروبية
Contradiction	التناقض
Conversation Analysis	تحليل المحادثة
Counterculture	الثقافة المضادة
Critical Theory	النظرية النقدية
Cultural Anthropology	الأنثروبولوجيا الثقافية
Cultural Capital	رأس المال الثقافى
Cultural Relativism	النسبية الثقافية
Cultural Reproduction	إعادة الإنتاج الثقافى
Cultural Studies	الدراسات الثقافية
Culture	الثقافة
Culture Industry	الصناعة الثقافية، صناعة الثقافة
Cyberculture	الثقافة الإلكترونية/ ثقافة الواقع الافتراضى

B

Base and Superstructure	البناء التحتى والبناء الفوقى
Behavliourism	النزعة السلوكية
Binary Opposition	التعارض الثنائى
Birmingham Centre for Contemporary Cultural Studies	مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة
Body	الجسد
Bourgeoisie	البورجوازية
Bricolage	النسج الأسطورى
Bureaucracy	البيروقراطية

C

Canon	التراث الفنى المعتمد
Capital	رأس المال
Capitalism	الرأسمالية
Cartesianism	الديكارتية (المذهب الديكارتى)
Cinema	السينما
Citizenship	المواطنة
Civic Humanism	النزعة الإنسانية المدنية
Civil Society	المجتمع المدنى
Class	الطبقة
Class Consciousness	الوعى الطبقي
Code	الشفرة
Colonialism	الاستعمار
Comics	الأعمال (الفنية) الهزلية

المصطلحات الواردة في الموسوعة

مرتبة حسب الأبجدية الأفرنجية وأمام كل مصطلح مقابله العري

A

Absence	غياب
Action Theory	نظرية الفعل
Aesthetics	علم الجمال
Agency and Structure	الفاعل والبناء
Agriculture	الزراعة
Alienation	الاغتراب
Allegory	عمل (فنى) رمزى
Analytic Philosophy	الفلسفة التحليلية
L'Année Sociologique	حولية علم الاجتماع
Anomie	اللامعيارية
Archaeology	علم الآثار
Architecture	العمارة
Articulation	تفصل
Artworld	العالم الفنى
Author	المؤلف
Authority	السلطة
Avant-garde	الطلبة، فنانون الطلبة

الترجمة فى سطور:

أ.د. هناء الجوهري

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآدب، جامعة القاهرة والخبرة الدولية فى التنمية الاجتماعية. اهتمت منذ بداية عملها الأكاديمى بدراسة أشكال الحياة والعمل الجديدة، فدرست ظاهرة الأعمال الإضافية غير الرسمية بين موظفى الحكومة والقطاع العام (١٩٨٩) و"أثر المتغيرات الاجتماعية والثقافية فى تشكيل نوعية الحياة فى المجتمع المصرى (١٩٩٤)". كما اهتمت بحياة ومشكلات سكان العشوائيات فى مدينة القاهرة، وحياة فقراء المدينة، وظواهر الحرمان الاجتماعى ... إلخ، ورافق ذلك كله اهتمام متصل بدراسة الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمشكلات البيئية، وأخرجت كتاباً عن "التنمية الحضرية" (٢٠٠٦) وكتاباً عن "ثقافة التحايل. دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى" (٢٠٠٤) ويحوى تقرير البحث الذى أجرته فى إطار مشروع "التراث والتغير" الكبير الذى نفذه مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بجامعة القاهرة . هذا فضلاً عن دراسات عن الشباب والإنترنت" (٢٠٠٠)، و"مجتمع الماكدونالدز" (٢٠٠٥) وغيرها كثير مما لا يتسع المجال لحصره هنا.

المراجع فى سطور:

أ.د. محمد الجوهري

* أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة.

* عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة ورئيس جامعة حلوان الأسبق .

* أشرف وشارك فى عدد كبير من البحوث والندوات العلمية والمؤتمرات الدولية والعربية فى ميادين : علم الاجتماع ودراسات التراث الشعبى ، والتنمية الاجتماعية، والدراسات الثقافية .

* مثل مصر، على امتداد ١٤ عاماً، فى المؤتمر العام لليونسكو بباريس .

* رأس «المجلس الدولى لدراسة التحولات الاجتماعية» التابع لليونسكو
١٩٩٥ - ١٩٩٧ .

* ألف ونشر ١١٤ بحثاً ودراسة .

* ترجم وشارك فى ترجمة ٢٢ عملاً .

* أشرف على ٥٢ رسالة دكتوراه، و٤٨ رسالة ماجستير .

الإشراف اللغوى: عزة شبيب

الإشراف الفنى: حسن كامل